تاريخ
مسلمي صقلية

كتبه: **ميكيلي أماري**

إعداد

د. محب سعد إبراهيم

المجلد الثالث

الجزء الأول

(الكتاب الخامس)

فلورنسا

لى مونييه

٢٠٠٢



المجلد الثالث

الكتاب الخامس

ترجمة	مراجعة
أ. د. محب سعد إبراهيم	أ. د. سوزان بديع إسكندر
أ. د. عماد حسن البغدادى	أ. د. محب سعد إبراهيم
أ. د. سهيمة سليم صالح	
د. عبد المحسن عبد الباسط	

الكتاب السادس

ترجمة	مراجعة
أ. د. سوزان بديع إسكندر	أ. د. سوزان بديع إسكندر
أ. د. محب سعد إبراهيم	أ. د. محب سعد إبراهيم
أ. د. عماد حسن البغدادى	
أ. د. سمير مرقص موسى	
أ. د. ربيع محمد سلامة	
د. نرمين وجيه حكيم	



كتابة وتنسيق كمبيوتر . مطبعة سعيد عزيز . القاهرة
Email: saidrof@hotmail.com

تنبيه

ينبغى على وأنا أشرف على إصدار هذا المجلد الثالث بعد عشر سنوات من نشر المجلد الثـانى، ومع هذا أقدمه غير كامل، ينبغى على ان أبرئ نفسى من هذا التأخير الذى قد يبدو لا مبرر له على الرغم أنه من المعروف أنى قد جمعت المادة العلمية منذ وقت طويل أثناء إقامتى فى باريس ووضعت الصـورة المبدئية للكتاب من بدايته إلى نهايته. إن المجلد الأول صـدر سنة ١٨٥٤ وصدر بعده المجلد الثانى سنة ١٨٥٨، وفى السـنة نفسها تم جمع ٥٤ صفحة من المجـلد الثالث فى المطبعـة. ولكنى عندما عدت إلى إيطاليا بسبب الأحداث الكبرى التى وقعت بها سنة ١٨٥٩، لم أعكف على العمـل فى مكتبى. فقد شغلتنى بعض المناصب العامة، وكتب أخرى عن تاريخ مسلمى صقلية، الذى استطعت أن أرجع إليه سنة ١٨٦٢ لبعض الوقت وسنة ١٨٦٥ وحتى الآن لكتابة ما بقى من الكتاب الخامس، والذى ينتهى باستقرار الحكم النورماندى ويشكل الجزء الأول من هذا المجلد الثالث. أما الجزء الثانى، أى الكتاب السادس، فسيتناول أعمال المسلمين الذين أخذ وجودهم يتضاءل شيئاً فشيئاً فى الجزيرة. ولدى من الأسباب ما يجعلنى آمل أن يكتمل هذا الجزء الأخير من المجلد ومن العمـل كله فى وقت قريب، حتى أستطيع خلال العـام القـادم أن أبدأ فى ترجمة النصوص العربية، التى قمت بطباعتها فى ليبزج سنة ١٨٥٧؛ والتى تمثل المصدر الرئيس لهذا التاريخ.

ولا ينفى النية الصادقة أننى، بعد غيبة استمرت عشر سنوات، لا أريد ان أنتظر عشرة شهور أخرى لاستكمال هذا المجلد. ولقد طلبت من الناشر أن ينشر الجزء الأول دون إبطاء، لأن الكتب تتقادم اليوم سريعاً، وبخاصة أنه قد ظهرت فى إيطاليا ووراء جبالها أعمال حول فترات تاريخية تتلامس من ناحية أو من ناحية أخرى مع ما

أخذت فى دراسته، وأعلم أن هناك أعمالاً أخرى قيد الإعداد. ومن المنطقى ألا يبقى جهدى، أيما كان حاله، دون أن يعود بالفائدة على الآخرين: وأن يجنى كل فرد ثمار أفكاره وأبحاثه.

وعلى الرغم من مرور وقت طويل بين طباعة الفصول الأولى ونشرها، إلا إننى لا أجد نفسى مضطراً إلا لإضافة أو تعديل بعض الألفاظ فى النص أو فى الهوامش، فى ص ٢٥ و٣٦ و٥٥ و٩٠، كما سيظهر فى صفحة تصويب الأخطاء بنهاية المجلد. وقد قمت بتصويب أجزاء قليلة جداً بأن أعدت كتابة الصفحات ٤ و٥ و٩ بعد نشر مقتطفات من الفصل الأول ومن الفصل السادس فى المختارات الجديدة *Nuova Antologia* فى مايو ١٨٦٦.

فلورنسا، أبريل ١٨٦٨

م. أمارى

الكتاب الخامس

الفصل الأول

مع الأسباب التى كانت تنخر فى الدولة الإسلامية فى صقلية من الداخل عملت أسباب خارجية أخرى فى الوقت نفسه على سقوطها.

فبالإضافة إلى رد الفعل العام لدى المسيحيين فى الغرب ضد الطوائف الإسلامية. اشتعلت مع بداية القرن الحادى عشر جذوة الحرية لدى شعب الجزيرة وشعوب ما وراء جبال الألب التى اختلطت قبل قرون فوق أراضينا وامتزجت لتكون الشعب الإيطالى الجديد. وهذه الحركة أخذت، كما يحدث دائماً، شكلاً مختلفاً حسب العوائق المحلية: فقامت بأعمال هجوم ثارى من الخارج حينا، وتطلعت إلى التحرر من الحكم الأجنبى حينا؛ وأدت إلى أعمال ونظم وفى النهاية إلى أشكال ديمقراطية فى حين آخر؛ وكثيراً ما شاركت فى هذا وذاك، وكانت العداوة المتبادلة شديدة بين المواطنين. ولكن موضوعنا يبتعد الآن عن الحروب الأهلية ويقودنا إلى مجموعتين من الأحداث التى مهدت لفتح صقلية: أى حرب بيزا وجنوة ضد المسلمين، وطرد البيزنطيين من جنوب إيطاليا.

منذ منتصف القرن العاشر يظهر اهالى بيزا فى التاريخ احراراً فى البحر ورعية خاضعة فى البر: وكان الحكم فى البر باسم ماركيز توسكانا والامبراطور الجرمانى، الذى كان عاهلاً إقطاعياً. أما فى البحر فكانت التجارة، وكانت بالضرورة تتم فى حماية السلاح وسط المسلمين الذين كانوا يمخرون عباب البحر المتوسط من كل ناحية، كانت التجارة قد حملت المواطنين إلى الاستقلال، ولم تكن بمنأى عن

الشك، ولكنها كانت محل رضا سادة الوطن الذين لم تكن لديهم قوات بحرية فكانوا يقبلون هذه القوات بكل رضا وطيب خاطر. وقد اتحد بكل تأكيد أصحاب السفن معاً، ومن المؤكد أنهم تشاوروا وقرروا القيام بالعمليات البحرية، وجهزوا لها الوسائل بالطريقة نفسها التى اتبعوها عندما كان هدفهم الرئيس هو التجارة؛ وقسموا بينهم الغنيمة كما كانوا يتقاسمون المكاسب، وادت الشركة، أياً كان اسمها وشكلها فى تلك الأزمان الأولى، إلى قيام حكومة الجمهورية. كان أبناء بيزا قد حاربوا حرب سنة تسعمائة وسبعين ضد مسلمى صقلية(1) وربما حروباً اقل شأناً ضد مسلمى أفريقية واسبانيا. وكانوا قد كابدوا أحداث سنة الف وأربع عندما قامت سفن المسلمين بنهب أحد أحياء المدينة(2) ولكى يثاروا لما حدث ولتأمين تجارتهم، قام أهل بيزا بإنزال سفنهم إلى البحر التى هزمت الصقليين فى ريجو.

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل السادس، ص ٢١٥ من المجلد الثانى.

(2) *Chronicon Pisanum* فى كتاب موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد السادس، ص ١٠١ وكذلك *Breviarium pisanæ historiæ*، ص ١٦٧: ومرنجونى، فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٤ وكلها فى وقائع سنة ١٠٠٥ حسب تقويم بيزا. ويضيف *Breviarium* الذى تم تصنيفه فى نهاية القرن الثالث عشر أن السراسنة كانوا قد هددوا روما. وهو أمر بعيد الاحتمال ومختلق كما أعتقد بهدف إبراز افضال أهل بيزا للمجلس البابوى ومطالبته بمنحهم جزيرة سردينيا. وشيئاً فشيئاً خلط مصنفو بيزا الرواية فوضعوا هذا الهجوم فى سنة معركة ريجو نفسها. وفى غيبة الأسطول: ثم انتعش المشهد بمجاهد (موزيتو) وبالبطلة كنزيكا وبتحريض البابا وبخطب قناصلة بيزا والتى افترضوا لها تواريخ وأسماء والقاباً إلخ. انظر هذه القصص فى كتاب ساردو. *Cronoca Pisana*: وفى كتاب رونشونى، *Storie Pisane* فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٧٦، والجزء الأول، ص ٤٩ وص ٥١ وارجع إلى موراتورى، *Annali d'Italia*، ١٠٠٥، الذى يرفض كل هذه الأحداث بنقده الصحيح. أما فيما يتعلق بأصل اسم كنزيكا العربى، الذى طرحه موراتورى فإنى أتفق مع ونريش الذى يبدى تشككه فيه فى، *Rerum ab Arabibus ec.*، الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، § ١١٥. وعلى كل حال فإن هذه المادة لا علاقة لها مع حدث سنة ١٠٠٤، لأن خرائط بيزا قبل سنة ألف تشير إلى حى بهذا الاسم. انظر ملاحظة ناشرى رونشونى العلماء، المرجع المذكور، ص ٦٣، الهامش رقم ١.

وهى العملية التى أعطى لها، للأسف الشديد وعلى غير الحقيقة، شكل الحرب الدينية فقد كتب البعض أن الراهب الفرنسى العلامة جريرتو قد نادى، بعد اعتلائه العرش البابوى باسم سيلفسترو الثانى، بالحرب الصليبية لتحرير القدس، وأن أهل بيزا عند هذا النداء قد أسرعوا إلى سفنهم وقطعوا من صادفهم من المسلمين إرباً(1). والحقيقة هى أن القوة التى ظهرت آنذاك فى البحر التيرانى كان لابد أن تشتبك مع المسلمين، كما فعلت الشعوب القديمة التى أطلق اسمها على هذا البحر مع الفينيقيين، الذين سبقوا المسلمين فى صقلية وأفريقية وسردينيا وجزر البليار وأسبانيا. وخرجت من موانى أسبانيا السفن التى عاودت فى سنة ألف وإحدى عشرة الهجوم على بيزا وتخريبها(2)؛ وربما خرجت من الموانى نفسها، وبالقوات نفسها بعد بضع سنوات واحتلت سردينيا واجتاحت لونى وخضعت لقوات بيزا وجنوة المتحدة.

---

(1) تحدثنا عما هو معلوم عن معركة ريجو فى الكتاب الرابع، الفصل السابع، ص ٣٤٨ من المجلد الثانى. وقد نشر البندكتيون من طائفة سان مور من بين رسائل جريرتو(*Recueil des Historiens des gaules*، المجلد العاشر، ص ٤٢٦، رقم ١٠٧) رسالة بتاريخ سنة ٩٩٩، موجهة إلى شخص لا نعرفه وهى رسالة غامضة جداً وفيها يشكو البابا من تدنيس القدس ويدعو المسيحى المجهول قائلاً:

"Enitere ergo, miles Christi, esto signifer et compugnator, et quod armis nequis, consilii et opum auxilio subveni;". ونجد حقيقة فى هذه الكلمات فكرة غير ناضجة عن حرب صليبية وطلب تبرعات للعملية المقدسة. ويضيف الناشرون العلماء فى الهامش أن أهالى بيزا نزلوا فوراً إلى البحر ومضوا للقتال. وفى هذا المضمار يتم الاستشهاد بموراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد الثالث، ٤٠٠؛ ولكن لا يوجد فى نهاية المطاف مصدر آخر إلا تقريظ ومدح وحديث مفرط، واقصد به ملاحظات قسطنطين جيتانو الطويلة عن حياة البابوات لباندولفو بيزانو، المنشورة فى روما سنة ١٦٣٨ والتى أعاد موراتورى طباعتها فى المجلد المذكور. نعود إذن إلى ترونشى وإلى ما هو أسوا منه، وتنقطع الصلة بين رسالة جريرتو التى ترجع إلى سنة ٩٩٩ ومعركة ريجو التى وقعت سنة ١٠٠٥ وتنقشع الحرب الصليبية، ويبقى لأهالى بيزا اهتمامهم وحرصهم الحضارى وشجاعتهم فى الحرب البحرية.

(2) *Chronicon Pisanum*؛ ومرانجونى، المواضع المذكورة، سنة ١٠١٢.

وفى أسبانيا بينما كان ثلاثة من المغتصبين يتنازعون الخلافة وكان الحكام يستولون على الأقاليم كان يحكم دانيه حاكم اسمه أبو الجيش(1) مجاهد بن عبد الله، وهو من أصل مسيحى(2)، عتيق آل المنصور ذائع الصيت، ثم أطلقت عليه كنية أميرى(3): وهو رجل مفوار ومقدام درس الآداب والعلوم القرآنية فى قرطبة وكان راعياً للعلماء والدارسين(4). وقد لجأ إليه من قرطبة مع مجموعة كبيرة من المناضلين أبو عبد الله مؤيتى، وهو فقيه لامع لمعارفه وعراقة أصله الذى يرجع إلى سلالة ملازمة للأمويين. ولم يكن مجاهد يجرؤ على مجرد التطلع إلى الإمارة ولكنه أراد أن يؤسس دويلة من صنع يديه؛ فاقســم له المؤيتى وقدم له أمــارات الطــاعة التى تقدم للخـليفة فى جمادى الثانى من سنة أربعمائة وخمس (ديسمبر ١٠١٤)؛ وبعد خمســة شهور تم تجهيز أســطول مضى به مع مـؤيتى لاحتلال جزر

---

(1) فى مخطوطات ابن الأثير نقرأ أبا حسين، وهو خطأ من السهل أن يحدث فى النسخ بسبب تبديل الحروف والنقاط. وأبو الجيش كنية تعنى انه كان جندياً.

(2) رومى. هذا ما يطلقه عليه المراكشى، *The history of the Almohades*، النص العربى، ص ٥٢ . ويمكن أن يعنى عبداً يونانياً أو إيطالياً. وفى أسبانيا يعنى رجلاً من الأجناس الخاضعة للمسلمين.

(3) المنصور يدعى ابن ابى امير .

(4) الضبى، مخطوطة الجمعية الأسيوية بباريس؛ وابن بسام، مخطوطة مكتبة جوته، انظر فى كليهما مادة مجاهد . وأنا مدين بهذه المستلات لكرم الأستاذ دوزى بليدن والدكتور ويل بهيدلبرج. يقول ابن الأثير إن مجاهداً وابنه علياً، الذى خلفه، كان كل منهما «رجل علم، وصديقاً وكريماً مع العلماء الذين كان يبحث عنهم فى البلاد القريبة والبعيدة». ويمدح المراكشى الابن فقط بهذه الصــفات. والصــوت الذى يســتخدمانه هو (علم) وهو صـــوت يعنى العـلوم عـامة ولكنة يعنى هـنا على وجه الخـصوص الشـريعة بكل فـروعها الواسـعة. وقد قـمت بترجمة مـادة ذبى إلى الإيطالية فى *Nuova Antologia*، فلورنسا، مايو ١٨٦٦، المجلد الثانى، ص ٦١ . انظر أيضاً ابن خلدون، *Prolegomeni*، النص العربى، الجزء الثانى فى *Notices et Extraits*، المجلد الثامن عشر، ص ٣٨٩، والمقرى، *Analectes de l'Histoire de l'Espagne*، النص العربى المطبوع فى ليدن، المجلد الأول، ص ٢٨٠، ٥٢٣، ٥٢٤ والمجلد الثانى ص ١١٧، ١٢٩، ٤١٥، ٤٣٢، ٥١١، ٥٢٦ حيث يروى بعض القصص عن كرم مجاهد مع فقهاء اللغة اللامعين.

البليار. وبعد ذلك بقليل تم طرد الأمير المزيف إلى دانيه فقام مجاهد ومعه ألف فارس ومائة وعشرون سفينة بين كبيرة وصغيرة، قام بتوجيه الدفة نحو جزيرة سردينيا(1).

لقد أوضح المؤلفون العرب أخيراً خطأ القصة الحديثة التى تتحدث عن حكم المسلمين فى سردينيا ويؤكدون مذكراتنا القديمة التى نتبين منها أن الجزيرة قد عانت من أعمال الاغتنام والتخريب ولكنها لم تحتل قبل مملكة مجاهد التى استمرت فترة قصيرة جداً. والحقيقة، بل من المؤكد، أن أهل سردينيا، بعد أن تركتهم الامبراطورية البيزنطية، وتركهم اللونجوبارد والامبراطورية الغربية، قد حكموا أنفسهم بدءاً من القرن الثامن عن طريق قضاتهم أو ملوكهم، فقد كان هذان اللقبان يطلقان على حكامهم. وأهل سردينيا معتدّون بأنفسهم وقد كفل الأمانَ لهم الفقرُ، وجسارتهم وطبيعة أرضهم القاسية البدائية، فتجنبوا غزو المسلمين؛ الذين بعد أن فرضوا عليهم إتاوة من الذهب والفضة (٧١٠، ٧٥٢، ٨١٣، ٨١٦، ٨١٧، ٩٣٥)، أصابهم الهلع من غرق السفن المتكرر، ومن مقاومة أهل الجزيرة أثناء إغاراتهم الصغيرة، فتركوهم ينعمون بالهدوء

---

(1) ابن الأثير، طبعة تورنبرج، المجلد التاسع، ص ٢٠٥، السنة ٤٠٧، فى إشارته للدويلات التى قامت فى أسبانيا. وقد قدمت الترجمة الإيطالية لها فى *Nuova Antologia*، فلورنسا، المجلد الثانى، ص ٦٠، مايو ١٨٦٦. كما نجد جزءاً من النص فى كتابى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧١. وهذا الفصل منقول مع بعض التعديلات من النويرى، المخطوطة، *A. F.*، ٦٤٧، الورقة ١٠٨، الوجه الأول: وهو يطلق لقب مؤيتى على أبى محمد عبد الله. أما عن بدايات دويلة مجاهد فى دانيه، فإنى أتبع الرواية الحقيقية لكاتب الحوليات المسلم أكثر مما أتبع كوندى. *Dominacion de los Arabes en España*. الفصل ١٠٩، الذى استكمل اسم مجاهد ودعاه مجاهد الدين: ولكن هذا لا يتفق مع عادات أسبانيا فى ذلك الوقت. أما المراكشى فيقول مجاهد فقط ويذكر لمحات قليلة عنه. ويطلق على ابنه على، الذى خلفه على إمارة دانيه ومايوركا، لقب **الموفق** الذى يطلقه ابن الأثير، وذبى والنويرى وكوندى على مجاهد نفسه، والذى لعله اتخذه عندما بقى سيداً منفرداً، بعد موت مؤيتى.

والمسكينة(1): إذ عدوهم رجـــالاً يصعب مراسهم، معتادين على أن يكون سلاحهم بجانبهم على الدوام(2)، وقد نالوا منهم ضربات تفوق الغنائم التى حصلوا عليها.

وتروى لنا الحوليات الإسلامية أنه بعد المذبحة التى قام بها فى سردينيا عبد الرحمن بن حبيب (٧٥٢) خضع السكان للجزية، فلم يكدر صفوهم أحد زمناً طويلاً، بل إن الروم أصلحوا شئون الجزيرة(3). وتبدو لى رواية حملة مسلمى أسبانيا على كلياري سنة ألف وواحد والتى نقرؤها فى موجز تاريخ بيزا بعد هذا التاريخ

---

(1) انظر الكتاب الأول، الفصل السابع والفصل العاشر، فى المجلد الأول، ص ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٩٨، والكتاب الثالث، الفصل الثامن، المجلد الثانى، ص ١٨٧. ونأخذ أخبار غارتى سنة ٨١٦، وسنة ٨١٧ من ابن الأثير، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٢١ و٢٢٨ من النص العربى. وقد تحركت القوات فيهما من إفريقية. وفى الغارة الأولى، وبعد الحصول على الغنائم، فُقد كثير من المسلمين فى حادثة بحرية. أما الذين ذهبوا فى الغارة الثانية فقد «انتصروا حينا وهزموا حينا. وعادوا من الجزيرة».

(2) هذا ما نقرؤه فى الإدريسى، وهو مؤلف من القـــرن الثـــالث عشر، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص العــربى، ص ٢٠ و٢١، وفى كتـــاب دى جريجـــوريو *Rerum Arabic.*، ص ١١٢. والنص الخـــاص بأهـــل ســـردينيا، وهـــو مبتور فى *Geographia Nubiensis*. والذى اعتمد عليه دى جريجوريو يقول: «إن سكان سردينيا من أصل رومى ـ أفريقى، متبربرون، وهم أعداء كل فرع آخر من فروع جنس الروم: وهم رجال شجعان ذوو بأس وعزم لا يتركون سلاحهم أبداً». واسم الروم، الذى يعرفه قراؤنا، يقصد به هنا الإيطاليون. أما الأفريقى فهم الشعوب المسيحية الأفريقية من أصل فينيقى، كما ذكرنا فى الكتاب الأول، الفصل الخامس، المجلد الأول، ص ١٨١. وصفة المتبربرين هنا لا يمكن أن يكون المقصود بها إلا المختلطين بالبربر، ويذكرنا بالمتبربرين المعروفين فى عصر القديس غريغوريوس فى سردينيا.

(3) ابن الأثير، وقائع سنة ٩٢ (٧١٠ ـ ٧١١)، يجمع تاريخ كل غارات المسلمين على سردينيا، فى فصل واحد نشرت نصه فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. ونقرأ فى ص ٢١٧ أنه «فى سنة ١٣٥ (٧٥٢ ـ ٧٥٣) هاجم الجزيرة عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة الفهرى، وأجرى فيها مذبحة كبيرة. لكنه وقّع سلاماً مع سكانها بعد هذا شريطة أن يدفعوا الجزية: فتقاضاها واستمرت بعد ذلك. ولم يهاجم أحد بعد عبد الرحمن الجزيرة: وهكذا أصلح الروم شئونها». وبعد أن يشير إلى غارة سنة ٩٣٥ وإلى عملية مجاهد سنة ١٠١٦ يقول فى النهاية: «ولم تقع بعد ذلك حرب على سردينيا (من جانب المسلمين)». وفى هذا ينسى ابن الأثير معركتى سنة ٨١٦ و٨١٧ اللتين يروى وقائعهما فى موضع آخر، كما ذكرنا. والإشارة إلى قضاة سردينيا فى سنة ٨٦٥ (انظر موراتورى

بثلاثة قرون، تبدو لى خطأ تاريخياً(1).

وبعد أن نزل مجاهد فى سردينيا، كسر أهل الجزيرة وأوقع بهم مذبحة كبيرة، فى ربيع الأول سنة أربعمائة وست (١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر ١٠١٥)؛ وقتل مالوتو قائدهم وأسر عدداً كبيراً منهم ومن النساء والأطفال(2). وقد ظهر الأسطول، على ما يبدو، قبل ذلك أو بعد ذلك على الساحل فيما بين جنوة وبيزا، ورسا عند لونى ولعله انتهبها ثم انسحب منها؛ ولكن هذا كان كافياً لإثارة أهل بيزا الأقوياء فى البحر، وأهل جنوة، الذين كانوا ينمون تجارتهم، فكان لزاماً عليهم العمل على مطاردة العدو القريب. ويبدو أن الجمهوريتين قد انضمتا معاً فى هيئة جماعات من التجار مهتمة بالخضوع لأوامر البابا والامبراطور؛ وكان البابا هو بندتّو الثامن، وهو النصير المفضل لدى اريجو الثانى، وكان يرغب فى التدخل فى الأمور الزمنية، ويبدو أنه ادعى لنفسه سلطة إعلان الحرب، والتفاوض مع مجاهد. وبالإضافة إلى هذا كانت أهمية العملية تتركز كلها فى قوات وإرادة أهل بيزا وأهل جنوة: الذين ذهبوا لملاقاة أسطول المسلمين فى

Dissertat. Antiq. Ital. medii aevi، ٢. ص ١٠٧٧، المبحث الثانى والثلاثين) يتوافق، كما قلنا، مع شهادة ابن الأثير. انظر أيضاً مانو. *Storia di Sardegna*. الكتاب الثالث، ص ٣٣٢ وما بعدها، طبعة كبولاجو ١٨٤٠. المجلد الأول، وونريش، *Rerum ab Arabibus etc.*. الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، § ١١٢ و١١٣. ولو أن هذين المصنفين قرءا فصل ابن الأثير المذكور، لما وقع لديهما أى شك.

(1) *Breviarium, ec.*. فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد السادس، ص ١٦٧، سنة ١٠٠٢ بتقويم بيزا. ولا يشير مرانجونى أو آية مدونة تاريخية أخرى إلى هذا، والتاريخ لا يتفق مع رواية المؤلفين العرب الدقيقة.

(2) قارن بين: ابن الأثير فى الفصلين المذكورين عن وقائع عام ٩٢ ووقائع عام ٤٠٧، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية** ص ٢١٨ وص ٢٧١؛ وابن خلدون، **المقدمة**، النص العربى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٦١. وفى *Notices et Extraits des MSS*، الجزء الأول، ص ٣٦؛ والمقرى *Mohammedan Dynasties in Spain*، ترجمة الأستاذ جيانجوس الانجليزية، المجلد الثانى، ص ٢٥٨؛ وكوندى، الموضع المذكور.

سردينيا، فأحرزوا أول انتصار فى عام ألف وخمسة عشر نفسه(1).

---

(1) قارن بين: ديتمار، *Chronicon*، الكتاب السابع، الفصل ٣١، فى برتز: *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٨٥؛ ومرانجونى، فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٤ : و*Chronicon Pisanum* و *Breviarium*، لدى موراتورى، *R.I.S*، المجلد السادس، ص ١٠٧ و١٦٧ تحت سنة ١٠١٦ بتقويم بيزا، وشعر لورنسو فيزى، لدى موراتورى، فى المجلد نفسه، ص ١٢٤. حيث يشير إلى أن موجيتو فى السنة السابقة على الهزيمة النهائية (أى سنة ١٠١٦ حسب التقويم العام) قد انطلق هارباً عندما رأى قدوم أسطول بيزا. وتذكر أخبار بيزا بإيجاز أن قوات بيزا وجنوة عندما قامت بحربها فى سردينيا مع موجيتو هزمته. وكتب ديتمار أسقف مرسبورج، المتوفى عام ١٠١٨، فى نهاية أخباره فى موضع يتفق مع سنة ١٠١٦، أنه عندما أتى السراسنة بأسطولهم فى لونجوبارديا احتلوا "*Lunam civitatem*" : وطردوا منها الأسقف واستولوا على بيوت رجال المدينة وزوجاتهم؛ وكيف أن البابا بندتّو دعا مساندى الكنيسة والمدافعين عنها إلى حمل السلاح؛ وكيف طوق الأسطول الضخم الذى جمعه السراسنة داخل الميناء وضغط عليهم، وعندئذ هرب الملك فى أحد القوارب، وكانت الغلبة لرجاله الذين كان المسيحيون يهاجمونهم لمدة ثلاثة أيام؛ ثم انكسروا وعملت فى رقابهم السيوف، وتم أسر الملكة وقطع رأسها، وأراد البابا أن يحصل على تاجها الذهبى المرصع، وأن يرسل إلى الامبراطور نصيبه من الغنيمة ألف ليرة من الذهب. ولكن ملك السراسنة قدم للبابا جوالاً من القسطل (أبى فروة) مهدداً بعودته مع رجال آخرين: فأعاد بندتّو إليه الجوال مملوءاً بالدُخْن وأضاف قائلاً: كلما كثر رجالك، كلما وجدت دروعاً أكثر فى استقبالك. ويختتم كاتب الأخبار فى خجل من تلك الإجابة قائلاً: إن الله وحده هو الذى يحكم على البشر، ونحن نصلى إليه أن يبعد هذه الضربة عن ذلك البلد، وأن يمنحه السلام.

ويعلم الجميع أن هذه كانت هى الواقعة الوحيدة التى كتب ديتمار عنها القصص التى كانت تروى فى ألمانيا، أى إهانة المسلمين لإحدى حواضر الامبراطورية، والقصاص الذى أجراه فيهم أتباع الامبراطور؛ ولاحظ رواة الأخبار فى بيزا ما كان يجيش بصدورهم، أى انتصار الأسطول الإيطالى. والأول يقصر العملية على لونى؛ بينما يذكر الآخرون سردينيا، ولابد أن نصدقهم، فهم على معرفة لصيقة بالعملية بالإضافة إلى أنهم معاصرون لها. خاصة أن ديتمار، بذكره لهروب الملك وسجن زوجته وتاريخ ١٠١٦ يبين لنا أنه خلط بين هذه العملية التى تمت سنة ١٠١٦ وعملية ١٠١٥. كما سنرى فى قصة الهروب كما رواها المؤلفون العرب. ولا يمكننا من ناحية أخرى أن نفترض أن ديتمار قد أخطأ اسم المدينة والإقليم اللذين تم الهجوم عليهما. لقد قام المسلمون فى زمن عملية سردينيا بالإغارة على لونى، قبل انتصار مالوت أو بعده، وأعتقد أن هذا كان قبل الانتصار؛ وقد كسرتهم قوات بيزا وجنوة البحرية فى سنة ١٠١٥ نفسها ثم كسرتهم مرة أخرى فى صيف عام ١٠١٦.

وأخذ مجاهد ينفس عن كمده بأن يذيق المسيحيين فى سردينيا(1) ألوان العذاب. ولعل مقاومة أهل سردينيا هنا وهنالك بأنحاء الجزيرة هى التى أوغرت صدره وجعلته أكثر قسوة: وعندما علم بالاستعدادات العسكرية التى كان يجرى إعدادها فى البر الإيطالى أخذ فى بناء أحد الحصون(2). وكان رجاله ساخطين بسبب قلة الغنائم، وهالهم المناخ غير الصحى وأهوال الحرب فأخذوا يتمغمون ويتذمرون(3): فقد شق على الكثيرين منهم البعد عن الوطن، ودعاهم إليه هوس الحرب الأهلية. ولهذا قرر مجاهد فى مايو من سنة ألف وست عشرة عندما حضرت قوات كبيرة من بيزا وجنوة، قرر الرحيل(4). وبينما كان يشد رحاله ويبدأ الإبحار فى مطلع شهر يونيو(5)، حاربه الإيطاليون فانهزم أمامهم، وعصفت عاصفة هوجاء برجاله وحطمت سفناً كثيرة من سفنه وألقت إلى البر بسفن أخرى فقام المسيحيون بقتل من نجا من رجالها(6). ووصل مجاهد إلى دانيه مع بقايا أسطوله، وترك أخاه وابنه على أسيرين، وعلى هذا هو الذى خلفه بعد ذلك فى الإمارة(7): ويقول آخرون ابنه وزوجته(8). وبهذا

(1) يقول مرانجونى وأخبار بيزا الأخرى *"Homines Sardos vivos in cruce murare"*. ويشرح لورنزو فيرنيزى هذا فيروى أن مجاهداً كان يسخر أهل سردينيا عمالاً يبنون لبناء إحدى قلاعه، ثم كان يدفنهم أحياءً داخل الأسوار.

(2) مرانجونى و*Cronache Pisane*. ويقول الضبى فى الترجمة المذكورة بعاليه «إن مجاهداً قد احتل الجانب الأكبر من سردينيا واقتحم القلاع واستولى عليها».

(3) الضبى وكوندى.

(4) كوندى و*Cronache Pisane*.

(5) التاريخ مأخوذ من ابن الأثير، الذى يذكر أن مجاهداً طرد من سردينيا عند نهاية سنة أربعمائة وست (٨ يونيو ١٠١٦). وفى موضع آخر يقول المؤلف نفسه «إنه حورب وهزم». وتشير أخبار بيزا التاريخية إلى هربه فقط، ولكن لورنزو فيرنيزى يؤكد: *"Rex Fugisse (fugæ sese?) datur, multis jam marte peremptis; Barbarus abscessit, Capto cum Coniuge nato"*.

(6) الضبى، الموضع المذكور وكوندى، الذى ينقل عنه نقلاً خاطئاً.

(7) ابن الأثير.

(8) لورنزو فرنيزى، الذى يضيف قصة طويلة عن فدية الابن.

الجهد اليسير استرد أسلافنا سردينيا(1).

وسرعان ما انقلبت القوتان تهاجم كل منهما الأخرى: فهاجمت قوات جنوة قوات بيزا؛ ولما صارت الغلبة لقوات بيزا طردت قوات جنوة من الجزيرة(2). وهكذا بدأ تجار بيزا يستخدمون أولئك القضاة أو الحكام عملاءً لهم نظراً لحاجة هؤلاء الحكام لأموالهم وقواتهم البحرية: وهكذا صارت لهم ضِياع، ولعلهم اغتصبوا بعض المزايا التجارية: وكان عليهم أن يتنافسوا بشأنها مع تجار جنوة(3). وفى القرن التالى عندما كان حكم المدينتين حكماً بلدياً وبلغت جنوة

(1) قارن بين: فصلى ابن الأثير، وقائع عامى ٩٢ و٤٠٧ فى **المكتبة العربية الصقلية** ص ٢١٨ و٢٧١. والضبى، الموضع المذكور، الذى يروى بعض تفاصيل الهزيمة بكلمات شاهد عيان: والنويرى. **تاريخ اسبانيا**، الموضع المذكور، وابن خلدون، الموضع المذكور، الذى يقول «إن المسيحيين قد استولوا دون إبطاء على سردينيا»: وكوندي، *Dominacion ec.*، الجزء الثانى، الفصل ١١٠؛ ومرانجونى فى *Archivio Storico*، المجلد المذكور، ص ٤؛ و*Chronicon Pisanum* و*Breviarium ec.* فى مصدر موراتورى، *Rerum Ital*، الجزء السادس، ص ١٠٧ و١٦٧ تحت عام ١٠١٧ بتقويم بيزا. ويروى لورنزو فرنيزى، وهو مؤلف من القرن الثانى عشر، فى ديوان شعره عن عملية مايوركا التى وقعت سنة ١١١٤، والموجود فى كتاب موراتورى، ***Rerum Ital***. الجزء السادس، ص ١٢٤، يروى فى أبيات من الشعر حرب سردينيا كما سمع عنها من سكان مدينته من كبار السن ويتفق فى روايته تمام الاتفاق مع كتاب الحوليات من العرب *"Mugetus rex Baleæ et Dianæ"* (دانيه وجزر البليار؛ ويفترض كتاب بيزا ومرانجونى انه افريقى) يحتل سردينيا. وتأتى قوات سردينيا بأسطولها ويهرب هو (ربما إلى النواحى الغربية من الجزيرة). ويعود فى السنة التالية مع رجاله إلى مملكة كاليارى ويبنى فيها قلعة. ويقسو على المسيحيين. وعندما تهاجمه قوات بيزا، يهرب مرة أخرى تاركاً ابنه وزوجته أسيرين؛ ويبقى أمراء الجزيرة اتباعاً لبيزا.

(2) مرانجونى، *Chronicon Pisanum* و *Breviarium ec.*. المواضع المذكورة.

(3) إلى هذا القول تقودنى الأحداث القليلة التى لدينا عن تاريخ سردينيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر والتى نجدها فى كتاب مانّو، المرجع المذكور، الكتاب السابع. ويكتب لورنزو فرنيزى فى الموضع المذكور من ديوانه قائلاً:

Erepti Sardi juglis, tutique fuerunt;
Indeque tota manent Pisanis subdita regno.
Sardiniæ: docuere senes quæcumque retexo;
Quæsitis Sardis, non hæc tibi veranegabunt.

مرحلة من النضج تعادل نضج غريمتها، أخذتا تتنازعان سردينيا بالحروب تارة وبالمسعى تارة أخرى لدى أولئك الحكام وفى بلاط فدريكو بربباروسا(1)، وبعد ذلك بتزييف التاريخ، فقد صور أهل بيزا منحتين بابويتين (١٠١٦ و١٠٤٩) وفتحين جديدين فى سنة ألف وتسع عشرة وألف وتسع وأربعين لمجاهد الذى وقع فى النهاية فى

وتظهر هذه الكلمات وشهادات الشاعر الأخرى التى لا يتطلبها الأمر، تظهر أن بيزا لم تكن تطمح إلى السيادة على سردينيا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، ولكنها كانت تطمح إلى أن تكون حامية لها وما يتبع ذلك من التجاوزات. ومن جهة أخرى لم يكن من الممكن بشكل اخر تفسير سيطرة نبلاء بيزا وتجارها على سردينيا وهم لا يسيطرون على بيزا نفسها. وكان يوجد فى عصور أسبق من وقت هروب مجاهد القضاة أو نواب الملك الذين يرى بنفنوتو دا إيمولا. فى كتاب موراتورى، *Antiq. Ital. Medii Ævi*. المجلد الأول، ص ١٠٨٩، وفقاً لأفكار القرن الرابع عشر. يرى أن تجار بيزا ونبلاءها هم الذين أقاموهم. إن منح الجزيرة لبندتّو الثامن هو محض اختلاق يرجع إلى القرن الثالث عشر، عندما اقترف بلاط روما فضيحة منح صقلية وسردينيا نفسها لهذا الإقطاعى أو ذاك: ولم يحرر أحد نص هذا الامتياز إطلاقاً: ولم يظهر ابداً فى الدعاوى بين أهل جنوة وبيزا أمام فدريكو بربباروسا والتى نقرؤها بوضوح فى تتمة كفارى. السنة ١١٦٤. فى كتاب موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد السادس، ص ٢٩٤ و٢٩٥. وينبغى أن ننبه إلى أن سان مارك. *Abrégéchronologique de l'histoire d'Italie*، تحت سنتى ١٠١٧ و١٠٢٤. ينفى، وهو يتخذ موراتورى مرشداً له، المنحة البابوية وحكم بيزا، دون أن يفصل الأسباب. ولا يجرؤ مانّو (المجلد الأول، ص ٢٨١، طبعة كابولاجو) على أن يجتث المشكلة أو أن ينفى بشكل واضح الرواية التى يذكرها جايتانى فى مذكرات سيرة البابوات (موراتورى. *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد الثالث، ص ٤٠١) الذى أكد فى سنة ١٦٢٨ أنه أخذها عن لورنسو بونينكونترو دا سان مينياتو الذى كتبها - كما يقول - قبل ذلك بأكثر من مائتى عام: وان بونينكونترو أو جايتانى قد ذكرا بالتفصيل تقسيم سردينيا بين رجال بيزا وجنوة والأسبان بعد هزيمة موزيتو وسجنه. وتكفى الإشارة إلى الأسبان برهاناً على أنها عملية تزييف ترجع إلى القرن الخامس عشر.

(1) كفارى. *Annales Januenenses*: وتتمتها فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد السادس، تحت عامى ١١٦٢ و١١٦٤: مرانجونى فى *Archivio Storico Italiano*. المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٢٨. تحت عام ١١٦٥. وعن الحروب بين هاتين المدينتين انظر مرانجونى، المرجع المذكور، ص ٨ وما بعدها، بدءاً من ١١١٩ (١١١٨). وانظر ايضاً مانّو. *Storia di Sardegna*. الكتاب السابع.

أيديهم(1). ويظهر من مذكرات أصدق أن المسلمين، بعد هرب مجاهد إلى دانيه، لم يهاجموا سردينيا على الإطلاق(2). وكما يكتب ابن الأثير فإن مجاهداً قد ألقى بنفسه فى الحروب الأهلية الأسبانية(3)؛ وتحرش بمنطقة برشلونة؛ وأجبر على السلام، ويقولون على دفع إتاوة (١٠١٨) بواسطة مجموعة من النورمان من مساعدى الكونتيسة إرمنسيدا، أثناء وصايتها على برنجاريو(4)، ومات سنة ألف وأربع وأربعين(5). ومن المؤكد أن قراصنة دانيه وجزر البليار قد صالوا وجالوا فى الأنحاء الغربية من البحر المتوسط، لأن اسم موجيتو، الذى يعتقد أنه كان ملك إفريقية، كان يثير فزع المسيحيين؛ ولأن كل من حارب المسلمين الأسبان أو الأفريقيين، كان يتفاخر بأنه قبض على المسلم الكبير أو قتله(6).

(1) نشأت هذه الرواية الزائفة فى القرن الثالث عشر، وهى موجودة فى *Breviarium ec.*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد السادس، ص ١٦٧، تحت سنوات ١٠١٧ و١٠٢٠ و١٠٥٠ وليست فى أخبار القرن الثانى عشر أى فى الأخبار التاريخية مجهولة المؤلف عند موراتورى ومرانجونى. وكان أهل جنوة بدورهم يؤكدون بجسارة فى نزاع سنة ١١٦٤ أمام بربا روسا أن كبارهم قد أخذوا موزايتو وأن أسقفهم قد أرسله إلى الإمبراطور.

(2) ابن الأثير، فصل سنة ٩٢، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٢١٨. ويذكر ابن خلدون غارات أخرى قام بها بنو الزيرى الأفريقيون أثناء حكم يحيى بن تميم (من ١١٠٨ إلى ١١١٦). **المكتبة العربية - الصقلية**. النص، ص ٤٨٢ و*Histoire des Berbères*. ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٥.

(3) ابن الأثير، طبعة تورنبرج، المجلد التاسع، ص ٢٠٥. تحت سنة ٤٠٧.

(4) *Ademari Cabanensis Chr.*، فى *Rec. des. Hist. des Gaules*، الفصل العاشر، ص ١٥٦.

(5) جيانجوس، *The Moham. dynasties in Spain*. المجلد الثانى، ص ٨٨. دوزى، *Hist. des Musulmans d'Espagne*. المجلد الرابع، ص ٢٩٠ و٣٠٤، وقارنه بصفحة ٢١ من المجلد نفسه ودوزى نفسه، *Recherches*، الطبعة الثانية، ١، ٢٤٥.

(6) هذا ما جاء بشأن عملية ١٠٣٥ التى نستخلصها من رودلفو جلابرو والتى سنرويها الآن. ولقد رأينا أن أهل جنوة كانوا يفتخرون بهذا سنة ١١٦٤ وينسبونه إلى كبرائهم. وتدلل عمليتا ١٠١٩ و١٠٤٩ المذكورتان فى مصنف بيزا الذى يرجع للقرن الثالث عشر على أن أسطورة مجاهد المروعة قد استمرت. وينبغى ملاحظة أن الكل، فيما عدا الشاعر لورنزو فرنيزى، يرى أن موجيتو ملك إفريقية. وقد استمر هذا الخطأ حتى مائو

وهكذا فإننا متى نحينا جانباً الأقاصيص الخرافية وهى أساس واحد للمجد لدى الشعوب فإن قصة أهل بيزا وجنوة تتألق فى سماء تحرير سردينيا، فى أول مثال فى الغرب لحملات كبيرة ضد المسلمين، للسيادة على حوض غرب البحر المتوسط. وقد أثارت تجهيزات المعز بن باديس البحرية(1) سخط أهالى بيزا وحفيظتهم فقاموا بالهجوم على إفريقية فى سنة ألف وثلاث وأربعين، واستولوا على بونه(2): وكان لهذا الانتصار صدى مدو فيما وراء الجبال بوصفه انتصارا للأمم المسيحية على المسلمين، ومن المحتمل أن يكون قد شارك فيه أهالى جنوة وبعض سفن بروفانس(3). لقد نحّت

ويصحح ونريش الخطا فى *Rerum ad Arabibus in Italia ec.*، الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، § من ١١٢ إلى ١١٩. ويفترض أن مجاهداً كان رئيس حكام مسلمى سردينيا وانه طلب مساعدات من إفريقية. وهو يتبع بالإضافة إلى هذا رواية بيزا: ويعترف بصحة حدث لونى والانتصار الأول لمحاربى بيزا وجنوة.

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثامن، ص ٢٧٢ من المجلد الثانى.

(2) مرانجونى، فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد المذكور، ص ٥، سنة ١٠٣٥ حسب تقويم بيزا: *Chronicon Pisanum*، السنة نفسها، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum, Scriptores*، المجلد السادس، ص ١٠٨. ويتصور *Breviarium* فى مجلد موراتورى نفسه، ص ١٦٧ احتلال قرطاجنة وارسال تاجى ملكى بونه وقرطاجنة هدية من رجال بيزا إلى الامبراطور.

(3) رودلفو جلابرو، *Historiarum*، الكتاب الأول، الفصل السابع، فى *Recueil des Historiens des Gaules ec.*، المجلد العاشر، ص ٥٢. يروى هذا المؤلف أن سراسنة افريقية كانوا يتعقبون المسيحيين براً وبحراً: وأن كليهما قد اتفقا على أن تكون معاركهما معارك عادلة: وأن المسيحيين قد انتصروا بعد أن أقاموا مذبحة كبيرة قتل خلالها أمير السراسنة موجيت: وأنهم جمعوا سفن العدو الثمينة التى يقدر ثمنها بعدد كبير من التالنتى الفضية وأنهم قدموها نذراً إلى أوديلونى رئيس دير كلونى الذى استثمر ثمنها فى تجهيزات دينية وفى تقديم الإحسان. وكان رودلفو معاصراً وقريباً من رؤساء رهبان كلونى، ولكنه كان واسع الخيال وراوياً لقصص خيالية كثيرة. ولقد جعلتنى تقدمة النذر إلى الدير أفكر فى البداية فى عملية قام بها رجال بروفانس ولكن بالرجوع إلى المؤلف الحكيم الذى كتب *Invasions des Sarrazins en France*، اقتنعى بأن هذه المعركة، وهى معركة بحرية ولا شك، لم يكن من الممكن أن تقوم بها الأساطيل الإيطالية. ولكنى أرى أن النذر كان نذر أحد المساعدين من أهل بروفانس وأنه إحدى مبالغات رودلفو جلابرو. وربما كان الأمر يتعلق بالهجوم على بونه، وتاريخه يتفق مع

الجمهوريتان الإيطاليتان جانباً أحقادهما عندما كان من اللازم عليهما أن يكبحا العدو المشترك: فقد حشدت قوات بيزا التى اتحدت من جديد مع قوات جنوة أربعمائة سفينة إيطالية أمام المهدية (١٠٨٧)، وكانت قبل ذلك قد هاجمت وحدها بالرمو (١٠٦٢). ثم احتلت فيما بعد جزر البليار (١١١٣ ـ ١١١٤)؛ وطوال القرن الثانى عشر فتحت أساطيل إيطاليا، وكانت تمثل رعباً للمسلمين، الطريق إلى الاتفاقات التجارية وإلى تأسيس المنشآت التجارية فى مدن أفريقية والشرق المطلة على البحر. وقد بدأ العمل بهذا كما هو واضح منذ بدايات القرن الحادى عشر مما شجع على فتح صقلية وساعد عليه.

لقد قادت بعض العائلات التى دخلت المسيحية حديثاً ثورة بوليا وكلابريا ضد البيزنطيين وهيمنت عليها. وفى القرن السابع، وعند فجر تاريخ بلاد الشمال نرى فى الدانمارك والنرويج والسويد أناساً تشهد لغتهم بالإضافة إلى بنيان أجسامهم ونظمهم الاجتماعية أنهم من أصل جرمانى؛ إلا أن أقدارهم التى وطنتهم فى بلاد غير منزرعة وغير مأهولة أو تكاد، لم تجعل منهم أتباعاً لإقطاعيين. ولما لم يجدوا الأرض تثبت لهم مأكلاً، بحثوا عنه فى البحر بالصيد والقرصنة. ولهذه الأسباب استمرت عندهم المساواة المدنية التى فقدها إخوة لهم فى فتح الولايات الرومانية. واحتفظوا كذلك بدينهم القديم. وعاشوا فى كنف دويلات صغيرة تحت حكم رؤساء عائلات نبيلة بسبب بسالتهم وشجاعتهم، يُنتخبون فى اجتماعاتهم التى كان الرجال الأحرار، أى كل الرجـــال، يبحثون فيها أمورهم العامة ويتخذون القـــرارات بشـــأنها. ولكن المعـــارك التى خـــاضوها فى القرن الثامن

هذا، إذ إن رودلفو ـ وهو لا يتبع الترتيب التاريخى للأحداث ـ يضع هذه المعركة فيما بين وفاة روبرتو دوق نورماندى (٢٢ يوليو ١٠٣٥) وخسوف الشمس فى ٢٩ يونية ١٠٣٣. وفى صفحة ٢٢١ من *Invasions des Sarrazins en France* يوافق المؤلف القدير م. رينو على أن مجاهداً كان قائد الأسطول المهزوم؛ ولكنى أعلم أنه سيكون له رأى آخر فى الطبعة الجديدة التى يعدها لهذا المرجع.

والتجــارة التى ازدهرت فى بحر البلطيق مع غيرهم من الجـرمان وfinnici والسلافيين دفعت الاسكندنافيين إلى تطوير بناء سفنهم وأسلحتهم وفنونهم اللازمة لهذه وتلك: فقاموا بعمليات كبرى بالخارج، وتبع ذلك تمركزهم فى بلادهم تحت حكم حكامهم من الملوك (Kong, Konung ec.)؛ وتم الإعداد لانضمام الدويلات الصغيرة إلى الممـــالك الكبرى وهى الدانمــارك والنرويج والسويد. وقد أدت هذه التغييرات بالإضافة إلى المجاعات المتكررة فى بلاد تتسم بخلوها من الزراعة، إلى الهجرة. وتجمع أشجع الرجال وأكثرهم جسارة واختاروا لهم رئيساً ذا خبرة وبلاء، وجعلوا منه ملكاً بحرياً (sockongar) كما كانوا ينزلون سفن أساطيلهم إلى البحر ويخرجون لـWicking، أى للقرصنة، بحثاً عن الغنيمة والمجد: حيث إن المناقب عندهم كانت هى المكر فى السرقة والشجاعة عليها. وكانوا يعتقدون أن من يموت منهم غرقاً أو بحد السيف سوف يجلس للأبد بجانب أودين فى ولهللا يتجرع الجمة، بينما يعرض الناجون منهم غنائمهم ويتفننون ببطولاتهم وهم يتجرعون جعتهم فى حلقاتهم ومجموعاتهم الصاخبة فى الشتاء. وقد دفع الكبرياء والجشع والاحتياج والعادات وعنفوان الأجسام والنفوس، واعتياد مشقات البحر وعدم خشية الموت كل هذا دفع النورمان (Northmen) أو الدانيين(1) إلى القيام بحملات بعيدة خارج البلطيق.

وفى حملاتهم هذه عاثوا فسادا (٧٨٧ ـ ٨٨٥) بسواحل وشواطئ أنهار الجزر البريطانية، وألمانيا عند المحيط، والأراضى المنخفضة وفرنسا، واجتاحوا كذلك أسبانيا: وقد فكر هاستينجز بطلهم الرهيب

(1) يبدو أن الاسم الأول يشير بوجه خاص إلى أهل النرويج وأن الاسم الثانى يشير إلى أهل الدانمارك. ولكن كثيراً ما كان يحدث خلط بين أحدهما والآخر. وكما يعلم الجميع فإن كل رجال الاحتلال الاسكندنافيين كان يطلق عليهم فى فرنسا نورمان وفى انجلترا دانيون.

أن يزداد ثراءً بغنائم روما وأسلابها فهاجم لونى (٨٠٩) ونهبها(1)؛ كما هاجم هو أو غيره بيزا أيضاً (٨٦٠). فقد كانوا معتادين بمراكبهم الخفيفة أن يبحروا بمحاذاة الساحل، وأن يدخلوا فى مصبات الأنهار وأن يتوغلوا فى البر لمسافات تصل إلى عشرين ميلاً أو مئات الأميال. وأن يتحصنوا فى الجزر البحرية أو النهرية؛ وأن يمسكوا بأكبر عدد من الجياد ويتوغلوا فى المقاطعات فينشروا فيها الخوف والهلع ويحصلوا على الإتاوات وينهبوا ويحرقوا ويقتلوا؛ وكانوا أشد قسوة مع الأديرة إذ كانوا يعلمون أنها أكثر ثراءً أو ليفتخروا بأنهم داسوا الإله المنافس لأودين. ومن لندن ودبلن إلى أوترخت واكويزجرانا وكولون وكوبلنتز وترفرى وباريس وطورس وبوردو وتولوز؛ وإلى لشبونة واشبيلية وآرلس وفالنسا على نهر رودانو شعر البرابرة الذين رُوضوا بعنف برابرة اسكنديناوه: الذين أخذوا بعد السلب والنهب فى الاستقرار هنا وهنالك؛ وفتحوا انجلترا ثم فقدوها؛ وأقاموا عند مصب لويرا وطردوا منه؛ واستقروا عند نهر السين وبقوا هنالك(2).

---

(1) هذه العملية التى حيكت بها كثير من الخرافات نقرؤها فى دودونى دى سانت كونتين، *De Moribus Normannorum*. الفصل الأول فى دوشسن، *Historiæ Normannorum Scriptores*. ص ٦٤ و٦٥؛ وجوليلمو دى جوميج، *Historia Normandiæ*. الكتاب الأول، الفصلين العاشر والحادى عشر، ص ٢٢٠ و٢٢١؛ بنوا، *Chroniques des ducs de Normandie*. فى أشعار فرنسية، المجلد الأول، من ص ٤٧ إلى ص ٦٩؛ واس، *Roman du Rou*. الأبيات من ٤٧٢ إلى ٧٣٢. انظر أيضاً موراتورى، *Antiquitates Ital. Medi Ævi*. المجلد الأول، ص ٢٥. وارجع إلى نقد الحدث فى كتاب دبينج، *Histoire des Expéditions maritime des Normands*. طبعة ١٨٤٥، ص ١٤٠ وما بعدها.

(2) أرى أنه من غير الضرورى أن أشير إلى المصادر الحديثة التى استقيت منها أصول النورمان واكتفى بالإشارة إلى المصادر التى وجدت فيها فائدة أكبر. فقد اتخذت من كتاب *Conquête de l'Angleterre par les Normands*، لمؤلفه اوجستين تيرى الذى أكن له كل الود والاحترام والعرفان اتخذت منه مرشداً لى فى روح التاريخ. أما تفاصيل الأحداث ودقائقها فنجدها بوفرة فى كتاب دبينج المذكور سابقاً؛ كما نجد كثيراً من الملاحظات النقدية فى كتاب لبنبرج، *A History of England under the Norman Kings*. النص الانجليزى مع إضافات المترجم بنيامين ثورب. ونستقى

وبعد قرون من حكم شارلمان، كان ما تبقى لخلفائه تحت اسم مملكة فرنسا مجرد المنطقة التى تمتد من لوار حتى موزا بعد أن اقتطعت منها بريتانى من ناحية الغرب، عندما جاء الإسكندنافيون ليطيحوا بالأراضى القليلة بعد أن أعملوا فيها التخريب وبعد أن نهبوا باريس (٨٤٦) وحرقوا الضواحى (٨٥٧)، واحكموا عليها الحصار من جديد لمدة عشرة شهور (٨٨٥ ـ ٨٨٦). وحدث فى الوقت نفسه أن أرولدو جميل الشعر (*Harald Haarfager*) أخضع ملوك النرويج وحكامها الآخرين، وأخذ يعمل من أجل تنظيم المملكة الجديدة وجعلها مركزية؛ فهجر الرجال المتبرمون من النير أوطانهم أو طردوا منها وجرى تعقبهم ومطاردتهم فى الجزر الصغيرة والبحار التى استأنفوا فيها مهنة أجدادهم القديمة. وبعد أن تجمعوا فى أسطول كبير حاولوا الاستيلاء على إنجلترا، وحاولوا الاستيلاء على الفلاندرز وفى النهاية دخلوا نهر السين: واستولوا بهدوء على روين(1)؛ وجعلوا منها قاعدة لحروبهم وفتوحاتهم: وكسروا (٨٩٨) جيشاً فرنسياً هاجمهم: واحتلوا مدناً وقلاعاً. وفى هذه الحروب لم يكن لقوادهم قيادة سياسية(2) ثم تفوق على الجميع لشجاعته وحنكته المدنية قرصان نرويجى نبيل يدعى رول(3) من المطـــاريد بسبب عمليـة ســـرقة قام بها فى

احداثاً هامة وجديدة عن المجتمع الاسكندنافى البدائى من مقدمة صمويل لانج لكتاب سنورّو ستورلسن. *Heimskringla*. النص الإنجليزى.

(1) يذكر المؤرخون الفرنسيون تاريخا غير محدد فيما بين ٨٩٦ و ٨٩٨ إذ لم يجدوا تاريخا محددا لدى كتاب الأخبار التاريخية ولأنهم راوا أنه من الضرورى اعتبار هذا الاحتلال مختلفا عن الاحتلال الذى ينسبه رواة الأخبار إلى ١٧ نوفمبر ٨٧٦ أى إلى ما قبل حصار باريس. راجع المصادر المذكورة: دوينج. الكتاب الثالث. الفصل الثالث؛ وثيرى، الكتاب الثانى: ولبنبرج. النص الانجليزى، ص٧ وما بعدها. وقد خلط رواة الأخبار النورمان نثرا وشعرا الروايات إذ أرادوا أن ينسبوا إلى رول الدور الأساسى فى حصار باريس وفى الاحتلال الأول لروين. وهو الدور الذى لم يتم به بكل تأكيد.

(2) عندما سأل رسول شارل الساذج قبل معركة عام ٨٩٨ عن رئيسهم، أجابه النورمان: «ليس لنا رئيس: فكلنا متساوون».

(3) هرولفر. مع تغير النطق إلى رولف ورول ورو.

وطنـــه. وكان أولئك قد اعتـادوا على مدى ستة عشر عاماً على العيش فى مستـقرهم الجديد مع المهزومين، عندما رأى الأهالى ورجال الدين فى المملكة كافة أنه لا يمكنهم كسر هذه الأغلال وذاك النير فأجبروا شارل البسيط على أن يبعده بالسلام. وتفاوض على السلام أسقف روين، وكان صديقاً بحكم الضرورة للنورمان؛ وفى سانت كلير على ابتى (٩١٢) تنازل الملك لرول وأهله عن البلد الذى كانوا يحتلونه(1)؛ وقدّم له رول فروض الولاء الإقطاعية. ووعد بأن يتحول هو ومن معه إلى المسيحية ونفذ وعده، وتزوج من ابنة الملك غير الشرعية. ونال لقب كونت؛ ثم أطلق على نفسه لقب دوق؛ وعلى الأراضى اسم نورمانديا؛ وقام هو وخلفاؤه بتوسيع تلك الأراضى، أثناء خلافات كبار الإقطاعيين مع الملك، وأثناء الحروب الأهلية التى جاءت بالكابيين إلى العرش. وبعد أن حصل رفاق رول فى السلاح على جزء من الأراضى وصاروا سادة على الشعب القديم، استساغوا حياة الفرسان الفرنسيين، وتحولوا من عبادة أودين إلى المسيحية؛ ومن مساواة الفايكنج إلى طبقات إقطاعية؛ ومن غنائم النهب غير المؤكدة إلى الممارسة المستمرة لتعسف البارونات؛ ونسوا الوطن الذى نبذهم وطردهم، وأنجبوا أبناءً من نساء البلاد فى الغالب. وفى الجيل الثانى بدءوا يتحدثون لغة شمال فرنسا، فيما عدا نواحى بايو وكوتانس حيث كان لوصول فرق جديدة من النرويج والدنمارك أثر فى الاحتفاظ بالوثنية لمدة أطول بسنوات عدة، وباللغة الاسكندناڤية لأكثر من قرن وبروح الشراسة والتمرد على الدوام. وقد وهبت فرنسا للغزاة الجدد، بالإضافة إلى الدين واللغة عادات وأساليب وشيئاً من الثقافة الكنسية، ونظم الإقطاع كافة: إلا أن البارونات قد احتفظوا

---

(1) يتفق هذا البلد فى رأى ديبنج مع جزء من أراضى السين السفلى الحالية وجزء من أراضى أوريه.

بنفوس حرة فى خضوعهم للدوق، دون أن يثقلوا كاهل الطبقات الدنيا. لقد كانت الدوقية أكثر الجيران خطراً على التاج الفرنسى من أية إقطاعية كبيرة أخرى: فقد اشتعلت الكراهية القومية لمدة خمسة أو ستة قرون بين أهالى ومواطنى الدوقية وفرنسا(1)؛ خاصة أن النورمان الذين اكتسبوا صبغة أهل الغال الخارجية لم يفقدوا طباع أجدادهم وميولهم: فقد أظهروا إلى جانب شجاعتهم الكبيرة ونظامهم وقدرتهم الحربية، أظهروا حكمتهم فى تدبير شئون الدولة والشئون الاقتصادية؛ فقد كانت لهم حاسة قوية للكسب، وعقل نابه ويد خفيفة فى استلابه؛ وكانوا سريعى الغضب لا تكبحه إلا المصلحة، يترجحون بين العناق والشجار حتى بين الأشقاء وبين الآباء والأبناء فى اقتسام الغنائم؛ وهم إلى جانب هذا مغامرون وماجنون ومحبون للهجرة والتنقل: وعند بداية القرن الحادى عشر أطلقوا العنان لغريزتهم هذه بالحج إلى قبر المسيح، ولكنهم لم يغمضوا أعينهم اثناء الطريق عن اى شئ يستطيعون الحصول عليه. وكان أن خرج كل فارس يعيش فى ضيق فى داره ليمارس حياة الڤيكنج على الأرض على نفقة دول أخرى؛ وفى مجموعات صغيرة قدموا دليلاً رائعاً فى اسبانيا وفى الامبراطورية البيزنطية؛ وتجمعوا تدعمهم شعوب أخرى بفتح إنجلترا وجنوب إيطاليا.

وكما تغير الڤيكينج هكذا تغير فى نورماندى شكل القصة الملحمية الخرافية التى كانوا يحتفون بها(2)، وإذا كانت قد جرت بعض المحاولات لتقليدها(3)، إلا أن الشعر الشعبى الفرنسى سرعان

---

(1) واس. *Roman du Rou*. كان الفرنسيون ينتقمون بكالمبورج، وكان هذا بكل تأكيد قبل القرن الثانى عشر الذى عاش فيه المؤلف: *Francheiz dient ke Normandie* *ço est la gent de North mendie,* البيتان الشعريان ١١٩ و ١٢٠.

(2) انظر الكتاب الرابع من هذا التاريخ، الفصل العاشر، ص ٣٩١ من المجلد الثانى.

(3) واس، المرجع المذكور، البيت الشعرى ٢١٠٨، ويشير إلى الروايات الإيقاعية التى سمعها أثناء صباه من المنشدين *(giullari)* *(Jugléors)* ونقال اليوم *(jongleurs)*.

ما تجاوزها حتى إن مُنْشِد جوليلم الفاتح فى معركة هاستينجز (١٠٦٦) أشعل نار الشجار بإلقاء أنشودة أورلاندو وهى فرنسية اللغة والموضوع. وجاء بعد القصة الملحمية الخرافية بلغة الاسكندناڤيين وأسلوب حياتهم والتى لم تعد تستخدم، جاء بعدها السرد التاريخى المسيحى، والذى بدأه دودُنيه دى سان كوينتينو، وهو شماسٌ بيكاردى بدأه (٩٩٤) بناءً على طلب كونت نورماندى الثانى واتم تحت حكم الكونت الثالث، فى نثر لاتينى تتخلله بعض أبيات الشعر، رواية بذخ ذلك الشعب وتلك الأسرة الحاكمة منتهجاً أسلوب الرواية الشفهية نفسه الذى استخدمه رودلفو كونت إيفرى(1). وصار بالضرورة تاريخ دودنيه بالنسبة للزمن السابق على معاهدة إبتى. وهو تاريخ تمتزج فيه الحقيقة بالرواية الإسكندناڤية ويعيبه كثيراً عدم التزام التسلسل التاريخى: وفى الزمن اللاحق صارت يوميات البلاط تزينه بعض القصص الدينى وبعض العبارات البلاغية اللاتينية: وتحت حكم دوقات آخرين نسخه بعض الشمامسة واستكملوه، بعضهم بالنثر اللاتينى وبعضهم الآخر بالشعر الفرنسى، حتى أواخر القرن الثانى عشر(2). ولكن الأمراء النورمان الذين ظهروا فى إيطاليا فى ذلك الوقت، أرادوا هم أيضاً كتابة أخبارهم لتقليد بلاط روين، فتم تحريرها بناءً على القصص التى كان يرويها المحاربون عن بطولاتهم التى حققوها وعن روايات الأقـــدمين التى حفـــظوها: ومن هنا فإن الرواة والكتاب وضعوا فى هذه الأخبـــار زخـــرف الكـــلام سواء كان

Dudonis super Congregationem Sancti Quintini decani, De (1) *Historiæ Normannorum,* فى كتاب دوشسنى. *Moribus Normannorum Scriptores*. من ص ٥٦ إلى ص ٥٩. وانظر نقد لينبرج فى *A History of England under the Norman Kings*. نسخة ثورب، ص ٢٠.

(2) جوليلمو دى جوميج *(Wilelmus Gemmeticensis)* المعروف بكلكولوس (١١٣٧)؛ أودوريكو ڤيتاليس (١١٤١)؛ واس دى جرسي، *Roman du Rou* (١١٨٤)، وغيرهم كثيرون يمكن الرجوع إليهم فى كتاب لينبرج، المرجع المذكور، ص ٢١ إلى ص ٢٨.

فرومـسياً أم ديرياً : وهذه هى المصادر الرئيسة لتاريخ الفترة التى نتناولها بالدراسة.

وأول المصـادر حسب الترتيب الزمنى هو تاريخ النورمان الذى دونـه أمـاتو وهـو راهب بديـر مونتى كاسـينو ومن إقليم كمبانيا، وقد كتبـه فيما بين سـنة ألف وثمـان وسبعين وألف وست وثمانين(1)، ومنذ ثلاثين سنة وحتى الآن توجد نسخة من هذا المؤلف بالفرنسية أدخلت عليهـا بعض الملاحظات ولعلها منقوصة وغير أمينـة فى بعض المواضـع(2) وهذه النسـخة تتداولها أيدى العلمـاء والباحثين. وهى مـع ذلك وثيقـة ثمينة للغاية لأن مؤلفها، وهو إيطـالى المولد والتعليم يجلّ روبرتو جويسـكاردو وريكاردو أمير كابوا، ولكنه يكن وفاءً أكبر لديره، شاهد معاصر لأحداث النصف الثـانى من القرن الحادى عشر؛ ويستقى كتاباته عن النصـف الأول من القرن من مصدرين وهما رواية كاسينو والرواية

---

(1) *L'Ystoire de li Normant et la Cronique de Robert Viscard par* *Aimé moine du Mont-Cassim*، والذى نشره م. شمبليون ـ فيجاك، باريس ١٨٣٥. وقد دلل الناشر بحنق كبير وبما لا يدع مـجالاً لمناقـضته على اسم المـؤلف وموطنه وتاريخ المـؤلَّف، *Prolégoménes*، ص ٣٢ وما بعدهـا. وكان م. جـوتير دارك قد استـخدم منـذ سنة ١٨٣٠ مخـطوطـة غير دقيـقة موجـودة فى كـتاب أماتو *Histoire des Conquétes des Normands en Italie ec.*.

(2) وضـع الناشر العالم الإضـافات التى لا شك فيها بين قوسين. ويمكن أن نجد إضـافات أخرى كمـا يبدو. كما نجد أجزاءً مبتورة هنـا وهنـالك مثل نهاية داتو غيـر السـعيدة. الكتـاب الأول. الفصـل الخـامس والعشرون. وفـى تاريخ روبرتـو جويسـكاردو، والذى توجـد لدينـا منه النسـخة اللاتينية. أخطأ المتـرجم فى فهم بعض الجمـل منذ السـطور الأولى، حيث ترجم عـبارة «سيدة» *nec minus facie quam vitæ integritate formosa* قـائلاً: *belle de face et de touts membres entiére*. ويبدو لى كذلك أن أمـاتو فى مـعركة كان التى وقـعت عـام ١٠١٩ قد وضـع اسـم المكـان بينمـا كتب المترجم *et sont veues les lances estroites came les canes sont en lo lieu ou il croissent.*

النورماندية: وبحذر رهبانى يروى الحقيقة، ويدل الإهداء إلى رئيس الدير الأب دزيدريو ومسار الكتاب كله على أن الدير قد أهداه إلى الأميرين اللذين يقومان على حمايته لكى يكافئهما على كرمهما بمنحهما الشهرة والصيت. وقد كتب جوليلمو المعروف بأبّولو وهو كاتب من كتاب البلاط، كتب فى نهاية القرن الحادى عشر لروجيرو دوق بوليا وللبابا أوربانو الثانى(1) كتاباً شعرياً باللاتينية فى الأخبار التاريخية يبدأ من أولى عمليات النورمان فى إيطاليا وينتهى بوفاة روبرتو جويسكاردو: وأسلوبه فى الرواية ملئ بالحيوية والدقة والحقيقة فيما عدا بعض المشاهد التى استقاها من القدامى ومن الخرافات الاسكندنافية والروايات الفرنسية(2)؛ ويبدو لى أن المؤلف فرنسى(3). وكان فرنسياً بكل تأكيد الراهب جوفريدو مالاتيرّا، الذى كتب فى نثر لاتينى بطولات روجيرو الصقلى لمقارنتها بمظاهر الأبهة

---

(1) أوربانو الثانى وهو فرنسى كان البابا من سنة ١٠٨٨ إلى سنة ١٠٩٩: وجلس روجيرو، وهو ابن روبرتو جويسكاردو، على العرش فى بوليا من سنة ١٠٨٥ إلى سنة ١١١١.

(2) إن اللقاء لقاء عرضى بين ميلو والنورمان فى مونتى جرجانو يبدو لى مشهداً كلاسيكياً تم وضعه فى بداية الديوان. والضربات القاصمة التى سددها روبرتو جويسكاردو فى معركة شيفيتلا مستمدة من أدب المائدة المستديرة. أما حيلة روبرتو، الذى تظاهر بالموت ووضع فى التابوت ليحتل إحدى قلاع كلابريا التى لا نعرف اسمها، فإنه نسخة طبق الأصل من عملية هاستينجز فى لونى، وهى خرافة اسكندنافية كررها دودنيه دى سان كوينتينو فى نهاية القرن العاشر (فى كتاب دوشيسن، المرجع المذكور، ص ٦٤ وص ٦٥) وتم تكرارها فى قصة أورلدو الفاسى الملحمية، كما ذكرنا فى الكتاب الرابع، الفصل العاشر، ص ٢٩٤ من المجلد الثانى.

(3) تيرابوسكى، تاريخ الأدب الإيطالى، الكتاب الرابع، الفصل الثالث § ٨. وقد هاجم هجوماً غاضباً البندكتيين من سان مور لأنهم سلبوا منّا فى *Histoire Littéraire de la France*، المجلد الثامن، ص ٤٨٨، سلبوا جوليلمو دى بوليا. وقد رده السيد روجيرو ويليمانز الألمانى إلينا لأسباب متعددة تمت الإشارة إليها فى مقدمة الأخبار التاريخية المذكورة فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد التاسع، ص ٢٣٩ والمذكورة باستفاضة أكبر فى برتز، *Archivio Storico*، المجلد العاشر: ص ٩٢ وما بعدها. ومع كل هذا فإن جوليلمو، كما يظهر من اسمه وعدم حميته ضد اللونجوبارديين

والفخامة عند آل جويسكاردا، وقد نقل هذه البطولات عما سمعه من الكونت نفسه، وتتوقف كتاباته قبل سنتين من وفاة روچيرو، سنة ألف وثمان وتسعين. كان مالاتيرا قد قرأ أخبار نورماندیا التاريخية وبعض قدامى اللاتين: وفكر، هو أو الكونت روچيرو، فى طباع البشر وميولهم وفى أحداث الدول؛ ومن هنا أخذ بوصفه مؤرخاً وليس راوياً للأخبار التاريخية؛ فى الكتابة عن بدايات أسرة هوتفيل فى إيطاليا، وعن تفاصيل الحرب الصقلية؛ ولا يبدو لى الأمر بسيطاً عندما يمزج معجزات القديسين بمعجزات سيوف النورمان؛ وعندما يحجب عدد القوات المعاونة بينما يبالغ فى عدد الأعداء؛ وعندما لا يذكر العمليات الفاشلة أو الإجرامية.

أما عن جرائم روبرتو وروچيرو مثل السلب والنهب ونصب الكمائن مثل رجال العصابات والغش والعنف بين الإخوة فيروى مالاتيرا بإســـهاب مثلـــه فى ذلك مثـــــل جوليلمو دى بوليا؛ ولم يكن هذا لحريتهما ولســــماحة الأميرين بقدر ما كان بسبب الفكرة السائدة عن جمـــاعات المرتزقة والتى انتقلت إلى بلاط الحـــكام حيث كانت تعدها أعمالاً حربية تدعو للفخــــر وذنوباً هيــنة يدفعون عنها بسخاء للكنيسة(1). فإذا ما نحـينا جـانباً الزخـرف الأسـطورى عن أولى العمليات العسكرية، وشـيئاً من الحـرص أو المبـالغة هنــا أو هنـــالك فى العمليات الأخرى،

واليونانيين وسكان بوليا، يبدو لى رجل دين أتى من فرنسا أو وُلد فى إيطاليا من عائلة فرنسية. وكل ما قد يبدو من كلامه لوماً للنورمان نجده مستخدماً للمداهنة فى لغة مالاتيرا الفرنسية، وكان له وقع المدح طبقاً لعاداتهم.

(1) يذكر مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الخامس والعشرين، أن الكونت روچيرو كان فى كلابريا فى إحدى المرات مع أربعين من رجاله المخلصين *plurimum penuriarum passus est, sed latrocinio armigerorum suorum in multis sustentabatur; quod quidem ad ejus ignominiam non dicimus, sed ipso ita præcipiente, adhuc viliora et reprehensibiliora de ipso scripturi sumus, ut pluribus patescat quam laboriose et cum quanta angustia a profunda paupertate ad summum culmen divitiarum vel honoris attingerit.* وبالتالى فإن الكونت العجوز روچيرو كان يفخر بهذا.

فإننا نجد أن كتابات أماتو وجوليلمو ومالاتيرا تنقل إلينا الروايات النورماندية عبر ثلاثة طرق مباشرة ومتوازية وغير متصلة ببعضها. ويضيف موجز، يبدو لى من أعمال القصر ويرجع إلى سنة ألف ومائة وست وأربعين، بعض التفاصيل طبقاً لروايات أخذ الزمن والمصالح فى إفسادها(1). وكثيراً ما ينقل ليونى دوستيا، الذى كتب فى بداية القرن الثانى عشر تاريخاً عاماً عن مونتى كاسينو، كثيراً ما ينقل عن أماتو ويضيف وقائع أخرى فى حذر مزدوج بصفته راهباً وكردينالاً. أما لوبو بروتسبتاريو، وهو مؤلف يرجع إلى نهاية القرن الحادى عشر، فيساعدنا بأخباره الموجزة وبدقته وحيدته بين اليونانيين والنورمان. وهناك معاصرون آخرون من الإيطاليين ومن وراء الجبال، سوف أذكرهم فى المواضع الملائمة، يصححون أحياناً آراء الكتاب من جانب النورمان؛ ويصحح البيزنطيون بعض الوقائع الخاصة بالاستيلاء على بوليا، والعرب وقائع فتح صقلية: وكل من الجانبين يمران مرور الكرام على سقوط حكمهما ولا يتحمسان للحديث عنه.

---

(1) هذه هى الرواية التاريخية التى نشرها كاروزو فى *Bibliotheca Sicula*، ص ٨٢٧ وما بعدها، بعنوان *Anonymi Historia Sicula*؛ ومن بعده موراتورى فى *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثامن، ص ٧٤٠ وما بعدها بعنوان *Anonymi Vaticani Historia Sicula*. أما النسخة التى كانت موجودة بالفرنسية القديمة فى مخطوطة أماتو نفسها فقد أخرجها إلى النور م. شامبليون، المرجع المذكور، بعنوان *Chronique de Robert Viscard*. ولا يمكن أن نتفق مطلقاً مع العالم المحقق الفرنسى فى أن المؤلف هو أماتو نفسه. وكما ذكر م. شامبليون فإنه ينبغى أن نستبعد من النص الجزء الذى يبدأ من سنة ١١٠١ وحتى سنة ١٢٨٥. ولكن ما يسبق هذا قد كتب نحو سنة ١١٤٦ كما تدل على هذا الكلمات (فى كتاب كاروزو، ص ٨٥٦) *Huic successit ille hominum maximum.. Rogerius.. rex Sicilæ, Tripolis Africæ..* والذى لم يجرؤ المؤلف - كما يقول - أن يبادر بمدحه. وتتمة الحديث تبدأ مباشرة بعد هذه الفقرة بالكلمات التالية:

.Post mortem comilis, prout confiletur in chronica, successit Rogerius ec.

واحدد سنة ١١٤٦ لأنه يذكر غزو طرابلس وليس غزو المهدية والساحل كله والذى وقع بعد سنة ١١٤٨. واختلاف المؤلفين الذى أثبته يدلل عليه عدم التوافق بين بعض القصص مثل فرار أردوينو وقت استيلاء جوليلمو ذى الذراع الحديدى على قيادة فرقة ملفى كلها إلخ.

وجد أوائل النورمان الذين عبروا جبال الألب بناءً على طلب أمير سالرنو(1)، وهم مغامرون بسبب الحاجة أو الجشع أو الاضطهاد الذى نال منهم فى بلادهم الأصلية(2)، وجدوا فى إيطاليا رغبة شديدة لزعزعة نير أباطرة الشرق. وكان هؤلاء قد بقوا سادة للمرة الثانية على كلابريا وبوليا وحكموهما طبقاً لما اعتادوا عليه: فتركوا مسلمى صقلية يرتعون فيهما ويفرضون الإتاوات على تلك المناطق لا تكبحهم جيوش جيدة أو اتفاقات رشيدة؛ وبهذا ظهرت من جديد مطامعهم القديمة فى إمارات بنفنتو وكابوا وسالرنو. وهكذا أخذ هؤلاء السادة اللونجوبارد يتوجهون مرة تلو المرة إلى أباطرة الغرب؛ بينما أخذت شعوب بوليا، وقد صارت ناضجة بسبب المستجدات فى ظروف إيطاليا العامة، فى التمرد والثورة واستدعت مسلمى صقلية لمساعدتها(3). وبعد ثورة إزمجاردو، وهو وطنى غير ذائع الصيت (٩٩٧ ـ ١٠٠٠)، ثار ميلو، وهو نبيل من نبلاء بارى من أصل لونجوباردى، يروى عنه تاريخ القرن الحادى عشر الغامض مصائبه أكثر مما يروى فضائله، ويلتزم الصمت حيال دعوته لثورة بوليا أو

---

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل السابع، ص ٣٤٩ وما بعدها فى المجلد الثانى. ومع كل هذا انظر دى ميو، *Apparato Cronologico Agli Annali del Regno di Napoli* نابولى ١٧٨٥، ص ٣٢٥ وما بعدها. وملاحظة واردة فى *Regii Neapolitani Archivi Monumenta*، المجلد الرابع، ص ٦، والتى يذكر فيها وثيقة ترجع إلى سنة ١٠٠٨.

(2) هذا هو حال جلبرتو درنجوت، أو بواتير مع الإخوة راينولفو ورودولفو وانكوتيل واورموندو؛ وعنهم انظر أماتو، المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل العشرين؛ ورودلفو جلابرو، *Historiarum*، الكتاب الثالث، الفصل الأول فى *Recueil des Historiens de la Gaule* ، المجلد العاشر، ص ٢٥: وجوليلمو دى جوميهج، الكتاب السابع، الفصل الثلاثين، فى كتاب دوشمن، *Historiæ Normannorum Scriptores*، ص ٢٨٤. كان جلبرتو قد قتل رجلاً يدعى جوليلمو ريوستل كان يتفاخر بأنه اعتدى على إحدى بناته. وقد ذكر رواة الوقائع التاريخية الأسماء الثلاثة بشكل مختلف. ويجب أن أنبه إلى أن أماتو يقول هنا أثناء حكم الدوق روبرتو النورماندى، وهكذا فهتم إرجاع الواقعة إلى ما بعد العقد ١٠٢٦ ـ ١٠٢٥. ولكن يجب أن نقول إن الاسم خطأ وليس التاريخ.

(3) انظر الكتاب الرابع، الفصل السابع، ص ٣٤٦ وص ٣٤٨ من المجلد الثانى.

تجديده لها؛ وأمره بشن ثلاث حروب فى غضون عشر سنوات، وأنه جذب الأمراء اللنجوبارد وامبراطور الغرب والبابا للتآمر معه(1): هذا هو ميلو، الثائر الإيطالى، الذى توفى فى ألمانيا مكرّماً تكريم الأمراء؛ وهو رجل ذو ثبات ونشاط رائع، يتميز بالقدرة السياسية والشجاعة. لقد كانت بارى، بصفتها مدينة لونجوباردية صارت عاصمة للحكم البيزنطى فى إيطاليا، تتشيع لقوتين(2)، ولهذا فقد انتصرت الثورة فى البداية، ثم استعاد الجانب اليونانى الثقة فى نفسه

(1) طبقاً لما جاء به كاتب ترجمة أرّيجو الثانى، *Acta Sanctorum*، ١٤ يوليو، ص ٧٦٠، فقد منح الامبراطور لميلو لقب دوق بوليا، وأنه توفى فى بامبرج. ويذكر لوبو بروتسبتاريو، سنة ١٠٢٠، ميلو بلقب دوق بوليا، الذى من الجائز أن منحته إياه شعوب إيطاليا ومناصروه بها. ويكتب الراهب أديمارو وهو من عائلة شبانوا النبيلة، يكتب فى الأحداث التاريخية التى انتهى منها نحو عام ١٠٢٩، أنه فى عصر ريكاردو الثانى دوق نورماندى مضى رجل يدعى رودلفو مع كثير من النورمان المسلحين إلى روما وأنهم بالتواطء مع البابا بندتو كانوا يهاجمون بوليا ويعيثون فيها فساداً، وأنهم انتصروا فى ثلاث معارك: ثم انهـــزموا من الروس ومن غيرهم من جنود الامبراطورية البيزنطية واقـــتيد كثيرون منهم أســـرى إلى القســـطنطينية؛ وأن البيزنطـيين، إما غضـــبا من النورمـــانديين أو شـــكّاً فيهم، قد منعـــوا لمدة ثلاث ســـنوات الحـــجاج الغـــربيين من المـــرور إلى القـــدس - عبر جـــنوب إيطـــاليا ولاشـــك. ويروى رودلـــفو جـــلابرو فى .*Recueil des Historiens des Gaules ec*، المجلد العاشر، ص ١٥٦ والذى كتبه نحو سنة ١٠٤٤، يروى أولى عمليات النورمان فى إيطاليا على النحو التالى: أن المحارب رودلفو الذى كان ريكاردو النورماندى يضطهده ويتعقبه ذهب إلى روما؛ وتقدم إلى البابا بندتو: فشجعه على محاربة اليونانيين فى جنوب إيطاليا؛ وأنه بدأ هجماته، وأن نورمان لا حصر لهم اتوا شيئاً فشيئاً برضا الكونت ريكاردو فدعموا صفوفه: وأنه انتصر فى معركتين: ولكنه بعد المعركة الثالثة، ذهب بعد أن رأى قواته قد قل عددها إلى الامبراطور طالباً مساعدته، فعبر الامبراطور إلى إيطاليا (١٠٢٢). وفى فرنسا كانوا، بعد عشرين سنة، ينسبون أصل هذه الحرب إلى البابا. انظر تاريخ جلابرو، الكتاب الثالث، الفصل الأول، فى .*Recueil des Historiens des Gaules ec*، المجلد العاشر، ص ٢٥ وص ٢٦. والمحارب رودلفو هو أحد أشقاء جيلبرتو الذى يتحدث عنه أماتو وليون دوستيا.

(2) لا يتحدث رواة الوقائع التاريخية عن قوتين فى بارى إلا فى حرب سنة ١٠٥١ وفى حصار سنة ١٠٧١ عندما احتلها النورمان. ولكن ظروف ميلو، الذى تبعه أهل بارى ثم تخلوا عنه، واضطراره إلى الهرب، ثم إرسال زوجته وابنه إلى القسطنطينية من قبل المواطنين، تشير إلى أن بداية هاتين القوتين اللتين لم يكن هناك مناص من وجودهما ترجع إلى بداية القرن. وكانت الدهماء أصدقاء للبيزنطيين بينما كان النبلاء أعداءً لهم.

بسبب دعم القسطنطينية له، وأعيدت الحكومة الأجنبية (١٠١١). ولجأ ميلو إلى قصور اللونجوبارد الذين كانوا يساعدونه في الخفاء(1)، وتفاوض في كابوا مع المغامرين الذين قدموا من نورماندي، وقدم لهم السلاح والجياد والرواتب (١٠١٧)، واستنهض جنوداً آخرين في أراضي سالرنو وبنفنتو(2)، وتحرك بالجيش كله لمواجهة اليونانيين.

وكسرهم في ثلاث مصادمات أو اكثر (١٠١٧ ـ ١٠١٩)، ونسبت أولى أمجاد النصر للنورمان؛ وصارت بوليا حرّة، إلا أن قائداً جديداً أرسلته القسطنطينية قطع أوصال جيش المتمردين فوق سهل كانّي المشئوم (أكتوبر ١٠١٩). وجدّد ميلو المحاولة بفرقة من النورمان جاءت من سالرنو، وعلى مدى ثلاث سنوات صار عددها كبيراً؛ ووقعت لها المذبحة الثانية عند ميلفي. عندئذ تردد أمراء اللونجوبارد: فأسرع ميلو إلى ما وراء جبال الألب طالباً المساعدات من الامبراطور ارّيجو، وبينما كانت تجرى التجهيزات، وافته المنية. أما رفيقه في الثورة وأخو زوجته داتو فقد تم إعدامه (١٠٢١) بعد أن باعه أمير كابوا ورئيس دير مونتي كاسينو. وعادت الشعوب ترزح تحت النير، بينما كان يقاوم رئيس هنا ورئيس هناك بمساعدة مسلمي صقلية. أما الخمسمائة نورماندي الذين بقوا على قيد الحياة

---

(1) اماتو.الكتاب الأول، الفصل العشرون. وليوني دوستيا الذي نقل عنه، الكتاب الثاني، الفصل ٣٧. يقولان بإيجاز شديد إن النورمان، وقد دعاهم أمير سالرنو إلى القدوم لإيطاليا، قد تقابلوا مع ميلو في كابوا وان *Les coses necessaires de mangier et de boire lor furent données, de li seignor et bone gent de Ytalie.* إن الحجاب شفاف جداً. فقد بدأ جوليلمو دي بوليا، سواء لتقديم احترامه وتبجيله لربات الفنون والعلوم، ام لأن بلاط جويسكاردو بعد احتلال سالرنو الأثم لم يكن يحب سماع ان أمراء سالرنو قد استدعوا أوائل النورمان، بعد لقائه مصادفة مع الحجاج إلى مزار مونتي جرجانو. بدأ بلقاء غريب يرتدي ملابس غريبة الهيئة، فيكشف له أنه ميلو فيقنعهم بسهولة ويسر إلى إحضار مواطنيهم للعمل لديه. وتبدو هذه رواية شعرية متناقضة مع رواية اماتو.

(2) ليوني دوستيا، الكتاب الثاني، الفصل ٣٧.

من ثلاثة آلاف عبروا إلى إيطاليا، فقد بقوا فى خدمة سالرنو ومونتى كاسينو وحصلوا على رواتبهم وانقسموا إلى ست فرق، فرقتان لدى رئيس دير مونتى كاسينو، وأربع فرق مع الأمير. وعمل آخرون فى خدمة كابوا ونابولى(1).

وقضـــوا عشرين سنة أخرى جنوداً مرتزقة دون أن يأفل نجمهم ودون أن تكون لهم ســـطوة وجبروت. وازدادت مكانتهم فى الخـــلافات بين الدويلات، وكثيراً ما انتقلوا من دويلة إلى أخـــرى بسبب البخل والتقتير والحرص على بقائهم أحياءً مُقعدين. وقد ازداد عددهم شيئاً ما حسب المكاسب التى كانوا يحصـــلون عليها من أناس من جنســـهم كانوا يبحثون عن الثروة فيما وراء الألب ورجال أشقياء جُندوا فى لومبارديا وفى جنوب إيطاليا كانوا يتخذون عادات النورمان ويتعلمون لغتهم. وقد أفاد أمير سالرنو أكثر من غيره من هذه الفرق، فقد وسَّع حدوده. وقد أغدق عليهم دوق نابولى أكثر من غيره، فبعد أن استعاد الدولة بفضل فرقة منهم، منحهم الأراضى التى أقاموا عليها مدينة أفرسا (١٠٢٩)، وحصـل قائدهم راينولفو على لقب قنصل ثم على لقب كونت. وعندما نزل فى تلك الأزمنة أرّيجو الثانى وكورّادو الصالى إلى الإمارات ليحافظا فيها على سلطة الامبراطورية المتزعزعة ضد الســـلطة البيزنطية، نظرا إلى النورمان نظرة طيبة بصفتهم أجانب وغرباء؛ ومنـح كـورّادو فى احتفال مهيب مقاطعـــة أفرســـا لراينولفو (١٠٣٨) وسلمه الراية الامبراطـورية

---

(1) قارن بين: أماتو، الكتاب الأول، الفصل الواحد والعشرين، وما بعده: جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول: لوبو برونسبتاريو، سنتى ١٠١٧ و١٠١٩: *Annales Beneventani*. ١٠١٧، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٧٨: ليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٢٧ والفصل ٢٨. لا يتفق المؤرخون حول عدد المعارك التى انتصر فيها النورمان، ويروى أماتو وحده هزيمتهم الثانية. وإذ لم يفهم مترجم أماتو النص فهما صحيحا فقد ذكر فى الفصل الثانى والعشرين أن ثلاثة آلاف من النورمان قد جاءوا إلى سالرنو بعد معركة كان؛ ولكن هذا يبدو لى غير حقيقى وينبغى تصحيحه كما فعلت.

فوق أحد السهام(1).

وتبدو الفرقة النورماندية فى هيئتها الأولية مجموعة من الفرسان تضم ما بين خمسة وعشرين وثمانين فارساً، تحت قيادة قائد متعهد يدفع رواتب الرجال ويحصل لنفسه، بصفته قائداً مختاراً يدير المال العام، على راتبه العام وعلى الغنيمة. ويبدو أن الفرق كانت تكلف بالقيادة المؤقتة قائداً يختارونه جميعاً فيصير فى ذلك اليوم كما نقول الآن عميداً لفيلق من الفيالق(2). وقد كان فى إيطاليا نحو سنة ألف وثمان وثلاثين فيلقان أو فرقتان: وكانت أولاهما من الجنود المحنكين وأنصارهم الذين استدعوا من نورماندى، وكانوا يعيشون فى أفرسا وتحولوا إلى ملاك وصاروا أقل ميلاً للمغامرات وأخذوا فى تنظيم أمورهم على طريقة مؤسسات أوطانهم نفسها تحت قيادة عميد دائم أو من يطلق عليه كونت منحه الامبراطور امتيازاً؛ ولكنه كان أكثر تمسكاً وميلاً إلى الفيكتج مما حصل عليه من الإقطاعية. وأما الفرقة الأخرى، وهى من الفيكنج الحقيقيين، فكانت من الشباب الذين كانوا يجـــرون أقدارهم ويبحثون عنها وكانوا مختلطين بعدد أكبر من الإيطـــاليين؛ وقد تركت هذه الفـرقة رواتب أمير سالرنو

---

(1) قارن بين: أماتو، الكتاب الأول، الفصل الرابع والعشرين وما بعده، والكتاب الثانى من الفصل الأول حتى الفصل السابع: جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول: لوبو بروتسبتاريو، سنة ١٠٢١ وما بعدها. وعلى الرغم من ان مالاتيرا يغفل ذكر عمليات النورمان قبل مجئ جوليلمو دى هوتفيل، فإنه يشرح شرحاً دقيقاً فى الكتاب الأول، الفصل السادس، اتجاهات وميول الفرق النورماندية قبل سنة ١٠٤٠.

(2) بعد معركة كان (١٠١٩) يكتب أماتو: *Et de li Normant non remainstrent se non cinc cent et vj grant home de li Normant remainstrent, de liquel ij remainstrent avec Athenulfe ec.* فى الكتاب الأول، الفصل الثانى والعشرين. وكان الامبراطور اريجو الأول قد ترك فى سنة ١٠٢٢، فى إحدى قلاع أقاريه فى ميلو أربعة وعشرين فارساً نورماندياً بقيادة تروستاينو. أماتو، الكتاب الأول، الفصلين التاسع والعشرين والثانى والثلاثين. وفى سنة ١٠٤٠ كان الثلاثمائة نورماندى الذين حضروا من أفرسا لمعاونة أردوينو، تحت إمرة اثنى عشر قائداً كما سبق أن ذكرنا وكانوا يتمتعون بالمساواة فيما بينهم. ويبلغ عدد الفرقة فى الحالة الأولى ٨٠ فارساً بينما يبلغ عددهم فى الحالتين الأخرتين ٢٥ فارساً.

لتنضوى تحت رايات البيزنطيين. وكان عددهم حوالى خمسمائة فارس تحت قيادة قائد متصرف، هو أردوينو من أهل ميلانو(1).

وبعد أن عبر الفارس اللومباردى الحكيم مع رجاله الفنار بعد إهانة منياتشى جرّب حظه فى عملية كبيرة. واشتعلت ثورة بوليا التى لم يخمدها ميلو(2) بشكل جيد اشتعلت من جديد على يد ابن أرجيرو بمجرد أن خرج الجنود البيزنطيون من البلاد للحرب فى صقلية: ولكن فرقة القسطنطينية قاومت المتمردين حتى إن بارى تم أخذها واستعادتها؛ وفى النهاية عاد ميكيلى دوتشيانو من صقلية وبدأت عمليات التعذيب والقتل فى العاصمة (نوفمبر ١٠٤٠). وبقى أرجيرو فى الإقليم، هارباً أو مدججاً بالسلاح(3). وفى الوقت نفسه وصل اردوينو وتعامل مع المتمردين؛ ولأنه لم يثق بصفته جندياً فى قوات التمرد أو فى بارى المفتوحة للبيزنطيين من الفرق العسكرية ومن البحر قرر أن يرفع راية أخرى للثورة فى ملفى التى تحمى ظهرها جبال الأبنين عند نهاية أكبر واد يتم العبور منه إلى دول البحر التيرانى، وهى دول معادية بطبيعتها للقسطنطينية. ومضى إلى أفرسا ليعرض الظروف والأحوال؛ كانت أفضل الجيوش اليونانية منهمكة فى صقلية، وكانت شعوب بوليا على استعداد لحمل السلاح. وقال للكونت راينولفو: «ولماذا تبقى أنت قانعاً بشبرين من الأرض، مثل فأر فى جحر، بينما يمكنك معى أن تصبح سيداً على تلك البقاع الغنية. بعد أن نطرد منها أولئك النساء فى زى الجنود الذين يقومون بالحراسة؟(4)»، وبعد أن

---

(1) الكتاب الرابع. الفصل العاشر. ص ٣٩١ و٣٩٩ وما بعدها من المجلد الثانى.

(2) نذكر فرق رايكا التى أشرنا إليها فى الكتاب الرابع. الفصل السابع. ص ٣٤٥ من المجلد الثانى.

(3) انظر *Annali di Bari*. ولوبو بروتسبتاريو، أعوام ١٠٣٩ و١٠٤٠ و١٠٤١. فى برتز. *Scriptores*. المجلد الخامس. ص ٥٦ وص ٥٧.

(4) *Et vouz i habitez comme le sorice qui en lo portus... que sachiez que je vouz menerai à homes feminines, c'est à homes comme fames, liquel demorent en moult riche et espaciouse terre.* أماتو. الكتاب الثانى. الفصل السابع عشر. ص ٤٣.

اجتمع مجلس الرؤساء فرروا القيام بالعملية، واتفقوا على الاتحاد مع اردوينو، وعلى أن يحصل على نصف المكاسب. وقامت افرسا بتقديم ثلاثمائة رجل تحت قيادة اثنى عشر قائداً أطلق عليهم آنذاك وفيما بعد لقب كونت وكانوا متساوين فى الدرجة ولهم الحق نفسه عند تقسيم الفنيمة(1).

وفى بداية سنة الف وواحد وأربعين قاد أردوينو ليلاً وفى هدوء الفرقتين إلى ملفى، والتقى مع أهل المدينة الذين كانوا يحملون السلاح فأخذ يهتف قائلاً لهم، «سوف أحقق لكم الحرية التى تتوقون إليها. إننى أفى بما أقول: قوموا الآن بواجبكم، واستقبلوا اصدقائى هؤلاء الذين أرسلهم الله ليحرروكم من العبودية، رفاقاً وإخوة»(2) ويتم التوقيع على العهد بألا يكون لملفى سيد إقطاعى؛ وتبادلوا القسم على التحالف والصداقة(3). وفى اليوم التالى انطلق النورمان للحصول على الغنائم من فنوزا: وفى اليوم الثانى من أسكولى، ثم

Cum terra sit utilitatis
Fæmines Græcis cur permittatur haberi?

جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول.

(1) اماتو : .*Et eslut li conte (il conte) xij pare à liquel ec* الفصل الثامن عشر ص ٤٢ . جوليلمو دى بوليا..*comitatus nomen honoris Quo donantur erat*.

(2) أماتو. الكتاب الثانى، الفصل التاسع عشر، ص ٤٤ .

Et quant il oïrent ensi parler Arduyne, se consentirent à lui et font (3) *sacrement de fedelitè de chascune part de paiz se la terre non avoit autre seignor que ou à cui face tribut se clame tributaire. Et en ceste regne se clame terre de demainne et se a autre seignorie se clame colonie come sont en ceste regne la terre qui a autre seignorie. Et sanz lo roy estoit seignor Arduyne et en celle part se clament colone.* اماتو. الكتاب الثانى، الفصل التاسع عشر. ص ٤٤ وص ٤٥ . والجملة التى كتبتها بالحروف العادية هى جملة أصابها التلف بكل تأكيد أما ما يليها فهى ملحوظة أدخلها المترجم شرح فيها على طريقته قانون نابولى العام فى القرن الثالث عشر: لأن أماتو ما كان بإمكانه أن يكتب فى القرن الحادى عشر لفظى مملكة وملك. وقد أغفل ليونى دوستيا هذا الحدث المهم، ولكننا لا نستطيع أن نعيد نص أماتو إلى ما كان عليه. ولكن لابد أن المعنى هو الا يخضع أهل ملفى لإقطاعى وألا يقوموا بتقديم خدمات إقطاعية، وألا يدفعوا الضريبة إلا للدولة: وهو ما أطلق عليه فى صقلية بعد أن فتحها النورمان: البقاء فى أملاك الدولة.

من لاڤيللو ومن كل أنحاء بوليا دون مقاومة(1). وكان عدد الفرقتين ورجال بوليا الذين تبعوهما يبلغ ثلاثة آلاف رجل، منهم سبعمائة فقط

---

(1) إن الأحداث التى أوجزها فى هذه الفقرة من عودة أردوينو إلى البر الإيطالى وحتى احتلال ملفى قد استقيتها من أماتو، الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر وما بعده: ومن جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، *Aversam subito venit Hardonius*: ومن مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الثامن: ومن ليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل السادس والستين: ومن شمرينو، المجلد الثانى، ص ٥٤٥ من طبعة بون: ومن حوليات بارى (وهى مجهولة المؤلف) ومن لوبو برونسبتاريو، السنتين ١٠٤٠ و١٠٤١. وبالإضافة إلى الاختلافات البسيطة هناك اختلاف لابد من التنويه إليه. يقول أماتو، ويمضى ليونى دوستيا على منواله، إن أردوينو، بعد إهانة منياتشى، بقى فى خدمة البيزنطيين، وأثار أهل بوليا سراً، وذهب إلى أفرسا بحجة القيام بالحج إلى روما. ويقول جوليلمو دى بوليا إنه قد سُبَّ وثار فى ريجو، وجرى مسرعاً إلى أفرسا. وقد اختلف مالاتيرا عنه قليلاً فجعل السبُّ يجرى فى صقلية والتمرد الواضح بعد عبوره الفنار، ولا يذكر أية إشارة إلى معونات أفرسا. فالروايتان، وأولاهما رواها أماتو وليونى، وثانيتهما رواها جوليلمو ومالاتيرا، تختلفان فى طريقة وزمن عصيان أردوينو ومعه الجماعة النورماندية. فهل طووا بين جوانحهم الإهانة عدة أيام، أم عدة شهور؟ وهل أعلنوا عصيانهم فى نوفمبر سنة ١٠٤٠ فى كلابريا، أم فى بدايات سنة ١٠٤١ فى ملفى؟ إن جوليلمو دى بوليا يصل إلى حد ذكر عدد الجنود الذين قتلهم النورمان من الفرقة البيزنطية التى كانت تطاردهم عندما تركوا معسكر ريجو ويقول إنهم كانوا خمسين. وعلى النقيض من هذا يذكر أماتو تفاصيل تضليل أردوينو: وكيف أنه أفسد دوتشيانو فقدم له ذهباً كثيراً: وكيف أنه كلف بإدارة أراض كثيرة فى بوليا: وكيف بدأ فى اجتذاب كبار المواطنين وإقامة الولائم لهم، وإلى إظهاره الأسى من مظالم الحكم اليونانى، ووعوده بأنه سوف يقوم بعمل يحررهم؛ وفى النهاية كيف أنه حصل على إذن بالسفر بزعم أنه ذاهب إلى روما طلباً للتوبة والغفران، وذهب إلى أفرسا. والآن وقد صار من الواجب أن نكذب هذه الرواية أو تلك، مع التسليم بصدق نية من كتبها، فإن ظروف كل من المؤرخين وطبيعة مؤلفاتهما تجعلنا نتهم جوليلمو وليس أماتو. ولن أتحدث عن مالاتيرا الذى كان يكرر فى تلك الفترة إحدى قصص أسرة هوتفيل، ولا يذكر مساعدات أفرسا، ويجعل من جوليلمو ذى الذراع الحديدى قائداً للنورمان، وقد صار قائدهم فعلاً بعد ذلك بثلاث سنين. وبالإضافة إلى هذا فإن هرب أردوينو ورجاله بأسلحتهم من وسط صقلية وفقاً لرواية مالاتيرا، ومن ريجو وفقاً لرواية جوليلمو دى بوليا، وحتى ملفى أقل تصديقاً من تظاهر النورمان وتضليلهم لمدة طويلة ومن صنيع دوتشيانو لأردوينو، الذى لم يكن هارباً من واجبه العسكرى وإنما كان محاربا أهانه منياتشى وسبه ظلماً. وفى النهاية فإن الحادث كما ذكره لوبو وقدمته حوليات بارى، وهو أن دوتشيانو كان عائداً من صقلية فى نوفمبر ١٠٤٠ للسيطرة على ثوار بوليا يجعلنا نفترض أن النورمان ربما قد عبروا بقوات دوتشيانو وأنه قد جعل منهم حامية فى أرض لا تبعد عن ملفى. وما العجب فى أن يكون قد جرى تحسين صورة تغير الحاميات بعد خمسين أو ستين سنة لتصبح فرقاً لأمراء

على ظهور الجياد وقليلون منهم يرتدون الدروع.

فى السابع عشر من مارس بدأ دوتشيانو المعركة ضدهم على ضفاف أوليفنتو أسفل ملفى ومعه فرقة أوبسكوى من آسيا الصغرى وأعوانهم الروس: وكانت نسبتهم خمسة أو ستة إلى واحد وكانوا أفضل تسليحاً؛ ولكنهم هُزموا(1). ووقعت لليونانيين الهزيمة الثانية على الرغم من دعم التراقيين والإيطاليين لهم فى مونتماچورى على أوفانتو فى شهر مايو؛ ووقعت لهم الهزيمة الثالثة فى شهر سبتمبر فى

النورمان ونبلائهم بالشكل الذى يقدمه لنا جوليلمو دى بوليا ومالاتيرا فيبالغان فى شجاعة الجيل السابق ويخففان من خيانته وغدره؟. وعموماً فإنى أتمسك برواية أماتو والتى ما كتبته منافياً لذلك فى الكتاب الرابع، الفصل العاشر. ص ٢٩٩ من المجلد الثانى عندما اتبعت جوليلمو ومالاتيرا وكل المؤرخين المحدثين الذين صدقوهم، ولم يكن كتاب أماتو تحت أنظارهم. فإذا اتهمنى البعض بالنزق لهذا السبب فسيكون هذا أهون من ألا أقدم شهادتى بالحقيقة طالما انى مقتنع بها.

(1) تذكر حوليات بارى، بادئة الحديث بلفظ يُقال، أن عدد اليونانيين كان ١٨٠٠٠ وتذكر أن النورمان كانوا ٢٠٠٠ أو أكثر قليلاً؛ ويقول لوبو بروتسبتاريو إنهم كانوا ٣٠٠٠. وإنى أقبل هذه الأعداد وأوافق عليها دون تردد ولا أوافق على الأعداد التى كتبها المؤرخون النورمان، أى جوليلمو دى بوليا الذى يحصى عددهم هكذا: ٧٠٠ فارس و٥٠٠ من المشاة؛ ومالاتيرا الذى يقول إنهم كانوا ٥٠٠ جندى من ناحية بينما كان اليونانيون ٦٠٠٠٠ من الناحية الأخرى. وكما فعلنا مع حروب صقلية فإنه ينبغى قسمة عدد جيوش العدو على ستة، ومضاعفة عدد جنود النورمان ست مرات عندما نقرأ مالاتيرا. أما عن تاريخ احتلال ملفى فإن غالبية المؤرخين وكتاب الحوليات والكتاب والمحققين بمن فيهم موراتورى ودى ميو قد أرخوا احتلال ملفى والمعركة الأولى بتاريخ سنة ١٠٤٠. وبمراجعة أحداث قريبة من هذا الحدث تاريخها مؤكد فى التاريخ البيزنطى نجد انه يجب أن نأخذ بالتاريخ الذى ذكرته حوليات بارى وبروتسبتاريو، وهو سنة ١٠٤١. ويشهد على هذا التاريخ كذلك ليونى دوستيا شهادة صريحة فيقول إن ملفى قد تم احتلالها سنة *Domenicæ Nativitatis MLXI*, quo videlicet anno dies paschalis venit Sabbati ipso die festivitatis Sancti Benedicti* (٢١ مارس)؛ وفى الحقيقة أن عيد الفصح قد وافق يوم ٢٢ مارس فى سنة ١٠٤١ وليس فى سنة ١٠٤٠. ويذكر كتاب *Chronicon Breve Northmannicum*، فى كتاب موراتورى، *Scriptores Rerum Italicarum*، المجلد الخامس، ص ٨٧١، يذكر كذلك فى سنة ١٠٤١ أول احتلال لبوليا من جانب النورمان بشهادة أردوينو، ويذكر تاريخ مارس ومايو ١٠٤٢ (من التجسد أى سنة ١٠٤١ حسب التقويم العام) تاريخاً لأول انتصارين على اليونانيين.

* لابد أن هنالك خطأ مطبعياً فهذا الرقم اللاتينى يوافق عام ١٠٦١ (المترجم).

مونتبلوزو، وفيها لم يتعرف النورمان بالتأكيد على الأصل الواحد الذى يجمعهم مع الفرانجيين الذين كانوا منضمين إلى الجنود اليونانيين والسلاف يحاربونهم بقيادة بويوانى. وحدث توازن فى نتيجة الحرب سنة ألف واثنين وأربعين، عندما عاد إلى إيطاليا منياتشى القوى الجبار. ولكن النصر عاد ليكون حليفاً دائماً للنورمان(1).

فيما بين تلك الحروب كانت فرقتا أفرسا وصقلية تقيمان فى ملفى يجمع شملهما على ما يبدو ويتقاسم قيادتهما اثنا عشر قائداً كانوا يقومون على أمورهما بالتشاور فيما بينهم، وأقام كل منهم فى قصر وحى خاصين بالمدينة(2)؛ وكان كل منهم مستقلاً عن الآخرين ويغار منهم؛ ولكنهم كانوا يتنافسون دائماً على إظهار بأسهم فى أرض المعركة. وقاموا بتجنيد فرسان ومشاة إيطاليين فى الإمارات اللونجوباردية وفى لومبارديا ذاتها بالأموال والسلاح والجياد التى غنموها من العدو وبالوعود التى قطعوها لهم بأن يحصلوا على مكاسب كبرى(3)؛ وضموهم - كما يبدو لى - إلى فرقهم بدلاً من أن

---

(1) قارن بين: أماتو الكتاب الثانى، الفصل الواحد والعشرين وما بعده؛ وجوليلمو دى بوليا. الكتاب الأول، *Audito reditu Michaelis*، حتى نهاية الكتاب، ومالاتيرا. الفصلين التاسع والعاشر؛ ولوبو بروتسبتاريو، و*Annali di Bari*. سنتى ١٠٤١ و١٠٤٢؛ وليونى دوستيا. الكتاب الثانى، الفصل السادس والستين. ويتفقون جميعاً على ترتيب الأحداث؛ أما تاريخ وقوعها فيرد فقط فى كتاب لوبو وفى حوليات بارى. ويعتمد لوبو على التقويم الميلادى، وأحياناً على طريقة سالرنو اى بدءاً من ٢٥ ديسمبر، (انظر برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥١)، وفى الأغلب على طريقة القسطنطينية، اى بدءاً من الأول من سبتمبر السنة السابقة، وسبتمبر ١٠٤٢ يوافق سبتمبر ١٠٤١ من تقويمنا، وهكذا حتى شهر ديسمبر. ويتبع لوبو الترتيب الزمنى للأحداث ويدل على هذا تتويج أباطرة القسطنطينية الذى يمكن أن نقابله بالتواريخ التى يذكرها شدرينو وغيره من البيزنطيين.

(2) *Pro numero comitum bis sex statuere plateas,*
Atque domus comitum totidem fabricantur in urbe.
جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول.

(3) يقول شدرينو صراحة: الإيطاليون من الأقاليم الواقعة بين نهر البو وجبال الألب؛ ويقول أماتو : *Et li Normant d'autre part non cessoient de guerre li confin de principat pour home fort et soffisant de combatre ec.* الكتاب الثانى، الفصل الثالث والعشرون، ص ٥٠

يشكلوا لهم فرقاً خاصة. واختفى أردوينو: إما لموته فى الصدامات الأولى، أو لأنه نحى جانباً ازدراءً إذ أراد أن تكون القيادة له؛ وبقى دوجا دون جنود بعد اتحاد الفرقتين(1). واستبدل قبل معركة مونتبلوزو (١٠٤١) بأتنولفو، شقيق أمير بنفنتو ليكسبوا ثقة الشعوب التى كانوا يحتاجون إليها(2). وبعد بضعة شهور استبدلوا أتنولفو أيضاً للأسباب نفسها بأرجيرو الذى نودى به، عند سقوط اليونانيين ذاك، دوقاً لإيطاليا فى بارى (فبراير ١٠٤٢)؛ وكان قد حمل السلاح بشجاعة(3). وكان أرجيرو، قائد الثورة، أقل من أن يناسب النورمان

---

(1) يروى أماتو، بعد أن ذكر احتلال ملفى فى الكتاب الثانى، الفصل التاسع عشر، يروى فى الفصل الثلاثين تقسيم الأراضى المفتوحة بين كونت أفرسا واثنى عشر رئيساً نورمانديأ يذكر أسماءهم والأراضى التى خصصت لكل منهم. ويضيف قائلاً: *et (à) Arduyne secont lo sacrement donnerent sa part c'est la moitié de toutes choses si come fu la convenence;* ويرجع هذا إلى سنة ١٠٤٣. وينقل هذا ليون دوستيا من أماتو فى الكتاب الثانى، الفصل ٦٧، مستخدماً هذه الكلمات: *Arduino autem juxta quod sibi juraverant parte sua contradita* وأسماء الاثنى عشر بالإضافة إلى كونت أفرسا كلها أسماء نورماندية. وكل الأراضى التى تم تقسيمها وتسليمها هى مدن أسقفية تقريباً تقع داخل مثلث منحنى الأضلاع من جرجانو إلى فريجنتو ومن فريجنتو إلى مونوبولى. وفى هذه المساحة يبقى فى الحقيقة نصف آخر من الأماكن الهامة يمكن اعتبارها مخصصة لأردوينو لو أننا علمنا أن النورمان قد احتلوها فى ذلك الوقت. ولكن هذا الرئيس العظيم لم يذكره أى مؤرخ بعد تحالف ملفى؛ ولم يذكره أماتو أو ليونى بعد هذا التقسيم، ولم يقل أحد أن أراضى بوليا الأخرى، التى وقعت تحت سيطرة النورمان، قد انتزعت من أردوينو وأن رجاله قد تم ضمهم إلى الفرق النورماندية. وأول الاثنى عشر الذين تم ذكرهم بشأن التقسيم هو جوليلمو ذو الذراع الحديدى الذى جاء من صقلية مع أردوينو، وفى السنة نفسها صار كونت بوليا، كما سنرى.

(2) يُرجع جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، اختيار الأجنبى هذا لفساد النورمان وحسدهم: *Sed quia terrigenis, terreni semper honores, Invidiam pariunt ec.* ولكن أماتو، وهو إيطالى وراهب فيقول: *Et à ce qu'il donassent ferme cuer à li colone de la terre lo prince de Bonivent ec.*

(3) قارن بين: أماتو، الكتاب الثانى، الفصل السابع والعشرين؛ وجوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، *Nam reliqui Galli ec.*؛ ولوبو بروتسبتاريو، السنة ١٠٤٢. ويروى جوليلمو أنه كان هناك انقسام فى البداية بين النورمان بعد تنحية أتنولفو، فكان بعضهم يريد الخضوع لجوايماريو أمير سالرنو، وآخرون يرون الخضوع لأرجيرو. ويروى تنصيب

الذين كانوا يريدون أن يخلفوا السادة القدامى لا أن يحرروا بوليا. ولهذا فإن أحد القادة أثناء حصار تراني كاد يقتله(1)؛ فأخذ يتفاوض مع بلاط القسطنطينية من أجل إعادة تأسيس دولة بوليا(2)؛ وحاول دون جدوى أن يغوى النورمان بالخروج من إيطاليا ليحوزوا السبق فى بلاد فارس ويحصلوا على كنوزها بأموال الامبراطورية؛ فصار دوق بوليا برضا الشعوب وامبراطورية الشرق عدواً لدوداً لهم. وتآمر مع البابا ومع الامبراطور الألمانى من أجل إبادة النورمان(3).

ولكن القادة الماكرين الذين انفصلوا عندما دخل أرجيرو بينهم وانتقل بعضهم لدى أمير سالرنو(4)، سرعان ما أدركوا أن الاتحاد

أرجيرو فى بارى الذى نادى به الشعب، ورفضه لهذا المنصب أمام كبار المواطنين الذين دعاهم للاجتماع فى كنيسة القديس ابوليناري. وانه أجبر على قبوله بالتصويت العام واختياره أميراً. ويبدو أن الشاعر يريد وصف الطريقة التى أصبح بها دوقاً على بوليا ذلك المواطن الذى أسبغ عليه النورمان سلطة رئيس فرقتهم وحاميها. ففى انتخاب فورى وعام يشارك فيه أهل بارى والنورمان كانت ستقع مشاكل خطيرة. ويكتب لوبو قائلاً: *et mense februarii factus est Argyrus Barensis princeps et dux Italiæ,* ولكنه لم يقل ممن. والمؤكد أن بارى كانت فى ذلك الوقت متمردة، ولم تعد للخضوع لليونانيين إلا فى سنة ١٠٤٣.

(1) أماتو، الكتاب الثانى، الفصل السابع والعشرون. ويقول بروتسبتاريو إن هذا الحصار قد بدأ فى أغسطس ١٠٤٢، وإنه استمر شهراً.

(2) قارن بين: أماتو، الكتاب الثانى، الفصلين السابع والعشرين والثامن والعشرين؛ وجوليلمو دى بوليا فى نهاية الكتاب الأول وبداية الكتاب الثانى؛ وليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٦٦؛ ولوبو بروتسبتاريو، السنوات ١٠٤٢ و١٠٤٣ و١٠٤٦ ويلاحظ أن ارجيرو قد ذهب فى السنة الأخيرة إلى القسطنطينية وأن ذلك البلاط دعا كل المنفيين إلى بارى. ولما لم يستطع أباطرة الشرق أن ينتزعوا بوليا من النورمان بالقوة، لجأوا إلى التصويت الشعبى، إلى جانب التشديد من سطوتهم من جديد عندما استطاعوا ذلك. راجع فى كتاب تينكيرا، *Syllabus græcarum membranarum etc.*، نابولى ١٨٦٥، ص ٥٢، وثيقة عام ١٠٥٤ التى يطلق فيها على ارجيرو لقب *Magister Vestis et dux Italiæ, Calabriæ, Siciliæ, Paphlagoniæ, etc.*

(3) راجع: أماتو، الكتاب الثانى، الفصل السابع والعشرين وما بعده؛ وجوليلمو دى بوليا، الكتاب الثانى من البداية؛ لوبو بروتسبتاريو، السنتين ١٠٤٢ و١٠٥٢، وليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٦٦.

(4) جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول: *Multa per hoc tempus sibi promittente Salerni*، وما بعدها.

وحده هو السبيل إلى الأمل فى السلامة والنصر على الإيطاليين. فأعادوا الرابطة النورماندية، ووضعوا على رأسها جوليلمو الذراع الحديدية بلقب كونت بوليا، فقد كان أقدرهم فى الحروب وأكثرهم عدداً وعدة: وانضم إليهم كونت آفرسا واعترفوا بجوايماريو أمير سالرنو سيداً إقطاعياً عليهم. وتم الإعلان على التحالف الجديد فى ملفى فى شهر سبتمبر سنة ألف وثلاث وأربعين، وتم معه تقسيم الأراضى التى جرى احتلالها بالقوة أو بالاتفاق، وهكذا حصل كونت آفرسا والاثنا عشر الآخرون، وجوليلمو مثل الآخرين، حصل كل منهم على مدينة كبيرة وبقيت ملفى مشتركة بينهم بوصفها العاصمة(1). وهكذا فإن النظام السائد كان خليطاً من النظام الإقطاعى والفيدرالى، وسرعان ما تحول إلى نظام إقطاعى صرف. ويبدو أن القادة حكموا المدن التى خصصت لهم حكماً وراثياً بوصفهم بارونات، وزادوا الضرائب، وأجبروا السكان، حسب التقاليد اللونجوباردية على خدمات وجدوها فى البلاد ولم يلغها الحكم البيزنطى؛ بل إنهم بدلاً من القضاء على مظالم ذلك الحكم، اضافوا إليها ما بقى عالقاً بذاكرتهم من مظالم بلادهم فى نورماندى(2). وكان

(1) أماتو، الكتاب الثانى، الفصل الثامن والعشرون إلى الفصل الثلاثين: ليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٦٦. الثلاث عشرة مدينة التى خصصت فى كابيتانا وأرض بارى ويرينشيباتو كلها مدن أسقفية، ونصفها كان كذلك قبل القرن الحادى عشر. ويذكر فى هذا الصدد ما سبق أن لا حظته عن هذا التقسيم فى الهامش رقم ٢، ص ٤٠.

(2) هكذا مضت الأمور بالضرورة، ولو أن قليلاً من اثار ذلك الإقطاع النورماندى قد بقيت. ومن المؤكد ان نرى فى البدايات ان بعض الأراضى قد أخضعت بالقوة أو بالمواثيق: وأن بعضها الآخر. قد صارت كونفدرالية تقريباً، وحافظت على حكمها الجماعى بأن دفعت إتاوة أو مساهمة فيدرالية. ربما ظلت مساهمة مشتركة للإنفاق على الجيش. وفى الواقع يقول جوليلمو دى بوليا، الذى يفترض صواباً أو خطأً تقسيمها قبل احتلال ملفى ويكتب فى الكتاب الأول:

.. undique terras
Divisere sibi ni sors inimica repugnet.
Singula proponunt loca quæ contingere sorte
Cuique duci debent et quæque tributa locorum.

الخضوع لأمير سالرنو شكلاً من اشكال الإقطاع؛ ولكنى أعتقد أنه كان بلا التزام بالخدمة العسكرية أو غيرها. وكان كونت بوليا الجديد المنتخب قائداً مدى الحياة وحاكماً فيدرالياً، ولكنه كان له الحق فى تنصيب أو على الأقل فى اقتراح بارونات جدد للأراضى التى يتم الاستيلاء عليها بمرور الوقت(1): وهكذا كان المجلس الاتحادى يذخر برجال صنعهم وبعد مرور ثلاثين عاماً ابتلع الكونت الثالث السيد الإقطاعى والمنضمين للاتحاد وحكم الجانب الأغلب من إيطاليا الجنوبية متخذاً لقب دوق.

وكانت الأسرة التى ارتفع قدرها إلى هذا المستوى العالى قد قدمت من كوتنتينو، وهو إقليم نورماندى اكثر من كل الأقاليم النورماندية الأخرى(2). ففى أوائل القرن الحادى عشر كان يحكم أراضى هوتفيل القليلة بالقرب من مارتينى فى إيبراشية كوتانس(3)، رجل يدعى تانكريدى، وهو نبيل من وسط طبقة النبلاء، لا يمتلك ملكية كبيرة، ولكنه كان رجلاً قوياً وشجاعاً، غير مجهول فى بلاط دوقات نورماندى، ولكنه ليس قريباً من اقربائهم، كما قالت القصص الخـرافية فيما بعد(4)؛ وكان أبا لإثنى عـشر ابناً قوى البنيـان تعلموا

ويشـير أماتو بهذا الشـكل، فى الكتاب الثانى، الفصـل السـابع والعشرين، إلى مكاسب النورمان تحت قيادة ارجيرو، اى سنة ١٠٤٢: *et et toutes les cités d'eluec constreigneient qui estoient al lo commandement et à la rayson statute que estoient; ensi alcun voluntairement se soumettoient et alcun de force et alcun paioient tribut de denaviers chascun an.*

(1) هكذا قام الكونت أونفريدو بمنح الامتيازات لأشقائه روبرتو، وموجريو وجوليلمو. وفى النهاية قام روبرتو بمنحها لروجيرو.

(2) انظر ما سبق فى صفحة ٢٢ ـ ٢٤.

(3) يحدد المكان جوتييه دارك، *Histoire des conquêtes des Normands en Italie ec.* باريس ١٨٣٠، الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ٦٤ وما بعدها.

(4) عن أحـوال تانكـريدى دى هوتفيل وظـروفه راجـع: مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الرابـع، والفـصل الأربعين: *Cronica di Roberto Guiscardo*، الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص ٢٦٣، والنص اللاتينى فى كتاب كاروزو، ص ٨٢٩، و*Cronica di San Massenzio*، المعروفة بـ *Chronicon Malleacense*، فى

حسب التقاليد السائدة فى ذلك القرن والمرعّية فى البلاد: الصيد، واستخدام السلاح، والفروسية، والعطف المسيحى والأخلاق، بعد أن كانوا قطاعاً للطرق. وبعد أن كانوا جنوداً مرتزقة، فإن ثلاثة من كبارهم وهم جوليلمو، ودروجونى وأونفريدو(1)، نزلوا إلى إيطاليا بعد أن مروا بأحداث مختلفة: وناضلوا فى كابوا، ثم فى سالرنو وانتقلوا مع جيش منياتشى إلى صقلية (١٠٣٨) حيث قاد جوليلمو جماعة أو

Recueil des Historiens des Gauls etc. المجلد الحادى عشر، ص ٦٤٤: جوليلمو دى ملمسبرى، الكتاب الثالث، فى المجموعة نفسها، المجلد التاسع، ص ١٨٧. اودوريكو فيتالى، الكتاب الخامس، فى كتاب دوشسن. *Historiæ Normannorum Scriptores*. ص ٥٨٤.

ويقول تاريخ سان ماسنسيو إن العائلة كانت فقيرة وغير ذائعة الصيت: جوليلمو مالمسبورى *Mediocri parentela ortus ec.*. أما مالاتيرا وتاريخ روبرتو جويسكاردى فيدعمان القول بنبل تانكريدى: *præclari admodum generis-genere nobilis.* أما عن القرابة مع دوقات نورمانديا، والتى أكدها فى البداية بعض كتاب التاريخ فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فلم يقبلها أحد من النقاد. انظر المبحث الخاص بهذا الموضوع والذى ألفه إ. ف. موير والذى طبع فى مندن سنة ١٨٥٠ والذى بمقتضاه نجد أن هذا الزعم يستند إلى سندين واهيين للغاية: الأول هو أن والد تانكـريدى كان ابناً من ابناء ريتشـارد الأول، واسـمائهم غير معـروفة: والثانى هو أن مـوريل ابنة ريتشـارد نفسه غير الشـرعية هى ماريللا زوجة تانكـريدى الأولى. ويبدو أن هذا الرأى كان شـائعاً فى بلاط بالـرمو سـنة ١١٤٠ لأن تاريـخ روبرتو جويسـكاردو يقول: *uxor nobilissima Muriella nomine*.

وعلى غير انتظار يسطع فى هذا الصدد خبر من أخبار الكتاب العرب، إذا كنا نثق فى كتاباتهم وعلمهم. فيذكر ابن خلدون فى موضعين من **التاريخ (المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٤٨١ وص ٤٩٧) اسم أول كونت على صقلية وهو روجار بن تانكريدى بن خيره، او حسبما ذكرت مخطوطات أخرى، ابن جـ. و. هـ، والذى يبدو انه اسم امرأة وقد يدل على أن أسرة هوتفيل يرجع أصلها النبيل إلى أم تانكريدى. وإذا افترضنا ان هذا الاسم اسم مذكر. وقد يكون كذلك، فيمكن قراءته هوجو او ايصاجير (فالحرف الأول يتغير بتغير وضع النقطة فيمكن ان يكون خـ او هـ أو جـ) وهما اسمان مستخدمان فى النرويج وفرنسا. وإنى مدين بهذا التحليل للعالم المستشرق النرويجى السيد بروك الذى يعتقد أن هذا الحرف قابل للتعديل فى الافتراض الثالث ليصبح هابى (أو ربما هابو) وقد يمثل، مع وجود خطأ يسهل التعرف عليه، قد يمثل اسم إقطاعية هوتفيل.

(1) ويلهلم ودروجو وهومفريد، وحسب النطق الفرنسى جويلوم ودرو وهمفرى.

فرقة أيا كان اسمها(1)، واستحق أن يطلق عليه لقب الذراع الحديدى. وتألق بشجاعته كذلك فى حرب بوليا: وكان يلقى بنفسه وهو محموم ودرجة حرارته أربعون فى اشتباك المتحاربين فى مونتبلوزو (١٠٤١) ويكسب المعركة: لقد كان جسوراً بين الشجعان، وكان أنيساً وعاقلاً وكان بجانبه شقيقان كل منهما كونت أو قائد فرقة، فمن ذا الذى كان يستطيع أن ينافسه على المكان الأسمى فى الصفوة العسكرية فى ملفى؟ وعند وفاته بعد ثلاث سنوات (١٠٤٦) صار دروجونى كونت بوليا، وقام بمراسم تقليده الامبراطور أرّيجو (١٠٤٧)؛ ثم بعد أن قُتل دروجونى (١٠٥١) ولىّ النورمان أخاه أونفريدو، وتحت زعامته أخمدوا انتفاضة شديدة قام بها الأمراء والشعوب(2).

كان هذا الاضطراب مشروعاً إذ أن الشعب كان يبحث عن الحرية وكان يعانى من إهانات جديدة، وكان البابا وامبراطورا الغرب والشرق قد أثاروا الاضطرابات لمصالحهم الخاصة تحت الشعار المعتاد: الصالح العام والأخلاق والعدالة والدين. وكان النورمان يتيحون لهم الفرصة. وإذا كانت حقيقة لا توجد شهادات محددة على جشع هؤلاء وتجبرهم فى إيطاليا فإننا قد نستخلص هذا من الأحداث المعاصرة التى وقعت فى انجلترا حيث عمل النورمان وهم ضيوف إدوارد الأول، عـــملوا كثيراً على تحريض السكسونيين على الثورة(3). ولهذا فنحن

---

(1) أمـاتو ومالاتيرا وليونى دوستيا يطلقون عليه قائد الفرقة، ولكن هذا يبدو لى خطأ مقصوداً من جانب أمراء أسرة هوتفيل. انظر فى هذا الصدد الكتاب الرابع، الفصل العاشر من هذا المؤلَف، المجلد الثانى، ص ٢٩١ الهامش رقم ٢ وص ٤٠٠ الهامش ١.

(2) راجع أماتو وجوليلمو دى بوليا ومعاصريهم المذكورين سابقاً. ويؤكد م. جوتييه أرلك، المصدر المذكور، الكتاب الأول، الفصل الخامس، ص ١٤١ يؤكد أن دروجونى قد نال من أريجو الثالث لقب دوق؛ ولكن الفقرة التى يرفقها من إرمانّو كونتراتو موضع شك، والوثيقة التى تحمل اسم دروجونى وثيقة مغلوطة فى تاريخها وهو ١٠٥٣. فقد طُعن دروجونى فى أغسطس ١٠٥١.

(3) انظر المصـــادر التى أوردها اوجـستين تيهـــرى. *Hist. de la Conquête d'Angleterre,* الكتاب الثالث، سنتى ١٠٤٨ و١٠٦٥.

تصدق كتاب ذلك العصر من الألمان والإيطاليين والبيزنطيين فى رواياتهم لظلم الفرق النورماندية المرابطة فى بوليا والمختلطة مع الجند القادمين من وراء جبال الألب ومع الجند الإيطاليين، والذين كان وطنهم الوحيد هو معسكرهم، وفضيلتهم الوحيدة هى البسالة المنظمة(1). وأطاع الرعايا الجدد الذين جردهم الأمراء مما لديهم واهانهم الجند، أطاعوا القوى الثلاث التى كانت تمد أيديها لهم فجأة ودون توقع. فدعت القسطنطينية، لإصلاح الأمور، المبعدين والمنفيين للعودة إلى باري؛ ونصبت ارجيرو دوقاً على إيطاليا وهو الابن البكر للثورة؛ ووعدت بوليا بعصر ذهبى. أما الامبراطور الجرمـانى فقد سارع إلى إرسال الجنود، وقد ناشده البابا وحثه على هذا فقد كان فى تلك الفترة وكيلاً له فى إيطاليا. وكانت العملية تهم بلاط البابا فى روما أكثر من غيره بعد أن مرّ به قرنان من

(1) راجع إرمانّو كونتراتّو فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ١٣٢: *Indigentes bello premere, injustum dominatum invadere, hæredibus legitimis castella, prædia, villas, domus, uxores etiam quibus libuit vi auferre, res ecclesiasticas diripere ec.*، وارنولفو، *Gesta episcoporum Mediolan*. فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد العاشر، ص ١٠ وص ١١، يقول بالمثل إن النورمان بعدما تضخم عددهم شيئاً فشيئاً فى بوليا، أصبحوا أشد قسوة من اليونانيين وأكثر عنفاً من السراسنة. وتفلت من فم أماتو كذلك بعض الشكاوى عندما يتعرض للحديث عن مونتى كاسينو، الكتاب الثانى: الفصل الواحد والستون. وجوليلمو دى بوليا نفسه، عند إشارته لأعمال البابا ليونى، يؤكد أن ارجيرو *Veris commiscens fallacia mittit ec.*. وانحى جانباً شهادات كثيرة أخرى لأنها لا طائل منها او مشكوكاً فيها مثل شهادات اذا كومنينا. ويعتقد فرّارى، فى كتابه *Histoire des Révolutions d'Italie*، المجلد الأول، ص ٣٤٤ وما بعدها، يعتقد انه تم التشهير بالنورمان من خلال رد الفعل الوحدوى الذى انطلق آنذاك ضد ثورة الأساقفة الفيدرالية، وبالرغم من أنى لا أستطيع، دون بحث أعمق ودراسة أطول، أن أنفى او أقبل شروح ذلك المفكر الجديدة عن تاريخ الوطن، إلا أنى أرى الالتزام بتأكيدات المؤرخين المحددة، والتى تتفق بالإضافة إلى ذلك مع أحوال الفاتحين أو الحاكمين الأجانب كافة. ثم إن الظلم والإجحاف والرد عليه لا يتساويان، ومن المؤكد أن النورمان، إذا كانوا قد خدموا إحدى الثورات الإيطالية، فإنهم قد حولوها لمصلحتهم الخاصة.

الخزى والعار وأخذ يبحث عن النهضة طبقاً لنصائح إلدبراندو الراهب الذى أخذ عندما صار كردينالاً فى إصلاح مادرج عليه رجال الدين وفى اختيار الكهنة، وهى أمور حارب من أجلها إلدبراندو عندما صار هو البابا؛ ومع أسلحة العفة والحرية كان يجدد محاولة الحصول على مكاسب فى إيطاليا الجنوبية. وقام ليونى التاسع، وهو رجل متدين ذو فضائل شخصية، بتسيير الجيوش لتحرير الشعوب، كما كان يقول، من الاستبداد: ولحماية الفقراء تواطأ مع الامبراطورين ومع أرجيرو ومع أهالى بوليا الذين لطخوا أيديهم بدم دروجونى، عندما ذبحوه غدراً على عتبة المعبد. وكان يهدئ الضمائر بالغموض الكهنوتى. «إنى لا أتوق إلى موت أى نورماندى، ولا إلى موت أحد من البشر» هذا ما كتبه ليونى بعد ذلك بسنوات قليلة إلى قسطنطين مونوماكو، «ولكنى أريد أن أدفع إلى التوبة والندم بالخوف البشرى من لا يخشى عدالة الله»(1).

وبينما كان الأعداء يطلقون العنان لما فى صدورهم دون وحدة فى المشورة والعمل، أخذ النورمان فى دعم مواقعهم، وفى التوسع فى كلابريا على حساب اليونانيين(2)؛ وجاء عبر الجبال أبناء تانكريدى من زوجته الثانية فريديسندا، وأولهم روبرتو جويسكاردو (١٠٤٧)،

---

(1) رسالة ليونى التاسع إلى قسطنطين مونوماكو، فى كتاب لابّى، *Concilia*، المجلد التاسع، ص ٩٨٢. يقول البابا بوضوح إنه يريد استعادة تراث كنيسة روما، ويريد أن يوفق بين الإمبراطورين اللذين يمثلان ذراعى الكنيسة إلخ. ولا يلزم ذكر استشهادات عن الوقائع الأخرى فهى معروفة معرفة تامة. ويستطيع القارئ أن يحكم على آرائى دون الرجوع إلى مصادر أخرى. لقد أخذت دعوى الدفاع عن الفقراء من أماتو الذى يكتب فى الكتاب الثالث، الفصلين السادس عشر والسابع عشر عن احتجاج ليونى التاسع ولومه للنورمان فيقول: *Et quant cil de Bonivent oïrent tant de perfetion et de sanctité de lo pape, chacerent lo prince et soumistrent soi à la fidelit soe, eaux et la cit*. وكما يعلم الجميع فإن ليونى كان قد انتزع بنفنتو من أريجو الثانى المخلص فى مقابل حقوقه على كنيسة بامبرج.

(2) *Chronicon Breve Northmannicum*، فى كتاب موراتورى، *Rreum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٢٧٨، السنوات من ١٠٤٥ إلى ١٠٥٢.

ولما لم يعرف أخوه دروجونى ماذا يفعل له، أرسله مع حفنة من الرجال إلى حدود كلابريا؛ وأمر بتجهيز ملجأ من الخشب على قمة أحد الجبال؛ دعاه روكًا دى سان مارتينو؛ وهناك قال للشاب أن يأخذ كل ما يستطيع أن يراه بعينيه والتف عائداً إلى بوليا(1). وبدأ روبرتو فى فتح كلابريا بوصفه لصاً: فسرق المواشى، ونهب القرى، وخطف الأفراد لدفع الفدية، وحرق محاصيل من رفض دفع الإتاوة، وقتل من دافع عن أملاكه: حتى إن إقليماً كان يرتمى فى أحضان السيادة الإقطاعية، وكان قطاع الطرق يرتمون فى أحضان سيادة إقطاعية أخرى. ووسط أسوأ الممارسات جعل روبرتو من نفسه قائداً كبيراً، وحسن من أوضاعه بإحدى الزيجات وإحدى الخيانات؛ واستأجر جنوداً، وجذب آخرين أكثر عدداً واعداً إياهم بالغنيمة، وبالعدالة فى توزيعها وبهيئته العسكرية التى تنم على الإرادة والتصميم، وسيماه التى تنم عن أنه رفيق طيب، وشهرته التى تتحدث عن شجاعته المفرطة، وثباته ومكره ومشورته الصائبة. وهكذا سار جيش من أهل كلابريا تحت قيادة روبرتو عندما نزل البابا ليونى على رأس جيشه إلى شيفيتا على فورتورى، وحشد النورمان قواتهم كلها للدفاع عن أنفسهم. وبعد أن حلت بهم المجاعة، ورفض البابا كل عروضهم وطلباتهم، اضطروا إلى القتال (١٨ يونيه ١٠٥٣) وكان الجيش والفرقة الأولى تحت قيادة أونفريدو، بينما قاد ريكاردو الفرقة الثانية وروبرتو الفرقة الثالثة، وكانت كلها من أهل كلابريا. وهرب الإيطاليون، جنـود البـابا وكانوا بلا قائد؛ أما الألمــان فقد خاضــوا الحرب حتى قُطِّعـوا إرباً؛ أما الإيطاليون المنضمون للفرق والإيطاليون

---

(1) أماتو، الكتاب الثانى، الفصل الخامس والستون: والكتاب الثالث، الفصل السابع. وقارنه بالمؤرخين الآخرين الذين لا طائل من ذكرهم بالتفصيل.
ويقول مالاتيرا إن المخبأ ـ الحصن هو حصن سكريبلى فى فال دى كراتى.

الذين حاربوا مع روبرتو فقد انتصروا إلى جانب النورمان(1).

وبعد أن تركوا جانباً منحة البابا الإقطاعية فى ذلك الوقت(2)، فمن المؤكد أن المنتصرين قد أسروا وهم يقبلون قدميه، وأن ليونى كان يبارك أحياءهم وأمواتهم، وأنه بكى، وندم وتاب توبة نصوحا، ويقولون إنه أجرى بعض المعجزات، وبعد عشرة شهور عاد حراً إلى روما وحاك مع ارجيرو والإمبراطورين مؤامراته ضد النورمان(3)، ولكن المنية حالت دونها (١٠٥٤)؛ وجاء كذلك ستيفانو التاسع يتحدث

---

(1) قارن بين: اماتو، الكتاب الثالث: وجوليلمو دى بوليا، الكتاب الثانى: ولوبو بروتسبتاريو، السنة ١٠٥٢؛ ومالاتيرا، الكتاب الأول، من الفصل الثانى عشر إلى الفصل الخامس عشر: وليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٨٤: إرمانّو كونتراتّو، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ١٣٢.

(2) لم يرو اماتو او جوليلمو دى بوليا او ليونى دوستيا او اى مؤرخ آخر هذه المنحة إلا مالاتيرا الذى نقرأ فى روايته: *Quorum (Normannorum) legitimam benevolentiam Apostolicus gratanter suscipiens, de offensis indulgentiam et benedictionem contulit et Siciliam lucrari possent, de Sancto Petro hæreditali feudo sibi et hæridibus suis possidendam concessit, circa annos 1052.* وهنالك خلط بين هذه السنة وسنة ١٠٥٩. كما ان هناك خلطاً فى الاسم بين ليونى التاسع ونيقولا الثانى: او انه الكونت روجيرو هو المؤلف الحقيقى للرواية، لما علم من إخوته العروض التى قدمها النورمان أنذاك وبعض الوعود المبهمة التى قدمها البابا الأسير، فصاغ الرواية، بعد نصف قرن، من الخيال أو من الذاكرة غير المؤكدة، فى صورة منحة إقطاعية حقيقية. ومن الملاحظ أن أماتو فى الكتاب الثالث، الفصل السادس والثلاثين، يشير إلى عرض النورمان والتماسهم قبل المعركة بقبول التنصيب ودفع الضريبة: فكيف إذن لا يذكر أن البابا قد قبل العرض وهو أسير؟ ولم آخذ فى اعتبارى هنا كتاب روبرتو جويسكاردو *Cronica* لأنه يرجع إلى منتصف القرن الثانى عشر. ويبدو لى أن رسالة ليونى التاسع التى سأذكرها فى الهامش التالى تدحض تماماً قصة مالاتيرا.

(3) رسالة ليونى التاسع إلى قسطنطين مونوماكو، تجدها عند لابى، فى *Concilia*، المجلد التاسع، ص ٩٨١ وما بعدها. وعلى الرغم من عدم وجود تاريخ بالرسالة فإنها ينبغى أن تؤرخ فيما بين ١٨ يونيه ١٠٥٣ و١٩ إبريل ١٠٥٤، وهو يوم وفاة البابا: لأن معركة شيفيتا يشار إليها بما لايدع مجالاً للغموض: كما لا يمكن أن نقبل رأى سان مارك، *Abrégé Chronologique*، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ١٧٠ وما بعدها والذى يرى أن هذه الرسالة قد كتبت سنة ١٠٥١، وافترض قيام معركة أخرى بين النورمان وجنود البابا. ويقطع ويبرتو رئيس شمامسة تول الشك باليقين، فيذكر فى سيرة ليونى التاسع، الكتاب الثانى، الفصل السادس، فى بولانديستى، بتاريخ ١٩ إبريل، المجلد الثانى

عن استئناف العملية (١٠٥٨)(1). وكان أونفريدو فى ذلك الوقت يستغل انتصاره فى شيفيتا، وكان يخضع لحكمه باقى بوليا؛ ويهدد بارى ومدناً أخرى صعبة الاقتحام؛ واستأنف جويسكاردو العمل فى كلابريا(2)؛ وبهذا كانت سلطة أسرة هوتفيل تزداد وتتدعم؛ فصار مالجريو كونت على كابيتاناتا وجوليلمو على برنشيباتو، وجاء إخوة وأقارب آخرون(3). وتمنى أونفريدو أن يجعل مهمته وراثية؛ فعند وفاته، دعا روبرتو للحضور، وعيّنه وصياً على ابنه الذى لم يبلغ سن الرشد؛ ولعله أوصى بكليهما القادة النورمان؛ وعندما وافته المنية (١٠٥٦) صار جويسكاردو كونت بوليا(4). فأشعر رفاقه بيد رجل العصابات؛ وقمع بالقوة والمكر أولئك الذين كانوا يتذكرون المساواة؛

لهذا الشهر، ص ٦٦٣. يذكر جزءاً من الرسالة نفسها ليروى ـ كما يقول ـ بكلمات البابا نفسها صدام شيفيتا تولا. ويضيف بكتابته ما نعرفه من أحداث لاحقة للمعركة: الذهاب إلى بنفنتو ثم إلى روما، وحتى وفاة ليونى. ويكتب أماتو فى الكتاب الثالث، الفصل التاسع والثلاثين، يكتب: *Et o la favor de li Normant torna à Romeà li X mois .puis que avoit esté la bataille.*

(1) أماتو، الكتاب الثالث، الفصل السادس والأربعون والفصل السابع والأربعون. نُصِّب ستيفانو التاسع فى ٢ أغسطس ١٠٥٧، وتوفى فى ٢٩ مارس ١٠٥٨. ويروى أماتو أنه استولى على كنز مونتى كاسينو، لكى يحارب النورمان.

(2) جوليلمو دى بوليا، الكتاب الثانى: مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر. ومن ناحية أخرى يروى أماتو فى، الكتاب الثانى، الفصل الثانى والأربعين وما بعده التحرشات التى كان يقوم بها فى إمارة سالرنو كل من أونفريدو وأخيه جوليلمو وريكاردو دافرسا.

(3) مالاتيرا، الموضع المذكور. ويشير أماتو، الذى يلمس فى هذه الفترة بشكل أكثر إيجازاً أمور بوليا، إلى مجئ ملجيريو، وجوفريدو، وجوليلمو وروجيرو إخوة الكونت أونفريدو فى نحو سنة ١٠٥٤. وكان جوليلمو هذا هو ابن تانكريدى من زوجته الثانية فريدِسندا.

(4) ينقل المعاصرون هذا الحدث مجزءاً؛ فينقل كل منهم جزءاً. ويكتب أماتو فى الكتاب الرابع والفصل الثانى أنه عند وفاة أونفريدو: *Robert son frere rechut l'onor de la contè et la cure de estre conte.* ويشير جوليلمو دى بوليا فى الكتاب الثانى إلى المهمة التى تركت لروبرتو بصفته وصياً على الابن بالأبيات: *Rector terrarum sit eo moriente ec.* ولا يتحدث مالاتيرا عن الوصاية ولكنه يقول بالتحديد فى الكتاب الأول، الفصل الثامن عشر إن روبرتو *suceptusque a patriæ primatibus, omnium dominus et comes et comes in loco fratris efficitur.*

وصار فى الواقع سيداً إقطاعياً. واتخذ بسهولة شكلاً قانونياً، بأن حصل من بلاط روما على لقب جديد وعلى تنصيبه.

كان إلدبراندو يمهد بلسان نيكولا الثانى لحرب الكهنوت على الامبراطورية بأن أمر بحرية اختيار البابوات (١٠٥٩)؛ وكانت فكرة الجويلف (مؤيدى البابا) تلمع فى فكر الكردينال التوسكانى والبابا السافوياردى الذى عاش فى فلورنسا: فقد كان على بلاط روما، وهو يريد أن يتحلل من الخضوع للألمان، أن يعتمد على القوى الموجودة فى إيطاليا مهما كانت. وعندما عقد نيكولا مجمعاً فى ملفى عن النظام الكنسى، قام بأمر أخطر، فقد تفاوض مع روبرتو المحروم من الكنيسة، وباركه، ونصبه سيداً على بوليا وكلابريا ومنحه لقب دوق ليحكمهما بوصفهما إقطاعية لكنيسة روما، على أن يقسم بالإخلاص لها وأن يقوم بخدمتها عسكرياً عند الحاجة وأن يدفع لها ضريبة سنوية مقدارها اثنا عشر ديناراً عن كل بوجيرو (٢٨٨٠٠ قدم٢) من الأراضى التى يحوزها أو التى وهبت للنورمان حتى ذلك اليوم. كما

---

(1) إن واقعتى تعديل اللقب من كونت إلى دوق والتبعية الإقطاعية إلى روما نأخذها من المصادر التالية:

اماتو، الكتاب الرابع، الفصل الثالث، وبعد أن يروى احتلال ريجو يستطرد قائلاً: *Et pour ce Robert sailli en plus grand estat qu'il non se clame plus conte, mésse clamoit duc.* ولا يشير أية إشارة إلى مجمع ملفى أو إلى التنصيب.

أما مالاتيرا الذى نسب، كما قلنا، فى هامش ٢ ص ٥٠، المنحة الإقطاعية إلى ليونى التاسع لصالح أونفريدو، فلا يذكر من قريب أو بعيد مفاوضات ملفى، ولكنه فى الكتاب الأول، الفصل الخامس والثلاثين، يضيف بعد احتلال ريجو سنة ١٠٦٠ قائلاً:

Igitur Robertus Guiscardus, accepta urbe, diuturni sui desiderii compos effectus, cum triumphali gloria dux efficitur.

ويخلط لوبو بروتسبتاريو بين الأمرين فى سنة ١٠٥٦ ويكتب: *Et Unfredo obiit et Robertus frater ejus factus est dux;* ويكتب العالم كاميللو بللجرنيو ملاحظة على هذه الفقرة فيقول إن دروجونى وأونفريدو قد أطلق على نفسيهما فى وثائقهما لقب *comes* تارة ولقب *dux* تارة أخرى.

أما *Cronica* للمؤرخ روبرتو فيسكاردو (المجهول عند كاروزو، ومؤرخ الفاتيكان المجهول عند موراتورى) فإنه يسكت عن تحالفات ملفى والحصول على الوقية.

وعد روبرتو بأن يتم تنصيبه على صقلية(1). ولم يكن بلاط روما البابوى قد امتلك مطلقاً بوليا أو كلابريا أو صقلية، فعلاً أو اسماً، إلا فى هبة قسطنطين المزورة وفى الفقرات المدسوسة على

ويذكر مثل مالاتيرا منحة ليون التاسع التى يحددها ويفصلها هكذا: *Discrete ac subtiliter utilitati Sanctæ Ecclesiæ prævidens, talam Apuliam atque Calabriam Guarnerii usque ad Farum comiti Humfredo et suis successoribus, nequaquam coactus in aliquo sed sola spontanea voluntate et suorum consilio Cardinalium, regendas semperque possidendas permisit.* راجع الترجمة الفرنسية فى مجلد اماتو نفسه، ص ٢٧٥ وص ٢٧٦.

جوليلمو دى بوليا. الكتاب الثانى، يستطرد بعد أن يروى وقائع مجمع ملفى قائلاً:

Finita Synodo, multorum Papa rogatu
Robertum donat Nicolaus honore ducali.
Hic comitum solus concesso jure ducatus
Est papæ facius jurando jure fidelis;
Unde sibi Calaber concessus et Appulus omnis
Est, locus et Latio, patriæ dominatio gentis.

ونجد فى اخبار النورمان الموجزة فى كتاب موراتورى. *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٢٧٨ (٥) فى أحداث سنة ١٠٥٩:

Robertus Comes Apuliæ factus est dux Apuliæ, Calabriæ et Siciliæ a papa Nicolao in ciritate Melphis, et fecit ei hominium de omni terra.

ويبتعد عن أماتو هذه المرة ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل الخامس عشر أو (السادس عشر) فيكتب قائلاً: *Eisdem quoque diebus et Richardo prirci patum capuanum et Robberto ducatum Apuliæ, Calabriæ atque Siciliæ (Nicolaus II) confirmavit cum sacramento; et fidelitate Romanæ Ecclesiæ ab eis primo recepta, nec non investitione census totius terræ ipsorum, singulis videlicet annis per singula boum paria denarios duodecim.* ثم يرجع إلى رواية أماتو وإلى الاستيلاء على ريجو ويختتم حديثه قائلاً إن روبرتو *ex tunc cæpit dux appellari* وعلى هذا فلدينا اربع روايات مختلفة:

الأولى: تنصيب أونفريدو بيد ليونى التاسع فى سنة ١٠٥٢. ويؤيده المؤرخ والمصنف من الجانب الصقلى. ويضيف أولهما بغموض مقصود الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فى اتجاه كلابريا وصقلية. ويمحو الثانى، بعد خمسين سنة من مالاتيرا اسم صقلية ويغير المنحة الإقطاعية إلى مجرد هبة.

الثانية: تنصيب روبرتو على بوليا وكلابريا بلقب دوق بيد نيكولا الثانى. وهى رواية جوليلمو دى بوليا فقط. وكان صديقاً للعائلتين النورمانديتين فى افرسا وبوليا.

وثائق لودفيكو البار، وأتّونى الثالث، وأريجو الثانى؛ ولكنه كان له أتباعه ومناصروه بين رجال الدين فى جنوب إيطاليا، وكان يتمتع بتقدير الشعب بصفته محرِّراً ومقدساً، وكان ينشر الرعب الدينى فى

الثالثة: الرواية نفسها مع إضافة صقلية. ونجدها فى ليونى دوستيا وفى *Chronicon Breve*. وكلاهما من بدايات القرن الثانى عشر. وكان ليونى كاردينالاً.

رابعاً: لا ذكر للتنصيب عند المتعاصرين أماتو وبروتسبتاريو اللذين لا يتجاهلان لقب دوق الذى تم الحصول عليه.

ومن صمت البعض واختلاف الآخرين يمكننا أن ندلل على أن التنصيب لم يعلن إطلاقاً فى البلاد. إذ إن الإجراء كان اغتصاباً للسلطة الامبراطورية. وبمثابة الإعداد للحرب ضد الامبراطورية، لذا ينبغى إخفاؤه بكل حذر وحرص. ولكن الإجراء نفسه ليس محل شك.

ومن بين كل المذكرات التى لدينا عن هذا فإن أقرب المذكرات إلى الأصل هو إقرار روبرتو المكتوب والذى نُسخ فى تاريخ نجهله فى *Liber census* الخاص ببلاط روما، والذى نشره بارونيو فى *Annales ecclesiastici*. ١٠٥٩، § ٧٠. وبتاريخ سنة ١٠٥٩ نفسها.

Ego Robertus Dei gratia et Sancti Petri Dux Apuliæ et Calabriæ et utroque subveniente futurus Siciliæ, ad confirmationem traditionis et ad recognitionem fidelitatis, de omni terra quam ego proprie sub dominio meo teneo et quam adhuc ulli Ultramuntanorum unquam concessi ut teneat, promitto me annualiter pro unoquoque jugo boum pensionem scilicet duodecim denarios papiensis monetæ persoluturum Beato Petro ec.

إن هذه الوثيقة، ولعلها ظلت وثيقة سرية لسنوات كثيرة، تبدو لنا أصلية وتحدد، كما يرى الجميع، أراضى قليلة فى بوليا وكلابريا لدفع الضريبة الجديدة للبابا. وأكثر من هذا نلاحظ فيها طبيعة منح صقلية، أى أنه إجراء لم يتم، ولكنه مجرد وعد. ولم يذكر جوليلمو دى بوليا الوعد لأن صاحب الجانب الأكبر من صقلية، الذى لم يكن روبرتو وإنما روجيرو، كان قد تجنب التنصيب. وقد أكد ليونى دوستيا منح صقلية وجعله مساوياً لمنح بوليا وكلابريا، لأنه كان كاردينالاً وكتب عنه بعد عهد البابا إلدبراندو الرهيب. أما مالاتيرا فقد كتب تلك العبارة الغامضة: فى اتجاه كلابريا وصقلية، وبمفارقة فى تاريخ سنة ١٠٥٢. ثم إن إقرار خلفاء روبرتو وعدم قبول خلفاء روجيرو وما جاء فى *Cronica di Roberto Wiscardo*، وهى مدونة تاريخية خاصة ببلاط الملك روجيرو، تبرهن على الاختلاف حول الحق الذى تم الاعتراف به فى آخر القرن الحادى عشر، وهو ما سنتحدث عنه فى موضعه.

أما بشأن تغيير لقب روبرتو فقد لاحظنا أن أسلافه كان يطلق عليهم أحياناً لقب دوق: فالتخنوا، كما ينكر بللجرينو، اللقب الذى كان البلاط البيزنطى قد منحه لأرجيرو، القائم

قلوب مغامرى ما وراء الجبال المتوحشين. والخلاصة هى أن الرقيب الأكبر على المتاجرة بالمقدسات قد منح روبرتو صفة الشريك فى الولاية على مناصريه وأرضاً غير معروف مالكها فى مقابل حصوله على ضريبة نقدية سنوية، وخدمات عسكرية عند الحاجة بالإضافة إلى المكاسب المرتبطة بالسيادة الإقطاعية. وسواء كانت هذه المقايضة مقايضة شريفة أم لا فقد كان بلاط روما يقدم قوات حقيقية للبر الإيطالى، وعلى النقيض من هذا فإنه فى تحالفه مع صقلية، القائم على المخاطرة، لم يقدم لها شيئاً من عنده. واتفقت بالتالى النتائج مع الأسباب فعندما تم الاستيلاء على الجزيرة لم يطلب أحد من بلاط روما تنصيبه؛ بل إن البابا تنازل عن جانب من السلطة الكنسية للأمير طالباً منه شيئاً من الثقة فى القديس بطرس (الكنيسة) فى الجزيرة التى يتقاسمها فوتسيو ومحمد. وعلى النهج نفسه الذى جرى مع روبرتو، وللأسباب نفسها قام نيكولا الثانى بمنح أفرسا للكونت ريكاردو وتنصيبه عليها، فقام بعد فترة وجيزة باغتصاب إمارة كابوا (١٠٦٢). وهكذا كان الحكم النورماندى يتغلغل ويتجذر ويتقوى من خلال روابط القربى ووشائج المصالح المشتركة بين ريكاردو وروبرتو؛ ومن خلال زواج هذا بأخت أمير سالرنو التى من أجلها طلّق بحجج كاذبة الفياراد، التى كانت السبب الأول فى عظمته؛ وفى الختام من خلال الاستيلاء على كلابريا الذى حققه روبرتو وروجيرو فى صيف سنة ألف وستين.

على الإقليم الذى احتله النورمان. ولعل دروجونى وأونفريدو كانا يتوقان إلى أن يتميزا عن غيرهما من رؤساء الاتحاد الذين يحملون لقب كونت. وعلى كل حال فإن شهادات أماتو ومالاتيرا وجوليلمو دى بوليا وليونى دوستيا تدلل على أن روبرتو حصل على اللقب الجديد بشكل قاطع عند احتلال كريالى أو ريجو، أى سنة ١٠٥٩ أو ١٠٦٠؛ وعلى كل الأحوال بعد منحة نيكولا الثانى. ولا يمنع هذا أنه طلب موافقة بقية رؤساء النورمان الذين يحملون لقب كونت، كما يرى عن حق مؤرخو نابولى وكما نقرأ فى كتاب المؤلف المجهول *Recueil des Historiens des Gaules ec.*). المجلد العاشر، ص ٢١٠): ولكن من كان يستطيع أن يمتنع عن الموافقة له؟.

عبر روچيرو، آخر أبناء تانكريدى، إلى إيطاليا نحو سنة ألف وست وخمسين، وكان شاباً فى الخامسة والعشرين من العمر أو نحو ذلك(1)، وكان ضخم الجسم، مفتول العضلات، جميل الهيئة، حلو الحديث، معروفاً بشجاعته، محباً للمديح، طموحاً مثل غيره من أهل بيته وأمته، ومشاغباً ولكنه منفتح وليبرالى، ليست له نقائص روبرتو الرئيسة، ولكنه كان معادلاً له فى الحرب، وكان حكيماً فى أمور الدولة، دون أن يكون له ذلك الخيال والتحليق فى العلا الذى كان يميز جويسكاردو. وعندما حصل على لقب كونت بوليا وبدأت بعد ذلك بقليل عملية كلابريا، ولم يستطع الوصول إلى ريچو (١٠٥٦) عاد إلى بوليا ليبدأ محاولة بقوات قليلة فيضرب ضربة جديدة أولئك الأهالى المتفرقين والمختلفين وغير الخاضعين للامبراطورية البيزنطية: فهم قصبات سهلة الكسر، لأنهم لا يرغبون فى التجمع معاً. فيرسل روچيرو مع ستين فارساً (١٠٥٧) إلى أطراف جبال الأبنين الجنوبية، ويقوم هذا بالإغارة على طريقة النورمان بحذق ومهارة، بأن يتحصن فوق المرتفعات وينزل الخراب فى السهول: وهكذا خضع وادى سالينى بالقرب من كابو ديللى آرمى لحكم روبرتو الإقطاعى. وبأمانة الشباب وصدقهم كان روچيرو يسلمه ما سلبه من أموال: وبحكمته كان يقدم له المشورة بشأن عملية جديدة كان يتم تجهيزها ضد ريچو. وذهب كلاهما، وكان روچيرو بغاراته الجريئة يوفر المؤن للجيش: ولكن مقاومة أهل المدينة الشديدة وحلول الشتاء وضعا نهاية للحصار. عندئذ ظهر الخلاف بين الشقيقين، فكان روچيرو يشكو من أن روبرتو لبخله وحسده كان يكافئه مكافأة ضئيلة للغاية؛ ولهذا ذهب ليكون إلى جانب أخيه الآخر جوليلمو كونت برنشيباتو، الذى صار عدواً هو الآخر لروبرتو، وتحرشا به بأعمال النهب والمناوشات؛ ثم تصالحوا معاً وعاد روچيرو ليعمل لدى الدوق مع

---

(1) كان روچيرو عند وفاته (١١٠١) يبلغ من العمر سبعين عاماً، حسب قول فاتزللو الذى لا يذكر مصادره. وتوجد روايات مختلفة سأتناولها بالحديث فى موضعها.

اربعين فارساً ويحصل منه على الرواتب؛ وبمجرد ما كان يراه لا يدفع له الرواتب، كان يتركه ويمضى لاستئناف غاراته من أجل السلب والنهب. وفى ملفى، أعجب الشاب بجياد أحد الجيران إعجاباً شديداً، فسرقها ليلاً مع رجل من رجال عصابته يدعى بلتيقا، وكان ماهراً فى السرقة؛ وبعد ذلك بقليل علم بوجود مجموعة من التجار الذين يسافرون من أمالفى إلى ملفى، فترصدهم وجرّدهم وفرض إتاوة عليهم، وبالأموال زاد من عدد فرقته إلى مائة رجل. ولكن مع بداية عام ألف وثمانية وخمسين أخذ رجال روبرتو يمزقون كلابريا تمزيقاً، كما اجتاحها الطاعون ومجاعة رهيبة فقام الأهالى الخاضعون لسيادة النورمان قومتهم، وذبحوا فرقاً بكاملها: ومن هنا فإن روبرتو قرر أن ينتقل من بوليا إلى كلابريا، أى من أرض العدو إلى أرضه هو، ذلك الشبل الذى قلب الأمور فى سنتين. ومن المعروف أن المصالح كانت تؤجج العواطف الأخوية بسرعة شديدة: فقد تنازل روبرتو لروجيرو عن نصف الأراضى التى أخضعها والتى يمكن أن يستولى عليها فى اقصى كلابريا. وأقام روجيرو مقراً له فى ميليتو، فى سنة ألف وتسع وخمسين، وأخضع الجزء الأكبر من البلد؛ وعامل أسقفين يونانيين معاملة سيئة عندما رآهما يتقدمان نحوه وهما مسلحان فى فال دى سالينى؛ وهبط كالصاعقة فى كابيتاناتا مع أخيه روبرتو وفقاً عينى نورماندى آخر كان قد تمرد على أخيه جوفريدو؛ وعاد مع روبرتو إلى كلابريا لكى يقوم بالإغارات حتى ريچو (١٠٥٩) واستعدا لحرب كبرى. وفى الحقيقة أنه فى سنة ألف وستين جمع روبرتو جيشاً أو يكاد واصطحب معه روجيرو، ونزل إلى ريچو فى شهر يوليو، وبعد معارك كثيرة، ذاع فيها صيت الشاب كما ذاع طول حياته، لجأ أهل المدينة الشجعان إلى داخل الأسوار، ونصبت الآلات لهدم الأسوار فاضطرت ريچو وقد خارت قواها إلى الاستسلام، طبقاً للعهود والاتفاق، واعترفت بالسيادة للدوق. وبينما كان يرتب أمور المدينة وينظمها أخذ روجيرو فى إخضاع القلاع القريبة، فيما

عدا سكويللاتشى: وبعد عدة شهور فتحت هى الأخرى بواباتها له(1).

وهكذا وفى غضون عشرين عاماً من تمرد أردوينو استطاعت فرق النورمان والإيطاليين من الاستيلاء على الإقليم البيزنطى الشاسع. وصارت سالرنو، التى كانت أول من استدعاهم وتقبلهم، صارت فى الواقع تدفع الخراج لهم. وصار أمراؤها بالضرورة أصهاراً لأسرة هوتفيل. ولا تعد فى هذا الإطار الدويلات الصغيرة: فكانت نابولى شبه حرة؛ وبنفنتو مغتصبة من جانب البابا؛ ومونتى كاسينو أبعدية أو إقطاعية، لا ندرى؛ وأمالفى استولت عليها سالرنو ثم تركتها. أما أسرة أفرسا، التى كانت مرتبطة بوشائج المصاهرة مع أسرة هوتفيل ومع أمراء سالرنو، فكانت على أهبة الاستعداد لنهب إمارة كابوا ونهب جايتا. ولم يتبق من سيطرة اللومبارد فى سالرنو إلا الاسم فقط الذى سرعان ما اختفى (١٠٧٧). وبهذا تغيرت نظم الفرقة شيئاً فشيئاً، فبعد أن كانت اتحاداً للمغامرين تحولت إلى طبقة من النبلاء من ملاك الأراضى، يتبع أغلبهم روبرتو دى هوتفيل، ويتبع أقلهم ريكاردو دى أفرسا: وبعد أن اعترفت الأسرتان الحاكمتان بالسيادة الإقطاعية لسالرنو فى البداية، ثم للأباطرة الجرمان، عادت تلفيان سيادة كليهما بأن اتفقتا على سيادة البابا. وهو ما شكّل تداخلاً وتشابكاً فى القانون العام، إذا صح الحديث عن قانون فى تلك الفترة، بين اختمار العناصر وثورتها مما أدى إلى ظهور مملكة لم يظفر بها ويحصل عليها شعب على حساب شعب آخر، ولم يتم إصلاحها عن طريق حركة وطنية أو دينية أو اجتماعية، وإنما نتيجة ثورة تمتزج فيها كل هذه الوسائل. فالجنود المرتزقة الذين جعلوا النصر لمدة نصف قرن حليفاً لتمرد ميلو، ذلك التمرد اللونجوباردى واللاتينى والارستقراطى، اغتصبوا الحكم بثماره على حساب البيزنطيين

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الأول، الفصل التاسع عشر وما بعده.
بالنسبة لتنصيب كونت أفرسا، راجع ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل ١٥ (١٦).
وبالنسبة للأحداث الأخرى، انظر المؤرخين أماتو وجوليلمو دى بوليا.

والسكان على السواء. وطوال الحرب الطويلة المتباينة كثيراً ما اضطر المغامرون إلى تغيير التحالفات فيما بينهم ومع الشعوب الخاضعة لهم أو المتحدة معهم ومع الأمراء القريبين منهم؛ ولم يستطع دوق بوليا الذى سطع نجمه وسط تلك الأحداث، أن يبدأ فى التوسع فى كلابريا ثم فى صقلية دون سيوف قائد فرقة آخر. ومن هنا ظهرت خلافات جديدة وغدو ورواح وشد وجذب، حتى وفاة روبرتو جويسكاردو فى اليونان (١٠٨٥) عندما كان يسعى لتحقيق طموحاته الجديدة. وتسيّد على عائلة هوتفيل الكونت روجيرو سيد صقلية. وحتى ذلك اليوم لم يكن هناك قانون عام بمعنى الكلمة فى إيطاليا من جريليانو حتى ترابانى اللهم إلا بعض التحالفات الوقتية التى قد تتماثل مع تحالفات واتفاقات الفيكنج تحت حكم هاستينجز ورول.

ومثل رفاق رول هكذا كان النورمان فى إيطاليا، فقد أظهروا فى حياتهم بصفتهم عصابات مسلحة وبشكل رائع القيم التى تُؤسِّس عليها الدول: قيم الحرب التى سرعان ما استوعبها الإيطاليون الذين انضموا إلى فرقهم؛ وهى قيم لا تتمثل فى القوة والشجاعة، فهما صفتان مشتركتان لدى غالبية الشعوب، وإنما تتمثل فى النظم، وفى الممارسة، وفى الثقة الفردية والجماعية للمحاربين. وفى الشرف العسكرى، وفى الاعتياد على الانتصارات. وكان الحرص المدنى الذى يتمشى مع أولئك الأمراء المتواضعين هو: أن يجذبوا تحت راياتهم الإيطاليين الأقوياء: وأن يجمعوا بينهم وبين النورمان فى المصالح: وأن يجدوا لهم أنصاراً فى المدن؛ وأن يتملقوا رجال الدين ويفسدوهم بالثروة؛ وأن يتقاسموا الغنائم قسمة مناسبة؛ وألا يبذروا فى إنفاق ما يخصهم منها بل يستثمروها فى شراء رجال جدد وأسلحة جديدة، وأن يسلبوا الرعايا دون أن يتركوهم عرايا عرياً كاملاً؛ وأن يتشاجروا فيما بينهم عند اقتسام الغنائم لدرجة الوصول إلى إشهار السلاح، ولكن لابد من التصالح وعودة الصداقة والأخوة

وكأن شيئاً لم يحدث، عندما تهب الشعوب وقد شجعتها تلك الخلافات. كان هذا هو حال قادة النورمان. كانوا مرنين مع عادات البلاد، مستقرين فى إقامتهم على الدوام، قليلى العدد بحيث لا يظهرون فرقةً أجنبية: لقد تمتعت إيطاليا الجنوبية تحت حكمهم بالاستقلال وبحكم أقل إزعاجاً بحيث لا يستحق الكراهية والاحتقار.

الفصل الثانى

وبوصول هؤلاء الرجال المغامرين إلى ريجو. لم يسعهم إلا التطلع وإجالة النظر فى خيرات الله الممتدة أمام أنظارهم فيما وراء المضيق. وكان روبرتو يحلم بها ويطيل النظر إليها خاصة أنه أفلح فى انتزاع تنازل محتمل عنها من البابا(1)؛ وكان روجيرو، على حد قول مؤرخه، يتحرق شوقاً للحصول على مكاسب ومغانم روحية وزمنية فيها(2). ولم يكن من الممكن عدم استدعاء النورمان إلى صقلية والاستعانة بهم من قبل المسلمين الذين كانت الفتن تحتدم بين طوائفهم، ومن جانب المسيحيين الذين قاموا يحدوهم الأمل فى استخلاصها. ومن المرجح أن يكون أول من استعان بهم هم مسيحيو مسينا. وإذا كانت المسافة الفاصلة بين ضفتى المضيق - والتى تبلغ ستة أميال بحرية - تعوق حركة المرور لبضعة أيام أثناء العام، فإنها تجعلها فى بقية أيام السنة سهلة ميسورة على الرجال، وبالأخص على البضائع والمتاع؛ ولذا فمنذ قرون طويلة كانت أقصى أطراف كلابريا وأرباض مسينا تشكل بلداً واحداً بسبب العلاقات التجارية وأواصر القربى والمصاهرة، والعادات، والتقاليد، وآمال وطموحات قاطنيها السياسية: والدليل على ذلك الثورات اللتى وقعت فى سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف وسنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وسنة ستين وثمانمائة وألف. ومن المؤكد أنه فى القرن العاشر وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر لم يكن الإخاء أقل قوة والتحاماً بين أفراد الشعبين المسيحيين، اللذين كان أحدهما خاضعاً مغلوباً على أمره بينما كان الآخر عرضة للنهب والسلب كل عام: وكان المسلمون أنفسهم، حينما لا يهرعون

(1) انظر الفصل السابق، ص ٥٢.
(2) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الأول.

إلى ريجو مهاجمين شاهرين سيوفهم، ياتون إليها تجاراً مسالمين وادعين أو فارين لاجئين. وبعد الحديث عن أحوال النفوس وميولها، فإنه ينبغي علينا التقصى عن أعدادهم. وبالاطلاع على ما أورده مالاتيراً فى كتابه، فمن المرجح أن مسينا كان يقطنها المسلمون وحدهم فى سنة إحدى وستين وألف. فهو لم يذكر كلمة واحدة عن مسيحيي صقلية قبل وصول النورمان إلى الوادى الممتد بين جبل إتنا وسلسلة جبال الأبنين. وكتب أماتو بجلاء ووضوح أن روبرتو، عندما دخل مسينا، أمدها بفرسانه لأنه وجدها مهجورة خالية(1)، غير أن هذا يجب ألا نفهمه بالمعنى الحرفى، إذ لا يطابق الواقع، بل أقول إنه من العبث افتراض أن المسلمين قد قاموا بطرد كل مسيحى من المدينة. فهذا ما لم يفعلوه أبداً فى صقلية أو فى أى مكان آخر، وما كانت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية تجعلهم ينحون هذا المنحى. ولذا يغلب الظن بأن سكان مسينا قد تناقص عددهم تناقصاً كبيراً منذ القرن التاسع(2)، حتى إنه فى سنة إحدى وستين وألف، عندما تركتها الجالية المسلمة الصغيرة وجلت عنها، كانت المدينة شبه خالية من السكان. وبهذا الفهم يجب تمحيص الأثر الوحيد الذى تحت أيدينا عن اتصالات مسيحيي مسينا مع النورمان.

فى مطلع القرن الثامن عشر، خرج إلى النور، فى مختارات بالوتسيو(3)، وأعاد طبعه موراتورى(4) وآخرون، التاريخ

---

(1) *Et que la cité estoit vacante des homes liquel i habitoient avant, il (Robèrt) la forni de ses cavaliers.* أماتو، الكتاب الخامس، الفصل التاسع عشر.

(2) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٦ من المجلد الأول، وتذكر الحروب التى خاض غمارها مانويلى فوكا ومنياتشى ودفاع كتاكالونى.

(3) المجلد السادس، ص ١٧٤، باريس ١٧١٥. ولم يذكر الناشر أى شئ آخر عن أصل هذه الأخبار التاريخية إلا أنها مأخوذة من مخطوطات دوشيسن. والآن يمكننا التساؤل لماذا لم يستشهد بالوتسيو بوثيقة مسينا؛ ولماذا لم يقم دوشيسن من قبل بطبع الأخبار التاريخية فى مختارات كتاب شئون النورمان؟ والظاهر أن هذا وذاك كان يساورهما الشك فى قدم تلك الوثيقة وأصالتها.

(4) *Rerum Italic. Script.*، المجلد السادس، ص ٦١٤. وفى تنويه موراتورى الموجز

الوجيز لتحرير مسينا، *Breve istoria della Liberazione di Messina*، الذى تركه وخلفه من بين ما ترك من ألف وثيقة مخطوطة أخرى بيد أندريا دوشيسن، وبه ملاحظات وهوامش من المرجح أنها نسخة من مخطوطة قديمة للغاية ترجع إلى مجلس شيوخ مسينا(1). كانت صقلية - على حد قول هذه المخطوطة - مقسمة إلى خمس إمارات تمتد على طول الساحل من تندارو إلى تاورمينا، وإلى سيراكوزا، وإلى ترابانى، وإلى بالرمو وإلى باتى: وكان يحكمها ويقوم على أمرها خمسة رجال من المغاربة، استحكمت بينهم العداوة والبغضاء؛ وأولهم يُدعى راكسديس، حاكم مسينا، حيث كان المسيحييون، بفضل العهود التى أبرموها عند الفتح، يتمتعون بمنزلة عالية لم تحظ بها أية مدينة أخرى من مدن الجزيرة: فقد احتفظوا بممتلكاتهم وعباداتهم وشعائرهم وبشعار الصليب الذهبى يحيط به اللون الأحمر، وكان الإمبراطور أركاديو قد منحه لهم تقديراً للأعمال البطولية المجيدة التى قام بها أهالى مسينا فى موقعة تسالونيكى. ولكن عندما شعروا بوطأة قبضة المسلمين ورأوا أمارات الإحباط بادية على وجوه باقى الصقليين من جرَّاء استعباد أشد وأقسى، اجتمع أنسالدو دى باتى، ونيكولا كاموليو وياكوبو ساكانو، وهم يتحرقون شوقاً لتحرير وطنهم، يوم السادس من شهر أغسطس سنة ستين والف، فى جزيرة سان چاتشنتو، التى سُميت فى وقت من الأوقات براتشو دل سلفَّاتورى، واتخذوا قراراً بتقديم صقلية للكونت روچيرو وللدوق روبرتو اللذين

الذى كتبه فى صدر هذا الكتاب، يرى انه معاصر *"multam enim vetustatem Sapit"*. ولكن يبدو لى ان الشكوك والريب يجب ان تنطلق من اللغة والأسلوب.

(1) مخطوطة المكتبة الإمبراطورية بباريس: *Baluze, armoire 2, paquet 5*، رقم ٢، بالورقة ١٢٨ وما بعدها. والمجلد كله ما هو إلا نسخة خطية بخط يد دوشيسن، الذى كتب تحت عنوان الأخبار: *"Ex codice Ms. perantiquo Bibliothecæ Senatus Messanensis, summa fide transcripta"*. غير انه لم يذهب مطلقاً إلى مسينا، ولذا فمن المؤكد أنه قد قام بالنقل من نسخة، دون الرجوع إلى النص الأصلى القديم.

كانا يقيمان مع البابا فى ميليتو . وقام المتآمرون بنشر ما أزمعوا القيام به بحذر شديد فى المدينة، واغتنموا فرصة العيد الذى اعتاد المسلمون فيه الاختلاء بأنفسهم فى دورهم لمدة اثنى عشر يوماً، فأبحروا متخفين فى قارب صغير، متظاهرين بالقيام برحلة إلى ترابانى، ورسوا فى كلابريا . وهرعوا إلى ميليتو، وتحاشوا الحديث مع البابا؛ وبصّروا روچيرو وحرضوه على المجئ إلى صقلية؛ وأعطوه بيرق أركاديو وشارته عربوناً . فتشاور روچيرو مع البابا وستة كاردينالات حول هذه العملية؛ فوافق البابا، الذى لم تغب عن نظره أبداً شئون هذا العالم، شريطة أن تُقسم خيرات صقلية وممتلكاتها ثلاثة أقسام، الجزء الأول يكون من نصيب الإكليروس (رجال الدين المسيحى)، والثانى للفرسان والجزء الأخير للأمير . فعندئذ أقسم الكونت على تنفيذ هذه الشروط، وعلى أن يكون على رأس جيش يتوجه إلى مسينا فى غضون أسبوع واحد . وفى اليوم الذى ضربه وحدده، ركض ومعه سبعمائة وألف رجل إلى بالمى، ومنها إلى ريچو : وفى نهاية المطاف، عهد بالسفن لأخيه چوفريدو، وهبطَ هو ومَنْ معه من الرجال على مسافة ثلاثة أميال من مسينا . فتراءت أمام ناظريه فى جزيرة سان چاتشينتو جثث اثنى عشر مسيحياً شنقهم المغاربة لضلوعهم فى المؤامرة . فتحرك روچيرو للهجوم، وقام المسيحيون المقيمون بالمدينة بحمل السلاح، وفتحوا أبواب مدينتهم، وساعدوه ونصروه فى سفك دماء المسلمين؛ وما أن دخل إلى المدينة حتى دعا المتآمرين، وأعطاهم راية النصر، التى وضعت فى كنيسة القديس نيكولا : وانتهى الفتح الذى بدأ بفضل أهالى مسينا بتقسيم أراضيها إلى ثلاثة أقسام حسب الاتفاق المقرر سلفاً . وهذا ما تقوله الأخبار التاريخية . وبعد ذلك هناك وثيقتان، أولاهما من الملك روچيرو ويرجع تاريخها لعام تسعة وعشرين ومائة وألف، وثانيتهما من چوليلمو الأول ويرجع تاريخها لسنة ستين ومائة وألف، وفيهما نقرأ أخباراً عن استقلال بلديات مسينا والحريات الكبيرة

والحقيقية التى مُنحت لها؛ وقد حُرفت هذه الأخبار تحريفاً فدخلتها خرافات وأساطير جعلت منها حاضرة جزيرة صقلية أثناء حكم الرومان، والإغريق، والسراسنة(1). ولذا فإن القارئ، بعد سياحة طويلة فى تاريخ القرن الحادى عشر، يصل فى نهاية المطاف إلى ساحة المعركة الكبرى وفيها أجْهد علماء صقلية ومفكروها أنفسهم من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر، من جرّاء ما وجدوا من تناقضات غريبة ووثائق زائفة ملفقة. ويتباهى المؤلف بمعاصرته للأحداث؛ ولكن تخونه الغايات والأفكار والسمات السائدة فى القرن السادس عشر(2).

وفى حقيقة الأمر ترجع إلى الأربعين سنة الأولى من القرن التالى أقدم نسخة بين أيدينا، وهى النسخة التى قام بنسخها دوشيسن. وإذا ما ابحرنا فى الزمان إلى الوراء، سنجد ببساطة ووضوح الحكاية ذاتها فى قصة ماوروليكو المسينى، الذى لم يذكر أصلها، ولا يبدو أنه صدقها تمام التصديق(3)؛ وقبل ماوروليكو بزهاء عشرين عاماً، نقرأ لمحة موجزة عن هذه المؤامرة فى تاريخ فاتزللو، والظاهر أنه

---

(1) عندما تطرّق دى جريجوريو فى المدخل إلى قانون صقلية العام، إلى الحديث عن عادات المدن لاحظ بفطنته أن وثيقة ١١٢٩ محل شك، ولكن ليس فى اجزائها جميعها. وهو يتناول الأخبار التاريخية ويعالجها فى *Considerazioni su la Storia di Sicilia*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، والهامش ٤٧. وافترض أن النسخة التى نشرها بالونسيو قد وصلت من مسينا إلا أنه اخطأ فى تحديد تاريخها، لأن النسخة المكتوبة بخط أندريا دوشيسن المتوفى فى سنة ١٦٤٠، لم يكن من الممكن العثور عليها، على حد افتراض دى جريجوريو، بين المخطوطات التى حملها إلى باريس المنفيون من مسينا سنة ١٦٧٥.

(2) ومن بين الأفكار الحديثة ينبغى ملاحظة أن الارتياب فى البابا لم يظهر فى صقلية فى القرن الحادى عشر، ولكنه ازدهر تمام الازدهار وترعرع منذ القرن الثالث عشر فصاعداً. ونجد فى اللغة تسمية مدينة «ماميرتينا» واسم «مورى» الذى يستخدم بوجه عام للإشارة إلى المسلمين.

(3) *Rerum Sicanicarum Compendium*، الكتاب الثالث. وذلك المؤلف الكبير العبقرى، فى أسلوبه الموجز الذى يتسم بشئ من التعجل، ما أن ذكر القصة حتى استدرك قائلاً: «تعلة أسوقها»... إلخ، وسرد حكاية مالاتيرا دون أن يذكر اسم المؤلف. ولم يقل أيتهما تبدو له حقيقية أو أقرب إلى الحقيقة.

يعول على الرواية الشفهية(1). وإذا ما تركنا الشكل واتجهنا إلى الجوهر ونحينا جانباً تقسيم الممتلكات قانونياً إلى ثلاثة أقسام، وإقامة البابا فى ميليتو، وراية أركاديو وباقى المؤسسة البلدية، نجد أمرين أصليين مأخوذين من مصادر أخرى غير مالاتيرًا والمؤلف المجهول، غير أنهما لم ينشرا حتى عصر ماوروليكو. وهذان الأمران هما أن رجلاً يُدعى جوفريدو، أخا روجيرو، كان يتولى قيادة السفن فى معركة مسينا(2)، وأن صقلية أثناء حكم المسلمين لها كانت حينئذ فى قبضة عدد من الحكام تشتعل بينهم نيران الفتنة والعداء(3). والظاهر لى أننا نستشف من هذه العلامات والدلالات رواية أصلية وحقيقية من مسينا، وقد زيدت وأفسدت بدءاً من القرن الثانى عشر وما بعده، بقدر ما زادت أهمية المدينة وطموحاتها؛ ومن

---

(1) *De rebus Siculis*، العشرية الثانية، الكتاب السابع، الفصل الأول. وفاتزللو، الذى ذهب أيضاً إلى مسينا وبحث فى تلك المكتبات، يستند إلى روايات شفهية (*ducta per manus fama*) عن أسماء المتآمرين. ولم يشر إلى مصدر روايته، وينسجها، دونما استشهادات، مع رواية مالاتيرًا.

(2) وهذا الأمر نجده ابتداءً فى كتاب *Ystoire de li Normant* الصادر فى سنة ١٨٣٥، إلا أن م. جونييه دارك قد أشار إليه منذ عام ١٨٣٠ فى كتابه، ص ٢١٩. ومع هذا نود التنويه إلى أن أماتو يتحدث هنا وفى مواضع أخرى (ص ١٤٨، ١٥٢، ١٥٩، ١٩٤) عن رجل يُدعى جوفريدو ريدللى أو ريندللى، بينما افترض م. جونييه دارك، الموضع المذكور، وقد اتبعه فى ذلك م. شمبليون (ص ٣٤٢، الهامش) أنه جوفريدو أخو روبرتو والملقب ريدللى. غير أن هذا التطابق لرجلين يحملان اسم جوفريدو يبدو لا أساس ولا سند له. ويتحدث مالاتيرًا، الكتاب الأول، الفصل الرابع، وكذلك أماتو نفسه، ص ٩٤، يتحدثان عن جوفريدو أخى روجيرو، دونما إشارة إلى كنيته: ويبدو أن جوفريدو ريندللى كلما ذُكِر فى تاريخ أماتو، كان قائداً مخلصاً أميناً، ولم يكن أخاً لروبرتو، الذى كان لا يثق على وجه الخصوص فى إخوته.

(3) لم يذكر مالاتيرًا إلا اثنين من هؤلاء الحكام والملوك. وقد علمنا أول ما علمنا عن تقسيم صقلية الإسلامية إلى أربع ولايات من مستلات النويرى التى نُشرت عام ١٧٩٠: وقد ذُكرت ثلاث دويلات فى مستلات أبى الفدا وشهاب الدين عمرى، اللذين اشتهرا فى صقلية بفضل دى أميكو فى بدايات القرن السابع عشر، أى بعد حوالى خمسين عاماً من صدور تاريخ ماوروليكو. وعموماً فإن أسماء الخمسة ملوك المسلمين وحدود ممالكهم التى خصتهم بها الأخبار التاريخية تستند فى الأساس على رواية أصيلة، حُرفت تفاصيلها. وليس هناك ثمة تعارض مع هذا فى أن رجلاً يُدعى راكسديس (رشيد) كان حاكماً على مسينا.

المرجع أن ماوروليكو ذاته قد كتبها باللاتينية ولم تكن لديه أية نية للتضليل؛ وفى نهاية المطاف قام برتقها أحد المزيفين، لا أعلم اسمه، وهو الذى أدخل أيضاً التحريف على الوثيقة التى يرجع تاريخها لسنة تسع وعشرين ومائة وألف وحاول خداع دوشيسن. ومن هذه الرواية الأصلية يبدو لى أنه ينبغى الأخذ بأسماء المتآمرين الثلاثة أو رءوس الفتنة التى أشعلها نفر قليل من أهالى مسينا، والإقرار بسفرهم إلى ميليتو وأعمالهم وتدابيرهم مع روجيرو؛ وهى أمور لم يذكرها المؤرخون النورمان، لأن أولياءهم كانوا يريدون إغفالها ونسيانها. وكان يمكنهم نسيانها، إذ لم يكن لها أثر عام وجلى كما حدث مع ابن الثمنة. لقد كان مسيحيو مسينا يرقبون على التحقيق عدوهم، ويكشفون أوضاعه وتحركاته، مخاطرين بحياتهم، ولم يكونوا فى ذلك بأقل ممن يقبض على سلاحه بيديه؛ إلا أنهم لم يحملوا السلاح مطلقاً. ولعلهم تعهدوا بحمله مرة أو مرتين إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، لأنه يبدو أن أولى العمليات الحربية ضد مسينا كانت تعتمد على ترقب تحركات العدو فى المدينة أيا كان نوعها.

وقد خاطر النورمان، سواء للقيام بأعمال من هذا القبيل أم لاستكشاف الأراضى فقط والتعرف على نفوس الناس وجس نبضهم، خاطروا بالقيام بغارة فى سنة ستين وألف(1)، بعد احتلالهم لريجو بقليل. لم يكن روجيرو معتاداً على الإبطاء(2)، فأخذ معه مائتين من

---

(1) ذهب روبرتو لمحاصرة ريجو عندما بدأ موسم الحصاد وعاد منها ليقضى الشتاء فى بونيا مع روجيرو بعد الإغارة على صقلية. مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الخامس والثلاثون؛ والكتاب الثانى، الفصل الثانى. وبحساب شهرين تقريباً لحصار ريجو نصل إلى شهر سبتمبر. وقد ورد فى *Breve istoria* أن بدء الفتنة كانت يوم ٦ أغسطس. وهذا يقودنا إلى التاريخ نفسه.

(2) وقد كتب مالاتيرا: *"Hoec secum animo revolvens, eorum ad quoe animum intendebat, non tardus executor"*. وتجلى هذا نجده بجلاء فى وعده بالمجئ إلى مسينا خلال أسبوع، وهذا ما نقرأه فى *Breve istoria*. وهذا الكتاب، كما يعلم الجميع، يخلط بين الهجمات الثلاث التى قام بها روجيرو ويدمجها فى هجوم واحد: وهذا أمر طبيعى للغاية فى الروايات الشفهية.

الفرسان(1)؛ وما أن عبر الفنار حتى دلف إلى ميناء مسينا الذى كان يبعد شيئاً ما عن أسوار المدينة فى ذلك العصر. وإزاء هذا الهجوم من قبل فرقة صغيرة العدد للغاية كهذه، خرج المسلمون يتميزون من الغيظ. أراد الكونت محاربتهم بعيداً عن أسوار المدينة وإرباك عدوه وإحداث الفوضى بين صفوفه، فتظاهر بالهرب مسرعاً؛ ثم عاد بغتة للهجوم، فشتت قواتهم المتناثرة المبعثرة، وتعقبها حتى أبواب المدينة، وقتل المتأخرين منهم؛ واستولى على الخيل، والسلاح، والمتاع التى تركوها وراءهم، وعلى التو ركب البحر وعاد أدراجه إلى ريجو(2). ومنها انطلق مع روبرتو متوجهاً إلى بوليا حيث كان الدوق يعتزم اغتصاب حق زعماء النورمان واستلابه وكذلك المدن التى لم تذعن له وتدخل فى طاعته(3).

وعلى الرغم من وجود مثل هذه المكائد فإن الأخوين كانا يفكران فى نقل الحرب إلى صقلية مع بداية الفصل الجديد من فصول السنة؛ وتعجلهم ابن الثمنة للقيام بالعملية؛ وهو الذى فقد جزءاً من الدولة

---

(1) وقد قال مالاتيرا بوجود ستين جندياً. وهذا العدد يجب ضربه على الأقل فى ثلاثة؛ لأن كل فارس، فى العصور الوسطى كان معه عادةً اثنان أو أكثر من الرجال المسلحين والممتطين لصهوات جيادهم.

(2) فارن بين: مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الأول، والمؤلف المجهول، الترجمة الفرنسية (*Chronique de Robert Viscart*)، الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، والنص فى كتاب كاروزو، *Bibliotheca Sicula*، ص ٨٢٧.

(3) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، بسبب عدم توافر معلومات دقيقة لديه أو لكتمانها، يتحدث بشكل غامض وملتو عن أمور كان على الدوق القيام بها فى بوليا أثناء شتاء ١٠٦٠ - ١٠٦١. وقد عرفناها من أماتو، الكتاب الرابع، الفصل الثالث، والكتاب الخامس، الفصول الرابع، والسادس، والسابع، كما وقفنا على شئ منها من جوليلمو دى بوليا، الكتاب الثانى، *"Morti tradendum ec."*. فما أن حصل روبرتو على لقب دوق، وبدأ فى تغيير سلطته من رئيس فيدرالى إلى سيد إقطاعى، حتى تآمر عليه قريبه بلالردو، وجازولين دى لابلاس، وأمى ابن رجل يُدعى جوالتيرو، وشخص اسمه جوفريدو، وقد دعمهم الإمبراطور البيزنطى بالمال وأمدهم به، لأنهم وعدوه برد البلاد إليه وإعادتها إلى سلطانه. وعندما عاد روبرتو من ريجو قهرهم بقوة السلاح؛ ولذا حاصر ترويا، ولها إدارة بلدية بيزنطية، واستولى عليها اتفاقاً معها. وقد افترض أماتو أن يكون الاتصال بين الدوق وابن الثمنة قد جرى بعد استسلام ترويا.

التى كان قد استولى عليها بالقوة، وبدافع من الخوف والفزع، والتعطش للانتقام والطموح المتقد، ولعلمه بأعمال النورمان المجيدة، وربما أيضاً باتصالاتهم مع مسيحيي صقلية، هرع إلى كتانيا للاستغاثة بهم وطلب معونتهم له فى حربه ضد أعدائه المسلمين. وأجرى فى ميليتو لقاءً سرياً مع روجيرو، وفى ريجو تقابل معه ومع روبرتو الذى جاء خصيصاً لهذا الفرض(1)، وعرض عليهما تقسيم الجزيرة(2). فعارض النورمان هذه الفكرة لعدم توافر قوات كثيرة لديهم لقتال مسلمى صقلية الأقوياء، فكان جوابه ورده بأن الفرقة والانقسام قد دبا بينهم، وبأن له بينهم أعداداً كبيرة من المناصرين له(3)، كما تخضع له قلاع وبلاد يدين له جند بالولاء والطاعة. ولما وافق النورمان أقسم على الإبرار بالعهد(4)، وترك أحد أبنائه رهينة عند روبرتو. وعندئذ أخذ روجيرو بعد العدة للذهاب بنفسه على رأس جنده: وزوده روبرتو بعدد قليل من الفرسان والبحارة الذين كانوا تحت يديه فى ريجو، وأمّر عليهم جوفريدو ريديللى، الرجل

---

(1) يؤكد المؤرخون العرب الذين أشرنا إليهم فى الكتاب الرابع، الفصل الخامس عشر، ص ٥٦٢ من المجلد الثانى، ان ابن الثمنة قد أجرى اتصالاً مع روجيرو فى ميليتو، ولم يضيفوا شيئاً آخر: أما اماتو، الكتاب الخامس، الفصل الثامن فيقول مع روبرتو فقط فى ريجو: ويقول مالاتيرًا، فى الكتاب الثانى، الفصلين الثالث والرابع، مع روجيرو فقط فى المدينة نفسها. والظاهر لى بجلاء ان ثمة لقاءين على الأقل: فروبرتو لم يات إلى ريجو إلا لإتمام الأمر مع ابن الثمنة: ولكن هذا الأخير كان قد ذهب اولاً إلى روجيرو، الذى لم يكن مقيماً بالتأكيد فى ريجو، مدينة أخيه، والذى كان بينه وبين أخيه شكوك وريب لم تتلاش قط. وفضلاً عن هذا، فإن اسم ميليتو الذى ذكره العرب وحدهم له أهمية كبيرة للغاية، فهم يشيرون إلى أمر معلوم وهام فى رواياتهم، وهو خطير حتى إنه اثار خطأ فى استعادة الماضى فقد صيرٌ ميليتو حاضرةً لملك الفرنجة بالدوفينو، فاتح إيطاليا الجنوبية، أى الملك أوتونى الثانى. انظر الكتاب الرابع، الفصل السادس من هذا التاريخ، المجلد الثانى، ص ٣٣٣، الهامش ١. ومدينة ميليتو قد ذُكرت بالفعل فى *Breve istoria della liberazione di Messina* الذى استشهدنا به آنفاً.

(2) الجزيرة كلها. هكذا يقول المؤرخون العرب.

(3) كُتّاب الحوليات العرب المذكورون من قبل.

(4) مؤلف مجهول.

الحاذق بفنون القتال؛ وعاد مسرعاً إلى بوليا، فجمع قواده، وأحضر قوات أخرى(1)، وهكذا حشد فرقة بلغ قوامها زهاء خمسمائة من الرجال(2)، تحت إمرة جوفريدو ريديللى وروجيرو، يرافقهما ابن الثمنة لعلمه ومعرفته بالأماكن والدروب ولما له بها من الاتصالات التى كثيراً ما كان يتباهى بها ويفتخر(3).

وفى أواخر شهر فبراير سنة إحدى وستين وألف، وعند غروب الشمس، هبط النورمان على لسان الفنار، بالقرب من البحيرات(4). وقصدوا راميتا فسلكوا طريقها؛ وفطن إلى وجودهم مسلمو مسينا، فخرجت فرقة للاستكشاف والاستطلاع. وبينما كان روجيرو يسير بجواده ليلاً فوق تلك الجبال، رأى على ضوء القمر الخافت، مسلماً يدنو ويقترب منه؛ فاستل سيفه، دون أن يتناول رمحه ودرعه اللذين كان يحملهما خادمه وهو يسير خلفه وانقض على عدوه، فضربه ضربة فى وسطه، شطرته إلى شطرين، هكذا كتب مالاتيرًا على طريقة الروائيين فى السرد. وكان القتيل أخا ابن

---

(1) يعتقد اماتو، الكتاب الخامس، الفصول الثامن، والتاسع، والعاشر، أن قائد الجند كافة هو جوفريدو ريديللى، ولكنه يترك قيادة روجيرو المستقلة تتكشف وتبدو واضحة. أما مالاتيرًا فيعزو العملية من حيث تنظيمها وقيادتها إلى روجيرو فقط.

(2) يقول مالاتيرًا بأن عددهم كان ستين ومائة، وهو الوحيد الذى ذكر عددهم. وحسبما جرت العادة فى ذلك الزمان ينبغى أن نضع فى الاعتبار وجود ثلاثة رجال مسلحين أو أكثر مع كل محارب.

(3) اماتو.

(4) كتب مالاتيرًا أن ذلك كان فى الأسبوع الأخير من كرنفال عام ١٠٦٠، وحسب السنة من يوم ٢٥ مارس طبقاً لعادة فلورنسا، وبوليا، وصقلية. ولكنها تعود لسنة ١٠٦١ من التقويم العام ولأواخر شهر فبراير، لأن عيد القيامة كان يوافق ١٥ أبريل. ويذكر الإدريسى فى وصف صقلية، المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٦، يذكر أن بداية الفتح كانت فى سنة ٤٥٣ هجرية، اى من ٢٦ يناير عام ١٠٦١ وحتى ١٥ يناير ١٠٦٢م. ويطلق مالاتيرًا على المكان اسم براوولى والبحيرات الثلاث، ويضيف قائلاً بأنه كانت توجد أفران القرميد. والمؤلف المجهول يقول كذلك بثلاث بحيرات. ومما لا شك فيه أنها ناحية الفنار، وقد أخطأ فاتزللو وجانبه الصواب بافتراض أن عملية الهبوط إلى البر كانت فى فورنو أو فورنارى الواقعة بين تيندارو وميلاتسو، إذ كان يبدو له أنه وجد ترجمة الاسم الطبوغرافى فى *clibana tegularum* عند مالاتيرًا.

مكلاتى، حاكم كتانيا وسيدها. وعندما تخلصوا من أولئك بعد أن اكتُشف أمرهم وضاعت عليهم بالتالى فرصة مفاجاتهم، أخذوا يغتنمون أنعاماً وماشية سائمة فى أراضى راميتا وميلاتسو فانتهبوها واستلبوها، وفى اليوم التالى ولوا الأدبار متوجهين إلى سفنهم، وأثناء صعود الأنعام على متن السفن، إذا بريح عاصف تهب لتحول دون إبحارهم. وفى هذه الأثناء شاهد الناس انسحابهم ولاحظوه وهم فى مسينا التى تبعد حوالى تسعة أميال؛ فقاموا بتجهيز خيولهم ورجالهم بالسلاح، وهرعوا إلى الفنار لمهاجمة النورمان ومداهمتهم وهم غير مستعدين، فبعضهم على البر والبعض الآخر فوق السفن. وعلى النقيض من ذلك وجدوهم متراصين كالبنيان المرصوص، ومستعدين خير استعداد للقتال والنزال، إذ إن روجيرو كان قد أرسل سيرلونى، ابن أخ له يحمل الاسم نفسه، للالتفاف والدوران جانباً بفرقة من الفرسان فوقع المسلمون بين الفرقتين، وهزموا وسقط منهم كثير من القتلى. وتعقبهم النورمان وطاردوهم حتى وصلوا إلى المدينة فشرعوا كذلك فى مهاجمتها، إلا أنهم وجدوا أن أسوار المدينة تقوم بحمايتها والذود عنها النساء(1) أيضاً، وعندئذ خرج جنود آخرون يحملون المشاعل فى أيديهم لقتالهم. وحوصر المنتصرون بدورهم، وطردوا إلى سفوح الجبال الوعرة التى تطل على المدينة. وعند بزوغ فجر يوم جديد تخلصوا من هذا المأزق بكرهم كرة فتحت أمامهم الطريق إلى السهل الفسيح(2): فهبطوا إلى براتشو دل سلفاتورى، ولم يكن لديهم أى أمل أو رجاء إلا فى ركوب البحر والتوجه إلى ريجو. وكانت الأنواء عاصفة، فمكثوا ثلاثة أيام على ذلك اللسان من اليابسة(3)، يجابهون قسوة البرد ويمانون منه؛ ويتوقعون أن يأتى المسلمون وقد تعاظم عددهم بانضمام كل جند الجزيرة إليهم فيلقون

(1) مالاتيرا.
(2) أماتو.
(3) أماتو ومالاتيرا.

بهم فى اليم؛ فكانوا يواسون أنفسهم بنذر النذور لله، فإذا ما أخرجهم من هذه المحنة سيهبون الأسلاب التى غنموها لإقامة كنيسة للقديس اندرونيكو فى ريجو(1). وبعد أن هدأت، كما يحدث دوماً، ثورة البحر، ذبحوا الثيران ونحروها، إذ لم يشرعوا فى رحلتهم ومعهم ما يعوقهم ويمرقلهم؛ ثم قاموا بتحميل لحومها ووضعها على السفن بأمر جوفريدو ريدللى الذى كان يستحى ان يؤوب إلى موطنه وأصدقائه خاوى الوفاض. والظاهر أن المسلمين طفقوا يتعقبون سفنهم ويطاردونها، فقام سكان ريجو من المسيحيين والسراسنة، كما يقول اماتو، والمقصود بالسراسنة التجار واللاجئين، بإظهار ولائهم وإخلاصهم لروبرتو سيد المدينة الجديد، فجهزوا السفن وزودوها بالسلاح، وخرجوا لمنازلة مسلمى مسينا وقتالهم؛ وبعد معركة طويلة بالسهام والرماح، باءوا بالهزيمة، إذ قتل العدو تسعة من رجالهم المسيحيين وأسر سفينة من سفنهم(2). وفى هذه الأثناء فر ابن الثمنة هارباً إلى كتانيا وتحصن بها(3). وبذلك فقد باءت بالفشل العملية التى قامت، كما أظهرت الأحداث التى رويناها وتلك التى سنرويها، عن أعمال ابن الثمنة فى راميتا وروچيرو فى مسينا؛ ووعى النورمان أنه ينبغى توفر قوات كبيرة، وبخاصة من القوات البحرية، وذلك لتشجيع أنصارهم من المسلمين أو المسيحيين والوقوف إلى جانبهم(4).

وفى شهرى مارس وأبريل دعا روبرتو مرة أخرى قواده بمعسول

---

(1) مالاتيرًا.

(2) اماتو.

(3) *Anonymi Chronicon Siculum*.

(4) الرواية ماخوذة من أماتو، الكتاب الخامس، الفصل العاشر؛ ومالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصول الرابع، والخامس، والسادس؛ *Anonymi Chronicon Siculum*. الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٨٢٧. ومن الترجمة الفرنسية، ص ٢٧٩. وكما لاحظنا من الهوامش السابقة، فإن الدقائق والتفاصيل تختلف عند المؤرخين الأولين، وتقل عند الثالث، لكنها غير متضاربة أو متناقضة.

الكلام إلى الانتقام للإساءة التى لحقت بالله، وسحق مسلمى صقلية، وتحرير إخوانهم فى المسيحية وتخليصهم، واضاف حججاً أكثر إقناعاً ومنحهم هبات وامتيازات(1). وبهذه الطريقة حشد زهاء ألف فارس وألفاً من المشاة(2)، وغادر بوليا إلى كلابريا فى أوائل شهر مايو؛ وعسكر فى مكان قريب من كاتونا، يُطلق عليه سانتا ماريا دل فارو(3)، وفيه جمع سفناً لنقل جنده: غير انه كان يمتلك عدداً قليلاً من السفن الحربية، ما بين زوارق ذات ثلاث صوار وشوان، ضعيفة للغاية بمقارنتها بأسطول المسلمين(4). وفيه كان يوجد ثلاث وعشرون سفينة حربية ما بين زوارق خفيفة وزوارق ذات ثلاث صوار وسفينة أو عدة سفن ضخمة كانوا يطلقون عليها اسم القطط، وكانت مزودة بآلات حربية(5): وعندما علم ابن حواش(6)

---

(1) اماتو.

(2) أماتو. ويقول مالاتيرًا بغموض: *"Cum maximo exercitu"*.

(3) اماتو. ويرى مالاتيرًا انه من المرجح أن المعسكر كان فى ريجو.

(4) وكتب مالاتيرًا *Germundos et galeas*. واولى هاتين اللفظتين اللتين ناقشهما دوكانج وفنيهما، تبدو قراءة خاطئة للفظة *Dermudos* التى هى بدورها تحريف لكلمة *Dromone*.

(5) ذكر أماتو عددها، بينما ذكر مالاتيرًا اسماءها: *"Gattos, Golafros et Dormundos;"* واضاف الأول: *"Le artifice liquel se clamoit Gath."*. ولفظة قطة «جاتّو» التى تعنى سفينة، نجدها أيضاً فى *Chronica Varia Pisana*، فى كتاب موراتورى. *Rerum Italic.* المجلد السادس، ص ١١٢. وفى كفّارى، *Annales Genuenses*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic.* المجلد السادس، ص ٢٥٤. وربما انتقل اسم الآله الحربية المشهورة هذه إلى السفينة التى تحملها: إذ لا يبدو لى طبيعياً الاشتقاق من اللفظة العربية قطة، وهو اسم عام، واستخدامه فى المعنى الذى نطلقه على «السفن» أو «الأشرعة». ولفظة *Golafros*، التى نقرأها فى مواضع اخرى (انظر دوكانج) و*Golabos* و*Golabros*، وفى *Chronica Varia Pisana*، فى كتاب موراتورى. *Rerum Italic.*، المجلد السادس، ص ١١٢. وكذلك لفظ: *Garabi*، ما هو إلا الاسم العربى القديم للسفينة غراب، ومن هنا جاءت لفظة *"Corvetta"* فى اللغة الإيطالية.

(6) يطلق عليه مالاتيرًا اسم *Belcamuer*، وهذه واحدة من قراءات عديدة تُقصد بها المخطوطات اسم ابن حواش: أما أماتو فكتبه *Sausane*، ويبدو انه تحريف لاسم صمصام الدولة. وربما كان الرواة النورمان الذين استقى منهم الأحداث والأخبار،

بالاستعدادات والتجهيزات التى أعدها روبرتو، واستنهضه أهالى مسينا لقلقهم، أرسل إليها من بالرمو الأسطول، وعليه أكثر من ثمانمائة فارس مزودين بالمؤن والعتاد(1). وكان الأسطول يمثل قوة الدفاع الحقيقية. وإلى جانب أولئك الجند الذين أتوا من بالرمو كانت جماعة مسينا قادرة على توفير قوات قليلة إذ إن الجماعة بها كانت ضئيلة العدد وكان عددها أقل بلا شك من عدد السكان المسيحيين(2). ولفترة يسيرة مكث روبرتو وروجيرو ينتابهما التردد فى محاولة اجتياز المضيق وعبوره(3). بسبب وجود ذلك الأسطول، غير أنهما ركبا سفينتين حربيتين سريعتين واقتربا من مسينا لاستطلاع الأمر: ولما رصدهما المسلمون وقاموا بمطاردتهما وتعقبهما، اختفيا وهربا بعد أن استكشفا الساحل(4) تمام الاستكشاف: وعندما عادا إلى المعسكر اجتمعا مع أجدر أهل الخبرة والدراية بفنون الحرب، واتفقوا على شن هجوم وهمى من الجانب. وحشدا الجيش: وقام كل رجل من رجال الجيش بالاعتراف والتناول؛ ونذر الأخوان نذراً بأن يحييا حياة أكثر تديناً ومثالية عن ذى قبل إذا وصلا إلى فتح صقلية: وتضرع الجميع بحماس شديد طالبين من الله العون والمدد(5). وتأهب روجيرو للقتال رغم معارضة روبرتو، الذى أراد إيقافه ومنعه، كما يقول المؤرخون، للمحبة الأخوية التى تربطهما، وفى نهاية الأمر أمده بسبعين ومائتين من الرجال بدلاً من الخمسين ومائة رجل الذين كان قد انتزعهم منه قبلاً. فذهبوا إلى

يخطئون فى اسم أمير المسلمين بصقلية فى عام ١٠٦١ ويلتبس عليهم مع اسم آخر أمراء الكلبيين الذى تحدثنا عنه فى الكتاب الرابع، الفصل الثانى عشر، ص ٤٣٠ وما بعدها من المجلد الثانى، وليس من المعقول أن يكون ابن حواش قد اتخذ اللقب ذاته.

(1) اماتو.

(2) انظر الكتاب الرابع، الفصلين العاشر، والحادى عشر، ص ٤٠٤، ٤٠٧ من المجلد الثانى.

(3) مالاتيرا.

(4) اماتو.

(5) مالاتيرا.

ريجو على متن ثلاث عشرة سفينة: وفى هدأة الليل وسكونه عبروا المضيق وهبطوا على اليابسة، واختبأوا فى مكان يُدعى كالكارى، يبعد ستة أميال جنوب مسينا، وقد أُقيم فيه بعد ذلك دير سانتا ماريا دى روكّا مادورى فى أراضى تريمستييرى(1)؛ وأمر روجيرو بعودة السفن حتى يقطع أى أمل فى الانسحاب، وهذا ما كتبه مالاتيرّا حسب رأيه المعروف. والحقيقة هى أن وجودها هنالك كان سيؤدى إلى كشف كمينهم، فأعادوها إلى كلابريا حتى يمكنهم إحضار قوات إضافية. وعند الفجر امتطى روجيرو ورجاله المخلصون صهوات جيادهم متوجهين إلى مسينا، فإذا بأحد القادة يلوح لهم. وكان ذاهباً، كما علمنا فيما بعد، لتسلم قيادة المدينة، ومعه ثلاثون حارساً مدججون بالسلاح وقافلة من البغال المحملة بالأموال. وبعد أن استلب النورمان أموالهم وقتلوهم، أبصروا سفنهم عائدة من ريجو، ونزل منها سبعون ومائة فارس آخر. فتعانقوا وتبادلوا أمنيات النصر المبين: وركضوا بإقدام وجسارة نحو مسينا(2).

واستولوا عليها دون قتال. ومن على متن السفن، ومن فوق أسوار المدينة، كان المدافعون عنها قد رأوا الأسلحة الغريبة والبغال التى أُخذت من القائد؛ فظنوا أن الجيش النورماندى كله قد عَبَر إليها، وأنه لا طائل من حراسة الأسطول الذى كانوا يعتمدون عليه ويثقون به وأن كل شئ قد ضاع وتبدد(3)؛ وعلى الرغم من أن مسيحيي المدينة كانوا قليلى العدد وغير مسلحين إلا أنهم استطاعوا النهوض عند الهجوم(4). وتملك الفزع والهلع المسلمين فأطلقوا سيقانهم،

---

(1) نقرأ اسم كالكارى فى كتاب أماتو: ومخطوطة لمالاتيرّا تقول *Trium Monasterium*. وكلمة تريمستييرى هى تحريف لتلك اللفظة: والإدريسى أشار إلى هذا الموضع وقال به «ثلاث كنائس».

(2) أماتو.

(3) قارن بين: أماتو ومالاتيرّا.

(4) لم ينبس المؤرخون النورمان ببنت شفة عن هذا الأمر: انظر هنا بماليه ص ٦٢ حتى ص ٦٧.

على اختلاف أجناسهم وأعمارهم، للهروب والفرار هنا وهناك، بالقوارب وإلى الشاطئ، وفى الجبال، أو فى الغابات، كما يقول أماتو: ولما داهم النورمان المدينة لم يجدوا مَنْ يقتلوه إلا من بقى فيها، واقتسموا فيما بينهم النساء، والأطفال، والعبيد، والمتاع(1). ومن بين الفارين ثمة وجيه من الوجهاء يجرى صاعداً الجبل مصطحباً معه أخته الوحيدة التى كانت فى ريعان شبابها، وعلى غاية من الجمال والرقة، تربت وترعرعت فى رخاء بين أحضان أمها. وكان المسيحيون يتعقبونها ويطاردونها. وأصابها التعب والوهن، وأخذ الخوف يعرقل ساقيها. وكان أخوها يسندها ويتوسل إليها أن تتجلد مرسلاً الزفرات والعبرات. غير أن الإعياء قد استبد بها، فسقطت على الأرض ولم تقو على الحراك. وكان الأعداء قد دنوا منها. وبدلاً من أن يتركها أخوها المحارب المجاهد للخزى والهوان، وللأسر والرق، وللردة والكفر، قتلها بيديه(2). لقد فت الاعتقاد بعدم جدوى المقاومة والدفاع من عضد الأقوياء الأشداء. وبعد ذلك بقليل أبحر الأسطول، عائداً إلى بالرمو، إذ لم يجرؤ على مهاجمة الأعداء ثانية فى المدينة، ولا البقاء بين ساحلين يسيطر عليهما الأعداء(3). وفى هذه الأثناء كان روجيرو قد أرسل إلى أخيه مفاتيح مسينا(4) ودعاه للحضور

---

(1) أماتو.

(2) مالاتيرا.

(3) قارن بين: أماتو ومالاتيرا.

(4) يقول مالاتيرا إن المفاتيح قد أرسلت: ويرى أماتو أنها تعنى لروبرتو النصر الذى *que de Dieu avoient reçue par Goffrède Ridelle, et lui prierent qu'il vinst prendre la cité*. وقد نسى المؤرخ أنه قال سلفاً إن الجيش الذى عبر إلى صقلية كان تحت إمرة روجيرو، دون أن يذكر ولو بكلمة واحدة اسم جوفريدو ريديللى، الذى كان على أحسن الفروض قائداً على المائة وسبعين فارساً الذين أتوا فيما بعد. ويُظهر هذا الاختلاف والتناقض بين هذين الرأيين الغيرة والمنافسة التى كانت مشتعلة الأوار فى نهاية القرن الحادى عشر بين النورمان فى بوليا وصقلية، ولذا كان نورمان بوليا يضمون جانباً روجيرو ويتجاهلونه بكل ما أوتوا من قوة، وكان نورمان صقلية يفعلون الشئ ذاته مع روبرتو.

ليستحوز على المدينة. فحشد الدوق على عجل وبسرعة ما استطاع حشده من بحارة وسفن صغيرة وكبيرة موجودة في ريجو(1). وما أن دعا الفرسان والمشاة لحمل السلاح، حتى قدم الشكر لله بخشية واتضاع مسيحي على هذا النصر المؤزر. ثم أمر بالصعود إلى السفن فهرع إليها الجميع بلهفة شديدة تنم عن جزيل فرحهم، حتى أن النائب كان لا يضبط نفسه فيتقدم على سيده، والسيد لم ينتظر حتى يتبعه نوابه. وكان البحر باسم الثغر، مُبْتهجاً، ساكناً: فلم يتوانوا عن الهبوط في مسينا(2).

وقام روبرتو على التو بتأمين مفتاح صقلية، التي سقطت بين يديه بسهولة ويسر، ولذا فبعد أن تفقد مرفأ المدينة، وأسوارها، وحصونها وقلاعها، ودورها، حَصَّن مسينا وزودها بدفاعات جديدة، ووضع بها حامية من فرسانه(3). وبعد ثمانية أيام تفقد الألف فارس والألف راجل الذين كانوا معه؛ ثم تحرك مع روجيرو وابن الثمنة وسلكوا الطريق الذي قطعوه منذ بضعة أشهر. وكان الفرسان يركضون متفرقين ينهبون ويسلبون؛ ومن آن لآن كانوا يجتمعون، وينتظرون الراجلين ثم يواصلون مسيرهم. وما أن وصلوا إلى قلعة راميتا الرهيبة، حتى خرج قائدها إليهم طالباً الصلح والأمان: ويروي المؤرخون أنه قـدم إليهم الهدايـا متذللاً وقاطعـاً على نفسـه وعداً

---

(1) *Diverse manière de navie et de mariniers... et particulierement devissent aler les nez*

(2) أماتو. إن عملية الاستيلاء على مسينا يرويها أماتو، الكتاب الخامس، من الفصل الثاني عشر حتى الفصل الثامن عشر؛ ورواها كذلك مالاتيرا، الكتاب الثاني، من الفصل الثامن حتى الفصل الثاني عشر؛ وذكرها ليوني دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل السادس عشر، والفصل الخامس والأربعين، والمؤلف المجهول، في كتاب كاروزو، ص ٨٣٧، والترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الرابع عشر.

(3) قارن بين: أماتو، الكتاب الخامس، الفصل التاسع عشر: ومالاتيراً، الكتاب الثاني، الفصل الثالث عشر. وأولهما كتب أن روبرتو وجد مسينا خاوية من قطانها. وعلى الرغم من أمانته في الترجمة فإنه ينبغي كما قلنا أخذ ذلك وفهمه بمعناه المجازي. ويؤكد مالاتيراً أن الأخوين تركا فرسانهما في المدينة. وهذا يعني جانباً منهم، وليس كلهم.

بالطاعة لروبرتو بوصفه سيداً له وأقسم له بذلك على كتابه ودينه(1). ولعله لم يفعل إلا الخروج عن طاعة ابن حواش والخضوع لابن الثمنة، فيبدو أنه كان على اتصال به. إن ما حدث فى راميتا، سواء كان نتيجة للجبن أم عدم الثبات، شجع روبرتو على التقدم عبر جوانب الجبال التى تسير بمحاذاة البحر التيرانى. وتوقف فى يومه الأول فى تريبى(2)، والثانى فى فراتسانو(3)، وبعد ذلك توجه إلى الجنوب. وما أن اجتاز المعابر الجبلية، حتى هبط على وادى منياتشى وبه ضرب خيامه. فهرع إليه وتوافد عليه المسيحيون المقيمون بتلك النواحى يقدمون المؤن والهدايا. ويعتذرون لسادتهم المسلمين متذرعين بأنهم

---

(1) قارن بين: أماتو، الكتاب الخامس، الفصل العشرين: ومالاتيراً، الموضع المذكور. وبينهما نجد الاختلاف المعتاد قائماً، فالأول يجعل الخضوع لروبرتو وحده، أما الثانى فيجعله للأخوين كليهما. والأقرب إلى الحقيقة فى بدايات الحرب الصقلية هى تلك الأخبار التى أتى بها أماتو إذ لم تثبت شهادات من هذا القبيل أن مسلمى راميتا قد قاموا بإظهار خضوعهم وتبعيتهم لسيد إقطاعى. فلم يخرج الأمر عن كونه اتفاقاً مؤقتاً وعلى وجه الدقة عهد أمان. ويقول ليونى دوستيا. فى الكتاب الثالث، الفصل الخامس والأربعين، إن راميتا صارت خاضعة للجزية.

(2) *Scabotripolis* كما وردت فى كتاب مالاتيراً. و*Scaba* أو *Scava*، هى لفظة ترجع إلى العصر اللاتينى المتأخر وتعنى خندقاً. ومن الواضح أنها كانت استهلالاً لاسم *Trabilis* الذى نقرأه فى وثيقتين يرجع تاريخهما لعامى ١١٣٤ و١٤٠٨. وذكر الإدريسى، نتيجة تغيير موضع بعض النقاط على أو تحت الحروف، فى النص العربى ب ر ب ل س وبوب - ل - س التى ينبغى تصويبها إلى ت ر ب ل س والتى تتوافق تمام الموافقة مع اسم بلدية تريبى الحالية. ومن وصف رحلة الجغرافى المذكور. **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٦. نتبين أنه من راميتا إلى مونتى فورتى كان ثمة (وذلك حتى منتصف القرن الثانى عشر) طريق يبلغ طوله أربعة أميال ومن مونتى فورتى إلى تريبى طريق بطول عشرين ميلاً. وقد أغفل أماتو المحطة الأولى هذه.

(3) *Fraxinetum*، هكذا ذكرها مالاتيراً فى كتابه. ووردت عند أماتو *Lo False*: ويمكن التعرف على اللفظين بسهولة فى *Fraynit* المذكورة فى إحدى الوثائق التى يرجع تاريخها لعام ١١٨٨، وهى فراتسانو كما يُطلق عليها الآن؛ ومن بلديتها يبدأ درب يصل إلى منياتشى. وذكر الإدريسى الطريق المؤدى من تريبى إلى مونتالبانو، وإلى جلاتى، وهى أرض قريبة للغاية من فراتسانو. وقد خلطت ترجمة أماتو *Lo False* بوادى منياتشى، الذى أشـــار إليه بوضوح دون أن يذكر اســـمه: *alo pié de lo grant mount et menachant moult de Gilbert* (وتصويب الكلمة التى تحتها خط *Gibel* أى جبل).

فعلوا ذلك إنقاذاً لأموالهم ودمائهم من أولئك المتوحشين النهَّابين. وقد استقبل روبرتو وروجيرو المسيحيين فى حفاوة وتكرمة، ومنحاهم الأمن والأمان(1)؛ وبعد بضعة أيام استأنفا المسير عبر وادى سيميتو، الذى يبدو أنه يمثل التخوم الفاصلة بين إمارتى ابن الثمنة وابن حواش.

وكانت أول عقبة صادفتهما هى حصن تشنتوربى، ذائع الصيت فى التواريخ القديمة؛ فأسواره شاهقة الارتفاع التى تحيط بها الخنادق العميقة كان يذود عنها ذوداً مستميتاً رماة الأقواس والنبال؛ ولم يرد محاصروهم الإصرار على البقاء فى هذه المحلة، إذ علموا أن ابن حواش قادم من خلفهم ومعه جمع غفير من رجاله وبعد أن عبر الجيش وادى سيميتو، وجد باتيرنو، وامِّيليزيو خاويتين على عروشهما، وهما أراض شاسعة المساحة، على حد قول أماتو(2)، إذ تبدد منهما ومن كل نواحيهما المسلمون وذابوا كما يذوب الشـــمع فى النــــار، وعسكر الجيش زهاء ثمانية أيام فى وادى باتيرنو(3)، تحت إمرة روبرتو وابن الثمنــة(4) كما ذكر المؤرخ، ومن الجلى أن المســلمين لم يكونوا قليلى العدد: وهـــذا يُعين على فهم الأحداث والوقائع. ولمـــا أبلغ رســـل ابن الثمنة أن ابن حواش لم يكن قريبـــاً كمـــا لم يعد العدة للمواجهـــة والاقتتال، عبـــر الجيش ســـيميتو وقتـــل عـدداً كبيراً واســـتولى عنوة على

---

(1) قارن بين: أماتو، الكتاب الخامس، الفصل الحادى والعشرين؛ ومالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر. وكتب مالاتيراً أنهم مسيحيو وادى ديمونى؛ وكان أماتو أكثر صحة ودقة حيث قال إنهم أولئك الذين *qui estoient là entor*، ويتحدث عن المسيحيين الذين كانوا يقطنون وادى ديمونى كله عندما عاد المنتصرون من حصار كاستروجوفانى إلى سان ماركو ومسينا.

(2) أماتو، الكتاب الخامس، الفصلين الحادى والعشرين والثانى والعشرين. ومالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل الخامس عشر. وامِّيليزيو، التى نجهل مكانها وموقعها على التحديد، لا توجد أية إشارة عنها عند أى كاتب آخر، مسلماً كان أم مسيحياً، وقد ورد ذكرها فقط فى كتاب أماتو.

(3) مالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل السادس عشر.

(4) أماتو، الكتاب الخامس، الفصل الثانى والعشرون.

مغارات سان فليتشى واستمر فى تقدمه حتى وصل إلى الطواحين الكائنة أسفل كاستروجوفانى على شاطئ ديتَّاينو. وفى هذا الموضع ضرب الجيش خيامه(1).

وأثناء تلك العمليات كان المسلمون الذين نزحوا من الأقاليم التى تعرضت للهجوم قد تجمعوا حول كاستروجوفانى وانضموا لجيش ابن حواش الذى صار كثير العدد، لدرجة أن الرواية النورماندية قد أحصت عدد أفراده، ما بين صقليين وإفريقيين، بخمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل: يقابلهم فى الطرف الآخر، لإضفاء العظمة والبهاء على الأسطورة، سبعمائة فارس فقط، ولم تذكر حاملى السلاح، والرجَّالة، وبالأكثر جند ابن الثمنة(2). وبعد بضعة أيام برز ابن حواش

---

(1) مالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل السادس عشر. ويقول المؤرخ إن اسمه جويدتا، ويضيف بان هذا الاسم يعنى *flumen paludis*. واسمه العربى وادى الطين الذى وجدناه مكتوباً *Lo dictaino* فى إحدى هبات الكونت روجيرو، التى منحت فى عام ١٠٩٤ كما جاء فى كتاب بيرُو، **صقلية المقدسة**، ص ١٠١١، ويعنى على وجه الدقة: نهر الرَّغام. ولا نعرف مكان مغارات سان فليتشى: وقد تكون من قبيل المصادفة هى «المغارات الأربعين» التى كانت أهلة بالقطان وحصينة، وقد اقتحمها المسلمون واستولوا عليها فى عام ٨٤١. وهذه المغارات تبدو قريبة كذلك من كاستروجوفانى. انظر كتابنا الثانى، الفصل الخامس، ص ٣٧٤ من المجلد الأول.

(2) يكتفى مالاتيراً، فى الكتاب الثانى، الفصل السابع عشر، بالقول بان رجال النورمان كان عددهم ٧٠٠، بينما كان رجال الأعداء ١٥,٠٠٠؛ وينقل المؤلف المجهول فى كتاب كاروزو ص ٨٣٨ وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الرابع: ينقل الأرقام ذاتها وأضاف أن كلا الجانبين كان يتضمن الرجالة. ويرفض أماتو فى الكتاب الخامس، الفصل الثالث والعشرين، الذى نسخ منه ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل الخامس والأربعين، يرفض المبالغة والتهويل فى القول بوجود ١٥,٠٠٠ فارس و١٠٠,٠٠٠ راجل مسلم، ولكنه نسب لروبرتو ١٠٠٠ فارس و١٠٠٠ رجل ضمهم فى مسينا. ومن الجدير بالملاحظة أن ابن خلدون، ترجمة دى فرجيه الفرنسية، ص ١٨٥، قد قام تقريباً بنقل الإشارة المقتضبة عن هذه المعركة من ابن الأثير، وأضاف إليها أن روجيرو كان تحت إمرته ٧٠٠ فارس: ومن المرجح أن تكون هذه هى الرواية النورماندية، التى سمعها ابن شداد فى بالرمو فى القرن الثانى عشر، والذى لم يبق لنا كتابه. ولا يبدو مخالفاً للحقيقة أن الألف نشاب الذين جمعهم روبرتو فى مسينا قد انخفض عددهم قبالة كاستروجوفانى إلى ٧٠٠، بسبب الأمراض والموت، وترك حاميات على التحقيق لتأمين الانسحاب لمسافة مائة ميل أو يزيد من كاستروجوفانى إلى باليرنو، ومنياتشى،

لمهاجمة النورمان بجيش مكون من ثلاث فرق. وكان روبرتو فى انتظاره لملاقاته على رأس جيش انتظم فى فرقتين، وهما الطليعة والوسط؛ وعهد بزمام الفرقة الأولى لروجيرو، وتأمّر هو نفسه على الثانية: وخطب فى الجيش كله قائلاً: لا تخشوا الاقتتال والاشتباك مع الأعداد العديدة، لأن المُخلِّص قال: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل(1)؛ والجبل الذى أمامكم ليس من الحجارة، ولكنه من السيئات والجور؛ انقضوا عليه وداهموه متضرعين ومتوسلين إلى الروح القدس وسيتفرق ويتبدد. لأن الرب معكم؛ واعترفوا بخطاياكم وآثامكم، وتناولوا من جسد المسيح ودمه، واحكموا القبض على رماحكم وسيوفكم ولا تتشككوا ولا ترتابوا فى النصر. وبمجرد انتهاء هذه الطقوس المقدسة، امتطوا صهوات جيادهم، وارتفع بيرقهم ورفرف، ورسم كل جندى منهم علامة الصليب وانطلقوا وردوا أعداءهم وهزموهم وفرقوا شملهم، وطاردوهم حتى ملاجئهم وقتلوهم، وتزاحم الفارون منهم عند أبواب المدينة. فوقع كثير منهم فى الأسر عند حافة الخندق: وعاد المنتصرون أدراجهم تاركين وراءهم فى جميع أرجاء الريف شواهد فظيعة على المذبحة. وقد نسجت الأخبار عنهم خوارق ومعجزات، فتقول إحداها إنه لم يُقتل ولم يُجرح فى هذه المعركة أى مسيحى، وتقص علينا أخرى أنه سقط عدد ضئيل للغاية من المسيحيين بينما قُتل من المسلمين عشرة آلاف. ومثل هذه

وفراتسانو ومصينا. والظاهر أن السبعمائة فارس هم الفرسان وحدهم دونما إحصاء غيرهم من حاملى سلاح كل منهم. وفى نهاية المطاف فإن النقد يوصلنا إلى أن نطرح جانباً مع الحكايات الأخرى فرق الجيش من الإفريقيين. فإفريقية فى ذلك الحين كانت تعانى من وطأة غزو العرب لها القادمين من وراء النيل. وربما كان الرواة المسيحيون ينسبون إلى عام ١٠٦١، المساعدات التى قدمها الأمراء الزيريون فى عام ١٠٦٢، أو كانوا يعدونها «مساعدات إفريقية»، وهى عبارة عن فرقة من العبيد السود، والبربر... إلخ. تم إرسالهم ليكونوا فى خدمة مسلمى صقلية ونصرتهم.

(1) إنجيل القديس متى، الأصحاح السابع عشر، ٢٠.

العبارات إن لم تكن عبارات روايات، فإنها تعزو لابن الثمنة ولرجاله الشرف الأكبر لما حدث فى ذلك اليوم المشهود. وفى حقيقة الأمر فإن الفضل فى هذا النصر المؤزر يرجع إلى نظام الفرق النورماندية والإيطالية، وبسالتها، وحكمة قوادها، وقوة عتادها، والتهاب النفوس واشتعالها الدينى، وبشرف الجندية، وولعها بالحصول على الغنائم، ولذا كانت تضارع وتفوق الميزة العددية التى كان يحظى بها المسلمون، الذين احتشدوا دونما ثقة فى أنفسهم ولا اتباع لرأى أو مشورة. وكان الغُنم عظيماً حتى إن كل مسيحى فقد فرساً فى الحرب أخذ عشرة جياد عند التقسيم. وأضحى الأسرى عبيداً وتم إحصاؤهم مع بقية الغنيمة(1).

ولما لم تكن هناك عملية عسكرية إلا ويجب خوضها ضد أعداء مثل هؤلاء، فقد أخذ روبرتو فى تضييق الخناق على المدينة. وفى اليوم التالى للنصر اتخذ النورمان مواقعهم حول بحيرة بيرجوزا الواقعة جنوب كاستروچوڤانى، فطريق الصعود منها أقل وعورة؛ وفى اليوم الثانى نقلوا معسكرهم إلى كالاشيبتا، التى تبعد ميلين جهة الشمال، حيث تم تقسيم الغنائم والأسلاب، ثم هبطوا إلى واد اسمه ديللى فونتانى(2)، وابتنوا قلاعاً فى جهات المدينة الأربع لإحكام إغلاق المنافذ والممرات جميعها؛ وقاموا بتخريب المحاصيل وأشجار الفاكهة(3). وفى إحدى هذه الغارات، توغل روچيرو ومعه ثلاثمائة شاب حتى وصل بالقرب من چرچنتى، وأخذ يضرم النار فى

---

(1) قارن بين: أماتو، الكتاب الخامس، الفصل الثالث والعشرين؛ ومالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصل السابع عشر؛ والمؤلف المجهول فى كتاب كاروزو، ص ٨٣٨ وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الرابع عشر؛ وليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل الخامس والأربعين؛ وفراكوراُدو فى كتاب كاروزو، المجلد الأول، ص ٤٧. وابن الأثير فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧٦؛ والنويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٥؛ وابن خلدون، ترجمة دى فرجيه، ص ١٨٢. وقد أشار كُتّاب الحوليات العرب هؤلاء إشارة عابرة إلى هذه الهزيمة.

(2) قارن بين: مالاتيرًا والمؤلف المجهول، الموضع المذكور.

(3) أماتو، الموضع المذكور.

الحقول وينتهبها، وعـاد بغُنم كثير أعطاه لروبرتو ليقوم بتوزيعه وتقسيمه(1). وبينما كانت حامية كاستروجوفانى تقف بثبات لصد اى هجـوم، وصل إلى الميدان قـادة مختلف الحصـون الصغيرة حاملين الأموال والهدايا وطالبين الهدنة، فأجابهم روبرتو(2) إلى طلبهم. وفى نهاية المطاف قدم إليه رسل بالرمو ومعهم هدايا فاخرة من ثياب مشغولة على النسق الأسبانى، واقمشة من الكتان، وآنية من الذهب والفضة، وبغـال مطهمة بسروج مزدانة بالذهب والجمة ثمينة؛ وكتب أماتو أنهم حملوا إليه كذلك، حسب عادات السراسنة، ثمانين الف تارى فى جوال(3). ويُروى أن روبرتو تذرع «بذريعة خبيثة»(4)، إذ أرسل إلى بالرمو، بحجة تقديم الشكر على الهدايا، أحد عيونه؛ وهو شماس يُدعى بيترو، كان يفهم اللغة العربية ويجيد التحدث بها، غير أنه بأمر من الدوق تظاهر بجهله لها حتى لا يتحوطوا منه. وعندما وصل إلى حاضرة المسلمين، استقبله الأمير بالحفاوة والتكريم وإمارات السعادة بادية عليه لأنه أضحى صديقاً لروبرتو، ولذا بعث إليه بهدايا مع هذا الرسول الذى نقل لروبرتو كل ما رآه وسمعه ووعاه عن المدينة المنهارة التى يمعها

---

(1) قارن بين: مالاتيرا والمؤلف المجهول، الموضع المذكور.

(2) *O les bras ploies et la teste enclinée de toutes pars venent li Cayte et aportent domps et ferment pais avec lo duc et se soumetent à lui et lor cités*. أماتو، الموضع المذكور. وهذا الحدث الذى لا نقرأه على الإطلاق فى كتاب مالاتيرا، هو من بنود مهادنات طُلبت لموسم واحد وتمت الموافقة عليها مقابل شروط مادية. ويعتقد المؤرخ تمام الاعتقاد أن صقلية قد استسلمت لروبرتو، ولكن يبقى حينئذ من غير المفهوم لماذا قفل عائداً إلى كلابريا تاركاً بالكاد حامية عسكرية صغيرة فى سان ماركو ومسينا.

(3) *C'est paille copertez d ouvre d'Espaigne ec* وربما كانت مطرزة. وعلى أية حال فالظاهر لى انه ينبغى أن نفهم انها كانت مشغولة على الطراز الأسبانى. ولم تُصنع فى الأندلس. ولفظة تارين لا تشير بالتأكيد إلى الدرهم العربى، ولكن إلى التارى الذهبى الذى تحدثنا عنه فى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر. ص ٤٦٩، من المجلد الثانى؛ ولذا فالمبلغ يُقدر بأكثر من ٢٠٠،٠٠٠ ليرة إيطالية.

(4) *Et lo duc pensa grant soutillesce*.

الاضطراب، حتى صارت جسداً بلا روح(1).

وقد سبب الحصار المفروض منذ شهر(2) على كاستروجوفانى عذاباً شديداً لها. وبمضى شهرين على نزول القوات فى مسينا(3)، عقد روبرتو العزم على الانسحاب فى منتصف شهر يوليو(4). ومن ثم لا يمكننا الأخذ بما قاله مالاتيرًا من أن الانسحاب كان نتيجة لقرب قدوم فصل الشتاء. كان الرجال قليلى العدد، فقد نقص عددهم بكل تأكيد أثناء المعركة ومن جراء انتشار الأمراض؛ وبعد تحصيل الإتاوات وجمع الغنائم، وعدم إمكان اقتحام كاستروجوفانى، ماذا تبقى للنورمان بعد ذلك إلا العودة إلى البر الإيطالى، والحفاظ على الطريق مفتوحاً للعبور مرة أخرى، وإشعال نيران الفتنة والشقاق عن طريق ابن الثمنة وتنظيم شئون الأهالى من المسيحيين بحيث يمدوا لهم يد العون على الأقل بالمال؟ ولقد بدا قُطَّان وادى ديمونى المسيحيون لوقت وجيز أمام النورمان فى معسكر منياتشى، واشتكوا كثيراً تحت كاستروجوفانى أو بالأحرى أثناء الانسحاب، وطلبوا من

---

(1) يقول اماتو فى الكتاب الخامس، الفصل الرابع والعشرين، بأنه تم إرسال الرسالة من قبل أمير بالرمو *Amirail de Palerme*. ويقول اماتو نفسه فى الكتاب الخامس، الفصل الثامن، أن المتمرد الذى طرد ابن الثمنة من بالرمو وتآمر عليها كان يُدعى *Belcho* (ابن حواش). وفى الفصل الثالث عشر أطلق على أمير بالرمو، فى مايو ١٠٦١، اسم *Sausane*. وفى الفصل الثالث والعشرين، ظهر ثانية *Balchaot* (ابن حواش) على رأس جيش فى كاستروجوفانى. وفى الفصل الرابع والعشرين لم يذكر اسماً لأمير بالرمو. ومن ناحية أخرى، كما لاحظنا فى ص ٧٣، نجد أن مالاتيرًا يقول أن أمير بالرمو، فى مايو ١٠٦١، هو *Belcameur*، أى هو ابن حواش نفسه.

(2) مالاتيرًا، الموضع المذكور.

(3) اماتو، الكتاب الخامس، الفصل الثالث والعشرون، بعد أن يروى بداية حصار كاستروجوفانى وأسبابه يستطرد قائلاً:

"Et puiz dui mois le victoriouz duc s'en torna a Messine". وفى حقيقة الأمر فقد مر شهر تقريباً منذ وصول الجند إلى مسينا حتى التحامهم فى المعركة التى دارت رحاها تحت كاستروجوفانى، كما برهنت على ذلك رواية مالاتيرًا.

(4) مالاتيراً، الموضع المذكور. تذكر أن الجيش قد احتشد وتجمع فى مضيق مسينا فى أوائل شهر مايو، وأن مسينا قد تم الاستيلاء عليها فى حوالى منتصف الشهر نفسه.

الدوق تخليصهم من النير، وقدموا له الأموال والمؤن على سبيل الإتاوة(1)، كما يقول المؤرخ. وهذا يبدو مطابقاً للحقيقة لأنه لا يمكن ألا يكون روبرتو فى اتفاقياته التى أبرمها مع ابن الثمنة قد اتفق على التنازل عن أحد الأقاليم على الأقل. ومن ثم توقف عند منتصف الطريق على الساحل الشمالى، وأقام سوقاً إذ كان ضرورياً لمن يريد بيع أو مقايضة الأسلاب الكثيرة من البهائم: الأمر الذى أثلج كثيراً صدور المحاربين وأسعدهم وحرك فى نفوسهم الرغبة فى الإقامة فى المكان الذى يحيط به الأهالى المسيحيون. وفى هذا المكان وعلى بعد ثلاثة أميال من البحر وفى أرض خصبة ساحرة خلابة قريبة من أطلال ديار ألونسيو أو كالاكتا. التى لازالت حتى الآن محل جدل ونقاش العلماء(2)، قام روبرتو فى موقع حصين بتشييد أو ترميم قلعة أطلق عليها اسم سان ماركو، تيمنا باسم القلعة التى بدأ منها فتحه لكلابريا وغزوها، أملاً أن يجلب له الفأل الحسن ورعاية القديس الإنجيلى توفيقاً وحظاً مماثلاً فى صقلية. وترك بها حامية عسكرية تحت إمرة رجل يُدعى جوليلمو دى مالى: وواصل سيره، واحضر زوجه إلى مسينا(3)، ودعّم المدينة بالرجال والمؤن، وبعد

---

(1) أماتو. الكتاب الخامس. الفصل الخامس والعشرون. ومن الجدير بالملاحظة ان مالاتيرًا ذكر فقط المسيحيين الذين قدموا إلى معسكر منهانتش؛ ويشير أماتو فى الفصل الحادى والعشرين إلى الحدث ذاته متحدثاً فقط عن مسيحيى الأراضى المتاخمة وعن الأمان الذى منحه لهم روبرتو. وفى الفصل الخامس والعشرين يقول: جاء إلى الدوق بالقرب من كاستروجوفانى، أو فى أثناء الانسحاب منها إلى سان ماركو. مسيحيو *Val de Manne... por estre aidié de lo duc et que desirroient de nom estre subjette a li païen lui firent tribut de or et habondance de cose de vivre.*

(2) انظر فاتزيللو وكلوفيريو واميكو فى *Dizionario topografico ec.* فقد تم العثور على كتابات باللغة اللاتينية لألونسيو فى سان ماركو. وذكر الإدريسى فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص ص ٣٢، وفى كتاب دى جريجوريو. *Rerum Arabicarum*، ص ١١٥، الآثار التى كانت تشد الانتباه فى سان ماركو ووصف لنا اهمية المدينة، قائلاً بانها مركز للصناعات الزراعية وبناء السفن.

(3) أماتو. الكتاب الخامس، الفصل الخامس والعشرون. وعلى الرغم من أن المؤرخ يروى

ذلك عاد إلى بوليا بينما آب روچيرو إلى ميليتو فى كلابريا. وفى ذلك الحين كان ابن الثمنة فى كتانيا ليواصل مهاجمة أعدائه الذين تبقوا فى صقلية(1)، وهم قُطَّان إقليمى كلتانيستّا وچرچنتى الحاليين. وكان كل من إقليمى كتانيا وسيراكوزا(2) خاضعين له؛ أما إقليم مسينا، الذى يقع الجزء الأكبر منه فى وادى ديمونى، فقد ظل تحت حماية النورمان، الذين قاموا لهذا الغرض بتحصين قلعة سان ماركو(3). وقد ابرم إقليما بالرمو وترابانى اتفاقاً مع أمير كتانيا. ومن المرجح أنه كان اتفاقاً يقضى بالاتحاد بينهما. وفى تلك الظروف ترك صقلية روبرتو، قائد الانصار المسيحيين التابعين لابن الثمنة وسنرى أن أخاه روچيرو سيخلفه لفترة وجيزة، وبعد ذلك سيصبح القائد الفعلى لفاتحى صقلية المسيحيين، وأن روبرتو سيأتى نصيراً وعوناً له فى معركتين فقط من معارك هذه الحرب الطويلة.

تاسيس قلعة سان ماركو بعد أن أشار فى الفصل الثالث والعشرين إلى عودة روبرتو إلى مسينا، إلا أنه عاد فتحدث عن هذه العودة فى الفصل الخامس والعشرين. ولا يخالجنا شك فى أن الجيش قد توقف فى سان ماركو أثناء انسحابه. قارن بين: المؤلف المجهول فى كتاب كاروزو، ص ٨٢٨، والترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الرابع عشر، وليونى دوستيا. الكتاب الثالث، الفصل الخامس والأربعين.

(1) قارن بين: مالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل الثامن عشر: والمؤلف المجهول، الموضع المذكور.

(2) «تم إرسال بيتُّوميتو، *in sua fidelitate*، إلى كتانيا، التى كانت تابعة له... إلخ»، هكذا كتب مالاتيراً، المصدر المذكور. ومع كتانيا آلت إليه على وجه اليقين سيراكوزا وضواحيها، وهى ولاية قديمة لابن الثمنة.

(3) أماتو، فى الكتاب الخامس، الفصل الخامس والعشرين، يقول ذلك صراحة. ويبدو أنها مجرد اتفاقية خاصة بالنواحى الدفاعية من جانب وبالجزية من جانب آخر؛ وربما هى أيضاً اتفاقية مؤقتة ليست لها طبيعة التبعية الإقطاعية أو شكلها.

الفصل الثالث

أحدثت هزيمة ابن حواش جنوب كاستروچوڤانى تغييراً فى بالرمو مماثلاً للتغيير الذى أعقب هزيمة عبد الله بن المعز(1) فى عام الف وأربعين. ويروى لنا أماتو عن سفارة أهل بالرمو، والهدنة التى يسميها خضوعاً، المبرمة مع روبرتو من قبل العاصمة ومدن وقلاع أخرى، واحتلال ڤال ديمونى. وكتب ابن الأثير كيف أن حاكم كاستروچوڤانى، بعد هزيمته على أيدى الفرنجة، لجأ إلى القلعة: وكيف اجتاز هؤلاء الجزيرة على ظهور جيادهم وسيطروا على العديد من الأماكن: وكيف أن عدداً غير قليل من العلماء والوطنيين المسلمين قد لجأوا إلى أفريقية لدى المعز بن باديس، يطلبون منه المعونة، ويعرضون عليه الحالة البائسة لشعبهم، الذى فرقته الخلافات والجيوش الأجنبية. وعند وضع الروايتين معاً تظهر وقائع الحروب الأهلية المألوفة: فقد أدان الرأى العام المهزومين: وهرب أنصارهم فى العاصمة أو طردوا: ولا عجب فى أن مبعوث روبرتو وجد فى العاصمة كثيراً من الفوضى واليؤس، أو أن النبلاء، أصدقاء ابن الثمنة، قد بعثوا لتهنئة النورمان، وربما للتفاوض على اتفاق لكى يُسقطوا جميعاً ابن حواش. ولا تندر بين المسلمين فى القرن الحادى عشر والثالث عشر هذه الأمثلة من التحالف مع المسيحيين: فعلاوة على الأحداث التى رويناها عن الأكحل وابن الثمنة نفسه فى صقلية نجد أن تاريخ أسبانيا ملئ بها، وبشئ من اللوم توجه الخارجون من بالرمو إلى المعز بن باديس لحثه على إرسال الجيوش إلى صقلية.

وكان بنو الزيرى، الذين هزموا كما ذكرنا على أيدى عرب ما

---

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثانى عشر، ص ٤٣٠، من المجلد الثانى.

وراء النيل. قد فقدوا الأرض، وليس البحر: وبقى لهم فى شبه جزيرة المهدية المحصنة الأسطول وقوة كبيرة من العبيد المتمركزين هناك والمال الكافى للصمود للحرب: وأولئك العرب أنفسهم، الكاسرون والأعزاء كالوحوش، كانوا خاملين عن القيام بجهد مستمر مشترك. وكانوا دون مستوى العبقرية التى تعرف كيف تستخدم هذه الصفات لتحقيق أهدافها. ومنذ أولى صولات الاقتحام، كان المعز قد كسب لصفه بعض زعماء القبائل بالهدايا وصلات القربى. بعد أن زوجهم بناته: وبالتالى فقد ساعده هؤلاء على الانسحاب من القيروان إلى المهدية، عام ألف وسبعة وخمسين. وبعد بضع سنين، وبعد تدمير كل نشاط زراعى ومدنى فى أفريقية، باستثناء المدن البحرية، وبعد استنفاد الغنيمة، فإن تلك الفرق التى لم تكن لها مهنة أخرى اضطرت لتسول راتبها على أبواب بجاية وتونس والمهدية وصفاقس وقابس: وهى قلاع منيعة، لأنه لم يكن بوسعهم إغلاق البحر وإخضاعها بتجويعها. وقد أصفت هذه المدن للقادة البرابرة، حيث كانت بدورها فى حاجة للأرض لتجارتها وحيث أن كلاً منها كانت ضد الأخرى تدفعها إلى ذلك، قوة التفسخ والتحلل فى المجتمع المغربى التى لاحظناها فيما سبق. وفى بجاية كان هناك فرع من الزيريين، متمرد على أصل العائلة ويتوق لاغتصاب الدولة كلها: وفى المدن الأخرى كانت الفصائل أو الحكام يحاولون التحلل من الطاعة: ومن المهدية كان الأمير يجتهد لاستعادة السلطة حيثما استطاع. وبالتالى فقد بدأت فرق القبائل تتقاتل كل إلى جانب هذا أو ذاك، وأحياناً فيما بينها أنفسها: واختلط فى المعركة بربر الريف وسكان المدن البحرية: عرب الفتح الأول والبربر وبقايا غيرهم من السكان القدامى. وقد استمر صدام الأقزام هذا، الذى كان شرساً جداً، أكثر من ثمانين عاماً وصاحبه الأسى والجوع، وفتح الطريق أمام غزوات النورمان الصقليين (١١٤٨) والموحدين (١١٦٠).

ومن هنا فإن المعز العاجز عن مواجهة متمردى الساحل وأكثر من

هذا عن مواجهة العرب، بدلاً من إنهاك القوات التى بقيت معه فى عمليات لا طائل من ورائها ضد أقاليم فقدها، اراد أن يجرب حظه فى صقلية بمساعدة أعدائه أنفسهم الذين كانوا فى عقر داره(1). فأعد السفن وجعلها تبحر فى شتاء عام ألف وواحد وستين. وعندما وصلت إلى بنتلاريا، ألمت بها عاصفة وشتتتها؛ وأغرقت معظمها(2): مما أفزع أعداء ابن الثمنة الذين خاب أملهم فى المساعدة، وشجع، على ما يبدو، روچيرو على القيام بعملية جديدة.

وفى شهر ديسمبر، وبعد أن عبر روچيرو الفارو من جديد بمائتين وخمسين فارساً، قطع الجزيرة من منتصفها مندفعاً حتى چرچنتى،

(1) انظر كتابنا الرابع. الفصل الخامس عشر. ص ٥٥٧ و٥٥٨. من المجلد الثانى. الأحداث المشار إليها هنا مستخلصة من ابن الأثير، النص. أعوام ٤٤٢ و٤٤٨ و٤٥٢ و٤٥٥ و٤٥٧. المجلدين التاسع والعاشر من طبعة تورنبرج؛ **بيان المغرب**، النص، المجلد الأول، من ص ٣٠٨ إلى ٣١٢؛ النويرى، **تاريخ افريقية**، مخطوطة عربية فى باريس، *Ancien Fonds* ٧٠٢. من الورقة ٣٩، الوجه الثانى إلى الورقة ٤٢ الوجه الثانى؛ التيجانى، **رحلة**، ترجمة م. ألفونس روسو فى *Journal Asiatique*، اغسطس ١٨٥٢، ص ١٠٩. فبراير ١٨٥٣، ص ١٨٥ والصفحات التالية.

(2) ما هى ذى كلمات ابن الأثير، **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٢٧٦، التى نسخها مع اختلاف ضئيل أبو الفدا. عام ٤٨٤، والنويرى وابن أبى دينار، المرجمان المذكوران، ص ٤١٤ و٤٤٧ و٥٣٤. «عند محاصرته فى كاستروچوڤانى، خرج ابن حواش للقتال؛ ولكن بعد هزيمته على أيدى الفرنجة انسحب إلى القلعة؛ وقطع هؤلاء صقلية على صهوة جيادهم واستولوا على العديد من الأماكن. وعندئذ ترك الجزيرة عدد غير قليل من العلماء وأشراف الرجال. وقد ذهب بعضهم لدى المعز بن باديس وعرضوا عليه حالة البلاد. وخلافات الشعب المسلم، والأرض التى يحتل الفرنجة جزءاً منها؛ ولذا فقد اعد المعز اسطولاً كبيراً وبعد أن ركبه الجنود وحمل بالذخيرة، جعله يبحر فى الشتاء. وعند بنتلاريا هبت عاصفة وغرق معظمهم: ونجا عدد قليل للغاية؛ وقد أدى ضياع ذلك الأسطول إلى إضعاف المعز جداً، وشجع العرب الذين انتزعوا أفريقية منه». وحيث أن المعز قد توفى فى ٢٤ شعبان ٤٥٤ (**بيان المغرب**، المجلد الأول، ص ٣٠٨) أى فى ٣١ اغسطس عام ١٠٦٢، فلابد أن يكون إرسال هذه الحملة فى الشتاء السابق، أى بعد بضعة أشهر من معركة كاستروچوڤانى التى نعرف تاريخها من الكتاب المسيحيين، حتى أننا نستطيع أن نصحح ما جاء به المسلمون المذكورون سالفاً فى ص ٨٢، الذين يذكورنها فى عام ٤٤٤ (١٠٥٣). والمؤلفون العرب، بتأثير الفارق الزمنى عندهم الذى يبلغ ثمانى سنوات، يعدون غرق الأسطول من أسباب غزو عرب ما وراء النيل السهل لأفريقها، والذى كان قد اكتمل قبل عام ١٠٦١، كما ذكرنا فى موضع آخر.

وكأنها فى انتظاره: وأخذ يسلب البلد وعاد سريعاً إلى الوراء. وقد جاء السكان المسيحيون صوبه سعداء ومستعدين لمساعدته دون أن يعولوا عليه كثيراً: أما أهل ترانيا، وهم من اليونانيين، فقد استقبلوه فى المدينة بفرح واحترام كبيرين، حتى إنه نظم شئون ارضهم كما أراد، كما يقول مؤرخ الكونت(1)، بينما يقول الأنونيمو: إن ترانيا خضعت لسيطرته؛ ولكنه كتب هذا بعد ثمانين عاماً. ولكن يبدو أن أهل ترانيا الذين كانوا احراراً فعلياً من السيادة الإسلامية، والذين كانوا يطمحون لاستعادة نظام البلدية الخاضعة للضريبة(2) قد استضافوا المغامر المسيحى المحظوظ، واستمعوا إلى نصائحه العسكرية ويمكن أن نقول أنهم بدأوا فى إجراء الاتحاد. كما أسماه آنذاك النورمان وأبرموه مع بعض مدن كلابريا، أى أن يلتزم القائد بالدفاع عن البلدية، وكانت هذه البلدية تعترف به قنصلاً وتدفع له راتباً. ولم يصبح النهج المتبع سيادة إقطاعية فى ترانيا إلا بعد حرب العام التالى، كما حدث فى تلك الفترة فى چيراتشى وأماكن أخرى فى كلابريا، عندما دعم القنصل قلعة داخل الأرض وحصنها، وحول الراتب إلى ضريبة، وأثقله بالاغتصابات الإقطاعية، وقد أحنى السكان رؤوسهم، أو قاوموا وأخضعوا خضوع تبعية محضة. وفى الحقيقة لم يُرو لنا أن روچيرو وضع حامية فى هذه المرة الأولى فى ترانيا. وقد قضى فيها عيد الميلاد؛ ثم رحل بعد ذلك على عجل بعد أن جاءه بلاغ من كلابريا(3).

---

(1) مالاتيرّا: *Cristiani vero provinciarum, sibi cum maxima Lætitia occurrentes in multis obsecuti sunt*. التحديد الجغرافى مبهم مثل مقدار الطاعة. وهذا وذاك يرجع إلى المفهوم الذى أعبر عنه أنا فى النص. ويجب أيضاً أن نذكر أن كلمة *Provincia* فى اللاتينية فى العصور الوسطى كان معناها المجرد غالباً هو ريف أو ضاحية.

(2) انظر الكتاب الثالث، الفصل الثالث والكتاب الخامس، الفصل الحادى عشر، المجلد الثانى ص ٢٥٥ و٣٩٧.

(3) راجع مالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصل الثامن عشر، والأنونيمو. طبعة كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٨٣٨، والكتاب الأول، الفصل الخامس عشر، من النص

كانت قد وصلت إلى كلابريا آنسة فتحت أبواب الجنة على الأرض لشاب طموح فى الثلاثين من العمر: وكانت هذه الفتاة هى جوديتّا ابنة كونت إفْرو، من سلالة دوقات نورماندى. ويبدو أن روجيرو، قبل ذلك ببضع سنوات، عندما خرج من بيت أبيه دون ميراث سوى القلب والسيف، قد هام غراماً بالشابة الصغيرة المعتزلة فى دير سانت إفْرو، وبعد سنوات عديدة، قام شقيقها من أمها، روبرتو جوانتمزنيل، رئيس البندكتيين فى سانت إفْرو وبالتالى فى سانتا أوفيميا فى كلابريا بمناقشة مسألة زواج جوديتّا وروجيرو، الذى كان آنذاك قائداً ذائع الصيت، وسيداً لمدينة ميليتو وكان يأمل فى أكثر من ذلك. وقد جاءت الخطيبة مع شقيقها إمّا، وتركت كلاهما الدير. ويقـال أيضـاً مسـوح الراهبـات، للعثور على زوجـين من النورمـان فى إيطاليا. وبعد

الفرنسى. وقد أخذت من الأول عدد جنود روجيرو. النص اللاتينى للأنونيمو به ٥٠، والنص الفرنسى ٢٠٠.

فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الأول، كتب يقول إن ضاحية ترايينا كان يسكنها المسيحيون، مع سيطرة المراسنة على المدينة: وإن روجيرو تشاور مع الفريق الأول وقد اقتحم المدينة لطمأنتهم وأسس فى ضواحيها دير القديس إيليا، الذى أطلق عليه دير إوبولو بناء على النصيحة الطيبة التى جاءته من ذلك المكان. وهو يذكر فى البداية امتيازاً يونانياً للكونت، دون أن يذكر التاريخ؛ ولكن من الواضح أن تاريخه هو عام ٦٦٠٢ (١٠٩٤ من التقويم الميلادى) ويأتى بيرّو، فى ص ١٠١١، بنص لاتينى بالغ السوء لهذا الامتياز، كتب فيها الاسم *De Ambula* ولا يشار فيه إلى أية نصيحة من أى نوع من جانب المسيحيين، ولا إلى ندر الكونت. بل إن هذا الأخير لا يمارس أى سخاء آخر سوى منح جوفانى النبيل البيزنطى الأرض لتأسيس دير عليها. وبالتالى فإن استشهاد فاتزيللو يجب أن يقتصر على الضاحية التى كان يسكنها المسيحيون وهو مناسب فى هذه الحدود. حيث أن هناك أسماء يونانية ولاتينية بين الفلاحين الذين أهداهم الكونت إلى الدير. وباقى الرواية لا توجد وثيقة تبرهن عليها، ولا يوجد لها أثر فى الأخبار. ومن هنا فإنه يبدو أن فاتزيللو قد افترض هذا من المعنى الذى كان يعتقد انه عثر عليه فى اسم *Ambola* و*Embula* و*Eboli*. وطبقاً لما يقول *Eubulo* ومن معرفته بوجود بعض السكان المسلمين المجاورين، كما سنرى فى باقى هذا الفصل، وشهادة مالاتيراً الصريحة لا تسمح بمثل هذا الافتراض.

ولا يوجد أصل معاصر للأسطورة (بيرّو، الموضع المذكور: دى تشوكيس، *Sacrae Regiæ Visitationis*، المجلد الثانى، ص ٦٤٢) التى تقول إن النبى إيليا، ظهر لروجيرو، وسيفه فى يده، وقد شجعه على القيام بالعملية.

أن تزوجها فى سان مارتينو فى ﭬال دى سالينى، احتفل روجيرو بالزفاف احتفالاً رائعاً فى ميليتو، مخفياً فقره بفاخر الثياب والخيل وضجيج الآلات الموسيقية. ولم تنمه ملذات الحب الفزوات المأمولة. وبعد بضعة أيام، هدأ من روع عروسه التى كانت تبكى وتريد إبقاءه، وهرع إلى صقلية حيث كان ابن الثمنة يعمل من أجله معتقداً أنه يعمل من أجل نفسه(1).

وبعد أن حدد للمسلم المكان الذى يأتى فيه للقائه من كتانيا، نزل فى مسينا بكل الرجال المسلحين الذين استطاع جمعهم، وفى محاولة لاقتحام إقليم جديد امتطيا صهوة خيولهما معاً فى اتجاه بتراليا(2)، وهى أرض يسكنها مسيحيون ومسلمون. وبعد أن تشاور هؤلاء حول الخطر المحدق بهم، الأولون بدافع سمعة روجيرو والآخرون لممارسات ابن الثمنة، قرروا تسليم القلعة والولاء بالطاعة للكونت. وبعد أن قام بتزويد القلعة بالفرسان والمرتزقة، توجه إلى ترابنا، وحصنها بالطريقة نفسها وعاد إلى كلابريا لمعانقة عروسه وإثارة الخلاف مع شقيقه(3).

وقد واصل ابن الثمنة العمل فى صقلية بإخضاع أراض أخرى وأخذ يعيث فساداً فى ضياع الأراضى التى كانت ترفض ذلك(4). وكان

---

(1) راجع مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصلين التاسع عشر والعشرين، الذى يسمى العروس باسم دليسها؛ والأنونيمو، الموضع المذكور، الذى يسميها يوكتا (يويدكتا). والأحداث السابقة على وصولها إلى كلابريا تستخلص من أودوريكو ﭬيتالى وجولهلمو دى جيمبلو، اللذين ذكرهما م. جونيه دارك، *Histoire des Conquétes des Normands en Italie ec.*، ص ٢٢٨ والصفحات التالية. ويؤكد المؤلف فى ص ٢٢٦ فى الملحوظة، أن الآنسة عند خروجها من الدير، غيرت اسمها إلى إرمبرجا، التى ظن آخرون أنها زوجة ثانية لروجيرو. انظر أيضاً مسئلة مبحث دوكانج عن العائلات النورمانية، فى ملحق *Ystoire de li Normant*. ص ٢٥٤.

(2) اليوم توجد بلدتان تبعد كل منهما ميلاً عن الأخرى وتسميان بتراليا سوبرانا وبتراليا سوتانا. ويروى داميكو، *Dizionario Topografico*، أن البلدية الأخيرة أحدث؛ ولكن الإدريسى يذكر بتراليا واحدة ويقول عنها حصناً، أى قلعة فى السهل.

(3) قارن بين: مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل العشرين، وأنونيمو، الموضع المذكور.

(4) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصلان العشرون والثانى والعشرون.

المسلمون يكرهونه، ولكنهم كانوا يخشونه أكثر: هذا الرجل الذى أوشك بين الحروب الأهلية الأولى أن يرفع من جديد عرش الكلبيين؛ هذا الذى بعد أن أصابه الدمار فى إحدى المعارك باع نفسه وانتقم بعد ذلك؛ وهو سيد ڤال دى نوتو، ورفيق فرسان ما وراء البحر الذين لا يقهرون، ويمد إليهم اتباعنا الإقطاعيون أذرعتهم، أما هم فيتحدوننا فى قلب الجزيرة من قلاع ترابنا وبتراليا! ولكنهم غالباً ما افادوا من ممارسات الخائن؛ الذى تحرك ضد إنتيللا، القلعة بالغة القوة شرق مدينة كورليونى(1)، عندما تسلم رسالة من نيكل، هكذا يكتب مالاتيرّا اسمه(2)، وهو رجل قوى فى تلك البلاد، تربطه علاقات وثيقة بابن الثمنة، منذ كانت صقلية تدين له بالطاعة. كان نيكل يقول إن نبلاء إنتيللا مستعدون للتفاوض على الاستسلام: ويطلب منه أن يأتى للاجتماع فى ذلك المكان، بالقرب من القلعة. ولثقته فى حظه الوافر، ذهب ابن الثمنة إلى هناك بقوة صغيرة من الرجال المسلحين، ووجد سكان القلعة هناك؛ وفجأة قُتل فرسه بضربة رمح، فسقط هو على الأرض، وانقضوا عليه وقتلوه: وهكذا حدث له ما حدث قبل

---

(1) *Antulium* فى كتاب مالاتيرّا، مع البلدين *Antelium* و*Antileon* فى كتاب انونيمو: أخبار الراهب *Corrado* فى كتاب كاروزو، *Biblioteca Sicula*، المجلد الأول، ص ٤٧، يقول: "*Antellæ quod castrum erat in Sicilia juxta Corleonum*". ولكن لا شك فى أنها إنتيللا نفسها، التى يوجد اسمها فى ذكريات أخرى ذكرتها فى *Carte comparée de la Sicile ec., index topographique* فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب الأول، الفصل السادس، يعطى إشارة طبوغرافية عن المدينة القديمة وعن القلعة، حيث دافع مسلمو صقلية الأواخر بعناد عن انفسهم ضد الإمبراطور فدريكو. وقد زار أحد أصدقائى الباحثين هذه القلعة عام ١٨٥٨، وتفضل بإبلاغى بالملحوظات والخريطة التى رسمها، والتى نرى منها الموقع الحصين الرائع، وامتداد المدينة القديمة، المزودة بصهاريج وحفر للقمح، وموقع ما يعتقد بحق أنها قلعة المراسنة: والتى تختفى بقاياها مثل بقايا المدينة شيئاً فشيئاً، وسرقت لاستخدامها كمواد بناء فى البلدان المحيطة، والموقع المشرف على نهر بيليتشى الأيسر، مذكور فى خريطتى المقارنة.

(2) *Nikl* او *Nicl*، ربما يكونان اسمى كنية (حذاء برقبة قديم، او *ceppo*، *ritorta*، محارب شجاع)، او *Nakhli* اسم عرقى.

ذلك بقرنين لإوفيميو، خائن صقلية المسيحية. وقد أصاب ذلك العقاب أنصار النورمان بالفزع، وقلب الأمور حتى إن حاميات بترااليا وترااينا انسحبت إلى مسينا، حيث استعدت بسرعة للدفاع. ويرجع موت ابن الثمنة إلى أوائل مارس عام ألف واثنين وستين(1).

والشئ الأخطر هو أن روجيرو كان على وشك الاقتتال مع روبرتو. فهذا الشاب الذى اغتر بالقرابة، بدأ فى الإعراب عن استيائه بصوت مرتفع: لقد بدءا معاً غزو كلابريا، واتفقا فى سكاليا على اقتسام البلد مناصفة، وكان الدوق يراوغ فى ذلك منذ عامين. وقد تحمل هو ذلك حينما كان أعزب والآن كان يخجل من أن تعيش زوجه التى تجرى فى عروقها الدماء الملكية حياة الفقر والعوز؛ وحان الوقت ليفى الدوق بوعده له. كان يطرح هذه الشكاوى على روبرتو، ويحث النبلاء النورمان على متابعتها؛ وكان شقيقه يتشبث أكثر بالرفض. وفى النهاية تركه روجيرو فى ألم شديد، وجرى إلى قلعته، وجمع فيها الرجال المسلحين وأعلن أنه سيقوم بالحرب إذا لم يعترف بحقه خلال أربعين يوماً(2). وسرعان ما تحرك الدوق لمهاجمة ميليتو فى ربيع عام اثنين وستين. ودارت الحرب بلا حمية وحماس؛ وطال الحصار لنقص المهارة فى ذلك الزمان وبصفة خاصة مهارة النورمان فى عمليات الاقتحام، وعندذاك أجبرتهما على الاتفاق واقعة ذكرتهما بعدم إمكانية إطلاق العنان عما بنفسيهما فى حروب أهلية إذا كانا يريدان اخضاع إيطاليا الجنوبية. كان مواطنو چيراتشى قد

---

(1) راجع مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الثانى والعشرين، وأنونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، المجلد الثانى، ص ٨٢٩ وفى الترجمة الفرنسية الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر: و*Epistola di fra Corrado*، الموضع المذكور. ويروى مالاتيرا مقتل ابن الثمنة بين إعلان روجيرو الحرب على روبرتو وحصار ميليتو الذى أعقب، حسب قوله، بداية (٢٥ مارس) عام ١٠٦٢. بهذه المعلومات حددت التاريخ بالتقريب.

(2) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الحادى والعشرين: أنونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، المجلد الثانى، ص ٨٢٨ و٨٢٩ والكتاب الأول، الفصل الخامس عشر من النص الفرنسى.

اقسموا بالولاء لروبرتو، دون أن يسلموه المدينة؛ وبما أنه كان يسعى إلى كبحهم بتشييد قلعة، فإنه كان أمامهم حصار ميليتو التى اتفقت على الاستسلام لروجيرو؛ الذى تحاشى مواقع رجال الدوق وخرج ذات ليلة مع مائة من الفرسان وألقى بنفسه فى چيراتشى، ليجمع منها الرجال، على ما يبدو، وينقض على الجيش الذى كان يهدده فى عقر داره. وبعد أن ترك روبرتو الحرس فى الحصنين اللذين كان يسيطر بهما على ميليتو، هرع مع رجاله إلى چيراتشى؛ وقبل أن ينزلق إلى حصار ثان حاول تجربة فنونه ومهاراته. فتنكر ودخل المدينة، وذهب خفية لكى يزور أحد مناصريه، يسمى بازيليو. وبينما كان يجلس إلى المائدة معه ومع زوجته، تعرف عليه أحد الخدم؛ وانتفض الشعب ثائراً، وذهب إلى البيت وقطعوا صاحبه إرباً، وقتلوا المرأة على الخازوق، وأصبح روبرتو مهدداً بمائة سيف، ولم يفلح أحكم المواطنين فى السيطرة على الموقف. وانقذته نفسه وكلمته الحاضرة من الموت. وقال بوجه جسور لغلاظ القلوب إنهم سيدفعون ثمناً غالياً لدمائه: وإن مقاتليه ومقاتلى روچيرو سيسارعون معاً لتدمير المدينة، أما إذا تركوه يرحل، فإنه سيعطيهم فى مقابل ذلك ما يطلبونه. فاقتادوه إلى السجن فى تردد. ولكن روچيرو الذى لم يكن موجوداً فى ذلك اليوم فى چيراتشى، عاد مسرعاً بعد أن دعاه فرسان شقيقه: وأتى بالنبلاء خارج الأسوار: وبالترغيب والتهديد طلب منهم أن يسلموه جويسكاردو حتى ينتقم منه بيديه: وقال لهم: «لقد أقسمتم لى بالولاء، أطيعونى فى هذا وإلا اجبرتكم عليه: إن رجال روبرتو أصبحوا الآن رهن إشارتى، وقد تعبوا من سيدهم الظالم: فإن لم تحضروه هنا الآن مكبلاً بالأغلال، فإننى سأبدأ فى قطع أشجار الكروم والزيتون». فاقتادوا روبرتو، بعد أن جعلوه يقسم أولاً على أنه لن يشيد أى قلعة بعد ذلك فى چيراتشى. وتعانق الشقيقان، كما كتب مالاتيرا، مثل يوسف الصديق وبنيامين، بينما كان المقاتلون النورمان كلهم يبكون تأثراً. ولكن روبرتو، بعد أن جفف

دموعه، وودع روچيرو وجد بلايا أخرى: فقد دفعه لوم رجاله العام وبداية أعمال حربية جديدة إلى الحضور إلى ڤال دى كراتى للاتفاق على اقتسام كلابريا، متحدثاً مع شقيقه على الجسر الذى سمى بعد ذلك جسر جويسكاردو. وبعد الاتفاق رفع روچيرو الضريبة على المواقع الجديدة التى آلت إليه لتزويد رجاله بالسلاح والملابس والخيل. وأحكم قبضته على چيرانتشى: حيث شرع بعد ذهابه إليها مع جيشه فى بناء قلعة خارج الأسوار. وكان يرد على المواطنين الذين كانوا يحتجون بعهد روبرتو لهم، قائلاً: «لقد أقسم هو، ولست أنا». وكان يجبرهم على دفع إتاوة كبيرة(1).

وهكذا بعد أن قام بتسليح ثلاثمائة فارس فى أغسطس أو سبتمبر(2)، عبر روچيرو من جديد إلى صقلية، مصطحباً معه زوجه، وهى خائفة من المتاعب والمخاطر التى كانت مقبلة عليها، ولم تكن تتوقع خطورتها الشديدة. وعند دخول هذا الجمع الغفير مدينة ترابنا، استقبلهم المواطنون، بفتور شديد. وسرعان ما آلمهم أولئك الضيوف الذين أقاموا فى البيوت، وكانوا مستعدين لمداعبة زوجاتهم وبناتهم. ومع هذا أخذ روچيرو يحكم قبضته على المدينة أكثر فأكثر وذهب لمهاجمة قلاع المسلمين القريبة. وبالتالى عندما شعر المواطنون بالنير الجديد على رقابهم، أمسكوا بالسلاح بتحريض من شخص يدعى بلوتينو. من أعيان البلد؛ وهاجموا الحامية الضئيلة عندما خرج روچيرو فى يوم مع معظم رجاله للسلب فى ضواحى

---

(1) قارن بين: مالاتيرا، الكتاب الثانى، من الفصل الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين: وأنونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، المجلد الثانى، من ص ٨٣٩ إلى ص ٨٤١: وفى النص الفرنسى، الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر والسادس عشر. ويفترض أنونيمو، مقترفاً خطأ واضحاً، سجن روبرتو فى چيراتشى فى صقلية: وهذا من بين الأدلة التى تثبت أن المؤلف قد كتب فى القرن التالى وفى الجزيرة.

(2) مالاتيرا. ربما يقصد الجنود، أو يمكن أن نقول رماة الرماح، ويزيد من عدد الخيل إلى ألف تقريباً. التاريخ يستخلص من أن روچيرو تحرر من أعدائه فى ترابنا، فى أوج الشتاء، بعد أربعة شهور من الحصار. ونستخلص علاوة على ذلك مرور أسبوعين أو أكثر منذ الوصول إلى بداية الثورة.

نيقوسيا: ولكنهم لم يكونوا مباغتين حتى لا يتنبه النورمان للحركة ويستعدوا؛ وهكذا استطاعوا صد العدو حتى الليل. وفى انتظاره لهجوم روجيرو، تقوى هذا العدو بدوره بالتحصينات والخنادق فى نصف المدينة المقابل للتل الذى كان يسيطر عليه النورمان(1) حيث كان قصر القنصل، كما تروى إحدى الوقائع التاريخية(2)، مما يجعلنا نفترض أن روجيرو قد اتخذ هذا اللقب فى ترانيا، وتذكر أنه يظهر على الجانب الآخر برج المدينة، وكأنها تذكر باستقلال البلدية اليونانية. وبعد استدعائه من خلال الرسائل، هرع روجيرو بسرعة؛ وشرع فى قتال المتمردين: وفى الوقت نفسه عندما ذاع الخبر فى المناطق المجاورة التى كان يسكنها المسلمون، زحفوا على المدينة فى خمسة آلاف من الرجال المسلمين وعرضوا مساعدتهم على اليونانيين الذين قبلوها. وبعد أن أصبح النورمان محاطين بالفرق من كل نوع، أخذوا يعانون الجوع؛ حيث لم يكن باستطاعتهم الخروج فى جماعات كبيرة للسلب والنهب دون تعريض الباقين لخطر جسيم، ولم يكن بوسعهم إرسال جماعات صغيرة من الفرسان للإغارة لأنهم كانوا يقيناً سيقطعون إرباً. وقد أنهكهم السهر والحراسة، والتحذيرات المستمرة والهجمات المباغتة اليائسة، وفى واحدة منها أوشك روجيرو أن يقتل. لأنه عندما رأى ترنح رجاله، كرّ بجواده الذى سقط صريعاً: ووجد نفسه محاطاً بجمع من الأعداء الذين حملوه حملاً؛ إلا أنه استل سيفه، ودار به على شكل دائرة، وأفسح الطريق لنفسه، وبقى وحيداً؛ وقد احتفظ برباطة جأشه، حتى أنه بعد أن نزع سرج الحصان انسحب ببطء مهدداً من حوله.

---

(1) مالاتيرًا.

(2) أنونيمو، وعلى الرغم من أنه قد حرّر مؤلفه بعد ثمانين عاماً من الحدث، فيبدو أنه قد أخذ عن ذكريات أخرى علاوة على ذكريات مالاتيرًا واستطاع بالصدفة أن يعرف اللقب الذى اتخذه روجيرو فى تلك الأيام الأولى من الغزو.

ومع ذلك تفاقمت المصاعب التى يتعرض لها المحاصَرون يوماً بعد يوم؛ وكان النبيل يعانى مثل المرتزق؛ وكانت جوديتا نفسها تضطر أحياناً للتغلب على الجوع بشرب الماء المجرد وهى تبكى؛ ولم يتبق لها ولعريسها سوى معطف واحد كانا يتدثران به بالتبادل، فكان يأخذه أيهما أشد إحساساً بالبرد. ورغم كل هذا كان المقاتلون النورمان يقاومون بإصرار ويتظاهرون بالسعادة والمزاح. وقد فتحت أمامهم انفراجة لم تكن متوقعة الوفرة التى كان يعيش فيها الأعداء، الذين كانت المدن الأخرى تتبارى فى تزويدهم بما يلزمهم وكانوا غير عابئين لثقتهم الزائدة فى أنفسهم؛ وفى الشتاء القارس، على تلك القمم التى ترتفع لألف ومائة متر أعلى من سطح البحر، كانت حراستهم ضعيفة، وأحياناً ما كانوا يستدفئون بالخمر. وقد تنبه النورمان إلى ذلك، وتظاهروا بالتوقف هم أيضاً عن الحراسة؛ ولكنهم كانوا أكثر يقظة فى التجسس على العدو. وذات ليلة، عندما رأى روچيرو أن العدو غير مستعد اندفع مع كل رجاله إلى الحاجز، وأخذ فى تقطيع السكارى النائمين بالسيف؛ واحتل نصف المدينة الآخر والبرج، ووقع فى الأسر من وقع وهرب من هرب؛ ولم يقف المسلمون المعسكرون فى المناطق المجاورة منتظرين. وبعد أن شنق بلوتينو، ومات آخرون بعذابات أخرى، وجد المنتصرون كمية كبيرة من الحنطة والزيت والنبيذ ومن كل ما يلزمهم؛ وبالتحصينات والترويع كانوا يقومون بتأمين أنفسهم فى المدينة التى سيطروا عليها. وذهب روچيرو بمفرده إلى البر الإيطالى ليعيد التزود بالخيول ليعوض بها الخيول التى فقدها فى الحصار: وترك عروسه فى ترايبنا، وكانت قد تعلمت للضرورة القيام بدور نائب القائد؛ وحافظت على النظام فى الحامية وهى تطوف بالتحصينات كل يوم، وتسهر على الحراس، وهى تشجع الجميع بالكلمات والوعود الطيبة، وتذكرهم بالأخطار التى تعرضوا لها معاً والتى كانت تحوم حولهم

هناك، والويل لمن كان يعتقد أنها قد انقشعت(1).

وأخيراً ظهر كالعادة فى ذلك الوقت بين مسلمى صقلية شعاع سرعان ما انقشع يبين لهم طريق الخلاص. أن يتفقوا فيما بينهم ومع الزيريين فى أفريقيا؛ وأن يطيعوا هؤلاء بدلاً من الخضوع للنير المسيحى. وبعد موت المعز فى آخر أغسطس من عام ألف واثنين وستين استخدم ابنه تميم الذى خلفه بحظ أوفر عرب ما وراء النيل، الذين كانوا للظروف التى ذكرناها(2) يصغون بآذانهم للأمراء الزيريين يوماً بعد يوم. ونرى فى العام الأول من حكمه أن العرب وقوات تميم قد أخضعوا صفاقس وسوسه وهزموا فى معركة دموية جيش بجاية، المؤلف من بربر قبائل صنهاجة وزناتا وعرب قبيلة هلال(3). وبالتالى فإننا نعتقد أن فكرة استئناف عملية صقلية فى

---

(1) قارن بين: مالاتيراً. الكتاب الثانى، الفصل التاسع والعشرين والحادى والثلاثين: وانونيمو. فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*: المجلد الثانى، ص ٨٤١: وفى الترجمة الفرنسية. الكتاب الأول. الفصل السادس عشر. واسم بلوتينو مكتوب جلوتينو فى نص انونيمو اللاتينى، وبورينو وبولارينو فى نص مالاتيراً. ويجب أن نلاحظ أنه طبقاً لما يقوله مالاتيراً، شرب أهل ترابنا كثيراً فى ذلك الشتاء بالغ البرودة لأنهم اعتادوا فى الصيف تحمل حرارة لا تُحتمل لقربهم من بركان إتنا (!!) ولهذا *balnearum æstuationibus æstuari assueti etc.* ويبدو لى واضحاً هنا معنى «معتادون على حرارة المدفأة» وأن هذه الكلمات لا تشهد على استخدام الحمامات فى ترابنا فى عام ١٠٦٢، وإنما بالأحرى فى بالرمو فى نهاية القرن. عندما كان يكتب مالاتيراً. وشهادة هذا الكاتب بأن أرياف ترابنا كان يسكنها المسلمون تتأكد من خلال وثيقة ترجع لعام ١٠٨٥ فى كتاب. *Di Chiara Opuscoli ec.* بالرمو، ١٨٥٥، ص ١٦٧. وأسماء الفلاحين الممنوحين لكنيسة ترابنا فى ضواحى المدينة كلها أسماء مسلمين.

(2) انظر هنا عاليه ص ٨٧ ـ ٨٨.

(3) يذكر ابن الأثير موت المعز فى عام ٤٥٣، النص، عام ٤٨٤ فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٧٧. والنويرى، المرجع المذكور. الورقة ٤٠ الوجه الثانى، وابن الشرف. المذكور فى **البيان**، ص ٣٠٨. يذكر أنه كان فى عام ٤٥٥. ولكن أبو الصلت. فى المرجع نفسه، يذكر تاريخ ٢٤ شعبان ٤٥٤؛ والتيجانى، الموضع المذكور، يؤكد السنة، أسوة بابن أبّار. فى **حلة السيرة**، مخطوطة الجمعية الأسيوية فى باريس، الورقة ١٠٨ الوجه الثانى. والتزم بهؤلاء الكتاب الثلاثة الأخيرين، بوصفهم مصادر أصدق من أى أحد غيرهم فى شئون أفريقية.

حالة تميم فى بداية الحكم وصفها هكذا التيجانى، مخطوط باريس. *sup. 911 bis.*

ذلك الوقت كانت تبدو جديرة بالإعجاب فى بلاط المهدية، حيث كانت تعد بضربة واحدة بشرف الجهاد، وغزو الجزيرة وإبعاد العرب: هؤلاء الشجعان الذين هزموا، واحدا فى مقابل عشرة، جيوش الزيريين، وأتلفوا البلاد وساعدوا المتمردين. ومن الأحداث التى تلت ذلك نرى أن مسلمى صقلية الذين ارتفعت معنوياتهم بعد قتل ابن الثمنة وانقسامات المسيحيين واستعادة الزيريين ظاهرياً لقوتهم، كانوا يرجون المساعدة أو يقبلونها فى ذلك الوقت. وهذا فى الواقع، رغم كل الانتصارات الجديدة للنورمان. هو الذى أوقف الغزاة لسنوات عديدة: ولم يكن هذا بلا جدوى اللهم إلا بالنسبة للخلافات التى تأججت فى الأرض التعيسة، عندما اضطر الأفارقة الذين حاربهم سيد كاستروچوڤانى وأشراف بالرمو المشاغبون إلى الرحيل.

وفى العام نفسه الف وثلاثة وستين هبط فى صقلية مساعدو تميم من الجند الشرسين، ونستخلص من الحوليات الإسلامية أنه قام بالعملية بعد وفاة أبيه، ومن الوقائع المسيحية أن روچيرو العائد من كلابريا وجد نفسه فى مواجهة قوات جديدة جاءت من الجزيرة العربية ومن أفريقيا للاستيلاء على أملاك الآخرين، بحجة تقديم المساعدة للصقليين: وفى هذه الرواية يرى كل مؤرخ عمّن من العرب كان يتحدث النورمان(1). وقد أرسل تميم جيشاً وأسطولاً تحت قيادة اثنين من أبنائه، أيوب وعلى؛ وقد جاء أولهما بمعظم الرجال إلى بالرمو، والثانى إلى چرچنتى:(2). ويبدو أن أولهما قد حكم بمساعدة

الورقة ١٣٥ الوجه الأول، وترجمة م. روسو: «وانتزع منه العرب كل شئ، ولم يتبق له سوى محيط أسوار المهدية. ولكنه فى بعض الأحيان، عند اتحاده مع بعض القبائل العربية، وجد طريقة للخروج إلى الميدان الذى كانوا يأتون لمهاجمته منه، ومحاصرة بعض المدن التى تمردت عليه».

(1) *"Comperto quod Arabici et Africani, qui Arabia et Africa, quasi auxilium laturi Siciliensibus, causa lucrandi advenerant etc."* مالاتيرا. وربما يكون الأفارقة هم أولئك العبيد الزيريون الذين يشير إليهم ابن الأثير.

(2) ابن الأثير، عام ٤٨٤، النص، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٧٧؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٤٧، ولدى دى جريجوريو، ص ٢٦. الاثنان ينقلان

مواطنى العاصمة والأراضى التى كانت تحت طاعتها، من مازارا وحتى تشيفالو او توزا، حكم البلاد باسم أبيه؛ وأن الآخر باعتباره مساعداً لابن حواش قد احتفظ بحامية فى چرچنتى(1)؛ وذهبت فرقة لتدعيم كاستروچوفانى. ولكن روچيرو ما أن عاد من بوليا وكلابريا مثل نحلة شغالة، كما كتب مالاتيرًا، محملاً بكل ما يلزم رجاله، حتى سارع بتوزيع الخيل والأسلحة عليهم: وبعد أن اراح الخيل عدة أيام، تحرك فى اتجاه كاستروچوفانى، وهو يتوق لمواجهة الخمسمائة من العرب والأفارقة الذين وصلوا إلى هناك حديثاً. وتوقف على بعد ميلين من المدينة: وبالخطة المعتادة وبقائد الطليعة سيرلونى نفسه، دفع إلى الأمام بثلاثين من الجنود، أو بما يقرب من مائة من الخيل، لاستفزاز العدو؛ واختبأ هو فى واد كثيف الأشجار مع باقى الرجال. وعندما اكتشف المسلمون فرقة سيرلونى من أعلى حصونهم، هبطوا باعداد كبيرة إلى المعركة، وكانوا يهاجمون بقوة حتى إن اثنين فقط من الفرسان النورمان وصلا سالمين حتى مكان الكمين، وفقد الآخرون الذين أسروا أو سقطوا من على صهوة الجياد ولم يعودوا، عندئذ انقض روچيرو كأسد جريح: وبعد معركة حامية انتصر على المسلمين، وتعقبهم لأكثر من ميل ثم عاد إلى ترابنا، واحتفل احتفالاً كبيراً بتلك الغنيمة الضئيلة والنصر الدموى ضد قوات متكافئة، مما يبين لنا مدى جسارة المسلمين بسبب المساعدة الجديدة ومدى

الحدث بدون تاريخ آخر، بعد ارتقاء تميم، ويستطردان، باستخدام كلمة «بعد ذلك» فى رواية انتقال أيوب إلى چرچنتى وأحداث أخرى خطيرة حتى عام ٤٦١ (١٠٦٨ ـ ١٠٦٩). وكلمة «بعد ذلك» يبدو لى أنها تعنى بعد ثلاث أو أربع سنوات. ويلاحظ أن اسم أيوب هو الصيغة العربية لـ *Giobbe*.

(1) هذه التفاصيل تستخلص من باقى القصة. واعتقد انه جاءت أولاً فرقة كاستروچوفانى باستقراء الكلمة التى بدأ بها مالاتيرًا الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب الثانى. والحدود التى تخيلتها للإقليم الذى حكم فيه أيوب، هى من ناحية ولاية چرچنتى التى يسيطر عليها ابن حواش. ومن ناحية أخرى قلعة سان ماركو التى أظن أنها كانت فى أيدى النورمان. ولا يمكن أن نستنتج لأى أمير مسلم كان يدين بالطاعة جزء الجزيرة الواقع بين ليكاتا وتاورمينا، من أى معلومة مؤكدة أو مشكوك فيها.

فزع المسيحيين.

واستغلالاً للنصر، جاب روجيرو على صهوة جواده الجزيرة فى جراة، واندفع حتى قرب منابع إيميرا الشمالية فى كالتافوتورو، وبعد ذلك عبر وادى إيميرا الجنوبى حتى جنوب كاستروجوفانى، حيث لم يخاطر المسلمون بالخروج لمواجهته؛ وأخيراً جرى إلى بوتيرا. قبالة البحر الأفريقى. وقد حمل من كل مكان غنيمة وفيرة، ومن بوتيرا كمية كبيرة من القطعان والأسرى. وعند مروره بوادى سيميتو، توقف عند أناتور، وبعد ذلك قضى يوماً فى سان فيليتشى(1)، وعاد إلى ترايينا؛ بعد أن فقد الكثير من الخيل لسرعة الغارة الخطيرة وحرارة الموسم وندرة المياه. وهو ما يبين أن السنة قد اشرفت على الأقل على شهر مايو. ويرجع إلى أبريل أو مارس قتال كاستروجوفانى الذى تحدثنا عنه منذ قليل(2).

---

(1) المصادر اللاتينية لا تقدم اى اسم يمكن ان يتحول إلى *Anattor*: وبديل مالاتيراً *Avator* يجب استبعاده مثل البديل الذى قد يؤدى إلى كلتافوتورو، وهى أرض بعيدة جداً. ولكن جغرافية الإدريسى تذكر، بدون حروف متحركة، كلمة أ ن ت ر ن س ت ر ى على سيميتو، جنوب ادرنو. وكما أن الموقع الذى يشير إليه هنا راوى الأخبار يقع على مسافة لا تبعد كثيراً عن سان فيليتشى، حيث يحكى ان الفرقة استراحت لفقدانها العديد من الخيل؛ وكما نجد نحن فى عملية عام ١٠٦١، ان سان فيليتشى قريبة من ذلك الجزء من سيميتو (انظر هنا عاليه ص ٧٩ ـ ٨٠)، وهكذا فإن من المحتمل للغاية تطابق المكانين اللذين ذكرهما مالاتيراً والإدريسى.

(2) قارن بين: مالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل الثانى والثلاثين، وانونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* المجلد الثانى، ص ٨٤١، وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل السابع عشر.

يروى مالاتيراً هذه الأحداث قبل ان يذكر، كعادته، بداية العام الجديد، الذى يبدأ، طبقاً لحسابه، من ٢٥ مارس، واهم حدث، اى تحذير كاستروجوفانى، يجب ان يوضع بالتالى قبل ٢٥ مارس ١٠٦٢. ولكن الظروف الأخرى تجبرنا على تأجيل غارة كلتافوتورو وبوتيرا إلى نهاية الربيع، عندما يعانى الناس فى صقلية أحياناً من الحر الشديد والجفاف اللذين اشار إليهما مالاتيراً. ومن ناحية أخرى فإن الأحداث التالية لا تسمح بافتراض هذه الغارة فى يونيو او يوليو. وجدير بالذكر أن مالاتيراً يعطى فقط أسماء المدن والقلاع، وقد أضفت أنا الإشارات إلى مجارى الأنهار التى اتبعها النورمان بوضوح.

وفى الوقت نفسه كان الجيش الزيرى، المتحد مع قوات مسلمى البلاد(1)، يتحرك من بالرمو(2) نحو ترايْنا، ليطأ بأقدامه الأعداء فى عقر دارهم. وكان ثلاثون ألفاً من الخيل وعشرون ألفا من الجنود المشاة، حسبما يقول مالاتيرا (أى فى قول الكونت روجيرو) أخذوا ينقضون على مائة وستة وثلاثين من الجنود، أى أربعمائة أو خمسمائة مقاتل: ولكن لابد من تقليل عدد المسلمين بقدر كبير، وأن نضيف إلى الجانب المضاد بعض الجماعات من مسيحيى صقلية يعتقد أنهم هرعوا للقتال(3)، ولكن الشجاعة النورماندية ستظهر بوصفها معجزة يصدقها فقط الجيل الذى شهد عملية جاريبالدى فى صقلية. وبعد أن عبر جيش المسلمين النتوءات الجبلية التى تظهر جنوب جبال الأبنين الصقلية، وصل إلى سلسلة جبال كابيتسى(4)، التى توازى سلسلة جبال ترايْنا والوادى بينهما يشقه نهر تشيرامى الصغير الذى يستمد اسمه من قلعة مشيدة فوق جرف عال على الضفة اليسرى. أى فى المنحدر الغربى من ترايْنا، على بعد ستة أميال شمال غرب هذه المدينة. وكان قد حل شهر يونيو عام ألف

---

(1) *"Africani ergo et Arabici cum Siciliensibus plurimo exercitu congregati un bellum comiti inferant etc."* وكلمة *Sicilienses* لا يمكن أن نعنى سوى مسلمى صقلية. وهكذا أيضاً فى الفصلين السابع عشر والثالث والثلاثين من كتاب مالاتيرا الثانى نفسه. ولم يحدث أبداً فى أى ولاية إسلامية أن سلح الذميون. وبالتالى فإن بالميهرى. *Somma della Storia di Sicilia*، الفصل الثامن عشر، يخطئ فى الافتراض، بناء على تفسير مشكوك فيه لرواية مالاتيرا. بأن مسيحيي صقلية كانوا جزءاً من الجيش المسلم فى تشيرامى.

(2) نستنتج هذا أولاً من الحوليات العربية التى تقول إن الجيش قد ذهب إلى بالرمو؛ وثانيا من وفاة قائد بالرمو فى يوم تشيرامى.

(3) هذا الافتراض المحتمل جداً مسبقاً، تدعمه حقيقة أن الغنيمة قد أرسلت إلى البابا عن طريق شخص يدعى ميليديو. وهو اسم يونانى ولكنه من كلابريا أو صقلية. ومن ناحية أخرى يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن المسلمين لم يكن من الممكن أن يظلوا لمدة ثلاثة أيام فى حالة معركة على المرتفع المقابل لترايْنا. إن لم يكونوا قد رأوا قوات أكبر من تلك التى تنسبها الأخبار النورماندية للكونت روجيرو.

(4) وضعت اسم البلد الذى لا يوجد فى كتاب مالاتيرا.

وثلاثة وستين(1). وبعد أن تجسس روجيرو على العدو، قرر مواجهته قبل أن يأتي إلى تجويعه فى ترابنا؛ ومن هنا فقد خرج مع فرقته النورماندية الصغيرة، واستعد لمنعه من عبور الوادى؛ واحتشد المسلمون على الحافة المقابلة. وعلى الرغم من عدم جراءة هؤلاء أو أولئك على الهبوط أولاً، فقد عاد هؤلاء عند نهاية اليوم إلى معاقلهم وراء تل كابيتسى وعاد الآخر إلى ترابنا. وقد كرر كلاهما هذه التحركات فى اليوم الثانى والثالث. وفى اليوم الرابع، جاء المسلمون لوضع المعسكر على المعابر الجبلية التى اعتادوا خوض المعركة فيها. وعندما أدرك النورمان هذه الاستعدادات للمعركة اعترفوا بخطاياهم وطلبوا الصفح من القساوسة وتحركوا نحو العدو.

وعندما عرف من المستكشفين أن ذلك العدو يتجه نحو تشيرامى، التى كانت خاضعة آنذاك أو متحدة مع روجيرو وتدعمها حامية نورماندية صغيرة(2)، أرسل الكونت سيرلونى إلى هناك مع ثلاثين من الرماة للدفاع عن القلعة حتى يصل هو لينقض على المهاجمين بالمائة الذين تبقوا معه. وقد دخل سيرلونى تشيرامى قبل العدو، وعندما تقدم هذا(3)، دون أن ينتظر سيرلونى الكونت، فتح الأبواب وهجم بستة وثلاثين رامٍ على كل فرسان المسلمين، أو على الطليعة وحدها على ما يبدو؛ وشتتها عند الصدام الأول، وتعقبها وقتل منها الكثيرين، وعندما مار حتى المعسكر، جمع من هناك بعض الغنائم، ورجع إلى تشيرامى التى كان روجيرو قد وصلها. وعندئذ اجتمع القادة للتشاور، فحرض البعض على إشعال المعركة على الفور. ونبه البعض الآخر إلى عدم معاندة القدر بتجارب جريئة أكثر من اللازم،

---

(1) هذا التاريخ لا نقرأه فى الأخبار. وقد استنتجته من الفارة السابقة فى بوتيرا المحددة بالتقريب فى الهامش رقم ٢ ص ١٠٢ ومن عملية أهل بيزا فى بالرمو التى جاءت بعد ذلك بقليل.

(2) سيرلونى دخلها بثلاثين جندياً وخرج منها بـ ٣٦. وفى نفس الوقت. لا يتحدث مالاتيرًا إطلاقاً عن سكان تشيرامى.

(3) انونيمو.

ورفع أرسيللو دى باليول صوته على الحذرين، وقال بحدة لروجيرو إنه لن يتبع أبداً رايته إن لم يقاتل فوراً: وقد استراح الكونت لهذه الكلمات وانفجر هو الآخر فى توبيخ شديد ضد المتشككين: وبعد اتخاذ القرار، وجد أنه لم يكن هناك احد خائفاً. وفى الوقت نفسه كان المسلمون قد تمركزوا فى معسكرهم؛ وقد زاد عددهم بانضمام أناس آخرين، وظهروا اكثر ترويعاً من ذى قبل، وقد انتظموا فى جيشين مستعدين للمعركة. وقد انقسم النورمان أيضاً إلى فرقتين، يقود إحداهما سيرليونى واورسيللو وأريزجوتو دى بوتسوولى، والأخرى الكونت. وعند لحظة الصدام، تحاشت الفرقة الأولى المعادية الطليعة النورماندية والتفت من جانبها، وتحركت نحو احد التلال وكانت تأمل فى احتلاله قبل أن يصل روجيرو: ولكنها فشلت فى ذلك. وكان أورسيللو فى فرقة وروجيرو فى فرقة أخرى يشجعان النورمان فى هذا بكلمات سامية عن الدين والشرف؛ حتى أنهم انقضوا على هذا الجمع الذى لم يروه من قبل: واخترقوا بين موجات فرسان المسلمين. من ذا الذى مكنهم من النصر؟ يروى مالاتيرًا أن فارساً قوياً جميل الهيئة، كان يمتطى صهوة جواد أشهب ويرتدى دروعاً بيضاء، وكان مسلحاً برمح فى طرفه راية صغيرة بيضاء بها صليب أحمر. وقد دخل اولاً ليكسر الفرقة المسلمة ويمزقها هنالك حيث كانت اكثر كثافة. ويقول راوى الأخبار إنهم تخيلوا سان چورچو بنفسه: حتى إن النورمان بكوا من التأثر واتبعوه وسط الزحام؛ وتاه منهم؛ وكانوا قد انتصروا بالفعل. ولكن تلك الرؤية تتكرر كثيراً فى حروب الصليبيين، حتى أنها تبدو من نتاج بلاغة راوى الأخبار، وليست من تهيؤات المقاتلين. وقد نسب للكونت روجيرو أيضاً تفضل السماء عليه براية صليبية كانت تزين رمحه، لم يصنعها هو أو أى انسان

آخر. ولكن من المؤكد أن حديد رمحه اخترق درعاً رائع الصنعة(1) على صدر قائد بالرمو(2)، قائد الجيش أو الفرقة، وهو رجل بالغ القوة وكان يركض بحصانه أمام رجاله وهو يهدد النورمان ويلعنهم. وقد انتصرت الشجاعة والنظام ووحدة الإرادة القوية والإيمان الحى. بعد صدام طويل للغاية على هذا العدد الكبير الذى تم تجميعه من العرب الشجعان ولكنهم مرتزقة، والعبيد الأفارقة والنبلاء الصقليين المرتابين، والدهماء المتوحشين فى الثورات، العاجزين فى الميدان. وانقشع الزحام حول المسيحيين: مثل سحب بددتها الرياح. وكسرب من الطيور عندما ينقض عليها صقر كبير، كما كتب مالاتيرّا، تشتت فرسان المسلمين، تاركين وراءهم خمسة عشر ألف قتيل؛ وعشرين ألفاً كما يقول أنونيمو معقباً. وقضى المنتصرون الليل فى معسكر العدو مستريحين فى الخيام، وكانوا يقتسمون الغنائم؛ ولكن مع بزوغ اليوم التالى انطلقوا من جديد فى مطاردة عشرين الفاً من المشاة لجأوا إلى سـفوح الجبـــال وقاموا بمذبحة؛ وأرسلوا غالبيتهم وهم أسرى لبيعهم فى كلابريا وفى بوليا، وكان هذا أكبر مكسب من مكاسب النصــر. هكذا كان رواة الأخبــــار يجمعون الغرائب بحيث يوحـون بأنهم يروون الأساطير أو ينسون فى خضم تلك الأحداث السـكان المسـيحيين فى صـقلية؛ وفى أوج الخـيال يحـكون لنـا أن

"Et splendenti clamucio, quo pro lorica utimur (utuntur?) (1) rmatum... et clamucium quo indutus erat nullis armis poterat violari, nisi ab imo in superius impingendo, inter duo ferrea quæ per juncturas cumcatenata sunt, ingenio potius quam vi vitiaretur." هكذا يقول مالاتيرّا، الذى يبدو أنه كان تحت بصره التسليح الذى ربما احتفظ به الكونت روجيرو. وعندما يذكر دوكانج، *Glossario*، هذه الفقرة، يفترض أن اللفظ هو تحريف لـ*Camicium, chemise de maille*. والوصف فى الحقيقة يبين سترة حربية متشابكة شرقية صدرها وظهرها مغطيان برقائق على شكل قشر السمك، كما نرى مثيلاتها فى متاحفنا.

(2) *Arcadius*. من المؤكد انه «قائد» وليس «قاضياً» كما افترض البعض.

روجيرو عاد إلى تروينا للهرب من عفونة الجثث(1). وبعد هذا أرسل مليديو إلى البابا الساندرو الثانى ليخبره بتفاصيل النصر وإهدائه أربعة جمال. وفى مقابل ذلك رد البابا بالعفو الشامل عن الكونت وعن كل من قاتل أو كل من سيقاتل فى المستقبل المسلمين فى صقلية؛ وأضاف راية لتتم تحتها فى أمن أكثر البطولات المقدسة. وقد حاول مالاتيرًا، فى روايته لهذا الحدث أن يعطيه معنى المحبة المجردة، دون أى ظل لتبعية إقطاعية فى هدية الجمال، أو لتصبب فى هدية الراية(2).

وبعد المعركة بقليل تقدم لروجيرو أنصار مزعجون للقيام بعملية

---

(1) قارن بين: مالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصل الثانى والثلاثين؛ وانونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* المجلد الثانى، ص ٨٤١ ـ ٨٤٣ وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الثامن عشر: و*Epistole di Fra' Corrado*، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٨.

ومن المؤكد أن انونيمو كان تحت بصره مالاتيرًا ومذكرات أخرى؛ لأنه يروى بعض التفاصيل المختلفة. وأهمها أن روجيرو أرسل سيرلونى إلى تشيرامى قبل يومين من المعركة الكبيرة؛ وأن سيرلونى خرج للقتال غداة وصوله؛ وأن روجيرو ذهب إليه فى المساء مع معظم رجاله وأنهم جميعاً تقدموا صوب العدو فى اليوم التالى، نحو الساعة السابعة. ورواية مالاتيرًا، على العكس من ذلك، تفترض أن كل المعارك حدثت فى يوم واحد. ربما ذكر هذه المعركة بعض رواة الأخبار المسلمين، الذين لم تصل كتاباتهم إلينا؛ لأن السيوطى فى سيرة محمد بن على بن حسن بن أبى البر، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، الفصل السادس والسبعين، ص ٦٧٢، يقول إن الغزو المسيحى لصقلية حدث عام ٤٥٥ من الهجرة (١٠٦٣)، وهذا التاريخ لا يوجد فى المذكرات الإسلامية الأخرى.

(2) مالاتيرًا، الموضع المذكور *"Comes, Deo et S. Petro cujus patrocinio tantam victoriam se adeptum recognoscebat, de collato sibi beneficio non ingratum existens, in testimonium victoriæ suæ, per quendam suorum... Apostolicus vero, plus de victoria... mandat: vexillumque a Romana sede, Apostolica auctoritate consignatum; quo præmio, de Beati Petri fisi præsidio, tutius in Saracenos debellaturi insurgerent."*

هذه هى الراية التى يقول جانونى، الكتاب العاشر، الفصل الثانى، أن الساندرو الثانى أرسلها إلى الكونت روجيرو بينما كان يستعد لعملية صقلية. وهذا المؤرخ الشهير من نابولى، الذى يذكر هنا بارونيو، عام ١٠٦٦، رقم ٢، لم يحترس هذه المرة من مكائد الكاردينال كاتب الحوليات.

ضد بالرمو. كان أهل بيزا يقومون بعمليات تجارية متكررة فى المدينة وتأثروا واغتاظوا من بعض الإهانات(1)؛ وكان ذنب مسلمى صقلية الأكبر هو أن أمورهم كانت تسير من سئ إلى أسوأ وربما كان روبرتو جويسكاردو أيضاً، فى نشاط ذهنه الذى لا يهدأ، قد فكر فى استخدام قوات بيزا البحرية ضد صقلية، وبدأ لهذا لفرض إجراء بعض الاتصالات التى تبددت بعد ذلك(2). كان تجار بيزا يجهزون سفنهم لتكون مستعدة للتجارة والحرب على حد سواء؛ وقد دخل الأسطول أناس من كل نوع. كما تشهد على ذلك وثيقة من ذلك العصر، من الكبار ومتوسطى الحال والبسطاء(3). وبعد الإبحار إلى صقلية، ظهروا فى ميناء على الساحل الشمالى(4) حيث أرسلوا

---

(1) مالاتيرا.

(2) استنتج هذه الاتصالات من الإشارة المضطربة والخاطئة التى يذكرها عنها أماتو فى *Ystoire de li Normant*. الكتاب الخامس، الفصل الثامن والعشرين: أن روبرتو، أثناء حصار بارى (١٠٦٨ ـ ١٠٧١)، وحتى لا يتمكن المراسنة من التزود بالعتاد والامدادات، طلب مساعدة أهل بيزا، الذين قدموا له السفن وفرق الفرسان ورماة النبال، وجاءوا مباشرة إلى المدينة، وحطموا سلسلة الميناء، ووضعوا على الأرض جزءاً من قوتهم؛ وبعد انتصار الدوق فى بوليا حصلوا منه على هدايا كبيرة للغاية، وعادوا إلى بيزا. والكل يرى أن رواية أماتو، لخطأ من الناسخ أو المؤلف، لا تستقيم. إن الأمر يتعلق بالتأكيد ببالرمو، وليس ببارى التى كان بها يونانيون وليس مسلمين؛ وبحادثة عام ١٠٦٣، وليس باقتحام بالرمو عام ١٠٧٢، الذى لم يظهر فيه أهل بيزا. ومن هذا استنتج أن اتصالات روبرتو عام ١٠٦٣ بقيت دون نتيجة، وتغيرت فى الترجمة الفرنسية التى لدينا. ولا أستطيع أن افترض أن المؤلف، الذى كان حياً وكبيراً فى ذلك الوقت، قد ارتكب مفارقة زمنية تبلغ عشر سنوات واستبدل اسم المدينة؛ ولا أن أهل بيزا جاءوا مرة ثانية لتحطيم سلاسل ميناء بالرمو، دون أن تتحدث عن ذلك حولياتهم.

(3) كتابة منقوشة فى كنيسة بيزا فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى ص ٥.

(4) *In portu vallis Deminae*، كما كتب مالاتيرا. وقد تعنى مجازاً معيناً، ولكن راوى الأخبار اعتاد دائماً الإشارة إلى تلك المدينة القديمة باسمها، ويعتقد أنه استخدم فى هذا الموضع كناية فقط. ويروى الإدريسى أن موانئ فال ديمونى على الساحل الشمالى كانت بدءاً من الغرب هى: كارونيا على حدود ذلك الإقليم، وأوليفيرى وميلاتسو؛ ووسط الميناءين الأولين نذكر ساحل سان ماركو حيث كانت تبنى السفن. وفى التسعين علماً التى مرت من عام ١٠٦٣ وحتى كتابة الإدريسى لمؤلفه، لم تشهد

الرسـل فى ترانيا لدعوة روجيرو حتى يعاونهم بفرسانه. وقد رد بأن عليهم انتظاره قليلاً، حيث كان عليه أن يرتب بعض أموره؛ ولكن هؤلاء التجار، كما يقول راوى الخبر فى احتقار، لم يكونوا على علم بكيفية خوض الحرب، ولعدم اعتيادهم تبديد الوقت بلا طائل، فضلوا الذهاب بمفردهم إلى بالرمو. وفى العشرين من سبتمبر عام ألف وثلاثة وستين، قام أهل بيزا بمهاجمة الميناء وحطموا السلسلة التى كانت تغلقه، وأخذوا منه بعد معركة دموية ست سفن محملة بالبضائع(1)؛ وبعد صدهم، على ما يبدو، خارج الميناء، وضعوا على الأرض خيولاً ومشاة بالقرب من منبع نهر أوريتو، وكانوا يصدون المواطنين الذين خرجوا لقتالهم؛ وأقاموا الخيام على ضفة النهر وكانوا يقومون بغارات لنهب الفيلات الجميلة خارج المدينة(2). وبعد حرق خمس من السفن التى كانوا قد سلبوها، اقتادوا السفينة الأخيرة إلى بيزا، وبها ثروة كبيرة، كانت كافية للبدء فى بناء كنيستها الرئيسة (الدوم)، حيث تشهد كتابة معاصرة على العملية العسكرية الجسورة(3).

بالتأكيد موانئ جديدة، وربما لم يدمر شئ من الموانئ الموجودة. وبالتالى فإننا يجب أن نقتصر على الأربعة المذكورة.

(1) كتابة من كنيسة بيزا الرئيسة (الدوم).

(2) الكتابة نفسها التى تشير بصورة مبهمة إلى الغنيمة من الأرياف. ونحن نعلم من ابن حوقل أنه بطول أوريتو كانت تمتد بساتين أهل بالرمو الخلابة.

(3) قارن بين: مالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصل الرابع والثلاثين؛ مرانجونى، عام ١٠٦٣ فـى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٥ و٦؛ و*Chronica varia Pisana*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic. Script.*، المجلد السادس، ص ١٦٧ . إن التاريخ الدقيق الذى وصلنا بفضل مرانجونى، هو يوم القديس اجابيتو، أى ٢٠ سبتمبر؛ ولكن طبقاً للترتيب الزمنى لمالاتيرًا، فإنه يمكن أن يرجع إلى أواخر يونيو أو أوائل يوليو، لأنه يذكر الحدث قبل غارات كولليزانو وبروكاتو وتشيفالو التى أعقبت، حسبما يقول، بدايات الصيف. وأعتقد أن مرانجونى أصدق، وأنه ينبغى أن نفترض هنا أن تعاقب الأحداث كما ذكره راوى الأحداث النورماندى أقل دقة. ويلاحظ أن كتابة كنيسة بيزا الرئيسة تذكر هنا العام المعتاد بدلاً من عام بيزا:
Anno quo Christus de Virgine natus, ab illo Transierant Mille etc.

وأراد روجيرو عندئذ التوقف في الحر القائظ وإراحة رجاله المنهكين من النصر في تشيرامي(1)، ولذا فقد فكر في الذهاب إلى بوليا، بعد تموين ترايينا بالمؤن. ولهذا الهدف اندفع بجرأة نادرة في وادي إيميرا الشمالي، وأمضى اليوم الأول في كوليزانو والثاني في بروكاتو(2)، والثالث أخيراً في تشيفالو: وبعد أن عاد إلى بيته بغنيمة وفيرة للغاية، زود القلعة بما يلزمها، وترك فيها زوجه وزملاءه، الذين أوصاهم بالحراسة الجيدة كأن العدو على أبوابها، وعدم الابتعاد عن المدينة لأي فرصة مواتية. وذهب بعد ذلك إلى البر الإيطالي للتشاور مع روبرتو. وحصل منه على مائة جندي ولا نعلم بناءً على أي اتفاق، وأضاف إليهم مائة من رجاله: ومع اعتدال الطقس وعودته إلى صقلية اقتحم نواحي جرجنتي. وبدا آنذاك للعرب والأفارقة أن ينتقموا من هزيمة تشيرامي: خرجت قوة مختارة من سبعمائة فارس في هدوء من جرجنتي لانتظار النورمان عند العودة؛ وتمركزت عند حافة هاوية يجرى الطريق في نهايتها. ومر روجيرو مسرعاً وحذرا على صهوة جواده مع معظم رجاله، بعد أن ارسل أمامه أحمال الغنيمة مع حراسة من الرجال المسلحين: وعندما وصلت إلى الكمين هاجمتها قوات أكبر وتغلبت عليها من أعلى برمي الحجارة. وسيطر عليها الخوف على الفور فأدارت ظهرها وفقدت بعض الرجال ولجأت لاهثة إلى منحدر صخري كان لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق وعر ضيق. وعند سماعه هذا الضجيج هرع روجيرو على سنابك الخيل مع الفرقة الثانية، وكان يصيح على رجال الحراسة ليشاركوا في المعركة ولكنه واتته القوة للصمود هو بنفسه والنداء على كل فرد باسمه وواجههم بأنه لم يعرف فيهم المنتصرين على هذا العدو نفسه الذي

---

(1) يصمت مالاتيرا عن هذا السبب الرئيس الذي يظهر من الأحداث.

(2) قلعة قديمة بالقرب من الشاطئ الممتد من ترميني إلى تشيفالو: وفي منتصف القرن الثاني عشر كانت أرضاً غنية جداً ومحصنة. كما نلمح ذلك من الإدريسي ومن العديد من الوثائق.

كـان عـدده أكبـر فى تشـيرامى. وبعد أن قـام بحشـدهم ثانيـة بصعوبة، هاجم المسلمين وهزمهم، واستعاد الغنيمة وانسحب إلى ترانيا؛ وهو يبكى على موت جوالتيير و دى سيمول، أشجع شاب فى الجيش، الذى أصيب برمح وهو يندفع قبل الآخرين للهجوم(1). واعتقد أنه لو كان هناك مالاتيراً مسلم لروى هذا العمل العسكرى المشكوك فيه بصورة مختلفة ولأضاف إليه أعمالاً أخرى لصالح عشيرته، ويفترض بالضرورة أنها حدثت فى الخريف وحتى نهاية الشتاء، عندما يقدم لنا مالاتيراً النورماندى روبرتو جويسكاردو وقد أصابه الأسى من الأخبار الأخيرة التى وصلته من صقلية، وقد صمم على المشاركة فى الأخطار كما فعل من قبل فى الغزوات؛ فجاء لمساعدة روجيرو الذى كان السراسنة ينهكونه ويضغطون عليه بهجمات متكررة(2).

(1) قارن بين: مالاتيراً، الكتاب الثانى، الفصل الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين؛ وانونيمو فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، المجلد الثانى، ص ٨٤٣؛ وفى النص الفرنسى، الكتاب الأول، الفصل التاسع عشر. يذكر نص مالاتيراً اسم جوالتييرو دى سيمولا (وهو لفظ بديل لـ سيميلا) ونص أنونيمو يقول دى كولليو (وهو لفظ بديل لـ سيميلو) ولفظ سيميليكو.

(2) الكتاب الثانى، الفصل السادس والثلاثون.

الفصل الرابع

فى ربيع عام ألف وأربعة وستين حشد روبرتو الجيش فى بوليا وكلابريا وجاء روجيرو للقائه فى كوزنسا واجتازا معاً الفنار ومعهما خمسمائة من الجنود، بالإضافة إلى غيرهم من الفرسان وجنود المشاة(1) واتجه الجمعان مباشرة إلى بالرمو، ولم يجرؤ المسلمون على قطع الطريق عليهم. وعسكروا بالقرب من المدينة، فوق تل يجتاحه نوع من العناكب الضخمة(2) يقال إن لدغتها تسبب أعراضاً عصبية خطيرة وشديدة بل تهدد حياة الإنسان(3) ولكن يبدو أنها خرافة من الخرافات، لأن تلك الحشرة ليست ضارة اليوم، وإذا افترضنا أن ظروفاً خاصة فى أزمنة وأماكن أخرى زودتها بسلاح السم، فلا تكفينا حجة وقائع ما وراء الجبال، التى دائماً ما كانت تجعل منها عوناً يتخذه المسلمون ضد محـاربى الشـمال وتتهمها

---

(1) مالاتيرا، الموضع المذكور. ودون ذلك فقد يكون زيفاً *il plurimo exercitu* الذى نقراه قبل سطور قليلة من *il quingentis tantummodo militibus* ويظهر بوضوح اكثر أن المقصود بكلمة جندى هو فارس يتبعه اثنان او أكثر من رجال الحرب.

(2) *Tarentula, lycosa tarentula, aranea tarentula ec.* تسكن الأماكن القاحلة الجدباء فى أسبانيا وجنوب فرنسا وبوليا ... إلخ وقد يكون الاسم نسبة إلى مدينة تارانتو وأطلق كذلك على رقصة تارنتيلا الشعبية.

(3) *"Taranta quidem vermis est araneæ speciem habens, sed aculeum veneni feræ punctionis, omnesque quos punxerit multa venefica ventositate replet, in tantumque angustiatur ut ipsam ventositatem quæ per anum inhoneste crepitando emergit, nullo modo restinguere prævaleant et nisi clibanica vel alia quævis ferventior æstuatio citius adhibita fuerit, vitæ periculum incurrere dicuntur."* مالاتيرا، الموضع المذكور. حسب ما ذكره مؤرخو الحروب الصليبية فإن لدغته تسبب انتفاخاً والاماً فى جسم الانسان ولم يكن من الممكن علاجها إلا بالكى أو بالترياق، او حسب كلام البرتو دايكسى، باقتراف ذنب ما.

دائماً بأنها السبب فى فشل عملية صالحة(1). وأطلق النورمان على المكان المشئوم اسم جبل المناكبُ ولكن هذا الاسم لم يستمر(2) وتحـول النورمان عنه إلى معسكرات أفضل كانوا يهـاجمون منها المدينة لمدة ثلاثة أشهر ولكنهم لقوا مقاومة باسلة أرغمتهم ولا شك على فك الحصار بدلاً من سلب القرى. وبدلاً من الاتجاه، عند عودتهم، نحو الشرق، اتجهوا لمسافة ثمانين ميلاً نحو الجنوب حيث استولوا على بوجامو، وهى قلعة أو ربما قطعة من الأرض الشاسعة تبعد ستة أميال عن چرچنتى(3)، وقاموا بهدم المنازل، وأسروا سكانها وأرسلهم الدوق روبرتو ليعمروا سكريبلا فى كلابريا، التى خربها منذ حين، أى ليسخرهم فى زراعة أراضيه بعد أن طرد أصحابها القدامى. وهناك واقعة واحدة استخدم فيها السلاح فى أحداث عام ستة وأربعين، يرويها لنا مالاتيرّا، ذلك أنه أثناء مرور النورمان ومعهم أسرى بوجامو بالقرب من چرچنتى، خرج مواطنوها للثار فتم صدهم ومطاردتهم حتى أسوارهم(4). ويشهد أماتو على أن روبرتو عندما وجد نفسه غير

---

(1) انظر انسحاب الإمبراطور لودوفيكو الذى خرج لمواجهة سلطان بارى عام ٨٦٧ (الكتاب الثانى، الفصل الثامن، ص ٤٢٨، المجلد الأول).

ويتحدث البرتو دايكس وجوثير وفينيسوف، الذين ذكرهم ميشو فى كتابه *Histoire des Croisades* المجلد الأول ص ٢٩٧ طبعة عام ١٨٢٥، عن مصائب مشابهة حلت بالصليبيين فى بيروت وصيدا وطرابلس الشام عام ١٠٩٩.

(2) لم يعد لهذا الاسم وجود اليوم، ولا يوجد فى أية وثيقة. وحاول دى بلازى الصالح فى كتابه *Storia di Sicilia*، الكتاب السابع، الفصل الثامن، أن يدافع عن ريف بالرمو ونفى عنه هذا الاتهام الخطير: ويتهكم بلميرى بغضب فى كتابه *Somma della Storia di Sicilia*، المجلد الثانى ص ٤٤ وص ٣٢٤ على مالاتيرّا.

(3) نجد بوجامو فى كتاب مالاتيرّا وبورجامو فى رسالة الراهب كورّادو الذى يضيف على ذلك أن فى زمنه أى فى نهاية القرن الثالث عشر، كانت تلك الأرض التى تبعد ستة أميال عن چرچنتى يطلق عليها بواچيمو وهى قطيع تابع لعائلة مونتابرتو. وتقع فى الوقت الحالى فى تلك النواحى بلدية مونتابرتو. ويواچيمو لقب رجل أطلق على القلعة ويبدو إنه أبو الجامع *Abu-'l-Giami'*، أبو الجمع *Abu-'l-Gema'*، أو أبو العجمى *Abu-el-'agemi*.

(4) مالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصل السادس والثلاثون، فى كتاب كاروزو *Bibl Sic.* ص ١٩٥، ورسالة الراهب كورّادو، المرجع المذكور، ص ٤٨، راجع لوبو بروتسپاتاريو عام

قادر على اقتحام بالرمو دون قوات بحرية، اتجه للاستيلاء على مدن ساحلية أخرى فى البر الإيطالى، حيث قام بجمع السفن والبحارة(1). والحقيقة أن الدوق لم يعزز من نجاح جيوش المسيحيين فى صقلية. ولم يكن إدراك النورمان أو شجاعتهم قد قلاً. فمن ذا الذى جعل للمسلمين ذلك التفوق بين عامى ألف وثلاثة وستين وألف وثمانية وستين، فى الفترة ما بين معركة تشرامى وقتال ميزيلميرى؟.

هناك إشارات قليلة فى مصادر تاريخ المسلمين تقع تقريباً فى الفترة الزمنية نفسها ولكنها غير مؤرخة بدقة تجعلنا ندرك السبب، إذا ما قارناها بالظروف المعروفة فى مواضــع أخــرى. ولنتذكر أن من الأقاليم الثلاثة الكبيرة أو وديان صــقلية، كما كان يطلق عليها التى تتميز فيما بينها بسبب طبيعة أماكنها بقدر لا يقل عن تميزها بسبب التغيرات الاجتماعية والعرقية التى أتى بها الفتح الإسلامى، فإنه مع اختــلاف بسـيط فى الحدود كان وادى ديمونى تابعاً للنورمان بينمــــا كان وادى نوتو تابعاً لحلفائهم من المسلمين، ووادى مـازارا تابعاً لأعـدائهم من المسلمين المنقسمين إلى دولتين: شمـالية

١٠٦٥ طبعة برتز، ويقول إن روبرتو قتل عدداً كبيراً من السراســنة وأخذ معه قواداً من بالرمو. وهكذا كان النورمان يروون هذا الحدث عند عودتهم إلى بوليا.

(1) الكتاب الخامس، الفصل السادس والعشرون ص ١٥٩، وفى الفصل الثامن والعشرين من الكتاب نفسه ص ١٦٤، يجب أن نقرأ كلمة بالرمو بدلاً من بار وهى قراءة يؤكدها موجز الفهرست غير المطابق للنص، ونرى أيضاً بار بدلاً من بالرمو فى صفحة ٢٩٥
Et quant lo duc sapientissime vit la disposition et lo siege de Palerme et que des terres voisines estoit aportee la marchandise, et se alcuns negassent la grace par terre, lui seroit aportee par mer, apareilla soi a prendre altre cite a ce que assemblast autre multitude de navie pour restreindre Palerme... premerement asseia Otrante etc.
عندما جاء روبرتو أول مرة إلى صقلية عام ١٠٦١ لم يقترب من بالرمو، والفقرة التى نذكرها إذن لا يمكن أن تشير إلا لفترة عودته إلى كلابريا بعد حصار عام ١٠٦٤، كما يؤكد هذا احتلال اوترانتو الذى حدث بعد ذلك مباشرة. وهناك فصل على الأقل ناقص بين الفصلين الخامس والعشرين والسادس والعشرين، الأمر الذى لا يثير دهشة من قرأ بفطنة وانتباه ترجمة أماتو الفرنسية هذه.

وجنوبية. وطبقاً للحدود الحالية نقول إن إقليم مسينا كان خالياً من ولاة المسلمين بينما كان إقليما كتانيا وسيراكوزا خاضعين لخلفاء ابن الثمنة أو لحكام من سلالة أخرى جاءوا بعد موته؛ وان الحرب اقتصرت على أقاليم بالرمو وترابانى وكلتانيستا وجرجنتى؛ ويبدو أن الإقليمين الأولين كانا خاضعين لجمهورية بالرمو والآخرين خاضعين لابن حواش. وقد سبق ان ذكرنا ان كلاً منهما قد قبل مساعدة تميم بعد أن شعرا بالاختناق؛ كما روينا كيف ان ولدى تميم. أيوب وعلى، بسطا نفوذهما على كل من الدولتين: أى على بالرمو وجرجنتى. وباتفاق طموحات آل الزيرى مع سلامة مسلمى صقلية ورفعة الإسلام صار للأميرين أتباع كثيرون؛ ولم يكن من الممكن لمعركة تشرامى أن تقلل من مكانتهما، فقد كانت هذه المعركة بالتأكيد ضربة حظ بالنسبة للنورمان أكثر من كونها مهلكة للمسلمين. ومن جهة اخرى فلو كان قد اشترك فى القتال فيها أحد ابنى تميم الذى ربما كانوا يطلقون عليه فى هذا الجانب من البحر المتوسط، ملك أفريقيا والعرب، لما تجاهله بكل تأكيد النورمان أو أغفلوا الحديث عنه. أما أن يكون أيوب قد ادار الحرب بنجاح، والتى لم يذكر المؤرخون النورمان وقائعها، وأن يكون قد تمكن لفترة قصيرة من السيطرة على صقلية الغربية بأكملها، فإن هذا ما نستخلصه، إن لم أخطىء الاستنباط، من القصة التالية التى نقلها ابن الأثير أو لخصها، عن كتابات مؤلف سابق وأرَّخها فيما بين عامى أربعمائة وثلاثة وخمسين وأربعمائة وواحد وستين هجرية (١٠٦١ ـ ١٠٦٩ ميلادية).

وطبقاً لهذه المذكرات فقد أرسل ابن حواش هدايا ثمينة من كاستروجوفانى إلى أيوب؛ وكان يريد استضافته بقصره الخاص فى جرجنتى وكان يقدم له صور الاحترام والتبجيل كلها. ولكن تلك الصداقة لم تدم طويلاً. فعندما أدرك حاكم كاستروجوفانى ما يكنه أهل جرجنتى من حب جم للضيف، أرسل خطابات يأمر بطرده من البلاد. ولكنهم عصوا أمره فزحف إليهم بجيش كبير. وخرج أهل

چرچنتى بدورهم للقتال تحت راية أيوب واشتعلت المعركة بينهما حتى أوقفتها رمية سهم طائش ـ كما يقولون ـ قتل ابن حواش: ومن ثم نودى بأيوب حاكماً من كلا الجانبين فى أرض المعركة كما يبدو. وعاد فيما بعد الشقاق الذى أخمد بهذه الطريقة فى الجنوب ليشتعل فى بالرمو، حيث اشتبك أهل المدينة مع عبيد تميم المقيمين بها الذين كانوا لا يتحملونهم؛ واندلعت الحرب الأهلية بشدة حتى أن أيوب وجد نفسه عاجزاً عن السيطرة عليها فاستدعى أخاه علياً: وصعدا السفينة وعادا إلى افريقيا ولحق بهما كثير من أشراف مسلمى الجزيرة، وكذلك أفراد الأسطول الصقلى: ولم يبق أحد يستطيع أن يواجه النورمان. هكذا تسرد الحوليات الأحداث فى عجالة: وأغفلت كذلك ذكر احتلال كتانيا وبالمثل لم تذكر اقتحام بالرمو وتتحدث بالكاد عن استسلام چرچنتى وكاستروچوڤانى، أى آخر إنجازات الغزو النورمانى(1). وفى محاولة منا لتأريخ تلك الفترة التى تناولناها فإننا نرى أن نرجع ذهاب أيوب إلى چرچنتى إلى عام أربعة وستين وألف وذلك عندما أدى انسحاب جيش النورمان من بالرمو إلى تعظيم اسم أيوب وإبرازه، وأثار خراب بوجامو وتدميرها الرغبة فى وجود بطل ذلك الأوان المسلم فى تلك الأماكن. كما يبدو أن النورمان حينئذ أسرعوا نحو الجنوب عندما اشتموا رائحة الحرب الأهلية وكذلك بسبب دسائس الفصائل التى أدت إلى استدعاء أيوب. ويبدو أن الأخير رحل من صقلية فى أعقاب معركة ميزيلمرى البائسة التى ربما لم يشارك فيها(2)، ولكن المعادين له كان لابد أن يلقوا على

---

(1) ابن الأثير وقائع عام ٤٨٤، المكتبة العربية ـ الصقلية، النص ص ٢٧٨؛ والنويرى، المرجع المذكور ص ٤٤٨، ودى جريجوريو *Rerum, Arab* ص ٢٦.

(2) أورد مالاتيرا العام الذى وقعت فيه هذه المعركة، وأورد ابن الأثير العام الذى عاد فيه أيوب إلى أفريقية وهما يتزامنان فى فترة قدرها خمسة أشهر (٢١ أكتوبر ١٠٦٨ وهو بداية عام ٤٦١ هجرية، إلى ٢٤ مارس ١٠٦٩ نهاية عام ١٠٦٨ من الميلاد). ويبدو إذن من ذلك أن أيوب كان فى صقلية وربما فى بالرمو أثناء المعركة، وأن الكونت روجيرو ألمح إليه فى كلماته التى أوردها مالاتيرا:

كتفيه مسئولية الهزيمة. ويدل النفى، الإرادى أو اللاإرادى، للمواطنين الذين اتبعوه على انتصار الجانب الصقلى فى بالرمو، وربما أيضاً فى چرچنتى التى حط من قدرها موت ابن حواش. واستمرت بالرمو أو عادت تقوم على حكم الجماعة التى اضطرت بعد ذلك إلى تسليم المدينة عام ١٠٧٢. ووقعت ولاياتا كاستروچوفانى وچرچنتى تحت حكم جديد، سوف نتحدث عنه فى موضعه.

وكانت خطط آل هوتڤيل الحربية القديمة تتفق مع ذلك الزمن بشكل يثير الاندهاش فقد تركت ذلك المنفوان، الذى جمع المسلمين على وفاق عابر عام ١٠٦٤، ليتبدد تلقائياً. وبعد حصار بالرمو ظل روبرتو فى بوليا ليُخضع البلديات الإيطالية والقواد النورمان المستعصين أمام الرادع الجديد. ولم يفترق بعد ذلك روچيرو عن أخيه أبداً، بل كان يمد له يد العون فى البر كلما اتيح له ذلك(1): وفى صقلية بقى قابعاً فى جيشه دون أن يقوم بأى هجوم واثقاً بطباع المسلمين الذين سرعان ما يستأنفون الشقاق وتمزيق أوصالهم. ولم يطل انتظاره. ففى عام ألف وستة وستين تقدم إلى الأمام. فى حماية جيدة، لمسافة أربعين ميلاً أخرى تقريباً، وقام بتدعيم بترالِيا بأبراج وحصون وهى التى فتحت أمامه الطريق إلى وادى إميرا الشمالى وكذلك إلى ترمينى وإلى بالرمو، وأتاحت له أن يسلك طريقاً مختصراً وسهلاً مكّنه من الهجوم على كاستروچوفانى وچرچنتى. وكان شغل روچيرو الشاغل، كما يقول المؤرخ، هو فتح صقلية، فلم يسكن أبداً ولم يشعر بالتعب، وكنت تـراه فـى أى وقـت عـلى راس قومـه يمـتـطى

Si ducem mutaverunt, ejusdem nationis, qualitatis et religionis est cujus et cæteri sunt.

وهذه العبارة تبين أن الحاكم الجديد لم يغلبه حتى النورمان وهو ما يمكن أن يتفق مع أيوب. وإذا كان لم يشد بهزيمة ملك إفريقية والعرب، فذلك يمكن تفسيره على النحو التالى، وهو أن أيوب، وإن كان فى ذلك الوقت أمير سكان بالرمو، إلا أنه لم يكن على رأس القوم الذين خرجوا للقتال.

(1) مالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصل ٣٧ والفصل ٣٩.

فرسه ليل نهار، لا يدخر وسعاً، وكان يجرى جرياً فى كل مكان، فى سرعة هائلة حتى ان أعداءه كانوا يظنون انه موجود أينما ذهبوا، وفى كل وقت، بل كانوا يشعرون به جاثماً عليهم داخل مدنهم وديارهم. وكان برشده يكبح طبيعته الشرسة التى كانت تشبه شراسة الليث التى زادت عن حدودها الطبيعية وكان النصر دائماً حليفه. وكان يستغوى الآخرين تارة بالعطايا، وتارة بعبارات التهديد وبالضغط عليهم بالهجمات وإلحاق الضرر بهم فتوسع حول بتراليا رويداً رويداً حتى اخضع جزءاً كبيراً من الجزيرة: كمادة أبناء تانكريدى، بضيف مالاتيرّا، الطامعين فى الغنائم والذين لا يتحملون ان يمتلك آخرون غيرهم أراضى أو أملاكاً بجانبهم، ولا يهدأ بال لهم حتى يجعلوا من الآخرين دافعى إتاوة أو يقوموا بنهب كل أملاكهم(1).

وعلى مدى ثلاث سنوات، وفى عام ١٠٦٨، أصبحت المضايقات ضد مسلمى بالرمو شديدة للغاية حتى إنهم اجتمعوا للتشاور. هكذا يكتب مالاتيرّا، وقرروا أن يجربوا بأى ثمن القيام بمعركة. وعندما علموا ان روجيرو قادم على صهوة جواده فى اتجاه المدينة ومعه فرقة شديدة القوة، خرجوا للقائه فى أسراب كبيرة، ورصدوه عند ميزلميرى، وهى أرض على بعد تسعة أميال فى اتجاه الشرق. وعلى الرغم من ان روجيرو لم يكن ينتظر هذا الجمع الغفير فإنه استعد للقتال وهو يرتجف فرحاً. وقام بتنظيم رجاله فى صف واحد وخطب فيهم وهو يبتسم قائلاً: «إن الحظ حليف النورمان دائماً يسوق بين أقدامهم الفريسة المنشودة، ويدخر عنهم عناء المسيرة الطويلة، بل إن الرب هو الذى يمنّ علينا بهذه الهبة. ـ واستطرد يقول ـ خذوا أملاكهم فهم لا يستحقونها وسوف نقتسمها بالتساوى فيما بيننا، وسوف يحصل كل فرد على ما يحتاج إليه. ولا تخشوا كثرة الأعداء الذين هُزموا مراراً وتكراراً. وإن كانوا اليوم تحت

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصول ٣٨ و٤١ و٤٢.

قيادة قائد جديد فإنه من أهلهم وطباعهم. وإن كان مختلفاً عنهم، فإن الهنا لا يتغير. وإذا لم يقل إيمانكم أو أملكم الراسخ، فسوف ينعم عليكم الرب بالنصر دائماً». وكسروا العدو فى مذبحة هائلة جعلت المؤرخ يستخدم فى وصفها الكناية القديمة، لم يبق منهم فى قيد الحياة من يعود ليبلغ النبأ. وقاموا بتقسيم الغنيمة بينهم فى فرح شديد. وعندما عثروا على أقفاص الحمام الزاجل ربطوا فى عنقه بطاقات ملطخة بالدماء، وهكذا وصل نبأ الهزيمة فى الحال إلى بالرمو(1).

كان روبرتو قد بدأ فى ذلك الوقت حصار بارى أعظم ـ وأغنى ـ مُدن إيطاليا الجنوبية، وكان يتنازعها طرفان، يأمل كل منهما فى الحصول على حريته ولكن بطريقتين مختلفتين: كان الطرف الأول يريد التخلص من أى تعهد بالخضوع للحكم البيزنطى حتى لو استسلم للنورمان؛ أما الطرف الآخر بقيادة أرجيرو، فقد شعر بالنفور من نير الإقطاع الذى صار واضحاً جلياً، فكان يفضل الخضوع للقسطنطينية خضوعاً إسمياً. وكان هذا الطرف هو الغالب فى بارى وهو الذى جعل منها المدينة الوحيدة فى إيطاليا التى كان يحكمها باسم الامبراطورية البيزنطية: وكثيراً ما احتمت من حيل روبرتو وفنونه حتى إنه عقد العزم على استخدام العنف فيها. لذلك هاجم المدينة بشجاعته المعهودة واستعان بوسائل أقوى من تلك التى

---

(1) راجع كتاب مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل ٤١، ٤٢. فى كتاب كاروزو *Bibl. Sic.*، ص ١٩٧؛ وانونيمو فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور ص ٨٤٣، وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول الفصل العشرين ص ٢٩١ يضع هذه المعركة بعد قتال ١٠٦٣ الذى أشرنا إليه فى ص ١١٠، وقد تنقصه بعض الفقرات التى تتناول كذلك حصار بالرمو عام ١٠٦٤. ويصف مالاتيرا فى عجب واضح الأسلوب المستخدم فى إرسال الرسائل باستخدام الحمام. ومن يرد معرفة المزيد فى هذا الشأن عليه الرجوع إلى كتاب *La colombe Messagère* لميشيل صباغ، الذى ترجمه س. دى ساسى، باريس، ١٨٠٥، ورينو *Extraits des auteurs arabes etc., relatifs aux croisades* ص ١٥٠، وكاترمير، *Hist. des Slultans Mamlouks* للمقريزى، المجلد الثانى، الجزء الثانى ص ١١٥ وما بعدها.

استخدمها النورمان من قبل وحتى ذلك الوقت: آلات لضرب الأسوار بطرق متعددة وحصون صغيرة، وجسور من المراكب؛ واستخدم على وجه الخصوص قوات بحرية زوّده الكونت روجيرو بجزء منها. ويبدو أن الفضل يرجع إليه في الحدث الحاسم: فقد طوقت المدينة من كل الجوانب، وأصابتها المجاعة وهرع إليها أسطول بحري بيزنطي بالرجال والمؤن واكتشفته سفن النورمان ليلاً ففاجأته وحطمته وكانت هذه سفن روجيرو كما يذكر مالاتيرا، ولا يغير من الأمر شيئاً ان أماتو وجوليلمو دي بوليا لم يذكرا اسمه حيث إنهما من أنصار آخرين. وحينئذ استسلمت المدينة في اليوم السادس عشر من أبريل من عام ألف وواحد وسبعين اي بعد ثلاث سنوات وبضعة أشهر من الحصار. وتعامل روبرتو بإنسانية مع سكان باري، ورد إليهم أملاكهم المحتلة في الأراضي ووقع مع المدينة معاهدة اتحاد، وهو ما يعني في حقيقة الأمر فرض جزية، ثم قام بتوزيع السلاح على من يريده وعلى الحرس البيزنطي الذي تم أسره، واقتادهم وراءه للحرب في صقلية بالسفن التي استطاع جمعها في الميناء(1).

وكان الانتصار الذي حققوه في مدينة باري يبشر بالانتصار المزمع في بالرمو: فقد أبلى النورمان وأتباعهم من الإيطاليين بلاءً حسناً في المعارك البحرية وفي الحصار، وزادت قواتهم العسكرية بقوات أخين قد صار لهما السبق بين أهلهما في إيطاليا. وبدلاً من فرق الطليعة التي حارب بها النورمان في صقلية من قبل، أرسلوا

---

(1) راجع أماتو، الكتاب الخامس، الفصل السابع والعشرين ص ١٥٩ إلى ص ١٦٤ ومالاتيرا الكتاب الثاني الفصلين ٤٠ و٤٣ في كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* المجلد الأول ص ١٩٨ و١٩٩؛ وجوليلمو دي بوليا الكتابين الثاني والثالث في كتاب كاروزو، المرجع المذكور ص ١١٢، ١١٧ و١١٨؛ وأنونيمو في كتاب كاروزو المرجع المذكور ص ٨٤٤، ص ٨٤٥ والترجمة الفرنسية الكتاب الأول الفصل ٢٢ ص ٢٢٤؛ ولوبو بروتسبتاريو عامي ١٠٦٩، ١٠٧١؛ وروموالدو سالرنيتانو عام ١٠٧٠؛ و*Cronica Amalfitana* في كتاب موراتوري *Antiq. Ital* المجلد الأول ص ٢١٢.

بالنسبة لتاريخ بداية الحصار والاستسلام ابحث ما ذكره أماتو حيث أنه يؤكد التصحيح الذي قام به موراتوري للترتيب التاريخي في *Annali*.

جيشاً وأسطولاً حربياً. وبالإضافة إلى المرتزقة(1)، استدعى روبرتو للقتال القادة أو الأمراء الذين جعلهم فى مرتبة كبار التابعين وكذلك الحليفين اللذين كان قد عقد النية على ابتلاعهما وهما: ريكاردو أمير كابوا النورمانى(2) وجوايماريو أمير سالرنو اللونجوباردى شقيق زوجته(3). ويبدو أن الأميرين قد زوداه بعدد قليل من الرجال. وكان الكونت بيترو دى ترانى هو الوحيد من بين أقرانه الذى رفض دعوته بجسارة(4). وفى خلال ثلاثة أشهر كان روبرتو على أهبة الاستعداد؛ وأقام فى أوترانتو طوال شهر يونيو وجزء من يوليو، وأمر أثناء ذلك بإزالة صخرة ليسهل على الجياد النزول بيسر إلى المراكب وحشد الآلات والمؤن. وأقلعت ثمان وخمسون سفينة إلى ريجو بينما توجه الدوق ومعه فرسان ومشاة آخرون إليها، وعبر الفنار فى أواخر يوليو وأوائل أغسطس ومعه كل جنده: من النورمان ومن بوليا وكلابريا وحرس بارى البيزنطى(5).

وما ان علم روجيرو الذى كان قد جهّز أيضاً قواته طوال فترة الصيف، بمرور روبرتو حتى وصل إلى كتانيا بشكل يثير الشكوك حتى إن مالاتيرّا لم يجرؤ على ذكره أو رواية الأكاذيب فترك بين أيدينا طرف خيط الشائبة. وكتب يقول: «بعد أن أرسل الدوق أخاه إلى صقلية، ذهب إليه فى كتانيا متظاهراً بالتحرك ضد مالطه، وكأنه لا

---

(1) لم يتحدث هنا رواة الأخبار عن ذلك، ولكن من الواضح أن روجيرو أخذ أجرهم بعد احتلال بالرمو.

(2) أماتو. الكتاب السادس الفصل الثالث عشر. والكتاب السابع الفصلان الأول والثانى.

(3) أماتو. الكتاب السادس. الفصلان السادس عشر والتاسع عشر وفيهما يتحدث عن الأمراء الذين صاحبوا روبرتو فى بداية الحصار وأنه بعد اقتحام المدينة ذهب إلى الكنيسة *avec la moiller et ses frere et avec lo frere de la moiller et avec ses princes.* فالأمر يتعلق بأمراء سالرنو ومن المستحيل أن يكونوا قد ذهبوا بأنفسهم دون أن يصطحبوا معهم أى نوع من الجنود.

(4) جوليلمو دى بوليا. الكتاب الثالث. فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ١٢٢. وأماتو. الكتاب السابع. الفصل الثانى.

(5) راجع مالاتيرّا وأماتو وليونى دوستيا فى المواضع التى سنشير إليها هنا.

يثق فى اقتحام بالرمو، ولكنه اتجه إليها يعززه أخوه. ولكن كيف ولماذا لجأ روجيرو إلى كتانيا، مقر أعوانه من المسلمين منذ سنوات كثيرة، ومن الذى كان يحكمها بعد مقتل ابن الثمنة؟ عن هذا يصمت مؤرخ الكونت تماماً(1). ويقول أماتو الذى لم يكن يعيش فى بلاط روجيرو، إنه زحف إلى كتانيا فى الوقت الذى كان يعبر فيه روبرتو المضيق، واستسلمت المدينة له بعد أربعة أيام. وإنه أمر بتجهيز كنيسة فى الحال باسم سان جريجوريو وكذلك قلعة ترك فيها أربعين رجلاً من الحرس لقمع استياء المواطنين(2). ومن ثم، فمن الممكن أن نملأ الفراغات التى تركها الراهبان المؤرخان ونقول إن روجيرو قد استغل الاتفاقيات القديمة التى ابرمها مع ابن الثمنة ودخل كتانيا صديقاً، وربما كانت معه جماعة قليلة العدد، وأذاع نيته القيام بعملية ضد مالطه وأنه بوصول روبرتو مع جانب من الأسطول، للتقدم نحو مالطه فإنهما استوليا على المدينة بعد مقاومة قصيرة أو دون مقاومة. وبعد أن تمت الضربة، أرسل روبرتو جيشه إلى بالرمو براً واتجه هو إليها على ظهر سفينة ومعه عشر دقاقات* وأربعين سفينة أخرى، هرباً من شدة الحر. وفى طريقه إلى بالرمو، ذهب روجيرو ليراقب رجاله وشئونه فى ترابنا. واستأنف بعد هذا سفره، وعلى مقربة من بالرمو حدث أن سبقته مجموعة من خدمه لإعداد المؤن والأطعمة وإذا بفرسان من المسلمين يصل عددهم إلى مائتين، قاموا بالهجوم عليهم وسرقوا كل شئ وقتلوا الجماعة، ولكن سرعان ما هب رجال الكونت ونهبوا ما معهم وقطعوا أجسادهم إرباً إرباً(3).

كان من الضرورى أن نصف موقع بالرمو فى القرن العاشر: ففى

(1) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الخامس والأربعون، ص ٢٠٠.

(2) أماتو، الكتاب السادس، الفصل الرابع عشر ص ١٧٨، راجع ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصلين السادس عشر والخامس والأربعين.

* آلة لدك الأسوار.

(3) أماتو، الكتاب السادس، الفصل الخامس عشر ص ١٧٨.

الوسط تقع مدينة كسّارو، أو المدينة القديمة، وهى تطل من جهة الشرق والشمال الغربى على الميناء الذى كان ينقسم إلى لسانين؛ وكانت الخالصة قلمة تقع بين اللسان الشرقى والبحر؛ وكانت الضواحى حول مدينة كسّارو من كل جانب(1). وتفاصيل الحصار التى نجدها متفرقة فى كتابات اماتو ومالاتيرا وجوليلمو والكاتب المجهول والتى تعود أيضاً إلى رسم فريد وواضح للعمليات العسكرية، لا تبين أنه قد طرأ أى تغيير على طبوغرافية المكان فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر سوى، على ما يبدو، انهيار الضواحى الفسيحة الواقعة فى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى منذ زمن بعيد وقد هجرها أهلها بالكامل مع اقتراب العدو. وكانت تقع على مسافة ميل تقريباً من جهة الشرق، فى المكان الذى كانت تصل إليه آنذاك(2) ضفة نهر أوريتو اليمنى وكذلك شاطئ البحر، كانت تقع القلعة التى كان يطلق عليها قلعة دى چوفانى وقد يكون أحد المسلمين (يحى) بدّله النورمان بسان چوفانى(3) كما حولوا المبنى إلى مستشفى، ولذلك فإن المبانى الحالية المقامة فوق أطلال عصور مختلفة

(1) انظر المجلد الثانى الصفحات ٧٠ و١٦٣ و١٩٦ و٢٠٠ وما بعدها.

(2) كان مصب نهر أوريتو فى بدايات القرن الثانى عشر على مسافة بعيدة عن المدينة، غير ما هو عليه اليوم، وهذا واضح من خلال موقع كوبرى اميراليو الذى مازال فى مكانه فى جهة الشرق من المجرى الحالى للنهر. وقد انسحب النهر عند هذه النقطة دون شك كما هو الحال بالنسبة للميناء القديم (لاكالا).

(3) *"Castel Ichan mes maintenant se clame lo chaste Saint Iehan etc"* وهذا يعود دون أدنى شك إلى مصحة الجذام، التى تحولت إلى مصحة للأمراض العقلية ثم تحولت الآن إلى مصنع للجلود. وتذكر الروايات حتى القرن الرابع عشر أن روبرتو جعل منها مقراً له أثناء الحصار (انظر *Anonymi Chronicon Siculum*، فى كتاب دى جريجوريو *Rerum Aragonensium*) المجلد الثانى، ص ١٢٤. وتحدث عنها أيضاً فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الأول، وارفق معه وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٢٠٩، ولكنها فى حقيقة الأمر ترجع إلى فبراير من عام ١٢١٩، وتشهد فقط على ما لم يكن أبداً موضعاً للشك، وهو أن هذه المصحة قد شيدها أمراء صقلية من النورمان. انظر فى كتاب مونجيتورى، *Mans. S. Trin. Mon. hist*، ص ٢١ و*Historia Diplomatica Friderici II*، الجزء الأول، ص ٥٩٠.

يطلق عليها سان چوڤانى دى ليبروزى. ومن الواضح أن تلك القلعة شُيدت للدفاع عن القرى الفنية الواقعة على جانبى النهر وعن الأماكن القريبة من المدينة ضد غارات فرسان الأعداء، من المحتمل أن تكون قد شُيدت أو تم تحصينها أثناء حرب النورمان؛ وفى حقيقة الأمر لا يبدو لى مخالفاً للحقيقة أن قلاعاً أخرى قد ظهرت فى مواضع أخرى من ريف بالرمو حيث يلاحظ وجود كنائس واديرة أو قصور للنورمان. وفيما يخص سكان بالرمو فى ذلك الوقت فإننا نجهل كلية عددهم، ولكن علينا أن نفترض أن عدد السكان قد تقلص بشكل كبير منذ القرن العاشر ويرجع ذلك إلى الأحداث السياسية وخاصة إلى هجرتى عام ١٠٦١ وعام ١٠٦٨(1) ومن الممكن استنتاج عدد الذين كانوا يحاصرون المدينة وذلك من خلال المساحة الممتدة للأراضى التى كان يسيطر عليها آل هوتڤيل فى البر الإيطالى. ومن خلال عتاد سفنهم التى كانوا يستخدمونها فى عمليات أخرى معاصرة، ومن خلال الحرس الذى كان يحمى روبرتو أثناء دخوله بالاتفاق المدينة، ومن عدد سفنه الذى ذكرناه سلفاً. ويبدو لى أن أكبر عدد تمكن النورمان من الدفع به تحت أسوار بالرمو هو ثمانية أو عشرة آلاف رجل، ما بين فرسان ومشاة.

وبدأ روجيرو أولاً الزحف من الجانب الشرقى عن طريق سفوح الجبال وفى اليوم التالى وقع الصدام الذى رويناه؛ واحتل قصراً فاخراً والقرى المجاورة ونهبها: وحصد عدداً وفيراً من الأسرى، الذين لم يكن لديهم أى علم عن اللعبة الجديدة، عندما وجدوا أنفسهم محـــاطين بحـــلقة من الخـــيول وضـــاق عليهم الخـــناق وأســـروا وتم بيعهم(2). وكانت الطليعة تقوم هكذا بتجهيز أمـــاكن إقامة لقادة الجيش ويصفها أماتو قائلاً: «فى تلك الحدائق البهيجة التى ترويها

---

(1) انظر الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب ص ٨٧ وص ١١٦ من هذا المجلد.

(2) *Et quant li Sarrazin issoient virent novelle chevalerie e li Normant les orent atornoies et les prisrent et vendirent pour vils prison.*

المياه، الفنية بأنواع الفاكهة حيث أقاموا جميعاً إقامة الأمراء حتى صغار الفرسان، فى رغد من العيش، فى فردوس أرضى بمعنى الكلمة. وعندما ظهر روجيرو فى قلعة چوڤانى، وخرجت للقائه حامية عسكرية صغيرة(1) قام بقتل خمسة عشر فارساً من المسلمين، وأسر ثلاثين فارساً وبعد أن استولى على المكان دعا إليه روبرتو(2) الذى يبدو أنه قد وصل بحراً فى اليوم نفسه. واستخدمت القلعة كغرفة عمليات، كما نقول اليوم، وتم فيها وضع خطة الحصار. وظل بها روبرتو قائداً على جنود بوليا وكلابريا فى الجيش: وأقام روجيرو مع رجاله، كما يبدو، فى المكان الذى توجد فيه الآن كنيسة ڤيكتوريا، على مسافة ستمائة متر من الباب الجديد الحالى على الطريق المؤدى إلى موريالى(3).

Et clama li Sarrazin a combatre (1).

(2) اماتو. يبدو أن القصر الذى تم احتلاله عند وصوله للمرة الأولى، هو القصر الذى أطلق عليه ابن جبير فى القرن الثانى عشر قصر جعفر بينما أطلق عليه الكتاب المسيحيون فافارا والذى تحدثت عنه فى الكتاب الرابع الفصل الثامن من المجلد الثانى ص ٢٥٨. وكان القصر مستقراً ممتعاً بهيجاً للملك روجيرو كما كان من قبل لأمراء بالرمو على الأرجح: ولعل النورمان قد احتفظوا بجزء من مبانيه او انه تم تجديده بالكامل.

(3) كنيسة صغيرة تم هدمها عام ١٥٩٨ عند بناء مقر طالبي الرهبنة فى نظام سان فرنشيسكو دى باولا للرهبان الأصاغر فى ذلك المكان. وكان يطلق عليها كنيسة ڤيكتوريا، ونقرا عليها هذه العبارة: *"Roberto Panormi duce et Siciliæ Rogerio Comite imperantibus, Panormitani cives ob Victoriam habitam, hanc ædem B. Mariæ sub Victoriæ nomine sacrarunt. An. Dom. 1071"*. (إنفجيز، *Pal. nob Er*، ٧، عام ١٠٧١: ومونجيتورى, *Palermo Divoto di M. V*): الكتاب الأول، الفصل الخامس، وچاردينا *Le antiche porte di Palermo*، (بالرمو ١٧٣٢) ص ١١ وص ١٢.

إن العبارة المؤرخة فى عام ١٠٧١ ليست صحيحة دون شك، كما تظهر الدراسات اللاتينية والصيغ وعنوان *Panormitani Cives* الذين ربما كانوا المسلمين. وكذلك فإن هذه العبارة شهادة بالتأكيد على تقليد قديم. ليس هناك من داعٍ للتشكك فيه. ويخطىء علماء بالرمو عندما وضعوا روبرتو بدلاً من روجيرو فى هذا الجانب اثناء الحصار. وأطلق على الكنيسة اسم النصر وكذلك على دير باولوتى الذى احتله سرية او سريتان من الفرسان لمدة طويلة من الزمان وهو الآن موقع للمدفعية.

وأخذ أحد الشقيقين مكانه فى الجنوب الغربى والآخر فى الجنوب الشرقى للمدينة مع وجود اتصال بينهما وداهما المدينة لمسافة تزيد على ثلث محيطها من الجانب الجنوبى. وقام الأسطول بغلق الميناء من ناحية الشمال الشرقى وطارد القوات البحرية الصغيرة التى كانت لاتزال باقية لأهل بالرمو(1) وخسر دقّاقة وشانية(2).

ثم إن المدينة استعدت جيداً للدفاع، وقام المسلمون، المحاصرون داخل الأسوار، بهجمات متكررة اختلفت نتائجها، لإيقاف العمليات التى كان يقوم بها المحاصرون(3)، وكانوا يقومون بالحراسة فى يقظة ومثابرة ويقاتلون ببسالة وعناد(4). ولن أكرر الحديث عن التفاصيل لأنها موجودة فقط فى رواية جوليلمو التاريخية الشعرية: وهى أقوال معتادة قد تبدو من اللوازم الضرورية لريات الشعر. ولن أترك واقعة حدثت فى القرن الثانى عشر ورواها أنونيمو دون أن أذكرها: كان أهل بالرمو كثيراً ما يتركون أبواب المدينة مفتوحة، كنوع من التحدى أن يدخل منها أحد، وحدث أن توقف فارس مسلم عنيف عند عودته إلى المدينة بعد أن قتل عـدداً من النورمان توقف أسـفل البوابة ووجـهه

وجدير بالذكر أنه فى زمن ابن حوقل (راجع كتابنا الرابع، ص ٢٠١ المجلد الثانى) كان «المعسكر» يظهر فى هذه الناحية: وهى مساحة محاطة بسياج ومحصنة دون شك، قام النورمان بتحويلها إلى قلعة بمجرد دخولهم بالرمو. كما سنذكر بالتفصيل فى ص ١٤١ ـ ١٤٢. من المجلد الثالث. وعلينا أن نقرر إذن أن المعسكر كان موجوداً وقت الحصار. ولكننا لا نجد إشارة إلى كيفية انفصاله انذاك عن المدينة القديمة أو إذا كان يدخل فى نطاق أسوارها. ولكن لا يمكننا أن نجزم إن كان اثناء الحصار فى يد المسلمين أو النورمان. وأعتقد ان أول هذين الاحتمالين هو الأقرب للحقيقة، وأن مكان إقامة الكونت روجيرو كان أمام «المعسكر» تماماً على مسافة ستمائة او سبعمائة متر. لأنه يبدو أن «المعسكر» كان يمتد حتى الموقع الحالى للباب الجديد أو أبعد قليلاً.

(1) انظر ص ١١٦ من هذا الكتاب.

(2) إن أماتو، الذى يروى هذا مع بداية الحصار، دون أن يحدثنا فيما بعد عن المعركة البحرية التى دارت أمام الميناء. ولا أعتقد أنه من الممكن ارجاع عملية الاستيلاء على السفينتين اللتين ذكرهما المؤرخ إلى تلك المعركة.

(3) جوليلمو دى بوليا وأنونيمو.

(4) مالاتيراً.

متجه نحو الأعداء، فجرى شاب من المحاربين، وهو قريب عائلة هوتفيل، وقد أهانه ذلك الوجه الذى يحمل نظرات التهديد، جرى بجواده ناحيته وطعنه طعنة نافذة برمحه، ولكنه بعد أن أُغلق دونه الباب دفع حصانه أمامه دون أن يتردد للحظة فى مهمة يائسة بين المسلمين الذين أخذوا يرمونه بالسهام وهجموا عليه ولكنه خرج من باب آخر دون أن يصاب بأذى ووصل بين أهله بينما كانوا يبكونه ميتاً(1). وهى مغامرة جديرة بروايات المائدة المستديرة وسوف تبدو لنا بعيدة عن الخيال لو افترضنا وقوعها فى الخالصة، وهى مساحة صغيرة محاطة بالسياج ولها أربعة أبواب تفتح كلها على المسافة الصغيرة للسان(2). ولم تقع أية معارك كبيرة حتى فصل الشتاء بعد أن حاول الأعداء دون جدوى الهجوم على المدينة(3). وأثناء ذلك وصلت المساعدات من إفريقية وهى قوات بحرية على ما يبدو، ولم تكن كثيرة(4). وكان أمراء سالرنو، وقد أصابهم السأم من هذه العملية الحربية التى لم تكن عملية خاصة بهم، قد أخذوا يعودون إلى البر الإيطالى حيث كان البابا الكسندر يقوم بعمل أكثر بهجة من حصار بالرمو، وهو تكريس كنيسة مونت كاسينو الجديدة فى الأول من أكتوبر(5). وكان روبرتو، وقد نفذ صبره، يطلب تعزيزات من البر الإيطالى، ومن بين من طلب منهم، منافسه الأمير ريكاردو، الذى وعده بإرسال مائتين من المحاربين بقيادة ابنه چوردانو، ثم أرسلهم

---

(1) انونيمو - النص اللاتينى والترجمة الفرنسية - جزئها.

(2) انظر المجلد الثانى ص ٢٠٧.

(3) مالاتيرا.

(4) لم يحدثنا مالاتيرا عن هذه المساعدات. وتحدث عنها بدقة جوليلمو قبل معركة الميناء. كما نوه عنها أماتو بعد استسلام المدينة (الكتاب السابع، الفصل الأول، ص ١٩٢) عندما أخذ فى رواية عمليات الأمير ريكاردو فى البر...
Venoient sur la cite de Palerme li Arabi e li Barbare et faisoient empediment a la victoriose bataille de lo duc Robert et pource il requist et chercha L'ajutoire de lo prince Richart etc.

(5) موراتورى، *Annali*، ١٠٧١.

إليه، ولكن سرعان ما عاد واستدعاهم قبل أن يعبروا الفنار. وكان الأمل فى النصر قد ضاع، حتى أن ريكاردو وقد انضم إلى عائلة كونت تراقى وإلى آخرين من أعداء روبرتو القدامى، تجرأ على مهاجمة أراضيه فى كلابريا وبوليا. ولم يتخل جويسكاردو عن عزمه(1) بسبب هذا فقد كان يعلم جيداً أنه كان سينتصر على الجميع فى بالرمو.

ويقول أماتو: «وفى الوقت نفسه، حلت المجاعة بالمدينة بسبب نقص المؤن وعدم توفرها لشرائها. وتفشى وباء الطاعون وزادت الوفيات من جراء الجثث التى لم تدفن: وامتلأت المدينة بالجرحى والمرضى وبرجال أعياهم الجوع تمتد أيديهم الواهنة طالبة الإحسان بدلاً من أن تمتد للقتال. وكان النورمان الخبثاء يكسرون الخبز ويتركونه أسفل الأسوار(2) وكان السراسنة، عشرون أو ثلاثون، يسرعون لالتقاطه. وفى اليوم الثانى تركوا الخبز فى مكان أبعد بقليل وخرج الآخرون فى عدد أكبر وأسرعوا إليه وانتزعوه بسرعة ليضمنوه لأنفسهم. وفى اليوم الثالث وضع النورمان الطُّعم على مسافة أبعد من ذى قبل وعندما خرج المسلمون بكامل عددهم قبض عليهم النورمان وأسروهم وجعلوهم عبيداً أو باعوهم فى بلاد بعيدة»(3). هذا ما يرويه المؤرخ ولا أعلم إن كانت روايته تتسم بالسعادة أم باللامبالاة. وعلى الرغم من هذا يبدى تأثره وهو يحكى كيف كان الدوق وزوجته يرويان عطشهما بالماء فقط لعدم وجود نبيذ فى معسكر روبرتو بالرغم من وفرة اللحوم الشهية. ويضيف الكاتب أن هذا لم يكن ليؤثر على روبرتو إذ إن بلاده لا تنتج النبيذ «ضع - أيها القارئ - فى اعتبارك الزوجة النبيلة التى كانت فى منزل أبيها جوايماريو، أمير سالرنو، معتادة على شرب النبيذ الصافى النقى وكأنه الماء المنعش»(4).

(1) أماتو، الموضع المذكور.
(2) لم يكتب المترجم الفرنسى دون شك لفظ أسوار.
(3) أماتو، الكتاب السادس، الفصل السابع عشر، ص ١٧٩.
(4) المؤلف نفسه، والمرجع نفسه، الفصل الثامن عشر ص ١٨٠.

وقد رفع من معنويات النورمان انتصارهم في معركة بحرية شنها أهل بالرمو بعد حصولهم على مساعدات من إفريقية، ولكنهم ظلوا يائسين من طرد العدو من الأماكن التي احتلها في السهل. وعندما فطن روبرتو لتلك الاستعدادات قام هو أيضاً بتجهيز سفنه وأمر بمد أغطية سطح السفينة المصنوعة من الجوخ الأحمر ليخفي القذائف والحراب(1)؛ كما أن ذلك اللون يمكن أن يعيد إلى أذهان النورمان العمليات التي كان يقوم بها أباؤهم والتي جعلت منه لوناً يثير الرعب في البحر، حتى أن التقاليد القومية لازالت تستخدمه حتى اليوم في الأزياء العسكرية بإنجلترا والدنمارك. وعلى الرغم من أن الأسطول النورماني كان أكثر عدداً من أسطول المسلمين فإنه يبدو أن ما يعيبه كان بناؤه غير المناسب للحرب. ومن ناحية أخرى كانت تلك أول تجربة بحرية قاسية، بعد عملية باري، يمر بها حكام إيطاليا من النورمان؛ كما أن الذاكرة لم تنس ذلك الأسطول الذي خرج من ميناء بالرمو في نهاية القرن التاسع ليدمر الشواطئ الجنوبية بشبه الجزيرة؛ كما أن روبرتو كان يعلم أن هزيمة واحدة في البحر سوف تجبره على رفع الحصار للمرة الثانية. ولهذا أخذ يحث رجاله قائلاً: إن الهدف هو الانتصار أو الموت؛ وجعلهم يعترفون بخطاياهم ويتناولون في مهابة سر القربان المقدس. ويستطرد جوليلمو دي بوليا قائلاً: وبعد أن غمر هذا الغذاء الروحي بالعزاء قلوب جماعات النورمان ورجال كلابريا وباري والأرجيفيين، دخلوا سفنهم. ولم يكن صليل الآلات أو دوي صيحات الحرب التي يطلقها المسلمون كافيا لإثارة الفزع في قلوبهم. وتصادم الأسطولان وصمد الصقليون والإفريقيون حتى دفعتهم إشارة إلهية إلى تغيير اتجاه سفنهم. وقد تم الاستيلاء على بعض السفن، وغرق البعض الآخر ولجأ الجزء الأكبر منها إلى الميناء وأغلقته بالسلاسل؛ وقام المنتصرون بتحطيمها

---

(1) جوليلمو دي بوليا.

واستولوا على بعض السفن وأشعلوا النار فى سفن أخرى كثيرة(1). ولم يزد المؤلف على هذا؛ فمن الواضح أن الأسطول النورمانى اضطر للانسحاب، بعد أن اجتاز دفاعات الميناء الأولى.

ولما كانت الناحية الثانية تهدد المسلمين(2) الذين نقص عددهم بسبب كثرة الموتى وأرهقهم الجوع والطاعون والإجهاد، لم يتوان روبرتو فى شن الهجوم الشامل. وكان قد قام ببناء أربعة عشر سلماً(3) ببراعة فنية كبيرة تثير العجب فى ذلك الزمان(4)، حتى أنها كانت ترتفع بارتفاع الأسوار. وأرسل ليلاً سبعة من السلالم إلى روجيرو، وذهب بنفسه للقائه وتشاورا معاً فى طريقة الهجوم والإشارات وفى كل شئ(5). وقد عهد إلى روجيرو بأخطر الأعمال وهو الهجوم على القلعة الرئيسة، أى المدينة القديمة من ناحية الجنوب الغربى، ولذلك فقد انتقل إلى هذا الجانب الجزء الأكبر من جيش روبرتو. أما من ناحية الشمال الشرقى فكان على الأسطول أن يبقى للتهديد فقط. وكان روبرتو يحتفظ بخطة أخرى فى حالة فشل روجيرو: وهى توجيه ضربة مفاجئة إلى الخالصة ذات الأسوار الأقل ارتفاعاً.

---

(1) جوليلمو دى بوليا.

(2) لم يلحظ أى من المؤرخين أهمية هذا التحول، ومن ناحية أخرى فجوليلمو هو المؤرخ الوحيد الذى يروى وقائع المعركة البحرية ويقول: *Dat validas animo ducis hæc victoria vires,* كما يتحدث عن الهجوم من ناحية البر دون أن يذكر أو يفترض المدة التى مضت بين المعركة البحرية والهجوم البرى. ويشير مالاتيرا بالكاد إلى السفن النورماندية قائلاً: إنها كانت ترسو على الجانب الذى كان فيه روبرتو يوم الهجوم. واستنتج من ذلك أن الانتصار البحرى لم يكن انتصاراً كاملاً أو رائعاً. وإنما كانت فوائده كبيرة، حيث أجبر المسلمين على الدفاع عن أنفسهم فى الميناء أيضاً. أى جعلهم يقسمون قواتهم الضئيلة إلى ثلاثة، بدلاً من وقوفها جبهتين فقط أمام روجيرو وروبرتو.

(3) اماتو.

(4) مالاتيرا *Machinamentis itaque et scalis ad trascendendos muros artificiosissime compaginatis.* وفى الحقيقة تحطم الجزء الأكبر منها أو لم يعد بفائدة على العملية، فطول الحائط الفائق كان يتطلب، كما قيل، أن يكون لهذه السلالم قاعدة عريضة، وكان لابد أن يتم تركيبها على عجلات.

(5) اماتو.

وعندما كان الحصار يقترب من شهره الخامس، حدث فى فجر(1) اليوم الأول أو أحد الأيام الأولى من عام ١٠٧٢، أن علت الأصوات فى معسكر روچيرو فأسرع أهل بالرمو يهرولون ناحية تلك الأسوار(2) وتقدم فى سرعة مشاة العدو يرمون المدافعين بالقذائف والسهام فوق شرفات أسوار القلاع، وعندئذ خرج المواطنون فى حماس شديد يكتسحون تلك الزمرة من الأعداء ويلاحقون الفارين، مترجّلين أو على ظهور جيادهم. عندئذ قام فرسان النورمان بالهجوم وكسروا بدورهم المحاصَرين ودفعوهم إلى داخل المدينة بعد أن ضيقوا عليهم الخناق فى بسالة حتى البوابة وكانوا على وشك دخولها معهم وقد اختلطوا بهم. وعندما أوشك أن يقع الخطر الأعظم قام المسلمون بغلق البوابة: وبقى أخوتهم خارجها فقام النورمان بقتلهم تحت أبصارهم وبين صراخهم وبكائهم(3). واستأنف النورمان الهجوم على الأسوار. وأتوا بالسلم الأول. واستند على شرفة القلعة. وبقى السؤال: من ذا الذى سيصعد؟ ونظر بعضهم إلى بعض. وأسرع فى الحال شخص يُدعى اركيفريدو ورسم علامة الصليب واندفع صاعداً الدرجات، وحذا حذوه محاربان آخران وقفزوا فوق السور، ولكن السلم هوى فجأة وتهشم. ونازلوا بمفردهم مائة من الأعداء، وتحطمت دروعهم وألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار ولكنهم نجوا دون أن يصيبهم أذى - على حد قول أماتو - وتم صد الآخرين الذين صعدوا سلالم أخرى. واستعد النورمان للانسحاب(4). ومع اقتراب الليل ظهر فشل الهجوم.

---

(1) يقـول أمـاتو *en la nativite de Jshu Christ* (الفصـل الثـانى والعـشرون *e en l'aurore de jor*). (الفصل الثالث والعشرون). ويقول مؤلف بارى المجهول، «فى العاشر من يناير» بينما يقول روموالدو من سالرنو «فى شهر يناير». وينبغى ملاحظة الاحتفال الذى أقيم فى كنيسة فيكتوريا الصغيرة فى كلسا فى اليوم الثانى من يناير، والذى سوف نتحدث عنه بعد قليل.

(2) مالاتيرا.

(3) جوليلمو.

(4) أماتو.

ولكن بفضل طلاقة لسان روبرتو وكلماته البليغة، كما يقول جوليلمو دى بوليا الذى ذكرها فى شعر منظوم، وبفضل تشجيع روجيرو لهم - كما نعتقد - وطبقاً للخطة التى رسمها مع الدوق، عاد النورمان إلى أسفل الأسوار. وتجمع أهل المدينة جميعاً فى المكان الذى وقع عليه التهديد؛ واثقين فى أنهم سيلقون بالمعتدين فى الحفر مرة أخرى، ولم يفكروا فى الخالصة التى لم يدو فيها صليل المعركة ذلك اليوم. وإذا بروبرتو، وبإشارة من روجيرو، يصل إلى الخالصة خلسة عبر أشجار الحدائق ومعه ثلاثمائة(1) من خيرة الرجال. وأسرعوا فى عدوهم ومعهم السلالم إلى سور عليه قلة من المدافعين، وقبل أن تصلهم المساعدات من المدينة القديمة، قاموا بتشتيت شمل المدافعين وقفزوا إلى داخل الأسوار وحطموا الباب؛ ودخل روبرتو ومعه بقية رجاله(2). وكان هذا الباب يقع خلف دير جانشا الحالى. على ميدان صغير يحمل اسم ميدان النصر، مثله مثل كنيسة نجد فيها - كما تشير الرواية - عند أول مذبح يميناً بقايا الباب الذى اقتحمه روبرتو. وكذلك صورة وفاء بأحد النذور(3). وعندما

---

(1) مالاتيرا.

(2) اماتو، راجع جوليلمو ومالاتيرا وانونيمو. ذكر أغلب المؤرخين أن روجيرو هو الذى دخل الخالصة.

(3) ليس من الضرورى التنبيه إلى أن كنيسة ڤيكتوريا تختلف عن تلك التى تقع خارج الباب الجديد التى تحدثنا عنها، وتقع فى زقاق يسمى اليوم زقاق النجاة يقع فى بدايته حصن سبازيمو بين كنيسة جانشا ودير الرحمة.

إن أولى المذكرات التى كتبت عن أخبار باب النصر هذا، نعود إلى نهاية القرن الخامس عشر ونعرف من خلالها أنه كان منقوشاً عليه صورة للعذراء ذات صيت كبير بين المتدينين فى المدينة؛ وأنهم حصلوا على موافقة الحكومة على بناء كنيسة فى هذا المكان، شيدت عام ١٤٨٩، وأصدر رئيس أساقفة بالرمو قراراً عام ١٤٩٧، بعد موافقة مجلس شيوخ المدينة، بإقامة احتفال بها يوم الثانى من يناير من كل سنة. وفى القرن السادس عشر سجلت عليها هذه العبارة اللاتينية التى ذكرها جيرديتا فى(*Le Porte di Palermo*، بالرمو ١٧٣٢، ص ١١) ونراها اليوم منقوشة على لوح بعد المذبح الثانى من جهة اليمين:

علم المواطنون بدخول الأعداء هرعوا إلى المكان ودارت بينهم معركة يائسة حتى حلول الليل، وغطت الجثث المكان، وسيطر النورمان عليه، ولاذ المسلمون الذين نجوا من المذبحة بالهرب إلى المدينة القديمة. وعاث النورمان فى الأرض فساداً فنهبوا المنازل وقتلوا الشباب واقتسموا الأطفال ليبيعوهم عبيداً.(1) وفى ذات الليلة قام الكونت بتوجيه التعزيزات إلى روبرتو، الذى كان مع قليل من رجاله معرضاً لانتقام سكان المدينة القديمة(2) الذين لم تُكسر شوكتهم

"Porta hæc, in quam Rogerius invictissimus Siciliæ comes irrumpens, aditum exercitui christiano ad urbem hanc Panormum ab iniqua Saracenorum servitute emancipandam patefecit, victoria cognomento ab eo devictorum hostium summo cum honore ob insignem reportatam victoriam, Deiparæ Virginis cultu victoris ejusdem principi ardenti ac pio desiderio consecrata est, quintilio mense dom. incarnationis .MLXXI".

وهناك عبارة أخرى منقوشة تشهد على أنه قد تم إجراء ترميمات جديدة للمبنى عام ١٧٠١ ونرى اليوم ١- بقايا باب فى المكان الذى سبق وأشرت إليه: ٢- صورة للعذراء تحمل الطفل وراية، وهى صورة اضيفت إليها بعض اللمسات، أو أعيد رسمها ويبدو أن طرازها لا يمكن أن يعود إلى القرن الحادى عشر. ويمثل هذا الرسم دون شك القصة التى رواها ب. أوتافيو جايتانى، وهى أن العذراء ظهرت هناك أمام روجيرو وفى يدها راية، تدعوه لدخول المدينة. أما العبارة المنقوشة التى تحدثت عن مضمونها وهى من عمل أنطونيو فسيلتو، فمن الواضح أنها تعبر عن الرواية التى كانت سائدة لدى مفكرى القرن السادس عشر؛ فقد ذكرت اسم روجيرو بدلاً من روبرتو وكتب عليها تاريخ يوليو ١٠٧١ بدلاً من يناير ١٠٧٢. وبعد تنقية الرواية من المعجزات واختلاقات المفكرين، فإنها تشير إلى حدث واقع وهو أن النورمان دخلوا من ذلك الباب: وهذا يتفق تماماً مع روايات المؤرخين المعاصرين. وعن تاريخ رسم صورة العذراء لأول مرة، وعما إذا كان قد تم تشييد كنيسة صغيرة فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك فلا أرى ضرورة أن اتحقق الآن من ذلك، ولن يكون الأمر سهلاً. انظر چاردينا، الموضع المذكور؛ ومونجيتورى، *Palermo Devoto di Maria Vergine*، الجزء الأول، ص ٣١ وما بعدها. وص ٢٥ وما بعدها: إنفجز، *Palermo Nobile*، ١٠٧١، دى ماريسو فيرو، *Guida di Palermo*، ١٨٥٨، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

وقد استقيت المعلومات المحلية ومقارنة مونجيتورى من العالم الشاب الأستاذ أنطونيو ساليناس، وقد طلبت منه هذا حيث إنه لم يتح لى أن ادخل كنيسة النصر هذه إطلاقاً.

(1) اماتو.

(2) انونيمو.

بعد. ووُضع الحراس على الأبراج المواجهة لتلك الأسوار الشامخة.(1) وكان يبدو أنه لابد من خوض معركة جديدة فى اليوم التالى، وربما استئناف الحصار مرة أخرى.

وهون الخلاف الذى دبّ بين أهل بالرمو من مشقة الأعداء. ففى الوقت الذى كان فيه هؤلاء يقضون الليل فى تحصين أنفسهم داخل أسوار الخالصة كانت فصائل المدينة تتنازع فيما بينها حول ضرورة استئناف المعركة من عدمه. وانتصر الفريق المناهض لاستئناف القتال: وفى الليلة ذاتها أرسل يبلغ النورمان أن المدينة مستعدة للخضوع وتسليم رهائن.(2) وعند طلوع النهار ذهب قائدان كانا قد قاما بإدارة المدينة بدلاً من المجلس البلدى، إلى روجيرو ومعهما آخرون من الشخصيات المرموقة لمناقشة الاتفاقيات.(3) واحتجزهم

---

(1) أماتو *Et lo duc, a ceus qui sont rentez liquel habitent en la cite a liquel avoit donne mort de li parent et fame il* fist garder les tors. *Mes pource que Palerme estoit faite plus grant qu elle non fu commencie premerement dont de celle part estoit plus forte dont pemerement avoit este commencie la cite se clamoit la antique Palerme. Il commencerent* contre *celle antique Palerme contrester cil de la cite. Et piuz quant la bataille penserent que il devoient faire et en celle nuit se esmurent o tout li ostage et manderent certains messages liquel doient dire coment la terre s'est rendue.*

إن الكلمات التى تركتها مكتوبة بحروف معتدلة (غير مائلة) هى بالتأكيد خطأ فى الترجمة. بل إنه فى العبارة الأولى سقطت بشكل واضح بعض فقرات النص اللاتينى، الذى لابد أنه يقول إن روبرتو أمر جنوده بحراسة أبراج الخالصة حراسة جيدة أثناء انتظاره لهجوم هؤلاء... إلخ.

إن لفظة "*contre*" يجب تصويبها بالتأكيد بـ "*entre*"، دون أن تفقد الجملة معناها. فأهل المدينة (القديمة) هؤلاء، لم يكن بإمكانهم منازعة المدينة القديمة.

(2) انظر الملحوظة السابقة بالتصويب الذى قمت به للفظة "*contre*".

(3) أماتو. *Et puiz quant il fut jor dui Cayte alerent devant loquel avoient l'ofice laquelle avoient li antique avec autrez gentilhome liquel prierent lo conte ec.* أعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر غير الذى قمت به. "*li antique*" هم دون شك «الشيوخ» أعضاء «الجماعة» وقد تحدثت عنها فى الكتاب الرابع، الفصل الثانى

روچيرو وبعدها دخل المدينة القديمة فى تيقظ وبصحبته فرسان شجعان وأخذ يتفقد الأماكن ويضع حرساً فى أنسب الأماكن وعاد إلى روبرتو: الذى مضى فى اليوم الرابع إلى الكاتدرائية فى مسيرة مهيبة يسبقه ألف من الفرسان، ويصحبه زوجته وشقيقه وأشقاء زوجته وبارونات آخرون. ونزلوا عن جيادهم عند عتباتها، فى تواضع وتبجيل، زارفين الدمع وقد تأججت مشاعرهم. وبعد إزالة شعارات المسلمين(1) وإجراء طقوس التكريس الجديدة أقام رئيس الأساقفة اليونانى نيقوديموس، الذى كان معتاداً على أداء الطقوس فى كنيسة سانتا تشيريكا الفقيرة، أقام القداس أمام المنتصرين فى الكنيسة القديمة، التى تحولت إلى جامع للإسلام، وعادت اليوم كاتدرائية باسم القديسة مريم. وزودها روبرتو بالمداخل والأثاث الدينى(2). وكتب اماتو الصالح أن بعض المسيحيين الصالحين سمعوا أصوات الملائكة تشدو بعذوبة لحن «المجد لله» فى الكنيسة. وكانت الكنيسة تبدو منيرة بنور الرب الساطع سطوعاً لا يدانيه أى نور آخر فى العالم.

وفيما يتعلق بمعاهدات الاستسلام فقد أوردها مؤرخو فرعى أسرة هوتڤيل الحاكمة بطريقة مختلفة. فكتب جوليلمو دى بوليا أشعاراً يقول فيها إن سكان بالرمو قد استسلموا، إنقاذاً لحياتهم، وإن روبرتو لم يقبل فقط الاتفاقية ولكنه وعدهم بالا يصيبهم بأذى ولو ظلوا مسلمين، وقد وفى بعهده، ولم يطرد أحداً من المدينة. وكذلك

عشر، الجزء الثانى، ص ٤٢٧ أو هم قضاة الجماعة. وقد أخذ القائدان إذن على عاتقهما أمور الجماعة وهى فى هذه الحالة القيادة السياسية. لقد قام القاضى بتسلم هذه المهمة، ربما فى الليلة ذاتها، وربما والسيف مسلط على عنقه، أو ربما بسفك الدماء. وكان القاضيان هما قائدان من أنصار أسرة مديتشى فى حصار فلورنسا.

(1) اماتو. *o grand reverance plorant*

(2) راجع أماتو، وجوليلمو، ومالاتيرا، وأنونيمو. انظر الكتاب الرابع، الفصل الخامس من هذا الكتاب، المجلد الثانى ص ٢٠٦. وأضاف بيرّو اسم نيقوديموس وهو مصدر موثوق: *Sicilia Sacra*، ص ٥٢ وما بعدها.

أماتو وهو من مناصرى روبرتو، يتحدث عن الاستسلام بفطنة(1). وعلى خلاف ذلك فإن مالاتيرًا يؤكد أنه بعد عقد المعاهدة لم يجبر أحد على نبذ العقيدة الإسلامية ولم تقع على كاهل أحد أية قوانين جديدة ظالمة(2). وكان أنونيمو أكثر دقة فى تناوله للأحداث، فهو من معاصرى الملك روجيرو، ويقول إنه تم الاتفاق على الشروط نفسها التى كانت متبعة فى عصره.(3) وإن كان نصها ليس بين أيدينا إلا أننا نؤكد على أن مسلمى بالرمو بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تسامح دينى، كانوا يتمتعون أيضاً بحريتهم الشخصية وأمنهم، واحتفظوا بأملاكهم وأحكامهم طبقاً للشريعة الإسلامية التى يحكم بها قضاتهم: وليس هناك ما يثبت أو يشير، أن يكون قد فُرض عليهم دفع الجزية. ولكننا سنتحدث عن هذا بالتفصيل فى موضعه(4).

---

(1) *Que sans nulle autre condition ne convenance doie recevoir la cite a son commendement*

(2) الكتاب الثانى، الفصل الخامس والأربعون.

(3) فى كتاب كاروزو، .Bibl. Sic ص ٨٤٦. والترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الثانى والعشرون ص ٢٩٥. *sur certene loy et covenances qui encore sont gardees*. وأضاف الناشرون العلماء هنا بين قوسين تاريخ الاستسلام (يناير ١٠٧٢)، ويجب تصويبه إلى عام ١١٤٦، عندما كُتِب هذا الجزء من الأحداث كما بينت من قبل فى الفصل الأول ص ٢٠.

(4) الاستيلاء على بالرمو مأخوذ من: أماتو، الكتاب السادس، الفصل الثانى عشر إلى الفصل الثانى والعشرين. مالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصول الثالث والأربعين والرابع والأربعين والخامس والأربعين. جوليلمو دى بوليا، الكتاب الثالث. أنونيمو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور والترجمة الفرنسية، المواضع المذكورة. ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل السادس عشر، والفصل الخامس والأربعين. لوبو بروتوسبتاريو، وأنونيمو دى بارى، ١٠٧٢، فى كتاب برتز حيث لزم التصويب *Januarii* (يناير) بدلاً من *Junii* (يونية) *Cronica della Cava* عامى ١٠٧٠، ١٠٧٢و *Cronica Amalfitana Antiq. Ital* فى كتاب موراتورى المجلد الأول، ص ٢١٣. روموالدو سالرنيتانو، عامى ١٠٧٠، ١٠٧٣ *Cronica di Santa Sofia di Benevento* فى كتاب موراتورى، *Antiq. Ital* المجلد الأول، ص ٢٥٩، الراهب كورّادو فى كتاب كاروزو *.Bibl. Sic*، ص ٤٨. بالنسبة للتاريخ فقد احتنبت، مثل موراتورى (*Annali*، ١٠٧٢) شهادة أنونيمو دى بارى التى تتفق مع التاريخ الذى ذكره أماتو، وهو أن الحصار قد بدأ فى شهر أغسطس واستمر لمدة خمسة أشهر. ويذكر مالاتيرًا التاريخ

وهكذا عادت بالرمو، بعد مائتين وأربعين عاماً للمسيحية أكثر ازدهاراً واتساعاً، عامرة بالسكان، ثرية ومتحضرة ولكنها مخضبة بالدماء والدموع ذلك أن «عدد السراسنة الذين قتلوا وأسروا وبيعوا، كما يقول أماتو، قد فاق أى مثال». وبعد بالرمو بقليل استسلمت مدينة مازارا تلقائياً لروبرتو وتعهدت بدفع جزية(1)

نفسه بالنسبة للحصار بينما يذكر إن الاستسلام كان عام ١٠٧١ لأنه كان يبدأ العام الجديد يوم ٢٥ مارس.

ويقول فازيللو فى العشرية الثانية، الكتاب السابع، الفصل الأول، على عكس الشهادات المعاصرة، ودون أن يؤيد كلامه بأية رواية، يقول إن المدينة قد فتحها الأسرى المسيحيون. وهذا الأمر يتعلق بغزو تونس الذى وقع فى عصره. ومن جهة أخرى لم يتجاهل فازيللو عندما ذكر أن المسيحيين قد سلّموا مدينة مسينا، شرفاً مماثلاً لمدينة بالرمو.

(1) أماتو، الكتاب السادس، الفصل ٢١ ص ١٨٢ . أرّخ ابن خلدون بعام ٤٦٤ (٢٨ سبتمبر ١٠٧١ ـ ١٥ سبتمبر ١٠٧٢) نهاية الحكم الإسلامى فى صقلية، مشيراً إلى استسلام مازارا وأشار خطأ إلى استسلام تراباني، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، الفصل الخمسون § ١٩، ص ٤٩٧، ص ٤٩٨ .

الفصل الخامس

وبعد أن استولى النورمان على العاصمة المسلمة راوا أنهم قد انتصروا فى الحرب التى لم تبلغ نهايتها بعد. فقاموا على الفور بتقسيم الجزيرة. فقد أخذ روبرتو، المسئول الرئيس عن عملية التسليح، وقائد الجيش والسيد الإقطاعى ـ كما كان يعد نفسه ـ للولايات النورماندية فى البر، فيما عدا ولايتى كابوا وأفرسا، أخذ لنفسه بالرمو واحتفظ بمسينا ووادى ديمونى. وحصل روچيرو من الدوق، بموافقة كل الجيش، على باقى بلدان صقلية التى تم أخذها أو التى ينبغى أخذها: على أن يبقى له من تلك الأراضى نصفها، بينما يتم تقسيم النصف الآخر بين سيرلونى ابن أخيه وابن أخ روبرتو. واريسجوتو دى بوتسولى، وهو رجل من أصل لونجوباردى، كما يبدو من اسمه، وتربطه صلة قرابة بعائلة هوتڤيل. وإذا كانت الأشياء تتوافق مع الأسماء فى تلك الآونة التى كان يجرى فيها تشكيل إيطاليا الجنوبية، فمن الممكن أن نرى بوضوح التنظيم السياسى لصقلية كما يلى: دوق بوليا وهو العاهل الإقطاعى له ولايتهاون فى أملاك الدولة، وكونت صقلية وهو إقطاعى كبير له ولايات أخرى فى أملاك الدولة ويأتى من بعده تابعان أساسيان ثم بارونات أصغر كثيرون يتبعون هؤلاء وآخرون يتبعون الكونت مباشرة وآخرون يتبعون مباشرة الدوق. وهكذا كان تصور روبرتو بالتأكيد لتكوين الدولة، ولكن قوة روچيرو وأتباعه ونجاحهم أفسد عليه خطته(1).

---

(1) *Dux eam (Palermo) in suam proprietatem retinens et vallem* Deminæ, *cæteramque omnem Siciliam adquisitam et suo adjutorio, ut promittebat, nec falso, adquirendam, fratri de se habendam concessit... Nam et medietas totius Siciliæ, ex consensu Ducis et Comitis, suæ sorti (di Serlone) Arisgotique de Poteolis inter se dividenda cesserat, eo*

ونزلت بالمنتصرين فى ذلك الوقت حادثة مروعة. فقد أُغتيل سيرليونى غدراً. كان قائداً، ولا نعرف إذا كان أثناء حصار بالرمو أو بعد اقتحامها، لفرق جنود تشيرامى الإقطاعية لمراقبة حامية كاستروجوفانى العسكرية حتى لا تحاول توجيه ضربة معادية بعد أن عززتها المساعدات الإفريقية؛ وكان لسيرليونى عيون بين صفوف الأعداء، وكان من بينهم شخص يُدعى إبراهيم، وهو من كبار كاستروجوفانى، وكانت تربطه به صداقة حميمة حتى إنهما أقسما بطريقة غريبة ـ كما يقول مالاتيرّا ـ أن يكونا أخين بأن شد كل منهما أذن الآخر. وهذه العادة لا نجدها عند المسلمين. وذات مرة أرسل الأخ الجاسوس هدايا لأخيه القائد، وأبلغه أن سبعة من الفرسان العرب سوف يجوبون فى يوم معين أراضى تشيرامى بدعوى الذهاب إلى دياره لاقتناص الغنائم. ولكن سيرليونى، ضحك من هذا القول ولم يعبأ به ولم يسرع لطلب الجنود الإقطاعيين، بل إنه خرج للقنص فى ذلك اليوم نفسه فى غابات تشيرامى؛ وفجأة علا فى الضاحية صياح رجل يجرى. وأخذ الفلاحون يفرون أمام غارة الفرسان التى أبلغه بها إبراهيم: عندئذ أمر سيرليونى بإحضار دروعه، ومع تلك الحفنة من الرجال الذين كانوا معه أخذ يكر على اللصوص ليعاقبهم على ما اقترفوه من تهور. وعندما هرع إلى طريق كاستروجوفانى قاده

---

quod hic consanguineus eorum erat, uterque autem consilio et armis probissimi viri erant. مالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصل ٤٥ و٤٦.

وبعد هذه الشهادة الصادرة عن نصير شديد الحماس للكونت روجيرو، ومؤرخ البلاط عن حق. (*Quoniam ex ædicto principis tempus scribendi imminet.*) الكتاب الثالث، المقدمة)، ليس من الضرورى دراسة شهادة أماتو، الكتاب السادس، الفصل الحادى والعشرون، الذى سار على منواله ليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل السادس عشر، ويقول أن روبرتو احتفظ لنفسه بنصف بالرمو ونصف فال ديمونى فقط ومنح باقى الجزيرة لروجيرو. وفى هذا مفارقة تاريخية من عام ١٠٧٢ حتى عام ١٠٩١ عندما تنازل روجيرو دوق بوليا عن نصف بالرمو لعمه روجيرو دوق صقلية. ومع كل هذا فإننى لم أتردد فى الكتابة بناء على شهادة أماتو فقط بموافقة الجيش على التنازل لصالح روجيرو. *Et lo comanda que vieingue tout lo excercit et loa lo excercit qu'il lo devisse doner a lo frere. Et adont lo duc donna a son frere ec.*

المسلمون إلى الكمين الذى نصب له، على بعد ثمانية أميال من تشيرامى، عند رافد نهرين صغيرين ينزل أحدهما من نيقوسيا، والآخر من تشيرامى ويصبان فى نهر سيميتو. وهنا كان ينتظره - حسب الرواية النورماندية - سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة، ولكن يبدو لى أن هذا العدد مبالغ فيه. وأطاحوا بجند سيرلونى القليل وقطعوا عليه طريق العودة إلى تشيرامى. وعندما رأى النبيل سيرليونى أن جنوده يتساقطون بكثرة، وأن الموت لا ريب فيه، اتجه إلى صخرة قريبة، ونزل من على حصانه، واستند إلى الصخرة وأخذ فى يأس يضرب بيديه أمامه وعلى جانبيه. وأطلق فيما بعد على تلك الصخرة حجر سيرلونى(1). وسقط متأثراً بمائة جرح وهلك معه كل جنوده إلا اثنين اعتقدوا بموتهما فتركوهما بين جثث المعمدين والمختونين. وانتزعوا قلب سيرليونى من صدره: وسرت شائعة بين النورمان فحواها أن غلاظ القلوب قاموا بتقطيع قلب البطل إلى قطع صغيرة وتسابقوا على التهامه اعتقاداً منهم أن شجاعته سوف تحل فى صدورهم الجبانة. ثم ارسلوا برأس سيرليونى إلى تميم فى إفريقيا، وتم وضعها على عامود وجابوا بها شوارع المهدية، صائحين: «ها هو بطل النورمان المظهم، والآن بعد موته، سيكون استرداد صقلية سهلاً يسيراً» ولا نعرف ما إذا كان اغتيال سيرلونى قد أثار الحزن والغيظ فى وجدان الجيش. عندما علموا به فى بالرمو. وبكى روچيرو بمرارة رفيق الانتصارات الوفى المقدام. أما روبرتو، الذى لم يشعر بفقده مثله فى الحقيقة، فقد قال إن النواح

---

(1) لم يحدد المؤرخون الموقع بدقة، ولكنه دون شك ذلك المكان الذى أطلق عليه الإدريسى حجر سرلو أى «حجر سيرليونى»، المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٦٠ وفى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabic*، ص ١٢٢. ولقد حددت مكانه فى خريطة صقلية المقارنة.

وقد أخطأ فازيللو، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الأول والعشرية الثانية الكتاب السابع، الفصل الأول، أخطأ الموقع وذكر شكلين مختلفين لاسم هذه الصخرة فى زمله.

للنساء أما الثأر فللرجال(1). ولما كان لديه ما يفعله بدلاً من البقاء فى حصار كاستروجوفانى عاماً أو عامين حتى يقبض على قتلة ابن أخيه، فقد تأهب للعودة إلى بوليا، بعد أن أحكم الخناق إحكاماً على مسلمى بالرمو.

قام روبرتو بتشييد أو إصلاح قلعة عند مدخل الميناء: وهى قلعة صغيرة حفظ لها اسمها، وفيما اعتقد أيضاً موقعها، وكانت تسمى حتى عام ١٨٦٠ كاستللا مارى. وقد عوّل روبرتو بشكل اكبر على قلعة مقامة على أرض مرتفعة، فى الموقع الحالى للقصر الملكى مضافاً إليها جزء من الميدانين المجاورين وكل منطقة سان چاكومو العسكرية. وفى ذلك المكان كان يقع فى القرن التاسع قصر الأمراء وفى القرن العاشر المعسكر، أى مكان إقامة الجند(2)، ويبدو أنه قد بقيت منه مبان كثيرة وربما السور أيضاً وقد قام المنتصرون بإصلاحه على طريقتهم: ومن هنا أطلق على القلعة الجديدة الحلقة. وفى الكتابات اللاتينية واليونانية فى ذلك الوقت كان يطلق عليها القلعة العالية حيناً والقصر الجديد حيناً آخر، وكثيراً ما كان يطلق عليها *Galea, Galga, Galcuia, Chalces, Xalces* وأخيراً *Alga* وكلها طرق مختلفة لكتابة اللفظ العربى الذى ذكرناه تواً. وامتد اسم قصر أو قلعة، كما نرى، ليشمل كل المساحة المسورة، وهى على شكل مُضلّع له زوايا ونتوءات بارزة ومنعكسة، ويبلغ طوله خمسمائة متر وعرضه ثلاثمائة متر أخذ يمتلئ شيئاً فشيئاً بقصور صغيرة وبواكى وكنائس ومنازل القساوسة ورجال البلاط(3).

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل السادس والأربعون: وانونيمو، فى كتاب كاروزو، *Sic. Bibl.*، ص ٨٤٦ وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الثالث والعشرون.

(2) انظر الكتاب الثالث، الفصل التاسع، والكتاب الرابع، الفصل الخامس من هذا المؤلف، المجلد الثانى، ص ١٩٦ وص ٢٠١.

(3) يطلق عليها من بين الكتاب المعاصرين، اماتو او المترجم الفرنسى *Forte roche*، ومالاتيرا *Castellum*، وجوليلمو دى بوليا وانونيمو الذى عاش فى نصف القرن الثانى عشر *Castrum*.

وقد زود روبرتو القلعتين بآبار ومخازن(1). اعتقد أنها كانت لتخزين

وكان فالكاندو فى نهاية القرن نفسه تقريباً يطلق على هذه القلعة *Palatium novum* ووصف حائطها بأنه: *mira ex quadris lapidibus diligentia, miro labore constructum, exterius quidem spaciosis murorum anfractibus circumclusum etc.* فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* ص ١٠٦ وفى موضع آخر يذكر اسم احد الأبواب *Galculæ* ويقول إن الأبواب *Galculæ* مغلقة جميعها ويقصد دون ادنى شك ابواب القلعة نفسها. (المرجع المذكور، ص ٤٣٢، ص٤٤١). وانونيمو الأخر الصقلى (موزاتورى *Rer. Iral.* المجلد العاشر، ودى جريجوريو، *Rerum Aragon*. المجلد الثانى) عندما روى فى الفصل الرابع، حسب روايات القرن الرابع عشر الزائفة، عن غزو بالرمو وبناء القلعة اضاف *qui locus dicitur hodie Galea (Galca* (وصحتها *in quo nunc est palatium.*
واخيراً بيرّو عندما ذكر (*Sicilia Sacra*، ص ٢٩٢) وثيقة من القرن الثانى عشر جاء فيها اسم باب *Xalces*. اضاف انه فى زمنه، أى فى النصف الأول من القرن السابع عشر كان اسم المنطقة التى شهد فيها الباب الجديد *Xalces* او *Alga*.
ولا تنقصنا الوثائق. ففى وثيقة لرئيس اساقفة بالرمو بتاريخ ١١٣٢ *(Tabularium regiæ ac imperialis capellæ etc. Panormi)*. ١٨٣٥، ص ٧ يطلق على هذا المكان. *Casrellum superius panormitanum*; ويشير المحقق العالم، رجوعاً إلى فازيللو والوثائق، يشير إلى أن المنطقة كانت تمتد إلى جهة الجنوب من عند دير سان جوڤانى دى ليريميتى، وكانت تمر من جهة الغرب عبر حديقة بنيت فيها كنيسة سان اندريا، ثم بجهة الشمال عبر مكان يطلق عليه بابيريتو وبجهة الشرق عبر ميدان القصر الملكى الذى كان يقع فى منتصفها. وهناك عقد بتاريخ ١١٦٧ (المرجع المذكور، ص ٢٤) خاص بمنزل *quæ esr intus Chalca* وآخر بتاريخ ١٢٥٨ (المرجع المذكور، ص ٦٨) خاص بمبنى اخر *situm in Galcam Panormi prope palacium Caseri*: وحتى عام ١٣٠٩ (المرجع المذكور، ص ٩٤) لدينا معلومات عن منزل اخر *sita in Galca Sanctæ Mariæ Magdalenæ de Galca* (شارع) *Panormi in ruga*. وكذلك وثيقة يونانية ترجع لعام ٦٦٦٢ (١١٥٣) فى كتاب مورسو *Palermo antico*، ص ٣٣٤ تتحدث عن باب **Pèlzas** والموجز الصقلى ص ٢٤٢ *"Porta di Xalcas"*.
ودون أدنى شك، وعلى الرغم من عدم توفر أية وثيقة عربية، فان الاسم كان «الحلقة»، وكُتب بالطريقة التى كان كل شخص يعتقد انها اكثر مطابقة للنطق، فهذا اللفظ فقد شيئاً فشيئاً بنطقه بألسن غير عربية الحرف الأول «الحاء» وصار فى النهاية *Alga*.
واستخرج فازيللو، العشرية الأولى، الكتاب الثامن الفصل الأول، من الأوراق القديمة موقعه واسمه وكذلك معناه الصحيح، على الرغم من انه كتبه بطريقته *Khlaca* واستخدم خطأ هذا الاسم نفسه على الخالصة و*Khalsa* او *Khalesa*. اما كاشينى ومن ثم مورسو، *Palermo antico*، ص ٢٢٨، ص ٢٣٠ فقد وقعا فى خطأ مختلف حيث يريان أن *Chalca*..إلخ اسم مشتق من صفة عربية تعنى عالى.
(1) جوليلمو دى بوليا واماتو.

القمح فى حالة الحصار الذى كان متوقعاً بالتأكيد وسط هذا الكم الهائل من المسلمين الذين لا يمكن السيطرة عليهم إلا بالقوة المباشرة والمستمرة(1). ويروى أماتو إنه عندما كان روبرتو يراقب ذات يوم الأعمال الجارية فى الحلقة لاحظ أن كنيسة سانتا ماريا الصغيرة، جرداء متسخة وتبدو كأنها أحد الأفران بين قصور السراسنة الكثيرة والرائعة: فأطلق زفرة وأمر فى الحال بسرعة هدمها وإعادة بنائها بشكل لائق بحجارة مربعة الشكل ومن المرمر دون الالتفات للتكاليف(2). ويبدو أنها كنيسة سانتا ماريا ديللا جروتا، والتى تقول مذكرات صقلية الكنسية إن روبرتو جويسكاردو هو الذى بناها، وملحق بها دير باسيلى وأملاك فى أراضى مازارا(3)؛ وربما تكون هى نفسها الكنيسة التى أطلق عليها فيما بعد كنيسة أورشليم،

---

(1) فى حوالى عام ١٨٣٢ وأثناء تمهيد أرض ميدان القصر الملكى، تم اكتشاف ثلاث أو أربع حفر كبيرة للغاية وعميقة لتخزين القمح وكانت مشيدة على شكل ثمرة الكمثرى.

(2) الكتاب السادس. الفصل الثالث والعشرون. وهاهى المصادر المعاصرة الخاصة بعملية بناء قلعتى الحلقة والبحر.

جوليلمو دى بوليا. الكتاب الثالث

Munia castrorum fecitt robusta parari,
Tuta quibus contra Siculos sua turba maneret,
Addidit et puteos, alimentaque commoda castris.
Obsidibus sumptis aliquot, castris due paratis.

ومالاتيرا. الكتاب الثانى. الفصل الخامس والأربعون. أماتو الكتاب السادس. الفصل الثالث والعشرون: انونيمو و *Duo fortissima castra, alterum juxta mare* *alterum in loco qui dicitur Galea* (وتصويبها *Galca*). فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* ص ٨٤٦ وفى الترجمة الفرنسية الكتاب الأول. الفصل الثانى والعشرون. ويتحدث أماتو ومالاتيرا عن قلعة واحدة، وهى بالتأكيد «الحلقة» لكونها الأهم.

(3) بيرّو، *Sicilia Sacra*. ص ٦٩ وص ١٣٦٩.

ونوه بيرّو أيضاً فى الموضع الأول المذكور إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس بجوار قلعة كستللا مارى فى بالرمو، والتى تم تشييدها بأمر من روبرتو وانتهى العمل منها عام ٦٥٨٩ (١٠٨١) كما كان يشهد بهذا أحد النقوش اليونانية. إذن فهما الكنيستان المخصصتان للمقيمين بالقلعتين.

إن امتياز منح الأملاك المذكور فى أراضى مازارا تم بدون شك قبل التقسيم النهائى للجزيرة، والذى كانت فيه مازارا من نصيب الكونت روجيرو.

ولم تبق هيئتها القديمة أو زخرفتها بالفسيفساء بسبب تهدمها فى زمن فاتزيللو(1).

وبعد أن زود روبرتو القلاع بالرجال والأسلحة والإمدادات(2)، ترك لفارس من فرسانه حكم المدينة ومنحه لقب أمير وهو ما يتلاءم مع مدينة مسلمة: وقام بإطلاق سراح الأسرى البيزنطيين فى بارى(3) وسمح لأخيه بأن يأخذ بماله الرجال الذين أرادوا البقاء فى صقلية بحثاً عن الرزق: وكان عددهم قليلاً على الرغم من أن روچيرو كان يغريهم بالعطايا والوعود(4). وقبل أن يرحل جويسكاردو وجد طريقة يفرض بها ضريبة لم يكن متفقاً عليها من قبل: فقد دعا إليه كبراء المدينة وشكا إليهم بلا حياء ما تكبده من مصروفات كبيرة أثناء الحصار، وما فقده من فرسان كثيرين وخسائر أخرى كثيرة عانى منها بسبب سكان بالرمو: وطلب منهم مالاً فقاموا بدورهم بمنحه مالا وأشياء ثمينة. وحمّل بها السفن: وصعد إليها رجاله والرهائن من أبناء أعيان المدينة ورحل(5). ونحن نعلم أنه جاء إلى ترويا دى بوليا بأبواب من الحديد وأعمدة بتيجانها استلبها من بالرمو(6). وهناك

---

(1) فاتزيللو. العشرية الأولى. الكتاب الثامن. الفصل الأول. والعشرية الثانية. الكتاب السابع. الفصل الأول. ونقول وقائع أمالفى *Cronaca Amalfitana*. فى كتاب موراتورى *Antiq. Ital*. الجزء الأول ص ٢١٤. ويذكر روموالدو سالرنيتانو عام ١٠٧٦ إن روبرتو انتهى من العمل فى كنيسة العذراء مريم فى بالرمو فى ذلك التاريخ تقريباً.

(2) اماتو. مالاتيرا. جوليلمو دى بوليا. المواضع المذكورة.

(3) جوليلمو دى بوليا. الكتاب الثالث

Reginam remeat Robertus victor ad urbem;
Nominis ejusdem quodam remanente Panormi
Milite, qui Siculis datur Amiratus haberi.

ولا يبدو ان لفظ *Amiratus* هنا قد استخدم للدعاية السيئة. لأنه عندما أقيم البلاط النورماندى فى بالرمو لُقب رئيس الوزراء والقائد العام بهذا اللقب كما سنذكر فى حينه.

(4) مالاتيرا. الكتاب الثالث. الفصل الأول.

(5) اماتو. الكتاب السادس. الفصل الثالث والعشرون ص ١٨٤. راجع جوليلمو دى بوليا، الكتاب الثالث.

(6) *Chronic. Amalph.* هى كتاب موراتورى. *Antiq. Ital.* المجلد الأول، ص ٢١٢. روموالدو سالرنيتانو، عام ١٠٧١.

عطايا عديدة قدمها روبرتو تعود إلى نفس الأصل وقد تبدو اليوم مجموعة من الآثار القديمة أو نصيب أحد أفراد عصابات سرقة الآثار. عندما نقرأ فى كتاب ليونى دوستيا ان جويسكاردو أهدى ذات مرة إلى دير مونتى كاسينو ستمائة بيزنطة من الذهب وألفي تارى إفريقى وثلاثة عشر بغلاً وثلاثة عشر من السراسنة وبساطاً كبيراً: ثم عملات أخرى اسقيفيه وبيزنطية وتارى وعملات من أمالفى ومقلاتية وستارتين من الطراز العربى وآنية من البللور واردية ومعاطف: مع هذه الأشياء الرقيقة والدقيقة، وثائق تنازل عن أراض وقلاع، والمشور من صيد الأسماك فى تارنتو بل أيضاً العشور على بعض الأعمال الحرفية(1). ويبين الثمين من هذه العطايا ويدل على عصور المفاوضات التى قام بها رئيس دير مونتى كاسينو لصالح روبرتو؛ ومن الواضح أن تلك الغنائم الشرقية كانت تأتى من بالرمو. ولنا أن نتخيل كم كان كثيراً ومدهشاً ركام الثروة التى قام بنهبها جيش روبرتو، وكم كانت فرحة الرهبان وهم يتفننون بمدح الظافر الصالح، الأداة الحقيقية للعناية الإلهية.

وقد عجّل احتلال بالرمو من نكبة كبار الإقطاعيين فى البر الإيطالى الذين، كلما تذكروا المساواة القديمة بين القادة، لم يكن بمقدورهم أن يقتنعوا كيف أن لقب دوق ووثيقة صادرة عن المكتب البابوى نصّبا عليهم سيداً وفرضا عليهم الالتزام بالخدمة العسكرية ودفع مساهماتهم فى الأمور الإقطاعية. وواجه روبرتو المستائين بثبات فقد قام باستدعاء الكونتات جميعاً إلى ميلفى، العاصمة الإقطاعية القديمة: حيث اجتمع الراضون فى الموعد المضروب ليعبروا له عن سعادتهم بالنصر. ورفض الأوصياء على كونت ترانى الذهاب كما رفضوا قبلاً إرسال جندهم للحرب. وتحرك على الفور روبرتو ضدهم، وبعد حصار قصير استولى على ترانى وعلى مدن

(1) ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل الثالث والخمسون. وقارنه بكتاب أماتو، الكتاب الثامن، الفصل الخامس والثلاثين.

وأراض أخرى. وعادت المقاومة، التى كان يسميها تمرداً، لتتجدد مرات عديدة فيما بعد وذلك حسب الحالات والآمال أو النكايات. وقد أثيرت ضجة كبيرة عندما طلب الدوق، وهو يستعد لتزويج إحدى بناته لأوجو ابن المركيز ديستى، من التابعين مساعدته فى دوطة العروس، حسب التقاليد الإقطاعية (١٠٧٧). كما ثار فى (١٠٧٧ ـ ١٠٧٩) أبناء أونفريدو وهم أبناء اخ روبرتو القُصَّر الذى نهبهم. ولكن روبرتو كان ينجح دائماً فى إخماد تلك الحركات المفككة وقليلة العدد.

وكان عليه أن يجاهد كذلك ضد الأسرة النورماندية فى كابوا حيث استثار الأمير ريكاردو أعداءه ضده أثناء حصاره لبالرمو؛ وظلت الاعتداءات والمفاوضات والاتفاقيات بين الفريقيين تتعاقب حتى وفاة ريكاردو وطوال فترة حكم ابنه جوردانو، تعاقبها بين داهيتين يعرف كل منهما قدر الآخر. وبين رجلين قويين يخشى كل منهما الآخر. وبين رجلى أعمال يقتسمان العمل حتى يسلبان الآخر. إلا أن روبرتو عرف كيف يُرجح كفته أكثر من منافسه. ولقد دفعت الثمن الأسرة الحاكمة اللونجوباردية فى سالرنو: لأن جيزولفو شقيق زوجة روبرتو لثقته الزائدة بأمير كابوا وبالبابا وجد نفسه وقد تخليا عنه فجأة بمفرده وسط المخاطر. واتفق روبرتو وريكاردو معاً وقدم له يد العون فى عملية نابولى (١٠٧٨)، التى باءت بالفشل بسبب قدرة تلك الجمهورية وشجاعتها. وبهذه الطريقة توارت الإمارة اللونجوباردية القديمة فى سالرنو (١٠٧٧). وباسم الدفاع عن حقوق الإنسانية كان جويمكاردو يتوسط لدى جيزولفو لصالح ضحايا الطغيان من أهل أمالفى، وعندما لم يجد أذنا صاغية إليه، ذهب لحصار سالرنو ـ كما يقول أماتو(1) ـ ومعه جيش كبير من اللاتين واليونانيين والسراسنة؛ ومن هنا نرى أن المنتصر على بالرمو لم يتوان فى استخدام جيوش رعاياه الجدد. واستولى على سالرنو بعد حصار للمدينة طالت مدته

(1) الكتاب الثامن، الفصل الثالث عشر.

ثم حصار القلعة، حيث ألقى القبض على چيزولفو، وخيرَّه بين أمرين، إما أن يتنازل عن دولته بأكملها وإما أن يقضى حياته مسجوناً فى قلعة بالرمو: وحتى يزيد من إقناعه أمر بتجهيز الأغلال والسفينة(1)، وبعد أن تخلى الأمير چيزولفو عن التاج وتجرد من كل شئ سعى للجوء إلى بلاط جريجوريو السابع.

منذ الأيام الأولى لتتويجه (١٠٧٣) أجرى الدبراندو مباحثات مع روبرتو، إذ إنه كان يريده بجانبه بينما كان على وشك أن يخوض معركة حق التنصيب الكبرى. وكان لتعالى البابا الكبير ومكابرته وعدم معرفته الجيدة لروبرتو وللأحوال فى ذلك الوقت من ناحية، ولمطالب روبرتو هو أيضاً المبالغ فيها من ناحية أخرى، أن باءت المفاوضات بالفشل(2) لذلك لجأ جريجوريو، بعد صدور قرار حرمان الدوق (١٠٧٤)، إلى إثارة ريكاردو وچيزولفو التمس ضده، وكان من قبل قد حث الكونتيسة المخلصة ماتيلدا على إرسال جيش كبير لينضم مع قوات كابوا وسالرنو حتى يقضوا على أسرة هوتفيل فى إيطاليا(3). وهو تحالف خيالى لا يقبل التنفيذ على أرض الواقع ولو كان الدبراندو قد اعتمد عليه لكان معنى ذلك أنه لم يكن يعيد النظر فى الأمور السياسية. وعندما عبر أريجو الرابع إلى إيطاليا، حدث أنه بينما كان البابا يهين الإمبراطور ويسبه فى كانوزا، عزل روبرتو، بالاتفاق

---

(1) ذكر أماتو هذا فى الكتاب الثامن، الفصل التاسع والعشرين.

(2) نستخلص أخبار أولى المباحثات بين جريجوريو السابع وروبرتو من كتاب أماتو، الكتاب السابع، الفصل الحادى عشر، وإن كان المؤرخ لم يذكر موضوع المفاوضات، وهو الذى كان يستطيع معرفتها جيداً. ويفترض أنها انقطعت لأسباب شكلية تتعلق بالمراسم وهو أمر بعيد عن الحقيقة. ويقول أماتو إن البابا عندما ذهب إلى بنفنتو كان يريد أن يأتى روبرتو للتفاوض فى المدينة؛ وكان الدوق يفضل التفاوض فى معسكره فى الهواء الطلق. وأشار أماتو بكل دقة إلى التاريخ قائلاً: إنه عند ارتقاء الدبيراندو، وكان روبرتو مريضاً مرضاً خطيراً فى بارى، ذاع فى روما نبأ موته. فأرسل البابا تعازيه إلى زوجته ثم لتهنئته بالشفاء وبعد ذلك بدأت المفاوضات. (الكتاب السابع، الفصلان السابع والثامن).

(3) أماتو، الكتاب السابع، الفصل العاشر والثانى عشر والثالث عشر.

مع ريكاردو، أمير سالرنو وجرّده تماماً. كما أشرنا. ثم بدأ يتفاوض مع اريجو نفسه، وهدد بنفنتو التى كانت تأخذ جانب البابا؛ وبّين لجريجوريو بطرق كثيرة أنه أعلم منه بأمور العالم. وعندما استيقظ جريجوريو من أحلامه وعاد إلى الواقع أجرى محادثات مع روبرتو (١٠٨٠) والغى الحرمان وباركه ووافق على احترام أراضى الدوق، ومنحه لقب فارس سان بيترو. ويُقال أيضاً إنه وعده بالإمبراطورية الغربية.

وساعده على احتلال الإمبراطورية الشرقية التى تحول روبرتو ضدها؛ وكان لا يعترف بأى عقبات لا ينتصر عليها العقل والشجاعة. وقد أدى احتلال نيتشفرو بوتونياتى إلى إنزال الإمبراطور ميكيلى دوكا من على عرش القسطنطينية ونقله إلى أحد الأديرة؛ وقيل إن ابنه قسطنطين قد أصيب، أما زوجته الشابه، ابنة روبرتو فقد أودعت السجن. وأذاع روبرتو أنه يريد الانتقام لابنته ويعيد حماها إلى العرش. واستغل غضب المحاربين النورمان المشتعل بسبب سجن ابنته، الذى عدّوه وصمة عار قومية، فجاء إلى اليونان ومعه جيش وأسطول حربى. وبعد أن أطاحت به العاصفة (١٠٨١) وهزمه فى البحر أسطول فنيسيا، تشبث بحصار دوراتزو. وانتصر على الإمبراطور البيزنطى الجديد السيو كومنينو، الذى أراد أن يشن عليه هجوماً فى معسكره؛ وفى النهاية حصل غدراً على دوراتزو (١٠٨٢). وترك ابنه بويموندو ليستمر فى الحرب فى اليونان؛ وعاد إلى إيطاليا حيث كان البارونات قد أخذوا فى رفع رؤوسهم؛ كما أخذ الإمبراطور أريجو فى تهديده، فقد ساعده الإمبراطور البيزنطى بالمال، حسب المصالح المشتركة آنذاك، ودخل روما فى (٢١ مارس ١٠٨٤) واستمال أو قام بشراء كثير من المواطنين ذوى النفوذ وحاصر الديبراندو فى قلعة سانت أنجلو. وطلب البابا العون من فارس سان بيترو الجديد بعد أن وجد نفسه وقد هجره المواطنون وكثير من الكرادلة، وبعد أن نفد ذهب الكنائس وفضتها. وأسرع الفارس

لمعاقبة إمبراطور الغرب، كما فعل منذ قليل مع إمبراطور الشرق عند دوراتزو. ولكن أريجو (فى مايو ١٠٨٤) رحل قبل وصول جيش الجنوب بثلاثة أيام وكان يتألف من: ستة آلاف فارس وثلاثين الف جندى مشاة، ما بين نورمان ومن بوليا وكلابريا وسراسنة صقلية، وكانوا جميعهم يتوقون، كما يمكن ان نقول، إلى تعزيز سلطة البابا فى عاصمة العالم الكاثوليكى. وكان إيطاليون يأتون ضد إيطاليين وكذلك أجانب يأتون ضد أجانب ليمزقوا بعضهم بعضاً بين أطلال روما العظيمة، بسبب مشكلة من بين آلاف المشاكل التى ولّدتها البابوية، من قبل وحينئذ وفيما بعد؛ ولم تجد لها حضارة القرن التاسع عشر حلاً بعد، ولن تجده حتى يتم اقتلاع بذرة الشر من جذورها. وقد ترك الصليبيون المسيحيون وكذلك المسلمون آثاراً كثيرة مازالت بادية للعيان. دخل روبرتو روما دون إراقة دماء ولكن بعناء، وسرعان ما ظهرت الفتنة والاضطرابات ضده، وأسرع رجاله يحملون السلاح؛ وصرخ روبرتو أشعلوا النار هنا، واشتعلت النار فى روما وساعدتها الرياح على القضاء على كل شئ بين لاترانو والقلعة حيث كان البابا حبيساً. وراح الجنود، فى ركاب النار، يعتدون على المواطنين، ويقتلون، وينهبون، ويغتصبون النساء، حتى فى الأديرة (٢٩ مايو). وأجبر أهل روما بحد السيف وبالنار التى اضرمها روبرتو على الاتفاق مع البابا: وبعد خروج جريجوريو السابع من القلعة، لم يجرؤ على البقاء فى المدينة الجريحة: وتركها إلى سالرنو(1) مع محرره النورماندى حيث وافته المنية بعد عام واحد (مايو ١٠٨٥). وظل روبرتو خلفه؛ وبعد أحداث روما عاد روبرتو إلى اليونان بجيش جديد وبأسطول جمعه من بوليا وكلابريا وصقلية(2) وأحرز نصراً بحرياً عظيماً فى مياه كورفو على أسطولى القسطنطينية وفنيسيا، وأثناء

---

(1) قارن بين: كتاب لاندولفو *Histor. Mediol*، طبعة برتز، *Scriptor*، المجلد الثامن، ص ١٠٠ وبخاصة مع المصادر المعاصرة الأخرى.
(2) هذه التفاصيل ذكرها مالاتيرا فى الكتاب الثالث، الفصل التاسع والثلاثين.

خوضه الحرب فى تشيفالونيا اصابته حُمى اودت بحياته (١٧ يوليو ١٠٨٥). وبعد أن فارق الحياة عاد جيشه وأسطوله على الفور إلى إيطاليا. وحاقت الأخطار بدولته فى بوليا وكلابريا، لأن روبرتو كان قد منح الحكم لابنه روچيرو، من الأميرة سيكلچاتا وهى أميرة من سالرنو: ولهذا فإن بويموندو ابنه البكر من زوجته الأولى التى طلقها، وهو مقدام كأبيه، ولكنه أحمق، تنازع على الخلافة مع روچيرو: وكانت أسرة هوتفيل، بل حكم النورمان فى إيطاليا سيتمرض إلى مخاطر كبيرة لولا وجود روچيرو الآخر، كونت صقلية وكلابريا وهو يجئ فى المرتبة الأولى بين أفراد عائلته لقوته وثرائه وصيته(1).

---

(1) الأحداث المذكورة دون استشهادات بعد عودة روبرتو من صقلية إلى البر الإيطالى، مأخوذة من: مالاتيرًا، الكتاب الثالث، ومن جوليلمو دى بوليا، الكتاب الثالث والرابع والخامس، ومن أنونيمو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٨٤٦ وما بعدها. أما أماتو فلم يصل بالحديث إلا إلى وفاة ريكاردو أمير كابوا. قارن بالنسبة للترتيب التاريخى بين موراتورى، *Annali*، من عام ١٠٧٢ إلى ١٠٨٥ وجيبون *Decline and Fall* الفصل السادس والخمسين.

الفصل السادس

وبينما كان روبرتو يقوم بتوسيع حكمه وتدعيمه فى إيطاليا الجنوبية، كان روجيرو يتقدم بخطوات حثيثة فى صقلية. وقد ذكرنا منذ قليل كيف أنه جمع بصعوبة قلة من الجنود المغامرين أو المرتزقة فى جيش أخيه: وضغط على أغلبهم للعودة إلى البر الإيطالى لإعادة تنظيم أملاكهم الإقطاعية والمشاركة فى منازعات روبرتو كأصدقاء أو خصوم. وكانت أملاك روجيرو فى كلابريا، وهى إقليم بيزنطى غير معتاد على الإقطاع قادرة على تقديم مساعدات قليلة من الرجال والمال. أما أملاكه فى صقلية فكانت تقدم ما هو أقل. وعلى أعتاب عام ١٠٧٢، كانت صقلية تنقسم إلى ثلاث مناطق متوازية. المنطقة الأولى تمتد من مسينا إلى بالرمو بطول المنحنى الشمالى لسلسلة جبال الأبنين الصقلية، وكانت تابعة لروبرتو(1)، والثانية بطول المنحنى الجنوبى للسلسلة الجبلية نفسها، وكانت خاضعة لروجيرو، والثالثة ومساحتها تساوى مجموع مساحة المنطقتين الأخرتين وكانت تحت هيمنة المسلمين: فإن روجيرو كان يحتل منها كتانيا ومازارا عند الطرفين الشرقى والغربى، وفى مقابل هذا، كانت تاورمينا وترابانى عند طرفى منطقته، معقلين قويين، للمسلمين. إذن فقد كان إقليم روجيرو غير آمن بسبب تلك الحدود الممتدة التى كانت تتطلب وجود حاميات فى كل بقعة، فكانت الثمار التى يستطيع

---

(1) اعتقد انه يجب أن نستثنى ذلك الجزء من الساحل الذى يمتد من كارونيا، عند الحدود الغربية لڤال ديمونى، حتى نهر سان ليوناردو أو نهر ترمينى كما يطلق عليه، والذى نرى أنه الحدود الشرقية لأراضى بالرمو فى عام ١٠٩٣. ولكن يروى لنا المؤرخون أن روبرتو أخذ لنفسه ڤال ديمونى وبالرمو؛ وليس من المحتمل أن يكون روجيرو قد تنازل عن أراضى تشيفالو وعن كل هذه المنطقة التى لم تكن تابعة لوادى ديمونى أو لبالرمو. فقد خاض فيها لسنوات طويلة وهو يقتحم الساحل الشمالى عن طريق وادى إيميرا.

سيده اجتماعها منه قليلة. يضاف إلى ذلك أنه، لارتباط مصيرى الشقيقين ارتباطاً لا ينفصم، كان على روجيرو أن يقاتل من حين إلى آخر فى البر الإيطالى إلى جانب الدوق، كما حدث عام ١٠٧٧، عندما طلب منه روبرتو أن يحاصر فى سان سفرينو ابن أخيه أبلاردو، نصير أمير سالرنو(1)، كما أجبرت أحوال كلابريا روجيرو على التردد عليها باستمرار وأبعدته عن العمليات الحربية فى صقلية(2).

كانت المنطقة المسلمة قادرة على المقاومة طويلاً. وفى الحقيقة أنه منذ عام ١٠٦٢ أدى تقسيم الإمارة إلى عدم مواجهة النورمان بكل قوى الجزيرة؛ وجعل الأعداء يجدون لهم أعواناً هنا ومشاهدين سعداء بانتصاراتهم هناك: وأصاب ابن خلدون حين قال(3) إن محتلى تلك الولايات الصغيرة وقعوا فى خطأ مواجهة الكونت الواحد منهم تلو الآخر؛ وأن الكونت كان يحرضهم فى شقاقهم، فأخضعهم متفرقين وسلب منهم صقلية معقلاً معقلاً. وبينما كانت الفُرقة تضعف الهيئة السياسية بشكل لا يمكن إصلاحه، فإنها كانت فى الوقت نفسه تبعث هنا وهنالك قوة مَرضية فى الأطراف: فقد تقوى كل فرد من هؤلاء المحتلين بالأسلحة والقلاع، لا يثق إلا فى الله وفى نفسه. وكان عندما يسقط جاره يبتسم أو يصيبه الهلع. ولم يصبهم بالخوف احتلال بالرمو، الذى كان يعد بمثابة انتصار للنورمان فى الحرب، لو أن صقلية كانت دولة واحدة. واستسلمت مع العاصمة مازارا فقط: أما المدن الأخرى أو الإمارات (فمن الصعب تمييز الولايات التى ظهرت وسقطت فى دوامة الحروب القومية والأهلية) فقد استمرت فى الدفاع عن نفسها، كما فعلت من قبل، دون مساعدات بالرمو.

بل إن احتلال كتانيا أيقظ مسلمى قال ديمونى من سباتهم الذى

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الثالث، الفصلان الرابع والخامس.

(2) مالاتيرّا، الكتاب الثالث، الفصل العاشر.

(3) فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٤٩٧.

دام عشر سنوات وهم الذين احتفظوا بقوتهم كاملة بانضمامهم إلى روجيرو؛ وقد أبلوا بلاءً حسناً بقيادة شخص يُدعى بنارفت أو بنافْرت(1) الذى لم تتحدث عنه الحوليات العربية، أو شاعر صقلية العربى الكبير، ابن حمديس، الذى عاش فى ذلك الوقت بالرغم من أنه كان يذكر دائماً وبفخر شجاعة فرسان سيراكوزا وإقدامهم: ولكن ربما كانت هناك عداوة شخصية جعلته يظلم آخر بطل مسلم صقلى(2). لذلك فنحن مضطرون أن نستخرج بطولات بنارفت من بين الوقائع النورمانية المتكلفة، التى تعد الكتابة المعاصرة الوحيدة التى بقيت لنا عن هذه الفترة الأخيرة من فترات الحرب الصقلية. كما أننا مضطرون كذلك أن نأخذ عن الوقائع نفسها كل الأحداث التفصيلية الأخرى. أما الحدث العام فهو أن المنطقة المسلمة صارت مدججة بالسلاح، وانتشرت فيها القلاع التى كان السادة يتحدّون منها فرسان روجيرو ويعدون الجماعات للإغارة على المنطقة الخاضعة له والسلب منها. وكان روجيرو، قائد الفرق قليلة العدد غير المؤهلة لتحمل الحصار، يقوم بتعويض قلة العدد بالشجاعة، والصمود، واستعمال العقل وقوة الشخصية، وهى قدرات زادت أضعافاً مضاعفة - كما يؤكد مؤرخ البلاط - عندما تأكد له وبناء على معاهدات جديدة أن ثمرة جهده ستكون له شخصياً وإنه غير ملزم بأن يتقاسم الغنائم مع روبرتو(3).

بهذا كله وليس بغيره من الأحداث كان ينصرم العام الأول لاحتلال بالرمو. ونعلم فقط أن روجيرو قد قام فى عام ١٠٧٣ بتحصين قلعة فى مازارا ليُخضع سكان هذه السهول وأخرى فى باترنو ليجتاح سفوح

---

(1) اعتقد ريسكى، حوليات ابو الفدا، المجلد الثالث، ملحوظة ٢٦٠، أنه وجد فى هذه الكتابة الخطأ الموجودة فى الوقائع المسيحية اسم ابن الوردى؛ وتبعه فى ذلك ونريش. ولكن ذلك التصويب لا يبدو لى أكيداً على الاطلاق.

(2) انظر الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر صفحتى ٥٢٧، ٥٢٨ من المجلد الثانى.

(3) مالاتيرّا، الكتاب الثالث، الفصل الأول.

جبل إتنا(1). وفى عام ١٠٧٤ قام بتجهيز معقل كالاشيبتا المقابل لكاستروچوڤانى وأمده بالفرسان والأسلحة والمؤن، بهدف ضرب الريف بشراسة حتى تستسلم له كاستروچوڤانى، وتسقط مع سقوط تلك القلعة آمال كل مسلمى الجزيرة(2). ولم يحدث فى العامين التاليين ما هو جدير بالإشارة إلا عمليتان حربيتان كبيرتان للمسلمين، والشجاعة والإقدام اللذين استطاع بهما روچيرو أن يستعيد السبق فيهما. ولعل مسلمى صقلية، الذين كان يطاردهم الحظ المناوئ، قد لجأوا لطلب العون فى ذلك الوقت مرة أخرى من إفريقية واستجاب لطلبهم مرة أخرى آل الزيرى. ففى شهر يونيو من عام ١٠٧٤ قام أسطول تميم، بعد أن دار حول صقلية، بالانقضاض فجأة على نيكوترا فى كلابريا؛ وأخذ منها أسرى وجمع الغنائم وأشعل النار فى الأرض، ثم رد الأسرى بعد دفع الدية، وعاد إلى إفريقية. ثم عاد إلى بحار صقلية خلال عام ١٠٧٥، وأنزل رجاله فى مازارا وحاصروا القلعة لمدة ثمانية أيام، بغرض واضح وهو أن يمسكوا بزمام المدينة؛ وتم استدعاء روچيرو عن طريق الرسائل، فأسرع ومعه حفنة من الرجال المسلحين ودخل القلعة ليلاً، وفى صباح اليوم التالى خرج من القلعة واشتبك مع الأفارقة فى الميدان أسفل القلعة ودفعهم نحو البحر بعد مذبحة كبيرة وبعد أن أخذ منهم أسرى كثيرين(3).

وبعد هـذه العملية نرى الحـرب تدور سجـالاً بين الطرفين. ظهر

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل الأول، يكتب *ad infestandam Catanam* ونستخلص أنه ربما يكون قد احتل كتانيا عام ١٠٧١ واحتفظ بها لنفسه عام ١٠٧٦ ويبدو لى أنه يقصد اجتياح الريف.

(2) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل السابع.

(3) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصلان الثامن والتاسع، قارن بين: أنونيمو فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٤٧، والراهب كورادو، عام ١٠٧٥، ولوبو بروتسبتاريو ١٠٧٦، الذى يذكر إنه أسر ابن أخ ملك إفريقية فى مازارا ومعه ١٥٠ سفينة؛ ولكن هذه الرواية تتناقض مع رواية مالاتيرا وهى أجدر بالثقة.

بناهْرت، كما يبدو، فى انتفاضة وادى نوتو، وكانت له القيادة على سيراكوزا والإقليم كافة، وكان يجمع منه القوات البرية والبحرية(1) ويحسن استخدامها بشكل جعل روجيرو نفسه يبجله وجعله جديراً بما قاله المؤرخ النورماندى فى مدحه بأنه داهية عظيم، جسور ومقدام وقائد خبير، وبارع فى الخدع والحيل الحربية(2). وكان الكونت قد قام بتنظيم مجموعة من المحاربين المقيمين، بقيادة چوردانو، ابنه غير الشرعى، وكان شاباً جميل الطلعة، قوى البنيان وباسل من بين البواسل. ولما اضطر روجيرو فى ذلك الوقت إلى العودة إلى ميليتو فى كلابريا، ترك أوجو دى چيرسى نائباً عنه فى صقلية. وهو من عائلة نبيلة جداً من ماين، وزوج إحدى بناته وإقطاعى، كما يبدو، من كتانيا(3). وأوصاه أن يبقى دائماً فى مكانه يدافع عنه والا يثيره اى تحرش فيسرع بالتحرك ضد بناهْرت. ولكنه لم يكترث لتلك التحذيرات، فقد كان يسيطر عليه فوران الشباب والطموح العسكرى، وأراد أن يحاول: فذهب لزيارة چوردانو فى ترايِنا الذى كان لا يقل طموحاً عنه وجذبه ومعه الجنود المقيمين. ولكن عندما نما إلى علم بناهْرت خبر تلك الاستعدادات، سبق الشابين النورمانديين فى التحرك. فذهب بجماعة قوية من الجيش ليتخذ موقعه فى غابة بالقرب من كتانيا كان يطلق عليها مورتيلليتو: وارسل ثلاثين فارساً للنهب حتى أسوار المدينة ليخرجوا أوجو دى چيرسى، الذى كان يدفع، كما كان يعتقد، حيلة بحيلة أخرى. فدفع ضد المتحرشين

---

(1) انظر فيهما بعد معركة عام ١٠٨٥ البحرية فى نهكوترا.

(2) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل العاشر والفصل الثلاثون.

(3) يسميه مالاتيرا *Hugo de Gircæa præclari generis a Cenomanensi provincia;* ويسميه انونيمو *Hugo de Brachie*: فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* ص ٨٤٧ والترجمة الفرنسية ص ٢٩٨، *Hugo de Brachie*. ويقول إنه زوج ابنة الكونت. قارن بين: دوكانج *Les familles normandes* فى طبعة اماتو. *Champollion*، ص ٢٥٧. وكلمات انونيمو *quem dominum Cathaniæ præfecerat* تجعلنا نفترض أن أوجو سيد إقطاعى على كتانيا.

المسـلمين بطليعة قوامهـا ثلاثين فارسـاً، وكان يتبعهـم عن بعد ومعه چوردانو والجانب الأعظم من رجاله. ولكن بناڤرت فطن للخطة فترك طليعة الجيش النورمانى تمر فى سلام، وعندما وصل جيش أوجو انقض عليه على الفور. عندئذ جاء عدد المسلمين أو تخطيطهم العسكرى بالنصر. وبعد أن قاتل أوجو ببسالة كبيرة فاضت روحه ومعه أغلب رجاله. وفرّ چوردانو بمشقة مع من تبقى من رجاله إلى كتانيا: أما الطليعة، فبعد أن تم عزلها عن بقية القوات أخذت تبحث عن ملجأ لها فى القلعة النورماندية فى باترنو. وجاء بناڤرت منتصراً بأولى غنائمه من النورمان إلى سيراكوزا.

وعندما علم روچيرو بما حدث، تحرك نحو صقلية لينتقم وليطمئن جنوده الذين كانوا يترنحون. وجاء بقوات عظيمة لم يجرؤ بناڤرت على مواجهتها فى الميدان، وفى صيف ١٠٧٦ بدأ باحتلال قلعة على جبل يوديكا يسد سهل كتانيا الواسع الخصيب من جهة الغرب، ودمر القلعة وقتل الرجال بالسيف: وأرسل النساء والأطفال ليبيعهم فى كلابريا. واندفع إلى الأجزاء الجنوبية فى وادى نوتو وظفر بغنائم كثيرة، وأحرق الغلال المحصودة وتسبب فى وقوع خسائر ضخمة كان من نتيجتها أن عانت صقلية فى العام التالى من الجوع(1).

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل العاشر: أنونيمو فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٤٨: الراهب كورادو، عام ١٠٧٦.

توجد رواية محلية، وبمقارنتها بكتابة من القرن السادس عشر، ولا نعرف إذا كانت قائمة على الرواية نفسها، قد تدعو إلى الاعتقاد أن قلعة يوديكا أو زونيكا قد دَمرها شعب كلتاچيرونا. وهى جماعة تابعة لچنوه كانت قد ساعدت بقواتها الكونت روچيرو. وسوف أتحدث فى حينه عن أصل كلتاچيرونا المحتمل أن يعود إلى چنوه. وفى الحقيقة، تذكر الرواية وكذلك الكتابة المذكورة التى ترجع للقرن السادس عشر والتى نقلت فى مخطوطة مزايا مدينة كلتاچيرونا من الورقة ٦٠٢ إلى ٦٠٩، تحت عنوان *Chronica Pheudorum Hamopetri* أن رجال كلتاچيرونا قاموا باحتلال يوديكا فى زمن الملك روچيرو الذى تمرد عليه أولئك المسلمون: فوعد الملك، الذى لم يجد طريقة أخرى لإخضاعهم، بمنح الأرض لمن يتمكن من اقتحام القلعة. ونجح فى اقتحامها أهل كلتاچيرونى بخيانة قامت بها إحدى المواطنات، كان قد حبسها الحاكم المسلم عنوة؛ فقد أمرت ذات ليلة ومعها إخوانها بفتح أبواب القلعة، فاقترب رجال كلتاچيرونى

وقد ساعد على ذلك بالتأكيد ما سببه المسلمون من خسائر فى منطقة روچيرو لم يتحدث عنها مالاتيرًا كالمعتاد.

ولأن روچيرو لم يرد التمادى فى محاربة بناڤرت فى قلاع وادى نوتو، فإنه قام فى شهر مايو من العام التالى، ألف وسبعة وسبعين، بالهجوم على ترابانى غربى منطقته: طرابلاس، كما كتبها مالاتيرًا، مراعياً بأمانة النطق العربى الذى كان يخلط بين اسمها القديم دربانوم واسم طرابلس. وخرج بقوات غير معتادة، حتى أنهم أطلقوا عليها جيشاً وأسطولاً حربياً، أسطولاً لم يقم الإسكندر الأكبر بتجهيز أسطول أجمل منه أبداً. هكذا يشدو مالاتيرًا إعجاباً به. ويعبر عن فرحته بهذا المشهد الجديد فى فقرة شعرية. ويصف فيها هدوء البحر، والرياح المواتية والقلاع المنشورة، وابتسامة النسمة والحظ وأصوات الأبواق، ونغمات العود وقرع الطبول. ويصف من ناحية أخرى الفرسان الذين يركضون فوق الجبال والوديان يقودهم روچيرو بنفسه وآلاف البيارق فوق الرماح وبريق الخوذ والدروع المرصعة بالذهب، وصهيل الجياد وما يعكسه من أصداء: صوت مفزع وصورة

المسلحون، ودخلوا القلعة ودمروا كل شئ وفازوا بالأرض التى وعدهم بها الملك. وهذا الحدث الذى وقع أثناء حكم روچيرو الملك، لا يمكن التسليم به: خاصة أن إقطاعية يوديكا، وإقطاعية فتانازينو التى ضُمت إليها، مذكورتان فى وثيقة ترجع لعام ١١٦٠ على أنهما قد تم بيعهما من جانب الخزانة الملكية إلى البلدية، ولم يتم وهبهما. والأقرب للحقيقة هو أن يكون أهل كلتاچيرونى، وبالاتصال بتلك المرأة، قد قاموا باحتلال القلعة كحلفاء للكونت روچيرو عام ١٠٧٦، وأن الرواية قد خلطت فيما بعد بين الكونت والملك اللذين يحملان نفس الاسم وأخطأت فى التاريخ كما أخطأت فى سند شراء الأرض. ولكنى لن أستعجل بالتأكيد حدثاً تاريخياً قائماً على افتراضات كهذه. والمؤكد هو أن القلعة كانت مدمرة بالفعل فى منتصف القرن الثانى عشر: فالإدريسى لم يتحدث عنها بينما ذكر كلمة *menzil* منزل أو كما نقول نحن قرية يوديكا. وتبقى من القلعة صهاريج واسعة وأطلال قليلة: وتبين وعورة الجبل هذا الموقع الحصين. عن هذه الأحوال الطبوغرافية وعن الروايات، انظر اميكو: *"Dizionario topografico della Sicilia"* تحت مادة يوديكا: وابرهل *"Cronologia Universale della Sicilia"*، ص ٦٤ وما بعدها وص ٩١ وما بعدها. وأشار إليها أيضاً فازيللو، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الثانى، أثناء تناوله لمدينة كلتاچيرونى.

رهيبة تسبب الرعب للمسلمين بين أسوار طرابلا: وحاصروا المدينة بحراً وبراً، وأقاموا المعسكرات، ودفعوا إلى داخل الأسوار المواطنين الذين خرجوا للقتال وهم فى حالة يرثى لها: ومع كل هذا طالت مدة الحصار حتى أتت بغتة ضربة عسكرية قضت على روح أهل ترابانى. ويذكر مالاتيرًا أنه كان يمتد خارج المدينة نتوء جبلى داخل البحر غنى بالمراعى(1) عادة ما كانوا يقودون إليه الماشية التى نُقلت من القرية إلى المدينة مع بداية الحصار. وفطن إليه چوردانو، ودون أن يقول لأبيه شيئاً، عبر ذات مساء إلى ذلك النتوء الجبلى ومعه مائة محارب فقط. قام بإخفائهم بين الصخور. حتى فتحت المدينة ابوابها فى اليوم التالى وخرج منها القطيع، فوثب من الكمين الذى أعده واختطف الماشية من تحت الأسوار وأدخلها إلى مراكبه، وعندما خرج أهل المدينة بالسلاح دفعهم بوحشية وقتل منهم كثيرين وأمربالإبحار بالغنيمة وعاد إلى المعسكر. وضاعف مالاتيرًا أو الكونت، كعادتهما، عدد المقاتلين المسلمين خمسة عشرة أو عشرين ضعفاً وجعلوا عشرة آلاف منهم يخرجون لمواجهة چوردانو، وهو عدد قد لا يتسع له المكان ولا يمكن أن يكون فى ترابانى. وقد أدى الخوف من مخاطر هجوم جديد تقوم به تلك الفرقة وقلة المؤن التى نتجت عن عملية النهب تلك إلى أن يقبل المواطنون الاتفاق الذى يبدو أنه قد عقد بالشروط نفسها التى حصل عليها مسلمو بالرمو؛ وهى كما نقرؤها فى الوقائع انهم قد قاموا بتسليم القلعة، واعترفوا بسيادة الكونت وتحالفوا معه، كما هى العادة، وهو ما يعنى كما نعلم جيداً دفع الجزية. وأعد روچيرو التحصينات على طريقته، وترك بالمدينة حامية مجهزة تجهيزاً جيداً، وبدأ فى ضرب الإقليم الذى كانت

---

(1) Ab hac eadem urbe strictior sinus terræ ab ulroque latere mari urguente, longius in mare porrigitur, pascuis uberrimis abundans. من المتفق عليه أن موقع المدينة قد تغير قليلاً أو بالأحرى تم تعديل منعطفات الشاطئ لسبب من الأسباب المعروفة.

تنتشر فيه قلاع منيعة عاقدة العزم على الدفاع عن نفسها. وفى وقت قصير تمكن النورمان من إخضاع اثنى عشر قلعة مهمة قام الكونت بتوزيعها بوصفها إقطاعيات على قادته بالإضافة إلى الأراضى التابعة لكل منها، ثم سرح الجيش، واستولى على كاسترونوفو بعد فترة ليست بطويلة، وهى أراضى قوية وشاسعة كان قد استدعته إليها جماعة من العبيد تمردوا على الحاكم المسلم، بيكو، أو لعله أبو بكر، وتحصنوا بصخرة كانت تعلو القلعة. وأسرع الكونت إليها من فيكارى ومعه من استطاع جمعهم من الرجال فى عجالة، وتعاهد المتمردون معه ورفعوا إليهم جنوده بواسطة الحبال. وعندما وجد أبو بكر أنه لا جدوى من المقاومة أخلى القلعة وقدمها سكانها إلى روجيرو الذى قام بدوره بعتق هؤلاء العبيد على الفور وكافأ أحد الطحانين مكافأة كبيرة على تدبيره لهذه الثورة، وكان قد دبرها انتقاماً من سيده غليظ القلب لضربه إياه(1).

وسرعان ما زادت القوات الإقطاعية بتلك المكاسب كما زادت مكانة روجيرو المرموقة، حتى إنه فى العام التالى تم تقسيم الجيش إلى اربع فرق تحت قيادة جوردانو وأوتونى واريزجوتو دى بوتسوولى وإيليا كارتومى، وأغلب الظن أن أولهم كان يقود قطين أبيه بالإضافة إلى أتباعه. أما أوتونى واريزجوتو، وهما إيطاليان، كما يبدو من اسميهما. فكانا يقودان رجال كلابريا وصقلية، وكان إيليا يقود المسلمين رعايا النورمان، لأنه كان مسلماً ولعله قد ارتد عن الإسلام حيث أن مسلمى كاستروجوفانى قضوا عليه بالإعدام طبقاً لشريعتهم عندما سقط فى أيديهم بعد سنوات قليلة وعدّه كتّاب سير القديسين المسيحيين شهيداً وطوباوياً(2). وكان الأسطول يرافق الجيش، وقام

---

(1) مالاتيراً، الكتاب الثالث، الفصلان الحادى عشر؛ والثانى عشر؛ وأنونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٤٨.

(2) *Elias Cartomensis* (وهو بديل *Crotomensis*) فى كتاب مالاتيراً. الكتاب الثالث، الفصلين الثامن عشر والثلاثين. مُنح الاسم المسيحى عند التعميد، إذا كان

الكونت بقيادة الحرب بخطة محكمة، فلم يعد مضطراً للسلب وانتهاز الفرص بسبب قلة قواته. وفى فصل الربيع ضرب الحصار على تاورمينا التى تقع على جبل وعر يشرف على البحر، حتى يستولى عليها بتجويعها وليس بالقتال، وقام بإغلاق البحر بالأسطول، وأحاط قاعدة الجبل باثنين وعشرين برجاً يصل بينهم حزام من المتاريس والسياج(1). وكاد يفقد حياته هنالك. فذات يوم كان يتجول حول الجبل ومعه عدد قليل من الرجال المسلحين وبينما كان يتسلق الطرق الجبلية على مسافة قليلة من رجاله، وإذا بمجموعة سلافية، يبدو أنهم من عبيد المسلمين أو مرتزقتهم، تنقض عليه من غابة الرند حيث كانوا يختبئون. وفى سرعة كبيرة تفوق سرعتهم ألقى رجل من بريتانى يُدعى افيسندو نفسه بين الأعداء والكونت؛ وأوقفهم عند المعبر الضيق، وتبادل الضربات، حتى أسرع جنود الحرس لنجدته، ودفعوا المعتدين إلى أسفل فانحدروا من على المنحدرات. بينما قضى افيسندو نحبه بسبب ما عاناه من مشقة وما أصابه من جروح. وقد كرّمه الكونت بتشييعه فى جنازة مهيبة وبإقامة مؤسسات خيرية إحياءً لذكرى هذا الرجل المخلص الذى ضحى بنفسه من أجله. وبعد أن ضيق الحصار وأمّنه بهذا الشكل، أخذ روجيرو ومعه نخبة من جنود المشاة يجوب الجانب الشمالى لإتنا والوادى الذى يفصله

الاسم الذى نقرأه فى كتب المؤرخين ليس تحريفاً لاسم على أو إلياس، أو الهزيو. والاسم الآخر، وهو اسم عرقى أو اسم الأب، فلا يمكن تحديده بدقة من خلال الكتابة اللاتينية. ومعنى كارتامى ممكن أن يكون النازح من كارتاما فى أسبانيا انظر كتاب «مراصد الاطلاع» المجلد الثانى، ص ٣٩٩، ص ٤٠٠. وحسب كتاب «لب اللباب» ص ٢٠٥ يمكن أن نقرأ قرضمى أو قرطمى أو قرطُمى وهو بائع الزعفران أو ممكن فى النهاية أن نفترض حدوث تحريف أكبر للاسم وهو أن يكون قتامى اسماً عرقياً أى بربرى من قبيلة كتامة. التى كان لها دور كبير فى تأسيس الدولة الفاطمية وتركت جذوراً كثيرة لها فى صقلية، كما أشرنا فى الكتاب الثالث. الفصول الأول والخامس والسادس. ص ٣٧ وما بعدها وص ١٢٦ وص ١٦٣ ... إلخ من المجلد الثانى.

(1) مالاتيرّا *Sepibus et stropibus claudens*. ولفظ *Stropus* لا يحمل هذا المعنى فى قاموس دوكانج ولكن مشتقيها *Strupatura* و*Stropatura*.

عن جبال الابنين، وأخضع المسلمين المتفرقين فى تلك الأماكن حتى ترابنا. وما إن عاد إلى مكان الحصار حتى رأى أربع عشرة سفينة حربية إفريقية(1) تظهر أمامه ولم يكن فى مقدور اسطوله مقاومتها لقلة عدد الأفراد بسبب حراسة محيط الجبل. لذلك بعث برسالة إلى الأفارقة، الذين أجابوه بأنهم لم يأتوا بغرض معاد، ورحلوا فى الحقيقة بعد قليل، وهو ما يمكن ان يثير الاعتقاد بأن روبرتو تصادف وعقد معاهدة مع الأمراء الزيريين بوساطة أهل بيزا أو أمالفى وأن الهدنة تضمنت أيضاً روجيرو، أو أنه اغتنم الفرصة فى ذلك الحين ليدخل فيها هو أيضاً، كما فعل بالتأكيد بعد سنوات قليلة(2). وأثناء ذلك وليقظة روجيرو، أحكم إغلاق تاورمينا، حتى استسلمت فى شهر أغسطس بعد خمسة أشهر من الحصار(3) وذلك بعد أن نفدت المؤن.

---

(1) جولافروس، فى كتاب مالاتيرا. انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب ص ٧٢ ملحوظة رقم ٥.

يجب ان انوه إلى انه فى طبعة مالاتيرا يجب تصويب كلمة *Tunicii* بكلمة *Temimi* سواء فى هذا الموضع أم فى الكتاب الرابع. الفصل الثالث. فتونس لم تصبح عاصمة إفريقية إلا بعد سقوط الزيريين وبعد غزو الموحدين للبلاد فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. ومن الواضح ان أحد الناسخين او ربما الناشر الأول لكتاب مالاتيرا، اعتقد، وهو يجهل اسم تميم، الأمير الزيرى، أن القراءة الصحيحة هى تونس التى تشبه إلى حد كبير طريقة كتابة الكلمة الأخرى. وإذا كان لابد من دليل على هذا، فيمكن الرجوع إلى الكتاب الرابع، الفصل الثالث من كتاب مالاتيرا. طبعة كاروزو، حيث ورد البديل *Thumin* مرتين وهو قريب من القراءة الصحيحة. ومع هذا فإن علماء القرن السادس عشر والثامن عشر طرحوه جانباً على انه خطأ. لأن دولة تميم ذاع صيتها فى أوربا منذ القرن الثالث عشر وما بعده، تحت اسم مملكة تونس.

(2) يلاحظ ان روبرتو، عندما استدعاه أهل أمالفى، كان يحاصر سالرنو فى ذلك الوقت؛ وان أهل بيزا كان لهم احياناً علاقات واتصالات معه؛ كما يروى اماتو، فى الكتاب الخامس، الفصل الثامن والعشرين ص ١٦٤، وان روجيرو، عندما قام باستدعائه أهل بيزا وأهل جنوة عام ١٠٨٦ وقت عملية المهدية، رفض وأرفق برفضه المعاهدات التى كانت بينه وبين الزيريين.

(3) مالاتيرا، الكتاب الثالث، من الفصل الخامس عشر إلى الفصل الثامن عشر، أنونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.* ص ٨٥٢، الذى يطلق على محرر روجيرو اسم *Casaldus* وبدائله *Ansadus* و*Anraldus* و*Cansaldus* وفى الترجمة الفرنسية ص ٢١٠ *Ansalarde*.

فى عام ألف وتسعة وسبعين أقام فى هدوء مسلمو صقلية الجنوبية الأحرار بفضل إخوانهم المقهورين فى إقليم بالرمو الذين كانوا يجذبون إليهم قوات الكونت. ويظهر على بعد اثنين وعشرين ميلاً من بالرمو، وعلى بعد ميل واكثر قليلاً من شرق بلدية سان جوزيبى لى مورتيللى، جبل وعر، لا يمكن بلوغه إلا من خلال طريق وعر ومتعرج؛ وهو الآن مكان شبه مهجور. ولكن اسمه الطبوغرافى لم يتبدد وبقايا الصهاريج الكبيرة وبعض المبانى والأوانى الفخارية والنقود التى كثيراً ما يعثر عليها أثناء زراعة الأرض، كل هذا يثبت دون ادنى شك موقع مدينة جيتا أو جاتو القديمة التى لم يخربها القوطيون أو السراسنة، وإنما الرهبان، وكان جوليلمو الثانى قد وهبها لهم ومعها أربعين قرية أو أكثر من القرى المحيطة. وهى أرض خصبة جداً تبلغ مساحتها حوالى مائة ميل مربع، ويسكنها اليوم سبع عشرة أو ثمانى عشرة ألف نسمة(1)، وكانت من قبل تضم ما لايقل عن ستين الف نسمة، إذ نقرأ فى كتاب مالاتيرّا أن جاتو كانت تسكنها ثلاث عشرة ألف عائلة(2). ورفض أهل جاتو لكثرة عددهم ومناعة موقعهم

(1) وثائق الهبة والخريطة الطبوغرافية للضياع التى الحقها، دون ميكلى ديل جوديتشى (ليللا) بحاشية كتابه، وإن كانت تعوزها الدقة، *Descrizione del Real Tempio ec di Morreale*، بالرمو، ١٧٠٢ تسمح لنا بقياس، على خريطة جيدة، الأراضى الممتدة الممنوحة حول جاتو؛ ناهيك عن الأملاك الأخرى التى توسعت فى منحها محبة جوليلمو الثانى الحمقاء، فى أماكن أخرى. والأرض المذكورة، التى يقع الجزء الأكبر منها فى إقليم بالرمو، على شكل مثلث منحنى الأضلاع تقع زاويته الشمالية عند جارديني‍للو وزاويته الشرقية تلامس غابات فيكوتسا وجانب منه يأخذ شكلاً مقوساً فى اتجاه الجنوب ويكون زاوية فى اتجاه الغرب لا تبعد عن الكامو فى إقليم ترابانى. والأن توجد فى هذه المساحة ثلاث بلديات فقط وهى: بيانا دى جريتشى، ٧٢٧٠؛ وسان جوزيبى لى مورتيللى، ٦٤٤٢ وكامبوريالى، ٢١٥٧. واسباب هذا الأمر الخطير وهو نزوح سكان صقلية منذ القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر المشار إليه فى *Notice*، المصاحبة لـ *"Carte Comparée de la Sicile"*. باريس، ١٨٥٩، سوف نتناولها بالحديث فى الكتاب السادس.

(2) *Jacenses (l. Jatnses) natura montis quo habitabant, numerosa multitudine suorum fisi, erant enim usque ad tredecim millia familiarum*. ومن المحتمل أن يتضمن هذا العدد أيضاً سكان قرى كثيرة من تلك

دفع الجزية أو المحاربة فى صفوف الأعداء: ولم يتمكن روچيرو أن يثنيهم عما اعتزموا بالتوسلات أو بالتهديدات. وقاموا بجمع القطعان فى الجبل الرحب ودعموا الأماكن التى كانت تبدو سهلة المنال بسور وتحصينات وأمّنوا أنفسهم بحراسة يقظة: وأخذوا يستهزئون بغضب الكونت روچيرو. وبالمثل تحركت تشينيزى، وهى أرض من أصل عربى، كما يبدو من اسمها، تقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً غرب بالرمو: هاجمها روچيرو ومعه أتباعه من إقطاعيى كلابريا، تاركاً أتباعه الصقليين لحصار چاتو أو ليجتاحوا أرضها من الناحيتين الملاصقتين لكورليونى وبارتينيكو. وكان يشرف تارة على هذا وتارة على ذلك الجيش وأرهق نفسه دون جدوى، ورفض أن يحرق الحصاد بدافع من الإنسانية أو الكرامة أو الحرص. ولكنه فى النهاية استمرأ هذا الحل الجديد بقاطع طريق وليس بقائد. واضطرت كل من چاتو وتشينيزى إلى الرضوخ للاتفاقيات(1).

وقد أخرت عملية روبرتو الشرقية، تحركات روچيرو العسكرية، لا مكاسبه فى صقلية، إذ يبدو أنه قد مّد يد العون لأخيه بشتى الوسائل وقدم له خدمات هامة حتى استحق أن يحصل على إقليم ڤال ديمونى. وفى عام ١٠٨١ أحضر الكونت من كل مكان - كما يقول مالاتيرّا - صنّاعاً مهرة(2) بنوا له جدراناً باهظة التكاليف حول تحصينات مسينا بدءاً من الأساسات: بنوا له حصوناً أمامية وأبراجاً مذهلة الارتفاع انتهت فى وقت وجيز ويرجع ذلك إلى اهتمام روچيرو الذى وفّر ضباطاً للإشراف على العمل وغالباً ما كان يراقب بنفسه

التى أشرنا إليها منذ قليل فى النص. ولكنى ذكرت انه ينبغى ان نظن ان عدد سكان كل الأراضى كان يبلغ ٦٠٠٠٠ نسمة على الأقل.

(1) مالاتيرّا. الكتاب الثالث، الفصلان ٢٠، ٢١ حيث نقرأ: *Statutum servitium et censum persolvere renuntiant* لم يذكر مالاتيرّا من الذى قام بتحديد كمية الخدمة وقيمة الجزية. ويجب تصويب الاسم *Jacenses* إلى *Jatenses*. وهناك اسم آخر يجب أن يقرأ دون شك *Corleone* تم طبعه *Cortitum* مع بديله *Cornilium*.

(2) *Undecumque terrarum artificiosis cœmentariis conductis*.

سير الأعمال. وإضافة إلى ذلك فنحن نعلم أنه كان يرى أن مسينا هى مفتاح صقلية وأن لها أهميتها العظيمة بين المدن التى يملكها، لذلك فقد مدّها بحامية عسكرية قوية ومخلصة، وجمّلها بكنيسة جديدة اسمها كنيسة نيكولو تم تشييدها على موقع جميل وجرى تجهيزها بسخاء كبير وصارت خاضعة للأسقفية التى أسسها الكونت لتوه فى ترايينا(1). وهذه الأعمال والكلمات التى يعرضها بها مؤرخ البلاط، تثبت أن روجيرو كان فى ذلك الوقت حاكماً على مسينا وليس نائباً لروبرتو. وهكذا يبدو فى العام التالى حاكماً على كل الإقليم؛ إذ نستخلص أن چوردانو، فى محاولة النهب التى قام بها عام ألف واثنين وثمانين، قد انتزع أرض فال ديمونى وميستريتّا، وكذلك قلعة سان ماركو التى كانت أول حصن جهزه روبرتو فى صقلية. فمن المؤكد إذن، وإن كان غير مثبت بمواثيق أو مؤكد بكتابات، التنازل عن فال ديمونى أو بيعها، ولا يثير الدهشة، وقوع هذا عندما كان روجيرو يحتفظ بمال كثير(2)، بينما كان روبرتو ينفق مالاً كثيراً فى تجهيز أسطول قوى وفى بناء الجيش. وربما كان الاتفاق الرئيس بينهما هو تسليح مسينا؛ إذ كان روبرتو مهتماً بتجنب مخاطر احتمال مجئ أسطول بيزنطى لاحتلال المضيق، بينما هو يغير على الإمبراطورية الشرقية.

وبعد أن عبر روبرتو إلى الجانب الآخر من البحر الأدرياتيكى، وكان روجيرو كثيراً ما ينزل ويقيم فى بوليا وكالابريا ليرعى شئونه هناك، حيث أن بناڤرت قد سيطر على كتانيا فى العام نفسه ١٠٨١، وصار مصدر إزعاج شديد بالنسبة للنورمان أثناء قيامهم بهذه التجهيزات للحرب فيما وراء البحار، وإليه كان يلجأ كل مسلمى صقلية المتمردين، كما يصف مالاتيرًا الذين كانوا يدافعون عن

---

(1) مالاتيرًا، الكتاب الثالث، الفصل الثانى والثلاثون.

(2) يتحدث مالاتيرًا فى الكتاب الثالث، الفصل السادس والثلاثين، عن كنوز روجيرو التى كان يحتفظ بها فى حراسة شديدة فى ترويينا فى عام ١٠٨٢.

وطنهم ودينهم ضد مرتزقة الشمال. ويستكمل المؤرخ حديثه قائلاً إن بنافرت قام بشراء شخص يُدعى بيشيمينو(1) بالهبات والوعود وكان يحكم كتانيا وهو من عمال روجيرو واسمه بالمصادفة، هو اسم ابن الثمنة نفسه. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن أحد أبنائه أو أقاربه كان لايزال يعمل فى خدمة النورمان. وذات ليلة فتح الخائن أبواب المدينة أمام بنافرت ورجاله: وسط غضب المسيحيين وخزيهم وابتهاج المسلمين وفرحهم، انتشر نبأ عودة كتانيا إلى يد العدو فى كل الجزيرة. وتحرك لاستردادها كل من جوردانو وروبرتو دى سوردفال وإيليا كارتومى، ومعهم مائة وستون من حاملى الرماح مما يعنى أن عدد الفرسان كان يبلغ سبعمائة فارس. ويستمر مالاتيرًا فى حديثه قائلاً: وخرج بنافرت لقتالهم ومعه عشرين ألفاً من جنود المشاة ومجموعة من الفرسان: ووضع المجموعة الأولى على اليمين وظل هو مع المجموعة الثانية على اليسار وراء الخط بقليل، وبالأمنيات السعيدة أشعل المعركة لأنه عندما هاجم الفرسان المسيحيون جنود المشاه، لم ينجحوا فى القضاء عليهم فى الهجمة الأولى أو الثانية أو الثالثة. وعندئذ وبجسارة شديدة قام النورمان بتضييق الخناق على فرسان بنافرت، تاركين بجانبهم وخلفهم كل مشاه الأعداء. وحَمِى وطيس المعركة الدامية بين الفرسان، وربما كان عددهم متساوياً أو يقل عنهم، حتى فرّ المسلمون بعد أن طعنتهم المعركة إلى المدينة التى دخلها بنافرت بالكاد وكان جوردانو يلاحقه حتى أبوابها، وتشتت جنود المشاة وتفرقوا بعد هزيمة الفرسان. وأخذوا يفرون أو يجرون بلا نظام أمام المنتصرين الذين قطموهم إرباً إرباً. وحاصر النورمان المدينة ولكن لقلة عدد الحامية بها ولزيادة عدد السكان

(1) فى النص يوجد البديل *Betchunne*. انظر القراءات الغربية لاسم ابن الثمنة فى الكتاب الرابع من كتاب التاريخ هذا. الفصل الخامس عشر ص ٥٦٢ من المجلد الثانى. وتشابه حرف "c" مع حرف "t" فى المخطوطات اللاتينية بالقرن الثانى عشر والثالث عشر تجعلنى اقراه *Bentimino* بنتيمينو. او *Ibn-thimna* ابن الثمنة.

المسيحيين(1)، خرج بنافرت منها ليلاً إلى سيراكوزا حيث اقتاد الخائن بنشيمينو وأزهق روحه بدلاً من أن يمنحه المكافآت الموعودة(2).

ورضى النورمان بالنصر الذى أحرزوه واتخذوا موقف الدفاع عن المدينة حتى عام ١٠٨٥. واعتقد أنه قد صدرت الأوامر للحامية المقيمة التى استعادت بجسارة كبيرة كتانيا بالصمود لبنافرت وردعه. وأقام روجيرو فى البر الإيطالى لأن مصالح روبرتو ومصالحه كانت تستدعى ذلك. ولم يأت إلى صقلية إلا لقمع ثورة قام بها ابنه چوردانو، نائبه فى الجزيرة، عام ألف واثنين وثمانين. ويبدو أن چوردانو كان يريد الاستيلاء على أراضى ڤال ديمونى لنفسه، وبدأ باحتلال قلعتى ميستريتا وسان ماركو وحاول وضع يده على ثروة روجيرو، التى كان يحتفظ بها فى ترانيا تحت حراسة رجال مخلصين لا يضعفون أمام الوعود أو التهديدات. وباء الانقلاب بالفشل وانسحب چوردانو فى خزى وهوان من الطريق الشائن الذى سلكته قدماه. ولأن روجيرو كان يخشى أن يلقى ابنه بنفسه، من يأسه، فى صفوف المسلمين، تظاهر فى بادئ الأمر بأنه يعد هذا التصرف مزاح شباب، واحتضن ذلك المقدام، ولكن عندما صار بين قواته هو ومن كان معه من زملائه وأعوانه حتى بدأ فى حسابهم وتضييق الخناق عليهم وفقأ عيون اثنى عشرة منهم بدى له أنهم محرضو ابنه، ثم أطلق سراح چوردانو وقد أصابه الخزى والعار بتعذيب شركائه والخوف والهلع من فقدان نور عينيه بأمر أبيه نفسه(3). ووضعت الحرب أوزارها، فمن جانب النورمان كان روبرتو يمسك بعصب قواته فى حربه فى ذلك الوقت فى اليونان، ومن جانب المسلمين

---

(1) تم إعادة أسقفية كتانيا عام ١٠٩١.

(2) مالاتيرًا، الكتاب الثالث، الفصل الثلاثون؛ أنونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bbl. Sic.*، ص ٨٥٣، ص ٨٥٤ والترجمة الفرنسية ص ٢١٠ وص ٣١١، حيث ذكر روبرتو دى سوردڤال بلقب دى كوينتڤال.

(3) مالاتيرًا، الكتاب الثالث، الفصل السادس والثلاثون.

فلم يبق للخاضعين منهم أية حمية، والأحرار يبدو أنهم بددوها كمادتهم فى منافساتهم الصغيرة. فلو أن بنافرت قد رأى أصحاب عقيدته نفسها فى بالرمو ومازارا وترابانى مستعدين لحمل السلاح، وكذلك الذين فى كاستروجوفانى أو فى جرجنتى مستعدين أن يتبعوه إلى الأراضى التى احتلها العدو، ما كان للبطل المقدام أن يلقى بكل مصيره فى لعبة عملية فاشلة فى كلابريا.

قام بهذه المحاولة عام ألف وخمسة وثمانين، عندما أثار موت روبرتو جويسكاردو اضطرابات شديدة فى جنوب إيطاليا، وعندما تفجّر النزاع بين ابنيه بويموندو وروجيرو على خلافة الدوقية، وعندما كان الكونت روجيرو يعمل فى البر الإيطالى على ارتقاء روجيرو وهو الثانى من ابنى أخيه للدوقية، الذى منحه مقابل ذلك نصف أراضى كلابريا، الذى احتفظ به روبرتو. وهاجم بنافرت كلابريا، كرجل لا يتوق لشئ إلا للانتقام أو الموت. ففى شهر أغسطس أو سبتمبر(1) رسا بسفنه ليلاً(2) فى نيكوترا. وانتصر فى البداية، كما يبدو فى معركة بحرية ثم فى معركة بالفرسان مع النورمان(3)، وقام بتدمير كل ما استطاع تدميره فى المدينة، ونهب منها كل ما طالت يداه، واقتاد معه رجالاً ونساءً أشراراً. وفى العودة نزل بريجو وقام بنهب كنيستى سان نيكولو وسان چورچو، ومزق ما بهما من صور، ودنّس الأوانى المقدسة والأثاثات. وفى النهاية اقتحم

---

(1) لاحظ ان الكونت روجيرو بدأ فى اول اكتوبر إعداد الأسطول الذى كان عليه أن ينتقم لهذه الإهانة الشنعاء، ولنتصور انه كان يريد أن يطرق الحديد وهو ساخن.

(2) ذكر هذا أنونيمو فقط.

(3) انظر الفقرة التى أوردتها من قصيدة لابن حمديس فى الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ من المجلد الثانى. يفتخر فيها الشاعر، وهو معاصر ومن سيراكوزا، «بأن أعداء العقيدة قد تم ضربهم فى منازلهم، وبالسفن المليئة بالأسود وبرماة النفط الذين أتوا لسلب ونهب مدن البربر، ويذكر المحاربين ذوى الدروع اللامعة المصنوعة من الحديد العائدين ممزقة دروعهم بسيوف المسلمين... إلخ». هذه التفاصيل تتفق بدقة مع العملية التى نتناولها، ولا نجد أى عملية أخرى فى حوليات ذلك الوقت تتناسب مع هذا الوصف.

ديراً للراهبات هو دير مادري دى ديو فى روكّا دازينو وسلب ما فيه واقتاد الراهبات إلى مساكن الحريم فى سيراكوزا(1).

وقد ارتعدت جيوش المسيحيين فرقاً واشتد غضبها عندما علمت بنبأ تدنيس الأماكن المقدسة، وكان أكثرهم غيظاً روچيرو الذى كان يأمل فى الحصول على منفعة من وراء الانتقام، وانتهاز الفرصة لتوجيه الأسلحة التى كانت على أهبة الاستعداد للحرب الأهلية فى بوليا، إلى القيام بعملية قومية ودينية. وكتب الراهب مالاتيرّا يقول «وجاءت له السماء بغضب أشد من غضبه فنهض للانتقام لإهانة الرب: وبدأ الاستعدادات فى أول أكتوبر، وفى العشرين من مايو أمد الأسطول بالتجهيزات. وأخذ يطوف بالكنائس، حافى القدمين، يتلو الابتهالات متنهداً متأوهاً وكان يوزع على الفقراء والمساكين الصدقات، ثم خاض مخاطر البحر وتوجه بسفنه نحو سيراكوزا». واستمرت عملية استعراض الأسطول وطقوس الاسترحام التى تشعل حماس الجماهير، كما هو واضح، فى مسينا. وأبحر روچيرو بالأسطول بعد أن أرسل چوردانو لينتظره ومعه الفرسان عند رأس سانتا كروتشى(2)، وهو المكان الذى شيدت فيه فيما بعد اجوستا؛ وكان إبحاره طيباً لم يستخدم فيه المجاديف أو الأشرعة (ويلاحظ مالاتيرّا أنه فعل ذلك ليثبت المعجزة وقد نسى تيارات البحر). وتوقف فى الليلة الأولى فى تاورمينـــا(3)، والثـــانية فى لونينـــا(4) بالقرب من كتـــانيا، والليلة الثالثـــة عند رأس ســـانتا كروتشى. وبعد أن وجد چـوردانو هـناك ومعه الفرسـان، وبعد أن تفقد كل شئ،

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الرابع. لفصل الثانى.

(2) نجدها *Resesalisc* فى كتاب مالاتيرّا، وهو خطأ اكيد فى المخطوطات. حيث كان لابد ان نجد كتابة الاسم العربى **رأس الصليب** كما نقرؤه فى كتاب الإدريسى.

(3) *Turonem*. يشير الإدريسى فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص ص ٣٤ إلى جبل الطور او الطوّر فى تاورمينا وترجع شهرته للعبادات التى تقام عليه وللمعجزات التى تحدث فيه.

(4) ميناء لونينا ومذكور فى كتاب الإدريسى الاسم نفسه.

أرسل الكونت وجيهاً يُدعى فيليبو دى جريجوريو(1) ليتفقد أحوال العدو. واستقل فيليبو قارباً عليه رجال صقليون، كانوا - كما يبدو - يفهمون العربية ويتحدثونها بطلاقة مثله، واقترب من ميناء سيراكوزا ليلاً وقام بإحصاء عدد سفن بناڤرت وعرف أنها على أهبة الاستعداد لمواجهة المسيحيين دون هوادة، ثم عاد إلى روجيرو. وكان ذلك يوم الأحد. وأمر الكونت بأن يقام القداس على ذلك الشاطئ الخالى وأن يعترف رجاله ويتناولوا الأسرار المقدسة: وفى الليل أبحر إلى سيراكوزا وأرسل الفرسان إلى هناك. وفى الخامس والعشرين من مايو عام ألف وستة وثمانين تقاتل الأسطولان فى الميناء الأكبر، كما حدث من قبل، منذ خمسة عشر قرناً، بين أسطولى سيراكوزا وأثينا. وعندما رأى بناڤرت معاناة رجاله الشديدة بسبب رماة النبال ورماة السهام(2) الذين كانوا يصيبونهم بجراح وهم بعيدون عن مرمى رماحهم، أمرهم بالهجوم على السفن المعادية: وجدف مباشرة ليصطدم بسفينة روجيرو: ويقول مالاتيرّا إن الشيطان كان يدفعه للقضاء على حياته. ولكنه لما وجد مقاومة شديدة وقد أصيب بجرح خطير من جراء طعنة رمح بيد شخص يُدعى لوبينو(3)، وأن الكونت يطارده شاهراً سيفه، حاول اللجوء إلى سفينة أخرى. فوثب وثبة قصيرة، وغرق على عمق كبير بسبب دروعه الثقيلة. وتم الاستيلاء على الجزء الأعظم من سفن المسلمين وضُرِب الحصار على المدينة، ولأن چوردانو نفذ تنفيذاً دقيقاً هذه المرة حظْر أبيه له، فلم يحاول احتلالها بعملية عسكرية مفاجئة عند أول اضطراب وقع بها بسبب موت بناڤرت. ويذكر أنونيمو أن روجيرو، بعد أن أخرج جثمان الأمير من المياه، قام بإرساله إلى تميم فى إفريقية. واستبسل مسلمو سيراكوزا فى الدفاع عن المدينة فى الفترة من نهاية شهر مايو حتى

---

(1) مالاتيرّا. وهو بديل لچورج.

(2) تفوق رماة السهام المسيحيين أشار إليه أنونيمو فقط.

(3) هذا ما ذكره مالاتيرّا. وأنونيمو فى كتابه يذكر للكونت شرف إصابة الأمير بجراح.

شهر اكتوبر آملين ـ دون جدوى ـ فى أن يهدأ غضب الكونت بإطلاق سراح سجناء المسيحيين عن آخرهم. ولما أعياهم التعب وقلّ عددهم بسبب قذائف الآلات الحربية دفعهم الجوع إلى الاستسلام. وفى ذات ليلة تسللت زوجة بناڤرت وابنه ومعهما أعيان المسلمين وهربت إلى نوتو على متن سفينتين قد مرتا فى سرعة بين مراكب أسطول العدو. ثم استسلمت المدينة طبقاً للعهود(1).

إن الاعتزاز عن حق بعملية بحرية قام بها رجالنا، وعلاقته بالموضوع يقودنى الآن إلى الحديث عن اقتحام المهدية، والتوقف عن سرد أحداث الحرب الصقلية. يكتب مؤرخ روجيرو قائلاً إنه بينما كان هؤلاء يحاصرون سيراكوزا، قام جنود بيزا انتقاماً لإهانة كانت قد لحقت بهم، بالهجوم على عاصمة تميم واحتلالها؛ فيما عدا القلعة، ولعدم ثقتهم فى استطاعتهم الاستيلاء عليها، أو الاحتفاظ بالمدينة قاموا بتقديم غنيمتهم الرائعة إلى الكونت روجيرو الذى رفض قبولها حفاظاً على الوفاء بعهده لتميم الذى يربطه به اتفاق(2). وهو صدق واجب، كما يرى الجميع، لمن كان يتعب ويشقى تحت أسوار سيراكوزا.

---

(1) قارن بين كتاب مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصلين الأول والثانى: وانونيمو فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٥٤ وص ٨٥٥: ولوبو بروتسبتاريو، عام ١٠٨٨: ورموالدو سالرنيتانو عام ١٠٨٨، الذى يقول إن المعاصرين وصل بهم الشعور بالجوع إلى أكل الأطفال. وعلى الرغم من أن هذين المؤرخين يقولان إن استسلام سيراكوزا كان عام ١٠٨٨ بينما زعم مالاتيرّا أنه كان عام ١٠٨٥، فليس هناك شك فى أنه كان فى اكتوبر ١٠٨٦، حيث إن مالاتيرّا قد ذكر أن تجهيزات الأسطول المسيحى بدأت فى اكتوبر ١٠٨٥ وأن الحصار كان فى مايو التالى وانتهى فى شهر أكتوبر. وهناك ملحوظة فى مخطوطة معاصرة ذكرها باجى *Annali di Baronio* عام ١٠٨٧، رقم ٢ ترجع إلى هذا التاريخ احتلال روجيرو لسيراكوزا والأضرار التى ألحقها جنود بيزا بإفريقية (المهدية) وهذا صحيح إذا ما حسبنا العام من سبتمبر إلى أغسطس.

(2) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الثالث.

إن الخطأ الأول، سواء كان مقصوداً أم غير مقصود، لهذا المؤلف أو لمن أملى عليه ما كتبه، هو خطأ فى الترتيب الزمنى. فعندما جعل حصار سيراكوزا فى عام ١٠٨٦ فلا يمكن أن يقدم له أهل بيزا فى ذلك الوقت مدينة المهدية التى استولوا عليها عام ١٠٨٧. فالأمر إذن يتعلق بالاتفاق وبالتجهيزات للحملة العسكرية.

وعليه ان يُخضع مدناً واقاليم أخرى كثيرة فى الجزيرة. ولكن مذكراتنا ومذكرات المسلمين الأصلية تكشف افتراء المؤرخ وتثبت انه، إذا كان أهل بيزا قد طالبوا الكونت بشئ، فقد طالبوه فقط بالدخول فى التحالف معهم أثناء إعدادهم لعتاد سفنهم.

سبق أن تحدثنا عن أحوال الزيريين، وتحصينات المهدية مرات عديدة(1). كان الميناء المنيع وكراً للقراصنة الذين كانوا يجتاحون البحر المتوسط من أسبانيا إلى اليونان، ويقتحمون أحياناً السواحل وينهبون فيها الرجال كنهبهم للأشياء، ولم يراعوا بالتأكيد الاتفاقيات التى وقعتها تارة هذه الدولة الإيطالية وتارة تلك مع الزيريين(2). وبعد أن فاض الكيل وتأثر رجال بيزا من تذمر مواطنيهم الأشرار من المسلمين اقترحوا التحالف مع جنوة، وطلبوا العون من كل البحارة الإيطاليين والبركات من البابا، الذى كان فى ذلك الوقت الراهب الداهية دزيدريو. نقصد فيتورى الثالث: الذى كان يعانى من عوز شديد فساعدهم بما فى وسعه: بالتشجيع والنصح. وبالعناصر والأساليب والمقاصد نفسها أُعيد التحالف، ولكن بشكل أوسع وأقوى، الذى قضى على مجاهد عام ألف وخمسة عشر. أى بعد سبعين عاماً. واستغرق أهل بيزا وجنوة وأمالفى(3) فترة طويلة(4) فى تجهيز السفن ووصل عدد السفن الإيطالية إلى ثلاثمائة أو اربعمائة سفينة، وبلغ عدد الرجال ومعهم بالتأكيد بحارة السفن ثلاثين ألف رجل(5)، وكانت

---

(1) انظر الكتب الأثية: الكتاب الثالث. الفصل السادس: والكتاب الرابع. الفصل التاسع: والكتاب الخامس. الفصل الثالث: المجلد الثانى ص ١٤٥ وص ٣٧٧: والمجلد الثالث ص ٨٧ وص ٨٨.

(2) انظر *Introduzione ai Diplomi Arabi* فى محفوظات فلورنسا § السادس عشر ص ٢٦.

(3) بالإضافة إلى أهل بيزا وأهل جنوة. يذكر جويدو *Pantaleo Amalfitanus, inter Græcos, Sipantus* ويقول العرب جنود من بيزا وجنوة وغيرهم من الروم، اى من الإيطاليين فى هذه الحالة.

(4) يقول ابن الأثير: لمدة أربع سنوات: ويقول جويدو ثلاثة أشهر. ولكننى أميل إلى الراى الأول أكثر من الثانى.

(5) هذا ما ذكره كل الكُتّاب العرب.

نقطة اللقاء فى بنتلاريا. وفيها حاول المسلمون عبثاً أن يقاوموا فبعثوا إخطارات لتميم فى رسائل عُلقت فى أعناق الحمام: ولكن الإنذار بالخطر أضر أكثر مما نفع المدينة غير المؤهلة والبلاط ضعيف العزيمة المنقسم على ذاته. وبينما كان المسلمون يتنازعون فيما بينهم اكتسى البحر بقلاع السفن الإيطالية وتقدمت الزوارق ذات المجاديف فى مجموعات، وأسرع رجالنا بالنزول إلى بلدة زويلة فى الجنوب وإلى شبه جزيرة المهدية نفسها فى الشمال: وبعد معارك حامية نجحوا فى احتلال البلدة وكذلك المدينة فيما عدا القصر أى القصر المنيع(1)، وأحرقوا أسطول المسلمين داخل الميناء، وأشعلوا النيران فى المنازل وأسروا الرجال وسلبوا ونهبوا، وحاصروا محاصرة شديدة القصر المنيع الذى لجأ إليه تميم. كان ذلك فى السادس من أغسطس عام ألف وسبعة وثمانين. ولما باءت بالفشل محاولة اقتحام القلعة لعدة أيام، جنح تميم للسلم على أن يدفع ثلاثين ألف ديناراً من الذهب، ويقول البعض ثمانين ألف والبعض الآخر مائة ألف(2)، وأن يطلق سراح السجناء المسيحيين، وأن يكف عن عمليات القرصنة ضد المسيحيين، وأن يوافق على منح إعفاءات جمركية لأهل بيزا وجنوة(3). ووافق المتحالفون على الشروط، بعد أن بلغوا قصدهم وحمّلوا السفن وملأوها بالذهب والفضة والأردية وبأدوات

(1) جويدو.

(2) أى ما يعادل حوالى ٤٣٥,٠٠٠ أو ١,١٦٠,٠٠٠ أو فى النهاية ١,٤٥٠,٠٠٠ ليرة إيطالية. والرقم الأول نجده فى كتاب ابن الأثير، والثانى فى كتاب النويرى، والثالث فى كتاب ابن خلدون وهو الأقرب إلى الحقيقة، حيث كانت قيمة الذهب منخفضة فى إفريقية فى القرن الحادى عشر. الأمر الذى تحدثت عنه فى الكتاب الرابع، الفصل الثامن ص ٣٦٢ من المجلد الثانى، وكذلك فى *Introduzione ai Diplomi Arabi* فى محفوظات فلورنسا § ١٢، ص ١٦ وما بعدها. ولم يحدد جويدو الرقم ويقول: «مبلغ لانهاية له من الذهب والفضة».

(3) الشرطان الأخيران نجدهما فى قصيدة جويدو الوحيدة ويبدو لى أنهما أقرب إلى الحقيقة. وليس هذا حال الشرط الأخير الذى أضافه، أى أن يعد أهل بيزا وجنوة سادته، وأن يعترف بالسيادة العليا للبابا وأن يدفع له جزية سنوية.

مصنوعة من البرونز وبالأسرى المسيحيين ليحرروهم أو لإعادة بيعهم، وبالعبيد المسلمين لبيعهم فى الأسواق، ورحل كل إلى ما كان يُسميه وطنه ليعرض الغنائم ويثرى كنيسته المفضلة؛ ثم يعيد تسليح السفينة ويشحذ سلاح بلطته وسيفه للهجوم على مدينة إيطالية أخرى. وأخذ شيطان الشعر العربى فى إفريقية وقد صار أكثر تقدماً فى وصف نكبات المهدية بالحديث عن عدد جنودنا الكبير، ذوى النزعة الحربية والشراسة، الذين هاجموا بغتة حفنة من المواطنين، اعتادوا على رغد العيش أكثر من حمل السلاح، ولكننا لم نجد لسوء الحظ، الجزء الأكبر من هذه المرثية الشعرية الطويلة. ولدينا العمل الكامل لشاعر إيطالى، كان يحاول مع بدايات القرن الثانى عشر أن يتغنى، فى لغة لم يكن يتحدثها، ببطولات أمة لم يكن قد راى نجمها بعد. فأملى باللاتينية قصة دقيقة وأمينة فى أهمية أحداثها ولكنه أضفى عليها استعارات روائية سخيفة، فقد جعل مواطنى بيزا وجنوة يعدون ألف سفينة فى ثلاثة أشهر ويقتلون فى المهدية مائة ألف عربى ويطلقون سراح مائة ألف مسيحى وما يشبه ذلك من الترهات(1). وكان النورمانى الحذر قد احتل مدينة

---

(1) مارنجونى، فى *Archivio storico italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٦: *Chronica Pisana* فى كتاب موراتورى *.Rerum Italic*. المجلد السادس ص ١٠٩ و١٦٨؛ كفارو فى مجلد موراتورى نفسه ص ٢٥٢، عام ١٠٨٨؛ *In escercitu Ahricæ; Chronic. Mon. S. Sophiæ Beneventi* فى كتاب موراتورى *.Antiq. Ital* المجلد الأول، ص ٢٥٩: *Chronica Fossenovæ* عام ١٠٨٧. فى كتاب موراتورى، *.Rer. Iral*، المجلد السابع؛ شعر جويدو اللاتينى، فى *"Bulletin de l'Académie de Bruelles"* المجلد العاشر، الجزء الأول ص ٥٢٤ وما بعدها. وأعاد نشرها م. دى مريل *"Poesies populaires latines de Moyen âge"*. باريس ١٨٤٧ ص ٢٣٩ وما بعدها: *,Chronica di Leone d'Ostia* التى أتمها بيترو دياكونو، الكتاب الثالث، الفصل ٧١ فى كتاب موراتورى *.Rer. Iral*، المجلد الرابع، الذى عزا فضل العملية كلها إلى البابا، وقال بأن مائة ألف من المسلمين قد لقوا حتفهم فيها: برنولدى *.,Cronic*، فى كتاب برتز *.Script*، المجلد الخامس، ص ٤٤٧. انظر مصدراً معاصراً آخر ذكره باجى، *Annali del Baronio*، عام ١٠٨٧، رقم ١١. (§ ٨ فى بارونيو).

چرچنتی بینما کان البحارة الإیطالیون یستعدون لعملیة المهدیة. وبعد أن انجز عملیة بناڤرت عام ألف وستة وثمانین أخذ بجمع القوات

البیان المغرب، النص العربی، طبعة دوزی، المجلد الأول، ص ۳۰۹ و ۳۱۰: ابن الأثیر، عام ٤٨١، طبعة تورنبرج المجلد العاشر ص ۱۰۹ و ۱۱۰: النویری فی **المكتبة العربیة - الصقلیة**، النص، ص ٤٥٤: التیجانی، فی **المكتبة العربیة - الصقلیة**، النص، ص ۳۹۰ و ۳۹۱، وفی ترجمة م. روسو الفرنسیة فی *Journal Asiatique*، فبرایر ۱۸٥۳ ص ۷۲، ونقرأ فیها خطأ واضحاً یرجع إلى المخطوطة وهو أن مقدار الفدیة كان ۱۰۰۰ دینار: ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دی سلان، المجلد الثانی ص ٢٤، وفی النهایة ابن أبی دینار (القیروانی)، النص، فی **المكتبة العربیة - الصقلیة**، ص ٥٣٠ والترجمة الفرنسیة ص ١٤٦، حیث قرا المترجمون أهل فتمیسا بدلاً من أهل بیزا. وحسب روایة ابن الأثیر والنویری تم الاتفاق على رد الأسرى المسلمین. ویذكر التیجانی العكس تماماً. أما الأبیات التی بقیت لدینا من المرثیة العربیة فقد تمت ترجمتها فی *Nuova Antologia*، فلورنسا، المجلد الثانی، الفصلة الخامسة، ص ٦٢، مایو ١٨٦٦.

والتاریخ الصحیح، الذی نقرؤه فی كتاب **البیان** والذی سار علیه التیجانی وابن خلدون، یعود إلى سنة ٤٨٠ هجریة (٨ أبریل ١٠٨٧ - ٢٦ مارس ١٠٨٨) ویؤكد ذلك كسوف الشمس الذی حدث فی أول أغسطس ١٠٨٧، لأن أبا الصلت، الذی استشهد به التیجانی، یقول إن عملیة المهدیة حدثت بعد الكسوف الكلی للشمس فی برج الأسد والتی تم وضع أساسات تلك المدینة فیها. ویرجع ابن الأثیر والنویری وابن أبی دینار تاریخ هذا الحدث إلى عام ٤٨١. وذكر مارنجونی إنه كان فی یوم القدیس سیمتو عام ١٠٨٨ (١٠٨٧ من العام المیلادی) وتذكر *Cronica di Santa Sofia* انه كان عام ١٠٨٩. وجدیر بالذكر أنه، إذا كان لنا أن نصدق كلام مالاتیرا، فإن الاستیلاء على المهدیة یكون فی عام ١٠٨٦.

ومن الملاحظ على الشعر اللاتینی المذكور صحة الأسماء الجغرافیة فیه وكذلك أحداث كثیرة استخلصت من مصادر إسلامیة. فعلى سبیل المثال نجد *Madia* (المهدیة) وهو میناء رحب رائع و*Sibilia* (زویلة) مدینة مجاورة لها: و*Paantalorea* (بنتلاریا) و*Timinus* (تمیم) و*gli Arrabites* (العرب) أعداء تمیم، و*macris equis insidentes, corporibus ductiles* إلخ. وعامة یمكن القول إنه بحذف صفرین من الأعداد الرقمیة فإن الروایة تكون صحیحة.

قارن بین موراتوری، *Annali*، ١٠٨٨ الذی یسیر فی شك كبیر لعدم توفر المذكرات العربیة أو قصیدة جویدو بین یدیه؛ ویفترض أن هناك مبالغة كبیرة فی أهمیة الحدث؛ ویتشكك فی اقتحام المدینتین المتزامن *Siviglia* و*Almadia* (المهدیة - زویلة) وقد بدى له أن المدینة الثانیة هی المدینة الأسبانیة المعروفة، ویختتم حدیثه بشكل خاطئ قائلاً: «إن عملیة أهل بیزا كانت ضد تونس، وقراءة مالاتیرا هی التی أدت به إلى هذا الخطأ: *urbem regiam regis Tunicii* حیث یجب أن تكون القراءة دون شك *regis Temimi* هی، كما ذكرت فی هذا الفصل ص ١٦١ ملحوظة رقم ١.

الإقطاعية فى الأول من أبريل عام ٨٧، وكان أفرادها متحمسين وسعداء أملاً فى الكسب، وهكذا قادهم إلى حصار چرچنتى. وكانت مدينة چرچنتى خاضعة ومعها كاستروچوڤانى وكل البلاد الوسطى، لسليل من سلالة على المشرفة، من آل الإدريسيين الذين حكموا وقتاً ما إفريقية الغربية، ومن بنى حمود، الذين كانت لهم خلافة قرطبة لفترة قصيرة (١٠١٥ ـ ١٠٢٧) ثم إمارتى مالاجة والجزيراس (١٠٣٥ ـ ١٠٥٧). ولكنهم بعد أن طُردوا من أسبانيا ذهبوا هنا وهناك بحثاً عن مصير مؤات. ويبدو أن رجلاً من تلك العائلة، قد انتقل إلى صقلية، ولا نعرف بالضبط فى أية سنة، ودانت له الدولة فى تلك الأقاليم فيما بين الحروب الأهلية التى عانت منها مع أبناء تميم: وارتفع شأنه ليس لمناقبه وإنما بسبب اسمه اللامع وبسبب الأحداث الفوضوية المجنونة. اسمه هو *Chamut* كما نقراء فى كتاب مالاتيرّا وهو يتوافق جيداً مع صوت الاسم الذى نكتبه بطريقتنا *Hamūd* (حمود)(1). وقد قبع بين صخور كاستروچوڤانى المنيعة بينما كانت

---

(1) حرف الحاء وهو الحرف السادس فى الأبجدية العربية غالباً ما تم نقله حتى قرن مضى أو قرنين بالحرفين اللاتينيين *ch*؛ وحرف الدال وهو الحرف الثامن غالباً ما تم نقله بحرف *t* أكثر من حرف *d*. وقد كتبه أنونيمو *Hamus*. وإذ نعلم من التاريخ أن *Chanut* بعد أن تنصر هو وكل عائلته، ظل تحت حكم الفاتح، نستطيع أن نطابق بين لقبه ولقب روچيرو هاموتوس. وكان صاحب بعض الأملاك التى وهبها فيدريچو الثانى عام ١٢١٦ لكنيسة بالرمو (وثيقة موجودة فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٤٢). وبين لقب ابن حمود، وهو سيد فاحش الثراء رآه ابن جبير فى صقلية عام ١١٨٥. وربما كان هذا الرجل النبيل ابن أو ابن أخ حاكم كاستروچوڤانى. وبعد أن علمنا كذلك أنه كان يكنى بأبى القاسم، فيبدو أنه *Bulcassimus*. وكان رجلاً مشهوراً بمشاجرته فى بلاط بالرمو فى بداية حكم جوليلمو الصالح، وأبو القاسم الذى أهداه ابن قلاقس كتابه **الزهر الباسم**، وابن أبى القاسم الذى قدم له ابن ظفر، عندما جاء إلى بالرمو قبل حوالى عشر سنوات، **أساليب الغاية**، **والمثنى**، **والدرر المغرر** والنسخة الثانية من **سلوان المطاع**، كما ذكرت فى مقدمة **سلوان** (فلونسا، ١٨٥١) من الصفحة الرابعة والعشرين إلى الصفحة الثانية والعشرين ويجب التنبيه إلى أن اسم قاسم والكنية أبو القاسم كانا يتكرران كثيراً بين بنى حمود. ويمكن التعرف على أنساب هؤلاء فى مخطوطة باريس، الممنونة «أنساب العرب»، الملحقات العربية، ٤٦٧، الورقة ٩٠، الوجه الثانى. وفى مخطوطة مكتبة باريس كذلك الممنونة **عمدة الطالب**، *Ancien Fonds*.

زوجته وأولاده فى چرچنتى، وكان النورمان يطوٌفون المدينة، ويضربون أسوارها بآلاتهم حتى احتلوها فى يوم الخامس والعشرين من يوليو من العام نفسه. وقام روچيرو بإقامة قلعة منيعة فيها وزودها بأبراج وحصون وخندق؛ وترك بها حامية قوية تحميها، وعندما وجه ضرباته للإقليم، نجح فى وقت قصير فى إخضاع إحدى عشرة قلعة وهى: بلاتانى وموكسارو وجواستنيللا وسوتيرا ورحل وبيفارا وميكولوفا ونارو وكلتانيسيتا وليكاتا ورڤانوزا؛ وهكذا احتل البلاد كلها من مصب نهر بلاتانى حتى مصب نهر سالسو وكلتانيسيتا والتى كوّن منها بعد قليل، وببعض الإضافات إبراشية چرچنتى، التى تتفق الآن مع كل الإقليم الذى يطلق عليه هذا الاسم بالإضافة إلى جزء من كلتانيسيتا المتاخمة له. وعندما سقطت زوجة حمود ووقع أبناؤه تحت نفوذ روچيرو، جعلهم فى حراسة آمنة لائقة، اعتقاداً منه، كما يذكر مالاتيرّا، بأنه سيكون من السهل عليه أن يستدرج ذلك الأمير إلى عقد الاتفاقيات، بالحفاظ على أسرته دون أن يصيبها اى أذى(1).

---

٦٣٦ الورقة ٩٣، الوجه الثانى وما بعدها. وفى هذين المخطوطين لم يرد ذكر بنى حمود الصقليين. أما عن الأسرة الأسبانية التى يطلق عليها هذا الاسم فتتحدث كل كتب تاريخ أسبانيا وإفريقية فى القرن الحادى عشر: وعلى سبيل المثال المراكشى، النص، ص ٣٠ وما بعدها، وص ٤٣ وما بعدها؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ٣٠٨؛ وابن خلدون *Storia dei Berberi*، الترجمة الفرنسية، المجلد الثانى، ص ١٥٢ وما بعدها؛ دوزى *Histoire des Musulmans d'Espagne*، المجلد الثالث، ص ٣١٦ وما بعدها، وفى مواضع متفرقة، من المجلد الرابع، ص ١٣ وما بعدها. وكتاب نيكازيو دى بورچو، كونت البلاط الثالث والعشرين، وعنوانه *La Discendenza di Achmet, ec.* ترابانى ١٧٨٦، ليس جدير بالثقة، ففيه يؤكد على أن عائلة بورچو من سلالة حمود هذا.

(1) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الخامس؛ وانونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bbl. Sic.* ص ٨٥٥؛ الراهب كورادو، المرجع المذكور، ص ٤٨.

أسند مالاتيرّا هذا الحدث لعام ١٠٨٦؛ ولكنه أخطأ بكل تأكيد فى عام، كما هو واضح من التصويب الذى قمنا به على شهادته على اقتحام سيراكوزا والمهدية، فى الصفحات السابقة ص ١٧٠، ١٧٤ فى الهامش. بينما أورد كل من ابن الأثير وأبو الفدا والنويرى وابن أبى دينار فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، الصفحات ٢٧٨، ٤١٤، ٤٤٨، ٥٣٤ تاريخ ٤٨١ (١٠٨٨ ـ ١٠٨٩).

وأسماء القلاع التى تم الاستيلاء عليها فى إقليم چرچنتى، مأخوذة من كتاب مالاتيرّا،

ووجد ابن حمود نفسه فى الحقيقة محاطاً من كل جانب فى كاستروجوڤانى؛ فقد احتل المسيحيون الجزيرة كلها فيما عدا، نوتو وبوتيرا؛ وأن سقوطه كان يمكن تأجيله وليس تجنبه؛ ولم يكن يتوق إلى الاستشهاد او إلى أخطار الحرب او حتى إلى ضنك الفقر المجيد. وذات يوم اقترب روجيرو من القلعة ومعه مائة مقاتل، ودعاه للتحدث معه. فنزل إليه عن طيب خاطر وأخذ يستمع دون خوف إلى كلماته المغلفة التى كانت تؤدى إلى اقتراحين: تسليم كاستروجوڤانى واعتناقه للمسيحية. ولم يتردد إلا فى كيفية إنجاز هذه الخيانة والارتداد عن دينه دون المخاطرة بحياته. وفى النهاية وجد حلاً لهذه المسألة فودع الكونت الذى عاد مبتهجاً إلى جرجنتى. ولم يمر وقت طويل حتى قام النورماندى ومعه فرقة قوية بالتوجه فى هدوء نحو كاستروجوڤانى: واختبأ فى مكان متفق عليه مع المسلم، وبعد أن أمر حمود فرسانه بامتطاء جيادهم وسحب وراءه على البغال ما استطاع من غيرهم من الرجال، وكأنه يحاول القيام بعملية حاسمة، خرج من كاستروجوڤانى واقتادهم مباشرة إلى مكان الكمين. وتم أسرهم

بعد أن تم تصحيح بعض أخطاء النص الواضحة. ويظل موضع شك اسم *Racel* الذى نقلته بالتأكيد *Rahl* (محطة) ولكن ينقصه الاسم الذى لابد أن يأتى بعده لتحديد تلك التسمية العامة. والذى لا استطيع التكهن به من بين أسماء الـ*Rahl* الموجود بكثرة فى ذلك الإقليم. وفى اعتقادى أننى أحسنت قراءة *Remise* (وهو بديل لـ*Remunisse*) فى النص برڤانوزا، ثم أن ميكولوفا كانت تقع بالقرب من رڤانوزا. وزيادة على ذلك فإن سيمونى دا لينتينى، وهو مؤلف من القرن الرابع عشر، نسخ كتاب مالاتيرا، يذكر فى كتابه *La Conquista di Sicilia* الذى خرج إلى النور حديثاً (مجموعة أعمال لم تنشر أو نادرة ـ بولونيا ١٨٦٥) ثمانية أسماء فقط من بين أحد عشر اسماً. ويقول إنه لم يجد الأسماء الباقية فى النصوص؛ وهناك مخطوطة من الكتاب نفسه، فى *La Bibliothèque de l'Arsenal* فى باريس *(Ital. N. 68)* جاء بها سبعة أسماء فقط: بلاتانى، موزان، جواستانللا، كلتانيسيتا، بوزولبى، موكوفى، سياكسو. ويضيف قائلاً: *"nun so chi si fussiru e nun si canuirianu, ec."* وحول الأسماء التى لا نجدها فى القائمة الحالية لبلديات صقلية، انظر دى اميكو *Dizionario Topografico* والفهرست الذى ألحقته فى نهاية *Carte Comparée de la Sicile, Notice*.

جميعاً أما هو فقد استقبل بالترحاب. وعندئذ تحرك المسيحيون نحو المدينة، التى استسلمت بالعهود وذلك لافتقادها لأقوى المدافعين، وأقام روجيرو على طريقته قلعة وحامية عسكرية فيها. ثم عُمد ابن حمود والتمس من رجال اللاهوت التابعين للكونت أن يحتفظ بزوجته التى كانت ذات قرابة منه، فى الحدود التى سمح بها القرآن، والمحرمة فى العقيدة الكاثوليكية. ولعدم شعوره بالأمان من جانب مسلمى صقلية ولأنه كان لا يريد أن يرتاب فيه روجيرو فى حالة حدوث مؤامرات أو وقوع اضطرابات، طلب ابن حمود، ذلك الحذر الخسيس، أن يقيم فى البر الإيطالى: ومنحه روجيرو بعض الضياع بالقرب من ميليتو وعاش فيها عيشة صالحة لفترة طويلة من الزمان، كما يقول المؤرخ النورماندى(1).

وكانت آخر المدن التى قاومت بقوة السلاح هى مدينة بوتيرا، وآخر مدينة استسلمت هى مدينة نوتو. وكان موقع المدينة الأولى قوياً حصيناً، وأرضها شديدة الخصوبة وازدهرت تحت حكم المسلمين، وكانت متحضرة بقدر ثرائها. وهى موطن شاعر رقيق كان فخر بلاط الملك روجيرو فى بالرمو فى النصف الأول من القرن التالى. تحرك الكونت روجيرو بجيشه لحصار بوتيرا على أعتاب شهر

---

(1) مالاتيراً، الكتاب الرابع، الفصل السادس، وانونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bbl. Sic.*، ص ٨٥٥. ويرى الراهب كورادو، المرجع المذكور، ص ٤٨ أن كاستروجوفانى وجرجنتى تم احتلالهما فى العام نفسه، ولكن لم يذكر مالاتيراً ذلك بوضوح: ولم يذكر كذلك العام الذى وقع فيه الحدث، الذى طبقاً لسلسلة الأحداث التى رواها المؤرخ نفسه، من الممكن ان يعود إلى عام ١٠٨٧، أو إلى الشهور الأولى من عام ١٠٨٨. وقد أرجع الكتاب العرب استسلام كاستروجوفانى إلى عام ٤٨٤، أى بعد ثلاثة أعوام من استسلام جرجنتى (١٠٨٨ ـ ١٠٨٩) وقد ردوا خضوع المدينتين إلى أهوال الجوع: ابن الأثير، وأبو الفدا، والنويرى، وابن أبى دينار فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٧٨، ٤١٤، ٤٤٨، ٥٢٤. ويعتقد، أو كان يعتقد على الأقل فى وقت ما، أن فى شاكا توجد المعمودية التى تنصر فيها حفيد على المرتد. انظر مذكرة فينيتشنسو فينوتى وبها مجموعة من الوثائق التى تفوح منها رائحة الزيف، فى *Opuscoli di Autori siciliani* المجلد السابع، ص ١٦ (بالرمو ١٧٦٢).

أبريل عام ألف وثمانية وتسعين؛ وحاصرها وضغط عليها من كل جانب، وكان يقوم بتجهيز المعدات لضرب القلعة، عندما بلغه أن البابا أوربانو الثانى قد جاء إلى صقلية للتفاوض معه فى أمر خطير وأنه قد نزل فى بلاط ترابنا . فترك روجيرو العناية بشئون الحرب لقواده وذهب لمقابلة البابا والتحدث معه، وعند رحيل البابا قدم له هدايا ثمينة. وما أن عاد إلى معسكره أسفل بوتيرا حتى استولى عليها بالاتفاق؛ وألحق بالقلعة حامية عسكرية وأرسل أكثر المواطنين نفوذاً إلى كلابريا . وفى شهر فبراير عام ألف وواحد وتسعين. وبينما كان فى ميليتو، أتاه مبعوثون من نوتو يعرضون خضوعها . فقبل وأسقط الإتاوة عن المدينة لمدة عامين. وأوفد ابنه چوردانو مع مبعوثيها ليحتل القلعة. وعند ذاك لاذت زوجة بناڤرت بالفرار ومعها ابنه إلى إفريقية(1).

وبعد أن سيطر النورمان بهذه الطريقة على الجزيرة بأكملها، أبحر روجيرو فى العام نفسه ألف وواحد وتسعين لفتح مالطه، التى كان يريد أن يبدأ بها، كما يقول كاتب الترجمة، وإخضاع أقاليم أخرى جديدة فيما وراء البحر، ليشبع رغبته العارمة فى الحصول على مزيد من المكاسب. وحاجته التى كان يشعر بها إلى التنقل والمشقة وخوض الحروب. وأثناء تجهيزه للحملة ودعوة أتباعه من البارونات للمشاركة فيها، قيل له إن ماينييرى دى اتشيرنيزا، الذى استدعاه للحديث معه، أجاب رسوله قائلاً: إننى لن ألتقى به وجهاً لوجه إلا لكى أصيبه بأذى. واشتعل الكونت غضباً لهذه الإهانة فعبر على الفور إلى البر، وتبعه

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الثانى عشر والثالث عشر والخامس عشر: أنونيمو، فى كتاب كاروزو، *Bbl. Sic.*، ص ٨٥٥: الراهب كورادو، المرجع المذكور، ص ٤٨ . وفيما يتعلق بقدوم أوربانو الثانى إلى صقلية وحصار بوتيرا، احتذيت الترتيب التاريخى لباچى، *Annali di Baronio*، ١٠٨٩، § ٩ . واختلف كتاب حوليات المسلمين، الذين سبق ذكرهم عن المسيحيين: فلم يتحدثوا عن نوتو وبوتيرا وجعلوا كاستروچوڤانى آخر مدينة تم احتلالها . ولكنهم اتفقوا فى تحديد عام ٤٨٤ (٢٢ فبراير ١٠٩١ إلى ١١ فبراير ١٠٩٢) على أنه العام الذى أتم فيه النورمان فتحهم.

بيترو دى مورتان بعد ثمانية أيام ومعه جيش أعده فى صقلية، لعله كان يذخر بالمسلمين، وتحرك به روجيرو فى سرعة ضد اتشيرنيزا، وحاصرها حتى نزل ماينيرى طالباً العفو. ففرض عليه غرامة مقدارها الف قطعة من الذهب. وقبل أن يعود إلى صقلية انزل الخراب بأراضى كوزنسا التى كانت قد شقت عصا الطاعة على دوق بوليا. ثم أمر بحشد الرجال والسفن خلال خمسة عشر يوماً عند رأس سكالامبرى(1) التى تحمى من ناحية الغرب الميناء المسمى ميناء لونجوباردو، وكوكانا دى تولوميو ودى بروكوبيو وكان قد مر بها قبله بأربعة قرون بلزاريو فى طريقه لغزو مالطه. وفى شهر يوليو ذهب إليها الكونت قوياً وفى عنفوانه، لا تثقل كاهله الستون عاماً من عمره وكان قد تزوج لتوه من الزوجة الثالثة. وعندما رجاه ابنه چوردانو كى يترك له قيادة الجيش غضب لذلك غضباً شديداً وقال: بما ان النصيب الأول فى الغنائم هو نصيبه فلابد أن يكون الأول أيضاً فى خوض المخاطر الصعاب؛ وأمر ابنه أن يجوب صقلية فى غيابه ومعه فرقة كبيرة، وألا يتوقف فى مدينة ذات أسوار أو قلعة. الأمر الذى جعل الشاب الطموح يذرف الدمع غضباً. وأمر روجيرو بنفخ الأبواق وضرب الآلات الموسيقية إذ يبدو انه قد ألف منها فرقة من أعظم العازفين، ورفع المراسى وحل الأشرعة ورسا فى ميناء مالطه فى اليوم الثانى من إبحاره: وكانت سفينته أول السفن، وكان هو أول من غادر السفينة ومعه فقط ثلاثة عشر فارساً هم كل من كان معه: وانتظر وصول السفن الأخرى وهو يناوش المسلمين، ثم استسلم للنوم مع رجاله على الشاطئ. وفى اليوم التالى قام بنشر الفرسان فى الريف، وتحرك نحو المدينة بأغلب الجيش. ولكن القائد وسكان المدينة غير المعتادين على حمل السلاح، أسرعوا إلى الحضور للمحادثات، وبذلوا ما فى وسعهم ليمكروا عليه؛ وعندما لم يتمكنوا

---

(1) فى كتاب مالاتيرا، *Resacrambam*.

من التغلب عليه باستخدام المكر أكثر من القوة، وافقوا على إطلاق سراح كل الأسرى المسيحيين، وتسليم الأسلحة والجياد وكل أدوات الحرب، وأن يدفعوا فى الحال إتاوة كبيرة وجزية سنوية، على أن يحكم المدينة باسم الكونت روچيرو وأن يقسم له بالولاء والإخلاص. وأجهش المقاتلون المسيحيون بالبكاء عندما تقدم الأسرى نحوهم بعد أن فكت قيودهم وهم ينشدون كيرياليسون ويحملون فى أيديهم الصلبان بعضها من الخشب وبعضها من البوص كما استطاع كل منهم صنعها وارتموا تحت أقدام روچيرو، الذى قام بدوره بتوزيعهم بين السفن كلها عند إبحارها للعودة إلى صقلية؛ وكان يخشى أن تغرق بهم السفن بسبب الحمولة الزائدة، ولكن النتيجة كانت على عكس مخاوفه، كما يقول مالاتيرا، فإن الحمولة الجديدة خففت السفن كثيراً لدرجة أنها ارتفعت بمقدار ذراع فوق سطح المياه عن رحلة الذهاب. وأبحرت السفن، ولم تحدث معجزات أخرى، ونزلوا فى جوتسو؛ وقاموا بنهبها وأخضعوها لسيطرة روچيرو. ثم قام روچيرو بمجرد أن وطئ صقلية بجمع أسرى مالطه المسيحيين، وأطلق سراحهم ومنحهم أراضى وأدوات زراعية وأعفاهم من الضرائب والجور إعفاءً دائماً، ووعدهم أن يبنى لهم مدينة فى مكان جميل يطلق عليها فيلافرانكا إذا ما أرادوا البقاء فى صقلية. ولكن كلاً منهم آثر العودة إلى داره. وبفضل سخاء الكونت وكرمه عبروا الفارو بلا مقابل، وهكذا راحوا يتحدثون فى كل مكان عن قوة محررهم[1] وكرمه. وبهذا الصنيع توج روچيرو فتح صقلية الذى أتمه بنفسه فى مالطه كما بدأه بنفسه فى مسينا قبل ثلاثين سنة.

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل السادس عشر، والمدة التى استغرقتها حروب الفتح أكدها الإدريسى الذى يقول إنها ثلاثون عاماً بدءاً من سنة ٤٥٣ (٢٦ يناير ١٠٦١ إلى ١٤ يناير ١٠٦٢). النص فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٦.

الفصل السابع

حكم المنتصر، الذى كان أشبه بأمير قديم وطبيعى، الجزيرة فى هدوء فى السنوات العشر التى أعقبت ذلك، بينما كان المجتمع من أدناه إلى أعلاه يفور مضطرباً؛ فقد حدث تغير للسكان والممتلكات والأحوال المدنية، والأعراف والعادات والقضاة والقوانين والدين. وكانت الثورة الوحيدة للخاضعين هى ثورة بنتاليكا: التى كانت مدينة كبيرة فى ذلك الوقت، وكانت بالغة القوة لوقوعها على صخرة وعرة، ويغمرها نهر الأنتابو، وسكنها فى عهد بعيد للغاية شعب عامل نشيط، حفر فيها سلسلة من التجاويف وكأنها الخلايا فى الجدار الأملس للصخرة[1]. وقد ثار مسلمو بانتاليكا فى عام الف وثلاثة وتسعين من التقويم الميلادى، وقد انتشوا من الفرحة، بعد أن سمعوا بموت السيد الإقطاعى الرهيب، چوردانو ابن الكونت. وكان هذا الأخير قد هرع إلى سيراكوزا عند الإعلان عن مرض چوردانو فوجده قد فارق الحياة، وبمجرد الانتهاء من مراسم الجنازة، تحرك ضد المتمردين مع الجنود المتمركزين من حرسه؛ واستدعى للخدمة ميليشيات البارونات، وبعد التغلب على وعورة الأماكن وصلابة المدافعين، قام بشنق رؤساء المتمردين، وعاقب آخرين بعقوبات مختلفة، واقتلع

---

(1) عن هذا الموقع تحدث فازيللو، العشرية الأولى، الكتاب الرابع، الفصل الأول؛ واميكو *Dizionario topografico*، الترجمة الإيطالية، المجلد الثانى، فى مادة. *Panralica*، وماسا، "*Sicilia in prospettiva*"، المجلد الثانى ص ١٢٦؛ فيرارا، "*Guida di Sicilia*"، ص ١٥١؛ وبوركولو "*Voyage en Sicile*"، باريس ١٨٤٨ ص ١٩١ وما بعدها. وتظهر أهمية بنتاليكا فى عام ١٠٩٣ من خلال الوثيقة التى نقلها بيرو، ص ٦١٨ حيث كتب اسمها بنتجرا، بينما نقراه بنترجو فى وثيقة أخرى ترجع لعام ١١٥١. المرجع المذكور، ص ٩٩٣. والإدريسى النص، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٥٦. ص ٥٧ كتب الاسم بنتارجا. فهو يطلق على نهر أنتابو اسم نهر بنتارجا، أى نهر بنتاليكا.

جنون هذه المدينة، كما يقول مالاتيرًا مختتماً بحدة روايته. وقد روى مع ذلك كيف أن المسيحيين الذين كانوا فى سيراكوزا قد بكوا بمرارة عند موت چوردانو حسرة على الشاب الجسور وإشفاقاً على الأب المسكين، وكيف أن مسلمى المنطقة لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم التى كانت، كما يقول بخبث دموعاً ناتجة عن تقلصات عضوية وليست دموع حب(1).

كان مجنوناً إذن كل من يقاوم، ووغداً وجباناً كل من يسالمه: كان هذا هو التفكير السائد فى البلاط النورماندى. وتوخى روچيرو فى عمله الحكمة حتى لا يثرثر رجال بلاطه فلم يلجأ إلى بث الرعب فقط. كان يرى أن ذلك الجيل، الذى أنهكته الحروب والنفى، وقد تعب من صغار الطغاة، لا يطلب سوى الراحة والعدالة. وقد أعطاه هذه وتلك، وبذلك جعل المسلمين يعدونه ضرورياً لرخائهم، إن لم يكونوا يحبونه بالفعل: فأطاعوه، بل عاونوه. وحققوا بذلك فائدة لهم وله فى الوقت نفسه. وقد جمع، بتحضر السكان المسلمين واللاتين واليونانيين، كمّا من القوة، كانت قد ضاعت بصورة عقيمة فيما مضى. فأخذ أموالاً وجنوداً من المسلمين أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً وأكثر نشاطاً، وأكثر تماسكاً فى نظامهم الاجتماعى، وأكثر طاعة للأمير. وباستخدامه لتلك القوة، رجحت كفته على غيره من الإقطاعيين النورمان. وبالشهرة التى استحقها بجدارة بوصفه رجل حرب ودولة، عاقل وعادل ومتدين وراجح العقل قوى النفس، احتفظ بالمكانة الأسمى فى إيطاليا جنوب نهر التيبر وأصبح من ملوك أوربا(2).

---

(1) مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل الثامن عشر: انظر *Anonymi Chronicon Siculum* فى كتاب كاروزو، ص ٨٥٦ وفى الترجمة الفرنسية ص ٣١٢. ومع أن نص مالاتيرا يُرجع هذه الأحداث إلى عام ١٠٩٢ فقد بدى لى أن اقتدى بالتاريخ الذى ذكره بيرّو *"Sicilia Sacra"* فى ص ١١ وص ٦١٢، طبقاً لعبارة رمسية مفقودة، كما يبدو.

(2) بالإضافة إلى أن ذلك يبدو واضحاً من خلال الأحداث، إلا ان روچيرو ومعاصريه كانوا على علم به.

وقد اتجهت صوبه كل الأنظار عند موت روبرتو، عندما كان هناك من انحاز لهذا الابن أو ذاك، ولكن كل شخص فكر فى الحقيقة فى شئونه الخاصة، وظهر، كما يقول مالاتيرًا عدم ولاء الكثيرين من أهل بوليا(1). وكان عدم الولاء، فى لغته؛ يعنى نفاذ الصبر من النير النورمانى، الذى يسميه هو ايضاً نيراً؛ وكان يعنى رفض الضريبة والخدمة التى كان الدوق، طبقاً للعادة النورمانية(2)، يطلبها من المدن، التى اختارت فى وقت من الأوقات قائد القادة قنصلاً؛ وكان يطلبها من القادة الذين طلبوا من زميل لهم قيادة كل القوات فى الحرب(3). والحقيقة هى أن المواطنين اللونجوبارد أو من أهل كلابريا والبارونات النورمان والإيطاليين، كانوا يطالبون بحقوقهم التى اغتصبها روبرتو وكانوا يستغلون الخلاف بين ابنيه؛ ومن هنا فإن روجيرو، الدوق الجديد، كان يتعين عليه فى آن واحد أن يدافع عن نفسه ضد بويموندو ويسيطر على المدن المناوئة والبارونات المعاندين، مستخدماً أسلحة من نوع أسلحتهم، غير فعالة ولا يعتد بها(4). وقد مد له يد العون الكونت روجيرو، الذى كان قد وعد روبرتو

"*Comes ergo totius progeniei suæ sustentator, citra Romam versus Siciliam, sicuti maria ab undique cingunt, abundantia rerum et industria callentis, supientis consilii præcellebat, unde et omnes sua negotia ad ipsum conferebant*" مالاتيرًا. الكتاب الرابع، الفصل السادس والعشرون. راجع الفصل السابع عشر، والعشرين إلخ.

(1) الكتاب الثالث، الفصل الواحد والأربعون.

(2) هكذا جاء بشكل صريح فى الكتاب الرابع، الفصل الرابع والعشرين، أثناء حديثه عما أسماه ثورة أمالفى عام ١٠٩٦.

(3) انظر الفصلين الأول والخامس من هذا الكتاب ص ٣٧، ص ٤٢ وما بعدها وص ١٤٥ من هذا المجلد.

(4) "*Maxime quia Apuli, escpeditionibus aliquo annorum curriculo desueti, corpus nullis plagis et diutinis laboribus fatigando, quin recreando sibi potius indulgere, quam expeditionibus iterum assuescendo, insudare nitebantur.*" مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل السادس والعشرون.

كما يقولون، بالابقاء على ذلك النظام فى الخلافة(1)، وكان مشاركاً فى الغاية السياسية التى أملته وهى: أن يعرض على بوليا، كما اعتقد أنا، أميراً من السلالة اللونجوباردية عن طريق الأم، حتى يطيعه الناس عن طيب خاطر، ويريده الغرباء من بنفنتو وكابوا. وقد لوحظ، فى الحقيقة، تسامح الدوق الجديد مع اللونجوبارد(2). وفى الوقت نفسه تظهر الأحداث المخطط، وربما الاتفاق الموقع بين روجيرو هذا وذاك: أن يتنازل الدوق تنازلاً تاماً للكونت عن صقلية، وكلابريا ويساعده كذلك ـ فيما يبدو ـ فى الحصول على أراض أخرى تجاه الشمال: وأن يقدم الكونت للدوق الأسلحة لتكوين إمارة واحدة وراء نهرى جريليانو وترونتو. ويتفق مع هذا المخطط قول مالاتيرا، إنه عند مولد سيمونى (١٠٩٣) خليفة الكونت المباشر، كان بالتأكيد دوق صقلية وكلابريا القادم، بإقرار دوق بوليا روجيرو(3). ومن هذه الكلمات يبدو أنه قد تم الاتفاق على أن تشكل أملاك الكونت دوقية، وإن لم توقع أوراق بهذا؛ ولعل هذا المخطط أضحى غير ذى جدوى للصعوبات التى واجهها من البلاط البابوى. وعلى يد الكونت روجيرو اعتلى عرش الدوقية (١٠٨٥) ابن أخيه؛ قدم له عربوناً، نصف قلاع كلابريا، التى خصصت لروبرتو فى التقسيم الأول(4). وبفضله قام بويموندو، بعد عامين، بإلقاء السلاح باتفاق هزيل؛ وتم قمع البارونات الذين كانوا يرفعون رؤوسهم(5). ولكن بعد أن سقطت فى صقلية آخر

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل الواحد والأربعون.

(2) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل الرابع والعشرون.

(3)
"Simon fonte, pictus fronte inunctione Chrismatis,
Heredatur: solidatur Dusc futurus Siculus:
Calabrenses suos enses sibi optant adjici:
Pater totum implet votum: Dux concessit fieri"

مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل التاسع عشر.

(4) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل الواحد والأربعون. عن التقسيم الأول انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ص ٥٧ من هذا المجلد.

(5) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل التاسع وما بعده.

المدن المسلحة المستقلة، استخدم روچيرو، دون خوف من أن يجرح نفسه بنفسه، آلة حرب كان قد جربها وأثبتت نجاحها فى صقلية نفسها(1). وجربها روبرتو بمخاطر أقل فى روما؛ وضربت على أيدى خلفائه، لقرن ونصف، البلاد الواقعة فى جنوب بر إيطاليا. وعندما رغب الدوق فى إخضاع مدينة كوزنسا، قاد الكونت روچيرو، فى عام ألف وواحد وتسعين، إلى الميدان جنوب تلك المدينة، مع الميليشيات الإقطاعية، عدة آلاف من سراسنة صقلية؛ وفرض الحصار على طريقته: وعندما أراد أهل كوزنسا النزول للاتفاقيات جعلوا منه حكماً. وبفضل تلك المساعدة منحه الدوق نصف مدينة بالرمو. وعندما ذهب إلى هناك على الفور، حصن قلعة فى الجزء الخاص به من المدينة، واستطاع بصورة جيدة أن ينظم الإدارة المشتركة للدخول العامة، أو أثقل كاهل المواطنين بشدة الضرائب، حتى أن الدوق شرع فى الحصول على عوائد من نصف المدينة الخاص به أكثر مما كانت تدره عليه المدينة بالكامل(2).

وقد جاءت آلاف عديدة أخرى من المسلمين مع الكونت إلى كاستروڤيللارى، مع الفرسان والمشاة المسيحيين، لإغاثة الدوق روچيرو من تمرد جوليلمو جرانتيمسنيل الخطير (١٠٩٤): مسلمون، كما نقرأ، من صقلية وبوليا(3): حيث يبدو أنهم قد نقلوا إلى ذلك الإقليم وسكنوا بعض إقطاعيات الكونت، سواء من صقلية مباشرة أم بعد توقفهم فى كلابريا(4). وقد كان هناك عشرون ألف من السراسنة، كما هو مكتوب فى أحد الأخبار(5)، يتبعون الكونت عند

(1) انظر الفصل السادس ص ١٥٩ الذى يتحدث عن الجنود الذين كان يقودهم إيليا كارتومى، والذين يبدو بالتأكيد أنهم كانوا من المسلمين.

(2) مالاتيراً، الكتاب الرابع، الفصل السابع عشر.

(3) مالاتيراً، الكتاب الرابع، الفصل الثانى والعشرون.

(4) انظر الفصلين الرابع والسادس من هذا الكتاب ص ١١٢، ص ١٧٨ من هذا المجلد.

(5) لوبو بروتسبتاريو، عام ١٠٩٦: *Annales Cavenses*، تحت العام نفسه، طبعة كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٩٠؛ بيترو دياكونو، الكتاب الرابع، الفصل الثانى

حصار أمالفى (١٠٩٦) حيث استدعاه الدوق، واعدا إياه بنصف الأرض إذا ما قام باقتحامها. ولكن حدثت كارثة كبيرة كما يقول الراهب مالاتيرا: فبعد أن انتشرت شائعة فى المعسكر بأن البابا أوربانو قد أعلن الحرب فى الأماكن المقدسة وأن أوربا كلها تتجه إليها، قام بويموندو الطموح بتعليق صليب على ملبسه، وقد تسابق الشباب وراءه حباً فى الأشياء الجديدة؛ وتركوا هناك الدوق والكونت، بقوات قليلة حتى إنهما اضطرا لرفع الحصار(1).

وقد زاد كثيراً فى عام ألف وثمانية وتسعين عدد المسلمين الذين أخذهم الكونت من صقلية، حتى ان المؤرخ يؤكد أن الكونت لم يقم بقيادة جيش أكبر من هذا من قبل. وعندما تمت إقامة المعسكرات فى سان ماركو فى كلابريا، كان هناك عدد لا يحصى من مخيمات السراسنة الداكنة(2)؛ وكانت التلال تظهر مغطاة بثيرانهم ونعامهم وماعزهم، كما لو كانت قطعان لابان ويعقوب ترعى معاً: وكانت كابوا قد خرجت عن طاعة الأمير ريكاردو، من أسرة أفرسا النورماندية؛ الذى لما لم يستطع مواجهتها بقواته وحده فقد طلب المساعدة من الدوق وعرض عليه أن يكون تابعاً إقطاعياً له، ووعد الكونت بأن يدبر له، ولا أعرف بأى طريقة، الحصول على نابولى. وقد وافق روجيرو،

عشر: رومالدو سالرنيتانو. عام ١٠٩٦. لاحظ بعض أصحاب المدونات انه. لو أن عدد المسلمين قد وصل إلى ٢٠.٠٠٠ لاستمر الحصار. وعلى العكس علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الكونت والقادة المسيحيين الآخرين ما كانوا يحبون بالتأكيد أن يبقوا تحت رحمة المسلمين، خاصة فى ظل فورة المشاعر الدينية المفزعة تلك.

(1) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل الرابع والعشرون. قارنه بكتاب جويبرتو أباتى، *Historia Hierosolim*، الكتاب الثالث، الفصل الأول.

(2) يبدو لى أن مالاتيرا يلمح بعبارته *tentoria bitumine palliata* إلى اللون فقط؛ لأنه فى موضع آخر (الكتاب الثالث، الفصل التاسع عشر)، يقول وهو يصف بناء كنيسة ترابنا: .*Parietes depinguntur diverso bitumine* ويمكن أن تعنى خيام من نسيج مقطرن. ثم أن لفظة *bitumen* كانت تستخدم فى العصر اللاتينى المتأخر لتعبر عن كل أنواع المواد الراتينجية. انظر كتاب دونكانجى تحت مادة *bituminare*. أما بالنسبة للفعل *palliare* أعتقد انه يستخدم هنا بمعنى لوّن، وليس طوّق، أو رسم على شكل أوتاد أو شرائط.

بعد أن أغراه ذلك الأمل، ويعد أن رجاه الدوق بحرارة. وقاد رجاله، وكانوا تقريباً قبائل رُحل، بحيث لا ينقصهم أبداً المرعى لقطعانهم، وحاصر كابوا بفن حربي رفيع؛ وشيد جسراً من الخشب على نهر فولتورنو لكي يستخدمه المحاصرون؛ وأشرف بنفسه بانتظام على كل فصائل الحرب؛ حتى خضعت المدينة فى النهاية(1). وقد بدا بشكل بارز جداً فى هذا الحصار، حتى أن القصص الرهبانى نسب إليه معجزة: بأن نزل ملاك على هيئة سان برونونى، ليحذره فى الحلم من أن سيرچو، قائد مائتين من الجنود اليونانيين فى جيشه، كان على وشك إدخال العدو فى المعسكر(2).

وبعد ذلك تروى المذكرات الكنسية عن الكونت روچيرو، فى عملية كابوا نفسها، واقعة لا تنم عن القدوة الحسنة. فقد جاء القديس انسيلمو كبير أساقفة كانتربرى ليتحاشى غضب جوليلمو الثانى ملك إنجلترا، ونزل إلى إيطاليا لأمور لانعرف ما إذا كانت خاصة بالكنيسة أم بالعالم؛ ودعاه دوق بوليا، كما يقول تلميذه إيدميرو، فأقام فى المعسكر جنوب كابوا، عندما جاء إلى هناك أوربانو الثانى. وكان كبير الأساقفة المثقف ينافس البابا فى سمعته ويجذب كل صفوف البشر من المتدينين أو الفضوليين ولم يصد الزائرين المسلمين، بل إنه كان يغريهم بأطعمته(3)، وقد تآلف معهم كثيراً حتى إنه اعتاد على زيارتهم فى مخيماتهم المعزولة عن مخيمات المسيحيين؛ وكانوا يستقبلونه بالفرح والسلام ولم يكن بوسع كل المسلمين الطيبين الاقتراب منه،

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصول من السادس والعشرين إلى الثامن والعشرين.

(2) حياة سان برونونى فى *Acta Sanctorum*، اكتوبر، المجلد الثالث، ص ٧١٩ وما بعدها ووثيقة الكونت روچيرو بتاريخ ١٠٩٨ التى أشك كثيراً فى صحتها بالرغم من التعليقات الطويلة التى كتبها المحققون العلماء. هذه الوثيقة وغيرها كثير خاصة بدير سان برونونى نقرأها فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*، المجلد الخامس، أرقام ٤٥٠، ٤٦٦، ٤٧٧ وما بعدها، و٤٩٤ وما بعدها، ٥١٠؛ وفى الصفحات ١٢٩، ١٧١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٧٨.

(3) *Et sumptis ab Anselmo corporalibus cibis, gratiosi revertebantur*.

فكانوا ينحنون له من بعيد؛ وطبقاً لعاداتهم، كما يقول إيدميرو، كانوا يقبلون أياديهم مشيرين بإرسال القبلات للرجل القديس. وبعد أن تطرق بهذه الطريقة لأحاديث أكثر خطورة، اعتقد أنسيلمو أن الكثيرين منهم سيرتدون عن الإسلام لو لم يخشوا قسوة الكونت، الذى اعتاد معاقبة من يعتنق المسيحية منهم عقاباً قاسياً. ويختتم الراهب الإنجليزى(1) حديثه قائلاً: «أما لماذا كان الكونت يتصرف على هذا النحو، فإننى لا أريد الخوض فى البحث فيه، وحسابه مع الله». ولا يمكننا نحن بحث هذا دون أن نعرف بالضبط ما إذا كان كبير الأساقفة قد فهم الإجابات جيداً أو نقلها بأمانة، وما إذا كان المسلمون قد تحدثوا إليه حديثاً جاداً. وتبرهن رواية إيدميرو أيضاً على أن الرئاسة الكنسية فى ذلك الزمن، كانت تتهم على استحياء الكونت بالتسامح الزائد وبعدم استعداده لاتباع الأحكام الدينية بدلاً من السعى لفائدة الدولة. وقد صح حدسهم، وهذا ما نلمحه من استياء مالاتيرا إزاء بويموندو وأتباعه فى الحملة الصليبية. ولم يختلف رأى المسلمين عن ذلك، كما نرى من رواية فريدة لابن الأثير. يقتفى ابن الأثير أثناء روايته الاستيلاء على أنطاكية، بشئ من الغضب، أثر مقدمات الحملات الصليبية فى احتلال طليطلة (١٠٨٦) ومدن أخرى فى أسبانيا من قبل أهل كاستيليا؛ وفى غزو النورمان لصقلية؛ وهجمات الإيطاليين على ساحل أفريقية(2).

والخلاصة التى كانت تقوده فى ظلمات التاريخ الغربى، التى لم ير فيها إلا اسم الفرنجة أو الإمبراطورية. جعلته يفترض أن بالدوڤينو، ملك الفرنجة، الذى كان هائماً بالغزوات، دعا الكونت روجيرو إلى

---

(1) إيدميرو "*Vita S. Anselmi*"، مستلة، فى كتاب كاروزو، *Bibioteca Sicula*، ص ٩٧٤ وص ٩٧٥.

(2) «واجتاح الفرنجة إفريقية هنا وهنالك واحتلوا بعض الأماكن فيها. ثم فقدوها بعد ذلك» يبدو لى أن هذه الكلمات تشير بوضوح إلى أحداث بونا والمهدية التى تحدثنا عنها منذ قليل فى (الفصلين الأول والسادس، ص ١٩ وص ١٧٠. من هذا المجلد) وربما أيضاً إلى أحداث أخرى نجهلها.

عملية فى افريقيا. ولكن روچيرو عندما تشاور مع كبار رجاله، ورآهم يصفقون بصورة عمياء لتلك الصفقة رد بأسلوب قبيح وغير متحضر(1)، بأن نصيحتهم لا تساوى كثيراً. واستطرد قائلاً: «إننى لن أعبأ بالمتاعب ولن أعبأ بنفقات تقديم سفن نقل وجيش من الجنود للفرنجة؛ ولكن ألا تعتقدون أننا إذا لبينا الدعوة، سنكون خاسرين دائماً، حتى إن انتصرنا؟ فإذا انتصرنا فسيستقر الفرنجة فى أفريقية، وتضيع تجارة صقلية فيها إذ سينتزعونها منها: وأول شئ هو صفقة الغلال الرابحة! وإذا لم ننتصر، فإن تميم سيرانا عن حق خائنين وسينقض المعاهدة، عندما يرى قدوم الفرنجة من صقلية وانسحابهم إليها: وعندئذ ستقطع علاقاتنا مع أفريقيا، ومن مصلحتنا الإبقاء عليها. إلى أن نستطيع أن نجمع قوات كثيرة كافية لنجرب الغزو نحن بمفردنا!» وعندئذ دعا رسول بالدوفينو. ورد عليه روچيرو بأنه لا يستطيع تقديم المساعدة، حيث إنه مرتبط بمعاهدات مع افريقية؛ وأنه إذا كان الفرنجة يتوقون للحصول على الثناء بالقتال ضد المسلمين، فإن عليهم بالأحرى أن يتوجهوا لتحرير الأماكن المقدسة(2). ولأول وهلة، فقد تثير تلك الإشارة إلى المخططات بشأن أفريقية واسم بالدوفينو ذلك، الشك فى وجود مفارقة تاريخية وقع فيها المؤلف، وأنه خلط بين الكونت روچيرو والملك، وذكر الحملة الصليبية الثانية على أنها الأولى. ولكن بما أن الكتّاب المسلمين على دراية تامة بعادات الملك روچيرو وعملياته، فإنه يبدو

(1) حرفياً باللغة اللاتينية: *Femure sublato, pepedit crepito magno*.

(2) ابن الأثير *Chronicon*، النص، عام ٤٩١ (١٠٩٧ - ١٠٩٨)، طبعة تورنبرج، المجلد العاشر ص ١٨٥ وما بعدها. وفى كتابى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٧٨، ص ٢٧٩. ويلاحظ أن الاسم نفسه بردويل *Baldovino* أطلقته الحوليات الإسلامية على الإمبراطور أوتونى الثانى (انظر كتابنا الرابع، الفصل السادس، ص ٣٣٢ من المجلد الثانى). ويبدو أنه فى ظل حكم أحد أوائل بردويل *Baldovino* للقدس، انتقلت إحدى الروايات المزيفة من قِبل المسيحيين إلى المسلمين عن إمبراطورية الفرنجة وقد جاءت مباشرة من شارلمان إلى عائلة بويون.

لى أن الأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأن الرواية ترجع حقاً لعهد الأب، وأن المسلمين المعاصرين للملك، دون أن يعرضوا رفض الكونت من البداية إلى النهاية والقوة الفوغائية التى عبر بها عن ذلك، أضافوا إلى ذلك التفاصيل التى ورد بها ذكر أفريقية. ويمكن أيضاً أن تكون الرواية الإسلامية قد خلطت بين رفضين مماثلين للكونت العجوز: رفضه دعوة أهل بيزا وأهل جنوة له للاشتراك فى عملية المهدية(1) ورفضه لأوربا كلها عندما صاح للمرة الأولى: هذه إرادة الله!

وأيا كان حكم الشعب فى القرن الحادى عشر على عدم اكتراث روجيرو الدينى، فإن الكهنة كانوا مستعدين لأن يغفروا له أى شىء. وكانت الكنيسة تقوم آنذاك على اتباع بعض المدارس الأسقفية فى فرنسا وألمانيا وبصفة خاصة على رهبان بعض الرهبانيات بالغة القوة بسمعتها لقداستها وعلمها، وكذلك لثرواتها وقرابتها وأتباعها لدى الكبار: كما كان حال دير مونتى كاسينو قبل ذلك بقليل، وكما كانت أيضاً فى ذلك الوقت - نظراً لتفوق الفكر الكنسى الفرنسى - أديرة فلورى ودل بيك وكلونى: فكان يأتى منها البابوات، والأحبار ووزراء الدولة، كما كانت مراكز للإدارة السياسية، حيث كانت القوة الدنيوية هى الغاية، والدين هو الوسيلة، والبلاط البابوى فى روما هو مركز الجاذبية. كانت هذه المدرسة السياسية قد ولدت منذ قرن تقريباً، بينما كان العلمانيون، والنبلاء وعامة الشعب يهذون ويهتاجون بين أهوال لا طائل منها، ويتغذون بالأوهام: وكان الكثيرون من الجهلاء من رجال الدين يجمعون بين القسوة والجدل والخداع. كانت مدرسة من الحكماء الذين كانوا يريدون استغلال بساطة الآخرين لغاية كبيرة ومقدسة للوهلة الأولى: تغليب العقل على القوة: وقيادة ذلك المجتمع الإقطاعى غير المتجانس والمفكك الذى كان يتأجج فى

---

(1) انظر الفصل السابق، ص ١٧٠ من هذا المجلد.

جميع أرجاء أوربا، على طريق الإيمان، قيادة تقوم على وحدة الأخلاق والمصلحة العامة. وقد انساقت هذه المدرسة وراء المصالح وأصبحت طائفة، وبما أنها كانت غير مسلحة، فقد استغلت بالضرورة تغلغلها ودهاءها؛ وفضلت النتائج على النظريات، وسخرت الأخلاق لأغراضها، وتغلغلت في القصور الملكية، وتوسطت في الزيجات ونظمت مفاوضات سياسية، ورفعت هذا ودمرت ذاك، ومدت شباكها لجمع الهبات بكل الطرق: دولة الكونتيسة ماتيلدى، وكذلك غنيمة روبرتو جويسكاردو.

ولم يكن رواد اليسوعيين، في القرن الحادى عشر من الرجال الذين يشتعلون غيرة غير مناسبة ضد روجيرو، بينما كان هو في صقلية يعيد بناء الكنائس ويؤسس أديرة وأسقفيات ويزيد ثراء رجال الدين، ويستخدمهم في الأمور المدنية؛ بينما ورث في البر الإيطالى حقاً قوة روبرتو. أما أوربانو الثانى، القادم من دير كلونى وتلميذ إلدبراندو، وكان قد اعتلى كرسى القديس بطرس (سبتمبر ١٠٨٧) وسط تهديدات أريجو الرابع وتهديدات بابا غير قانونى، فقد ظهر في غاية الالتزام تجاه الكونت: على الرغم من أن هذا الأخير، كما يبدو لى، كان يطمح أكثر فيما لم يكن البابا يريد أو يستطيع منحه إياه(1). وفى البداية ذهب أوربانو إليه فى صقلية (١٠٨٩) للتفاوض، كما كتب مالاتيرّا، على اتفاق مع كنيسة القسطنطينية(2)؛ ولكن بالأحرى، كما أعتقد أنا، على شعائر الكنيسة اليونانية في صقلية وفى كلابريا وبصفة عامة على التنظيم الكنسى للجزيرة؛ أو فوق كل ذلك، على مصالح القصر البابوى فى البر الإيطالى(3). والصمت

---

(1) يلاحظ أن الكونت، وهو يقود السراسنة إلى حصار كابوا، وصل حتى مدينة بنفنتو التى فرض عليها إتاوة، مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل السادس والعشرين.

(2) انظر الفصل السابق ص ١٧٩.

(3) كان روجيرو يحاصر بوتيرا، كما لاحظنا فى الموضع المذكور، فى شهر أبريل من عام ١٠٨٩. وجاء البابا لزيارته فى خريف العام نفسه أو فى فصل الصيف؛ وفى شهر سبتمبر تم عقد مجمع ميلفى، حيث تم إعلان هدنة الرب ونصّب البابا الدوق روجيرو.

الذى التزم به راوى الأخبار سنين عديدة حول أمور القصر البابوى فى روما، تجعلنا نفترض أن روجيرو لم يترك قياده للبابا، حتى رأى أن الفطنة فى كسب القوة والعظمة. لأن البابا حثه (١٠٩٥) على إعطاء إحدى بناته زوجة لكورادو، ابن أريجو الرابع، الذى تمرد على أبيه وساعدته الكنيسة على ذلك؛ والذى لم يكن يستطيع الصمود ضد الجانب الإمبراطورى فى إيطاليا، نتيجة لنقص الأموال لديه. ولكن النورماندى الحذر، عندما رأى أن الدوطة هى الهدف الرئيس، لم يوافق بسهولة: فقد أقنعه بذلك علية القوم عنده وخاصة روبرتو أسقف ترايينا، الذى كان يعرف باعتباره إيطالياً، كما يقول مالاتيرّا، أحوال الأمور فى إيطاليا الشمالية ومدى اعتمادها على كورادو(1). وربما كانت معرفة روبرتو قليلة او انه اراد أن يخدع سيده. ويبدو أن أموالاً أخرى كان يؤمل فيها بعد الدوطة: وربما قدم روجيرو بعضاً منها آنذاك لمساعدة البلاط البابوى، كما حدث بعد ذلك فى عام ١١٠٠ عندما قدم هو الف أوقيه من الذهب إلى باسكوالى الثانى(2)، لأن أوربانو كان يحاول بكل أساليب التوقير أن ينال رضا روجيرو، على الرغم من اعتراضه على الحرب الصليبية. وعند حصار كابوا (١٠٩٨) وصل البابا ليرجوه ألا يعرض للخطر حياته التى كانت ضرورية جداً لروما وإيطاليا، لأنه كان رعباً للأشرار(3).

وبعد أن عاد الكونت إلى سالرنو، بعد عملية كابوا، ذهب أوربانو لزيارته للتفاوض معه فى مباحثات خطيرة، قبل أن يرحل مرة أخرى

---

(1) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الثالث والعشرون. ويقول عن أسقف ترايينا: *nam Italus erat et illorum partium gnarus* هذه الشهادة الواضحة تصحح الأماكن التى ذكرها بيرّو وفاتزيللو والكتاب كافة الذين يعتقدون أن روبرتو دى جرانتمزنيل، شقيق زوجة روجيرو الأولى كان أسقف ترايينا ثم مسينا، وقد كان كبير رهبان دير سانت اوفيميا فى كلابريا منذ عام ١٠٦٢.

(2) باندولفو بيزانو، فى كتاب موراتورى *Rerum Italic, Script*، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ٢٥٥.

(3) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل السابع والعشرون.

متجها إلى صقلية؛ وقد عنى كثيراً بتقديم زيارته حتى أنه ترك رؤساء الأساقفة والكهنة وهم جاهزون لاصطحابه فى موكب لكنيسة سان ماتيو. وفى اليوم التالى منح تاج صقلية ميزة المفوضية الرسولية، التى سنتحدث عنها فى الفصل التاسع، عند تناول تكوين الدولة. ونريد هنا فقط أن نوضح أن البابا كان قد عين مُفَوَّضاً فى صقلية، دون معرفة الكونت، وهو روبرتو أسقف ترايناً، الذى تحدثنا عنه منذ قليل: وأن روجيرو كان لا يتحمل عمل بلاط بابا روما، وربما أيضاً شخصية روبرتو، وكان يهدد بعدم قبوله. ومن هنا فإن البابا لكى يرضى ذلك الذ ى خدم الإيمان المسيحى بنشاط كبير، ألغى التعيين وعين الكونت نفسه مُفَوَّضاً دائماً وكذلك خلفاءه. هكذا يقول مالاتيرا(1). ويذكر أوربانو فى مرسوم المنح، بكلمات مماثلة، أن النعمة الإلهية حالفت حكمة روجيرو بالانتصارات والتكريم: وأن شجاعته عملت على توسعة الكنيسة المقدسة على حساب السراسنة؛ وأن فضيلته أظهرت بطرق عديدة وفاءه للمقر الرسولى. ثم إنه لم يكن هناك أيضاً من لايرى كيف أن تلك الميزة الفريدة كانت راجعة لفضائل الكونت الدينية ولقوته السياسية على حد سواء، وكذلك لحاجة البابا له، وللإرادة القوية التى استطاع بها أن يحافظ على حقوق الإمارة كاملة أو المجتمع العلمانى بمعنى أصح، التى تعلمها من المسيحيين فى كلابريا وصقلية من أتباع الكنيسة اليونانية. وقد دعمها بعد ذلك بشجاعة ديانة قوية ذات بأس وعقل سليم، بعد أن تحرر من العديد من الوساوس الشمالية فى الأربعين سنة التى عمل فيها مع المسلمين ومع البيزنطيين ومع اليسوعيين فى ذلك العهد.

ووافته المنية وهو فى أوج عظمته فى اليوم الثانى والعشرين من يونيو عام ألف ومائة وواحد، وهو فى العام السبعين من عمره(2)؛ وقد

---

(1) المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل التاسع والعشرون.

(2) لوبو بروتوسبتاريو وروموالدو سالرنيتانو، ذكرا عام ١١٠١ وقد حدد اليوم سجل مونتى

كان سعيداً أيضاً فى هذا، حيث إنه رأى ضمان خلافة الحكم لأولاده. وقد رزق روجيرو بالعديد من البنات، وزوج بعضهن لإقطاعيين، وأخريات لأمراء: بوزيللا لكولومان ملك المجر (١٠٩٧)(1)؛ وكوستانتسا لكورادو ملك إيطاليا وابن الإمبراطور (١٠٩٣)(2)، وماتيلدى لريموندو كونت تولوز وبروڤانس (١٠٨٠)(3) وإمَّا لروبرتو كونت كليرمونت، بعد أن طلبها فيليبو الأول ملك فرنسا طمعاً فى دوطتها(4). ولكن من الذكور الشرعيين يبدو أن جوفريدو وحده عاش فى عام ألف وتسعة وثمانين، عندما تزوج الكونت أديلازيا، بعد موت زوجته الثانية إريمبرجا؛ وقد زوَّج شقيقة هذه لچوردانو، ووعد الأخرى بجوفريدو، وهو صبى معتل الصحة، حتى أنها دخلت أحد الأديرة(5). إلا ان موت چوردانو جعل أمر الخلافة محل شك إلى

كامبينو. فى كتاب كاروزو، *Biblioth. Sicula*. ص ٥٢٢ وإذا ما تركنا جانباً الكتاب العرب الذين يقولون بشكل مبهم إن روجيرو قد توفى قبل سنة ٤٩٤، فإنه يكفينا هنا أن نذكر الإدريسى وابن خلدون اللذين ذكرا بدقة أن موت الكونت كان فى هذا العام أى فى الفترة ما بين ٦ نوفمبر عام ١١٠٠ إلى ٢٦ أكتوبر ١١٠١ عام ٤٩٤. انظر النصين فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٦ و٤٨٥ و٤٩٨ وكذلك الثانى ترجمة م. دى فرچيه ص ١٨٣.

(1) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل الخامس والعشرون.

(2) انظر فى هذا الفصل ص ١٩٣.

(3) مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل الثانى والعشرون.

(4) المؤلف نفسه، الكتاب الرابع، الفصل الثامن.

(5) المؤلف نفسه، الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر؛ انظر *Anon. Chron. Sic.* فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٨٥٦ وفى الترجمة الفرنسية، ص ٣١٢. وعن ذرية الكونت روجيرو، انظر بيرو. *Chronologia Regum Siciliæ*. الصفحة العاشرة وما بعدها. ودوكانچ، *Familles Normandes*. فى هامش امانو ص ٢٥٤ وما بعدها. وعدَّ بيرو فى الفصل المذكور ص ١١، بين ابناء الكونت روجيرو، ابناً يدعى مالچيريو، استخرج اسمه من وثائق مجموعته، وهو موجود كذلك فى وثائق أخرى فى محفوظات نابولى، اثنتين منهما بتاريخ ١٠٩٤، وواحدة بتاريخ ١٠٩٨، وأخرى بتاريخ ١١٠٢ وأخرى بتاريخ ١٠٩٦ وهى منشورة فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta* المجلد الخامس، صفحات ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٤٩، ٢٧٨ والمجلد السادس ص ١٦٤. وقد قام البولندستيون بنشر وثيقة ١٠٩٨ أيضاً (حياة القديس برونونى، أكتوبر، المجلد الثالث ص ٦٦٢ وما بعدها) وفى اعتقادى أن مالچيريو هذا ابن غير شرعى لروجيرو، لأن مالاتيرا لم يتحدث عنه، بما أن الأحداث لم تجبره على ذكره، وربما لعدم التفكير فيه فى البلاط عندما كان يتم النقاش بشأن الخلافة.

أن ولدت أديلايدى (١٠٩٢) سيمونى(1) ثم روجيرو بعد ذلك (١٠٩٥)(2). وهكذا توفى الكونت المجوز على أمل أن يترك لسلالته صقلية وكلابريا اللتين تتكون منهما الدوقية؛ ولم يكن يتوقع بالتأكيد بأنه سيضاف إليها بعد ثلاثين عاماً ميراث روبرتو جويسكاردو، وميراث أسرة أفرسا، وجمهورية نابولى وساحل أفريقية وتاج ملكى.

والآن سنتحدث بصفة خاصة عن أديلايدى هذه، التى دعمت حكومتها وشعبها الذى استقر فى صقلية من عمل مؤسسها. ويروى مالاتيرًا أنها ابنة شقيق بونيفاتسيو، ماركيز الإيطاليين الشهير جداً(3). وهى توصف بكلمات مماثلة فى بعض الأبيات الشعرية اللاتينية الرديئة المنسوبة لمعاصرها الراهب مارالدو(4)؛ ويسميها

---

(1) مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل التاسع عشر.

(2) وبعد معرفة تاريخ وفاة الملك روجيرو بالضبط وهو يوم ٢٦ فبراير من عام ١١٥٤ وكان عمره حينذاك ٥٨ عاماً وشهرين وخمسة أيام، فإن تاريخ ميلاده يكون هو ٢٢ ديسمبر من عام ١٠٩٥. وكانت هناك مجادلات حول هذا التاريخ من جانب الذين كانوا يريدون بالقوة إرجاع مولد الطفل إلى ما بعد حصار كابوا وذلك لكلمات مالاتيرًا: *ibi se impregnavit Comitissa Adelasia de comite Rogerio.* ولكنهم لم يفكروا أن روجيرو هذا هو روجيرو الأب نفسه! ولم يكن البولندستيون فى حاجة إذن لافتراض تحريف فى نص مالاتيرًا، حتى يثبتوا أن حصار كابوا قد وقع بعد ذلك عام ١٠٩٨، كما فعلوا عند الحديث عن سيرة القديس برونوني، المجلد الثالث، أكتوبر، ص ٦٥٥ وما بعدها.

(3) مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر.

(4) *Marchionis ,Militonis,*

Bonifacii itali,

Neptis ornat, quod exornat

Uscor Adelasia

Brutiorum Siculorum

Comitem Rogerium etc.

هذه الأبيات اللاتينية ذات الوزن الشعرى الإيطالى والمنسوبة إلى مارالدو، وهو راهب من كلابريا ومعاصر للكونت الأول روجيرو، تشيد بمولد ابنه الذى أطلق عليه أيضاً اسم روجيرو وتم تعميده بيد سان برونوني. وأول من قام بنشرها هو بوليني فى *Prospetto della Storia de' Certosini,* كما استخلصت هذا من *Acta Sanctorum*، شهر أكتوبر، المجلد الثالث ص ٦٥٦ وما بعدها. وقد قام الناشرون

الكاتب المجهول وهو معاصر للملك روجيرو، الماركيزة أديلى، المولودة فى نواحى لومبارديا من سلالة شارلمان النبيلة للغاية وقد تلقت تربيتها بعناية فريدة وتعلمت العادات النبيلة(1)؛ ويقول عنها أودوريكو فيتالى، وهو من عصر انونيمو نفسه، أنها أديلى، ابنة بونيفاتسيو الليجورى(2). ومن هنا فإن بيرّو وموراتورى حسبا أنه من المحتمل أن يكون بونيفاتسيو هو ماركيز مونفيراتو الذى كان يدعى بذلك الاسم نفسه(3)؛ وإذا كانا لم يصيبا الهدف فإنهما ابتعدا عنه قليلاً، لأن سكان ذلك الإقليم كان يطلق عليهم آنذاك ليجوريون ولومبارديون دون تفريق. وفى حقيقة الأمر مرت أحداث مونفيراتو منذ منتصف القرن الثانى عشر يلفها غموض تام حتى أيامنا هذه، كما أن أنسابها يشوبها الخيال إلى حد ما(4). وقد أوضح الأمر منذ بضع سنوات، چوليو دى كونتى وهو من سان كوينتينو، بعد أن نحى جانباً الروايات المحلية الحديثة واعتمد على الوثائق وحدها(5)؛

العلماء بإعادة طبعها وهم بصدد الحديث عن سان برونونى. ولكن اسم بروزى الكلاسيكى الذى أطلق على أهل كلابريا تفوح منه رائحة معرفة أكثر حداثة. وبجانب ذلك فإن الأربعة أبيات الأولى تبدو منقولة من نص مالاتيرّا النثرى الذى ذكرناه من قبل. لذلك فإننى لا أثق كثيراً فى شهادة الراهب مارالدو.

(1) *Anonymi hist. sicula* فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٥٦ وفى الترجمة الفرنسية ص ٣١٢.

(2) *Historia Ecclesiastica*، الكتاب الثالث عشر. فى كتاب دوشيسن *Histor. Norman. Scrip*، ص ٨٩٧.

(3) بيرّو. *Chronologia Regum Siciliæ*. الصفحة الثانية عشرة والثالثة عشرة؛ موراتورى. *Annali d'Italia*. عام ١٠٩٠.

(4) حتى مؤلفو *Art de verifier les Dates* (طبعة ١٧٧٧، المجلد الثالث، ص ٦٣٠) والمدقق سان مارك فى (*"Abregé de l'Histoire d'Italie"*. المجلد الثانى، ص ١٠٢٩) يذكرون شخصاً يُدعى بونيفاتسيو الأول، ماركيز مونفيراتو منذ عام ١٠٦٠ إلى عام ١١٠٠.

(5) *Osservazioni critiche sopra alcuni particolari delle storie del Piemonte e della Liguria,* نجدها بين *Memorie della Reale Accademia delle Scienze di Torino,* السلسلة الثانية، المجلدات الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

إلا أن تحقيقه النقدى الدقيق أدى به إلى الخطأ الجسيم بأن جعل من عائلة واحدة - ظهرت فى وثائق مختلفة بأسماء وظروف متطابقة تقريباً - عائلتين مختلفتين. ولكن هذا الخطأ قد تم تصحيحه الآن. وقام رجلان من المتعمقين جداً فى التاريخ الإيطالى فى العصور الوسطى، وهما الإيطالى كورنيليو دى سيمونى، وتيودورو وستفيلد من جوتينجا، بإعادة ترتيب تسلسل العائلات الحاكمة والقانون العام فى ذلك البلد ونجحا نجاحاً تاماً، فقد أسسا عملهما على افتراضات علمية حكيمة، حيثما لا توجد الوثائق الإيجابية، وبأن اتبعا المنهج الذى استخدمه موراتورى فى إيضاح «ماركا المجاورة»، التى كانت تضم جنوه وتورتونا وميلانو. وتوفر لنا الأبحاث التى نشرها دى سيمونى والخطابات التى كتبها لى وستفيلد الأخبار التالية عن عائلة اديلايدى والدة الملك روجيرو(1).

وبقياس ما يقرب من عشرين ميل على الشاطئ الغربى بحيث تتوسطها سافونا، وبأخذ ذلك الجزء على الساحل المستقيم من نهر البو الذى يمتد من رافد تانارو حتى فيروا شمال كازال مونفيراتو، سيكون لدينا الضلعان الصغيران من شبه المنحرف، الذى شكل، فى عهد أوتونى الأول واحدة من أقاليم ماركى الإيطالية(2). وكان يحكمها أليرامو، الذى كان كونت ثم ماركيزا، ومن رجال القانون الفرنجة؛ حتى أننا يمكن أن نفترض أنه من أمة الفرنجة ونجد هنا أصل الرواية التى كانت تفاخر فى صقلية بأنه حفيد شارلمان. أما سلالة أليرامو، بعد أن اغتصبت ملكية وظيفة الماركيز، كما كان يحدث آنذاك فى كل أوربا، فقد مارست هذه الوظيفة بصورة مشتركة لعدة أجيال. وقد نشأت بالصدفة عن هذا كما يبدو لى عادة منح لقب العائلة لكل

---

(1) دى سيمونى، فى *Atti della Società ligure di Storia Patria*، المجلد الأول، ص ١٤١، ١٤٢، ٦٤٧، ٦٤٨؛ وللكاتب نفسه *Lettera a M. Amari* فى *Nuova Antologia* المجلد الثالث، ص ١٩٣ وما بعدها. فلورنسا، سبتمبر ١٨٦٦.
(2) انظر الحدود بدقة أكبر، فى *La Nuova Antologia* الموضع المذكور.

الأبناء فى الأقاليم الشمالية لإيطاليا لتحضرها؛ بينما كان يحتفظ به للابن الأول فى البلاد الجنوبية مثلما يحدث فى بلاد ما وراء الألب. وفى الأحكام ووثائق السيطرة والملكية فى ذلك الإقليم قبل عام الف ومائة نجد فى الواقع العديد من الماركيزات معاً؛ ثم نرى فى القرن الثانى عشر تقسيم - واقتسام - الأراضى بين العديد من أفرع أصل اليرامى وقد سميت فى النهاية مقاطعات الماركيزات بالرغم من أنها كانت مجرد مناطق كونتات، لم تكن تتجاوز أحياناً حدود الأرض القانونية المعتادة للقسكونت. وهكذا نشأت مناطق الماركيزات فى ڤاستو وإينشيزا وبوسكا وكاريتو، وبوسكو وبونزونى ومونفيراتو، وأوتشيميانو والبينجا وتشيڤا وكلاڤيزانا وكورتيميليا ولوريتو.

وفى منتصف القرن الحادى عشر، وبعد انفصال أقصى طرفى منطقة ماركا، نرى ثلاثة أشقاء، أوتونى ومانفريدو وانسيلمو وهم يقسمون معاً كأنداد متساويين، على اتفاق مع ساڤونا؛ التى كانت فى مسعاها لحكم البلدية تتحرر كلما أمكنها ذلك من حكم السادة. ولكن بعد أن خلف أوتونى ابنه بونيفاتسيو، الذى كان يسمى دل ڤاستو، وبعد موت أنسيلمو ومانفريدو قبل عام ١٠٧٩ (1)، وهما شقيقا أو ابنا أوتونى، قام بونيفاتسيو بتوسعة أراضيه على حساب إقليم ماركا الغربى الذى كان يشمل تورينو وآستى وأماكن أخرى. ولتنازعه على ميراث أديلايدى دى سوزا لكورادو ابن أريجو الرابع ولأمبرتو دى ساڤويا ولكونت مومبيليارد، كان بونيفاتسيو سببا فى غضب جريجوريو السابع عليه: ووقف دائماً فى جانب الأباطرة ضد البابوات، وحارب مع مدن كانت تسعى للتحرر، وبعد أن دخل السجن ذات مرة، واعترض عليه ابنه الذى كان يُدعى هو الآخر بونيفاتسيو، وكـان ماركـيز إينشـيزا، وصـل أيضـاً إلى تقسـيم أمـلاك واسـعة على

---

(1) موجز جريجوريو السابع بتاريخ ٣ نوفمبر ١٠٧٩؛ لاب *Concilio*، فى سان كونتينو. المرجـــع المذكور *Memorie dell'Accademia di Torino*، المجـــــلد الثالث عشر، ص ٥٢.

أبنائه الآخرين. وليس هناك ما يدعو للعجب إذن من أن يصفه مالاتيرا على أنه ماركيز إيطاليا ذائع الصيت. ولا تبدو غير محتملة التربية النبيلة التى حظيت بها، كما يقول أنونيمو، أديلايدى، ابنة مانفريدو اليتيمة. وقد وصل شقيق لأديلادى يدعى أريجو، وهو مذكور فى الوثائق الصقلية ووثائق بييمونتى، إلى مكانة رفيعة فى صقلية؛ وربما جاءت فروع أخرى من أسرة أليرامو إلى هنا للقتال تحت رايات النورمان: ومن المؤكد أن كثيرين من النبلاء فى إقليم أليرامو من الرجال كانوا يمتلكون إقطاعيات هناك، وسنتناول هذا بالحديث بإسهاب فى الفصول التالية.

الفصل الثامن

يجدر بنا الآن أن نعرض الظروف السياسية والاجتماعية التى مر بها المسلمون أثناء الفتح وكذلك سكان الجزيرة السابقين والجدد؛ وقد مهد الطريق لهذا البحث أستاذ القانون العام الصقلى، الباحث الحكيم روزاريو جريجوريو، فى كتابه *Introduzione* وفى الكتب الأولى من مصدره *Considerazioni* ومنذ أيامه وحتى الآن لم تزد المصادر عن تلك المرحلة من التاريخ زيادة كبيرة. ولازالت القوانين القديمة غير موجودة فى بعض الفقرات غير المؤكدة وما يحيط بها. كما تلوذ بالصمت وقائع البلاط وميدان الأحداث، من مالاتيرًا إلى رئيس رهبان تيليزى: أى فيما بين موت الفاتح وشباب روجيرو الثانى: أى ما يقرب من ربع قرن، يضم حكم الكونتيسة اديلايدى وربما ترتيب الجماعات الجديدة. ومع هذا فيمكن التقاط بعض الإشارات من مذكرات عصور أخرى أو بلدان أخرى؛ كما نستمد بعض الضوء من الوثائق المنشورة أو التى لم تنشر. ثم إنه بفضل أدوات النقد التاريخى، التى تقدمت خلال هذا القرن، يمكننا أن نستخلص أفضل فائدة من المواد: حتى إننا ندين من جميع الجوانب لزماننا فى القدرة على الحكم حكماً مباشراً والكتابة بحرية أكثر مما كان يجرؤ رئيس الكهنة الحذر تحت حكم البوربون فى نابولى، الذين أثارتهم الثورة الفرنسية. والآن ينبغى الا يبدو تجاوزاً منا أن نحاول تصحيح بعض أجزاء الصورة التى رسمها جريجوريو، منذ ستين عاماً. فلقد عمل - أساسا - على الوثائق، وبما أننا نحن أيضاً مضطرون للقيام بالشىء نفسه، فإننا نستهل حديثنا ببعض الملحوظات حول الوثائق الصقلية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. وبداية لابد من استبعاد وثيقة دخلت منذ عدة سنوات مضت فى محفوظات نابولى وتم تقديمها فى

عام ١٨٤٥ فى مؤتمر علماء إيطاليا: وهى ليست سوى مرسوم للكونت روجيرو العجوز، يرجع إلى عام أربعمائة وأربعة وسبعين من الهجرة (١٠٨١)، وقد صدر عن الديوان فى مسينا، لإعلام الحاضرين واللاحقين بتأسيس الوظائف السبع الكبرى التابعة للتاج الصقلى ومكتب مراسم البلاط. أما الزمان والمكان وصفة الاجتماع وطبيعة اللائحة نفسها والفاظها، فإنها تتعارض كثيراً مع الأحداث الأساسية للتاريخ الصقلى، حتى إننا نستطيع أن نرفض هذه الكتابة دون النظر إليها. وعلى العكس من ذلك، فإنه بالنظرة الخبيرة قد يكفى النظر إليها دون الالتفات للمضمون؛ لنلمح يدا حديثة غير مدربة تحاول للمرة الأولى تقليد الكتابة العربية، أو بالأحرى الخلط بين الحروف الكوفية والنسخ والحروف الأفريقية، بأسلوب الرسائل الشعبية تارة وبأسلوب تصنيف المسكوكات القديمة أو الآثار تارة أخرى؛ ولعل ثلث المفردات، متشابكة بصورة مبالغ فيها؛ وفى المواضع المقروءة هناك أخطاء كتابية ونحوية أو لغوية بقدر عدد الكلمات. وهذه العلامات والأسلوب واتجاه الكتابة، تدل دلالة واضحة على تزييف الراهب فيللا الجاهل والمتهور، الذى تحدثنا عنه فى المجلد الأول(1).

---

(1) المقدمة من ص ١٣ إلى ص ١٧. ومن بين الأخطاء المألوفة للمزيف المالطى التى وردت فى هذا الرق، حرف العين المضاف إلى اسم مسينا. وعلى كل فهذه هى قصة الوثيقة. قامت دار محفوظات نابولى بشراء هذا الرق وغيره من بعض الأفراد فى عام ١٨٤٤ كما علمت من العالم السيد چوزيبى ديل چوديتشى. واعتقد الأستاذ ليتييرى، الذى كان على معرفة بسيطة بقواعد اللغة العربية ولكنه لم يكن متمرساً على التحدث بها جيداً وكانت معرفته بقراءة الخطوط والكتابات القديمة أقل كثيراً. اعتقد أن بين يديه جوهرة ثمينة. ولهذا قام بتقديمه إلى المجلس الأكاديمى وهو فى غاية السعادة كما هو واضح من خلال «**وقائع الاجتماع السابع للعلماء الإيطاليين**»، نابولى، عام ١٨٤٦، ص ٦٤١. ونقرأ فيها أن عضو الأكاديمية السيد دى ريتيس شكك فى أصالة الوثيقة وأنه بعد أن جرى التداول بشأنها قليلاً تم الانتقال إلى موضوعات وطرائف أخرى. فلم يكن المجلس مجتمعاً بالتأكيد ليحكم على رقوق عربية أو ليبحث موضوعات أدبية. واسمحوا لى أن أضيف أننى بينما كنت أقيم فى باريس فى ذلك الوقت وعلمت بهذا الاكتشاف صرحت مسبقاً إلى رؤساء الدير بأن هذه الوثيقة مزيفة وأنه بعد عام

وعلى الرغم من أن مثل هذه القبائح لاتحدث فى الوثائق الصقلية المنشورة قبل أو بعد جريجوريو، فإنه لابد من توخى الحذر فى التعامل مع كل تلك الوثائق المكتوبة أصلاً بالعربية أو باليونانية؛ حيث أن معظم النصوص مملوءة بالأخطاء. كما أن ترجمتها خاطئة وغير متسقة. وقد لاحظت ذلك العيب بصفة خاصة فى الوثائق العربية(1). وقد لحق ضرر أخف قليلاً بالوثائق اليونانية التى بدأ فى فك شفرتها علماء فى الدراسات الهيلينية غير متخصصين فى تاريخ صقلية، مثل لاسكارى، أو باحثون صقليون، مثل باسكوالينو وآخرون لم يكونوا على علم تام باللغة أو بقراءة الكتابة والنقوش اليونانية فى عصورها المتأخرة: والأسوأ من هذا هو أنه بضياع العديد من الرقوق، لم يتبق لنا سوى الترجمات التعيسة التى طبعها بيرّو، ومونجيتورى وآخرون. ولا يفلت تماماً من هذا اللوم، تارديا المدقق للغاية(2): أو أولئك الذين نشروا فى مجموعات صغيرة ومتفرقة وثائق يونانية فى النصف الأول من القرن الجارى(3). وبجدارة أكبر نشر چوزيبى سباتا دا بالرمو فى

١٨٤٩ اى بعد حصولى بفضل العلامة دوق لينس على نسخة منه منقوشة على النحاس، تأكدت من حكمى هذا كما أكده أستاذى م. رينو. وفى تلك الأثناء توفى ليتيبرى بينما كان يستعد لنشر ترجمة الوثيقة والتعليق عليها، وآلت المخطوطة لورثته: ولكن تم عرض الوثيقة فى قاعة دار محفوظات نابولى وقال مديرها أمبر بلمونت فى كتاب الدار بعنوان *Legislazione positiva degli Archivi del Regno* نابولى، ١٨٥٥. ص ٨٦، قال عنها أنها «أكثر الوثائق الفريدة فى دار المحفوظات»، وإن نبه على أنه «ينبغى توخى الحذر والتأكد من صحتها»، والحقيقة أن الإطار والوثيقة ظلا لسنوات عديدة ولعلهما مازالا حتى اليوم معروضين أمام جمهور المثقفين ليتأملهما بإعجاب.

(1) انظر المقدمة، فى المجلد الأول من هذا التاريخ، ص ٢٢ و٢٤.

(2) عن وثائق صقلية التى ظهرت إلى النور قبل القرن التاسع عشر انظر كتاب جريجوريو، *Introduzione al Diritto pubblico Siciliano*، ص ٢٢ وما بعدها؛ ص ٨٧ وما بعدها فى الطبعة الأولى، وفى مواضع متفرقة من كتاب Considerazioni. وارتاب جريجوريو كذلك فى ترجمة الوثائق اليونانية كما يظهر فى *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل السادس، الهامش رقم ١٢.

(3) نجدها ومعها وثائق بلغة أخرى، فى الأعمال الآتية:

- مورسو (سلفاتورى)، *"Palermo antico"*. الطبعة الثانية، بالرمو ١٨٢٧.
- بوشيمى (نيكولو) فى *"Biblioteca Sacra per la Sicilia"* أو *"Giornale Lett.*

هذه الآونة الأخيرة ما يقرب من ستين وثيقة منها(1). ويراودنا الأمل الآن فى صدور المجموعة الكاملة للوثائق اليونانية والعربية الموجودة فى المحفوظات الملكية فى بالرمو، وربما وثائق الجزيرة كلها؛ لأن الأستاذ سلفاتورى كوزا أخذ يعد لهذا العمل، وقد وعدت وزارة التعليم بتمويل نفقات الطباعة. وعلى كل حال سوف استخدم أنا نسخ الوثائق العربية المحفوظة فى بالرمو، التى تفضل باتاحتها لى كوزا؛ وهى تكفى بالفعل لبيان التقدم الحديث فى الدراسات الشرقية فى إيطاليا(2). وعلاوة على المواد التى ذكرتها توا، هناك بعض وثائق الإمارة النورماندية فى صقلية وكلابريا باليونانية ضمن مجموعة نابولى الكبيرة والدقيقة التى قدمها منذ وقت قريب ترينكيرا(3). أما فيما يتعلق بالوثائق اللاتينية فى الحقبة نفسها، فإن قليلاً منها خرج إلى النور بعد جريجوريو(4) ولايزال عدد كبير منها قابعا فى دور

"*Scient. Ecclesiastico*" المجلد الأول والثانى، بالرمو، ١٨٣٢، ١٨٣٤.

- مارتورانا (كارميلو) *Risposta al Buscemi* فى "*Giornale di Scienze e Lettere per la Sicilia*"، بالرمو، ١٨٣٤.

- جاروفالو (لويجى) "*Tabularium Capellæ Collegiatæ in r. panormitano palatio*"، بانورمى، ١٨٣٥.

- مورتيلارو (فينشنزو) "*Catalogo de'Diplomi... della Cattedrale di Palermo*". بالرمو، ١٨٤٢.

"*Elenco cronologico delle antiche pergamene della Magione*" بالرمو، ١٨٥٩ ."*Opere*" المجلد الرابع، بالرمو، ١٨٤٨.

(1) سباتا (جوزيبى) *Le Pergamene greche esistenti nel grande Archivio di Palermo, tradotte ed illustrate,* بالرمو، ١٨٦١، (صدر عام ١٨٦٥). "*Sul cimelio diplomatico del Duomo di Monreale*"، بالرمو، ١٨٦٥.

(2) انوه إلى انه للإيجاز سوف أقوم بذكر كل الوثائق العربية الصقلية التى تكرم الأستاذ كوزا وارسل لى نسخاً منها دون اى وصف لها سوى لم تنشر بعد.

(3) ترينكيرا، *Syllabus membranarum*، نابولى، ١٨٦٥.

(4) ويوجد بعض منها فى المجموعة التى ذكرناها منذ قليل، فى صفحة ٢٠٢، ملحوظة ٢. انظر كذلك كتاب دى كيارا *Opuscoli editi, inediti e rari sul Diritto pubblico eccl. della Sicilia*، بالرمو، ١٨٥٥.

المحفوظات العامة والكنسية فى الجزيرة: وهو أمر يؤلمنى، ولكننى لا أخشى من أن ينتج عن هذا ضرر كبير، لأن مذكرات أمراء النورمان اللاتينية كانت دائماً موضع دراسة متصلة فى صقلية وقد استخدم جريجوريو كثيراً من الوثائق التى لم تنشر.

مع نهاية القرن الحادى عشر، بقى بالتأكيد فى الجزيرة جانب غير قليل من السكان القدامى من الإيطاليين والهيلينيين(1) الذين يبدو أن مالاتيرا يشير إليهم باسمى «المسيحيون» و«المسيحيون اليونانيون»(2): ويميز بينهم أماتو بصورة أفضل باسمى «المسيحيون» و«الكاثوليك»، ويدلان عنده على معنى مخالف للمعنى الحالى، فهو يقصد بالاسم الأول الشعوب الإيطالية وشعوب ما وراء الألب من أتباع الكنيسة الرومانية ويقصد بلفظ «كاثوليك» اليونانيين من حيث اللغة أو المذهب(3). وفى الحقيقة فإن ندرة المذكرات، وتشابه أسماء الأعلام بين البيزنطيين والصقليين وبين هؤلاء وسكان البر الإيطالى حتى نهر جريليانو، واختلاط إقامة مختلف الأهالى فى المدن نفسها وأحياناً فى القرى ذاتها، يجعل من الصعب التأكيد بأدلة أخرى على مدة بقاء هذه الأجناس: ولا مفر من الظن والتخمين خاصة عندما لا يشهد عليها أيضاً رواة الأخبار. ومع ذلك فإنه توجد قرائن عن الأصل، فى أسماء تلك المئات القليلة من فلاحى آتشى وكتانيا وتشيفالو وبعض الأراضى الأخرى فى إقليم بالرمو، التى تبقت لنا منهم، فى حالة بالغة الندرة، الدفاتر أو السجلات، التى تم تحريرها فى نهاية القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن

---

(1) انظر كتابنا الثالث، الفصل الحادى عشر، والكتاب الرابع، الفصل الحادى عشر، ص ٢٢٢و٢٢٤، ومن ٤٠٧ إلى ٤١٠ و٤٢٤ ، ٤٢٥ من المجلد الثانى.

(2) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل الثامن عشر والعشرون والتاسع والعشرون.

(3) *L'Ystoire de li Normant* الكتاب الخامس، الفصل الثانى عشر، والواحد والعشرون والخامس والعشرون؛ الكتاب السادس، الفصل التاسع عشر. ويلاحظ كذلك لقب *Cristianissimo* الذى يطلقه على روبرتو جويسكاردو، فى الكتاب الخامس، الفصل الخامس والعشرون.

الثانى عشر. وهنا بين العديد من أسماء محمد وعلى وعبد الله وأسماء إسلامية أخرى: وبين باسيلى وتيودورى ونيقولا بن ليو، ونيقولا نوموثيتيس وأسماء أخرى مماثلة يونانية الصياغة، تتردد أسماء أكثر شيوعاً فى إيطاليا مثل بيترى، فيليبى وچينارى وأسماء عائلات لاتينية الصياغة مثل كامبالا، دوناس أو دونوس، وبامباتشى وديوزاللو وسوبولا ولانتشاس، وبيتيتّو(1)، وزوتيكو وزوتيكا(2)، وكوروّكانى(3)، ومشيتى، ونوتارى، ولوتشى، ولالوتشى، وبيترو سابوتى. ولم يأت عبيد الأرض هؤلاء بكل تأكيد من البر الإيطالى مع الغالبين. ومن الملاحظ علاوة على ذلك أن لقب العائلة، اللاتينى أو اليونانى، كان مصحوباً غالباً باسم الشخص العربى مثل يعيش بن چيلاسيا واحمد بن روما أو روميه، ويوسف بن القارو، ويوسف بن چينارو (ينّار)، وعمر بن كريسوبوللى، ومحمد الفاصيلى وعيس بن غُرغُر وعبد الرحمن بن فرانكو وحسين بن الشنتير بل ونرى أسماء كنية، على بن فارتوتو، وعلى سترامبو ومحمد باتشونى ومحمد بن كوكو. ومن هنا نستخلص أن العديد من الفلاحين المسلمين كانوا من أصل يونانى وإيطالى. ويظهر اختلاط الأجناس أيضاً من أسماء أهل الحضر والفلاحين فى أماكن أخرى(4).

ونعلم الآن كيف يتعين فهم تأكيد أوجونى فالكاندو بأن فلاحى صقلية كانوا كلهم من اليونانيين أو السراسنة(5). وبعد مرور قرون من الزمان على عصر أماتو ومالاتيرًا اندثر، كما يبدو لى، تمييز السكان الأصليين إلى مسيحيين وكاثوليك، أى إلى إيطاليين ويونانيين. وقد

---

(1) الصورة الصقلية للفظ (*appetito*).

(2) لايجب الخلط بين هذه الكلمة واللفظ المشتق من أرض چوديكا (*Judica*) التى كتبها البعض *Zotica*.

(3) يجرى الكلب. استخدام صقلى.

(4) انظر الوثائق المذكورة هنا بعد ذلك ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ بالنسبة لسان ماركو وراميتا وليبريتسى وسان فيليبو دى فراجالا.

(5) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٤٧٥.

اندثر هذا التمييز نتيجة لضآلة عدد الفريق الأول ولأن الجهل والأحكام المسبقة وكبرياء السيطرة كان يدفع السكان الجدد، القادمين من وراء الألب والإيطاليين القادمين من البر الإيطالي، لتسمية كل السكان القدامى من غير المسلمين باليونانيين. وقد قلَّ عدد السكان الأصليين من أصل إيطالي، لأن الغالبية التي اعتنقت الإسلام، كما لاحظنا هذا من قبل(1)، كانت تعد من السراسنة. ثم أن عامة الناس كانوا في الحقيقة فيما بين العلامتين الظاهرتين للجنسية اليونانية، أي الطقس الديني واللغة، يتشبثون أكثر بالطقس؛ ومن هنا لم يتمسك اليونانيون المنضمون لكنيسة روما بلغة هوميروس وهم أولئك الذين كانوا يعيشون على سبيل المثال في الأقاليم التي أسس فيها الكونت روجيرو أديرته الباسيلية؛ وكان يستمر إطلاق اسم اليونانيين المستنكر على أتباع الانشقاق الديني وحدهم، وكذلك على الفلاحين، والأميين حسب المفهوم المسيحي. والذين كانوا دائماً متأخرين في ملاحقة المتغيرات الدينية للمدن. وقد تمخض عن الخطأ الشعبي في القرن الثاني عشر خطأ آخر لدى الباحثين. عندما ظهرت من جديد في أوربا الدراسات التاريخية، دون أن يتواكب معها التعمق في علم الأجناس: وفي ذلك الوقت توافق لدى الباحثين الإيطاليين حب الوطن مع الهذيان بأفكار صبيانية. ولا غرابة إذا كان كتاب الجزيرة آنذاك استعذبوا كثيراً الافتراض القائل بوجود أمة صقلية مختلفة تماماً عن أولئك اليونانيين الذين اعتاد عامة الناس احتقارهم: أمة أرثوذكسية كثيرة العدد ومتحضرة وعزيزة على محرريها، أو، كما يرى آخرون، على أنصارها، النورمان(2). وقد

(1) الكتاب الرابع، الفصل الحادي عشر، ص ٤٠٩ . ٤١٠ من المجلد الثاني.

(2) هكذا يقول المؤلفون المجهولون لكتاب *Breve istoria della liberazione di Messina*، الذي تحدثنا عنه في الكتاب الخامس، الفصل الثاني، ص ٦٢ . ٦٤ من هذا المجلد: وفاتزيللو بحكايته الخرافية عن الأسرى الذين فتحوا باب بالرمو وغيرهم. وماروترانا.. الكتاب الثاني، الفصل الثاني، ص ٤٣، الذي تنبه لهذا الخطأ، فوقع في خطأ آخر، مفترضاً أن المسيحية قد خبت في صقلية: وهو ما تناولناه في الكتاب الرابع، الفصل الحادي عشر، ص ٤٢٤ من المجلد الثاني.

وقع جريجوريو مع غيره فى هذا الخطأ: فقد أعطى معنى شرعياً للعبارات الصوفية أو البلاغية فى القرن الحادى عشر، وخلط روبرتو جويسكاردو والكونت روجيرو مع المطوب بوليونى المذكور فى الملحمة، فكتب يقول: إن الغزاة منحوا الحرية المدنية والإعفاءات للمسيحيين الصقليين(1). ولكننا سنتناول هذا بالتفصيل فى موضعه المناسب.

إن الوثـائق التى وصلتنـا ـ وهى النذر اليسـير من تلك الوثائق التى أعدمت ـ تلقى الضوء على التوزيع الجغرافى للأجناس، ليس فقط من خلال الأسمـاء، وإنما أيضاً من خلال اللغة والتقاويم المعروفة، فكل من هذين العاملين يتفق مع غالبيـة الشعب فى المكان: اللاتينية والتقـويم الميـلادى عند الشعوب الإيطاليـة أو القـادمة من وراء جبال الألب؛ واليونانية وتقـويم القسطنطينيـة للشعوب اليونانية؛ والعربيـة والتقويم الهجـرى للمسلمين. وهكـذا تؤكـد الكتابـات كثرة اليونـانيين فى فـال ديمونى أو بالأحـرى على الساحل الشرقى والشمالى حتى تشيفـالو(2)، وأن قلة منهم كانت توجد فى كل

---

(1) *Considerazioni*. الجزء الأول، المقدمة، الصفحة العشرون والصفحات التالية والكتاب الأول، الفصل الثانى، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(2) ليس من الضرورى أن نذكر الأوراق اليونانية الكثيرة الخاصة بمسينا ولا تلك القليلة المعروفة عن ترابنا فلدينا شهادات كثيرة مباشرة عن سكانهما. والوثائق الآتية خاصة بغيرها: راميتا، ١٠٩٦، ترجمة عن اليونانية، فى كتاب جريجوريو *Considerazioni*، المجلد الأول، الصفحة السادسة والعشرون من الملحوظات؛ وهو حكم بقضاء وشهود يونانيين وربما كان بعضهم من اللاتين: جوفانى ميلو، بيترو ريكاتو، نيكولو تيزيتا، إلخ. سان ماركو، ١١١٠، نص يونانى، نشره بوشيمى فى *Biblioteca Sacra*، بالرمو، ١٨٣٢، المجلد الأول ص ٣٧٥ وما بعدها، وهو هبة لدير سان باربارو. والترجمة اللاتينية، بتاريخ ١٠٩٧، قام بنشرها مارتورانا، فى كتابه *Risposta al Buscemi*، ص ٤٨، مستلة من *Giornale di Scienze e Lettere per la Sicilia*، الصادرة عام ١٨٣٤. راجع سباتا، *Pergamene*، ص ٢١٥.

ليبريتسى، عام ١١١٧، ترجمة عن اليونانية، فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول الصفحة السادسة والخمسون والسابعة والخمسون من الملاحظات، بأسماء رهبان، ليبارى وبالى، بعضهم فرنسى وراهب يُدعى فيليبو وهو عربى. وبه كذلك أسماء شخصيات هامة من البلاد من الواضح أنهم يونانيون وأن البعض إيطاليون مثل:

الأنحاء(1)، وأن عددهم قد زاد فى القرن الثانى عشر فى بالرمو، بعد أن أعيدت حاضرةً للبلاد(2).

سأتحدث باختصار عن الشعوب السامية. فاليهود، الذين كانوا قلة ومحتقرين من قبل أتباع الديانتين الأخريين الذين كانوا يعتمدون على كتابيهما المقدسين، لم يظهروا فى أحداث الفتح، أو فى أحداث

نيكولو دى فيليبو ونيتشيتا جاللو ونيكولو جالا وفيليبو مانكا وجوفانى جايتانى وأندريا بولينتشى. دير سان فيليبو دى فراجالا فى بلدية ميرتو. وبه وثائق يونانية كثيرة مؤرخة من عام ١٠٩٠ إلى عام ١١٤٥. وبواسطتها قدم لهذا الدير اليونانى ذائع الصيت فى صقلية، بعض الفلاحين ويلاحظ من بين أسماء عائلاتهم: برونو، كورتى ونيكولو فابرو كلودوس ستيفانوس وجالاتانو دى فلافانو، تيودورو اكومودانو... إلخ، فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*. ص ١٠٢٧؛ ولا نعلم إذا كان اللفظان فابر وكلودوس مترجمين عن اليونانية أم أنهما وُجدا منسوخين فى النص.

[illegible] *(Algara Li Fusi ?)* عام ١١١٨ (؟) يونانى، قام بطبعه بوشيمى بشكل غير مرض، المرجع المذكور، ص ٣٦٥، راجع سباتا المرجع المذكور، ص ٢٩١. تشيفالو، عام ١١٢١، ترجمة لاتينية عن اليونانية، فى كتاب بيرو، المرجع المذكور، ص ٩٧٩ وجمهور يونانى - عربى من الفلاحين، ذكرناه من قبل ص ٢٠٦. سيراكوزا، عام ١١٠٤، وثيقة لاتينية، وفيها إشارة واضحة عن رجال الدين اليونانيين ورجال الدين اللاتين، فى كتاب بيرو، المرجع المذكور، ص ٦١٩.

آتشى وكتانيا، ١٠٩٥، ١١٤٤، جماهير الفلاحين العرب - اليونانيين، فى محفوظات كاتدرائية كتانيا. انظر بالإضافة إلى ذلك بالنسبة لكتانيا ورقة امتياز عام ١١٦٨، فى كتاب جريجوريو *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، ملحوظة ٢١، الذى نقرا فيه: *Latini, Græci, Judæi et Saraceni unusquisque juta suam legem judicetur.*

(1) علي سبيل المثال توجد فى فيكارى بتاريخ ١٠٩٨ وثيقة يونانية لصالح أحد الأديرة كان قد وُهب إليه بعض الفلاحين من مختلف البلدان، ذوو أسماء مسلمة ويونانية وربما أيضاً إيطالية: نيكولو بن فيتالى، بازيليو، ساباتو، جوفريدو، زيبرو إلخ. الترجمة اللاتينية فى كتاب بيرو، المرجع المذكور، ص ٢٩٣. ويلاحظ أيضاً الاسمين اليونانيين اللذين يوجدان بين الأسماء الإيطالية والفرنسية وهما فيكارى وكاماراتا فى وثيقة عام ١١٧٥ فى كتاب جريجوريو *De supputandis*. إلخ. ص ٥٥ وقد أعاد طبعة سباتا *Pergamene*، ص ٤٥١ وما بعدها.

(2) تذكر رئيس الأساقفة الذى وجده النورمان عند دخولهم بالرمو. وكان يوجد حينئذ فى عام ١١٣٨ يونانى نائباً بابوياً، وذلك طبقاً للوثيقة المنشورة فى *Tabulario* الكنيسة البابوية ص ٨. وتحتوى المجموعة نفسها على أوراق يونانية كثيرة أخرى من عام ١١٤٤ وحتى القرن الثالث عشر بأكمله. وتشهد على هذا عبارات غير قليلة ثنائية وثلاثية اللغة.

السيطرة النورماندية: ولكنهم تركوا فى صقلية، من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر، العديد من المذكرات عن نشاطهم الحرفى والتجارى والنشاط العلمى الذى شوهه خبثهم فى معظم الأحيان(1). وكان المسلمون، ويمكن أن نحصى منهم بعض الشرقيين من الجنس الآرى(2)، البربر(3) وبعض السكان الأصليين فى صقلية، كما ذكرنا الآن لتونا، كانوا منتشرين فى معظم أجزاء الجزيرة. والمذكرات التاريخية والوثائقية، التى لا يتسع المجال لذكرها هنا، تظهر وجودهم الكبير فى ڤال دى مازارا، والعديد منهم إلى حد ما فى ڤال دى نوتو، ويقل عددهم فى ڤال ديمونى(4)؛ ومن المعروف أنهم فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر طردوا بالقوة من أقاليم

---

(1) دى جوڤانى *Ebraismo in Sicilia*. فى مواضع مختلفة؛ وجريجوريو *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص ٧، ١٥؛ زونز *Zur Geschichte und Literatur*، برلين، ١٨٤٥، الجزء الأول ص ٤٨٧. وكلنا يعلم أنه فى رحلة بنيامين دا توديلا، حقيقة كانت أم زيفاً، والتى كتبت نحو عام ١١٧٠ وتنطوى على أية حال على أنباء رائعة، تم حصر ٢٠٠ يهودى فى مسينا و١٥٠٠ فى بالرمو: الترجمة الانجليزية لأشير، لندن، ١٨٤٠ ص ١٥٩ وما بعدها. وعن هذه الرحلة انظر كتاب ليليويل *Géographie du moyen-âge* المجلد الرابع، ص ٣٧ وما بعدها. وفى قائمة كتانيا المؤرخة عام ١١٤٤، نقرأ بعد أسماء العبيد، أسماء ٢٥ عائلة يهودية. وكان فى سيراكوزا عائلات يهودية عام (١١٢٠؟).

(2) الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٣٤ وما بعدها من المجلد الثانى.

(3) الفصل المذكور، ص ٣٧ وما بعدها من المجلد نفسه.

(4) جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل الأول، ص ٥ وما بعدها وص ١٠ و١٧. كان عدد سكان جرجنتى من المسلمين يفوق بكثير عدد المسيحيين، حتى إن سان جيرلاندو قام فى عام ١٠٩٦ ببناء قلعة شاسعة المساحة وجعلها ملجأ لرهبانه كما شيد الأسقف جوالتيرو عام ١١٤١ حصوناً جديدة: مستخدماً ولمدة ثلاث سنوات آثار جرجنتى محجراً يستمد منه الحجارة. فلا نعم بالسلام فى قبره؛ *Cronichetta dei Vescovi di Girgenti*. فى كتاب جريجوريو، المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل الأول، ملحوظة رقم ١٤. ولنتذكر أيضاً الروايات المختلفة لابن جبير، *Journal Asiatique* ديسمبر عام ١٨٤٥ ويناير عام ١٨٤٦، و*Archivio Storico Italiano*. المجلد الرابع، الحاشية رقم ١٦. حيث يجرى الحديث عن المسلمين من سكان كل القرى الواقعة بين بالرمو وترابانى، وعن غيرة المسيحيين وهم يشاهدون قلعة مونتى سان جوليانو، إلخ.

صقلية الداخلية. ولن أحاول الآن تقسيم الأجيال العديدة من المسلمين فى أقاليم الجزيرة، لأنه لا توجد أية شهادة تركها الكتاب، كما أن أسماء الأعلام تتردد غالباً دون لقب عرقى؛ علاوة على أنه لم يتبق لنا منها سوى بضع مئات، مجموعة فيما يقرب من ثلاثين ورقة عربية، بين عقود خاصة وقوائم فلاحين. وهذه الأوراق تتعلق بأربع مناطق فقط. ولكن سيكفينا أن نجد فى تلك الأماكن خليط الأجناس، الذى لاحظناه تحت الحكم الإسلامى(1).

ومن بين مواطنى بالرمو، سواء من الملاك أو الشهود على عقود عامة، تتردد أسماء عرب من قبائل اليمن: أزد وكندة ولخم ومعفر ومن المدينة وحضرموت؛ وعرب من القبائل المضرية: قيس وقريش وتميم؛ وبربر من قبائل الهوارة ولواتا وزجاوه(2)، وزناته؛ دون أن نحصى بعض الأسماء العرقية المشكوك فيها(3). وعلاوة على ذلك تذكر كتابة على أحد شواهد القبور ترجع لعام ألف وأربعة وسبعين اسم شخص أصله من القيروان(4) وأسماء الاعلام، مثل باديس وتركوت. والأسماء العرقية كتامة وهوارة تشهد على ان البربر كانوا يعيشون فى تشيفالو: إلا أن الاسمين **الأولين** هما من فلاحى منطقتها الريفية، مع جزامى اليمن، وبرانى بخارى أو أصفهان، وشامى سوريا،

---

(1) الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٣٤ وما بعدها من المجلد الثانى. إن الأسماء العرقية الواردة بعد ذلك مأخوذة من الوثائق وتم مقارنتها بكتاب لب **اللباب** وابن القيصرانى، والذهبى، ومراصد **الإطلاع** وأعمال أخرى سوف أذكرها فى كل حالة على حدة.

(2) وردت فى نسخة الوثيقة زجارى، التى لا تعود إلى اسم عرقى معروف، وإذا أخذنا فى الاعتبار التشابه الكبير بين حرفى ر، و فى الكتابة الإفريقية فاننى أقراها *Zegaui*؛ وعن هذا اللفظ انظر دى سلان، ترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية، *Berbéres*، المجلد الرابع ص ٣١.

(3) حمدى، أو جمادى، حلباسى، أو جوليزى، إلخ، حيث لا توجد حروف الحركة والكتابة اليونانية. ولم أجد أسماء أخرى على الإطلاق، مثل *Arkhi*، *Baruki*، *Betresen*، (*Spitrusinu* أو *prezzemolo*) إلخ.

(4) نقش غير منشور لجامعة بالرمو، أبو طاهر عبد الرحمن بن عبد الله بن زيدون القروى.

ويورچى أو بيرچى ربما من أسبانيا وبيچاوى أى من بجاية وريفى، من أفريقيا أيضاً(1). وعلاوة على هذه الأسماء نرى فى تشيفالو مسلمين من البلد نفسه: كورليونى، وشاكا وترمينى وترابانى. ومن الأسماء القليلة للغاية التى يمكن تحديدها من بين أسماء قليلة لدينا لفلاحين فى كورليونى، نذكر أسماء ابن أبى إيفرين وشخص يُدعى لواتى من الجنس البربرى وظمرى من اليمن وبرانى من بخارى كما قلنا آنفاً؛ وشخص يُدعى ميلفى يمكن أن يكون إيطالياً من المدينة التى تحمل ذلك الاسم أو أيضاً من أمالفى. وعلاوة على ذلك هناك صقليون من چرچنتى ومن چاتو.

ولكن بين العديد من فلاحى أسقف كتانيا فى تلك المدينة وفى آتشى، نجد أن الأسماء التى يمكن التعرف عليها، وهى فى الحقيقة ليست كثيرة، قد ترجح الجنس الأفريقى. ويبدو لى أن إيفتن وإيكتيزى من أسماء البربر؛ ومن المؤكد أيضاً أن ثلاث عائلات تلقب بالبربر كانت عائلات بربرية، وكذلك الحال بالنسبة للنازحين الذين ترجع أصولهم للقبائل البربرية الشهيرة بارجواتا ومكلاتة ونيفزاو. ومسراطة وأجيزة وأوردين وويرّو(2)؛ ومن الأفارقة أيضاً، حتى إن لم نكن نعرف جنسهم، الذين ترجع أصولهم لمدن برقة وبونا وتونس وموسا ومميلا ومليلا وسلولوك، والساحل، وجزيرة أراچيجون الصغيرة(3).

---

(1) ريفه اسم قبيلة بربرية وكذلك لمواضع فى إفريقية، دى سلان، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٩٤. ونلفت الانتباه إلى أنه إذا تغيرت نقط الضبط التى على الحروف نفسها تحولت إلى رُبيمى نسبة إلى قبيلة رُبيمة العربية وهى إحدى القبائل التى احتلت إفريقية فى القرن الحادى عشر عند قدومها من مصر: (دى سلان، المرجع المذكور، المجلد الأول ص ٣٢)؛ أو نسبة إلى قبيلة ربمة، وهى فرع أزدى (ابن قيصرانى، *Homonyma*، ليدن، عام ١٨٦٥، ص ١٩٤).

(2) عن الأسماء الثلاثة الأخيرة انظر دى سلان، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٧١، ٢٨٢، ٢٨٥، المجلد الثالث، ص ٢٧٣، ٢٧٩. أما اسم ڤيرّو *Verro* فيمكن أن يكون اسماً لاتينياً.

(3) فى النص العربى قد يكون أرجاكتو، وفى الكتابة اليونانية [illegible] وارچيچون هى جزيرة عند مصب نهر مولوليا. كما ورد فى كتاب الإدريسى، ليدن، *"Description de l'Afrique et de l'Espagne"*. عام ١٨٦٦ ص ٢٠٦ من الترجمة.

ومن بين العبيد هناك شخص يُدعى ملطى يرجع أصله على ما يبدو إلى ميليتى. ونلمح ستة أسماء سلالات عربية بين الفلاحين، مسعودى وحجازى وجفقى، وهو أحد فروع قبيلة أزد، وأسماء قبيلة قيس المذكورة عاليه وزجبة التى انتقلت لتوها من مصر إلى أفريقية وامرأة قريشية وأخرى مصرية. وليجاتى تشير إلى ارض فى سوريا؛ وعينونى لقرية بالقرب من القدس؛ وتورونجى لطبرستان وكيرمانى لإقليم آخر شهير جداً فى آسيا. وعائلة كامستيللانى وعائلة فكرى يبدو أنهما جاءتا من أسبانيا، مثل عائلة الأندلسى بالطبع. واسم نبيلى الذى تحمله العديد من العائلات يظل من أصل مشكوك فيه بين نابولى الإيطالية وتلك الأفريقية. وهناك أيضاً الصقليون: مدنى وسيكيللى اللذان يعنى أنهما من بالرمو، ومن أتشى وكتانيا نفسهما وكاماراتا وسيمنتارا وبوركاد، وراجوزا وسانتا اناستازيا وتاوى وترابانى وميسمار(1)، ومالطة: واسم بيكارى الذى يبدو أنه نسبه إلى فيكارى(2) وسيد السرقوسى، وهو من العبيد. ويؤكد رخام المقبرة الجميل فى متحف مالطة أن عائلة ثرية استقرت فى تلك الجزيرة، بعد أن جاءت على ما يبدو من سوسة فى أفريقية وهى تنحدر من قبيلة حظيل المضرية(3). هذه هى المعلومات العرقية القليلة التى

(1) ميسمار هو اسم شبه جزيرة مانيزى الواقعة بين سيراكوزا وأجوستا. والكتابة اليونانية لهذا الاسم الذى كان يطلق على عائلتين من عائلات فلاحى أتشى هى ,μεσμασμ . وإذا كان الناسخ اليونانى قد خلط بين حرف (ω) وحرف (r)، وهو خطأ شائع فى المخطوطات الإفريقية، فيمكن أن يكون هذا الاسم هو لقب الأسرة المشهور (ماء السماء).

(2) كلما كتب الإدريسى اسم فيكارى بيكو، فإن لفظ بكارا كان يشير إلى هذه أو إلى أرض صقلية أخرى. انظر كتابنا الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٧٩ من المجلد الأول، الهامش رقم ٣.

(3) هذه العبارة نشرت فى أول الأمر فى، *Mines de l'Orient*، المجلد الأول، ثم أعاد م. دو فرسنل نشرها، عن الأصل، فى، *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٧، ومعها ترجمة إنجليزية جيدة لفراس شيدياق. ويرجع تاريخها إلى عام ٥٦٩ (١١٧٤). واسم المتوفاه هو، ميمونة بنت حسن بن على حظيلى. إلا أن بعد هذا الاسم تأتى عبارة *An attendant of Ibn-es-Soosee* وعندما ظهرت لى هذه النسبة غريبة لاعتبارات

استطعت تجميعها، بعد أبحاث كثيرة.

ومن الأجناس الجديدة تتردد أولاً أسماء النورمان. وفى صقلية، مع نهاية القرن الحادى عشر لم يكن هؤلاء أناس جاءوا فى مجموعات للاستقرار فى البلد المحتل، كما فعل قبل ذلك بقرنين فايكينج رول فى نورماندى: فلم يكونوا جيشاً منظماً يستقر بصورة منتظمة فى بيت المهزومين، كما فعل قبل ذلك ببضع سنين أتباع جوليلمو فى إنجلترا: بعد أن نصب الدوق نفسه ملكاً هناك ورفع الإقطاعيين إلى مرتبة الدوقات وهلم جرا. بل إن غزو الجزيرة البريطانية الذى كان معاصراً للحرب التى كانت تدور رحاها فى الجنوب على بعد ألفى ميل، قد يستبعد افتراض حدوث هجرة كبيرة من نورماندى ومن أقاليم أخرى من شمال فرنسا إلى صقلية، إذا كان لزاماً علينا اللجوء للاحتمالات، ولم نكن نعرف بالضبط أن فرق بوليا النورماندية كانت تتألف فى جزء منها من مغامرين تم جمعهم من شبه الجزيرة الإيطالية كلها(1) وأن الكونت روجيرو، الذى كانت لديه عدة فرق منها، جمع بصعوبة بعد اقتحام بالرمو عدداً قليلاً آخر من رجال جيش روبرتو(2). وقد أدت حروبه الأهلية، وحرب اليونان والخلاف الذى خلفه بوصيته لأبنائه، إلى الإبقاء بعد ذلك فى الأقاليم الجنوبية من البر الإيطالى على أهل ما وراء الألب الذين استقروا بها وجذبوا إليها المغامرين الذين استمروا مع ذلك فى المجئ فى تعاقب مستمر من وراء الألب؛ حتى نقلتهم دوامة الحروب الصليبية كلهم إلى الشرق.

وهذه الافتراضات تقابلها الوقائع. فالمذكرات التاريخية من كل نوع لاتشير إلى هجرات فرنسية إلى إيطاليا الجنوبية بعد عام ألف وستين، إلا على شكل هجرات فردية، من الكهنة والرهبان أكثر من

كثيرة طلبت من باريس من زميلى فى المنفى فرانشسكو كريسبى، الذى كان وقتها فى مالطة، صورة ضوئية لتلك الكلمات وحصلت عليها فى ديسمبر ١٨٥٢ ولم أتأخر فى قراءتها «كُتى ابن السوسى».

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل الأول الصفحات: ٣٣ و٣٤ و٣٦ و٤٠ من هذا المجلد.

(2) الكتاب الخامس، الفصل الخامس، ص ١٤٤ من هذا المجلد.

المحاربين. ثم أن الأسماء الفرنسية التى نراها فى الوثائق وفى أخبار صقلية هى أسماء أولئك الذين كانوا يشغلون أعلى المناصب فى المجتمع: الإقطاعيون ورؤساء الكهنة والموظفون العموميون(1)، وقد كانوا هم غالبية الناطقين بهذه اللغة والمقيمين فى صقلية، إن لم يكونوا هم وحدهم. وعن السكان بمعنى الكلمة فى أية مدينة أو قرية أو حتى فى حى من الأحياء لم يتبق أى خبر فى الأوراق، أو آثار أو روايات الإدارة البلدية؛ ولم يتبق منهم أى أثر فى الأسماء الطبوغرافية(2). لأنه إذا ظن البعض أنه قد تم اكتشاف آثار أعمق للألفاظ الفرنسية فى اللهجة الصقلية، فإن الألفاظ والصيغ التى كان يظن أنها فرنسية يجب أن تنسب فى معظمها لسكان إيطاليا الشمالية؛ وعلى أية حال فإنها لا تصل إلى الحد الذى ربما وصلت إليه، لو أن تأثير البيوت الحاكمة كان مدعوماً بغالبية من السكان

---

(1) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الأول، الهامشان ٢٥، ٢٦ إلخ. لا جدوى من ذكر الوثائق القديمة التى تتضمن أسماء فرنسية. ولكننى سوف أذكر إنه فى إحدى وثائق عام ١١٧٥ والتى نشرها جريجوريو فى *De supputandis*، ص ٥٢ وما بعدها، ومن ثمة سباتا فى *Pergamene*، ص ٤٥١ وما بعدها، والترجمة اللاتينية عن العربية وعن اليونانية ترجع إلى القرن الثالث عشر. نقرأ اسمى السير بونوم دى كوستازين، سير ريكالهنوس دى كالاتابوتور إلخ. وفى وثيقة عربية لم تنشر لكنيسة تشيفالو، ومحفوظة فى دار محفوظات بالرمو، نقرأ اسم سير جوليلمو، وكان مصرفياً أو ماذا لا أعلم، فى تشيفالو. ويبدو أن الفرنسيين، سواء كانوا نبلاء أم غير نبلاء، كانوا فى القرن الثانى عشر يحبون أن يلقبوا فى صقلية بلقب سير.

(2) بعد أن أخضعت للدراسة الدقيقة أسماء كل البلديات الحالية والقرى المهجورة، وهى كثيرة، والتى قمت بنشرها عام ١٨٥٩ فى *Carte Comparée de la Sicile*. وجدت أسماءً أخرى، ضئيلة الأهمية ومشكوك فى أصلها: فكان يطلق على بلدية فالدولمو الحالية اسم كاستيلنورماندو فى القرن السابع عشر على حد قول امهكو *Dizionario topografico*. ولكن ليست هنالك أخبار أسبق؛ وتشامبرا اسم قرية قريبة من مونريال؛ مرحلة جوليلم وهو مكان قريب من مونريال؛ ويبدو أنه كان مكان للصيد خاص بأحد الملوك يطلق عليه هذا الاسم. واترك فرنكافيلا، وهى بلدية، ومونبيليرى وهو اسم قرية دمرت فوق جبل إتنا، ذلك لأن بيلا وبيليرى ننطقهما كما ينطقهما الفرنسيون. كما انحى جانباً الأسماء المركبة والتى تدخل فيها بورج، والتى قد تكون فرنسية أو إيطالية أو عربية.

يتحدثون اللغة نفسها . ويضاف إلى ذلك أن العائلات الفرنسية اختفت من مذكرات صقلية مع آخر أمير نورماندى حكم. وليس هناك ما يدعو للاستغراب عندما نراها بالكاد فى ظل حكم روجيرو الثانى القوى وقليلاً تحت حكم خلفائه . ولأنه إذا كان أى بارون من تلك السلالات قد دخل آنذاك فى المنازعات السياسية، فإن تأييد البلاط وسلطة الدولة كان موضع خلاف دائم بين الإيطاليين والمسلمين وبعض رؤساء الكهنة القادمين من وراء الألب؛ وكان يحدث دائماً أن يظل هؤلاء دون أصدقاء فى البلاد . وستيفانو ذاك وكان كونت من بيرش، الذى استدعته الملكة لحكم الدولة عندما كان جوليلمو الثانى صبياً، لم يجد فى صقلية مؤيدين آخرين سوى اللومبارديين، الذين سنتحدث عنهم فيما بعد . وهناك اثنان من الضيوف الأجلاء وصلا إلى صقلية فى القرن الثانى عشر، وكلاهما من الكتاب والكهنة الفرنسيين، ونقصد بهما فالكاندو الذى كان يحب البلاد حباً جماً وبيترو دى بلوا، الذى سبه قائلاً أنه مغامر خائب الأمل. لم يذكرا كلمة عن وجود سكان فرنسيين فى الجزيرة، ولا عن بارونات نورمان قدامى؛ ولا يذكر أولهما، بصفة خاصة، فى تناوله للاضطرابات التى حدثت فى مسينا بسبب ستيفانو، فرنسيين آخرين سوى أتباعه الذين جاءوا حديثاً ويلاحظ كيف أن اللاتين فى المدينة كانوا يعرضون اليونانيين، الذين كانوا يمثلون غالبية السكان فى مسينا، ضد أولئك الأجانب(1). ويشير فالكاندو فى الحقيقة إلى التحدث بالفرنسية فى بلاط بالرمو؛ ولكن شهادته لا تستبعد استخدام لغات أخرى، سواء اليونانية أو العربية أو الإيطالية؛ ولا يذكر إطلاقاً أن الناس كانوا يتحدثون الفرنسية فى المدينة وفى الأقاليم(2). وهكذا يسقط الدليل الرئيس الذى يسوقه جريجوريو لاثبات مقولته المفضلة عن الأصول

(1) فى كتاب، كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٤٧٧ .

(2) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٤٦٦ . واوعز رجال البلاط إلى اريجو الأحمق وهو احد أمراء نافارا، وشقيق الملكة، بأن يستحوذ على كل الأمور بدلاً من

النورماندية(1). ولا تصمد أكثر منها مقولة صلاة القداس بلغة بلاد الغال فى كنائس صقلية، لأن الدليل الوحيد قد يكون ما لايمكن لأحد أن ينكره، أى أن الكونت روجيرو وكثيرين من باروناته كانوا من النورمان وكانوا يجيئون بكهنة فرنسيين لصلاة القداس طبقاً للطقس المتبع فى بلادهم(2).

ويجدر بنا أن نكرر أنه: فى نهاية القرن الحادى عشر كان يقيم فى صقلية كثير من الإقطاعيين وكثير من نوابهم والعديد من رؤساء الكهنة والرهبان، الذين ولدوا فى شمال فرنسا. وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان البلاط يستأجر فرقاً من المرتزقة من وراء الألب، ويحتمل أنهم كانوا من الفرنسيين(3). وكان أيضاً عدد غير قليل من الكهنة والرهبان، ترسلهم الرهبانيات فى فرنسا ليمثلوا كنيسة روما فى بلاط بالرمو وليكوِّنوا ثروة لأنفسهم: ولمنافسة الإيطاليين والبيزنطيين فى الفوز بحظوة الأمراء وتدبير أمور الدولة والأسقفيات والأديرة والوظائف العامة. ولقد حددنا(4) نحن

ستيفانو، وهو كونت من بيرش. ولكى يتخلص من العبء الذى كان يفوق قدراته، زعم من بين مزاعمه أنه: *francorum se linguam ignorare, que maxime necessaria esset in CURIA*. فالأمر كان يتعلق إذن، لا بالبلاد، ولكن بالبلاط؛ حيث إن الأمير الطفل، ابن حفيد الكونت روجيرو وتلميذ بيترو دى بلوا، كان يتحدث كما يبدو الفرنسية وكان رجال البلاط الإيطاليون والعرب يتكيفون معه. ولنتذكر مع هذا شهادة ابن جبير بأن جوليلمو الثانى نفسه كان يتحدث العربية. ومن الملاحظ فى نهاية الأمر أن من بين اللغات المستخدمة فى بلاط بالرمو متعدد اللغات، كانت لغة فرنسا هى أقل اللغات صعوبة بالنسبة للنصارى.

(1) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الأول، الهامش رقم ٢٧.

(2) الفصل المذكور، الهامش رقم ٢٨.

(3) *Strenuos bello milites Longobardos (del Napoletano) ac Transmontanos... sibi largitionibus alliciens,* يقول هذا فالكاندو عن الوزير مايونى، فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٤١٩. ثم صار به أسبان، المرجع المذكور، ص ٤٥٩ وكان به مسلمون على الدوام.

(4) فى هذا الكتاب نفسه، الفصل السابع، ص ١٩١ من هذا المجلد. ونعلم من خلال رسالة بيترو دى بالواه (*Epistolæ, n°66*) أنه بعد أن فارق جوليلمو الطالو الحياة أرسل رئيس أساقفة روين سبعة وثلاثين شاباً من العلماء أو ذوى الدماء النبيلة إلى بلاط

اتجاهات هذه الطوائف والقوة التى كان يستغلها هؤلاء الرهبان. بالخداع تارة وبعلومهم الدينية تارة أخرى، مثلما يفعل الأعور فى بلاد العميان. فى الوقت نفسه ظهر من بينهم بعض الرجال المثقفين الذين ساعدوا على تحضر الأمة الجديدة تبعاً للعصور المختلفة: وكان راوى أخبار الكونت روچيرو فرنسياً؛ وكان فرنسياً أيضاً مؤرخ جوليلمو الأول والثانى؛ حتى إن صقلية وإيطاليا كلها يجب أن تدين بالفضل للجنس الاسكندنافى وغيره من السلالات المنحدرة من فرنسا الشمالية للعمل الذى قاموا به فى العهد النورماندى بعبقريتهم وبقوتهم على حد سواء. ولكن صقلية لم يكن بها سكان فرنسيون بمعنى الكلمة: وقد اندثرت العائلات القليلة خلال قرن واحد، ورجال الدين خلال جيل واحد.

وربما يكفى ازدهار اللغة فى صقلية مع نهاية القرن الثانى عشر ليبرهن على مجئ مستوطنات كبيرة من البر الإيطالى: لأن الشعوب الإيطالية القديمة جداً فى الجزيرة، بعد خمسة قرون من السيطرة البيزنطية والإسلامية، لم يكن بوسعهم التحدث بلغة قريبة جداً من لغة إيطاليا الوسطى، أو فرضها على غيرهم من السكان من أصحاب اللغتين اليونانية والعربية. وهناك قرائن كثيرة تؤكد هذا الافتراض: حتى وإن كان كاتب سيرة الكونت روچيرو يخفى مشاركة السلالة الإيطالية فى فتح الجزيرة، كما لا يذكر دور أردوينو فى الانتفاضة ضد البيزنطيين، ومساعدات ابن الثمنة فى بداية حرب صقلية. ويؤكد الكتاب العرب صراحة أن روچيرو عمل على إقامة الفرنجة والروم فى الجزيرة مع المسلمين؛ وكلمة الروم تعنى هنا بوضوح الفرنسيين والإيطاليين(1). وينبغى أن نضيف إلى هذا العديد من

بالرمو. انظر رسائل سان تومازو دى كانتربورى ورسائل رئيس دير كلونى إلى الملكة الوصية على العرش فى صقلية وإلى وزيرها ريكاردو بالمهر والذى نجد فى الشعر المكتوب على ضريحه كما يبدو لى موجزاً لسيرة المغامرين الذين نتناولهم بالحديث: *Anglia me genuit, instrut Gallia, fovit Trinacris.*

(1) ابن الأثير، النص، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧٨، ونوفيرى فى المرجع نفسه ص ٤٤٨ وفى كتاب جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٦.

الأسماء العرقية التى اطلقت على الأماكن: برج بيزانا وحارة أهل أمالفى فى بالرمو(2)؛ وشارع أهل فلورنسا فى مسينا(3)، حيث يأتى أيضاً ذكر قنصل أهل أمالفى(4)، وضيعة الجنوى (ربْع الجنوى، *Cultura Januensis*) فى إقليم بالرمو(5)، وحى أهل كوزنسا فى لنتينى(6)، وأسماء ما يقرب من ثلاثين من البلديات فى صقلية نجد لها أسماء مطابقة أو مماثلة فى البر الإيطالى(7)؛ وقد استبعدنا من هذه المقارنة، نظراً لشيوعها عند كل الشعوب اللاتينية، أسماء القديسين المسيحيين والأسماء المركبة من الفاظ *Casale* (كفر)،

---

(2) اوجو فالكاندو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٤٠٦ و٤٠٧.

(3) وثيقة ترجع لعام ١١٩٢، فى كتاب بيرّو. *Sicilia Sacra*. ص ١٢٨٨. ولفظ *rua* أو *ruga* لا يدل بالتأكيد على الأصل الفرنسى للسكان. بالإضافة إلى أن مسينا كانت فى الأساس يونانية. ونقرأ هذا اللفظ فى وثيقة لبرباروسا، الذى تعهد لأهل جنوة بـ *rugam unam cum ecclesia balneo, fundico et furno* فى كل مدينة تكون الإمبراطورية على وشك الاستيلاء عليها فى مملكة صقلية. *Liber Jurium Reipub, Genuensis* المجلد الأول. ص٢٠٧، وثيقة يونيه عام ١١٦٢.

(4) *Ravellus Magister Amalphitanorum Messane,* توقيع فى وثيقة يونانية بتاريخ ٦٦٨٠ (١١٧٢)، وترجمة لاتينية فى كتاب جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الثانى. الفصل الثانى. الهامش ٣٢.

(5) وثيقة عربية لدير مونريالى بتاريخ ١١٨٢، وترجمتها اللاتينية فى كتاب ديل جوديتشى، *Descrizione del Tempio... di Morreale*. ص ١٢. فى نهاية شمار سومينى.

(6) ميكيلى دا بياتسا، فى كتاب جريجوريو. *Biblioteca Aragonese*. المجلد الثانى. ص ٧٧. وهذا الخبر يعود إلى القرن الرابع عشر.

(7) اكوافيفا (كالتانيستا) اكوافيفا (موليزى ،اثنان، ارض بارى، اسكولى). التافيلا (بالرمو) التافيلا (برينشباتو التريورى، شيتروبورى الاسكندرية، مونفراتو).

ببفونا (چرچنتى) ببونا (بيزا).

فيكارى (بالرمو) بيكّارى (كابيتانا).

بريجا (سان ستيفانو) (مسينا) بريجا (نوفارا، كونيو).

برولو (مسينا) برولبازينو (كريمونا). وأيضاً برولبو.

بورچو (چرچنتى) بورچو (چنوة).

كامّاراتا (چرچنتى) كاميراتا (برجامو، أنكونا).

كارونيا (مسينا) كارونا (برجامو).

كاستانيا (مسينا) كاستانا (بافيا)؛ كاستانو (ميلانو).

Castello (قلعة)، *Castro* (قصر)، *Massa* (ضيعة)، *Monte* (جبل)، *Rocca* (حصن)، *Serra* (حلّق)، *Torre* (برج)، *Valle* (وادى) وما يشابه ذلك؛ وقد استبعدت أيضاً، للصعوبة التى واجهتها حتى الآن فى البحث عنها، أسماء الأرياف والضياع والشواطئ والمياه. والآن يجب أن نضيف إلى

كياراموتى (سيراكوزا)	كياراموتنى (ماسّارى)؛ كياراموتنى (بازيلكاتا).
تشبنزى (بالرمو)	تشينزيللو (ميلانو).
كورليونى، وقديماً كوريليونى (بالرمو) كوريليا (لوكّا، جنوة)؛ كوريليانو (كلابريا، وأوترانتو).	
جالهانو (كتانيا)	جالهانو (ابروتسو، أوترانتو).
چيراتشى (بالرمو)	چيراتشيه (كلابريا).
جرافينا (كتانيا)	جرافينا (بارى).
جوالتيرى (مسينا)	جوالتيرى (ريچو إميليا).
ميرابللا (كتانيا)	ميرابللا (برنشيباتو)؛ ميرابللو (كريمونا، بافيا،
	الاسكندرية، مونفيراتو، ميلانو، موليزى).
موتّا «اثنان» (مسينا، كتانيا)	موتّا (كلابريا أولتريورى ١و٢، كريمونا، نوفارا
	«اثنان» كابيناناتا، بافيا، ميلانو «اثنان»).
نوفارا (مسينا)	نوفارا (نوفارا) (بيمونتى).
بالاتسولو (نوتو)	بالاتسولو (تيرا دى لافورو، ميلانو، بريشا،
	نوفارا)، بالاتسوولو (فلورنسا).
باتيرنو (كتانيا)	باترنو (برينشيباتو، كلابريا، أنكونا) بادرنا (اسكندرية)
	بادرنيللو (بريشا) بادرنو (كومو، كريمونا بريشا،
	ميلانو) باترنو، قرية وكنيسة بالقرب من فلورنسا.
بتّينيو (مسينا)	بتّينينجو (نوفارا).
بياتسا (كالتانيسيتّا)	بياتسا (ماسّا وكرّارا، بيرجامو، كومو)
	بياتساتورى (برجامو). بياتسو (تورينو،
	برجامو «اثنان». بياتسولو (برجامو).
سالا (باروتا) (ترابانى). سالا (دى بارتينكو) (بالرمو).	سالا، كفر قديم بالقرب من شاكّا
	سالا (كومو، بارما، نوفارا جولونيا، اسكندرية
	«اثنان»، كومو، برينشيباتو).
سامبوكا (چرجنتى)	سامبوكا (فلورنسا، كونيو) سامبوجيتو (نوفارا).
سابونارا (مسينا)	سابونارا (بازيليكاتا).
سكالِتا (مسينا)	سكالِتا (كونيو).
سكوبيللو (تونّارا دى)	سكوبيللو وسكوبا (نوفارا).

هذا الأسماء العرقية للأشخاص. ومن بين خمسة من كهنة چرچنتى جاء ذكرهم فى وثيقة ترجع لعام ١١٢٧، نجد أحدهم من روما وآخر من بوليكاسترو وثالثاً من لوكّا، ورابعاً من بريشا وخامساً فرنسياً، علاوة على شخص من چنوه وآخر من بيزينيانو، مكتوبين بين الشهود(1). وفى وثيقة بتاريخ ١٠٩٤ من مسينا أو باتّى، نرى بين الشهود، مع بضع أسماء فرنسية وبعض الأسماء اليونانية أو العربية، إلدبراندوس لومباردوس، وروچريوس دى تورشيتو اكونيوس، وأوجو دى بوتيوليس، وجواليتيريوس دى كانّا، علاوة على عائلات ماليدوتو وروفّو وستراتو ومينوارتينو وأستارى وبونللى وماركيزى(2). وهناك وثيقة أخرى ترجع لعام ١٠٩٥ تقدم من بين الشهود، مع بعض الأسماء الفرنسية أو المشكوك فيها، أسماء اريجو شقيق أديلايدى، وأودونى بونو الماركيز، وروبرتو بوريللو آكوينو، وريكاردو بونيللا وروچيرو بونيللو(3). واسم ألفييرى المكرم نقراه بين أعيان أرض سان ماركو، فى وثيقة بتاريخ ١١٣٦(4). وهناك وثيقة من كنيسة باتى، بتاريخ ١١٣٣، وتتعلق بالصلح فى نزاع نشأ بين سكان المدينة والأسقف، تضم بين الشـــهود شخصاً من چنوة، وآخر من بارما، وثالث من بوتنسا والعديد من رجـــال باتّى، بأسماء كلهـــا ذات صياغة إيطالية؛ وما هـــو أكثر من ذلك، محضر مدرج فيهـــــا، يرجـــــع إلى

---

(1) فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الأول. الفصل الثالث. الهامش رقم ١٦. الفرنسى من ليماى، فى دائرة دوردونى (ليموليتسيز). وقد قلت عن هربوتوس براوزنسيس (برسنسيس) إنه من بريشا.

(2) فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧١، ٧٧٢. كانت تولتشيتو قرية فى زمام بلدية نّى العـــالية. فى إقليم چنوة، كمـــا هو واضـــح فى: *Atti della Società Ligure di Storia patria*، المجلد الثانى. الجزء الثانى، ص ٧٦٩. ويوجد أيضاً من بين الشهود شخص يُدعى روبرتو دى ساردڤالى (أو سوردڤالى كما نقرأ فى كتاب مالاتيرا، الكتاب الثالث، الفصل الثلاثون)، وهذا الاسم من الممكن أن يكون نسبة إلى سورديڤولو فى إقليم نوڤارا. اسم جوليلمو دى سورداڤالى جاء فى وثيقة عام ١٠٩٠. فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٢٤٨.

(3) فى كتاب بيرّو. *Sicilia Sacra*. ص ٧٦.

(4) فى كتاب سباتا. *Pergamene*. ص ٢٦٦.

نهاية القرن الحادى عشر، ويشهد بأن الأسقف أمبروجو كان قد حظر آنذاك التنازل عن الممتلكات لأى رجل لاتينى اللغة يأتى للسكن فى البلاد : ومعنى لاتينى اللغة تشرحه وثيقة ١١٣٣ نفسها، وتضيف أن تلك اللائحة التى قررها أمبروجو كانت «معروضة باللغة الدارجة» على أهل المدينة المشاركين فى النزاع(1). وفى الوقت نفسه لا توجد لدينا، ولا نأمل فى أن نحصل، على تقارير تفصيلية حول الهجرات المتناثرة من البر الإيطالى إلى هذه المدينة أو تلك فى الجزيرة: حتى وإن كان لابد أن نفترض أنها عديدة، ومن إيطاليا الشمالية أكثر من الجنوبية. أما الحكم الإقطاعى الذى أقامه النورمان هنا فى بعض الأقاليم وجددوه فى البعض الآخر فقد كان يمنع الهجرة من أرض لأخرى، وكذلك وراء البحار(2). وفى إيطاليا العليا كان الإقطاع، على العكس من ذلك، يتفكك بالذات فى ذلك الوقت، حتى دون أن تنتظم البلديات: ومن هنا فإن أعضاء هذا النظام الإجتماعى أو ذاك العاجزين الذين أثارتهم تقلبات عديدة جوهرها واحد ومظاهرها مختلفة، كانوا يحاولون البحث عن حظهم فى بلاد جديدة، وكانوا ينتقلون إليها دون عقبات.

ومن هنا كانت الجماعات الكبيرة التى كانت تسمى باللومباردية، ولا تقصنا بشأنها شهادات تاريخية طيبة. وكل منا يعرف المعنى المبهم الذى كان يعنيه فى وقت من الأوقات اسم لومبارديا، الذى جعله الأجانب أحياناً يشمل شبه الجزيرة كلها(3).

---

(1) فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الخامس، هامش رقم ٢، ص ٥١، ٥٢.

(2) تحظر وثائق صقلية ونابولى فى القرن الثانى عشر ودساتير الإمبراطور فدريجو بشدة أن يرحل عن أرض السيد، ليس فقط عبيد الأرض وأهل القرى وإنما أهل المدن أيضاً.

(3) **مراصد الإطلاع**، النص، تحت مادة انكابورد. ولكن الإدريسى فى كتابه **الجغرافيا**، ترجمة جوبير، المجلد الثانى الصفحات ١١٨، ١٢٠، ٢٦١، ٢٦٢ فيضيق الحدود من جهة الجنوب، ويعرف أبو الفدا التقسيمات السياسية لإيطاليا، **الجغرافيا**، ترجمة م. رينو، ص ٣٦، ٣٧.. إلخ.

ولكن بما أن العديد من الباحثين، ومن بينهم جريجوريو، قد افترضوا أن اللومبارد فى صقلية قد جاءوا من إيطاليا الجنوبية وكذلك من ضفاف نهر البو، فإننى يجب أن أذكر أن هذا الخلط لم يقع فيه كتابنا، أو الأجانب، فى العهود النورماندية. فقد كتب بيترو دياكونو عن جماعات غفيرة من اللومبارد واللونجوبارد الذين اتبعوا بيير المتوحد(1) ويتحدث رئيس أساقفة تسالونيكا بالغ الثقافة عن الضرائب الثقيلة التى عانى منها أهل بيزا وجنوة وتوسكانا واللونجوبارد واللومبارد على يدى أندرونيكو كومنينو(2). وكان اسم اللونجوبارديين يطلق على سكان إيطاليا الجنوبية، حيث كان البيزنطيون قد استعادوا جزءاً من الدوقيات، وجعلوا منها موضعاً، يسمى لونجوبارديا(3). وهكذا يضع فالكاندو اللونجوبارد واللومبارد على أنهم شعبين مختلفين تماماً: أولهما يسكن أقاليم فى البر الإيطـالى، وثانيهما يسكن صقلية(4). ويرجع أول ذكر بقى لنا عن هذه الجـماعات، علاوة على أسـماء إيلدبراندو وروجـيرو دى تورشـيتو دا أكوى (١٠٩٤)، التى ذكرتها للتو، إلى القـرن الثانى عشر: وهى وثيقـة دقيقـة وفى غـاية الأهـمية، قرر فيها المـلك روجـيرو، أن اللومبارد من سانتا لونتشـيا تنطبق عليهم الاعفاءات نفسها التى تطبق على اللومبـارد فى راندا تسـو(5). ثم نستخلص من رواة

---

(1) فى كتاب موراتورى، *Rer. Ital. Script*. المجلد الرابع، ص ٤٩٨.
(2) *Eustathii Metropolitæ Thessalonicensis, De Capta Tessalonica,* طبعة بون ص ٤١٥. ويكتب اوستازيو [illegible] e λογγιβάρδοι
(3) بيترو دياكونو، فى كتاب موراتورى، *Rer. Ital. Script*. المجلد الرابع، ص ٥١٨. ثم انظر كوستانتينو بورفيروجينيتو، *De Themathibus*، ص ١٤٦٢. وموراتورى، *Annali d'Italia*، عام ١٠٠٨.
(4) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.* الحديث عن الشعوب الأولى (اللونجبارديين) فى ص ٤١٩ و٤٤٤ و٤٥٠ وعن الثانية (اللومبارديين) فى المواضع المذكورة هنا. انظر أيضاً روموالدو سالرنيتانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٨٦٨.
(5) فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، الهامش ٢٥. لم يذكر جريجوريو التاريخ: ولكن لا يمكن أن يكون بعد عام ١١٥٢.

الأخبار بعد ذلك أن رجال بوتيرا، وبياتسا ومدن أخرى من مدن اللومبارد، بتشجيع من شخص يُدعى روچيرو سكياڤو، وهو رجل نبيل سنتحدث عنه حالاً، قد استلوا أسلحتهم ضد جوليلمو الأول وضد السراسنة؛ وأن الملك دمر بياتسا وكسر شوكة اللومبارد؛ وأنه بعد أن لجأ سكياڤو إلى بوتيرا استولى جوليلمو فى النهاية (١١٦١) على المدينة، واتفق على أن يرحل المتمردون اللومبارد وقائدهم عن صقلية(1). ويستطرد فالكاندو قائلاً أنه بعد بضع سنين، كان البعض فى البلاط يظنون أنه مازال كثير من الخونة الأثرياء والأقوياء، فى المدن اللومباردية، تحركهم المكائد والمؤامرات وبعد ذلك عند موت الملك (١١٦٦) وترقية ستيفانو دى روترو من بيرش لدرجة كبير المستشارين، وقف اللومبارد معه بحرارة أكثر من كل سكان صقلية الآخرين؛ وفى تصعيد للعاصفة (١١٦٨) قدم له رجال «راندانسو وڤيكارى وكابيتسى ونيقوسيا ومنياتشى ولومبارد آخرون» جيشاً قوامه عشرين ألف مقاتل(2). ويضيف فاتزيللو إلى عدد الجماعات اللومباردية فى هذه الحقبة، أيدونى وسان فراتيللو(3)؛ والجهات التى كانت تسمى لومبارديا فى سان فيليبو دارچيرو وفى كاستروچوڤانى تدعو للاعتقاد بأن جزءاً على الأقل من تلك المدن كان قد احتله الشعب نفسه(4). وهناك سكان آخرون جاءوا من إيطاليا الشمالية إلى كورليونى وسكوبيللو، فى

---

(1) فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٤٤٠ و٤٤٢ و٤٤٣ و٨٦٨.

(2) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، الصفحات ٤٤٨ و٤٦٢ و٤٨٠ و٤٨١.

(3) العشرية الأولى، الكتاب الأول، الفصل السادس، والكتاب العاشر، الفصل الأول والثانى، بالنسبة لأيدونى؛ وبالنسبة لسان فراتيللو، العشرية الأولى، الكتاب التاسع، الفصل الرابع، حيث نقرأ: *et Longobardorum, ut ex incolarum idiomate colligitur, oppidum* هذا ما يؤكده اميكو فى *Dizionario topografico*.

(4) بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٨٢، ٥٨٨.

بدايات القرن الثالث عشر(1) ويمكن جداً أن نفترض، مع باحث ألمانى، أن الأماكن نفسها قد احتلها ذات مرة المستوطنون اللومبارد فى القرن الثانى عشر(2). وأيا كان الأمر، فإن تلك السلالة تميزت فى صقلية فى القرن الثالث عشر بعلو النفس. وكانت نيقوسيا من أوائل المدن التى تنادى بالجمهورية بعد بالرمو، وباتّى وكالتاجيرونى عند وفاة الملك كورادو (١٢٥٤)؛ وكانت بياتسا وأيدونى وكاستروجوفانى آخر من ألقى السلاح فى تلك الحركة(3). وقد كتب سابا مالاسبينا أن اللومبارد فى كورليونى أثناء ثورة الغروب الصقلى كانوا أول من تبع ثورة بالرمو(4). وقد عاشت تلك الجماعات متجانسة تجانسا كبيراً حتى اننا نجد بين زعماء الداوئر التى ولدت فى الثورات الأولى للغروب الصقلى شخصاً يُدعى سيمون دى كلاتافيمى انتخب قائداً للشعب فى تلال اللومبارد(5).

ونريد أن نذكر هنا ما قيل فى نهاية الفصل السابق حول ماركا اليرامى والنبــلاء الذين جاءوا منها إلى صقلية(6). وليس صحيحاً أننى اعتقد مع بعض الكتاب، أن اريجو ومواطنيه قد جاءوا إلى صــقلية (١٠٨٩) وراء أديلايدى. وهى آخر زوجــات روچيرو، حيث إنه يبدو لى أن الأقرب إلى الاحتمال، على العكس من ذلك، أن

---

(1) وثيقة الإمبراطــور فــدريجــو، الصــــادرة فى كريمــونا فى ٢٠ فبــرايــر ١٢٤٨. *Historia Diplomatica Friderici II*. المجلد السادس ص ٦٩٥ ومن خلالها نرى أن كورليونى قد وُهبت قبل ذلك بكثير للومبارديين أودونى وبونيفاتشو دى كاميرانو، وكذلك سكوبيللو قبل كورليونى.

(2) ويدعم رأى العلاّمة الكبير تيـورو اوسـتينفيلد هذا أن اسم سكوبيللو، وهو غير عربى بالتأكيد او يونانى، نجده فى إقليم نوفارا فى بيمونتى وظهر فى جزيرة صقلية مع نهاية القرن الحادى عشر.

(3) ذكرت المصادر فى كتابى *Storia del Vespro Siciliano* الفصل الثانى، طبعة ١٨٦٦، المجلد الأول، ص ١٨ و٢٢.

(4) نتمة سابا مالاسبينا، فى كتاب جريجوريو، *Biblioteca Aragonese*، المجلد الثانى، ص ٣٥٦.

(5) المرجع المذكور، ص ٣٥٨.

(6) ص ١٩٦ وما بعدها.

أقـارب الكونت وابنيه قد تحمسوا للحضور إليها تدفعهم إلى هذا سمعة أسرة اليرامى فى جيش روچيرو؛ الذى نرى جزءاً منه تحت قيادة (١٠٧٨) أوتونى أو أودونى(1)، وهو اسم شائع فى إيطاليا الشمالية وخاصة فى عائلة أولئك الماركيزات(2). وقد تزوج اريجو بعد ذلك من إحدى بنات الكونت؛ واحتفظ بالمقاطعات الشاسعة فى بوتيرا وباتيرنو(3)، وساند ارتقاء روچيرو الثانى العرش الملكى(4)؛ وكان ابنه الكونت سيمونى بالغ القوة فى صقلية وفى إقليم نابولى(5)؛ وجعل ابنه غير الشرعى روچيرو سكياڤو من نفسه زعيماً للومبارديين المتمردين على جوليلمو الأول، كما أشرنا منذ قليل(6). ويمكن أن نستخلص من هذا أن هذا الفرع من أسرة اليرامى نقل إلى صقلية العديد من أنصاره. ومن بين النبلاء الصقليين فى القرن الثالث عشر تتردد أيضاً أسماء آل إنشيزا، وهم من أسرة اليرامى. ولهذا سنلاحظ أن ما يدعم دليل القرابة هو أن الأسماء المسيحية نفسها تتكرر فى فرع بييمونتى والفرع الصقلى(7)؛ ويبدو أن هناك فرعاً ثالثاً قد ازدهر

(1) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ١٥٩ من هذا المجلد.
(2) ارجع إلى شجرة العائلة التى نشرها دى سيمونى فى. *Nuova Antologia*، فلورنسا، سبتمبر ١٨٦٦. فقد أشير إلى شخص يُدعى أودونى بونو، وهو ماركيز، ومن بين الشهود فى وثيقة ١٠٩٥ المذكورة، فى كتاب بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٧٦؛ وذكر اسم بونو، ماركيز، إقطاعى فى ضواحى كورليونى، فى نفس الوثيقة. ومن المحتمل أن يكون أودونى وهو احد ماركيزات اسرة اليرامى كان يُكنى بونو (الطيب).
(3) ويظـهر هـذا من خـلال وثـائق عـام ١٠٩٤ و١١١٤ و١١٢٦. فى كتـاب بيرّو، *Sicilia Sacra*. ص ٧٥ و١١٧٧ و١١٥٦ ووثيـقة عـام ١١١٣. فى كتـاب جـريجـوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الخامس، الهامش رقم ٢٠.
(4) الساندرو كبير رهبان تيليزى، الكتابان الثانى والثالث، فى كتاب كاروزو، *.Bibl. Sic*، ص ٢٦٦، ٢٩٣.
(5) الساندرو كبير رهبان تيليزى، الموضع المذكور، فالكاندو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٤١٢ و٤١٧ و٤١٨. انظر أيضاً وثيقة لهذا الكونت سيمونى، بتاريخ ١١٤٧ وفيها شاهدان من بياتسا، فى كتاب لونيج، *.Cod. Ital. Dipl*، المجلد الثانى ص ١٦٣٩.
(6) صفحة ٢٢٤.
(7) بونيفاتسيو دى إنشيزا، ابن عم أريجو واديلايدى كونتيسة صقلية، كما هو واضح من خلال شجرة عائلة اليرامى التى نشرها دى سيمونى فى. *Nuova Antologia*، سبتمبر ١٨٦٦؛ واريجـو دى إنشـيزا الذى جـاء ذكـره عـام ١١٨٦، فى كتـاب موريوندى،

أيضاً فى بوليا(1).

وتتفق مع الشهادات المكتوبة عن هذه الأصول شهادة اللغة القوية والحية، وهو ما لاحظه بالفعل فاتزيللو؛ الذى لم يطالب بشهادة أخرى، وهو محق فى ذلك، ليحصى بين المدن اللومباردية أيدونى وسانفراتيللو(2). وقبل عشر سنوات تحدث السيد ليوناردو فيجو دا أتشيريالى المجتهد عن أولئك اللومبارد. فى مقدمة مجموعته (أغانى شعبية صقلية)"Canti popolari siciliani"(3)، ونشر بعض القصائد وبعض مفردات لهجتهم. ولكن الأحداث السياسية الموفقة التى توثق العلاقات اليوم وتضاعف من التجارة بين كل الشعوب الإيطالية، والدراسات اللغوية المتقدمة فى أوربا، تعطينا القدرة على استخلاص نتائج أكثر دقة بكثير. وقد لاحظ أستاذ باحث فى اللغة السنسكريتية القرابة الوثيقة بين لهجة مونفرّى ولهجات بياتسا ونيقوسيا وسانفراتيللو وأيدونى، التى انحصرت اللغة اللومباردية اليوم فى بلدياتها فى صقلية حسبما يقول فيجو(4). وهناك أمل

Monumenta Aquensia. المجلد الثانى ص ٣٤٨. واريجو دى إنشيزا أحد المقاتلين فى معركة بونزا، حسبما ذكر سبتشالى الذى ذكرته فى كتابى، *Vespro Siciliano*. الفصل الثامن عشر، المجلد الثانى ص ١٦٠ طبعة عام ١٨٦٦. وجوفانى والويزيو دى إنشيزا. وهما إقطاعيان فى بداية القرن الرابع عشر. فى كتاب جريجوريو، *Biblioteca Aragonese*. المجلد الثانى ص٤٦٨. وسيمونى دى إنشيزا ورد اسمه فى وثائق أعوام ١٢٠٩ و١٢١٧ و١٣١٩، فى. *Tabulario della Cappella Palatina di Palermo*. ص ٩٧ و١٠٢ و١٠٩ و١١٢.

(1) وثيقة عام ١١٥٧، فى كتاب دى ميو، *"Annali del Regno di Napoli"*. تحت هذا العام يذكره *"Albertus, Dei et Regis gratia Comes de Gravina, filius et heres Bonifacii, marchionis"* إننى مدين للعلاّمة الكبير تيودورو وستفيلد الذى أثبت عليه من قبل، لهذا الاستشهاد واستشهادات أخرى عن آل اليرامى واستشهادات أخرى كثيرة أغفلتها لعدم الحاجة لها فى موضوعى هذا.

(2) راجع ما يذكره عن نيقوسيا وأيدونى وسان فراتيللو فى المواضع المذكورة بعاليه.

(3) كتانيا ١٨٥٧. انظر المقدمة ص ٤٧ وما بعدها. وأناشيد سان فراتيللو وبياتسا ص ٣٢٢ وما بعدها.

(4) خطاب أرسله لى الأستاذ انجيلو دى جوبرناتيس ومنشور فى *Politecnico*، ميلانو، يونيه ١٨٦٧ ص ٦٠٩ وما بعدها.

بعد أن تتحسن مناهــج اللغويات، تحسناً أكبر، ويجرى تشجيع دراسة اللهجات فى إيطاليا، ودراسة أسماء الأشخاص والأسماء الطبوغرافية دراسة أوسع ويجرى بالتالى نشر كمية أكبر من الوثائق القديمة، أن نصل إلى تحديد دقيق لتوقيتات الهجرة وأماكنها التى نتحدث عنها؛ والتى ستبقى مبهمة الآن، أى توقيتات الهجرة وأماكنها فى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من القرن الحادى عشر والسنوات الخمس والعشرين الأولى من القرن الثانى عشر؛ وماركا أليرامى التى كانت تتحرك منها الجماعات شيئاً فشيئاً، والأقاليم الداخلية من النصف الشرقى من الجزيرة، التى كانت تأتى إليها هنا وهناك لتتمركز فيها بينما كان السكان اليونانيون والمسلمون يتركونها أمامهم.

والمدينة الأولى فى تلك المناطق، بل فى كل الجبل فى صقلية، وهى كالتاجيرونى، لم تعد أبداً بين الجماعات اللومباردية، ولا تتحدث بلهجتهم ولم تكشف عن أهوائهم فى القرن الثانى عشر؛ ومع ذلك فإن أصلها لايبدو مختلفاً جداً. ولا توجد عنها شهادات فى الوثائق؛ ولا يمكن أن نتوقع وثائق عنها من مالاتيرا، ولا من رواة الأخبار الآخرين. وعندما نتوجه فى الوقت نفسه إلى الأدلة غير المباشرة، فإننا نجد فى المقام الأول ميراث أراضى كالتاجيرونى، الذى يفوق كثيراً، سواء من حيث الثراء أم القدم، ميراث أكبر وأقوى مدن الجزيرة، فهو يرجع

---

(1) وطبقاً لقوائم دخل ومصروفات البلديات الإيطالية فى عام ١٨٥٨ والمنشورة فى عام ١٨٦٢ فى *Rivista dei Comuni*، نجد أن دخل كالتاجيرونى، من ايجار الأراضى والضرائب مقابل الخدمات،

ويعدد سكان يصل إلى ٢٤،٤١٧ نسمة	٣١٢،٥٥٨ ليرة إيطالية.
وبالرمو يصل إلى ١٩٤،٤٦٣ نسمة	٢٣٦،٢١٥ ليرة إيطالية
ومسينا يصل إلى ١٠٣،٣٢٤ نسمة	٩٥،٦٠٩ ليرة إيطالية
كتانيا يصل إلى ٦٨،٨١٠ نسمة	٣٨،٥٢٣ ليرة إيطالية

ويلاحظ أن هذه الثروة تشمل الأملاك فى المدن والتى نجدها فى المدن الكبيرة أكبر مما فى المدن الصغيرة ولا تعود بالتأكيد إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.

على الأقل إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر(1). والآن فإن هذه الظروف تشير إلى بلدية نشأت أثناء الفتح أو فى بدايات الدولة الجديدة. وفى حقيقة الأمر تعد نيقوسيا، وهى المدينة اللومباردية التى ذكرناها من قبل، المدينة الثالثة فى الجزيرة، من حيث كمية الممتلكات الثابتة، هذا إذا أحصينا كالتاچيرونى واستبعدنا بالرمو ومسينا . وإذا كانت هناك مستوطنات لومباردية بها ممتلكات قليلة من هذا القبيل. فإننا نجد السبب فى ذلك بسهولة: فبعضها كانت مستوطنات إقطاعية منذ البداية؛ ولأن بياتسا دمرها جوليلمو الأول؛ ثم قضت عليها عمليات الاغتصاب التى قام بها البارونات فى القرن الرابع عشر، والأحداث المستمرة للتنازلات والفديات تحت الحكم الأسبانى؛ والمكاسب السريعة أو الخسائر التى حدثت فى أعقاب إلغاء الإقطاع، وفى النهاية التبديد الذى حدث فى كل العصور(2). أما بالرمو ومسينا وكتانيا وغالبية الأراضى القديمة والكبيرة الأخرى، إما أنها لم تكن بها بلدية فى هذه الأزمنة الأولى للأسباب التى سنعرض لها فى موضعها، أو أنها احتفظت بميراث هزيل للغاية، بعد أن استولى عليها روچيرو بالحرب أو باتفاقات شحيحة: إلا أنه مع مرور الوقت، وبعد أن نشأت البلدية أو أصلحت شئونها، اكتسبت أراضى عن طريق الهبات واستثمرت تلك الأراضى التى كانت مخصصة للاستخدامات العامة. وعموماً يظل هناك شئ من الشك فى التوقيت الذى ظهرت فيه كالتاچيرونى. نحن نجهل فقط الشعب والطريقة،

---

(1) تشهد وثيقة جوليلمو الأول، بتاريخ أول مايو عام ١١٦٠ أن رجال كالتاچيرون قاموا بشراء أراضى فتانزينو ويوديكا من الملك روچيرو ومن جوليلمو نفسه بمبلغ ٤٠,٠٠٠ تارى صقلى، رق بلدية كالتاچيرونى وعندى نسخة منها. وقد ذكرت أيضاً فى المذكرات البلدية وثيقة أول سبتمبر ١١٤٣، وهى على حد معرفتى، مفقودة الآن.

(2) وطبقاً للقوائم التى ذكرتها منذ قليل، فإن مدينة مهمترنا تأتى بعد مدينتى كالتاچيرونى وبالرمو، فتعداد سكانها قدره ١٠,٦٢٨ نسمة وثروتها من الأراضى تقدر بـ ١٠٢,٩٢٦ ليرة إيطالية وبعد مسينا مباشرة تأتى نيقوسيا وعدد سكانها ١٤,٧٢١ نسمة، وثروتها تقدر بـ ٨٩,٧٨٣ ليرة إيطالية.

نجهل ما إذا كانت مستوطنة من الجنود المساعدين أو من رجال متفرقين، أغرتهم الاعفاءات الضريبية.

وتؤدى الروايات المحلية القديمة إلى الافتراض الأول الذى يرى أن كالتاجيرونى أسست حوالى عام الف على أيدى أهل جنوة الذين هبطوا بأسطولهم فى كاميرينا، بعد أن تعرضوا للمخاطر داخل الأرض: استقروا فيها، وخصصوا كنيسة لسان چورچو، ورفعوا راية الوطن الأم؛ ثم فتح أحفادهم بعد ذلك أبوابها للكونت روچيرو(1)، واحتل ابناؤهم، أثناء حكم ابن الفاتح، قلعة چوديكا المنيعة(2). وإذا استبعدنا من هذه الحكايات عام الف وأسطول كاميرينا والأمور غير المحتملة الأخرى، فإننا يمكن أن نقر بأن رجال سافُونا، وهى مدينة رئيسة فى ماركا أليرامى فى القرن الحادى عشر، مع آخرين من سكان الساحل الغربى (لأنهم جميعاً كان يطلق عليهم أهل جنوة ومن جنوة كانوا يتعلمون التحرر من الإقطاعيين) قد جاءوا للقتال تحت إمرة الكونت، بعد اقتحام بالرمو بقليل وفى حروب بناقرت: وبعد أن استقروا فى كالتاجيرونى، وزاد عددهم شيئاً فشيئاً بسبب وصول مستوطنين جدد من أقاليم أصلية وللإدارة الحكيمة للشئون العامة، فإنهم أعطوا صقلية مثالاً من الأمثلة الأولى للحرية والرخاء فى ظل البلدية؛ وبعد ذلك، عندما شاعت موضة الشعارات واشتهر أهل جنوة، رفعوا الصليب الأحمر المنقوش على رقعة بيضاء، أسوة بجنوة، وقد حرصوا على أن يتفاخروا بأصلهم فى تلك المدينة. والحقيقة

---

(1) فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الثانى: واميكو، *Dizionario topografico della Sicilia*، تحت مادة، *Caltagirone*، وابريل، *Cronologia universale della Sicilia*، ص ٦٤ وما بعدها، وص ٩١ وما بعدها. ولتدعيم الرواية، ذُكرت وثيقة لا نعثر عليها، ولوحة برج أجراس كنيسة سان چورچو، التى لم يعد لها وجود.

(2) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ١٥٦ من هذا المجلد هامش ١. ويرجع الفضل فى الحصول على الأنباء المحلية، والنسخ وصورة وثيقة ١١٦٠ ووثيقة عام ١٢٠١ ووثيقة *Cronica di Camopetro* إلى المحامى لاروزا دى كالتاجيرونى، التى قام بإرسالها إلى البارون فريدانى فى باريس عام ١٨٤٧ الذى طلبها منه من أجلى.

هى أن الاسم المزدوج الذى يذكره الإدريسى (١١٥٤) لهذا البلد حصن الجنون وقلعة الخنزارية، أى «قلعة العباقرة» و«قلعة الخنازير البرية»(1). يتفق مع حكاية الجماعة الجديدة التى جاءت لتستقر فى مكان آهل بالسكان أصلا؛ وكان يمكن أن نقول إنها حديثة جداً، حيث إننا نراها فى وصف أبروشية سيراكوزا بتاريخ عام ألف ومائة وتسعة وستين، فى حين أنها غير مذكورة فى وصف عام ألف وتسعين(2). والأصل بعد عام ألف وتسعين قد يتلاءم بالأحرى مع مستوطنة حرفية أكثر منها عسكرية، ولكن هذا لا ينفى إطلاقاً أنها جاءت من المناطق القريبة من جنوة.

هذه هى الأخبار التى استطعت أن أجمعها حول التغيرات السكانية التى سببها الفتح. ويجب أن نذكر ندرة وثائق المحفوظات الملكية والبلدية فى صقلية، قبل القرن الرابع عشر؛ وأن وثائق أنساب العائلات الصقلية ليست كثيرة أو مرتبة حتى تساعدنا فى أبحاثنا الحالية. وبالتالى فإننا يجب أن نقنع بمقولات قديمة حول المستوطنين الذين تحركوا من الأقاليم الوسطى والجنوبية من شبه الجزيرة. وفى المقام الأول أن المدن البحرية فى الجزيرة قليلة

---

(1) النص، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٥ وفى كتاب جريجوريو. *Rerum Arabicarum*، ص ١٢٠. هنالك جبل يقع أمام كالتاچيرونى على بعد ثلاثة أو أربعة أميال، يحمل الآن اسم *Cansaria* كانساريا وسُمى *Ganzaria* جانزريا، *Chanzaria* شانزاريا و*Cancheria* كانكيريا فى وثائق القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر. ولا يثير الدهشة تغيير الاسم من حصن إلى قلعة. والجزء الثانى من الاسم الطبوغرافى، *gerun*. كما نقرأه فى وثيقة ١١٦٠، دون التصريف اللاتينى، تستبعد كما يبدو لى أن يكون مشتقاً من لفظ *girone* أو لفظ آخر من كلماتنا، ويجعلنا نعتقد أن المستوطنين الإيطاليين الذين أتوا للإقامة بجانب قلعة الخنزرية *Kala't-el-Khinzaria*، احتفظوا بالاسم العربى لإحدى القلاع القديمة، ملتقى الجن *ginn* وتغير حرف *n* إلى *r* (حرف النون إلى حرف الراء). وربما يكون العرب قد قاموا بدورهم أيضاً بتحويل أحد مشتقات جيلا *Gela* إلى هذا اللفظ، مثل *Gelonum* *(Castrum)*. وكانت جيلا تقع، كما يبدو، على مسافة أميال قليلة.

(1) بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٦١٨ و٦٢٢، حيث طبع: *Ecclesias Calatageronis et quæ sunt in territorio ejusdem cum pertinentiis suis.*

السكان، كما كانت آنذاك مسينا وباتى، أو بها ندرة من السكان المسيحيين، مثل بالرمو وتشيفالو وكتانيا وجرجنتى ومازارا وترابانى، قد اجتذبت خلال القرن الثانى عشر البشر من المدن البحرية فى البر الإيطالى. وعلاوة على جنوة وشطآنها، التى تحدثنا عنها، جاءوا بالتأكيد من بيزا وأمالفى وسالرنو وبارى وموانئ أخرى على البحر الأدرياتيكى. وينبغى أن نذكر وصول جماعات أخرى إلى المناطق نفسها ويبدو أنها انتقلت إليها بكثافة مثل الجماعات اللومباردية، وليس بصورة متفرقة وعلى المدى الطويل؛ وأنها استقرت فى أماكن مهجورة ومقفرة، وليس فى مدن كبيرة فى طور الازدهار. واعتقد أن هؤلاء هم سكان ميستريتا وكاكّامو، وهما من إقطاعيات عائلة بونيللو(1)، التى ظهرت فى حالة رفيعة فى أقدم الوثائق النورماندية(2)؛ وكانت فى غاية القوة عند منتصف القرن الثانى عشر. وتعد ميستريتا، التى لاتزال سلالتها الجميلة القوية تتألق فى صقلية لحكمتها الفعالة فى الأعمال الزراعية، من بين أغنى المدن بالممتلكات الموروثة(3). وقد طالبت كاكّامو، فى عهد جوليلمو الصالح، بتطبيق إعفاءات الصقليين عليها، على حساب إقطاعيين فرنسيين جدد. وقد جنّد ماتيو بونيللو، وهو شاب كبير القلب كان مايونى يسعى لإرضائه لوجود أقاربه وأتباعه فى كلابريا، وهو بطل شعبى بالنسبة للمسيحيين فى بالرمو، جنّد ماتيو فى إقطاعياته أناساً كان يمكن القول بأنهم جيش، وتفاوض مع الثوار اللومبارد فى الجزيرة، التى هجرها بعد ذلك، حائراً وخائراً؛ حيث إنه لم يستطع استغلال مقتل مايونى وترك نفسه ليقع مثل صبى صغير فى أيدى أنصار الملك(4). وبالتالى فإنه من الاسم ومن الأحداث يبدو

---

(1) لم يذكر انفهيز فى *Carthago Sicula*، انباء عنها جديرة بالثقة.
(2) انظر وثيقتى عام ١٠٩٤ وعام ١٠٩٥، المذكورتين منذ قليل ص ٢٢١.
(3) انظر الهامش رقم ٢ فى ص ٢٢٩.
(4) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٤٣٣ وما بعدها حتى ص ٤٤٢.

ان آل بونيللى كانوا من رفقاء روچيرو فى حربه ولكنهم ليسوا من الفرنسيين أو اللومبارد ولا اليونانيين: ويمكن ان نقول بالأحرى إنهم كانوا من الصقليين من السلالة الإيطالية أو من أهل كلابريا. ولكن ليس لدينا أية قرينة على ان رجالاً صقليين كانوا ينتمون إلى البارونات: ولا يبدو هذا امراً محتملاً، لأن أولئك السكان القدامى، حتى وإن كانوا أكثر عدداً من كل السلالات الجديدة. لم يكن بوسعهم فى العهود الأولى النهوض لمستوى الأهمية السياسية، اللهم إلا فى مسينا أو فى مدن أخرى فى ڤال ديمونى. وفى مقابل ذلك، نعلم أن السكان المسيحيين فى بالرمو زادوا عن سكان المدن البحرية فى كلابريا وبوليا(1): ولكن لابد أن يرجع أصل آل بونيللى وأتباعهم أيضاً فى ميستريتا وكاكَامو إلى تلك الأقاليم.

---

(1) يتحدث فالكاندو، المرجع المذكور، ص ٤١٥، عن أهل بارى كثيرى العدد فى بالرمو.

الفصل التاسع

لما كان وضع المغلوبين القانونى لم يوصف بدقة فى الوقائع أو القوانين، فلابد من استخلاصه من الإشارات التى وردت فى تلك الوقائع أو القوانين، وفى الشهادات والوثائق بصفة خاصة: حيث إن هذا الجانب الأساسى من القانون العام الصقلى فى عهد النورمان يفتقر إلى الوضوح الكامل.

وفى المقام الأول، لم تكن العبودية وضعا غير معروف، كما كان يرى جريجوريو(1). ويروى لنا مالاتيرا وأماتو عن الأسرى الذين كان النورمان يرسلونهم للبيع فى البر الإيطالى(2)؛ بل إننا نستنتج أن هذه كانت أجمل وأسرع المكاسب التى يحصل عليها المقاتلون. وعلاوة على ذلك، أبقت قوانين المملكة ومجالس ملوك صقلية على العبودية صراحة(3). ولا يغيب هذا الوضع ولا هذا الاسم فى الوثائق. عندما

---

(1) *Considerazioni*. الكتاب الثانى. الفصل السابع، ص ١٦٣. بيّن الأستاذ ديهجو أورلاندو فى كتابه الذى يحمل عنوان *Il Feudalismo in Sicilia*. بالرمو، ١٨٤٧. الفصل الرابع عشر، حاشية ٤٣، ص ٢٨٢. هذا الخطأ الذى وقع فيه جريجوريو بالرجوع إلى بعض المصادر التى سأشير إليها فيما بعد.

(2) انظر فى هذا الكتاب، الفصول الثانى والثالث والسادس. ص ٧٦ و٨٢ و١٠٢ و١٠٦ و١٥٦: فى هذا المجلد. وبصفة خاصة روايات أماتو، المذكورة فى كتابنا هذا. الفصل الرابع، ص ١٢٢ و١٢٤ و١٢٨ و١٣٣ و١٣٦.

(3) هناك قانون ينسب إلى جوليلمو، الكتاب الثالث، الموضوع ٢٤ (*Historia Diplomatica Friderici II,* الجزء الرابع ص ١٤٢). ينص على أن العبيد (*servos et ancillas*) الهاربين يعادون لأصحابهم أو يسلمون إلى القاضى: وهناك قانون آخر لفدريكو، الكتاب الثالث، الموضوع ٢٦، ص ١٤٣، يسميهم عبيداً *mancipia*. ويشرح بمزيد من التفاصيل الإجراء المذكور. وفى أحد قوانين المجالس، فى الجزء نفسه، ص ٢٢٧، يحظر من بين ما يحظر، على أى يهودى أو مسلم أن يشترى *servum Christianum*، أو يحتفظ به تحت أية ذريعة. انظر أيضاً *Fragmenta juris siculi*، التى نشرها مركل، *Commentatio*، *Halis*، ١٨٥٦، ص ١٨ و٢٠ و٢٤.

ذكرت قائمة العرب - الإغريق من العاملين التابعين لكنيسة كتانيا، التى حُررت فى عام ١٠٩٤، بعد الفلاحين وقبل اليهود، أسماء ثلاثة وعشرين من المسلمين العبيد، وهى لفظة تعنى رقيقاً، وبالذات من العبيد السود(1). وفى وثيقة يونانية من وثائق الكونت روجيرو الثانى، وترجع لعام ١١٠٩، التى يجدد فيها هبات أبيه لصالح دير سان باربارو دى ديمينّا، يسلم له بصفته عبداً *εἰς δουλίαν* رجل يُدعى ليونى بن ملاكرينو، هو وأبناؤه من بعده(2). وبموجب وثيقة أخرى ترجع لشهر فبراير عام ١١٣٤، ليست لدينا سوى ترجمتها اللاتينية، فإن الأمير نفسه بعد أن توج ملكاً، يمنح فى سخاء كبير، لدير السلفاتورى فى مسينا ضياعاً بما فيها من مراع، وأشجار وفلاحين، من هاجريين ومسيحيين، واهداه علاوة على ذلك عدداً كبيراً من الحيوانات وعشرة عبيد(3). وتذكر وصية الراهب سكولارو، الذى عاش فى نهاية القرن الحادىَ عشر وبداية القرن الثانى عشر، العبيد والإماء الذين كان قد اشتراهم مع نسلهم(4). ويمكن ان نضيف أيضاً وثيقتين ترجعان لعامى ١٠٩٨ و١١٠٢ وتتعلقان بكلابريا وإن كانتا تخلوان من أى شك، ورد فيهما أن غازى صقلية، منح سان برونونى وديره بالقرب من ستيلو، مائة وعشرين صنفاً من الخدم والفلاحين، وهم ما تبقى من فرقة من الجنود اليونانيين الخونة، أفرج عنهم إكراماً للرجل القديس(5). وعند تنصيب جوليلمو الصالح، حررت الملكة الوصية

---

(1) وثيقة غير منشورة خاصة بكنيسة كتانيا.

(2) النص اليونانى لهذه الوثيقة، المحفوظة اليوم فى المحفوظات الملكية فى بالرمو، نشره السيد صبانا، *Pergamene*، ص ٢١٥ والصفحات التالية.

(3) فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٧٦ و١٠٠٨.

(4) وثيقة عام ١١١٤، فى كتاب بيرّو، المرجع المذكور، ص ١٠٠٤.

(5) *Regii Neapolitani Archivi Monumenta*، المجلد الخامس، رقم ٤٩٧ و ٥١٠، ص ٢٤٩، ٢٧٨، التى نقرأ أيضاً فى حياة سان برونونى، *Acta Sanctorum*، المجلد الثالث عن شهر اكتوبر، كما أشرنا فى الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٨٨، هامش ٢، من هذا المجلد.

إن الناشرين العلمانيين فى نابولى لا يشككون فى أصالة هذه الوثائق؛ ورجال الدين فى

على الحكم العديد من العبيد(1). وتبرهن أيضاً وثيقة عربية ترجع للقرن الثانى عشر على أن العادات التجارية كانت تسمح للرجل بأن يبيع نفسه عبداً؛ فقد اتفق العديد من البحارة المسلمين على نقل كم من العملات الذهبية لأحد السادة يُدعى جوليلمو، من تشيفالو إلى مسينا، على أن يعطى كل واحد منهم ضماناً من ممتلكاته، وكان هناك أحدهم يُدعى عثمان ولم يكن لديه ما يملكه فباع نفسه للممول، على أن يعتق نفسه عند تسليم العملة(2). ومع كل هذا حين لا نرى كثيراً من العبيد فى القرن الثانى عشر، فإنه يتبادر إلى ذهن كل منا افتراض بأن المسلمين الذين كانوا يؤسرون فى الحرب ويوزعون مثل الغنائم الأخرى ويباعون فى معظم الأحيان، ويُتخذون عبيداً لكبار الملاك، كانوا يكلفون لدى الجميع بزراعة الأرض(3). ونجد بالفعل فى الوثائق الصقلية التى ترجع للقرنين الحادى عشر والثانى عشر، هبات من القرويين دون أرض: فهناك بصفة خاصة وثيقة جديرة بالذكر ترجع لعام ١٠٩٤ تشبه كشوف أعمال البر الحالية، فما أن تأسس

أنفرسا يؤكدون عليها بحرارة كبيرة: وحيث إن هذه الكتابات لا توجد تحت بصرى الآن فإننى لا أستطيع هكذا، دون دراسة أخرى لها، أن أصرح بزيفها. ومع هذا لدى شكوك جسيمة. فالحدث الأساسى هو حلم إعجازى، جرت روايته بكثير من التفاصيل، وكان حل العقدة، يتمثل فى هبة كبيرة جداً لدير سان برونونى. وعلاوة على ذلك فإن أولى هذه الوثائق تورد لقب الكونت روجيرو بصيغ غير معتادة، والثانية أرخت فى يونيو، الخمسعشرية العاشرة لعام ١١٠٢، فى ميليتو «فى الغرفة التى كان يرقد فيها الكونت مريضاً». هذا بينما نعرف أنه كان قد مات فى ٢٢ يونيو، الخمسعشرية التاسعة لعام ١١٠١. وتزيد من الشكوك تلك النوعية المختلطة من العبيد والقرويين، والتى لا نعرف منها مثالاً آخر.

وعلى أية حال، فهذه الوثائق إن لم تكن زائفة، فهى بالتأكيد غير عادية، وقد كتبها قساوسة الكونت على غير طريقة كتابة السجلات الرسمية ولا تمثل مرجعاً هاماً فى مسألة تخص القانون العام.

(1) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٤٥٨.

(2) وثيقة عربية، لم يسبق نشرها، ودون تاريخ، خاصة بكنيسة تشيفللو. ويبدو أنها تعود إلى منتصف القرن الثانى عشر، حيث إنها تذكر دنانير عبد المؤمن والرُبيعات الدوقية فى صقلية.

(3) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب ص ١١٢، من المجلد، حول أسرى بوجامو.

دير باتي الجديد. وبينما كان الكونت روچيرو وكبار الإقطاعيين يهبونه القلاع والأراضى وعمال الأرض بالمئات، كان كثير من البارونات أو العسكريين يهدونه عامل أرض أو اثنين. وهناك من كان يهدى العديد من أولئك القرويين المنتشرين فى مختلف أصقاع صقلية؛ حتى إن جوليلمو مالو سبتاريو أضاف أيضاً يهودياً(1). وهؤلاء الرجال الذين جُمعوا من العديد من الأماكن المختلفة لزراعة ضياع الأسقف، كانوا أشبه بالرقيق وليس بعبيد الأرض. ونجد بالمثل عقد بيع لأربعة من القرويين فى أرياف بالرمو مقابل مائتى تارى وحصان(2). ويبدو أن التسمية بالقرويين كانت تطلق فى هذه الحالات نوعاً من اللياقة المسيحية. ولأن هؤلاء البؤساء فى واقع الأمر كانوا يقومون فى الحقول بخدمات القرويين أنفسهم، وإن كانوا فى وضع مختلف. ونقرأ بوضوح فى القوانين أن القرويين كان بعضهم مملوكاً بشخصه والبعض الآخر مملوكاً لأسباب مادية؛ ومن هنا فإن هؤلاء كان بإمكانهم أن يتحرروا من سادتهم بأن يتركوا لهم ما عليهم بينما أولئك لا يستطيعون هذا بأية حال من الأحوال(3). ومن الواضح أن هذه الحالة الأخيرة، إن لم تكن عبودية كاملة فى عهد القوانين، فقد كانت كذلك فى يوم من الأيام. وقد أصبحت عبودية للأرض، دون قانون ودون عقد من السيد، ودون فضل لأحد فى ذلك وإنما للضرورة

(1) فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧١.

(2) مورسو، *Palermo Antico*، الوثيقة رقم ٦، ص ٢٤٤، وثيقة من وثائق النصف الأول من القرن الثانى عشر.

(3) *Constitutiones Regni ec.*، الكتاب الثالث، العنوان ٢، ٣، ص ١٦٢، ١٦٣، وبوضوح أكثر فى *Assisae*، الجزء نفسه، ص ٢٢٢: *Rescriptum pro Clericis*. وقد كان محظوراً بصفة عامة على الأساقفة أن يسيموا قساوسة من القرويين، دون إذن من سيدهم؛ ولكن هذا الأمر كان يتم تفسيره على أساس، أن الحظر كان مطلقاً (باستثناء حالة الضرورة القصوى) بالنسبة للقرويين الملزمين بالخدمة، *intuitu personæ, ut sunt adscriptitii et servi glebæ et alii hujusmodi*، ولكن المرتبطين بقيود *respectu tenimentorum vel aliquorum beneficiorum*، فكان بوسعهم أن يتخلوا عن تلك الفوائد ويصبحوا كهنة.

المجردة التى فرضتها الظروف.

وأولئك الذين كان من المعتاد أن يقال لهم، فى أوربا الإقطاعية، عبيد الأرض، يسمون قرويين فى الوثائق اللاتينية فى صقلية(1) وفى أماكن عديدة من بوليا وكلابريا من القرن الحادى عشر إلى ما بعد ذلك(2). وهذا اللفظ يقابله عادة فى الوثائق اليونانية فى صقلية لفظ πάροικοι (3) وفى الوثائق العربية **أهل الجرايد، أو رجال الجرايد(4):** كما نقول نحن أهل، أو رجال السجلات، وهى الترجمة العربية الواقعية للفظ اللاتينى *adscriptitii* واليونانى ἐναπόγραφοι. وأحياناً ما كانت تستبدل التسمية العامة وهى (رجال) *homines* ، ἄνθρωποι ، التى كانت تعنى فى العصور الوسطى اى نوع من الأتباع(5). وعندما لم يكن

---

(1) وثائق فى كتاب بيرُو. *Sicilia Sacra*. عام ١٠٩١. ص ٥٢١ وعام ١٠٩٣. ص ٦٩٥. وعام ١٠٩٤. ص ٧٧١. وعام ١١٣٤. ص ٩٧٦. علاوة على تلك المذكورة عاليه والعديد من الوثائق الأخرى. فى وثيقة ترجع لعام ١٠٨٣. فى ص ١٠١٦. نقرا *villicos*.

(2) الوثائق، فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*. المجلد الخامس: عام ١٠٨٧. ص ١١٧؛ وعام ١٠٩٢. ص ١٤٠ وعام ١١٢٦. ص ٥٢١ إلخ.

(3) وثائق يونانية من محفوظات بالرمو. نشرها السيد سباتا. *Pergamene, ec.*. عام ١١٠١. ص ١٩٢؛ وعام ١١١٢. ص ٢٢٤؛ وعام ١١١٦. ص ٢٤٢؛ وعام ١١٢٦. ص ٢٦٥؛ ووثيقة عام ١١٤٣. فى محفوظات كنيسة القصر فى بالرمو. ص ١٤؛ وفى وثيقة أخرى عربية ـ يونانية فى دير مورّيالى، غير منشورة، مؤرخة بتاريخ عام ١١٥١. وترد الكلمة نفسها فى العديد من الوثائق اليونانية فى منطقة نابولى، وقد نشرها ترينكيرا، *Syllabus, ec.*. عام ١١٣٠. ص ١٣٩؛ وعام ١١٥٤. ص ١٩٩. وعام ١١٦٥. ص ٢١٩. وتتعلق ببعض أديرة كلابريا.

(4) وثائق عربية غير منشورة ترجع لعام ١١٤٥ (كنيسة مورّيالى): و١١٧٧؟ (كنيسة ماجونى فى بالرمو): و١١٧٨ و١١٨٣ (كنيسة مورّيالى).

(5) وثائق يونانية لدى سباتا. *Pergamene, ec.*. وثيقة ترجع لعام ١٠٩٩. وجددت فى عام ١١١٤. ص ٢٢٧؛ وعام ١١٠١. ص ١٩٢؛ وعام ١١١٦. ص ٢٤٢؛ وعام ١١٢٣. ص ٤٠٩. ويرد أيضاً الاسم العام نفسه فى وثيقة يونانية ترجع لعام ١٠٩٨. نشرها بوشيمى فى *Biblioteca Sacra*. المجلد الأول. بالرمو. ١٨٣٢. ص ٢١٢. وتوجد ترجمته اللاتينية فى كتاب بيرو. *Sicilia Sacra*. ص ٢٩٢؛ وفى الوثيقة العربية ـ اليونانية لعام ١١٥١. المذكورة فى الصفحة السابقة، هامش ٤. وبالمثل فى الوثائق اليونانية فى منطقة نابولى. وعلى سبيل المثال فى وثيقة ترجع لعام ١١٤٥. لدى ترينكيرا. *Syllabus, ec.*. ص ١٨٢. ووثيقة أخرى من القرن الثانى عشر ذاته، المرجع السابق، ص ٥٥٧. ولا يلزم ذكر الوثائق اللاتينية.

بين هـؤلاء أى مسيحى، كانوا يستخدمون التسمية العرقية الخاطئة وهى هاجريون(1). وفى الوثائق اليونانية يتردد بعد ذلك اللفظ اللاتينى «قرويون»، منقولاً بالتأكيد(2) وفى وثيقة من كلابريا وردت أيضاً كلمة στρατιῶται أى مقيدون فى السـجلات، أو الوثائق(3). وفى الوثائق العربية تستخدم بالمعنى نفسه كلمة اعتقدوا أنها حرش harsc او خرش Kharsc، وإنى افضل ان اقراها بالأحرى «حارثين» أى مزارعين(4).

ويبـدو لى أن الطـبقة نفسها وليس غـيرها كان يشـار إليهـا بكلمة rustici (أجـلاف)، وذلك فى وثيـقتين لاتينيتين ترجـعان لعـام ١٠٨٦

(1) وثيقة يونانية ـ عربية غير منشورة، ترجع لعام ١٠٩٥. وتخص كنيسة كتانيا، وقد ترجم فيها سجل أهل لياچى (أهل آتشى) τῶν ἀγαρηνῶν τοῦ Ἀκίου τῶν (سجل هاجريى آتشى): ووثيقة أخرى يونانية ـ عربية أيضاً ترجع للتاريخ نفسه، وتخص كنيسة بالرمو وتتضمن هبة من الرجال والثيران والأراضى، قدمها لها الكونت روجيرو. حيث تقابل أيضاً كلمة ἀγαρηνοι الكلمة العربية «رجال». وفى وثيقة لاتينية، لدى بيرّو، Sicilia Sacra، ص ٧٦. لفظ قرويين. ويرد اسم هاجريين فى العديد من الوثائق اللاتينية.
(2) انظر فهرس وثائق عـام ١١٤٣ و١١٤٩، لـدى مورتيـللارو، Tabulario della Cattedrale di Palermo، ص ٢٢ و٢٠. وغالباً ما يتردد اللفظ نفسه فى الوثائق اليونانية فى منطقة نابولى، التى نشرها ترينكيرا، Syllabus, ec.: عام ١١٣٦، ص ١٥٥ (الخاص بصقلية): وعام ١١٤٥، ص ١٨٢، مع البديل اليونانى ; [illegible] : وعام ١١٨٨، ص ٢٩٧: ووثيقة أخرى دون تاريخ، ولكن ترجع للقرن الثانى عشر هى الأخرى، مع الخطأ [illegible]. انظر أيضاً دوكانج، Glossario greco، الذى يذكر وثيقة للكونت روجيرو عند لفظ [illegible].
(3) لدى ترينكيرا، Syllabus, ec.، ص ٥٥٧، رقم ١٦ من الحاشية.
(4) وثائق عربية ترجع لعامى ١١٥٠ و١١٥٤، وتخص كاتدرائية بالرمو، وقد حصلت على نسخة منها من الأستاذ كوزا، وقد نشر جريجوريو الثانية بمستوى متواضع، De Supputandis, ec.، ص ٣٤ والصفحات التالية ونشرها كاروزو فى Sacra Biblioteca، المجلد الثانى، بالرمو، ١٨٢٤، ص ٤٦. ووثيقة عربية ترجع لعام ١١٦٩، وتخص كاتدرائية بالرمو نفسها، ولدى نسخة منها تكرّم بها علىّ الأستاذ كوزا مشكوراً. وفى هذه النسخة الأخيرة أرى مكتوباً خ ـ ر ـ ش بدلاً من ح ـ ر ـ ش (الأحرف رقم ٧ و١٠ و١٣ بدلاً من الأحرف ٦ و١٠ و١٢ من الأبجدية العربية). ولا يبدو من المحتمل أن تكون قد استخدمت ترجمة للفظ rusticus (حرش heresc وقد تعنى خشونة). ومن يريد أن يرى افتراضات جريجوريو وتهشسن حول هذا اللفظ وحول لفظ mils او mels فى الوثيقة ذاتها، فليقرأ الهامش a فى ص ٣٦ من De supputandis.

و١١١٤: وهى تسمية واضحة فى الوثيقة الأولى، حيث إن الرجال ذاتهم الذين أطلق عليهم فى البداية أجلاف *rustici* أطلق عليهم فى النهاية قرويين *villani*(1). ولم يكن معنى تلك الكلمة مختلفاً فى باقى أوربا الإقطاعية(2). وفى القوانين، تشير كلمة *rustici* عموماً إلى القرويين، أو عمال السخرة، أو المقيدين بالسجلات، أو عبيد الأرض أو طبقات أخرى متواضعة، حسب النظرة السائدة آنذاك(3): وهذه الكلمة لم تمن أبداً طبقة أعلى من القرويين وأدنى من البرجوازيين، كما يفترض جريجوريو بناءً على استنتاجات خاطئة(4).

---

(1) وثيقة لاتهنية للدوق روجيرو، ابن روبرتو، يرجع تاريخها لأغسطس ١٠٨٦، لدى بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٧٤، ٧٥؛ ووثيقة أسقف كتانيا التى يرجع تاريخها لسبتمبر ١١١٤، وكان يمنح بموجبها دير سانتا ماريا إن يوسافاط فى باترنو، عُشر عدد الفلاحين السراسنة، الذين منحه إياهم الكونت اريجو.

(2) دوكانج: *Gloss. lat. Rustici. Coloni Glebæ adscriptitii ec., Rustis*.

(3) طبقاً للقوانين، الكتاب الثالث، المادة رقم ٦٠. كان محظوراً ممارسة مهنة القاضى او موثق العقود على *qui vilis conditionis sit, villanus aut angarius forsitan, filii clericorum spurii, aut modo quolibet naturales.*

(4) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، ص ١٦٨. ويظهر المعنى العام لكلمة *rustico* بصورة أوضح فى *Assise* مملكة صقلية، التى نشرها مركل، *Halis*. ١٨٥٦: حيث توصى المادة رقم ٣ فى ص ١٧، جميع السادة بمعاملة الخاضعين لهم معاملة إنسانية، وهم: *cives, burgenses, rusticos, sive cujuscumque professionis homines;* وليس هناك ذكر لـ *villani* أو *angarii* إلخ. وبخلاف عادته، لا يذكر جريجوريو أى وثيقة فى هذا التحقيق الدقيق، واكتفى بأن يضع فى الملحوظات العديد من مواضع القانون، حيث يتكرر لفظى *rustico* و*villano*. وفى هذه المواضع اعتقد انه تَعَرَّف على «كل الطبقات التى كانت تنقسم إليها الأمة الصقلية والفوارق القائم بينها». (*Considerazioni*، المجلد الثانى، ص ٧٠، حاشية ٨ من الفصل السابع).

وفى المقام الأول فإن القوانين التى أصدرت فى ميلفى فى عام ١٢٣١، لم تختص بصقلية وحدها. وبما أنها كانت تشمل كل الأقاليم التى كانت تدين بالطاعة لفدريكو فى إيطاليا الجنوبية، فإنها تذكر العديد من التسميات لطبقات أدنى، كانوا يستخدمونها هنا وهناك فى أماكن خرجت قبل ذلك ببضعة قرون أو بقرنين، من تحت سيطرة حكام مختلفة جداً.

وفى المقام الثانى، فليست القوانين مدونة قانونية منظمة ومتكاملة، يتم فيها عرض الحقوق كافة فى نظام ملائم؛ ولكنها مجموعة من بعض القوانين؛ بل مجموعة غير مرتبة من القوانين، أصدرها أمراء مختلفون، ومنها ما صدر فى أزمنة مختلفة للأمير ذاته.

ولم يكن حظه من التوفيق أفضل عندما عَدَّ عمال السخرة (*angarii*) طبقة أدنى من القرويين (*villani*): فإن صح ذلك فسوف يكون مخالفاً

وبالتالي فلا يجب ان نفترض مسبقاً، ما هو غير موجود في الواقع، أي تلك الدقة اللغوية التي تذكر دائماً الأشياء نفسها بالألفاظ ذاتها.

وقد افترض جريجوريو هذا، عندما خلص إلى أن الـ *rustici* في صقلية كانوا مختلفين عن الـ *villani*: لأنهم كانوا مذكورين في القوانين، في الكتاب الأول، المادتين ١٠ و٣٣؛ والكتاب الثاني، المادة ٣، والثالث، ٤٣ أما الآخرون فمذكورون في القوانين، بالكتاب الثاني، ٣٢: الكتاب الثالث، في المادتين ٢، ٦. ولم يأخذ في اعتباره أن المادة ٣٢ بالكتاب الثاني كانت تستعرض حقيقة كل طبقات الأفراد: وبالتالي، فإذا لم يرد ذكر *rustici*، فإنه يجب اعتبارهم ضمن الفئات الأخرى التي ورد ذكرها. أي *villani* و*angarii*: أو بمعنى أصح، إن *rustici* تعني بصورة عامة *villani*، *gli ascrittizii* وخدام الأرض أو عبيدها، المذكورين بصفة خاصة في المادتين ٢ و٣ بالكتاب الثاني. وفي الحقيقة لم يكن من الممكن إغفال الـ *villani* في القانون ضد نزع الأسلحة، الكتاب الأول، المادة العاشرة، ولا إهمال الـ *rustici* في عداد الفئات المسموح بشهادتها ضد البارونات، أو المستبعدة، الكتاب الثاني، المادة ٣٢: أو أن ينسوا في القانون الذي كان يسمح لفئة *villani* في الخلافة على العمل بالممتلكات الأميرية، الكتاب الثاني، مادة رقم ١٠.

ولا يستقيم الراي الآخر الذي عبر عنه العلامة الصقلي حينما قال إن الـ *rustici* كانوا مختلفين عن الـ *villani*، لأن القوانين كانت تحدد التعويض، كما كان يقال في القوانين البربرية، للفئة الأولى وليس للأخرى: ومن هنا اتضح له أن الـ *villani* لم تكن لهم شخصية، من الناحية القانونية. إلا أن التعويض كان ثمن الدم، وكان يرتفع تبعاً للدرجة، وبالتالي فقد كان في صالح الرجال طبقاً لارتفاع درجتهم: ولكن هذا الأمر لم تتناوله أية من القوانين التي أصدرها فدريكو، بل إنها تعترف، على العكس من ذلك بدرجات الأشخاص لتشديد العقوبة حسب ارتفاع الدرجة؛ ومن هنا فإن البرجوازي كان عليه أن يدفع اكثر من القروي الـ *rustico*، والمحارب اكثر من البرجوازي، والبارون اكثر من المحارب، والكونت اكثر من البارون. وقد اتبع الأساس نفسه في تحديد المكافأة القبض على الخارجين على القانون: حيث يذكر فيه اسم *rustici* وليس *villani*: ولا يمكن ان نفترض أن المشرع أراد أن يؤكد على عدم عقاب الخارجين على القانون من عبيد الأرض، بإيقاف مكافأة القبض عليهم. ثم إنني لا أعلم أين قرأ جريجوريو أن شهادات الـ *villani* كانت مقبولة ضد الـ *rustici* والبرجوازيين. ولا يذكر القانون الذي يستشهد به شيئاً عن ذلك، ولا يشير إليه: ولا أجد قانوناً آخر ينص على هذه الحالة؛ ومن هنا يحتمل أن يكون هنالك خطأ مطبعي ما، سواء في نص جريجوريو أو في الهامش. وأخيراً يجب أن ناخذ في الاعتبار أن جريجوريو نفسه، حينما عَدَّ الـ *rustici* في وضع مختلف عن الـ *villani*، لم يكن واثقاً تماماً من وجه اختلافهم عن البرجوازيين؛ ولكي يضيف شيئاً آخر، عرض الافتراض القائل بأن النظام الاجتماعي نفسه كان يسمى برجوازياً في المدن وريفياً في الأرياف، وهو تمييز جزافي تماماً؛ وإن كان على أية حال لا يبرهن على وجود طبقة وسيطة بين البرجوازيين والقرويين.

للمألوف عامة فى النظام الإقطاعى(1): كما أنه ليس هناك أى مبرر يدعو لافتراض هذا خروجاً عن القاعدة فى القانون العام الصقلى(2).

إن الاختلاف، وهو عميق من الناحية القانونية، وطفيف على أرض الواقع والمذكور عرضاً فى القوانين. حيث كان يتم التمييز بين القرويين *villani* المملوكين بأشخاصهم وأولئك المملوكين بحكم الممتلكات، لا يرد له تحديداً فى تسميات خاصة به إلا فى الوثائق العربية أو الإغريقية ـ العربيــة فى صقلية: وهى وثائـق قليلـة للغاية.

وقد أخذ الأستاذ دييجو اورلاندو، منذ عام ١٨٤٧ يبين خطأ جريجوريو بمجرد المقارنة بين القوانين، في الكتاب الذى يحمل عنوان *Il Feudalismo in Sicilia*: بانرمـو، الفصل الرابع عشر، حاشية ٢٢، ص ٢٧٥.

ولن أخفى انه فى وثيقتين فى محفوظات نابولى نلاحظ ان لفظ *rustico* ياتى مرادفاً مساوياً للفظ برجوازى، وكليهما يتضمنهما المجلد الخامس من *Regii Neapolitani Archivi monumenta*، (نابولى، ١٨٥٧) تحت رقمى ٤٧٧ و٤٩٤، ص ٢٠٢ و٢٤٥. فى أولاهما وهى بتاريخ عام ١٠٩٤، يحظر الإضرار بدير سان برونونى ناحية ستيلو، على اى شخص، سواء كان ستراتيجوتو او فيسكونت، *rusticus aut miles, servus aut liber* وفى الأخرى بتاريخ عام ١٠٩٨، عند الإشارة إلى الرجوع إلى *Veterani Squillacenses* بالنسبة لحدود الأرض التى كانت ممنوحة لسان برونونى، نخلص إلى أنه عند النظر فى ان، *rusticorum causam contra fratres nil juris obtinere*، صدر القرار لصالح الدير، ولكن هذا المثال الوحيد لا يعتد به: ضد اتجاه القوانين. وحينما لا نقع ايضاً على وثائق دير سان برونونى الأولى تلك الشكوك الثقيلة التى ذكرناها عاليه، فإنه يمكن الظن أن ذلك المعنى لكلمة *rustici* إنما هو من قبيل الاستخدام المحلى، أو لعلها كانت كلمة جديدة أتى بها كاهن قصر الكونت روجيرو، إذ من المحتمل أن يكون من كتب الوثائق اجنبياً، إن كانت اصلية: او لعله استخدام الراهب وهو ايضاً اجنبى، حينما اصطنعها بعد ذلك، إن كانت زائفة.

(1) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، ص ١٦٧. انظر فى دوكانج، *Glossar. lat.*، ألفاظ *Angariæ*، *Angarea*، *Angaralis*، *Angarii*، *Angariarius*، *Angariales*.

(2) الـ *Angarii* المذكورون فى القوانين، الكتاب الثانى، مادة ٣٢؛ والثالث، ١٠، ٦٠، هم فى مستوى الـ *villani*. ووثائق نابولى تتحدث عن سخرة *Angaria* واجبة على قرويين. (ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٣٠٠، ٣٣٤، ٥٥٨، ٥٥٩، وثيقة ١١٨٨ و١١٩٨). وفى الوثائق الصقلية نرى كنائس وأديرة متحررة من الخدمات والسخرة (سبياتا، *Pergamene greche*، وثيقة ١١١٧، ص ٢٤٧؛ وثيقة ١١٧١، ص ٢٧٣، ٢٧٥)؛ ولكن لا نظهر فى صقلية اية طبقة تسمى *angarii* عمال سخرة.

لأن الجهل والإهمال والثورات الأهلية دمرت الجانب الأكبر منها. والوثائق اللاتينية، المكتوبة حسبما يُرضى المنتصرين أوالمحاربين أو رجال الكنيسة، تذكر عدد الفلاحين، وحدود الضياع ولا شئ أكثر من ذلك: لأنها كانت خلاصة للهبات، تعبر عن حذر الواهبين، ولا تعبأ بالدقائق الإدارية والقانونية، ذلك عندما كانت غريزة الإقطاع تحملهم على القضاء على أى شك بالعنف. وعلى العكس من ذلك، فالوثائق اليونانية والعربية التى تنص على هبات الأشخاص او الضيعات مرجعها مستلات من السجلات العامة. وما كان من الممكن أن يختلف الأمر بالنسبة للوثائق العربية، وهو كذلك واقعى جداً بالنسبة للوثائق اليونانية: لأن اللغة اليونانية كان يتكلمها ويفهمها الجانب الأكبر من السكان فى عصر الفتح الإسلامى: ثم بعد ذلك، لم يدمر المسلمون بالتأكيد السجلات المدنية العقارية أو الأوراق الأخرى الخاصة بالإدارة العامة البيزنطية، المكتوبة باللغة اليونانية: ولم يتوقف استخدام هذه اللغة مع نهاية القرن الحادى عشر، عندما كان كثير جداً من الصقليين يتحدثون بها، أو يفهمونها، كما كان على القساوسة أو محررى الوثائق أن يتعلموها بصورة أو بأخرى(1). وبالتالى فإن المحاضر العربية أو اليونانية، التى كان يتم تصحيحها بمراجعة المستخدمين المسئولين المستمرة. كانت تحتوى على ضمان حقوق الأشخاص وحاجياتهم. وليس هناك ما يدعو للعجب أن نجد فى تلك الوثائق فقط تسمية لفئة لا نعرفها المصادر اللاتينية.

إنهم رجال «المكس» *Maks*، إن كنت أقرأ هذه الكلمة جيداً، بدلاً من «م.. ل.. س..» "*M.. l.. s*"، الواردة فى الوثائق العربية فى عام ١١٥٠ و١١٥٤ و١١٦٩ و١١٨٣؛ وآخر وثيقة من هذه الوثائق تقدم قرائن تكفى لتحديد الوضع الذى نتحدث عنه. فبعد أن قامت دائرة أملاك الدولة ـ كما كانت تفعل دائماً دون نتيجة تذكر ـ باستدعاء

---

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الحادى عشر، ص ٤٠٩ و٤١٠ من المجلد الثانى.

الرجال الذين هجروا أراضيها ولجأوا إلى أراضى دير موريالى للعودة إليها، ترك جوليلمو الثانى للرهبان، بمقتضى هذه الوثيقة، رجال المكس ورجال المحلات الذين سنتحدث عنهم لاحقاً. ولكنه تمسك تمسكاً شديداً برجال الجرايد، أى الفلاحين، باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من الملكية. ويختلف رجال «المكس» عن رجال «القوائم»، أو القرويين؛ لأن هؤلاء يستثنون من التنازل، أما أولئك فيدرجون فيها. وهم يختلفون أيضاً من حيث التسمية التى تطلق عليهم باليونانية: ἀνέγγραφοι ، كما يمكن أن نقول نحن «أولئك الذين خارج السجل»، وهى كلمة يصبح معناها أكثر وضوحاً عند مقارنتها بالكلمة الشهيرة ἐναπόγραφοι «المسجلين»، *adscriptitii*، أى، *villani*، عبيد الأرض الحقيقيين(1). وكلمة «مكس» تعنى فى اللغة العربية المعنى نفسه غير المحدد الذى يعنى عندنا إتاوة أو ضريبة جزافية، أى ضريبة غير شرعية وجائرة(2) وهكذا فإن عبارة «رجال المكس» قد ترجم حرفياً

---

(1) لدى نسخ من الوثائق الثلاثة الأولى، أرسلها إلى الأستاذ كوزا: وقد نشر جريجوريو إحداها، جزئياً وبصورة سيئة، *De supputandis ec.* ص ٣٤. وقد طبع م. دى فرجيه الوثيقة الرابعة مع ترجمة فرنسية وتعليق فى *Journal Asiatique*، اكتوبر ١٨٤٥، ص ٣١٢ والصفحات التالية: وقد قدمت ترجمة لها فى *Archivio Storico Italiano*. المجلد الرابع، الحواشى، ص ٤٩ والصفحات التالية. وقد أخطأ الأستاذ العلامة عندما افترض أن الـ *asrcrittizii* هم الرجال المعنيون: وقد أخطأت أنا أيضاً عندما اتبعته فى هذا التفسير وفى قراءة *Mils* بدلاً من *Maks*.

(2) علاوة على الشرح الذى نجده فى القاموس والذى ترجم ترجمة جزئية فى قاموس فرايتاج، فإن معنى لفظ مكس نجده فى النصوص العربية التالية: رحلات ابن جبير *The Travels of Ibn-Jubair*، طبعة رايت، ص ٥٢، ٥٣، ٦٦: وابن الأثير، *Chronicon*، طبعة تورنبرج، المجلد الثانى عشر، عام ٦٠٤، ص ١٨٣: و*Annales Regum Mauritaniæ*، طبعة تورنبرج، ص ٨٨: والمقريزى، المواعظ، طبعة بولاق، المجلد الثانى، ص ١٢١: وأبو المحاسن، *Annales*، طبعة جرينبول، المجلد الثانى، ص ٢٨٦. انظر أيضاً سامى، *Memoires sur le droit de proprieté en Egypte* فى *Memoires de l'Académie des Inscriptions*، المجلد الخامس، ص ٦١: و*Chréstomathie Arabe*، الطبعة الثانية، المجلد الأول، ص ١٧٢: والمجلد الثانى، ص ٦٠، ٨٤، ١٦٨: وكاترمير، *Sultans Mamlouks*، للمقريزى، المجلد الثانى، الجزء الثانى، ص ٩٧. وفى هذه الفقرات أحياناً ما تعنى كلمة مكس ضرائب غير مباشرة.

إلى لفظ *taillables* فى اللغة الإقطاعية الفرنسية؛ ويبدو لى أنه تعبير مناسب لوصف الرجال الخاضعين للضريبة الجزافية، حتى إن لم يكونوا مسجلين فى الأوراق المشؤومة، التى تجعل منهم، هم ونسلهم، مادة للملكية. وبالتالى فإنهم فئة تقابل الفلاحين المملوكين لسيد بحكم المتاع، كما تقول القوانين وتقابل فئة الشيرل *ceorls* الأعلى من السكمونيين فى انجلترا. وتضع وثيقة عام ١١٦٩ «الفرباء» على درجة رجال «المكس» ذاتها، ويقصد بهم المكرَمون، الموصى بهم، المؤتمن عليهم، أو الضيوف الذين اعتاد الإقطاعى استقبالهم، بل اصطيادهم فى أراضيه لزراعتها: رجال أحرار، أو من المفترض أنهم كذلك لأنه يسمح لهم بالتحرر من اضطهاد سيدهم وملاحقته لهم، وكانوا يعملون مقابل الحصول على المسكن والطعام، أو كانوا يتمتعون بثمار الأرض، مع دفع ما عليهم لصاحب الأرض على شكل أموال أو نتاج أو ايام عمل فى ضياع أخرى(1). وفى الحقيقة أن كثيراً من المسلمين، والمسيحيين أيضاً، كانوا فى الظروف نفسها مع اختلاف الأسباب، مثل الحرفيين فى الأراضى الصغيرة، الذين لم يُتخذوا عبيداً، ولم يوصفوا بأنهم من البرجوازيين.

وكان القيد الذى لا ينفصم الذى يربط القرويين المملوكين بحكم أشخاصهم، يظهر فى القوائم، أو السجلات، كما أسموها، التى كانت تكتب فيها أسماء الرجال الذين يتنازل الأمير عنهم، ومع ضياعهم

---

(1) انظر تلك الألفاظ المختلفة فى دوكانج، *Gloss. latino*. وتمدنا الوثائق اللاتينية واليونانية فى إقليم نابولى بالعديد من الأمثلة من هذه الفئة من الرجال: وعلى سبيل المثال وثائق أعوام ٩٢٢ و٩٧٥ و١٠٥٤ و١٠٨٠ و١٠٨٢ و١٠٩٦، فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*، المجلد الأول، ص ٦٢ و٢٢٩؛ والمجلد الخامس، ص ٨ و٩٧ و١١٤ و١٦٥؛ وفى ترينكيرا، *Syllabus*، وثائق أعوام ١٠٩٧ و١١١٥ والمجلد الحادى عشر، ص ٨١، ١٨٢ والصفحات التالية و٥٥٩، وفى مواضع أخرى. وتدابير القوانين نفسها التى كانت تستدعى الهاربين من أراضى أملاك الدولة، ووثيقة مورّيالى المذكورة لعام ١١٨٣، تؤكد الهروب المتكرر جداً للقرويين الذين كانوا ينصبون للاستقرار، بصفتهم موصى عليهم، فى أماكن أخرى.

ومنقولاتهم فى الغالب(1): فنظراً لأن السيادة كانت جديدة والنظام الاجتماعى جديداً، كانت جديدة أيضاً كل صفات الملكية الإقطاعية. ويبدو أن التعريف العام للفلاحين قد تم مع الغزو، وفى عام ألف وثلاثة وتسعين صدرت لكل سيد قائمة بأسماء رجاله: وهذه القوائم كانت تُعدّل مع كل تنازل جديد، وبإحلال الأرامل اللائى كن يمثلن العائلة محل المتوفين، وإضافة المتزوجين الجدد الذين يكونون عائلات جديدة(2). وقد اتبع الأمراء النورمان هذه الطريقة فى الملكية فى دقة؛ لأنه فى التنازلات الجديدة عن فلاحين منتمين لأراضى الدولة كان يوضح دائماً البند الذى ينص على استبعاد الرجال المسجلين فى السجلات السابقة للإقطاعيين(3). وتوضح وثيقة جوليلمو الثانى العربية سابقة الذكر، الموجهة لدير موريّالى هذا الحق وهذا الواقع، بصورة تدعو للإعجاب. وكما نلحظ من هذه ومن مائة وثيقة أخرى من وثائق القرن الثانى عشر، فى صقلية

---

(1) كان منح الفلاحين مع ممتلكاتهم كثير جداً حتى إنه يكاد لا يلزم ذكر نصوصه. ولكى أشير إلى بعض النصوص، فإننى سأذكر الوثائق اليونانية لعام ١٠٩٨. فى كتاب بوشيمى، *Biblioteca Sacra*. المجلد الأول، بالرمو، ١٨٣٢، ص ٢١٢؛ ولعام ١١٠١، و١١١٢ و١١١٦، فى كتاب سباتا، *Pergamene, ec.* ص ١٩٢ و٢٣٤ و٢٤٢؛ ولعام ١١٤٣، فى *Tabulario* كتاب كنيسة القصر فى بالرمو، ص ١٤؛ ولعام ١١٣٦، فى ترينكيرا، *Syllabus*، ص ١٥٥؛ والترجمة اللاتينية لوثيقة يونانية ترجع لعام ١٠٩٦، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*. ص ٣٨٢، والتى بمقتضاها أهدى الكونت روجيرو، علاوة على الممتلكات الكثيرة الأخرى التى منحها لأسقف مسينا الجديد: *in Oliverio villanos centum et terras et tenimenta quæ ibi habitantes prius tenebant.*

(2) وثيقة عربية ـ يونانية، لم تنشر بعد ترجع إلى ٢٠ فبراير ١٠٩٥، وتخص كنيسة كاتانيا، التى تتضمن سجل فلاحى آتشى. وانظر أيضاً فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ١٨٢ والصفحات التالية. الوثيقة التى تتضمن هبة أسقفية سكويللاتشى. وقد كان الكونت روجيرو يسمح للأسقف، من بين الأشياء الأخرى التى كان يسمح بها، بأن يستقبل فى ضيعاته فلاحين «غرباء» «بشرط ألا يكونوا فى نطاق امتيازاته هو ولا امتيازات باروناته».

(3) وثيقة من عام ١٠٩٥، واثنتان من عام ١١٤٤، واثنتان من عام ١١٤٥؛ وكلها عربية ـ يونانية تخص كنائس كاتانيا وموريّالى وأرشيف بالرمو الملكى، والمذكورة عاليه.

وكلابريا وبوليا، وكما لاحظنا هذا الآن، فإن السادة كانوا حريصين على امتلاك مواليهم عن حق ودون وجه حق، وكان أولئك يهربون عندما يستطيعون ذلك إلى أراض أخرى(1). ولنا أن نتصور أن السادة عندما كانوا يسيئون استخدام سلطتهم، كانوا يتمسكون أحياناً بفلاحين غير خاضعين بحكم أشخاصهم وأن الخاضعين كانوا يسعون للتخلص من ذلك القيد، عندما كان يحالفهم الحظ وتهئ لهم الممتلكات التى كونوها خارج أرض سيدهم إمكانية المطالبة أمام القضاء بالحرية أو الوصول إلى تسوية(2).

وأيا كان القيد، شخصياً أم عينياً، فإن الأجلاف أو الفلاحين فى صقلية كانت لهم شخصية قانونية(3) ويتمتعون بحرية الملكية خارج نطاق الأراضى التى يحوزونها من قبل أحد السادة(4): وهذان الحقان كانا يجعلانهم أعلى مرتبة بكثير من عبيد الأرض فى بلاد كثيرة أخرى. وعلاوة على ذلك كانوا يقومون بأعباء وخدمات معينة، وذلك التحديد كان مرجعه الغزو النورمانى الأخير ونظم إدارة المسلمين الواعية: وكان أيضاً يجعل وضع تلك الفئة الدنيا من الرجال أفضل

---

(1) انظر ص ٢٤٥، وقارن المادة الثالثة، الكتاب السابع، من القوانين، إلخ.

(2) نشر جريجوريو فى، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، هامش ٤، محضر التعرف على فلاح من كوليسانو بتاريخ ١٢٧٩، مكتوب باللاتينية. وهناك محضر مماثل وأهم بكثير، مكتوب بالعربية وحسبما اعتقد فى عام ١١٧٧ (وبه «علامة» جوليلمو الصالح وتاريخ شهر ربيع الأول الموافق أغسطس، ولهذا فهو يرجع إلى إحدى السنوات الثلاث ١١٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩) ويحتفظ به فى الأرشيف الملكى ببالرمو. ويعترف أبناء موسى سانتاجات، من منزل يوسف (*Mezzojuso*) بأنهم من رجال «الجرايد» التابعين للأب تبات، رئيس الدير، ويعدون بأن يظلوا دائماً أبدا فى طاعة الكنيسة: ويعفو الأب عنهم، ويفرض عليهم «جزية»، قيمتها ثلاثون رُبيعاً فى العام وحصة مقدارها ٢٠ مُداً من القمح و١٠ من الشعير. وفى النهاية يرجون رئيس الدير أن يسمح لهم بأن يقيموا فى أى مكان يحلو لهم.

(3) لقد بينا منذ قليل، ص ٢٢٩، أنه يقصد أيضاً بلفظ فلاحين أو قرويين *villani* ما يطلقه جريجوريو أيضاً على الـ *rustici*.

(4) *Costituzioni*، الكتاب الثالث، المادة ١٠. قارن مع *Gregorio* فى *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، ص ١٦٧.

بكثير من وضع أمثالهم فى البلاد التى يحتلها برابرة الشمال: حيث امتداد أصلهم البعيد إلى عبيد للأرض قد أدى إلى خلط الحدود بين الحقوق والواجبات وزاد الإقطاعى من اتساع تلك الحدود بما يروق له. وصح ما كتبه جريجوريو عن الإسهامات والخدمات الواجبة على الفلاحين(1): إلا أننا نستخلص من بعض الوثائق انهم لم يكونوا أحياناً مطالبين بأية خدمة شخصية ولكن بتقديم ضريبة من المال والمحاصيل فى أوقات وبكميات محددة(2). بل يبدو لى أن هذا هو

---

(1) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السادس، ص ١٤٠ و١٤١ و١٤٢. والفصل السابع، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(2) وثيقة للكونت روجيرو، مؤرخة، على ما يبدو فى ١٢ فبراير ١٠٩٥ ومكتوبة باليونانية، إلا أن أسماء «الرجال» باللغة العربية، وكانت تمنح كنيسة بالرمو خمسة وسبعين من أبناء هاجر، واحد عشر ثوراً، وضياعاً فى أراضى چاتو، وكورليونى وليمونا: حيث كان يتعين على أبناء هاجر أن يدفعوا للكنيسة، ٧٥٠ تارى فى الشتاء وما يعادل هذا المبلغ فى أغسطس، مع ١٥٠ مُدّ من الحنطة و١٥٠ من الشعير. وهكذا كان كل فلاح يعطى سنوياً ٢٠ تارياً وحِملين من الحنطة ومثلهما من الشعير ولا شئ أكثر من ذلك. ويلاحظ أن النسخة اللاتينية للوثيقة نفسها التى وردت فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٦، لا تتضمن تفاصيل الخدمات المقدمة. وهناك ترجمة لاتينية للنص اليونانى رديئة للغاية، نقرأها لدى مونچيتورى، و*Bullae, ec. Panormitanæ Ecclesiæ*، ص ١٣، وهى من أعمال الأب اليسوعى جوستينيانى داشو، الذى ترجم، بين ما ترجم *Laudemium* عبارة λογοῦ ὅφρετος والنص الذى نشره مورتيللارو، فى *Tabulario della cattedrale di Palermo,*، ص ٨ والصفحات التالية، ملئ أيضاً بالأخطاء. ولا أذكر هنا وثيقة عام ١٠٩٢، لدى بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٦٩٥، التى تنص على أنه تم التنازل لأسقف جرجنتى عن ١٠٠ من الفلاحين مع الضيعة، *Cathal. in quo frumenta, etc.* لأن النص يبدو لى أن التلف أصابه حتى إننى لا أستطيع الاعتماد عليه؛ ولم يوضح تلك العبارة المشكوك فيها جاليو، فى *Opuscoli di Autori siciliani*، المجلد التاسع.

ويتكرر لفظ *εαεά* أيضاً فى وثيقة يونانية فى صقلية فى عام ١١٩٢ لدى سباتا، *Pergamene*، ص ٣٠٦ وفى ثلاث وثائق يونانية فى أقصى كلابريا فى عام ١١٨٨ و١١٩٨ و ـ ١١، لدى ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٣٠٠ و٣٢٤ و٥٥٧، بمعنى ضريبة رئيسة، تختلف عن السخرة والأعباء الأخرى التى كان يتحملها الفلاحون: ومنها الضريبة الشخصية، ذلك لأنهم بلا شك كانوا يدفعون أحياناً لسيد آخر، يختلف عن سيد المكان الذى يقيمون فيه وقت وجوب الضريبة. وقد ترجمها السيد سباتا *esazione* فى غير تحديد وفى دقة زائدة ترجمها السيد ترينكيرا *Jus hospitii*. ولكن تلك الكلمة كانت تعنى هدية *dono* فى اليونانية فى العصور المتأخرة؛ كما نلمح من مواضع فى

الشرط الأول للتنازلات؛ وهو ما يتأكد لنا من خلال شهادة موثوق بها لابن جبير، وهو رحالة أسبانى عبر شمال صقلية فى شتاء عام ألف ومائة وأربعة وثمانين وخمسة وثمانين، وفى حماس راح يبحث فى أحوال إخوته فى الدين. وكتب يقول: «بعد أن أصبحت صقلية مليئة بعبدة الصلبان، سكن المسلمون معهم فى ممتلكاتهم الخاصة وفى قراهم. وقد عاملهم المسيحيون معاملة طيبة فى البداية للاستفادة بعملهم وصنائعهم وفرضوا عليهم ضريبة تدفع فى موسمين من العام: وهكذا وقفوا حائلا بين المسلمين والثروة. على الأرض التى صادفتها اقدامهم...» ويقول فى موضع آخر «ويسكن المواطنون المسلمون، بأعداد هائلة فى بالرمو، فى أحيائهم الخاصة بهم، وبها مساجدهم وأسواقهم وقاضى لحل منازعاتهم؛ وقد حدث هذا أيضاً فى مدن أخرى، علاوة على الأرياف والقرى. ولكن غالبية أهل بالرمو، يستاءون من إخوتهم. الذين سقطوا فى ذمة الكفار». وهذه العبارة التى يكررها ابن جبير فى مكان آخر مشيراً بصفة عامة لمسلمى صقلية(1)، تمنى التبعية، وهى بالتحديد تبعية المسيحيين واليهود الخاضعين للجزية فى البلاد الإسلامية(2). و«الجزية» تحديداً هى الاسم الذى أطلق على ضـريبة المال الواجبة على الفلاح المسلم فى الوثيقة العربية التى ترجـع لعـام ١١٧٧ والتى ذكرتها منذ قليل بينما ورد لفظ رسم لتحديد ضريبة الغلال(3). وإذا أردنا مناقشة قدر هذه

العهد الجديد، وفى الباسيليات وفى كتابات اخرى من العصور الوسطى، ذكرت فى *Thesaurus*، طبعة هاس، بَاريس، ١٨٣٣، المجلد الأول، *col. 1642*. وليس هناك من جديد فى إطلاق اسم مثل ذلك على الزام لقبل على هذا النحو.

(1) *The Travels of Ibn-Jubair*، نص نشره رايت، ص ٣٢٨ و٣٣٦ و٣٤٤. انظر أيضاً نص هذا الجزء فى *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥٠٩ و٥٢٠ و٥٢١: والترجمة الفرنسية، فى المرجع نفسه، ص ٥٣٨ وفى يناير ١٨٤٦ ص ٨١ و٢٠٢، والترجمة الإيطالية فى *Archivio Storico Italiano*، الجزء الرابع، حاشية رقم ١٦، ص ٣٤، ٤٠، ٤٦.

(2) انظر الكتاب الثانى، الفصل ١٢، ص ٥٢٩ من المجلد الأول.

(3) هنا، فيما سبق، فى ص ٢٤٧، هامش ٢، ووثيقة عام ١٠٩٥ فى ص ٢٤٨، هامش ٢.

الضرائب عامة، من مجرد الوثيقيتين اللتين تتحدثان عن كميتها، فإنه بإمكاننا إدراك أنه مختلف تبعاً للأماكن: لأنه يتضح من وثيقة عام ١٠٩٥ أنه يبلغ عشرين تارياً، أو رُبيعاً، ومن وثيقة عام ١١٧٧ يتضح أنه عشرة(1). وأنا لا أتحدث عن ضريبة الحنطة أو الشعير، التى كان لابد وأن تختلف بالضرورة طبقاً لنوعية الضياع واتساعها. والعمل الإلزامى ليس منصوصاً عليه أو على الأقل لاتتحدث عنه أقدم الوثائق بالتفصيل. التى ورد فى بعض منها ذكر أن الفلاحين أو الرجال يوهبون «للخدمة» أو يوهبون مع ضياعهم، دون إضافة أى شئ آخر(2). ومن الجائز كما يبدو لى أن السادة الجدد، عندما حملوا معهم إلى صقلية عادات الإقطاع فى شبه الجزيرة الإيطالية قد حولوا أحياناً ضريبة المال والغلة كلها أو جزءاً منها إلى أيام عمل ومغالاة منهم، أضافوا أحياناً العمل، دون مقابل، أى السخرة *Angaria* كما كانوا يسمونها، مع تقديم أطعمة ضئيلة(3).

ووردت فقط فى الوثيقة سالفة الذكر التى ترجع لعام ١١٨٣(4) تسمية **أهل المحلات**، أى «أهل القرى»: الذين يدخلون ضمن الهبة التى قدمت لصالح دير موريالى، مع رجال «المكس»؛ ومن هذا نلحظ

---

(1) فى هذا المستند الذى يرجع لعام ١١٧٧، بعد أن اعترف الفلاحون الثلاثة بسلطة السيد عليهم، جرى إلزامهم بضريبة قدرها ثلاثون رُبيعاً فى كل عام شمسى، بصفة «جزية»، و٢٠ مُدّ من الحنطة و١٠ من الشعير.

والعملة الذهبية المسماة فى العربية رُبيع وفى اليونانية واللاتينية تارى كان وزنها يزيد قليلاً عن الجرام، ومن هنا كانت تساوى من حيث قيمة المعدن ثلاثة فرنكات ونصف تقريباً. انظر الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٦٧ إلى ٤٧١ من المجلد الثانى.

(2) انظر كل الوثائق اللاتينية واليونانية فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، وسباتا، *Pergamene, ec.* إلخ. والوثائق غير المنشورة التى جرى ذكرها فى هذا الفصل.

(3) فى الوثيقة اليونانية التى ترجع لعام ١١٨٨، فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٣٠٠ كانت أعباء الفلاحين محددة: δόματα καὶ ἀγγαρίας καὶ κανίσκια, والهدايا الصغيرة والعمل دون مقابل؛ ويلاحظ الشئ نفسه مع اختلاف طفيف فى وثائق عام ١١٩٨ و ـ ١١، ص ٣٢٤ و٥٥٧.

(4) انظر هنا، ص ٢٤٤.

انهم كانوا غير مملوكين ملكية شخصية. ومعنى الاسم، الذى لا يعنى سوى الوضع الحر، يتوافق مع لفظ *Βουργησίοι* و*burgenses* المستخدم فى الوثائق اليونانية واللاتينية؛ لأن كلمة محلة، وهى مفرد محلات، تعنى ضاحية أو قرية. ولا غرابة فى تلك الهبة من الرجال الأحرار، ولا كتابة أسمائهم فى سجل: عندما نرى أسقف تشيفالو وقد منح له حق السلطة على بعض البرجوازيين(1)؛ وعندما صدر حكم يقضى بانتماء بعض البرجوازيين إلى أحد الإقطاعيين فى كلابريا(2)؛ وعندما دفع البرجوازيون فى ميناجرا فى صقلية ضريبة سنوية ومقابلا من عمل إلزامى(3). ونظراً لأن الإقطاعيين كانوا يحصلون على دخول مباشرة من هذه الفئة من التابعين: فمن الواضح أنهم كانوا يحتاجون قيدهم فى السجلات. ويمكن أن نقرأ فى كتاب جريجوريو عن أحوال البرجوازيين(4)، مع التنبيه بأن ذلك الاسم كان يطلق سواء على سكان المدن أو سكان الأراضى الصغيرة، الذين كان يخطئ جريجوريو ويسميهم أهل الأرياف *rustici*(5). واكثر ما يعيب الكاتب الصقلى هو أنه عد تحصيلاً مشروعاً

---

(1) وثيقة عام ١١٥٠، الخاصة بلوتشيا دى كمارانا، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٠١.

(2) وثيقة عام ١١٨٨، فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٢٩٧.

(3) وثيقة عام ١٢٦٢، فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السادس، حاشية ١٩.

(4) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السادس، ص ١٣٥ والصفحات التالية؛ والفصل السابع، ص ١٦٩.

(5) انظر معنى لفظ *rustici* ص ٢٣٩ من هذا الفصل.

كان يقال برجوازيون لمواطنى بالرمو، (جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، هامش ١٠) ولمواطنى مورّيالى، (جريجوريو، المرجع السابق، الكتاب الأول، الفصل الرابع، هامش ١٩) وسكان ضاحية سيناجرا، (جريجوريو، المرجع السابق، الكتاب الثانى، الفصل السادس، هامش ١٨، ١٩) وسكان سيراكوزا، (وثيقة عام ١١٧٢، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤٤٢) وسكان ارض سانتا ماريا فى كمّارانا، (وثيقة عام ١١٥٠ فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٠١) وسكان اوبّيدو فى كلابريا (وثيقة عام ١١٨٨ فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٢٩٧).

تلك الضرائب التى كان الإقطاعيون يفرضونها على البرجوازيين منذ منتصف القرن الثانى عشر فصاعداً، وأن يسخر من فالكاندو الذى أخذ يذكر، فى دقة تلك الحقوق التى كان يتفاخر بها أولئك، عندما حاول بعض الفرنسيين الذين جاءوا إلى بلاط جوليلمو الثانى نحو عام ١١٦٩، القيام بالاعتداء عليها. ويحكى كيف أن الفرنسى جوفانى دى لافاردينو، كان يطالب، كما جرت العادة فى بلده، بنصف أى دخل من دخول مواطنى كاكامو، «فهؤلاء»، كما يستطرد المؤرخ، استناداً على حرية المواطنين والبرجوازيين فى صقلية، كانوا يؤكدون على عدم التزامهم بدفع أية رسوم أو ضرائب، ولكنهم وبشكل عارض، إذا عانى السيد من ضائقة شديدة، يقدمون له طواعية المبلغ الذى يرتضونه: لأنه حسبما كانوا يقولون ما من أحد فى صقلية يخضع لرسوم والتزامات سنوية، سوى السراسنة واليونانيين، الذين كانوا يمثلون وحدهم الفئة التى ينطبق عليها اسم فلاحين». وبعد ذلك بقليل، وما أن أثارت هذه الدعاوى استياء المستشار الكبير، كما يقول فالكاندو، حتى أثار أعداءه ضده كراهية عامة «واتهموه بوضع مخطط لإخضاع كل سكان صقلية لرسوم وضرائب، كما هو الحال فى فرنسا التى ليس بها مواطنون أحرار»(1). وأنا لا أعرف فى الحقيقة كيف لم يتنبه جريجوريو لعمليات التعدى اللاحقة التى كان يقوم بها الإقطاعيون ورجال الكنيسة على حساب البرجوازيين، ولا كيف نسى نماذج الإعفاءات القديمة(2) ليعول

---

(1) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٤٧٥.

(2) كان الملك روجيرو يحظر على الموظفين العموميين أن يضايقوا السكان اللومبارديين فى سانتا لوتشيا الذين دفعوا حق الملاحة، وألا يطلب منهم أعمالاً دون مقابل أو مساعدات وحتى جباية الرعى؛ وكان ينص على أن يكونوا أحراراً مثل اللومبارد فى راندانسو: فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، حاشية ٢٥. وفى الفصل الرابع نفسه تفاصيل الحقوق القديمة للخزانة العامة. ولا توجد أية ضريبة مباشرة على البرجوازيين سوى الجزية على اليهود. وفى الفصل الخامس، هامش ٤، حكم للقضاة فى عام ١١١٢ بشأن الاستغلال الذى كان يمارسه الأسقف الإقطاعى على سكان باتّى.

على نماذج التعدى الحديثة(1).

والشهادة الإيجابية من جانب فالكاندو، إزاء بعض السلبيات المستخلصة من الوثائق، تحمل على الظن بأن حالة البرجوازيين لم تكن واحدة فى الأماكن كلها: وهذا الاختلاف يجب افتراضه ولا ريب، لأنه جرى احتلال الأراضى بطرق مختلفة: واستوطنت بها أجناس مختلفة. وبين ذلك الواقع وعمليات الاستغلال والتعدى التى كان يقوم بها الإقطاعيون بما لهم من قوة تواجهها روح البرجوازيين وعددهم، فإنه من السهل إدراك التباين فى الأحوال التى تزايدت اختلافاتها فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. ومن المؤكد أن البرجوازيين اللومبارديين قد احتفظوا بحصانتهم احتفاظاً أفضل من اليونانيين والمسلمين؛ وكذلك أهل المدينة أفضل من أهل القرى؛ وكان مسلمو بالرمو أفضل الجميع فى هذا الشأن، وذلك حتى موت الملك جوليلمو الصالح.

وحول أحوال سكان المدن يمكن متابعة عرض جريجوريو، الذى يشير إلى ممتلكاتهم الحرة من أى قيود إقطاعية، وإلى القانون المختلف الذى عاشوا فى ظله طبقاً لأصلهم، كما أنه يصف باستفاضة نوع الأعباء المفروضة عليهم، أى الرسوم التى سميت بعد ذلك بالقديمة وكانت تحصل على استهلاك بعض المحاصيل، وعلى إنتاج البعض الآخر منها. وعلى حق المرور وعلى استخدام بعض حقوق المالك؛ وضريبة الملاحة وخدمات الأشخاص، مثل الميليشيات فى البر والبحر، والمساكن العسكرية، والعمل بالمنشآت العامة: وقد كانت تضاف إلى ذلك غرامات العدالة والأموال التى فرض جمعها فى الحالات الإقطاعية الأربعة، على الرغم من أنها فرضت فى بدايات الغزو(2). إنها لوحة جميلة، رتبت أجزاؤها

---

(1) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السادس والسابع، وبصفة خاصة الهامش ١٩ من الفصل السادس، الذى يعد جزءاً من وثيقة عام ١٢٦٢.

(2) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصول الثانى والثالث والرابع والخامس.

الصقلية والأجنبية أيضاً، بتناسق الفسيفساء فتوافقت مع خطوط الصورة: ولكن هناك خطأ، كما لاحظت منذ قليل(1) وذلك فى أداء العدالة بإهمال الذى ينسبه جريجوريو للفزاة: بمعنى أنهم أخضعوا للجزية المسلمين كلهم(2)، وحرروا المسيحيين كلهم. وعن الموضوع الأول يقدم دليلين فقط: أن النورمان كانوا يحصلون الجـزية من اليهـود، وأن الامبراطـور فـدريكو عام ألف ومائتين وتسعة وثلاثين فرضها على اثنين من المسلمين فى مدينة لوتشيرا. ولكن بما أن لدينا ذكريات عن الجزية على اليهود(3) وليس على المسلمين، فكان على جـريجوريو أن يتشكك فيما فهمه. ثم إن وضع المسلمين فى صقلية فى القرن الثانى عشر، حين كانوا كثيرين وأحراراً وأثرياء أقوياء ما كان يجب قياسه على وضع حفنة من المتمردين المهزومين والمستبعدين إلى لوتشيرا فى القرن الثالث عشر. وفيما يتعلق بجزية المسيحيين، فإن جريجوريو لم ينتبه إلى أنها استمرت تحت اسـم «هبـة» أو أى اسـم آخر، وكان يتحملها الفلاحون، الذين كان معظمهم من اليونانيين، أو منحدرين من السكان اليونانيين والإيطاليين القدماء ممن كانت تعمر بهـم صقلية فى القرن التاسـع(4): وإن من تحـرر من هـذا العبء

---

(1) الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ٢٠٧ من المجلد.

(2) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ٧٧. هنا فى الهامش ٢٢ يكتب جريجوريو فى ملحوظة له على النويرى يشرح فيها ما هى «الجزية» لدى المسلمين، ويذكر بعد ذلك بعض وثائق صقلية عن الجزية التى كان يدفعها اليهود. ثم موضماً من سجل الامبراطور فدريكو الثانى، يتعلق باثنين من مسلمى لوتشيرا. ولا شئ أكثر من ذلك!.

(3) انظر فى *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، الهوامش ١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ والاستشهادات حول الحقوق القديمة، التى ترد فيها عبارة *sisia* اليهود. وهى ليست على المسلمين على الإطلاق.

(4) راجع *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، ص ٤٤ والهامش ٤٥ الذى لا يثبت شيئاً. وترد كلمة جزية مرة واحدة فى الوثائق اللاتينية واليونانية والعربية التى أعرف أنها متعلقة بوضع الأشخاص: وعلى وجه التحديد بالوثيقة العربية التى أعتقد أنها ترجع لعام ١١٧٧، وسبق ذكرها فى ص ٢٤٧، هامش ٢، التى يعترف فيها ثلاثة من

وإن كان قد تحرر منه الجميع هم البرجوازيين. والحقيقة هى أن الجزية باسمها الكريه ظلت باقية على كاهل اليهود فقط، الذين كانوا منبوذين من المسيحيين، بقدر ما كان ينبذهم المسلمون على الأقل. وقد خضع الفلاحون للضريبة وليس للمهانة. أما البرجوازيون فى العديد من الأراضى أو فيها كلها، وبالتأكيد برجوازيو بالرمو والمدن الكبيرة، فقد دفعوا أموالاً فى صورة رسوم فى الغالب. حقيقةً يلخص المسلم المعاصر الذى يتحدث ابن الأثير على لسانه ظروف الغزو فى هذا الراى: أن روجيرو أسكن الروم والفرنجة فى صقلية مع المسلمين، ولم يترك لأحد حماماً أو متجراً أو طاحونة أو فرناً(1). ومع ذلك فقد بقى التعجب والشكوى من تلك الرسوم الإقطاعية المعقدة، التى كانت غريبة جداً فى نظر المسلمين المتحضرين؛ ولم يمس المؤلف أكبر الكبائر وهى «الجزية» المفروضة على المؤمنين ولا أريد أن أستشهد هنا بكاتب من بلاط الملك روجيرو، وهو الجغرافى الإدريسى الذى، كما يقال، بالغ فى تأكيده، وهو يكتب أن الكونت، بعد أن سيطر على كل الجزيرة وثبت فيها كرسى امبراطوريته، نشر العــدل بين السكان ومنح كل إنســان الحق فى ممارسة عقيدته وقانونه، ووفر

المسلمين بأنهم فلاحو أحد رؤساء الأديرة وهذا الأخير كان يفرض عليهم حصة وجزية. ويستخدم اليونانيون تسمية «[illegible]» . تماماً كما بالنسبة للفلاحين المسيحيين فى بر إيطاليا (ص ٢٥٠، هامش ١). ويجدر بنا أن نوجه انتباهنا الشديد إلى وثيقة لاتينية من الكونت ترجع لعام ١٠٩١، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٢١. والتى يذكر روجيرو فيها أنه قد أهدى لدير سانتا اجاتا فى كتانيا العديد من الضيع والحيوانات وأربعة من الفلاحين مع أبنائهم فى مدينة مسينا، اثنان منهم مسيحيان واثنان من المسلمين. وحتى إن لم تذكر أسماء مسيحية كثيرة فى سجلات الفلاحين التى تبقت لدينا، فهذه الوثيقة وحدها قد تكفى لكى تبين لنا أن النورمان لم يحرروا أبداً إخوانهم فى الدين من عبودية الأرض.

(1) ابن الأثير، *Annali*، النص فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٧٨. وقد تكرر هذا الموضع عند النويرى، المرجع السابق، ص ٤٤٨ وفى كتاب جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٦.

الأمن الكامل للأفراد والمتاع والعائلات وذريتها(1). ولكن اذا كان الإدريسى، لم ينظر إلى عبيد الأرض باعتبارهم بشراً وأخوة فى الإسلام، واهتم بالحديث فقط عن المواطنين الذين كان يتعامل معهم فى العاصمة (١١٥٤)، فإن كلماته تكون سليمة صحيحة، وقد أكدها بعد ذلك بقليل (١١٨٤) ابن جبير(2). ويبدو لى أنه لابأس من أن نضيف إلى ما ذكرناه مما خلص إليه جريجوريو، أن الأوراق التى عثر عليها من بعده، والتى تتعلق بحالات نقل الملكية، تبرهن كلها على أن ذلك الحق قد مارسه بكامل الحرية مسلمو بالرمو، من الرجال والنساء، طبقا للشريعة الإسلامية وحكم القضاء(3). وعلى غرار المسلمين يظهر

---

(1) جغرافيا، جزء عن صقلية، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٢٦.
(2) انظر هنا عاليه، ص ٢٤٩.
(3) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الأول، الهامش ١١ والوثائق التالية، ومنها العربية غير المنشورة مذكورة طبقاً للنسخ التى ارسلها لى الاستاذ كوزا. القرن الثانى عشر. عمر بن حسين التميمى يبيع قطعة من الأرض لدير برذلى *Bardhali*(؟). وثيقة عربية من ارشيف بالرمو، لم تنشر.
١١٣٢ـ مقايضة بين عبد الرحمن اللواتى وحسين بن على الكندى، جزء من وثيقة عربية، فى كتاب جريجوريو. *De suppulandis*، ص ٤٤.
١١٣٧ـ ابن باروكى يبيع بيتاً لرئيس أساقفة مسينا. وثيقة عربية من كنيسة بلاتينا فى بالرمو، لم تنشر.
١١٥٧ـ الجليينو القائد عبد الملك يبيع عقارات إلى أسقف جرجنتى. وثيقة لاتينية، بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٦٩٨.
١١٦١ـ ابو بكر واحمد، دابغا جلود، وآخرون يبيعون منزلاً فى بالرمو للقس راوول. وثيقة عربية من أرشيف بالرمو، لم تنشر.
١١٦٤ـ ست الكل، ابنة القائد سمود واحد ابنائها، يبيعان لابنة شخص يُدعى جوفانى روميو بيتاً فى ضاحية بالرمو. وثيقة يونانية، لدى ترينكيرا، *Syllabus, ec*، ص ٢١٨.
١١٧٦ـ عثمان بن يوسف الهوارى يبيع للقس بيترو.. الخ بيتاً فى بالرمو. وثيقة عربية من ارشيف بالرمو، لم تنشر.
١١٨٠ـ أبو العباس احمد التميمى والحاج أبو الفضل يبيعان ضيعة فى أرض بالرمو لرئيس الأساقفة جوالتييرو اوفاميليو. وثيقة عربية من كاتدرائية بالرمو، لم تنشر.
١١٨٣ـ مسعود قرشى واحد ابنائه يبيعان بيتاً فى بالرمو للسيدة النبيلة مارجريتا. وثيقة

برجوازيو السلالات المسيحية القديمة، ملاكاً أحراراً لممتلكات غير خاضعة للإقطاع(1).

إن صقلية اليونانية فى نهاية القرن الحادى عشر يمكن أن تتجسد فى شخص القس سكولارو الذى تبقت لنا منه وصيته: كان رجلاً يلقى من بين الصقليين كافة، رضى بالغاً من جانب الغازى لخدماته الهامة التى كان يقوم بها لإدارته وعائلته. وهو من عائلة جرافيو، وقد ولد أو عاش فى مدينة مسينا، حيث امتلك مع أشقائه، ممتلكات فى المدينة، علاوة على ما ناله من هبات: كان كاهن كنيسة قصر الكونت فى ريجو واخذت ممتلكاته فى الزيادة بشكل كبير، فقد اشترى عقارات ثابتة وحيوانات وفلاحين وعبيداً فى أراضى مسينا وبالرمو وكاستروچوڤانى وترايِنا ومنياتشى وكاستيللو وفيما وراء مضيق ريجو، وماسّا وسيمينارا ونيكوتيرا وبرياتيكو، وچيراتشى وكوزنسا وروسانو: وفى النهاية عندما أراد الكونت روچيرو أن «يكافئه بهدية صغيرة نظير جهوده الهائلة والصادقة، منحه بموجب وثيقة عام ١٠٩٩ «وكل الذين سيخلفونه من بعده حتى نهاية العالم» أراضى فراجالا وفيرلا. وبعد اقتسام ممتلكات أبيه مع أشقائه، وبعد أن وزع جزءاً كبيراً من ممتلكاته بعد ذلك بين أبنائه، استخدم الجزء الباقى فى تأسيس دير لا يبعد كثيراً عن مسينا؛ ووهبه كثيراً من المبانى والضياع، والأثاث الدينى الذى اشتراه من اليونان، ولوحات رائعة

عربية من أرشيف بالرمو، لم تنشر.

١١٩٠- زينب بنت عبد الله الأنصارى تبيع لنيكولو عسكر بيتاً فى بالرمو. وثيقة عربية من كاندرائية بالرمو. جريجوريو. *De supputandis*، ص ٤٠.

١١٩٢- حسين وميمون ابنه يبيعان لدير الكانتشيللهيرى بيتاً لهما فى بالرمو. وثيقة يونانية، فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus, ec*. ص ٢١٥.

١١٩٣- إبراهيم بن محمد القرشى يبيع للمسيحى چوليو بيتاً فى كاستروچوڤانى. وثيقة عربية من أرشيف بالرمو، لم تنشر.

١١٩٦- كوستانتسا ابنة أبى الفضل تبيع عقارات فى المدينة. وثيقة يونانية. لدى مورسو. *Palermo Antico*. ص ٣٦٨.

(1) علاوة على الوثائق، تبرهن على ذلك *Consuetudini di Palermo*، التى ذكرها جريجوريو. *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الأول، الهامش ١١.

فى الجمال تتلألأ بالذهب وثلاثمائة من المخطوطات اليونانية؛ ثم ترهبَّ بهذا الدير، واتخذ له اسم سابا. وتظهر وصيته التى ترجع لعام ألف ومائة وأربعة عشر، والتى نستخلص منها هذه التفاصيل، أنه لم يكن قد وصل آنذاك إلى شيخوخة متقدمة، لأن والده كان لايزال على قيد الحياة. وقد أسس أحد أشقائه ديراً آخر واعتكف فيه. وكان سابا يأمل فى أن يحذو أحد أبنائه حذوه؛ لأنه بناءً على تأسيس الدير ترك لهم ولمن يريد من الأقارب والأبناء، رتبة كبير رهبان، التى احتفظ بها فى حياته، دون الكثير من التواضع المسيحى(1).

وقد عاش عدد غير قليل من الوافدين من وراء جبال الألب الذين جاءوا مع محاربى بيت هوتفيل فى ذلك الوقت فى أديرة كلابريا، حيث ارتقوا مراتب كنسية ومدنية رفيعة؛ ولكن أحداً من تلك السلالات أو من أصول إيطالية قديمة، بعد أن بذل جهداً فى الحرب وفى العمل

---

(1) الأخبار التى أقدمها عن القس سكولارو مستمدة من الترجمات اللاتينية لثلاث وثائق يونانية ترجع لأعوام ١٠٩٩ و١١١٤ و١١٢٨ أو (١١٣٠) وقد نشرها بيرّو، *Sicilia Sacra*. ص ١٠٠٢ والصفحات التالية. ومن شرح بيرّو؛ الذى يستنتج اسم العائلة من الاسم الذى تحمله أولاً، ابنة الابن الأول لمؤسسها فى وثيقتين ترجمان لعامى ١١٦٢ و١١٨٤. (المرجع السابق. ص ١٠٠٩). ويبدو لى أن سكولارو لا يجب أن نعده اسمه الحقيقى مثلما فعل بيرّو، بل لقباً مستمداً من [illegible] ، أى هيئة الحرس الخاص بالأباطرة البيزطيين، الذى ربما بدأ فيها حياته المحفوفة بالمغامرات ثم أصبح فيهما بعد سابا الراهب. والترجمات، ولأنها من عمل كوستانيتو لاسكارى الشهير، جديرة بالثقة فى هذه الوثائق. لأنها لا تتضمن تلك المصطلحات الفنية مثل Gius صقلى عام الذى لم يكن العلامة الهيلينى يعرفها حق المعرفة. وهناك بعض المشكلات، مثل لقب ملك الذى نسب لروجيرو الثانى، عام ١١١٤ وعام ١١٢٨ (ص ١٠٠٥). ويمكن أن تكون قد نشأت من أخطاء فى نسخة الترجمة، التى توافرت بين يدى بيرّو نماذج كثيرة منها ومختلفة فيما بينها. ووثيقة الكونت روجيرو الأول تشهد هكذا على أفضال القس سكولارو:

Igitur, quoniam et tu prædictus Scholarius perfectam erga nos habuisti et optimam intentionem, pormptitudinem et conscientiam; fidelissimus existens in omnibus rebus nostris, et summa exercens ministeria, et servitia nobis, restituere tibi voluimus parva munera pro tuis maximis et honestissimis ministeriis ac servitiis; pro quibus donamus, ec.

فى الحكومة، أنهى حياته فى العيش فى سكون فى الدير. لماذا دخل إذن هذا الهوس فى عائلة جرافيو، الموالية للكونت، والتى كرست نفسها للشئون الدنيوية والمكاسب الكبيرة التى حققها التجار الذين ساروا وراء الجيش الغازى؟ قد يرجع هذا، إذا لم أكن مخطئاً، إلى العزوف الشديد الذى جاءت به المسيحية إلى الشعب اليونانى فى كل الأقاليم وطوال فترة العصور الوسطى: فحلّ كمال الرهبانية محل القيم المدنية، وتفضيل الاستشهاد فى كل الأحوال، على القتال. وكان جرافيو بالغ الثراء، يشعر أنه أقل من أى إقطاعى لومباردى أو فرنسى صغير: ورأى نفسه ينحى جانباً بعد موت سيده؛ ولم يجد طريقاً آخر مفتوحاً للشهرة والسلطة، سوى أن يجعل من نفسه، بأمواله الخاصة، صاحب رتبة بالكنيسة. وقد ظهر ميله هذا فى عالم البرجوازيين اليونانيين فى صقلية: فقد كانوا بعيدين عن الحياة العسكرية حتى إن لم تكن ترتجف سواعدهم بالطبع، عندما كانوا يمسكون بالسلاح؛ وينشطون فى ذكاء سعياً وراء مكاسبهم الخاصة، بينما كانوا غير متحمسين فى الأمور العامة.

وكان النفور من الحياة العسكرية، فى تلك الحقبة وفى تلك الإمارة التى بزغت لتوها من الحرب، سبباً فى أن ظل يونانيو صقلية دون الوافدين من وراء الجبال ودون الإيطاليين من البر الإيطالى والمسلمين أنفسهم وذلك فى جانب من جوانب النظام الاجتماعى، كانت له أهمية بالغة فى العصور الوسطى. لم نر أحداً منهم وقد عهد إليه بإقطاعيات؛ ولم يبرز أحد منهم فى طبقة النبلاء فى البلاد، على الرغم من أن الكثيرين منهم قد مارسوا وظائف رسمية منذ الأيام الأولى للغزو النورمانى. وهكذا فإننا نقرأ فى وثائق ذلك العصر أسماء يونانية مثل قادة استراتيجيين *strateghi* أو نواب الكونتات *vicecomiti*، الذين كانوا ضباطاً فى الدولة، وأراخنة *arconti* وشيوخاً *geronti*، وهما لقبان من ألقاب المناصب البلدية التى سنتحدث عنها فى الفصل التالى، حيث سنتكلم أيضاً عن لفظ أرخن *arconte*، وهو لقب شرفى

كان يمنح لكبار المسئولين فى البلاط النورمانى. وإذا كان هذا اللقب علاوة على الحاكم، قد دلّ على وجود طبقة اجتماعية خاصة فى صقلية، فإنه يبدو لى أنها كانت طبقة ملاّك الأراضى، أشراف المدينة، الذين كانت لهم مقاعدهم فى المجلس بحكم العادة من قديم الزمان: ومن هنا فإن اللفظ فى حد ذاته كان يعنى الطبقة الاجتماعية والوظيفة. وبالتالى فقد كان هناك فارق كبير بين هؤلاء النبلاء المقيمين فى المدن الحصينة وفرسان إيطاليا أو فرنسا.

ولكننا نرى بين المسلمين منذ بداية الحكم النورمانى لقب «قائد» الذى اختفى فى منتصف القرن الثالث عشر، مع اختفاء سلالات العرب والبربر. ويبدو لى أنه كان يقصد به أحياناً درجة من درجات الأشراف، ذلك علاوة على وجود لقب شيخ وهو من أعيان المدينة، وحاكم وقاض، وعامل وهم من مسئولى الحكومة. ورتبة «قائد» تعنى بالتحديد «قائد فرقة عسكرية»، ورجوعاً للأصل الذى اشتقت منه، وكذلك من واقع استخدامها، فإنها تشير عادة إلى سلطة أقل من سلطة «أمير» التى تعنى «صاحب الأمر». وقد لاحظنا فى مواضع أخرى أنه عند الحديث عن واقعتين، ذكرت الأولى منهما أن الخليفة الفاطمى «القائم»، قد أرسل لقمع تمرد (٩٧٥) أرسل «جيشاً والعديد من «القادة» إلى صقلية: وتذكر الثانية أن وزير احد الأمراء الكلبيين قد دمر (١٠١٩) سيده بأن أثقل كاهل البلاد وأساء معاملة «القادة» والشيوخ(1). وهناك مثال مختلف إلى حد ما نجده فى نهاية القرن العاشر، عندما أطلق لقب قائد على جوهر، ذلك العتيق الصقلى الذى استولى للفاطميين على جزء كبير من أفريقيا الغربية ومصر(2). وفى

---

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل التاسع والكتاب الرابع، الفصل الثامن، ص ١٩٥، هامش ١، وص ٣٦٠، هامش ٢، من المجلد الثانى. ومواضع ابن الأثير والنويرى المذكورة هنا توجد فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٨٤ و٤٣٧.

(2) انظر الكتاب الرابع، الفصل الرابع، ص ٢٨٧ والصفحات التالية من المجلد الثانى. جوهر يسميه المقريزى القائد، **المواعظ**، طبعة بولاق، المجلد الثانى، ص ٢٧٣ وفى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٦٩.

القرنين الثالث عشر والرابع عشر أطلق اللقب نفسه على قادة المرتزقة المسيحيين فى تونس(1). وفى ترجمات محررات القرن الرابع عشر العربية إلى الأسبانية ورد ذكر *alcade* قائد الجمرك فى افريقيا الشمالية(2). والكل يعرف بعد ذلك أن اللفظ نفسه كان يعنى فى أسبانيا رجل القصر وفى النهاية بمعنى رئيس السلطة البلدية.

وعندما نقترب أكثر من موضوع بحثنا، يجب أن نذكر كيف أن الحكام الذين ظهروا فى صقلية بعد سلالة بنى كلب، لم يلقبوا فى الحوليات العربية سوى بلقب «قائد»(3)؛ وكذلك فإن أماتو ومالاتيرا أيضاً أطلقا لقبى «قايت» *Cayt* وأرقاديوس *arcadius* على مختلف القادة ورجال القصور فى الجزيرة وأخيراً على قائدى بالرمو اللذين تفاوضا على استسلام العاصمة(4). وبعد ذلك بعشرين عاماً يظهر لقب «قائد» على رأس قائمة أتباع أسقف كتانيا فى آتشى وكتانيا نفسها(5): ويجب أن يذهب بنا الظن إلى أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم أو أباءهم، كانوا يحملون ذلك اللقب منذ بداية الحرب، حين

---

(1) كانوا فى معظمهم من الأسبان وقد كان هنالك أيضاً أناس من جنوه وفنيسيا. *Presentibus archaido Lodovico Alvares, archaido Andreuccio Cibo, conestabilibus stipendiariorum christianorum ec.*
وهذا ما نقرأه فى ترجمة الاتفاقية التجارية المبرمة بين بيزا وتونس فى عام ١٢٥٣، التى نشرتها فى *Diplomi Arabi dell' Archivio fiorentino*، ص ٣٠٨. وانظر أيضاً مقدمتى لتلك المجموعة، ص ٢٢ و٤٤ والحاشية ٧ من ص ١٧٥. وقد ورد اسم *Alcayt - Ferran - Iove*. فى وثيقة ترجع لعام ١٣١٥. لدى، *Campany*. *Memorias historicas... de Barcelona*. الوثيقة ٢١، ص ٦٢.

(2) وثيقة كتلانية ترجع لعام ١٣١٢. لدى كامبانى. *Memorias historicas, ec.* المجلد الرابع، الوثيقة ٢٦. المادة ٦ ووثيقة ترجع لعام ١٣٢٢، والوثيقة ٤٢. المادة ٥ و١٦.

(3) الكتاب الرابع، الفصل الثانى عشر، ص ٤٢١ و٤٣٢ من المجلد الثانى.

(4) الكتاب الخامس. الفصول الثانى والثالث والرابع، ص ٧٥ و٧٧ و٨٣ و٨٥ و١٣٤ من هذا المجلد. ويلاحَظ أن أماتو، فى الموضع الذى ذكرته ص ٨٣، وبدقة كبيرة يسمى رئيس الحكومة المسلمة فى بالرمو أدميرال، بينما أعطى للقادة ولرجال القصر لقب *Cayt* قائد.

(5) القوائم اليونانية ـ العربية لأتباع الأسقف فى كتانيا وآتشى، التى تحمل الثانية منها تاريخ ١٠٩٥، بينما جددت الأولى بعد ذلك بسنوات طويلة، وترجع بلاشك للفترة نفسها.

نقرأ أن الكونت قد منح لأسقف المدينة والمواطنين المسلمين كما كانوا قبل الغزو، مع الحق فى استدعاء الأشخاص أو سلالتهم ممن هربوا آنذاك وسكنوا أماكن أخرى من الجزيرة(1). ونقرأ بتاريخ ١١٢٣ اسم «قائد» كان بيتيرّانا قد أرسله إلى بالرمو لقضاء شئونه الخاصة(2)؛ وفى عام ١١٣٢، نقرأ عن ثلاثة من القادة عاينوا، مع غيرهم من المسلمين والمسيحيين، تحديد حدود الضياع المهداة من الملك روچيرو إلى أسقف تشيفالو(3). ولكن بعد أن نظم روچيرو هذا حكومة المملكة تنظيماً جديداً، وبعد ان ارتفع تحت حكم الملكين المعروفين باسم جوليلمو قدر رجال البلاط المسلمين، كثرت فى الوقائع اللاتينية والوثائق العربية واليونانية، ألقــاب مثل قائد *Ka id* و *zatros* وجايتى *Gaiti* أو كايتى *Cayti* التى ذكرت أو وردت تارة بتوقيع شهود على وثائق رسمية أو قائمين بشئون عامة أو بوصفهم مشاهير فى مكائد البلاط تـارة أخــرى. وفى هـذه الكتابات نجـد أن لفظ قائد كان يعنى أحيــاناً بوضــوح قائد الحـــرس الملكى(4)؛ ولكنه

---

(1) وثيقة لاتينية بتاريخ ٩ ديسمبر ١٠٩٢ لدى بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٢٢ و٥٢٣.

(2) وثيقة يونانية بتاريخ ١١٢٣، لدى سبياتا، *Pergamene, ec.*، ص ٤١٠.

(3) وثيقة يونانية ـ لاتينية بتاريخ ١١٣٢. لدى سباتا، المرجع السابق: ص ٤٢٦.

(4) وثيقة عربية ـ يونانية بتاريخ ١١٧٢، فى *Tabulario, ec.*، الخاص بكنيسة القصر ببالرمو، ص ٣٠ والصفحات التالية. ويرد بها من بين الشهود على تحديد حدود ضيعة أسماء جوڤاني ابن الأدميرال جورچو، ونيقولو لوجوتيتا، وأبى الطيب ومخلوف، اللذين ســميا فى النص اليونـــانى [illegible] وفى الشرح العربى سميا قائدى القواســين وشــخص يُدعى [illegible] *Chapzis* (ويقرا حمزة)، وهو من يسمى بالعربية شيخ وقائد. وفى النص اليونانى، علاوة على ذلك نسبت صفة قائد لشخص يُدعى نيقولو ويقال له فى العربية فراش *Farrâse* (وقد قراه الناشرون خطا *Carasc*) وهو يعنى بالضبط احد السعاة، وهو الذى يعنى بالبُسُط والأسرّة، إلخ.

وهكذا تذكر هذه الوثيقة قادة من الطبقات الثلاث التى افترضناها، اى القادة الأربعة الأوائل، والشريف الخامس، والسادس ساعى البلاط.

وبالعودة إلى الطبقة الأولى، يجب أن نتذكر أن ابن جبير يتحدث عن فريق من العبيد السود المسلمين، الذين كانوا يخدمون جوليلمو الثانى تحت إمرة قـائد من بنى جلدتهم: فى *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥٠٩، والترجمة الفرنســية ص ٥٤٠، وفى *Archivio Storico Italiano*، ملحق المجلد الرابع، ص ٣٢.

كثيراً ما كان يعنى مجرد لقب شرفى يمنح لبعض رجال البلاط(1)؛ ولكن فى حالات أخرى عديدة تبدو لنا تسمية لفئة اجتماعية معينة. اما أن تنحدر الألقاب العسكرية بسهولة لتصبح ألقاباً شرفية، فهذا ما يعرفه الجميع من كلمة *dux* ومن كلمات كثيرة أخرى تتردد فى البلاد كلها وفى الأزمان كلها. وكانت كذلك صفة قائد التى أطلقها فالكاندو على أبى القاسم بن حَمُّود وعلى منافسه *Sedictus* سيديكتوس (صديق؟) فى عهد جوليلمو الصالح(2)، حيث تبدو درجة من درجات النبالة. ذلك لأن ابن حَمُّود نفسه، وهو رجل واسع الثراء من سلالة

---

(1) القائد بارون، وهو كما نقول نحن، مدير أملاك الدولة. وثيقة بتاريخ ابريل ١١٥٠، نشرها كاروزو بصورة رديئة فى *Biblioteca Sacra, ec.* بالرمو، ١٨٣٤، ص ٢٨، ولدى منها نسخة افضل تكرَّم على بها الأستاذ كوزا. ويبدو أنه هو الفتى بارون نفسه، الذى نقرأ اسمه فى جزء من الكتابة الأثرية فى دار بلدية ترميني. ويعد عماد الدين فى **الخريدة، المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٨١، من بين الشعراء الصقليين شخصاً يُدعى جعفر بن بارون.

كما وردت توقيعات *Gaitus Ricon (?) domini regis Magister Camerarius* و *Gaytus Maranus, domini regis magister et familiaris*, *et familiaris* فى وثيقة بتاريخ ١١٦٧، فى محفوظات كنيسة القصر فى بالرمو، ص ٢٥. كما ورد Καΐτος [illegible]، أحد أراخنة البلاط، فى وثيقة يونانية بتاريخ ١١٦٨، لدى سباتا، المرجع السابق، ص ٤٤٠.

وكايتوس ريكاردوس *Caytus Riccardus*، كبير الأمناء، وثيقة من أصل يونانى، بتاريخ ١١٦٩، وترجمة لاتينية، لدى بيرُّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٧، والشئ نفسه فى وثيقة يونانية بتاريخ ١١٨٣، لدى سباتا، المرجع السابق، ص ٢٩١.

وجايتوس مارتينوس *Gaytus Martinus*، المتوفى، وخادم حجرة الملك. وثيقة لاتينية بتاريخ ١١٧٢، لدى بيرُّو، *Sicilia Sacra*، ص ٤٥٤.

وجايتوس يوهانس *Gaytus Johannes*، خادم حجرة الملك. وثيقة لاتينية ـ عربية بتاريخ ١١٨٧، فى محفوظات كنيسة القصر فى بالرمو، ص ٣٧ و٣٨. ويذكر هنا فى النص اللاتينى جايتوس ريكاردوس *Gaytus Riccardus* الذى تحدثنا عنه منذ قليل، ونراه مذكوراً بالعربية بين الشهود الذين يحملون لقب قائد. وعلى العكس من ذلك كان *Gaytus* جوفانى مذكوراً أولاً باسمه وبعد ذلك مكتوباً فى النص العربى فتى *Fati*، اى أحد فتيان البلاط وكان «فتى» أيضاً شاهداً اسمه عمار. أما مورسو، الذى نقل وترجم هذه الوثيقة، فقد أخطأ وقرأ بدلاً من فتى *Fati* لفظ فتى *Kata* الذى لا يعنى شيئاً، وعده مطابقاً لكلمة *Gaytus*، اى قائد.

(2) لدى كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٤٦٣.

على، أطلق عليه معاصره ابن جبير، لقب «قائد» كما لقب «بالزعيم الأول وسيد الجزيرة، أحد أولئك النبلاء الذين كانوا يتوارثون السيادة فى أبكارهم»(1). ويمكن أن ندرج فى الطبقة نفسها كل القادة (الجايتى) الذين كانوا يرتدون ثياباً مختلفة عن زى البلاط فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر؛ ومع افتراض أنهم كانوا من قادة الجنود إلا أنهم لم يكونوا قادة للحرس الملكى، حيث رأيناهم ينتشرون فى الجزيرة كلها(2) وبالتالى فإنهم قد يكونون قادة بالوراثة، أو نبلاء: إذ

---

(1) نص فى *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥٣٢، وفى طبعة رايت، ص٣٤٥: وترجمة فرنسية فى الـ *Journal* المذكور، يناير ١٨٤٦، ص ٢٠٣: وترجمة إيطالية فى *Archivio Storico italiano*، المجلد الرابع، الملحق رقم ١٦، ص ٤٦. ويشير المؤلف نفسه، فى طبعة رايت، ص ١٤٦، بلفظ «زعيم» إلى رئيس قبيلة عربية راه على جواده، إلى جانب سيف الإسلام، شقيق صلاح الدين، عندما كان يدخل مكة بصورة مهيبة. ويعطى لها القاموس المعنى نفسه الذى يعطيه لرئيس قوم أو سيدهم: من له حق الكلام باسم قومه أو يجعل من نفسه ضامناً لهم. ويطلق الماوردى وهو كاتب فى بغداد فى القرن العاشر، اسم الزعيم على الرئيس الأعلى لجيش من الجيوش. النص، طبعة إنجر، ص ٦٧: والمقريزى، فى روايته لموت السلطان المملوكى خليل الذى حدث فى أواخر القرن الثالث عشر، يضع على لسانه الكلمات التى تعنى أنه لا يعد نفسه أميراً، ولكن مجرد زعيم للجيش: *Histoire des Sultans Mamlouks*، ترجمة كاترمير، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ١٥٢. انظر أيضاً لب اللباب، ص ١٠٨ و١٠٩ من الملحق. ونستخلص من هذا كيف أن هذا اللفظ: على الرغم من معانيه الخاصة التى استخدمت فى العديد من الظروف، فإنه يرجع دائماً إلى رئيس منتخب أو بالوراثة، وهو على أرض الواقع يقترب كثيراً من بارون العصور الوسطى المسيحية.

(2) جايتوس ميكيريت دى ياتينو *Gaytus Micheret de Jatino*، شاهد فى وثيقة لاتينية بتاريخ ١١٣٢ لدى بيرو، ص ٧٧٤.

جايتوس عبد مَلَك *Gaytus Abdi Malach*، بائع ضيعة لأسقف جرجنتى بين عامى ١١٥٧ و١١٧١، لدى بيرو، المرجع المذكور، ص ٦٩٨.

جايتوس ميمون *Gaytus Maimon*، و [illegible]، من مسلمى سيراكوزا: وجايتوس همار *Gaytus Hamar* وجايتوس براهيم *Gaytus Brahim* من قرية اجوليا القريبة، شاهدان فى وثيقة يونانية ـ لاتينية بتاريخ ١١٧٢، لدى سباتا، *Pergamene, ec.*، ص٤٤٤.

جايتوس رمون دى ميشيكين *Gaytus Ramun di Michiken*، جايتوس هومور *Gaytus Humur* من المكان نفسه، وجايتوس على البونيفاتى *Gaytus Aly-el-Bonifati*، من جورفا وجايتوس عبد الجوايتى *Gaytus Abdelguaiti*، من المكان نفسه، جايتوس على بيترولِيلى *Gaytus Aly Petrulili* من يال...، وجايتوس حسين

كانت نظم القبائل العربية وتقاليد «الجند» تتفق فى هذا مع الأعراف الإقطاعية فى أوربا. حيث كان رئيس العائلة حقيقية كانت أم مكتسبة، يقود رجاله فى الحرب. والحكام المسلمون الخمسة الذين قاموا بثورة مسلحة فى تلال وادى مازارا، بعد موت جوليلمو الصالح(1) ربما لم يكونوا سوى قادة. ولما كان روبرتو جويسكاردو ومن بعده الكونت روجيرو، قد استخدما فرقاً كبيرة من المسلمين الصقليين، فمن المؤكد أن هؤلاء الجند كانوا يأتمرون بأوامر قادة من أهلهم؛ والقادة، حتى إن لم يكونوا أشرافاً بالمولد، فإنهم كانوا يصبحون أشرافاً فعليين، طبقاً لمفاهيم القرون الوسطى وكل العصور تقريباً. وأنا اعتقد أن القادة فى صقلية كانوا يجمعون الفرق المسلمة تقريباً كما كان البارونات يجمعون الميليشيات الإقطاعية، وأنهم كونوا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر طبقة حقيقية من النبلاء. وقد بقيت هذه الطبقة قائمة حتى موت جوليلمو الثانى. ولو أن عدد الميليشيات المسلمة فى الجيوش الملكية قد انخفض كثيراً وفُضّل عليها المسلمون المستقرون فى البلاد، الذين تحدثنا عنهم، تحت قيادة قادة مسيحيين أو تحولوا فى الظاهر عن الإسلام(2). ولكن بذريعة قيادة فرقة من الحرس الملكى تارة ودون أية ذريعة تارة أخرى، فإن وصفاء البلاط وهم فى غالبهم خصيان ملحقون بالقصر لخدمة أفراد العائلة الملكية أو الأعمال العامة، حصلوا شيئاً فشيئا

Gaytus Huscin من كسّارو (فى وادى مازارا) شهود مع كثيرين آخرين. فى وثيقة يونانية - عربية بتاريخ ١١٧٥. نقرأ لها ترجمة لاتينية من القرن الثالث عشر، لدى جريجوريو. *De supputandis, ec.* ص ٥ والصفحات التالية، ولدى سباتا *Pergamene*. ص ٤٥٢ . وبعض هؤلاء ملقب أيضاً بشيخ. مثل القائد حمزة، المذكور فى وثيقة ١١٧٢ المذكورة عاليه، ص ٣٦٢ هامش ٤.

(1) ريكاردو داسان جرمانو. *Chronicon*، فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sicula*. ص ٥٤٧، عام ١١٩٠.

(2) انظر أسماء أربعة من قادة القواسين فى وثيقة عام ١١٧٢. المذكورة عاليه وشهادة ابن جبير.

على ذلك اللقب النبيل(1) ووسط الفوضى السياسية والإدارية التى سبقت مُلك الملك فدريكو، فقد أصبح كما يبدو لى لقب وظيفة إدارية، وربما كانت إدراة الأملاك الأميرية، فى مدينة بالرمو وأراضيها، التى كان يديرها أحد وصفاء البلاط من قبل. وقد كانت بالطبع وظيفة، من وظائف الإدارة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر(2). ولكن فى السنوات الأولى بالذات (١٢٠٦) كان البابا إنوتشنسو الثالث قد كتب «للقاضى ومعه كل *Gaiti* قادة أنتيللا وبلاتانى وچاتو وتشيلسو والقادة الآخرين جميعهم وسراسنة صقلية» راجياً لهم أن «يعرفوا ويحبوا الحق الذى هو الله ذاته»؛ وأثنى على ولائهم لفدريكو ملكهم وحثهم على الحفاظ على ذلك الوفاء(3). لقد كان (*Gaiti*) قادة ذلك الزمان إذن كباراً سياسيين وعسكريين فى قلب ڤال دى مازارا.

وإذا كان ما قلناه يكفى لبيان وجود طبقة من النبلاء بين المسلمين فى صقلية بعد الغزو النورمانى، فإن الحدس الموفق الذى

---

(1) انظر إلى (القادة) الجايتى الكثيرين الذين ذكرهم فالكاندو فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sicula*، وفى مواضع أخرى. والأسماء الأخرى المستخلصة من الوثائق التى ذكرناها جميعاً ص٢٦٣. ونقرا *Arabicus miles*. يوقع شاهداً فى وثيقة لاتينية بتاريخ ١١٥١ لدى بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٩٣٣. وربما كانت تسبق الحرف الأول من الاسم الذى لم نتمكن من قراءته أو سقط فى الطباعة. ويبدو لى أن الشاهد قائد كان يترجم لقبه النبيل إلى اللغة اللاتينية المستخدمة فى ذلك الوقت.

(2) وثائق الإمبراطور فدريكو، بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٢٣٩ و١٢ مارس و١٥ ابريل ١٢٤٠، فى، *Historia diplomatica Friderici II*. المجلد الخامس، ص ٥٩٦ و٨٢٠ و٩٠٢. ووثيقة عام ١٢٧٤، فى *Tabularium, ec.*. كنيسة القصر فى بالرمو، ص ٨٢ والصفحات التالية.

من هذه الوثائق نلمح ان قائد بالرمو كان المدير المباشر للأملاك الأميرية بالمدينة وباراضى بالرمو، تحت سلطة أمين الإقليم. وتبين وثيقة عام ١٢٧٤ ان تلك الوظيفة لم تستمر بعد ملك مانفريدى وانها كانت سنوية وربما كانت تعطى بالإلتزام.

(3) *Innocentii III Epistolæ*. الكتاب التاسع، الرسالة ١٥٨. طبعة باريس ١٧٩١، فى *Diplomata Chartæ, etc.* بريكينيى، الجزء الثانى، المجلد الأول. و*Archadio et universis Gaietanis, etc.*، ويجب ان يصحح اسم المكان *Jaci* ليصبح *Jati*.

قاد جريجوريو للوصول إلى النتيجة نفسها يستحق الإعجاب، ولو أن الدليلين اللذين ساقهما على ذلك لا يستقيمان بحال من الأحوال. فقد اتبع كلمات غير واضحة قالها مالاتيرًا، ولهذا افترض أن ابن الثمنة التعس كان إقطاعياً خاضعاً للكونت روچيرو بينما كان حليفاً له ولروبرتو جويسكاردو؛ وفى قبوله لمفارقة زمنية أتى بها ليونى افريكانو، افترض أن الكونت تنازل عن سيادته على إحدى القلاع لمسلم أسماه هو «الشريف»، وكان كاتباً شهيراً فى الجغرافيا؛ وهو ليس إلا الإدريسى، الذى عاش فى الأجيال التالية، لأنه قدم كتابه للملك روچيرو، بعد ثمانين عاماً من دخول الكونت بالرمو(1)!

ونتعرف على سبب الوقائع التى استعرضناها فى هذا الفصل والفصل السابق من أحداث الغزو. وإذا نحينا جانباً العمليات الصغرى وسقوط القلاع الأخيرة فإن هذا الغزو يجب تقسيمه إلى أربع فترات: طرد المسلمين من الطرف الشمالى من فال ديمونى (١٠٦١)؛ واحتلال المنطقة الشمالية من فال دى مازارا (١٠٧٢)؛ وحرب بنافرت (١٠٧٣ - ١٠٨٦) وخضوع فال دى نوتو (١٠٨٦ - ١٠٨٩). وفى الفترتين الأولتين وفى الفترة الأخيرة كان الانتصار سريعاً جداً حتى إن معظم السكان بقوا حيث كانوا: فبقى اليونانيون وغيرهم من السكان القدامى فى فال ديمونى، وفى الأقاليم الأخرى المذكورة بقى السكان القدامى المسيحيون أو المرتدون والمسلمون الذين تجرى فى عروقهم دماء عربية أو بربرية. وجدير بالذكر أيضاً هذا الفارق فى أن المنتصرين فى الفترة الأولى تركوا بعض الحاميات الضعيفة فقط؛ ولكنهم فى الفترة الثانية والرابعة، نظراً لكثرتهم العددية الكبيرة وتقسيمهم المكاسب فيما بينهم، استقروا فى البلاد؛

---

(1) *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل الأول، ص ٦، هامش ١٠ . إن فقرة ليونى افريكانو التى اوقعت جريجوريو فى الخطأ، ذكرها هو نفسه فى الحاشية، فى، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٢٨ . انظر ما قلناه نحن عن ذلك العالم المسلم فى الكتاب الأول، الفصل العاشر، ص ٣٠٤ من المجلد الأول.

ولكن أقاصى قال ديمونى كان به أجانب أقل من باقى الجزيرة. أما الفترة الثالثة وبعد القتال طويلاً: حيث اختلف الحظ اختلافاً أكبر مما يعترف به مالاتيرا، اضطر النورمان إلى البحث عن أنصار جدد، يحاول هو عبثاً إخفاءهم. وفى هذا الوقت، على ما يبدو لى، تعاقبت الخسائر الكبرى على المنتصرين، الذين اعترف قائدهم فى نهاية العملية بقتل عدد كبير من فرسانه لا يعلمه إلا الله وحده(1). وفى هذا الوقت نرى تزويد باتيرنو بالقوات لتصبح قاعدة للعمليات على يسار الحدود النورمانية، وهى مدينة تردد اسمها فى إيطاليا الشمالية، وأصبحت بعد موت الكونت روجيرو إقطاعية لأريجو دى ماركيزى اليرامى(2). والقرائن حول أصل كالتاچيرونى، والأدلة حول سكان بياتسا ونيقوسيا ومدن أخرى فى سلاسل الجبال التى تدور حول إتنا من الشمال إلى الغرب، تحملنا على الاعتقاد بطرد جانب كبير من الأهالى المسيحيين أو المسلمين القدامى أو إبادتهم خلال فترة الغزو الثالثة، وأنه حل محلهم مستوطنون من البر الإيطالى، زاد عددهم بعد ذلك بفعل الهجرات المتفرقة، بداية من السنوات الأخيرة من حكم الكونت روجيرو وطوال وصاية أديلايدى وربما فى السنوات الأولى من حكم ابنها الذى أصبح بعد ذلك ملكاً. وهذا الافتراض يتأكد بمراجعة أسماء المدن الرئيسة فى إبراشية كتانيا طبقاً لوثيقة الكونت، بتاريخ ١٠٩١، مع ما نقرأه من أسماء فى فقرات الإدريسى (١١٥٤) المتعلقة بالمنطقة نفسها: لأنه لا توجد بين الأسماء الأولى اسماء بياتسا، وسان فيليبو دارچيرو وأيدونى، وهى مستوطنات لومباردية؛ وتلك المدن لم تكن لتتحى جانباً، لو أنها كانت عند نهاية الحرب مدناً كبيرة

---

(1) وثيقة لاتينية بتاريخ ١٠٩١. لدى بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٥٢١ ....

et ego cum exercitibus militum meorum fortiter laboravi... patiundo diversa pericula in terra et in mari et immensam famem et nimiam sitim ad invicem: numerus autem illorum meorum militum qui in acquisitione terre Sicilie mortui sunt, sunt, soli Deo et Sanctis ejus cognitus est; mihi vero, cum omnibus aliis hominibus incognitus.

(2) انظر وثيقة عام ١١١٤. لدى بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ١١٧٧.

ومهمة كما نراها فى القرن الثانى عشر(1). وهذه بالضبط حالة كالتاچيرونى التى لاحظناها من قبل(2).

وتقودنا حوليات الغزو أيضاً إلى افتراضات لاتخلو من أساس حول أصل ظروف الأشخاص. قد روينا من قبل كيف أن المدن الرئيسة كانت تستسلم بالعهود، مثل كتانيا وبالرمو ومازارا وترابانى وتاورمينا وسيراكوزا وكاستروچوفانى وبوتيرا ونوتو ومالطه، باستثناء مسينا التى أبيد فيها المسلمون إبادة صفقت لها المدينة كلها؛ وكانت ترانيا فى البداية داخلة فى عهد ثم أصبحت خاضعة بعد ذلك؛ واقتُحمت چرچنتى عندما أفاد المنتصرون من السماحة. وإذا نظرنا إلى كتانيا التى أعطيت إقطاعاً للأسقف بينما كان السكان المسلمون يسجلون فى قوائم الفلاحين، بداية بقائدين، فإننا يجب أن نذكر أنها استعيدت بالحرب بعد أن استدعت بنافرت ثم إنه من المستبعد أن تكون المدن المسلمة كلها قد حصلت على العهود نفسها التى حصلت عليها بالرمو لقدرتها على الدفاع عن نفسها: ربما كانت هناك عهود مشتركة، مثل حرية العقيدة وامتلاك الممتلكات الخاصة: ولكن اختلفت شروط الضرائب وبعض النظم العامة. ولم يكن المنتصر رجلاً يجدد دون دواعٍ: ومن هنا فإنه من المفترض بصفة عامة أنه كان يُبقى على الأعراف ومن بينها، النبالة بين المسلمين، وكذلك بين اليونانيين، والمساواة تحت سلطة مطلقة.

وبعكس المدن، كانت الأراضى المفتوحة والقرى تسقط دون دفاع فى أيدى المنتصر، عندما كان يتحرك ليهاجم عاصمة الإقليم أو

---

(1) الوثيقة نشرها لدى بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ٥٢٠. وسنتحدث فى الفصل التالى عن سبب عدم وجود الأراضى قليلة الأهمية فى التحديدات الأولى للأبرشيات. ولن نقوم بالمقارنة نفسها بالنسبة لراندانسو، ولا بالنسبة للمستوطنات الأخرى اللومباردية فى أبرشية مسينا، لأننا نشك فى تحريف بالوثيقة الأولى، بتاريخ ١٠٨٢، التى نشرها بيرّو بناء على نسخة ترجع للقرن السادس عشر. المرجع السابق، ص ٤٩٥.

(2) الفصل الثامن، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ من هذا المجلد.

يوشك على إخضاعها؛ ولم يكن هناك مجال للمهود سوى لبعض القلاع المهمة. ويبين لنا مثال بوجامو أن القادة النورمان فى تلك الحالات كانوا يعاملون الأسرى كالعبيد(1): ثم تأتى بعد ذلك تلك النتيجة الحتمية التى كانت تتمثل فى الاستيلاء على الممتلكات، لنلحظها فى مائة وثيقة؛ ومن بينها وثيقة شهيرة للغاية تتعلق بحكم يرجع لعام ألف ومائة وثلاثة وعشرين وتنص على انتقال ملكية طاحونة كان اثنان من المسلمين قد اشترياها قبل الغزو ثم آلت إلى سيدهما الإقطاعى(2). ثم إن الأسرى إن لم يباعوا، كانوا يظلون عبيداً للأرض؛ دون استبعاد بكل تأكيد المسيحيين الذين كانوا يعيشون بوصفهم فلاحين أو عبيداً، لأننا نراهم مقيدين مثل المسلمين فى صحائف الفلاحين. وهؤلاء السكان الريفيون الذين أُخذوا مع الأرض، من الواضح أنهم طبقة الفلاحين التى امتلكها السيد بحكم أشخاصهم. والذين تم امتلاكهم بحكم أملاكهم يبدو أنهم كانوا سكان الأماكن التى كانت تستسلم بالعهود، أو رجال غرباء قُبلوا بعد ذلك فى أراضى السيد. وحق الملكية الذى كان يتمتع به الفلاحون عن أملاك اشتروها بجهدهم ونشاطهم، بعد أن وفوا بما عليهم من خدمات لسيدهم، يبدو لى عرفاً من نتاج القوانين الإسلامية بشأن العبيد. وفى النهاية فإن رتبة قائد التى خصصت لبعض النبلاء قد نبعت كما هو واضح من العهود المبرمة عند استسلام القلاع والحصون، أو من ضرورات أقوى من العهود؛ بمعنى أنهم عندما أرادوا اقتياد الرجال للحرب، كان لزاماً عليهم الإبقاء على رؤسائهم الذين اعتادوا الخضوع لهم وطاعتهم. ولعل هذا

---

(1) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ١١٢ من هذا المجلد.

(2) وثيقة يونانية، لدى سباتا. *Pergamene*، ص ٤٠٩ والصفحات التالية.
لقد أخطأ السيد سباتا عندما افترض أن كلا التابعين المسلمين اللذين امتلكا الطاحونة فيما قبل، كانا زوجين لموريللا، النورماندية؛ كما يتضح من اسمها وهى سيدة قرية بيتيرانا. ولفظ [illegible] فى العصور الوسطى كان له أيضاً هذا المعنى وهذا واضح هنا.

كان نظاماً لا يمكن التخلى عنه حتى فى السلم، إذا كان يراد للشعوب المجاورة من المسيحيين أو المسلمين أن تعيش فى أمن، وإذا كان يراد حماية الأشخاص والممتلكات حماية حقة.

الفصل العاشر

مع بدايات الملكية الصقلية تظهر على السطح قضية ما إذا كان كونتات صقلية تابعين لدوقات بوليا. وتتضارب الشهادات فى هذا الصدد. فالراهب الانجليزى إدمر، الذى كان معاصراً للكونت روچيرو، يسميه رجل دوق بوليا؛ ومالاتيرا، وهو من رجال قصره يقول إن صقلية منحت له هبة إقطاعية من قبل روبرتو جويسكاردو: كما ورد الشئ نفسه لدى ليونى دوستيا وروموالدو سالرنيتانو، وهما مؤلفان أحدث من سـابقيهما(1)، وقد لقب روبرتو بعد ذلك وابنه روچيرو، فى بعض الوثائق بلقب دوق بوليـا أو إيطاليـا، وكلابريا وصقلية(2). كما كان الكونت روچيرو يلقب روبرتو أحياناً بسيده(3). ومن جهة أخـرى تؤكد كتب التـاريخ على مر العصـور أن الكونت أو أبنـاءه لم يكونوا تابعين أو فى خدمة دوقات بوليا(4): وهناك وثائق لم يدع

---

(1) مالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر؛ وليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل السادس عشر، لدى كاروزو، *Bib. Sic.*، ص ۲۰۱، ۸۰. أما مواضع إيدميرو وروموالدو السالرنى فقد نقلها جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السابع، الحاشيتان ١٦ و١٧. والاستشهاد باماتو لا يثبت هذا أو ينفيه، لأن المترجم الفرنسى، (فى الكتاب السادس، الفصل ٢١، ص ١٨٢)، حينما أشار إلى الحدث نفسه الذى رواه مالاتيرا، يقول إن روبرتو: *donna,... toute la Sycille* دون أن يحدد، أكثر من ذلك، طبيعة المنح.

(2) وثائق أعوام ١٠٨٢ و١٠٩١ و١٠٩٩، وأولاها فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*، المجلد الخامس، ص ٩٧، والوثيقتان الأخرتان فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus graecarum membranarum, etc.*، ص ٦٨ و٨٥؛ ووثيقة بتاريخ عام ١٠٩٤، ذكرها جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السابع، حاشية ١٩؛ ووثائق روبرتو وخليفته، بتاريخ ١٠٧٩، ١٠٨٣ و١٠٨٤ و١٠٩٢، واختام الرصاص، في كتاب بوشون *Nouvelles Recherches sur la principauté française de Morée* المجلد الثانى، الجزء الأول، باريس، ١٨٤٣، ص ٣٦٠ و٣٦١.

(3) وثائق عام ١٠٨١ و١٠٩٤، في كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٦ و٧٧١.

(4) انظر جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السابع، ص ١٥١.

فيها الكونت روبرتو سوى بلفظ أخى؛ ولا ابنه روجيرو سوى بلقب دوق بوليا وكلابريا(1). وقد رأى جريجوريو فى هذا الصدد ما يشبه الخضوع(2)؛ وهذا ما ينفيه بالميبرى بحدة(3)؛ وفيما يتعلق بالكتاب الآخرين فإننى أؤثر الصمت اختصاراً. ولكن ما من أحد يستطيع أن يفسر التضارب بين الوثائق، وهو يصر على تصور روبرتو جويسكاردو، رجلاً تقياً، سعيداً وجليلاً، وجالساً على عرش أجداده، بين بارونات يوقرونه. وهو يسعى بهدوء لحكم الدولة مع ما سمى فيما بعد بمجالس أورشليم.

ومن الإشارات التى قمنا بها هنا وهناك فى هذا الكتاب الخامس، يظهر البطل فى مظهر آخر تماماً حتى عام ألف وثمانين(4). فالبارونات النورمان، الذين كانوا قادة جيوش فيما قبل، كانوا يعدونه نظيراً لهم وكانت المدن تعده جنديها المرتزق، الذى كان عليها أن تدفع له إتاوة، بحكم الضرورة: والباباوات أنفسهم الذين شجموه بإدراجه فى نظام الإقطاع ويمنحه لقب دوق، كثيراً ما كانوا يميلون لطرده من إيطاليا. وأخذ شقيقه روجيرو بعد أن حصل منه على إقطاعية ميليتو فقط، يمتطى صهوة جواده بين فرقه الحربية، حيث كان قائداً مرتزقاً له فرقته الخاصة به؛ ولكن خلافاً نشأ بين الشقيقين بسبب المكافآت غير المرضية فاحتكموا إلى السلاح؛ ثم انتقل روجيرو لخدمة إقطاعيين معادين، أو ربما أبرم معاهدات مع مدن منـاهضة. وفى النهاية اتفقـا على اقتسام الدخول فى كلابريا: فكان هناك تخصيص راتب ثابت وليس تنازلاً إقطاعياً فعلياً. وفى البر الإيطالى جرت آنذاك، بين الشقيقين عهود متغيرة ومؤقتة: وتختلف

(1) فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra*. ص ٧٧٠ و٨٤٢ وثائق عام ١٠٩٤ و١٠٩٢.

(2) جريجوريو، الموضع السابق.

(3) *Somma della Storia di Sicilia*. الفصل التاسع عشر. ص ٨٤ والصفحات التالية من الجزء الثانى.

(4) انظر هذا الكتاب الخامس. الفصول الأول والثالث والخامس والسابع. ص٢٤ والصفحات التالية. و٤٩ إلى٦٠ ومن٩٤ إلى٩٦ وص ١٤٥ والصفحات التالية و١٨٣و١٨٤و١٨٥.

تبعاً للقوات التى كان يسهم بها هذا أو ذاك فى كل عملية.

وكان الشئ نفسه يحدث فى صقلية، حيث لم يمنح روبرتو أرضاً لروجيرو عندما عبر إليها للمرة الأولى، وعندما عاد إليها روجيرو مع جنوده، أبرم اتفاقاً مع أهل ترابنا واستولى على قلاع كثيرة دون مشاركة روبرتو(1). وفشلت العملية الثانية التى قام بها الاثنان معاً.

وفى العملية الثالثة حدث تنازل إقطاعى حقيقى كما قلنا(2)؛ ولكن بعد بضع سنين، ومع اقتراب حرب اليونان، تغيرت اتفاقيات اثنين وسبعين: لأن الكونت سيطر آنذاك على مسينا وفال ديمونى كله(3).

وقد أدت وفاة روبرتو، واحتياجات ابنه روجيرو وقوة عمه وشهرته إلى أن آل إلى هذا الأخير النصف الآخر من كلابريا: أى انه اعاد إبرام الاتفاق للمرة الثانية خلال أربعة عشر عاماً: ونعلم أيضاً أنه تم التباحث بشأن منح الكونت روجيرو لقب دوق، أى إلغاء التبعية الإقطاعية رسمياً وكانت قد انتهت على أرض الواقع(4). وكان هذا واقعاً وقانونياً، إذا لاحظنا كيف ان أوربانو الثانى، العاهل الإقطاعى لدوق بوليا، فى مرسوم عام الف وثمانية وتسعين الشهير، لا يذكر ذلك الأخير، ولا يتفاخر بسيادة ما على الكونت روجيرو. ولا على صقلية. وعلى الرغم من هذا كان يطيب لبلاط سالرنو ذكر تنازل عام اثنين وسبعين، اكثر مما يذكر ما تبدلت إليه مصائر فرعى بيت هوتفيل: ومن هنا كان رأى إيدميرو وروموالدو والألقاب الواردة بالوثائق. لأنه إذا كان كتاب الكونت يذكرون أو يتجاهلون فى الوقت نفسه التبعية الإقطاعية للشقيق، فإن هذا يبرهن على أنها بقيت من حيث الشكل، ولم يكن يلتفت إليها احد. وعلى أية حال فمن غير

---

(1) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٨٥ والصفحات التالية، والفصل الثالث، ص ٩٠ والصفحات التالية وص١٠٠ والصفحات التالية.

وقدقدم روبرتو ١٠٠ رجل فقط من الجنود فى عام ١٠٦٨. انظر ص ١١٠.

(2) الفصل الخامس، ص ١٣٨.

(3) الفصل السادس، ص ١٦٤.

(4) الفصل الثامن، ص ١٨٥ و١٨٦ والصفحات التالية.

المقبول فى القانون العام الصقلى أن نتصور ظهور سيادة واختفاءها خلال بضع سنين، فى حين لم يكن بناء الإمارات النورمانية قد اكتمل أو تدعم، ولكنه كان يرتفع ثم يهدم، ثم يعاد بناؤه كل يوم.

وإذ أوضحنا ذلك وأبعدنا الشك فى وجود أية علاقة إقطاعية من أى نوع مع روما(1)، وهو ما لم يكن له ذكر حقا حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر، فإننا سوف نرى من الناحية النظرية أن سلطة الكونت روچيرو فى صقلية كانت بلا حدود. وكانت بالفعل بالغة الاتساع، على الرغم من أن صقلية وكلابريا كانت لهما برلماناتهما فى تلك الأزمنة الأولى، مثلها فى ذلك مثل كل الولايات الإقطاعية، وكانت تسمى بالتحديد برلمانات وأعضاؤها كبار علمانيون ورجال دين. ويورد جريجوريو على سبيل المثال أن «الأمراء والكونتات والبارونات وغيرهم من الرجال المشهورين» الذين تمت دعوتهم إلى سالرنو، هم الذين قدموا التاج الملكى، لروچيرو الثانى (١١٢٩) وأن كبار الأعيان، وذوى النفوذ والرجال الأفاضل قد تمت دعوتهم، حينئذ إلى بالرمو (١١٣٠) من جميع الأقاليم والأراضى لكى يشهدوا عملية التتويج؛ وقد وافقوا بالإجماع على الأمر بعد بحثه ومعهم أفراد الشعب من الصغار والكبار(2)؛ ولكن هذا الإجراء كان أقرب إلى الاستفتاء العام منه إلى البرلمان؛ ثم إن السيادة الجديدة قد ظهرت فى ظروف سياسية واجتماعية مختلفة جداً عن الظروف التى كان يحكم فيها الكونت الأول. كما ذكر فى الكتاب نفسه؛ وفى فترة زمنية أقرب. وبشكل أنسب، برلماناً عقدته الكونتيسة الوصية على الحكم أديلايدى فى مسينا فى عام ١١١٣، لشئون تتعلق بأسقفية سكويلاتشى؛ وإن بدا هذا أيضاً حفلا رسمياً أكثر منه اجتماعاً سياسياً(3). ويمكن أن

(1) انظر فى هذا الصدد جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل السابع، ص ١٤٢.

(2) المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل السابع، وقد استشهد فى الحاشيتين ١٧ و١٨، برئيس دير تيليزى المعاصر له.

(3) الموضع السابق، حاشية ١٦، من وثيقة.

تضيف إلى هذا المثال امتيازات كنيسة بالرمو التى أكدتها فى عام ١١١٢ الكونتيسة وابنها روجيرو «الذى كان قد أصبح فارساً وكونتاً»، وهما جالسان فى قاعات قصر المدينة مع رئيس الأساقفة جواليتيرو وغيره من رجال الكنيسة الآخرين والبارونات والفرسان(1). وعندما استدعى كبير أساقفة المدينة مع غيره من الأساقفة والبارونات فى عام ١١٣٠ فى قاعة المحادثات(2) فى قصر بالرمو ذاته، تم حسم أمر تقسيم عشور إيرادات ترمينى بين رئيس الأساقفة وكبير رهبان ليبارى(3). ولكن ما يزيل أى شك هو وثيقة ذكرها جريجوريو فى موضع آخر ونسيت بعد ذلك فى الحديث عن البرلمانات، وهى وثيقة ورد بها أن الأساقفة كانوا يطالبون بالعشور الكنسية على كل دخول الجزيرة وأن أصحاب الأراضى، وكان هذا ما يطلق على الإقطاعيين بصفة عامة فى وثائق النورمان اللاتينية واليونانية والعربية فى صقلية، كانوا يرفضون ذلك، وأن الكونت الأول روجيرو قد دعا أولئك وهؤلاء إلى مازارا وحسم الخلاف بهذه الطريقة: أن يدفع هو نفسه العشور للأساقفة عن ممتلكاته الخاصة؛ وأن يدفع أصحاب الأراضى ثلثى العشور ويستخدموا الثلث المتبقى بأنفسهم لخدمة كنائس قلاعهم؛ وأن تحكم عليهم فيما عدا ذلك المجالس الكنسية فيما يتعلق بآثامهم الروحية وأن يدفعوا عنها كفّارةً حسب الأعراف الأسقفية(4). ويبدو لى أن هذا القانون من أخطر القوانين التى

---

(1) وثيقة، فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٠ و٨١.

(2) *In Prolocutorio panormitani palatii*. ولكنى انجنب استخدام لفظ *Parlatorio*. [محل التخاطب بالأديرة والسجون] الذى أراه غير مناسب، بدا لى من المناسب استخدام تلك الكلمة الفلورنسية القديمة.

(3) وثيقة فى كتاب بيّرو، المرجع السابق، ص ٨٤ و٨٥. فى هذه الورقة يذكر رئيس الأساقفة بيترو، وهو أحد رجال البابا فى عصره، اسم الملك روجيرو، ودون اعتبار للاستفتاء العام بلقبه بلقب دوق.

(4) وثيقة دون تاريخ، فى كتاب بيرّو، المرجع السابق، ص ٦٩٦، وقد ذكرها جريجوريو، الكتاب الأول، الفصل السادس، حاشية ٧. وهنا كلمة *etiam (partem)* يجب أن تصحح لتصبح *tertiam*: حسبما يتضح كذلك من وثيقة عام ١١٤٢. فى كتاب بيرو، المرجع المذكور، ص ٦٩٨، التى يؤكد فيها الملك روجيرو الاجراء الذى اتخذه أبوه.

أقرت فى أى من البرلمانات الأوربية الحديثة، على الرغم من أنه قد سُنَّ على أنه قرار من الأمير: وهو يبرهن على الأنظمة الدستورية بصقلية منذ البدايات الأولى للملكية.

ولكى يميز روجيرو نفسه عن كونتات البر الإيطالى، وهم سادة لأراض أصغر وخاضعون لدوق بوليا، اتخذ لنفسه أحياناً لقب الكونت الأعظم(1). ولكن خلفاءه المباشرين فضّلوا تلقيب أنفسهم بلقب قنصل؛ وهذه التسمية الكلاسيكية لاقت رواجاً كبيراً فى بلاط بالرمو مع بداية القرن الثانى عشر، حتى إن أمناء السر ورواة الأخبار، لم يستخدموها فى الحاضر فحسب، ولكنهم كانوا يخلعونها أيضاً على الغازى نفسه(2). وفى الحقيقة لم يغب التقليد القنصلى أبداً فى العالم: وخاصة فى إيطاليا الجنوبية، حيث كان حكام نابولى وجايتا وأمالفى، الذين تحرروا من الحكم البيزنطى، يطلق عليهم لقبى دوق وقنصل(3): ورانولفو كونت أفرسا كان قنصلاً، وهو أول إقطاعى نورمانى فى إيطاليا(4). وبعد نصف قرن، عندما كان ذلك اللقب فى

(1) وثيقة عام ١٠٩٣، فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٦، ويبدو لى أنها ترجمة من اليونانية.

(2) وثيقة عام ١١٠٥. ووثيقة أخرى دون تاريخ، يمكن نسبها أيضاً للبدايات الأولى للقرن الثانى عشر، ورد ذكرها فى وثيقة ترجع لعام ١١٣٢. فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، حاشية ٣٠ بالفصل الثانى وحاشية ٤ بالفصل الخامس. وجزء من وثيقة بتاريخ ١١٠٨. واستشهادات بوثائق أخرى. فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra, Chronologia*، ص ١٢.

والكونتات الأوائل فى البر الإيطالى وروجيرو صقلية الأول كانوا يلقبون أحياناً بالقناصل من جانب الكاتب المجهول الذى كان معاصراً للملك روجيرو. فى كتاب كاروزو، *Bibliotheca Sicula*، ص ٨٣٤، ٨٣٦، ٨٤٢، ٨٤٤، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، وكذلك فى الترجمة الفرنسية، طبعة شامبليون، ص ٢٧٦ و٢٧٧ و٢٩٠ و٣١٢.

(3) علاوة على الشهادات العديدة المعروفة التى أوردها الكتاب والتى لا نحتاج لذكرها، انظر وثائق ١٠٢٨ و٩٦٥ و١٠٣٦. فى *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*، المجلد الرابع، ص ٢٠٦ والمجلد السادس، ص ١٤٧ و١٥٠ إلخ. والعملات، فى كتاب سان جورجو سبينيللى، *Monete Cufiche*، ص ٤ و١٤٠ و١٤٥ و١٤٦ و٢٤٨.

(4) جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، *Gallorum exercitus urbem Condidit Aversam, Rannulfo consule tutus.*

بيزا وجنوة وأستى وسان ريمو وبلا شك فى مدن إيطالية أخرى، يميز زعماء سياسيين تقلدوا مناصبهم دون إرادة الأباطرة أو البابوات، تقلده أمراء صقلية، الذين سأموا من لقب كونت ولكنهم لم يجرأوا فى الوقت ذاته على تقلد أى لقب آخر من الألقاب المعتادة فى النظام الإقطاعى، أو كانوا يترفعون عن ذلك. ألم يخلفوا هم فى صقلية، الباسيليين البيزنطيين والخلفاء الفاطميين، وكان هؤلاء وأولئك أمراء مستقلين بل وكبار رجال دين؟ ولكن لم يمض وقت طويل حتى توقفوا عن اتخاذ لقب كونت وقنصل، لكى يسموا أنفسهم ملوكاً، بعد أن اتسع نطاق سيطرتهم.

وعندما ننتقل إلى الجوانب الأخرى من التنظيم السياسى، فإننا نتبع الترتيب الزمنى بأن نتحدث أولاً عن البلديات، لأن جزءاً منها كان قائماً قبل الفزو. ورغم ذلك فقد رآها جريجوريو ولم يرها فى أيام النورمان: وخلص إلى أنه فى ذلك الحين «كان السكان الصقليون لديهم شكلا من أشكال الهيئة البلدية»(1). ومع ذلك كان جريجوريو يعرف أنه فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، كانت كالتاجيرونى تمتلك أراضى شاسعة وأنها اشترت بعضا منها من الدولة(2)؛ وأن نيقوسيا، وهى مستعمرة لومباردية، امتلكت أرض ميجيتى؛ وأن كلتا المدينتين كانتا تمدان الأسطول بعدد كبير من البحارة، وأخشاب البناء(3)؛ وأن مستعمرات لومباردية أخرى كانت خاضعة للأعباء نفسها. وفى هذا علامة على الملكية(4). ومن خلال ذلك تظهر شخصية البلديات القانونية. وكانت تظهر فى المحررات، بل وفى الأراضى الإقطاعية: حيث نرى رجال باتّى يرفعون قضية ضد الأسقف؛ ويقبل نوابهم تسوية(5)؛ ورجال تشيفالو وهم يقترحون عادة

---

(1) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، ص ١٧٤ والصفحات التالية.

(2) راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ٢٢٨.

(3) فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الرابع، حاشية ١٥.

(4) المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل الرابع، حاشية ٢٥.

(5) المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل الخامس، حاشية ٢.

على الأسقف الإقطاعى ثلاثة أشخاص لاختيار القاضى من بينهم(1). لقد لف إذن جريجوريو ودار بكلماته، خوفا من حكومة البوربون المستبدة فى صقلية من ناحية ولأنه، من ناحية أخرى، لم يدرس المادة دراسة جيدة وبصفة خاصة لأنه كان يرتجف لسماع اسم البلدية ذلك، كما لو أن شكلها الوحيد هو النظام الجمهورى الإيطالى فى العصور الوسطى، أو الفرنسى الذى كان له صدى رهيب فى عصره.

وبعد أن أشرنا إلى البلديات، سواء بلديات السكان القدامى المسيحيين أو المسلمين(2)، سوف نبحث عن آثارها أثناء الحرب وتحت السيطرة النورمانية. ولننتبه فى الوقت نفسه، فيما يتعلق بالبلديات المسيحية، وهى من بقايا العصر البيزنطى، إلى أن الأنظمة البلدية فى اليونان نفسها قد بقيت أو ولدت من جديد، على الرغم من إعلان ليونى السابيينتى، الذى تحدثنا عنه فى موضعه؛ وأنه بعد ذلك الإعلان اعترفت القوانين البيزنطية فى المدن وفى الأرياف ببعض الهيئات الحرفية وجمعيات الأعمال، التى وإن لم تشمل غالبية المواطنين كافة، فقد كان لها أشكال أكثر ديمقراطية من قالب البلدية القديم كما أنها أرست قواعد البلدية الجديدة؛ وأنه فى عصر السيطرة اللاتينية ثم التركية بعد ذلك، ظهر على بر إيطاليا، أسوة بما يحدث فى جزر اليونان، حكام محليون حقيقيون أو ممثلون بلديون، بأسماء مختلفة تبعاً لاختلاف الأماكن: فكانوا بروبست، أو ديموچيرونت أو أركونتى أو إبيتروبى، ومن المؤكد أن هذه الوظائف لم تشكل حديثاً فى القرن الثالث عشر أو فى القرن الخامس عشر(3).

---

(1) المرجع المذكور، الكتاب الثانى، الفصل السابع، حاشية ٢٣.

(2) الكتاب الأول، الفصل التاسع والكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٢٧٩ والصفحات التالية وص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ والصفحات التالية. من المجلد الأول؛ والكتاب الثالث، الفصل الأول والثالث؛ والكتاب الرابع، الفصل الحادى عشر، ص ١٢ والصفحات التالية وص ٤٠٨ والصفحات التالية من المجلد الثانى.

(3) هذا الموضوع تناوله مورتورى، بالكثير من النقاش والأسانيد فى *Histoire du Droit byzantin*، باريس، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦، الجزء الثالث، ص ٤٩ و٧٥ إلى ٨٢.

وفى الأقاليم البيزنطية فى بر إيطاليا، كانت التغييرات المتلاحقة بالسيادة قد أعطت الفرصة لكبرى المدن لكى تؤسس لنفسها هيئات سياسية محلية، كما نستخلص ذلك من أمثلة بارى وسالرنو التى يذكرها جريجوريو نفسه(1) ومن الاتفاقيات التى كانت تبرمها مدن أخرى مع القادة النورمان(2): حتى إننا نقرأ فى وثيقة يونانية من القرن الحادى عشر، أن فلاحين مقيمين فى أراضى أحد الأديرة وأحد الإقطاعيين، كانوا يدفعون ضريبة شخصية لبلدية جيراتشى فى كلابريا(3). وهذا الاتجاه العام الذى اتبعته السلالة اليونانية لم يواجه عقبات فى صقلية، بل لقى تشجيعاً من السيادة الإسلامية. فالمدن التى تحررت من مضايقات المسئولين البيزنطيين واضطرت للتصرف بمفردها تحت حكم المسلمين، اضطرت لتدعيم انظمتها البلدية فى القرنين التاسع والعاشر، لتوفير إدارة العدالة، وتلبية التزاماتها نحو السادة الجدد والدفاع عن نفسها بأسلوب حضارى ضد اى بغى واعتداء.

وإن كان اسم المدن يرد نادراً وفى غير وضوح فى مذكرات الحرب، فلن يندهش من ذلك من يعرف فتور اليونانيين فى ذلك الحدث الكبير والثغرات الموجودة فى الأخبار النورمانية عندما لاتروى عن شجاعة الأبطال وتقواهم. ومع ذلك لدينا اثنتان فقط من الذكريات: أن أهل ترانيا كانوا قد أبرموا معاهدات مع روجيرو وأنهم عندما ثاروا عليه وحاصروه فى قصره، كان لديهم، أسوة بمدن كلابريا، برجاً محصناً فى ناحية أخرى من الأرض: وأن المسيحيين والمسلمين فى بتراليا، بعد عقد مجلسهم للتشاور قرروا الانضمام للقائد النورمانى(4). ولكن هذه الأعمال يمكن أن تصدر سواء من

---

(1) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، حاشية ٢١.

(2) انظر أحداث العديد من مدن إيطاليا الجنوبية، التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب، الفصل الأول والثالث، ص ٣٧ و٤٣ و٤٤ و٥٧ و٥٨ و٩٤ إلى ٩٥.

(3) وثيقة دون تاريخ، يمكن نسبها إلى القرن الحادى عشر، فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*. الحاشية، ص ٥٥٧. الرجال المذكورون كانوا يدفعون εἰς τὸ κλασματίκιον.

(4) انظر الفصل الثالث من كتابنا هذا، ص ٩٠ و٩٢ و٩٧ من المجلد.

حكام معينين، أو من الشعب الذى يأخذ على عاتقه فى الحالات القصوى مهمة ممارسة كل حقوقه. وأوراق الأجيال التالية تقدم لنا أنباء أكثر تحديداً حول الوظائف البلدية.

وتظهر كلمة «أرخن» ذات الوقع الخاص، فى تلك الوثائق، كما قلنا فى الفصل السابق، بمعنيين مختلفين، الأول منهما كان يقصد به بصورة عامة صاحب السيادة وكان ينسب بصورة خاصة إلى كبار موظفى الدولة، كما نستخدم اليوم لفظ فخامة تقريباً(1). وكان المعنى الآخر يحدد وظيفة معينة. ويعد بازيليو تريكارى، أرخن، ديمينا، (١٠٩٠) أحد الشهود على هبة وهبها الكونت روجيرو لصالح دير سان فيليبو(2). ويشهد أراخنة جالاتى، الذين دعاهم الإقطاعى (١١١٦) على الوثيقة التى كان يهب بموجبها أحد الفلاحين لدير مويلى(3). ويجمع حاكم ديمينا (١١٣٦) رؤساء الأديرة، والكهنة وأراخنة أرض سان ماركو للتحقق من سند للملكية(4). وبعد ذلك بنصف قرن (١١٨٢)، قام القضاة الملكيون، فى أمر مشابه لما كان فى سان ماركو، بدعوة الرجال الصالحين والشيوخ، ومعهم أراخنة نازو وفيتاليا وميرتو وسان ماركو واحد أراخنة ترايينا(5).

---

(1) وثائق يونانية بتاريخ ١٠٩٤ و١١٠٥ و١١٣٦ و١١٨٢ و١١٦٨ و١١٧١ و١٢١٧ و١٢٢٥، فى كتاب سباتا، *Pergamene*. ص ١٨٠ و١٨٨ و٢٠٣ و٢٦٦ و٢٩٢ و٤٣٧ و٢٧٤ و٣٠٩ و٣١٢ و٣٢٧ و٣٢٠؛ ووثيقة يونانية بتاريخ ١١٤٠ فى *Tabularium della Cappella Palatina* فى بالرمو، ص ٢٨، مع نبذة باللغة العربية، أطلق فيها على أراخنة البلاط هؤلاء لقب وزراء وكان هذا هو الاسم العربى لذلك المنصب. وفى مقابل هذا ورد استخدام اللقب ذاته فى ثلاث وثائق عربية صقلية لم يسبق نشرها ترجع لعام ١١٤٤ و١١٤٥. وفيها لفظ «ميرة» مكتوب بالضبط حسب النقل الصوتى وليس مترجماً. ولأنه لفظ أجنبى، يتخذ فى الجمع صيغة أراخنة، طبقاً للقواعد النحوية. ولن أذكر الوثائق اليونانية الأخرى، التى يلقب فيها أمير الأمراء، رئيس وزراء ملك صقلية، بأرخن الأراخنة.

(2) وثيقة يونانية، لدى سباتا، المرجع السابق، ص ٢٤٧. الاسكارى فى ترجمة لاتينية منشورة فى المرجع ذاته فى ص ٢٥٣، يترجم اللفظ نفسه *dominus*.

(3) وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٤١.

(4) وثيقة يونانية، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(5) وثيقة يونانية، المرجع السابق، ص ٢٨٦ و٢٨٨.

كما تولى أراخنة كابيتسى، بالاشتراك مع الشيوخ (١١٦٨)، مسئولية تحديد حدود ضيعة صغيرة كانت الملكة تريد إهداءها لإحدى الكنائس(1). وفى أوبيدو فى كلابريا، ساعد الرجال الصالحون والشيوخ (١١٣٨) موظفى الدولة على تحديد حقوق الإقطاعى، وحينما نشأت قضية فى عام ١١٨٨ بشأن بعض الضياع، حسمها قاضى كلابريا الأكبر طبقا لنصيحة الأراخنة(2). وكان هؤلاء إذن معاونين أو محكمين فى القضايا المدنية. أما فى الإمبراطورية البيزنطية فقد اتبع لفظ أرخن مساراً مختلفاً. وإن لم يبتعد كثيراً. ومع احتفاظه بالمعنى القديم الذى كان يعنى رجل قضاء، اتخذ بصفة خاصة معنى رئيس محكمة وأحياناً حاكم ولاية؛ لأن هذا كان يرأس القضاء؛ وبالتالى ظهرت الأرخنية بين التقسيمات الإقليمية. ومن ناحية أخرى فإن عادة الألقاب تلك السيئة والنفور من تلك الأرستقراطية الموروثة قد أدت بالبلاط البيزنطى لأن يطلق لقب أرخن على رجال بارزين لفضلهم أو ثرائهم أو مجاملة لهم؛ وقد أطلق رجال الدين أيضاً اسم أرخنية على هيئة الكبار منهم. وعندما جاء الإقطاع مع الشعوب الغربية، التصقت تلك التسمية بالبارونات. ونستخلص فى النهاية أنها كانت قد بقيت مستترة، ولا أحد يدرى كم من القرون، فى الهيئات البلدية؛ لأنه بعد أن انشق حجاب الإدارة البيزنطية، مع غزو اللاتين وبعد ذلك الأتراك، ظهرت مع المؤسسات البلدية تسمية أراخنة تلك والتسميات الأخرى التى ذكرناها منذقليل؛ والتى كانت تشير فى مواضع مختلفة إلى وظائف متطابقة أو متشابهة جداً(3). وقد أطلق على هذه الوظائف البلدية فى بعض الأراضى، إن لم أكن مخطئاً، لقب ارخن، على أساس ذلك الجانب من

(1) وثيقة يونانية، المرجع السابق، ص ٤٢٨ و٤٢٩. وفى المحرر ذاته، ص ٤٣٧ ذكرت أسماء أراخنة السر، أى مديرو مالية البلاط.
(2) وثيقة مذكورة بتاريخ ١١٨٨، فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٢٩٧.
(3) *Thesaurus* لهنرى إيتين، طبعة هاس، إلخ. يعطى للفظ 'Αρχων' المعانى القديمة فقط؛ ولكنه يشرح 'Αρχοντία' إلخ، على أنها مديرية الأمن فى الإمبراطورية المتأخرة.

جوانب السلطة القضائية الذى احتفظت به البلديات فى العصر القديم ثم انتقل إلى البلديات فى العصور الوسطى. ثم إن الوظيفة البلدية، لكونها بالميراث بين الملاّك، كما هو الحال فى المجلس الرومانى، فكان من الممكن أن تصبح هنا وهناك فى الأقاليم، تسمية يطلقها العامة على رجال رفيعى المستوى؛ وهى تسمية غير قانونية، وإن تسللت إلى بلاط القسطنطينية. وفى صقلية، كما يرى الجميع، فقد ظهرت الوظيفة البلدية فى القرن الثانى عشر، ويمكننا أن نقول أيضاً اللقب الطبقى: ولم يكن هناك وجود لصفة قضائية كبرى للأرخن؛ ولكن من بين أشكال البهرجة التى استعارها الأمراء النورمان من البلاط البيزنطى، كان لقب أركونتى، أو أرخن هذا الذى أطلقوه على كبار موظفى الدولة، تيمناً، كما هو واضح بكبار الرجال من الأصول اليونانية، الذين تعاونوا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر مع روچيرو الثانى فى تنظيم شئون المملكة.

ووظيفة المحكمين نراها فى قضايا الحدود والملكيات الزراعية يمارسها أيضاً الشـيوخ *Γέροντες* فى صقلية، بمفردهم أحياناً، كما حدث فى (١١٤٢) فى ترانيا، وتشيرامى وسان فيليبو دارچيرو(1) وماهو أكثر. وهم معينون على شكل هيئة، كما حدث فى عام (١١٢٣) فى تشيمينا(2)؛ وأحياناً أخرى كان يشاركهم الرجال الصالحون، كما

ولكن قاموس دوكانج اليونانى يذكر المعنى الأحدث، أى النبلاء والبارونات وأيضاً أرخن الأراخنة لدى كوستنتينو بورفيروچنيتو. ولكن مؤلفات القانون التى يرجع إليها مورتروى، *Histoire du Droit byzantin*، الجزء الثانى، ص ٣٧٥ و٤٢١، والجزء الثالث، ص ٩٥، تبين أنه قد احتفظ فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر بمعنى المسئول القضائى الأعلى. وفى العمل نفسه، الجزء الثالث، ص ٦٨، أرى أن هيئات كبار رجال الكنيسة كانوا يطلقون عليهم أيضاً، *Ἀρχοντεία*، والاستشهادات المذكورة فى ص ٨١ - ٨٢ تثبت أن ذلك اللقب قد منح لبعض المناصب البلدية.

(1) ترجمة وثيقة يونانية، فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٣٩٠. ونقرأ فيها أيضاً لفظ *senes* شيوخ نوتو و*senes* شيوخ روزاتو: ولكن هذه الأسماء الطبوغرافية تبدو خاطئة. لأن نوتو تمتد فى منطقة أخرى ولا وجود لروزاتو فى خرائط أخرى.

(2) *Γέροντες* وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤١٠.

حدث فى عام (١٠٩٥) فى راميتا(1)، وفى عام (١١٨٢) فى سان ماركو ونازو وفيتاليا وميرتو(2)، وفى عام (١١٨٣) فى تشنتوربى(3) وأيضاً فى عام (١١٢٨) فى أوبيدو كلابريا(4)، كما كانوا يعملون أيضاً بالاشتراك مع الأراخنة كما فى عام (١١٦٨) فى كابيتسى(5). وعندما حدث أن اقام مسيحيون ومسلمون فى أرض واحدة او فى أراضٍ محيطة بإحدى الضياع التى يتنازعون على حدودها، كانت تتم دعوة الشيوخ من أولئك وهؤلاء. ولقبهم المتعارف عليه، شيخ أو *Geronti*، حسب لغة الوثيقة. وهكذا حدث فى عام (١١٣٤) فى چاتينى وميرتو(6) وبعد ذلك فى عام (١١٧٢) فى ميسيلميرى(7) وبعد ذلك بقليل فى عام (١١٨٣) فى ڤيكارى وبتراليا وكالتاڤوتورو ويوليتسى وتشيمينا وكمّاراتا وكسكازين ميكيكن وكازبا وكاسارو، وجورفا وإيالى(8). إن الشيوخ وكبير برجوازيى ترابنا، وشيوخ جاليانو

---

(1) ترجمـــة لاتينية لوثيقة يونانية بتاريخ نوفمبر٤ ٦٦٠، فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثالث، هامش ١٠. وتـرد هنا إشـارة إلى كهنة. *simul considentibus*، مع الشيوخ ثم إلى شهادة العديد من الرجال الصالحين. ولكن النص ربما كان يضع هؤلاء، مع الشيوخ وغيرت الترجمة. التى اعترف جريجوريو بانها غير صحيحة، غيرت المعنى.

(2) وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٨٥ والصفحات التالية.

(3) الوثيقة نفسها، الموضع نفسه، ص ٢٩٣ والصفحات التالية.

(4) وثيـقة يونـانية بتـاريخ ١١٢٨. مدرجـة فى وثيقـة بتاريـخ ١١٨٨. فى كتاب ترينكيرا، *Syllabus*، ص ٢٩٧. كان على الرجال الصالحين والشيوخ أن يحددوا جميع توابع إقطاعية تم منحها مؤخراً: الغابات، والكروم، إلخ، حتى الفلاحين والبرجوازيين.

(5) وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٤٣٨.

(6) فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧٤. وبدلاً من، *Catinæ*، يجب ان نقرأ هنا *Jatinæ* وهى الأرض موضوع الحديث وليس أرض كتانيا. والشيوخ فى هذه الوثيقة، المكتوبة أصلاً باللاتينية يقال لهم *majores natu*، وهى ترجمة حرفية لكلمة شيخ. والأرض الأخرى المذكورة هى مرتو، وهى قرية مهدمة الآن فى إقليم بالرمو.

(7) وثيقة يونانية - عربية فى *Tabularium* كنيسة القصر فى بالرمو، ص ٢٩.

(8) ترجمـة لاتينية من القرن الثالث عشر، من اليونانية ومن العربية، نشرها جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٣٤ والصفـحات التـالية ونشـرهـا بصـورة أفضـل سـباتا، *Pergamene*، ص ٤٥١ والصفحـات التـالية. ويلاحـظ أن الترجـمة عن العـربية بها

المسيحيين والمسلمين، وشيوخ تشنتوربي ورجالها، (وكان يعنى بهم بالتأكيد «الرجال الصالحين») تمت دعوتهم جميعاً (١١٤٢)، مثلما تمت دعوة رجال كاستروجوفانى وأدرنو، من المسيحيين والمسلمين لكى يحددوا، مع كبير الموثقين مفوضا عن الملك، حدود ريجالبوتو، التى كان يتنازع عليها إقطاعى ارجيرا مع أسقف مسينا(1).

وتقول وثيقة أخرى (١١٤٩) إن شيوخ المسلمين والمسيحيين فى جاتو كانوا مكلفين بمساعدة الحاكم فى أن يحدد على الطبيعة مساحة من الأرض وهبها الملك من الأملاك الأميرية(2). وعلاوة على ذلك، ففى محررات عامة يونانية عديدة، ترجع للقرن الثانى عشر والثالث عشر، نرى توقيعات شهود مقترنة باللقب نفسه فى أراضى ميستريتا ونازو وميرتو ومرة أخرى فى سان ماركو وفى تشينتوربى(3).

وكان قضاة الملك يدعون رجال سان ماركو الصالحين (Καλοὶ ἄνθρωποι) (١١٠٩)، ورجال ترابنا، وجليانو وميلجا (١١٥٤) ومع الشـيوخ، كانوا يدعون رجال نازو وفيتاليا وميرتو وسان ماركو الصالحين (١١٨٢) وأخيراً رجال تشينتوربى (١١٨٣) لمعرفة حدود

فقط لفظ *senes* الذى يقابل لفظ شيخ: ولكن فى الترجمة عن اليونانية نقرأ: *senes de regimine terrarum adiacentium* حيث يبدو ان لفظ γέροντες كان يعقبه لفظ آخر يحدده او ان المترجم اضاف *de regimine*، لكى يبين ان الأمر يتعلق بمسنين (شيوخ) وليس عجائز.

(1) وثيقة يونانية من محفوظات كابيتولارى فى مسينا، التى ضاعت، وقد عثر على نسخة منها الراهب القانونى سكياڤو وهى محفوظة فى المكتبة البلدية فى بالرمو، *Q. q. H. 4*، الورقة ٢٢١؛ وقد استخلص منها تارديا ومورسو الوثائق الموجودة فى المكتبة نفسها *Q. q. F. 143* و*Q. q. E. 172*، الورقة ٤٢٧. وقد أجريت لها علاوة على ذلك ترجمة لاتينية *Q. q. G. 12*، الورقة ٥٥ و٥٦. وهذه الوثيقة نفسها، أورد منها جريجوريو جزءاً، بخصوص كبار البرجوازيين، كما سنقول لاحقاً: ويجدر التنبيه بأن المخطوطة قد ذكرها جريجوريو بموضعها القديم *Q. q. H. 15*. وادين بالنسخة اليونانية واللاتينية من هذه الوثائق لصديقى العالم إيزيدورو لالوميا.

(2) وثيقة عربية من كاتدرائية بالرمو وتحرير جديد للوثيقة نفسها فى ١١٥٤، نشرهما جريجوريو بصورة سيئة ثم الأستاذ كاروزو فى *Biblioteca Sacra*، بالرمو، ١٨٢٤. المجلد الثانى، ص ٤٦ والصفحات التالية.

(3) وثائق بتواريخ ١١٢٢ و١٢١٧ و١٢٢٣ و١٢٢٤ و١٢٢٥. فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٥٦ و٣١٣ و٣١٤ و٣١٥ و٣١٧ و٣٢٢ و٣٢٣ و٣٢٩ و٣٣٠.

الأراضى المتنازع عليها(1). ورجال ἀγαθοί' الصالحون، وأنا أعتقد أنها الكارا فى فال ديمونى، الذين قام بدعوتهم أسقف مسينا، سيدهم، للشهادة على حق ملكية بعض المراعى التى كانت فى حيازة احد الأديرة (١١٢٥)، وكان ردهم حينئذ هو انهم هم انفسهم قد تنازلوا عن تلك الملكية للدير، إكراماً لبعض مواطنيهم الذين أرادوا أن يترهبنوا(2). وبعد ذلك بثمانين عاماً كان رجال نيقوسيا، مع اثنين من مندوبى الملك «ومع كل الشعب» يديرون شئون كنيسة السلفاتورى، التى أسستها البلدية نفسها فى وقت ما(3). فى الحالة الأولى يعنى إذن بلفظ الرجال الصالحين، الرجال المساعدين، أو المحكمين: وهى تلك الوظيفة بالضبط التى نراهم يمارسونها فى القرن التاسع أو العاشر، طبقاً للقانون الرومانى *lex romana*، وحسبما ورد فى مخطوط أودينى، الذى يظهرهم بصفتهم ممثلين لبلديات فى الأحكام

---

(1) الأولى منها وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٢١٦: والثانية، جزء من ترجمة لاتينية لوثيقة يونانية، فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، الحاشية ٢٥: والوثيقتان الأخيرتان اليونانيتان، فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٨٦ و٢٩٣ والصفحات التالية. وأسماء الأعلام تبدو لى خليطاً من الأسماء اليونانية والإيطالية القديمة.

(2) وثيقة يونانية، فى كتاب سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٦١ وفى ص ٢٦٣، نبذة لاتينية معاصرة نقرأ فيها الترجمة الحرفية *Boni homines*. وعلى الرغم من أن الناشر لم يكن تحت عينيه المخطوط الأصلى فالمحررة تعد مع ذلك أصلية، للأسباب التى أوردها فى ملاحظاته. وعلى الرغم من أن النص اليونانى يبدو تالفاً فى بعض مواضعه فليس ذلك ما يهمنا: بل حيث يقول الرجال الصالحون بوضوح: لقد تنازلنا نحن عن الممتلكات. وكلمة «نحن» تعنى بالأحرى البلدية وليس الأشخاص، لأنه كانت قد مضت بالضرورة سنوات عديدة على التنازل. ومن أسماء الأشخاص الخاصة بهؤلاء الرجال الصالحين، اللمانيين منهم أو الكنسيين، يبدو أن معظمهم يونانيون أو لاتينيون واثنان فقط من سكان ما وراء جبال الألب.

(3) وثيقة أكتوبر ١٢٠٤، وتوجد منها نسخة بين مخطوطات المكتبة البلدية فى بالرمو *Q. q. G. 12* الورقة ١١٤، وقد ذكرها لالوميا للمرة الأولى، لكى يبرهن على وجود المحلفين فى ذلك الوقت، بينما كان جريجوريو يرجع ظهورهم للمرة الأولى إلى عام ١٢٢٢ إلى ١٢٣١. انظر كتاب صديقى العالم ذلك *Storia della Sicilia sotto Guglielmo il Buono*، فلورنسا، ١٨٦٧، ص ٢٠٠. وبعد حصولى على نسخة من هذه الوثيقة من لالوميا نفسه، فقد رأيت نشرها، لما تكشف عنه من شكل البلدية اللومباردية فى صقلية فى عهد النورمان، الذين يتضح أن تأسيسها راجع لهم.

وممارسين فى الوقت ذاته، لأعمال إدراية أخرى(1). وفى حالة الكارا ونيقوسيا، فمن الواضح أنهم كانوا يمثلون البلدية، مثل مجلسنا البلدى الحالى. وهؤلاء هم بالتحديد الرجال الصالحون *Boni homines* فى ساڤونا، طبقاً للوثائق اللاتينية التى ترجع لأعوام ١٠٥٦و١٠٦٢ و١٠٨٠و١١٢٥ التى نشرها سان كوينتينو(2). وليس هناك ما يدعو

In nomine Dei Eterni Salvatoris omnium, Jesu Christi, Amen. Anno felicis suæ Incarnationis Millesimo Ducentesimo quarto, mense octobris Nonæ Indictionis.– Quoniam acceptum est illi per quem salus venit in mundum, et interest opera civitatis haud minimum judicare, fundare Ecclesias, et fundatas pia sollicitudine promovere; inde est quod Nos Rogerius de Drustana et Joseph de Ytalia, de regio mandato instituimus una cum cæteris Bonis hominibus, et universo populo Nicosino; cum in honore et titulo Salvatoris fundassemus Ecclesiam in montem appellatam Sancti Salvatoris in terra Nicosini, ut in eadem Ecclesia acceptum Deo et sollemnius serviatur quantum vestra interest, et licet laicis de Ecclesiis ordinare, eamdem Ecclesiam ad jurisdictionem transferimus Sanctæ Ecclesiæ Latinensis cum omnibus possessionibus, et cæteris bonis, quæ ipsa hodie habet, et in futurum est, Deo propitio, habitura. Salvo jure Sanctæ Messanensi s Ecclesiæ cui ipsa tenetur persolvere tarenum annuum pro incenso.

Ad hujus autem nostræ concessionis memoriam, et robur in perpetuum valiturum, per manus Magistri Johannis Rocié (?) presens scripta est pagina et subscriptarum personarum testimonio roborata. Anno, mense et Indictione præscriptis, Regnante Domino nostro serenissimo Rege Frederico, anno (Dei gratia) octavo.

- *Ego Rogerius De Drustiana hoc concedo.*
- *Ego Joseph de mandato regio Institucionem hanc confirmo.*
- *Ego Robertus de Castello Bajulus hoc confirmo.*
- *Ego Adam de Capicio hoc confirmo.*
- *Ego Rogerius de la Nore Judex Juratus hoc confirmo.*
- *Ego Nicolaus Maracava Judex Juratus hoc concedo.*
- *Ego Robaldus Novus Bajulus eamdem confirmo.*
- *Ego Robertus de Falco concedo.*
- *Ego Nicolaus Botayctor concedo.*
- *Ego Vivianus de Trohina concedo.*
- *Ego Bartolomeus de Ansrusa concedo.*
- *Ego Guillelmus Ruffus concedo.*
- *Ego Baribavayra Tuscus concedo.*
- *Ego Alvarus concedo.*
- *Ego Vitalis de Pistona concedo.*
- *Ego Brunus fornator concedo.*

Ex scripturis existentibus in Archivio Sanctissimæ Collegiatæ Capitularis Insignis Matris Ecclesiæ Sancti Patris Nicolai, præcipui et Principalis Patroni hujus Urbis Nicosiæ, extracta est præsens copia–Collatione salva.

Notarius Dominus Petrus Franciscus Paulus de Gugliotta Archivarius.

(1) انظـــر مـــواد هـــذا المـؤلـف القـانونى القـــديم، التى ذكــرها هـــيجل *Storia della Costituzione de'Municipii italiani*، حاشية ص ٤١٩ والصفحات التالية من الترجمة الإيطالية.

(2) فى *Memorie della R. .Accademia delle Scienze in Torino*، السلسلة الثانية، المجلد الثالث عشر، ص ٣٢ و٥٠ و٥٧ و٩٩.

للدهشة أن نجد الاسم نفسه والوظيفة فى صقلية، عندما نزح جانب كبير من المستوطنين من أراضى ماركا الأليرامية؛ كما أنه من ناحية أخرى استمرت تلك التسمية هنا وهناك فى كل إيطاليا. وعلى سبيل المثال ظهرت فى بداية القرن الحادى عشر فى بنشنتو(1)؛ ثم بعد ذلك بزمن طويل ظهرت مرة أخرى فى الجمهورية الفلورنسية.

وأضع أخيراً، بين مناصب البلديات المسيحية، «كبار البرجوازيين» *Maestri de'borghesi*، الذين نبه جريجوريو إليهم فى كولليزانو (١١٤١) وفى ترابنا (١١٤٢) حتى إنه تعرف فيها على «ما يشبه أشكال» البلدية، مضيفاً إلى ذلك، دون دليل ولا قرينة خلاف الاسم، أن «كبير البرجوازيين كان يأمر ويدير كالرؤساء» المجلس البلدى(2). ودون أن نسترجع المعنى العسكرى القديم للفظ *Magister*، ولا المعنى العسكرى والمدنى الذى اتخذه عندما انتقل إلى الامبراطورية البيزنطية، فإننا نراه فى أوربا الوسطى والغربية، طوال العصور الوسطى، يقابل منصب وال، أو من يرأس طبقة من الموظفين أو المواطنين(3)، كما تردد فى مسينا فى القرن الثانى عشر اسم كبير الأمالفيين /سكان أمالفى/ (4)؛ ولكنه ليس لدينا مثال يمكن، أن يؤكد أو يبعث على احتمـــال أن يكون لفظ *Magister* كان يعنى آنذاك فى لغة القانون بصقلية ما كانت تعنيه كلمة *Major*، أو أن هذا اللفظ الأخير كان يحدد الوظيفة نفسـها فى صـــقلية كمـــا فى فرنسا الشمالية وفى انجلترا(5). وفى مقابل ذلك فإن الوثيقة الوحيدة التى

(1) دوكانج، **المعجم اللاتينى**، الطبعة الأخيرة، تحت مادة *Boni homines*.

(2) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل السابع، ص ١٨٢ و١٨٣.

(3) دوكانج، **المعجم اللاتينى** تحت مادة *Magister*، والمعجم اليونانى، تحت كلمة [illegible]. وفى القائمة الطويلة جداً، التى تحتل ستة عشر عاموداً من الطبعة الأخيرة من **المعجم اللاتينى**، يظهر هذا اللفظ مرة واحدة وقد استبدل بكلمة *Major* عند ذكر *magistri communiæ* او *magistri civium*: ولكن المثال لاحق للقرن الثانى عشر.

(4) انظر الاستشهاد الذى ذكرناه فى هذا الكتاب نفسه، الفصل الثامن، ص ٢١٩.

(5) علاوة على افتراض جريجوريو، هكذا يعتقد أيضاً هرتويج، *Codex Juris municipalis Siciliæ*، الجزء الأول، كاسل، ١٨٦٥، ص ٤٠ و٤١. واعتراضاً على رأى المستشار القانونى العالم لألمانى اقول ان الـ *majores civium* فى مسينا فى القرن الثانى عشر

يمكن أن نفهم منها طبيعة الوظيفة تبينها مساوية فى الدرجة مع الشيوخ(1) وتقودنا إلى افتراض أنها مكانة رئيس منتخب لجماعة من المستوطنين كانت لهم مصالح خاصة بهم يعنون بها، مع وجودهم وسط شعب مختلف عنهم فى ظروفه أو أصله؛ مثل مدارس *scholae* القرون الوسطى، وجمعيات المهن فى جميع الأزمنة واتحادات جنوة ومدن أخرى إيطالية، فى بداياتها الأولى. وربما كان هناك عدد قليل من البرجوازيين الإيطاليين، أو القادمين من وراء جبال الألب، المتمركزين فى كولليزانو، وهى إقطاعية عائلة أفينيل(2)، وطالبوا بهذا الشكل من أشكال التمثيل القنصلى، كما يمكن أن يقال عنه اليوم: والشئ نفسه ينطبق على ترايينا، أول ملكيات الكونت روجيرو، التى نرى فيها فى منتصف القرن الثانى عشر سكاناً يونانيين وإيطاليين قدماء وفرنسيين(3).

وأولئك الذين ذكرهم فى بالرمو فى زمن غير محدد، والذين يعودون فى رأيى للقرن الرابع عشر. هؤلاء يقصد بهم بوضوح ممثلو البلدية، الرجال الصالحون، والشيوخ، أو أيا كان اسمهم فى أكبر مدينتين فى الجزيرة، وليسوا رؤساء بلديات أو عمد أو محلفين. ولذا فإن الوظائف لا تقل اختلافاً، الواحدة منها عن الأخرى، عن معانى اللقبين.

(1) من بين الوثيقتين اللتين ذكرهما جريجوريو، واللتين حصلت لتوى على نسخة منهما بفضل صديقى العالم إيزيدورو لالوميا، لا تقدم وثيقة كولليزانو سوى توقيع واحد وسط العديد من توقيعات الشهود الآخرين، ومن ذلك يمكن أن نستنتج فقط أن كبير البرجوازيين كان يحضر فى المناسبات الكبرى فى قصر إقطاعى كولليزانو. والوثيقة الأخرى تقدم الحكم الذى ذكرناه للتو فى ص ٢٨٤ . ونستخلص من هذا المحرر أن روجيرو، عميد برجوازيى ترايينا، وميليس، ابن عميد البرجوازيين، قد دعيا بصفتهما مندوبين فى حكم يتعلق بالحدود، ومعهما العديد من الشيوخ الآخرين فى تلك المدينة وشيوخ ورجال صالحين فى أراضٍ أخرى قريبة. ولكن روجيرو هذا جاء ذكره بعد ثلاثة أشخاص، وهم: مرتل مجمع الرهبان وراهب قانونى وشخص يدعى روبرتو جالايتا. وبالتالى فلا يبدو أنه هو رئيس البلدية. كما أن اسم ابنه قد ذكر بعد ستة أشخاص آخرين.

(2) فى الوثيقة المذكورة عاليه ورد، بعد أديليتشا حفيدة الملك روجيرو، اسم ابنها أدامو أفينيل.

(3) فى وثيقة ١١٤٢ المذكورة سابقاً، لدينا الأسماء التالية الخاصة بشيوخ ترايينا، الذين أقسمهم حسبما تبدو لى أصولهم؛ فرنسيون: السيد جوسفريه (جوفروا) مرتل (الكاتدرائية)، السيد رينو (*Reinaut?*) راهب قانونى ؛ إيطاليون: جوليلمو مالديتو، جوفانى لونجوباردو، الراهب فيلادلفو أوكا؛ يونانيون: روبرتو جالايتا، ريكاردو جاميرو، جوفانى كاتروباريا، كاتب السجلات ليونى كوتسانيتى، ميليس، ابن كبير البرجوازيين

ومن الأمثلة على هذه الجمعيات المعترف بهـا قانوناً «جامعات» اليهود فى صقلية، كما كانت تسمى آنذاك. ودون أن نلجأ إلى استنباط تكوين جماعات من النوع نفسه فى بلاد أخرى، فإن لدينا فى القرن الخامس عشر ذكر للمجامع التى منحها الملك ألفونسو لجامعات يهود مملكة صقلية(1)؛ ولدينا من القرن الرابع عشر مذكرات كبيرهم، وشيوخهم وجماعاتهم فى مازارا وفى مسينا(2)؛ وهذه المؤسسات ذاتها ترجع بلا شك إلى القرن الثانى عشر، عندما أعطى أسقف تشيفالو، المسئول عن كنيسة سانتالوتشيا فى سيراكوزا، لجماعة اليهود فى تلك المدينة قطعة من الأرض بإيجار رمزى لتوسيع جبانتهم(3).

وكلمة جماعة المستخدمة فى تلك الوثيقة العربية لتحديد طائفة يهود سيراكوزا، تبرهن على أنه هكذا أيضاً كانت تسمى فى صقلية جامعات المسلمين التى غالباً ما كان يقصد بها بلديات حقيقة، نظراً لعدد أفرادها الكبير وإقامتهم المنفصلة. فإنه من غير الممكن تخيل إقامة مثل هذه الأعداد الغفيرة من السكان المسلمين دون رجال حكم بلديات؛ وإذا لم يكن هذا الافتراض كافياً فيمكننا أن نستند إلى لفظ *Antiques*، أو الشيوخ الذين ذكرهم أماتو عند حديثه عن استسلام بالرمو(4)؛ وإلى اتفاقيات مازارا والمدن الأخرى كلها التى يبدو أن كل جامعة منها قد وقعتها؛ وإلى أنه فى ظل الإمارة النورمانية، كان شيوخ چاتينى وميزيلميرى وچاتو وشيكارى ومدن أخرى، يسمون باليونانية *geronti*، وكـانوا يكلفون مثل الأراخـنة والكهول والرجـال الصـالحين،

وآخرون، والفرنسيون. كما نرى أيضاً من وثائق أخرى كانوا يتطلبون دائماً لقب *sieur*، *nόμος*. وكان اسم كبير البرجوازيين روچيرو.

(1) معلومـات ترجـع لعـام ١٤٢١ وقد نشـرها أورلانـدو. *Un Codice di Lggi e Diplomi Siciliani*، بالرمو، ١٨٥٧، ص ١٣٩ والصفحات التالية.

(2) وثائق ترجع لعامى ١٣٤٠ و١٣٩٢، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٤١٠ و٨٤٩.

(3) وثيقة لم تنشر من محفوظات بالرمو الملكية، بتاريخ ١١٤٠، ومكتوبة باللغة العربية بحروف عبرية.

(4) انظر فقرة هذا الكاتب، فى كتابنا الخامس هذا، الفصل الرابع، ص ١٢٤ من المجلد.

بتحديد حدود الممتلكات الزراعية(1).

ويبدو لى فى الحقيقة أننى أرى تحت تلك التسميات، التى تختلف باختلاف السكان، وظيفة واحدة وهى ممثلى البلديات؛ باستثناء الفوارق التى كانت تنشأ، فى التنظيم وفى حدود السلطة، من الظروف والأعراف المحلية الخاصة بكل منطقة وشعب وجمعية؛ لذا يخطئ دائماً من يفترض وضعاً موحداً حين يتعلق الأمر بالعصور الوسطى. بل إننى قد أندهش لرؤية تكرار لقب الشيوخ بالمعنى ذاته فى اليونانية والعربية. إن لم تكن سلطة آباء العائلات، أى الشيوخ، موجودة فى الأشكال الأولية لكل جماعة من هؤلاء البشر؛ وإن لم نستطع بالمثل استنتاج، أن البلديات المسيحية فى صقلية قد استعادت تلقائياً تكوينها فى القرنين التاسع والعاشر، أسوة بالبلديات المسلمة، تلبية للاحتياجات التى نشأت فى المجتمع إثر الهيمنة الجديدة(2). وغنى عن الذكر أن الشيوخ كانوا ينتمون إلى المسلمين؛ وأن *Geronti* و*Arconti* ينتمون إلى اليونانيين واعتقد أيضاً إلى غيرهم من قدامى السكان؛ وأن الرجال الصالحين ينتمون إلى المستوطنات الإيطالية الجديدة. ويبدو لى من الواضح أيضاً أن كل جماعة احتفظت بشكل من أشكال البلديات أو جاءت به؛ لأن الإمارة النورمانية لم يكن فى إمكانها أن تدمر ولا أن تؤسس ولا حتى أن تعدل تعديلاً عميقاً مؤسسات على هذا النحو. وكما قلت يبدو أن الأراخنـــة، فى صـقلية، هم شـــيوخ حازوا ذلك اللقب، بحـــكم عـــادة قديمة بصفتهم أصـــــحاب أملاك؛ ولا يختلف عن ذلك الملقبون بقـــائد، وهم أشـــــراف وقواد، كانوا يشاركون فى الشـــئون البلدية كأى أحـــد من الأعيـــــان؛ ولكننى لا أحسب رجال

(1) انظر الاستشهادات المذكورة هنا سابقاً ص ٢٨٣ إلى ٢٨٥.

(2) على الرغم من أن هذا يبدو لى الأصل الأكثر احتمالاً لفئة الـ *geronti* فى صقلية، فإننى لا يجب أن أغض الطرف عن أن الـ *Boni homines* فى البر الإيطالى كان يقال لهم أيضاً فى القرون الوسطى *Seniores civitatis*. انظر الـ *Lex* الرومانى فى مخطوط أودينى المذكور عاليه ص ٢٨٧، هامش ١. ولكن ذلك اللفظ الرومانى الأصل لا يرد كثيراً فيما يتعلق بالسلالة اليونانية، إلا فى صقلية فى العصور الوسطى.

النوع الأول أو الثانى من أصحاب الوظائف التنفيذية، مثل رؤساء البلديات أو العمد أو المحلفين، أو المجالس البلدية. ولا يبدو لى كذلك أيضاً كبار البرجوازيين، الذين كانوا مجرد زعماء لجماعات صغرى. وبعد ذلك كان من الضرورى أن تكون لكل من الأراضى التى يقطنها سكان من أصلين أو ثلاثة أصول مختلفة ممثلوها كما رأينا فى سان ماركو وكابتسى، وجاتينى وفى العديد من الأماكن الأخرى وهذا ما تشهد به الوثائق.

وقد قلت ممثلين للبلديات *comuni* لأستخدم عبارة حديثة ولأعبر عن وضع مشابه ولد فى ظل قانون مختلف؛ لأنه لا يمكن أن نفترض اختياراً شعبياً أو ملكياً، فى هذه الهيئات البلدية المؤلفة من رجال يحظون بامتيازات ترجع لعادات موغلة فى القدم، الأوائل منهم من مدن إيطالية أو هيلينية، والآخرون من القبائل الرحل والعصور الأولى للإسلام: وهم أصحاب أملاك، ورؤساء بعض الحرف، وكتبة، ورجال دين مسيحيون، وفقهاء مسلمون وغيرهم من الأعيان. أما الأساليب أو الأوقات التى كانوا يجتمعون فيها وما إذا كانوا يعينون مندوبين يختصون بكل حالة على حدة، فهذا ما نجهله: وليست لدينا آثار لمسئولين كلفوا بانتظام بالسلطة التنفيذية للبلدية. ومع ذلك فوثيقة نيقوسيا التى لم تنشر بعد والتى نوهنا عنها منذ قليل، وإن كانت وثيقة واحدة ومتأخرة فى زمنها، فإنها تلقى الكثير من الضوء على النظام البلدى فى عهد النورمان: هذا إذا افترضنا أن وجود المستوطنات اللومباردية كان الأكبر اتساعاً فى الجزيرة وأنه يرجع إلى بداية القرن الثانى عشر، وليس لفترة صبا فدريكو الثانى، ولا لزمن حكم أريجو الوجيز. والآن نقرأ فى ذلك السند حق الملكية الذى يمارسه «اثنان من المفوضين الملكيين، ورجال صالحون والشعب»، ومن بين الرجال الصالحين قام بالتوقيع قاضيان محلفان واثنان من محصلى الضرائب ويظهر بالتالى نوعان من الممثلين البلديين، أى المجلس الكبير، الذى كانت تتم دعوة الشعب كله له بقرع الأجراس، كما كانت العادة فى

صقلية حتى تحت الحكم الأسبانى؛ والرجال الصالحون الذين يبدو أنهم كانوا يؤلفون مجلساً مصغراً، كان يشارك فيه محصلو الضرائب والمسئولون الإداريون والقضاة الملكيون، الذين استحدث وظيفتهم الملك روجيرو محل نواب الكونت والحكام الاستراتجيين فى أيام النورمان الأولى: كما يتضح ان رئاسة المجلس الكبير كان يعهد بها لمندوبين عن الأمير مخصصين لذلك. وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص استخلاصاً قائماً على أساس ان جميع الهيئات البلدية كانت تدعى للمجالس ويرأسها مفوضون ملكيون، طبقاً لإجراء عام صدر منذ بدايات الحكم النورمانى؛ لأنه يبدو من المستحيل أن يكون روجيرو قد قيد المستوطنات اللومباردية بهذا القيد وترك الأراضى اليونانية أو المسلمة دون أى قيد؛ ومن ناحية أخرى فقد رأينا(1)، أن الإقطاعى يدعو دون استثناء الرجال الصالحين فى ألكارا، وأن المفوضين الملكيين يدعون رجال نيقوسيا، وهى من الأراضى الأميرية، للقيام بإجراءات الملكية؛ وبالمثل كان قضاة ملكيون أو مسئولون آخرون يدعون الشيوخ والكبار والأراخنة أو الرجال الصالحين فى العديد من الأراضى الأخرى، لكى يقوموا بدورالمحلفين فى القضايا المدنية. ويبدو بعد ذلك أن المجلس العام، المفتوح لكل الشعب، أى لكل البرجوازيين، كان امتيازاً من امتيازات المستوطنات اللومباردية؛ ولا يمكن أن نقر بوجوده فى المدن الأخرى، إن لم تثبته وثائق جديدة. ويبدو أن القاضيين المحلفين فى نيقوسيا اللذين وقعا على وثيقة ١٢٠٤، هما فى الحقيقة موظفان تنفيذيان فى البلدية، مثل أقرانهما فى مسينا، الموقعين على محرر يرجع لعام ١١٧٢؛ ولكننا لن نستطيع بناء على هذه القرينة فقط أن نحدد نطاق اختصاصهم (2). ولن

---

(1) هنا عاليه ص ٢٨٥ و٢٨٦.

(2) فى كتابه *Storia della Sicilia sotto Guglielmo il Buono*، ص ٢٠٠، ذكر لالوميا، عن حق هذين المحلفين بنيقوسيا فى ١٢٠٤ على أنهما، موظفان خاصان بالبلدية. ولكن يبدو لى أنه يخطئ فى إقراره بوجود «رئيس بلدى» بتشنتوربى استنادا

نستطيع كذلك أن نحدد على وجه الدقة ولاية البلديات نفسها، التى إن كانت تبدو لنا غامضة اليوم، فإنها كانت غير ثابتة ومتغيرة ومختلفة فى القرن الحادى عشر والثانى عشر، وما نستخلصه فقط هو شخصية البلدية، والقضاء الذى كان يعهد به لممثليها وأنه ربما تطلب الأمر فى بعض الأحيان من أولئك الأعيان أن يتعاونوا فى إدارة شئون الدولة(1).

ويبرهن على تكوين المجالس البلدية أيضاً تلك الإعفاءات، التى لم تنفصل أبداً عن نظام المجتمع المدعو للتمتع بها. ونستخلص من شهادات متوافقة مع بعضها أن الأمير والإقطاعيين، لدى حاجتهم لإمداد صقلية بمستوطنين مسيحيين، عملوا على دعوتهم بكل أنواع المنح. فبعد تحرير أسرى مالطة، وعد روچيرو ببناء قرية لهم على نفقته، حيثما يحلو لهم؛ وبتوفير رؤوس الأموال الثابتة اللازمة لصناعتهم وإعفاء الأرض نهائياً من أية ضرائب أو رسوم(2). وبالمثل تم السماح للبرجوازيين فى كتانيا وباتى وتشيفالو(3)، بممارسة الحقوق المختلطة فى أراضى السيد مالكها، والتمتع بالحصانة من بعض الأعباء والعوائق الإقطاعية، وضمان الحرية الشخصية. كما تم الاتفاق فى أولى تلك المدن على أن تكون محاكمة كل من اللاتين واليونانيين والمراسنة واليهود حسب قوانينهم وشرائعهم الخاصة بهم. وقد أشرنا من

على ترجمة وثيقة يونانية بتاريخ ١١٨٣، فى كتاب سباتا، ص ٢٩٣، حيث ἐξουσιαστὴς ترجمت على أنها *potestà* عمدة. وكلمة *potestà* مناسبة من حيث الاشتقاق، ولكن لا علاقة لها بحاكم الجمهوريات الإيطالية حسبما كان يسمى. وربما لا يشير إلا إلى *bajulo* أى القاضى. الوثيقة المذكورة بتاريخ ١١٧٢ نقرأها لدى جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الثانى، الفصل الثانى، ملحوظة ٣٢.

(1) وثيقة بتاريخ ١١٦٨، مذكورة عاليه، فى كتاب سباتا، *Pergamene*. ص ٤٢٨ و٤٣٩.

(2) مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل السادس عشر.

(3) وثيقة لاتينية بتاريخ ١١٦٨، فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل الرابع، ملحوظة ٢١؛ ووثيقة لاتينية بتاريخ ١١٣٣، المرجع السابق، الكتاب الأول، الفصل الخامس، ملحوظة ٤، ووثيقة لاتينية بتاريخ ١١٤٥ فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٠٠.

قبل إلى حصانات المستوطنات اللومباردية فى راندانسو وسانتا لوتشيا(1): فالحقوق والأعراف الطيبة التى كانت متبعة فى كالتاچيرونى، والتى تشير إليها وثيقة ترجع لأريجو السادس، تعود كذلك إلى أيام الملك روچيرو(2)، وهناك ما يدعو إلى افتراض أن هذه وتلك قد ترجع إلى أزمنة أقدم. وعلاوة على ذلك، لما كانت الحاجة لمستوطنات مسيحية مطلبا عاما، نستطيع أن نقول إن صقلية كلها تقريباً حصلت، فى وقت قصير وبهدوء، على إعفاءات بلدية لاتختلف عن تلك التى انتزعها العديد من السكان الإيطاليين والأجانب بأيديهم، فى الحقبة نفسها، من الإقطاعيين بجهود عنيدة ودموية.

والآن علينا أن نشرح لماذا لم تظهر البلديات بشكل واضح قبل نهاية القرن الثانى عشر، فى أوليات مدن الجزيرة، التى تمتعت رغم ذلك بإعفاءات شخصية وحقيقية على نطاق واسع منذ السنوات الأولى من السيطرة النورمانية(3). ولا يجب أن نلقى باللائمة فى هذا العيب على حالات عرضية دمرت كل بقية باقية من أوراقها أثناء تلك الكوارث التى تعاقبت على الوثائق الصقلية؛ ولكن الافتراض الأقرب إلى التصديق هو أنه ربما لم تكن لأى من تلك المدن مجالس بلدية مهمة فى تلك الأزمنة الأولى. وإذا تركنا صيراكوزا وكتانيا جانباً، حيث كانتا خاضعتين لإقطاعيين، فإننا يمكن أن نتحدث فقط عن بالرمو ومسينا، اللتين ظلت إدارتهما أميرية وكانتا مهمتين منذ سبعة قرون، كما هما اليوم أيضاً.

وبالرمو التى كانت تتساوى أو ربما تتفوق فى كثافة سكانها عن أى مدينة أخرى فى إيطاليا، كانت تضم نحو عام ١١٥٠، ما يقرب من

---

(1) انظر الفصل الثامن، ص ٢٢٢، هامش ٥.

(2) وثيقة بتاريخ ١١٩٧، فى كتاب ابريلى، *Cronologia universale della Sicilia*. ص ١٠٩، فى ص ١١١ وثيقة مماثلة لفدريكو، بتاريخ ١٢١٠.

(3) حول امتيازات وأعراف بالرمو ومسينا، أرجع إلى أعمال لالوميا المذكورة ص ١٩٩، والصفحات التالية وإلى هارتويج، المرجع المذكور، وقد تحدثنا منذ قليل عن امتيازات وأعراف كتانيا.

عشرة من «الجامعات»، كما كانت تسمى آنذاك: جامعات من المسلمين واليونانيين واليهود والومبارد والأمالفيين، ومن جنوة وبارى والسكان القدامى المسيحيين: وكان المسلمون وغيرهم من السكان موزعين، فى الواقع، فى أحياء مثل كاسارو والخالصة والحلقة وسكياڤونى(1): ولايمكن أن نتخيل أية مشاركة فى الحياة البلدية بين فئاتهم. وكان لابد أن يتفرق المسلمون، وأن تعمل اللغة والأعراف وأعمال العنف التى كان يمارسها الإقطاعيون ثم من بعدهم الألمان على تجميع المواطنين المسيحيين، أى أن يمر أكثر من قرن، لكى تتجمع تلك الغالبية من البرجوازيين، التى ساد تمثيلها على جميع الجماعات الصغرى وباتت تمثل مواطنى العاصمة الذين كانوا يحمون فدريكو لوزفيڤو فى صباه. من كان يذكر آنذاك الجماعة الإسلامية أو اليهودية، أو أعيان المجتمعات المسيحية الصغيرة، ومن كان يحتفظ بأرشيفاتها؟

وللوهلة الأولى تبدو ظروف مسينا مختلفة، تلك المدينة المسيحية، ورأس الجسر، كما يمكن أن يقول احد العسكريين. وهى المدينة التى اعتاد الغزاة التدفق منها على مسلمى الجزيرة. ولكن طبقاً لشهادة أماتو، التى أكدتها أحداث سابقة، كانت مسينا، عند أول هجوم قام به النورمان، خالية تقريباً من السكان المعمدين(2)، ولم يفد بالتأكيد فى إعادة إسكانها فى فترة قصيرة تلك المئات القليلة من الرجال الذين كان يسمح لهم الكونت روچيرو بالعبور إليها من حين إلى آخر؛ ولا تلك الأسراب الأكبر عدداً التى جلبها روبرتو جويسكاردو إلى هناك على ثلاث دفعات. لقد تجمع فيها على ما

---

(1) تحدثت عن أحياء بالرمو فى الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص١٢٢ من المجلد وفى مواضع أخرى مذكورة هنا. انظر ايضاً بخصوص «حلقة»، الفصل الخامس، ص ١٤١، إن الحى الذى أطلق عليه فى الوثائق اللاتينية اسم سر القاضى *Serailcadi*، يقابل الحى المسمى بحى سكياڤونى *Schiavoni* فى القرن العاشر.

(2) انظر الفصل الأول، من هذا الكتاب، ص ٦١ و٦٢. وعدد السكان القليل يفسر ما قاله أنونيمو لدى كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٢٧، وهو أنه بعد الاستيلاء على المدينة قام روبرتو بتنظيمها كما يحلو له، حتى وإن كان ذلك الفعل لا يشير إلى نظام الدفاع عن المدينة، بقدر ما يعنى حكمها.

يبدو، شيئاً فشيئاً، يونانيو صقلية وكلابريا، وسكان من أصل إيطالى من العديد من البلدان، إلى أن جاءت جحافل الحروب الصليبية والحروب البحرية التى خاضها النورمان وملأت الميناء بالسفن وسارعت بإعمار تلك الأرض(1). إن اختلاف أصول السكان الذين كانوا يقطنونها، كما يشهد بذلك كتاب القرن الثانى عشر(2)، أدى بالضرورة إلى تكوين العديد من الجمعيات، وإلى تأخر تشكيل بلدية حقيقية كما حدث فى بالرمو.

والافتراضات التى اضطررت إليها كثيراً تؤكد ندرة الوثائق والجهد القليل الذى بذل حتى الآن للعثور عليها. وهناك ما يدعو إلى الأمل فى أن تقود حركة الدراسات التاريخية العامة الباحثين للتعمق فى بحث تكوين البلديات الصقلية. ويعرب عن ذلك بحثا إيزيدورو لالوميا وأوتونى هارتويج، فيتناول أحدهما تاريخ جوليلمو الصالح والآخر مقدمة للأعراف البلدية فى صقلية، وقد لمسا باقتدار علمى، هذا الموضوع الخطير، وإن جاء ذلك فى معرض بحثيهما.

ولن نتناول الإقطاع تناولا مستفيضا فقد وصف جريجوريو نظمه بإسهاب(3)، وبعض التفاصيل القليلة التى لم يعرها اهتماما، أولاها الأستاذ دبيجو أورلاندو اهتمامه الجاد(4). والخلاصة هى أن نظام الإقطاع الصقلى ولد مطيعاً ومعتدلاً حين تأسس للمرة الأولى مع نهاية القرن الحادى عشر على يد غاز يجيد فرض سلطته على أتباعه؛ وأن الأمير نقل إلى كل بارون، قدراً متفاوتاً من حقوقه المقررة كما كان يراها، على الممتلكات والأشخاص؛ وأنه احتفظ لنفسه فى معظم

---

(1) هذا ما ذكره هارتويج بحكمة كبيرة فى، *Codex Juris munic Siciliae*، ص ١٤، وأرى أن أهمية المدينة كانت أكيدة جدا نحو منتصف القرن الثانى عشر؛ على أنها لم تكن كذلك فى ١٠٦٠، كما يفترض السيد هارتويج فيما يبدو. وغنى عن الذكر أيضاً أننى أتفق معه اتفاقاً تاماً حول قيمة وثائق مسينا فى القرن الثانى عشر.

(2) فالكاندو. لدى كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٥٨ و٤٦٩ و٤٧٧.

(3) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى والخامس والسادس.

(4) *Il Feudalismo in Sicilia*، بالرمو، ١٨٤٧.

الأحيان بالقضاء الجنائى الأعلى، واستمسك بشدة بحقوقه الملكية.
وكانت تحكم البارونات قيود مادية لا تقل شأناً عن الحقوق المقررة: وتتمثل فى الممتلكات الكثيرة التى كانت تعد أملاكاً أميرية. وفى العديد من الممتلكات الخاصة التى تركت للسكان القدامى والمسلمين، وربما تمثلت بعد ذلك بقليل فى الحيازات الممنوحة للبلديات مع تحملها أعباء الخدمة البحرية. كما ظهرت فى توزيع الإقطاعيات، منذ البداية توزيعا حريصا.

ومن الذكريات القليلة التى لدينا عن هذا الحدث الاجتماعى المهم، نستنتج أنه جرى فى الأيام الأخيرة من الحرب. ففى حذق وتوفيق، تمكن الكونت من القضاء على الإقطاعيات الكبيرة التى وزعها روبرتو قبلا(1)؛ وبدأ بعد ذلك بمنح أراض صغيرة؛ وعندما مات شقيقه، وكان ابن شقيقه مرتبطاً به بالتزامات وآمال، وبعد سقوط آخر رايات الحكم الإسلامى فى صقلية (١٠٩١). حينئذ «استدعى فرسانه وشكرهم، كما كتب مالاتيرا، وكافأهم على جهودهم، فمنح بعضهم أراضى وممتلكات واسعة والبعض الآخر مكافآت أخرى»(2). ويبدو أنه قد جرى فى ذلك العام أكبر توزيع إقطاعى فى صقلية. وجاءت قوائم فلاحى كنيسة كتانيا ببند يقضى بإلقاء أسماء من كانوا مسجلين بقوائم البارونات فى عام ألف وثلاثة وتسعين(3)، أى بعد عامين من الفترة التى ذكرها مالاتيرا؛ وهذان العامان لا يعدان فى الحقيقة زمناً طويلاً، يفوق المطلوب لتحرير الوثائق مع تحديد الأراضى وسجلات التابعين.

إن القائمة القصيرة التى تكتظ بأسماء الإقطاعيين فى نهاية القرن الحادى عشر، كافية لبيان الغاية السياسية التى كان يسعى إليها

---

(1) لا يمكن أن ننسب إلا لروبرتو قائد الجيش، المخطط الذى يتحدث عنه مالاتيرا بعد احتلال بالرمو، أى تقسيم نصف صقلية بين سرلونى واريزجوتو دى بوتسوولى، أو نصف ما أعطى لروجيرو.

(2) الكتاب الرابع، الفصل الخامس عشر، فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٢٢٥.

(3) وثيقة عربية يونانية، لم يسبق نشرها، خاصة بكنيسة كتانيا بتاريخ ١٠٩٥.

الكونت روجيرو . ونحن نعلم أن رجلاً نبيلاً كان يتولى شئون فال دى ميلاتسو، وهى أرض شاسعة يُعتقد أنه قد تم التنازل عنها فى عهد روبرتو؛ ونعلم أيضاً أن سان فيليبو دارجيرو وجيراتشى وكاسترونوفو وكاكامو وبروكاتو وكارينى وبارتينيكو، وهى أراض صغيرة كانت فى حيازة بعض النبلاء؛ كما أن أمراء من سليلى الأسرة أو أقارب لصيقين للعائلة المالكة كانوا يتولون حيازة سيراكوزا ونوتو وراجوزا وبوتيرا وباتيرنو(1)، وشاكا، ومدن كبيرة(2). وكانت مدن وأراض كثيرة فى حيازة أساقفة أو أحبار: ومن المؤكد أن الإقطاعيات الكنسية وتلك الخاصة بالأمراء مجتمعة مع البلاد التابعة للأملاك الأميرية، كانت تحتل قاسما من الجزيرة يتجاوز بكثير مجموع الإقطاعيات الأخرى كلها . ومن بعض الأسماء الطبوغرافية نستنتج أيضاً أن الكونت قد أعطى للقادة الصغار تلك الأراضى الصغرى من صقلية الشمالية، التى كانت محتلة حتى عام ألف وثمانين أو نحو ذلك التاريخ، وعلاوة على ذلك أعطاهم عدداً كبيراً من الضياع الصغرى المنتشرة فى أنحاء الجزيرة كلها(3)، وأنه قد احتفظ لأسرته، وللكنائس وللأملاك الأميرية بالبلاد الأكثر اتساعاً وثراء التى تم الاستيلاء عليها فى العشر سنوات الأخيرة، فى المناطق الوسطى والجنوبية والشرقية: ومن بينها كونتية بوتيرا، التى منحت للماركيز أريجو لأنه شقيق أديلايدى، وإن لم يتزوج الكونت الأميرة سليلة عائلة اليرامى لأنها كانت شقيقة أريجو . وقلة أهمية الإقطاعيات الخاصة على النقيض من الإقطاعيات الأخـرى تتوافق مع ذكريـات مالاتيـرا

---

(1) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، ص ٢٠ و٢١؛ وانظر وثيقة ١٠٩٤ . فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧١ . ويلاحظ أن كونتية بلتيرنو كانت قد منحت للماركيز أريجو تحت وصاية شقيقته أديلايدى.

(2) اقرأ الوثيقة، فى كتاب فاتزيللو، *Historia Sicula, Deca I*، الكتاب السادس، الفصل الخامس.

(3) هذا الحدث الأخير لاحظه جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، ص ٢٢ .

حـول القوات الثـابتة التى احتفظ بها الكونت والمكافآت من الأملاك المنقولة؛ حيث كان من الواضح أن القائد الأعلى قد اضطر لأن يكافئ بالإقطاعيات، ليس بالطبع المرتزقة، ولكن القادة الذين اتبعوه فى اتفاق قائم على المخاطرة، بأن يشاركوا فى اقتسام الغنائم والمكاسب الثابتة، كما وعدهم قبل قتال ميزيلميرى(1)، وقد خبر هو نفسه مع روبرتو مدى خطورة أولئك الفرسان البواسل، وجربا ذلك هما الاثنان فى بوليا وكلابريا، طوال حياتهما.

وتقودنى الامتيازات الممنوحة للكنائس لتناول ذلك العمل الكبير الذى تمثل فى غرس آلة رجال الكنيسة الكاثوليكية فى صقلية، لصالح الإمارة ومساندتها. ونحن نعلم، بكثير من التفاصيل(2)، مدى استعداد الكونت روجيرو لتقديم المصالح السياسية على المسائل الروحية وأنه هو وروبرتو وأسلافهما، اعتادوا على الربح أكثر من الخسارة حينما كانوا يتعاملون مع البابوات. وبعد أن عاش لنصف قرن فى تلك المكانة الرفيعة فى كلابريا أو فى صقلية، واحتاج بعد ذلك لاستشارة الحكماء فى البلاد بشأن دعم المسيحية فى الجزيرة وتقويتها، لم يتمكن روجيرو من تجاهل المبادىء الكنسية القويمة فى القسـطنطينية، التى كانت تنسب للأمير وضـعاً قانونياً أعلى بالنسـبة للكنيسة وتعطيه السلطة فى إنشـــاء اســـقفيات، وتعيين الأساقفة والمطارنة والبطاركة وتغييرهم وعزلهم(3). وفى الوقت نفسـه كان الخـــلاف على التنصيب الذى كان يحتدم فى الغـــرب، يحذر روجيرو من الخطر الذى يتعرض له كل أمير داخل نطاق الكنيسة اللاتينية. وكانت أسرته نفسها قد تعرضت لتوها لعداوة الديبراندو. وعلى الرغم من ذلك فإنه من الواضح

---

(1) *Utamur ea (praeda) dividentes Apostolico more, prout cuique opus est*. هكذا. يقول مالاتيرا على لسانه، الكتاب الثانى، الفصل الثالث عشر، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ١٩٧.

(2) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٨٨ و١٩٤.

(3) موررتروى، *Histoire du Droit byzantin*، المجلد الأول، ص ٢٩٧ والمجلد الثالث، ص ٥٨ و٥٩.

جداً أنه كان يلمس الحاجة لإعادة تأسيس كنيسة قوية فى صقلية تحول المسلمين إلى المسيحية(1)، واليونانيين إلى العقيدة اللاتينية، وتضمن للمستوطنين فى البر الإيطالى، والسكان مما وراء الألب والصقليين من السلالة الإيطالية القديمة ممارسة الشعائر الدينية الوطنية: وإلا فإن اى تقلب من تقلبات الزمان يعد كفيلا بأن يعيد الجزيرة فى سهولة إلى سادة أفريقيا القدامى أو إلى سادة القسطنطينية. وقد تجنب روجيرو هذا الخطر وذاك، واتخذ جانب إقامة كنيسة كاثوليكية رسولية ورومانية، خاضعة لروما بأقل قدر ممكن وللأمير بأكثر ما يمكن. وقد نجح فى هذا، لأن دعم الكنيسة وتقويتها كان يهم البابا بما لا يقل عن اهتمامه هو، ولكن هذا كان يتوقف عليه وحده لأنه كان يمسك بيده الأموال التى يجب إنفاقها فى التشييد والتأثيث وكذلك بالدخول التى يجب منحها للكنائس والأديرة والأسقفيات. ويبدو أنه خاض التجربة أول الأمر بمجرد أن اقترب الدبراندو من أسرة هوتفيل: حيث نستخلص أن الكونت قد أقام فى عام ١٠٨١ أسقفية ترابنا واختار الأسقف، ولم ينتظر أى مبعوث بابوى او يطلب تصريح من أى نوع من البابا، وأن البابا وعد وهو يغمغم، ولكن دون غضب، برسامة الأسقف المختار(2). وبعد موت جريجوريو السابع، ومجئ أوربانو الثانى إلى ترابنا وبعد أن تم الغزو، لم يتوان روجيرو فى تأسيس الاسقفيات الأخرى: فرسم حدود الأسقفيات واختار الأساقفة، بموجب مراسيم يتحدث فيها كمن يمارس حقاً خاصاً به؛ ويذكر من واقع احترامه الخالص لواجب البنوة تلك الاتفاقات التى تمت شفاهة مع البابا، وهو من رسم بعد ذلك

---

(1) الحدث الذى ذكرناه فى الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٨٨ و١٨٩، حتى لو علمنا بحدوثه، فإنه لابد أن يقتصر على تحول المسلمين فى الجيش، أو العبيد وليست هناك حاجة لاثبات فائدة اعتناق المسيحية من قبل عموم السكان المسلمين، وخاصة فى المدن الكبرى. ومن المؤكد أن روجيرو كان يدرك ذلك.

(2) قارن الرسالة ٢٤ من الكتاب التاسع، لجريجوريو السابع، بكلام مالاتيرا وتواريخ الوثائق المتعلقة بكنيسة ترابنا، والتى اشار إليها بيرو. *Sicilia Sacra*، ص ٤٩٥. وانظر أيضاً ديكهارا *Opuscoli*. بالرمو، ١٨٥٥، ص ١٣٤ والصفحات التالية.

المختارين جميعهم(1). وباستثناء كبير أساقفة بالرمو، الذى كان موجودا قبل الغزو، وعلى الرغم من هذا يبدو أن ابرشيته قد حددها الكونت روجيرو، فإن المقار الأسقفية الأخرى كلها يعود تاسيسها له، وهكذا أسس: أبروشية ترابنا ١٠٨١ التى انتقلت، كما ذكرنا، إلى مسينا فى ١٠٩٦؛ وكتانيا فى ١٠٩١، وميراكوزا وجرجنتى ومازارا فى ١٠٩٣ ومالطة فى الوقت نفسه، كما يبدو، وقد أضيف لهذه كلها فى ١٠٩٤ دير باتى، وأعطى لكبير الرهبان رتبة الأسقفية واختصاصاتها(2)؛ علاوة على أن الكونت، بتصريح من البابا وكما قال ذات مرة، أسوة بالبابا، قام بتحرير العديد من الأديرة من تبعيتها للأساقفة(3). وخرجت على ذلك الحق الذى بدأه روجيرو وسارت فى اتجاه معاكس جزيرة ليبارى، فبعد أن هجرها المسلمون وأسس فيها بعض الرهبان ديرا وجمعوا عددا من المستوطنين، أعطى البابا أوربانو لكبير الرهبان الرئاسة الأسقفية، إذ كان يعتد بأنه يمتلك تلك الجزيرة الصغيرة بموجب هبة كوستانتينو

---

(1)

Proposui in Tragina construere episcopatum... tradidimus tibi gubernationem ejusdem episcopatus... Monasteria quoque habebis sub potestate.
– Urbanus secundus mihi, ore suo sanctissimo et venerando, præcepit, utpote pater spiritualis... ecclesias ædificavi jussu summi Pontificis et Episcopos ibidem collocavi, ipso laudante et concedente et ipsos Episcopos consecrante.
– Ecclesias ordinavi... cui in Parochiam assigno quidquid infra fines subscriptos continetur. – Stephanus, cui in parochiam assigno.

وكلمات أخرى مماثلة نقرأها فى وثائق الكونت، لدى بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ٢٨٢ و٥٢٠ و٦٩٥ و٨٤٢. وأوربانو الثانى نفسه، فى المرسوم البابوى الذى يقر به أسقف سيراكوزا، المرجع السابق، ص ٦١٨، يقول عن الكونت روجيرو: *Syracusanam iteque ecclesiam novissime restaurans... Pontificem Syracusanæ elegit ecclesiæ... a prædicto Rogerio concessa sunt infra hos terminos adjacentia, etc.*. راجع فى الوقت نفسه جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السابع.

(2) انظر بيّرو، *Sicilia Sacra*، فى اخبار كل اسقفية من الأسقفيات.

(3) وثيقة ترجع لعام ١٠٩٠، لدير سان فيليبو دى فراجالا؛ و١٠٩٢ لدير سانتا ماريا دى ميلى؛ و١٠٩٣ لأديرة سان ميكيلى أركانجلو دى ترابنا، وسانت أنجلو دى برولو وسان بيترو وباولو دى إيطاليا؛ و١٠٩٨ بالنسبة لدير سانتا ماريا دى فيكارى. إلخ لدى بيّرو، المرجع السابق ص ١٠٢٧ و١٠٢٥ و١٠٢١ و١٠١٦ و١٠٢٤ و٢٩٤، إلخ.

المنحولة(1). ولكن فى هذه الحالة أيضاً استطاع روجيرو أن يبسط سلطانه على كبير الرهبان. فاهداه باتى وممتلكات أخرى غير قليلة(2). حقاً إنه أنفق أموالا طائلة ليشترى أوقاف الكنيسة البيزنطية، التى استخدمها، كما ذكرنا، فى تأسيس الأسقفيات؛ بل إنه مضى إلى أبعد من تلك الغاية، واستطاع أيضاً أن يحصل لنفسه من البابا على سلطة الحرمان الكنسى فى بعض الحالات(3). كان روجيرو يعيش واثقا فى كلمة البابا، الذى سمح له بكل شئ دون أن يكتب سطراً واحداً، إلى أن قام أوربانو بمداجته، بهدم كل شىء، بأن عين مبعوثاً لديه. ولكنه لم يتقبل ذلك. وبعد انتصار كابوا، استعاد - بالقوة تقريبا - جزءاً من تلك الامتيازات، فى المرسوم البابوى الشهير لعام ألف وثمانية وتسعين، عندما كان أوربانو يأمل من ورائه الكثير ويخشى منه القليل.

وينسب مؤرخ الكونت، الذى يروى ذلك العمل الشنيع بشكل واضح للغاية(4)، إلى فيض الرحمة المسيحية تأسيس الأسقفيات حين يقول: «بعد أن استولى روجيرو على صقلية بالكامل، باستثناء بوتيرا ونوتو، لم يرغب فى أن يظهر بمظهر الجاحد لفضل الله: فبدأ فى حياة التقوى وفى حب الأحكام العادلة، واحترام الحقوق، ومناصرة

---

(1) مرسوم بابوى بتاريخ ١٠٩١، فى كتاب بيّرو، المرجع السابق، ص ٩٥٢، محرر فى ميليتو ولكنه مكتوب على ما يبدو بالاتفاق مع روجيرو.

(2) وثيقة الكونت روجيرو، بتاريخ ١٠٩٤، المرجع السابق، ص ٧٧١ و٧٧٢. وقد حصل كبير رهبان ليبارى وباتى بعد ذلك على لقب أسقف فى عام ١١٣١.

(3) فى وثيقة روجيرو لصالح دير دى إيطالا، المذكور عاليه، نقرأ أن من يعترض على التعليمات التى أصدرها لهذا الدير،

auctoritate apostolica nobis tributa, sint et esse debeant anathemisati. jussu et praetextu Domini Summi Pontificis Urbani et omnium successorum Patrum.

وهذا علاوة على عقوبة الحرمان التى جرت العادة فرضها فى الهبات المقدمة إلى الكنائس، وهو ما نقرأه فى نهاية الوثيقة نفسها. أن من ينتهك الهبة *sit et esse debeat maledictus a consubstantiali, Trinitate ec.* فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠٢٥.

(4) مالاتيرا، الكتاب الرابع، الفصل التاسع والعشرون، فى كتاب كاروزو، *Bib. Sic.*، ص ٢٤٧.

الحق، والتردد على الكنائس، والاشتراك فى التراتيل والتسابيح، ودفع العشور لرجال الدين عن كل دخل يحصل عليه، ومواساة الأرامل، واليتامى والمنكوبين. وقام بإصلاح دور العبادة فى الجزيرة كلها؛ وفى العديد من الأماكن كان يعطى من ماله، حتى تبنى بأسرع ما يمكن. وشيد فى چرچنتى مقراً أسقفيا بتيجان بابوية؛ وبمستند خطى وهبها هبة أبدية أراضى، وعشوراً ودخولاً أخرى عديدة، تكفى لإعاشة الحبر الأكبر ورجال الكنيسة؛ وعلاوة على هذا أغدق عليه كثيراً، فى زخرفته وتزويده بالأثاث الدينى: وعين لهذه الكنيسة شخصاً يُدعى چيرلاندو ليكون أسقفاً عليها، وهو من أصل اللُّبروجى، يتسم كما يقال، بمحبة كبيرة وبالتعمق فى العلوم الكنسية(1). لقد كان إذن من ديلفيناتو أو من سافويا، ذلك الأسقف، الذى لم يرغب مالاتيرًا فى التأكيد على فضائله، كما فعل بالنسبة للفرنسيين أمثال: ستيفانو دا روين الذى عين فى مازارا، وروچيرو البروڤنسالى فى سيراكوزا، وبريتونى فى كتانيا يُدعى انسچريو، كما يستخلص من الوثائق. وقد كان انسچريو هذا كبير رهبان سانت إوفيميا فى كلابريا وعندما رفض التخلى عن الرهبان، ورفضوا هم . أيضا . التخلى عنه، وجد روچيرو طريقة للتغلب عليه. وفى ذلك يستطرد مالاتيرًا قائلاً: «منحه مدينة كتانيا والمناطق التابعة لها منحة دائمة. وعندما وجد الكنيسة غير عامرة، ذلك لأنها انتزعت حديثاً من وسط شعب لا يؤمن بها، كان أول شئ فعله هو البدء فى العمل، اقتداءً بما اهتمت به مارتا، حتى إنه فى وقت قصير زود الكنيسة بما كانت تحتاج إليه؛ ثم بعد ذلك تابع عمله تارة حسب اهتمامات مارتا وتارة أخرى حسب اهتمامات مريم، فجمع قطيعاً صغيراً من الرهبان. وبوصفه راعيا صالحاً، أخضعهم بالكلمة وبالقدوة، لقيد النظم الصارمة»(2).

وفى الحقيقة بدأت الكنيسة الصقلية على نهج مرنٍ وليس على نهج

(1) مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل السابع، المرجع السابق، ص ٢٢١.
(2) مالاتيرًا، الموضع السابق.

مريم، فالعمل الحضارى أجدى من حياة التأمل: وكان هذا يتمثل فى الدعاية الكاثوليكية، وهى أداة ضرورية للحكم فى ظروف صقلية، المسلمة لأكثر من نصفها، والبيزنطية فى الباقى كله تقريباً؛ والدعوة لمستوطنين من البر الإيطالى؛ والعمل على التوازن مع الإقطاع العلمانى. وعلى الرغم من أنه فى نهاية القرن الحادى عشر كانت الحقبة الأسقفية قد انتهت تقريباً فى إيطاليا الشمالية، إلا أنه يبدو أن ممارسة تلك السلطة قد أفادت فى جذب مستوطنين إلى الإقطاعيات الكنسية بصقلية مع وعد بإعفاءات، كما لاحظنا عند حديثنا عن كتانيا وباتى. ولم تكن التجربة فاشلة، ويبرهن على ذلك منح تشيفالو للأسقف، وهو ما قام به الملك روجيرو فى عام ١١٤٥، مع إعطاء ميثاق حقيقى بامتيازات بلدية. ولكن أسقف كتانيا، وكبير رهبان باتى، ورئيس أساقفة مسينا والأساقفة الآخرون وكبار رهبان الأديرة المستقلة عن الرئاسة الأسقفية، بامتلاكهم لإقطاعيات تضعهم فى مستوى البارونات وتجعل البعض منهم فى مكانة كبار رجال المملكة(1)، وبتبعيتهم فى جوانب كثيرة للملك وليس للأرستقراطية العسكرية فى أى جانب منها، كانوا يزيدون من قوة إمارة روجيرو. فعندما عزم على أن يعهد لهم بمصالح على هذه الدرجة من الحيوية بالدولة، استدعى للمقار الأسقفية رجال ثقته، وأدخلهم فى مجالس الدولة(2): التى بقوا فيها زمناً، على مدى الفترة التى ظل فيها جوليلمو الثانى قاصراً. وتتوافق الأبرشيات السبع تقريباً مع التقسيمات السياسية التى نشأت بين المسلمين نحو منتصف القرن الحادى عشر(3)؛ وتتساوى بالضبط من حيث العدد

---

(1) اختصاراً ارجع إلى جريجوريو. *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، ملحوظة ١٢ و١٥، حول التنازلات الإقطاعية التى حصل عليها رؤساء الكهنة.
(2) جريجوريو، المرجع السابق، الكتاب الأول، الفصل السادس، ص ١٣٠.
(3) إن دويلات ابن منكوت، وابن حواش وابن مكلاتى وجمهورية بالرمو، ودويلة ابن الثمنة، التى ظهرت فيما بعد، تقابل بالتقريب أبرشيات مازارا وجرجنتى وكتانيا وبالرمو وسيراكوزا. وفال ديمونى الذى احتوى على أبرشيتى مسينا وباتى، وكان من ناحية أخرى

مع فارق ضئيل فى حدودها، مع الأقاليم الحالية بالجزيرة: حيث زاد عدد الأساقفة الآن ثلاث مرات، زهواً من جانب بعض البلديات وولاء مفرطا من جانب بوربون نابولى، الذين سعوا لتأسيس ثمانية كراسى جديدة فى ثمانية وعشرين عاماً(1). ولكن بالعودة إلى القرن الحادى عشر، تجدر ملاحظة كيف أن أبرشية بالرمو كانت أصغر بكثير من أى أبرشية أخرى: كانت على شكل شبه منحرف من كورليونى إلى ڤيكارى، ومصب نهر تورتو وكابو دى جاللو. وهذا يمكن فهمه لأن بالرمو كانت خاضعة لدوق بوليا عندما أسس الكونت روچيرو الأبرشيات المجاورة فى ترابنا ومازارا وچرچنتى(2). وربما لم تكن تمتد إلى ما هو أبعد من الحدود السياسية للمدينة قبل الغزو.

وحول حدود الأراضى فى الجزيرة ذكرنا فى موضع آخر أنه تم فى ظل الفاطميين تقسيم الجزيرة إلى أقاليم. وهى تبدو قطاعات عسكرية(3). والآن نجد الأقاليم من جديد تحت حكم النورمان. ولن نبحث عن الدليل فى كتابات الإدريسى حيث يرد ذكر العديد من أقاليم صقلية: لأن جغرافى الملك روچيرو يستخدم ذلك اللفظ استخداما عاما؛ بل إنه نظـراً لحبه للعب بالألفاظ مثل أى كاتب

بتميز بالمكان المسيحيين. انظر كتابنا الرابع، الفصـل الثـانى عشر والخامس عشر، ص٤٣١ و٥٥٩ من المجلد الثانى.

(1) الستة الأوائل منها كانت بالرمو ومسينا وكتانيا وسيراكوزا وچرچنتى ومازارا، التى ذكرت من قبل. ٧ـ أسقف باتى وليبارى (١١٣١). ٨ـ رئيس دير مسينا. ٩ـ تشيفالو (١١٤٥). ١٠ـ مورياله (١١٨٢). ١١ـ ليبارى وحدها (١٣٩٩). ١٢ـ نيقوسيا (١٨١٦). ١٣ـ كالتاچيرونى (١٨١٦). ١٤ـ بياتسا (١٨١٧). ١٥ـ نوتو (١٨٤٤). ١٦ـ ترابانى (١٨٤٤). ١٧ـ كالتانيسيتا (١٨٤٤). ١٨ـ أسقف حسب الطقس اليونانى فى بالرمو: دون إحصاء أسقف مالطة (١٠٨٩). ولا السلطة الاستثنائية لكبير رهبان سانتا لوتشيا. ولا مقر أتشيريالى، الذى تقرر فى عام ١٨٤٤ ولم يؤسس فيهما بعد.

(2) بما أن أسقف بالرمو كان الأسقف الوحيد الذى بقى فى صقلية قبيل الغزو النورمانى، فإن الكونت روچيرو ثبت الأبرشية على سبيل الاستثناء، وحدد، بين عامى ١٠٨٢ و١٠٩٣، الثلاث ابرشيات التى كانت تحيط بها. ولكن الوثيقة الأولى التى تتضمن قائمة أراضى ابرشية بالرمو تأخرت حتى عام ١١٢٢.

(3) الكتاب الرابع، الفصل الرابع، ص ٢٧٩ والصفحات التالية من المجلد الثانى.

عربى آخر فى عصره، كان يمتدح اتساع الأراضى وخصوبتها ويطلق فى بعض الأحيان تسميتى عمل وإقليم على مكان بذاته(1). ولكن لفظ إقليم هذا يتردد بالتحديد فى بعض وثائق القرن الثانى عشر، المأخوذة من سجلات المكاتب العامة، التى كانت ترجع إلى بدايات الحكم النورمانى(2). وعلاوة على ذلك ينبغى أن نعرف أن تلك الحدود الأبرشية الأربعة التى حددها الكونت روجيرو التى نقرأ فيها أسماء الأماكن(3)، نجد أن هذه الأماكن قليلة جداً فى عددها بالمقارنة بما يورده الإدريسى بعد نصف قرن، مع ملاحظة أنه يذكر المدن والأراضى الرئيسة ويترك وراء ظهره المدن الأقل أهمية(4). وتخبرنا الوثائق فى الحقيقة بالعديد من القرى التى سكت عنها الجغرافى؛ وفى بعض الأجزاء من البلد يتناسب العدد المستخلص من الوثائق مع العدد الذى يورده الإدريسى، كما تتناسب أعداد الإدريسى مع أعداد الدوائر الكنسية. ثم إن الفارق الذى نشأ بعد ذلك بين هذه والوصف الجغرافى المذكور لتوه، تولد فى بعض الحالات عن تأسيس مستوطنات جديدة؛ ولكن من الواضح أنه ترتب فى أغلب الأحيان

---

(1) الإدريسى، النص، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٢ و٣٦ و٣٧ و٣٩ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٤ و٥٠ و٥٢ و٥٥. ويتحدث المؤلف نفسه عن الأقاليم فى وصف بلدان أخرى، وعلى سبيل المثال فى أفريقيا وفى أسبانيا. كما يمكن أن نرى فى الترجمة الفرنسية للسيدين دوزى ودى جوجيه، فى المواضع المذكورة فى قاموسهما تحت مادة «إقليم».

«العمل»، يعنى حكومة، وكذلك بمعنى أرض يعهد بها للحاكم «عامل».

(2) هنالك وثيقة عربية من كنيسة بالرمو، بتاريخ ١١٤٩، فى كتاب جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٢٤، تذكر إقليم جاتو. وهنالك وثيقة يونانية - عربية، لم تنشر، من دير موريالى، بتاريخ مايو ١١٥١، تذكر إقليم كورليونى وشاكا: ووثيقة أخرى لم تنشر أيضاً وهى يونانية عربية من كاتدرائية بالرمو، بتاريخ ١١٦٩، تذكر إقليم ترمينى.

(3) إنها أبرشيات بالرمو ومازارا وسيراكوزا وكتانيا، فى كتاب بيَرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٢، ٨٤٢ و٦١٨ و٥٢٠. وبالنسبة لأبرشية جرجنتى، المرجع السابق، ص ٦٩٥، لدينا فقط حدودها. وسنترك جانبا أبرشية تشيفالو لأنها تعود إلى القرن الثانى عشر. وأبرشية مسينا، المرجع السابق، ص ٥٨٢، خشية أن يكون النص قد تعرض للتغيير، مثل العديد من الوثائق الأخرى فى مسينا.

(4) النص، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧.

على أن ديوان الكونت كان يذكر فى الأبرشيات الأماكن الرئيسة وحدها، بدلاً من ذكر الأراضى التى كانت تخضع لنطاق السلطة السياسية والعسكرية لكل منها، والتى كانت تتمثل فى اعتقادى فى الإقليم. وهكذا فإنه فى أبرشية كتانيا الشاسعة، التى تم وصفها فى ١٠٩١، ذكرت بها فقط آتشى، وباتيرنو، وأدرنو، وسانتا أناستازيا، وتشينتوربى وكاستروچوفانى، وكانت كل منها محددة «بكل توابعها»: ونرى أن توابع كاستروچوفانى كانت تمتد من جانب حتى حدود ترااينا ومن الجانب الآخر حتى نهر سالسو(1)؛ ومن ثم كانت تتضمن كالتانسيتيا وبيترابرتسيا، اللتين لم تذكرا هنا، ولكن الإدريسى ذكرهما، حسب طريقته الخاصة به وهى أنه كان ينسب لكل منها العديد من الأقاليم. وسأعطى أيضاً مثالاً لذلك ابرشية بالرمو، التى تقتصر أول وثيقة تحدد دائرتها (١١٢٢) على ذكر بالرمو، ميزيلميرى وكورليونى وفيكارى وترمينى فقط(2)؛ ولكن طبقاً لما يقوله الإدريسى فإن ترابيا وتشيفالا ومارينيو وجودرانو، ومارجانا ومنزل يوسف وكاكامو وبروكاتو ورايا وبريتسى وبيتِّرانا وأبراچا، كانت جميعها ذائعة الصيت فى المنطقة نفسها، وهى أراض سابقة، فى معظمها للغزو(3)؛ وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من الإدريسى، تبين لنا الوثائق أربع قرى فى إقليم كورليونى(4)، وبين بالرمو وترمينى رأى ابن جبير بلدة قصر سعد(5)، الجميلة. وتذكر الخرائط

---

(1) وثيقة بتاريخ ١٠٩١. فى كتاب بيّرو. المرجع السابق، ص ٥٢٠.

(2) مرسوم البابا كاليستو الثانى. فى كتاب بيّرو. *Sicilia Sacra*، ص ٨٢.

(3) راجع الإدريسى مع هذه الأسماء وانظر *Carte Comparée de la Sicile etc.* التى نشرتها فى باريس، مع السيد دوفور فى ١٨٥٩.

(4) وثيقة من دير مورِيالى، عربية لاتينية، بتاريخ ١٥ مايو ١١٨٢. وانظر الصيغة اللاتينية المعاصرة لدى چوديتشى، *Descrizicone del real tempio ec. di Morreale*، الحاشية، ص ٨ والصفحات التالية. والوثيقة نفسها تضع ٤٢ من القرى والمزارع فى أراض چاتو، التى كانت تتبع أبراشية مازارا ثم ابراشية موريالى.

(5) *Journal Asiatique* عدد يناير ١٨٤٦ ص ٧٢. وفى *Archivio Storico italiano*، حاشية رقم ١٦ (١٨٤٧)، ص ٣٠.

عين ليل(1) ورحل الشعرانى(2). وهكذا أيضاً فى ابرشية مازارا، تضم وثيقة الكونت روجيرو عشرة أسماء(3) وتورد جغرافية الإدريسى ستة عشر. ونستنتج من الوثائق علاوة على ذلك أن أراضى مدينة مازارا كانت تحتل ما يقرب من المنطقة الحالية التى تحمل ذلك الاسم بالإضافة إلى نصف مساحة الكامو(4). ويبدو أيضاً وادى ميلاتسو مساحة كبيرة من الأرض ذلك الوادى الذى كان إقطاعية فى حيازة جوفريدو بوريللو فى بداية الغزو(5). لقد رأى الكونت روجيرو إذن، انه ما كان بوسعه أن يفعل سوى ذلك، بأقاليم المسلمين، وأسماها «توابع» لمدن رئيسة(6)؛ وكانت هذه الأراضى، لامتدادها، تتفاوت بين المامورية والقطاع فى التقسيم الحالى فى إيطاليا. فقد كانت فى بعض الأحيان بلداناً واسعة، لدرجة أن البعض منها، مثل أدرنو، وباترنو أو سيراكوزا أصبح كونتية.

إذا كانت بعض الأقاليم فى صقلية، كما هو الحال فى بلدان مسلمة أخرى، تتجاوز الامتداد المعتاد. فإننا لا نرى فى عهد الكونت روجيرو دوائر مدنية أو عسكرية كبيرة تشتمل على العديد منها حتى يمكننا أن نسميها مقاطعات. وإذا كان الإدريسى يقول إن شاكًا قد أصبحت المدينة الرئيسة(7) للأقاليم المحيطة.

---

(1) وثيقة عربية لم تنشر من كاتدرائية بالرمو، بتاريخ ١١٦٩، وقد ذكرت فى *Biblioteca Sacra per la Sicilia*، المجلد الثانى، بالرمو، ١٨٣٤، ص ٤٥.

(2) وثائق يونانية عربية بتاريخ ١١٤٣ و١١٧٢، فى *Tabulario della Cappella Palatina*. فى بالرمو، ص ١٢ و٢٨.

(3) وثيقة بتاريخ ١٠٩٣ فى كتاب بيرو، المرجع المذكور، ص ٨٤٢.

(4) انظر الاستشهاد فى كتابنا الرابع، المجلد الثانى، ص ٢٨٢، هامش ٢. وقد تنهرت اليوم الأسماء الرسمية، وانا أسمى منطقة *circondario* ما اسميته فى عام ١٨٥٨ *distretto* قطاع.

(5) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، ص ٢٢ وملحوظة ١٤، التى يجب تصحيح استشهاد بيْرو فيها إلى: ص ٧٧١.

(6) انظر هبتى ريجالبوتو وكتانيا، ص ٣١٨، الهامش ١، وص ٣٢٢، الهامش٢.

(7) كانت تقال حرفياً «ام»، أى «والدة». النص فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٣٩ و٤٠. يتحدث المؤلف عن التجارة الكبيرة التى كانت تجرى فى شاكًا وعن هجر كالتابيللوتا، حيث لم يتبق سوى حامية القلعة.

بدلاً من كالتابيللوتا التى انتقل سكانها تقريباً إلى تلك المدينة المطلة على البحر، فإن هذا يبدو أمراً اقتصادياً وليس إدارياً: ويرجع على أية حال إلى منتصف القرن الثانى عشر. ويبدو لى أن الاستثناء الوحيد هو فال ديمونى، الذى ذكره باسم إقليم كاتبان مسيحيان معاصران للفزو(1)، وعلى هذا النحو ذُكر كذلك فى جغرافية الإدريسى(2) وفى العديد من الوثائق التى تنتمى لنهاية القرن الحادى عشر حتى منتصف القرن الثانى عشر(3)؛ وإن كنا لانعرف ما إذا كان ذلك الاسم القديم يقابل قطاعاً إدارياً حقيقياً فى نهاية القرن الحادى عشر. وأنا لا أعتقد هذا، لأنه لم يتبق فى مذكرات الغازى أثر لسلطة إقليمية أخرى سوى سلطة الأساقفة؛ ولأن قيام أى نظام إقليمى أمـر غير واقعى فى بداية ذلك التطبيق الإقطـــاعى، حيث من المفترض أن يكون الحكام الإقليميون هم الكونتات؛ ولأن الأقاليم ما كـان من الممكن أن تختلف، من حيث العـــدد أو الحـــــدود، عن

(1) أماتو ومالاتيرا، المذكوران فى الفصل الثانى من هذا الكتاب الخامس، ص ٧٨ و٨٥.

(2) المرجع المذكور ص ٣٢. وهنا يقال إن كارونيا كانت بداية إقليم ديمونى. وبالتالى فإن الأمر لا يتعلق بأراضى مدينة، كما هو الحـــال فى الأماكن التى ذكرناها سلفاً، فى ص٢٠٧، هامش٢.

(3) هى مذكورة فى كتابنا الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٢٤ و٥٢٥ من المجلد الأول، الذى خرج إلى النور فى عام ١٨٥٤. ولدينا الآن النصوص اليونانية التى نشرها سباتا، *Pergamene*، ص ١٦٣ إلى ٣٤٤، التى يسمى فيها ديرى سان فيليبو وسان باربارو؛ δεμένων وفى أغلب الأحيـــان Τῶν δεμένων، ἐν δεμένοις ومرة واحدة (ص ٢٧٤)؛ δαιμένων وأرض الـ *demenni* هؤلاء، قبل عنافى وثيقة بتاريخ ١١٠١ (ص ١٩١)؛ χώρας؛ وفى وثيقة بتاريخ ١١١٧ (ص٢٤٥) διακρατήσεις (المقابل لإقليم فى وثيقة يونانية بتاريخ ١١٥١ لدى سباتا، *Cimelio diplomatico di Morreale*، ص ٦٠ الذى احتفظ بنسخة من نصه العربى) وأخيراً، فى وثائق عامى ١١٨٢ و١١٩٢ (ص ٢٩٢ و٣٠٥) تصبح Βαθεῖα، وهى ترجمة حرفية للفظ *vallis* الذى كان سائداً من قبل فى اللاتينية العامية فى البلاد.

ويلاحظ أن جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، لم يستطع أن يحدد بشكل مؤكد فى أى زمن أصبح لفظ واد *valle* تسمية إدارية. ومن ناحية أخرى، لا يستقيم أى من الاستشهادات التى ذكرها هو فى الحاشية ٢٤ من ذلك الفصل؛ والاستشهادات القائمة على ما كتبه بيرو ضئيلة القيمة حينما تعتمد على ترجمات عن اليونانية.

الدويلات المسلمة التى قضى عليها. ولذلك أرى أنه يرجع إلى عهد الملك روجيرو التقسيم إلى ثلاثة أودية أو بالأحرى، إعادة ذلك النظام، الذى يمكن أن ننسبه للمسلمين كما قلت من قبل(1).

وليس من الواقع فى شىء أن نفترض وجود نظام الأقاليم تحت حكم روجيرو الأول، حيث يتضح من الوقائع والوثائق أنه لم تكن له أبداً عاصمة بمعنى الكلمة. فقد صنع هذا المغامر المسكين لنفسه عشا فى ميليتو التى كان يمتلكها وحدها فقط: وبعد أن اتسعت آماله فى صقلية، اغتصب عشا آخر فى ترانيا؛ ولكن بعد أن أصبح أميراً وذا سطوه ظل ينقل بين ميليتو وترانيا ما يمكن أن نسميه إقامته، أى تلك الأسابيع القليلة، التى كان يتوقف خلالها فى بيته، وهو يجرى من عملية لأخرى، بين ليليبيو وجريليانو. وأراد أن يدفن فى ميليتو(2)، وأمر بضم رفات ابنه چوردانو بمدفن فى ترانيا(3)؛ وهنا كان يحتفظ بكنزه، وبأسرته لبعض الوقت، حيث نستخلص أن إحدى بناته، عندما كانت ماضية لتتزوج فى المجر، دخلت إلى السفينة فى ترمينى ثم فى بالرمو، حيث نشرت السفينة أشرعتها إلى دالماتسيا(4).

---

(1) انظر كتابنا الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٢٠ والصفحات التالية من المجلد الأول. يذكر مالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصل العاشر، فى كتاب كاروزو، .Bib. Sic، ص ٢٠٨. «إقليم» نوتو، أثناء حرب الكونت وبصفة خاصة نحو عام ١٠٧٦. ولكن علاوة على أن هذا لا يعنى ضمناً أن الكونت، بعد سيادته للجزيرة، قد احتفظ بذلك الإقليم، فإن الرواية تحملنا بالأحرى على الاعتقاد بأن الأمر كان متعلقاً بأرض المدينة، أو ربما الدائرة أو الإقليم. انظر الفصل السادس من كتابنا هذا، ص ١٥٦، من المجلد، حيث ذكرنا فال دى نوتو للإشارة إلى المكان، وليس لكى ننسب للقرن الحادى عشر هذه التسمية الخاصة بالجغرافيا السياسية.

(2) *Anonymi historia sicula*، فى كتاب كاروزو، .Bib. Sic، ص ٨٥٦.

(3) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الثامن عشر.

(4) مالاتيرّا، الكتاب الرابع، الفصل الخامس والعشرون. يذكر النص أنه فى عام ١٠٧٩ كانت الأميرة، فى صحبة أسقف وكثيرين غيره من رجال البلاط، وفى حراسة ٣٠٠ ضارب بالرمح، وذهبت إلى ترمينى؛ وأنها واصلت الرحلة عن طريق البحر: *usque Pannoniam* وبالتالى، وبعد تجهيز السفن وفرد الأشرعة للرياح، وصلت بعد رحلة سعيدة، إلى ميناء ألبا *(Alba maris, Blandona, Biograd, Zara vecchia)* الذى يتبع ملك المجر.

وقد جاء الأصل الثلاثى لسكان صقلية بثلاث تسميات لرجال إدارته الذين كانوا يديرون الأراضى الأميرية باسم الأمير والإقطاعية باسم البارون؛ يقيمون فيها العدل ويحصلون منها على الدخول. وتتردد فى الحقيقة فى العديد من محررات ذلك الوقت أسماء مثل استراتيجى وفسكوميتى وتذكر وثيقتان عربيتان ترجعان لعامى ١١٤٩ و١١٥٤ اللقب المزدوج عامل واستراتيجى چاتو لأبى الطيب، الذى كان يحدد مع الشيوخ المسيحيين والمسلمين فى بارتينيكو، ونـ» ظـ» ر» د، وديزيزا وچاتو نفسها، موقع وحدود أرض ممنوحة من الأملاك الأميرية(1). وبالمثل، فى عقد يونانى مسجل فى عام ١١٥٦، ويخص

ولا شك فى ان "*usque Pannoniam*" خطأ يجب ان يصحح إلى "*usque Panormum*". كما نقرأ فى صيغة بديلة كتبها كاروزو. ص ٢٤٤ (موراتورى، المجلد الخامس، ٥٩٩). ويمكننا ان نتعرف إلى حد ما على الطريق الذى سار فيه الموكب حتى ترميني، وأن نستخلص إلى أنه تحرك من ترابنا. والوثائق التى سنذكرها هنا ص ٢٢٥. هامش ٥. تبين لنا أنه فى عام ١٠٩٤ كان هناك «طريق ملكى» يمر عبر ترابنا: وأنه فى عام ١٠٩٦ كان هناك «طريق فرنسى» يبدأ من منبع نهر تورتو، أو من ضواحي فيكاري، ويتجه ناحية الشرق، اى نحو ترابنا: وأنه فى عام ١١٣٢ كان هناك طريق يجرى من بالرمو إلى فيكارى وكاسترونوفو وبترالبا. ولا شك فى أن موكب العروس سار فى ذلك الطريق العسكرى. ثم لماذا ذهب إلى ترمينى بدلاً من بالرمو. هذا ما يمكن استخلاصه جيداً، دون افتراض أن طريق ١١٣٢ لم يكن مفتوحاً علم ١٠٩٧. فقد كانت بالرمو كلها تابعة لدوقات بوليا حتى عام ١٠٩١: عندما تم التنازل عن نصفها للكونت روچيرو. ومن المعقول، إن لم نقل انه كان ضروريا، أن نحظر اتفاقات التنازل، بين أقارب مرتابين على هذا النحو، وليس دون سبب، دخول قوات حربية جديدة لهذا الطرف او ذاك فى الأرض المشتركة: وقد كانت القوة المؤلفة من ٣٠٠ محارب، أو ما يقرب من ١٠٠٠ فارس قوة لها ثقلها الكبير. وبالتالى يبدو أن الحراسة المرافقة قد تركت الأميرة على حدود الأرض الخاصة بالكونت، وهى ترمينى، وأنها ذهبت فى صحبة كبار البلاط عن طريق البحر إلى ميناء بالرمو الكبير، حيث استعد الأسطول الصغير الذى حملها بعد ذلك فى البحر الأدرياتيكى.

(1) وثيقتان عربيتان من كاتدرائية بالرمو، وقد ذكر جريجوريو أولهما ونشر الثانية، *De Supputandis*، ص ٢١ و٢٩ ومن بين الأخطاء الأخرى التى أخطأ فيها جريجوريو هو انه اعتقد ان النقل الصوتى لكلمة *Stratego* إلى العربية من أسماء الأعلام. وفى شئ من التوفيق أعاد الأستاذ كاروزو طباعة إحدى الوثيقتين ونشر الأخرى فى *Biblioteca Sacra*، المجلد الثانى، بالرمو، ١٨٣٤، ص ٤٦ والصفحات التالية و٥٥ والصفحات التالية. وقد حصلت على نسختين جيدتين عن الأصل، هدية من الأستاذ

إحدى بلديات إقليم بالرمو الحالي، يأتى ذكر قائد يُدعى حسين، بلقب إستراتيجى(1). وقد بدا لجريجوريو أنه من المحتمل، إن لم يكن مؤكداً، أن الاستراتيجيين كان لهم نفوذ أكبر وسلطة محلية أوسع واكبر من سلطة الفسكوميتى وأن الفريق الأول كان من القضاة فى الأمور الجنائية أما الثانى ففى الأمور المدنية والإدارية(2). ولكن وثائق جديدة وتلك الوثائق نفسها التى خرجت إلى النور حتى القرن الماضى، تبين الاختصاص المدنى والإدارى الذى كان للاستراتيجيين(3). وإذا رأينا فى الوقت نفسه وفى المكان نفسه

كوزا. وفى نهاية الوثيقة الأولى، وفى موضع *cra barbara*، التى افترضها جريجوريو ونقلها عنه كاروزو، نقرأ: «بتاريخ مارس». وأبو الطيب هذا، ابن الشيخ ستيفانو، كما تقول الوثائق، يبدو أنه من عائلة مسلمة اعتنقت المسيحية أو ربما كانت من تلك العائلات الأصلية فى البلاد وعادت إلى المسيحية، بعد أن اعتنقت الإسلام. ويبدو لى مطابقاً لإوجينيو الملقب بالبللو (τοῦ καλοῦ) وهى ترجمة حرفية لأبى الطيب) أمين سر البلاط، طبقاً لوثيقة ترجع لعام ١١٨٣، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٢٩٢؛ وهو الشخص نفسه الذى ورد فى الترجمة اللاتينية لوثيقة يونانية، فى كتاب جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٥٤ والصفحات التالية وفى كتاب سباتا، المرجع المذكور ص٤٥٢ والصفحات التالية، حيث سمى إوجينيو دى كالس. ولفظ *Biccari* فى ص ٢٧ عند جريجوريو و*Biccaib*، ص ٤٥٤ عند سباتا، يجب أن يصحح إلى*Bittaib*، الذى هو اسم أبى الطيب، الذى نطق بالعامية ووضع فى حالة جر. وقد كتبت الأحرف ن. ظ. ر. د كما أراها فى النسخ، وأعتقد أنها اسم طبوغرافى، وليس لقب عائلة كما بدا لجريجوريو وكاروزو. ولكننى لا أجد تأكيداً لذلك فى الأسماء الطبوغرافية فى تلك النواحى التى نعرف الكثير منها. وشكل الأحرف، بعد تغيير النقاط، تجعلنى أفكر فى بتّلارى وهو المكان الذى نراه فى كتابى *Carte Comparée de la Sicile*، ص ٢٩.

(1) فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤٢٤. اسم البلدية غير موجود: ولكن الوثيقة كانت تخص أسقفية تشيفالو.

(2) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثالث.

(3) جريجوريو نفسه، بعد أن أكد فى الكتاب الأول، الاختصاص الجنائى البحت، نشر فى الكتاب الثانى، الفصل الثانى، ملحوظة ٣٢، ترجمة وثيقة يونانية بتاريخ ١١٧٢، يتضح منها أن إستراتيجى مسينا فى ذلك العام نفسه وفى زمن كبير الأساقفة روبرتو (١٠٩٠ - ١١٠٨) كان يمارس اختصاصاً مدنياً. انظر من ناحية أخرى حول اختصاصه، هارتويج، *Codex juris municipalis Siciliæ*، الجزء الأول، ص ٣٢ والصفحات التالية. وعلاوة على ذلك كان استراتيجى ديمنا يمارس الاختصاص المدنى، حسبما ورد فى وثيقة

الاستراتيجي والفسكوميتي، كما هو الحال فى ستيلو وفى كلابريا وفى سيراكوزا(1)، فإن هذا لا يبرهن بشكل قاطع على اختلاف درجتهما؛ ولكن السلطة المزدوجة تتلاءم جيداً مع الأرض التى يسكنها شعبان مختلفان، تماماً كما كان يجلس القاضى المسلم ورجل القضاء المسيحى فى بالرمو. وفى جاتو كان الرجل الذى يشغل المنصب نفسه يسمى عاملاً واستراتيجياً. وقد كان أساس القانون العام فى صقلية فى تلك الفترة، أى ان تحكم كل فئة طبقاً لشريعتها، يتطلب أن يكون لكل فئة قاضيها؛ وقد كانت البساطة الأولية والاقتصاد فى الإدارة يقضيان بأن يكون القاضى مكلفاً بكل عمل آخر من أعمال الأمير أو البارون. وقد ظل الاستراتيجي، وهو حاكم إقليم فى القرن التاسع، فى اعتقادى، السلطة السياسية الأعلى، وعندما سقط الحكم البيزنطى فإن كل مدينة مستقلة، سواء كانت دافعة للجزية أو حتى خاضعة للمسلمين، أخذت تدير شئونها بنفسها بشكل أو بآخر. ولم يكن هذا فى صقلية فحسب، ولكنه كان بالضرورة كذلك فى العديد من الأماكن فى كلابريا. وكان من الطبيعى إذن أن يترك الكونت النورمانى اللقب نفسه للحاكم الذى كان يرسله إلى المدن اليونانية وأن يسمى حاكم المستوطنات الجديدة فسكوميتى، كما اعتادوا أن يسموه فى بلادهم(2). وللسبب نفسه نرى العامل فى الأراضى المسلمة؛ إلا أنه كان مجرداً من السلطة

يونانية ترجع لعام ١١٣٦، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٢٦٥؛ وهكذا أيضاً استراتيجى شنتوربى، طبقاً لوثيقة ترجع لعام ١١٨٢، المرجع السابق، ص ٢٩٢. وكان الاستراتيجيون يعملون بصفتهم وكلاء للأملاك الأميرية فى جاتينى *Giattini* (هكذا يجب أن تقرأ، وليس *Catinae*، وبالتالى يختفى استراتيجى كتانيا الذى افترض جريجوريو وجوده، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثالث، ملحوظة ٦). طبقاً لوثيقة لاتينية ترجع لعام ١١٣٣، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧٤؛ وكذلك فى سيراكوزا طبقاً لوثيقة يونانية ـ لاتينية ترجع لعام ١١٧٢، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤٤٢ و٤٤٤.

(1) جريجوريو، المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل الثالث، الحاشية ٢٠. ولوثيقة عام ١١٧٢، المذكورة عاليه، ورد أيضاً ذكر فسكوميتى سيراكوزا، علاوة على الاستراتيجى.

(2) وعن الفسكومينى فى إيطاليا، انظر هيجل، *Storia de'Municipi italiani*، النسخة الإيطالية، ص ١٢٨ و٤٤١ و٤٧٣.

القضائية، حيث كانت من اختصاص «القاضي» و«الحاكم»(1). وكما كانت تقضي حضارتهم الأعلى شأناً، كان للمسلمين، علاوة على رجال القضاء المخصصين، قوانين أيضاً، وهي إن لم تكن جيدة، فقد كانت على الأقل ثابتة ومنسقة من خلال قضاء رفيع المستوى؛ في حين كانت القوانين البشرية، والقانون الروماني، تظهر هنا وهناك في أعراف المدن المسيحية، وتأخذ بعض المستحدثات البيزنطية وتكافح ضد عادات اللونجوبارد والفرنجة البربرية(2). وبحكم العادة السائدة في التشريعات الأوربية احتفظ الأمير لنفسه بالدعاوى في القضايا المدنية، وجعل البت فيها للأشراف الذين يوكلهم بها مرة بعد مرة. كما احتفظ لنفسه علاوة على ذلك بأحكام الإعدام في معظم الإقطاعيات(3).

---

(1) ابن جبير في الـ *Journal Asiatique*، يناير ١٨٤٦، ص ٨٠، وفي *Archivio Storico Italiano*، حاشية رقم ١٦، ص ٣٢، يتحدث عن قاضي بالرمو الذي كان يحكم في الخلافات بين المسلمين، تحت حكم جوليلمو الثاني. ويظهر اسم الوظيفة في وثيقة يونانية، بتاريخ ١١٤٣، في كتاب مورسو، *Palermo antico*، ص ٣٠٦؛ وورد ذكر القضاء بعد ذلك في المحررات التالية: ١١٣٢، وثيقة يونانية، في كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤١٠؛ و١١٣٧، ووثيقة عربية لم تنشر من كنيسة القصر في بالرمو: ١١٦١، وعربية لم تنشر من *Commenda della Magione* في بالرمو، واليوم في الأرشيف الملكي؛ ١٢٠٢ ووثيقة لاتينية، في كتاب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثاني، الفصل السابع، ملحوظة ٧.

ويلاحظ أن الأولى والأخيرة تبينان وظائف القاضي وتبين الاثنتان الأخريان ما نسميه نحن بالنائب العام، لحماية النساء والقصّر. وهنالك عقود بيع كثيرة أبرمت، كما هو واجب أمام شهود، ودون تدخل (القاضي). ويرد ذكر (قاضي) لوتشيرا بعد نقل مسلمي صقلية إلى بر إيطاليا، في وثيقة للامبراطور فدريكو، بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٢٣٩، في طبعة كاركاني، ص ٣٠، وفي *Historia diplomatica Friderici II*، المجلد الخامس، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨.

وابن جبير، المرجع السابق، ص ٨٧، وفي الترجمة الإيطالية، ص ٢٥، يتحدث عن «حاكم» ترابانى الذي ثبت في حضوره استطلاع ظهور الهلال لتحديد أيام صوم رمضان شرعاً. ومن الواضح أن لقب «حاكم» الذي لقب به أول رجل من رجال الحكم في مالطة يرجع إلى أيام المسلمين، مروراً بالنورمان.

(2) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثالث: هارتويج، *Codex Juris municipalis Siclize*، الجزء الأول.

(3) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الخامس والسادس.

وسنتحدث الآن عن الدخول العامة فى العهود النورمانية الأولى:
وفى هذا البحث يجدر بنا أن نستخدم بمزيد من الحذر، وفيما يشبه الارتياب، مذكرات النصف الأخير من القرن الثانى عشر: حيث كانت الأمور فى مجال الإدارة، أكثر تغيّراً من تلك التى جرى سردها حتى الآن، مثال ذلك الظروف الاجتماعية أو نظام البلديات، ومع عدم احتمال وجود أصول أعرق، أراحتنا أحياناً فى أن ننسب لبدايات الأسرة تلك الأنظمة التى أمكن استخلاصها مع نهاياتها. ولنبدأ فى بحث الأمور التى كان لها أثر كبير فى تاريخ إيطاليا الجنوبية، لأن الكونت روجيرو فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة من القرن الحادى عشر، كان قد بلغ قوة كبيرة بفضل الذهب، وكذلك بفضل الحديد. ولم يكن من الممكن أن تأتى تلك الثروة التى جعلته مشهوراً فى كل البلاد المسيحية من الغنيمة وحدها؛ ولا من ثمار الأملاك الأميرية التى كانت تقل بالضرورة بين معارك الحروب والقلاقل الاجتماعية. ومع ذلك فإننا نرى الكونت يدفع آنذاك رواتب لفرق كبيرة من الجيوش المرابطة، ويقدم دوطة ملكية لبناته الكثيرات، ويقدم المساعدات للبابوات وما هو أخطر من ذلك، أنه كان يساعد بالأموال شقيقه فى عملية اليونان: ثم يشيد كنائس وأديرة فى كل مكان. من أين كانت تأتى هذه الأموال؟ لعل البعض يقول إن الكونت قد تعلم الكيمياء من العرب، أو اكتشف بنفسه السر العظيم: وهو ذلك السر نفسه الذى تضاعف به دخل مدينة بالرمو، بمجرد أن وضع يديه عليها.

ويبدو أن تلك الإدارة الحكيمة التى كانت أساس ذلك السر العظيم، كانت تركة من عهود المسلمين، أحسن المنتصر استخدامها. وبما أن لدينا تحت أعيينا أطلال ذلك البناء القديم، فإننا نستطيع إلى حد ما أن نعيد تركيبه. وفى البداية نلمح حصراً عاماً للأملاك الأميرية والإقطاعية، وقد كانت هذه وتلك فى الأصل الشئ نفسه، أى كانت أملاك الدولة، وكان يتم منح بعضها على شكل إقطاعيات، بينما ظل البعض الآخر تابعاً لخزانة الدولة التى كانت تعهد مرة أخرى بأجزاء

منها لآخرين أو تحتفظ بها. وتبرهن على ذلك الحصر، قوائم الفلاحين المنتمين لكل إقطاعى فى الجزيرة، التى صدر الأمر بها فى مازارا، كما لاحظنا فى ١٠٩٣، أى بعد إتمام الغزو بعامين(1)؛ لأن التنازل عن الفلاحين كان يتسق مع مساحة الأرض المخصصة لكل منهم، والتى كان يقال لها «رَبْع» فى الوثائق العربية وزراعة *cultura* فى اللاتينية(2). وفى القرن الحادى عشر كانت هناك آثار لتحديد سابق للأراضى؛ حيث إننا نعرف أنه تم منح قرية ريجالبوتو فى ١٠٩٠ لكنيسة مسينا

---

(1) راجع الفصل السابق ص ٢٤٥، هامش ٢. فى نهاية قائمة أنشى، المذكورة هنا، والمحررة فى مسينا عام ٦٦٠٢ (١٠٩٥) يقال إن كل قوائم بلد الكونت وقوائم العاملين بأراضيه، كانت قد كتبت فى مازارا فى ٦٦٠١: وبالتالى فقد صدر الأمر بأنه إذا كان أحد الهاجريين المذكورين فى هذا البيان كان موجوداً فى أى من القوائم الأخرى، فعلى أسقف كاتانيا أن يعيده على الفور لمن له الحق فيه. والشئ نفسه نلمحه فى مقدمة قائمة عربية - يونانية ورد بها فلاحو كاتانيا، وقد حررت بتاريخ ١١٤١.

(2) لفظ «رَبع» وجمعه «رباع»، كان محل دراسة السيد ساسى وترجمه، على أساس أسانيد جيدة بكلمة «دار»، فى *Rélation de l'Egypte par Abdallatif*، ص ٣٠٢، بالهامش. ولكنه يبدو فى هذا المعنى لفظاً خاصاً بمصر. ومعنى «ضيعة»، الذى يحمله بوضوح هذا اللفظ فى وثائق صقلية وجغرافية الإدريسى، يوجد أيضاً عند الأزرقى، تاريخ مكة. ومن المحتمل أن يكون قد أخذ من كتابات صدر الإسلام. ودون أن نذكر كل الوثائق العربية الصقلية التى يتردد فيها هذا اللفظ، فإننى سأذكر وثيقتى عامى ١١٤٩ و١١٥٤، وأولاهما فى كتاب جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٢٤، والأخرى فى الـ *Biblioteca Sacra per la Sicilia*، المجلد الثانى، ص ٤٦. وفى الترجمات الرسمية فى صقلية فى القرن الثانى عشر، كان «رَبع» يترجم إلى اللاتينية بعبارة *cultura, terræ laboratoriæ*، فى الجمع، وأحياناً إلى *terræ* فقط (وثيقة عام ١١٨٢، نص عربى غير منشور: وبالترجمة اللاتينية التى نشرها دل جوديتشى، *ec.* *Descrizione del real tempio,*، فى إحدى الحواشى، التى وردت بها الأماكن التى أنكرها فى ص ١٠ و١٢ و١٨) وفى أماكن أخرى ورد باليونانية τετραμέρεια ويبدو أنه استبدال للفظ رَبع «جزء من أربعة أجزاء» المشتق من الأصل نفس (وثيقة بتاريخ ١١٧٢، يونانية - عربية، فى محفوظات كنيسة القصر ببالرمو، ص ٢٩ و٣٠). ولفظ زرعة أو زراعة *cultura*، الذى تحدده عبارة *ad duo paria bovium*، نقرأه أيضاً فى وثيقة لاتينية ترجع لعام ١٠٩١، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٢١. ويقابل بلا شك «الرَبع»، الذى كما لاحظنا من الوثائق المذكورة بتاريخ ١١٤٩ و١١٥٤، أنه كان يقاس بقدر زوج، أى زوج من الثيران، *paricla*، كما كانوا يكتبون باللاتينية فى العصور الوسطى: ذلك المقياس ذاته الخاص بالمساحة الذى سبق أن تناولناه فى الكتاب الأول، الفصل السادس والكتاب الرابع، الفصل الثامن، ص ٢٢٥، المجلد الأول و٣٦٠ من الثانى.

«بكل مناطقها الفلاحية وتوابعها حسب حدود السراسنة القديمة»(1). وهناك أخبار أكثر دقة تقدمها لنا عن هذا التحديد أوراق القرن الثانى عشر، نلمح منها أن ذلك الحصر، إن لم يكن يمثل، مثلما يحدث فى أيامنا هذه، غابة من السطور والأعمدة الصغيرة المنتهية بدخل كل ضيعة بالليرات والسنتات، وهى وإن كانت أرقاماً تقريبية وقد يقال عنها أحياناً أرقام بعيدة عن الواقع، فإنه كان يشتمل حقاً على الوصف الإجمالى للحدود المعروفة للجميع فى كل مزرعة، ومساحتها وعدد فلاحيها وأسمائهم، ونوعية التربة(2) بشكل عام.

وتعرفنا الأوراق ذاتها باسم المكتب الذى كان يحفظ هذا الحصر؛ وكان اسمه باللغة العربية، «ديوان التحقيق المعمور»؛ أى «مكتب تحقيق الخزانة»، هذا إن لم يخدعنا التشابه مع أنظمة الإدارة العامة، التى وضعها فى مصر أولئك الخلفاء الفاطميون أنفسهم الذين كانوا مشرّعين للإدارة فى صقلية(3)؛ وقد كان ذلك المكتب يعرف فى

---

(1) وثيقة فى كتاب بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٢٨٤، حيث نقرأ:
cum omni tenimento et pertinentiis suis, secundum anticas divisiones Saracenorum.

(2) انظر الوثائق العربية التى ترجع لأعوام ١١٤٩ و١١٧٤ و١١٧٢، وبصفة خاصة وثيقة عام ١١٨٢، المذكورة فى الملاحظات السابقة.

(3) هذا اللقب موجود فى الوثيقتين العربيتين التين ترجعان لعامى ١١٤٩ و١١٥٤، والمذكورتين عاليه فى ص ٣١٢، هامش ١؛ وفى وثيقة يونانية عربية ترجع لعام ١١٧٢، ومنشورة فى *Tabulario della Cappella Palatina* فى بالرمو، ص ٣٠ و٣١؛ وفى وثيقة عربية ترجع لعام ١١٨٢، غير منشورة وكانت تخص دير البندكتيين فى موريالى. وإذا نحينا جانباً ترجمة جريجوريو: *"Duana veracis conservata a Deo"*، (*De Supputandis* ص ٣٥) وترجمة القرن الثالث عشر، *"Doana Veritatis"* (لدى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٥٧) التى استرشد بها القانونى الشهير والمُعَرِّب الصقلى المتواضع جداً، فسوف نتناول صيغة *"Bureau de Vérification du domaine"*، التى قدمها السيد نويل دى فرجيه (*Journal Asiatique* ١٨٤٥، ص ٣٤٠) حينما نقل فقرة من الوثيقة المذكورة التى ترجع لعام ١١٤٩، تعليقاً على وثيقة عام ١١٨٢، التى نشرها. ومكانة هذا العالم الفرنسى، الذى أسفنا كثيراً لوفاته، لها ثقلها الكبير، لأنه كان يعرف العربية بشكل جيد؛ ويعرفها أكثر منه ومنا جميعاً السيد كوسان دو بيرسيفال، الذى استشاره فى دراسته تلك بشأن وثيقة موريالى العربية التى ترجع

اللاتينية المتأخرة باسم *Dohana de Secretis*(1) للسبب ذاته الذى من

لعام ١١٨٢ . ومن الواضح أن هذين الرجلين العالمين أعطيا لاسم المفعول «معمور» معنى الاسم «*colto*» مزروع» مثلما اتخذته بالضبط هذه الكلمة فى الإيطالية؛ ولما كان الأمر يتعلق كما هو واضح بممتلكات أميرية، فإنهما ترجماها إلى *domaine*. أما فيما يتعلق بأداة تعريف الاسم «تحقيق» فإنهما عداها للإضافة *appositivo* كما يقول النحاة. وهكذا فإن الترجمة ستكون مطابقة جداً كالآتى: «مكتب تحقيق الأراضى المزروعة *i colti*» أو بمعنى أصح «الحيازات الثابتة»، لأن كلمة «معمور» يمكن أن تنطبق على أى أرض استثمرها الانسان بجهده، بأعمال الزراعة أو الصنائع.

إلا أن أخبار الإدارة العامة فى مصر فى العصور الوسطى، التى قمت بدراستها، تؤدى بنا إلى تفسير يختلف عن ذلك. أولاً، فى **تاريخ بطاركة الإسكندرية** وهو عمل يرجع للقرن الثالث عشر، مخطوط عربى فى باريس، *Ancien fonds 140*، ورد فى ص ٤٠٠، «ديوان الخزانة المعمورة»، أى «مكتب الخزانات *forzieri* المعمورة، وفى ص ٤٠٧، ورد «بيت المال المعمور»، أو الخزانة (بمعنى خزانة الدولة)؛ ومن الواضح، فى هاتين الحالتين، أن هذا اللفظ الأخير، الذى استخدم سواء بالمذكر أو بالجمع غير القياسى، فى المؤنث، صفه مبنية للمجهول، تعنى كما نقول نحن، «الزاخر، الممتلئ»؛ كان يقال ذلك فى استخدام لصيغة متعارف عليها عند الحديث عن الدخول العامة، للتمنى، أن تكون دائماً وفيرة، أو على الأصح دعوة لله بان يزيدها باستمرار. ويورد مخطوط **بطاركة الإسكندرية** ذاته، فى ص ٢٢٤ عبارة «ديوان التحقيق» دون إضافة أخرى ودون تفسير لنوعيته. ولكننا نعلم ذلك جيداً من المقريزى، حينما نقرأ فى «**كتاب المواعظ**» (وصف مصر) النص العربى، بولاق، ١٢٧٠ (١٨٥٣)، الجزء الأول، فى تقديمه معلومات عن الوظائف التى أسسها الخلفاء الفاطميون، ص ٤٠١ ما كتبه عن أن «وظيفة ديوان التحقيق كانت التحقيق بشأن كل الدواوين الأخرى»، وبالتالى فإن كلمة تحقيق، يجب أن ترجم بمعنى تحقق ومضاهاة: ولفظ «معمور» يتطابق مع معنى «ملكى وعام»، ولا شئ أكثر من ذلك. وكانت تلك الوظيفة فى بالرمو هى الخزانة الملكية، أو *Controleria*، كما كان يقال فى وقت من الأوقات بلفظ فرنسى، وكانت تحتفظ بملخص، أو ربما بنسخة مكررة من السجلات التى نعرفها لكل الممتلكات العامة، إقطاعية كانت أو أميرية، والسجلات الخاصة، بلا شك، بأى دخل آخر وبجميع النفقات التى لم تصلنا عنها أية معلومات. ويلاحظ فى وثيقة موربالى المذكورة والتى ترجع لعام ١١٨٢. (*Journal Asiatique*. اكتوبر ١٨٤٥، ص ٣١٨) أن المكتب نفسه قد ذكر باختصار «الديوان المعمور» أى «المكتب الزاخر، الممتلئ»، وأيضاً الخزانة الملكية. ويلاحظ الشئ نفسه فى وثيقة عام ١١٧٢، فى كتاب جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٥٦، وفى قائمة للفلاحين عربية - يونانية وغير منشورة من كنيسة كتانيا، ممهورة بتوقيع الملك روجيرو، ولدى منها نسخة. وفى وثيقة عربية لم تنشر فى *Magione di Palermo*، بتاريخ ١١٦١، كان قصر «الحلقة» فى بالرمو يسمى القصر المعمور: وفى معاهدة سلام أبرمها قلاوون مع ملك صقلية، فى كتابى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٤٩، كانت مكاتب ضرائب السلطان تسمى الديوان المعمور.

(1) اقرأ لدى جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الرابع، الهوامش ٤ و ٥ و ٦ و ٧، الأمثلة القديمة لهذا الاسم اللاتينى التى تضاف إليها *Doana Secretie*،

أجله سمى فى موضع آخر كُتّاب الأوراق الرسمية أمناء السر. وتبرهن على هذا الأصل الإسلامى تسمية المكتب وتسمية أدواته. مثل الدفاتر *defetarii*، التى يذكرها فالكاندو، ونجد تأكيداً عليها فى الوثائق؛ ولكن كان هناك جدل كبير حول ما تحتويه ومن أين جاء ذلك اللفظ(1). ودفاتر هى الجمع العربى لكلمة دفتر، وهى نقل صوتى خالص لكلمة διφθέρα «جلد» «ورق مخطوط»(2): وهى من الكلمات التى لابد وأن استعارها العرب من اليونانيين، سواء فى الشرق أو فى صقلية، وعند رحيلهم عن الجزيرة، أعادوها لنا محورة حسب لسانهم. وبالتالى فإن الدفاتر كانت كتب مكاتب الإدارة وسجلاتها. وعلى الرغم من أنه لم تصادفنى تسمية أخرى خاصة سوى «دفتر الحدود»، أى «سجل الحدود»(3). فمن المحتمل أنه كانت توجد أشكال

طبقاً لوثيقة عام ١١٧٢ فى، *De Supputandis*. ص ٥٦. وقد كان ذلك الاسم يلخص أحياناً، على سبيل الكتابة، فى لفظ واحد: دُوان *doana* أو دُجان *dogana*، إلخ ولا حاجة بنا بعد ذلك لأن نذكر أن هذا اللفظ، المستخدم بالمعنى اللصيق فى أوربا، هو بالضبط اللفظ العربى أو بمعنى أصح الفارسى «ديوان». وبينما كان يستخدم فى صقلية، على الطريقة العربية للدلالة على كل مكتب عام، كان الإيطاليون فى بر إيطاليا يقصرون استخدامه على ما نطلق عليه اليوم جمرك، لأن مكتب ضرائب دخول البضائع كان المكتب الوحيد أو الرئيس، الذى يتعامل من خلاله تجارنا مع الدول المسلمة المطلة على البحر المتوسط.

(1) راجع جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الثانى. الفصل الرابع، ملحوظة ٢٣، الذى لم يتنبه لهذا الأصل اليونانى، كما سخر ممن سبقوه. وعلاوة على ذلك، وباعتماده فقط على واقعة كاتب السجلات ماتيو، فإنه أنكر أن دفاتر البلاط الصقلى كانت تحتوى على سجل المساحة. وهو الأمر الذى أثبته بوضوح تلك المراجع التى ذكرها هو فى الهامش ٤ من الفصل نفسه.

(2) إريكو إتيين، *Thesaurus*. طبعة هاس، تحت مادة διφθέρα.

(3) فى الوثيقة العربية التى تحمل تاريخ ٥٤٤ (١١٤٩ - ١١٥٠) لصالح دير سانتا ماريا دى جورجورو، وهو يسمى اليوم ديلاجراتسيا. بالقرب من بالرمو، نقرأ أن حدود بعض الضياع الصغيرة المخصصة لفلاحى الكنيسة المذكورة من قبل مندوب عن الحكومة كانت مسجلة فى «دفتر الحدود» بديوان تحقيق الخزانة. وهذه الوثيقة التى ذكرها جريجوريو، *De Supputandis*، ص ٢٨، ملحوظة *a*، نشرها بعد ذلك الأستاذ كاروزو فى *Biblioteca Sacra*. المجلد الثانى، ص ٥٨. وهناك وثيقة ترجع لعام ١١٦٩، فى كتاب بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٧، نقل بها خاتم (وثيقة) الكونت روجيرو لصالح

مختلفة منه، كما اعتاد المسلمون حقيقة، وأنه فى مجموعة من تلك السجلات كانت أيضاً مدونة حقوق الدولة على كل فئة من السكان فى كل أرض؛ وهى الحقوق التى كانت تحصلها الخزانة العامة عندما كانت الأرض تعد ضمن الأملاك الأميرية، وكانت تنتقل إلى البارونات عندما كان يتم التنازل لهم عنها. ويمكن أيضاً أن نتصور، تصوراً قائماً على أساس، وجود سجلات للأملاك الخاصة(1). وقد

دير سان ميكيلى أركانجلو فى ترايينا، تضيف أيضاً:

Solam enim divisionem prædictam casalis Buscenicæ in fine sigilli denotatum, quoniam totaliter literæ deletæ erant et non poterant clare legi, transcripsit ex quinternis magni secreti in quo (sic) continentur confines Siciliæ, ut certe habeas in futurum, etc.

وتبرهن أيضاً على ما خلصتُ إليه وثيقة موريالى التى ترجع لعام ١١٨٢، التى لم ينشر نصها بعد، والتى نشر ترجمتها اللاتينية المعاصرة والرسمية، نشرها ديل جوديتشى. وهذه تقول فى نهايتها: *Has autem divisas predictas a deptariis nostris de saracenico in latinum transferri precipimus* بينما نقرأ فى النص العربى أن الوثيقة قد نسخت من دفتر «ديوان التحقيق المعمور». ويلاحظ أن وثيقة عربية - يونانية ترجع لعام ١١٥١، لم ينشر منها الجزء العربى، ونشر سباتا الجزء اليونانى منها، *Cimelio del Monastero di Morreale*، بالرمو، ١٨٦٥، فى ١٢، ص ٥٩، والصفحات التالية تحتوى على أسماء الفلاحين وكذلك على حدود الضيعة. وبالمثل فى وثيقة عربية أخرى فى موريالى لم تنشر وترجع لعام ١١٧٨، وهبت بموجبها لكنيسة موريالى ضيعات فى كورليونى وفى كالاتراسى، أمر الملك «ديوان التحقيق المعمور» أن يستخرج من دفاتر الديوان ومن الجرائد القديمة (السجلات أو القوائم) حدود الضيعات وأسماء الفلاحين.

(1) هناك وثيقة عربية من كنيسة بالرمو تقود إلى تصور أن الممتلكات الخاصة كانت هى الأخرى مسجلة فى سجل المساحة «بمكتب تحقيق الخزانة». وقد قام نيقولو عسكر وهو من رجال القصر المعمور (الحلقة، القلعة الملكية الصغيرة) قام بشراء بيت فى بالرمو من أملاك زينب ابنة عبد الله الأنصارى، يقع فى كسارو القديمة بالمدينة، بالقرب من باب السودان. ولأننى أتشكك فى قراءة النص العربى أنحى جانباً، اسم القاضى واسم الديوان اللذين صرحاً بهذا البيع، بعد أن تحققا من أن المال يلزم تلك السيدة للتحرر من أيدى بعض الأجانب من الروم الذين كانوا قد أخذوها (عساهم من اللومبارد؟). وعندما نأتى لموضوع بحثنا، الاحظ أن نقل الملكية كان مسجلاً فى دفاتر الديوان المعمور، كما نقرأ فى نهاية الوثيقة. وعقد البيع مؤرخ فى ٢٠ سبتمبر، المقابل للشهر العربى شعبان من عام ٥٨٧» (١١٩١) وكان التسجيل فى مكتب تحقيق الخزانة، فى العاشر من أكتوبر (هكذا أقرأه) من الخمسعشرية التاسعة.

والكل يرى أن لفظ «المعمور»، فى الموضعين المذكورين، يطابق لفظ «ملكى» على وجه التحديد، كما قلنا منذ قليل ص ٣١٨، هامش ٣. وقد

أعيد نظـام السجلات العينية. ويتضح هذا من أوراق القرن الثانى عشـر، وربما تم تحسينه فى عهد الملك روچـيرو؛ الذى لم يحـالِ به كتاب جوليلمو الفاتح *"Doomsday book"* ، كما تخيل البعض(1): فقد أخذ هذا النظام تركة من الكونت الأول، ومن الحكم الإسلامى وربما أيضاً من الحكم البيزنطى.

ويبدو ان الكونت قد استعاد للأملاك الأميرية كل الحيازات والحقوق التى اغتصبت منذ وقت طويل: فنقرأ فى التنازل الإقطاعى لمدينة كتانيا (١٠٩٢)، أنها منحت للأسقف «مع جميع توابعها. وممتلكاتها ودخولها. كما كانت فى حوزة السراسنة عندما عبر النورمان للمرة الأولى إلى صقلية»(2) كما منحه أيضاً «السراسنة الذين كانوا يسكنون كتانيا فى ذلك الوقت، وأبناء سراسنة كتانيا نفسها وآتشى، الذين ولدوا فى أنحاء أخرى من صقلية لجأ إليها آباؤهم خوفاً من النورمان». وأوضح تفسير لهذه الكلمات قد يُرجع الاسترداد إلى ما قبل ذلك بثلاثين عاماً (١٠٦١)؛ وإلا فإننا لن نفهم جيداً ما هو مبدأ القانون العام أو ما هى الجدوى التى املت على الغازى ذلك التحديد الزمنى. هل كان ابن الثمنة قد قدم الولاء

نشر جريجوريو معظم هذه الوثيقة، مع الكثير من الأخطاء. *De Supputandis*، ص ٤٠ والصفحات التالية. وقد حصلت من الأستاذ كوزا على نسخة جيدة مأخوذة عن النص الأصلى. ويتعين على فى الوقت نفسه أن أنبه إلى أن وثائق البيع الأقدم من ذلك، التى لدينا منها النص العربى، لاتبدو مسجلة فى مكتب التحقيق. فهل كانت هذه بالتالى من مستجدات السنوات الأخيرة من حكم جوليلمو الثانى، أم كانت من الشكليات التى اعتاد الناس إهمالها، عندما لا يقع العقد، كما فى هذه الحـالة، فى أيدى موظف عام؟ وعلى أى حـال تبدو دفـاتر الحـدود، او *quinterni magni Secreti*. سجلات مساحة حقيقية تتعين فيها حدود كل ضيعة، وليس فقط أراضى كل بلد او إقليم.

(1) بهذا الافتراض يبدأ جريجوريو الفصل الرابع المذكور من الكتاب الثانى من *Considerazioni*.

(2) وثيقة فى كتاب بيرّو. *Sicilia Sacra*. ص ٥٢٢. ويلاحظ أن هذه الوثيقة مكتوبة أصلاً باللاتينية، ومن هنا فإن التعبير الذى يتكرر مرتين وهو *quando Northmanni primum transierunt in Siciliam* لا يمكن أن يكون خطأ فى الترجمة.

الإقطاعى إلى روجيرو أو إلى روبرتو عام واحد وستين؟ أم أنه اتفق على ذلك الحد الزمنى فى تسليم كتانيا للنورمان؟ إن الافتراض الأول يبدو لى غير قائم على أساس: والآخر لا أساس له بالمرة: وأعتقد أن هناك افتراضاً ثالثاً معقولاً: أى ان العبور الذى يشير إليه، كان عبور الفرقة النورمانية تحت راية منياتشى عام الف وثمانية وثلاثين. فى ذلك الحين، وبعد أن احتل المسيحيون صقلية الشرقية كلها، هاجرت دون شك عائلات كثيرة جداً إلى الأقاليم الغربية. وبعد عامين، وبعد أن مزقت الفوضى صقلية وبعد ظهور حكام الدويلات، كانت الأملاك المخصصة للصالح العسكرى قد احتلها بالطبع هذا أو ذاك، وكانت تمثل جزءاً أساسياً للغاية من الدخل العام وكانت لب الخلاف فى الجزيرة، كما فى أية دولة إسلامية. ومن المحتمل إذن أن يكون المنتصر، بعد أن توفرت له القدرة عن حق، قد وضع الفأس على أصل الشجرة، بدلاً من التسامح فى امتيازات حكام الدويلات الذين حاربهم من قبل وانتصر عليهم واحدا تلو الآخر. ولم تكن هناك خشية من تزايد الكراهية من جراء تجريد شاغلى الأراضى عن غير حق بعد خمسين عاماً بدلا من ثلاثين؛ وربما كانت صعوبة التوصل إلى الضياع المسجلة فى سجلات دواوين الكلبيين فى العاصمة، تقل بكثير عن إمكانية تتبع حال الممتلكات العسكرية، عند بداية الحرب فى كل مركز من المراكز الحكومية مثل: بالرمو، وكاستروجوفانى، وجرجنتى، وسيراكوزا وكتانيا. ومن ناحية أخرى يمكننا أن نتصور عن يقين أن عملية الاستعادة امتدت لتشمل الجزيرة بأسرها، ولكنها بالتأكيد لم تمس الممتلكات، فى الأماكن التى احترمها المنتصر بناء على اتفاق أو بحكم الضرورة.

وكان الكونت يستفيد من الممتلكات الأميرية، كما يفعل أى إقطاعى فى ممتلكاته الخاصة، ويحصل من الفلاحين ومن غيرهم من المستوطنين الضريبة مالاً وغلالا وخدمةً فى الأعمال اليدوية؛ ومن البرجوازيين فى الأراضى والمدن، كان يحصل الرسوم أو الضرائب

والمكاسب على المبيعات الخاصة: وقد تطرقنا لهذه الأعباء عند تناول أحوال الشعب واستندنا فى ذلك إلى جريجوريو(1). ويجدر بنا أن نبقى عند مستوى العموميات: لأن الأدلة التى يقدمها جريجوريو لا تكفى لتغطية التفاصيل كلها. وقد استنتج نظام الأيام الأولى للنورمان من قوائم ما كان يسمى فى منتصف القرن الثالث عشر «الحقوق القديمة»، لاختلافها عن الجديدة التى أمر بها الامبراطور فدريكو؛ ولكننا لا نستطيع الا نفترض أن تجديدات كبيرة للغاية قد حدثت فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. وعلاوة على ذلك اعتمد جريجوريو على وصف تلك الأعباء الذى أجراه أندريا دا إيزرنيا، دون أن يأخذ فى اعتباره أن هذا الفقيه العالم الذى عاش فى القرن الثالث عشر كان يكتب بناء على مذكرات من نابولى ومن صقلية على حد سواء. واعتمد فى النهاية على بعض وثائق القرن الثالث عشر، التى كانت تحصى فيها الدخول العامة الخاضعة للعشور الكنسية: ولكنه لم يتنبه إلى أن رجال الدين كانوا يبالغون أحياناً فى حقوقهم(2). وبالتالى لابد من إجراء دراسات جديدة على الوثائق، المنشورة وغير المنشورة، للتحقق من كل نوع من أنواع الدخل العام فى الفترة موضع البحث. ولكننا فى كل هذا نرى الأمر الذى كان لابد وأن ينشأ الا وهو تطعيم النظام الضريبى الإسلامى بالأساس الإقطاعى: فمن ناحية، كانت هناك حقوق ملكية جديدة ومظالم إقطاعية:

---

(1) انظر هذا الكتاب نفسه، الفصل التاسع، ص ٢٤٦ والصفحات التالية، و٢٥٢ والصفحات التالية من هذا المجلد.

(2) انظر جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، وبصفة خاصة الملحوظة ٢١. ولكن فقرات الأوراق الصقلية التى ترجع للقرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والمنقولة هنا، تجعلنا نشك فى وجود بعض أخطاء فى النسخ. ويجب أن نشك فى وجود خطأ أو مبالغة فى وثيقة ١٢٧٤، حيث ترفع العشر إلى اثنين وعشرين درهماً من الذهب وحبتين عن كل مائة تارى تدخل خزانة الدولة، وذلك عند وصف «الأعشار» «المعتادة» لتحصيلها لكاتدرائية بالرمو عن الجبايات القديمة. ولو كان ذلك صحيحاً فهاله من عُشر ضخم يقل قليلاً عن الربع!

ومن الناحية الأخرى بعض أنواع الضريبة على كل رأس، ومن الناحيتين نجد رسوم الاستهلاك والإنتاج. ونحن نعلم، بشهادة المعاصرين، أن النورمان قد أتوا إلى صقلية، باحتكار الحمامات والمطاحن والأفران والدكاكين أو الحوانيت(1). وقد نشأت حقوق الرعى وجمع الأخشاب وما شابه ذلك من شكل الملكية الجديد؛ وتولدت الدخول القضائية من السلطة السياسية التى أسندت للملاك. وقد استمرت الضريبة المفروضة على الرؤوس على اليهود، وهى التى ابتدعها المسلمون. كما ترجع الضرائب على دخول أو خروج البضائع، والرسوم على تحركات السفن التجارية، وحقوق الصناعات والحرف إلى عهود بعيدة، وقد عدلها المسلمون وزادها النورمان بالتأكيد. ومن المسميات يمكن أحياناً التوصل إلى أصل الضريبة: فعلى سبيل المثال الضريبة المسماة *cabella bucherie* تبدو بالتأكيد نورمانية مثل حق الرحبة وحق

---

(1) انظر الفصل السابق، ص ٢٥٥ هامش ١. يبدو لى من المستحسن أن أشرح هنا لماذا ترجمت اللفظ العربى «دكان» بكلمة *"Canova"* الإيطالية.

وقد كان هذا اللفظ ولايزال يعنى فى مصر والشرق «دكان» بصفة عامة. وهذا ما نراه فى القواميس العربية بما فى ذلك القواميس الحديثة مثل قاموس بقطر وقاموس لان. وكذلك القواميس الإيطالية والعربية المطبوعة فى بولاق. ونرى هذا أيضاً لدى المؤلفين الذين يذكرهم ساسى (*Chréstsomathie arabe*. المجلد الأول، ص ٢٥٢. وترجمة عبد اللطيف، ص ٣٠٢): ونجده فى الحكم والأمثال العربية الحديثة (*Freytag*. المجلد الأول. ١٤١)؛ ولان نفسه (*Modern Egyptians*. الفصل الرابع عشر) والذى يقدم رسماً لدكان فى القاهرة: ويعنى دائماً غرفة أرضية تباع فيها الأطعمة والبضائع الأخرى. وقد سمى هكذا كذلك مكتب الكتبة المسلمين. طبقاً لموضع لدى ابن خلدون، نقله عنه ساسى فى الحاشية (*Chréstom*. المجلد الأول، ص ٣٩ و ٤١).

ومع كل هذا فيجب ترجمة ذلك اللفظ فى حالتنا إلى: *"Canova"* حيث لا يبدو معقولاً أن يحتكر الكونت روچيرو والإقطاعيون التابعون له كل البضائع. ويجب أن يفهم ذلك، فى رأيى، على أن الأمر يتعلق ببعض المؤن (وخاصة الشحوم)، أو ربما تلك التى تباع منها بالقطاعى.

وكلمتنا الإيطالية *"Canovn"* يمكن بالصدفة أن تكون قد جاءت من اللفظ العربى. وترجع إلى «حانوت» الذى يستخدم مرادفاً لكلمة «دكان»، ولكنه يستخدم بصفة خاصة للإشارة للدكاكين التى تباع فيها الخمر. ويرى خبراء المفردات (لين، القاموس، الجزء الأول، ص ٦٦١، العامود الأول). أن ذلك اللفظ كان ينطق فى الأصل حَنْوة. وأخذ الإيطاليون ينطقونه بالتأكيد كُنْوَة. مثلما ينطقون حَمال *"camalo"* وحرّاقة *"cani cca"*.

الحجامة الإسلاميين(1). ثم يجب الا ننسى ان هذه الضرائب

---

(1) بعد ان نترك جانباً قائمة «الحقوق القديمة» طبقاً لأندريا دا إزرنيا، التى نقرأها فى الملحوظة ١٨، من الفصل المذكور لتوه فى *Considerazioni*. وكذلك الحقوق الممنوحة والاغتصابات المحظورة من قِبَل أسقف كتانيا لصالح أولئك المواطنين فى عام ١١٦٨. كما نقرأ فى بداية الحاشية ٢١، سنُدلى ببعض الملاحظات بشأن الحقوق القديمة فى بالرمو ومسينا وجرجنتى وشاكًا وليكاتا، المذكورة فى وثائق ١٢٧٤ و١٢٧٠ و١٢٦٦ و١٢٨٠ و١٣٠٩. وأول الحقوق التى ذكرت فى بالرمو هى حقوق الرهادنة والرحبة؛ ويبدو انهما لفظان عربيان، أحدهما تغير فى النقل وهو (رهائن، فى الجمع بمعنى ضامنون)، واللفظ الآخر بمعنى ساحة (المقريزى، **المواعظ**، النص العربى، المجلد الثانى، ص ٤٧، والصفحات التالية. يذكر خمسين مكاناً فى القاهرة ومصر القديمة تسمى بهذا الاسم). وتعقب ذلك جمارك اللحوم، والأسماك، إلخ. التى يعرفهما الجميع؛ والصباغة: وهناك أيضاً رسوم على الفخرانية والسروجية والحرير وغزل القطن: والزخرفة بالذهب، وسلسلة الميناء؛ وضريبة الدخان (هكذا كانت تسمى فى الإمبراطورية المتأخرة ضريبة على الأشخاص، تقسم على البيوت، أى المواقد، كما سميت فى صقلية)، وحمامات جوهر وجويداً وطواحين كلبى وملفتيرى والقاضى، إلخ. وفى مسينا لا نجد تسميات عربية أخرى سوى ضريبة الزيت المعروفة باسم *Cafiso* (وهو مقياس معروف فى صقلية وهو قفيز العرب) وضريبة *itriarum seu tinctorum*: حيث أميل إلى قراءة *ac* بدلاً من *seu*، لأن الإطرية تعنى بالعربية ضربا من الطعام كالخيوط أو ما شابه ذلك من العجائن ومازال يستخدم فى صقلية تعبير فرميتشيللى إطرية. ثم إن هناك أيضاً «جزية» اليهود وبعض التسميات غير العربية المذكورة فى بالرمو. وفى جرجنتى وفى المدينتين الأخريين فى الإقليم نفسه المذكورتين عاليه، وعلاوة على جزية اليهود وبعض الضرائب الأخرى المشار إليها فى بالرمو ومسينا، نلحظ الضريبة على السكر، وعلى الملح وعلى الحديد وضريبة *cangemie* «الكنجيميه»، واعتقد أن هذا اللفظ لم يتوصل احد إلى أصله؛ ولا يمكن العثور عليه، دون قراءة الأسماء العربية المنقولة إلى اليونانية من جماهير فلاحى صقلية. وفى تلك المحررات صادفت لفظ حَجّام «ذلك الذى يستخدم الكئوس الصغيرة ويمارس الجراحة المتواضعة» (وطبقاً لعادات صقلية فسوف يكون الفصّاد والحلاق): الذى كُتب بالضبط «χατζέμη»، ولكنه نطق على الطريقة اليونانية «كنجيمى»، وهو لقب يستخدم كثيراً فى بالرمو؛ حيث بقى حتى بداية هذا القرن بعض الصيادلة بذلك الاسم الذى لايزال يستخدم. وبالتالى فإن ضريبة الكنجيمية فى جرجنتى وشاكًا تبدو رسماً على الفصّادين: وربما كانت تلك الفئة كبيرة العدد لأن الناس فى العصور الوسطى كانوا يستخدمون كثيراً كئوساً صغيرة لاستخراج الدم. وليبق ما قيل حتى الآن بمثابة عينة للأبحاث التى يمكن ان تجرى حول نظام الضرائب وايضاً حول الصناعات والشئون الاقتصادية بصفة عامة فى صقلية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر: عينة طفيفة للغاية لأنها تقوم أساساً على الفقرات القليلة التى قدمها جريجوريو، حيث نشك مع ذلك فى صحة قراءة كلمات كثيرة. كما لا يجب ان أغفل ذكر السيد لودوفيكو بيانكينى الذى عالج ايضاً هذا الموضوع فى

ربما كانت تختلف فى النوع والكم من أرض لأرض وإن كانت من الناحية النظرية تخص كلها الأمير، مثلها مثل الأراضى غير الخاصة، إلا أنه لم يكن يستفيد منها إلا فى بلاد الأملاك الأميرية، بينما كان يستفيد منها فى المدن والأراضى الممنوحة الإقطاعيون. وقول جريجوريو بأن ما نسميها الآن بالحقوق الجمركية، كان الأمير يقوم على الأقل بتحصيلها بكل مكان(1) لا أجد من الأحداث ما يدعمه، ولا أجده يتواءم مع القانون العام فى ذلك الوقت.

ومن المؤكد أن ضريبة عامة، أو جماعية؛ كانت تفرض أيضاً على الإقطاعيين فى الحالات الإقطاعية الأربع المعروفة: وهى وإن كانت غير مذكورة فى المذكرات المتوفرة لدينا من عهد الكونت الأول، إلا أننا يجب أن نستنتج وجودها، عندما نرى أن روبرتو جويسكاردو قد رفعها فى أرض إيطاليا وفى بالرمو(2) ثم تبعه فى ذلك الملوك النورمان فى أنحاء صقلية كلها(3). وكان عاما أيضاً حق البحرية، الذى كانت تقوم عليه صيانة الأساطيل: إلا أن البلديات، على ما يبدو، هى التى كانت تساهم فيه، أكثر من الإقطاعيين، وهذا فى مقابل الخدمات العسكرية(4). وعلى الرغم من أن تجارة القمح لا تظهر فى أية وثيقة فى تلك الحقبة، فإننى اعتقد بشدة أنه يجب أن يضاف إلى الدخول المذكورة قبلاً وأن يعد دخلاً أساسياً جداً من دخول الكونت روچيرو، كما كانت لخلفائه من بعده الدخل الناتج عن تجارة القمح. ونحن نعرف من كتب الحوليات الإسلامية عن المجاعات المخيفة التى عانت منها

كتابه *Storia Economico-civile di Sicilia*، بالرمو، ١٨٤١، الجزء الثالث، الفصل الأول: ولكنه لا يضيف الكثير على ما جاء به جريجوريو.

(1) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع. كان جريجوريو يرى وضع كتانيا وباتى وضعا استثنائيا، وذكرهما فى الملاحظتين ١١ و١٢: ولكن يبدو أن العكس هو الصحيح.

(2) انظر ما رويناه فى هذا الكتاب الخامس، الفصل الخامس، ص ١٤٤ و١٤٥ من هذا المجلد.

(3) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الخامس.

(4) المرجع السابق، الكتاب الثانى، الفصل الرابع.

أفريقية فى ذلك الوقت(1)، مع استمرار وجود السبب الأساسى لذلك: أى وجود جماعات نهب من عرب مصر أدوا إلى تدهور أحوال الريف باجتياحهم له حتى إنهم عرقلوا أى نوع من أنواع الزراعة(2) فيه لقرون عديدة. ونحن نعلم من إحدى الحكايات التى رويت عن الكونت روجيرو مدى اعتماد الحكومة فى صقلية على تجارة الغلال مع أفريقيا؛ ولن يكون الأمر بعيداً عن الحقيقة، إن كانت الرواية تتعلق بالنصف الأول من القرن الثانى عشر. بدلاً من النصف الثانى من القرن الحادى عشر(3). وقد لا يمكن فى الحقيقة تصديق ذلك الصبر المتبادل بين الزيريين وآل هوتفيل فى الإبقاء على السلام خلال الثمانى عشرة سنة الأخيرة من الصراع الدموى الذى خاضته المسيحية ضد الإسلام فى صقلية(4)، حتى إن افترضنا أيضاً وجود حكمة خالصة وتقدير مجرد للمصالح السياسية لدى الطرفين: ولكن هذا سيبدو طبيعياً وضرورياً، إذا خلصنا إلى أن الكونت روجيرو كان يرسل الغلال لبيعها فى المهدية، وفى تونس، وفى مدن الساحل الأخرى، كما فعل روجيرو الابن بعد وفاته بخمسة عشر أو عشرين عاماً: وقد فتحت تجارة الغلال هذه الطريق أمام عمليات الملك فى أفريقية، وجعلت أمراء تونس لقرنين من الزمان تابعين لأمراء صقلية، كما سنقول فى الكتاب التالى. وبهذا تظهر تجارة الغلال منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر مصدراً وفيراً للغاية من مصادر الدخل للخزانة الصقلية ونلحظ بعض آثار هذا

---

(1) حدثت إحداها فى عام ١٠٩٨. ويشير إليها ابن الأثير، عام ٤٩١. النص، طبعة تورنبرج، المجلد العاشر، ص ١٩١.

(2) انظر كتابنا الرابع، الفصل الخامس عشر، ص ٥٥٨، من المجلد الثانى، والكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٨٧ ـ ٨٨، من هذا المجلد.

(3) انظر هنا عاليه الفصل السابع، ص ١٨٩ و١٩٩.

(4) انظر الأحداث المروية فى الفصل السادس، من هذا الكتاب الخامس، ص ١٦٠ و١٧٠. آخر مواجهة بالسلاح بين روجيرو والزيريين نشبت فى عام ١٠٧٥ كما نقرأ بالتحديد فى الفصل السادس، ص ١٥٤.

فى بداية القرن الثانى عشر(1). إن الدوافع كلها تؤدى بنا إلى افتراض أن الكونت روجيرو قد بدأها أو ربما واصلها فى كل مدينة بحرية فى صقلية، بمجرد أن استقرت سيادته عليها: ومن الطبيعى أن يكون قد حقق منها مكسباً مزدوجاً: أى الحصول على مبالغ كبيرة من المال أو على كميات عينية عند خروج غلال الآخرين، وفى الوقت نفسه، وبعد أن يزيد بهذه الطريقة سعر البضاعة، كان يرسل ليبيع فى بلاد أخرى الغلال الذى يمتلكها والتى جمعها من حصته من أملاكه الأميرية أو خصما من ضريبة خروج الغلال نفسها. وإذا سلمنا بهذا المصدر، فلن يدهشنا ثراء الغازى الذى لا ينفد.

وبعد الضرائب تأتى الخدمات، التى كانت تمثل جانباً كبيراً من الأعباء العامة فى الولايات الإقطاعية؛ ويمكن أن تنقسم إلى خدمات سلم وخدمات حرب. وقد تناولنا النوع الأول، أى تناولنا أيام العمل فى الحقول، والنقل والعمل اليدوى فى عمليات البناء وما شابه ذلك من جهد: ولا يتعين أن نضيف شيئاً آخر، حيث إن هذه الالتزامات متشابهة فى الأراضى الأميرية والإقطاعية(2). وكان البارونات فى صقلية يقومون بالخدمة العسكرية فى الأرض أسوة بأية ولاية إقطاعية أخرى، كما نقرأ ما كتبه جريجوريو(3). ولكننا نلاحظ أن الإقطاعيات الكنسية لم تعف فى عمومها كما كان يقول: من الخدمة العسكرية، ولكن استثنى البعض منها كما استثنيت بعض المدن. وتبرهن

---

(1) نستنتج أنها كانت تصل إلى ثلث القمح المصدر وأن الامبراطور فدريكو خفضها إلى الخمس. وفى وثيقة ذكرها جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الثالث، الفصل السادس، ملحوظة ٣١. وطبقاً لوثيقة يونانية ترجع لعام ١١١٧، فإن الكونت روجيرو الثانى، منح قنصل جنوة فى مسينا إعفاءً لتصدير البضائع حتى ٦٠ تارياً. الترجمة اللاتينية فى كتاب جريجوريو، *Considerazioni*. الكتاب الثانى، الفصل التاسع، ملحوظة ٣. وهذا دليل بالتأكيد على استخدام رسوم التصدير ومن المحتمل جداً أن يشير إلى الرسم المفروض على الغلال.

(2) تحدثنا عن هذا فى الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٢٤٧. راجع جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الخامس.

(3) *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الثانى.

الأحداث التى رويناها، علاوة على ذلك، كيف كان الكونت يدعو مسلمى صقلية(1) أحياناً إلى الحرب؛ وقد اتبع هذا المثال الملوك من سلالته ومن الأسرة الزفيقية. ومن المحتمل أن يكون المسلمون قد كونوا جيشاً يقوده قادتهم(2)، ويعيشون على نفقة الأمير أثناء العملية ويكافأون بالغنيمة. وجدير بالذكر فى النهاية أنه كانت للكونت فرق من المحاربين المرابطين الذين كانوا يتقاضون رواتب، وأنه كان لخلفائه أيضاً فرق من المسيحيين والمسلمين.

أما عن السفن الحربية الصقلية فى نهاية القرن الحادى عشر فلم تبق لنا أية مذكرات عنها. بل إننا يمكن أن نتصور، أن وضعها قد تدهور كثيراً، إن لم تكن قد دمرت، حيث إننا نخلص إلى أن رجال الأسطول، قد لجأوا إلى افريقية(3) نحو عام ألف وثمانية وستين تقريباً وذلك بسبب الحروب الأهلية، وأن القوات البحرية عملت قليلاً فى الدفاع عن بالرمو عام ١٠٧١، على الرغم من أن ذلك الميناء كان فيما سبق الميناء الحربى الكبير لمسلمى صقلية(4). ومع ذلك، فإن كان إنشاء أسطول حربى يتطلب حقيقة وقتاً ونفقات واهتماماً كبيراً جداً. فلابد أن الكونت روچيرو قد استخدم فى إعادة الأسطول الصقلى الوحدات الطيبة من سفن بوليا وكلابريا التى اثبتت كفاءة فى حصارى بارى وبالرمو واستخدمها روبرتو فى حرب اليونان؛ وهى الوحدات التى وفق فى دمجها مع وحدات أسطول المسلمين. لأن نورمان صقلية كانوا يتنافسون فى البحر مع الجمهـوريات البحـرية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر؛ ومنذ عـام ١١١٣ عندما ذهبت أديلايدى، ارملة الكونت، إلى عسقلان للزواج من بالدوڤينو ملك أورشليم، كانت تصحبها تسع سفن حربية صقلية، من بينها اثنتان تحمل كل منهما خمسمائة

(1) فى هذا الكتاب الخامس، الفصل السابع، ص ١٨٥ والصفحات التالية.
(2) الفصل التاسع، ص ٢٦٢ و٢٦٥ من هذا المجلد.
(3) الكتاب الخامس، الفصل الرابع، ص ١١٦ و١١٧ من هذا المجلد.
(4) الكتاب الخامس، الفصل الرابع، ص ١٢٩ من المجلد.

رجل؛ وكانت السفن الأخرى تتلألأ بالذهب، والفضة والأرجوان، وكان المحاربون يرتدون ملابس ثمينة ودروعاً غالية الثمن، ناهيك عن الكنوز المنتشرة فى جوانب سفينة أديلايدى، وعن صفوف القواسة المراسنة بثيابهم البهية، الذين كانت تحملهم هدية لعريسها(1). ويبرهن حجم المراكب وفخامتها على أن صقلية عادت تمتلك أسطولاً جديداً قوياً.

ويمكننا أن نتخيل تشكيله، حين نربط بين الأخبار التى لدينا عنه فى العصور اللاحقة، مع الأخبار التى نستخلصها من العصور السابقة عن الأسطول البيزنطى وأسطول المسلمين(2). ونحن نعلم عن الأسطول الأول أنه كان من نوعين، أى الملكى والإقليمى، وهو ما يعنى أنه كان يزود ويسلح على نفقة مدن بعض الأقاليم. هكذا نقرا فى كتاب الامبراطور ليونى *Tattica*(3). وتبين أحداث شغب روسانو التى اشرنا إليها مدى الضجر الذى كان يسببه للسكان تجهيز السفن هذا(4)؛ وقد وجدنا أيضاً تأكيداً لذلك عند ابن حوقل، رحالة القرن العاشر الشهير، حينما كان يصف البلاد البحرية فى آسيا الصغرى وأنواع السفن الحربية التى كانت تجهزها الامبراطورية البيزنطية، ويقول إن النفقات كانت واجبة على كل ضيعة قريبة من البحر «فيأخذون من كل دخان، اى من كل بيت»(5). ولكن ما أن جاء

---

(1) البرتو دايكس. *Historia Hierosolymitana*. الكتاب الثالث عشر، الفصل الثالث عشر، فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.*، ص ٩٢١.

(2) جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الثانى، الفصل الرابع، يرى تقليد النموذج الانجليزى أيضاً فى تكوين الأسطول الصقلى فى القرن الثانى عشر.

(3) *Leonis Tactica*. الفصل التاسع عشر. انظر أيضاً الترجمة الفرنسية لمايزيروا، باريس ١٧٧٨، ص ١٤٦. ورد ذكر أساطيل مختلف الأقاليم هذه، فى العديد من الأحداث التاريخية البيزنطية حتى أنه لا يتسع المجال لذكرها.

(4) الكتاب الرابع، الفصل السادس، ص ٢١٨، من المجلد الثانى.

(5) مخطوط عربى فى باريس، *Supplément arabe*. ٨٨٥، الورقة ٩٤ الوجه الثانى. استخدمت كلمة «قرى» لترجمة لفظ «ضياع» التى تعنى بالضبط: «ضيعة أميرية، للصالح العربى» (انظر كتابنا الثالث، الفصل الأول، ص ٢٥، من المجلد الثانى). ولكن

المسلمون إلى البحر المتوسط، حتى كونوا بالضرورة قواتهم البحرية، كما استخدموا بالضرورة الأنظمة والرجال الذين حافظوا عليها لدى الشعوب المهزومة(1). لذا نرى فى أساطيلهم سفناً أرسلتها مختلف المدن. ويروى لنا كاتب قديم ذكره المقريزى أن معظم سفن الحرب فى مصر، فى عصر الخلفاء الفاطميين، كان يوفرها حكام الأقاليم وكانت رواتب رجالها تدفع من «ديوان التسليح البحرى» مع رواتب رجال السفن الملكية؛ وأن كل إقليم كان له علاوة على ذلك اسطوله الصغير(2). ونحن نعلم من ابن خلدون أن اسطول الخلفاء الأمويين فى أسبانيا، الذى وصل أحياناً إلى مائتى سفينة، قد تم جمعه من جميع موانئ المملكة، وكان كل ميناء يمده بما لديه من سفن(3). وها هو يظهر من جديد فى صقلية ما يشبه هذا النظام،

الضريبة على كل «دخان»، هكذا يقول النص، اى بيت، تؤدى إلى المعنى الذى اوردته أنا. ولقد ذكرنا لتونا الضريبة المسماة بضريبة الدخان فى صقلية فى القرن الثانى عشر. انظر دوكانج، *Glossario latino*، تحت مادة *fumagium*، وما شابه ذلك، و*Glossario greco*، تحت كلمة ، [illegible] وشيدرينو، طبعة بون، المجلد الثانى، ص ٨٣١.

(1) ابن خلدون، *Prolégomènes*. الترجمة الفرنسية، البارون دى سلان، الجزء الثانى، ص ٣٩.

(2) المقريزى، كتاب المواعظ. (وصف مصر) النص العربى، المجلد الأول، ص ٤٨٢ و٤٨٣.

(3) على الرغم من أننى اعد السيد دى سلان أستاذى فى العربية، فإننى لا استطيع أن اقبل ترجمته لهذه الفقرة من المقدمة، *Prolégomènes* ، الجزء الثانى، ص ٤٠.

"Elle se composait de navires qu'on faisait venir de tous les royaumes où l'on construisait des bâtiments. Chaque navire était sous les ordres d'un marin portant le titre de *caid*, qui s'occupait uniquement de ce qui concernait l'armement, les combattants et la guerre; un autre officier, appelé *le raïs*, faisait marcher le vaisseau, etc".

وطبقاً للنص العربى، طبعة باريس، الجزء الثانى، ص ٢٥، وبولاق، ص ١٣٢، فإننى أرى ترجمتها كالآتى. «كان الأسطول (الاسبانى) يجمع من المملكة كلها. وكان كل بلد يمول بالملاحة ياتى منه اسطول صغير، يقوده «قائد»، بحار يعنى بشئون الحرب، والأسلحة والمقاتلين ورئيس (ملاح)، كان يعنى بالملاحة، إلخ». والفارق بين الصيغتين هو اننى اقصد «أقاليم» اسبانيا فى مقابل اللفظ الذى جاء به دى سلان وهو *"royaumes"* وبدلاً من لفظ اسطول ([illegible]) أعطى المعنى العادى وهو *armatetta* اسطول صغير، فى حين أن السيد دى سلان يترجمها *navire*. وفى الواقع، كلمة مملكة، التى

إلى جانب الأسطول الذى أخضع ساحل افريقيا واجتاح جزر اليونان (١١٢٣ - ١١٥٤) ويتمثل هذا النظام فى: «حق البحرية» الواجب على السكان اللومبارديين(1)؛ والمائتان وخمسون بحاراً الذين كان يجب أن تقدمهم بلدية كالتاجيرونى، والمائتان وستة وتسعون المطلوبون من بلدية نيقوسيا، الممتدة بين المرتفعات مثل تلك المدينة الأخرى؛ والعشرون بحاراً المطلوبون من أسقف باتى(2). وتظهر شوانى مختلف المدن وهى تحارب ضد أسطول الأنجويين نحو نهاية القرن الثالث عشر(3). وسوف نرى، فى الكتاب التالى، الدور الذى لعبه بعد ذلك المسلمون أثناء القرن الثانى عشر فى أساطيل صقلية.

وهناك سـيكون حـديثنا عن تلك الأمـور الخـاصة بالتحضر

استخدم المؤلف جمعها هنا، تعنى *reame* وايضاً «جزءاً من مملكة»: وعلى اية حال، ففى زمن ابن خلدون، قد اصبحت ممالك حقيقية تلك التى كانت مجرد اقاليم تحت حكم الأمويين. ومن ناحية أخرى، قد لا يفهم كيف يجهز خليفة اسبانيا سفنه «فى كل ممالك» البحر المتوسط والمحيط، التى كانت كلها معادية؛ ولا كيف يجمع أسطولاً من مائتى مركب، بأخذ «سفينة» من كل بلد يعنى بالملاحة فى إسبانيا. وأضيف أن ابن خلدون، فى مواضع كثيرة فى أعماله، يعنى باسم أسطول المعنى العادى وهو عدد من السفن أو «أسطول صغير، وليس سفينة واحدة». هكذا كان استخدامه فى **المقدمة** نفسها، الجزء الثانى، ص ٣٧ من نص باريس وفى فقرات أخرى للمؤلف ذاته، جمعتها أنا فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٤٨٦ و٤٨٧ و٤٨٨ إلخ.

(1) انظر هنا عاليه فى ص ٢٧٨، هامش ٢ و٣، والفصل الثامن، ص ٢٢٣، هامش ٥. فى وثيقة حروت لأرخمندريتس مسينا، بتاريخ ١١٣٠، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص٩٧٣، بالعامود الأول، نقـرأ عـن ضـيعة منحـت للأرخـمندريتس *cum terris, preeminentiis et datium marinariorum qui cum eo habitant*. وهذه ترجمة عن اليونانية. ولا أرى فيها ما إذا كان الأمر يتعلق بالضريبة الخاصة بالبحارة والواجبة على السكان أم الضريبة المفروضة على البحارة الذين كانوا يقيمون فى تلك الأرض. وهناك وثيقة ترجع لعام ١١٩٧، المرجع السابق، ص ١٢٨٩، ترجح الاحتمال الأول على الثانى.

(2) وثائق فى كتاب جريجوريو *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الرابع، الحاشية ١٥.

(3) انظر الفصلين العاشر والثالث عشر من كتابى *Guerra del vespro Siciliano*، حيث تذكر فى معركة خليج نابولى فى عام ١٢٨٧، شوانى ميلاتسو وليبارى وترابانى وسيراكوزا وكتانيا وأجوستا وتاورمينا، وتشيفالو وإيراكليا وليكاتا وشاكّا.

التى يمكن أن نرجعها إلى عصر الكونت الأول، وإن ظهرت فى ممالك خلفائه . ولما كانت الفترة التى درسناها فى هذا الكتاب وجيزة ودامية فلم تترك مجالاً لفنون السلم، ولم تسمح بذكر ما كانت تحكم به الطبيعة البشرية والتعايش الاجتماعى من فنون تمارس أيضاً وسط أجواء المذابح والتدمير . غير أننا جمعنا فى الكتاب السابق(1) ذلك الفتات من تاريخ أدب المسلمين الذى كان يمكن أن نرجعه إلى زمن الحرب. ولم يتبق لنا من تاريخ أدب مسيحيى صقلية من آثار سوى المخطوطات والصور وأقل القليل الذى سجله الراهب سكولارو(2). أما الكنائس والأديرة التى شيدها روبرتو وروجيرو، فى مواقع القصور الفاخرة التى دمرت، فقد بليت هى الأخرى بمرور الزمن، مثل وثائقها التى كانت من ورق رقيق وكان لابد من تجديدها خلال نصف قرن؛ أو إن حدث وبقيت بعض أحجارها، فإننا لا نتعرف عليها بين الأبنية الأنيقة التى بناها الملك روجيرو والملك جوليلمو وسميه. ولكننا ذكرنا فى موضعها تلك الذكريات التى ذكرها عنها كتاب الوقائع أو الوثائق.

وقد ذكرنا أيضاً أعمال التحصين، التى كانت تهم المنتصرين قدر اهتمامهم بالمبانى الكنسية على أقل تقدير : فقد قاموا بتدعيم وتحصين قلعة روبرتو وقصره فى بالرمو(3)، وحواجز روجيرو المنيعة فى مسينا(4)، والحواجز التى سارع ببنائها سان چرلاندو بأحجار معابد أجريچنتو(5). ويشير الإدريسى إلى إصلاح مدينة مرسالا وإعمارها، وأظهر أنه لا يجهل أنها شيدت على أطلال ليليبيو وشهد بحدوث تدمير ثان خلال حرب النورمان أو قبل ذلك بقليل. وقد كتب يقول: «إن مرسى على، وهى مدينة قديمة بل

(1) الفصل الثالث عشر، ص ٤٣٩ والصفحات التالية من المجلد الثانى.
(2) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٢٥٧ .
(3) الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ١٤١ إلى ١٤٣ من المجلد.
(4) الفصل السادس، ص ١٦٣ .
(5) الفصل الثامن، ص ٢١٠ .

من أوائل المدن وأشهرها فى صقلية، كانت مهجورة، وبقيت منها بعض الأطلال، عندما أعاد الكونت روچيرو الأول إعمارها بالسكان وأحاطها بالأسوار. وعندئذ امتلأت بالديار والأسواق والمتاجر»(1).

وعلاوة على التحصينات، فإنه يجب أن ننسب بعض الطرق العسكرية للفترات الأولى من حكم النورمان. ومثال ذلك الطريق الذى ذكر باسم «طريق كاسترونوڤو الفرنسى»(2) فى وثيقة من وثائق روچيرو ترجع لعام ١٠٩٦، وتذكر أن الحدود التى خصصها الكونت لأبرشية مسينا تصعد بطول نهر تورتو حتى منبعه، وبعد ذلك تنحنى على الطريق المذكور ومنه إلى جبل سان بيترو وتستمر نحو الشرق(3). ويبدو أن هذا هو الطريق نفسه الذى كان يؤدى من بالرمو إلى ڤيكارى وكاسترونوڤو وبترالياا(4)، حسبما تنص عليه وثيقة ترجع لعام ١١٣٢؛ كما كان يستمر فى اتجاه ترايينا، حيث تذكر ترجمة لوثيقة يونانية ترجع لعام ١٠٩٤ «طريقاً ملكياً»؛ وربما كان يأخذ المسار المحازى للساحل الشمالى، بعد عبوره جبال سانت إليا دامبولا(5)، لأن اسم «الطريق الملكى» ذاته يظهر من جديد فى عام ١١٤٣ بالقرب من باتى(6)، وقبل

---

(1) النص فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٤١. استخدم عبارة أول المدن لترجمة لفظ «أزلى» الذى يعنى بالضبط «مالا بداية له، كائن منذ الأزل، إلخ». وهو ما نطلق عليه خطأ أصلياً بدائياً عند الحديث عن الشعوب.

(2) ليسمح لى بأن استخدم *stradale*. هذا اللفظ الذى لا يوجد فى قاموس لاكروسكا، ولكنه شائع فى الاستخدام العام اليوم، لتجنب الازدواجية فى المعنى.

(3) فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٣٨٢. وهنا نقرأ: *ad magnam viani francigenam Castrinovi*. ومن المحتمل ان تكون ترجمة عن اليونانية، حيث يذكر العام القسطنطينى ونقرأ فيها تعبير *Papæ veteris Romæ*. الذى ينضح ببيزنطية. ومع ذلك فإن اللغة والأسلوب تجعلنا نرى فيها صيغة قديمة جداً.

(4) وثيقة يونانية - لا تينية ترجع لعام ١١٣٢، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٤٢٤، تتحدث عن طريق كان يبدأ من ضيعة موتاتا (وانا اجهل هذا الموقع) ويؤدى إلى بترالياا وكاسترونوڤو وڤيكارى وبالرمو. وعلى الرغم من أن اللفظ فى اللاتينية هو مجرد لفظ «طريق» وعلى الرغم من أنه لا يوجد النص اليونانى لهذه الفقرة، فإنه يبدو لى ان الأمر يتعلق بالطريق الفرنسى بنفسه.

(5) فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٢.

(6) وثيقة فى كتاب بيرّو، المرجع السابق، ص ٧٧٥.

ذلك بكثير بالقرب من ميلاتسو(1). أما صفة بازيليكى، التى وصف بها هذا الطريق دون شك بنص وثيقة عام ١٠٩٤، فتجعلنا نستنتج أنه طريق بيزنطى: ولعله هو الطريق الذى سلكه النورمان حينما توغلوا فى قلب الجزيرة ثم مدوه أو عدّلوه بعد بترالیا أو کاسترونوفو، ليجعلوا منه خطاً لعمليات الهجوم على بالرمو. ويمكن أن ننسب أيضاً لفترة حكم الكونت الأول الطريق الآخر المسمى على وجه الدقة بالعسكرى. وذلك فى وثيقة من وثائق كنيسة مونريالى ترجع لعام ١١٨٢. ويبدو أنه كان يمر بضواحى فيكوتسا، بين بالرمو وكورليونى(2): ولكن ليس هناك ما يجعلنا نستنتج إذا كان يلتقى بطريق كاسترونوفو، الذى قد يبعد عنه على خط مستقيم ما يقرب من عشرين ميلاً ناحية الجنوب الشرقى. ويمكن فقط أن نستنتج أن نوعية أو على الأقل أصل هذا الطريق العسكرى.

---

(1) وثيقة من عام ٦٥٩٤ (١٠٨٦) الخمسعشرية الثانية عشر. نشرها السيد بياجّا، *Nuovi studi su la città di Milazzo*، بالرمو ١٨٦٦، ص ٦٨، ملحوظة ٦. جوفريدو بوريللو، إقطاعى ميلاتسو، فى تعيينه فى هذه الوثيقة لحدود الضيعة المسماة بوتشيللو فى أرض تلك المدينة، يجعلها تمتد

usque ad viam quae vadit a Sancto Philippo in villum Milati, deinde constringendo per viam viam ad aliam frangigenam quae conjungitur prope mare ante villam Milatii, deinde revertetur per eamdem viam frangigenam usque ad mare, etc.

ولا يجب أن أتغاضى عما أراه بشأن هذه الوثيقة، المنسوخة من مخطوطات مكتبة بلدية بالرمو، والمنقولة أصلاً عن اليونانية، فى الحقبة القسطنطينية كما هو واضح، وهو أنها تغيرت بلا شك، سواء فى الأصل، أو فى الترجمة. وفى الحقيقة، علاوة على أن الخمسعشرية الثانية عشر لا تتفق مع عام ١٠٨٦، فإننا نجد تسمية «كنائس مسينا وترايينا» و«كبير أساقفتها روبرتو»: ومن الواضح أن هذه الكلمات لم تكن مكتوبة فى العام المذكور، لأنه لم يكن من الممكن التحدث حينئذ إلا عن أسقفية ترايينا: حيث إن من المعروف تماماً أن تغيير الكرسى وإضافة كنيسة مسينا فى تسمية الأبرشية، قد حدث فى عام ١٠٩١. وعلى الرغم من هذا فإنه لا يوجد سبب لافتراض أن تسمية «الطريق الفرنسى» كان من اختراع أحد أصحاب العلم من القرن السابع عشر أو الثامن عشر: ومع ذلك فإننى أقبل هذه الشهادة عن واقع مادى، وهى ترجع على أية حال إلى القرن الثانى عشر.

(2) وثيقة عربية لاتينية بتاريخ ١٥ مايو ١١٨٢، وقد نشر الجزء اللاتينى منها دل جوديتشى، *Descrizione del Tempio di Morreale*، الحواشى، ص ٨ والصفحات التالية، أما النص العربى فلم ينشر. والموضع الذى أذكره موجود فى ص ١١، من *Descrizione*، فى نهاية تقسيم بوفوريرا، حيث نقرأ *viam exercitus*، وهذا يتفق تماماً مع النص العربى: طريق العسكر.

تختلف عن نوعية الطرق الكبرى التى كانت تستخدم للتجارة الداخلية، وكانت تمتد من بالرمو إلى مازارا، ومن بالرمو إلى شاكا، كما يختلف عن مسالك أخرى عامة أو طرق كبيرة مما ورد ذكر أسمائها فى وثيقة مونريالى ذاتها(1). وربما كان قد تم شقها قبل الحرب النورمانية بفترة طويلة.

ونتحدث فى النهاية عن الصناعة الوحيدة التى يمكن أن نتوقعها من الإمارة الجديدة، بعد الكنائس والأعمال العسكرية. إننا نعثر فى كل متاحف أوربا على العديد من العملات التى ضربها الملوك النورمان فى صقلية وكذلك ملوك الأسرة الزفيفية، وعليها كتابات عربية وصيغ إسلامية، حتى إن البعض افترض، عن حق، أن ضرب العملة قد بدأ فى السنوات الأولى للسيطرة النورمانية. أما تشيسن الذى مهد لعلم العملات الشرقية وتعثر كثيراً فى ذلك المجال الجديد، فقد نشر، بناء على رسم أرسل إليه من صقلية، عملة ذهبية نسبها إلى روبرتو جويسكاردو، ونسبها آخرون للأب فيللا، كبير الرهبان؛ وإذا لم تكن الحروف قد تغيرت فيها تماماً بعد ثلاث أو أربع عمليات نسخ للرسم، فإننا نقرأ على الوجه الأول اسم الملك تانكريدى، ولذا فهى ترجع إلى آخر السلسلة النورمانية(2) وليس لأولها. وقد نشر أدلر بعد ذلك بعض الرُّبيعات، أو التارى الذهبية، يظهر عليها بمنتهى الوضوح اسم روچيرو ويظهر فى بعضها لقب ملك؛ ولكن بدا لأدلر فى

---

(1) دل جوديتشى، المرجع السابق، ص ١٦ و١٩ و٢١ إلخ. الوثيقة اللاتينية ورد بها هنا «طريق عام»، وورد بالعربية لفظ محجة وأحياناً أيضاً طريق، كما ذكر من قبل فى «طريق الجيش».

(2) تيشسن *Introductio in rem nummariam. ecc*، ص ١٤٦. وسبينيللى، *Monete Cufiche battute da Principi longobardi, normanni e svevi*. نابولى، ١٨٤٤، ص ١٦ و١٢٢، يرى أن تصميم هذه العملة اخترعه كبير الرهبان فيللا. وموريتيللارو، الذى نجح فى كتابه (*Opere*، المجلد الثالث، ص ٢٣٩)، وتعرف على العملة وانتمائها للملك تانكريدى، ها هو ينسى هذا الآن (*Medagliere arabo-siculo*، ص ٣٥) ليتبع افتراض سبينيللى. ومع ذلك نقرأ بوضوح تام عبارة الملك تان .... ريد، فى الرسم الذى صوره هذا الأخير، صورة ٢، رقم ١ (ولا يتوفر أمامى رسم تيشسن.

عملات أخرى أنه يقرأ لفظ أمير، حتى إنه يمكن الشك فيما إذا كانت تخص الأب أم الابن، كما يفترض من نمطها(1). وقد أعقبه كاستيليونى، الذى أضاف لقراءة أمير قراءة صقلية(2) وساقا وراءهما مارسدن(3) الذى بدا متشككاً. وقد سلك أمير سان جورجو سبينيللى طريقاً آخر، عندما ألف كتاباً ضخماً مزوداً بالصور وجديراً بالثناء من جوانب عديدة، بعد أن توافرت بين يديه فى نابولى مجموعات كبيرة جداً من العملات. وقد نسب ذلك النبيل وهو من نابولى، مع علمه الغزير، ومعرفته المتواضعة للغاية بالعربية، نسب للكونت الكبير سبعة عشر تارياً من الذهب تزن جراماً أو أقل قليلاً، وكانت تحمل الرمز الإسلامى على أحد وجهيها. وعلى الوجه الآخر اسم روجيرو، يسبقه، كما يرى المؤلف، تارة لقب كونت ولقب دوق تارة أخرى. وعلى الحواف بعض بقايا كتابه، كان سبينيللى يبحث فيها عن تحديد للزمان والمكان(4). وقد أقر مورتيلارو هذه العملات، مع شئ من التصحيح الذى لا يتعلق باسم الأمير(5). ويؤسفنى أن عمل سبينيللى فى مجمله لا يقدم لنا ضماناً على ذلك العلم الواسع وتلك العين الفاحصة فى مجال العملات الإسلامية، يمكن أن تقودنا إلى الاقتناع بقراءة هذه العملات السبع عشرة: ويؤلمنى أيضاً أننى لا أستطيع الاعتماد على الأشكال المحفورة، التى تكفى أحياناً للتعرف على خطأ قراءة سبينيللى وتفسيره، وذلك سواء لعيب فى العملات المستهلكة أو فى الرسم،

---

(1) أدلر *Museum Cuficum Borgianum*، ص ٨٠ والصفحات التالية من رقم ٦٤ إلى ٧٥.

(2) *Monete cufiche*. ص ٣٢٩، ٣٣٠ رقم ٢٧٩.

(3) *The Oriental coins*. المجلد الأول، ص ٢٩٩ و٣٠٠ رقم ٣٠٨.

(4) *Monete Cufiche*. إلخ. ص ١٦ إلى ١٩، رقم ٦٥ إلى ٧٢ و٧٥ و٦٤٩ إلى ٦٥٧.

(5) *Il medagliere Arabo-Siculo della Biblioteca Comunale di Palermo, coordinato e illustrato dal Marchese Mortillaro*. بالرمو ١٨٦١. ص ٣٦ ـ ٣٩. ولا أعرف لماذا يرى مورتيللارو، ص ٣٦، رقم ١ أن العملة رقم ٦٦ التى أوردها سبينيللى هى العملة ذاتهـــا التى عرضها أدلر، المرجـع الســابق، تحت رقم ٦٩: ثم بعد أن

ولكنها لا تساعد مطلقاً على تصحيح قراءتها. ويجب أن يضاف إلى ذلك أنه، إذا حكمنا من الصور، فإن لقب دوق الذى قرأه سبينيللى فى إحدى العملات(1) يشبه تماماً الكلمة التى ينقلها كونت من عملة أخرى: وإذا سلمنا بالقراءة الأولى فسوف تعود العملة إلى روچيرو دوق بوليا الذى كان سيداً فى البداية على كل مدينة بالرمو ثم لنصف المدينة بعد ذلك. والآن فإنه لا يطيب لنا أن نتحسس طريقنا على هذا النحو. وسوف ننتظر حتى تراجع عيون أكثر خبرة تلك المجموعات التى استخدمها سبينيللى، أى مجموعته الخاصة ومجموعات فوسكو وتاؤورى وسانتانچيلو وكابيالبى: حتى يمكن أن نميز عملات القرن الثانى عشر عن العملات التى يمكن أن يكون الكونت الأول قد ضربها. وفى هذا الإطار سيظل هناك خلاف بسيط معلق، حول ما إذا كانت الرُبيعات الصقلية قد ظلت تُضرب دون توقف منذ أيام الخلفاء الفاطميين(2) حتى أيام الملك روچيرو وخلفائه؛ ومع ذلك ستبقى لكونت صقلية الأول تلك العملات النحاسية التى تحمل الصورة والحروف اللاتينية، التى عادة ما تنسب إليه(3).

ندم لأنه نسبها من قبل للملك روچيرو (مورتيللارو، *Opere*. المجلد الثالث ص ٤٠٥) يقبل الآن قراءة سبينيللى الذى يرجعها للكونت الأول. ونظراً لما يمكن استخلاصه من رسومات بدائية، فلم يقرأ أدلر كل شئ. وعالج مورتيللارو بصورة سيئة النقص الموجود وكتابة *t ..m ..k*. التى استبدلها سبينيللى، لا تتضح من الصورة (اللوحة الثانية، رقم ٢). ويقل عندى الشك فى اسم روچيرو فى هذا الرسم وفى الصور التالية؛ ولكن هذا قد ينطبق على الابن، وكذلك الأب وأيضاً دوق بوليا الذى يحمل الاسم نفسه.

(1) رقم ٧٢، ص ١٩، اللوحة الثانية، رقم ٢٣، مع المقارنة برقم ٢٤ وأيضاً برقم ٤ إلخ.

(2) انظر كتابنا الرابع، الفصل ١٣، ص ٤٦٧ ـ ٤٧٠، من المجلد الثانى.

(3) *Paruta*. لدى بورمانو *Thesaurus Antiquitatum Siciliæ, ec.* المجلد السابع، ص ١٢٣٢ والمجلد الثامن، لوحة ١٨٧. واعتقد أن العملتين رقم ٣ و٤ من تلك اللوحة، اللتين تحملان على أحد الأوجه الـ *T* مكان الفارس المسلح، تنتميان للكونت روچيرو الثانى.

الكتاب السادس

الفصل الأول

قد اتجاوز كثيراً الحدود التى وضعتها لنفسى عندما شرعت فى وضع هذا العمل، إذا ما واصلت معالجة تاريخ صقلية بتفاصيله كلها حتى الحقبة التى بقى فيها سكان مسلمون. ولهذا فإنى سوف أتعرض بشكل سريع فى هذا الكتاب للخطوط الرئيسة الخاصة بأحداث البلاط والسكان المسيحيين بالقدر الذى يسمح بتوضيح الأحداث المتعلقة بالمسلمين. التى سوف أسجل كافة تفاصيلها التى وصلت إلينا. وسوف أضيف إليها علاقات الإمارة مع المسلمين خارج الجزيرة، سواء لارتباطها بموضوعنا، أو لما بالأحداث من جديد يستخلص فى معظمه، الآن ولأول مرة، من الكتابات العربية.

تنقصنا الحوليات المسيحية الصقلية من العام الأول إلى العام الحادى والعشرين من القرن الثانى عشر عندما ظهر بغتة روجيرو الشاب، ظهر بصفته رجل دولة، قديراً بجيشه وثرواته، فاتحاً لدوقية بوليا ومناهضاً جريئاً جداً للبابوات. وإذا ما قارنا بالوثائق الكلمات القليلة التى ذكرها عنه المؤرخون، فإننا نلحظ بالكاد فى هذه الفترة أنه بعد وفاة الكونت روجيرو الأول: (١١٠١)، بقى له طفلان وهما سيمونى وروجيرو، وكان عمر أولهما ثمانى سنوات والثانى ست سنوات؛ كما نلاحظ أن الكونتيسة أديلايدى قد حكمت صقلية وكلابريا باسم الأول حتى عام ألف ومائة وخمس(1)، كما حكمتهما

---

(1) بالنسبة لسن ابنى أديلايدى انظر الكتاب السابق، الفصل السابع، ص ١٩٥ من هذا المجلد.

وقد دُعيا أدلاسيا وسيمونى فى الخمس وثائق التالية: عام ١١٠١، أكتوبر، لدى سباتا، *Pergamene*، ص ١٩١؛ وعام ١١٠٢، بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠٢٨؛ وعام ١١٠٥،

باسم روجيرو حتى عام ١١١٢(1)، إلى أن أصبح الشاب، فى العام التالى، كامل الأهلية وحاكماً للدولة؛ وذهبت الأم إلى فلسطين لتتزوج من بالدوفينو الأول، ملك أورشليم؛ وحملت إليه كنوز صقلية؛ غير أنه ما أن بدد تلك الكنوز حتى فسخ الزواج، وتغاضى عن ذلك كل من البابا والبطريرك ومَجْمَعٌ (١١١٦)، ورجعت اديلايدى إلى صقلية تعانى المهانة وماتت بعد ذلك بفترة وجيزة (١١١٨)(2). وتذكر إحدى الكتابات التاريخية بشكل عام ان سيمونى تعرض إبان فترة حكمه

جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الأول. الفصل الثانى. الحاشية ٣٠. وعام ١١٠٥. مايو ونهقتان. سباتا، المرجع المذكور. ص ٢٠٣ ـ ٢١٢. ° إن تاريخ وفاة سيمونى وردت فى وثيقة لدى بيرّو. المرجع المذكور. ص ٦٩٧، حيث إن عام ١١٠٨ قد حُسب العام الرابع من حكم قنصلية روجيرو. وجدير بالتنبيه انه فى اوجيللى *Italia Sacra*. طبعة كوليتى. الجزء التاسع. ص ٢٩١، توجد وثيقة لروجيرو، كونت كلابريا وصقلية لعام ١١٠٤. المرسوم الثانى عشر. لعل العام ينبغى تصحيحه ليصبح ١١١٩، لأنه بالإضافة إلى اسم روجيرو. الذى لم يكن قد جلس بعد على العرش عام ١١٠٤. يوجد اسم جوفريدو. أسقف مسينا الذى يبدو انه قد رُسم اسقفاً حوالى عام ١١٠٨ وعاش حتى عام ١١٢٠: وبيرّو. المرجع السابق. ص ٢٨٥. يأتى بوثيقة لسلفه روبرتو مؤرخة بعام ١١٠٦.

(1) بالإضافة إلى الوثيقة التى ذكرناها لروجيرو الثانى مع اديلايدى أو له وحده. لدينا ايضاً الوثائق التالية؛ عام ١١٠٩ سباتا. المرجع المذكور. ص ٢١٤: وعام ١١١٠، فبراير، *Neapolitani Archivi Monumenta*. الجزء السادس، ص ١٨٠، وعند اوجيللى، الجزء المذكور. ص ٤٢٩، (والذى ذكره خطأ جريجوريو فى *Considerazioni*، الكتاب الأول. الفصل السادس هامش ١٦، بتاريخ ١١١٣): وعام ١١١٠. ابريل. سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٢٢؛ وعام ١١١٠. بيرّو. المرجع المذكور. ص ١٠٢٨: وعام ١١١١. بيرو، المرجع المذكور. ص ٧٧٢: وعام ١١١٢. مارس. مسينا، سباتا. المرجع المذكور، ص ٢٢٩: عام ١١١٢. يونيه. بيرّو. المرجع المذكور. ص ٨١؛ وعام ١١١٢. نوفمبر، سباتا، المرجع المذكور، ص ٢٢٣.

(2) البرتى اكونسيس. الكتاب الثانى. الفصلان ١٢ و١٤، وفولكيريى كارنوتسيس. اعوام ١١١٢ و١١١٦ و١١١٧: وكتاب *Historia Hierosolimitana*. مجهول المؤلف، سنتا ١١١٢ و١١١٦. وويليلمى. *Arch Tyrensis*، الكتاب الحادى عشر. الفصلان ٢١ و٢٩: وانوريتش فيتاليس. *Hist. Eccles.*. الكتاب الثالث عشر: سيكاردى وبيرناردى بيرناردى تيزاور. الفصل ١٠٠، لدى موراتورى. *Rer. Ital. Scr.*. الجزء السابع: وسيكاردى أسقف كريمونا. لدى موراتورى. المجلد السابق ص ٥٩٠ و٥٩١. إن تاريخ وفاة اديلايدى نستدل عليه بشاهد مدفنها. لدى بيرّو. *Chronologia Regum Siciliæ*. ص ١٤. ولدى جوالتيريو فى مجموعة بورمانو. المجلد السابع ص ١٢١٩ رقم ٨٣.

القصيرة لمضايقات خطيرة من جانب أهالى بوليا(1) ومن هنا يبدو أن بعض بارونات ذلك الإقليم أو ربما الدوق، حاولوا احتلال مناطق كلابريا. وقد كتب أوردريكو فيتالى، وهو راهب فرنسى فى ذلك العصر، أن روبرتو، أحد أبناء دوق بورجونيا، قد دعته أديلايدى إلى صقلية وجعلت منه أداة لقمع البارونات، ثم تزوج إحدى بناتها وبعد ذلك مات بالسم ميتة تعسة(2)؛ ولكن اسمه لم يذكر فى المذكرات الصقلية(3)؛ غير أن عملاً شنيعاً، مثل ذلك ويمكن حدوثه بسهولة فى أى عصر من العصور. لا يجب أن يصدق بناء على كلام ذلك الراهب، الشغوف بالقصص الخيالية والذى لم يحب إيطاليا على الإطلاق. إن كبير رهبان تيليزى، كاتب أحداث حياة الملك، كتب القليل عن طفولته: يذكر أن الدولة قد حكمتها امه أديلايدى الحكيمة جداً، وأن روجيرو، ما كان يرى فقيراً أو عابر سبيل إلا وعطف عليه بالنقود كلها التى فى جيبه وأيضاً النقود التى كان يطلبها من أمه؛ وأنه، عندما كان

---

(1) كتاب مجهول المؤلف، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٨٥٦ وترجمتها إلى الفرنسية فى طبعة اماتو *Ystorie de li Normant*، ص ٣١٢ ويردد رومِوالدو سالرنيتانو هذه الكلمات فى الحوليات، عند موراتورى، *Rer. Ital. Scr*، المجلد السابع.

(2) *Historia ecclesiastica*، الكتاب الثالث عشر، عن دوشسنى *Hist. Norm. Script*، ص ٨٩٧. راجع مستلات هذه الأخبار فى كاروزو، (*Bibl. Sic*، ص ٩٢٠) والذى بدا له شيئاً حسناً أن يبتر الرواية لكى يحذف كل الأحداث والكلمات التى يمكن أن تمسّ إلى روجيرو أو والدته.

(3) لا تذكر الأخبار الإيطالية ذلك الاسم، ولا نجده فى الوثائق. وكذلك وثيقة مايو ١١٠٥، التى تم ذكرها فى ص ٢٤٠، هامش ١، فهى تحتوى على أسماء وزراء ذلك العصر، أى الأراخنة: نيكولو كامارلينجو، وليونى لوجوتيتا وارجينيو، الذى يمكن بالمصادفة أن يكون ذلك الأدميرال الذى يحمل هذا الاسم. ولم يذكر حتى اسم روبرتو فى الوثيقة المهمة، وثيقة يونيو ١١١٢ التى ذكرناها لتونا، والتى يلزم التحدث عنها بإفاضة أكبر. وإحدى وثائق ١١٤٢، ولدينا منها فقرة فى جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السادس، هامش ٩، تذكر الأسماء الخاصة بالمكلفين الذين أنابتهم أديلايدى عنها للبت فى نزاع إقطاعى منهم، أى روبرتو أفينيل وروجيرو دى مومبراى، وراؤل دى بلباس وروبرتو برلايبس. وأسرة أفينيل الشهيرة لا علاقة لها بدوقات بورجونيا، وكان روبرتو فى صقلية قبل حكم الوصاية بفترة طويلة، ونقرأ اسمه فى الوثائق الخاصة بالكونت الأول.

والده على قيد الحياة، كان يلعب لعبة المنازلة مع غيره من الأطفال وكان يغلب دائماً أخاه الأكبر ويمزح معه قائلاً: «اترك لى التاج والسلاح، فاجعلك أسقفاً أو بابا لروما»(1). وهذه الحكايات إنما تدل على روح الفتى الوثابة، كما تدل أيضاً على أن الحديث عن الباباوات فى ذلك القصر لم يكن لينم عن إجلال كبير وتدل أيضاً على التقدير والاهتمام بالعطف والتصدق، وهو فضيلة عظيمة لدى المسلمين؛ غير أن هذه الحكايات لا تحدد لنا بالتأكيد تاريخ العصر.

أما عن ندرة القصص فهى تفيد أيضاً فى الاستدلال على أنه فى ظل حكم الوصاية لم تقع احداث لها وقعها: اى أن الكونتيسة ومستشاريها قد استطاعوا على ارض الواقع استعمال النظم الجيدة التى وضعها روجيرو الأول وربما تمكنوا من السيطرة على ذلك الخليط الجديد من البشر، ذلك الخليط الذى قد يبدو فعلاً رمزاً للشقاق. إن الإقطاع الذى انقلب بشكل سريع إلى فوضى فى دوقية بوليا، لم يجرؤ على أن يرفع رأسه فى صقلية: وهذا الكلام العام، تم إيجازه فى كلمات أشراف مناطق ترابنا، وشينتوربى وأراض أخرى فى أواسط صقلية: أولئك الأشراف الذين شهدوا فى عام ١١٤٢ فى الحكم بالحدث التالى الذى وقع أيام حكم الوصاية. فحينما تقدم أحد الأشـخاص، ويُدعى اليمازر(2) وهو سـيد منطـقة سـان فيليبو دا رجيرو واشتكى من أن أسقف ترابنا سيد منطقة ريجالبوتو، قد اغتصب قطعة من أرضه، عندئذ عهدت اديلايدى بهذه القضية إلى

---

(1) *Alexandri Abatis, etc.*، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sic.*. ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(2) فى جريجوريو نقرا ليبراريس. وهذا خطأ فى كتابة الاسم وقع فيه المترجم اللاتينى لأن نسخ النص اليونانى نقرأ فيها Αειζαριs، Αειζεριs . وربما كان ليميزيرى هو نقل لاسم البزار الذى كان اسم سيد منطقة جالاتى ابن جوليلمو مالابريت وذلك طبقاً لوثيقة يونانية ترجع إلى ١١١٦. عند سباتا، *Pergamene*. ص ٢٤١. ومن حيث الشكل فإن اسم اليمازر هذا فيما يبدو لقباً عربياً ويعنى الأظهر، اى «المضئ» ولن يكون ذلك جديداً بعد ذكر لقب سيد، وهذا مثال للقب أخذه المسيحيون من اللغة العربية. والاحتمال الأقل هو أن يكون محاكاة للاسم العبرى «اليمازر».

روبرتو أفينيل وإلى كبراء آخرين: فانتقلوا مع أشراف آخرين ومع المتنازعين إلى موقع الخصومة، وأعلن اليمازر أنه يريد قسمة الحدود بالسيف، ولكنه هدأ بعد أن تحدث معه روبرتو والآخرون؛ وبعد ذلك لجأ الحاضرون إلى دليل الشهادة ثم إلى القرار كما كان يحدث فى عصور التحضر(1). وقوة الحكم هذه إنما كانت نابعة من النظام الذى كان قد فرضه الفاتح على الإقطاع، كما كانت تصدر من حذر وشجاعة أديلايدى ومستشاريها الذين اعتمدوا على المسلمين ورسّخوا مقر الإمارة فى بالرمو.

كان من الصعب الاستمرار فى إدارة دفة حكم الدولة الجديدة من مدينة ميليتو أو من مدينة ترابنا. وكان الرأى الصائب أن تكون العاصمة فى صقلية و أن تكون مطلة على البحر؛ بل يبدو أن الكونت الأول، طوال الفترة التى لم يحكم فيها بالرمو، كان قد أختار مدينة مسينا: ليس لأنه قد قوى دعائمها فحسب بل وأيضاً لأنه قد حول إليها مقر أسقفية ترابنا(2). كما يعود إلى زمنه، أو الفترة الأولى من حكم الوصاية إنشاء مصلحة صك العملة(3) والقصر الملكى(4)، واعتقد أيضاً الترسانة البحرية فى تلك المدينة. غير أنه عندما

---

(1) الترجمة اللاتينية لهذه الوثيقة قد تم نشر جزء منها من جانب جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل السادس، هامش ٩ وقد أشرنا إلى هذه الوثيقة مع الإفاضة عنها فى الكتاب الخامس الفصل العاشر ص ٢٨٥ من المجلد، هامش ١.

(2) انظر الكتاب الخامس، الفصلين السادس والعاشر ص ١٦٤ و٣٠٢ وما بعدها من المجلد.

(3) هناك عملات عربية وعملات لاتينية للملوك النورمان بصقلية، تم صكها فى مسينا، ونقود عربية تم صكها «فى عاصمة صقلية» أى بالرمو. وإذا ما نحينا جانباً الكتابات الكثيرة التى تم نشرها فى صقلية فى القرون الماضية فى شأن هذه القضية، فإنه من المؤكد أن دارى صك النقود قد وُجدتا معاً فى القرن الثانى عشر.

(4) بالإضافة إلى وثائق الكونت الأول الصادرة فى مسينا، فهناك وثيقة ترجع إلى عام ١١٠١، توجد فى كتاب أوجيللى *Italia Sacra*، المجلد التاسع، ص ٤٢٩، تتحدث عن أساقفة وبارونات اجتمعوا فى كنيسة مسينا بدعوة من الكونتيسة أديلايدى وابنها روجيرو؛ ووثيقة أخرى ترجع إلى ١١٢٦، فى كتاب دى جروسيس، *Catana Sacra*، ص ٧٩ مجلس كان يعقده الكونت العظيم روجيرو فى قصر مسينا، إلخ.

حصل على نصف مدينة بالرمو (١٠٩٣) وأخذ فى إدارة المدينة بنفع كبير لصالحه ولصالح دوق بوليا(1)، فإن روجيرو قد وجد فى بالرمو الأسس التى تهيىء له إعادة بناء أجهزة الجزيرة كلها.

إن الدواوين التى أسسها الأمراء الأوائل وأعاد الكلبيون تنظيمها، لم تكن قد دمرت بالتأكيد عندما احتل النورمان المدينة، وظلت باقية وإن أصابها بعض الإهمال لفترة من الوقت، تلك المبانى السكنية، ودور المحفوظات، ودار صك النقود والترسانات(2): وكان لايزال موجوداً أيضاً بعض أمناء السر والمحاسبين: ولم يكن روبرتو أو روجيرو من الرجال الذين يتركون آلة عمل مهيأة بهذا الشكل دون الإفادة منها. والدواوين التى تم الحفاظ عليها وإصلاحها، قد جذبت إليها بلاط أديلايدى؛ كما جذبته مدينة يقطنها مائتان أو ثلاثمائة ألف نسمة، بقصورها الفخمة، وصناعاتها المزدهرة، وبما تتمتع به من فخامة وثروات تجعلها تنافس مدينة قرطبة. وكان لابد أن تثبت التجربة للحكام أنهم إذا كانوا يستطيعون، وهم فى مسينا الحفاظ على زمام الأمور فى كلابريا بشكل أفضل، فإنهم فى مقابل ذلك كان يمكنهم من بالرمو بسط يدهم وسيطرتهم بصورة أقوى وأشمل على صقلية كلها: وأن الذهب والحديد وولاء مسلمى بالرمو الضرورى، إنما هى عوامل سوف تعزز الأمير وتسانده ضد البارونات الذين كانوا يمثلون مشكلة كبيرة للحكم فى العصور الوسطى.

ومن جانب آخر فإن ذلك البلاط اللاتينى لم يكن لديه من المبررات ما يجعله يفضل الإقامة فى مدينة مسينا المكتظة باليونانيين بدلاً من الإقامة فى مدينة بالرمو ذات العدد الضئيل من المسيحيين. لذا

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل السابع، ص ١٨٦ من هذا المجلد.

(2) يذكر الإدريسى صراحة أن الأسطول والجيوش كانت تتحرك فى حروبها فى عصره كما فى العصور الماضية، من مدينة بالرمو. النص فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٢٨. وعن دار صك النقود قد تحدثنا فى الهامش السابق كما تحدثنا عن الدواوين فى الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٣١٨ وما بعدها.

شرعت اديلايدى، دون أن تترك تماماً مقرها فى ممسينا، فى الاستقرار فى بالرمو وجعلت منها حقيقة عاصمة للجزيرة. وقع ذلك فى أوائل القرن، فى عام ١١١٢ بالضبط؛ حيث إن التصديق على امتيازات رئيس اساقفة بالرمو ومجلس كهنتها الذى قامت به بشكل رسمى فى الأول من يونيه من ذلك العام «الكونتيسة أديلايدى وابنها روجيرو الذى أصبح فارساً وكونت صقلية وكلابريا، بمقرهما فى بالرمو فى قاعة القصر العلوى، فى صحبة كهنة وبارونات وفرسان»، ذلك التصديق كان فيما يبدو لى مراسم حفل إفتتاحى. وقد وقع على هذه الوثيقة بصفتهم شهوداً، كثير من البارونات الإيطاليين والفرنسيين المعروفين من خلال أوراق الكونت الأول. ومعهم شخص يُدعى كريستوفورو وهو أدميرال(1).

وهنا موضع البحث عن أصل هذا المنصب، الذى ظهر لأول مرة بين المسيحيين فى قصر بالرمو، ومن هناك أيضاً، وبعد أن تغيرت طبيعته، أصبح ذلك اللفظ الذى يستخدم اليوم فى كل اللغات الأوربية. إن كلمة أدميرال هى تحريف للكلمة العربية «أمير» التى نسخها البيزنطيون بأمانة كما هى ولكن جعلوها فى حالة المضاف إليه «أميرادوس»؛ ἀμήραδος (2) وانتقلت بهذه النهاية إلى المسيحيين الغربيين، تماماً كما حدث بمصطلحات يونانية أخرى. وفى الواقع فإن الكتاب فى أواخر العصور اللاتينية لم يطلقوا على الأمراء المسلمين إلا لفظ «أميراتوس»، إلا أنهم كانوا يخففون من نطقة ليصبح أميراليوس، كما كانوا يشددون نطقه أحياناً ليصبح

---

(1) عند بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٨١ و٨٢.

(2) نقرا Ἀμήρ' فى فسيفساء بكنيسة مارتورانا. وقد نشرها مورسو فى *Palermo Antico* ص ٧٨؛ ونقرا ἀμηρᾶς أيضاً لدى إوستاتسيو، رئيس اساقفة تسالونيكى، طبعة بون، ص ٤٧٢. وفى الوثائق اليونانية الخاصة بصقلية والتى نذكرها فى هذا الفصل، نقرا ἀμηρᾶς، ἀμμήρας ἀμηρ، و ἀμήραδος و ἀμμηρᾶ وبخصوص هذه المادة انظر القاموس اليونانى لدوكانج والذى لاحظها لأول مرة فى *Continuazione di Teofane*.

أدميراريوس أو أدميراتوس لكى يعطوه بعض الدلالات فى لغتهم(1) وكما ذكرنا من قبل كان روبرتو جويسكاردو، عندما قام بترتيب الأمور فى بالرمو، قد وضع أحد رجاله على رأسها بلقب «أدميرال»(2). وفى المدينة الإسلامية كان يعين ولاة مسلمين، إذ لم يكن فى وسعه أن يفعل غير ذلك. وكان أولهم أمير الإقليم، فهو الرئيس السياسى يبت فى قضايا الدولة(3)، وهو ما يتفق مع المنصب واللقب نفسه اللذين كان يتداولهما حكام صقلية فى عصور الحكم الأغلبى والفاطمى. ويبدو ان الكونت روجيرو عندما اخذ مدينة بالرمو بالاقتسام قد عين أحد أمنائه أميراً عليها، وهو يونانى من كلابريا او من صقلية، وكان يُدعى إوجينيو؛ وما نستطيع أن نعرفه عنه هو أنه قد حصل على ذلك اللقب وكانت له أملاك فى بالرمو وأنه

---

(1) انظر دوكانج، القاموس اللاتينى، فى مادة *Amir* و*Admiralius*.. إلخ. وكلمة *Amiratus* قد استخدمت، من وجهة نظرنا، لأول مرة من قبل اينهاردو، *Annales*، عند بيرتز، *Scriptores*، المجلد ١، ص ١٩٠، تحت عام ٨٠١، حيث لقب بهذا اللقب إبراهيم بن احمد الأغلبى، امير افريقية . وسيكاردى، اسقف كريمونا، عند موراتورى، *Rer. Ital. Script.*، المجلد السابع ص ٦٠٥، عام ١١٨٨، يطلق لقب اميراتوس على قائد الأسطول الصقلى ولقب *Admirandus* على أحد امراء صلاح الدين. وأيضاً مرانجونى فى *Archivio Storico italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ١٨، يلقب قائد الأسطول الصقلى، فى عام ١١٥٨ بلقب أدميراتوس ثم الميروس؛ وبيترو دياكونو، الكتاب الرابع، الفصل الحادى عشر، عند موراتورى، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٤٩٩ يتحدث عن اميراريوس بابيلونيا (أى القاهرة). إن الترجمات اللاتينية والإيطالية التى ترجع إلى القرن الخامس عشر والتى نجدها فى *Diplomi arabi dell'Archivio fiorentino* تذكر لفظ ارميراتوس ص ٢٥٣ و٢٥٦ وأيضاً ارميرايو فى ص ٢٤٧ و٢٥٠ إلى ٢٥٤ بمعنى امير الأسكندرية. كما نرى فى ترجمة أخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر، ص ٣٦٠ *admirator galearum* يطلق على احد المسلمين. وحين تضاف هذه الأمثلة إلى الأمثلة الكثيرة التى يذكرها قاموس دوكانج، وسنتاكد من أن لقب أميراتوس *Amiratus*، بكل بدائله يوافق لقب أمير، نذكر أيضاً فى هذا المقام أوجو فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو اللذين أطلقا لقب أميراتوس على نبلاء من صقلية ولُقب الأول منهما قائداً يُدعى بيترو بلقب *Magister Stolii* وقد كان على رأس أسطول صقلية.

(2) الكتاب الخامس، الفصل الخامس، ص١٤٤ من هذا المجلد .

(3) الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٦ وما بعدها من المجلد الثانى.

أسس ديراً فى مدينة ترابانا(1). ثم يأتى بعده الأدميرال كريستوفورو، الذى ذكرناه لتونا وهو فى منصب يقارب وزير الدولة، ويوقع هبة حررت فى مسينا فى فبراير ١١١٠(2) ثم وقع، مع أقطاب القصر.

---

(1) نشر بيرّو فى *Sicilia Sacra*. ص ١٠١٦ ـ ١٠١٧، وثيقتين تتعلقان بإوجينيو هذا. فى الوثيقة الأولى والتى ترجع إلى عام ١٠٩٣، فهو يُدعى مسجلاً، الأمر الذى كان يعنى فى ذلك الحين أمين السر. إن الكونت روجيرو، بناء على طلبه، قد منحه ديراً خارج مدينة ترابانا، لكى يقوم بإعادة بنائه وعهد إليه مسئولية رعاية ذلك الدير وقد دفع ذلك بيرّو إلى أن يجعل من إوجينيو راهباً باسيليا ورئيساً للدير. والوثيقة الأخرى التى تخص الملك جوليلمو والتى ترجع إلى ١١٦٩، فبعد أن نقلت ما سبق ومنحت أيضاً أملاكاً أخرى إلى الدير، لقبت إوجينيو بلقب أدميرال. ويبدو إذن أن أمين سر عام ١٠٩٣، بدلاً من أن يغلق على نفسه باب الدير، قد أرسله الكونت ليحكم مدينة بالرمو. وقد لا يكون بعيداً عن الاحتمال أن يكون هذا الشخص الذى يُدعى إوجينيو هو الشخص نفسه الذى لقب بلقب أرخن فى وثيقة مايو ١١٠٥، لدى سبانا، فى *Pergamene*، ص ٢٠٢. ونجد أثراً مؤكداً لذلك فى وثيقة يونانية ترجع إلى عام ١١٤٢، عند مورسو. *Palermo Antico*، ص ٣١٢ وما بعدها. وفى محفوظات كنيسة بالاتينا فى بالرمو نفسها ص ٢٠ وما بعدها، ومن هنا نلحظ كيف أن بعض أفراد من سلالة إوجينيو الأدميرال قد باعوا، إلى الكنيسة التى تسمى فى يومنا هذا بكنيسة مارتورانا، مبانى كانت الأسرة تمتلكها فى بالرمو. قام بالبيع نيكولو وأنيبرى الراهبة ابنا، الأدميرال إوجينيو، ونيتشيتا، زوجة نيكولو، وجوفانى، وتيودورو، وستيفانو وإلينا أبناؤهما. وقد أقروا جميعهم بأنه قد آل إليهم نصيب نيوديتشو ابن إوجينيو، الذى ورثته ابنته زويه والتى توفيت هى أيضاً. وإذا ما طرحنا من ١١٤٢ فترة تعاقب جيلين. سوف نعود إلى أواخر القرن الحادى عشر ونستطيع أن نستنتج، على أساس معقول، بأن ذلك الأدميرال إوجينيو هو الأدميرال نفسه المذكور فى وثيقة ١٠٩٣.

جدير بالملاحظة أنه فى وثيقتين يونانيتين، نشرهما مورسو، المرجع المذكور، ص ٣٤٥ و٣٥٣، وردت الوثيقة الأولى بلا تاريخ ويجب نسبها إلى عام ١١٤٣ (انظر مورتيللارو *Catalogo del Tabulario* بكاتدرائية بالرمو، ص ٢٣). والوثيقة الأخرى ترجع إلى عام ١٢٠١، ونقرأ فيها اسم شخص يُدعى جوفانى، ابن الأدميرال إوجينيو ويبدو لى أن الشخصين اللذين يحملان اسم الأدميرال إوجينيو هما فى الحقيقة رجلان مختلفان، أولهما يمكننا أن نفترض أنه معاصر للكونت روجيرو العظيم، والثانى ينتسب إلى منتصف القرن الثانى عشر. ونستطيع أن ننسب إليه، بدلاً من الآخر، الترجمة اللاتينية لكتاب الضوء لبطليموس ولتنبؤات سيبليا اريتريا التى سوف نتحدث عنها بعد ذلك فى هذا الكتاب.

(2) لقد ذكرنا منذ قليل هذه الوثيقة فى ص ٣٤١، هامش ١ وأشرنا إلى أنها مؤرخة عند جريجوريو بتاريخ خطأ.

الوثيقة المذكورة سابقاً فى يونيه ١١١٢(1)؛ ونعلم فى النهاية أنه كان يملك داراً فى مسينا، عادت بعد وفاته، إلى الأملاك الأميرية(2). وأعقبه الأدميرال كريستودولو، الذى ذكر اسمه فى وثائق متنوعة بدءاً من عام ١١٢٣ أو ربما من ١١١٩ حتى ١١٣٩ بصفته نائباً مدنياً ورسمياً بالبلاط والذى كان يفخم فى النهاية باللقب المفرط فى التبجيل وهو «النبيل الأعظم»(3). ولكن هذا اللقب يشبه بدرجة كبيرة

---

(1) انظر بهذا الكتاب ص ٣٤٦.

(2) فى وثيقة ترجع إلى عام ١١٥٩، عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٨. وعند دى فهو، *Privilegia Panormi*، ص ٦. وكان كريستوفرو قد توفى فى ذلك الحين.

(3) يتم ذكر هبة سابقة للأدميرال كريستودولو فى وثيقة الكونت روجيرو التى نشرها اوجيللى بتاريخ ١١٠٤ وإذا ما افترضنا صحة المرسوم الثالث عشر المكتوب بها فإنها ترجع إلى عام ١١١٩. كما نبهنا إلى ذلك فى أول هذا الفصل، ص ٣٤٠، هامش ١.
وقد أطلق على كريستودولو النبيل الأول فى وثيقة ١١٢٣ عند سباتا. *Pergnmene*، ص ٤١٠. وإذا كان السيد سباتا قد قرأ جيداً مختصر اللقب الشرفى والاسم، وإذا لم يكن هناك خطأ فى التاريخ، فإنه يتعين مع ذلك أن نفترض أن ذلك اللقب قد منح قبل تلك الوثيقة الشهيرة جداً التى ترجع إلى عام ١١٢٩. وفى وثيقة ترجع إلى عام ١١٢٦، ترجمت من اليونانية، وتم نشرها ببدائل كثيرة، أو بروح مختلفة جداً، فى البداية من قبل بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٢٦، وبعد ذلك من قبل دى جروسس *Catania Sacra*، ص ٧٩ و ٨٠، نجد مكتوباً قبل *Georgius de Antiochie amiratus* وقبل *Joannes Admirati filius Gentilis* (sic) نجد شخصاً يُدعى كريزيودوروس أو حسبما ذكر دى جروسيس *"Christodorus, amiratus et Riodotus"*. وهذه القراءة الخطأ بالتأكيد، تبدو ناجمة عن مُختصر لم يتم فهمه جيداً من المترجم اللاتينى مجهول الاسم وربما تكون هى نفسها التى قُرات روتسيوس فى وثيقة أخرى: الأمر الذى دفع بيرو إلى أن يخلع ذلك اللقب على كريستودولو. إن كريزيودوروس أو كريستودوروس يجب تصحيحه من وجهة نظرى إلى كريستودولوس؛ وربما كان اسم *Rozius* هو بالتحديد اسم روجيرو الشهير جداً ذلك لأن اليونانيين فى صقلية كانوا قد اعتادوا على كتابة حرف «ج» اللاتينية أو العربية بالحرفين τζ . وكريستودولو، الأدميرال والكاتب الأول، قد تم ذكره فى وثيقة يونانية ترجع إلى عام ١١٣٠ عند ترينكيرا، *Syllabs*، ص ١٢٨. ووثيقة يونانية أخرى ترجع إلى عام ١١٣٦، عند سباتا، المرجع المذكور، ص ٣٦٦، تذكر كريستودولو أدميرالاً. وفى النهاية يجب أن نذكر الوثيقة التى ترجع إلى عام ١١٣٩ التى تذكر لقب النبيل الأول والذى نشره مونغوكون ثم نشره بعد ذلك مورسو ونشر بعد ذلك فى محفوظات كنيسة بالاتينا بباليرمو، ص ١٠. وبعد كل ما ذكرت فمن نافلة القول التنبيه بعدم الاعتماد على قائمة الأدميرالات الخاصة بصقلية فى عصور النورمان، التى ذكرها بيرّو، فى *Regum Siciliæ Chronologia*، ص ٢٥.

قول «تحت أمرك» الذى نقوله عادة للمموقين؛ حيث إنه منذ سنوات عديدة كان يبرز فى حكم الدولة رجل يُدعى چورچو الأنطاكى وكان أدميرالاً اسماً وفعلاً وبالمعنى الذى نقصده نحن فى أيامنا هذه. فنراه فى عام ١١٢٣ مُعيناً أو مرشداً لقائد الأسطول الصقلى، وكان العرب يطلقون عليه عبد الرحمن النصرانى، أى المسيحى، ومن الممكن أن يكون هو كريستودولو نفسه الذى ذكرناه آنفاً(1)؛ وتطابق شخصيته ربما يفسر لنا كثيراً من الوقائع، كما سوف نرى الآن. إن چورچو، طبقاً للوثائق، كان أحد رجال البلاط عام ١١٢٦، وكان أدميرالاً شأنه شأن كريستودولو أو كريزيودورو وابنه چوفانى؛ وفى عام ١١٣٢ كان يلقب بأدميرال الأدميرالات وارخن الأراخنة وهكذا ظل حتى وفاته(2). وقد زاول، مثل سابقيه، مهام وزير الدولة ومفوض

---

(1) انظر فيما يلى فى هذا الفصل ص ٣٥٧، هامش ١.

(2) يحمل چورچو لقب أدميرال فى وثيقة ١١٢٦ التى تم ذكرها فى الهامش ٢، ص ٣٤٦. وفى وثيقة لاتينية ترجع لعام ١١٣٢، عند سباتا، المرجع المذكور، ص ٤٢٦ وما بعدها. قال عنه الملك "*Amiratus amiratorum qui praeerat loto regno meo*". وفى وثيقة ترجع لعام ١١٣٣، تمت ترجمتها من اليونانية، ذكرها بيرّو فى *Sicilia Sacra*، ص ٧٧٤، أطلق عليه أدميرال الأدميرالات. وهناك توفيهمان بصفته *ἀμηρᾶς* فى وثيقتين ترجمان إلى ١١٤٠ و١١٤٢ فى محفوظات كنيسة بالاتينا فى بالرمو ص ١٢ و١٦: وقد لقب بأدميرال فى وثيقة ترجمت من اليونانية ترجع إلى مايو ١١٤٢. ذكرها بيرّو، المرجع المذكور، ص ٣٩٠ وأدميرال الأدميرالات فى وثيقة لاتينية ترجع إلى العلم نفسه، المرجع السابق ص ٦٩٨. وفى موزايك كنيسة مارتورانا لُقّب بلقب *ἀμηρ* فقط. كما يمكن أن يتحقق من ذلك أى شخص ويستطيع أن يقرأه فى مورسو. *Palermo Antico*. ص ٧٨. ويبدو أن چورچو، إما تواضعاً منه، أو حباً فى الاختصار قد اعتاد الاكتفاء بذلك. وكان من النادر أن يضيف لقب ارخن الأراخنة؛ إلا أن أحد ابنائه كان يدعوه دائماً بتلك الصفة.

وجديرة بالذكر تلك الكتابة اليونانية المنقوشة التى كانت تقرأ فى عهد بيرّو فى كنيسة سانتا ماريا دى كريهيتا فى بالرمو، فى الموضع الذى قام فيه دير الجزويت وهى الكتابة التى ترجمها بيرّو إلى اللاتينية، المرجع السابق ص٣٠٠ و٣٠١. وكانت الكتابة منقوشة على قبر نيمفا، والدة چورچو *primum principum universorum* (*ἄρχων ἀρχόντων*) والتى توفيت عام ٦٦٤٨ (١١٤٠). وليس هناك ذكر لوالد الأدميرال ولكن بيرّو وكذلك مورسو، المرجع السابق ص ١٠٨، ١٠٩ لم تفتهما هذه المناسبة حتى ذكرا فيها كريستودولو وجعلا منه زوجاً لنيمفا.

الأمير فى القضايا المدنية؛ وتولى قيادة الأسطول؛ لكنه من غير الواضح ماهية المناصب التى تولاها الأدميرالات الآخرون الذين وردت أسماؤهم معه(1) فى بعض المستندات، أى إذا ما كانوا قادة أو مرؤوسين للوزراء، أو لم يحتفظ بعضهم بغير اللقب، كما قلنا عند الحديث عن لقب قائد(2). وأننا نرى فقط أن جوفانى، ابن جورجو(3) قد تولى قيادة أسطول الملك فى حرب إيطاليا الجنوبية. وبعد وفاة جورجو، تساوى من حيث الألقاب والمنصب ماجونى الذى كان معه أدميرالات معاصرون ويكاد يسيطر على الملك والدولة مثل أمير الأمراء إبان أفول الخلافة فى بغداد، غير أنه لم يتـول على الإطلاق قيادة الأسطول فى الحرب(4). وانتهت بماجونى سلطة أدميرال الأدميرالات ولقبه : فبعد ان اصبح حاجب الملك رئيساً للوزراء، او بعدأن تولى شئون الدولة مجلس مكون من ثلاثة من رجال البلاط، بقى

---

(1) هكذا جوفانى الأدميرال، الابن، ابن جورجو، على ما يبدو فى الوثيقة التى تم ذكرها والتى ترجع لعام ١١٢٦ وفى الوثيقة الأخرى التى ترجع لعام ١١٤٢. عند بيرو، ص ٦٩٨. حسب وثيقة ترجع لعام ١١٢٣، عند جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الأول، الفصل الخامس، المذكرة ٤، قد كلف الأدميرال تيودورو بأن يحل مع السكرتير جوارينو، سكرتير الملك، نزاعاً نشأ بين أسقف مدينة ليبارى ومواطنى مدينة باتى التابعين له. وتذكر الوثيقة المذكورة التى ترجع لعام ١١٢٦، وفقاً لنص دى جروسيس، تذكر ادميرالاً يُدعى نيكولو، الذى كان، على مايبدو، قد كُلف من قِبل الأمير خلال فترة توليه منصب ستراتيجى ما سكالى بتعيين حدود تلك الأرض.

(2) الكتاب الخامس، الفصل التاسع، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥ .

(3) رئيس دير تيليزى، فى كتاب كاروزو، .*Bibl. Sicula*، ص ٢٦٧ .

(4) وقع مـاجونى باللاتينية ادميرال الأدميرالات، فى وثيقـــة عربية ترجع لعام ١١٥٤ عند جريجـــوريو *De Supputandis*، ص ٣٨. وكانوا يلقبـــونه عـــــادة الأدميرال العظيم كمـــا يتضــح لدى فالكاندو والمؤرخين الآخـــرين. وكان هـــذا اللقب المعـــدل قد اصبح لقباً مألوفاً لدرجة ان جوفانى بن جورجو الأنطاكى قد نسبه إلى والده حين وقّع υἱὸς μεγάλου ἀμηράδος فى وثيقة ترجع لعام ١١٧٢. محفوظات كنيسة بالاتينا فى بالرمو ص ٢٩. وفى وثيقة لاتينية ترجع لعام ١١٥٧، عند بيرو، .*Bibl. Sicula*، ص ٩٨. واصدرها باسم الملك ماجونى، ادميرال الأدميرالات العظيم. نقرأ اسماء الأدميرال استيفانو ابن الأدميرال العظيم، وادميرال اخر يُدعى ايضاً ستيفانو، والذى نعرف عن طريق فالكاندو انه كان اخاً لماجونى وادميرال اخر من سالرنو. وقد عاش فى تلك الأزمنة الأدميرال الآخر الذى يُدعى اوجينيو، الذى تم ذكره منذ قليل، ص ٣٤٨، هامش ١.

الأدميرال وزيراً للملك للشئون البحرية(1)؛ وفى خلال قرن من الزمان انتقل ذلك اللفظ إلى بلدان أخرى واقتصر على الدلالة على لقب «قائد الأسطول»(2) لدرجة أن العلماء العرب فى القرن الرابع عشر عندما وجدوا أن هناك فارقاً بين اللفظ وبين اختصاصاته الوظيفية، لم يتعرفوا على اللفظ العربى أمير، فى لقب أدميرال الإيطاليين أو الأسبان(3).

فى صقلية إذن وفى منتصف القرن الثانى عشر تغيرت وظيفة

---

(1) ومن الوثائق المشهورة وثيقة فبراير ١١٧٧ التى نص فيها جوليلمو الثانى ملك صقلية على هدية عروسه جوفانا التى كانت من انجلترا ومن كبار رجال المملكة الذين وقعوا على هذه الوثيقة المرتبين حسب مقامهم فى الدولة. نقرا: عند الخامس والعشرين ما يلى: *Ego Walterus de Moac Regni (sic) fortunati stolii admiratus* ويأتى قبله كبار الأساقفة، والأساقفة، ونائب رئيس الديوان، والكونتات، وبعد جوالتيرو نقرأ أسماء ومناصب أخرى. ورد ذلك فى طبعة رايمر *Foedere, etc*. المجلد ١، ص ١٧ (لندن ١٨١٦).

وكان مارجاريتونى قائد الأسطول الصقلى الشهير فى نهاية القرن الثانى عشر يلقب فقط بادميرال ملك صقلية، فى أخبار سيكاردو أسقف كريمونا، عام ١١٨٨، فى كتاب موراتورى، *Rer. Ital. Script.*، المجلد السابع، ص ٦٠٥.

(2) يبدو ان أهل جنوة هم أول من استخدموا هذا اللقب بعد أهل صقلية. فى حوليات كافارو وفى تتماتها نقرأ عن *admiratus* ادميرال جنوة ١٢٤١، وبعد ذلك نقرأ عن اثنين لُقّبا *armiragii* ادميرالات عام ١٢٦٣ إلى آخره لدى موراتورى، *Rer. Ital. Script.* المجلد السادس العامود ٤٨٦ و٥٣٠.. إلخ. ومن الملاحظ ان أول لقب لأدميرال قد أطلق فى جنوة عام ١٢٤١. عندما. حل فيدريكو الثانى انسالدو دى مارى، وهو من جنوة، محل الأدميرال نيكولو سبينولا الذى كان قد توفى.

(3) النويرى. ذكره م. رينو. *Invasions des Sarrezins*. ص ٦٩. هامش ١. حيث يتحدث عن أمير الماء فى أسبانيا. لكنى لا أستطيع أن اتفق مع أستاذى فى اللغة العربية فى ان هذا هو أصل لقب ادميرال. عندما نلاحظ فى وضوح تلك التغيرات التى طرأت عليه لدى الكتاب وفى الوثائق الأوربية. وللسبب نفسه فاننا نرفض التفسير اللغوى الذى ذكره قاموس لاكروسكا أى أمير البحر. ولم أجد أبداً هذا اللقب فى الكتابات العربية. وابن خلدون فى مؤلفه **المقدمة**، فى نص باريس، الجزء الثانى، ص ٣٢. وترجمة البارون دى سلان إلى الفرنسية، الجزء الثانى، ص ٣٧. لأنه يجهل أصل كلمة الميلاند. اعتقد انها لفظة فرنسية، وفى **تاريخ البربر** يبدو انه اعتقد ان لقب ادميرال روجير لوريا هو اسم علم (ويجب ان يقرأ المراليا بدلاً من المراكيا الذى لا معنى له)، نص الجزائر، المجلد الأول، ص ٤٢٣ **المكتبة العربية - الصقلية** ص ٤٩٢. ترجمة دى سلان المجلد الثانى، ص ٣٩٧. ولا أستطيع أن أتفق مع وجهة نظر العلامة المترجم الذى يرى أن ميراكيا هى تحريف للفظ ماركيز. وروجير لوريا لم يلقّب أبداً بهذا اللقب.

الأمير، بعد أن اتخذ اللفظ شكله اليونانى واللاتينى بوقت طويل. ولا تتضح لنا كيفية حدوث ذلك التحول من الوثائق ولم يتحدث عنها المؤرخون، ولكن نظراً لنشأتها المؤكدة من الظروف الخاصة بالإدارة العامة فى صقلية، فإننا نستطيع أن نعثر على أصولها دون أن نلجأ إلى مشقة التخمين. إن سلطة الأدميرال المسيحى فى بالرمو، وهى سلطة نائب الملك فى عهد روبرتو وفى عهد روجيرو الأول، وكانت سلطة مقصورة على المدينة وفى نطاق أراضيها، تلك السلطة كان لابد أن تتغير عندما استقر البلاط فى العاصمة وازداد بها عدد الأهالى المسيحيين. وعملاً بالمبدأ القانونى السائد فى صقلية فى ذلك العصر، بأن يحاكم كل جنس طبقاً لشريعته، كان لابد أن تتقلص سلطة الأدميرال فى بعض جوانبها وأن تتسع فى جانب آخر وأن يترك شئون المسيحيين بالمدينة لغيره من وزراء الأمير؛ وأن تمتد سلطته إلى شئون المسلمين فى الجزيرة كلها حسب طبيعتها الخاصة، أى سلطة القيادة العسكرية وكامل السلطة المدنية، فيما عدا الأحكام المخصصة «للقضاة». أما وقد اقتصرت أهمية قوات المسلمين العسكرية بعد الهزيمة، على الأساطيل فقط، فالجنود المشاة والخيالة كان يتم استدعاؤهم عند الحاجة إليهم فقط وبأعداد قليلة جداً بالمقارنة مع جيوش الإقطاع؛ وبعد انتهاء العملية العسكرية كانوا يُسرحون إلى ديارهم، إلا بعض الفرق المرابطة: ونستطيع أن نتصور بالرمو، شأنها شأن مدن أميرية أخرى كانت مدينة معفاة من الخدمة العسكرية البرية وملزمة فقط بالخدمة البحرية. ويدفعنا ذلك إلى التفكير فى أن الأسطول، وهو القوة الوحيدة الدائمة للدولة، كان يتطلب الرقابة المستمرة على نظام جنود البحرية وعلى صيانة السفن والمعدات وتوفير السلاح والتموين: وكان من بين من يعملون على متنه رجال مسلمون(1)، وكان يعهد بتلك الأمور لمسلمى بالرمو،

(1) يؤكد هذا الأمر، فى عمليات الملك روجيرو بأفريقيا، النويرى وابن أبى دينار، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٢٤، ٥٢٧.

حيث إن ترسانة مسينا(1) كانت تحتل مكانة ثانوية حتى منتصف القرن الثانى عشر. ومن ثمة فإن الأدميرال، بالإضافة إلى وظيفته المدنية، كانت وظيفته تتفق مع ما نسميه نحن اليوم وزير البحرية، إلى جانب توليه قيادة الأسطول وقت الحرب، متى كان أهلاً لذلك: وكان يزاول دائماً سلطاته المدنية والجنائية على الجنود ورجال البحرية(2) وخلال حكم روجيرو الثانى ومع مركزية كافة أفرع الإدارة العامة وتنظيمها، ازداد عدد الموظفين، وتطلبت شئون السكان المسلمين الكثير منهم ممن منحوا أيضاً لقب أمير: وأطلق على وزير الدولة لشئون المسلمين، مثل جـورج الأنطـاكى الذى كان أعلى من الآخرين، أمير الأمراء، ولما كان جورجو يتمتع بقدرة فائقة على الإدارة وقائداً موفقاً للأسطول، فقد تولى بالفعل مهام رئيس الوزراء،

---

(1) الإدريسى، الموضع المذكور منذ قليل، ص ٣٤٥، هامش ٢.

(2) أعتقد أنه يمكن التأكيد على الصفة القضائية المدنية والجنائية التى كانت للأدميرال الكبير فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، حتى إن لم نستدل عليها من خلال المستندات إلا بعد مائة عام. فمن المعروف على وجه العموم أن الامبراطور فيدريكو الثانى قد جدد العمل بنظم ملوك النورمان، وبدلاً من أن يغيرها. وليس هناك داع لأن نفترض بأنه قد غير شيئاً يذكر فى اختصاصات الأدميرال العظيم. والآن فإن وثيقته، التى تم نشرها أولاً من قبل توتينى ثم أعيد طبعها من قبل هويارد - بريهول فى *Historia Diplomatica Friderici secundi*، المجلد الخامس، ص ٥٧٧ وما بعدها، عام ١٢٣٩، وهى الوثيقة التى من خلالها قام بتعيين، أدميرالاً لصقلية، مدى حياته، نيكولو سبينولا الذى كان من جنوة، وتلك الوثيقة تمنح ذلك الأدميرال نيكولو سلطة واسعة، أولاً: بناء وصيانة سفن الأسطول الملكى. ثانياً: منح تراخيص إبحار واغتنام العمل على تعويض الأضرار التى تقع وتلحق برعايا أمم صديقة. ثالثاً: الحكم بوجه عام *secundum statum (statutum) et consuetudinem armate*، ذلك فى القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالأشخاص التابعين للأسطول، والترسانات الملكية وسفن القراصنة مع سلطة تفويض الغير فى ذلك. رابعاً: منح المناصب المعاونة فى الأسطول عندما تكون شاغرة. خامساً: صرف الأموال من الخزانة الملكية من أجل احتياجات الأسطول: تأتى بعد ذلك المكاسب المختلفة والعظيمة جداً المخصصة للأدميرال، سواء فى الحرب أو فى السلم، سواء على عاتق الدولة أو البحارة، أو مرتادى البحر. وبخصوص المحاكم التابعة للأدميرال والتشريع الاستثنائى الخاص بها، انظر جانونى *Storia Civile del Regno di Napoli*، الكتاب الحادى عشر، الفصل السادس، § ٢. والمراجع التى ذكرها.

ووزارتى السيف والقلم، كما كان يقال فى العديد من الدول الإسلامية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر: ثم إنه لايبدو غريباً أن مسيحياً، كان وزيراً لشئون المسلمين. يمكن أن يكون ما نطلق عليه الآن رئيس مجلس الوزراء. غير أن اختصاصات الأدميرال الكبير ورئيس الديوان كانت تتصادم فيما بينها لطبيعتهما ذاتها ولعدم وجود حدود واضحة فيما بينهما، تلك الحدود التى كانت تتغير مع وصول مستوطنين جدد وتحول القدامى عن دينهم. وهذا التصادم فى الاختصاصات وإن لم يؤثر بالضرر فى عهد روجيرو وجورجو، إلا أنه تسبب فى ارتباك أحوال الدولة، فى عهد جوليلمو الأول، ثم بعد وفاة ماجونى، استمرت حالة الفوضى والارتباك تلك فى أرجاء الدولة. ويبدو فى النهاية أن رئيس الديوان ثم بعد ذلك مجلس الديوان، أخذا يديران الشئون المدنية للمسلمين، تلك الشئون التى أخذت تتناقص مع انخفاض عدد المسلمين وثرواتهم. اختفت عندئذ مناصب الأدميرال، وظهرت محلها وظائف أخرى بالقاب اوربية؛ وظلت فقط إدارة شئون البحر ثابتة قوية وظل معها الأدميرال الذى كان يتولى قيادتها. ثم إن وحدة القيادة هذه فى الوزارة والقضاء، أو كما نقول اليوم، هذه الإرادة الواحدة، هى التى كانت تستعد فى السلم وتقوم بالقيادة فى الحرب وترأس القضايا الخاصة بالأشخاص والشئون الخاصة بالبحرية، هذه الوحدة فى الإرادة بدت لدول أخرى شيئاً جميلاً؛ ومن ثم قلدوا هذه الوظيفة بتفاوت بسيط واطلقوا عليها القب نفسه الذى كان يستخدم فى صقلية. وهذا هو افتراضى، والآن أعود إلى سير الأحداث الذى ينبغى أن نذكر فيه فى المقام الأول الأدميرال جورجو.

إن المذكرات العربية لأواخر الأمراء الزيريين، تختلف كثيراً عن الحوليات الصقلية فيما يتعلق بنشأة ذلك الأدميرال. ولم نتبين على اى سند افترض بيرّو أنه ابن الأدميرال كريستودورو اكريستوفورو، ثم أضاف إليه لقب عائلة روتسيو، الذى يبدو لى أنه خطأ نجم عن

اختصــار ورد فى الوثائق اليونانيـــة(1). وطبقـــاً للكتـاب العرب فإن چورچو كان احد الوزراء المرتزقة، يهوداً كانوا او مسيحيين، ممن كان الأمراء الشرقيون يعهدون إليهم غالباً بإدارة خزانة الدولة، لنقص المتخصصين فى تلك الشئون من الرعايا المسلمين. لقد نزل هو ووالده الذى يُدعى ميكيلى، وهما من مسيحيى أنطاكية، فى بلاط تميم، أمير المهدية (١٠٦٢ ـ ١١٠٨)، الذى كان محباً لمثل هؤلاء المغامرين(2)؛ ولذا شق چورچو طريقه بنجاح فى ذلك القصر، ذلك لأنه كان يجيد اللغة العربية ولأنه مارس مهنة المحاسبة(3) بنجاح كبير فى سوريا أو لأنه، حسب اعتقادى، قد أجاد إدارة الشئون العامة فى ذلك الإقليم. وبالتالى عينه تميم فى منصب مماثل بدولة المهدية: حيث زادت بفضله إيرادات الدولة. غير أنه فى أعقاب وفاة ذلك الأمير (مارس ١١١٨)، خشى چورچو من انتقام يحيى الذى خَلَفَه، والذى كان يكره، كما يحدث عادةً، ذلك الوزير المفضل لدى والده. لذا اتفق مع بلاط روچيرو(4) الذى كان يبحث عن أدوات من هذه النوعية، إذ كان لديه رعايا مسلمون يريد أن يحصّل منهم المال، وجيران من الأمراء يريد التصدى لهم. وأرسلت سفينة خصيصاً له من صقلية، ذهبت على أنها تحمل رسائل إلى قصر المهدية؛ وقد اغتنم چورچو فرصة وقت صــلاة الجمعة وبينما كان المسلمون يؤدونها. صـعد هو

---

(1) انظر الهامش ٢ ص ٣٤٩. اسـم المائلة هذا لا يظهر فى أية وثيقة من وثائق بيزّو التى ذكر فيها كريستودولو او چورچو؛ ولا حتى فى الكتابة المنقوشة الموجودة على شاهد قبر والدة چورچو والذى ذكرناها منذ قليل فى ص ٢٥٠ هامش ٢. إن روموالدو سالرنيتانو، الذى ربما عرفه شخصياً، لا يقول عنه سوى: *Georgium virum utique maturum, sapientem et discretum, ab Antiochia abductum.* فى كتاب عند موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ص ١٩٥.

(2) البيان. نص ليدن، ص ٣٢٢. وفى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٢٧٢. يقول إن والد چورچو كان واحداً من العلوج (الأجانب او البربر) لدى تميم.

(3) الحساب.

(4) تقول النصوص «مع روچيرو». إلا ان بقية الرواية تدل على ان الأمير لم يستخدمه فى البداية فى أعمال ذات أهمية كبيرة.

وذووه، متنكرين فى زى بحارة، إلى السفينة الصقلية فى سرعة وخفة، حتى إنه لم يتنبه إليهم رجال القصر إلا بعد فوات الأوان حين ابتعدت السفينة فى عرض البحر. وعندما وصل أولئك المغامرون الأنطاكيون إلى صقلية قام عبد الرحمن النصرانى، وهو وزير مالية(1)، كما نقول نحن، باستخدامهم فى جمع الضرائب، وهى الوظيفة التى اكتسبوا فيها شهرة بفضل مهارتهم ونزاهتهم. ولما احتاج الملك أثناء ذلك إلى رجل موضع ثقة ليرسله إلى مصر، اقترح عبد الرحمن عليه چورچو الذى قام بالمهمة على أكمل وجه وحقق من ورائها مكسباً ضخماً ونال حظوة لدى الملك(2). وفى هذا الصدد يقول التيجانى: وهكذا نرى أن المهمة التى أوكلت إلى چورچو كانت مهمة تجارية، من تلك المهام التى تدر مالاً وجاهاً لأمراء صقلية فى القرن الثانى عشر والثالث

---

(1) ابن خلدون، فى **تاريخ البربر**، نص الجزائر، المجلد الأول، ص ٢٠٨، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٨٧ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٦ كان يضيف اسم الأب ابن عبد العزيز إلى اسم عبد الرحمن الذى قاد مع چورچو الأسطول الصقلى فى العملية التى جرت عام ١١٢٦ ضد أفريقيا. واعتقد أن ذلك هو الشخص نفسه الذى ذكره التيجانى، عند حديثه عن بدايات چورچو الأنطاكى، وأسماه عبد الرحمن النصرانى. ولكنى أعلق وأقول إن التيجانى، وهو عادة غاية فى الدقة، ما كان منه أن يهمل هنا اسم والده وهو يعنى وقوع الوزير الصقلى فى عار الرِّدة؛ وابن خلدون يهتم أكثر بالأشياء أكثر من اهتمامه بالأسماء، بالإضافة إلى أن كتاباته قد وصلت إلينا، بعد أن تم نسخها مرات ومرات على مدى أربعة قرون ووصلت إلينا فى حالة غير جيدة، ولا أود أن سطراً أو أكثر، كما يحدث أحياناً، عندما يتكرر لفظ بذاته: قد نُسب من جراء ذلك إلى وزير مالية روچيرو اسم عبد الرحمن بن عبد العزيز، والذى كتب بالفعل عن عملية عام ١١٢٦ هذه، وقد ذكره أبو الصلت نقلاً عن **البيان**، ص ٣١٧ فى نص ليدن وص ٢٧٢ من **المكتبة العربية ـ الصقلية**. إن المنصب الذى ينسبه التيجانى لعبد الرحمن النصرانى هو «صاحب الأشغال»، والذى كان يعنى فى أفريقيا وفى القرن الثانى عشر، وهما المكان والزمان اللذان يرجع إليهما هذا الحدث الذى نسخه وأوجزه التيجانى، كان يعنى مسئول الخزانة العامة أو وزير المالية. انظر ابن خلدون، *Prolegomènes*، ترجمة البارون دى سلان، الجزء الثانى ص ١٤ و١٥.

(2) قارن فى **المكتبة العربية ـ الصقلية** بين: **البيان**، عام ٥٤٣، ص ٢٧٢: والتيجانى، ص ٣٩٢: وابن خلدون ص ٤٨٧ و٥٠١: إن أكثر التفاصيل دقة وردت عند التيجانى.

عشر(1). وتتفق الوثائق الملكية مع الرواية العربية أكثر مما تتفق مع افتراضات بيرو. يظهر چورچو الأنطاكى نحو عام ١١١١ فى وظيفة متواضعة بچاتينى(2)؛ وفى عام ١١٢٣ يرافق عبد الرحمن قائد أسطول صقلية فى حملته الفاشلة فى رأس ديماس(3)؛ وفى عام ١١٢٦ ورد ذكره فى وثيقة ملكية بلقب أدميرال وليس أكثر من ذلك: ثم بعدئذ نراه لأول مرة فى عام ١١٣٢(4) يلقب بلقب أدميرال الأدميرالات. من جانب آخر فإن المناصب العليا فى إدارة البلاد وفى الحرب التى ينسبها المؤرخون المسلمون إلى المسيحى عبد الرحمن ما بين ١١٠٨ و١١٢٣، لا تنطبق فى صقلية على شخصية كبيرة أخرى سوى الأدميرال كريستودولو، حيث إن اسمه يتفق أيضاً مع فارق بسيط مع عبد الرحمن(5) ويبدو أنه كان أحد المسلمين الصقليين من الجنس الإيطالى أو اليونانى، الذين رجعوا إلى المسيحية، بعد الغزو واستوظفهم الأمير فى الوظائف العامة.

إن شهادة الكتاب العرب مثلها مثل الوثائق المسيحية بصقلية فى شأن چورچو الأنطاكى، تؤكد السلطة المدنية للأدميرالات، مهما اختلفت الآراء حول وجهة نظرى بخصوص نشأة هذه السلطة. إن

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل العاشر ص ٢٢٨ من هذا المجلد. وما سوف نذكر بعد ذلك عن تجارة روچيرو فى أفريقيا. وغنية عن التعريف تلك الأعمال التجارية الشهيرة الخاصة بالامبراطور فيدريكو الثانى.

(2) وثيقة عام ١١٣٣ اللاتينية، عند بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧٣ ـ ٧٧٤. قد كُتب الاسم مرة خطأ جريجوريوس وكتب اسم المكان كاتينا ويجب أن يكتب چاتهنى كما ذكرنا فى الكتاب الخامس، الفصل العاشر ص ٣١٢، هامش ٣. من هذا المستند لا نعلم بالضبط فى أى وقت تسلم چورچو ذلك المنصب فى چاتهنى، إلا أنه كان بالتأكيد قبل عام ١١١١. ذلك لأنه من خلال تلك الوظيفة وعين حدود قطعة أرض قد وهبها فى ذلك العام رينالدو أفينيل إلى رئيس دير لبارى، بيرّو، المرجع المذكور، ص ٧٧٢ ـ ٧٧٣.

(3) التيجانى وابن خلدون، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٣٩٤، ٤٨٧؛ وأولهما أيضاً فى ترجمة م. روسو الفرنسية، ص ٢٦٤. والثانى فى ترجمة البارون دى سلان، *Histoire des Berbères*، المجلد الثانى، ص ٢٦.

(4) لقد ذكرنا منذ قليل هاتين الوثيقتين فى ص ٣٤٩ هامش ٢ وص ٣٥٠ هامش ٢.

(5) أحد الاسمين هو «عبد المسيح» والثانى هو «عبد الرحمن».

خاصية القانون الصقلى العام هذه التى قلما حظت بالاهتمام حتى هذه اللحظة، إنما تساعدنا على فهم الظروف التى مرت بها الدولة خلال فترة حكم كل من جوليلمو الأول والثانى وذلك بشكل أفضل مما لو اتبعنا مجرد ترتيب مناصب التاج السبعة الكبرى(1)، إذا ما افترضنا مع جريجوريو أن الأمر كان منذ عهد الملك روچيرو تماماً كما كان عليه فى أواخر عهد جوليلمو الصالح، وأن سلطة تلك الوظائف كانت تمتد إلى الرعايا كلهم، مسيحيين ومسلمين. وعادت عناصر الإدارة الإسلامية لتطفو على السطح عندما أعيد النشاط للعاصمة القديمة. وأقصد هنا المؤسسات والبشر أيضاً. محاربون ممن اتبعوا فى داخل البر الإيطالى الكونت الأول. ورجال بحر، وقضاة، وكتبة، وتجار، ومُعلمون، وخدم. تتفاوت بينهم محبتهم للغير، وفيهم المنحلون والمتشددون؛ ومن يتكلم لغتين أو ثلاث لغات. ومنهم من يترجّم بين ديانتين أو ثلاث، مولعون بالأدب العربى والعلم اليونانى، هواة للفن البيزنطى وأشكاله الفنية التى انتشرت فى سورية ومصر وأسبانيا: هكذا أتخيل أولئك المسلمين واليونانيين الذين كانوا فى صقلية، وجذبهم البلاط الجديد، بشكل تلقائى فى قصر بالرمو الأعلى، ومعهم الشرقيون من نوعية چورچو بالإضافة إلى الكرادلة والقساوسة والنبلاء من إيطاليا وفرنسا. لقد اتسقت تلك العادات المتنافرة وانسجمت لفترة طويلة وتمخضت خلال القرن الثانى عشر عن رجلى دولة عظيمين: كليهما يتيم، بلغ النضج مبكراً بين اضطرابات وقلاقل بلاط بالرمو، وكانا متشابهين أيضاً فى الطباع والثقافة، فكلاهما مُشرّع، ضليع فى الإدارة، شغوف

---

(1) إن جريجوريو، فى وصفه لتنظيم الحكومة فى عهد الملك روچيرو والمناصب السبعة الكبرى فى المملكة، نادراً ما يرجع إلى وثائق معاصرة؛ فهو يأخذ بوثائق نهاية القرن الثانى عشر والثالث عشر أيضاً: أو يستخلص من أقوال فالكاندو، الذى كتب فى نهاية القرن الثانى عشر؛ وأحياناً لا يذكر سوى التشابه مع النظام المفضل بالنسبة له وهو نظام جوليلمو الأول، ملك انجلترا. انظر. *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى والهامش ٣٧ بنوع خاص وما بعده.

بكل أنواع العلوم، وفيلسوف أكثر منه مسيحى؛ إنهما ذلكما السلطانان المُعَمَّدَان اللذان حكما صقلية، واللذان تدين لهما إيطاليا بقدر ليس بالقليل فى تحضرها، إنهما الملك روجيرو الأول والامبراطور فيدريكو الثانى.

إن تربية الأمير الجديد تربية شرقية لم تعد بالنفع على الحكومات الإسلامية المجاورة. وبينما كان يقوم هو فى الداخل بتنظيم إدارة الحكم، والجيش والأسطول، ويحفظ النظام والأمن العام بكل صرامة(1)، وبينما كان يثير المشاكل مع دوق بوليا ويهدده بخطر أعظم بصداقته(2)، كان روجيرو يتطلع إلى وراثة إمارة تحتضر فى أفريقيا. فلقد باءت مجهودات الزيريين فى المهدية بالفشل فى إحياء سلطانهم القديم ضد الزيريين فى بوجا، والعرب البدو والملوك من الفصائل العربية الأخرى أو البربر الذين اغتصبوا المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى(3). وفى الحقيقة، فإن تميماً، بعد هجوم الرابطة الإيطالية عام (١٠٨٧)، كان قد ضم ثم فقد، ثم استرد أماكن شتى(4) بل أظهر قوته للمسيحيين، ولا نعلم مسيحيى أية دولة، الذين قاموا (فى ٢٢ سبتمبر ١١٠٤ إلى ١١ سبتمبر ١١٠٥) بالهجوم على المهدية وأغلقوا الترسانة بقوة ضخمة من الشانيات، تحميها من الخلف ثلاث وعشرون سفينة أخرى. إلا أن الأسطول الزيرى، تمكن بعد أن تكبّد خسائر كبيرة من كسر الحصار المعادى وصده وإبعاده(5) واستعاد

---

(1) رئيس دير تيلهزى.

(2) روموالدو سالرنيتانو فى موراتورى. *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ص ١٨٣. عام ١١٢١ ـ ١١٢٢.

(3) انظر الكتاب الرابع، الفصلين الثامن والخامس عشر ص ٣٦٤ وما بعدها. وص ٣٧٣. ٥٥٧ من المجلد الثانى والكتاب الخامس. الفصلين الثالث والسادس ص ٨٧ و١٦١ و ١٧١ من هذا المجلد.

(4) ابن الأثير. أعوام ٤٧٦ و٤٨٢ و٤٨٨ و٤٨٩ و٤٩١ و٤٩٣. طبعة تورنبرج. المجلد العاشر. ص ٨٥ و١١٩ و١٦٤ و١٧٥ و١٩١ و٢٠٢. قارن مع ابن خلدون. *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٢ وما بعدها.

(5) بيان المغرب، طبعة دوزى، المجلد ١. ص ٣١١ ومستل. فى المكتبة العربية.

يحيى، ابن تميم وخليفته، هو أيضاً بعض الأراضى، وأرسل الأسطول يتعقب المسيحيين بنتائج ناجحة، متفاوتة فى قدرها(1)؛ حيث زوده بالنار اليونانية(2)، وسبب ازعاجاً وقلقاً، أو ربما قدم خدمات لتجارة

الصقلية، ص ٢٧٠. إن الكاتب الذى أطلق اسم الروم على المهاجمين فى عام ١٠٨٧، إنما يطلق أيضاً اسم الرومانيين على الذين هاجموا فى عام ١١٠٥: فهل كانوا بيزنطيين؟

(1) ابن الأثير، أعوام ٥٠١ و٥٠٩ و ٥١٠، طبعة تورنبرج، المجلد العاشر، ص ٣١٥ و٣٥٩ و٣٦٥؛ وابن خلدون، المجلد المذكور، الترجمة، ص ٢٤ و٢٥.
وفقاً لابن الأثير، عام ٥٠٣، فى المجلد المذكور، ص ٣٣٦، فقد أرسل يحيى فى ذلك العام ١٥ سفينة ضد الروم وقد حاربها أسطول الروم واستولى على ٦ من هذه السفن. ووفقاً للبيان، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، بالموضع السابق، وفى طبعة دوزى، المجلد الأول، ص ٣١٤، فإن الأسطول الزيرى قام فى ربيع الثانى فى عام ٥٠٧ (منتصف أكتوبر إلى منتصف نوفمبر ١١١٣) بحمل عدد كبير من الأسرى إلى المهدية، تم القبض عليهم فى بلاد الروم؛ وربما يتفق هذا مع هجماته وغاراته فى تخوم سالرنو، وهى الغارات التى تذكرها حوليات كافا، عام ١١١٣ فى موراتورى، *Rer. Ital. Script*، المجلد الثامن، ص ٩٢٣. وفى ابن خلدون، المرجع السابق، المجلد الثانى ص ٢٥ من ترجمة دى سلان، ورد أن الأسطول الذى كان يوليه يحيى اهتماماً خاصاً، قام بغارات كثيرة ضد المسيحيين الفرنسيين وأهل جنوة وسردينيا إلى أن اضطروا إلى أن يدفعوا له إتاوة، والنص العربى الذى نشره العالم المستشرق نفسه، المجلد الأول، ص ٢٠٧، يبدو به تلف عند هذا اللفظ الذى قد يعنى إتاوة. على أية حال فإن اسم الفرنجة يمكن أن يعنى به البلدان المسيحية فى أسبانيا وفى إيطاليا أيضاً وربما كان قد تم الاتفاق فى ذلك الوقت على الإتاوة مع بعض الأشخاص فى سردينيا، وليس مع أهل جنوة وبيزا. وابن خلدون لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة.

(2) هذه هى المرة الأولى، على حد علمى، التى تذكر فيها عند المسلمين فى أفريقية، النار اليونانية، أو كما يسميها العرب النفط: وقد استخدمها مسلمو صقلية فى الحرب ضد النورمان، إذا كانت أبيات قصيدة لابن حمديس تشير إلى هذه الحرب. وقد ذكرت تلك الأبيات فى الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر، ص ٥٤٢ من المجلد الثانى، والكتاب الخامس، الفصل السادس، ص ١٦٧، هامش ٢ من هذا الكتاب. وكان النفط معروفاً فى مصر بكل تأكيد لأن المقريزى فى كتاب **المواعظ**، نص بولاق، المجلد الأول، ص ٤٢٤، وهو يروى الحريق الذى دمر أحد مخازن الأسلحة بالقاهرة فى عام ٤٦١ (١٠٦٨ - ١٠٦٩) يقول إنه احترقت حوالى عشرة آلاف قربة من النفط وما يعادل الرقم نفسه من الزراقات أى مواسير لإطلاق تلك المادة. ويبدو لى أن تأثير نفط المسلمين لم يكن فظيعاً مثل النفط المستخدم فى نار الإغريق. والكتاب النورمان لا يذكرونه فى الحرب الصقلية ولا فى الحروب الأفريقية، التى تتناولها فى هذا الفصل. كما لم يتحقق النصر أبداً فى ذلك العصر للأسطول الزيرى ضد الإيطاليين.
وابن حمديس ذاته ومعه بعض الشعراء الآخرين الذين كانوا ينظمون الشعر فى بلاط

البيزنطيين، لدرجة أن اليسيو كومنينو، قد أرسل مبعوثين إلى المهدية يحملون الهدايا عام ٥٠٩ هجرية (١١١٥ ـ ١١١٦) ويتفاوضون على اتفاق(1). فى تلك الأثناء كان مازال قائماً ذلك السلام الذى وقعه كونت صقلية الأول مع تميم(2)؛ وازدهرت التجارة ونمت لدرجة أنه فى عام ١١١٧ كان لروجيرو الثانى وكلاء كثيرون فى المهدية يتعاملون فى أموال ضخمة، كما سوف نرى فى سياق سرد الأحداث

المهدية الفقير فى اخر عهد الزيريين. يذكرون النفط كوسيلة تدميرية فظيعة: «إنه أعجوبة». هكذا كان يتعجب ابن حمديس، دون أن يقرأ تقرير معركة ميتانا. إن النفط، على حد قول أولئك الشعراء: ١ـ كان يطفو على سطح المياه ولا ينطفئ؛ ٢ـ كان يبرق ويطلق الدخان ويدوى ويطلق رائحة كريهة كأنها من جهنم: ٣ـ كان ينطلق على شكل ألسنة من اللهب من مواسير من النحاس أو البرونز؛ ٤ـ كانوا يطلقونها بالسهام: ٥ـ كان ذلك النفط، أو نوع منه، أبيض مثل الماء. كان ذلك فى عهد يحيى، وعلى وحسن، أى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. انظر الأشعار التى نشرت فى **المكتبة العربية ـ الصقلية** ص ٣٩٢ و٥٦٥ وقصائد أخرى لم تنشر من ديوان ابن حمديس فى نسخته المخطوطة الموجودة فى الفاتيكان، والتى أعدها الأستاذ شهوان تلبية لطلب الكونت مينيسكالكى، ص ٧٥ و٧٧ و١١٨ و٢١٣ و٢٤١ و٢٧١ وتنتهى قوافيها ب: دى، دى، رى، مى، نا، سا. ويشير أيضاً النويرى إلى النفط الذى استخدمه الأسطول الزيرى. **المكتبة العربية ـ الصقلية** ص ٤٥٦. لقد ذكرت هذه النصوص إضافة إلى الأحداث التى تم نشرها فى العمل العظيم المعنون *Du feu grégeois, etc.* الذى تم نشره من جانب السيدين م.م. رينو وفافيه، باريس ١٨٤٥.

(1) إن هذا الحدث الذى لا تشير إليه الحوليات البيزنطية او الإسلامية، نستقيه بالتحديد من ديوان ابن حمديس. فى الصفحة ٢١٢ سابقة الذكر من نسخة الأستاذ شهوان، والتى نقرأ فيها أن أحد الأسباب التى «دفعت حاكم القسطنطينية الكبرى إلى ان يدافع عن نفسه بالقلم ضد حد السيف الزيرى، إنما «هو الخوف» من ذلك الرمح الحارق الذى كان يطلق ويأتى بأثر عجيب حينما يطلق النار فى الموج الثائر ويشتعل. وبالإضافة إلى القصيدة المذكورة أعلاه كتب ابن حمديس ثمانى قصائد طويلة أخرى مدحاً فى يحيى، ونقرأها فى نسخة شهوان فى صفحات: ٢٤ و٤٩ و١١٦ و١٦٩ و٢٠٤ و٢٠٨ و٢١٠ و٢٦٧؛ وقوافيها متنوعة، والأولى والسادسة والثامنة منها نجدها أيضاً فى مخطوطة بطرسبرج الورقة ٦٢ الوجه الأول والثانى وفى الورقة ٦٣ الوجه الثانى. وقد ذكرت بيتين من الأولى فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٧٢ و٧ أبيات من القصيدة الثالثة نقرأها فى ابن الأثير، عام ٥٠٩ المرجع المذكور، ص ٢٨٠، وفى طبعة تورنبرج، المجلد ١٠ ص ٣٥٩.

(2) انظر الكتاب الخامس، الفصلين السادس والعاشر، الصفحات: ١٦١ و١٧٠ و٣٢٨ من هذا المجلد.

الذى سوف يوضح لنا نتائج التعاملات التى قام بها بلاط بالرمو فى أوساط العرب ممن يشغلون الحكم أو من الحكام المتمردين بالمدن البحرية. وحتى لا يكون للزيريين فى المهدية خصماً، غير صديق لروجيرو، فإن بنى حماد كانوا يتنافسون هم أيضاً معه فى كسب الود؛ وحسب قول بيترو دياكونو كان بعض الرهبان البندكتيين، فى طريق عودتهم ذات مرة من سردينيا إلى البر الإيطالى فقام قراصنة أفارقة بخطفهم، وأطاحت الرياح بالسفينة إلى صقلية؛ وعندما طُلب من الكونت أن يحرر أولئك الرهبان، فبدلاً من أن ينتزعهم من أيدى المختطفين، أرسل سفراء إلى ملك مدينة كالامينسى التى أطلق عليها العرب اسم «القيلة» فاطلق الملك سراحهم فى الحال(1). من هنا يتضح أن ثمة معاهدة كانت تربط أمراء صقلية النورمان مع ذلك الفرع من البيت الزيرى. وبعد هروب الأنطاكيين، اصبح من غير الممكن إخفاء كل تلك المكائد التى كان يقوم بها روجيرو عن أعين رجال القصر فى المهدية. ومع ذلك، ومن أجل المصالح المشتركة، فقد استمرت المحافظة على مظاهر الصداقة(2).

فى أعقاب وفاة يحيى (أبريل ١١١٦) فإن على، الذى تميز بطموحاته العالية، لم يسر فى طريق الحكمة الذى سار عليه والده. وكان رافع بن مكّان بن كامل وهو زعيم عربى، شبه حاكم على قابس وشبه مغتصب لها، قد بنى سفينة تجارية ضخمة بموافقة من يحيى، الذى أمده أيضاً بالأخشاب والحديد. وعندما كانت السفينة على أهبة الاستعداد أعلن الأمير الجديد أنه هو الوحيد صاحب الحق فى

---

(1) الكتاب الرابع، الفصل الخمسون. فى موراتورى. *Rer. Ital. Script.*، المجلد الرابع، ص ٥٢٣: وآل بنى حماد كان يطلق عليهم أصحاب القلعة، نسبة إلى اسم عاصمتهم الأولى قبل تحويل عاصمتهم فى حوالى عام ١٠٩٠ إلى بوجيه. انظر ابن خلدون، *Histoire des Berbères*. ترجمة دي سلان، الجزء الثانى، ص ٤٢ وما بعدها.

(2) لقد جاء التعبير عن هذا الحدث بصورة أفضل فى كلمات ابن الأثير الذى قال إنه كان بينه وبين على ود وخداع. وذلك قبل الخدمة التى قدمها روجيرو إلى رافع ابن مكّان. ويجب اعتبار هذه المشاعر قائمة من أيام عصر يحيى.

التجارة البحرية(1) وأفهم رافعاً أنه فى حالة خروج السفينة من الميناء فسوف يستولى عليها، وأرسل مع هذا التحذير ست سفن حربية إلى قابس بالإضافة إلى أربع شوان أخرى معاونة(2). عندئذ لجأ رافع إلى روجيرو متظاهراً، كما يقولون لنا، بأنه كان قد جهز السفينة لكى يرسل إليه فيها بعض الهدايا؛ ولكن من المرجح أن وزراء صقلية كانوا قد شرعوا فى إجراءات فى قابس ترمى إلى ترويج تجارة خزانة الدولة؛ ومهما كانت التفاصيل، فمن الواضح أن روجيرو كان يقف هناك بالمرصاد، مثل القوى الذى يتحين بقوته الوقت الملائم ليدخل دار جيرانه؛ وعليه فقد وعد رافعاً بالوقوف إلى جانبه وسرعان ما أرسل فرقة مكونة من أربع وعشرين شانية أخذت السفينة معها وتولت حراستها حتى صقلية. وكان ذلك فى عام ٥١١ هجرية (٤ مايو ١١١٧ إلى ٢٢ أبريل ١١١٨). وكان روجيرو يظن أن الأمير الزيرى لن يجرؤ على الغضب من ذلك. وفى الحقيقة فمند رؤية الأسطول الصقلى من المهدية وهو يضرب بأشرعته فى الخليج، وعندما لمس على بيده تواطؤ روجيرو، وهو الأمر الذى كان يتصوره من قبل ضربا من الخيال، جمــع كبـار الدولة واستشارهم فنصحوه بأن يتظاهر وكان شيئاً لم يكن بدلاً من إلغـاء الاتفـاقات مـع بلاط بالرمو. فعـارضهم علِى: وأمر بأن تطارد البقية الباقية من الأسـطول الصـــقليين فى البحر لتحافظ على الحظر مهما كان الثمن. وطبقاً لرواية التيجانى وقع

---

(1) يحسن أن ننقل نص تأكيد الكتاب المسلمين. ذلك النص الذى يوضح نقطة هامة من القانون العام فى ذلك العصر فى أفريقيا وربما فى صقلية. فحسب ابن الأثير فإن عليا قد أعلن أنه: «لا يجب على أى شخص فى أفريقيا أن يتنافس معى فى إرسال سفن محملة بالبضائع». وحسب التيجانى: «إن ذلك الأمير كان لا يطيق أن ينافسه أحد فى أفريقيا فى إرسال السفن».

(2) اترجم إلى *Galea*، حسب الاستخدام العام. الكلمة العربية شانه وشانيه. وأترك الكلمة الثانية باللغة العربية لأنى لا أعلم نوع السفينة التى تتفق معها. ولفظ حربية يعنى سفينة حربية. أما سفينة رافع فكان يطلق عليها مركب، ويقصد بها بوجه خاص «مركب ضخمة» كما كان يسميها ابن الأثير والنويرى، أما التيجانى فكان يسميها على وجه العموم «سفينة».

صدام دموى بين رجال بحرية الطرفين وكان فريق روچيرو قد وصل أولاً، وكانوا جالسين فى وليمة تم إعدادها خصيصاً لهم بأمر من رافع(1)؛ وطبقاً لرواية آخرين فإن الفريقين البحريين قد دخلا معاً، ومن ثم لم يتجرأ رافع على إبحار سفينته، ولم تحدث كذلك معركة بين الفريقين(2). ثم يؤكد الجميع أن الصقليين، إذ لم يكن باستطاعتهم استخدام القوة استخداماً مكشوفاً، فقد انسحبوا مخزيين(3). وانطلق رجال بلاط على يمدحون حكمته وبسالته وشجاعته؛ وأخذ الشعراء يتبارون فى الصور البلاغية كما نرى فى القصيدة التى نظمها الصقلى ابن حمديس ويسخر فيها من الصقليين الكفار الذين عجزوا عن مواجهة سيف على البتار وألسنة النيران التى انطلقت من سفنه عليهم(4). والفقرات المعاصرة التى نعثر عليها هنا وهناك فى مؤلفات المسلمين الأكثر حداثة تورد بقية الأحداث مع وجود ثغرات

---

(1) إن هذا الكاتب النابه يقول إن الصقليين، كانوا جالسين إلى مائدة الطعام، عندما علموا بوصول الأسطول الأفريقى، فأسرعوا إلى شوانيهم، ولكن الطريق قطع على غالبيتهم إلى البحر وقتل كثيرون منهم. وإذ يواصل التيجانى نقله عن المعاصر أبى الصلت يقول، «وقد نجا منهم من استطاع النجاة، بعد أن فر هارباً، خوفاً من الموت وليس لخفة ساقيه ويذكر التيجانى فى هذا المقام بعض الأبيات فى مدح على وقد نقلها عن شاعر يُدعى محمد بن عبد الله.

فى تلك الأبيات يتحدث الشاعر حقيقة عن انسحاب الأسطول الصقلى وعن الرعب والفزع الذى بثته السفن الزيرية فى قلوبهم. إلا أنه لا يتحدث عن اشتباكات ولا عن سفك دماء. وهكذا أيضاً فإن قصيدة ابن حمديس التى نقرؤها فقط فى مخطوطة مكتبة الفاتيكان فى ص ١٢٧ من نسخة الأستاذ شهوان، لا تشير أية إشارة إلى أية معارك، وإن أخذت تسهب فى وصف السفن الحربية التى أرسلها حاكم المهدية ضد الشوانى التى جاءت من صقلية إلى قابس (هكذا يجب تصحيح اسم فاس) أى *Fez* فى عام ٥١٢. ومن صمت المؤرخين وصمت الشاعرين على وجه الخصوص أرى أن التيجانى، عندما كانت بين يديه بعض القصص غير المكتملة لأبى الصلت، اختلط عليه الأمر بشأن الحملة الأولى التى نحن بصددها ومعركة حربية دارت بين على ورافع الذى ساعده روچيرو؛ وربما كان هذا هو النصر البحرى الذى أحرزه الزيريون والذى أشار إليه ابن خلدون قد ورد بتاريخ خطأ.

(2) ابن الأثير والنويرى وابن أبى دينار.

(3) ابن خلدون لا يذكر هذا الحدث.

(4) قصيدة تمت الإشارة إليها فى الهامش ٢ من الصفحة السابقة.

ملحوظة. وتحكى ان رافعاً، بعد ان اعلن تمرده، قاد بعض القبائل العربية إلى الميدان بالمهدية؛ وأن عليا قام برشوة أولئك العرب؛ وبعد اشتباكات مختلفة، وبعد أن انهكت المعارك الفريقين المسلمين، تصالحا معاً(1). فى تلك الأثناء كان روجيرو قد أرسل سفنه لمساعدة رافع، وأصدر أوامره باجتياح الساحل والسيطرة على سفن الزيريين؛ إلا آن هذه السفن هزمته؛ وربما أضيرت هى أيضاً فى هذه المعارك حيث تضيف المذكرات بعد ذلك أن صاحب المهدية عمل على إعادة تزويد أسطوله(2). وتَرجُحُ نتائج المعارك البحرية يتضح من الاتصالات التى لدينا أخبار تفصيلية عنها إذ تقول: إن أمير صقلية قد أرسل يطلب، فى تعال، تجديد المعاهدة وإعادة الأموال التى تمت مصادرتها من عملائه فى المهدية؛ وإن عليا قد وافق على ذلك وأطلق سراح العملاء؛ وتضيف أن روجيرو لم يكتف بذلك بل عاد يرسل مبعوثه، بخلاف المألوف عادة، وأعرب عن غضبه بألفاظ تتسم بالحدة والغلظة؛ وأن الأمير المسلم لم يكلف نفسه عناء الرد عليه، وعليه تحرش كل منهما بالآخر: فهدد الأول باقتحام المهدية بأسطوله والثانى بالاتفاق مع المرابطين لمهاجمة صقلية(3). وأخذ كل منهما فى الاستعداد لخوض معركة ضخمة فيما بينهما. فزود على قلاعه بالعتاد، وسلّح عشر سفن حربية وثلاثين قارباً وملأها بالرجال والعتاد والنفط؛ ووثق علاقاته بالفعل مع المرابطين. وانقضت أربع سنوات على هذا الحال إلى أن توفى الزيرى الجسور (١٠ يوليه ١١٢١) دون حرب أو سلم مع صقلية(4).

---

(1) ابن الأثير والنويرى وابن خلدون وابن أبى دينار.

(2) ابن خلدون.

(3) ابن الأثير، والبيان والنويرى والتيجانى وابن أبى دينار.

(4) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥١١. النص فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٨٠ وما بعدها. وفى طبعة تورنبرج، المجلد العاشر، ص ٣٧٠؛ والتيجانى، النص فى **المكتبة**، المرجع السابق، ص ٣٨٢ وما بعدها وص ٣٩٢ وما بعدها. والترجمة الفرنسية للسيد روسو، ص ٩٣ و٢٤٤ (فى هذه الأماكن يجب تصحيح الترجمة بناء على

إن القوة التى كان على يكاد يدخلها بلا ترو وبلا حكمة منه فى البلاد بغرض إبعاد الصقليين كانت بمثابة قوة هبت كالعاصفة من أعماق الصحراء؛ واحتلت فى زمن وجيز تلك المناطق التى نطلق عليها الآن اسمى المغرب والجزائر، وعبرت البحر المتوسط وأطاحت بغالبية الملوك المسلمين فى أسبانيا. ويشهد اسمها فى حد ذاته على أصل ذلك الحكم. فنحو منتصف القرن الحادى عشر، حين غابت كل قوة حيوية للخلافة بعد أن كانت تتألق فى بغداد والقاهرة وقرطبة، ظهرت فى أوساط بربر صنهاجة حركة باسم الإسلام أخذت طابع العنف المتأصل فى تلك القبائل حيث كانوا يطلقون على أنفسهم مسلمين لأنهم كانوا يعرفون فقط اسم النبى وكانوا يندفعون فى أعمال السلب وقتل الزنوج المتاخمين لهم. وأراد زعيم لمتانا، وهى قبيلة من أمة صنهاجة، أن يقوم بتهذيب رجاله، لذا دعى أحد علماء سجلماسه (١٠٣٩). وسخر هؤلاء الرجال من العالم وطردوه، لكراهيتهم للفضائل التى كان يدعو إليها وليس للأقاصيص الواهية التى كان يطعّم بها مواعظه، لذا اعتكف ذلك العالم مع عدد قليل من

مخطوطة أخرى أفضل اقتناها السيد روسو بعد ذلك)؛ والنويرى، تحت سنتى ٥١١ و٥١٢. النص فى **المكتبة**. المرجع المذكور، ص ٤٥٤؛ وابن خلدون. **تاريخ البربر**، النص فى **المكتبة**. المرجع السابق، ص ٤٨٦، ٤٨٨. ونص الجزائر. المجلد الأول، ص ٢٠٨ و٢١٥ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٦، ٣٦؛ وابن أبى دينار. النص فى **المكتبة**. المرجع السابق، ص ٥٣٥، والترجمة الفرنسية ..... *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* للقيروانى. ترجمة السيدين بلليسييه وريموسا ص ١٥٢. وابن خلدون فى أول المواضع سالفة الذكر يقول إن الأسطول الصقلى كان أنها لمساعدة رافع لاجتياح الساحل واعتراض الأسطول الزيرى وإن علياً جدد سفنه. وفى الموضع الآخر يشير بشكل غير واف إلى انتصار بحرى حققه الزيريون على الصقليين. ولكنه يضيف أن علياً قد جند «قبائلُ عربية وسفناً وذهب لمحاصرة قابس عام ٥١١»: إن التتابع الزمنى غير متوفر فى هذا الجزء الثانى ولا نستطيع أن نوفق بينه وبين الموضوع الأول، إلا إذا افترضنا أن الحرب البحرية قد تم خوضها مع تفاوت نتائجها. والبيان، النص، طبعة دوزى، ص ٢١٦ وفى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٧٠، تحت عام ٥١٢ يذكر فقط مبعوثى روجيرو الذين أرسلهم إلى المهدية.

أتباعه فى جزيرة صغيرة بالسنغال ليعيش بطريقته ويجذب أتباعاً آخرين بدعوته للتوبة والتكفير عن الذنوب؛ وقد أطلقوا على هذا المكان المنعزل اللفظ العربى المعروف رباط، وسموا أنفسهم بالمرابطين، وهى تسمية تحولت لدينا إلى *Marabutti*. كما يطلق على الأولياء فى أفريقيا؛ وقد حولها الأسبان إلى «المورافيدى» بعد سبقها بأداة التعريف وتحوير بعض حروفها الساكنة. وبعد أن توسعت هذه الجماعة واشتهرت بمعجزاتها، شنت الحرب على الأجانب، والمواطنين الذين لم يفهموا الإسلام ويتقبلوه حسب طريقتها فى الرباط (١٠٤٢). وهكذا وخلال فترة وجيزة فإن الكفار، بعد أن تمت محاربتهم وتجريدهم من ثرواتهم، بحثوا هم ايضاً عن مكان لهم فى صفوف المرابطين. وبفضل قوة التنظيم وقوة الإرادة، غلبت القلة كما هى العادة، الكثرة المفككة وغير المنظمة؛ كما أن التقارب العرقى قد ساعد على تدعيم وتقوية تلك الحركة الاجتماعية التى اتخذت الدين ثوباً لها؛ وفى سهولة تم التحالف القتالى بين رعاة الصحراء الخشنين الذين كانوا ينسبون إلى الشمال كل ما فى الحياة من جمال وراحة، حيث لم يتعودوا رؤية الخبز إلا مع تاجر من تجار تلك البلدان. حضر ليشترى، فى اعتقادى، عبيداً من الزنوج. وحدثت مجاعة دفعت المرابطين (١٠٥٨) تجاه سوس على المحيط الأطلسى؛ وبعد أن توجهوا، أكثر من مرة إلى سلسلة جبال الأطلنطى. احتلوا فى النهاية (١١٦١) سجلماسه؛ حيث أخذ مكان الأوائل منهم زعيم سياسى ومحارب يُدعى يوسف بن تاشفين. وقد تمكن هذا الأخير من توثيق روابط الجماعة، وسمى نفسه أمير المسلمين؛ وانتصر فى معارك أخرى، وقام بوضع حجر الأساس لمدينة مراكش (١٠٦٢) وفرض طاعته من الصحراء إلى المتوسط ومن الأطلنطى إلى الحدود الغربية وإقليم قسنطينة. ثم حدث أن مسلمى أسبانيا، لكى يتخلصوا من مطاردة جيوش ألفونسو حاكم قشتاله لهم طلبوا العون من يوسف؛ وبناء على ذلك عبر المضيق وهزم المسيحيين فى موقعة طلبيرة

(١٠٨٦) وبعد ذلك بوقت وجيز قام بتصفية كل الذين طلبوا مساعدته الواحد تلو الأخر (١٠٩٠ ـ ١١٠٠) وعندما توفى (١١٠٦) كانوا يصلون ويذكرون اسمه فى ألف وتسعمائة مسجد جامع فى كل بلاد الغرب الإسلامى تقريباً التى عمل على أن يتقلد فيها منصبه من خليفة بغداد. ومدّ على بن يوسف الحدود الشرقية حتى بوچى؛ وأضاف إلى الامبراطورية تلك الجزر التى جعلت اسم المرابطين يتردد بأصدائه الرهيبة فى إيطاليا(1).

وأقصد بقولى جزر البليار، التى خضعت بعد وفاة مجاهد(2) ومعها دانيه (دنيا) لابنه على وأيضاً إلى حفيده أبى عامر وظلت ميراث الأسرة الوحيد، بعد أن قام مقتدر سرقسطة(3) باحتلال دانيه. إن خلفاء مجاهد قد تحاشوا منذ البداية نير المرابطين. سواء لأن يوسف لم يفكر فى جزر البليار، أو لأنه لم تكن لديه القوة البحرية لمواجهة أولئك القراصنة. وإزاء غاراتهم المستمرة، فإن أهل بيزا، وكونت برشلونه، وكونت مونبلييه وناثب كونت نربونا وغيرهم من الحكام المسيحيين تحالفوا فيما بينهم وهاجموا (١١١٣) جزر البليار

(1) تلك الأحداث، الشهيرة جداً، قد وردت مع بعض الاختلاف فى التواريخ وفى التفاصيل، فى ابن الأثير، عام ٤٤٨، طبعة تورنبرج، الجزء التاسع، ص ٤٢٥ وما بعدها، وفى *Annales Regum Mauritaniæ*، طبعة تورنبرج، المجلد الثانى، ص ١٠٠ وما بعدها، كما رواها ابن خلدون، فى *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٦٧ وما بعدها، وطبقاً لترجمة *Annales*، تورنبرج، ص ١٠٦، فإن الرباط كان فى البحر. لكنه يوجد بالنص لفظ «بحر» الذى يعنى أيضاً النهر الكبير وهكذا فإن الرواية يمكن أن تتفق مع رواية ابن خلدون، الصحيحة جداً.

(2) انظر الكتاب الخامس، الفصل الأول، ص ١٨، من هذا المجلد.

(3) ابن الأثير، النص، عام ٤٠٧، طبعة تورنبرج، المجلد التاسع، ص ٢٠٥. قارن بين: دوزى، *Histoire des Musulmens d'Espagne*، المجلد الرابع، ص ٢٠١، و*Recherches, etc.*، الطبعة الثانية، المجلد الثانى، ص ٢٩ـ ٣٠، حيث لوحظ عدم التوافق الزمنى عند ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٧٩. إن احتلال دنيا الذى قام به المقتدر، إنما يعود إلى عام ١٠٧٩، حسب المؤلفين الذين تبعهم دوزى، حتى إن وارجعه ابن الأثير إلى عام ٤٧٨ (١٠٨٥ ـ ١٠٨٦).

التى كان يحكمها الخصى مبشر وهو عتيق المجاهدين. وبعد أن واجهوا دفاعاً مستميتاً، وبعد وفاة الخصى، اقتحموا قلعة مايوركا (١١١٥) وأخذوا الشاب بورابى (أبو ربيعة)، آخر سلالة الأسرة، واقتادوه إلى بيزا مثل ما حدث مع جده على قبل ذلك بقرن من الزمان: إلا أنه ما أن عادت سفن بيزا إلى برها، حتى احتل على بن يوسف جزر البليار دون مقاومة(1). ويبدو أن ذلك قد تم بمساعدة أسرة قراصنة قوية من دانيه تتولى حماية السواحل وهى أسرة بنو ميمون، وقد ورد ذكر أحد رجالها ضمن المدافعين عن مايوركا وقد أرسل، بعد وفاة مبشر، إلى دانيه، ليطلب العون من أمير المرابطين(2). بعد ذلك ببضع سنوات تولى بنو ميمون قيادة أسطول على بن يوسف، وهو أسطول ربما أمروا بإنشائه أو قاموا هم أنفسهم بذلك(3)؛ وعند تدهور حكم الأسرة الذى كان سريعاً قاموا بتزويد الجيش بفتيان مسيحيين كانوا يخطفونهم فى البحار ومن سواحل أسبانيا وإيطاليا وممالك البيزنطيين(4). ولما لم يفلح أى شئ فى تفادى سقوط

---

(1) لدينا رواية هذه العملية، التى رواها لورينتسو فرنيزى، وكان معاصراً؛ وهو يعطى تفاصيل قيمة جداً. وسوف يتضح عظم أهميتها عندما يعيد بونايني طبعها، كما وعد، بناء على مخطوطة قيد دراسته، أفضل كثيراً من المخطوطة التى استخدمها موراتورى، وإلى أن يتم ذلك نرجع إلى طبعة .*Rer. Ital. Scr*، المجلد السادس، ص ١١١ وما بعدها. قارن بين *Chronica varia Pisana* و موراتورى فى المجلد نفسه، ص ١٠١ وأيضاً مرانجونى، فى *Archivio storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٧ و٨. وبالنسبة للكتاب العرب انظر **بيان المغرب**، النص، طبعة دوزى، المجلد الأول، ص ٣١٤، ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٠٦.

(2) لورنزو فيرنيزى، المرجع المذكور، ص ١٥٤؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères* الموضع المذكور، يقول إن مبشراً طلب المساعدات من على بن يوسف.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، نص باريس، الجزء الثانى، ص ٣٧ وترجمة البارون دى سلان الفرنسية، الجزء الثانى، ص ٤٢. يتضح التاريخ من الغارات التى شنت فى مناطق سيادة روجيرو والتى سنرويها الآن.

(4) دوزى، *Histoire des Musulmans d'Espagne*، المجلد الرابع، ص ٢٦٣، هامش ٤.

فى رثائين نظمهما ابن حمديس فى العام نفسه الذى توفى فيه (٥٢٧ = ١١٣٢ - ١١٣٣)

المرابطين، عجل بنو ميمون به، بانضمامهم تارة إلى المتمردين الأسبان(1)، وتارة أخرى بانخراطهم تحت لواء عبد المؤمن، زعيم الموحدين(2). وفى خضم هذه الأحداث اشتدت قوة آل ميمون، على مدى فترة طويلة من القرن الثانى عشر، حتى إن حولياتنا، تذكر المعارك أو الاتفاقات بين بنى ميمون والصقليين، وأهل جنوة وأهل بيزا(3).

قالهما فى القائد ابن حمدون، وينمى فيهما ايضاً القائد ابا محمد ميمون: غير أن المديح غير المحدد لصفاته الحربية لا يعطى دليلاً على انه ينتمى إلى الأسرة التى نتحدث عنها. وتوجد المرثيتان فى ديوان ابن حمديس، مخطوطة بطرسبرج، الورقة ٦٠ الوجه الثانى و٦١ الوجه الثانى وقد ذكرت عنوان الأولى منهما فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٧٢. ولا توجد اى من الرثائيتين فى مخطوطة الفاتيكان.

(1) المراكشى، النص، طبعة دوزى، ص ١٤٩، يروى ان مسلمى المرية، بعد رفضهم لاسم المرابط، كانوا يريدون القائد أبا عبد الله بن ميمون اميراً عليهم إلا انه اعتذر قائلاً إنه رجل بحر، وإنه يجدر بهم أن يعتمدوا عليه فى مواجهة الأساطيل المعادية وأن يعهدوا بالإمارة إلى غيره.

(2) اشار ابن خلدون إلى تمرد الأدميرال فى *Histoire des Berbères*، المجلد الثانى، ص ١٨٣ من الترجمة، وذكر اسم الأدميرال وهو على بن عيسى بن ميمون، وفى **المقدمة**، الموضع السابق، يتحدث عن كل أسرة بنى ميمون سيدة قادش. من الواضح انهم كانوا مهيمنين على البحر فيما بين جزر البليار، ودنيا، وكادس، والمرية.

(3) يبدو لى انه ينبغى هنا أن نجمع المواضع التى يذكر فيها اسم تلك الأسرة بالحوليات:

١١١٤- فى جزر البليار، ميمون *Maymanus*، لورنسو فيرنيزى، وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

١١٢٢- فى نيكوترا، ابو عبد الله بن ميمون، حسب **البيان**، النص، ١، ٣١٧. وابن خلدون فى *Berbères*، الجزء الثانى، ٢٦، الترجمة، يسميه محمد: ويبدو انه الشخص نفسه، حيث إنه من المعتاد بين المسلمين، تكريماً للنبى، ان يضموا كنية او لقب «ابو عبد الله» لمن يسمى محمد. إلا أن التيجانى، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٩٣، يعطى إلى قائد هذه الغارة اسم على بن ميمون ولعله كان *Alas* او *Alanta* حسب الصياغة - الأسبانية، الذى يقول عنه لورنسو فيرنيزى إنه ظل قائد قلعة مايوركا بعد هروب «بورابى» ونجا عوماً، عندما اقتحم أهل بيزا القلعة. وجدير بالتنبيه أن التيجانى، المرجع المذكور، وهو يشير إلى ميمون بن محمد بن ميمون ذلك، الذى هاجم صقلية بعد عام ١١٢٣، يضيف «انه سبق أن ذكر ذلك الشخص». ومن هذا يتضح انه ورد خطأ فى المخطوطات إما اسم على أو اسم محمد». والمصادر الصقلية تقول «جاييتوس ميمونوس» لا اكثر.

١١٢٧- فى باتى وفى سيراكوزا، ميمون بن محمد بن ميمون، قائد أسطول المرابطين.

وفى صيف عام ألف ومائة واثنين وعشرين جاء أحدهم واسمه ابن ميمون وهو أحد اتباع المرابطين، وقام بالهجوم بسفنه على

واخذ الاسم من التيجانى، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٩٨، بالرغم من ان اول اسم منه مبتور «ميمو» ويبدو ان كتبه الناسخ على سبيل الخطأ حيث اسقط أيضاً «بن» ويبدو أن هذه الشخصية تتوافق مع محمد بن ميمون القائد نفسه الذى قاد الغارة على نيكوترا عام ١١٢٢ . وابن خلدون، **تاريخ البربر**، النص، **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٤٨٧ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان، الجزء الثانى، ٣٧، يتحدث عن هذه الغارة الثانية التى قام بها محمد بن ميمون بعد عملية ديماس، دون أن يضع تاريخاً محدداً . كما أن المؤلفين العرب الآخرين لا يتحدثون عن عملية ١١٢٧ . إلا ان كثيراً من الكتاب المسيحيين يتحدثون عنها . وقد ذكرت أولاً فى الحواشى على مالاتيرا، فى كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٢٤٩، حيث تقول إنه فى ١٧ يوليه ١٠٢٧، هاجم جايتوس ميمونوس، المسلم الأسبانى السراسنى، باتى وسيراكوزا وأعمل فيهما التخريب والقتل والحرق، والسلب والأسر بين الرجال والنساء. والحدث نفسه وبالكلمات نفسها مع أخطاء فى النسخ نجده فى رسالة الراهب كورادو، عند كاروزو، المرجع المذكور، ص ٤٧، مع إضافة الكثير من الأقاصيص والأحداث والأسماء المشوهة بحيث لا يمكن التحقق منها . إن رواية هجوم الجايتوميمون هى واحدة كما هو واضح، وفى التاريخ المكتوب فى الخبرين لا ينقص سوى حرف c (أى ١٠٠) ليصبح الرقم ١١٢٧ بدلاً من ١٠٢٧، وكان ذلك خطأ وقع فيه المؤلفان اللذان يرجعان إلى القرن ١٣ . وهكذا فإن الحدث يتفق مع رواية جوليلمو كبير أساقفة صور، الكتاب الثالث عشر، الفصل ٢٢ (مستل فى كتاب كاروزو، المرجع السابق، ص ١٠٠١)، حيث إنه عندما هاجم روجيرو افريقيا بأربعين شانية وفشل فى هجومه، فإن الأفارقة انتقموا بتخريب سيراكوزا حين قاموا بتسليح ٨٠ سفينة . إن التاريخ يتفق لأن المؤرخ فى الفصل التالى سجل ربيع العام الرابع من اقتحام صور وهو الاقتحام الذى وقع فى ٣٠ مايو ١١٢٤ . وفى الأوراق الخاصة بنقل جثمان القديسة أجاتا (١١٢٦) فى جايتانى، *Vitæ sanctorum siculorum*، المجلد الأول، ص ٦٠، يرد ما ينسب إلى تلك القديسة معجزة، حدثت بعد سنة من نقل رفاتها إلى كتانيا، وهى أن المواطنين أخبروا بالهجوم الذى يوشك أن يقوم به قراصنة أسبانيا، لذلك عندما وجدهم العدو مستعدين لملاقاته أدار دفته نحو سيراكوزا، حيث قام بأعمال القتل والأسر والسلب ولم يترك فى المدينة سوى أسوارها، حسب قول الكاتب المعاصر سيكاردى، أسقف كريمونا، فى موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ٥٩٧، يكتب تحت عام ١١٢٧، *comburunt* و *Barbari Syracusanam civitatem invaduntm et cuncta diripiunt* ١١٢٢ـ (١١٢٤ تقويم بيزا). السلام الموقع بين أهالى بيزا، وملك مراكش وملك تلمسان وجايدوم ميمونم *Gaidum Maimonem*، مرانجونى فى *Archivio Storico ital*. المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٨،

والمقرى، نص ليدن، المجلد الثانى، ص ١٨٤، يتحدث بوجه عام عن الغارات التى قام بها القائد بن ميمون على المسيحيين وعن أنه كان فى المرية .

مدينة نيكوترا فى إقليم كلابريا: وقام بأعمال النهب والحرق والقتل وخطف النساء والأطفال. وبعد أن هاجم أماكن أخرى عاد سالماً إلى الغرب(1). والمؤرخون المسلمون الذين نعرف عنهم أخبار وظروف الحرب التى خاضها روچيرو فوراً فى أفريقيا(2)، إنما ينسبون هذه

١١٣٧ـ فى بحار أسبانيا تطارد ٢٢ شانية من جنوة الأربعين سفينة التابعة لجايتو ميمون القادم من المرية. كافارو *Ann. Januenses*، فى موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السادس، ص ٢٥٩.

١١٥٩ـ قام محمد بن عبد العزيز بن ميمون، قائد أسطول الأمير المهدى عبد المؤمن فى حصار المهدية، بصد الجيش الصقلى الذى اتى ليساعد الحامية. وذكر الاسم فى التيجانى (مخطوطة باريس، ملحقات عربية ٩١١، ورقة ١٤٠ الوجه الثانى) مضيفاً «انه كان من تلك العائلة التى اشتهرت جداً بقادتها البحريين»، إلا ان هذه الكلمات غير موجودة فى الترجمة الفرنسية التى قام بها السيد الفونس روسو عن مخطوطة اخرى. انظر صفحتى ٢٦٢ و٢٦٤ . وقد روى التيجانى ذاته واقعة المهدية فى الجزء الذى نشرته فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٤٠٢.

١١٦١ـ أوبرتو سبينولا يحضر بخمس شوان فى ميناء دنيا، حيث يدفع له لوبو ملك أسبانيا، مبلغ ١٠٠٠٠ مربوطاً (عملة المرابطين) ويمنحه حرية التجارة، كفارو، المرجع المذكور، ص ٢٦٧ . وحسب ابن خلدون، **تاريخ البربر**، الترجمة ٢، ٢٠٧، لوبو *(lupo)* ابن ميمون كان أميرال الموحدين فى ذلك العصر. إن السلام الموقع بينه وبين أهل جنوة يستدل عليه أيضاً من خلال وثيقة ترجع لعام ١١٦٢ فى *Liber Jurium Reipubl. Januensis*، المجلد الأول، ص ٢١٠.

وحول أحداث بنى ميمون، انظر أيضاً جاينجوس، ترجمة نص المقرى *Mohammedan Dynasties in Spain*، المجلد الثانى، ص ٥١٧، الهامش. ولا انفق مع المترجم العالم فى أن تلك الأسرة من البربر، من قبيلة لمتانه؛ ويبدو لى بالأحرى أنها اسبانية وربما كانت من أصل مسيحى: حيث كان اسم ميمون من المألوف إطلاقه لدى المسلمين على المعتوقين.

(1) نستشهد فى هذا المقام بالمصادر التى ذكرناها فى الهامش السابق تحت عام ١١٢٢ . ونضيف إليها ابن الأثير، عام ٥١٧، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٨٢، والذى دون ذكر اسم ابن ميمون، يقول، قد دمرت وخربت نيكوترا من جانب أسطول للمرابطين.

(2) ابن الأثير، الموضع السابق، والبيان، نص دوزى، ص ٣١٧، نص **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ٣٧١، عام ٥١٦؛ وابن خلدون، **تاريخ البربر**، النص، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٨٧ وفى الترجمة الفرنسية،٢، ٢٧؛ والتيجانى، **رحلة**، النص، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية** ص ٣٩٤ وما بعدها وفى الترجمة الفرنسية ص ٢٤٥ وما بعدها؛ وابن أبى دينار، النص، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٣٦ وفى الترجمة الفرنسية، ص ١٥٣ . هؤلاء الكتاب، الذين عاشوا جميعهم بعد القرن الثانى عشر، يبدو أنهم اعتمدوا فى كتاباتهم عن حرب ١١٢٣ على مؤرخين أو

الحرب إلى حدث نيكوترا هذا؛ ويقولون إن كونت صقلية اعتقد أنها النتاج الأول لتحريض على، بل للرابطة التى عقدها مع المرابطين(1). وفى الحقيقة فإن هذه الحرب تبدو لنا مجرد انتقام فورى، أكثر منها عملية غزو وفتح مُبيتة؛ ذلك لأن خطط روجيرو فى هذا الشأن لا تبدو خططاً ناضجة تماماً؛ كما وانه من ناحية أخرى، كان جنوب إيطاليا، فى ذلك الوقت ذاته، فى حاجة إليه لمهام أعظم وطموحات أكبر(2). ولعله كان يأمل أن يقوم، خلال بضعة أسابيع، بعملية هجوم مباغتة على المهدية، ينسج خيوطها مع العرب، وهى على كل حال عملية سهلة، ضد حسن، الذى كان صبياً فى الثالثة عشرة وقد خلف علياً منذ قليل(3).

لقد تعجل روجيرو أمره وجمع سفناً ورجالاً من أنحاء مختلفة بإيطاليا(4) وحجز فى موانيه السفن التى كانت تنقل البضائع إلى أفريقية أو أسبانيا؛ وفى شهر جمادى الأولى ٥١٧ هجرية (من ٢٧ يونيه إلى ٢٦ يوليه ١١٢٣) أمر بإبحار ثلاثمائة مركب من ميناء مارسالا، ما بين سفن شحن وسفن حربية، تحمل ثلاثين ألفاً من الرجال وألفاً من الخيالة(5). ومن بين هذه الأرقام يجدر قبول الرقم الأخير فقط: أما الرقم الآخر فيدل فقط على أن الأسطول كان

ثلاثة معاصرين كما اعتمدوا على التقارير الرسمية التى سوف نذكرها فيما بعد. ومن بين المسيحيين لدينا فقط جوليلمو الذى من صور. والذى ذكرناه منذ قليل ص ٢٧٨ فى الهامش. ويشير رئيس دير تيليزى إلى النتائج الناجمة عن هذه العملية، عندما يقول وهو يروى أحداث عام ١١٢٧ *Cumque (Rogerius) ad alias iterum occupandas insulas terrasque attentius persisterect, etc.* انظر كاروزو، *Bibl. sicula*. ص ٢٥٩.

(1) البيان، وابن الأثير، والتيجانى، وابن خلدون.

(2) انظر روموالدو سالرنيتانو، عامى ١١٢١ ـ ١١٢٢، عند موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ص ١٨٣.

(3) انظر أحوال بلاط المهدية فى هذا العصر لدى النويرى، النص، المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٤٥٦.

(4) البيان.

(5) قارن بين: ابن الأثير والبيان والتقرير الرسمى الذى نقل التيجانى جزءاً منه.

ضخماً وكان يتولى قيادة هذه العملية كل من عبد الرحمن النصرانى وجورجو الأنطاكى اللذين سبق ذكرهما(1). أما عن بلاط المهدية فمن جانبه، وقد علم باستعدادات روجيرو، قام بإصلاح قلاع العاصمة وكون جيشاً وجمع الأسلحة ونادى بالجهاد الأمر الذى أدى إلى أن جموعاً غفيرة من الأفارقة ومن بعض القبائل العربية المحتلة للبلاد أخذت تهرع إلى المهدية؛ وتنتظر خارج الأسوار(2) وسط شكوك كبيرة أخذت تساور الأهالى(3) الذين لم يستطيعوا الاقتناع بأن أولئك الناهبين قد أتوا ليحموا أرواحهم وأموالهم.

وبدأت النفوس ترتجف عندما ألقت الأمواج بسفينة صقلية على شاطئ البحر وكانت تلك السفينة بمثابة إخبار عن الأسطول(4). وما حدث هو أن عاصفة قد ضربته وأغرقت عدداً من مراكبه، ولم يبق من الأسطول الصقلى سوى عدد ضئيل فى بنتلاريا(5). كما كان يحدث فى أغلب الأحيان التى كانت ترسل فيها صقلية بحملاتها إلى أفريقية أو العكس(6). لذا سالت دماء غزيرة فى تلك الأراضى التى كانت نصف إيطالية ونصف أفريقية، حتى إنه فى نهاية القرن الحادى عشر، كانت عظام المسيحيين الذين راحوا ضحية غضب المسلمين لاتزال منتشرة على جانب من تلك الأرض(7). ثم جاء دور غضب

(1) التيجانى وابن خلدون.

(2) ابن الأثير والبيان والتيجانى. من الملاحظ أن البيان يتحدث عن القبائل التى تم استدعاؤها وعن العرب الذين تم إحضارهم. من الواضح أن التسمية الأولى تدل على السكان القدامى عرباً وبربر. والتيجانى يقول: قبائل العرب وغيرهم.

(3) البيان.

(4) التقرير، لدى التيجانى.

(5) ابن الأثير، والبيان.

(6) انظر كتابنا الأول، الفصلين الخامس والسابع، صفحات ١٨٧، ١٨٨، ٢٣٨ من المجلد الأول: والفصل الثالث من الكتاب الخامس، ص ٨٩ من هذا المجلد.

(7) هذا الحدث لم يستخلص من المؤرخين، ولكن من قصيدة لابن حمديس، نظمها بعد حادث ديماس. ويشهد فيها الشاعر بفتح المسلمين لصقلية وبالغارات التى أخذ فيها المسلمون نساء الروم ثم يكمل قائلاً: «وكوسيرا: حيث ترى جماجم آبائهم، تلك الجماجم التى تنتشر أجزاؤها على الأرض الجرداء».

الحملات الصليبية لينتقم لذلك. وقام الصقليون الذين نزلوا فى بنتلاريا بنهب الأهالى والاستيلاء على ممتلكاتهم؛ إلى أن قاموا بتجميع السفن. وفى رغبة منهم لمزيد من الغنائم، أبحروا مرة أخرى متجهين إلى أفريقيا. وفى يوم السبت، الخامس والعشرين(1) من جمادى الأولى (٢١ يوليه ١١٢٣) وعند الغروب، رست السفن الصقلية على بُعد ما يقرب من عشرة أميال شمال المهدية، على جزيرة رملية صغيرة، يطلق عليها الآن «الشقيقتان»، وكان يطلق عليها عندذاك «الأحاسى»(2)، وكان يفصلها عن رأس ديماس مسافة قصيرة وضحلة، يخوضها الخيالة والجنود المشاة(3). ويبدو أن رأس ديماس

(1) هكذا كتب التيجانى. وفى الحقيقة فإن يوم ٢١ يوليه، كان يوم سبت. ويدل هذا على أن المؤلف الذى اتبعه التيجانى حسب التاريخ وفقاً للتقويم الهجرى المدنى وليس الفلكى، الذى يسبق بيوم. يقول ابن الأثير فى أواخر جمادى الأولى، دون أن يحدد اليوم وهكذا البيان أيضاً.

(2) ورد ذكر هذا الاسم فى البيان والتيجانى، والتقرير الرسمى، فى سياق نثره المسجوع، يقول: «جزيرة مليئة بالأحساء». وحسبما يرد بالمعاجم فإن هذا اللفظ جمع مفرده «الحِسى أو الحَسى» أى الماء المتسرب فى الرمل وهو الرمل فى حد ذاته. بينما يعنى لفظ حَسوة وهو مفرد جمعه أحاس، يعنى رشفة أو شربة ماء. كاترمير فى ترجمته الفرنسية للمقريزى، *Sultans Mamlouks*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٩، هامش ١٩، يشرح من خلال أمثلة كثيرة أن «حسى» هى *puits creusé dans le sable*. وإنى أرى أن اللفظين قد استخدما مختلطين معاً، ذلك لأن الأصل واحد والمعنى قريب وأن الجزيرة الصغيرة قد أطلق عليها «أحاسى» بسبب الآبار التى حفرت بها. الملاحظة الأهم من ذلك هى أن العرب تحدثوا عن جزيرة صغيرة واحدة، على حين توجد الآن جزيرتان صغيرتان. لقد تجاهلوا الجزيرة الصغرى؛ أو ربما كانت هناك جزيرة واحدة ثم انشطرت بعد ذلك؛ أو شكلت الرمال جزيرة أخرى اعتباراً من القرن الثانى عشر وحتى الآن؟

فى خريطة سميث، طبعة ١٨٦٠ الجديدة تحديد فى شمال رأس ديماس للجزيرتين بلطح *Ballah* فيصل بينهما اليابس بقناة ضيقة جداً ذات قاع عميق والجزيرتان تحملان اسم «الجزيرتين الشقيقتين» ونراهما فى خريطة الساحل الجميلة، أى الساحل التونسى، التى نشرها السيد انريكو دى جوبيرناتيس، فى الجزء الأول من نشرة الجمعية الجغرافية الإيطالية، فلورنسا أغسطس عام ١٨٦٨، كما يشاهد فى الخريطة شريط الساحل من المهدية إلى ديماس، الذى نتحدث عنه فى هذا النص، والملاحظات المضافة بالنشرة فى ص ٢٤٥، § ٧ تعطينا العرض الحالى للمضيق ما بين ديماس وأحاسى.

(3) التقرير.

قد أخذت الاسم عن بناء قديم كانت أنقاضه مازالت باقية فيها. كما كانت تسمى أيضاً ديماس تلك الأرض المسورة التى كانت تطل على المضيق وكانت تضم فى داخلها قلعة حصينة جداً(1). وحسب قول العرب فقد أمر روچيرو بأنه بعد أن يتم احتلال الأرض والقلعة، أن يتحرك الخيالة والمشاة نحو المهدية على أن تقترب منها السفن فى الوقت ذاته، بحيث يتحقق الهجوم المفاجئ عليها من البر والبحر(2). من الواضح أن الصقليين قد اعتمدوا على مساعدة أحد القادة العرب اتفق معه عبد الرحمن النصرانى: وأن العرب لم يتمكنوا من أن يسلموا إلى الصقليين أرض ديماس، لأن فرق جنود المهدية قد استعدوا لذلك: ولهذا تم التصدى للحركة المباغتة التى قام بها المهاجمون وفشلت بالتالى محاولة ضرب المهدية. وفى ليلة نزول البر نفسها. وبعد أن نصبوا خيام القائدين وبارونات الجيش فى جزيرة أحاسى، توغلت مجموعة من الخيالة لعدة أميال داخل البلاد(3)، وفى بداية اليوم التالى، أبحر القادة على رأس ثلاث وعشرين شانية(4) فى اتجاه المهدية، وراوا القلعة، وأسرعوا حتى شاطئ زويلة: وفى كل موقع يقتربون منه كانوا يجدون دفاعات حصينة وفرقاً ضخمة من المسلحين: لكنهم لم يروا الألوية الصقلية

---

(1) **مراصد الإطلاع**، طبعة ليدن، المجلد الأول، ٤٤٢. يذكر أماكن تحمل هذا الاسم فى واسط وفى عسقلان ويقول إنه يعنى به السجون. ومن الممكن افتراض أن يكون اسم الراس هذا قد أخذ عن اسم أحد المبانى الرومانية الذى كان سجناً أو كان يبدو كذلك. لأنه كانت تشاهد فى الأطالس البحرية علامات تحدد أطلال قديمة فى الجانب الشمالى من الراس. فى المقريزى، **المواعظ**، طبعة بولاق، المجلد الأول، ص ٤٨٢، ٤٨٣. وردت تسمية بهذا الاسم لنوع من السفن. ويبدو أن هذا اللفظ قد نقل عن اللغة اليونانية وهو لفظ يتجانس مع وداماس وتعنى «قبو تحت الأرض». وفى اللغة الصقلية الدارجة فإن كلمة «دمّوسو» تعنى «سقف على شكل قبة» وتعنى أيضاً «زنزانة سجن تحت الأرض». ووفقاً لابن الأثير فإن ديماس أرض ذات أسوار كانت تحيط بقلعة تقع على ساحل المضيق: كما قال إن المسيحيين كانوا قد احتلوا القلعة وإن المسلمين حاصروها.

(2) التيجانى.

(3) البيان والتيجانى.

(4) البيان.

تظهر أمامهم. عندئذ استبد بهم الإحباط وعادوا من حيث أتوا إلى أحاسي؛ وبالإضافة إلى ذلك علموا بأن مجموعة من جنود المهدية والجنود العرب تجرات على مهاجمة المعسكر وقتلت رجالاً كثيرين وجمعت الغنائم، بينما كانت الخيالة المسيحية تغير دون جدوى هنا وهناك على البر(1). وعندئذ أنزل القواد الفرسان الخمسمائة الآخرين(2) وأقاموا معسكراً للجيش بكامله فى أحاسى. وفى اليوم التالى، وهو اليوم الثالث لنزولهم على الأرض، واعتماداً على خيانة أحد رؤساء العرب، استولوا على قلعة ديماس، حيث وضعوا حامية قوامها مائة رجل(3) أما الأرض فلم يستولوا عليها، حيث أسرعت إليها، من كل صوب وحدب، أعداد غفيرة من العرب المخلصين للإسلام كما وصل إليها من المهدية جمع ضخم من الجنود ليفرضوا حصاراً على القلعة(4). وبعد أن تبّدلت الأدوار فإن المهاجمين الصقليين راحوا يدافعون عن أنفسهم فى القلعة وفى جزيرة أحاسى التى لم يكن سهلاً المرور منها إلى راس ديماس. عبر ذلك البرزخ المغمور بالمياه أو المضيق الضحل، إذا أردنا تسميته كذلك.

---

(1) **البيان والتيجانى**: لكن ابن الأثير يقول بأن الصقليين كانوا قد هاجموا أرض ديماس وصدهم العرب.

(2) **التقرير**.

(3) يذكر التيجانى أن احتلال القلعة قد تم ثالث أيام النزول من السفن: أما **البيان** فيقول إنه كان يوم ٢٨ من جمادى الأولى مصححاً بذلك النص، كما فعلت أنا فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٣٧١، هامش ٤. ويورد الكاتب الأول «أن بعض العرب وقد أفسدهم قائدان من صقلية، قاموا بمعاونة العدو خلال هذه الأحداث. وحسب **التقرير** فقد قام «أحد المتمردين العرب» بإدخال المسيحيين فى القلعة. ويقول ابن حمديس فى البيت الخامس والعشرين من قصيدته التى ذكرتها من قبل: «لقد اشتروها (قلعة ديماس) وباعوا أنفساً منهم للهلاك»، «قل لى هل خسروا أم ربحوا فى تلك المقايضة؟».

(4) **التقرير**. فى هذه الوثيقة المليئة بالصور البلاغية نقرأ عن المحاصرين بأن «النار حرقتهم، تلك النار التى كانت تبدو كأنها نار جهنم» ونستطيع أن نستنتج أنه قد استخدم النفط فى الحصار.

إن القبائل العربية التى برزت فى هذه الأحداث طبقاً للأبيات من ٥١ وحتى ٥٨ من قصيدة ابن حمديس الشهيرة، سالفة الذكر إنما هى قبائل رياح، دهمان، وزيد وصخر.

وفى الليلة الرابعة من نزول الصقليين من سفنهم(1) وكانت ليلة الثلاثين(2) من جمادى الأولى (٢٦ يوليه) شنت الجموع المسلمة التى كانت تحتل ديماس، هجوماً على القلعة وأطلقوا صيحات «الله أكبر» فارتج لها الساحل بكامله. واستولى الفزع على قلوب الصقليين واعتقدوا أنهم قد هوجموا فعلاً فى معسكرهم ولم يفكروا فى المضيق أو ظنوا أن أفريقيا بكاملها قد عبرته بجيوشها، فأطلقوا الصيحات: إلى السفن، إلى السفن وهرعوا إليها دون أن ينظروا إذا كان هناك فعلاً من يطاردهم، وكان الشجعان فيهم يتوقفون فقط لقتل جيادهم حتى لا يأخذها العدو. وما أن عرف عدوهم بالهزيمة حتى عبر إلى أحاسى، وكانت الجزيرة شبه خالية من الصقليين، واستولى على الآلات الحربية والأدوات والأسلحة والمتاع فضلاً عن أربعمائة حصان بعد أن قتل الصقليون ستمائة حصان هناك، وأخذوا منها حصاناً واحداً على المراكب، وحسب قول البعض الأخر، أخذوا منها حصانين فقط. وقد أفاض الكتاب المسلمون فى وصف هذا الانتصار العظيم وأخذوا يتبارون فى استخدام الصور والصيغ البلاغية بكل أنواعها. وظل الأسطول لمدة ثمانية أيام وهو يشاهد الهجمات التى كانت تتوالى على القلعة: ولما لم يجد وسيلة أو طريقة لمساعدة رجال الحامية الشجعان، ونظراً لأنه لم يستطع البقاء طويلاً على هذا الحال، فقد أطلق أشرعته للرياح وابتعد شيئاً فشيئاً عن مرأى مائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس كانوا يرسلون له اللعنات عن بعد(3). ويبدو أن هذا العدد ليس مبالغاً فيه حينما لم تذكر الكتابات من

---

(1) التيجانى.

(2) البيان.

(3) هذا العدد قد ذكره ابن أبى دينار فقط، وهو مؤرخ حديث يهتم كثيراً بالدقة أكثر من اهتمامه بالبلاغة. ربما وجد هذا العدد فى أحد التقارير الرسمية المعاصرة: لأننا نقرأ العدد نفسه فى الأجزاء التى حفظت من التيجانى وهو مائة ألف والذى كُتب خطأ، أو نقله الناسخ خطأ. ذلك فيما يخص عدد رجال الحامية المسيحية بالقلعة الصغيرة بديماس. انظر المكتبة العربية. الصقلية، هامش ٥، ص ٣٩٧.

الجهد سوى الهتاف المدوى وجمع الغنائم وذبح القليل من الضحايا. وبعد أن أنهكهم القتال ليل نهار، ولما شحت المؤن والمياه، فإن المائة محارب طلبوا النجاة بحياتهم وعرض بعضهم فدية كبيرة(1) وقد جنح قصر المهدية إلى الاتفاق(2) إما لمشاعر إنسانية من جانبه أو خوفاً من انتقام صقلية منه، إلا أن غالبية جموع العرب، المتشددة، قد منعته من إبرام ذلك الاتفاق. وبعد ستة عشر يوماً، خرج المائة رجل المحاصَرين، بعد أن أنهكهم الجوع والعطش واندفعوا خارج القلعة حاملين سيوفهم وقتلوا جميعاً من أولهم إلى آخرهم. ومن بين الثلاثمائة سفينة التى كانت قد أبحرت من صقلية، عادت إليها مائة سفينة فقط(3).

ونعلم مدى الأفراح التى عَمّت عندئذ فى بلاط المهدية: إذ توجد لدينا بعض المقتطفات من أحد التقارير من النثر المقفى التى أرسلها حسن إلى كل البلدان الإسلامية(4): كما توجد لدينا قصيدة لابن حمديس، يلقب فيها الفتى الجالس على عرش المهدية، بطلاً، ويفرح للدمار والخراب الذى أصاب أولئك الروم الذين خربوا وطنه من قبل(5). لكن ما من كاتب من بلادنا، وصف لنا حالة الحزن التى عاشتها صقلية: وهناك قصة تركها لنا العرب ورد فيها وصف حى للعار والغضب اللذين أصابا الأهالى المسيحيين. والشاعر أبو الصلت

---

(1) ابن حمديس، فى القصيدة المذكورة، البيت ٣٥ يقول: كثيرون حاولوا افتداء أنفسهم من ذلك المصير الصعب بوزنهم ذهباً، إلا أن الذهب قد رفض.

(2) البيان، دون ذكر السبب الذى ارجعه أنا إلى مروءة الحكام الزيريين.

(3) يذكر ابن الأثير أن الكارثة وقعت يوم الأربعاء ١٥ من جمادى الثانى. أما البيان فيذكر أنها وقعت فى ١٥ جمادى: والتيجانى يقول إنها وقعت يوم الأربعاء ١٤ جمادى وقد رويت الأحداث مع اختلاف بسيط فى تلك الأعمال الثلاثة؛ والشئ نفسه نجده فى ابن خلدون وابن أبى دينار.

(4) تلك البشرى ذكرها التيجانى، ويذكرها أيضاً ابن الأثير.

(5) هذه القصيدة التى لم تشملها مخطوطة بطرسبرج، نقرؤها فى مخطوطة الفاتيكان، وفى ص ١٢٧ من نسخة الأستاذ شهوان وسوف أنشرها فى حواشى المكتبة العربية الصقلية.

الذى كان ينظم الشعر فى ذلك الحين فى قصر المهدية يروى لنا أن شخصاً يُدعى عبد الرحمن بن عبد العزيز نقل إليه أنه قد شاهد ذات يوم فى إحدى قاعات قصر الملك روچيرو فارساً من الفرنجة آخذ بريت لحيته الطويلة، ويقول فى كبرياء: « أقسم أنى لن أحلق من هذه اللحية شعرة واحدة، إلا بعد أن أثأر من أولئك الأعداء فى المهدية». وعندما سأل عبد الرحمن: «ماذا بهذا الرجل»؟ أجابوه أنه ساعة الهزيمة التى وقعت فى أحاسى قام من فرط غضبه بنزع شاربه حتى سال الدم على وجهه كله(1). وكان ما يفوق ذلك من غضب يضطرم فى قلب الأمير الذى رأى الخسارة الكبيرة التى تكبدتها أول حملة كبيرة قامت بها مملكته. إلا ان هذه الكارثة، بدلاً من أن ترهبه وتثنيه عن مقاصده، قد علمته كيف يتحاشى الأخطاء؛ ولما كان روچيرو ممن يحسن معرفة قدر الرجال، فإنه لم يقلل من شأن الأدميرال چورچو الأنطاكى، بعد نكبة رأس ديماس.

واستمرت الحرب ضعيفة من كلا الطرفين؛ إذ لم تتحدث عنها حوليات هذا الطرف او ذاك، بل حدث فى يوليو ١١٢٧، أن واحداً من بنى ميمون، عندما عاد بأسطول المرابطين فى بحار صقلية، قام بالهجوم على باتى، وهدد كتانيا، وبعد أن نزل فى سيراكوزا، أشعل النيران فى المنازل، وأعمل القتل وأخذ المتاع والنساء والأطفال، وحمّل بذلك ما أستطاعت السفن أن تحمله؛ وقد نجا أسقف المدينة من ذلك، بصعوبة ومعه الكثيرون من المواطنين(2). ومن المحتمل أن يكون مسلمو افريقية قد شاركوا فى هذه العملية، لأن جوليلمو الصورى ينسب كامل تلك العملية إليهم، رغم أن المذكرات الصقلية وتلك التى كتبها المسلمون تذكر الأسبان فقط. وقد خرج روچيرو فى الحال

---

(1) البيان، النص، المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٨٢. وفى طبعة دوزى ص ٣١٧. انظر ترجمة أبى الصلت، فى مقدمتنا، المجلد ١، ص ٣٩، رقم ٦. وابن خلكان، فى الموضع نفسه، يذكر ان أبا الصلت قد ذهب إلى المهدية عام ٥٠٦.

(2) انظر ص ٣٧٨ فى الهامش، عام ١١٢٧.

بأسطوله لمواجهة المعتدين على أرضه وصدهم؛ وإذ كان من المعروف أنه قد استعاد مالطة فى أواخر شهر يوليه، وأنه كان يخطط لضم جزر وأراض أخرى من المسلمين، ولما علم مؤخراً بوفاة جوليلمو دوق بوليا: ساعتئذ ترك العملية فى منتصفها، وأبحر مسرعاً فى اتجاه سالرنو ومعه سبع شوان(1).

ومن بين جهود الحرب الجديدة، اتجه فكره أيضاً إلى مسلمى الساحل الشرقى فى أسبانيا. وتخبرنا وثيقة جديرة بالثقة بأنه بعد أن حل فى بالرمو فى الشتاء الثانى، وبعد أن رتب قواته، عقد رابطة مع رايموندو الثالث، كونت برشلونة؛ وبموجب اتفاق هذه الرابطة التى ابرمت بينهما كان من المقرر أن تبحر خمسون سفينة صقلية فى الصيف التالى لتقاتل ضد السراسنة الأسبان جنباً إلى جنب مع جنود رايموندو، بشرط أن يقتسم الأميران الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها والأسرى بينهم بالتساوى. وكان الكونت رايموندو، كونت برشلونه، قد أرسل لهذا الفرض مفاوضيْن إلى بالرمو وهما: بيترو أرشيدياكونو وشخصاً آخر يُدعى رايموندو. كما أرسل روجيرو بخطابين حررا فى بالرمو، يوم ١٧ يناير ١١٢٨، مع سفيرين له، وهما:

---

(1) المسّترو دى تيليزى، فى كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٢٥٩، يقول المؤرخ «إن روجيرو قد حزن جداً لعدم معرفته بخبر وفاة الدوق فى حينه». ونحن ننقل عن فالكونى البنفنتى وعن روموالدو سالرنتانو، أن الوفاة كانت يوم ٢٠ يوليه.

(2) خطاب روجيرو إلى كونت برشلونة ومسودة الرد الذى طلب منه، وهى كانت بالتأكيد كذلك حيث إنها كتبت باسم كونت برشلونة وحُرِّرت فى قصر بالرمو فى ذات اليوم. وقد استخرجت النسخة من الأرشيف الملكى ببرشلونة، كما يتضح ذلك من توقيع مسئول المحفوظات فى ذلك العصر. وقد نقلتها من مكتبة البلدية بمدينة بالرمو، المجلد الذى يحمل أحرف وأرقام: *Q. 9. G. 1* وهو من مخطوطات أنطونيو أميكو الذى نقل من أسبانيا إلى صقلية مجموعة قيمة جداً من المستندات التاريخية. وقد رجع دى بلازى بالتأكيد إلى هاتين الوثيقتين، فى (*Storia del Regno di Sicilia* الكتاب السابع، الفصل ١٦)، حيث أطلق عليهما «أثر يعود للمحفوظات الملكية» دون أن يذكر لأى بلد. إن تاريخ عام ١١٢٧، إنما يرجع لعام ١١٢٨ لأنه يتعلق بشهر يناير. وحتى لو لم يذكر هناك الخمسعشرية السادسة لإثبات ذلك، فإنه يكفى لقب دوق بوليا الذى لُقب به روجيرو، والذى لم يكن بالإمكان استخدامه قبل شهر اغسطس من عام ١١٢٧. وسوف أترك جانباً شهر مارس، الذى كتب خطأ، حيث إن *XV Kal. Februarii* يدل على شهر يناير

جوليلمو دى بيتشينياكو وسانسونى دى سوردافاللى. وكان على كونت برشلونة أن يحلف اليمين أمامهما باحترام شروط الرابطة وذلك وفقاً لمسودة تم تحريرها فى اليوم نفسه(2). ولا نعلم إن كان رايموندو

بالتحديد. إن تعبير الصيف التالى، إذا ما أرجعناه إلى الخمسعشرية السابعة، على حين كانت تجرى الخمسعشرية السادسة، يجعلنا نوقن أنه استخدام غريب للخمسعشرية التى كانت تُجدد فى ٢٥ مارس، والتى نعرف أمثلة منها فى استخدام بلاط روما نفسه فى القرن الحادى عشر والثانى عشر. وكان ديوان صقلية يستخدم فى العادة التقويم المتبع فى القسطنطينية. ومن غير المعقول أن تكون العملية قد تم اقتراحها للتنفيذ فى صيف الخمسعشرية السابعة عام ١١٢٩، أى بعد ١٧ شهر من تاريخ الوثيقة. وعن المعارك التى دارت حينئذ على أرض قطالونيه، انظـــر ســـوريتا: *Anales de la corona dex Aragon*. الكتاب الأول، الفصل التاسع والأربعين. وها هو نص الوثيقتين:

I. Ego R (Rogerius) Dei gratia Princeps, et Dux Apuliae, Sicilia, et Calabriae Comes, concedo tibi Domino R (Raimundo) eadem gratia Comiti Barcinonensi, per honestissimos legatos tuos, videlicet Petrum Archidiaconum; et Raimundum, venientes ad nos Panormum, gratia (?) requirendi auxilium, et consilium propter guerras, et multiplices incursus Saracenorum in partibus Hispaniae, hanc subscriptam pactionem. Concedo tibi per securitatem baronum meorum, videlicet Roberti de Terona, et Roberti de Miliaco, quia si in praesentia legatorum meorum, videlicet Guilelmi de Pincinniaco, et Samsonis de Surda-valle, ad praesentiam tuam proficiscentium, iuraveris, infra octo dies eorum aduentus ad te, cartulas praesentes mearum pactionum, legatis tuis, vel legato, pro hoc negotio ad me venturis, vel venturo, iurabo quia in futura aestate septimae indictionis, in mense Julii, vel ante, galeas quinquaginta in servitium Dei, et auxilium exercitus, ad exercitum in Hispaniam, excepta occasione, quae propter hoc non sit reperta, mittam. Facta Panormi in palatio Domini Ducis, anno Dominicae Incarnationis M centesimo XXVII, Mense Martii (Januarii) XV° Kal. Februarij, indictione sexta.

II. Ego R (Raimundus) Dei gratia Barcinonensis Comes iuro, et assecuro tibi Domino Rogerio eadem gratia duci, quod ibo in Kal. Julij septimae Indictionis, vel ante, cum exercitu meo in Hispania, in servitium Dei, et auxilium tuum, et adiuvabo homines tuos terra, et mari per fidem: et in auxilio tuo, et hominum tuorum permanebo quandiu classis tua, quae Extolyum dicitur, terra, et mari Hispaniae fuerit. Ego galeis tuis, et aliis navibus tuis, et hominibus Extolij tui, et rebus eorum secura receptacula in mari, et in terra, in Civitatibus, Castellis, et Villis dabo

الثالث قد صدّق على هذه الوثيقة. ومن المؤكد أن هذه العملية لم تنفذ، وما كان بالإمكان تنفيذها، لأن روجيرو، كان لايزال فى الوقت المحدد لها، يجابه الجيش البابوى.

---

ad posse meum, et liberam victualium, et stipendiorum emptionem: et assecuro tibi de universa adquisitione nostra, tempore exercitus tui, terra, et mari in partibus Hispaniae, scilicet Civitatum, Castellorm, Castrorum, burgorum, casalium, villarum, omnium denique terrarum, hominum, auri, argenti, et rerum omnium, tam mobilium, quam etiam stabilium, integram medietatem habendam tibi, et hominibus tuis super hanc causam tua iussione ordinatis, sine contrarietate, vel contradictione, vel vi eis illata; et non queram, neque querere faciam, neque consentiam quomodo eam perdas. Et adiuvabo tibi eam tenere, defendere, et hominibus, et baiulis tuis per fidem, sine fraude, et ingenio, contra omnes homines, et foeminas, qui praedictam partem tibi, vel hominibus tuis ad tollendum invaserit. Quod si forte de his praedictis pactionibus aliquid minus factum in exercitu tuo factum fuerit, infra octo dies emendabo, vel emendari faciam per iustitiam, si inde requisitus, fuero, vel per concordiam, quae sit grata illi, vel illis, cui, vel quibus, minus factum fuerit factum, si ex eo, vel ex eis, qui recipere debet non remanserit. Haec attendam, et observabo per fidem sine fraude, et ingenio tibi, et baiulis tuis, et hominibus tuis; sicut supra scriptum est in praesenti cartula. Facta Panormi in palatio Domini Ducis, anno Dominicae Incarnationis M centesimo XXVII, mense Martij (Ianuarij) XV. Kal. Februarij, indictione sexta.

A carta recondita in scrinio mensae Aulae inferioris Regij Archivij.

Michel Bernardo Archivario del Regio Archivio de Barcelona. Raphael de Dominic.

الفصل الثانى

«وكما قضت عدالة السماء ذات يوم، بأن يسحق النورمان الأقوياء اللونجبارد القساة؛ فقد شاء كذلك جل علاه لروچيرو بأن يقضى بسيفه على الظلم الذى استشرى فى بلادنا هذه. فأى أعمال إجرامية لم ترتكب هنا؟ فقد كانت تقترف بشكل متواصل ودون وازع من ضمير أعمال القتل، والسرقة، والنهب، وتدنيس المقدسات، والفسق، والخيانة، والاعتداء على الكنائس والأديرة، واحتقار خدام الله، وأعمال شر أخرى تعد بالمئات: حتى الحجاج الذين كانوا يسافرون حباً فى الله كانت تُسرق أمتعتهم ويُقتلون أحياناً لإخفاء معالم الجريمة. ولأن هذه الفظائع التى فاقت الحدود قد أغضبت الله، فقد أخرج لهم، عز وجل، روچيرو من جزيرة صقلية، أخرجه كسيف بتّار من غمده، وقام يضرب به الفاسدين المارقين ويسحقهم، وأعاد إلى جادة الصواب وإلى طريق الحق والاستقامة، غلاظ القلوب أولئك الذين أمهلهم طويلاً». هكذا وصف رئيس رهبان تيليزى الأحداث، وإن كان معياره الدينى لا يقلل من صدق شهادته(1). ففى أوائل القرن الثانى عشر كانت دوقية بوليا وكل الأرض الممتدة حتى مضيق مسينا قد سقطت كلها فى فوضى تامة. وما كان من المستطاع معرفة من هو العاهل. أهو البابا أم الدوق أم الإقطاعيون الكبار التابعون له أم الأمراء ورؤساء البلديات التى ظلت محتفظة باستقلالها؛ حيث كان كل واحد من هؤلاء يتصرف بطريقته وما من طاعة لأحد.

---

(1) فى كتاب كاروزو. *Bibl. sicula*. ص ٢٥٧، ٢٥٨. إن أخبار فالكونى البنفنتى وحوليات رومالدو السالرنى إنما توضح تفاصيل هذه الصورة السيئة.

إن حكام صقلية الذين كانوا قد حسموا قضية السيادة(1) من سنوات طويلة، قد دخلوا فى تلك المشاكل بسبب إقليم كلابريا، حيث كان البارونات، فى محاكاة لجيرانهم فى بوليا، يحاولون دعوة الدوق حتى لا يخضعوا للكونت(2). غير أن روجيرو الثانى لم يكتف بالسيطرة عليهم فقط ولكنه بذل ما بوسعه لتوسيع نفوذه. فكان تارة يجتاز كلابريا بجيش عظيم ويحرق قلاع أولئك العصاة (١١٢١)؛ ويتفاوض تارة أخرى مع الدوق جوليلمو ويرفض وساطة بابا روما (١١٢٢)، وذلك لكى يبرما الاتفاقات وحدهما دون وساطة؛ وقد تمكن فى تلك الاتفاقات، بالمال تارة، وبالمساعدات العسكرية تارة أخرى، بأن يجعل الدوق يتنازل عن كل حقوقه فى كلابريا: ثم اشترى منه بعد ذلك النصف الآخر من بالرمو. وفى النهاية على خلافة جوليلمو فى الحكم إذا ما توفى دون أن ينجب(3).

وقد تحقق هذا فى خلال عام واحد. فقد ترك روجيرو ساعتئذ (١١٢٧)، العملية البحرية ضد المسلمين كما سبق وذكرنا، وأسرع إلى سالرنو، وهى المدينة الرئيسة للدوقية، وداهن حكام البلديات والإقطاعيين، وحارب أولئك الذين لم يقبلوه: وتم الاعتراف به دوقاً لبوليا من الجميع، ما عدا البابا الذى كان يتطلع بدوره إلى ضم تلك الأقاليم. وبناء على ذلك، صدرت أحكام الحرمان؛ وكانت زيارة أونوريو الثانى لتروبا حيث جعل البارونات يقسمون له على طرد روجيرو أو قتله(4)؛ وعُد من يموت فى تلك الحرب جديراً بغفران خطاياه ويستحق غفران نصفها من يخرج منها حياً(5).

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٢٧٢ وما بعدها بهذا المجلد.

(2) أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ٢٤٢، إلى بعض الحالات خلال فترة حكم الوصاية. ويقول رومو الدو السالرنى صراحة فى *Annali*، ١١٢٦، إن البارونات كانوا يثيرون بذور الفتنة بين جوليلمو وروجيرو.

(3) رومو الدو السالرنى، المرجع السابق، من ١١٢١ إلى ١١٣٧.

(4) السندرو رئيس دير تيليزى.

(5) فالكونى البنفنتى.

ولما تأججت بذلك الحرب الأهلية،ذهب روجيرو يجند أناساً فى صقلية وعبر بهم إلى البر الإيطالى؛ وتقدم أونوريو فى مواجهته بجيش ضخم من رجال روما والمنشقين بإقليم بوليا: إلا أن الصقلى أطال أمد هذه المواجهة حتى تفرقوا شيئاً فشيئاً. ولم يكن فى وسع الحَبر الأعظم إلا أن يوافق على تنصيب روجيرو حاكماً على الدوقية (أغسطس ١١٢٨)؛ وسيطر روجيرو بعد ذلك على أعتى البارونات وأخضعهم لحكمه؛ ونال الاعتراف بسلطته من قبل أمير كابوا ودوق نابولى: وبعد أن دعا إلى اجتماع فى ميلفى، أعلن السلام العام: والا يقوم البارونات بمحاربة بعضهم بعضا: والا يقهروا ويضطهدوا المطارنة والرهبان والحجاج والتجار والصناع والمزارعين (١١٢٩). وبعد أن عُقد بعد ذلك بقليل إجتماع لكبار رجال بوليا فى مدينة بالرمو، حصل روجيرو على لقب ملك، وأخذ تاج الملك فى بهاء وبذخ شرقى فى كاتدرائية بالرمو يوم ٢٥ ديسمبر من عام ١١٣٠(1).

وبدا ذلك للمعاصرين فى إيطاليا وخارجها عملاً جريئاً، مملوءاً بالمخاطرة: ومع ذلك فقد كان إجراءاً ناتجاً عن فكر سياسى محنك وعن نظريات فى الحكم كانت سائدة فى بلاط بالرمو، ومستمدة من القانون العام البيزنطى والقانون الإسلامى ومن التعديلات فى النظم الإقطاعية التى استهلها ذلك الجيل فى انجلترا وفى أورشليم. كان أمير صقلية ينافس بالفعل كبار ملوك أوربا باتساع أراضيه وبقواته العسكرية وكان يتفوق عليهم جميعاً فى الثروة: ومن ثمة كان يحق له أن يتساوى معهم فى المنصب، وأن يتساوى أيضاً مع البابا فى السلطة الزمنية، وأن يرتفع كثيراً فوق مستوى البارونات.

---

(1) قارن بين: السندرو رئيس دير تيليزى، الكتاب الأول، وفالكونى البنفنتى، السنوات من ١١٢٧ إلى ١١٢٩، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٢٥٩ وما يليها؛ و٣٢٩ وما يليها: وروموالدو السالرنى، أعوام ١١٢٦ إلى ١١٣٠، فى موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، ٧، ص ١٨٤ وما يليها. واترك جانباً الجدل الذى نشأ حول موافقة البابا البديل، أناكليتو، بشأن تتويج الملك... إلخ.

ويضاف إلى ذلك أن الرأى العام السائد فى ذلك العصر كان يمنح الملوك الممسوحين والمتوجين، حقوقاً خاصة؛ ومنها السلطة القضائية الجنائية العليا التى كانت تمثل بالتحديد أهم ما يحتاج إليه سكان بوليا وكانت فى الوقت ذاته أنبل طموحات روجيرو. لعله لم يرغب فى تأسيس ما نطلق عليه نحن الآن اسم الدولة الموحدة، ولكنه اقترب من ذلك كثيراً عندما أسس مملكة صقلية والأقاليم المرتبطة بها، وأطلق عليها فيما بعد اسم إيطاليا، على غرار ما فعله فى بعض الأحيان دوقات بوليا من قبله. لقد نسب لقب مملكة إلى صقلية فقط، وكاد يبرر هذا، موضحاً أنه باستبعاد أى ابتكارات جديدة، أراد إحياء حق كانت تتمتع به الجزيرة منذ القدم؛ وإذا لم يجانبنى الصواب فإنه كان يشير فى ذلك، إلى الأمراء الكلبيين، أكثر مما يشير إلى الطغاة اليونانيين. إلى جانب ذلك هناك تفاصيل كثيرة لاتزال غير متوافرة فى شأن هذا التحول فى القانون العام، ذلك لأن روجيرو، الذى كان يحرص قدر استطاعته على ألا يسئ إلى بلاط روما، قد غير عن طيب خاطر أقواله، مع حفاظه على استمرار الواقع، وهو الواقع الذى كان ينزع سيادة البابا الإقطاعية المزعومة على بوليا وكلابريا(1). غير أن الحذر من جانب الديوان، وعدم استخدام هذه

---

(1) إن ندرة المصادر التاريخية فى هذا الشأن لا تسمح لنا بالعثور على تفاصيل دقيقة عنه. ولدينا فى المقام الأول الوثيقة الخاصة بالبابا البديل أناكليتو، التى صدرت فى ٢٧ سبتمبر ١١٣٠ ونشر بارونيو ثم بيرو جزءاً منها، *Chronologia*، ص ١٥ و١٦، والتى بموجبها تم منح روجيرو تاج مملكة صقلية، وكلابريا وبوليا، مع تحديد صقلية على رأس المملكة. غير أننا لا نعلم إن كانت تلك الوثيقة قد تم إرسالها على الإطلاق أو إذا كان روجيرو قد قبلها. إن رئيس دير تيليزى، وهو كاتب البلاط، لا يذكر هذه الوثيقة. ويروى الحدث كأنه صادر فقط عن التصويت فى البرلمان ويقصر لقب مملكة على صقلية. إلا أن رئيس الدير ذلك قد كتب ما كتبه بعد السلام الذى كان بين الملك والبابا إنوتشينسو الثانى؛ وعلى ذلك نستطيع أن نستنتج أنه تجاهل عن عمد منح البابا البديل وجعل اللقب الملكى فى حدود ما سمح به إنوتشينسو. وفى النهاية فإن المرسوم الخاص بهذا البابا والذى يحمل تاريخ ٢٧ سبتمبر ١١٣٩، يبدو وثيقة تسوية، إذ يسمح بلقب ملك لصقلية ويحفظ لقب دوق بالنسبة لكلابريا وبوليا، باعتبار أنهما إقطاعيتان من أملاك الكرسى البابوى.

الورقة فى الوقت الذى كانت الكنيسة مهمومة بانشقاق دينى، لم يمنع إنونتشينسو الثانى، الذى خلف البابا أونوريو، من أن يثير فى الحال الحرب الأهلية ضد روجيرو، الذى اتبع جانب اناكليتو البابا غير الشرعى. وثار ضد الملك كثيرون من أولئك البارونات وحكام البلديات بالبر الإيطالى الذين وافقوا منذ فترة وجيزة على تتويجه ملكاً.

واستمرت الحرب تسع سنوات توالت خلالها مواجهة روجيرو للمدن الكبرى تارة، والبارونات متجمعين تارة أخرى، وأساطيل بيزا حيناً، وجيوش الإمبراطور لوتاريو الضخمة حيناً آخر، وكذلك عظات سان برناردو التى كانت تطعن فيه وكان دائماً ساعد البابا من الناحية الروحية والزمنية. حارب روجيرو بحراً وبراً؛ وحقق انتصارات وتكبد خسائر دامية؛ واستخدم المكر والخداع كما استعمل القوة، واعتمد على الاستراتيجية أكثر منه على الاندفاع؛ وأدخل الرعب والفزع فى قلوب المتمردين بأعمال القسوة والشراسة التى استباحها رجاله. واعتاد أن يقضى الشتاء من كل عام فى صقلية، وأن يجمع منها القوات ويعود إلى بوليا وكلابريا فى أوائل الربيع؛ وقد أفاد فائدة كبيرة من السفن الحربية العديدة، ومن الفرق المرابطة؛ كما أفاد

لقد قلت تسوية لأن اللقب الذى استخدمه روجيرو بين ١١٣٠ و١١٤٩ كان ملك صقلية وإيطاليا؛ *Sicilie atque Italie rex*، كما نقرأ فى وثائق سبتمبر ١١٣١. فى كتاب بيرّو *Sic. Sacra*. ص ٣٨٦، ٣٨٧. أعوام ١١٣٢ و١١٣٧ فى كتاب اوجيللى، *Italia Sacra*: وكان يرى بحروف بارزة على أحد أجراس كنيسة دوومو بالرمو، والذى يطلق عليه «لاجوتساء والذى تم صبه فى بالرمو عام ١١٣٦. المرسوم الرابع عشر والذى يتحدث عنه بيرّو فى مؤلفه *Chronologia* ص ١٦. ويذكر ذلك أيضاً فى وثيقة لروجيرو مؤرخة فى نوفمبر ١١٣٧ وقام فالكونى البنفنتى بنقلها. كاروزو، *Bibl. sicula*. ص ٣٦٧. إن هذا اللقب يعود للظهور فى وثائق الملكين المعروفين باسم جوليلمو: ومع ذلك جرى فى العادة استخدام لقب ملك صقلية ودوقية بوليا وكلابريا وإمارة كابوا. ويجب أن يصحح طبقاً لهذه التفاصيل ذلك البحث التاريخى الذى كتبته فى شبابى والمطبوع عام ١٨٢٥ فى *Effemeridi scientifiche e letterarie per la Sicilia*، الجزء ٢٥، تحت عنوان: *Osservazioni intorno un' opinione del Signor Del Re ecc.*.

كثيراً من جسارة مسلمي صقلية وخبرة مهندسيهم. وفي لحظة تفوق فيها الملك، أراد البابا إنوتشينسو محاولة تجربة خوض معركة السلاح ضده لآخر مرة. فهُزم ثم تم أخذه يوم الثاني والعشرين من يوليو عام ١١٣٩ بالقرب من سان چيرمانو: حيث ارتمى المنتصر هو وأولاده في اتضاع عند قدميه؛ ومع ذلك فقد جعلوه يوقع في يوم ٢٥ وثيقة السلام وفي يوم ٢٧ على المرسوم البابوي بتنصيب روچيرو وخلفائه على مملكة صقلية ودوقية بوليا وإمارة كابوا؛ ولكن دون إغفال قدر عمه روبرتو جويسكاردو وفضله وكذلك فضل والده روچيرو، إلى جانب المحبة العظيمة التي كان يوليها الكرسي البابوي للملك ذاته(1).

والآن يتطلب موضوعنا أن نتناول بشكل أوسع الدور الذي قام به المسلمون في هذه الحرب. والأخبار التي عثرنا عليها في ذلك الشأن قليلة جداً، فالمؤرخون المسيحيون، أصدقاء كانوا أم أعداء لروچيرو، يفضلون ذكر مساوئ المسلمين أكثر من ذكر فضائلهم حينما كانوا يسفكون الدماء لتثبيت دعائم عرش، أقيم في بعض من جوانبه على عناصر من حضارتهم نفسها. ويروى أنه في وقت من الأوقات كانت مدينة باري على وشك التمرد لأن المهندسين المسلمين الذين أرسلهم الملك لتشييد قلعة جديدة، قتلوا ابن أحد النبلاء في مشاجرة: فقامت الجماهير بقتل العديد من هؤلاء المهندسين وأوقف تشييد القلعة(2)؛ ولم يكتف أهالي باري بهذا الانتقام: فبعد أن احتل البابا والإمبراطور لوتاريو المدينة وتم اقتحام القلعة وشنقوا جميع

---

(1) قارن بين: السندرو رئيس دير تيليزي، الكتاب الثاني والثالث، وفالكوني البنفنتي عام ١١٣٠ وما يليه؛ رومووالدو السالرني، في الأعوام نفسها، ومرانجوني، في *Archivio storico italiano*، المجلد السادس، الجزء الثاني، ص ٩. حيث يتناول أسطول روچيرو بالحديث. ورئيس دير تيليزي، في كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٢٨٢ و٢٩٥، يذكر الفرق المرابطة. وقد سبق ذكر مرسوم البابا إنوتشينسو الثاني في هامش الصفحة السابقة.

(2) السندرو رئيس دير تيليزي، في كتاب كاروزو، المرجع السابق، ص ٢٧٤.

سراسنة الحامية(1). كما نعلم أنه فى حصار مدينة مونتبلوزو (١١٣٣) وهو حصار مشهور لبسالة الطرفين وصمودهما فيه، اقتحم روجيرو حصناً محاطاً بخندق عميق بعد أن قَرّب منه برجاً متحركاً على عجل، وما أن اقترب من حافة الخندق حتى أنزل منه السراسنة سقالات وعروقاً خشبية لعمل جسر يؤدى إلى داخل الحصن وتفننوا فى تغطية الخشب بالتراب الذى أخذوه من الحوافى والحصى الذى نزعوه من الأسوار بالكلابات، وعندما أشعل المحاصَرون النار فى الجسر وتمكن السراسنة من إطفائها بماء يجرى فى مجرى من الخشب، عبروا الخندق فى النهاية واحتلوا الحصن، وباحتلاله استولوا على المدينة(2). ويكتب روموالدو السالرنى أنه فى ذلك العام كان جيش الملك يقدر بثلاثة آلاف فارس وستة آلاف جندى من الراجلين والرماة والسراسنة(3). ويؤكد فالكونى البنفنتى أن جميع الجنود كانوا سراسنة وقد بثوا الرعب والفزع فى البلد بقسوتهم وشهواتهم؛ وأن روجيرو، الذى كان أهلاً لأن يكون قائداً لهؤلاء، قد ارتكب أعمالاً بربرية ضد المسيحيين(4). وحقيقة الأمر أن أتباع الديانتين قد تبادلا على التوالى أعمال القسوة فيما بينهم. ففى حرب روجيرو الأولى يحكى أن حامية حصن كان تحت حصار صقليين ومحاربين من كلابريا وسراسنة قد اندفعت خارجاً، حسب قول روموالدو السالرنى، وحولت معسكر الأعداء إلى بحيرة من الدماء(5). وفى عام ١١٣٢، أثناء انسحاب الملك من بنفنتو إلى سالرنو، باغت العدو فصيلا من جنوده السراسنة، وقام بقتل عدد غير قليل من أولئك الجنود وأرسل إلى مدينة كابوا رأس أشهرهم: فتألم روجيرو

---

(1) أوتونى دى فريسينجن، *Chronicon*، الكتاب السابع، الفصل ٢٠.

(2) رئيس دير تيليزى، المرجع المذكور، ص ٢٧٥ و٢٧٦.

(3) عام ١١٣٢.

(4) عام ١١٣٣، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥١.

(5) عام ١١٢٧.

لذلك وأقسم أن ينتقم أشد انتقام(1). إن جويبالدو رئيس الدير الذى كتب حينئذ إلى الإمبراطور لوتاريو ليصف له الأضرار التى ألحقها مسلمو صقلية بدولة مونتى كاسينو والأضرار التى لا تقل أهمية عن تلك التى قام بها النورمان واللونجبارد من أفراد الجيش، إنما كان يبالغ فى وصفه ذلك. قد روى فى رسائله أنهم بعد تدمير المنازل، كانوا يقطعون الأشجار، ويأخذون الرهبان والمزارعين، ويربطونهم بالحبال أو يكبلونهم بالأغلال ويعذبونهم ويبيعونهم عبيداً: وكانوا يحرقون الكنائس، وعندما لا يكتفون بذلك كانوا يهدمون جدرانها إن تبقى منها شئ: وبالمثل فإنه حينما جاء حاجب الملك إلى الدير، حوله إلى قلعة بعد أن طرد منه الرهبان وحمل كل كنوزه ومنقولاته إلى صقلية(2).

ووسط النتائج المتباينة لهذه الحروب لم ينس روچيرو الأمور فى أفريقية. فبعد مضى سبع سنوات على هزيمة رأس ديماس، تحول المهزومين إلى حماة للبلد. لقد وقع حسن السلام مع روچيرو باتفاقات بدت غير مشرّفة فى أفريقية. واتاحت لأمير بجاية الفرصة أو الذريعة للتحرك ضد المهدية، بعد أن طلبت تدخله بعض قبائل العرب والمواطنين الساخطين الذين وعدوه بأن يفتحوا له أبوابها. وفى عام ٥٢٩ هجرية (من ٢٢ أكتوبر ١١٣٤ إلى ١٠ أكتوبر ١١٣٥). طلب حسن عوناً من روچيرو ولما ضيق عليه الخناق بحراً وبراً، اعتمد على شجاعته الشخصية دون الارتكان إلى النصائح: إلى أن وصلت إليه من صقلية عشرون شانية أمرها الملك بأن تكون تحت إمرة حسن مباشرة، فصدت الشوان فى الحال أسطول العدو وكادت تدمره لو لم يوقفها الأمير الزيرى، منعاً، حسب قوله، لسفك دم المسلمين، ورغبة منه بالتأكيد فى تحاشى الكراهية التى كانت ستحل

---

(1) فالكونى البنفنتى، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٤٥.

(2) الرسائل، فى كتاب مارتين ودوران، *Veterum Scriptorum.. ecc*، المجلد الثانى، باريس، ١٧٢٤، ص ١٨٢، ١٨٦ وما بعدها.

به من جراء ذلك الموقف المخزى. وانسحب رجال بجاية مسرعين: وعاد الأسطول المسيحى إلى صقلية؛ ولكنه ظهر مرة أخرى بعد وقت وجيز من انسحابه أمام جزيرة جربه(1).

إن جــزيرة جـــربه، الواقعة فى خليج قابس جزيرة خصبة جداً وهى متصـــلة باليابس من خلال درب ضـــحل الميـــاه تتمكن الخيـــول من خوضـــها؛ كما أنها جزيرة اشتهرت جداً لدى القدماء؛ واســـتمرت زراعتها على مر العصـــور بمحاصيل التربة الأوربية والأفريقية؛ كما أنها غنية بالصنائع؛ غير ان سكان هذه الجزيرة بربر من عائلات مختلفة؛ وعلاوة على ذلك اشتهرت أهالى تلك الجزيرة بأعمال القرصنة التى راحوا يقومون بها فى أواخر القرن الحادى عشر وكانوا يرفضون الخضوع للزيريين إلا فى بعض الأحيان التى أجبروا فيها بالقوة إلى الخضوع. كانت تلك الجزيرة إذن فريسة سهلة ومشروعة أمام أعين المسلمين ذاتهم(2). وأرسل روجيرو إليهـــا اســـطولاً رجاله من مسيحيى صـــقلية ومسلميها

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٢٩: والتيجانى، وابن خلدون وابن أبى دينار فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٢٨٤، ٢٩٨، ٤٨٧، ٥٢٦. ما من أحد من هؤلاء المؤرخين يقول لنا بالضبط فى أى شهر من السنة الهجرية وقعت الأحداث التى يروونها. إن مدة الحصار والواقعتين التاليتين على ذلك قد ذكرهما فقط ابن أبى دينار، فى المرجع السابق، ص ٥٢٧. وجميعهم يذكر حصار المهدية قبل عملية نهب جربه، التى يحدد الإدريسى تاريخها بالضبط. والموضع المذكور لابن خلدون تقابله ترجمة م. دى سلان الفرنسية، المجلد الثانى، ص ٢٧ التى استطاعت بأسلوبها السلس الواضح الذى كتبها به المترجم العظيم أن يعطى للأحداث تلك الدقة التى تتقمصها فى النص الأصلى وأن تقرنها وتربطها ببعضها اكثر مما فعل المؤلف نفسه. وهكذا نرى الفقرة التى يقول فيها، *"Roger prit aussitôte la résolution, etc"*. نراها فقرة تمثل كيف يقع خلال شهور، حدثان مضت فيما بينهما تسع سنوات أى من عام ١١٢٧ إلى ١١٣٥.

(2) لقد ذكرت بعض المعلومات الخاصة بهذه الجزيرة فى كتاب *Storia del Vespro Siciliano*، طبعة ١٨٦٦، المجلد الأول، ص ٣٠٩ وما بعدها، وفى خطاب إلى السيد فدريجو اودوريتشى تضمه مجموعة: *Atti e memorie delle regie deputazioni di Storia patria per le province modenesi e parmensi*، المجلد الثالث، وقد ذكرتها أيضاً فى هذا العمل، الكتاب الثالث، الفصل العاشر، المجلد الثانى ص ١٩٧.

ومعه فرقة من الفرسان المنتقين، ووصل الأسطول فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر من عام ١١٣٥. وحاصرت السفن الجزيرة لتضيق عليها الخناق. وحارب أهل جربه ببسالة دفاعاً عن ذويهم وممتلكاتهم؛ غير أنهم هُــزموا، بعد عدة معـــــارك. فقُتل منهم الآلاف؛ ونهب كل شئ؛ وتم اقتياد النساء والأطفال إلى صقلية. وأعطى روجيرو الأمان للذين بقوا بالجزيرة؛ واستعادوا نسائهم وأطفالهم بالمال(1)؛ إلا أن الغالبية منهم قد أصبحت عبيداً للأرض؛ وسلمت الجـــزيرة إلى عـــامل(2) شـــأنها شأن الأراضى الأخرى

(1) قارن بين: الإدريسى: وابن الأثير، عام ٥٢٩، والبيان، عام ٥٢٠، والتيجانى: وابى الفدا، عام ٥٢٩، والنويرى: وابن خلدون وابن أبى دينار. فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٧٣، ٢٨٦، ٣٧٢، ٣٨٤، ٤١٥، ٤٩٤؛ وما بعدها وص ٤٩٨، ٥٣٧. انظر أيضاً ترجمة ونص الإدريسى. *Description de l'Afrique et de l'Espagne*. للمترجمين م. دوزى ودى جيوچه، ليدن ١٨٦٦، ص ١٥١ ـ ١٥٢؛ وترجمة ابن خلدون، *Histoire des Berbères*. للسيد دى سلان، الجزء الأول ٢٤٥، والجزء الثانى ٣٩٧ و٤٢٧، والجزء الثالث ٦٣ وما بعدها و٨٧ و١٢٢؛ وترجمة التيجانى للسيد روسو فى *Journal Asiatique*. اغسطس وسبتمبر ١٨٥٢ ص ١٧٠ وما بعدها. يجدر بى ان انبه القارئ إلى أن الفقرة الخاصة بابن الأثير عن جربه وبعض الفقرات الأخرى التى تم ذكرها فى هذا الفصل إنما تمت ترجمتها من قبل المترجم دى سلان فى ملحق المجلد الثانى بكتاب *Histoire des Berbères par Ibn Khaldun*. ص ٥٧٨ وما بعدها، أعوام ٥٢٩، ٥٣٧، ٥٤١، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٤٧.

إن جميع المؤرخين الآخرين، ما عدا البيان، يذكرون الحدث فى عام ٥٢٩، والإدريسى، وهو المعاصر الوحيد وبإمكانه معرفة ذلك بشكل أدق، إنما يذكره فى آخر العام. وابن خلدون يذكر أن الاحتلال قد وقع فى عام ٥٢٩ وفى موضع آخر يقول إنه وقع عام ٥٢٠.

(2) إن ابن أبى دينار، وهو كما نبهت مرات سابقة، مؤرخ حديث، لكنه نابه جداً، قد ارخ بلاشك لهذه الحقبة نقلاً عن مؤرخ معاصر. فهو يكتب أن الملك «وضع أهالى جربه الذين ظلوا على قيد الحياة وضع التابعين له». الأمر الذى يعنى أنه جعلهم «يعملون لصالحه فى خدمته». وابن خلدون فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، فى النص، ص ٤٩٨، يقول إن السكان قد تم تركهم فى الجزيرة وخضعوا للجزية. وفى موضع آخر (**المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٩٦). يقول المؤلف نفسه إن الجزيرة قد تمردت ثم استعيدت فى سنة ١١٥٣، ويقول إن الصقليين استخدموا الرعاع وهى (الطبقات الدنيا من الشعب) والفلاحين فى العمل، وقد ترجم البارون العلامة دى سلان هذه الكلمات فى *Histoire des Berbères*، الجزء الثالث، ص ٦٤ على هذا النحو *"et (les Siciliens) y établirent des agents chargés d'administrer le gens*

التى تدخل فى أملاك صقلية الأميرية.

أما عن الاتفاقات التى أبرمت بين دولة المهدية والمملكة النورماندية بإيطاليا فسوف يكون العثور عليها سهلاً ميسوراً. فلابد أولاً أن نفترض إقرار السماح المتبادل بالتعامل التجارى وأمن الأفراد والممتلكات الخاصة بالمسافرين بحراً وبالتجار المتنقلين والمقيمين: هذا كان الشرط الأساسى فى كل المعاهدات التى وقعها الإيطاليون والمسلمون طوال العصور الوسطى(1). ولدينا دليل إيجابى على ذلك فى الحالة التالية: فقد سجن عمال روجيرو وصودرت رؤوس الأموال فى عملية عام ١١١٧(2) كانت تلك الاتفاقات واتفاقات أخرى ثانوية تسرى بشكل مستمر، مع تغيرات طفيفة يقتضيها الواقع، وذلك منذ عام ١٠٧٨(3): وكانت تلك الاتفاقات تبرم دائماً لسنوات قليلة يتم تجديدها: ويبدو أنها استؤنفت بعد عام ١١١٧ وحتى حرب رأس ديماس (١١٢٣). وفى عام ١١٣٥ احتاج الأمر إلى رابطة، وليس إلى مجرد السلام، كما قلنا منذ قليل، وإن كنا لا نعرف تاريخها ولا الداعى إليها ولا بنودها. ويكتب ابن أبى دينار فى هذا

"*du peuple et les cultivateurs*. والتيجانى أيضاً فى الموضع المذكور يوحى بأن وضع أهالى جربه كان مختلفاً قبل التمرد وبعده: إلا أنه يقول عن فتح ١١٣٥، إن ما تبقى من الأهالى قد بقى تحت حكم الصقليين. وعن فتح ١١٥٢ يقول إن معظم الأهالى قد سيقوا أسرى إلى صقلية وإنه لم يبق فى الجزيرة إلا من ليس لهم شأن. والإدريسى يتحدث هو أيضاً عن أسر أهالى جربه فى بالرمو عام ١١٥٣. ويبدو لى أن هذا هو الإختلاف الأساسى فى الإجراءات التى تمت فى العمليتين. ففى احتلال عام ١١٣٥، تمت مصادرة الأملاك، ولكن تُرك فى الجزيرة الأهالى الذين لم يتم سبيهم قبل إعلان الأمان. وفى إحتلال عام ١١٥٢ تم أسر من تبقى فى قيد الحياة وترك عدد صغير من رجال لا يخشى منهم فى إثارة قلاقل جديدة.

(1) انظر *I Diplomi Arabi de l'Archivio fiorentino*. المقدمة § ١٧، ص ٣٩ وما بعدها وماس لاترى، *Traités de paix, etc., au moyen age*. باريس ١٨٦٦، المقدمة، ص ٨٢، وما بعدها.

(2) قارن مع الفصل السابق، ص ٣٦٦.

(3) لقد تحدثنا عن ذلك فى الكتاب الخامس، الفصل السادس، ص ١٥٩ من هذا المجلد.

المقام «أن الأمير حسن، إذ كان يخشى شر الملك، أرسل إليه هدايا قيمة ووقع كل الاتفاقات حسب رغبة ذلك الملعون»(1). ويستأنف الكاتب حديثه بأنه بعد حصار الحمأديين والعون البحرى، «قدم حسن الشكر لذلك الملعون ووعده بأن يكون دائماً حسب ما يأمر به أو ينهى عنه؛ ومن ثمة فقد أصبح الأميران صديقين حميمين أكثر من أى وقت مضى وسارت الأمور بالنسبة لحسن على ما يرام»؛ وبعد أن روى الكاتب أحداث جزيرة جربه، التى وقعت بعد بضعة شهور، خلص إلى هذا الرأى: «إن جزر جربه ودولة المهدية قد خضعت لملك صقلية وباتت تخشاه كل افريقيا؛ وعلى ذلك تصرف الملعون بأسوأ مما كان مع حسن، الذى كان يتحاشاه، قدر استطاعته، بالكلام الطيب والحسن»(2).

وخلاصة كل ذلك إنما يعنى أنه فى الفترة ما بين ١١٢٧ و١١٣٧، بينما كان روجيرو يثبت أقدامه ويدعمها على عرش إيطاليا الجنوبية، كان الفقر والأخطار التى حاقت بدولة المهدية وعلى رأسها القحط الذى أصابها، قد دفعت بحسن إلى أن يقبل إلى جانب الاتفاقات التجارية، اتفاقات سياسية جديدة: ندرك من بينها قيام رابطة دفاعية وتقديم قرض من المال أو الغلال(3). كانت الدولة ضعيفة واميرها ضعيف يحيط بهما الأعداء، فارتميا فى أحضان أبعد وأقوى وأكرم شخصية، حسبما كان يبدو لهما؛ وبعد انتهاء تلك المعاهدة أو

(1) فى المكتبة العربية ـ الصقلية. النص، ص ٥٢٦.

(2) المرجع المذكور. ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(3) قارن بين: ما قلناه فى الكتاب الخامس. الفصل العاشر. ص ٣٢٨. عن تجارة الغلال مع افريقيا. وابن الأثير تحت عام ٥٣٦ (١١٤١ ـ ١١٤٢) فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٢٨٦. يروى ابن الأثير ان الأمير حسن. بعد علمه بالغنائم التى استولى عليها الأسطول الصقلى من المهدية، قد أرسل يطلب السلام من روجيرو، وذلك «لكى يحصل على الغلال من صقلية إذ أن المجاعة كانت مروعة فى ذلك العام وكثرت الوفيات بشكل كبير». لقد لاحظنا أكثر من مرة أن القحط وبالتالى الحاجة إلى الغلال الصقلية، كان أمراً مستديماً فى افريقية. كما نعلم أيضاً من ابن أبى دينار، الذى ذكرناه فى هذا الشأن، أن الحسن فى عام ٥٣٦ ذاته كان مديناً لروجيرو بمبالغ ضخمة.

بعد خرقها فى عام ١١٤١، وبعد أن اشتد الجوع بالأهالى، حسب قول ابن أبى دينار «أراد الملعون، أن يوقع اتفاقات أخرى شاملة؛ أصبح الحسن بقبولها وبموجبها تابعاً لروجيرو، بل أصبح احد ولاته على حكم المدن، ولم تكن المعاهدة فى الحقيقة سوى عملية خيانة رسمية»(1). وبعد قليل سوف تثبت رواية الأحداث، أنه من الأمور التى وافق عليها الحسن، أن كل بلد مستقل فعلياً عن المهدية هو كسب حقيقى لروجيرو، وأنه تعهد بان يساعد ملك صقلية ضد المسلمين، الذين ينبذون حكم صقلية ويريدون العودة تحت حكم الزيريين. إن اتهام حسن بأنه جعل من نفسه عاملاً لروجيرو يحملنى على أن أفترض أن الاتفاقات الإقتصادية كانت مجحفة بالقدر الذى كانت عليه الاتفاقات السياسية، وأن ملك صقلية أرسل مندوبين عنه ليشرفوا على جمارك المهدية لضمان قروضه، التى كانت بالضرورة مبالغ ضخمة جداً تأتى كلها أو معظمها من ثمن الغلال الذى كان يورد إلى الملك: وكان السعر استغلالياً مجحفاً، يحدده دائن يمتلك الجيوش والأساطيل. وكان يجب أن ترجح كفة الميزان لصالحه فى كل ما يتعلق بشروط حركة التجارة والأشخاص؛ ولدينا علامات أكيدة على ذلك تتمثل فى عدد الكنائس والمسيحيين الذين كانوا فى المهدية عام ١١٤٨. ولم تكن بالمدينة عندما أسسها عُبيد الله عام ٩١٥ كنائس

---

(1) فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨. ويبدو أن اتفاقية عام ٥٣٦ هجرية (١١٤١ ـ ٢) كانت آخر اتفاقية، وكما قلنا فى ذلك أكثر من مرة لقد كانت تلك الاتفاقات دائماً مؤقتة، وفى القرن الثانى عشر كانت المعاهدات تبرم عادة لمدة عشر سنوات.

فى هذا الصدد يقول ابن الأثير، الذى يروى هذه الأحداث بإسهاب أكثر من أى مؤرخ آخر. وهو يكتب فى بداية الفصل عن سقوط المهدية عام ٥٤٣، إن المعاهدة كانت حينئذ مستمرة لمدة سنتين أخريين. وإذا ما افترضنا صحة ذلك نستطيع أن نستخلص أن الاتفاقية قد تم إبرامها عام ١١٤١ ـ ١١٤٢ لمدة ١٠ سنوات. إلا أن المثنى «سنتين» المكتوب فى النص ربما يكون قد كتب خطأ، ومع تغيير طفيف بدلاً من الجمع «سنين» والذى قد يعنى عدداً من السنين وعليه فسوف يظل تاريخ الاتفاقية الأحدث غير محدد.

فالقانون الإسلامى ـ حينئذ ـ كان يحظر بناء كنائس جديدة(1)؛ وإذا كانت الاحتياجات الاقتصادية وسعة صدر الفاطميين تحملنا على الاعتقاد بأنه مع مرور الوقت أصبح بناء الكنائس داخل فنادق المسيحيين، أمراً مقبولاً، إلا أنها لم تكن كثيرة على ما يبدو فى عام ١٠٨٧، فلم يشر إليها الكتاب الأفارقة، أو كتابنا، فى معرض كلامهم عن ذلك الهجوم على المهدية. وإذا ما افترضنا أيضاً أن الفنادق الإيطالية قد توسعت بموجب المعاهدات الموقعة مع جنوة وبيزا بعد ذلك الحدث، فإنه من الواضح إن توسيع الحى المسيحى وتشييد الكنائس إنما يرجع بالأحرى إلى السنوات الأخيرة، عندما كان روجيرو يحكم، على أقل تقدير، بقدر ما كان يحكم الحسن فى أراضى الزيريين التى تقلصت. وكان چورچو الأنطاكى، رئيس الوزراء الصقلى، يعرفها من الداخل ومن الخارج: وكان له بها عيون(2)؛ وكان له حلفاء من عرب الريف ومن أهالى المدن والقرى، وكان ينتظر مع الملك إلى أن تنضج الثمرة ليقطفها فى هدوء.

وكانا يساعدان على نضجها. ففى عام ٥٣٦ هجرية (٦ أغسطس ١١٤١ إلى ٢٦ يوليه ١١٤٢) اشتدت وطأة القحط بشكل فظيع فى تلك البلاد؛ وخلفت وراءها أعداداً كبيرة من الوفيات. وبدا وقتئذ لروجيرو أن الحالة ملائمة حتى يُحَصِّل الأموال التى كان الحسن قد اقترضها من عماله فى المهدية؛ ولما رد الأفريقى بأنه لا يستطيع وطلب منه مهلة جديدة، أرسل الملك فجأة چورچو ومعه ٢٥ سفينة حربية صغيرة؛ فاستولى على المهدية واقتاد إلى صقلية سفناً تجارية كانت آتية من

---

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٢٠ من المجلد الأول.

(2) البيان، نص دوزى، المجلد الأول، ص ٣٢٢، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٧٣، يقول إن چورچو «كان يعرف بالتحديد الجوانب الضعيفة فى المهدية والبلدان الأخرى» (فى الدولة)؛ والتيجانى فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، فى ص ٣٩٩، يقول إنه «كان يعرف كل شئ عن المهدية: مناطق السكنى، ومناطق الزراعة»، ويقول فى ص ٣٩٨ إنه «كان له جواسيس فى المهدية».

مصر وتم شحنها فى المهدية استعداداً للإبحار، حسب ما نقلته عيون الأدميرال. وقد ذُكرت بنوع خاص تلك السفينة التى أصلحها الحسن حديثاً باستخدام بقايا سفينة أخرى كانت لخليفة مصر الفاطمى وغرقت منذ وقت قريب(1): وتشهد هذه الأحداث على حركة التجارة التى كانت سبباً فى ثراء أمراء مصر وأفريقيا المسلمين وفى ثراء النورمان والزفيف بصقلية على غرارهم. ولما انقض چورچو مرة أخرى على ميناء المهدية، استولى فيه على سفينة كانوا يسمونها «نصف الدنيا»، كان قد أعدها الحسن بعناية فائقة لإبحارها إلى مصر وقد شحنها بكم من الأشياء الثمينة التى تليق بالملوك ليقدمها هدية إلى الخليفة الحافظ(2). وعبثاً حاول الحسن تهدئة ملك صقلية بأن أعاد إليه أعداداً كبيرة من الأسرى المسيحيين(3). وكلما كان يريد ألا يرى أمامه چورچو الأنطاكى، ويحصل على كمية من القمح من صقلية، كان عليه أن يلبى رغبات روچيرو، وذلك بتوقيع معاهدات جديدة، الأمر الذى بدا للمسلمين تبعية حقيقية للملك(4).

وها هو ذا الأسطول الصقلى يحضر فى العام التالى (من ٢٧ يوليه ١١٤٢ حتى ١٥ يوليه ١١٤٣) إلى طرابلس البربر. وهى المدينة التى كانت قد تحررت من حكم الحسن وبات يحكمها مجلس من شيوخ قبيلة بنى مطروح. وفى التاسع من ذى الحجة (٢٥ يونية ١١٤٣) نزل الصقليون على ساحلها وحاولوا الهجوم وراحوا يفتحون ثغرة فى السور بالخطاطيف، مثلما كان الحال فى حصار مدينة مونتبلوزو،

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٣٦: والبيان تحت العام نفسه: والتيجانى: وابن أبى دينار، وجميعهم فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٨٦، ٢٧٢ ـ ٣، ٢٨٨ ـ ٩، ٥٢٧. وإن كان هؤلاء المؤرخون يروون مع بعض الاختلاف فيما بينهم، بعض التفاصيل والتيجانى لا يحدد تاريخاً. إلا أنه من الواضح أن جميعهم يتناولون الحدث نفسه.

(2) التيجانى، فى المرجع السابق، ص ٣٩٩. سفينة أخرى تسمى «نصف الدنيا»، مشحونة بالبضائع، تم إرسالها من صقلية إلى الإسكندرية فى مصر عام ١٢٤٢ وكان ذلك من قبل الإمبراطور فدريكو.

(3) ابن أبى دينار، المرجع المذكور، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(4) ابن أبى دينار، الموضع السابق.

وكادت تنجح محاولتهم، لولا أنه فى اليوم التالى وبعد أن هرع العرب من الريف، استرد أهل المدينة شجاعتهم وخرجوا معاً يواجهون العدو وطاردوا مهاجميهم حتى سفنهم، واستولوا على أسلحة وعتاد وخيول مما كان معهم(1). وعاد بعد ذلك الأسطول إلى صقلية وتزود بالرجال والعتاد ثم رسى على أرض جيجيل الصغيرة الخاضعة للحماديين فى بجاية. وحيث إن الأهالى لم يتوقعوا نزول الأسطول، فقد هربوا إلى الجبال والريف؛ وبذلك نهبت الأرض وحرقت، وادت النيران إلى تدمير ضيعة كان يمتلكها الأمراء الحماديين، وكانوا يسمونها «نزهة»(2). وفى عام ٥٣٩ (من ٤ يوليه ١١٤٤ إلى ٢٣ يونيه ١١٤٥) قطع الأسطول ساحل أفريقية، واستولى على أرض بريسق غربى شيرشيل، وقتل رجالها وأسر نساءها ليبيعهن للمسلمين فى صقلية(3). والمصير نفسه لاقته جزيرة كيركينى الصغيرة عام ٥٤٠ (من ٢٤ يونيه ١١٤٥ إلى ١٢ يونيه ١١٤٦)، وحيث إنها كانت قريبة جداً من العاصمة، فقد تشجع الحسن وأعرب عن غضبه إلى روجيرو مذكراً إياه بالمعاهدة المبرمة بينهما، إلا ان روجيرو رد عليه بأنه لم يخرق المعاهدة، حيث إن سكان جزيرة كيركينى من المتمردين مثلهم مثل غيرهم من سكان الساحل(4).

وأين كان آنذاك أسطول المهدية؟ لا تشير المذكرات الإسلامية إليه بعد وفاة على بن يحيى (١١٢١). وإن كان أحد الكتاب المسيحيين

---

(1) ابن الأثير، عام ٥٢٧: والبيان فى العام نفسه؛ وابو الفدا كذلك: وابن خلدون، وابن ابى دينار فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٨٧، ٢٧٢، ٤١٥، ٤٩٨، ٥٢٨.

(2) المراجع نفسها، ما عدا البيان وابو الفدا. ظلت جيجيل شبه مهجورة وفقيرة جداً إلى الوقت الذى كتب فيه الإدريسى. انظر هذا المؤلف فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٧٢ وفى طبعة كل من دوزى ودى جوجى، *Description de l'Afrique... ecc*، ص ١١٤ من الترجمة.

(3) ابن الأثير وابو الفدا، عام ٥٣٩، فى المرجع السابق، ص ٢٨٧ و٤١٥.

(4) ابن الأثير، عام ٥٤٠ وابن ابى دينار، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٨٨ و٥٢٨. يذكر ابن أبى دينار هذا الحدث فى عام ٥٢٧ لكنه ربما يكون خطأ فى النسخ.

ينسب إلى ذلك الأسطول الزيرى مسئولية نهب مدينة سيراكوزا (١١٢٧)، فيبدو أنه أخذ الكل بالجزء(1). فربما كان قد تبقى للأمير الزيرى عدد ضئيل من السفن كان يستخدمها فى التجارة مع صقلية ومصر وليس فى الحرب؛ وكانت تُرى هنا وهناك فى الموانئ والثغور وفى الجزر الصغيرة التابعة للدولة القديمة، سواء كانت موالية أم متمردة. إنها سفنٌ كبيرة يمكن تسليحها وسفن مهنتها القرصنة: غير أن كل ذلك لم يكن يمثل أسطولاً: فإن فقر الدولة، وربما أيضاً إهمال القائمين على الحكم فى عهد الحسن، قد عملا على الإضرار بذلك الجهاز الحيوى من أجهزة الدولة. لذا أصبح من المعتاد بالنسبة لسكان سواحل برقة وتونس ان يروا الأسطول الصقلى القوى، بدلاً من السفن الحربية القليلة التابعة للدولة الزيرية كما تعودوا أن يخشوا ذلك الأسطول فقط وأن ينتظروا عونه ضد الأمير المنبوذ أو فى الحروب الأهلية.

لم يترك روچيرو هزيمة طرابلس دون ثأر لمدة طويلة فبعدها بعامين قام أسطول صقلى صغير بأعمال التخريب فى ضواحيها واستولى منها على غنائم وأسرى(2). وبعد عامين آخرين قامت مائتى سفينة بإتمام العملية.

كانت جماعة بنى مطروح العربية الحاكمة قد طردَتها حديثاً جماعة معادية لعلها من البربر، الذين دعوا فى ما يبدو إلى الحكم لأحد الأمراء المرابطين. وكان قد حل فى طرابلس مع مجموعة من الرجال فى طريقه إلى مكة للحج. وعلى الرغم من أن أحداً من المؤرخين لم يذكر شيئاً عن ذلك فإنه يجدر تصور وجود اتفاق بين چورچو الأنطاكى قائد الأسطول الصقلى مع بنى مطروح. ففى الثالث من محرم من عام ٥٤١ (١٥ يونيه ١١٤٦) بدأ چورچو هجماته واستمر يحارب حتى

---

(1) انظر الفصل السابق، ص ٢٧٥.

(2) يستخلص هذا الحدث مما يرويه ابن الأثير تحت عام ٥٣٩ فى الفصل الخاص باحتلال إديسّا من قبل زنجوى. فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٨٨ وفى طبعة نورنبرج، المجلد الحادى عشر ص ٦٦.

اليوم السادس، عندما اختفى المدافعون من على الأسوار فجاة: لأن بنى مطروح دخلوا شاهرين أسلحتهم بعد أن أخطرهم الموالون لهم فى المدينة واشتعلت المعركة. عندئذ أخذ الصقليون السلالم، واجتازوا الأسوار، واحتلوا الأرض، بعد أن قاموا بالمذابح المعتادة وبعد إعمال النهب والتخريب وسبى النساء؛ وهرب الرجال من الجانبين فى حقول الريف، فمنهم من لجأ إلى العرب ومنهم من لجأ إلى البربر. وبعد أن بلغ جورجو غايته فى تحقيق النصر للراية التى يحملها وفى تحقيق مطامع الجنود، لم يتوان فى إظهار نوايا حكومة صقلية الحقيقية ألا وهى الاستيلاء على افريقيا. فأعلن الأمان العام حتى عاد جميع الهاربين إلى ديارهم؛ وطالبهم بأن يعيشوا معاً فى سلام، وأعلن ضماناً تاماً لحقوق المدنيين، بشرط أن تُدفع الجزية إلى ملك صقلية. ثم أعاد إصلاح أسوار المدينة، وأحاطها بخندق: وترك فيها حامية قوية من مسيحيى صقلية ومسلميها، وبعد أن أخذ رهائن من طرابلس ومن بينهم الأمير المرابطى وبنى مطروح. عاد بالأسطول إلى صقلية، بعد ستة أشهر من عملية الغزو. وبعد ذلك بقليل أعاد قصر بالرمو الرهائن، ما عدا رجال الشيخ أبى يحيى بن مطروح من قبيلة تميم العربية الذى تم اختياره حاكماً للأرض؛ كما عين قاضياً من البربر وهو أبو حجاج يوسف بن الزيرى، وهو مؤلف كتاب فى الفقه المالكى واتفق، حسب قول التيجانى، على ألا يخالف القائد المسيحى للحامية إجراءات الحاكم أو القاضى. ويسترسل ابن الأثير قائلاً إنه بهذه الطريقة كان الحكم فى طرابلس يسير على الوجه الأكمل؛ وقد جذب إلى طرابلس التجار والبضائع من صقلية ومن جميع أنحاء إيطاليا. يضاف إلى ذلك أنه ورد فى مخطوطة لابن خلدون أنه ارتفعت فى صقلية صيحات تدعو من يرغب للهجرة إلى طرابلس مع التمتع بالامتيازات: «وبناء على ذلك النداء تدفقت الناس على طرابلس التى عمرت من جديد»، حتى أنها عادت مزدهـرة فى فترة وجيزة(1)؛ فى حين كانت بقية بلاد البربر وجانب كبير من بلاد

آسيا تعانى من المجاعة الرهيبة التى اشتدت وطأتها(2). كما سبق وقلنا، عام ١١٤١ وهجمت بنواجزها على البلاد الأفريقية من شتاء عام ١١٤٧ إلى ١١٤٨. ومن الأراضى المفتوحة والحقول والقرى كان الرعاة والمزارعون يزحفون نحو الأراضى المحاطة بالأسوار، حيث كان سكانها يحتفظون ببعض الأغذية: إلا أن أهل تلك المدن كانوا يوصدون دونهم الأبواب، ويطردون تلك الجماهير الجائعة بقوة السلاح، فكان أولئك البؤساء يقتتلون ويأكلون أحياناً بعضهم البعض، حينما لا يسعفهم الموت بالطاعون أو الجوع. وانخفض عدد سكان البربر، وكان الأغنياء يهربون إلى بلدان آخرى وكان معظمهم يهربون إلى صقلية بحثاً عن الطعام والأمان غير أنهم عانوا هم أيضاً من أزمات فظيعة(3).

ووسط ذلك الدمار انطلق من أحد قصور الحريم فى قابس ذلك

---

(1) قارن بين: الإدريسى: وابن الأثير، عام ٥٤١: والتيجانى: وأبى الفدا: والنويرى: وابن خلدون: وابن أبى دينار: وابن خلكان: فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٧٣، ٢٨٩، ٢٨٨، ٤١٥، ٤٥٧، ٥٠٠، ٥٣٨. والإدريسى والتيجانى يؤرخان الحدث بعام ٥٤٠: إلا أن الفرق يكمن فى أيام قليلة جداً، لأن المعارك قد بدأت فى اليوم الثالث من عام ٥٤١. وفى خطأ واضح يقول التيجانى إن طرابلس قد تم الاستيلاء عليها بعد المهدية وصفاقس. ومخطوط ابن خلدون الذى ذكرته بنوع خاص هو المخطوط الذى اتبعه تورنبرج، *Ibn-Khaldûni, ecc, de Expeditionibus Francorum*، أو بسال ١٨٤٠، ص ٣٧. إن المؤرخ الذى كان من مدينة كاسينو، مجهول الاسم، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٥١٠، يسجل الاستيلاء على طرابلس فى عام ١١٤٥، وربما حسب عام التقويم الميلادى بناء على الخمسعشرية دون مراعاة للشهر. وروبرتو رئيس الدير فى مونتى سان ميكيلى، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، الجزء السادس، ص ٤٩٧، يذكر ذلك فى عام ١١٤٦.

(2) ابن الأثير، عام ٥٤٢، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٩٢ وعام ٥٤٣، النص، تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ٩٠. لقد استخدمت المسمى الحديث برباريا (أرض البربر) الذى يعبر بشكل أفضل، كما هو فى هذه الحال، عن المغرب المذكور فى النصوص، وأفريقية لم تكن سوى الجزء الشرقى منها.

(3) ابن الأثير، الموضع السابق، وكل المصادر العربية التى سوف نذكرها بعد قليل فى أحداث قابس والمهدية.

الصراع الذى أدى إلى سقوط المدينة فى يدى روجيرو. فلما توفى الرشيد عام ٥٤٢ (٢ يونيه ١١٤٧، ٢١ مايو ١١٤٨)، الذى خلف رافع بن كامل الذى تحدثنا عنه فيما قبل(1) ولما، حرم الابن البكر معمر من العرش تولى إدارة حكم البلاد العبد المعتوق يوسف باسم الصبى محمد، ابن الرشيد الأصغر. وقد استولى يوسف أيضاً على حريم سيده وكانت من بينهن فتاة شابة من بنى قرة، وهى قبيلة عربية؛ ولما لم تحتمل الإهانة، كتبت إلى إخوتها الذين طلبوا استردادها من يوسف ولكنه رفض إعادتها إليهم، فطلبوا إنصافها من الحسن الذى كان يعتقد أنه لايزال يحكم فى حدوده القديمة، فأمر يوسف بأن يعيد الجارية: ولما رفض يوسف هدده الحسن: ولما سخر يوسف منه، تهيأ الحسن لحمل السلاح. وعندئذ لجأ يوسف إلى ملك صقلية وأفهمه أنه يمسك بزمام دولته باسم محمد بن الرشيد، فى الحدود نفسها التى كان أبو يحيى يحكم بها طرابلس: وقبل روجيرو ذلك وأرسل إلى العبد الدنئ وثيقة التعيين والحُلل الرسمية المعروفة، وذلك حسب قول ابن الأثير: ويكتب ابن أبى دينار عن ذلك بشكل أدق قائلاً: أرسل له وثيقة التعيين والنياشين المستخدمة عند المسيحيين: حينئذ استدعى يوسف أقطاب البلاد وقرأ عليهم الوثيقة وارتدى الحُلة وشرع فى حكم البلاد وتحصيل الإيرادات باسم روجيرو. «اللهم نجنى، يصيح هنا الكاتب التونسى فى القرن السابع عشر، اللهم نجنى من تلك اللعنات! وهل يُدعون أولئك مسلمون، أم شياطين؟ آه! إلى أى مدى أسقطهم فى العـــار ذلك الجشــــع فى خيرات الدنيـــا وحب السيطرة»: إنه ذلك الجشع الذى يعمى الأعين ويصم الآذان»!. أما عن جندى صلاح الدين الذى كان يسجل على الورق حـوليات المســـلمين بكل هدوء وعناية، فبدلاً من الوعظ والإرشــــاد أخذ يسهب هنـــا بأسـلوبه ليروى لنا عن القصاص الذى كان من يوسف ومن أتباعه. وفى فصل كتبه

(1) الفصل السابق، ص ٣٦٣.

خصيصاً وأسماه: «قصة أمر ما يتقيه من له روية»، روى أنه تواجد معاً فى قصر الملك روجيرو ببالرمو أحد مبعوثى ذلك المغتصب وأحد أتباع الحسن، ولما تبادلا الحديث تشاجرا معاً، وسب مندوب قابس وقال ما قال ضد حاكم المهدية. وكظم الآخر غضبه وحفظ ما قاله فى نفسه، وعندما سافر من بالرمو فى وقت سفر خصمه، أرسل إلى الحسن رسالة حول عنق حمامة: فخرجت السفن من المهدية وتربصت لسفينة قابس وقبضوا على المبعوث واقتادوه أمام الحسن، الذى واجهه بالخيانة والإهانات، وأمر بأن يطوفوا به شوارع المهدية مربوطاً على جمل وعلى رأسه طاقية بها جلاجل، وبجواره المنادى الذى كان يصيح «هذا هو جزاء من يسلم بلاد الإسلام إلى الفرنجة». ولما وصل إلى وسط المدينة، رجم الشعب ذلك البائس وعلقوا جثته على عامود. ثم ثار شعب قابس على يوسف عند ظهور جيش صغير كان قد نظمه الحسن مع معمر ومع محرز بن زياد، أحد رؤساء قبائل العرب الذى كان يتحصن فى أطلال قرطاجنة وهو يحلم بأشياء عظيمة(1). وعندما وجد يوسف نفسه محاصراً فى قصره، دافع عن نفسه قدر استطاعته وفى النهاية قُبض عليه وسلموه إلى معمر، ثم سلمه إلى بنى قرة الذين عذبوه عذاباً قاسياً ومروعاً. وقام عيسى، أخو يوسف، باصطحاب أولاد أخيه، وربما الطفل محمد بن الرشيد أيضاً إلى صقلية، طالباً الانتقام(2).

فى تلك الأثناء كان جورج الأنطاكى يعيث بأسطوله فساداً فى جزر البحر اليونى والبيلوبونيزو(3). ويبدو أن سفن صقلية التى أبحرت فى

---

(1) مكان سكن العرب ذلك، كان يوجد فى أعلى مكان بالمدينة العتيقة، وكان يطلق عليه «المعلقة». انظر الإدريسى، طبعة دوزى ودى جوجى .*Description de l'Afrique, ec*، ص ١١٢ من النص وص ١٢١ من الترجمة.

(2) قارن بين: ابن الأثير عام ٥٤٢، والتيجانى: وابن خلدون؛ وابن أبى دينار فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٢٩٠ وما بعدها وص ٢٨٤، ٤٨٩، ٥٠٠، ٥٢٨.

(3) سوف أذكر الكتاب المعاصرين فى الفصل التالى حيث ينبغى أن نشير إلى الحرب التى شنها روجيرو ضد إمانويلى كومنينو. يكفى أن نذكر هنا أن تسلسل زمن الأحداث.

الحال لكى تحاصر قابس كانت قليلة للغاية وعادت دون أية نتيجة(1). ثم لم المشقة والعناء من أجل قلعة صغيرة؟ لقد كان من المحتم على روجيرو إما أن يوقف عمليته فى افريقية أو أن ينجزها بعملية سريعة ضد المهدية نفسها؛ لأن الحسن كان يتقرب من زعماء عربَ البدو الأقوياء؛ وتعاونوا معاً قبل قليل ضد قابس، والآن ضد تونس؛ ثم أنه كان لابد أن تصل إلى افريقية ردود فعل حملة سان برناردو الصليبية. وتصالح روجيرو مع مؤيدى البابا، ولكنه كان مهدداً من جانب اثنين من الأباطرة فى آن واحد. لذا انضم إلى العمليات الصليبية ليأمن جانب الإمبراطور الألمانى، ويعمل على توجيه جيوش الصليبيين ضد الإمبراطور البيزنطى؛ وقدم مساعدات وأعطى نصائح؛ ولما لم ينصت إليه احد. أراد أن يظهر بمظهر من يحارب هو أيضاً من أجل العقيدة؛ بينما كان الألمان والفرنسيون، قد عبروا مضيق البوسفور (سبتمبر واكتوبر من عام ١١٤٧) وأخذوا يواجهون المصاعب هباءاً فى سورية؛ وكان مسيحيو اسبانيا، ومعهم الإنجليز والنورمان، يحاربون اعداءهم فى البرتغال، واستولوا بمعاونة جنود جنوة على المرية وكانوا يستعدون لاقتحام تورتوزا. ولدى هجومه على افريقية فى صيف عام ١١٤٨، ظهر ملك صقلية لأول مرة ضمن الاتفاق الكاثوليكى الكبير؛ وكان يستغل مميزات ذلك الإتفاق، كما كان يفيد من ذلك ايضاً فى تدريب سفنه الكثيرة على الحرب والانفاق عليها على حساب الآخرين. ذلك الأسطول الذى جهزه قبل عام ضد إمانويلى كومنينو وأصبح ضرورياً ليدافع به عن نفسه بعد فترة وجيزة

غير المؤكد لدى البيزنطيين. قام بتحديده تحديداً جيداً لو بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب السابع والثمانين § ٢٢ إلى ٣٩ وايضاً موراتورى، *Annali*. ١١٤٦ إلى ١١٤٩. وفى *Cronaca della Cava*، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٩٢ ولدى موراتورى فى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ويذكر الاعتداءات الأولى ضد الامبراطورية البيزنطية عام ١١٤٧ بالتحديد.

(1) التيجانى، الموضع السابق.

ضد الإمبراطورية البيزنطية، أو ليهاجمها من جديد(1). ولما كان المؤرخون المسلمون على غير علم بكل تلك التفاصيل فإنهم يتهمون روچيرو بالخبث الشديد. أى بأنه أراد استغلال القحط الذى كانت افريقية تعانى منه، وأنه أسرع إليها خشية أن تفلت منه تلك الفرصة. ولعلهم لا يخطئون تماماً فى ذلك. ولابد أن نتصور أن الحالة السيئة التى نعرفها فى المهدية كانت تسود أفريقية كلها: فبسبب الجوع كان الجنود فى حالة فوضى، ونفقت غالبية خيولهم، وصارت خزانة البلاد منهكة، وأصبحت كل القوى الاجتماعية فى حالة انهيار(2). وأولئك الأعيان الذين جاءوا مؤخراً إلى صقلية بحثاً عن ملجأ آمن، قد أصبحوا أداة جيدة فى أيدى رجال مثل روچيرو وجورچو، للحصول على المعلومات على أقل تقدير. وكان الأمر لا يخلو من وجود الخيانة فى ذلك التدهور الواضح الذى حدث للبيت الزيرى. فإننا نعلم أن قائداً أتى فى الأزمنة الأخيرة رسولاً من قبل الحسن إلى بالرمو، ثم عاد بعد أن أعطاه روچيرو الأمان لنفسه وممتلكاته هو وأهله(3).

مع حلول الصيف أبحر چورچو من موانئ صقلية بمائتين وخمسين سفينة محملة بالرجال والسلاح والمؤن، وعندما رسى أسطوله فى جزيرة بنتلاريا أمر بالاستيلاء على قارب أرسلته المهدية لمراقبة تحركاته؛ ووجد فيه أقفاص الحمام الزاجل؛ وحينما اقسم له عامل الحسن بأنه لم يرسل أية أخبار، أجبره چورچو أن يكتب بخط يده بأن السفن التى وصلت لتوها من صقلية تحمل خبراً بأن أسطول العدو قد أبحر إلى الأرخبيل. وقد أحدث هذا الخبر فرحاً عظيماً فى المهدية، إلا أنه لم يدم إلى ما بعد فجر يوم الاثنين،

---

(1) لا ينبغى أن نورد شواهد لأحداث الحملة الصليبية الشهيرة. إن اتصالات اليسوعيين فى ذلك الوقت مع الملك روچيرو تتضح من خلال رسالة كتبها إلى هذا الأمير الأب بيترو، رئيس دير كلونى، وأعاد طبعها كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٩٨٠.

(2) التيجانى.

(3) ابن الأثير، عام ٥٤٢، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٩٥.

الثانى من صفر من عام ٥٤٣ (٢٢ يونيه ١١٤٨) عندما ظهر فى الأفق الأسطول الصقلى كله الذى كان يقترب من المهدية بضربات المجاديف الشديدة بصعوبة بسبب قوة الرياح المضادة له. كان جورجو يسير بمعدل محسوب بحيث ينزل رجاله على البرزخ قبل طلوع النهار. وعندما تفتح أبواب المدينة يجدونها مراقبة من الخارج وبالتالى لن يتمكن أحد من الفرار. ولكن عندما فشلت هذه الخطة بسبب الرياح المماكسة، حاول الأنطاكى أن يعطل خروج الناس حتى تنزل الجنود كلها على الأرض. وبعد أن أرسى سفنه بعيداً عن الميناء، ارسل مركباً سريعاً إلى الحسن حتى يطمئنه: فقد جاء صديقاً، صادقاً فى احترامه للاتفاقات: وما كان يطلب منه سوى أن يسلمه قتلة يوسف، وإن لم يستطع ذلك فعليه أن يرسل رجاله مع صفوف قوات الملك لتقاتل ضد أولئك الذين احتلوا قابس. وجمع الأمير الفقهاء والأعيان، ولم يكن هناك من لم يدرك أن ساعة آل الزيرى الأخيرة قد حانت: بل نصحه أكثرهم حماساً بالقيام بالدفاع. وحسم الحسن النقاش، ربما كان ذلك إنكاراً منه لذاته، أو خوفاً وفزعاً، أو ربما لأنه رأى أمامه وجوهاً توحى بالخيانة. وراح يتذكر الجنود قليلة العدد، المرابطة بعيداً، فى معسكر بتونس، والمدينة وما بها من مؤن تكفيها لمجرد شهر واحد؛ ويفكر فيما إن حاصرها العدو بحراً وبراً واستولى عليها لا محالة، نتيجة القتال أو الجوع: وماذا يمكن أن يكون حينئذ؟ كان حبه للمسلمين يفوق حبه لملكه ولقصوره؛ لذلك كان يريد أن ينقذهم من القتل، ومن النهب ومن الوقوع فى الأسر قال: «لن أرسل أبداً رجالى مع المسيحيين ليحاربوا المسلمين: ولن أنقذ المدينة بمثل هذا الثمن الشائن، فهذا يعنى أن أتيح للعدو الوقت حتى يأخذنا جميعاً فى شباكه. لا نجاة إلا فى الفرار. سوف أمتطى جوادى ومن أراد فليتبعنى». هكذا اختتم كلامه. وبعد أن حزم من ماله ما غلى ثمنه وقل وزنه، غادر المكان على عجل وبصحبته عائلته والمقربين منه. وتبعه مواطنون كثيرون، وأخذوا معهم نساءهم

وأبناءهم وما استطاعوا من أموالهم ومما هو ثمين لديهم. واختبأ كثيرون فى بيوت المسيحيين وفى الكنائس.

ولما انزل چورچو رجاله من على السفن وقبل الغروب(1)، دون أن يضرب ضربة واحدة، تصرف تصرف العارف الخبير بكافة الأماكن والعادات، ورجل الدولة المحنك الانسان. أسرع على الفور إلى قصر الملك، ولما وجده سليماً، لم يمس، وضع الأختام على أبواب الخزائن المملوءة بكنوز ومقتنيات ثمينة وبكل ما هو نادر وغالى القيمة مما جمعه آل الزيرى على مدار قرنين من الزمان: ووضع نساء «الحريم» تحت الحراسة فى قصر صغير ومعهن أطفال الحسن الذين خلفهم وراءه عند فراره. وبعد أن حافظ چورچو بهذه الطريقة على ما يمكن أن تستخدمه خزانة الدولة أو تبيعه، كبح رجاله بعد أن أخذوا فى نهب المدينة لمدة ساعتين: وأعلن وقف سفك الدماء والسلب والنهب واهتم بشكل كبير بإنقاذ المسيحيين بعد أن أخرجهم من المهدية ومن زويلة وأقام لهم مخيماً فى السهل الذى كان يفصل الضاحية عن القلعة، أو المدينتين الواحدة عن الأخرى كما كان يسميهما الكتاب العرب فى ذلك الوقت(2).

---

(1) يقول التيجانى إن النزول من السفن قد حدث بعد وصول الأسطول بسبع ساعات. وحسب ابن الأثير فإنه كان قد مضى ثلثا النهار. والآن فإن الشمس، فى شهر يونيه، تشرق فى المهدية حوالى الساعة الخامسة صباحاً وتغرب بعد الساعة السابعة مساءاً بقليل، وعليه فإن النهار يستمر ١٤ ساعة. وكلتا الروايتين متفقتان إذن فى تحديد نزول الجنود من السفن، فيما بين الثانية والثالثة بعد الظهر، إذا ما حسبنا السبع ساعات التى ذكرها التيجانى، ليس بدءاً من الفجر عندما شوهدت أولى السفن، وإنما من وقت تجمع الأسطول كله، الذى لابد وأن استغرق ساعتين أو ثلاث.

(2) فى ذلك الحين كان مسيحيو المهدية، على ما يبدو، من سكان أفريقيا الأصليين وبعضهم من الأجانب أيضاً. ومن يريد أخباراً أكثر تفصيلاً عن مسيحيى افريقيا الشمالية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر يستطيع أن يطلع على المقدمة التاريخية لكتاب السيد مالاتيرًا، وعنوانه، *Traités de paix, ecc.*، ص ٧ و١١ و٦٧ وما بعدها. ومع انى ارى أن بعض التفاصيل الخاصة بالحروب التى دارت بين الإيطاليين ومسلمى افريقيا فى القرن الحادى عشر والمذكورة فى الكتاب، (ص ٧، ٨، ٩) أراها بعيدة عن الحقيقة وارى أيضاً أن المؤلف، مدفوعاً بتعاطفه الزائد، قد بالغ فى ذكر أفضال

ومع غروب الشمس كان قد رتب كل شئ حتى أن مأساة المهدية، بدأت وانتهت مع ذلك النهار. وقد أطلقت الأهالى على ذلك الحدث اسم واقعة يوم الاثنين، كما ربطت بأيام أخرى من أيام الأسبوع موقعتين أو ثلاث من مواقع الروم(1). وفى صباح اليوم التالى توجه تفكير الأدميرال إلى الهاربين. فأرسل فى البحث عنهم مواطنيهم الجنود ممن ظلوا فى المهدية؛ وأمد هؤلاء الجنود بالدواب حتى يحملوا عليها النساء والأطفال؛ وأعلن بذلك الأمان: بحيث يستطيع من يرغب أن يعود إلى المدينة وهو آمن على نفسه وعلى ماله. وهكذا أنقذ الآلاف ممن كانوا على وشك الهلاك جوعاً وعطشاً فى تلك البرارى، حتى وإن كان من بينهم من ترك فى بيته خيرات كثيرة حسب قول المؤرخين فى ذلك الوقت. كما دعا جورجو إلى المدينة أولئك العرب البدو الذين كانوا يهيمون فى ضواحيها: وأغراهم بهبات كبيرة ومعاملة طيبة: ووزع على فقراء المهدية أموالاً ومواداً غذائية، وأقرض أموالاً إلى كبار التجار، حتى يواصلوا أعمالهم التجارية؛ وعين قاضياً ليقيم العدل. رجلاً مقبولاً من الجميع. ولم يفرض على المسلمين من الضرائب سوى الجزية. كما عامل أطفال الحسن

بلاط روما إلا أن يجدر بى أن أسجل هنا الجهد الكبير الذى بذله المؤلف فى بحثه، والعلم الغزير والنظام الدقيق الذى اتبعه فى العمل بكامله.
بالإضافة إلى الأحداث التى ذكرها السيد مالاتيرّا عن ذلك الموضوع المفضل عنده. ينبغى ذكر شهادة للمؤرخين العرب عن كنائس افريقية فى عام ٩٥٥، (*Storia de'Musulmani di Sicilia*. الجزء الثانى، ص ٢٤٨، الكتاب الرابع، الفصل الثانى) وقول متمم كتابات السيد سيجيبرتو دا جيمبلو: إن روجيرو فى عام ١١٤٨ قد أعاد أسقف افريقية حراً إلى مقره. الذى كان قد توجه إلى روما خادماً لينال رسامته هنالك (فى كتاب كاروزو. *Bibl. sicula*، ص ٩٥٠).
وينبغى أن نضيف فى الفصول القادمة بعض التفاصيل فى هذا الموضوع.
(1) واقعتا السبت والجمعة اللتان وردتا بالبيان، عام ٥٥٨ و٥٧٢ هجرية، طبعة دوزى. المجلد الأول، ص ٣٢٦ وفى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٢٧٤. يصف الإدريسى ذلك السهل الذى كان يفصل بين المدينتين ويسميه الرملة. فى دوزى ودى جوجى، *Description, ec.*، ص ١٢٨.

وأمهاتهم من الجوارى المحررات(1)، معاملة حسنة، وأرسلهم إلى صقلية. وبانقضاء أسبوع استقرت أمور جميع سكان المهدية وزويلة فى بيوتهم، فراحوا يمارسون صنائعهم فى هدوء وربما فى سعادة. وبدا لجورجو أن جزءاً كبيراً من الأسطول بإمكانه أن يمضى بعيداً دون مخاطر(2).

ثم أرسل عدداً من السفن إلى سوسة وسفناً أخرى إلى صفاقس: فاحتلت الأولى المدينة بكل هدوء فى يوم الثانى عشر من شهر صفر (٢ يوليه)؛ ذلك لأن حاكم المدينة، على بن الحسن، عندما علم بهروب والده، كان قد ذهب للقائه ومعه عدد قليل من المواطنين وقد استسلم الآخرون سريعاً. أما صفاقس فكان يعيش بها رجال أكثر صلابة، كما سوف نرى من تطور الأحداث. كما هرعت جماعات كثيرة من العرب لمساعدة صفاقس، وقاوم المواطنون الصقليين الذين نزلوا من السفن، بل خاطروا أيضاً بهجوم مفاجئ عليهم، وفر المسيحيون حتى يسحبوهم بعيداً بما يكفى عن الأسوار: وهناك عادوا يهاجمون مرة أخرى، واندفعوا وسط الجموع غير المنظمة، وشتتوا جمعهم، إلى الريف وإلى المدينة؛ واستأنفوا المعركة عند أسوار المدينة: وفى النهاية دخلوها يوم ٢٣ من شهر صفر (١٣ يوليه). وبذلك سالت هناك

---

(1) كانت مثل هذه الجوارى تدعى فى لغة القانون «أم ولد».

(2) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٤٣؛ والبيان، العام نفسه؛ والتيجانى؛ وأبى الفداء العام نفسه؛ وابن خلدون، وابن أبى دينار، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٩٢ وما بعدها و٣٧٣ و٣٩٩ و٤١٦ وما بعدها و٥٣٩. ويقول أبو الفداء فى خطأ، على ما يبدو، ذلك لأنه اختصر أو بالأحرى بتر الرواية التى كتبها ابن الأثير، وكتب أن الهروب قد أتى النصح به الحسن من جانب الأعيان. أما عن الكتاب المسيحيين فقد وردت لديهم إشارة سريعة لاحتلال هذه المدينة، التى أسموها كالعادة أفريقية. هكذا ورد فى روموالدو السالرنى وداندولو، عام ١١٤٨ وموراتورى، *Rer. Ital.*، المجلد السابع، ص ١٩١ والمجلد الثانى عشر، ص ٢٨٢. انظر أيضاً *continuazione di Sigeberto da Gembloux*، عام ١١٤٨؛ والحواشى على مالاتيرا، يوليه ١١٤٩، واوجو فالكاندو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٩٥٠ و٢٥٠ و٤١٠. وتتمة سيجبرتو، قد أعاد طبعها مؤخراً بيرتز، *Scriptores*، المجلد السادس، ص ٤٥٣ و٤٥٤، حيث وردت أسماء المدن التى تم الاستيلاء عليها على هذا النحو: أفريقية، سويلا، صفاقس، إقليبية.

دماء غزيرة؛ ثم أسرت جنود كثيرة وفى النهاية أُعلن الأمان، كما حدث فى طرابلس وفى المهدية: وعاد الفارون واستعادوا نساءهم وأبناءهم. وظلت حامية مسيحية فى القلعة؛ كما كُلف عامل بإدارة شئون المدينة وكان عمر بن أبى الحسن الفريانى هو ذلك العامل الذى أراد والده، بنبل مقاصده، أن يذهب رهينة إلى صقلية(1). وقد ظلت قلعة كليبيا القوية صامدة بمساعدة العرب البدو: بل إن المسلمين حين خرجوا للحرب قد اتعبوا مهاجميهم، حتى أن الفرقة عادت إلى المهدية فى حالة سيئة(2). وفى الحقيقة يبدو لنا أن ملك صقلية لم يرغب فى التوسع كثيراً نحو الغرب، حيث كان بنو حماد، لقسوة ظروف المكان وصداقة العرب البدو، أكثر صموداً وقوة من أقاربهم بالمهدية. كما صرفه عن ذلك تفكيره فى الحرب البيزنطية التى كان لزاماً عليه خوضها إن عاجلاً أو آجلا؛ ولم تمهله أكثر من سنة واحدة. إن فتح أفريقيا قد اقتصر إذن على المنطقة الساحلية التى تمتد من طرابلس البربر إلى رأس بونه(3). وقد تم ذلك الفتح خلال شهر من الزمان. وقد أقرّ روجيرو ترتيبات الأدميرال؛ ومنح أفريقية أماناً عاماً. وإن كانت تنقصنا تفاصيل هذا الإجراء فإن جوهره يتمثل فيما عرضناه فى كل حالة على حدة: أى أن يواصل المسلمون حياتهم وفقاً لشرائعهم وبقضاتهم؛ وأن يدفعوا الجـــزية؛ وأن يحــكمهم باسم ملك صــقلية عامل يُرســل أحــد أقربائه الصــقليين رهينة إلى بالرمو. وليس لدينا ما نستخلص منه كيف كانت تدفع الجزية،

---

(1) المصادر نفسها المذكورة فى الهامش السابق. يقول الإدريسى إنه تم الاستيلاء على صفاقس عام ٥٤٣، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص، ص ٧٢ وفى، *Description, ec.* لدوزى ودى جوجى، الترجمة، ص ١٢٦.

(2) ابن الأثير، الموضع السابق.

(3) فصل ابن الأثير الذى تم ذكره من قبل فى هذا الصدد (**المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص، ص ٢٩٧) به فقرة يتعين تصويبها وفقاً للنسخة الحرفية التى كتبها النويرى (**المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص، ص ٤٥٨، هامش ١) «امتد نفوذ الفرنجة من طرابلس الغرب حتى مشارف تونس، ومن صحارى المغرب إلى صحارى القيروان». اسم صحراء المغرب يبدو أنه يعنى هنا صحراء برقة.

وهل كانت تؤخذ مباشرة من كل مسلم أو يهودى، أم كانت تُحصّل من الجماعات، وهو الاحتمال الأقرب من الواقع، فيما أرى. وأعتقد أيضاً أن هذا استمرار للعمل فى تحصيل الجبايات التى اعتادت سلطة الضرائب الزيرية أن تحصلها، ولكن ليس تلك الجبايات المقيتة وغير القانونية: ذلك لأن جميع الكتاب العرب يمتدحون عدالة الحكومة المسيحية فى عهد روجيرو ويؤكدون أن جميع الوعود الطيبة التى جاءت فى إعلان الأمان الذى أعطاه قد تم تنفيذها بأمانة، طوال فترة حياته. وبالفعل نقرأ على وجه الخصوص فى تاريخ ابن أبى دينار أن الخراج، أو الضريبة العقارية، كان يتم تحصيلها مع شئ من الرأفة(1).

ولم يغفل المؤرخون المسلمون أن فتوحات الصقليين قد توقفت فى افريقية بسبب حرب اليونان. ويصفون هذه الحرب بأنها كانت حرباً ضارية وطويلة، ويذكرون الحادث الشهير الذى ورد فى الأخبار اللاتينية، وهو أن چورچو الأنطاكى تجاسر على الدخول فى ميناء القسطنطينية واستولى على سفن كثيرة وأطلق سهامه على نوافذ القصر الملكى. ويضيفون إلى ذلك أن النصر كان دائماً حليفاً لملك صقلية، رغم أن أمير القسطنطينية كان من أولئك الذين لا يستدفئ أحد معهم بنار واحدة. إذ أنه كما نقول نحن كان رجلاً لا يسمح، للذبابة بأن تحط على أنفه.

إن الكتاب المسلمين يرجعون إلى چورچو الأنطاكى الفضل فى الانتصارات التى تحققت فى أفريقية وفى الشرق؛ ويلاحظون أن

---

(1) قارن بين: المصادر السابقة فى شأن احتلال المهدية فى ص ٤١٨. هامش ٣. إن المسيحيين، وهم يتحدثون عن فتوحات روجيرو فى أفريقيا، يذكرون إلى جانب اسم المهدية، أسماء سوسة، وبونه، وقفصة، وصفاقس وطرابلس ومن يقرأ *Annali Musulmani* لرامبولدى، سوف يعتقد أنى قد حرمت الجمهور من كنز من الأحداث التاريخية. إن رامبولدى، بعد أن ذكر أن سقوط المهدية قد وقع فى ١١٤٩ يضيف من محض خياله أن ٦٠ ألف صليبى فرنسى وإيطالى قد نزلوا فى ليبيا: وأن روجيرو تبعهم ليتفقد الفتوحات الأخيرة التى قامت بها جيوشه: وأنه كان يريد عبور الصحراء ليذهب إلى مصر؛ وأن الحسن حاكم بجاية قد اعترضه (!!)، ولكنه هُزِم وبعد أن ترك المسيحيون حامية فى بجاية اجتازوا بالفعل إلى مصر، إلخ.

الجيوش الصقلية قد توقفت مع وفاته، إذ لم يجد الملك من يسند إليه تولى مسئوليتها؛ كما خصصوا له وللملك روجيرو فصلاً كاملاً فى تراجم المسلمين المشهورين، التى كتبها الصفدى وهو مؤلف من القرن الثالث عشر وشأنه شأن ابن الأثير، يطلق على جورجو لقب «وزير الملك روجيرو، محتل مملكة صقلية»، ومن هنا يتضح أن مسلمى صقلية الذين كانوا يقدمون إلى إخوانهم فى الدين الأخبار عن بلاط بالرمو، كانوا يرون أن منصب الأدميرال العظيم هو ذاته منصب الوزير. وكان فى ذلك العصر يقابل منصب رئيس الوزراء فى عصرنا. كما أننا ندين بالفضل إلى المسلمين فى تسجيل أخبار وفاة هذا المسيحى القدير، حيث نستخلص من كتاباتهم أنه توفى، فى عام ٥٤٤ هجرية (من ١١ مايو ١١٤٩ إلى ٢٩ أبريل ١١٥٠) بعد أن أنهكته أمراض كثيرة وأقساها نزف الدم وحصى الكلى*(1)*.

وراح الحظ يدير لروجيرو ظهر المجن. فلم تتوقف فقط مكاسبه فى أفريقية، وإنما بدأ يهددها الموحدون، وهم طائفة من البربر شديدة العداء للمرابطين الذين راحوا يتساقطون الآن بالسرعة نفسها التى ظهروا بها قبل نصف قرن. فبعد أن هزم عبد المؤمن مرابطى أسبانيا وفتحها وفتح أيضاً جزءاً كبيراً من أراضى مراكش العالية، أخذ يتقدم نحو الشرق، ومعه ثلاثون ألف من الموحدين واحتــل (مايو ١١٥٢) تلك المناطق التى يطلق عليها فى أيامنا هذه إقليم الجزائر وقسطنطينة، وكانت آنذاك تقابل تقريباً دولة بنى حماد فى بوجيه: حتى أن سقوط تلك الدولة تزامن مع سقوط دولة الزيريين. وكان آخر أمراء بنى حماد يحيى بن العزيز. قد أخذ الحسن التمس أسيراً حينما

---

(1) ابن الأثير، عام ٥٤٤، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٢٩٧. والصفدى، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٦٥٧. إن المثل الذى ورد فى نص الصفدى، نقرؤه باختلافات بسيطة فى الميدانى، طبعة فريتاج، المجلد الثانى، ص ٥٨٨. وأيضاً فى قاموس المستشرق العلامة نفسه، المجلد الثانى، ص ٥١٧.

طلب منه استضافته بعد سقوط المهدية(1). وها الآن يقدر للحمادى أن يبحر إلى صقلية، ويقول آخرون، إلى جنوة؛ وبعد فترة وجيزة عاد إلى بونه وبعد أن عقد العزم، حاول الاستقرار فى قلعة قسطنطينة الحصينة(2) ويذكر أيضا أن أخواه الحارث وعبد الله قد قاما باللجوء إلى صقلية(3).

وفى الحقيقة فإنه إذا كان قد تبقى ملاذ لأولئك الأمراء والأعيان بالساحل الشمالى، من الجزائر إلى طرابلس، فإنما كان يتمثل فى ذلكما الشعبين الأجنبيين اللذين كانا آخر من احتل البلاد: وهم مسيحيو صقلية بسفنهم الثلاثمائة والعرب البدو بفرسانهم الخمسين الف. وإنى ارى ورغم ان أحداً من المؤرخين لم يذكر ذلك، ان أولئك الفارين، قد عملوا على إقامة رابطة بين روجيرو والعرب،

---

(1) ابن الأثير، عام ٥٤٣، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(2) **القرطاس**، ص ١٢٦ من النص و١٦٩ من الترجمة اللاتينية يورد أنه ذهب إلى جنوة. فى **تاريخ البربر** لابن خلدون، النص العربى، المجلد الأول، ص ٢٣١، والترجمة الفرنسية، المجلد الثانى، ص ٥٨، وفى فقرة ترجمها السيد دى سلان على هذا النحو *"Yahya s'embarqua pour la Sicile, afin de se rendre, de là ,à Boghdad. Au lieu de pousser jusqu'à cette île, il alla debarquer à Bône etc."* والمؤلف هنا، بأسلوبه المقتضب الذى يغلب عليه التعجل والغموض، يقول بالحرف الواحد «لقد أبحر يحيى إلى صقلية بقصد الذهاب من هناك إلى بغداد. ثم اتجه إلى بونه.. إلخ، بحيث يفهم بالأحرى أنه ما أن وصول إلى بالرمو اتجه إلى بونه بدلاً من بغداد. وهو معنى ينبعث فى تلقائية من كلام المؤلف ويتفق تماماً مع الأحداث الأخرى التى نعرفها، أى وصول شقيقى يحيى إلى صقلية: والرابطة التى اقترحها روجيرو على الأمراء العرب.. إلخ. والذهاب إلى جنوة، لا يبدو بعيداً عن الواقع ولا غير متوافق مع السفر إلى إيطاليا لأن الحماديين، فى بجاية وبونه وموانئ أخرى لهم، كانوا يتاجرون مع أهل ليجوريا كما كانوا يتاجرون مع أهل صقلية ويدركون القوة البحرية سواء لأهل جنوة أو أهل صقلية فى القرن الثانى عشر. والمراكشى، فى النص العربى، ص ١٤٧، وهو يروى بشكل عام، يقول إن عبد المؤمن قام فى عام ٥٤٠ بحصار بجاية وإن يحيى، عندما رأى أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، هرب إلى أن وصل إلى بونه ومنها إلى قسطنطينة.

(3) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان السابقان. إن إقامة عبد الله فى صقلية قد ورد النص عليه أيضاً عند ابن بشرون الذى يذكر بعض الأبيات لأبى حفص عمر بن فلفل، التى رواها له الحمادى عندما تقابلا فى صقلية. انظر **الخريدة** لعماد الدين، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٩ و٦٠٠.

وهى الرابطة التى كان بمقدورها هى وحدها إنقاذ وطنهم من بربر الغرب الجدد. فنحن نعلم أن الملك كان يبعث إلى الأمراء العرب ليعرض عليهم تعزيزاً قوامه خمسة آلاف من فرسانه، بشرط أن تعطيه القبائل رهائن، كما كان مألوفاً؛ غير أنهم شكروه ورفضوا عرضه، قائلين إنهم ليسوا فى حاجة إلى قوات مساعدة ولا يستطيعون قبولها إن لم تكن من المسلمين. إن أولئك المحاربين الجسورين كانوا يثقون فى عددهم وفى قداسة الرابطة التى توحد فيما بينهم، حيث إن كل رجال قبائل أفريقيا الشمالية من طرابلس إلى قسطنطينة(1) كانوا قد أقسموا بأن يحاربوا - ما يسمونها - حرب العائلة: لذلك فقد حملوا معهم نساءهم، وأبناءهم وماشيتهم وكل ما يملكون، فى عزم وتصميم على الدفاع عنهم حتى آخر نفس فى حياتهم. ولما اشتبكوا مع الموحدين فى جبال سطيف فى الأول من صفر من عام ٥٤٨ هجرية (٢٨ أبريل ١١٥٣)، حاربوهم ثلاثة أيام متواصلة وحُصد خلالها معظم الجنود واستولوا على معسكرهم. عندئذ أمر عبد المؤمن باقتياد النساء والأطفال، دون أن يمسهم أى أذى، إلى المغرب، ثم سلمهم إلى العرب؛ وكان ذلك نصراً حقيقياً قمع تلك النفوس العنيفة(2).

وهكذا بعد ان زال كل أمل فى الترابط مع القبائل، فكر روچيرو فى أن يؤمن حكمه الجديد ضد الموحدين، فأرسل أسطوله إلى الغرب بقيادة فيليبو، وهو مسلم مرتد. ينبغى أن نتناول الحديث عنه بتوسع فى الفصل التالى. وهاجم فيليبو بونه التى تركها لتوه الحاكم

---

(1) كان العرب يغيرون حتى ما يقرب من الحدود الغربية لإقليم قسطنطينة الحالى. انظر الإدريسى، *Description de l'Afrique* .. إلخ، ترجمة السيدين دوزى ودى جوچى، ص ٩٢، ٩٧ من النص وص ١٠٧ إلى ١١٤ من الترجمة.

(2) ابن الأثير، عام ٥٤٧ و٥٤٨، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٢٩٧ وما بعدها وفى نص تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ١٠٢، ١٢٢.

الحمادى، ولم يكن الموحدون قد استولوا عليها بعد؛ واقتحمها فى شهر رجب من العام الهجرى نفسه (من ٤ نوفمبر إلى ٣ ديسمبر ١١٥٣)، بمساعدة عرب الريف وأخذ أسرى وغنائم: إلا انه غض النظر عن هروب العلماء وغيرهم من الرجال اللامعين: حتى أنهم خرجوا سالمين من المدينة هم وعائلاتهم وأموالهم. وبعد حوالى عشرة أيام سافر الأسطول إلى المهدية مع عدد قليل من الأسرى، ثم عاد بعد ذلك بقليل إلى صقلية(1)، تاركاً بونه فى حالة سيئة تحت حكم واحد من بنى حماد، لم يتورع من أن يصبح عاملاً لروچيرو(2). وفى العام نفسه، على ما يبدو عند سماع أخبار مداهمة الموحدين، ثار سكان جربة وأقاموا مذبحة للمسيحيين. وأعتقد أن الأسطول قد ذهب إلى هناك قبل عملية بونه: وثار للدم بسفك الدم، وأرسل أسرى إلى بالرمو قدر استطاعته، تاركاً فى المدينة حفنة من الرجال لا شأن لهم من أجل زراعة الأرض أو غير ذلك من أعمال وأيضاً للخدمة فى بيوت السادة المسيحيين(3). كما تم الاستيلاء أيضاً على جزيرة كركينى، على ما يبدو، وبالنتائج نفسها(4). إننا نجد فى ابن

---

(1) ابن الأثير، عام ٥٤٨، وابن خلدون، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٩٩، ٥٠٢. ويشير إلى ذلك الكاسينى مجهول الاسم عام ١١٥١، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٥١٠.

(2) الإدريسى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٧٣، وفى *Description de l'Afrique* ترجمة دوزى ودى جوچى، ص ١٣٦. إن الجغرافى الحذر الذى نشر كتابه بعد تعذيب فيليبو بقليل، يقصر قوله على أن بونه قد تم فتحها على يد «أحد رجال الملك المعظم». انظر أيضاً ابن خلدون، المرجع السابق، ص ٤٩١.

(3) قارن بين: الإدريسى، والتيجانى وابن خلدون، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**: ص ٧٤ و٣٨٤ و٣٨٥ و٤٩٦؛ وأول هذه المصادر فى الترجمة المذكورة للسيدين دوزى ودى جوچى، ص ١٥١ والمصدر الأخير فى ترجمة البارون دى سلان، *Histoir des Berbéres*، المجلد الثالث، ص ٦٤. أن شهادة التيجانى الإيجابية والقريبة من الواقع تجعلنا نرى صحة ما نقرأه عند الإدريسى عندما كتب «مدينة» ويقصد بها بالرمو ويستبعد الشك الذى جاء فى تعبير العلامة الإدريسى فى هامش ٢. انظر كذلك أعلاه هامش ص ٤٠٠.

(4) الإدريسى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٧٣، وفى *Description, ecc.*، ص ١٥٠ من الترجمة.

الأثير إنه فى ذلك العام نفسه، ٥٤٨ (من ٢٩ مارس ١١٥٣ إلى ١٧ مارس ١١٥٤) قام الأسطول الصقلى بأعمال نهب فى مدينة تنّيس المصرية(1). وأفَضل قراءتها تِنيس وهى مدينة قريبة من البحر على حدود إقليم مدينة الجزائر الحالية مع إقليم أورانو. وأول ما يتبادر إلى الذهن هو أنه لا يبدو أمراً واقعياً أن يكون ملك صقلية قد خاض معركة جديدة فى الشرق، بالإضافة إلى حربه مع الإمبراطورية البيزنطية ومع مملكة أورشليم، بينما كان لزاماً عليه أن يبذل جهداً كبيراً ضد الموحدين. ونعلم على العكس من ذلك مما قاله رومالدو السالرنى أن روجيرو، قد وقع السلام مع الخليفة الفاطمى، كما يقول المؤرخ، طبقاً لمنفعته وشرفه(2). وسكت المقريزى فى وصفه الدقيق لمصر ولم يتحدث عن ذلك الهجوم، حيث كتب فى عام ٥٥٠ (٧ مارس ١١٥٥، ٢٤ فبراير ١١٥٦) عن أعمال التخريب التى ألحقها الأسطول الصقلى بتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية(3)، بعد أن توفى روجيرو وغابت الحكمة السياسية عن القصر النورمانى فى بالرمو إلى الأبد. وحيث إن ابن الأثير لم يذكر هذا الهجوم الأخير فيبدو لى أنه، عندما أراد أن يعطى شكل الحوليات لما يدونه من أحداث كان يعثر عليها فى روايات كثيرة، ربما أخطأ التاريخ؛ أو لعله قرأ *Tinnis* تنيس بدلاً من *Tenes* تِنِس، وأضاف، مغالياً فى الاجتهاد منه، «أنها فى أرض مصر». حقاً أن تينيس وتنيس متشابهتان فى الكتابة العربية

---

(1) ابن الأثير، عام ٥٤٨، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٣٠٠ وفى طبعة تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ١٢٥، ونقل عنه أبو الفدا.

(2) فى موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد السابع، ص ١٩١.

(3) كتاب المواعظ، نص بولاق، المجلد الأول، ص ٢١٤، ٢١٥، فى الفصل عن دمياط. قارن بين: الفصل عن تينيس فى ص ١٧٩ ـ ١٨٠ من المجلد نفسه. وجدير بالملاحظة أن المقريزى فى ص ١٨٠ يسجل هجوماً للأسطول الصقلى على تينيس عام ٣٤٨، ولا يفترض أنه خطأ رقمى فى خانة المئات إذ أنه بعد ذلك الحدث يذكر المقريزى أحداثاً أخرى ترجع إلى القرن الرابع والخامس الهجرى، ثم عندما يأتى إلى القرن السادس فإنه يصف الهجوم على الساحل كله عام ٥٧١، الذى سوف نتحدث عنه فى موضعه.

بقدر ما هما متشابهتان فى لفتنا، لذا كان من السهل خلط الاسمين من قبل الناسخين أو من قبل أدق الكتاب أيضاً. وأيا كان الأمر فإنه خلال تلك الفترة الأخيرة من حكم الملك النورمانى المظيم، كان الأسطول الصقلى يقوم بأعمال تخريب كل عام بساحل دولة بوجيه التى كان الموحدون يحتلون معظمها، يروى الإدريسى، وكان يكتب فى بلاط بالرمو، عام ١١٥٤، أنه فى أواخر الشتاء، «فى الفصل الذى يبحر فيه الأسطول»، اعتاد سكان جيجيل وكولو، على ترك منازلهم الساحلية والهجرة إلى الجبال حاملين معهم كل متاعهم(1).

هذه الغارات المتكررة غربى رأس بونه والفوضى العاصفة التى عاش فيها هؤلاء السكان لسنوات طويلة بعد أن تخلى عنهم بنو حماد، وكانوا منقسمين على أنفسهم، ومهددين فى الوقت نفسه من جانب العرب، والصقليين والموحدين، إنما تدفعنى إلى الاعتقاد فى وجود إجراء ما أجراه روجيرو مع تونس، وهو إجراء نجد له آثاراً غير أكيدة فى المذكرات المسيحية وكذلك أيضاً فى المذكرات الإسلامية. ومن بين المعاصرين، فإن روبرتو رئيس دير سان ميكيلى هو الوحيد الذى سجل، فى الأخبار التى كتبها، أن تلك المدينة كانت قد احتلتها جيوش ملك صقلية فى عام ١١٥٢ ومن الممكن أن يكون هناك خطأ آخر فى اسم تينس(2). وقد كتب عبد الواحد المراكشى فى عام ١٢٢٤ فى

---

(1) فى المكتبة العربية - الصقلية. النص، ص ٧٢ وفى، *Description, ec.*، لدوزى ودى جوجى، ص ١١٤، ١٢٠. وجدير بالتنبيه أنه فى مخطوطة الإدريسى ينصب إلى مرسى الزيتونة ما تورده المخطوطة *A* بشكل ادق عن كول: انظر فى ذلك نص و *Description, ec.*، ص ١٠٢، السطرين الأخيرين والسطر الأول من ص ١٠٢، وتقابلها ص ١٢٠ من الترجمة الفرنسية.

(2) *Tunetam urbem maximam in Africa*. هذا ما نقرأه دون بدائل. فى طبعة بهرتز، *Scriptores*. المجلد السادس، ص ٥٠٢. هذه الفقرة مع جزء كبير من أخبار روبرتو، نجدها منقولة فى ص ٩٧٧ من *Chronica Normanniæ*. التى نشرها دوشسن، *Historiæ Normannorum Scriptores*. مع بديل لكلمة *Tunetam* وهو *Tonisam*. ومن الواضح أن هذه الفقرة من كتاب *Cronica Normanniæ* هى ذاتها التى أعاد كاروزو نشرها، فى *Bibl. sicula*، ص ٩٢١. إن الاسم البديل *Tonisam* الذى

تاريخ الموحدين، أنهم عندما استولوا على تونس (١١٥٩) وكان يحكمها روجيرو، الذى كان قد عين عليها عاملاً يُدعى عبد الله بن خراسان(1). وبعد قرن من الزمان عندما أشار داندولو إلى الفتوحات الأفريقية فى عام ١١٤٨، أضاف أن روجيرو أخضع ملك تونس لدفع الضريبة(2). ويبدو لى أن ذلك أكثر قرباً من الواقع. وتونس لم يقم أبداً الأسطول الصقلى باحتلالها. ووفقاً للأخبار المترابطة الدقيقة التى كتبها عنها مؤلف البيان وابن خلدون، فإن تلك المدينة العامرة بسكانها، الفنية، والزاخرة برجالها العظام وإن كانوا ثوار متحزبين، هذه المدينة كانت قد رفضت السيادة الزيرية منذ زمن بعيد، واعترفت بسيادة الحماديين الاسمية فقط، بينما كان يحكمها بالفعل أحد شيوخ البلاد. قد اسميه، عن اقتناع برئيس الجماعة. وبقيت تلك السلطة لسنوات كثيرة فى بيت بنى أبى خراسان، ثم بعد ذلك سقطت فى أيد أخرى، ثم تلاشت تماماً فى خضم المجاعة ودوى المسيحيين القريب. وحينما كان الشعب يستعد لطردهم بحماس شديد، شاهد ذات يوم قمحاً يشحن على مركب فثار الشك فى أنها متجهة إلى الأماكن التى يحتلها چورچو الأنطاكى؛ فقام فى ثورة شديدة أدت إلى الفوضى التامة وإلى الحرب الأهلية ما بين فئة السويقة وفئة الجزيرة. ويبدو لى أنهما فئتا العامة والأعيان: وفى النهاية دعت العامة بنى أبى خراسان وكان ذلك قبل مضى عام على فتح المهدية. وقد حكم عبد الله بن عبد العزيز، وهو آخر حكام تلك العائلة، عشر سنوات حكماً مستبداً: وصد الموحدين فى أول حصار لهم (١١٥٧)؛ ثم

كان موجوداً بالتأكيد فى إحدى مخطوطات روبرتو. يتوام جيداً مع *Tenes* تنس: وعبارة *urbem maximam in Africa*. يمكن ان تكون افتراض افترضه روبرتو. او لعله جاء إضافة من الناسخ. ومن جانب أخر فقد كانت تهنس مدينة هامة جداً فى التجارة. كما يؤكد ذلك الإدريسى. طبعة دوزى ودى جوچى. *Description de l'Afrique* ص ٩٦ من الترجمة.

(1) فى نص دوزى، ص ١٦٢ وما بعدها. وفى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٢١٨ وما بعدها. إن المؤلف يذكر هنا أنه يكتب عام ٦٢١ (١٢٢١).

(2) فى كتاب موراتورى، *Rer. Ital. Scr.*، المجلد الثانى عشر، ص ٢٨٣.

سقطت المدينة، بعد فترة وجيزة من وفاته، تحت ثقل جيش عبد المؤمن(1). وكما هو واضح للعيان، فوسط هذه الأحداث التى يتم سردها فى ثقة تاريخية، لا يوجد بها مكان لافتراض سيادة لملك صقلية. ولكن نظراً لأن حاكم تونس المستبد لم يكن باستطاعته، فى ظروف تلك البلاد التى تم ذكرها، أن يأمل فى مساعدة فئة أخرى، فإنه يبدو لى محتملاً أن يكون قد وقع سراً مع روجيرو اتفاقاً ما، لا يختلف عن ذلك الذى وقعه الزيرى، آخر حكام المهدية، مع وعد منه بأن ينفق على قوات معاونة أو أن يدفع ثمن الغلال التى تجلب من صقلية. وإذا كانت المشاعر الانسانية فى تلك الأزمنة لم تختلف عن تلك التى عرفناها عبر التاريخ قبل وبعد ذلك وإلى يومنا هذا، فإنه بسبب زهو بلاط بالرمو، وريبة شعب تونس الغيور، ما أن نما إلى علمه خبر تلك الاتفاقية، حتى صاح الجميع فى صوت رجل واحد أن ابن ابى خراسان قد خضع للجزية وأصبح تابعاً لروجيرو؛ ولم يقولوا غير ما قال فى الحسن أولئك الكُتّاب الذين سار ابن أبى دينار على هديهم. وكان لابد أن تبقى ذكرى ذلك الحدث مشوبة بشك كبير بعد تغير المملكة التى قطعت فى فترة وجيزة كل الخيوط التى نسجت فى بالرمو، وبعد رد الفعل الرهيب الذى حدث فى أفريقية ضد المسيحيين ومؤيديهم. والذى سوف نتناوله عند حديثنا عن حكم جوليلمو الشرير.

---

(1) قارن بين: **البيان**. نص دوزى. المجلد الأول. ص ٣٢٣ إلى ٣٢٦ والذى قمت بنشر جزء منه فى **المكتبة العربية . الصقلية**. النص. ص ٣٧٣؛ وابن خلدون. *Histoir des Berbéres*. ترجمة البارون دى سلان. الجزء الثانى. ص ٢٩ وما بعدها. ويبدو انه خطأ وقع فيه التيجانى. **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص. ص ٣٩٩، حين أورد ان تونس قد حكمها أحدهم يدعى ابن أبى خراسان عندما كانت تحاصرها جنود المهدية، التى كان قد أرسلها الحسن قبل احتلالها بقليل من جانب الصقليين. إن الانتصار على الموحدين قد أخبر عبد الله أهل بيزا به، برسالة كتبت بلغتين مؤرخة فى ١٠ يوليه ١١٥٧ وهى رسالة قمت بنشرها فى *Diplomi Arabi dell'Archivio Fiorentino*. رقم ١ من المجموعة الأولى ورقم ٦ من المجموعة الثانية. انظر **المقدمة** بتلك المجموعة. § الثانية والعشرين، حيث قمت بتصحيح اسم عائلة أولئك الأمراء حسب نص الوثيقة.

الفصل الثالث

إذا ما عدنا زمنياً إلى الوراء قليلاً، علينا أن نتذكر أن الاعتراف بالمملكة الحديثة لم يمنع روجيرو من الطموح، كما لم يمنع كرسى البابوية فى روما من التطلع إلى التحرش بها ومناوشتها، ومن ثمة فقد رفض البابا سيامة الأساقفة(1) واعترض على امتيازات التاج(2) من ناحية؛ وأرسل الملك جيوشاً لاحتلال الممتلكات البابوية من ناحية أخرى. غير انه عندما تحدث كورادو الثالث، الامبراطور المنتخب، عن نزوله إلى إيطاليا، وأثار أرنالدو دا بريشا حمية الرومان لإحياء مجلس الشيوخ فى ظل عرش يجلس عليه قيصر المانى، عندئذ فإن ذلك الترجع القدرى الذى حرم إيطاليا لمدة الف عام من كل نظام وسلام، قد دفع البابا إلى التقرب من المملكة، التى تنتمى بطبيعتها إلى حزب الجويلف. عندئذ فقد سُمع لأول مرة ذلك الاسم الحزبى حيث إن الدوق ولف قد هب بالسلاح لصد الامبراطور: وقد قدم له العون كل من البابا وروجيرو ليغذيا الحرب الأهلية فى المانيا؛ وقد وفر الثراء الذى حققه روجيرو على حساب مسلمى افريقيا، ومن مختلف أنشطة صقلية ووفرة إنتاج إقليم بوليا، كل ذلك وفر لروجيرو المال الذى يقدمه للمتمردين(3) ويقدم بعضه إلى البابا لإفساد أو

---

(1) هذه الواقعة يصفها رومبوالدو سالرنيتانو، الذى يذكر تحت عام ١١٤٦. ويجب التصحيح بـ ١٤٩، السيامة الممنوحة، فى كتاب موراتورى، *Rer. Italic.*، المجلد السابع، ١٩٣. لا يلزم ان نذكر نصوصاً أخرى للأحداث الشهيرة جداً التى أشرت إليها.

(2) إنى افترض ذلك من الاتفاق الذى تم، طبقاً لما جاء به اوتونى دى فريزينجين المشار إليه فى الهامش رقم ١ فى الصفحة التالية.

(3) إن المساعدات المقدمة إلى الدوق الجويلفى قد اثبتها جوفريدو دى فيتربو، فى كتاب موراتورى، المرجع المذكور، المجلد السابع، ٤٦٠. أما المساعدات المقدمة إلى غيره من الإقطاعيين الألمان فنجدها فى رسالة جوفانى موثق العقود إلى ويبالدو، رئيس ديرى ستافيلو وكورفى، عام ١١٥١. فى كتاب مارتين ودوران، *Veterum Scriptorum* باريس ١٧٢٤، المجلد الثانى، ص ٤٢٢.

مقاتلة الرومان واعداً إياه أيضاً بتعزيزات من الرجال. إزاء كل تلك الهبات من جانب روجيرو فإن البابا أخذ يؤكد على امتياز المفوضية الرسولية لصقلية(1) ويؤيد أعمال روجيرو فى ألمانيا. وأثناء تلك الأعمال وتلك الإجراءات قد حدث أن مناصرى البابا فى روما كانوا يتلقون فى السر رسائل الملك فقبض عليهم مجلس الشيوخ مع الخطابات التى كانوا يحملونها ومع خدمهم السراسنة؛ ثم تركهم يمضون لحال سبيلهم(2). وحيث إن البابا كان يسيطر، بفضل مساعدة روجيرو له، على عصب الحرب، فإنه والكرادلة كانوا يتفاخرون بأنهم «يسيطرون على مناصرى الامبراطور وعلى اليونانيين فى فينيسيا» وكأنهم يسيطرون على كلاب صيد محبوسين فى قفص محكم الغلق، «بحيث لا يستطيعون المساس بالصقلى، نصير الكنيسة المقدسة»(3).

فى تلك الأثناء، كان رؤساء الكنيسة الحقيقيون، وهم قابعون فى أديرة فرنسا، كما سبق وذكرنا، يساعدون بالمشورة والحيل البلاط الرومانى المتردد ويشجعون بشكل غير مباشر ملك صقلية. وأخذ القديس برنار، يخلط الأوراق، كما هو مألوف، وجعل من السياسة موضوعاً لاهوتياً، وشرع بهذا فى صعق أرنالدو فى المدارس كلها وفى القصور الأوربية كلها لدرجة أن الامبراطور كورادو لم يجرؤ على الاقتراب منه. ثم إن الحملة الصليبية التى كان يدعو إليها الرسول الكاثوليكى، كانت تلقى صدى طيباً لدى بلاط روما لدرجة تدعو إلى الاعتقاد بأنه كان يريد أن يمد يد المساعدة إلى المسيحيين المضطهدين فى سوريا وأن يرسل فى الآن نفسه كورادو ليتوج بأكاليل الغار، أو ربما لينال الاستشهاد هناك بالقرب من نهر الفرات بدلاً من أن ينزل فى إيطاليا ويضر بمصالح البابا. بعد هزيمة

(1) الرسالة. كتاب أوتونى دى فريزينجين، Gesta Frider، الكتاب الأول، الفصل ٢٨.
(2) رسالة جوفانى الموثق وقد سبق ذكرها.
(3) الرسالة نفسها.

الصليبيين وعودتهم، تدخل بين كورادو وروچيرو حبر فرنسى آخر له شهرته الكبيرة هو بطرس الملقب بالجليل، رئيس دير كلونى وهو مفاوض متطوع فى أمور سياسية بأوربا كلها، ومسافر دؤوب لا يمل ولا يكل فى أنحاء إيطاليا وأسبانيا، وكاتب مجادل ضد الإسلام وتحت رعايته قد تمت أول ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية(1). كان ذلك الراهب يكتب تقاريره إلى الملك ويطلب منه أن يجود بكرمه على الرهبان ويفيض فى مدحه باللغة اللاتينية ويقول له كم كان يود «أن يتحد مع مملكة صقلية السعيدة إقليم توسكانا البائس وبعض الأقاليم المجاورة له»(2). هكذا كان روچيرو يستخدم أصدقاءه فى الكنيسة وهكذا كانوا يستخدمونه هم أيضاً. فإذا كان قد استخدمهم دون جدوى فى مؤامراته ضد ريموندو، أمير انطاكية، والذى كان يطمع فى دولته بوصفه وريث ابن عمه بويموندو(3)، فإنه قد حقق هدفه الرئيس الا وهو أن يمنع كورادو من عبور جبال الألب إلى إيطاليا. ولما توفى كورادو (١١٥٢)، قيل ساعتئذ إنه قد قتل بالسم وبتحريض من روچيرو(4) وقد قال هذا غلاة أتباع الحزب الجبلليني، الذين ضاقوا ذرعاً منه إذ كان يتدخل دائماً فى شئونهم تارة بالمال وتارة بالحيل والمكائد وتارة أيضاً لشهرته باعتباره عالماً بكل علم بشرى أو جهنمى. وقد أدى منع كورادو من العبور إلى إيطاليا إلى أن تذهب جهود مانويلى كومنينو أدراج الرياح وكان قد ارتبط به ضد القوة الجديدة الصاعدة فى إيطاليا الجنوبية. لم ينتظر روچيرو هجوم البيزنطيين، ونظراً لثقته، على ما يبدو، فى أصدقائه الجدد الذين كان لهم نفوذ

---

(1) انظر، بخصوص رئيس دير كلونى هذا، *Histoire Littéraire de la France*. المجلد الثالث عشر، ص ٢٤١ وما بعدها.

(2) رسائل عام ١١٣٩ و١١٤٥، والتى أعاد طبعها كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٩٧٧ و٩٨٠.

(3) انظر جوليلمو الصورى، الكتاب الرابع عشر، الفصل التاسع والفصل العشرين بخصوص هذه الإجراءات التى أردت الإشارة إليها لأنى أرى أن مؤرخى صقلية قد أغفلوها.

(4) أوتونى دى فريزينجين، *Gesta Frider*، الكتاب الأول، الفصل ٦٣.

كبير فى فرنسا، فإنه قد أراد أن يجذب لودوفيكو السابع إلى تحالف ضد مانويلي؛ ولما رأى الوقت مناسباً فقد أوقف الحرب بينما كان الصليبيون يجتازون أراضى آسيا الصغرى، لذلك وجد البيزنطى نفسه فى ورطة، واشتط الفرنسى القريب منه غضباً وبات مستعداً لمعاقبته على غدره. وعليه فقد أرسل روجيرو إلى الشرق چورچو الأنطاكى الذى أبحر من برينديزى (سبتمبر ١١٤٧) واحتل كورفو واجتاح كل ما صادفه إلى أن وصل إلى الطرف الجنوبى من إقليم بيلوبونيز وأخذ ينشر الخراب والدمار فى مونمڤاسيا. وعندما لم يوافق لودوفيكو على الانضمام إلى التحالف ضد كومنينو، عاد الأسطول الصقلى إلى مواقعه فى الحال وبحيث يظهر فى انسحابه ضيقه من الفرصة التى ضاعت. وراح چورچو فى سلب ونهب سواحل إيتوليا وأكارنانيا؛ ودخل فى خليج كورينثوس؛ وأرسل رجاله حتى طيبة للإغارة عليها. واستولى على مدينة كورينثوس نفسها وعلى قلعتها؛ وطارد الأغنياء فى كل مكان كأنه قاطع طريق، واستولى على الأشياء الثمينة كلها، وأسر اليهود وميسورى الحال، رجالاً ونساءً؛ وسطا أيضاً على الصناعة، وأخذ معه عمال صناعة الحرير. ولهذا ظن البعض ان أسرى طيبة وكورينثوس هم أول من نقلوا صناعة الحرير إلى بالرمو، دون أن يعلموا أن المسلمين كانوا يزاولون تلك الصناعة منذ زمن بعيد.

ولما حل صيف عام ٤٨ قام الأسطول الصقلى بالحملة على أفريقية، غير أنه فى أواخر العام تحرر مانويلى من عقدة الخوف من الصليبيين وأخذ يستعد للانتقام. وبعد ان وثق علاقاته مع ڤينيسيا بحيث أمدته بأسطول قوى، وبعد أن هزم الباتسيناتشى، حاصر كورفو التى كان يدافع عنها ألف رجل من الجيش الصقلى؛ وصد الأسطول الذى وصل لمساعدة المحاصرين، وبعد عامين من الحصار والجوع انهارت القلعة الحصينة (١١٥٠). وأثناء ذلك الحصار حدثت تلك الواقعة الخاصة بالأربعين شانية الصقلية التى دخلت ميناء

القسطنطينية ونزل منهـــا الجنـــود ودخلوا فى الحدائق الامبراطورية وأطلقوا سهامهم المشتعلة صوب نوافذ القصر الملكى: وقد انتشر خبر تلك الحادثة حتى وصل إلى بلاد المسلمين(1) وفى إحدى اشتباكات الأسطول الصقلى مع الأسطول البيزنطى وجد ملك فرنسا الذى كان عائداً مفعوماً من الحملة الصليبية، وجد نفسه فى قلب تلك المعركة، فأسره اليونانيون وحرره الصقليون واصطحبوه معهم إلى روجيرو، الذى كرمه تكريماً عظيماً (أغسطس ١١٤٩). ثم أن حروب الدانوب، وأحوال البحر وضعف أدميرالات البحر ووفاة كورادو، كل تلك الظروف قد أخرت حملة مانويلى كومنينو حتى وفاة روجيرو(2).

---

(1) انظر الفصل السابق، ص ٤٠٧ من هذا المجلد.

(2) قارن بين: نيشيتا كونياتى وشينامو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*. ص ١١٥٩ وما بعدها وص ١١٧٤ وما بعدها: أوتونى دى فريزينجين، المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل ٣٢: *Continuazione della Cronica di Sigeberto*. فى كتاب بيرتز، *Scriptores*. المجلد السادس ٤٥٣ و٤٥٤ (الأعوام: من ١١٤٧ إلى ١١٤٩): *Cronica della Cava*، عام ١١٤٧، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*. المجلد الثالث، ١٩٢: روموالدو سالرنيتانو وداندولو، فى كتاب موراتورى، *Rer. Italic.*، المجلد السابع، ١٩١: المجلد الثانى عشر، ٢٨٢ وما بعدها.
بخصوص أولئك الكتاب فإن البيزنطيين واوتونى لا يذكرون اى تاريخ. اما الآخرون فيضعون الأحداث فى ١١٤٧. واعتقد ان الاعتداءات قد بدات فى شهر سبتمبر. لأن الكاتبين البيزنطيين يجعلانها متزامنة مع مرور الصليبيين: ويضيف نيشيتا انه قد ساد الاعتقاد فى ذلك الحين فى القسطنطينية انه كان هناك اتفاق بين الصقليين والألمان. والآن نعلم من خلال أوتونى، المرجع المذكور، الكتاب الأول، الفصل ٤٥. نعلم أن الألمان كانوا موجودين بالقرب من القسطنطينية فى شهر سبتمبر. إن نقد موراتورى ولى بو، وقد ذكرتهما فى الفصل السابق، ص ٣٩٩، الهامش رقم ٣، إنما يؤكد تواريخ العمليتين اللتين قام بهما الأسطول الصقلى فى الشرق، اى عملية ١١٤٧، والتى ادت إلى احتلال كورفو والغارات على خليج كورينثوس والعملية التى تمت بدءاً من ١١٤٩ وما بعده وهى عملية اكثر مجداً وإن كانت غير موفقة تماماً؛ واعتقد انه يتعين أن يرجع إلى العملية الأولى الخراب الذى أصاب مودونى والذى تحدثت عنه الرواية التاريخية المنسوبة إلى بندتودى بطرسبرج، طبعة ستوبس، لندن، ١٨٦٧، المجلد الثانى، ١٩٩ والذى ذكره برومبتون فى كتاب *Historiæ Anglicanæ Scriptores*. المجلد الأول، ص ١٢١٨. اما بالنسبة لسجن لودوفيكو السابع وتحريره، انظر موراتورى، *Annali*، ١١٤٩، وايضاً دى بلازى، *Storia di Sicilia*، الكتاب الثامن، الفصل ٢١. أضف شهادة من واصل كتاب سيجبرتو، الموضع المذكور، ورسالة لودوفيكو السابع إلى جوليلمو الصالح، عام ١١٦٩.

وأنهى روچيرو حكمه المجيد بعمل إيمانى ومحكمة تفتيش. ومهما كان أصل فيليبو الذى من المهدية، سواء كان مسلماً من الجزيرة ويطلق عليه المهدى نسبة إلى وطن آبائه، أم كان مولوداً فعلاً فى العاصمة الزيرية، فقد كان معمداً مثل بقية وصفاء الملك، الذين ما كانوا مسيحيين ولا مسلمين، وما كانوا رجالاً ولا نساء. فقد نشأ فى القصر الملكى وأظهر صفات المدبر الحكيم، فعينه الملك مديراً لشئون القصر ثم عينه أدميرالاً بعد وفاة چورچو وأرسله فى حملة بونه، الأمر الذى يدفعنى إلى الاعتقاد بأنه تعلم وتدرب على يد الأنطاكى وكان رفيقه فى الحروب الأفريقية. ونقرأ هذا الموضوع فى حوليات ابن الأثير، الذى ربما قد أخذه عن كتابات ابن شداد الذى كان معاصراً له؛ كما تناول بإسهاب أكبر هذا الموضوع روموالدو سالرنيتانو، الذى أخذه عنه. كما ظهر، ثقات النقاد، وقد كان معاصراً على اية حال وجديراً بالتصديق. وتتفق الروايتان فى استشاطة الملك غضباً وبصورة مفاجئة ضد فيليبو عند عودته من بونه: على الرغم من الانتصار الذى حققه والغنائم التى حملها، حسب قول المؤرخ اللاتينى؛ وفى قول المؤرخ العربى، إن الملك غضب لأنه اغمض عينيه حتى استطاع الأشراف المسلمون ان ينجوا بأنفسهم. وقد اتهم بالتظاهر بالإيمان: وتقول عنه الادعاءات إنه كان يدخل الكنيسة ذراً للرماد فى العيون، ولكنه كان يتردد سراً فى الوقت نفسه على المساجد، ويقدم لها الزيت للقناديل، ويرسل الهبات إلى قبر محمد (عليه السلام)، وانه كان يلجأ إلى الشيوخ الموجودين فى المكان، ولا يمتنع عن أكل اللحم يوم الجمعة وفى صوم الأربعين. هذا ما يقوله المؤرخ اللاتينى. أما المؤرخ العربى فيوجز التهمة فى أن فيليبو وغيره

وقد تم نشرها فى عام ١٨٣٩ فى *Collection des Documents inédites sur l'Histoire de France* ، المجلد الأول، ص ٣. ولا ادرى كيف أن الناشر المثقف، شامبليون فيجياك، مسايرة منه لظنون كثير من المؤرخين الفرنسيين، قد أدرج كلمات لودوفيكو ليدحض راى موراتورى وهو على ما يبدو لى راى مؤكد.

من الوصفاء المعمدين كانوا يأكلون فى سعادة وحبور بينما كان الملك يصوم. ولا حاجة إلى القول بأن الشهود أكدوا الجريمة، على الرغم من أن المتهم كان ينفيها عن نفسه بكل إصرار. لقد اقتيد، حسب رواية المؤرخ الإسلامى، أمام الأساقفة والقساوسة والفرسان؛ أما المؤرخ المسيحى فيقول إنه اقتيد أمام البارونات والكونتات والقضاة. ويقول لنا المصدر المسيحى إنه قد طلب العفو وأن روجيرو، قد ازداد غضبه ونصح المحكمة وهو يبكى أن تكون قاسية جداً فى عدالتها، قائلاً: لقد ربيت فى قصرى هذا المتمرد، وأحببته خادماً أميناً؛ ولو أنه أهانه شخصياً أو سرق نصف ثروة المملكة لكان قد عفا عنه؛ لكنه يريد الانتقام لإهانة الدين، وليعلم العالم جيداً أنه من أجل هذه القضية المقدسة فإنه مستعد أن يطيح حتى براس ابنه. وبعد أن اختلت المحكمة، وبعد مداولات طويلة، فقد اصدرت هذا الحكم: «أن فيليبو وقد استغل الاسم المسيحى، وكرس نفسه للعمل غير الأمين متظاهراً بالتدين، لابد وأن يحرق فى نار حامية، وحيث إنه لم يجرب نار المحبة فليجرب نار المحرقة، على الا يتبقى شئ من هذا الشرير، ولكنه بعد أن يتحول إلى رماد، فلينتقل من النار الأرضية إلى جهنم الأبدية حيث سيحترق فيها إلى الأبد». لقد ترجمت الخبر الخاص بهذا الموضوع والذى يبدو أنه نقل حكم المحكمة الملمانية ولم يذكر حكم المحكمة الكنسية الذى يتعين أن يسبق الحكم المذكور. وآثار هذا الحكم باقية فى الرواية الإسلامية والتى تخلط بين المحكمتين وكأنهما محكمة واحدة. وقد تعرف جريجوريو فى قضية فيليبو على اختصاص المحكمة العليا للمتساوين(1)؛ ولكنه لم يرد أن يخلط خلطاً كبيراً بين هذه المحكمة ومحكمة التفتيش الأولى التى، كانت عندما كتب أخصائى القانون العام العظيم هذا، لاتزال تبث الرعب فى قلوب سكان بالرمو الشرفاء، على الرغم من أن المحكمة قد تم حلها قبل

(1) *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى فى الهامش رقم ٣٤.

عشرين عاماً بالكاد.

أقاموا المحرقة أمام القصر الملكى نفسه، وراس عملية الحرق كبير الجلادين. وبعد أن ربط الخصى فى حصان جامح، تم سحله حتى المحرقة، وهنا، بعد أن فكوه ألقوا به وهو بين الحياة والموت وسط اللهب. أما المتآمرون معه وأزواجهم، فقد تم عقابهم كذلك بالموت، هكذا أضافت فى إيجاز الرواية المسيحية وانتهت قائلة بتعجب وبالكلمات نفسها التى بدأت بها: كم كان مسيحياً الملك روجيرو الطيب! وتذكر الرواية العربية أن فيليبو قد تم حرقه فى شهر رمضان، وهذا الشهر الكريم عند المسلمين كان يوافق فى عام ١١٥٣ ما بين شهرى نوفمبر وديسمبر: وأراد الله ألا يطول عمر الملك روجيرو وأن يكون ذلك التعذيب هو أول انهيار للمسلمين فى صقلية(1). وإذا ما صدق حدسى، فإن ذلك القول، إذ يؤكد العقوبات

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٤٨، وابن خلدون، النص، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، صفحات: ٢٩٩، ٣٠٠، ٥٠٢ وروموالدو سالرنيتانو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic.* المجلد السابع، ١٩٤، ١٩٥، وفى كتاب برتز، *Scriptores.* المجلد التاسع عشر، ٤٢٦.

وقد حذف الدكتور أرندت، ناشر روموالدو فى مجموعة برتز هذا الفصل من الأخبار، إذ أنه لم يجده فى نص مخطوطة الفاتيكان، وهو يعترف، علاوة على ذلك، أنه لا يعرف تصور أصل هذا التفسير، بينما وجد، بقية التفسيرات، أو افترضها على أسس سليمة، وأن الفصل قد تمت إضافته بعد أن أملى المؤرخ روايته، ويرى هذا بوضوح كل من يقرأ نهاية الفصل السابق فى طبعة موراتورى وبداية الفصل التالى واللذين لا يمكن وضع فاصل بينهما. ونلاحظ ذلك بصعوبة فى طبعة برتز حيث إن الدكتور أرندت: إذ لم يلاحظ تاريخ عملية بونه، فقد أرجع الفصل إلى زمن عمليات افريقية، وقد ذكرها جميعاً، لسهو أخر منه، فى عام ١١٤٦. ويبدو لى أن الفصل قد استخرج من الحكم الأصلى الصادر عن محكمة النظراء، ومع ذلك لا أجرؤ على القول إن كبير أساقفة سالرنو لم يدرجه فى ذلك الموضع: على الرغم من عدم إمكان إدراك أسلوبه فيه، ولا الفتور الدينى لرجل دولة مثله، والذى رجّح أكثر من اللازم، فى المنازعات فى قصر بالرمو، كفة المسلمين. غير أن عقبات من هذا النوع يمكن تجاوزها إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن المؤلف قد نقل هنا حكما تتوافق فيه فخامة الكلمات مع فظاعة الحدث، وعلى كل حال، فإذا كان روموالدو قد كتب هذا أو رجل دولة آخر معاصر، أو أحدث منه بكثير تناول بين يديه ذلك الحكم، فإن هذه المذكرة تعد أصلية وثمينة جداً، إذ تشى بالشكوك التى شاعت حول استقامة الملك.

الأخرى التى تشير إليها الرواية المسيحية، إنما يدل على أنه قد حدثت بعد ذلك فى صقلية فى أواخر عام ١١٥٣ عملية إضطهاد دينى حقيقية وخطيرة.

لماذا حرك روچيرو موجة الاضطهاد تلك؟ إن انتصارات الموحدين فى أفريقيا، وتسليع مانويلى كومنينو فى البحر الأدرياتيكى، بالإضافة إلى وفاة أبنائه الثلاثة وزوجتيه فى خلال تسع سنوات، والمرض الذى أضناه جسمانياً فى ذلك الشتاء، كل تلك العوامل قد هزت روحه هزاً عميقاً. تلك الروح التى كانت مشبعة بمعتقدات خارقة للنواميس الطبيعية ما بين أرثوذكسية وفلكية وإسلامية. ويقال أيضاً إنه فى تلك الفترة الأخيرة، وقد ابتعد بدرجة ما عن الاهتمامات الدنيوية، عمل «بالوسائل كلها» على أن يعتنق المسلمون واليهود المسيحية وأنفق فى سبيل العبادة أموالاً كثيرة(1). وقد نستطيع أن نفترض انه قد أصبح متزمتاً لضعف عقله، كما حدث لكثير من العلماء والرجال الأقوياء. لكن من المحتمل جداً أن روچيرو قد اراد أن يكون قدوة وأن يصلح بطريقته البلاط، حيث كان المهزومون يجدون حظوة لدى المسيحيين. لقد أرسل إلى المحرقة فيليبو بعد مضى شهر على تلك الحملة على بونه التى باءت بالفشل، على ما يبدو، لتعاطفه مع المؤمنين: وعليه لا ينبغى أن يروى لنا أحد عن الشكاوى التى نمت بين الأسطول وبين طبقة البارونات وطبقة رجال الدين ضد المسلمين الذين نالوا حظوة لدى الملك. وكان الملك قد انخرط فى صفوف الدبلوماسية الكنسية التى كانت بكل تأكيد لا تنظر بعين الود إلى وزراء من هذه النوعية. لو حدث هذا مع ملك من ملوك عصرنا لأقالهم، ومع ملك من ملوك القرن السابع عشر لألقى بهم فى غياهب السجون؛ أما روچيرو، الذى عاش فى القرن الثانى عشر والذى كان يعد قاسياً جـداً حتى فى ذلك الزمان، فقد أحرق

---

(1) روموالدو سالرنيتانو، فى كتاب موراتورى، المرجع المذكور، ص ١٩٣، ١٩٤.

الشخصية الأساسية وقطع رؤوس الآخرين وسعد بأنه أعاد تنظيم أمور القصر وأرضى الشعب والعظماء وأصدقاءه من أصحاب السلطان وربح ماذا؟ ربح الفردوس.

لقد توفى بعد ذلك بشهرين فى السابع والعشرين من شهر فبراير ١١٥٤ وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره(1) وقد دفنته إلى القبر رغباته الجامحة كما كتب رجال الدين فى القصر. وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن فضائله ورذائله والأعمال التى قام بها فى الخارج. ويتبقى لنا الآن أن نعالج بالدرجة نفسها من الاهتمام حكم البلاد من الداخل وطبيعة هذا الأمير وثقافته وعقليته. وسوف نستقى أخباره من الكتاب المسلمين والمسيحيين على حد سواء إذ أنه ترك أثره على كلتا الحضارتين الخاصتين بعصره وقد وصفته كل حضارة منهما بأسلوبها الخاص. فقد وصفته الحضارة الأولى بقلم رئيس دير تيليزى، وروموالدو كبير أساقفة سالرنو، وأوجو فالكاندو، وبطرس الجليل: وكلهم أساقفة إيطاليون وفرنسيون تثقفوا بالأدب اللاتينى. والحضارة الأخرى متمثلة تارة فى فخفخة الصور البلاغية، فى مقدمة الإدريسى، الأديب والعالم، سليل الأمراء، وتارة فى الأخبار الجافة التى جمعها ابن الأثير فى الحوليات والصفدى فى مقاله عن ترجمته وعنوانه: روجيرو(2).

إن فالكاندو يمتدح فيه حيوية روحه، وحضور بداهته وحبه للعمل

---

(1) قارن: روموالدو سالرنيتانو. فى كتاب موراتورى. *Rerum Italic.*، المجلد السابع، ١٩٦ وسجل وفيات مونتى كاسينو الذى أصدره كاروزو. *Bibl. Sicula*. ص ٥٢٢.

(2) ليس هنالك ما يدعو لأن أكرر عناوين المصادر المسيحية المذكورة فى هذا الفصل وفى الفصل السابق. إن المصادر الإسلامية المعاصرة هى الإدريسى وكاتب أخبار سار على نهجه محررو الأخبار والذين أذكرهم فى النص. ولعله كان ابن شداد الذى أشرت إليه فى **المقدمة**، المجلد الأول، ص ٢٩، رقم ٧. ويتحدث الإدريسى عن روجيرو فى موضعين بمقدمته فى الجغرافية. ونقرأهما فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ١٥، ١٦. وتوجد مقتطفات الكُتّاب فى مجموعتى. أى ابن الأثير فى ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٠٠؛ شهاب الدين عمرى فى ص ١٥٢. أبى الفدا فى ص ٤١٤؛ النويرى فى ص ٤٤٨؛ ابن خلدون فى ص ٤٩٨، ٥٠٢؛ ابن أبى دينار فى ص ٥٣٤؛ الصفدى فى ص ٦٥٧، ٦٥٨.

وفطـنته ونضـج مشـورته فى الشـئون العـامة(1). أما الإدريسى، بعد شرح طويل يحتوى على الأفكار السابقة نفسها فإنه يوجزها فى العبارة التى يقول فيها إن روجيرو كان يعمل نائماً أكثر مما يعمل أى رجل يقظ(2). مقتراً إلا فى الإنفاق على شئون الحرب والعلوم والآثار وقد اجتهد بكل الوسائل فى زيادة دخل الخزانة العامة(3) وكان حكيماً جداً فى إدارتها وكان بين الحين والآخر يراجع حساباتها(4). إن الأمن والسلام والازدهار الذى تمتعت بها مملكته قد أثار الدهشة فى أوربا فى ذلك العصر الذى ساد فيه العنف الإقطاعى(5)؛ ومن ثم لا يبالغ الإدريسى عندما يقول إن روجيرو قد أخضع الطغاة(6) ورفع عالياً لواء العدالة ووفر لشعبه السلام والحكم الصالح وأجبر الملوك على طاعته وارتداء زيه وعلى أن يسلموه مفاتيح بلادهم(7). واصلح النظم القضائية وفرض احترام القانون بكل حزم، بل بقسوة، ويبرر فالكاندو هذا بضرورة تأسيس المملكة الجديدة. وفى عمله الدءوب من أجل تطوير الحكومة المدنية فى صقلية وتعويد البارونات ومدن البر الإيطالى على ذلك دعى إلى درس النماذج الموجودة فى الخارج ودعى لمعاونته رجالاً ذوى شأن من لغات مختلفة وطوائف شتى(8). ولهذا فإن أحد الفرنسيين قد تباهى بتفضيل الملك للفرنسيين(9).

---

(1) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٤١٠.

(2) حرفياً: «وكان نومه (مثل) يقظة الناس وسهرهم». فى المكتبة العربية ـ الصقلية. النص، ص ١٦.

(3) روموالدو سالرنيتانو، فالكاندو .. إلخ.

(4) السندرو دى تيليزى، الكتاب الرابع، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٩٤.

(5) السندرو دى تيليزى؛ بطرس الجليل، فى الرسائل التى ذكرناها فى هذا الفصل.

(6) فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ١٥.

(7) المرجع المذكور، ص ٢٧. لقد ترجمت كلمة *regoli* بالملوك، وهى تعنى ذلك بالفعل. إن العرب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر قد أطلقوا هذا اللفظ كذلك «ملوك ـ *regoli*» على كبار البارونات المسيحيين، وكان أيضاً لقباً يمنح لكبار الشخصيات من المسلمين الذين لم يدعوا لأنفسهم أية حقوق سيادية.

(8) فالكاندو، رئيس دير تيليزى وجميع المعاصرين الآخرين.

(9) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٤١٠.

ويمتدحه أحد المسلمين لأنه كان يحمى المسلمين ويحبهم بشكل خاص(1). وقد يستطيع بيزنطى أن يؤكد أنه كان يميز اليونانيين بتعيينه چورج الأنطاكى؛ وقد يكسب إيطالى هذه المباراة فيذكر أن أريجو دى ماركيزى اليراميدى قد صنع بنفسه التاج لحفيده(2).

لقد وصفنا بشكل سريع فى الكتاب الخامس الحكم النورمانى، وأود أن اذكر هنا بشكل سريع أيضاً تلك المؤسسات التى يرجع الفضل بالتأكيد إلى روچيرو فى تأسيسها وليس إلى والده. ويبدو لى أن أولى تلك المؤسسات وأهمها هى المؤسسة القضائية فى الأقاليم والتى كانت مجهولة فى عصر الكونت الأول، وكانت ضرورية لبسط الأمن والنظام عن قرب إذ قد عجز عن ذلك ممثلو الأمير فى كل مركز، فقد سيطر عليهم للأسف الإقطاعيون المجاورون ورجال الدين. لقد اتبع روچيرو عادة الجمع بين السلطتين اللتين نفرق نحن بينهما وهما السلطة الإدارية والسلطة القضائية ومن أجل ذلك استبدل نواب الكونت وهم مفوضون عموميون للحكومة فى المدينة وهم قضاة أول درجة للقضاء المدنى والإصلاحى(3). وقد أسس فى البداية نظام الأمناء ومديرى القضاء، وهم قضاة إقليميون: وعيّن الفئة الأولى منهم لإدارة الأملاك مع اختصاصها بالنظر فى القضايا المدنية وقضايا أول درجة التى تتعلق بالإقطاعيات الفرعية وهو ما يمكن أن نسميه الآن بالقضاء الإدارى: أما الفئة الثانية فهم قضاة فى المنازعات المدنية الخاصة بالإقطاعيات الرئيسة وفى القضايا

---

(1) ابن الأثير، عام ٤٨٤، فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٧٨.

(2) السندرو دى تيليزى، الكتاب الأول، فى مجموعة كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٦٦.

(3) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، ونريش، *Rerum ab Arabibus etc.*، ص ٣٠٩ يلحظ فى هذا اللقب «الوالى» العربى. وليس من الضرورى أن ألجأ إلى قوانين الاستبدال للاستدلال على خطأ هذا الاشتقاق. إن كلمة Βαίουλος و"Bajulus" كانت مستخدمة عند الكتاب اليونانيين واللاتين قبل القرن الحادى عشر بمدة طويلة. وقد كان أماتو مارشلينو من بين من استخدموها. انظر دوكانچ، المعجم اللاتينى. لقد ذكرت هذه الملاحظة فى *Journal Asiatique* فى عدد مارس ١٨٤٦، ص ٢٣٠ فى ملاحظات عن ابن جبير.

الجنائية التى تتجاوز اختصاصات قضاة أول درجة ومجالس البارونات(1). ويبدو لى بالتأكيد أن الملك روجيرو قد أصلح كذلك هيئة المحكمة العليا التى يرأسها الأمير، وهى تشبه محكمة البيزنطيين فى القضايا المدنية(2) ومحكمة المسلمين فى الجنايات التى تتعلق بالدولة(3). وتؤكد الرواية العربية فى الحقيقة أن روجيرو، بعد أن تولى العرش بعد والده، قد قلد المسلمين فى إنشاء «الجانب» و«الحاجب» و«السلاحية» و«الجندار» وغيرها من الوظائف، وأنه ابتعد عن عادات الفرنجة الذين لم تكن لديهم فكرة عن مثل هذه النظم: وأنشأ أيضاً ديوان المظالم الذى كانت ترسل إليه شكاوى المظلومين؛ وكان الملك ينصفهم حتى لو كان ذلك ضد ابنه(4). وعن الوظائف الأخرى سوف نتحدث الآن. وقد رأى جريجوريو أن ديوان المظالم هذا هى المحكمة العليا *Magna Curia* التى اعتاد دارسو القانون قبله نسبتها إلى الامبراطور فدريكو: أما هو فقد رجع به إلى عهد روجيرو، وقد ميزه عن المحكمة العليا الخاصة بالنظراء، وشبهه بمحكمة الملك التى اعتقد أنه قد تم إنشاؤها فى إنجلترا فى عهد وليم الفاتح(5). غير أن دارسى القانون الانجليز يعترفون اليوم بأنهم لا يرون بوضوح فى القرن الحادى عشر ذلك النظام القضائى العالى الذى ظهر عندهم فى بداية القرن الثالث عشر. ومن ثم فإنهم يظنون

---

(1) جريجوريو، الموضع المذكور. بخصوص الدائرة الإقليمية، انظر كتابنا الخامس، الفصل العاشر، ص ٢١٠، ٢١١ من هذا الكتاب.

(2) على الرغم من أن اختصاص محكمة العدل العليا التى يرأسها الامبراطور هو إصدار قواعد قانونية جديدة فى القضايا المعروضة إلا أنها كانت تنظر كذلك قضايا خاصة. انظر موراتورى، *Histoire du droit byzantin*، المجلد الثالث، ص ٨٣، ٨٤.

(3) انظر الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٧، ٨ من المجلد الثانى.

(4) ابن الأثير، عام ٤٨٤، النص، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧٨، وهو أقدم مصدر نعرفه من الناسخين لتلك الرواية. وقد أخذها جريجوريو كما هو معلوم، عن النويرى، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٦، و*Considerazioni* الكتاب الثانى، الفصل الثانى، الملاحظة ٢٠.

(5) *Considerazioni*، الفصل المذكور.

أنه فى أوائل عصور الملوك النورمان لم يكن فى انجلترا محكمة عدل سوى محكمة النظراء، وأنها كانت أحياناً عامة وغالباً ما كانت فى اضيق الحدود؛ حيث لم يكن امراً ميسوراً فى ذلك الزمان حشد الإقطاعيين وجمعهم فى كل غرض من أغراض العدالة العادية. ولا يبدو أنه من الممكن أن أؤكد على شئ آخر بشأن صقلية فى القرن الثانى عشر: غير أنى استطيع أن اضيف أن روجيرو قد شكل بانتظام محكمة النظراء تشكيلاً يضم عدداً محدداً منهم، وضم إليها مديرى القضاء والقضاة واستخدمها محكمةً عادية ومحكمة عليا دون أن يقصر اختصاصها على كبار الإقطاعيين. ويبدو لى أن هذه هى المحكمة التى حكمت فى صقلية على فيليبو الذى من المهدية بالحرق: والتى قال روجيرو أمامها، طبقاً للرواية المسيحية، بأنه لن يتوانى عن معاقبة حتى ابنه(1). وهى الكلمات نفسها التى تعبر بها الرواية الإسلامية عن السلطة العليا وصرامة العدالة التى تميز بهما ديوان المظالم والذى كان يرأسه الملك.

ولندع الترتيبات الخاصة بالأهالى المسيحيين، والتى تمت بشكل مستمر فى الجزيرة فى عهد روجيرو؛ والجماعة والأسقفية التى أسسها فى شيفالو، وهيئة الرئاسة الديرية التى أسسها فى مسينا لكى تنظم شئون الأديرة اليونانية والأهالى، وقوانينها التى يمكننا جمعها(2)، والوظائف الكبرى بالمملكة والتى نقلها عن القصور

(1) فى هذا الفصل، ص ٤٢٢.

(2) فى قوانين مملكة صقلية التى أصدرها الامبراطور فدريكو الثانى، تحمل بعض القوانين اسم الملك روجيرو. إلا أن هذا ليس دليلاً أكيداً. بهذا الصدد انظر جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الثانى. الفصل الثامن.

وقد ظهرت مؤخراً مقتطفات مجالس قضاء ملوك صقلية (حول ١٨٥٦) والتى عثر عليها مركيل فى أحد مخطوطات الفاتيكان. وقد نسبها البعض إلى الملك روجيرو كما نسبها اخرون إلى جوليلمو الثانى. انظر *Storia della Sicilia sotto Gulielmo il Buono* لمؤلفه ازيدورو لالوميا؛ ونقد اوتو هارتويج فى سيبل، *Archivio Storico*. الملف العشرون، ورد لالوميا فى *Rivista Sicula*، فبراير ١٨٦٩ (بالرمو ٨٦٩) وبالنسبة لى فإن مقدمة تلك المقتطفات تجعلنى انسبها بالأحرى إلى جوليلمو الأول، وكان مركيل يميل إلى هذا الراى.

الغربية مثل مناصب: الحاجب، ومدير القضاء، والقاضى، وكبير موثقى العقود، والقائد الأعلى، وهى وظائف كبرى المقصود بها السلطة العليا(1). وقد تحدثت طويلاً عن الأدميرالات(2)، وقد تناولت كذلك خدمات القصر التى كان يعهد بالجانب الأكبر منها إلى وصفاء القصر(3). وطبقاً لما يقوله كاتب ذكرناه منذ قليل(4) فإن روجيرو، على غرار ما كان متبعاً فى القصور الإسلامية، قد نظم الوظائف الخدمية والتى تدل أسماؤها العربية أو الفارسية على أصل نشأتها والتى تعود فى الغالب إلى الفاطميين فى مصر. وكانت تلك هى وظائف الحاجب، وقد جرد من سلطاته الكبرى التى كان يتمتع بها فى قرطبة وفى غيرها(5). و«الجانب» أى المساعد فى الميدان(6).

---

(1) جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى.
(2) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ٢٤٦ وما بعدها من المجلد.
(3) الكتاب الخامس، الفصل التاسع والكتاب السادس، الفصل الأول، ص ٢٦٢ وما بعدها و٣٥٩ من هذا المجلد.
(4) ص ٤٢٧ و٤٢٨. لاحظ أن جريجوريو عندما لم يفهم تلك المسميات التى وجدها فى النويرى، والتى تركها السيد كوزين للسبب نفسه، فى الترجمة الفرنسية افترض أنها صفات ملكية أخذها روجيرو عن أمراء المسلمين، فترجمها بالتالى كما تراءى له: «صاحب السمو، وصاحب الفخامة والفضائل». *Rerum Arabic.* ص ٢٦.
(5) يتحدث عنها ابن جبير، النص العربى، رايت، ص ٣٢٨، وفى **المكتبة العربية - الصقلية** ص ٨٣. لقد ترجمت هذا الجزء إلى الفرنسية فى *Journal Asiatique* ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥٣٩، وإلى الإيطالية فى *Archivio Storico* الملحق ١٦ (١٨٤٧) ص ٢٦.
والحاجب هو كبير الخدم فى البلاط العباسى، وكان رئيس الوزراء عند الأمويين فى أسبانيا، وكان الرجل الأول بعد النائب لدى سلاطين مصر وهكذا: ذلك لأن سلطة الموظفين المتقلدين لتلك المناصب قد اختلفت باختلاف الأسر الحاكمة والعصور. ويتحدث عند ذلك ابن خلدون فى مقدمته (نص باريس، الجزء الثانى، ص ١٤ والترجمة الفرنسية ص ١٧)، دى ساسى، *Chrestomathie arabe*، المجلد الثانى ص ١٥٧ و١٥٩، جيانجوس فى ترجمة المقرى، *Mohammedan dynasties in Spain*، المجلد الأول، ص ١٠٢ وما بعد ٣٩٧ والتاسع والعشرين.
(6) تعنى حرفياً من يكون بالجانب، وتطلق أيضاً على الجياد التى يتم تبديلها. والجانب يماثل حامل السيف فى البلاط البيزنطى وقد ذُكر شخص اسمه نيكولو، كبير موثقى العقود الملكية وصاحب خزانة الملك وحامل السيف، ذُكر فى وثيقة يونانية لروجيرو

والسلاحية(1) أى حامل الأسلحة والدروع، و«الجندار» أو ربما «الجمدار» أى المسئول عن الملابس(2) وغيرها من الوظائف؛ كما يذكر النص، مشيراً فى ذلك إلى أسماء معروفة(3): إلى تلك الفئة من الخدم التى ترتبط بالوظائف العليا فى الدولة؛ والتى أخذها البيزنطيون من طفاة الفرس وأعطوها للمسلمين ولملوك الغرب. وفى أغلب الأحيان لم يكن هناك اختلاف سوى فى الاسم. وكان لابد من وجود وظيفة «كبير القهرمانات» فى صقلية؛ وعلى الرغم من أنها كانت تقابل فى الوقت نفسه وظيفة «ماجستر» اللاتينية التى تقابل أو هى ترجمة للكلمة الشرقية «أسطى دار»، وتعبر عن وظيفتها(4). ونذكر هنا أيضاً منصب القائد الذى تحدثنا عنه طويلاً والذى يعنى

الشيخ ترجع لعام ١٠٩٠ وتم نسخها فى وثيقة ترجع إلى روجيرو، الكونت الثانى، عام ١١١٧، فى كتاب سباتا، *Pergamene*، ص ٢٤٧.

(1) نقال أيضاً السلحدار، اى حامل الدروع، من العربية «سلاح» ومن الفارسية «دار» اى حامل. انظر كاترمير فى ترجمة المقريزى، *Sultans Mamlouks*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٥٩.

(2) النص يذكر كلمة جندار، وهى كلمة مكونة من كلمتين فارسيتين وتعنى الجلاد، وتستبدل، بالحارس. انظر أيضاً مذكرة كتبها ساسى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ وابن خلدون الموضع المذكور.

جامدار «يعرف م» وهى كلمة مركبة من كلمة دار نفسها ومن كلمة جامة الفارسية وتعنى المسئول عن الملابس، كما يقول كاترمير، المرجع المذكور، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١١. من المحتمل أنه بتغيير الحرف الساكن قد استخدم اللفظ الأول ليعنى الملابس.

(3) فى القاهرة وفى الشرق الدويدار «حامل القلم» أى المسكرتير الأول: و«أسطى دار» «رئيس شئون القصر»؛ وطبردار «حامل البلطة»، «جوكندار»، «حامل المضرب» للعب الكرة من على صهوة الجواد، إلخ؛ انظر كتاب ساسى المذكور، المجلد الثانى، ١٧٨، ١٧٩، ٣٦٨، ٣٦٩ وكتاب كاترمير، المجلد الأول، ص ٢٥ وما بعدها وص ١٢١ وما بعدها.

(4) وثيقة عام ١١٦٧ والتى ذكرناها فى الكتاب الخامس، الفصل التاسع، ص ٢٦٣، فى الهامش، وتحمل توقيع شخص يدعى جايتوس مارانوس *domini regis magister et familiaris*.

جرجيجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، لا يذكر مستندات ترجع إلى عصر روجيرو خاصة بالقهرمان؛ ولم يجد دى بلازى المجتهد لها أثراً. وهو الذى كتب بإسهاب عن المناصب الكبيرة فى المملكة. انظر كتابه: *Storia di Sicilia*، الكتاب الرابع، الفصل الثالث والعشرين، المقال الثالث غير أن الكونت الأول روجيرو كان لديه كبير قهرمانات.

تارة قائداً لجنود الحرس، وتارة أخرى أميناً أو سكرتيراً، أو محاسباً، بل وخادماً أيضاً(1)، مثل فرّاش وهى قد تعنى فى لغتنا من يرتب الفراش(2). وكان هناك وصيف مسلم يتولى مراقبة المطبخ(3) وآخر يتولى الطراز.

وكانت تطلق تلك الكلمة الفارسية على الملابس الحريرية المطرزة وعلى المشغل الذى كانت تصنع فيه: وهذا جزء أساسى فى بلاط المسلمين إذ أن الأمراء كانوا قد تعودوا على إهداء تلك الملابس تعبيراً منهم عن الرضا، أو إرسالها إلى كبار الموظفين،عند تعيينهم لتصبيبهم فى مناصبهم بتلك الأزياء التى ترمز إلى التنصيب ذاته(4)، كما هو مألوف أيضاً فى المسيحية فى عادات لا تختلف عن ذلك.

وقد تعين علينا أن نروى كيف أن روچيرو قد أرسل أزياءً من هذه إلى الخائن الذى أهداه مدينة قابس(5). ويتبقى من طراز بالرمو ديباج فخم ورائع، الجزء الأوسط منه شبه مستدير، مطرز بالذهب واللؤلؤ وبه شكل أسد يصرع جملاً وعلى اطرافه قد كتب بأحرف كوفية اسم روچيرو والقابه وتاريخ عاصمة صقلية وعام ٥٢٨ (١١٣٣)، وهذا الثوب الملكى قد انتقل إلى المانيا إما هدية من أحد ملوك صقلية. وإما لأن اريجو السادس قد نهبه: وهو الآن محفوظ فى مدينة ڤيينا بين آثار امبراطورية شارلمان(6). ونعلم من التاريخ كيف أن ذلك

---

(1) قادة رماة الأقواس. قد وقعوا فى الوثيقة التى ترجع لعام ١١٧٢ والتى ذكرناها فى الكتاب الخامس، الفصل التاسع، ص ٢٦٢، الهامش ٤. وقائد الزنوج فى البلاط الملكى قد ذكره مع موظفين آخرين ابن جبير فى الجزء الذى ذكرناه منذ قليل.

(2) وثيقة عام ١١٧٢ التى ذكرناها فى الملاحظة السابقة.

(3) ابن جبير، الموضع المذكور. وبالذات فى ص ٥٣٩ من *Jounal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥ وفى ص ٢٦ من ملحق *Archivio Storico italiano*.

(4) انظر عماسى، *Chrèstomethie arabe*، المجلد الثانى، ص ٢٨٧ و٣٠٥. لقد أشرنا إلى هذا الزى فى الكتاب الرابع، الفصلين الأول والثامن، ص ٢٤٥ و٢٤٦ من المجلد الثانى.

(5) الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٤٠١.

(6) آخر وأفخم إصدار لهذا الديباج. والذى أطلق عليه ديباج نورمبرج نسبة إلى المكان

المشغل قد زود(1) فى عام ١١٤٧ بحسناوات من كورينثوس ومن طيبة وكان مزدهراً حتى عام ١١٨٠ عندما أسرّ رئيسه الخصىّ إلى ابن جبير بأن الفتيات المسلمات اللائى فى حظيرته غالباً ما كن يجذبن إلى الإسلام زميلاتهن من الفرنجة. ومن ثمَّ يبدو ان روجيرو قد أراد أن يشرف بذلك الاسم حريم القصر الملكى(2). وقد استخدم هو أو من خلفه مظلة الاحتفالات تقليداً للخلفاء الفاطميين(3).

وفى البلاط الإسلامى كانت تسود العادات الشرقية الخاصة بديوان الكتاب العربى، وكانت تختلف، على ما يبدو لى، عن الإدارة اللاتينية. فكانت الأولى مختصة بالاهتمام بشئون المكان، بينما كانت الإدارة اللاتينية تهتم بشئون المزارعين. وعلى حين كانت الإدارة اللاتينية تستخدم اللغة اللاتينية والتاريخ حسب التقويم الميلادى والخاتم بالألقاب الغربية، فإن ديوان الكتاب العربى كان يستخدم اللغة اليونانية تارة والعربية تارة أخرى، حسب الجمهور الذى يتعامل معه، وتارة اللغتين معاً. وفى بداية الكتابات العربية أو باللغتين والتى لم تمهر بتوقيع روجيرو بخط يده، فكانت توضع، طبقاً للتقليد الإسلامى، **العلامة**، وهى عبارة عن شعار يختاره كل أمير ويكتبه كاتب خاص وذلك من أجل اعتماد الوثيقة. وكانت علامة روجيرو هى

الذى حفظ فيه حتى القرن الثامن عشر. قد قام به رئيس الدير بوك فى الكتاب الذى يحمل عنوان: *Die Kleinodien des heil. rom.* ريخز. فيينا، ١٨٦٤. وبدلاً من هذا الكتاب وهو كتاب نادر لثمنه، سوف أذكر كتاب جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٧٢ والذى قدم رسم الكتابة ورينو الذى قام، بعد التصحيح، بنقلها وترجمتها، فى *Journal Asiatique*، ابريل ١٨٤٦، ص ٥٨٢.

(1) انظر فى هذا الكتاب ص ٤١٩.

(2) ابن جبير، النص، طبعة رايت، ص ٣٢٥ و**المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٨٤. وقد نشرت ترجمته إلى الفرنسية فى *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨١٥، ص ٥٤١، وإلى الإيطالية فى *Archivio Storico*، الحاشية المذكورة، ص ٣٧. ارجع إلى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٩ من المجلد الثانى.

(3) ابن حماد، فى **المكتبة العربية - الصقلية**. النص، ص ٣١٧.

عبارة «الحمد لله شكراً لنعمه»(1). وقد قلد روجيرو الأمراء المسلمين تارة والأمراء البيزنطيين تارة أخرى. فلقب(2) نفسه فى الوثائق «الملك المعظم القديس» وعلى العملات كان يذكر: «الملك المعظم المعتز بالله»(3) وتارة كان يكتب «ناصر النصرانية»(4). ولا يبدو أنهم كانوا يلقبونه فى القصر بغير ذلك إذ قال عنه الإدريسى: «الملك المعظم روجيرو المعتز بالله القوى بقدرة الله(5)، ملك صقلية، وإيطاليا، ولومباردیا وكلابريا، (عماد) إمام روما، حامى الديانة

---

(1) وثيقة يونانية - عربية خاصة بكنيسة بالاتينا فى مدينة بالرمو ترجع إلى ٦٥١ (١١٤٣) وممهورة بتوقيع جورجو الأنطاكى. ومورسو الذى نشرها فى *Palermo antico*. ص ٣٠٢ وكاروزو الذى ساعد جاروفالو فى إعادة طبعها فى *Tabularium* الكنيسة نفسها، ص ١٣. قرا خطا الكلمتين الأخيرتين وقد ترجماها *Laus Deo, exccelso, magno*. وقد صححتهما فى الأصل الذى تحققت منه فى اكتوبر ١٨٦٠.

لقد حفظت لنا الوثائق كما حفظ لنا التاريخ علامات أمراء مسلمين كثيرين. فى هذا الصدد انظر رينو. *Monuments,... du Musée Blacas*. المجلد الأول، ص ١٠٩. و *Documents inédits sur l'Histoire de France, Mélanges*. المجلد الثانى. ص ٥٢: ابن خلدون. *Histoire des Berbères*. ترجمة البارون دي سلان. المجلد الأول، ص ٢٧ و٣١ و٤٢. والمجلد الثاني، ص ٩٢ و١٩٧ و٢٥٦: التيجانى فى *Journal Asiatique*. اغسطس وسبتمبر ١٨٥٢. ص ١٦٣: القرطاس، طبعة تورنبرج، ص ١٩٠ و٢٠٢. من الترجمة اللاتينية إلخ. وفى ملاحظاتى عن ابن جبير قدمت علامة أخرى. *Journal Asiatique*. مارس ١٨٤٦. ص ٢١٤. وتحدثت عنها أيضاً فى *Diplomi arabi di Firenze*. ص ٦٨ وفى الأماكن المذكورة فى الهامش.

(2) الوثائق العربية - اليونانية بكنيسة كاتانيا والتى ترجع إلى شهرى سبتمبر ومارس ٦٥٢ والتى حصلت على نسخة منها بفضل الأستاذ كوزا.

(3) سانجورجو سبينيللى. *Monete Cufiche*. ص ٤١ و٤٢ و٤٧، رقم: ١٨٢ و٢٠٠ و٢٢٧ ونقود كثيرة أخرى: ويوجد كثير منها أيضاً فى مجموعات أدلر وبيترازويسكى وكاستيليونى ومارسدن وشاهدت كثيراً منها فى مقر الحكومة بباريس. انظر مورتيللارو. الأعمال الكاملة. المجلد الثالث من ٤٠٦ إلى ٤١٠ حيث نلاحظ فى العملة التى لم يسبق نشرها رقم ١٠٢. فى ص ٤٠٨ خطأ أكيداً فى لقب روجيرو من البداية حتى النهاية.

(4) سانجورجو، المرجع المذكور. ص ٤٧ و٤٨، رقم: ٢٢٨ و٢٢٩.

(5) المقتدر بقدرته. ولقب «المقتدر» كان يلقب به أحد الخلفاء العباسيين، وأحد أمراء سرقسطة.

النصرانية»(1)، وقد أطلق الشاعر عبد الرحمن الاطرابنشى على الضيعة الملكية «فيلا دى مارى ـ دولشى» بالقرب من بالرمو، اسم «المعتزية»(2). وفى الوثائق المحررة باللغتين وقع روجيرو دائماً باليونانية وجعل تلك الألقاب تتخذ الطابع الشرقى من خلال العبارة التى كان يوقع بها: «روجيرو فى المسيح الإله، الملك المتدين القوى، حامى المسيحيين»(3) وهذه الصفة الأخيرة نجدها مترجمة أيضاً فى عناوين بعض الوثائق اللاتينية(4). ونلاحظ فى النهاية من خلال النقود ومن استخدامات الكتاب العرب المعاصرين أن روجيرو، وقد اتخذ لقب روجيرو الثانى قبل أن يتوج ملكاً، قد واصل تميزه عن والده دائماً من خلال ذلك اللقب، على الرغم من أنه

---

(1) الإدريسى. النص. فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٥. أضفت بين قوسين قبل **إمام روما**. كلمة عماد والتى نسيها الناسخ. ونجد هذا اللقب فى لقب مماثل خاص بجوليلمو الثانى، فى الوثيقة العربية بكاتدرائية بالرمو الصادرة فى ٦٦٧٧ (١١٦٩) وقد تكرر فى وثيقة كنيسة مورريالى الصادرة فى ٦٦٨٦ (١١٧٨) ووثيقة ٦٦٩١ (١١٨٣). وقد نشر ثانيتهما دى فرجيه، فى *Journal Asiatique*، اكتوبر ١٨٤٥؛ وحصلت على نسختين للوثيقتين الأوليتين من الأستاذ كوزا، الذى اثنيت عليه آنفاً.

(2) فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص، ص ٥٨٤.

(3) **Ῥογέριος ἐν χριστῷ τῷ θεῷ εὐσεβὴς κραταιὸς ῥὴξ καὶ τῶν Χριστιανῶν βοηθός** توقيع الوثيقة الرائعة بكنيسة بالاتينا فى مدينة بالرمو، والتى نشرها مونفوكون وأعيدت طباعتها فى *Tabulario* الكنيسة نفسها، ص ١٠ وفى أماكن أخرى. والتوقيع نقرأه فى الوثائق التى نشرها سباتا، *Pergamene greche*، ص ٢٢٤، ٤٢٠ (انظر لقب كونت كلابريا وصقلية وحامى المسيحيين): فى وثيقة ترجع إلى ١١٢٣. وفى وثائق ترينكيرا، *Syllabus græcarum membran.*، ص ١٢٨ و١٥٥ و١٨٢. (انظر ص ١٠١ وثيقة ترجع إلى ١١١٥. بلقب كونت كلابريا وصقلية وبلاد إيطاليا وحامى المسيحيين). وهكذا أيضاً فى الوثائق العربية ـ اليونانية لكنائس كتانيا ومورريالى وشيفالو فى عهد روجيرو، والتى حصلت على نسخ منها من الأستاذ كوزا. انظر أيضاً المستندات التى ذكرها دى بلازى، *Storia di Sicilia*، الكتاب السابع، الفصل الثانى والعشرين.

(4) وثيقة *Trinità della Cava*، بتاريخ ١١٣٠ والذى أرفقه دى بلازى، الموضع المذكور، ووثيقة أخرى ترجع إلى ١١٣٧ فى أخبار فالكونى البنفنتى فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٢٦٧. انظر كذلك بعض الوثائق الأصلية اللاتينية فى كتاب بيرو، إلا أن خاتم الملك اللاتينى، كما هو معروف كان مكتوب عليه فقط: *Rogerius Dei gratia rex Sicilie ducatus Apulie et principatus Capue.*

كان أول ملك(1).

ولعل روجيرو لم يفكر أن هوايته العلمية سوف تثمر له مجداً عظيماً شأنها فى ذلك شأن اهتمامه المستمر بشئون الدولة ومتاعب الحرب. وبالإضافة إلى ذلك فإن أوربا المتحضرة إذا كانت لم تنس اليوم نسياناً كاملاً مؤسس الملكية الصقلية، فإنها تشرف وتكرم بدرجة أكبر الأمير العالم الذى يرجع إليه الفضل فى أعظم كتاب جغرافى فى العصور الوسطى. وإذا ما كنا قد نأينا عن تناول أهمية هذا الكتاب أثناء تعرضنا للجانب العلمى والأدبى فى هذه الحقبة؛ فإننا نتعرض للجانب الذى يخص كل مؤلف من المؤلفين الا وهما: الإدريسى والذى يحمل الكتاب اسمه، والملك الذى ينسب إليه رجال العلم المسلمون الكتاب فيسمونه «كتاب روجيرو»، بالإضافة إلى

(1) الإدريسى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٧. يقول إنه عند وفاة الملك روجيرو، ابن تنكريدى، ورث الدولة عنه ابنه الملك روجيرو الثانى. وإذا ما تركنا جانباً، كما نبهت فى الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٢٣٧ وما بعدها فى هذا المجلد، النقود المنسوبة إلى الكونت روجيرو الأول وإلى روبرتو جويسكاردو والدوق روجيرو، ابن الأخير، والتى من وجهة نظرى يجب مراجعتها كلها. فإننا نجد عملات عربية ليست بالقليلة ترجع بلا شك إلى الملك روجيرو والتى يمكن أن تكون قد ضربت قبل تتويجه. وأقصد بها العملات التى توجد على أحد وجهيها الصيغة الإسلامية وعلى الوجه الآخر حرف T وتقرأ بأحد جانبيها: **بأمر فوق روجيرو** وعلى الجانب الآخر **الثانى**: وهى عملات ذهبية ليست نادرة، وقد شاهدت الكثير منها فى قسم العملات بباريس؛ ونلاحظ العبارة نفسها ونوع حرف T نفسه مع قليل من الاختلاف فى أشكال كتاب سانجورجو سبينيللى، اللوحة ٥ من ٤ إلى ٩، واللوحة ٦ من ١ إلى ١٤، واللوحة ٧ من ١ إلى ٧ و٢٤ و٢٥ و٣٦ واللوحة الرابعة والعشرين ٢٠ و٢١ واللوحة السابعة والعشرين من ٢ وإلى آخرها واللوحة رقم ٢٨ من ١ إلى ٩. وقد قرأت الشئ نفسه بكل وضوح فى ثلاث بصمات لعملات متحف نابولى أرسلها منذ قريب فيوريللى ولا أعلم إن كانت ضمن العملات التى نشرها سانجورجو. ولا أعتقد أن العملة رقم ١١٨ بمتحف نانيانو فى اسيمانى أو رقم ٦٤ و٦٥ و٦٦ و٦٧ التى نشرها أدلر تختلف عن ذلك. واستطيع أن أؤكد ذلك، بعد ملاحظتى الدقيقة فى شهر أكتوبر ١٨٦٤ للعملة ٦٥ المحفوظة فى متحف بارما. ويبدو لى على وجه العموم أن لفظ «بامر» الذى قرأه البعض «أمير» و«الثانى»، وهو فى الغالب مبتور، قد تم تفسيرهما خطأ بـ «أمير» و«الذنر» «النورمانى» التى استنبطها مورتيللارو فى *Medagliere arabo-siculo*. ص ٥١. وأمراء صقلية الذين منحوا لقب «أمير» لأحد وزرائهم، لم يطلقوه بكل تأكيد على أنفسهم. ولا يمكن أن يكونوا قد شوهوا اسم سلالتهم وفصيلتهم.

عنوانه الأصلى وهو: «نزهة المشتاق...».

لا تتحدث المذكرات المسيحية عن هواية الملك هذه وحبه للدراسات الجغرافية، والتى فسرها تفسيراً سيئاً فالكونى البنفنتى حيث يروى الحكاية التالية: عندما دخل روجيرو نابولى مظفراً بالنصر فى أواخر سبتمبر من عام ١١٤٠، قضى ليلة بطولها وهو يقيس قطر أسوار المدينة: وفى اليوم التالى ظل يتحدث مع كبار المواطنين فى شأن إقرار الإعفاءات الضريبية، وذلك ليظهر تعاطفه مع أحوالهم تعاطفاً كبيراً وسألهم: «هل تعلمون كم هو طول محيط مدينتكم؟» ولما ردوا عليه بالنفى، أجابهم: «سوف أوضحه لكم، هو ألفان وثلاثمائة وثلاث وستون خطوة بالضبط»(1).

يصف الإدريسى تكوين الكتاب بتفاصيل مهمة(2). ويقول إن الملك كان عالماً ضليعاً فى «العلوم البحتة والعلوم التطبيقية»(3) أى فى الرياضيات والعمليات الخاصة بالإدارة العامة؛ وأنه فى هذين الفرعين من العلوم قد «ابتكر طرقاً حديثة ومناهج أصيلة». ولما اتسعت مملكته فإنه قد «أراد أن يعرف بالضبط وبالتأكيد ظروف كل بلد خاضع لمملكته: ما هى حدوده، وطرق مواصلاته براً وبحراً. وإلى أى إقليم ينتمى، وما هى البحار التى يطل عليها وما هى خلجان أراضيه. كما أراد أن يعرف كل بلد آخر وكل منطقة من الأقاليم السبعة التى ابتكرها الفلاسفة وحددها الرواة والمؤلفون فى رقوقهم(4) وأراد أن يبحث ويعرف إلى أى مدى تدخل كل دولة فى كل

---

(1) فالكوني البنفنتي فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٢٨٠.

(2) النص، **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١٦ وما بعدها. ونقرا ملخصاً غير دقيق لهذا الجزء من المقدمة فى نص م. جوبير الفرنسى، المجلد الأول، من ص ١٦ إلى ١٨.

(3) **رياضيات وعمليات**. وطبقاً للكتاب العرب للترجمات، فإن الكلمة الأولى تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى: والثانية تشمل الأخلاق والاقتصاد المحلى، والإدارة العامة وواجبات الملوك والوزراء وفن الحرب. وقد ترجم السيد جوبير، ص ١٨، الكلمة الثانية إلى «أدب» وهو خطأ جسيم ناتج عن خطأ فى المخطوطة.

(4) **دفاتر**. بخصوص هذا اللفظ، انظر الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٣١٧ من هذا المجلد.

إقليم». وبعد أن يحدد الإدريسى اثنى عشر مبحثاً جغرافياً، ما بين قديم وعربى، تم جمعها بأمر من روچيرو، يستطرد الإدريسى قائلاً: «وقد لاحظنا فيها جميعاً اختلافات، واغفال وأخطاء؛ وإن علماء الجغرافيا، بعد أن دعاهم روچيرو خصيصاً وسألهم فى الموضوع كان جوابهم انهم لا يعلمون اكثر من الكتب. عندئذ استدعى روچيرو من كل انحاء ملكه رجالاً خبراء قد الفوا الترحال والتجوال وأمر أن يستجوبهم واحد من وزرائه(1) مجتمعين ثم واحداً واحداً. وأن يتم اعتماد المعلومات التى يتفق عليها جميعهم وأن يتم التغاضى عن كل ما يختلفون فيه. واستمر هذا الفحص والتدقيق خمسة عشرة عاماً لم يمض يوم منها دون أن يسهر الملك ويشرف بنفسه على العمل ويطلع على المعلومات التى تم جمعها ويقوم بتدقيقها. وبالتالى فقد أراد أن يتحقق بنفسه إذا كانت خطوط الرحلات تتفق اتفاقاً دقيقاً مع ما جاء فى التقارير(2)». وعليه فقد

هذا اللفظ غير المعتاد، وغير المستخدم هنا لضرورة القافية، يجعلنى أفكر فى أن المؤلف أراد الإشارة إلى الخرائط الجغرافية. ومع ذلك فقد ترجمته بصورة متواضعة «رق» بدلاً من «سجلات» أو بشكل اعم «كتابات».

(1) المعنى الحرفى قد يكون أن المدعوين كانوا جميعاً خاضعين لروچيرو وأنه كان يسألهم عن أخبار بلادهم غير أن الأمر يتعلق بكل وضوح برحالة عاديين. أو على الأقل رحالة إيطاليين وتقارير خاصة بالأقاليم كلها التى يعرفونها. والإدريسى، الذى كان يكتب للعالم الإسلامى، كان يصور روچيرو وكأنه ملك إيطاليا كلها. بل وكأنه إمبراطور الغرب. لقد ترجمت لفظة «واسطة» ترجمة عامة «وزير». والكلمة تعنى بالضبط «وسيط» والتى ترجمها السيد چوبير *interprète*. لكن المعاجم أو الواقع الخاص أو استخدام الكتاب المحدثين لا يمكن أن تؤدى إلى هذه الترجمة وتؤكدها. وتدل فقرة من المقريزى وملاحظة للسيد دى ساسى، *Chrestomathie Arabe*. المجلد الأول ص ٩٤ و١٢٦ على أنه تحت حكم الفاطميين فى مصر كانت كلمة «واسطة» تعنى أمين الدولة. وأحياناً كان رئيس الوزراء يلقب أيضاً «واسطة». وعلى كل حال فالأمر يتعلق هنا بشكل واضح بمدير الإحصاء فى سكرتارية الملك: إن لم يكن الإدريسى نفسه هو «واسطة» وإن لم يستخدم هذا اللفظ الذى لم يكن يقابل أى منصب من مناصب الدولة.

(2) حرفياً «طول المسافات وعرضها»؛ أى خطوط الطول والعرض: وفى الواقع فإن خبراء الأماكن لم يستطيعوا تحديد المسافات إلا من خلال الطرق المعروفة واتجاهات الطرق نفسها طبقاً لاتجاه الرياح؛ وهذا ما نجده بالضبط فى جغرافية الإدريسى: غير أن درجات الطول والعرض، كان لابد وأن يرجع بشأنها إلى قدماء الفلكيين أو إلى الأحياء

احضر لوحة مدرجة(1) ونقل إليها بالفرجار تلك المسافات واحدة فواحدة آخذاً فى اعتباره الكتب التى تم ذكرها منذ قليل وقد وازن بين الآراء المختلفة. وقد درس تلك البيانات المعقدة دراسة مستفيضة حتى إنه قد توصل بنفسه إلى المواقع الحقيقية. وعندئذ أمر بصب قرص عظيم مقسم إلى مقاطع(2)، أمر بصبه من الفضة الخالصة حتى إن وزنه كان ٤٠٠ رطل إيطالى. يعادل كل منها ١٢ درهماً(3) وأمر

منهم. ثم كان يتعين التحقق من خرائط الطول والعرض من المسافات التى ذكرها الخبراء فى هذا المجال تحققاً متبادلاً: وهذا بالضبط هو ما قال الإدريسى عنه إن روجيرو قد أمر بنقل المسافات بالفرجار على خريطة سطح اليابسة المدرجة والتحقق بنفسه من التطابق والتوافق فيما بين اللوحات والمسارات وتحديد موقع الخطأ إذا كان هنالك اختلاف بينها. على كل حال فإنه لا تبدو لى الترجمة الفرنسية دقيقة، فى الصفحة العشرين *"Ensuite il voulut savoir d'une manière positive les longitudes, les latitudes etc."*

(1) «لوحة الرسم» هذه العبارة تبدو لى عبارة عامة. النص يذكر «لوحة الترسيم» والتى تعنى «لوحة الرسم والتخطيط أو صورة تخطيطية سريعة أو ما شابه ذلك». وكما هو واضح لم يكن الموضوع مجرد ورقة رسم، وإنما ورقة مخطوطة، سواء كانت مدرجة فقط لوضع وتحديد المعالم الجغرافية عليها. أم كانت مرسومة ومحددة النقاط الرئيسة الخاصة بغرض التحقق منها مع مقارنتها بمسافات المراحل. وسوف أشرح بإسهاب مفهومى هذا فى الفصل العاشر. ص ٦٧٨ و٦٧٤ وفى حواشيهما.

(2) «منفصل» إنما تعنى بالضبط مقسم إلى أجزاء او مكون من أجزاء متنوعة. لكنى ابتعد عن رأى أستاذى العلامة السيد رينو والذى كان يعتقد أن القرص الفضى كان مقسماً إلى درجات. لكى يتم حفر صورة الأرض عليه. ويستخدم الإدريسى ذاته صيغة «فَصَّل» بمعنى قطع. وقد استخدم هذه الصيغة فى وصف تشغيل المرجان فى سبتة (دوزى ودى جوجيه. *Description de l'Afrique, etc, par Edrisi*. ص ١٦٨ فى النص وص ٢٠١ فى الترجمة). وكانت تلك الخريطة الجغرافية لسطح اليابسة قطعة واحدة من الفضة تزن ١٥٠ كيلو جراماً وكان قطرها مترين تقريباً مما يجعلها صعبة الاستعمال.

(3) الوزن الذى يطلق عليه درهم قد اختلف ولازال يختلف فى البلاد الإسلامية: ومتوسط الفرق بين الدراهم الحديثة فى مصر، وحلب والمغرب، مع التجاوز عن الكسور الصغيرة جداً. إنما يعادل ٣,٢٥ جم: وبضرب الرقم × ١١٢ النحصل على الرطل الرومى، أى الرطل الإيطالى، أى أزيد بقليل من ٣٧٥ جراماً، أى أثقل بـ ١٣ جراماً من الرطل فى مدينة بولونيا وأزيد بـ ٢٦ من الرطل فى مدينتى روما وفلورنسا: ووزن الكرة المستديرة يصل إلى ١٥٠ كيلو جراماً: إذا ما افترضنا سمكها خمسة ملليمترات وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا نوعية «الفضة» التى تحدث عنها الإدريسى فإن القطر يصل إلى متر و٩٠ سم وفقاً للحسابات التى قام بها. بناء على طلبى، الصديق السيناتور بريوسكى.

بأن تحضر عليه الأقاليم السبعة بمناطقها وبلدانها، وسواحلها البحرية ومرتفعاتها وخلجانها وبحارها وينابيعها وأنهارها، وأراضيها المأهولة، وأراضيها غير المأهولة والطرق المطروقة بأطوالها بالميل والمسافات (البحرية) والموانئ: وبهذا الحفر نقل الخريطة الجغرافية المسطحة لسطح اليابسة التى تم تخطيطها على اللوحة. وأمر فى النهاية بأن تتم كتابة وصف مطابق لأشكال الخريطة، مع إضافة ظروف كل بلد وكل ريف: وطبيعة الخلق(1) والأراضى والموقع والشكل والبحار والجبال والأنهار والأراضى الجرداء والأراضى المزروعة والمنتجات الزراعية والطرز المختلفة للبناء، والآثار، وأنشطة البشر والفنون المزدهرة والبضائع التى يتم إدخالها، أو التى يتم إخراجها، والعجائب التى تروى والعجائب المفترضة: وفى أى إقليم يقع هذا البلد وكل صفات سكانه: الملامح والطباع والديانات ووسائل الزينة والملابس واللغة». إن المخطوطات التى وفرت لنا النص مع وجود اختلافات ضئيلة تتباين وتختلف بشأن عنوان «نزهة المشتاق» الذى وضعه الإدريسى حسبما جاء فى أحد المخطوطات، أما المخطوطان الآخران، وبينهما الأقرب إلى الأصل، فينسبان هذا العمل إلى روچيرو نفسه(2): ثم يتفق الجميع فيما قد نسميه نحن

(1) اعتقد ان كلمة «خلق» تتفق تماماً مع هذا المقام وتعنى الخليقة بوجه عام و«الشئ المرتب والمنسق» إلخ. بنوع خاص: حتى إنه يقتصر احياناً على الكائنات العاقلة حسب الراى الإسلامى اى الإنس والجن.

(2) نقرا المقدمة بالكامل فى المخطوطات التى حددتها انا بالحرفين ا، جـ. (المقدمة، المجلد الأول، ص ٤٤، والمكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ١٤، الهامش ١) ويتبقى بعض السطور فى المخطوطة د. وإليكم الآن ترجمتى للقراءات الثلاث:
ا - «... الملبس واللغة، وقد عنونت هذا الكتاب بعنوان «نزهة ...»، وقد تم جمعه، وتنسيقه وإخراجه وتجليده فى أواخر شهر شوال من عام ٥٤٨ إلخ».
جـ - «... الملبس واللغة: (ويستطرد القول الحكم وأمر الملك) أن يعنون هذا الكتاب «بالنزهة» إلخ وهكذا فقد أطعت ونفذت هذا الأمر: وها أنا أبدا أول شئ، الا وهو تناول صورة الأرض...».
د - تنقص فى الأوراق الأولى المقدمة حتى كلمة «هذا» والتى نرى أثراً منها ويلى ذلك «ك» ت» ب (العنوان) كتاب «نزهة» إلخ وهذا ما كان فى العشرة أيام الأولى من يناير.

نشر الكتاب الذى تم فى النصف الأول من يناير من عام ١١٥٤، أى قبل وفاة الملك بحوالى خمسة أو ستة أسابيع.

وتلك الوفاة التى جاءت بعد مرض طويل ألم بالملك، تجعلنا نفترض أن الإدريسى قد استعجل وتعجل كثيراً فى العمل ليقدمه له، ولهذا السبب خرج الكتاب غير كامل ولا يفى بمقاصد الملك ولا يدل على الوسائل التى كان يتيحها الملك ذاته. إلا أننا سوف نتحدث عن ذلك بشكل أفضل فى موضعه وإذا ما استبعدنا من كلمات الإدريسى، كلمات المديح والبلاغة، فسوف نقرأ جميعاً كيف ان العالم الافريقى قد صاغ الوصف بعد أن جمع ونسق التقارير الشفوية وقارنها بالمباحث الجغرافية؛ وأنه ربما قد قدم النصح حول الدراسات التى يتعين القيام بها وحول المنهج: غير أن الفكرة والدافع والترتيب ولما لا؟ والتعاون الوثيق، إنما يرجع الفضل فى هذا كله إلى روجيرو الذى اتحدث فى فكره التقاليد الإسلامية بالتقاليد البيزنطية واللاتينية،

الموافق شهر شوال من عام ٥٤٨. وها أنا اطيع واخضع لهذا الأمر وبدأت اول شئ الا وهو تناول موضوع صورة الأراض، إلخ».

يتبقى أن نشرح فى هذا المقام الكلمة المريبة التى أشرت إليها بالأحرف «ك، ت، ب» وهى حروف ساكنة دون الأحرف الدالة على الحركة، وقد سقطت تلك الأحرف ربما لخطأ منى أو من عامل المطبعة. قد سقطت فى نص المكتبة. فى السطر العاشر من ص ١٩. وحيث إننا لا نستطيع أن نفترض ان الكلمة قد كتبت خطأ فى مثل هذه المخطوطة الرائعة وفى موضع بارز من النص، فإنه بدلاً من كلمة كتاب والتى تأتى بعد ذلك مباشرة فإنى أرى أنه يتعين أن نقرأ «كتب» وبالتالى يكون المعنى بالكامل هو «وقد (أمر الملك) أن يعنون هذا المكتوب: كتاب نزهة، إلخ».

والآن يرى الجميع أن المخطوطتين «د» و«جـ» تنتميان إلى فرع مختلف عن المخطوطة «ا»: وإن أقرب المخطوطات إلى الأصل، هى المخطوطة «د» حيث نقرأ شهر يناير لأن هذا اللفظ غير العربى، لم يفهمه ناسخ المخطوطة «جـ» جيداً فأهمله: ولأن ناسخ المخطوطة «ا» قد اتبع نصاً مختلفاً صدر على ما يبدو عند هرب المؤلف أثناء اضطرابات صقلية فابتدع أو ادعى ابتداع ذلك العنوان. وإذا ما تم نشر النص الكامل لكتاب «نزهة المشتاق» فسوف يرى العلماء بشكل واضح الفرق بين المخطوطات الثلاثة التى تم ذكرها والمخطوطة التى حددتها بحرف «ب»، والتى لم نستطع فك طلاسم المقسمة فيها. ويؤلمنى، أننى عند مقارنة مخطوطتى بودليانا، لم استطيع، لضيق الوقت، أن أسجل بدائل الكتاب كله أو أجزاء كبيرة منه. إن شهر شوال ٥٤٨ يوافق ٢٠ ديسمبر ١١٥٣ وحتى ١٧ يناير ١١٥٤.

وبالعبقرية العالمية الخاصة بالنورمان وبحب المعرفة الإحصائية التى كان يتمتع بها الأمير والقائد(1). وتتفق مع هذا أخبار الصفدى الدقيقة. إذ يقول إن روجيرو، أو أوجيرو، حسب قوله، بسبب حبه للعلوم الفلسفية القديمة، قد طلب حضور الشريف الإدريسى من إقليم عدوه(2) وجعله يقيم عنده وينجو من الأخطار التى كانت تحيط به بسبب أصله الملكى فى بلاد المسلمين فى الغرب؛ وقد خصص له روجيرو راتب أمير، وكان يكرمه لدرجة أنه كان ينهض واقفاً عندما كان يحضر الإدريسى إلى البلاط، ويذهب لمقابلته ويجلسه إلى جواره. وكان أول ما فعله الإدريسى هو أنه شيد للملك كرة حلقية ضخمة من الفضة وحصل من ورائها على مكافأة بالملايين(3). «تشاور روجيرو بعد ذلك مع الإدريسى حول أفضل الطرق من أجل تدقيق المعلومات الجغرافية تدقيقاً مؤكداً، دون النقل من الكتب: واتفق الاثنان على أن يتم إرسال رجال حكماء علماء إلى دول المشرق والمغرب يصحبهم رسامون ليرسموا صورة كل شئ هام؛ وقد أرسلهم الملك بالفعل، وكان الإدريسى، عندما كان أولئك يحملون إليه رسوماتهم، يقوم بتحقيقها؛ وبعد جمع التقارير والرسومات، قام بتأليف الكتاب وسماه نزهة»(4). إذن لقد كان ذلك العمل عملاً

(1) إن أعظم عمل علمى تناول هذه الجغرافية، هو كتاب لهلويل، *Géographie du moyen-âge*. المجلد الأول، من ص ٩٣ إلى ١٠٧ §§ ٥٤ وحتى ٦٤ وفيه يسلم بتأثير المعارف الجغرافية العربية واشتراك روجيرو مشاركة مباشرة.

(2) هكذا كان العرب فى القرون الوسطى يسمون الجزء الساحلى من أفريقيا الشمالية ما بين تونس ورأس صبارتل.

(3) لا أعتقد أن الصفدى قد اختلط عليه الأمر بين الكرة الحلقية التى وصفها بكل دقة والكرة الأرضية التى تكلم عنها الإدريسى فى المقدمة. ووفقاً لكاتب الترجمة فإن الملك قد أرسل إلى الإدريسى، لكى يشيد الكرة، قطعاً من الفضة تزن ٤٠٠٠٠٠ درهم وأنه قد استخدم ثلثها وفاض منها الثلثان الآخران. وقد أهداهما روجيرو للإدريسى، ثم أضاف إليهما مائة ألف درهم أخرى وسفينة محملة بالنفائس اللاتينية القادمة من برشلونة.

(4) النص. **المكتبة العربية - الصقلية**. ص ٦٥٧. ٦٥٨. وهناك ترجمة جيدة إلى اللغة الفرنسية لهذا الجزء فى كتاب السيد رينو *Géographie d'Aboulféda*. المجلد الأول، المقدمة، ص ٩٤ - ٩٥.

جماعياً، قامت به ما يشبه الأكاديمية التى اسسها روچيرو فى بلاط بالرمو ورأسها هو بنفسه، وكان سليل آخر خلفاء قرطبة أمينها الدائم، إذا ما صح أن نطلق أسماء جديدة ودقيقة على أوضاع خاصة بالعصور الوسطى. ويرى الجميع بعد ذلك أن الإدريسى قد غطى شيئاً فشيئاً على صورة روچيرو لدى الأدباء المسلمين وإن كانت ذكرى ذلك الملك لاتزال موضع التكريم والتقدير(1). ولما لم تتم ترجمة الكتاب إلى اللاتينية، بسبب وفاة الملك المفاجئ، فإن أوربا قد حصلت عليه بعد خمسة بل بعد سبعة قرون، باسم الذى قام بجمعه ولعله سيبقى باسمه أبداً. وهكذا فإن حظ المؤلف الملك هو عكس حظ عظماء يومنا هذا الذين يجعلون غيرهم يكدحون ويتعبون وينالون هم المديح والثناء.

عندما سنأتى لنتناول بالتفاصيل تاريخ الأدب فى ذلك العصر، سوف نلاحظ آثاراً أخرى لأكاديمية الملك روچيرو وإسهاماته الحكيمة. ويكفينا فى هذا المقام أن نشير إلى الرجال وإلى المؤلفات التى تنسب إلى تلك الأكاديمية. بالإضافة إلى الإدريسى، نحن نرى فى البلاط الملكى فى بالرمو، أبو الصلت أمية من دانيه، وهو طبيب، وعالم فى الميكانيكا، وفلكى، ودارس للعلم الذى كان القدماء يسمونه الموسيقى، وشاعر وكاتب: وقد طاف أبو الصلت، شأنه شأن الأدباء المسلمين، بكل القصور المحبة للعلم والدرس، وانتقل من القاهرة إلى بالرمو ومنها إلى المهدية قبل أن يحتلها الصقليون. ويبدو أن غيره هو مخترع الساعة المائية، التى تم إبداعها بأمر من روچيرو، كما يشهد على ذلك لوح حجرى منقوش بلغات ثلاث فى كنيسة القصر بمدينة

---

(1) شهاب الدين عمرى، وهو عالم كبير من علماء القرن الرابع عشر. وعندما يذكر كتاب «نزهة المشتاق» فإنه يقول إنه أفضل كتاب يعرفه فى الجغرافيا، ويمتدح روجيرو عالماً عظيماً فى الفلسفة القديمة وفى الهندسة ولكونه قضى وقتاً طويلاً وانفق مالاً كثيراً فى تاليف ذلك العمل العظيم. انظر **المكتبة العربية - الصقلية**. النص، ص ١٥٢.

بالرمو وبناء على خبر نقله إلينا القزويني. وأعتقد أنه بفضل تشجيع الملك روجيرو قد تمت الترجمة اللاتينية لكتاب الضوء لبطليموس، التي قام بها الأدميرال إوجينيو عن ترجمة عربية للنص اليوناني وأيضاً تنبؤات سيبيللا إريتريا. والتي قام بترجمتها كما قالوا من الكلدانية إلى اليونانية دوكسوباترو وترجمها إوجينيو نفسه من اليونانية إلى اللاتينية. ويبدو أن دوكسوباترو هذا هو نيلو الذي وصل إلى بلاط روجيرو قادماً من القسطنطينية، وهو مؤلف الكتاب الشهير الخاص بمقار البطاركة؛ وهو كتاب معاد للبابا. إذ إنه قد برهن على أن بابا روما قد صارت له الغلبة في المسيحية لأن روما كانت عاصمة الامبراطورية وبالتالي فقد فَقَدَ تلك المكانة عندما انتقلت عاصمة الامبراطورية إلى القسطنطينية، وأن أساقفة صقلية قد خضعوا للبطريرك البيزنطي حتى فتح الكونت روجيرو للجزيرة.

ولن نؤكد أن الملك قد كرم نيلو دوكسوباترو بسبب هذا العمل التاريخي والديني، أكثر من تكريمه له بسبب ترجمته لسيبيللا اريتريا. وتسري في كل قرن، بعض الشطحات العقلية، سريان بعض الأمراض، ولا تسلم من ذلك بعض العقول العظيمة: ولدينا على ذلك مئات الأمثلة ما بين قديمة وحديثة: وكان روجيرو، مثلهم في ذلك، فقد اعتقد في العلوم الخفية. ويروي داندولو أن فلكياً إنجليزياً سيئ السمعة قد جعله بناءً على طلبه يعثر على عظام الشاعر اللاتيني فرجيليو في صخرة التل بالقرب من نابولي وأن روجيرو قد أمر بإيداعها في قلعة ديللوفو، على أمل منه أن يجبر روح فرجيليو بالتعويذات على أن تبوح له بقوة السحر الأسود(1). كما يشهد ابن الأثير على هذيان الملك هذا ويروي مشهداً حياً من مشاهد القصر الملكي في بالرمو. ذات يوم وبينما كان الملك يجلس مع خاصته في مقصورة بالقصر تطل على البحر شاهد سفينة عائدة من الساحل

---

(1) في كتاب موراتوري، *Rer. Italic.*، المجلد الثاني عشر، ص ٢٨٣.

الأفريقي وعلم منها أن جيش الملك قد قام بغارات دموية في ضواحي طرابلس. كان يجلس إلى جوار روچيرو عالم مسلم جليل، كان روچيرو يكن له احتراماً أكثر من أي رجل آخر بالقصر ويفضله على القساوسة وعلى الرهبان، حتى إنه قد انتشر خبر يقول إن الملك مسلم لا أكثر ولا أقل(1). وعندما ظهر أن العالم لا يعرف أخبار طرابلس الجديدة، فقد سأله روچيرو: هل فهمت؟ ولما رد عليه بالنفي، أعاد عليه الرواية مرة أخرى وسأله ضاحكاً: «أين كان إذن محمد عندما كان المسيحيون يهاجمون شعبه؟» أجابه الشيخ المسلم الجليل: «هل تريدني أن أقول لك بحق أين كان؟ - إنه كان يفتح مدينة أيديسا حيث كان المسلمون في تلك الساعة وفي ذلك الموضع يهاجمونها». وانفجر المسيحيون ضحكاً؛ غير أن روچيرو بعد أن استعاد جديته ووقاره قد نصحهم بألا يهزءوا بالموضوع، إذ أن ذلك الحكيم لم يقل شيئاً إلا وتحقق. وبالفعل، بعد بضعة أيام علموا بأن زنجوي، والد نور الدين، قد احتل إيديسا(2). ويحضرني الآن أن ذلك العالم الجليل لم يكن سوى الإدريسي نفسه.

ولم يكن ممكناً في مثل هذا البلاط أن يغيب عنه الشعراء العرب. وعلى الرغم من أن بعض المسلمين ومؤلفي المختارات الشعرية، قد حذفوا أبياتاً كثيرة كان يهمنا أن نقرأها، فإنه توجد لدينا مقتطفات من القصائد التي قدمها إلى روچيرو عبد الرحمن بن رمضان المالطي، والنحوي أبو حفص عمر وأبو الضوء سراج، وعبد الرحمن البوتيري، وابن بشرون المهدي، وعبد الرحمن الاطربنشي؛ وكان الاثنان الأولان، عندما تعرضا للاضطهاد، قد توسلا إلى الملك

---

(1) يؤكد الاتهام جوفريدو دا فيتربو (في كتاب كاروزو. *Bibl. Sicula*. ص ٩٤٧) قائلاً: *"Rogerius Paganus erat de more vocatus"*.

(2) *Annali*. عام ٥٣٩. النص في المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٨٨ وفي طبعة تورنبرج، المجلد الحادي عشر، ص ٦٦. انظر أيضاً ترجمة السيد رينو الفرنسية في *Extraits des auteurs arabes, etc. relatifs aux Croisades*. ص ٧٧.

يطلبان حلمه وعفوه؛ أما الشاعر الثالث فأراد مواساته فى وفاة ابنه؛ أما الشاعران الأخيران فيمدحان الملك الكريم ويصفان قصره الفخم وبساتينه والحياة الرغدة فى البلاط الذى اعتادوا التجول فيه، ويصفان الكؤوس المليئة بالخمر الأشهب وعزف العود الذى يصاحب صوت المغنين الذين يشبهون أشهر مطربى البلاط الأموى فى دمشق.

وتظهر عبقرية الحضارة التى تلألأت طوال حياة الملك روجيرو فى آثاره التى خلدها الزمن وهى: كاتدرائية تشيفالو، وكنيسة القصر فى بالرمو، ودير سان چوفانى دللى إريميتى فى المدينة نفسها، والمقابر المشيدة بالرخام السماقى فى كاتدرائية بالرمو وبعض النقوش العربية التى ورد فيها اسمه. وتوجد بقايا بعض المبانى الأخرى التى أقامها شاهدة على رشاقتها وعظمتها: وأقصد بها فيللا فافارا، أى فيللا مارى دولتشى وفيللا التاريللو دى بايدا، وكلاهما على أبواب بالرمو. ويروى لنا المؤرخون وتذكر الوثائق أخباراً تفصيلية عن آثار أخرى بنيت بناءً على أوامره، ومنها على سبيل المثال جانب من القصر الملكى فى بالرمو، ودير السلفاتورى فى مسينا واللذين تصعب مشاهدة آثارهما بين المبانى والمنشآت التى أقيمت فوقهما. ومن المؤكد أن روجيرو لم يبدع الفنون كلها التى ازدهرت فى صقلية منذ العصور الإسلامية ولكنه أعادها للحياة بعد أحداث الحرب وكان أول مشجع على إبداع غيرها: فالآثار الصقلية التى ترجع إلى النصف الأول من القرن تحمل بكل تأكيد بصمات عبقرية فذة استطاعت أن تجمع وترتب وتصلح، وتكشف لنا الزخرفة ونسبها الجميلة الجديدة وخفتها وثراؤها عن وحدة فكرية وإحساس بالجمال وشموخ النفس والكرم فى الإنفاق مما يؤكد على أن أول ملوك صقلية كان قوياً وعظيماً فى كل شئ.

الفصل الرابع

خلال فترة مُلك روجيرو، الطويلة، المليئة بالنشاط، تغيرت أحوال الجزيرة الاجتماعية عما كانت عليه فى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر. فمنذ منتصف القرن تقريباً، كانت الجزيرة قد امتلأت بالمستوطنين المسيحيين، كما ازدادت ثرواتها مع حركة التجارة مع افريقيا والحملات الصليبية: أما عن فتح أراضى البر الإيطالى، وما أحدثه من ردود فعل داخل الحكومة، فقد أدخل عناصر جديدة بالبلاط، الذى اصبح بالفعل جهازاً رئيساً بالدولة، نظراً للخدمات العامة التى كانت تتمركز فيه: لقد كان جهازاً عظيم الشأن، يتألف من أصول مختلفة جعلت المصالح المشتركة منها كياناً متجانساً: وعلى ذلك، وباستثناء بعض لحظات من الغيرة، كان يتآخى فيه كبار الأساقفة مع المعتوقين المسلمين، ورجال الإكليروس القادمون من وراء الجبال مع بورجوازيى منطقة بوليا، والقادة الفرنسيون مع قراصنة مسينا اليونانيين. وما أن غابت يد الملك الثابتة، تلك، حتى أخذت الأطراف الجديدة فى التفكك. وسواء كان هناك دافع أم لا، فقد أخذ نظام الإمارات الصغيرة يحاول استعادة سلطته بالبر الإيطالى، وإحداث التغيرات فى صقلية أيضاً. وأراد البلاط ان يتمسك تحت اسم جوليلمو، بالسلطة التى كان يمارسها تحت حكم روجيرو. وكان ان تمسك به المسلمون، وكذلك أقدم الأجناس ممن سكنوا الجزيرة، وفى كل المملكة تمسك المواطنون الباحثون عن الأمان والحرية بالبلاط: إلا أن البارونات أيضاً، كان لهم مناصرون فى المدن، يتميزون أحياناً بمشاعر الحقد الذى يشتعل دائماً تجاه الحكومة وما يمكن أن تحبطه من مصالحهم. كما أن شعوب المدن الكبيرة ومعهم أهل الجبال من اللومبارد، كانوا ينحازون لنظام

الإمارات، كرها للمسلمين، وطمعاً فى أموالهم. هذه الأدوار التى تبدلت ملامحها، كما يحدث أحياناً، تظهر بشكل واضح فى تراجيديات جوليلمو الشرير؛ وفى مشاهدها الهزلية التى كان «الطيب» من مشاهديها؛ بل إن الحدث لابد أن ينسب لهما وليس لشخصيات القصور، التى رسمتها يد فالكاندو القديرة بما بها من جمال الفن القديم وعيوبه.

وفى الخارج كانت المملكة الصقلية تعانى صراع أعدائها الثلاثة المعتادين؛ وكان من حظها أنهم ما كانوا يتفقون فيما بينهم، وما كان كذلك يستمر اتفاق بين اثنين منهم. فقد سارع البابا، الذى لا يأخذ أبداً العبرة، وانتهز فرصة المملكة الجديدة، ليحاول مرة أخرى الاستيلاء على إيطاليا الجنوبية. وطمع فدريكو بارباروسا هو أيضاً فى تلك الأقاليم البعيدة؛ فعاد يطلب القوات البحرية من جنوة وبيزا، وهما عدوتان للمملكة، بسبب المصالح التجارية؛ ولكنه لم يخلص إلى شئ. أما عن البيزنطيين فقد كانوا مستعدين للهجوم على بوليا. ومن بعيد كان الموحدون يمثلون خطراً على المكاسب الأفريقية. كما أن الحرب ضد الفاطميين بمصر كانت تشتعل فى تلك الأثناء ولا نعلم فى أية سنة أو لأى سبب بالتحديد؛ وأعتقد أن ذلك كان بعد موت روجيرو، ولعل التجارة كانت الدافع لها؛ إذ يتجه فكرنا نحو أهل بيزا وما كانوا يحظون به من ثقة القاهرة فى ذلك الوقت حتى إنهم ربما عملوا على إلغاء الامتيازات التى كانت محل اتفاق من قبل، مع التاج الصقلى*(1)*.

كان جوليلمو انساناً جافاً، قاسياً، متكبراً ومقتراً. أما مايونى دا

---

(1) سوف أترك الاستشهادات جانباً، باعتبارها عنصراً كمالياً، فيما عدا ما يخص هذا الخلاف مع مصر. انظر ما سبق وذكرت بالفصل الثانى، من كتابى هذا، ص ٤١٢، والإشارات التى وردت فى *Diplomi arabi del reale Archivio fiorentino*، المقدمة، § ٣٠، الوثائق ٢، ٣، ٤، ٥ من المجموعة الثانية، والملاحظات الخاصة بها، من ص ٤٥٢ إلى ٤٥٨، عن علاقات بيزا مع مصر فى ذلك الوقت.

بارى، الذى دفعه والده إلى أكبر المناصب العامة، حتى أصبح وزيراً عند تنصيب الملك الجديد، فلم يكن رجل السياسة الحصيف الحكيم، كما وصفه رئيس أساقفة سالرنو، ولا ذلك الأخرق المخرب، كما وصفه فالكاندو. ويبدو لى أن البلاط قد تجسد فى شخص ذلك الرجل بكل ما فيه من رذائل: وشهادة المسلمين، التى لاشك فيها، تؤكد لنا أن الراى العام قد أرجع إلى شره وشر الملك كل القلاقل التى بدأت المملكة بها(1). اشتعلت ثورة الإقطاعيين فى البر الإيطالى (١١٥٥)؛ وسرت عدواها فى صقلية: حيث أخمدها الملك بنفسه، بالسلاح والتسامح؛ وفى غير إنسانية أخمدها (١١٥٦) فى كلابريا وبوليا، حيث زاد الغزو البيزنطى من وطأتها، بالإضافة إلى هجوم البابا ومكائد بارباروسا. وتم طرد البيزنطيين؛ وهزموا بعد ذلك فى معركة بحرية(2) كبيرة فى نيجروبونتو (صيف عام ١١٥٧):

(1) ابن الأثير، سنة ٥٤٧، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص ص ٣٠٠.

(2) تحديداً للاستشهادات كما سبق وذكرت، أذكر فى هذا المقام ما يخص منها معركة نجروبونتو، التى لم تتحدد ظروفها جيداً حتى الآن. وقد تحدث عن هذه المعركة كل من نبتشينا كونياتى وتشينامو، فى كتاب كاروزو *Bibl. sicula* ص ١١٦٣ و١١٧٦؛ كما ذكرت بتتمة سيجيبرتو دا جيمبلو وروموالدو سالرنيتانو، فى كتاب برتز، ***Scriptores***، المجلد السادس ٤٥٥ والتاسع عشر ٤٢٩، ولدى مرانجونى فى ***Archivio Storico italiano***، المجلد ٦، الجزء الثانى، ص ١٨. وقد أهمل البيزنطيون، كما هى عاداتهم، ذكر تاريخ حدوثها؛ أما عن روموالدو فلم يذكره بشكل محدد؛ بينما تحددها تتمة سيجيبرتو (التى ينسبها كاروزو، المرجع المذكور، ص ٩٥١، إلى روبرتو دل مونتى) وترجعها إلى عام ١١٥٤. كما تضيف تفاصيل أخرى لظروفها، ذكرها أيضاً تشينّامو، وهى أن الأسطول الصقلى كان عائداً، بالتحديد من مصر، محملاً بالغنائم. والآن وقد علمنا من المقريزى أن الإغارة على مصر قد حدثت فى أغسطس سنة ١١٥٥، فإنه يتضح لنا، منذ الوهلة الأولى، أنه من الواجب الاعتماد على التوقيت المذكور بالتتمة، مع فارق عام واحد. أما عن مرانجونى، الذى حدد المعركة فى سنة ١١٥٨ بتقويم بيزا، فهو يؤرخ لحرب جوليلمو الأول بالأدرياتيك ولمعركة نجروبونتو هذه، ويورد تفاصيل لها من الكثرة والدقة تدلل على أن سادة بيزا كانوا يضعون تحركات الأسطول الصقلى نصب أعينهم. ومن ناحية أخرى فإن جميع الروايات تحمل على الاعتقاد بأن معركة نجروبونتو لم تقع فى بدايات الحرب وإنما فى نهايتها. ومع ذلك فإنى أرى، مع مرانجونى، بتحديد التاريخ بعام ١١٥٧. إن ذكرها متزامنة مع جلب الغنائم من مصر، يمكن تفسيره جيداً، إذا افترضنا وقوع هجمتين أو أكثر من جانب الأسطول الصقلى، ذكر منها المؤرخون

ومن بعدها وقع جوليلمو اتفاق سلام مع كومنينو (١١٥٨). كما حصل على السلام، قبل ذلك مع البابا، مقابل انتصاراته (يوليو ١١٥٦). وقد قام الأسطول من قبل، فى جمادى الثانية سنة ٥٥٠ هـ (أغسطس ١١٥٥) بأعمال تخريب فى دمياط، وتنّيس ورشيد والاسكندرية، وعاد محملاً بغنائم من الذهب والفضة والثياب القيمة(1). كما تذكر الأخبار أن المصموديين استطاعوا فى هذه الآونة، سلب حصن بوتسوولى، ولكن السفن الملكية استطاعت اللحاق بهم وقبضت عليهم وقطعت أشلاءهم(2). وبهذا استطاعت قوات جوليلمو الانتصار فى كل مكان. ولا يبدو أنه أضاع هباء، ذلك المال الذى أنفقه لكى يقطع الطريق على فدريكو، الذى كان آتياً، بغية أن يُتوج فى روما. ويحكى أوتون دى فريزنجن عن الاضطرابات التى ثارت يوم التتويج ذاته (١٨ يونيو ١١٥٥)، فيكتب أن جنود الامبراطورية كانوا يصرخون وهم يهاجمون الرومان: «خذوا هذا الحديد الألمانى فى مقابل الذهب العربى! هذه هى الهبة التى يعطيكم إياها سيدكم. وها هو كيف يتحصل الفرنجة على الامبراطورية»(3). وإذا صح تخمينى فالذهب

المصريون هجمة واحدة فقط، أى أشد الهجمات. وبالأسلوب نفسه يمكن تفسير خطأ التوقيت الوارد بالتتمة. فقد يكون المؤلف قد اطلع على الهجمة الكبيرة على مصر فى ١١٥٤ أو ١١٥٥. وعلى الانتصار البحرى الكبير على اليونانيين، فى طريق العودة من مصر، وظن أنهما وقعا فى التاريخ نفسه.

(1) المقريزى، **المواعظ**، نص بولاق، المجلد الأول، ص ٢١٤. علاوة على ذكر المؤلف لسنة وشهر وقوع الحدث، فإنه يذكر أن اسم الخليفة كان حينئذ الفايز، والوزير طليع بن رزيق، ومن المعروف أنه بدأ ممارسة مهام منصبه فى ١ يونيو ١١٥٤. انظر أيضاً **تتمة** سيجبيرتو، التى ذكرتها تواً، والتى يتضح أن بها معلومات دقيقة عن أحداث مصر فى تلك الفترة، وأخيراً فإن الرسالة التى حررها ذلك الوزير إلى حكام بيزا، ويمكن الإطلاع عليها ضمن الوثائق فى *Diplomi del regio Archivio fiorentino*، رقم ٥، من المجموعة الثانية ص ٢٥٢، وترجع فيما يبدو لعام ١١٥٦، تتحدث بوضوح عن هجمة حديثة قام بها الصقليون على مدينة تنيس.

(2) **تتمة** سيجيبرتو، الموضع السابق. إن المصموديين كان يطلق عليهم اسم الموحدين، نسبة إلى اسم القبيلة التى ظلت تهيمن على تلك الطائفة الدينية. والقائمون بالهجوم كانوا، بالتأكيد، قراصنة أسبان أو من سواحل أفريقيا، غرب بجاية.

(3) *Gesta Friderici*، الكتاب الثانى، الفصل ٢٢.

العربى الذى كان جنود الامبراطور يلمنونه ويبحثون عنه فى شراهة فى جيوب أهل روما، كان يتمثل فى عملات التارى الذهبية التى سكها أمراء صقلية فى ذلك الزمان بما عليها من كتابات عربية: وكانت عملة جميلة ومريحة وواسعة الانتشار آنذاك فى إيطاليا الجنوبية. واقع الأمر أنه ما بين حركة روما، وقلة المواد الغذائية والوباء الذى تفشى، اضطر جيش الامبراطورية إلى الرجوع على عجل إلى المانيا بدلاً من أن ينزل إلى بوليا.

وبينما كان جوليلمو يثبت أقدامه على العرش بهذه الطريقة، فَقَدَ فتوحات والده فى أفريقية. فسرعان ما ظهرت فى تلك الولايات آثار الحكم السئ: فأخذت الحاميات المسيحية تثقل على المسلمين. وكان أبو الحسن حسين الفرّيانى، وهو شيخ من فقهاء صفاقس، يعيش فى بالرمو منذ ثمانى سنوات، وكما تحدثنا عنه(1) قبلا، كان قد عين لحكم أرضه عاملاً لملك صقلية، وقد طلب استبداله بشخص ابنه عمر، كما أنه قدم نفسه رهينة فى يد المسيحيين. وكان يعرف فى ابنه رجلاً كريم النفس، قوى العزيمة. ولدى سفره من صفاقس إلى صقلية، أوصاه قائلاً: «انظر، لقد صرتُ شيخاً، واقتربتُ من القبر: وإن نفس الحياة هذا الذى تبقى لى، أريد أن أهبه كله للمسلمين. فما أن تأتيك الهمة انهض أنت ضد العدو المسيحى؛ حطمه دون أية اعتبارات أخرى؛ واحسبنى مت من ذى قبل». ولما عرف ببغى المسيحيين وظلمهم فى صفاقس، ولما رأى أحوال بالرمو عن قرب، كتب فريانى إلى ابنه أن الساعة قد حانت:

---

(1) الفصل الثانى، من هذا الكتاب، ص ٤٠٥ و٤٠٦. إن العلامة البارون دى سلان، قد كتب فى ترجمة ابن خلدون، *Hist. des Berbères*، الحواشى بالجزء الثانى، ٥٨٧، كتب غاريانى *Ghariani*. ذلك بعد أن كتبه فى ص ٢٧، ٢٨ فى الجزء ذاته فريانى. ورغم عظم اسم هذا المرجع الشهير، فإنه يبدو لى أنه من الأفضل التمسك باسم فُريانى الوارد بالمخطوطات سالفة الذكر. وذلك بتشديد الحرف الثانى، ذلك حسبما نقرؤه فى لب اللباب، الجزء الأول ص ١٩٦ وفى مراصد الإطلاع. إن هذا الاسم العرقى يرجع إلى اسم فُريانة، وهى قرية بالقرب من صفاقس.

وأن يعتمد على الله ويستعيد حقوق المسلمين.

وذات ليلة أرسل عمر يدعو المواطنين؛ وحثهم على حمل السلاح؛ وأن يأخذ البعض منهم فى حراسة الأسوار، وأن يجرى البعض الآخر إلى ديار الفرنجة وجميع المسيحيين وأن يذبحوهم. فسألوه: «وسيدنا الشيخ، والدك ماذا سيكون مصيره؟» فرد عليهم عمر «هو نفسه أمرنى بذلك وإن سقط مع الشيخ ألف وألف نصرانى، فلن يموت، هو لن يموت»(1). ولما طلعت الشمس كانت المذبحة قد نفذت ولم ينج منها مسيحى واحد. وكان ذلك فى أول أيام سنة ٥٥١ هـ (٢٥ فبراير ١١٥٦).

وحينما وصل خبر هذه الأحداث إلى بالرمو، أرسل الملك يدعو فريانى؛ وانذره بأن يكتب إلى عمر حتى يعود إلى الطاعة إن كان يريد أن ينقذ حياة ابيه. فأجابه الشيخ فى هدوء: «إن من تجاوز هذا الحد لن يعود إلى الوراء استجابة لكتاب». فحُبس فى السجن والأغلال بقدميه، وأرسلت للمتمردين رسالة تتضمن تهديدات ووعود. ولما وصل المبعوث إلى صفاقس لم يسمحوا له بالنزول إلى البر يوم وصوله. ولما جاء صباح اليوم التالى، سمع من السفينة جلبة فى المدينة: ورأى باب البحر ينفتح ويخرج منه الناس فى موكب وهم يصيحون: «الله أكبر. لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وكانوا يحملون على أكتافهم نعشاً. ووضعوه أرضاً؛ فتقدم عمر نحوه، وتلى صلاته؛ وجعلهم يدفنون *النعش: والتف* الجميع حوله، كما هو متبع فى الجنازات، ثم انفضوا عنه شيئاً فشيئاً. وإذ كان المبعوث بجوار الحراس كى يصطحبوه إلى عمر، قالوا له: «إن الشيخ مشغول فى الجنازة. فقد دُفن لتوه والده. ذلك الذى كان بصقلية. أخبر بما رأيت، وليست هناك حاجة إلى إجابة أخرى». ولم يمض وقت طويل حتى كان فى بالرمو التنكيل بشبيه أتيليو ريجولو المسلم. فقد رفعوا المشنقة

(1) لم اضف اى شئ من عندى فى كل هذه الرواية.

على ضفاف وادى عباس، وهذا هو اسم ناحية أوريتو لدى المسلمين، التى تتطابق تماماً مع سهل سانت إيرازمو، وهى منطقة تكتظ الآن بالمصانع والحدائق، وكانوا فى الماضى ينفذون فيها أحكام الإعدام؛ وأشعلوا فيها آخر حرائق محاكم التفتيش فى القرن الثامن عشر. وبعد أن أساء الجلادون معاملة أبى الحسن، جرّوه إلى المشنقة، وكان يقرأ القرآن فى سكينة وثبات، ومات والكلمات المقدسة بين شفتيه(1).

وعلى غرار ما حدث فى صفاقس ثار سكان جربه وكركينى، حيث كانوا يعانون هم أيضاً(2). وتأخرت طرابلس فى ذلك بعض الشئ، سواء لأن الحامية كانت أكثر يقظة، أم لأن الطائفتين اللتين تحدثنا عنهما آنفاً لم تستطيعا الاتفاق فيما بينهما. وبدأ الأمر بمسألة شرعية. فبأمر بالرمو، كما يمكن أن نتصور، كان قائد الحامية يريد أن تخرج من منابر المساجد خُطباً ضد الموحدين، الخارجين، المغتصبين، وأسوأ من ذلك أن وصفهم بالجبابرة، المشتبه فى أعمالهم فى طرابلس. وكان المواطنون يردون على ذلك بأنه طبقاً للمواثيق، فما من أحد يجبرهم على ما هو مخالف للإسلام؛ وهو التشهير بغيرهم من المسلمين، حتى إن كانوا أصحاب مذهب مختلف. وقام الفقيه الذى كان يتولى الحكم(3)، بإبلاغ القائد بهذه الدوافع والأسباب؛ وختم كلامه بأنه إن لم يقتنع بذلك الرأى، فإن شعب طرابلس سوف يترك المدينة ويذهب مع الله. وقبل الصقلى المبرر. أياً كان رأيه فيه، وأخذ حذره؛ وانتقل المسلمون من الكلام إلى العمل. وكان حاكم الأرض يحيى بن مطروح، ذلك الذى نسج مع أعيان البلد مؤامرة الهجوم على الحامية، فى ليلة قمرية، لكى يخرجوهم من

---

(1) انظر ابن الأثير، سنة ٥٥١؛ والتيجانى وابن خلدون، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٣٠٠ وما يليها، ٢٨١ وما يليها، ٤٩٠ و٥٠٢ و٥٠٤.

(2) ابن الأثير، الموضع السابق. مع ذكر ما سبق وقلناه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ص ٤١١ و٤١٢ من المجلد، حول الظروف التى تُركت فيها جزيرة جربه سنة ١١٥٣.

(3) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٤٩٦ من المجلد.

الحصن. ويوقموهم فى الفخاخ. ولما حانت الساعة، قاموا بنصب قطع الخشب والحبال بالطريق، ثم أحدثوا ضجيجاً . حينئذ حمل جنود الحامية سلاحهم فى الحال، وامتطوا خيولهم، وتوجهوا صوب الزمرة: وحينئذ أخذت الخيول تتعثر، والتفّت ارجلها فوقع راكبوها فى يد الثوار دون أن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم. وهكذا استطاعت مدينة طرابلس أن تنفض عن نفسها النير سنة ثلاث وخمسين (٢ فبراير ١١٥٨ إلى ٢٢ يناير ١١٥٩) وظل يحكمها، يحيى بن مطروح ذاته(1). وكما حدث فى صفاقس وفى طرابلس حدث أيضاً فى قابس، حيث ثار الحاكم الذى عينه ملك صقلية، وكان اسمه محمد بن رشيد(2). أما عن الموحدين فبعد احتلال بونه، أخذوا يمتدون غرباً حتى تونس(3). وبقيت لتاج صقلية مدينة المهدية فقط، ومعها ضاحية زويلة وسوسة(4).

ومع أولى حركات الانتفاضة أرسل عمر الفرياني رجالاً يشعلون الثورة فى زويلة. حتى يصبح المسيحيون مهددين فى مركز قواتهم. وكان العرب مع جيرانهم على استعداد للجرى وراء أية غنيمة يشتمون رائحتها؛ ويبدو أنه بقى القليل من مسيحيى زويلة على قيد الحياة. أو ربما لم يبق منهم أحد. كان من السهل إذاً على الناس أن يصيحوا: «الموت للروم» وأن يحاولوا القيام بضربة فى المهدية ذاتها، فى شهر

---

(1) انظر التيجانى وابن خلدون فى المكتبة العربية - الصقلية. النص ص ٢٨٩ و١٨٩ و٥٠٤ . وابن الأثير. فى الموضع المذكور. يذكر تمرد طرابلس، دون تاريخ، ودون تفاصيل أخرى: إلا أنه يقول إنه حدث بعد حركة صفاقس وقبل ثورة قابس. يكتب ابن خلدون أن رجال طرابلس وهم يهاجمون المسيحيين «كانوا يحرقونهم بالنار». واعتقد أن النار كانت ضمن الخطة مثلها مثل الحبال والموارض الخشبية. وليست ناراً لإعدام الأسرى. لأن عادات المسلمين لم تعرف مثل هذه القسوة.

(2) ابن الأثير. الموضع المذكور، وابن خلدون ص ٥٠٤ سالفة الذكر.

(3) ابن الأثير، الموضع المذكور، وص ٢٠٤ . إن هذا الفصل من الحوليات، حتى لو وضع تحت عام ٥٥١، فهو يحتوى على أحداث لاحقة. مثل أحداث طرابلس، التى حدد كتاب اخرون تاريخها الصحيح.

(4) ابن الأثير. الفصل المذكور، ص ٢٠١.

شوال سنة واحد وخمسين (١٧ نوفمبر ـ ١٥ ديسمبر ١١٥٦)، وحتى إن فشلت تلك الحركة، فقد ظل الثوار فى زويلة بمساعدة ثوار صفاقس والأراضى الأخرى وبمساعدة العرب أيضاً، حيث كانوا يمنعون الإمدادات التى كانت تجئ من ناحية البر إلى الحصن. وحينئذ أرسل جوليلمو عشرين شانية وبها تعزيزات من الرجال والسلاح والمؤن؛ وبذلك استؤنفت الحرب مرة أخرى. ويقول المسلمون إن قائد صقلية قام برشوة العرب، حتى إنه حينما خرجت الحامية للقتال، فروا تاركين رجال زويلة وصفاقس وسط المعركة. ومهما كان السبب فقد أمكن محاصرة المسلمين وهزيمتهم. وأريقت حينئذ دماء كثيرة. أما عن رجال صفاقس فقد فروا بالسفن التى كانت مُعَدة على الشاطئ، لذا نجا منهم الكثيرون، وأما رجال زويلة ذاتها فلم يعثروا على ملجأ لهم فى الضاحية، وقد أغلقت دونهم أبوابها. وسقطوا هناك وهم يقاتلون: بينما كان الشيوخ والنساء والأطفال يحاولون النجاة قدر استطاعتهم. سواء عن طريق البحر أو البر. ولكن الوقت لم يتسع للجميع. وما أن اجتاز المنتصرون ذلك السور الضعيف حتى لم يعفوا عن أحد أيا كان جنسه أو عمره، ونهبوا وخربوا كل شئ. وحدث هذا الخراب سنة اثنين وخمسين (١٣ فبراير ١١٥٧ إلى ١ فبراير ١١٥٨). ويبدو أن شبه الجزيرة من المهدية إلى سوسة وربما أيضاً فى امتدادهما ناحية الغرب نحو رأس بونه، يبدو أنها عادت حينئذ تحت سلطة جوليلمو؛ لأن كتاب الحوليات من المسلمين يقولون إن الصقليين ظلوا صامدين فى المهدية من ذلك العين حتى حصار عبد المؤمن[1]؛ كما يكتب روبرتو دال مونتى أنه فى سنة ألف وسبع وخمسين، وما أن استولى أسطول جوليلمو على

(1) انظر ابن الأثير، الموضع المذكور؛ وابن خلدون، النص فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٠١ **والبيان** فى المجموعة نفسها ص ٣٧٤، وهو يحدد فقط تاريخ قيام الثورة ضد المسيحيين فى المهدية وتاريخ استعادة زويلة. وهما تاريخان غير موجودين فى رواية ابن الأثير الذى يحكى عن ثورة زويلة قبل واقعة تعذيب القُرياني؛ ولكنه من غير الواقعى أن يؤجل جوليلمو انتقامه ذلك لمدة عام وبضعة أشهر.

سيبيلاً، عاصمة جزيرة جركس، حتى عمل الملك على أن يستقر المسيحيون فيها، ووضع على رأسهم كبير أساقفة(1). ومن هذه الإشارة يبدو أن هذه الأراضي، وعلى وجه أخص زويلة، كانت مكان تجمع السكان من المسيحيين الذين طردتهم الثورة من الساحل الشرقي وطردهم حكم الموحدين من الساحل الغربي. واسم كبير الأساقفة غير معروف، كما أننا لا نعرف ما إن كان كاتب الخبر قد ذكر رتبته بالضبط: مع أنه لا يبدو لي مستبعداً أن يكون بلاط بالرمو قد عين مطراناً في ممتلكاته في أفريقيا، ذلك لأن ما كان يمكن أن يقوم من تنازع بين الملك والبابا على هذه الرتبة لم يعد له وجود مع حكم صقلية في تلك الأنحاء(2).

---

(1) في كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٩٥١، بتاريخ سنة ١١٥٨ وفي كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد السادس، ٥٠٦، بتاريخ ١١٥٧. وفي أول هذين الكتابين ورد اسم الجزيرة المفترض أن عاصمتها سيبيلاً *Sibilla*، زويلة *(Zawila)* ورد مكتوباً جركس بينما ورد في الثاني جِرب، وهو الشكل الذي اعتقد أن الناشر العلامة قد فضله، إذ وجده قريباً من اسم جربه، وهي الجزيرة التي رأى أنها المقصودة في الرواية. وأنا أرى أن لفظ جزيرة في هذا المقام يقصد به شبه جزيرة (إن العرب لديهم لفظ واحد للتعبير عن كلا الشكلين من الأراضي)، كما أرى أنه من الأفضل الأخذ بجركس، حيث إنها تقترب أكثر من شريق، وهو اسم شبه الجزيرة التي تفصل بين خليجي تونس والحمامات، ويطلق عليها اليوم اسم الدخل. ولكن عرب العصور الوسطى كانوا يسمونها، تارة، شريق، وهو اسم مأخوذ من اسم علم، وتارة أخرى باشو *Bàsciu* *(Basso?)* وهو اسم العاصمة. وليس من المعقول أن يكون الصقليون قد استعادوا شبه الجزيرة هذه في ذلك الوقت، وإنما يبدو أن المهدية أو زويلة كانت تعد حينئذ بمثابة عاصمة دولة صغيرة تتخذ اسم شبه الجزيرة المجاورة. كما يبدو لي أنه طالما أن الصقليين كانوا يبسطون سيادتهم على المهدية وعلى سوسة، فقد كانوا كذلك سادة جزء من الساحل، وعلى الأخص شبه الجزيرة الصغيرة موناستير، على امتداد المهدية. انظر طوبوغرافية هذه الأماكن، الإدريسي، طبعة السيدين دوزي ودي جويج، ص ١٠٨، ١٠٩، بالنص، وص ١٢٦ ـ ١٢٨ بالترجمة. يقول الإدريسي إن الثلاث قرى أو قصور موناستير كان يسكنها رجال الدين، وهو ما يمكن استنتاجه من جانب آخر من ذلك اللفظ (لفظ موناستيرو *Monastero* يعني دير للرهبان).

(2) أولاً، لا يبدو لي من شك في أن ملك صقلية كان يرى حينئذ أن تاجه يتضمن حق تأسيس كراسي أسقفية، على غرار ممارسات الأباطرة البيزنطيين. ويجب ملاحظة تأسيس أسقفية تشيفالو ولقب رئيس أساقفة صقلية، الذي منح لرئيس أساقفة بالرمو في إحدى وثائق الملك روجيرو، في كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٥، ٩٦.

وفى هذه الأثناء لم يُبد الموحدون استياءهم وهم يرقبون عبد المؤمن وهو يغير دستور الدولة: أى بعد أن كان رئيساً اختاره أشراف المصموديين، جعل من نفسه ملكاً مطلقاً متوارثاً. وهو الغريب عن القبيلة؛ وأخذ ينتزع حكم الدويلات من رؤساء المصموديين ليعهد بها إلى أبنائه. وجاءت ضربته فى هدوء، دون إراقة فورية للدماء(1). وما كان يفوته التفكير فى أفريقية. لذا استضاف فى بلاطه الحسن، سيد المهدية؛ وأخذ يبحث معه ظروف تلك البلاد لمدة عشر سنوات؛ ويحكى أنه عندما ذهب التعساء الناجون من زويلة إلى مراكش ليطلبوا منه الثار لهم، ساعدهم بالمال، وأنصت إليهم والدموع تملأ عينيه ومكث برهة، ثم رفع رأسه وقال: «تجلدوا. سوف أساعدكم؛ ولكن يجدر الانتظار». وبعد أن قام بتنظيم شئون الحكم كما أراد، أخذ يستعد لمدة ثلاث سنوات للحرب. أى لحرب كبيرة وبعيدة المدى، وضرورية ليس فقط لطرد المسيحيين من المهدية، ولكن كذلك لقمع كل أولئك الحكام أو رؤساء البربر. وقبائل العرب تلك التى تقوم بأعمال السلب والنهب. ويعيشون منذ أكثر من قرن من الزمان دون رادع لهم، بين تونس وبرقة. وعن تلك الاستعدادات يمدنا كتاب الحوليات بتفاصيل عديدة، استخلصوها فيما يبدو من ابن شدّاد، الذى كان موجوداً (١١٥٩) فى معسكر الموحدين تحت أسوار

ثانياً، يجب أن نتذكر أنه، طبقاً لإحدى العادات القديمة، فإن مطران بالرمو فى كل عام، حينما يذكر معاونيه رسمياً، كان يذكر فى المعتاد من بينهم أسقف طرابلس أفريقيا. انظر فى ذلك بيرّو. المرجع المذكور ص ٢١.

كما يجب أيضاً أن ننظر بعين الاعتبار إلى أن من بين وثائق كنيسة القصر ببالرمو، وفى سجلاتها، ص ٣٤ وما يليها. وتحت رقم ١٥، ترد قائمة حصر أثاث كنيسة أفريقية، وفيها نقرأ أن جزءاً منه كان على نفقة رئيس الأساقفة. ومن جانب آخر فإن وجود تلك القائمة فى كنيسة القصر (*Cappella Palatina*). أمر يمكن أن يشير إلى أن كنيسة أفريقية كانت تبغى تهيئتها للكاهن الأكبر أو تشير على الأقل إلى أنه يقوم بالحفاظ على ذلك الأثاث، الذى يعد جزءاً من ذلك الصرح الملكى.

(1) ابن الأثير، ٥٥١، نص تورنبرج، الجزء ١١ ص ١٣٩، ١٤٠. انظر القرطاس، ترجمة تورنبرج ذاته، المجلد ١، ص ١٧٠ إلى ١٧٣؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة دى سلان، المجلد الأول، ٢٥٤ وما يليها. والمجلد الثانى، ١٧٢ و١٩٠ وما يليها

المهدية، وكان فى بالرمو(1) قبل ذلك بثلاث سنوات.

يروون إذاً أن عبد المؤمن أمر بصنع ما لا حصر له من أزقاق الجلد للماء، وما لا يعد من القرب والمعالف؛ وأمر بحفر آبار على طول الطريق المحدد لمرور الجيش، وأنه بناء على أمره تم حصد الحصاد فى تلك الأقاليم دون تذريته وذلك لمدة ثلاث سنوات، وكومت الأكوام وغطيت بالطين حتى كانت تبدو كأنها تلال كثيرة؛ كما أنه تجمع من أسبانيا وأفريقية، أسطول قوامه ٧٠ شانية، دون إحصاء السفن الحربية الأخرى والقوارب، وعهد به إلى محمد بن عبد العزيز ابن ميمون، وهو سليل عائلة مشهورة من المحاربين فى البحر كما كتب ابن شداد(2)؛ وكان عدد الجيش يبلغ مئة ألف محارب ومثلهم من جامعى الأسلاب؛ كما حكوا أنه أثناء الزحف حينما كان الرجال يمرون بالمواقع المزروعة، ما كان أحد منهم يجرؤ على التقاط سنبلة قمح؛ وحينما يقومون للصلاة خلف الإمام يصيحون وكأنهم رجل واحد «الله أكبر». إن هذه الروايات تشهد بمدى الانبهار الذى أثاره، فى أفريقية، ذلك المشهد الجديد الذى يتمثل فى جيش هائل، جيد التنظيم والإعداد. وتحركت طليعة الجيش من مراكش فى أواخر عام خمسمائة وثلاث وخمسين (يناير ١١٥٩): وفى صفر عام خمسمائة وأربع وخمسين (٢٢ فبراير إلى ٢٢ مارس من العام نفسه) كان الجيش قد عبر باكمله تقريباً(3).

---

(1) إن إقامة ابن شداد ببالرمو سنة ٥٥١ هجرية. ورد النص عليها بالنويرى، فى موضع ترجمه م. روسو دو سانت إيلار إلى فرنسية، *Histoire d'Espagne*، المجلد الثالث (باريس ١٨٢٨) *Pièces justificatives*، رقم ٤، ص ٥٤٤. إن هذا الجزء الذى قام بترجمته م. فانسان، واخذه من مخطوط عربى بباريس، لم يذكر اسمه. يتضمن نادرة لعبد المؤمن ذكر كاتب الأخبار ان حكاها له احد تجار المهدية المسلمين، حين تقابل معه عام ٥٥١ فى العاصمة الصقلية.

(2) لدى التيجانى، الذى ذكرناه سابقاً. فى الفصل الأول، ص ٣٦٧، فى الهامش. إن الحلل الموشاة يذكر اسم عبد الله بن ميمون.

(3) قارن بين: ابن صاحب الصلات: وابن الأثير، عام ٥٥٤؛ المراكشى: وابن خلدون،

وفى البداية هاجم عبد المؤمن تونس (مايو ١١٥٩)؛ حيث وجد مقاومة، ولما كانت القوات البحرية لم تصله بعد، ذهب إلى القيروان وإلى سوسة، ودخل صفاقس، ثم عاد مرة أخرى إلى تونس (١٣ يوليو)، وهاجمها فى قوة أجبرتها على الاستسلام: وبعد ذلك ابقى على حياة الجميع، وطرد أحمد بن أبى خراسان، وترك الممتلكات لقلة قليلة من المواطنين، وانتزع من الآخرين نصف ممتلكاتهم الثابتة وغير الثابتة: أما عن اليهود والمسيحيين فقد خيرهم بين الإسلام أو الموت: ومن لم ينكر دينه تم قتله. وبعد ذلك بثلاث أيام هبطت هذه القيامة الرهيبة على المهدية: التى ضاق عليها الخناق بحراً وبراً(1).

وبعد أن أخليت زويلة مع اقتراب جيش بذلك الحجم، تحصن المسيحيون فى القلعة، ومعهم، فيما يبدو، بعض المسلمين حيث نقرأ أن كان من بينهم الأمير الزيرى يحيى بن حسن بن تميم(2). وكان يعمل فى الحامية صفوة شباب المملكة من حيث نبل أعراقهم وببسالتهم(3)؛ وكان عدد المحاربين يصل إلى ثلاثة آلاف، حسبما ذكر أحد المؤلفين الذى أراه مطلعاً(4). أما عن موقع المهدية وقلعتها فقد تحدثنا عن ذلك فى موضع آخر: فأسوارها ضخمة جداً حتى يمكن أن يجرى بها اثنان من الجياد متجاورين، وكتب آخرون ستة جياد: ويمكن دخولها من ناحية البر عن طريق باب واحد وبرزخ ضيق ومؤمّن

المكتبة العربية ـ الصقلية، النص ص ١٩٧ و٢٠٢ و٢٠٤ و٢١٩ و٥٠٤. لا أستشهد بالنويرى، لأنه فى هذا الموضع، ينقل من ابن الأثير كلمة بكلمة. وهؤلاء الكتاب ليسوا متفقين فى تحديد زمن التحرك من مراكش ويفهم هذا جيداً.

(1) حسبما يذكر البعض فقد بدأ الحصار فى ١٨ رجب (٥ أغسطس ١١٥٩) وبالنسبة للبعض الآخر فهو يرجع ليوم ١٢ يوليو.

(2) المراكشى.

(3) ابن الأثير والمراكشى، إلخ. يقولان أيضاً أبناء ملوك، ولكن كان يقال أيضاً أبناء إقطاعيون كبار كما لاحظنا فيما سبق. ولا أرى داع لإعطاء اهتمام كبير لذلك الموضع الذى ذكر فيه المراكشى وهو مؤلف من القرن الثالث عشر، جنود الحامية وأطلق عليهم اسم «رفاق الدوق».

(4) المؤلف مجهول الاسم صاحب الحُلل الموشاة.

تأميناً جيداً: أما من ناحية البحر فإمكاناتها للدفاع واستعدادها للهجوم كانت رهيبة، حيث لا يستطيع أحد أن يرى من الخارج تلك الشواني الراسية بالترسانة، والتي كانت تخرج فجأة من ثغر الميناء وهي مجهزة مسلحة(1). وفي مقابل هذا كان عدد رجال الحصار مخيفاً. وفي لحظة وصولهم الأولى، صارت زويلة بعد أن كانت خاوية، مثل عاصمة كبيرة. هكذا كتب المسلمون في تعجب؛ ومع ذلك فلم تكن تكفي لاستيعاب الجنود جميعاً؛ وجامعي الأسلاب والتجار. واقتضت الضرورة أن يضرب جانباً منهم الخيام خارجها: ثم جذبوا أيضاً إليها عرباً من ساكني المناطق المحيطة وبربر من قبيلة صنهاجة. وما كان بإمكان عبد المؤمن منعهم من القتال في الحرب المقدسة. وأقاموا المنجنيق والعرّادات(2) أيضاً؛ وأخذ المسلمون يتناوبون الهجوم نهاراً وليلاً؛ ولكن المحاصَرين ضحكوا من ذلك، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا يضربون العدو بشدة في طلعاتهم المتكررة؛ حتى إن عبد المؤمن أمر بإقامة سور غربي المدينة(3)، لكي يحمي رجاله. وكان يقضي يومه في الميدان، تحت خيمة، وينام ليله في

---

(1) يذكر الكتاب المسلمون هذا الحدث بشكل معكوس، أي أنهم يقولون إن الشانية كانت تدخل الترسانة وهي معدة مسلحة دون أن ينزل منها على البر أحد.

(2) هي آلات لقذف الحصى، وهي أصغر من المنجنيق. القرطاس، وهو حقاً الوحيد الذي قام بذكر آلات أخرى غير المنجنيق، يسميها رعّادات، وهو الاسم الذي أطلق على المدفعية. ويبدو لي أن المؤلف، وقد عاش في القرن الرابع عشر ولم يكن يعرف على وجه التحديد متى كان أول استخدام للبارود في القاذفات من الأسلحة، قد بَدّل، من عنده هو، هذا اللفظ المعروف وهو عَرّادة، الذي ربما بدا لفظاً عتيقاً بالنسبة له ولزمانه. وربما كان الخطأ من النساخ، وعلى إية حال فإن الحروف الأساسية في اللفظ، وإن كانت واحدة، ولكنها عرضة للبس، إذا تغير ترتيبها. وعلى هذا يمكن تفسير موضع لدى ابن خلدون، وهو أيضاً مؤلف من القرن الرابع عشر. وفيه يرى أن الرعادات قد استخدمت في أفريقية في القرن الثالث عشر. انظر بخصوص هذا الشك الدراسة الجميلة التي أجراها السيدان رينو وفافيه، *Du feu grégeois*، باريس، ١٨٤٥، ص ٧٥ وما يليها. مع مقارنة دوزي، *Historia Abbadidarum*، المجلد الثاني، ٢٠٢ و٢٦٤ وابن بطوطة، *Voyages*، باريس، ١٨٥٣ ـ ٥٨، المجلد الثالث ١٤٨ و١٩٤ و٢٢٨ و٢٩٦.

(3) ابن الأثير، إلخ.

قصر بزويلة(1). وبعد أن ركب شانية برفقة الحسن، ذلك الذى كان سيد المدينة من قبل، قاموا بجولة حول الحصن: ونظروا؛ وتناقشوا واقتنعوا بأنه ما من سبيل للقيام بالمعركة. وسأله عبد المؤمن متضجراً: «كيف إذاً تركته للعدو» فأجابه حسن: «عدم وجود المؤن، ولم أجد من أثق به: ثم هكذا أراد القدر». «حسناً تقول». هكذا استأنف كلامه عبد المؤمن. ولما كف عن التفكير فى القيام بهجوم من البحر، أمر بالتمركز: ونظم الجيش لقضاء الشتاء بزويلة؛ حيث أمر بنقل كل القمح والشعير الذى امكنه نقله إليها. وجعلوا منها كومتين عاليتين جداً، حتى إن الكتاب عادوا إلى ذلك التعبير المألوف ويشبهونهما بالتلال. وقالوا إن الذين لم يروا الميدان منذ أيام عدة، كانوا يتساءلون كيف أتى هذان المرتفعان. وما افادا فى الوقاية من غلاء الغذاء؛ حيث وصل الأمر لبيع سبع حبات فول بدرهم مؤمن، وهو ما كان يقابل نصف درهم قانونى، أو ثلاثين سنتيما من الليرة(2) التى نستخدمها. ولكن الحامية كانت مهددة بالجوع التام. ويفهم من روايات المسلمين أن أسطول الموحدين قد أغلق البحر تماماً: وعلى ذلك اصبح مصير القلعة متوقفاً على معركة بحرية.

كان الأسطول الصقلى قد تعاون بقوة كبيرة فى طرد البيزنطيين من سواحل بوليا سنة ألف ومائة وست وخمسين. وخلال عام سبع وخمسين، وبقيادة ستيفانو. أخى مايونى، استولى الأسطول على مدن وحصون فى رومانيا، كما خرّب ولايات وحطم الأسطول اليونانى تحطيماً شبه كامل فى نجروبونتو: ولم يسبق لذلك الانتصار مثيل فى أمجاد چورچو الأنطاكى. لماذا إذن لم يرسلوا، فى الحال والتو، هذا الأسطول إلى المهدية، بقيادة ستيفانو ذاته؟. بل ذهب الأسطول على عكس ذلك إلى جزر البليار؛ بقيادة الخصى بيترو، ربما ليقطع الطريق علـى سفن بنى ميمون: ولكنه لم يقم بغير أعمال إتلاف فى جـزيرة

(1) الزركشى.

(2) هذا الحدث أورده المراكشى وحده.

إيفيزا. وبينما كانت وحداته تكتظ بالأسرى والأسلاب، صدر له أمر الملك بالتوجه لنجدة المهدية(1).

وفي يوم الأثنين الثاني والعشرين من شعبان (٨ سبتمبر) ظهرت في صف طويل جداً مائة وخمسون شانية صقلية، بالإضافة إلى المراكب الحربية ومراكب أخرى(2)؛ وكانت تتأهب لدخول الميناء؛ حيث أخذت بعض الشواني تنزل أشرعتها، وخرجت شانية من داخل الحصار نحوها. أما عن السبعين شانية التي كانت للموحدين فلو لم تكن مسحوبة ناحية البر، كما يقول فالكاندو، فقد كانت راسية في مكان آمن، ومن المؤكد أنها لم تكن في حالة قتال. ولما ساور عبد المؤمن الشك في أنهم يستعدون للنزول إلى البر خارج الحصن، حشد الجيش على الشاطئ؛ وظل يراقب تحركات العدو، وحينئذ جاءه ابن ميمون على عجل؛ وأشار له إلى الشواني الصقلية التي كانت تتقدم متفرقة عن بعضها بفعل الرياح(3)؛ وقال له إنه يمكن الدخول في المعركة رغم كثرة العدد لدى العدو، ولم يجب عليه عبد المؤمن. وعَد البحار الأسباني هذا السكوت علامة موافقة، فجرى نحو السفن؛ وأصعد بها ضاربي المجاديف؛ وخرج وهاجم صفوف العدو من جانبها. وبعد أن كسره أدخل أقرب الشواني من البر داخل ميناء المهدية؛ ثم توجه صوب السفن الأخرى التي قاتلت قليلاً ثم، ما أن انتاب الجزع البحارة، حسبما كتب المسلمون، من كثرة أولئك المسلحين الذين رأوهم على البر، حتى ابتعدوا في عرض البحر، ونشروا أشرعتهم: أما سفن المسلمين فقد ظلت تطارد من الخلف؛ حتى إنه بعد أن خطفت سبع شواني صقلية، اضطرت للعودة. ومنذ بداية المعركة كان عبد المؤمن يسجد على الأرض، ويذري التراب

---

(1) فالكاندو.
(2) كانت تقارب الخمسين طبقاً لما أورده الحُلل الموشاة، لأن إجمالي السفن كان يبلغ المائتين.
(3) ابن شداد، لدى التيجاني.

على رأسه، ويبتهل فى حرارة: «اللهم لا تخذل دعائم الإسلام». هكذا قال ابن شداد، الذى كان حاضراً آنذاك. وحكى الكتّاب المسلمون، وقد استقوا أيضاً منه، عن هذا اليوم بتفاوت طفيف بين الواحد والآخر. أما عن الكتاب المسيحيين، فإن فالكاندو يؤكد بشكل قاطع أن الخصى بيترو، هرب دون أن يقاتل، بدافع من الخيانة، ويكتب روموالدو السالرنى أنه هاجم، وهُزم وخسر شوانى كثيرة. ولكننا بعد سنوات قليلة نرى روموالدو رفيقاً أو متواطئاً مع الخصى بيترو فى تحزبات البلاط.

وفى أسلوب هادئ رفيع، يستطرد رئيس الأساقفة فى حديثه ليقول إن الحامية، وقد شحت مؤنها، وخاب كل أمل لديها فى النجدة، «تصالحت» مع المصموديين، وتركت لهم المدينة وعادت إلى صقلية: يحمل كل فرد فيها ماله. وعلى النقيض يعود فالكاندو ليؤكد الاتهامات أثناء الأيام الأخيرة للحصار فيقول: إن خصيان البلاط كتبوا لعبد المؤمن ليطمئنوه بأنهم لن يرسلوا مساعدات؛ وأنه خير المسيحيين بين أن يأخذهم جنوداً له أو أن يرسلهم مرة أخرى إلى صقلية؛ وأنه بعد أن ضغط الجوع على المحاصرين، وعدوا بترك الحصن إن طلبوا النجدة لآخر مرة ولم تأتهم خلال أيام قلائل؛ وأنه حينما وصلت رسالتهم إلى البلاط، أفهم مايونى الملك أن مواد الغذاء متوفرة فى المهدية؛ وعلى ذلك سلمها أولئك الشجعان إلى العدو بعد أن خاب أملهم وأعياهم الجوع. ولا يبدو لى معقولاً بحال من الأحوال وصول تلك الرسالة الأخيرة إلى صقلية. وعلى حد قول الكتّاب المسلمين، فإن الحامية بعد أن استهلكت فى الغذاء كل خيولها وأوشكت على الموت جوعاً، وكان ذلك نحو نهاية ذى الحجة (أوائل يناير)، نزل عشرة من رجالها الأعيان من الحصن ليطلبوا الأمان لحياتهم، وأموالهم وحريتهم. وكان رد عبد المؤمن عليهم أن ينكروا دينهم، فأردفوا: إنهم لم يحضروا من أجل ذلك، ولكنهم جاءوا يلتمسون سعة صدره ونبل أخلاقه؛ وإن إماتة فرسان مثل أولئك من الجوع لن تضيف شيئاً إلى أمجاده؛ بل إنه

على العكس إن أعادهم إلى ديارهم فلسوف يصبحون مدينين له مدى حياتهم. وذهبوا إليه وعادوا أكثر من مرة، حتى أعجب الملك الموحدى من ثباتهم، ونبل مظهرهم وصدق قولهم، أو لعله خشى، كما يقول آخرون، من أن ينتقم الملك جوليلمو لموتهم من مسلمى صقلية، فقبل استسلامهم وأمر بنقل الحامية كلها على السفن إلى صقلية. ودخل المسلمون الحصن صباح العاشر من محرم سنة خمسمائة وخمس وخمسين (٢١ يناير ١١٦٠). ويضيف الكتّاب العرب أن غالبية الناجين هلكوا غرقاً، على أن صمت فالكاندو يجعلنى لا أصدق هذا. غير أن الموحدين استطاعوا أن يضموا أراضى أخرى من أفريقيا الشمالية: حتى أصبح ملك عبد المؤمن يقاس من سوس المحيط حتى برقة؛ ومن حدود الأندلس الشمالية حتى أطراف الصحراء الجنوبية(1).

---

(1) قارن بين: ابن صاحب الصلات؛ وابن الأثير؛ والمراكشى؛ والبيان؛ والتيجانى؛ والقرطاس؛ وأبى الفدا؛ وابن خلدون؛ والزركشى؛ وابن أبى دينار، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص ص ١٩٧ و٣٠٣ ـ ٣٠٨ و٣١٩ ـ ٣٢٠ و٢٧٤ و٤٠١ ـ ٤٠٢ و٤٠٣ ـ ٤٠٤ و٤١٧ و٥٠٤ ـ ٥٠٦ و٥٢٥ و٥٤٠. **والحلل الموشاة**. إلخ. الموجز مجهول المؤلف. المكتوب عام ٧٨٣ هجرية (١٣٨١ ـ ١٣٨٢) مخطوط بمكتبة *Bibl. imp* بباريس. *Ancien Fonds*. ٨٥٢. ص ١١٦ ولا أستشهد بالنويرى لأنه ينقل حرفياً من ابن الأثير فى هذه النقاط. وبين هؤلاء الكتّاب لاحظت بعض الاختلافات. علاوة على ذلك فإن الحلل ينسب إلى رسل الحامية المسيحية لدى عبد المؤمن. أنهم تملقوه بقولهم إنه ملك العالم ذلك المنتظر الذى تحدثت عنه كتبهم. ولدينا ترجمة فرنسية لراوية التيجانى. قام بها م. ألفونس روسو. فى *Journal Asiatique*. فبراير ١٨٥٢. ص ٢٠٩ وما يليها. وإن أهم الفصول التى كتبها ابن الأثير قام بترجمتها إلى الفرنسية البارون دى سلان فى *Historie des Berbères*. لابن خلدون. المجلد الثانى. الحواشى. ص ٥٨٣ وما يليها. إن مواضع ابن خلدون التى ذكرناها فى هذا الفصل، توجد هى أيضاً فى ترجمة م. دى سلان، سالفة الذكر، المجلد الثانى، ص ٣٨ و٣٩ و١٩٣. وكوندى، *Dominacion de los Arabes en España*. الباب الثالث، الفصل ٤٤. يحكى عملية المهدية ـ هذه بتوسع، ويورد بها تفاصيل مسجلة لدينا. وأخرى لا نجد لها وجود فى نصوصنا. ولكن مؤلف كوندى لا يمكن أن يحل محل النصوص التى تنقصنا. أما عن المؤلفين المسيحيين فإنه يجدر الإطلاع على فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو. وهما مختلفين فى الرأى بشكل ملموس، ويوجد أولهما فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*. ص ٤٢٠ و٤٢١ وثانيهما فى كتاب موراتورى. *Rer. Italic.*. المجلد الرابع، ١٩٩، ولدى برتز، *Scriptores*. المجلد التاسع عشر، ٤٢٩.

والأحداث، التى اهمل للأسف، كاتبا اخبار جوليلمو تحديدها الزمنى، تظهر لنا أن وقائع المهدية قد أضافت هى الأخرى مزيداً إلى الغضب المشتعل بالمملكة. فمنذ عدة سنوات كان الجانب الإقطاعى يطلق اتهامات غريبة ضد مايونى، ليبرر الثورة دون حق، كانوا يتهمونه بأنه يطمح للوصول إلى التاج، وأنه حاول اغتيال جوليلمو، وأنه يدفعه نحو أشد الأعمال قسوة حتى يظهره بصورة الطاغية: والآن أضافوا، فى تمكن شديد، تهمة أنه عمل على إسقاط المهدية، بنية مبيتة، حتى يثير كراهية جديدة ضد الملك(1). ولكن البلاط بكامله كان لا يسلم من الشكوك القوية: فهناك تواطؤ الخصيان مع المسلمين وتواطؤ مايونى مع الخصيان؛ ثم عداء الوزير والملك للنبلاء، وكان منهم كثيرون فى المهدية؛ وكذلك كانت هناك الرغبة فى تخليص الخزانة العامة من تلك السيطرة(2) المكلفة التى لا طائل منها. لماذا لم يحرقوا بيترو الخصى مثلما فعلوا مع فيليب المهدية(3)؛ لماذا لم يعهدوا إرسال السفن إلى افريقية بقيادة أمير مسيحى، يتمتع بسمات الرجولة الحقة، ويعرف كيف يثأر لراية صقلية ويخلص الحامية من الجوع؟. إن كتّاب الأخبار يكتبون القليل او لا شئ عن هذه المشكلات وفى اقتضاب يدونون الحدث الخطير، الذى حدث فى عام ٦٠ ذاته، وهو ان مايونى نزع سلاح المسلمين فى بالرمو(4). ودون ذكر اسباب ذلك: أكان عقاباً للجنود المسلمين بالأسطول الذى هرب من مياه المهدية، أم كان ذلك لإحباط حالة الزهو التى أظهروها بعد انتصارات عبد المؤمن، أم كانت فتنة تم كشفها، أم لشكاوى

---

(1) قارن فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٤١٢ وما يليها و٤١٩ و٤٢١ و٨٦٥ و٨٦٦.

(2) عن هذا الدافع الاقتصادى فقط كان حديث فالكاندو. المرجع المذكور. ص ٤٢١.

(3) لقد اضفت أنا هذا الانتقاد. ربما سقط بيترو فى عداد المغضوب عليهم، او كما نقول نحن فى يومنا هذا أعفى من منصبه. ولكنه عاد يحظى بالرضى بعد سنتين.

(4) فالكاندو. المرجع المذكور. ص ٤٢٥.

المسيحيين الذين رُوعوا فيها وأهينوا. وما هو مؤكد أن عبد المؤمن كان فى تلك الأونة يصلح من استعدادات ساحل أفريقيا بصورة تشغل بال جيرانه كثيراً.

وبعد أشهر قلائل من تسليم المهدية، اتفقت مدن وبارونات البر الإيطالى فيما بينهم على عدم إطاعة أية أوامر ممهورة باسم مايونى: فلم يمض من الوقت الكثير حتى حدث ذات ليلة (١٠ نوفمبر ١١٦٠) أن تصادف وجوده بالقرب من ديار رئيس أساقفة بالرمو. فاستوقفه رجل الدين الذى أقسم له بأخوته للحديث معه. فقتله ماتيو بونيللو، وهو شاب من النبلاء، قد صنعه هو نفسه، وكان يتظاهر له بخالص الوفاء بينما كان ينسج مؤامرته مع البارونات الناقمين؛ وبعد أن قام بهذا العمل البشع. أصبح بطلاً شعبياً فى بالرمو وفى جميع أنحاء المملكة. وكان على جوليلمو أن يشكره فى البداية لأنه قتل له رئيس وزرائه. وبعد أن زالت حالة الجزع، بدأت شلة خصيان البلاط ورجال الدين الحكام فى تهديدهم لماتيو: لذا رأى المتضررون التعجل بالضربة الكبرى وهى خلع الملك، وأن ينصبّوا الصبى روجيرو، ابنه ملكاً، ويحكموا هم.

ولم ينجح من المؤامرة سوى بدايتها. فقد قام أمراء أصلاء من السلالة وأمراء دخلاء عليها وبارونات وفرسان، يساعدهم أيضاً قائد من قواد الحرس، ويدعمهم جنود مرتزقة ورجال من العامة، وأخذوا جوليلمو فى قاعات المجلس: واقتسموا الكنوز التى كدسها روجيرو الكبير، ونساء الحريم؛ ونهبوا القصر الملكى؛ (٩ مارس ١١٦١) وساروا بموكب فى شوارع المدينة ومعهم خليفته الذى عينوه(1). ولم يسفك المتآمرون دماءً أخرى غير دماء المسلمين: وهذا يوضح من كانوا أعداءهم الأساسيين. وقتلوا جميع الخصيان الذين وجدوهم فى قصر الملك وخارجه، بينما ذهب الأصدقاء ليختبئوا فى ديارهم؛ كما

---

(1) قارن بين: فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو.

قتلوا أيضاً المسلمين الذين كانوا يعملون فى تحصيل الجباية، أو فى الوكالات يبيعون بضائعهم؛ وجردوا الجثث من كل ما هو غال. وعند هذا تجمع مسلمو كاسارو، وهو أغنى أحياء المدينة، فى الضاحية الغربية، وأغلقوا الدروب التى تؤدى إليه، وهكذا ودون سلاح كاف استطاعوا التصدى لمهاجميهم. ومات من المسلمين عدد غير قليل خلال حركة التمرد هذه(1). ومن بين من قتلوا كان الشاعر يحيى بن تيفاشى، وكان نازحاً من قفصة، وهو من مواطنى قابس، ولعله جاء إلى بالرمو(2) بحثاً عن حظه فى البلاط بعد أن أطاح عبد المؤمن ببلاط الحكام الصغار فى أفريقيا. ويمكننا أن نستنتج أن الإدريسى قد رحل بعد تلك المذبحة، حيث كان فى بلاط جوليلمو قبل ذلك؛ ولأننا نعلم من أحد معاصريه أنه كان قد خصص للملك الجديد نسخة موسعة من كتابه نزهة، وهى نسخة لم تصل إلينا(3).

وكان ماتيو بونيللو غائباً؛ ودب الخلاف على التو بين المتآمرين: أما شعب بالرمو الذى كان ينظر ذلك المشهد وهو متعجب ومتحير، فى انتظار ظهور ماتيو. فقد بدأ يتهامس بأنه لا يمكن ترك الدولة لشلة من المتمردين، قادرين فقط على نهب القصر، وذبح العزّل، لا أكثر. أما رجال الدين من الحكام الذين ترددوا بادئ الأمر، وظلت غالبيتهم تتوخى الحذر، فقد تشجعوا وأخذوا يحثون الشعب على تحرير الملك: ويقول فالكاندو إن الكلمة سرت من القلائل إلى الجماهير: كما لو كانت أوامر قائد عظيم جسور، أو كما لو أن صوتا

---

(1) قارن: فالكاندو وروموالدو سالرنيتانو، المرجع المذكور، ص ٤٣٤ وما بعدها، و٨٦٦.

(2) يقول عماد الدين فى الخريدة، فى نص المكتبة العربية - الصقلية، ص ٥٩٩، «إن فرنجة صقلية قتلوهم بعد عام ٥٥٠ (١١٥٥ - ١١٥٦) بالمذبحة التى نفذوها للمسلمين». ويبدو لى أنه يجدر نسب هذا الحدث إلى تمرد بالرمو، بدلاً من نسبه إلى الإعلان الذى أصدره اللونجوبارد بعد ذلك بقليل فى الجزيرة.

(3) ابن بشرون، استشهد به رينو، *Géographie d'Aboulfeda*، المقدمة ص ١٢١. وكان عنوانها: **روض الأنس ونزهة النفس**.

من السماء دفعهم إلى ذلك، فلجأوا للصلاح: حتى إنه خيل لنا، ونحن نقرأ ذلك، أننا بصدد قراءة البوادر الأولى لجميع ثورات بالرمو، منذ حركة الغروب الصقلية وحتى يومنا هذا. والتف الشعب آنذاك حول القصر الملكى؛ ولما كان المتآمرون غير كافين للدفاع عن تلك الأراضى الشاسعة خلف الأسوار، لجأوا للتفاوض مع الملك، وانصرفوا وقد عفى عنهم، وظل هو ملكاً (١١ مارس)؛ ومنح أهل بالرمو امتيازات جديدة، وأمّن نفسه بالأسطول الذى أرسل فى طلبه من مسينا وبالقوات التى أتت إليه من تلقاء نفسها من مختلف أنحاء الجزيرة؛ وأخذ يعيد تنظيم إدارة الحكم المتهدمة. وخرج حينئذ بنفسه ليحارب البارونات الذين أعلنوا تمردهم فى شرق صقلية: وقهرهم (صيف عام ١١٦١)؛ وفى نجاح مماثل وقسوة أشد. أخمد حركات ولايات البر الإيطالى (١١٦٢). ثم أمر بمباغتة بونيللو والقبض عليه وفقأ عينيه، وكسر شوكته. وانتهت محاولة تمرد ثانية فى القصر بموت جميع المتآمرين (١١٧٣). وكما يتضح فإن كبريات مدن الجزيرة كانت تقف إلى جانب الملك، ضد البارونات، الذين كانوا بالنسبة لأهلها طغاة أكثر ظلماً(1).

وعلى العكس انحاز السكان اللونجوبارد للبارونات المتمردين. وهم السكان الذين تحدثنا فيما سبق عن اتجاهاتهم ونظام البلديات لديهم. وسبب الخلاف، فيما أرى، يرجع إلى أن أهل البلديات فى مناطق اللونجوبارد كانوا يختلطون بالإقطاعيين المنتمين إلى أصلهم، لذا كانت نزعة السلالة تفوق نزعة الطبقة، والمصالح أيضاً، حيث إن مصالح كلا الطرفين كانت تتعارض مع حقوق السكان القدامى الذين كان البلاط يدافع عنهم دائماً. ونعرف من فالكاندو أن روجيرو سكيافو، أحد القادة المتمردين، بعد أن استمال إلى جانبه بياتسا، وبوتيرا وأراضى لومبارديين أخرى، أعطاهم مكافأة كبيرة، أى دم

---

(1) قارن بين: فالكاندو وروموالدو.

المسلمين، وأنا أصحح وأقول، ممتلكاتهم: أولئك المسلمون الذين كانوا يعيشون في تلك المناطق، حسب قول فالكاندو، في الأراضي مع المسيحيين وكان بعض منهم يقيمون بمفردهم في بيوتهم الريفية. وعندما هاجم اللومبارد هؤلاء السكان الزراعيين بغتة (ربيع عام ١١٦١)، قتلوا منهم كثرة لا يحصى عددها، دون استثناء لنوع أو عمر. ونجا من المذبحة قليلون، فمنهم من فر في الغابات ومن لجأ إلى الجبال؛ ومن تسلل إلى الخارج وهو يرتدي ثياب المسيحيين؛ ولجأوا إلى حصون صقلية الجنوبية التي كان يسكنها إخوانهم في الدين: حيث كانوا مازالوا يقيمون هناك حتى وقت أن كتب فالكاندو (١١٨٨)، وظل اسم اللومبارد يخيفهم حتى لم يقتصر الأمر على عدم رغبتهم في العودة إلى ديارهم، بل إلى فشل كل الوسائل لمحاولة إخراجهم من نطاق الريف(1).

إن الكراهية الدينية التي ظلت نائمة على مدى جيلين أو ثلاث، بدات توقظها الحروب الأهلية، وأخذت تعمل في حمية يغشاها العمى، ولم تميز انتماء أو مصلحة. ولما كان جيش جوليلمو يجمع بين المسيحيين والمسلمين، فقد تفجر بينهم عراك دموي، بينما كانوا يقومون معاً بتدمير مدينة بياتسا، ولم تجد أصوات القواد ولا أمر الملك في تهدئتهم قبل أن يسقط بينهم مئات القتلى من المسلمين(2). وخلال هذه الأحداث وما أن عاد الخصيان إلى مراكزهم حتى بدأ رد الفعل لدى المسلمين. وكان الجاييتو مارتينو،

---

(1) فالكاندو، المرجع المذكور، ص ٤٤٠. ويشير إلى ذلك رومالدو إشارة طفيفة، المرجع المذكور، ص ٨٦٨. ويجب تذكر ما قلناه عن روجيرو سكياڤو وعن السكان اللومبارد في الكتاب الخامس، الفصل الثامن، ص ٢٢٢ وما يليها، ٢٢٦ وما يليها، من هذا المجلد. ويجب ملاحظة أن بوتيرا كانت إقطاعية دائماً، وأن بياتسا، كما يقول هنا فالكاندو، كانت في حوزة والد روجيرو سكياڤو، أي الكونت سيمون، ابن أريجو، من ماركيزات اليرامي.

(2) فالكاندو، المرجع السابق، ص ٤٤٢.

قد ظل يباشر أمور الإدارة فى القصر وفى العاصمة، بينما كان الملك يحارب المتمردين، وأخذ ينتقم من المخطئين فى الذات الملكية، سواء كانت تهمتهم ثابتة أو مشكوك فيها. كما قتل المتآمرون أحد أشقائه؛ أخذ يتهم هذا وذاك؛ وجعل يدعم اتهامه من خلال المبارزين حتى الموت لإظهار الحق ومن خلال شهود زور فى المحاكم التى تنظر طبقاً للقانون الرومانى؛ وكان يتم شنق المحكوم عليهم، وتتمزق أجسادهم من الضرب، أمام السراسنة الذين كانوا يسخرون منهم، حسبما كتب فالكاندو(1). والجاييتو بيترو، وهو ذاته ذلك الخصى، الخائن الذى خان الأسطول فى المهدية(2)، حينما عاد على السطح مرة أخرى بعد استعادة جوليلمو للنظام، أخذ يقوم بالثأر من خلال سجان أو جلاَّد مسيحى. اشتهر بشراسته فى مالا يحصى من الأعمال الآثمة وكان عميلاً ووسيطاً للمسلمين. وإن حق لنا أن نثق غاية الثقة فى استياء فالكاندو الصادق، فإن جميع رجال الدولة، من منفذى أحكام أو قادة، أو حكام، ممن كونتهم تحزبات البلاط، كانوا جميعاً يخدمون البلاط ويخدمون أهواءهم الخاصة، وكانوا يقهرون ويفرضون الإتاوات فى حرية تامة(3).

ومع وفاة عبد المؤمن (٢٦ مايو ١١٦٣) التى خلصت مسيحيى أسبانيا(4) من خوف كبير، استيقظ فيما يبدو لدى بلاط بالرمو

(1) المرجع السابق، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(2) فى أوائل ملك جوليلمو الصالح، حينما كان هو حَكَماً على الدولة وهرب إلى افريقيا خوفاً من البارونات أعدائه، وصفه الكونت جراهينا فى حضرة الملكة بأنه *"servum saracenum qui stolium dudum prodiderat"*. فالكاندو، المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(3) فالكاندو، المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(4) كان عبد المؤمن من أكبر رجال الحكم فى زمانه؛ وكان أيضاً عالماً بالعلوم الفلسفية والرياضيات، حسبما تشهد على ذلك إحدى مؤلفاته عن تعاليم المهدى الحقيقية أو المفترضة، وهو المهدى الذى أسس أول سلطة للموحدين؛ وهذا المؤلف يوجد مخطوطاً فى المكتبة الإمبراطورية بباريس، *Supplément arabes*، رقم ٣٢٨. ولما تمكن عبد المؤمن من ضم المهدية، أمر بعمل سجل مساحى بأفريقيا الشمالية، وبقياس مسطح الأراضى بالفرسخ المربع، وطرح الثلث منها لحساب الجبال والأنهار والمستنقعات،

الأمل أو ربما أتته الشجاعة للقيام بحركة ضد الموحدين: وربما أراد بها كبار رجال الدين فى البلاط بذل الجهد فى سبيل الدين والوطن؛ وما كان للخصيان، وأولهم بيترو، أن يخرجوا على اللياقة ويرفضوا لهم هذه اللعبة. لأننا نقرأ فى حوليات المسلمين فى الغرب أنه فى سنة خمسمائة وثمان وخمسين (١٠ ديسمبر ١١٦٢، ٢٩ نوفمبر ١١٦٣) نزل الروم بالمهدية، أو بزويلة، على ما أرى، فأثاروا فيها الرعب وأحدثوا الخسائر، ثم انقضت سفن الأسطول بغتة على سوسة، وكانت تحكم حينئذ باسم الموحدين بزعامة عبد الحق بن الينّاس، وأن المسيحيين أخذوا منها أسرى كثيرين، وقتلوا، وخربوا وأخذوا معهم الحاكم إلى صقلية هو وأبناءه، الذين جرى تحريرهم فيما بعد: ولكن سوسة، لم تستعد إعمارها حتى القرن(7) الرابع عشر.

وبعد أن تعب جوليلمو من جهده الثانى الذى بذله ضد المتمردين، ترك الحكم فى يد وزرائه، فلم تعد لديه رغبة فى سماع المزيد من المشاكل. وإذ أخذ يتبارى مع والده فيما يسرى عن النفس فقط، بدأ فى تشييد قصر أراد أن يفوق فى فخامته وروعته ما تركه له روجيرو من قصور. وفى زمن وجيز رفعت أسواره، وكانت تكاليفه عظيمة،

وفرض. بنسبة المسطح المتبقى، ضريبة تلتزم القبائل بدفعها بالغلال أو بالنقد. وبدأ ينقل إلى أسبانيا عرب أفريقيا القساة. ويقولون إنه أمر بتجهيز ٧٠٠ سفينة؛ وأمر بصناعة ١٠,٠٠٠ قنطار من الحراب يومياً: واكتتاب ٥٠٠,٠٠٠ رجل... إلخ. وعن هذه الاستعدادات انظر ابن الأثير، عامى ٥٥٥ و٥٥٨، طبعة تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ١٦٢ وما يليها وص ١٩١ وما يليها فى النص؛ المراكشى، النص، ص ١٦٨؛ **القرطاس**، طبعة تورنبرج، النص ص ١٢٩ و١٣١ و١٣٢. والترجمة ١٧٤ و١٧٦ و١٧٧؛ وابن أبى دينار (القيروانى) الترجمة الفرنسية ص ١٩٦.

(7) قارن: **البيان**، عام ٥٥٨، والتيجانى، وكلاهما فى **المكتبة العربية. الصقلية**، النص، ص ٢٧٤ و٢٧٨ و٢٧٩. يضع أولهما تاريخ نزول الروم بشكل عام حسب قوله، والحدث، الجديد، كما يسميه، بالمهدية واحتلال سوسة؛ أما عن الثانى فإنه يذكر الحاكم الذى وضع الموحدين فى سوسة بعد أن استولوا على المهدية، ثم يشير إلى المذابح، وعمليات النهب والأسر فى سوسة وإلى الأسرى الذين أحضرهم الأسطول إلى صقلية. لذا فما من شك فى صحة الحدث.

وأطلق على هذا القصر الجديد اسم العزيز، الذى أصبح «لازيزا *La Zisa*» على لسان الإيطاليين، وهكذا نسميه حتى يومنا هذا(1). وهذا الاسم يعنى «المجيد» ويقصد به السراى أو القصر؛ وهو اسم عربى، مثله مثل الكتابات التى تبقت منها آثار طفيفة فى الإفريز، وفى أجزاء طولية بالقاعة الأرضية، ومثل الرسوم العربية والأعمدة الصغيرة والزخارف؛ بل مثل البناء ذاته، وربما مثلما كانت غالبية صانعيه وربما البلاط كله، مما كان يمثل الاختلاط بالحضارة المسيحية كما لاحظنا فى مواضع أخرى، وهو اختلاط أثبت مع مرور الزمن تولقه وجماله فى الفن أكثر منه فى إدارة الشئون العامة. وكانت تحيط القصر حدائق غناء وبساتين يانعة، وجداول تجرى وأسماك للزينة(2). وقبل أن توضع اللمسات الأخيرة بقصر زيزا توفى جوليلمو عن ست وأربعين سنة، فى الخامس عشر من مايو عام ألف

---

(1) لا يذكر فالكاندو اسم القصر. أما نص روموالدو فيورد اسم *Lisam* ليسام، فى الطبعات القديمة: أما طبعة برتز، *Scriptores*، ١٩، ٤٢٤ فتورد بشكل أصح، *Sisam* سيسام، مع التنبيه فى الهامش *"Hodie Cisa"*. وهى صيغة ربما ساعدت الأذن الأجنبية على استيعاب الاسم ولكنى لم أجده فى أى من كتاباتنا. وعلى العكس من ذلك فإن وثائق القرن الثالث عشر والرابع عشر اللاتينية وأحد المؤلفات التاريخية فى القرن الرابع عشر أيضاً، نقرأ بها جميعها *Zisa* زيزا، و*Asisia* ازيزيا. وفى إحدى وثائق عام ١٢٣٨، فى كتاب مونجيتورى، *Sacrae domus Mansionis... Monumenta*، تتضمن إعطاء قطعة أرض فى منطقة *Assisii* اسّيزى، بصيغة المذكر. وفى النهاية، أرى أن صفة *El-'Aziz* العزيز فى صيغة المذكر، تصف اسماً مستتراً وهو القصر، كما وأنه موجود فى الكتابة العربية المكتوبة فى القاعة الأرضية، والتى قام بنشرها مورسو، *Palermo antico*، الطبعة الثانية، ص ١٨٤. ولكنى مزمع أن أتناول ذلك بشكل مطول فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب. ويجب ملاحظة أن صيغة *Sisa* سيزا تتوافق تماماً مع النقل الصوتى لاسم عبد العزيز، الذى ورد فى وثيقة من عام ١٢٣٩، فى سجل الإمبراطور فدريكو الثانى، طبعة كركانى، ص ٢٩٨، ورد مكتوباً *Abdellasis*.

(2) قارن بين: فالكاندو وروموالدو، فى المرجع السابق، ص ٤٤٨ و٤٤٩ و٨٧٠ و٨٧١. وحتى فى التفاصيل الصغيرة يظهر العداء من جانب أحدهما واهتمام رجل البلاط من جانب آخر. وعلى سبيل المثال فإن فالكاندو يستمتع بذكر أن جوليلمو لم يتمكن من رؤية القصر وقد تم تشييده: بينما يوحى روموالدو بأن العمل فيه كان قد انتهى. ويسهب فى الحديث عن المياه والحدائق القائمة فى ذلك الموقع الملكى، ويتحدث عن الفسيفساء التى أضافها جوليلمو لكنيسة القصر... إلخ.

ومائة وست وستين(1)، وعند إقامة مأتمه، الذى استمر ثلاثة أيام، تجمع حوله جمع هائل من رجال البلاط والمواطنين، فى ثياب الحداد : ولكن فالكاندو، يسجل، ونحن نصدق ما يقول، إن النساء المسلمات كن يبكين حقاً، وهن فى ثياب من الكتان مشمثات الشعر، يطفن فى الشوارع خلف جماعة من الوصيفات ويولولن وينحن نواحاً واهناً على دقات الدفوف(2).

(1) قمت بتصحيح يوم الوفاة حسب مدونات كاسينو *Cronica Cassinese* وكتاب الوفيات بالدير ذاته، فى كتاب كاروزو، المرجع السابق، ص ٥١٢ و٥٢٢.

(2) إن مشاركة النساء، حسبما ذكرها فالكاندو، فى جنازة جوليلمو الأول، تشبه تماماً ما نسب لهن فى أيام جنازة الملك الصالح بالقاهرة (١٢٤٩)، موضع لدى أبى المحاسن، نشر م. كاترمير نصه وقام بترجمته فى *Histoire des Sultans Mamlouks*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ١٦٤ . كانت الإماء تطوف بالطرق لأيام عديدة وهن يضربن الدفوف، بينما كانت السيدات تتبعهن دون حجاب، وهن يبكين ويلطمن وجوههن.

الفصل الخامس

نجح جوليلمو الثانى نجاحاً كبيراً فى أن يجنى من وراء طغيان أبيه الثمار الطيبة، وأن يتحاشى الأحقاد، وبفضل حكمة الأوصياء وهدوء طبعه وحبه للحق، استطاع أن يكسب حب معاصريه. وثناء التاريخ عليه، سواء فى الداخل أو الخارج. وسواء كانت ميزة أم عيباً فى الشعب، حين تتغلب المشاعر فيه دائماً على العقل: فقد غفر اللاحقون لجوليلمو الصالح ذلك الوهن والضعف فى الرأى الذى أدى بعد موته إلى فتح هوه سحيقة: أى الانقسام بالبلاط. والدماء التى أريقت فى المملكة، وإيطاليا وقد أصبحت فريسة للطامعين، رغم نصر لينياجو واتفاق سلام فنيسيا. وكان أبوه قد عمل، على عكس ذلك، على إضعاف نظام البارونات بكل الوسائل وأكبر أعداء الدولة؛ كما عمل على الحفاظ على نظام إدارة روجيرو، إلا أنه لم يكن هناك وجود لملك؛ وبعد موت مايونى لم يعد وجود أيضاً لرئيس وزراء، حيث قسمت السلطة بين أحد الأساقفة، وأحد الأمناء وأحد القادة، وكانوا يمثلون طبقات الرعايا الثلاث التى كانت تحظى باهتمام البلاط.

ولهؤلاء ذاتهم عهد جوليلمو الأول بالوصاية على ولده، ووضع على رأسهم الملكة مرجريتا، النفارِّية، التى لم تكن بالخاملة أو الضعيفة، بل كانت صديقة للوزراء العاملين: حتى تَقَوَّلوا عليها أنها عشيقة لمايونى، ثم لستيفانو، وكادوا يضعون أيضاً فى القائمة الخصى بيترو. وفى البداية عملت حكومة الوصاية على إرضاء أكثر الطبقات تضرراً: فاختارت كونتات جدداً؛ وقدمت إقطاعيات من الأراضى والقرى؛ وأسقطت ديوناً؛ وألغت رسوم «التعرر» التى كانت، على ما يبدو، تفرض على المتمردين المعفى عنهم، أو المشتبه فيهم؛ ومنحت إعفاءات للمواطنين؛ وحررت عبيداً

بالبلاط أو بالأملاك الأميرية(1). وكان جوليلمو الثانى، أشقر الشعر حلو الملامح، شاباً صغيراً فى الرابعة عشر من عمره، متقدما فى دراسة الآداب، وقد توج فى بالرمو، وسط آمال عريضة، لم يخيبها أبداً بإرادته.

وما أن هدأت مشاعر التمرد، والاستياء أيضاً، حتى تفجرت الانشقاقات داخل البلاط: وفى وسط تنافس الأشخاص فيما بينهم، ظهر على السطح عداء السكان الأصليين للأجانب. وقد بينّا كيف أنه منذ مُلك روجيرو، كانت الطائفة الرهبانية الكاثوليكية الغربية، الفرنسية المناصرة للبابوية، كانت تمد حبالها حتى بلاط بالرمو المسلم(2). وقد كانت تمده بأفراد من رجال الكنيسة الذين لا نجد فقط أسماءهم وسط رؤساء الأساقفة والأساقفة والأحبار ومعلمى الملوك، بل نكتشف أيضاً وجود لغتهم فى لغة الأمناء أو الناسخين: فكثيراً ما كتبوا الألفاظ العربية بالوثائق حسب النطق الفرنسى(3). وكانت ترسل إلى البلاط أيضاً قواداً مرتزقة، يحصلون، إذا لزم الأمر، على بعض الإقطاعيات.

وبعد أن أصبح أحد أقرباء الملكة مرجريتا، كونت جرافينا، قام

---

(1) انظر الوقائع فى فالكاندو، لدى كاروزو، .*Bibl. sic*، ص ٤٥١ ـ ٤٥٣. وما يبدو لى مستبعداً أن تكون بعض هذه الإجراءات قد ورد الأمر بها فى وصية جوليلمو الأول. وهنالك على الأقل جزء فى فالكاندو، المرجع السابق، ص ٤٥٤، وبه ما يثبت أن الخصى بيترو قد عُتق فى الوصية وصدّق على عتقه الأوصياء على العرش.

(2) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤١٧ و٤١٨، ٤٢٤ من الجلد.

(3) إن الوثائق العربية واليونانية الصقلية التى سوف يقوم البروفيسور كوزا دى بالرمو بطبعها، سوف تقدم مادة واسعة تمثل هذه الملحوظات. ومع ذلك فإنى أود أن أسوق مثالاً، مأخوذاً من وثيقة عربية كتبت فى موريالى عام ١١٨٢. وارسل لى نسخة منها، الأستاذ الجليل، وتوجد ترجمتها اللاتينية فى ليللو (ميكيلى بل جوديتشى) *Descrizione del real Tempio... di Morreale*. فى حواشى *Privilegii e Bolle*، ص ٨ وما يليها. وفى هذه الوثيقة نجد لفظ حارق *hárik*، المستخدم عادة فى صقلية بمعنى هضبة، نجده مترجماً إلى "*ierterum*"، وهو لفظ فرنسى اخذ شكلاً لاتينياً؛ واسم المكان دسيش *Desaśc*، نجده منقولاً *Dichichi*؛ والأندلسيين (الأسبلن) "*Hendulcini*"؛ وجبقالين *Giabkalin*، *Chapkalinos*... إلخ.

بالتآمر مع الإنجليزى ريكاردو بالمر، أسقف سيراكوزا المنتخب، ضد الخصى بيترو، الذى كان كبير الوزراء ويحظى بمكانة قوية لدى الملكة، ولدى رجال البلاط، ورجال الحرس وفى أمور الإدارة. واحتدم الخلاف جداً. حتى أن بيترو، الرجل الضعيف النفس، حسبما كتب فالكاندو، حينما خشى على حياته هرب من البلاط ومن المملكة. وبعد أن زود سفينة سريعة بالبحارة، والسلاح وكل شئ، وبعد أن عمل على إحضار كميات كبيرة من المال ليلاً، ركب جواده ومعه عدد قليل ممن يثق بهم من الخصيان، بزعم أنه ذاهب إلى قصر جديد شيده فى حى كمونيه(1)، وتوجه إلى الميناء، وصعد على المركب. ولجأ إلى افريقية، لدى الملك المصمودى. هكذا كتب فالكاندو، ورئيس أساقفة سالرنو مع قليل من الاختلاف(2).

ويكتب ابن خلدون عن شخص اسمه أحمد كان يلقب بالصقلى، ولد فى جربه، من عائلة صدغيان التى كانت فرعاً من قبيلة صدويكيش، من البربر، ويقول إن الأسطول الصقلى قد أخذه من سواحل تلك الجزيرة، وتربى فى صقلية، ودخل فى خدمة الملك الخاصة. وأصبح من المقربين له، ثم تعرض لغضب خليفة الملك، بإيعاز من منافسيه؛ ولذلك، حينما شعر بالخطر على حياته، هرب إلى تونس، وكان يحكمها آنذاك أحد أبناء عبد المؤمن، ومنها عبر إلى مراكش، لدى الخليفة يوسف. واستقبله الخليفة بإكرام كبير، وأغدق عليه العطاء، وكلفه بتنظيم الأسطول، فجعل منه أحمد أسطولاً كبيراً وقوياً، كما لم يكن أبداً من قبل أو من بعد؛ وتميز على متن ذلك الأسطول بمعاركه الرائعة وانتصاراته

---

(1) يسمى اليوم البرجاريا.

(2) فى كتاب كاروزو، *.Bibl. sic*، ص ٤٥٤ و٨٧٢. إن رئيس الأساقفة الذى كان معاصراً للخصى، قد اعترف بأنه هرب مع آخرين، *"et ad regem de Marocccho veniens, multam secum pecuniam trasportovit"*. ونرى من فالكاندو أنهم اتهموه أيضاً بأنه أخذ معه شارات الملك. ولكن الملكة أكدت إن الكنوز الملكية لم تمس.

الشهيرة على المسيحيين(1). استمر يوسف فى الحكم من عام ألف ومائة وثلاث وستين حتى ألف ومائة وأربع وثمانين. وكما أن هناك توافقاً فى الزمان فإنه كذلك أيضاً بالنسبة للظروف التى ورد ذكرها عن الجابيتو بيترو واحمد الصقلى: فأحدهما أدميرال صقلى أمام المهدية وكبير وزراء ببلاط بالرمو، متهم بالتآمر مع الموحدين؛ والآخر لاجئ لدى الموحدين ومعه كنوز عظيمة، حيث استقبلوه فى ترحاب شديد فى تونس ومراكش، ثم يفيدون منه فى الحال فى شئون السفن؛ وكلاهما عبد، صعد إلى مرتبة عليا فى بلاط بالرمو، ثم طرد لعداء شخصى. ويجدر ملاحظة أن بيترو قد اتهم بالخيانة، لا الجبن فى أحداث المهدية(2).

وما أن اختفى من الساحة الجابيتو بيترو أو احمد الصقلى: أيا من كان، حتى عانت زمرة السكان الأصليين من هجمة جديدة من المغامرين أرسلهم الجانب الكاثوليكى فى فرنسا وإنجلترا للاستيلاء على بلاط بالرمو: كانوا ما يقرب من ثلاثين رجلاً يرأسهم شاب قوى، من أقارب الملكة، وهو ستيفانو دى

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، النص العربى بباريس، الجزء الثانى ص ٣٧ و٣٨، وفى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٦٢، وترجمة البارون دى سلان الفرنسية، الجزء الثانى، ص ٤٢. وفى كتابه عن **تاريخ البربر**، النص العربى بالجزائر، المجلد الأول، ص ٣٢٦، وترجمة البارون دى سلان الفرنسية، الجزء الثانى، ٢٠٨. يقول المؤلف ذاته إنه فى عام ٥٨١ (١١٨٥ ـ ١١٨٦) حينما عرف خليفة الموحدين يعقوب بحركة ابن غانية على قسطنطينة، أرسل فى مواجهته الأسطول بقيادة محمد بن ابى اسحق بن جامع، مع ابى محمد بن عتوش، ومع أحمد الصقلى، وإن ذلك القائد الأخير تمكن بفرقته من الاستيلاء على بجاية.

(2) حينما نطبق قوانين ذلك الزمان على رواية ابن خلدون، فسوف نرى أن الصبى احمد قد حضر إلى صقلية عبداً. ثم ان فالكاندو قد نص بوضوح على انه ظل هكذا فى البلاط، وقال إن الكونت جرافينا، حينما علم بهروبه، لام على الملكة الأرملة غفلتها حين رفعت عبداً من السراسنة سبق أن قام بخيانة الأسطول: إلى مرتبة عالية كتلك: كما أضاف أنه من الغريب عدم دخول المصموديين خفية داخل القصر الملكى، حتى يخطفوا الملك وكل كنوزه. ولكن كونت موليزى الذى كان مناصراً لبيترو، كان ينفى أنه كان عبداً، فى حين حرره جوليلمو الأول فى وصيته، اقرأ تحريره الملك الجديد والملكة. فى كتاب كاروزو، .*Bibl. sic*، ص ٤٥٤.

روترو(1)، أحد كونتات بيرش (١١٦٧). كان الموالون للبابا من بلاد ما وراء جبال الألب مهتمين بأن يكون حكم صقلية فى أيد أمينة، بينما كان يجرى حسم التنازع الواسع الذى شمل إيطاليا؛ وتوجه النظر إلى مملكة صقلية وما تذخر به من كنوز وسلاح، وإمكانية ترجيحها للموازين إن قررت وارتمت فى جانب الساندرو الثالث، بدلاً من أن تتلاعب كما كان يعمل بلاط بالرمو، عملاً برأى مستشاريه من السكان الأصليين، الذين كانوا موضع شك الإمبراطور والبابا على حد سواء. وفى هذه الظروف جرت محاولة غير مباشرة لصالح بكيت، رئيس أساقفة كانتربورى الشهير، الذى تخاصم مع رئيسه وانتظاراً لقرار روما، أراد البلاط والإكليروس الفرنسى أن يدافع تاج صقلية عن رئيس الأساقفة الثائر، لدى البابا والكرادلة. والدليل على ذلك ثابت فى رسائل بيترو دا بلوا، وچوفانى دا سالزبورى، ولويس السابع ملك فرنسا ورسائل بكيت ذاته؛ الذى كتب، ذات مرة، للملكة مرجريتا، أنه يرسل إليها بمبعوث يتحدث باسمه وباسم دير كلونى عن «فكر الكنيسة الغربية كلها»(2). وتكفى هذه الكلمات للكشف عن الطائفة كلها.

وجاء الشاب النبيل، الشجاع، المحب للعدالة، إلى صقلية بصحبة

---

(1) انظر بشأن هذه العائلة النبيلة، چيل برى، *Histoire du pays et comte du Perché*. باريس، ١٦٢٠. كانت أراضى كونتية بيرش تقابل تقريباً الأراضى الحالية لتقسيمات أورن واور ولوار.

(2) انظر بيترى بليسنسيس، *Epistolæ*. ارقام ١٠ و٤٦ و٦٦ و٩٠ و٩٢. وقد أعاد كاروزو طبع بعضها، المرجع السابق، ص ٤٨٩ و٥٠١؛ و*Canterburiensis Epistolæ Thomæ*، الكتاب الأول، الرسالة ٥٦ و٥٧ و٥٨، من طبعة بروكسل، ١٦٨٢؛ ورسائل چوفانى دا سالزبورى، من مدونة الفاتيكان، الكتاب الثانى، الرسالة ٦١ والكتاب الثالث، الرسالة ٨٠، لدى بارونيو، *Annales*. عام ١١٦٨، § ٦٢؛ وقارن عام ١١٦٩، § ٢: والرسالة رقم ٢ للودوفيكو ملك فرنسا السابع وجوليلمو الثانى بصقلية، وعام ١١٦٩، فى *Collection de Documents inédits sur l'histoire de France, Série, Lettres des Rois, etc*، المجلد الأول، باريس ١٨٣٩، ص ٣. هذه الرسالة تم إرسالها إلى بلاط بالرمو على يد تيوبالدو رئيس دير كريبى، ووكيل دير كلونى، وكانت بمثابة أوراق اعتماد له لدى جوليلمو الثانى.

رجال علماء، وأعوان أقوياء، وطامعين أيضاً من أصحاب المصالح: واستقبلته الملكة قريباً من أقربائها، وبطلا وقيل أيضاً أكثر من ذلك: وعين فى الحال رئيسا لديوان المملكة، ثم ما لبث أن أصبح كبير أساقفة بالرمو، وكانت سعادة البابا لذلك كبيرة. وبدأ ستيفانو فى التو فى إصلاح المحاكم والإدارات العامة التى ترك بها النظام القائم نقائص كثيرة. وفتحت العدالة حينئذ المجال لمطالبات بالثأر من الوصفاء ومناصريهم، حتى أنه، إلى جانب القوانين العادلة، كانت تطبق، غير العادلة أيضاً، حين كان بإيعاز من مسيحيى بالرمو، يتم الحكم على كثير من المسلمين، بتهمة إنكار الدين(1). وكان هؤلاء البؤساء مثالاً شجع المواطنين على المطالبة بتعذيب أحد التعساء كان فى حماية البلاط، وهو روبرتو دى كالاتابيانو، وقد اتهم بتجاوزات كبيرة، ومن بينها إصلاح مسجد فى القلعة على البحر وأنه يمتلك حانات، يُدفع فيها فتيات وصبية مسيحيون لممارسة البغاء مع المسلمين. وكادت تصرفات ذلك المبعوث تهدد بهدم خطة بيكت بكاملها؛ لأن الوصفاء أسرعوا بالخضوع عند أقدام الملكة والتوسل إليها، واستحلفوها بألا تتخلى عن ذلك الخادم الأمين وهكذا قاومت ستيفانو لأول مرة ومنعته من المضى قدماً فيما كان يريده. وكف الشاب الذى تربى فى مدرسة جيدة، عن الاتهامات المميتة التى تدخل فى مسئولية القضاء العلمانى؛ ولبس ثياب رؤساء الأساقفة وأخذ يشق طريقه فى تلك المواد التى قصر رجال الكنيسة مباشرتها على أنفسهم، وسط فوضى العصور الوسطى. واجتمعت محكمة الإكليروس علانية، وكان لها دوى كبير ووُجهت لروبرتو تهم حنث اليمين، وزنا المحارم، والزنا، وحكم عليه بالجلد والسجن، ومصادرة

---

(1) "Panormitani... multos apud eum accusaverunt apostates de Christianis Saracenos effectos, qui sub eunuchorum protectione diu latuerant" : هكذا كتب فالكاندو، المرجع السابق، ص ٤٦١. ويبدو لى أن المقصود هم المسلمون الذين دخلوا المسيحية؛ وليس من ولدوا مسيحيين والذين إن حدث ودخل أحدهم فى الإسلام، فإن هذا يكون حالة نادرة جداً فى تلك الآونة.

ممتلكاته؛ لذا مات فى ذات السجن المؤبد الذى طالما عذب آخرين فيه. كما أعطى ستيفانو نماذج للعدالة لا تقل فى صخبها عن ذلك فى مسينا: وأرضى غضب الشعب فى كل مكان وحصل منه على تأييده له. وبارك خطواته لونجوبارد رانداتسو، وفيكارى، وكابيتسى، ونيقوسيا، ومنياتشى ولونجوبارد قلاع جبلية أخرى؛ وبعد قليل، وعندما اقتضت الظروف، قدموا له عشرين ألف رجل مسلح، لمحاربة المدن والبارونات الذين كانوا يقومون ضده.

ولأن رجال البلاط، وقد استكانوا فى بدايات ضجيج الأحكام إلى ذلك فقد بدأوا شيئاً فشيئاً يستاءون، ويستنكرون ويهمهمون ضد الفطرسة الأجنبية، وضد جشع خدم القصر، وضد الضرائب التى كان يفرضها الفرسان الفرنسيون، الذين كان ستيفانو يمنحهم إقطاعيات حتى يجذبهم إلى صقلية ويزيد بهم من أهل ثقته، وقد أصبحت ضرورية أكثر من أى وقت مضى لكى تحافظ له على القيادة. وكانت الشكوك تدور حول نائب رئيس الديوان ماتيو دايللو، والخصى ريكاردو، وچنتيلى، أسقف چرچنتى، وقيل إنهم كانوا يدبرون لقتله بيد مأجورين؛ ولكن ما هو مؤكد أن العديد من بارونات البر الإيطالى، بعد أن شجعوا اريجو شقيق الملكة، أخذوا يحيكون ضد ستيفانو المكايد البرلمانية، ويعدون جيوشاً إقطاعية، ويحرضون شعب مسينا على التمرد. وأدت أخطاء الفرنسيين وممارسات السكان الأصليين إلى أن تحولت مشاعر الشعب فى كل مكان ضد رئيس الديوان، حتى أنه لما عاد إلى بالرمو (مارس ١١٦٨)، وكان يستعد للحرب الأهلية، سقط بفعل فاعل.

وساعد المسلمون فى ذلك. فقد كتب فالكاندو(1) أنهم أحبوا رئيس الديوان فى بداية عهده، ولعل ذلك كان فى البدايات الأولى، حينما لم يكن قد بدأ يحكم بأحكام الارتداد عن الدين. كما أن أبا

(1) المرجع السابق، ص ٤٦٣.

القاسم، الرجل القوى، عريق الأصل، وسوف نتحدث عنه بالتفصيل، إذ يسترسل فالكاندو فى حديثه عنه يقول إنه كان صديقاً لرئيس الديوان، وإنه بعد أن قدم له هدايا كثيرة تحول إلى تحريض المسلمين ضده، وقد شعر بأنه خُدع لأن ستيفانو كان يتعامل فى مودة مع جايتو اسمه سدكتو (صِدّيق) وكان مسلماً واسع الثراء، وعدواً لابى القاسم على وجه الخصوص. وكما هو واضح فإن فالكاندو يكرر هنا كلام ستيفانو وأتباعه وينسى الدوافع الرئيسة، وأقصد بها الاضطهاد الدينى واغتصاب الإقطاعيين الفرنسيين لحقوق التابعين لهم(1).

ووسط ظروف الصقليين تلك، على اختلاف أصولهم وأديانهم، حاول ماتيو والجايتو ريكاردو، وكان أحدهما سجيناً والآخر محددة إقامته بالقصر، حاولا خطف كبير الوزراء أو قتله، تحت أعين الملكة والملك. واستخدما لذلك الفرض الخدم وضاربى الرماح المستقرين بالقصر الملكى، ولما لم يستطع هؤلاء اصطياد رئيس الديوان داخل أسوار القصر، هرعوا يبحثون عنه خارجاً؛ وجَرّوا وراءهم، بعد أن وعدوهم بالغنائم، المتمردين القاطنين بطريق كوبرتا وسكان القطاع العلوى بطريق مارموريا(2)، وهاجموا قصر رئاسة الأسقفية؛ وبينما كان الفرنسيون يقومون بالدفاع عنه بما عرفوا به من قدرة وقوة، كانت أبواق الملك وطبوله تدق للتجمع ضد رئيس الحكومة. وحمل

---

(1) ورد ذكر *Gaytum Sedictum* فى مؤلف فالكاندو. أما فى المخطوطات الجيدة الموجودة بالمكتبة الإمبراطورية بباريس، *Mss. latins*، ٥١٥٠ و٦٢٦٢، *Saint-Victor*. ١٦٤، فقد ورد بها *"Se dictum"*. ويبدو لى أن القراءة الأولى أفضل وأنها أكثر قرباً من أسماء مثل صِدّيق *Siddik*، أو صداقة *Sadáka*. حيث لا أتذكر أن أحداً يمكن أن يُنطق اسمه *se*.

(2) إن طريق مارموريا يكاد يكون الطريق ذاته الذى يسمى حالياً كاسارو *Cassaro*: أما الجزء العلوى منه فقد كان يمتد، فى القرن الثانى عشر، من كولليجو نووفو حتى مقر كبير الأساقفة الحالى، حيث إن ميدان القصر الملكى كانت تحتله آنذاك الحلقة، التى تناولناها بالحديث فى الكتاب الخامس، الفصل الخامس، ص ١٤١، ١٤٢ من هذا المجلد. أما عن فيا كوبرتا الطريق المغطى، الذى كان يمتد من القصر الملكى القديم إلى الكنيسة الكبرى القديمة، فكان يقابل الحى الذى يمتد حالياً تحت مستوى سطح بابيريتو.

جميع الشعب سلاحه، واقتحم المسيحيون والمسلمون القصر. وعندما احتمى ستيفانو فى المنارة، تفاوض فاتفق على الخروج من صقلية ومعه جميع اتباعه (١١٦٨) وذهب إلى أورشليم (القدس)، حيث توفى بعد فترة وجيزة(1). ولما كانت الملكة دون مناصر، والملك لايزال صبياً، فما كان بإمكانهما التعرض للقائمين بمحاولة الاغتيال ولأصدقائهم القادمين من مسينا بقوى عسكرية، وأن يحولا دون جمعهم ثمار النصر. وباسم جوليلمو الثانى أمسك بزمام النظام العام مجلس عشارى، إن جازت هذه التسمية. ويتكون من: ريكاردو الإنجليزى. أسقف سيراكوزا المختار، وجنتيلى أسقف جرجنتى، وروموالدو رئيس أساقفة سالرنو، وجوفانى أسقف مالطة، وروجيرو كونت جيراتشى، وريكاردو كونت موليزى، وأريجو كونت مونتسكاليوزو، شقيق الملكة، وماتيو دايللو السالرنى، والجاييتو ريكاردو والإنجليزى جوالتييرو أُفاميليو، كبير جرجنتى ومُعَلِم الملك. ولكن وبعد قليل، حينما بلغ جوليلمو سن الثامنة عشر عمل جوالتييرو على أن يختاره الملك كبيراً للوزراء، بعد أن تحايل فى تلك الأثناء حتى اختاره الكهنة رئيساً للأساقفة، وأخذ رفيقين له فى الحكم وهما ماتيو وبالمر وصرف الآخرين جميعاً. ويختتم فالكاندو روايته بهذه الأحداث وبهذه الكلمات الخطيرة: «إن السلطة فى المملكة وكل الأعمال قد وقعت فى يدى جوالتييرو، الذى التصق بالملك فى ألفة مشبوهة للغاية، حتى بدا أنه لا يحكم الشئون العامة بقدر تحكمه فى الملك ذاته»(2).

إلا أن جوليلمو كان يفلت أحياناً من يدى رئيس الأساقفة؛ الذى لم يحدث أبداً أن أبعد عنه المستشار ماتيو شديد الحنكة فى إدارة

(1) إن هذه الأحداث يمكن استخلاصها بمقارنة حديث فالكاندو، وهو نصير، غير أعمى، لستيفانو، مع روموالدو السالرنى وكان أحد المتآمرين. انظر أيضاً جوليلمو الصورى، فى الكتاب العشرين، الفصل الثالث.

(2) المرجع المذكور، ص ٤٨٦.

الشئون العامة، والرهيب فى قدرته على التحايل. وكان ماتيو يتزعم الجـانب القـومى فى البـلاط، وهو الجـانب الذى كان يضـم الأمراء الشرعيين والنبلاء، ومعهم جميع القادة ورئيس أساقفة سالرنو وأساقفة آخرون وكان الإنجليزى أفاميليو وبالمر يتبعان هذا القسم ضد ستيفانو ورجاله الفرنسيين؛ وعند تقسيم المناصب حصلا على كرسيى صقلية الأسقفيين. ولكن حينما تفرق المشاركون بعد أن ضربوا ضربتهم، أخذ ماتيو مع السكان الأصليين أحد الجانبين؛ بينما ظل بالجانب الآخر، تحت قيادة جوالتييرو، رجال ما وراء الجبال الناطقون بمختلف اللغات وبعض البارونات: وظل الجانبان كما كانا دائماً فى أوائل أيام المملكة؛ وكانا متعقلين لدرجة أنهما لم يظهرا أى تمرد أو شائنة خارج القصر. وهو اعتدال يرجع، فيما أظن، إلى أصول القادة المتواضعة، سواء أكانوا رجالاً جدداً أم أتباعاً بالقصر؛ كما يرجع إلى استعداد الشعب الذى ما كان ليتقبل الثورة ضد الملك الصالح؛ ويرجع كذلك إلى ذات شخصية جوليلمو، الذى كان يعمل على إرضاء كلا الوزيرين ويحسن سياسة الفصائل التى ما كان باستطاعته قمعها: كان حكيماً فى الأمور الصغيرة، وغير كفء فى الكبيرة منها. وبعد زواجه (١١٧٧) ولما رأوا أنه لم ينجب أبناءاً، اجتهد كلا الطرفين فى تحديد من يخلفه: فحاول السكان الأصليون تصميد الأمير تانكريدى، رغم ميلاده غير الشرعى؛ أما عن أهل ما وراء الجبال فقد أرادوا ضمان حقوق كوستانسا، بتزويجها لأحد كبار الأمراء، وليغمر الطوفان بعد ذلك إيطاليا الجنوبية. وهناك آثار لذلك الخلاف فى بعض الأحداث التى سوف نقوم بسردها فيما بعد؛ وقلما وجدت هذه الآثار أو ربما لم يكن لها وجود فى مجال الإدارة الداخلية، حيث كانت منظمة وراسخة ولم تزعزعها خلافات البلاط. ويحق لنا أن نحكم على مُلك جوليلمو الصالح بحكمين مختلفين تماماً عن بعضهما، إذا ما نظرنا للحكم من الداخل، أو إلى العمل السياسى فى الخارج. فيظهر فى أولهما عادلاً دون ضعف؛ منظماً دون شح أو قسوة؛ متبعاً القوانين

الأصلية، خارج نطاق المواد الكنسية؛ مهتماً بأمن المواطنين فى الداخل والخارج: وكان أمناً تاماً رائعاً، كما كان أيام الملك روچيرو. وذلك بفضل الازدهار الاقتصادى الذى كان يصاحبه. أما عن الخارج فلا يصح تسمية جوليلمو لا بالمسالم، ولا بالمحارب؛ لأنه قام بعدة حروب ما كان يجب خوضها؛ وتحاشى الحرب الوحيدة التى كان يجدر أن تكون كبيرة وضرورية له؛ وإذ كان يقضى حياته فى قصوره وحدائقه، بين الدراسات الرفيعة والتسليات الراقية، بدد فى سبيل عمليات بعيدة من الأرواح والأموال ما يفوق ما كان لينفقه جده وأبو جده فى غزواتهم.

وإذ نواصل خطتنا فى سرد تلك العمليات الخارجية فقط، التى مست دولاً إسلامية، فإنه يجدر بنا أن نذكر أن جوليلمو الصالح، قد فاخر، من خلال ممثليه من المتحدثين فى مؤتمر ڤينيسيا (١١٧٧)، بأنه لم يقم بأية حرب ضد أمراء مسيحيين؛ وبأنه يتعقب، فى البر والبحر، من بين الأمراء، أعداء المسيح فقط، حتى إنه بصرف النظر عن التكلفة كان يرسل كل عام، «سفنه الحربية» وهى محملة بالجنود ليحاربوا غير المسيحيين وليؤمّنوا طريق البحر الذى يسلكه الحجاج إلى الأراضى المقدسة(1). وإذا أخذت هذه التصريحات على أنها تشتمل أيضاً على شئ من الخطابة، وإذا ما كان هدف العمليات هو تشجيع تجارة المملكة فى أفريقية وفى بلاد المشرق، فسوف يظهر ذلك بلاط بالرمو بمظهر الحكمة العالية. وحقيقة الأمر أن جوليلمو كان ينظر إلى الحملات الصليبية نظرة جادة، حتى أنه كان هو أول من تحاشى من عشيرته مخاطر الميدان وجهده، ومن رأى جنوده يعودون فى غالب الأحيان فى حالة سيئة. وضحك المسلمون، بدورهم، من حماس بلاط بالرمو غير المعتاد. ولدينا إحدى رسائل صلاح الدين، كتبها للخليفة ببغداد عن طريق أحد كتاب ديوانه الفصحاء، أرسل يقول إنه

---

(1) روموالدو السالرنى، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩.

ينعى لحال ذلك الصبى ذى الخمسة عشر عاماً الذى أهلك ماله فى الحملة ضد الإسكندرية، لمجرد أن يتباهى ويتفاخر أمام العالم بأنه يستطيع أن يتحدى عدواً صد منذ قليل أولى سيوف المسيحيين(1)، عن دمياط.

وما تخلفت جيوش جوليلمو فى عملية دمياط هذه، التى كان يحلم مانويل كومنينو واميريجو ملك أورشليم (القدس) بفتح الطريق بها إلى غزو مصر، فى بداية الاضطراب عند استيلاء صلاح الدين على الحكم. ونستخلص من المؤرخين المسلمين أن المشاركين قد أتوا بألف ومئتى سفينه، وحاصروا دمياط لخمس وخمسين يوماً، خلال شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١١٦٩؛ وأنهم حصلوا على تعزيزات من صقلية ومن أراضى مسيحية أخرى؛ ولكنهم انسحبوا بعد خسارتهم ٣٠٠ سفينة، حيث هرع صلاح الدين لنجدة المدينة، ومعه رجال ومال ومؤن، كما بادر إليها نور الدين، بقوات عظيمة من سوريا(2).

ولم يكف هذا المثال لتحذير بلاط بالرمو حتى لا يلقى بنفسه فى عملية تفوق تلك فى تهورها، ذلك حينما كان صلاح الدين قد تمكن من القضاء على آخر الخلفاء الفاطميين، ورفع فى مصر شأن الخلافة العباسية، وقسم الهبات العسكرية على رجاله من الأكراد والأتراك، وأظهر للعالم بزوغ نجم فاتح جديد بين المسلمين. وتحرك رجال من كبار الدولة بقيادة أحد شيعة اليمن المتحمسين، ويُدعى عمارة بن أبى الحسن، وكان فقيهاً وشاعراً له صيته فى تلك الآونة، واتفقوا على إعادة الفاطميين؛ ووجدوا أنصاراً لهم بين رجال البلاط، ورجال الجيش بمصر، وبين الزنوج المرتزقة وبين أمراء صلاح الدين ذاتهم؛ وإذ لم يكتفوا بقواتهم، أرسلوا فى طلب العون من ملك أورشليم

---

(1) ابو شامة المقدسى، فى المكتبة العربية ـ الصقلية. النص، ص ٣٢٦. راجع رينو *Extraits... relatifs aux Croisades*، ص ١٨٤، ويرى أن الرسالة حررت ١١٨٢.

(2) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٦٥، نص تورنبرج، المجلد ١١، ص ٢٣١، والمقريزى، المواعظ، نص بولاق، المجلد ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥. وقد لخص كليهما رينو، *Extraits... relatifs aux Croisades*، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(القدس) وملك صقلية، ووعدوا فى مقابل ذلك الأموال والتنازل عن بعض الأراضى. ولما كان عمارة متغلغلاً آنذاك داخل بلاط صلاح الدين، فقد دفع أخاه توران شاه لأن يقوم بحملة فى اليمن، لكى يبعده عن مصر: ولكن تلك النصيحة الماكرة عادت بالفائدة على الأيوبيين، لأنه أخضع زبيد، وعدن والبلد بكامله(1). وكانت المؤامرة المرسومة فى مصر تقضى بأنه ما أن ينزل المسيحيون إلى البر، ويسرع صلاح الدين لمقاومتهم بالجيش، حتى يقوم مناصرى الفاطميين بإثارة الشعب ويعيدوا الفاطميين للعرش: وأنه فى حالة ما إذا أرسل رجاله ضد العدو، وبقى مع قلة من الجنود بالقاهرة. فسوف يكون باستطاعة المتآمرين السيطرة عليه شخصياً. وبعد أن تم تحديد الخليفة الجديد وموظفى البلاط فيما خلا كبير الوزراء، ولم يعد هناك ما يُنتظر سوى هجوم المسيحيين، ظهر على بن نجا، وهو خطيب أحد المساجد، وكشف الخطة لصلاح الدين الذى أمره بأن يبقى بين صفوف المتآمرين ليتجسس عليهم. ثم علم صلاح الدين بعد ذلك عن طريق عيونه فى أورشليم (القدس) أن أحد مبعوثى اميريجو مزمع على المجئ للتفاوض معه. فى الظاهر، ومع عمارة ورفاقه فى الواقع: لذا حينما جاء المبعوث، أرسل وراءه أحد المسيحيين ممن يثق بهم وعرف منه أسماء المتآمرين. فاختفى حينئذ وحتى النهاية، خيانة أمرائه؛ ونكل بالقادة الآخرين، يوم الثانى من رمضان عام ٥٦٩ (٦ أبريل ١١٧٤) وبدا له أن انتهى كل شئ(2).

وبالفعل ترك ملك أورشليم (القدس) العملية. أما ملك صقلية فقد

---

(1) روى عملية اليمن هذه ابن الأثير، عام ٥٦٩، نص تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ٣٦٠ وما يليها.

(2) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٦٩، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٣٠٨ وما يليها. وفى طبعة تورنبرج، المجلد ١١، ٢٩٢؛ وابن خلدون، المرجع السابق، ص ٥٠٦ وما يليها، وابن خلكان فى ترجمة عمارة هذا، الترجمة الإنجليزية للبارون دى صلان، المجلد الثانى ص ٣٦٧. إن م. رينو فى *Extraits... relatifs aux Croisades*، ص ١٧٢، يورد الترجمة الفرنسية لفقرة من ابن الأثير.

سار قدماً وقام بتجهيزات بحرية كبيرة، حتى أدخل الشكوك فى نفس الخليفة الموحدى والإمبراطور البيزنطى. وكان حكام الإسكندرية هم الذين لم يتنبهوا ولم يعرفوا الخطر قبل أن يطل العدو على الميناء يوم السابع والعشرين من ذى الحجة(1) عام خمسمائة وتسع وستين (٢٨ يوليو ١١٧٤). وكان قوام القوات مئتين وستين شانية، وعلى متن كل منها مئة وخمسين رجلاً، وست وثلاثين سفينة للخيول، وست سفن ضخمة لحمل آلات الحرب، وأربعين مركب شحن لنقل المؤن: وكانت السفن تحمل ٥٠ ألف رجل، منهم ٣٠ ألف محارب، بين راجل وبحار، وألف رجل سلاح وخمسمائة خيال «تركبولى»(2)، وهم، كما اعتقد من مسلمى صقلية؛ أما الباقون فكانوا رجال الخدمات، وعاملين فى الاسطبلات، ونجارين للسفن، وصناع مدفعية(3). ومن بينها شاهد السكندريون ثلاثة آلات منجانيق فى ضخامة لم يسبق لها نظير، وكانت تقذف فى قوة شديدة كتلاً ضخمة من حجارة سوداء، أحضرت خصيصاً من صقلية، كما شاهدوا ثلاثة أبراج متحركة مليئة بالمسلحين ومزودة من أسفلها بكبش، وهو الاسم الذى كان يطلق على رأس مصنوعة من كتلة ضخمة من الحديد تنتهى بها إحدى العوارض(4). أما عن الآلات الأصغر من ذلك، فإنه يذكر منها الجرخ

(1) فيما يخص هذا التاريخ. انظر الهامش الذى نورده فى نهاية الرواية.
(2) اضاف ابن الأثير هذه المعلومة التفصيلية. فحسبما يرى دوكانج. فإن هذا اللفظ، المركب من الاسم الأصلى ولفظ آخر يعنى [illegible] . ويعنى فى يونانية العصور المتأخرة «ابن». يبدو انه كان يحدد فى الأصل ابناء المرتزقة الأتراك بالإمبراطورية البيزنطية. ثم بعد ذلك أطلق هذا الاسم على جنود القصر لدى السيو كومنينو؛ كما أطلق مسيحيو سوريا هذا الاسم على رجال الخيالة. ومن جميع النواحى. بدت تلك التسمية مناسبة للمسلمين الذين كانوا يحاربون تحت رايات صقلية.
(3) إن حالة القوات يمكن استخلاصها من رسالة صلاح الدين. ويكاد ابن الأثير ينسخها بنصها؛ أما ابن خلدون فيزيد عدد الخيالة إلى ٢٥٠٠؛ ويذكر المقريزى أن الشوانى كانت ٢٦٠؛ وهو رقم أرى قبوله لما لهذا الكاتب من دقة كبيرة فى الأمور الخاصة بمصر، ولأنه رقم يتوافق جيداً مع عدد الرجال وهو ٥٠٠٠٠ .
(4) حينما روى بهاء الدين عن حصار باربروسا لسان چوفانى فى عكا؛ وصف دبابة المسيحيين فقال: إنها هيكل ضخم من الخشب، تكسوه صفائح الحديد، وتتحرك فوق

Gerkh، الذى يخرج رماحاً ضخمة(1). ويكتب ابن الأثير أن قائد الجيش كان أحد أبناء عمومة الملك: لعله كان تانكريدى، كونت ليتشى، الذى ارتقى العرش بعد وفاة جوليلمو.

وما أن رست أوائل السفن قبيل الظهيرة حتى بدأ إنزال الرجال إلى البر بالقرب من الفنار(2). ونحو الساعات الأخيرة من اليوم أخذ الصقليون يهاجمون السكندريين الخارجين لمنعهم من النزول إلى البر، وقد خالفوا بذلك تحذير والى المدينة لهم وقد أمرهم بأن يقاوموا من الأسوار. وقد صدوا فى الحقيقة إلى المخابئ بعد أن تكبدوا الخسائر. وفى هذه الأثناء اقتحم الأسطول مدخل الميناء، وكان مملوءاً بالمراكب التجارية والحربية، وأشعل بها النار: إلا أن المسلمين ما أن تنبهوا لتلك الحركة، حتى أسرعوا من البر ووصلوا فى الوقت المناسب، وأغرقوا غالبية سفنهم. وعندما ساد الظلام وسط هذه الاشتباكات، ظل الصقليون على الأرض التى احتلوها، حيث أقاموا ثلاثمائة خيمة.

ومــع مطـلع النهار الجـديد كـانوا قد أعـدوا المنجـانيق: وأقـاموا

عجلات، ويركبها كثرة من المقاتلين. وهى مصلحة بعارضة تنتهى بعنق له رأس من الحديد وكان يسمى «كبش». وإن رجالاً كثيرين يحركونها لتضرب الأسوار. كما أنه تحدث أيضاً عن آلة مشابهه وتتمثل فى سقيفة. يحرك الرجال من تحتها عارضة مصلحة بقطعة من حديد لها شكل المحراث: وكانت تسمى «قط». *Vita Saladini*، ص ١٤١، ١٤٣. ودبابة هى ترجمة للفظ «ترسة».

انظر أيضاً رينو، *Extraits, etc*. ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. وقد وردت مثل هذه التسميات فى سرد عملية الصقليين على الإسكندرية. وقد ورد فى خلاصة رسالة صلاح الدين ما يميز فئات الجيش الصقلى حيث ذكر «رجال الأبراج ورجال الدبابات». ثم فى الحديث عن الحصار نقرأ أنه «قامت ثلاث دبابات بكباشها، وهى تشبه أبراجاً، خشبها فائق الضخامة، وارتفاعها وعرضها هائل، وعدد الرجال الذين يركبونها كبير جداً».

(1) إن خلاصة رسالة صلاح الدين التى يوافينا بها أبو شامة المقدسى، قد ورد بها ذكر أحدهم باسم ابن البصّار وقد قتله رمح من جرخ فى الهجوم الأول. المرجع السابق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤. كما ورد ذكر هذا الاسم بالجمع جروخ فى ترجمة صلاح الدين.

(2) كان الفنار مقاماً فى زمن الإدريسى على بعد ميل واحد من المدينة عبر البحر وعلى بعد ثلاث أميال من البر. ترجمة السيدين دوزى ودى جويج، ص ١٦٦.

الأبراج، وقربوها من أسوار المدينة الضخمة القوية(1)، التى كان الدفاع عنها باسلاً من قبل الشعب ومن جنود الحامية قليلى العدد.
ولما ارتد المهاجمون إلى الخلف، يوم الثلاثاء الموافق الثلاثين من يوليو، استأنفوا يوم الأربعاء وأخذوا يقصفون بقذائف المنجانيق، وعادوا يقربون الأبراج نحو السور؛ وكانوا قد وصلوا إلى مسافة رمية قوس، حينما رأوا المسلمين ينقضون عليهم، وقد عززهم المحاربون من الأراضى المحيطة، الذين هرعوا إلى المدينة من أراضيهم المخصصة لصالح الجنود، كما جاء بعضهم من القاهرة أيضاً. وفى هدوء فتح السكندريون أقفال البوابات الأكثر قرباً من آلات العدو، وتركوا ضلفها مغلقة من الخارج(2)، ونَظَّم قواد الجيش صفوف الخيالة من داخل الأبواب؛ وتجمع الشعب، بسلاحه من الخلف. وفى لحظة انفتحت البوابات على مصراعيها وارتمى الرجال والخيالة باستماتة على الصقليين؛ وهجموا على الآلات أيضاً. فأشعلوا فيها النار. وواصلوا القتال حتى رأوها تهلك. وفى غمرة الفرحة عادوا يدخلون المدينة لتأدية صلاة العصر، حيث وجدوا منادياً يخبرهم ويدفع بهم فى الحال مرة أخرى إلى السلاح(3).

ومنذ أن نزل الصقليون البر، ارسل والى الإسكندرية بالحمام الزاجل رسالة إلى صلاح الدين. وكان يقيم فى مخيم مع الجيش بفاقوس، على الحدود الشرقية للوجه البحرى بمصر؛ ووصلته

(1) ورد النص على قوة وصلابة أسوار الإسكندرية لدى الإدريسى، الموضع المذكور.
(2) يذكر ملخص رسالة صلاح الدين أنهم تركوا لهم الأبواب مغلقة **بالقشور**، ولكنى كتبت معناها «ضلف» حيث لم أجد لها مقابل بالمعاجم. ويبدو أنهم رفعوا ما نسميه نحن بالشيش، وهو ما كان يوضع على مسافات مختلفة داخل حنية البوابة العالية بأسوار المدن أو القلاع، ومع ذلك تركوا الباب الخارجى مواربا.
(3) يتضح من خلاصة رسالة صلاح الدين أن ذلك قد حدث فى اليوم الثانى للقتال، ولكن هناك خطأ بالتأكيد، ان الفقرة نفسها تقول إن الرسالة **وصلت** إلى صلاح الدين يوم **الثلاثاء** الذى كان **ثالث** يوم لنزول الصقليين البر (وثانى أيام القتال) ووصل رسول صلاح الدين إلى الإسكندرية **رابع** أيام نزول البر (وثالث أيام المعركة) وكان يوم **الأربعاء**. ويقول ابن الأثير فى تعبير محدد إن المعمعة كانت ثالث أيام المعارك.

الرسالة يوم الثلاثاء، فأرسل فى الحال فرقة لتعزيز حامية دمياط، إذ كان يخاف عليها أيضاً؛ ورحل بنفسه مع غالبية رجاله فى اتجاه الإسكندرية، وبعث بالخبر مع عبد أمين سبقه وبيده لجام ثلاث خيول، يبدلها أثناء الطريق. ووصل عصر يوم الأربعاء، بعد أن قطع ما يقرب من مئتى كيلو متراً(1) فى أقل من أربع وعشرين ساعة. وأعلن قرب وصول صلاح الدين على الشعب المجتمع: وها هم، حسبما كتب ابن الأثير، وقد نسى كل واحد منهم أتعابه وجروحه، وشعر بأن القائد الكبير يقف إلى جانبه شاهداً على بأسه فى القتال، وها هم يفتحون البوابات مرة أخرى ويهجمون على المسيحيين.

وكان الصقليون قد أعياهم التعب من المعركة الأولى، ثم أنهم أخذوا على حين غرة، وقت أن بدأت عتامة المساء، بينما أخذت تصل إلى آذانهم جلبة ذلك الشعب المولع بقائده وهو يهتف باسم صلاح الدين، لذا لم يوفقوا فى دفاعهم عن معسكرهم. ودخله العدو: وقام بمجزرة بين المشاة؛ وأخذ الغنائم من كل أصناف السلاح والمنقولات الثمينة؛ بينما النبلاء والأتباع، والقادة والجنود يفرون فى اضطراب نحو البحر: وقَرّبوا الشوانى من البر: وركبوها كل قدر استطاعته: فمنهم من خلع درعه وألقى بنفسه ليعوم، ومنهم من سقط فى البحر وهو يتسلق المركب. وكان المسلمون على جوانبهم؛ يطاردونهم داخل الشوانى ذاتها، أو يغطسون تحتها بأدوات من حديد ليخربوها، أو يشعلون فيها النار: حتى هلكت منها أكثر من شانية. وبعد أن تم ترتيب المراكب قدر الإمكان خلال الليل، ارتحلت فى الصباح التالى، أول أغسطس، وهى تحمل إلى صقلية بقية الجيش البائسة. ووسط الهزيمة لجأ ثلاثمائة فارس إلى مرتفع، وحاربوا طوال الليل وحتى الصباح التالى، ضد جموع المسلمين التى كانت تتزايد فى عددها ودفاعها العنيف؛ ولكن الكثرة غلبت فى آخر الأمر مجموعة الشجعان تلك:

---

(1) إن ابن الأثير، الذى عرفنا منه خبر إرسال هذا الرسول، يقول إنه وصل «فى يوم الرحيل نفسه». وتقع فاقوس على أقصى فرعى النيل نحو الشرق، على حدود صحراء السويس، وعلى مسافة غير بعيدة عن بحيرة المنزلة.

وقتلوهم جميعاً أو أسروا بعضهم، ولم ينج منهم أحد. هذا ما ورد بالمصادر الإسلامية.

إن مصادر بيزا، وقد توقفت عند هذا الحد فى السرد، قد أوردت عدد المراكب بتباين قليل، دون أن تذكر نتيجة العملية. كما أن جوليلمو الصورى، مؤرخ الحملات الصليبية، يشير إليها إشارة قليلة. أما عن فالكاندو وروموالدو السالرنى فروايتهما متوقفة قبل ذلك العام. ويرى أحد المعاصرين مجهول الاسم أن جوليلمو قد نزل شخصياً بالإسكندرية وأنه عاد منها بعد سبعة أيام وهو يحمل خزيه. وتذكر أخبار مونت كاسينو الشحيحة، أنه فى عام ١١٧٤، ذهب أسطول الملك إلى الإسكندرية ولم تضف إلى ذلك شيئاً(1). ورغم ذلك فإن بعض المحدثين وقد أرادوا أن ينسبوا للملك الصالح شرف

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٥٧٠، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٣١٠ وما يليها. وفى طبعة تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ٢٧٢ وما يليها؛ وأبو شامة المقدسى، فى **المكتبة** ذاتها، ص ٢٣٢ وما يليها، وهو يورد خلاصة رسالة كتبها صلاح الدين لأحد أمرائه فى سوريا؛ وابن خلدون، المرجع السابق، ص ٥٠٨؛ والمقريزى فى **المكتبة** ذاتها، ص ٥١٨ حيث ينبغى تصحيح التاريخ الأول إلى ٥٦٩. وفى **مشارق الأشواق**، طبعة بولاق ١٢٤٢ (١٨٢٦ ـ ١٨٢٧) ص ١٩٦، ١٩٧. يوجد موجز رواية أبى شامة وابن الأثير نفسها. ويتناوله بالحديث أحد المعاصرين فى العمل الجغرافى الذى تمتلكه المكتبة الإمبراطورية بباريس، ملحقات عربية، ٩٠٦ مكرر، ورقة ٤٧ الوجه الثانى. وبهاء الدين، *Vita Saladini*. طبعة شولتنس، الفصل ١٢، ص ٤١، حيث ترد إشارة لهذه العملية التى قام بها الفرنجة، دون ذكر أنهم كانوا من صقلية. كما أضاف المؤلف أنهم انسحبوا بعد ثلاثة أيام وبخسارة فادحة؛ ويحدد مراكبهم بستمائة ثم ينقل تاريخ وقوعها إلى شهر صفر ٥٧٠ (سبتمبر ١١٧٤). وعلاوة على السفن الحربية، فقد ذكر المؤلف سفن البوست *Le boste* وهو نطق مُطوّع للفظ *"buzzo"* بلغتنا. وإن كان خطأ المؤلفين فى التاريخ طفيفاً، فلا يجب أن تغمض عنه العين. فأبو شامة، الذى نقل النص الذى فُقِد لعماد الدين، يقول إن الصقليين نزلوا فى البداية يوم الأحد، ٢٦ ذو الحجة ٥٦٩ وهزِموا أول محرم ٥٧٠. والشئ نفسه يكتبه ابن الأثير؛ وذلك يعنى أنه باستبعاد يوم نزولهم من المراكب، ظل المحاصِرون تحت أسوار الإسكندرية، لمدة خمسة أيام كاملة. وحيث إن عام ٥٦٩ هـ، سنة كبيسة، كما يمكن أن نطلق عليها نحن، فقد كان شهر ذى الحجة ٣٠ يوماً بدلاً من ٢٩. ومن جانب آخر، فحيث إن ذلك العام قد بدأ بيوم أحد، وشهر ذو الحجة بيوم ثلاثاء، فإن يوم ٢٦ منه كان يوم سبت وليس أحد. ولكن خلاصة رسالة صلاح الدين كما وصلت لنا من أبى شامة، تحدد أيام الأسبوع فقط: بمعنى أن نزول البر كان يوم الأحد، والهجوم يوم الاثنين والثلاثاء، والمعركة الكبرى

الانتصار، تحدثوا عن اقتحام للإسكندرية وجلب لغنائم ثمينة إلى صقلية(1).
وحينما لم يجد هؤلاء الكتاب شهوداً من خاصتهم، وجدوا ما لم يتوقعوه من عون لدى المسلمين. ومنهم نعلم أنه فى العام التالى

والهزيمة يوم الأربعاء، وانسحابُ الأسطول الخميس. وهو يوم الخميس الموافق بالضبط اول أغسطس ١١٧٤، بداية محرم ٥٧٠ بالحساب الفلكى الهجرى، الذى يبدأ اول أيامه من منتصف نهار ١٥ يوليو ٦٢٢، بدلاً من ١٦ كما يحسب عادة، بحيث يشمل الليلة السابقة له. وعلى ذلك يتبين أن اليوم الذى حدده المؤلفون لهزيمة المسيحيين، هو اليوم ذاته الذى ابتعد فيه الأسطول عن الإسكندرية، وليس يوم آخر معركة، وانهم أرخو خطأ يوم نزول البر بتاريخ ٢٦ بدلاً من ٢٧. إن منهج التحديد الزمنى غير الدقيق المتبع فى الشرق، ومبدأ حساب أول الشهر لدى رؤية الهلال، يفسران مثل هذه المفارقات. إن أيام تلك العملية الفاشلة يجب تحديدها كما يلى:

الأحد ٢٧ ذو الحجة ٥٦٩ ٢٨ يوليو ١١٧٤ نزول البر

٢٨ ـ ٢٩ ذو الحجة ٥٦٩ ٢٩ ـ ٣٠ يوليو ١١٧٤ هجمات

٣٠ ذو الحجــــة ٥٦٩ ٣١ يوليو ١١٧٤ معركة كبرى: هزيمة الصقليين

الخميس ١ محـرم ٥٧٠ ١ أغسطس ١١٧٤ انسحاب الأسطول ـ ومذبحة ٣٠٠ فارس.

وقد أورد رينو أجزاماً من المؤلفين العرب سابقى الذكر فى مؤلفه *Extraits, etc*. ص ١٧٢. وعلىّ أن أنبه إلى أن الهامش رقم ١١ لأستاذى العلامة، غير دقيق. إن أهل فينيسيا، وبيزا وجنوه لم يأت ذكرهم بالنص بصفتهم معاونين لجوليلمو الثانى فى هذه العملية، ولكنهم رصدوا ضمن المسيحيين الذين اعتادوا التعرض لمصر. ومن بين الكتاب المسيحيين نذكر مرانجونى، *Archivio storico italiano*، المجلد السابع، اجزه الثانى، ص ٧١، تحت عام ١١٧٥ من تقويم بيزا، حيث يقول إن الأسطول الصقلى قد خرج يوم ١ يوليو: وقوته ١٥٠ شانية و٥٠ مركباً للخيول و١٠٠٠ فارس، ورماة قوس وفرس كثيرون، وآلات (*ædificia*) كثيرة، وإن الأسطول ما ان وصل إلى الإسكندرية حتى استولى على سفينة من بيزا كانت آتية من فنيسيا: وهنا ينتهى السرد والخبر. انظر إلى جانب ذلك: جوليلمو الصورى، الكتاب ٢١، الفصل ٣: و*Chronica pisana*، لدى موراتورى، *Rer. Italic*. ٧، ١٩١ وهى تنقل من مرانجونى: واخيراً انظر *Cronica anonima* فى *Historia diplomotica Friderici II*، لوييارد ـ بريهول، المجلد ١، ص ٨٩٠. وجدير بالملاحظة ان كاروزو فى *Memorie storiche*، الجزء الثانى، المجلد ١، ص ١٨٦ و١٩٢، يرى حملتين على الإسكندرية، اى فى عام ١١٧٤ و ١١٧٨، وقد استقى خبر إحداهما من جوليلمو الصورى والآخر من أخبار بيزا.

(1) بالميبرى، *Somma della storia di Sicilia*، الجزء ٢، ص ٢٨٥. إن دى بلازى الطيب، يعتقد أن تلك الكنوز قد انفقت فى تشييد كنيسة دومو موريالى. وبعد ذلك فإن صديقى إيزيدورو لا لوميا يستحق أعظم الثناء، إذ أنه وقد طغى عليه إعجابه بجوليلمو الثانى، قد اعترف فى ص ١٤٦ ـ ١١٤٧ بخطأ كاروزو والآخرين، كما أشار إلى ذلك العمل بالإسكندرية، حسب الكتاب المسيحيين والأخبار القليلة التى أوردها المسلمون واطلع عليها فى موجز رينو *Hist. Patr. Alexandriæ*، باريس ١٧١٣، ص ٥٤٠.

للهزيمة، أى سنة خمسمائة وواحد وسبعين (٢٢ يوليو ١١٧٥ إلى ٩ يوليو ١١٧٦)، حاصرت أربعون شانية صقلية تينيس لمدة يومين ثم رحلت. كما حارب الأسطول الصقلى معركة مجيدة سنة ٥٧٣ (٣٠ يونيو ١١٧٧ إلى ١٨ يونيو ١١٧٨). وقد عاد ما يقرب من أربعين شانية للهجوم على تينيس واستطاعت السيطرة عليها بعد يومين من القتال. أما عن القائد المسلم، محمد بن اسحق، الذى قطع عليه العدو طريق العودة إلى السفن. فقد تقهقر فى هدوء ومعه فريق إلى المصلى، أو إذا أردنا القول إلى أرض خلاء، كانوا يؤدون فيه الصلاة؛ وعندما حل الليل انقض على الصقليين بالمدينة، وما كانوا يتوقعون هجوماً؛ وأخذ منهم مائة وعشرين رجلاً وقطع رقابهم. ولما طاردوه مرة أخرى حتى المصلى وقاتلوه بضراوة، ترك سبعين من رجاله على أرض المعركة: وفر مع الباقين إلى دمياط. وعندما عاد الصقليون يدخلون المدينة، أخذوا يستولون على ما بها، ويضرمون بها النار. ويحمّلون مراكبهم بالغنائم. ويملؤونها بالأسرى، ثم رحلوا فى اتجاه الإسكندرية. واستمرت أربعة أيام عملية تينيس تلك(1). أما عما قام به الأسطول من أعمال بالإسكندرية، فذلك ما لا نعرف عنه شيئاً.

وفيما ورد على عجالة بخاتمة الجزء الأول من بيان المغرب، نقرأ أنه فى عام خمسمائة وثلاثة وسبعين (١١٧٧ ـ ١١٧٨) نفسه كانت المهدية تعانى من إحدى هجمات المسيحيين، أطلقوا عليها اسم حدث الجمعة: حيث اتخذ المواطنون أيام الأسبوع الأخرى لتحديد أسماء هجمات عام الف وسبعة وثمانين. وعام الف مائة وثمانية وأربعين والف مائة وثلاثة وستين(2). أما عن هجوم عام ثمانية وسبعين فإنه يجب نسبه إلى أهل جنوه أو بيزا، حيث إنه

(1) المقريزى، **المواعظ**. نص بولاق، المجلد ١، ص ١٨٠. وهنالك إشارة إلى هذه المضايقات المتكررة، وردت فى الفقرة سالفة الذكر من تقرير صلاح الدين إلى خليفة بغداد، حيث نقرأ. (فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٣٣٦)، «انه كثيراً ما دار الحديث عن سفن ملك صقلية، وأعمال جيشه لا تخفى على أحد».

(2) **بيان المغرب**، النص. **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٣٧٤. انظر الفصلين الثانى والرابع من هذا الكتاب، ص ٤٠٤ و٤٧١ من المجلد.

من غير المعقول أن يحاول الأسطول الصقلي خوض معركة كبيرة فى خليج قابس وأخرى فى الوقت نفسه عند مصب النيل(1). بل على العكس فلعل بلاط بالرمو كان يبغى السلام مع الموحدين، أملاً فى تنشيط حركة التجارة مع أفريقية، وكانت قد تدهورت أو ربما خمدت بعد أحداث عام ستة وخمسين. وما كانت صقلية لتنتظر سوى الخسائر من جراء تلك القلاقل الجديدة بتلك البلاد: فى الجانب الشرقى منها، عمليات جماعات الأتراك الذين أتوا من مصر فى محاولة للحصول على مكاسب باسم صلاح الدين(2): مع وجود زعامات من البربر، وقبائل عربية هنا وهناك غير طيعة ورافضة لحكم الموحدين، عندما رأوا الخليفة أبا يعقوب شديد الانشغال فى حروب اسبانيا. وعندما مدت الثورة جذورها فى قفصة، تحرك أبو يعقوب من مراكش بالجيش؛ وتوقف فى بجاية، مقر قائم مقامه فى أفريقية: ثم ذهب بعد ذلك إلى قفصة وسيطر عليها، أول أيام عام خمسمائة وستة وسبعين (٢٨ مايو ١١٨٠) بعد حصار استمر ثلاثة أشهر(3). وفى طريق عودته، توقف فى المهدية حيث وجد بها رسلا من جوليلمو الثانى.

وإذا ما أولينا ثقتنا بما يورده روبرتو، رئيس دير مونتى سان ميكيلى، فسوف نفهم أن كرم الملك جوليلمو قد غلب أبا يعقوب، حيث كان قد أطلق سراح إحدى بناته التى أخذها الأسطول الصقلى من إحدى سفن الموحدين، التى كانت تنقلها كى تتزوج من أحد الملوك

(1) وحسب مجريات الأمور فإنه يمكن افتراض عمليتين صيفيتين كذلك فى عام ٥٧٢ نفسه، الذى بدأ فى نهاية يونيو ١١٧٧ وانتهى فى ١٨ يونيو ١١٧٨.

(2) ابن الأثير، عام ٥٦٨ و٥٧٦. النص، بطبعة تورنبرج، المجلد ١١، ص ٢٥٦ و٣٠٩. إن رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد، التى تضمنها مؤلف أبى شامة، والتى أوردت فقرات منها فى المكتبة العربية ـ الصقلية، قد ورد بها أنه باسم السلطان تم احتلال برقة وقفصة وكاستيليا (قشتاله) وتوزر. المخطوط العربى بالمكتبة الإمبراطورية، باريس، *Ancien Fonds*، ٧٠٧ *A*، ورقة ١٢٨ الوجه الثانى.

(3) ابن الأثير، عام ٥٧٦، الموضع السابق. قارن القرطاس، طبعة تورنبرج، النص، ص ١٣٩ والترجمة ص ١٨٦؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، ٢، ٢٤، ٢٠٢.

المراسنة. ولكن نهاية الرواية تقلل من أصالة بدايتها، حيث أوردت أن الموحدى قد أعاد بدوره لملك صقلية مدينتى أفريقية وزويلة؛ وهو الأمر الذى لم يحدث، ولم يكن ليحدث(1). وحسب رواية المراكشى، فإن جوليلمو قد طلب التصالح مع أبى يعقوب لأنه كان شديد الخوف منه، والتزم بدفع إتاوة له، علاوة على الهدايا الثمينة التى قدمها له، ومن بينها، حجر ياقوت أطلقوا عليه ظلف الفرس، لشكله وحجمه؛ وهى جوهرة، فاق ثمنها كل الأثمان، وقد ظلت بادية للعيان حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر، وتميزت ببريقها على غيرها من الجواهر التى ترصّع بها غلاف نسخة من القرآن، من بين تلك النسخ التى أرسلها الخليفة عثمان إلى الولايات حينما وحد خط المصحف(2). وهناك خطأ واضح فى هذه الرواية أيضاً لأن نورمان صقلية ما كانوا ليتضعوا كى يبتاعوا السلام؛ بل يمكن تصور على عكس ذلك أن بضعة مدن من افريقية كانت تدفع لهم إتاوة كما سوف نتحدث فى موضعه.

والأمر المؤكد هو أنه تم التوقيع على هدنة لمدة عشرة سنوات، بين أبى يعقوب وجوليلمو الثانى، عام ١١٨٠، أبرمها فى المهدية سفراء صقلية فى شهر يونيو أو يوليو، وصدق عليها جوليلمو فى بالرمو، فى شهر أغسطس(3). وقد ذكر ابن جبير هذه الهدنة، بعد

---

(1) عام ١١٨٠، فى كتاب برتز، *Script*، المجلد السابع، ٥٢٨، فى مقدمة *Traités de Paix, ec*، ص ٥١، يوافق م. دوما لتزى على رواية الأب روبرتو ويسهب فيها ويعطى لتعبير إعادة المدينتين معناه المنطقى، وهو ان الأمير الموحدى سمح بأن يكون للصقليين فنادق بها. ثم انه وفق ايضاً بين التاريخين اللذين ذكرهما روبرتو والكاسينى مجهول الاسم، وذلك بأن اكد على ان المفاوضات بدأت عام ١١٨٠ وتمت فى اغسطس ١١٨١.

(2) المراكشى، فى طبعة دوزى، ص ١٨١، وفى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٢٠. وطبقاً لذلك يجب تصحيح ترجمة المراكشى التى قمت فيما سبق بكتابتها فى الحاشية على ابن جبير، فى *Journal Asiatique*، مارس ١٨٤٦، ص ٢٢٤ وفى *Archivio storico italiano*، حاشية رقم ١٦، ص ٧١.

(3) قارن بين: ابن الأثير، الموضع السابق، والكاتب الكاسينى مجهول الاسم، فى كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٥١٢. يقول الأول منهما إنه تم الاستيلاء على قفصة فى اليوم الأول من عام ٥٧٦ (٢٨ مايو ١١٨٠) وإن أبا يعقوب ذهب إلى المهدية بعد ذلك، حيث قابل المبعوثين، وبعد توقيع الهدنة أسرع بالعودة إلى مراكش؛ أما الثانى فيقول إن

عقدها بأربع سنوات، فى معرض يوميات رحلته(1). وكانت المصالح التجارية بين البلدين هى الدافع لذلك الاتفاق، دون حاجة للرجوع إلى ما جمعه الأب روبرتو من أقوال غير دقيقة فى فرنسا. أو المراكشى بالمغرب. وعلاوة على ذلك اشتدت حاجة إفريقية إلى غلال صقلية فى ذلك الصيف أكثر من أى وقت آخر؛ حيث نعلم أن المؤن والأعلاف لم تكن فى متناول جيش الموحدين ذاته، وبناء على ذلك فما أن أبرم ابو يعقوب الاتفاق، حتى أسرع فى العودة إلى مراكش(2).

ومن المؤكد أنه من أجل حماية المسافرين الصقليين بالبحر أرسل جوليلمو، الأسطول إلى جزر البليار، من شتاء عام ١١٨٠ إلى ١١٨١؛ وقد كانت هذه الجزر مع تغيير حكامها لا تكف عن أعمال القرصنة. فبعد سلالة موجيتو، وسيادة حكام بيزا العابرة (١١١٥)، تمكن المرابطون من احتلال تلك الجزر؛ وبعد سقوط دولتهم، حكمها بنو غانية، وهم من بربر قبيلة موصوفة. ثم جاء أحد عتاة تلك العائلة واسمه اسحق بن محمد واغتصب الحكم (١١٥١)، واستطاع أن ينظم الهجمات ضد المسيحيين، حتى اغتنى، وأصبح قوياً مثل الملوك، حسبما كتب المراكشى(3). وحدث أن توجه الأسطول الصقلى، فى طريقه لاحتلال مايوركا بقيادة أدميرال المملكة جوالتييرو دى موديكا إلى جنوه، فى بادئ الأمر. وكان أسطولا قوياً بشانياته وسفنه الكثيرة حاملات الخيول. وقضى الشتاء كله فى

جوليلمو ابرم الهدنة ببالرمو فى أغسطس ١١٨١. وعلى ذلك أعتقد أن عقدها كان فى المهدية، والتصديق عليها فى بالرمو. أما فيما يختص بتحديد العام، فإنى أعتمد على تاريخ كتاب الأخبار العرب، ومن عادتهم كتابة الأرقام بالأحرف، وهم أدق بصفة عامة. ولا يبدو لى من المعقول أن يكون التصديق قد تأخر أكثر من عام حتى أغسطس ١١٨١.

(1) انظر فيما بعد، هامش ١، ص ٤٩٩.

(2) ابن الأثير، الموضع السابق. وقد يوحى كلامه بأنه كان يشير إلى الدافع إلى ذلك، حيث أعقب ذكره للهدنة مباشرة بقوله: «وكانت أفريقية تعانى آنذاك... إلخ».

(3) نص دوزى، ص ١٩٣ وما بعدها. ارجع إلى ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان ٢، ١٨٨، ٢٠٧، وهو يختلف فى بعض الأحداث الثانوية.

فادو: هذا ما ذكرته فقط بشأنه حوليات جنوه؛ إلا أنها أضافت أن المدينة كانت تعانى بشدة فى ذلك الموسم من وباء ألم بها(1). وربما كان ذلك هو السبب الذى صرف أهل جنوه عن إرسال سفنهم مع السفن الصقلية، حسبما كان متفقاً عليه، فيما يبدو، لأن الأسطول الصقلى دخل ميناء جنوه وقضى الشتاء فى مياهها. ويبدو أيضاً أن الوباء قد أجبر جوالتييرو على الابتعاد إلى فادو. ولكن لم يمض من الوقت الكثير حتى أراد كبير الأساقفة وقناصلة جنوة أن يحذوا حذو حكام بيزا(2)، وفى شهر صفر عام خمسمائة وسبعة وسبعين (١٧ يونيو ـ ١٥ يوليو ١١٨١) عقدوا هدنة لمدة عشر سنوات مع حـاكم مايوركا(3). وعـــاد جوليلمو يرسل حملته فى العــام التـــالى، وكانت أصداؤها واســـعة، حتى أنه بينمـــا كان يجـــرى تجهيزها، خشى صـــلاح الدين من هجمات جديدة على مصر، فهـــرع إليها من شرقى سوريا، رغم ما كان لديه من رغبـــة شديدة فى إخضـاع حـــكام تلك الدويلات هنـــاك. وبعد ذلك لم تصـــل السـفن الصقلية إلى جزر البليـــار، ذلك لأن نوءاً شتتها: وغرق بعضـــها فى ميـــاه سافونا، وبعضها عند البنجا، والبعض الآخر عند فنتيميليا. وربما غرق عدد منها عند سواحل

---

(1) فى موراتورى، *Rerum Italic.* المجلد الرابع، ٣٥٥ ـ ٣٥٦. حيث نقرأ العام الميلادى ١١٨١، الخمسعشرية الثالثة عشر، وهى بحساب جنوه تقابل الرابعة عشر بالحساب الأكثر شيوعاً. إلا ان العام يوافق عام ١١٨١ بالضبط من التقويم الرومانى.

(2) يبدو ان بيزا كانت تجدد الهدنة فى ذلك الحين مع مايوركا كل عشر سنوات؛ حيث أنه لدينا أخبار عن إجراءات عام ١١٦١ و١١٧٣. وردت لدى مرانجـــونى، فى *Archivio storico italiano*، المجلد ٦، الجزء الثانى، ص ٢٥ و٦٨. وقد قمت بنشر اتفاق يونيو ١١٨٤ الأصلى، فى *Diplomi arabi del Regio Archivio fiorentino*. الجزء الأول، رقم ٤، ص ١٤ وما بعدها؛ ويجب تصحيح ما ورد بصفحة ٣٦ من مقدمة العمل ذاته، من استشهاد كَفّارو وتاريخ حملة جوليلمو الثانى، التى تعرفنا بها الأخبار مجهولة المؤلف، المنشورة فى *Historia Diplomatica Fiderici II, etc*.

(3) نص عربى بارشيف تورينو الملكى، نشره ماسى، فى *Notices et extraits des mss,*، المجلد الحادى عشر، ص ٧ وما بعدها.

أسبانيا؛ وكتبوا عن ذلك أنه هلك ما يقرب من أربعين مركباً(1). ثم نفهم أنه بعد سنوات قلائل، عندما هجم على بن غانية، على أفريقيا الشمالية بمساعدة المرابطين، إذ نما إلى عمله فى طرابلس أن أنصار الموحدين قد عادوا وانتزعوا منه جزر البليار، فأرسل أخاه عبدالله إلى صقلية؛ وعندما توجه بحراً إلى مايوركا تمكن من استعادة الحكم بيده(2). ولا تذكر الحوليات، ولا أراه حتى معقولاً أن يكون بلاط بالرمو قد قدم له المساعدات فى هذه العملية الثانية. ربما لم ينتبه أحد إلى أن ذلك الأخير قد جاء مثل مسلمين كثيرين ممن كانوا يلجأون إلى صقلية بصورة مستمرة من أفريقية، هرباً من قسوة المجاعة وجشع جماعات النهب من عرب وأتراك وبربر، ممن جلبهم بنو غانية(3).

كانت التجهيزات للحرب تجرى حينئذ فى صقلية على قدم وساق، وشهد على ذلك ابن جبير الذى عرفنا منه تلك الأخبار التى ذاعت فى ترابانى فى ينـاير ١١٨٥، حـينما حجزت بالموانئ جـميع السفن التجارية للانتفاع بها فى خدمة الدولة: حيث كان جوليلمو يريد

---

(1) قارن بين: جوليلمو الصورى: الكتاب الثانى عشر، الفصل الثامن، فى *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٠٧٦، وأخبار القرن ١٢ مجهولة المؤلف، التى نشرها م. هويبار - بريهول فى *Historia Diplomatica Friderici secundi etc*، المجلد الأول ص ٨٩٠. وهذا الكتاب لم يحدد تاريخاً وورد به أن جوليلمو الثانى أراد أن يساعد أميراً مسلماً طُرد من مايوركا. وهو الأمر الذى يقودنا إلى عام ١١٨٣. والسنوات التى نبحثه. لقد أخذ يتحدث جوليلمو الصورى من الفصل الخامس إلى السابع فى الكتاب ذاته، عن أحداث عام ١١٨٠ وصيف ١١٨١. ثم يبدأ فى الفصل الثامن، بالحديث عن موت ملك شاه، والد نور الدين، الذى نعرف، من جهة أخرى، أنه كان فى نوفمبر ١١٨١. لذا علينا أن نتصور أحداث غرق السفن فى شتاء ١١٨١ - ١١٨٢ وليس أثناء الحملة الأولى، التى يمدنا كفارو بتاريخها المحدد.

(2) ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان، ٢، من ٢٠٨ إلى ٢١٠.

(3) يوافينا ابن الأثير بأخبار عن هذه الظروف الفظيعة التى كانت تجتازها أفريقية، تحت عام ٥٨٠ و٥٨١، طبعة تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ٣٢٤ و٣٤٢ وما بعدها.

إضافة مئة مركب احتياطى إلى الثلاثمائة شانية ومركب حربى التى يتشكل الأسطول منها. وقال البعض إن الأسطول كان يعد لمحاربة الإسكندرية، وقال آخرون لمحاربة مايوركا، وقال غيرهم لمواجهة أفريقية، حيث وصلت أنباء لتوها عن نزول جديد للبر من قبل على بن غانية فى بجاية. إلا أن ابن جبير رأى أن الملك كان يريد الحفاظ على الهدنة مع الموحدين وأنه كان يخطط على عكس ذلك إلى إعادة أليسيو الثانى إلى عرش القسطنطينية، بعد أن نجا، كما روت الحكايا، من خنجر مأجورى أندرونيكو(1). واقع الأمر أن هذا المجهود الحربى انقض بالفعل على اليونان، وكان يقوده الأمير تانكريدى، فى الظاهر. وفى مبالغة كتب أحد شهود العيان أن خمسة آلاف فارس ومائتى سفينة نقل وثمانين ألف رجل. أبحروا يوم الحادى عشر من يونيو ١١٨٥؛ واحتلوا دوراتسو (٢٤ يونيو)، وأخذوا تسالونيكى بعد حصارها (٢٤ أغسطس)؛ إلا أن القادة تريثوا قبل التحرك للهجوم على عاصمة الدولة؛ وانهزموا فى مونوبولى؛ ثم بعد أن تعرضوا للخيانة (٧ نوفمبر)، انسحبوا إلى إيطاليا، بعد أن خسروا ١٠ آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير. وقد اشترك مسلمو صقلية فى هذه العملية، التى فشلت كما سوف نذكر فيما بعد(2).

---

(1) ابن جبير، النص والترجمة الفرنسية فى *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥٢٦ وما بعدها ويناير ١٨٤٦ ص ٨٨ وما بعدها. والنص موجود أيضاً فى طبعة رايت وفى المكتبة العربية ـ الصقلية؛ والترجمة الإيطالية، فى *Archivio storico*، حاشية رقم ١٦ ص ٣٥ وما بعدها.

(2) من بين من أشاروا إلى هذه العملية نذكر نيتشيتا كونياتى، وجوليلمو الصورى، وسيكاردى أسقف كريمونا وكتاب أخبار آخرين فى ذلك الحين؛ ولكن هناك من حكى عنها بإسهاب، بل بتفاصيل لا تنتهى وببلاغة زائدة عن الحد: ومنهم أحد شهود العيان ممن عانى قسوة الحصار والاحساس بالخزى من الاحتلال الأجنبى: إنه كبير أساقفة تسالونيكى ذاتها، واسمه إوستاتسيو، وهو من العلماء الباحثين فى هوميروس. وقد نشر النص الذى كتبه عن مذبحة تسالونيكى لأول مرة فى فرانكفورت عام ١٨٣٢، ثم أعيد طبعه ومعه ترجمة لاتينية، ضمن مجموعة الدراسات البيزنطية فى بون عام ١٨٤٢ . إن إيزيدورو لالوميا هو أول من أفاد، من بين الكتاب الإيطاليين، من نص إوستاتسيو، وذلك فى كتابه عن تاريخ جوليلمو الصالح. إن الكاتب مجهول الاسم

وكان صلاح الدين يبسط سلطانه فى هذه الأثناء على جميع البلاد الإسلامية من النيل إلى دجلة، حيث كان حاكماً مباشراً فى جانب منها، وحامى حمى وعاهل إقطاعى فى جانب آخر؛ تاركاً مع ذلك لخليفة بغداد المسكين مجرد شرف منزلته الاسمية. وهكذا وبتجميعه للقوى، أخذ يتم عمل نور الدين ضد المسيحيين. وبعد أن احتل أورشليم (القدس) (٢٣ أكتوبر ١١٨٧) وفلسطين جميعها، فيما عدا أربعة حصون؛ وبعد أن حاول دون جدوى التغلب على قلاع صور وعلى بأس محاربى إيطاليا الذين كانوا يحمونها، عاود صلاح الدين الحرب فى ربيع عام ١١٨٨؛ وكانت السفن الصقلية من أول ما وجده من أساطيل على الساحل.

كانت مسالة أورشليم تشغل اهتمام أوربا: وبينما كانت ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تجهز الجيوش؛ كانت أساطيل إيطاليا جاهزة والبحر مفتوحاً أمامها. لذا قامت ببدء الحملة الصليبية الثالثة. واتباعاً لخطط كورادو دى مونفراتو الجرئ كان الإيطاليون يبحرون راضين منظمين، واثقين من أنفسهم وأقوياء، هكذا كتب حينئذ الأب أورسبرج(1). وفى الرسالة التى وجهت قبل ذلك ببضع سنوات إلى خليفة بغداد باسم صلاح الدين، ورد أن رجال فنيسيا وجنوه وبيزا، اعتادوا التردد المستمر على الشرق: حيث كانوا يشعلون أحياناً نيراناً لا يسهل إطفاؤها، ويقدمون أحياناً أخرى الهدايا، ويجلبون من البضائع أفضل ما فى بلادهم. وكانوا يبيعون حتى السلاح وكل ما هو ضرورى للحرب؛ وكانوا يعقدون الصداقات، حسبما ذكرت

الذى ذكرناه آنفاً (*Historia Diplomatica Friderici secundi*، المجلد الأول، الجزء ٢ ص ٨٩٠) يتحدث هو أيضاً عن هذه العملية الفاشلة: كما أن المعاصر ردولفو دى ديتشيتو، رئيس مجمع سان باولو بلندن، يذكر فى مبالغة كبيرة أن قوام القوات الصقلية كان لا يقل عن ٨٥ ألف راجل وثلاثين ألف فارس! هذا ما ورد فى *Historiæ Anglic. Scriptores*، لندن ١٦٥٢، ص ٦٢٨.

(1) كونرادى ليشتاو، *Chronicon*، أرجنتوراتى، ١٦٠٩، ص ٢٢٨.

الرسـالة، بمـا فـي ذلك من مصـلحة لنـا وخـسارة لبـلاد المسـيحيين(1).

وشارك سكان الجنوب فى ذلك الجهد المشترك الذى قامت به إيطاليا. ولما كان جوليلمو على استعداد للأسف للقيام بمثل تلك العمليات، فقد حثه عليها كبير أساقفة صور عندما تحدث معه، وحينما وجه إليه اللوم على ذلك الضرر الذى ألحقه باللاتين فى الأراضى المقدسة، حينما قام بعمليته الفاشلة تلك فى اليونان واحتجز الحجاج والسفن التى كانت تتخذ لها محطة فى صقلية. ولكى يصلح ما أفسده أخذ يمد كورادو دى مونفراتو بالمؤن الوفيرة، تحملها خمسون شانية، حسبما يقول كتاب الأخبار الغربيون. وخمسمائة محارب، يرأسهم اثنان من الكونتات؛ وعملت هذه القوات على طمأنة أنطاكية، وحماية طرابلس، والحفاظ على صور. أما أكبر الفوائد التى كانت فى صالح حامية تلك المدينة المناضلة فقد كان يتمثل فى الأسطول الذى تمكن من إبعاد جماعات قراصنة من المسلمين وتأمين طريق المعونات التى كانت ترد من آن الآخر، من رجال ومؤن. وعندما تمكن أدميرال صقلية، واسمه مارجريتو دا بريندیزی، من الاستيلاء على بعض الجزر، تشبث بوجوده بميـاه سـوريا، رغم قسوة العواصف وقوة الأعداء، حتى أثار إعجاب جمهور المسيحيين جميعهم فهنالك من أسماه نتّونو، ومن أطلق عليه ملك البحار أو سبع البحر. وأرسله كورادو دى مونفراتو مع الجنود من صور إلى

---

(1) رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد. ورغم ما بأسلوبها من صور بلاغية فهى تظل وثيقة مهمة جداً. كان صلاح الدين يريد أن يبين لجميع المسلمين، وليس للخليفة المسكين، كيف أن ما قام به من استيلاء، بل بالحرى ما قام به من تجريد للمغتصبين الصغار، مع عدم استثناء أولئك المنتمين إلى بيت نور الدين، إنما كان ضرورياً لتقوية الإمبراطورية الإسلامية وطرد الكافرين من أراضيها. وقد أرسلت هذه الرسالة نحو بداية عام ١١٨٢. انظر رينو، *Extraits... des Croisades*، ص ١٨٤. وقد قمت بنشر الجزء الذى يتحدث عن ملك صقلية وعن جمهوريات فنسيا وبيزا وجنوه، بالمكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

طرابلس؛ وهناك حسبه المسيحيون عدواً. واستعدوا للدفاع عن أنفسهم، ولكنهم تنبهوا بعد ذلك إلى شعار الصليب والأسطول الأوربي، واستعادت المدينة دفاعاتها به حتى أن صلاح الدين لم يجرؤ على الهجوم عليها(1).

وخلافاً لذلك كان حكم الكُتاب المسلمين على هذا «الطاغية مرجريتو، الذى كان على رأس سفن طاغية صقلية(2)؛ وقوامها ستون شانية، تبدو كل منها وكأنها قلعة أو صخرة(3) يركبها عشرة آلاف رجل دأبوا على اجتياح البلاد وتخريبها. ولكن هذا الذى طبقت سمعته السيئة الآفاق كواحد من أعتى المعتدين وأقبح الشياطين، ما أن دخل ميناء طرابلس فى صخب وجلبة حتى لم يعد له طعم، عسلاً كان أو مراً، ولم يأت بفائدة ولا ضرر. ولما فتح دكاناً لمؤنه، عادت المجاعة فى طرابلس. وشد رحاله نحو صور ثم عاد إلى طرابلس؛ وأخذ يخوض

---

(1) قارن بين: *Historia Hierosolimitana* مجهولة المؤلف، فى بونجارس، *Gesta Dei, ec.*، المجلد الأول، ص ١١٥٥ وما بعدها: ومارينو سانودو، الكتاب الثالث، الجزء التاسع، الفصل التاسع، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٩٤: وسيكاردى أسقف كريمونا، فى موراتورى، *Rer. Italic*، المجلد السابع، ٥٣٠: وفرانشسكو بيبينو، *Chronicon,*، الكتاب الأول، الفصل الثانى عشر، المرجع السابق، الفصل التاسع: برناردى تيزاور، الفصل ١٦٩، المرجع المذكور، الفصل السابع: *Chronica Anonima*. فى هويلار-بريهول، *Hist. Diplom. Friderici secundi, ec*، المجلد الأول ص ٨٩٠-٨٩١: و *Continuazione francese di Guglielmo di Tiro*، الكتاب الرابع والعشرون، الفصل ٥، ١١٠٧، فى *Recueil des Historiens des Croisades - Historiens Occidentaux*، المجلد الثانى، ص ١١٤ و١١٥ و١١٩ وما بعدها.

أثارت العمليات الأولى التى قام بها مرجريتو دويا كبيرا فى الشرق، حتى أن مبعوثى فيليبو أوجوستو فى القسطنطينية، حينما نقلوا أخبار الحرب إلى الملك، كانوا يذكرون أن مرجريتو استولى على يافا، وأنه قتل بها ٥٠٠ تركى، وتم أسر ثمانية أمراء وأنه أخذت أيضاً جبله وقتل ما كان بها من رجال. قام ردولفو دى ديشيتو بنقل هذه الرسالة، المرجع السابق، ص ٦٤١، كما قام أيضاً بنقلها مؤلف كتاب *Gesta regis Henrici II*. وينسبانها إلى بنديتو كبير رهبان بطرسبرج، طبعة ستابس، لندن، ١٨٦٧، المجلد الثاني، ص ٥١. ويزيد بيبينو وبرناردو فى عدد الشانيات حتى يصلا به إلى ٢٠٠ شانية صقلية؛ ويقول سانودو إنها كانت سبعين شانية و٥٠٠ رجل سلاح و٢٠٠ تركيولى.

(2) يطلق العرب المسلمون طاغية على الحكام الأجانب. وهو لفظ يعنى فى الأصل، عنيف، ظالم معتدى، إلخ.

(3) ترجمة حرفية لما ورد بالعربية «قلعة وطلمة».

تلك المياه، ذهاباً وإياباً، يميناً ويساراً لشهور عدة، دون أن يدرى ماذا يفعل: إلى أن تفرقت سفنه، واستحال بأسه إلى جبن، وأخذ رجاله يهربون صفوفاً، وعاد إلى داره برجال قليلين وخسائر كثيرة». هكذا قال أحد المعاصرين وهو يشيد بأعمال صلاح الدين ويقسو على البلاغة وعلى التاريخ أيضاً، ليروى عن عمليات أدميرال صقلية الفاشلة، وليس عما أتمه منها، كما سكت على وجه الخصوص على عملية طرد جماعات القراصنة من المسلمين(1). أما فيما عدا ذلك فقد شهد المؤلف بشهرة مرجريتو: واسم طاغية الذى أطلقه عليه يتوافق مع وصفه بالأمير الجبار الذى نقرأه عند مارينو سانودو(2)، ووصفه بأسوأ الشياطين لا يختلف كثيراً عن ألقاب قرصان، وكبير قراصنة، وأمير القراصنة الذى أطلقه عليه الكُتاب البيزنطيون والإيطاليون والألمان(3). ويبدو أنه بعد فشل عملية اليونان، عهد بلاط بالرمو بالأسطول إلى رجل البحر هذا الجسور، الذى استولى فى قبرص على سبعين شانية بيزنطية كانت ذاهبة لتخضع تلك الجزيرة(4).

---

(1) عماد الدين. المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٠٦ و٢٠٧. قارن مع أبى شامة فى المجموعة ذاتها، ص ٣٢٧.

(2) *Secrata Crucis*، فى بونجارس، *Gesta Dei, ec*. المجلد الثانى، ١٩٤.

(3) نيتشيتا كونياتى، *De Isaaco Angelo* . الكتاب ١، § ٥، ص ٤٨٣ و٤٨٤؛ وسيكاردى فى موراتورى، *Rer. Italic*، المجلد السابع، ٦١٥؛ وكونرادى ليشتناو، ص ٢٣٢، من الطبعة المذكورة؛ و*Continuatio Cremifanensis*، فى برتز، *Scriptores*، المجلد التاسع، ٥٤٨؛ و *S. Rudberti Salisburgensis Chron.*، المجلد السابق، ص ٧٧٨. تتمة أوتونى دى فريزنجن، المرجع السابق، المجلد العشرون، ٣٢٥؛ و*Annales Aquenses*. المرجع السابق، المجلد السادس عشر، ٦٨٧. و*Weingart.* *Contin.*، المرجع السابق، المجلد الواحد والعشرون، ٤٧٤ ومصنفون آخرون ألمان. وبعد أن أصبح مرجريتو أحد كبار أدميرالات صقلية، وكونت مالطة، وبعد أن أصبح ثرياً وقوياً جداً، أخذ يعترف بما اقترفه من أخطاء فى بدايات حياته وذلك عندما قدم ضيعة هدية لأرخماندريتس مسينا «تكفيراً عما اقترف من سيئات». ومن لم تثقل كاهله أخطاء ثقيلة ومعروفة منها يسميها فى المعتاد خطايا. انظر فى بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٨٠. وهذه الوثيقة تنص على الوطن الذى ينتمى إليه الأدميرال، حيث ورد بها *"Nos Margaritus de Brundusio, etc"*.

(4) قارن بين: نيتشيتا كونياتى، *De Isaaco* . الكتاب ١، § ٥. والمصنف المعنون *Magni presbyteri*، فى برتز، *Scriptores*، المجلد ١٧، ٥١١ وهو يتضمن تقريراً معاصراً.

ويخبرنا كُتاب إنجليز معاصرون أنه كان يمتلك جزر سكاربانتو، وتشيفالونيا وتزانت(1)، ولا يبدو مستبعداً أن يكون قد ترك أيضاً مع مهنته لقباً لُقب به فيما سبق وأن يكون مرجريتو، كونت مالطا، هو ستيفانو ذاته، القرصان المعاون لملك صقلية، الذى دخل من خلال ثغرة تسالونيكى (٢٤ أغسطس ١١٨٥) قبل أى رجل آخر، والذى ذكره بامتنان كبير الأساقفة إوستاتسيو الذى كان أحد أسراه(2).

وعن الواقعتين اللتين وجد فيهما مرجريتو نفسه وجهاً لوجه أمام صلاح الدين فإن عماد الدين وابن الأثير جديران بالثقة فيما نقلاه، وقد كانا يعملان فى جيش المسلمين. فحينما حشد السلطان الجيش فى حمص، ذهب ومعه جماعة من جنوده للاستكشاف فى طرابلس، وقام بتخريب ريفها، ثم تمهل فى ضرب الحصار وعند عودته، توجه إلى إمارة أنطاكية. وبعد احتلال تورتوزا فى السادس من جمادى الأولى (٣ يوليو ١١٨٨). ثم مراقيا، تحرك فى اتجاه جبلة، واضطر للمرور بمحاذاة البحر، لتحاشى الجبل وقلعة مركب فائقة القوة التى كانت فى يد السبيداليين. وكان الطريق مع ذلك ضيقاً جداً ووعراً: حتى أنه كان من الضرورى أن يجتازه الرجال واحداً واحداً. وكان الأسطول الصقلى قد أقلع آنذاك من طرابلس وانتشر على طول الساحل: وبالجرخ والزمبرك(3) أخذ رجاله يمطرون القذائف والرماح على الطريق. وعندئذ أمر صلاح الدين باحضار الألواح الساترة

---

(1) *Gesta regis Henrici II*. المنسوبة لبنديتو راهب بطرسبرج، طبعة ستوبس، لندن ١٨٧٦، المجلد الثانى ص ١٩٩ . انظر ص ٤٧ من المقدمة، حيث يوضح العلامة الناشر أن هذا الجزء قد كتب نحو عام ١١٩٢ . وقد نشر هذا الجزء قبلا، تحت اسم *Brompton* برمبتون، فى *Historiæ Anglic.. Script*. لندن، ١٦٥٢، ١٢١٨ .

(2) إوستاتسيو التسالونيكى، *Opuscula*، فرانكفورت ١٨٣٢ . ص ٢٩٢ و ٢٩٤، وفى طبعة بون ١٨٤٢، ص ٤٥٧ و ٤٦٤ و٤٦٦ .

(3) نقرأ فى نص عماد الدين أن «ركّب المسيحيون» الجرخ وفردوا «الزمبرك». وقد ورد ذكر السلاح الأول فى حصار الإسكندرية. أما السلاح الثانى فقد ذكره بهاء الدين، طبعة شلتنس، ص ١٥٠، ورينو، فى *Extraits, etc*، ص ٤١٦ .

ومعدات أخرى مما يستخدم فى الحصار(1)، ثم وضعوا وراءها الآلات القاذفة وضاربى الرماح: حتى اضطرت السفن الصقلية بدورها إلى الابتعاد وتمكن الجيش من المرور بأكمله. وبعد أن تم الاستيلاء على جبلة دون مقاومة فى الثامن عشر من الشهر (١٥ يوليو)، دخل اللاذقية بعد أسبوعين؛ وهناك وجد الديار وقد هجرت والفرنجة وقد لجأوا إلى قلعتين، ووجد السفن الصقلية فى مواجهة الميناء.

وكان الأسطول الصقلى قد جاء ليمد يد العون ووجد كل شئ قد ضاع، فبدأ يلتقط أيا من الفارين بالبحر. وقد استشاط الصقليون غضباً من المواطنين بسبب جبنهم وهجرهم أراضيهم بهذه السرعة دون انتظار أصدقاء أو أعداء. ولكن سوء الأحوال أدى إلى أن أسرع أهل اللاذقية بالنزول من القلاع. والعودة إلى ديارهم، واتفقوا على دفع الجزية. وبعد أن نظم صلاح الدين شئون حكم تلك الأراضى، وكان على وشك التحرك بالجيش، أرسل الأدميرال الصقلى إليه أنه يريد أن يتحدث معه وطلب كتـــــاب أمان، فأعطاه له. ويقول أحد شهود العيان إنه ما أن غلبه مظهر الأمير، حتى انحنى مرجـريتو،

---

(1) إن مخطوط مكتبة باريس الإمبراطورية الذى نشر السيدان رينو وفافى أجزاءاً منه (*Du feu gregeois, etc*. باريس ١٨٤٨) يحتوى على رسم قام به باولو سانتينى دا دوتشي لما كانوا يسمونه *mantellectus* فى القرن الرابع عشر. وهو عبارة عن قائم، يميل بدرجة ٤٥ ويدعمه جانبان مثلثان. فيما يشبه مسند كتاب للقراءة. وكان الجنود يحتمون خلفه. وقد عبرت بلفظ *mantelleto* ساتر عن اللفظ الذى استخدمه عماد الدين ونقراه «جفاتى *Giefati*»، ونقرا مع اختلاف طفيف فى ابن الأثير. كما ذكر أيضاً ابن الأثير اسم «طارقية»، الذى حسبه السيد رينو مماثلاً للفظ θώραξ اليونـاني. ووافقه على ذلك السيد دى ساسى (*Chrestomathie arabe*. المجلد ١. ص ٢٧٥، من الطبعة الثانية). ولكنه من الواضح أن الحديث هنا لم يكن بشأن الدروع. حتى إن كان اللفظ اليونانى هو أصل اللفظ العربى إلا أنه يختلف فيما يعنيه هنا. ونظراً لأننا نقرا فى *Vocaboliste arabico* بمكتبة ريكارديانا لفظ "*scutum*" مقابل اللفظ العربى طرق أو تدق». وارى أن اللفظ بلغتنا وهو "*targa*". اى ترس العصور الوسطى الكبير. هو الأنسب. وهو أكثر مواءمة من «*corazza* زردية» فى موضع المقريزى الذى ذكره السيد دى ساسى. قارن مع كاترمير، *Histoire des Mongols de la Perse*. الجزء الأول، ص ٢٨٩. ويستخدم عماد الدين بدلاً من هذا اللفظ كلمتين، أى «تراس» وستائر ويبدو أنه استخدام عام للتعبير عن السواتر»

حسب الطريقة الشرقية، وكأنه يقبل الأرض؛ واستجمع قواه، وفكّر، ثم فى النهاية بدأ يتحدث بمساعدة مترجم. وبعد أن بدأ كلامه بعبارات المدح، طلب من صلاح الدين أن يعطى كامل الأمان للمسيحيين سواء من السكان الأصليين فيما يبدو لى أم من الأوربيين. موضحاً له أنه، إن قيدهم الأمير ضمن «جنده»، فلسوف يعاونونه فى فتح البلاد القريبة والبعيدة. وانتهى بالتهديد بأنه، إن حدث العكس وساءت معاملة مسيحيى سوريا. فلسوف يأتى من وراء البحر آلاف المحاربين من كل أراضى المسيحيين، ومعهم من عتاد الحرب ما لا يقوى عليه احد. ورد عليه صلاح الدين بأن الله قد أمر المسلمين بأن يخضعوا العالم كله للدين الحق: وانه يحارب تنفيذاً لهذه الفريضة: وإن الله قد ساعده ولسوف يساعده: وعليه فإن اجتمع بنو آدم من أقصى خطوط الطول والعرض، ضد المسلمين، فإنه لن يحصى عدد أعدائه. بل سوف يحاربهم: ولعله يذيقهم مرة أخرى طعم سيوف المسلمين وأغلالهم. ولما رأى مرجريتو ذلك الرد على نصائحه، رسم علامة الصليب وانصرف. وفى شئ من التباين البسيط ذكر عماد الدين وابن الأثير ما جرى من حوار، وربما كانا شاهدى عيان. بل كان كذلك أولهما بالتأكيد(1)، ولا يبدو مضمون الحوار مستبعداً، حينما نضع فى اعتبارنا أن مرجريتو لم يكن ليجهل طموحات صلاح الدين ضد عديد من الأمراء المسلمين، ولا ما كان ينسبه الصليبيون لعدوهم الرهيب من قوة العزيمة والبأس: وبناء على ذلك أكد رواة الأخبار أنه عرض فى عام ١١٩٢ على ملكى فرنسا وإنجلترا عقد اتفاق ضد أولياء عهد نورالدين(2).

---

(1) قارن بين: عماد الدين الأصفهانى وكاتب موجزه ابى شامة المقدسى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص، ص ٢٠٥ وما بعدها، وص ٢٣٧ وما بعدها. وابن الأثير، عام ٥٨٤، المرجع السابق، ص ٣١٢ وما بعدها. وفى طبعة تورنبرج، المجلد ١٢، ص ٢ وما بعدها. وقد أشار السيد رينو إلى هذه القصة فى مؤلفه *Extraits... relatifs aux Croisades*، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(2) *Gesta regis, etc*. المنسوبة إلى بنديتو دى بطرسبرج. المرجع السابق، المجلد ٢، ص ١٧٥و ١٨٠. قارن ذلك النص بنص روجيرو دى هوفدن.

ووافت جوليلمو المنية (١٨ نوفمبر ١١٨٩) بينما كان يجهز أسطولاً فائق الضخامة لكى يرسله أو يقوده بنفسه فى الشرق، بالاشتراك مع فيليب أوجوستو وريتشارد قلب الأسد: حيث كان قد اتفق مع أريجو الثانى على أن يزوده بكميات كبيرة من النبيذ والشعير والقمح وبمائة شانية مسلحة ومزودة بما يكفى لسنتين(1). وقبل ذلك الحدث المشئوم الذى يبدو أنه أرغم الأسطول على العودة فى الحال إلى صقلية، كان مرجريتو قد بدأ فى حل عهود اللاذقية. ويروى أحد الكُتاب المعاصرين مجهولى الاسم، مع معرفته الجيدة بمجريات الأحداث، إن الأدميرال الصقلى، فى خبرة حقة بفنون الحرب، أغلق طرق البحر على حاميات المسلمين، فى سان چوفانى وفى غيرها من حصون فلسطين، وإنه ذات يوم فاجأ سفن صلاح الدين التى كانت تحمل أسلحة ومؤن إلى عكا، فحاربها وانتصر عليها وقتل كل من عليها(2). ومن

---

(1) فارن بين: تتمة جوليلمو الصورى الفرنسية، الكتاب ٢٤، الفصل ٧، فى *Recueil des historiens des Croisades-Historiens Occidentaux*، المجلد الثانى، ص ١١٤ ـ ١١٥ و *Gesta regis Henrici II*، المرجع السابق، المنسوب إلى بنديتو راهب بطرسبرج، المجلد الثانى، ص ١٣٢، الذى يتفق معه روجيرو دى هوفدن، فى كاروزو، ***Bib. Sic***، ص ٩٦٠.

(2) *Gesta regis Henrici II* المذكور توا، المجلد الثانى، ٥٤، من مقدمة ستوبس، فإن الكاتب مجهول الاسم كان على علم عميق بأحوال البلاط الإنجليزى، فى أواخر عهد أريجو الثانى وأوائل عهد ريتشارد. ولما كان ذلك الأمير قد قضى شتاء عام ١١٩١ ـ ٢ فى مسينا، حيث تعرف على مرجريتو، كما أنه قضى كذلك الصيف التالى لحصار عكا، فمن المؤكد أن المقربين منه كانوا على علم دقيق بأحداث الأسطول الصقلى التى جرت مؤخراً فى مياه فلسطين وها هو ذا نص ما قاله المصنف:

"Eodem vero anno, quidam vir potens et terra et mari, natione Sigulus (siculus), nomine Margaritus,per auxilium domini sui Willelmi regis Siciliae, profectus cum quingentis galeis bene munitis, et viris bellicosis et victu et armis, in auxilium Cristianorum, et vias maris tanta calliditate obstruxit, quod Serracenis qui Acram civitem et caeteras terre Jerusalem civitates et munitiones circa maritima occupaverant, nullus securus patebat egressus. Contigit autem quadam die, quod dum milites et servientes Saladini veherent arma per mare, et victualia ad subventionem filii Saladini et familiae suae qui erant apud Acram, occurrit eis praedictus Margaritus cum suis; et commisso cum eis praelio, illos devicit et omnes interfecit".

ومن الواضح أن عدد ٥٠٠ شانية هو خطأ ناسخ، كان عليه أن يكتب ٥٠. إن موجز الحملات الصليبية الذى كتبه أحمد بن على الحريرى، مخطوط مكتبة باريس الإمبراطورية، ملحقات عربية، ١٩٠٥ يشهد بأن القوات الصقلية كانت موجودة أثناء

المؤكد أن هذه الأحداث لابد وان حدثت فى خريف عام تسع وثمانين، حيث بدأ حصار عكا فى أوائل شهر سبتمبر.

إن جوليلمو الثانى يستحق اللوم الكثير. وأريد أن أكرر هذا هنا. وذلك فيما يخص الشئون الخارجية بقدر الثناء الذى يستحقه على إدارته الداخلية للدولة. ففيما عدا معاهدة السلام التى أبرمها مع الموحدين والعقاب الذى كان يفرضه من آن لآخر على القراصنة من الزيريين، فليست هناك أعمال أخرى يستحق ملكه عليها الثناء بالسياسة الخارجية. فقد شن جوليلمو دائماً حروباً غير مجدية وفاشلة: وخلال أحداث الرابطة اللومباردية لم يتبع مشورة الحكماء ولا الكرماء ولا الصادقين؛ ومحا ثمار الرابطة بكل ما أوتى به من قوة، وذلك باختياره اختياراً غاية فى السوء والسفه: أى زواجه بكوستانتسا وسط آل زفيفيا، وهم العدو الطبيعى لآل هوتثيل وللبابوية ولإيطاليا كلها. وحتى إن لم يؤكد لنا المعاصرون، فإننا سوف نرى أن جوليلمو لم يكف فى أعماله كلها عن التخبط بين وزيريه جوالتييرو أوفاميليو وماتيو دا يللو. ولكى يكيد ماتيو، كما يقولون، لمنافسه، أشار على جوليلمو بتأسيس كرسى رئيس أساقفة موريالى، على أبواب بالرمو بالتحديد (١١٨٢). وقبل ذلك، كانت عملية الإسكندرية التى عهد بها إلى الأمير تانكريدى (١١٧٤)، التى كانت كما هو واضح، من أعمال الوزير الذى كان يتوق لإضفاء الشهرة والقوة والكفاءة فى القيادة على ذلك المرشح الذى كان يعده للعرش. ولعلنا فى شك أقل نستطيع أن نرى الشئ نفسه عندما نذكر حملة اليونان، التى نعرف أنها تمت ضد مشورة جوالتييرو وريكاردو بالمـر(1). وفى كـارثة ذلك الجـيش بالتحـديد (خـريف ١١٨٥) نجـح جوالتيرو فى عقد المصاهرة مع بيت هوهنستاوفن. وعليه

حصار عكا عام ٥٨٥ (١١٨٩) إلى جانب فوات من القسطنطينية وروما وجنوه وبيزا ومايوركا. ورودس وفتسيا وكريت وقبرص ولومبارديا.

(1) إوستاتسيو. *De Excidio Thessalon*. طبعة فرانكفورت ص ٢٨٢، وطبعـــــة بون ص ٤٢١.

كان الاسراع بالاحتفال بها (٢٧ يناير ١١٨٦)؛ واستشف المعاصرون من ذلك ثأر مطران بالرمو من استقطاع جزء من مطرانيته[1].

وتحت سلطة أمير طيب ودمث الأخلاق إلى هذا الحد، لم يعان مسلمو صقلية اضطهادات تسئ إليهم، ولكنهم كانوا غير مطمئنين لما قد يضمر منها أو يأتي على مهل. هذا ما يؤكده ابن جبير، العالم الأندلسي الرحالة، وقد نزل بصقلية وغمره أهلها بالإجلال والمودة، وحيث دأب على كتابة كل ما يراه أو يستمع إليه خلال يومه؛ وعلى مدى أربعة أشهر قضاها هناك، قام بزيارة كبرى مراكز المسلمين السكنية، وتحدث مع الناس من كل فئة، من خدم البلاط وحتى أكبر نبلاء الجزيرة، المنحدر من سلالة على الشريفة، وفي البداية حينما لم يكن قد رأى سوى خصيان البلاط، أخذ ابن جبير يمدح الملك الشاب، المتسامح، بل صديق المسلمين، وقال عنه إنه يتحدث العربية،وإنه كان يستخدم في مراسيمه «العلامة»، وإنه يعيش بين المسلمين، الذين تحولوا عن دينهم في الظاهر؛ وإنه إذ لم يكن يجهل إيمانهم الذي كانوا يخفونه، اعتاد أن يغض نظره، في أوقات الصلاة، عندما كان يراهم يتعمدون الواحد تلو الآخر. ويحكي ابن جبير أنه في زلزال فبراير عام ١١٦٩، وكان جوليلمو لايزال شاباً، أخذ يجول وهو منزعج في جوانب القصر، وسمع النساء والوصفاء يدعون الله والنبي، وعندما وجدهم يضطربون لقدومه، هدأ من روعهم بكلام من ذهب فقال: «ليدع كل إنسان إلهه الذي يعبده؛ من يؤمن بإلهه، يجد سلاماً في قلبه». وتأثر ابن جبير لفيض صلاح الأمير، حتى دعى الله أن يطيل عمره لسنين عديدة. ولكن بعد مرور شهرين وبعد أن تعرف الرحالة بصورة أوضح على أحوال إخوانه في الدين، بدأ ينعت جوليلمو بالطاغية؛ واتهمه بقهر ابن حمّود وإذلاله، وبأنه أجبر الفقيه ابن زورا، على إنكار دينه؛ ويرتاع وهو يحكي أن ذلك

[1] ريكاردو دا س. جرمانو، في بداية الأخبار.

الأخير، بعد أن عين قاضياً، كان يحكم مرة بحسب الإنجيل، ومرة أخرى طبقاً للقرآن. وأن الأمر وصل به إلى أن حول مسجده إلى كنيسة(1). وفيما يقرب من ذلك الزمان (١١٧٩) حدث أن رأينا مسجداً في كتانيا يخصص للصلاة المسيحية على يد أحدهم يُدعى جوفانى دا مسينا، حيث كرس المكان باسم القديس الجديد، توماسو دى كانتربورى(2).

وإن كانت شخصية جوليلمو تدعو إلى عدم استبعاد تلك التناقضات؛ فإنه من الواضح إن ذلك النوع من التبشير الذى أدى إلى انزعاج ابن جبير، إنما لا يرجع إلى جوليلمو بقدر ما يرجع إلى رجال الكنيسة، الذين كانوا لا يتمهلون في بسط سلطتهم على جانب كبير من السكان، وفي زيادة العشور، والعطايا، والهبات. وقد نشط رجال الدين بفضل قوة كبير أساقفة بالرمو: كانوا يتمتعون بممارستهم للعدالة. ولأن جوليلمو كان ميالاً للتعاليم الآتية من وراء جبال الألب، فقد بدأ يترك التعاليم التى اتبعها سابقوه؛ وأخذ يضع القضايا محل اهتمام رجال الدين تحت سلطة المحاكم الكنسية(3)؛ وكان يحيل أمامها من يتهم من بين المسلمين باختطاف النساء المسيحيات. حقاً لم يحكم الأساقفة عليهم بأحكام الإعدام أو بتر الأعضاء؛ ولكنهم كانوا يستطيعون الحكم عليهم بالغرامات أو بالضرب، كما جاء في كتاب البابا اليساندرو الثالث، الذى وجهه إلى كبير أساقفة بالرمو(4). ويمكن أن نتصور كثرة العقوبات، ذلك للمدى الواسع الذى يمكن أن تفسر به تلك التهمة، إلى جانب الدخل الذى كان يعود من ورائها على القضاة. ولكن المسيحيين

---

(1) ابن جبير، النص والترجمة الفرنسية في، *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٤٥ ويناير ١٨٤٦ والترجمة الإيطالية في، *Archivio Storico*، حاشية رقم ١٦.

(2) بيّرو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٢١.

(3) *Constitutiones Regni Siciliæ*، الكتاب الأول، العنوان ٤٥و ٦٨، الكتاب الثالث، العنوان ٨٣.

(4) *Decretales Gregorii*، الكتاب الخامس، المرسوم ١٧؛ الفصل ٤، *"De raptoribus"*، ص ١٧٢٨ من طبعة روما، ١٦٣٢.

كانوا ينتزعون ولكن دون أن ينزل بهم أى عقاب الأبناء من الذكور والإناث من الأسر المسلمة، حينما يحولونهم عن دينهم؛ كما كانوا يثقلون الأغنياء بالغرامات؛ ويجعلون من مقامهم فى صقلية مقاما لا يحتمل؛ حتى أن المتمسكين منهم كانوا يفكرون فى بيع كل ما يملكون وترك المكان. وكان الآباء يعطون بناتهم زوجات للمسافرين من أهل أسبانيا أو أفريقيا دون طلب مهورهن: أما المتبصرون فقد توقعوا انحسار الوجود الإسلامى فى صقلية خلال وقت وجيز، كما حدث من قبل فى كانديا.

ومع ذلك فلم يكن السكان فى جملتهم يكرهون المسلمين. كانوا يلقونهم بالترحاب أثناء الترحال. كما أن صوت المؤذن لم يكن مستغرباً فى كبريات المدن: وكان مسيحيو ترابانى معتادين على رؤية جموع المسلمين وهم يذهبون. على أصوات الأبواق والطبول، إلى المصلى. يتقدمهم «العامل»، لأداء صلاة الجماعة فى العيد(1). وإذا وجهنا نظرنا نحو القصر، فسوف نجد الاتجاهين متجاورين، أى مصادر الاضطهاد ومنابع المحاباة معاً: فمن ناحية نجد الحاج كبار رجال الدين من وراء جبال الألب: ومن الناحية الأخرى نجد الطابع يتغلب أحياناً على التطبع. وعلى ذلك كان الخصيان، و«الجابيتى» أو إذا أردنا، وصفاء القصر، يقومون بوظائفهم فى البلاط تحت تلك الغلالة الرقيقة جداً من التظاهر بأنهم مسيحيون(2). وكان هؤلاء يلمعون فى بذخ الثياب والخيول. وكان جوليلمو يكرم وفادة المسلمين الأجانب، من أطباء وفلكيين(3). وكان يغدق العطاء للشعراء(4). كما يؤكد ابن جبير أن النساء المسلمات فى القصر كن يكسبن أحياناً للإسلام بعض صاحباتهن من المسيحيات. وأن سيدات بالرمو من

(1) ابن جبير. المرجع السابق.

(2) والدليل على ذلك كل ما تمت روايته من أمور فى فصول الكتاب الخامس من هذا المجلد.

(3) ابن جبير، المرجع السابق.

(4) انظر هنا، ص ٥١٨، الإشارة إلى ابن قلاقس.

الفرنجة أو الإيطاليات كن يعترفن فى قرارة أنفسهن برقى الحضارة الشرقية، فكن يرتدين أزياء المسلمات وثيابهن(1).

ولم يرتخ ذلك الرباط المعنوى الذى كان يشمل السكان من مسلمى الجزيرة، حقيقة كان سكان المدن يتعاونون بالقليل أو ربما بلا شيء مع إخوانهم فى الدين من عبيد الأرض، وهم رجال من سلالات مختلفة، بعيدون عن الأعين والقلوب: ولكن التراحم الإسلامى كان نشطا بين سكان المدن، وكان المتظاهرون بالمسيحية بالبلاط، خير مثال على ذلك، وإن عرضهم ذلك للخطر. وهذا التعاطف بين أفراد الجماعة، أو الأصل الواحد أو الوطن، والذى كان يرجع بالطبع لمشاعر واحدة، كان يظهر بشكل أقوى فى بالرمو، أو المدينة، كما كان يطلق عليها مسلمو صقلية على سبيل الكناية. هناك أقام المسلمون فى بعض الضواحى، دون جيران مسيحيين، وكان بينهم قاض، يحكم فى شئونهم، وكانوا يترددون على المساجد، وكان كل منها مدرسة أيضاً، وكانت لهم أسواقهم الزاهرة، وفيها كان أصحاب الحرف مقسمين على حارات بحسب صنائعهم، كما كان متبعاً، بوجه عام. فى العصور الوسطى، وكما هو فى الشرق فى كل الأزمان. ومن كلام ابن جبير يمكننا أن نخلص إلى أن تجار المدينة كانوا فى غالبيتهم من المسلمين. وكانت هناك حرية مطلقة فى الصلاة العامة، إلا أن صلاة الجماعة كانت تؤدى بالمسجد الجامع، وبالدعاء للخلفاء العباسيين، وكان الاجتماع للصلاة فى الأماكن الخلاء، أو إن أردنا القول «المصلى»(2)، أمراً ممنوعاً، ربما لأنه كان من الخطر، على ما أظن، تجمع الآلاف من المسلمين.

ولا نعرف كم كان عدد هذه الآلاف فى العاصمة وفى الأقاليم؛ ولكن من المؤكد أن عدد السكان المسلمين من الرجال والنساء كان يفوق المئة ألف التى ذكرها أحد الكتاب المعاصرين، كما سوف نرى فى

(1) ابن جبير، المرجع السابق.
(2) ابن جبير، المرجع السابق.

الفصل التالى. وسوف يبين تتابع الأحداث أيضاً، كيف انه نحو نهاية القرن الثانى عشر، تحول مسلمو صقلية إلى فال دى مازارا. وكيف أن عدداً كبيراً منهم ظل يمارس الزراعة فى تلك المساحة التى تغطى الف كيلو متر مربع من الأراضى التى وهبها جوليلمو الطائش، بكل ساكنيها، إلى دير مونريالى، متغاضياً عن التبعات السياسية لذلك، وعن الخلل الاقتصادى الذى كان ليلحق بالدولة(1). وأسماء المدن والقرى التى ذكرها ابن جبير فيما عدا سيراكوزا، التى تقع على الساحل من مسينا إلى بالرمو وعلى الطريق من العاصمة إلى ترابانى. وكان فى مسينا حفنة من المسلمين؛ وعدد أكبر منهم فى تشيفالو؛ وكان فى ترمينى ضاحية يقطنها المسلمون بكاملها، وكذلك بلدة صغيرة بكاملها بقصر سعد، ويبدو لى أنها ذلك التل الذى يطلق عليه الآن اسم كانيتا، بالقرب من فيلابّاتى؛ وكان عدد السكان منهم كبير فى بالرمو؛ وجميع سكان الكامو والقرى والأرياف حيث كانت تمتلئ الأراضى الخصبة بهم وكانت زراعتها جيدة فى ذلك الوقت، وكانت تمتد من العاصمة حتى ترابانى: وفى ترابانى أيضاً كان جزء كبير من السكان يدين بالإسلام(2).

---

(1) انظر الفصل السادس من الكتاب الخامس، ص ١٦٢ من هذا المجلد. بصدد الحديث عن أراضى چاتو. وإذا أضفنا إليها أراضى كورليونى وكالاتراسى، التى وهبت إلى دير مورپالى بموجب وثيقة ترجع لعام ١١٨٢، يتضح أن ملكيات الدير كانت تحيط بها أراضى بالرمو وبارتينكو وألكامو ومازارا وكالاتاماورو (وتحل كونتسا فى يومنا هذا محلها)، وبيزاكوينو، وبريتسى، وكيزو (تشيهمنا اليوم)، وتشيفالا ـ ديانا. وفى خريطة صقلية التى نشرتها قيادة اركان حرب منذ وقت ليس ببعيد، نجد أن مسطح الأراضى الثلاثة التى حددناها، يشغل الورقة رقم ٤١ بكاملها تقريباً (كورليونى) وحوالى (ربع) الورقة رقم ٣١ (بالرمو). وكل ورقة من تلك الخريطة الطبوغرافية الممتازة رسم مصغر لمستطيل أبعاده ٣٥ × ٢٥ = ٨٧٥ كيلو متر مربع؛ وعند إضافة الجزء الرابع أى ٢١٨ وبإسقاط العشرات من الرقم لأجزاء الأراض الأخرى الداخلة فى نطاق المستطيل، فإنه سوف يتضح أن رقم ١٠٠٠، ذلك التقريبى، هو رقم أقل من أن يكون مبالغاً فيه. علاوة على ذلك فقد وهب جوليلمو الثانى، بموجب وثائق من عام ١١٨٣و١١٨٤، أرض بيزاكوينو وأراضى أخرى، لم نضمنها فى الحساب.

(2) ابن جبير، المرجع السابق.

وربما كان يدين به أيضاً بعض سكان كتانيا(1)، وعلى حد قول بورتشارد، أسقف ستراسبورج، ومبعوث بارباروسا لدى صلاح الدين فإن مالطة وبانتلاريا كانتا بكاملهما مسكناً للمسلمين فى تلك الآونة؛ وكانت تخضع أولاهما لملك صقلية، أما الثانية فلا تخضع لأحد، وكان إنتاجها من القمح قليلا؛ حيث يعمل رجالها بالرعى، وهم شبه بدائيين، يلوذون بجحورهم فى المغارات، بمجرد أن ينزل إلى الأرض من هو أقوى منهم(2).

ومع ذلك كان المسلمون يشاركون فى المناصب المدنية والعسكرية، كما سبق وذكرنا حينما تحدثنا عن «الجابيتى». لأن الشواهد المذكورة عن ذلك ترجع فى غالبها إلى مملكة جوليلمو الصالح(3). ويجب أن تضاف إليها شهادات أوستاتسيو،كبير أساقفة تسالونيكى، وكان دقيقاً جداً فى وصف رجال الجيش الذين أغاروا على بلاده وخربوها (١١٨٥)، وكان يطلق عليهم اسم صقليين. حيث إن جوليلمو، كونت أو ملك، أو طاغية صقلية. حسبما قال، جمعهم وأفرغ خزينة الدولة ليفى بنفقاتهم التى كانت تفوق بالكثير موارد الجزيرة الشحيحة(4). وكان ذلك الجيش يتضمن الجنود والقواسة الخيالة، والمشاة بالدروع الخفيفة والثقيلة، والفرق الحرة، المسماة بجماعات «الرزق» وكانت فرقاً لا تحصل على مكافآت أو رواتب، وإنما كانت تحارب فى مقابل الغنائم فقط(5). وربما كان

(1) انظر هامش ٢، ص ٥١٠.

(2) رسالة مسماة *Itinerario di Gherardo*. تتضمنها *Chronica Slavorum*. ارنولدو دي لوبك، الكتاب السابع، الفصل ١٠ من طبعة ١٦٥٩ . وفى مجموعة برتز، *Scriptores*، الواحد والعشرين، ١٠٣ و٢٢٥، حاشية ٧٧، يقوم العلامة السيد لاپنبرج بتصحيح اسم كاتب الرسالة، ويؤرخ البعثة بعام ١١٧٥ .

(3) الكتاب الخامس، الفصل التاسع، ص ٢٦٢ وما بعدها، من هذا المجلد.

(4) طبعة فرانكفورت ص ٢٨٣، وطبعة بون ص ٤٢٢ .

(5) ص ٣٠٤ طبعة فرانكفورت وص ٥٠٤ من الطبعة الأخرى. وورد بالنص رجال [illegible]. انظر هذا اللفظ فى قاموس *Ducange* اليونانى، وطبقاً لما ورد به فسوف يعنى فى الأصل «رمية زهر» وبالتالى «حظ» وفى كتابه *Komnenen und Normannen*

مسلمو صقلية يعدون بين الخيالة القواسة، ويقومون بتلك المهمة التى تقوم بها الآن الشرطة العسكرية فى الجيوش الأوربية. ذلك لأن إوستاتسيو يروى أنه فى بداية عمليات النهب، بينما أخذ عدد من الجنود يلطخ بالدماء وينتهك قدسية كنيسة سان ديميتريو بأفعال سيئة شتى ضد اليونانيين الذين لاذوا بها، جاء أحد الخصيان من أدميرالات(1) الملك، ودخل على ظهر جواده وبيده قضيب من حديد، ويتبعه قواسة أقوياء وأخلى المكان من أولئك القتلة(2). ولكن أثناء احتلال المدينة، بينما كان اللاتين يصبون جام غضبهم على المهزومين كان سراسنة صقلية يجوبون الطرق ليلاً للحراسة: ويدخلون الديار إن كان بها نور أو نار، فى مخالفة للأمر بمنع ذلك: ويحطمون الأبواب ويأخذون منها النساء والفتيات اللائى وقعت عليهن أبصارهم بالنهار: وكانوا يأخذون أحياناً «دوطة» هؤلاء الفتيات(3). وفى إحدى الخطب التى ألقاها إوستاتسيو بعد تلك الضربة، إذ كان يستنكر إحدى عمليات التعدى على المقدسات، قال إنها تشبه ما فعله افريقيو صقلية(4). وأرى أن أنسب صناعة آلتى المنجنيق الهائلتين، اللتين أسماهما «بنتا الزلزلة»، إذ فتحتا الثغرة فى سور تسالونيكى(5): ومن ثم فمن الواضح أن الآلتين كانتا تدفعان بالقذائف فى خط مستقيم، مثل المدفعية الحديثة: كما أنهما تتطابقان مع تلك الآلات التى وصفناها فى حصار سيراكوزا عام ٨٧٨ والتى استخدمت فى عملية الإسكندرية(6)، وربما تتطابق أيضاً مع تلك

شتوتجارت، ١٨٧٠ ص ١٩٦. يبدو لى أن السيد تافيل قد ضيق المعنى كثيراً حين ترجمه إلى *Freibeuter* وقراصنة.

(1) Αμηρᾶς*. يجب إضافتها إلى الاستشهادات التى ذكرتها فى الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ٢٤٦ من المجلد.

(2) ص ٢٩٦ من الطبعة الأولى وص ٤٧٢ و٤٧٣ من الطبعة الثانية.

(3) المرجع السابق، ص ٢٠١ و٤٩٢.

(4) خطبة إفتتاحية، ضمن نبذات طبعة فرانكفورت المذكورة سابقا، ص ١٥٧.

(5) المرجع السابق، ص ٢٨٥ من الطبعة الأولى وص ٤٣٠ من الطبعة الأخرى.

(6) فى هذا الفصل ص ٤٨٧.

التى كان يعدها كارلو دا نجو (١٢٨٤) ضد صقلية، وكان يقوم سراسنة لوتشيرا بتشغيلها(1). وبعد مدفعيى المنجانيق، ذكر إوستاتسيو «أولئك الذين كانوا يعملون على ملء الخنادق الخداعية بذلك التراب الكريه، حتى يهزوا الأسوار ويهدموها». وفى هذا الموضع أجد أن اللفظ اليونانى غير المألوف الذى ترجمته عمداً بلفظ غامض فى لغتنا، إن لم يكن يعنى ذّرات الوقود لإشعال النار بدعائم المخابئ، فلعله كان يقصد به ذلك المُركّب الذى كان يستخدم فى نيران الحرب، والذى قاد إلى اختراع البارود. ولكن لما كان هذا المركب لم يصل إلى درجة الكمال فإنه لم يكن يؤدى إلى الانفجار، وإنما كان يتطاير ويعمل شرراً ويؤثر بمجرد قوة رد الفعل. وهذا الاختراع يعود أيضاً إلى مسلمى صقلية، حيث إن نيرانا مشابهة، كانت تستخدم، فى ذلك الوقت، لدى إخوانهم فى أفريقيا وفى المشرق(2).

---

(1) وثيقتا ٢٢ ابريل و٦ مايو عام ١٢٨٤، المذكورتان فى كتابى *Guerre del Vespro Siciliano*. الفصل العاشر، طبعة ١٨٦٦، الجزء ١، ص ٢٨٣ بالحاشية.

(2) إوستاتسيو، المرجع السابق، ص ٢٨٥ من الطبعة الأولى وص ٤٣٠ من الثانية. وقد ترجم المترجم اللاتينى لفظ *συρφετός* إلى *"zolfo"* «كبريت» وذلك بالاستنتاج، فيما يبدو لى، بدلاً من الاعتماد على مرجعية أمثلة أخرى. واللفظ الذى استخدمته، يتفق مع ما يعرف فى توسكانا باسم *"pulvis stercoribus permixtus"* الذى يعنيه التعبير اليونانى، بالإضافة إلى معنى قمامة وتراب الطريق؛ وهو ما يسمى فى صقلية بالتحديد *(pruvulazzu)* ويجب على أن أنبه إلى أنه باستشارة الأستاذ العلامة كومباريتى بجامعة بيزا بخصوص ذلك اللفظ، أكد لى الرأى القائل بأنه لا يراد الكبريت؛ ولكنه يرى أنه يعنى هنا «كناسة مواد قابلة للاحتراق». كما يمكن أن تكونه نشارة الخشب أو ما يماثلها: أى تلك المواد التى كانت تستخدم فى المناجم؛ وحسب طريقة قدامى اليونانيين فى الحصار والغزو. ومع ذلك يظل أمامى الشك فيما إذا كانت الكناسة، بحسب اسمها الاصطلاحى تعنى بالنسبة ليونانيى القرن الثانى عشر، مواد قابلة للاشتعال، من بين تلك المعروفة فى العصور الوسطى تحت مسمى عام وهو النار اليونانية. وأردت أن أشير إلى هذا الافتراض، حتى تتمكن أبحاث لاحقة أو نصوص جديدة من أن تكشف عن هذه النقطة العلمية الفنية.

وعن الاستخدام القديم للتركيبات الحارقة المكونة من نترات البوتاسيوم والكبريت، أو إذا أردنا، بارود الإطلاق الناقص، انظر كتاب السيدين رينو وفافى *Du feu Gregeois* والفصل الأول من كتابنا هذا، ص ٣٦١ من المجلد، هامش ٢.

وبناء على ذلك فإن عدد المسلمين وثراءهم، ومعارفهم ومشاركتهم فى الخدمات العامة ورعاية البلاط لهم كانت عوامل أعطت قوة لمسلمى صقلية المتضررين كما هو الحال من رجال الكنيسة ومن بعض وزراء الملك، والواثقين من إمكانية التغلب على أخطر المصائب: ومع ذلك كانت ألوية الموحدين ترفرف على مقربة من صقلية: وما كانت الجزيرة تفتقر إلى زعماء ثورة. وأثار ذلك مما اكتشفه الكتاب المسيحيون والمسلمون، تقودنا إلى شخصية كبيرة من بيت الأدارسة، من فرع بنى حَمود، وكان فيما يبدو لى، من العائلة ذاتها التى ينتمى إليها ذلك السيد التعس الذى سلّم كاستروجوفانى إلى الكونت روجيرو، وكانوا فى الغالب يدعونه كما هى عادة العرب، باسم كنية هو أبو القاسم، ويدعونه أحياناً بكنية أحد أجداده أى ابن أبى القاسم، أو يلقبونه فى النهاية بلقب العائلة وهو ابن حَمود. وكانت منزلته قد ارتفعت وسط الارستقراطية الوراثية(1)، أيام جوليلمو الصالح. أما عن ثرائه ومنزلته بين مسلمى صقلية، فيخبرنا عنها فالكاندو أيضاً، ويذكر انه كان من بين أقوى أعداء رئيس الديوان ستيفانو، كما ذكرنا من قبل(2). وفيما يشبه هذه الرواية، يحكى ابن جبير، بعد سنوات، أنه اضطهد للاشتباه فى تعامله مع الموحدين؛ وصودرت أمواله، وغرّم ثلاثين ألف دينار؛ ووصل إلى مستوى الفقر والعيش براتب فى البلاط: كان رجلاً بأصله، وكرمه، ومروءته، وفطنته، وأدبه، عالى الشأن بين مسلمى صقلية، حتى أنه لو كان قد ارتد عن دينه، لتنصروا جميعاً، هكذا يقول الرحالة الأسبانى(3).

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل ٦ و٩ ص ١٧٥ و٢٦٣ من هذا المجلد. إن الاختلاف بين اسمى أبى القاسم وابن أبى القاسم لا يمثل أية مفارقة، لأنه من عادة العرب الايجاز فى مثل هذه التسميات. ولدينا لذلك مثلاً قريباً فى بنى خراسان بتونس، ذلك اللقب الذى كان يقال أيضاً، وبصورة سليمة، بنى أبى خراسان. انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٤٢٩ من المجلد، هامش ١.

(2) انظر بداية هذا الفصل، ص ٤٨٠.

(3) ابن جبير، المرجع السابق.

كما نخلص إلى أن ابن قلاقس السكندرى، الفقيه والشاعر ذا الاسم اللامع، جاء إلى بلاط جوليلمو عام ٥٦٥ (٢٥ سبتمبر ١١٦٩ - ١٣ سبتمبر ١١٧٠)، وبعد أن قال قصيدة مدح فيها الملك، ونال من هباته مكافأة، أهدى للحمودى ذلك، ديوانا عنوانه **الزهر الباسم فى اوصاف ابى القاسم** ونال عنه مكافأة عظيمة، مما أكبر امتنانه للصقلى المعطاء، حتى انه حين عودته إلى مصر، أهدى له أبياتاً أخرى. كما لقبوه أيضاً بالسحاب(1). وربما يرجع ذلك إلى واسع عطائه وكرمه.

وفى ذلك الوقت عاد ابن ظفر إلى صقلية، وكان قد ولد بها ثم هاجر إلى الشرق، وكان عالماً، وشاعراً، ولغوياً وكاتباً رفيعاً: ولما كان يعانى ضيق العيش شمله ذلك الرجل النبيل بالمعونة والمودة، فأهداه ثلاثة أعـمال لم تنشر، والنسـخة الثانية من أكبر مصـنفاته انتشـاراً وهى **سلوان المطاع**(2). ونقرأ فى مقدمتها فى معـرض الكـلام عـبارات من الواضـح أنه لم يلقها جـزافا: الدعـاء «بأن يعين الله هذا الرجل، سيد السادة وقائد القادة، على إتمام مقـاصده التى يبغـيها هو(جـل جلاله) .. «وأن يرفع شأنه دائماً بين مراتب السلطان وأن يبطل غى أعدائه»؛ ثم مدحه بأن «عزيمته وافية فى أى خطب... وأن الناس لا تهاب المحن متى اتبعت رجلاً مثله ثابت القصد»(3). وما كان يستطيع ذلك الرجل أن ينعم بالحياة وسط ظروف بنى وطنه المسلمين. ولما كان قد اتخذ الجـانب المنـاهض لستيفانو، فإننا نستنتج أنه كان يحـظى بتأييد ماتيو، وأن يكـون، فوق ذلك، موضع ريبة جـوالتيرو أوفـاميليو الذى أخـذ يرفـع راية الانحـياز إلى الآتين من وراء جبال الألب. وأبو القـاسم، او آخـرون من عـائلته، وجـد نفسـه، بكل

---

(1) السحاب، او البهمة(الماء)، رمز السخاء. قارن ابن خلكان؛ **وفيات الأعيان**، النص طبعة وستنفيلد، المجلد التاسع، ٦٧، الترجمة رقم ٧٧٢، والمجلد العاشر، ٦٤، ترجمة رقم ٨١٥، وحاجى خليفة، معجم التراجم، المجلد الثالث، ٥٤٥، رقم ٦٦٨٠. وقد أعدت طباعة النصوص فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٣١ و٦٤٢ و٧٠٢.

(2) انظر المقدمة التى كتبها لكتاب **سلوان المطاع** لابن ظافر، ص ٢٤ وما بعدها.

(3) المرجع السابق، ص ٢، ٣.

تأكيد، متورطاً فى الثورات ضد الدولة المسيحية، ونخلص إلى ذلك من أن أملاكه قد صودرت. وبالفعل لدينا وثيقة عام ١٢٠٠ من وثائق الوصاية على الحكم، تنص على الوفاء لبلدية جنوه بالوعد الذى خرقه أريجو السادس، وبناء على ذلك تحدد الوثيقة هبات واسعة، ومن بينها القصر الذى كان يمتلكه فيما سبق، فى ترابانى الجابيتو (القائد) بولكاسيمو(1). ثم بعد ذلك بست عشرة سنة، كان فدريكو، بعد أن تحرر، يهب لكنيسة بالرمو بعضاً من أملاك روجيرو حموتو، الذى يبدو أنه كان أصل هذه العائلة النبيلة فى صقلية فى القرن الحادى عشر(2).

(1) *Liber Jurium Reipub Januens*. المجلد ١، ص ٤٦٢ رقم ٤٣٧ فى *Monumenta hist. patriæ*.

ورد بالنص تسمية "*domum*". وأنا أترجمها «قصر» لأن الدار التى منحت فى مسينا من خلال الوثيقة ذاتها، كانت دار مرجريتو، أى القصر الذى أقام به ريتشارد قلب الأسد فى ١١٩٠ ـ ١١٩١؛ والدار التى منحت فى سيراكوزا كانت من أملاك جوالتيرو دى موديكا وكان قد أصبح أدميرالاً كبيراً؛ والبناء الممنوح فى نابولى كان الفندق الملكى فى «بورتاموروزينى»... إلخ. وقد خرجت هذه الوثيقة الهامة إلى النور، لأول مرة فى *Hist. Dipl. Friderici II*، المجلد الأول، ٦٦.

(2) انظر الاستشهاد بصفحة رقم ١٧٥، من هذا المجلد، هامش ١.

الفصل السادس

كان فالكاندو قد توقف، استياءاً منه أو بعداً، عن كتابته للتاريخ عند بداية حكم جوليلمو الثانى بشخصه. وحينما عاد يمسك بقلمه بعد عشرين سنة ليرثى لما ألم بصقلية من نكبات، سجل، من بين أخطر العوامل، ردود فعل المسلمين. قال فالكاندو: «لو استطاع سكان صقلية أن ينصبوا على العرش ملكاً مشهوداً بقدره، ولو لم يختلف المسيحيون مع السراسنة، لاستطاع الملك المختار أن يطرد الجيوش الأجنبية ويعيد من كيان الدولة ما يبدو أنه فُقد الآن... إلا أنه فى زحمة القلاقل، ومع غياب هيبة سلطان الملك، من الصعب أن يكف المسيحيون عن قهر السراسنة. على أن هؤلاء لعدم ثقتهم فى أولئك ولضجرهم كذلك من كثرة الإساءات، من الصعب ألا يهبوا لحمل سلاحهم، ويأخذوا قلعة على الساحل هنا، وحصناً على المرتفعات هناك. وإن حدث ذلك، كيف يستطيع الصقليون الدفاع عن أنفسهم بيد تصد هجمات السراسنة، واليد الأخرى تصارع فى معارك ضارية ضد التوتون؟».

آه لندعو الله أن يتفق النبلاء والعامة، المسيحيون والسراسنة، حتى يتوحدوا فى اختيار ملك، وأن يضعوا كل قواهم، وأقصى ما لديهم من جهد حتى يصدوا هجمات البرابرة! ومع ذلك راح المؤلف يلوم أهل بوليا ومسينا والملكة كوستانسا، والجميع فيما عدا المذنبين الحقيقيين: وهما جوليلمو وكبير الأساقفة. كما تناول مميزات أوليات مدن صقلية: وأفاض كثيراً فى وصف بالرمو، التى كان يحبها كما لو كان من مواطنيها وكان يتوق إلى الحفاظ على مظاهر جمال الطبيعة ونتاج

الحضارة فيها(1).

إن هذا الحديث السياسى الوجدانى عن الأحداث الرئيسة التى جرت فى صقلية وبوليا من خريف ٨٩ إلى ربيع ٩٠، يشمل، فى رأيى رواية فى شكل نبوءة، ومخاوف وآمال؛ لأن الرسالة كانت قد كتبت فى الربيع، إن لم يكن فى مدخل الصيف، وحينئذ كان الكاتب يعيش خارج صقلية وربما وراء جبال الألب(2). ولم يحدث أبداً لمتنبئ ان ذكر الأحداث بتفاصيلها الدقيقة؛ كما أنه من غير المعقول أن يكون فالكاندو، على سبيل المثال، قد ظل على غير علم باعتلاء تانكريدى العرش، بعد تنصيبه بثلاثة أو أربعة أشهر، فى الوقت الذى كانت التجهيزات للحملات الصليبية فى سائر أوربا، وخاصة فى غربها، تزيد من كثافة الاتصالات مع الموانئ الجنوبية، وكان الناس يتشوقون

---

(1) فى كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٤٠٤؛ و٤٠٥. سواء هذه الطبعة أو الطبعات الأخرى فقد وضعت الرسالة المذكورة على رأس «التاريخ»، وهى رسالة كتبت كما هو واضح، بعد التاريخ بوقت طويل. ونقرؤها بعد «التاريخ» فى ذلك المخطوط الجميل فى *Bibl. imp. di Parizi*، س. فيكتور، رقم ١٦٤.

(2) لا يكتفى الكاتب بأن يقول وأن يكرر أنه كان يكتب «حينما كانت النسائم الدافئة، تتسلل تحت الجليد والصقيع... إلخ. كما أنه أشار إلى احتلال بوليا، مما آلمه بصورة لا يستهان بها ولكنه تعمل نظير الا يعبر الألمان إلى الجزيرة. ويواصل حديثه قائلاً:

"Atque utinam Constantia cum rege Teuthonico Siciliæ fines ingressa, perseverandi constantiam non haberet, nec ei detur copia Messanensium agros aut Aetnæi montis confinia transeundi!"

وها نحن الآن فى شهر يونيو ١١٩٠. لأنه من المعروف ان اريجو قد أرسل كبير أساقفة ماجونتسا فى أواخر أبريل وأن قائد العسكر الإمبراطورى فى توسكانا قد عبر حدود مملكة بوليا فى مايو. ولا أريجو كانا مع ذلك الجيش: ولكنه من المفهوم ان خبراً مثل ذلك كان يمكن أن ينتشر، أو ربما افترض الكاتب حضور الأميرين أو حتى اصطناعه وسط أسلوبه الاستحضارى الذى شغف به. حتى وإن لم ينجرف وراء ذلك الخلط الذى تمثل أمامه فى اسم كوستانتسا. وحيث كان الكاتب يعيش فى أديرة فرنسا أو إنجلترا فلا يجب الظن بأنه كان يعرف أخبار صقلية من موسم إلى آخر. ففى العصور الوسطى كانت الأديرة بالذات، مستودعات الأخبار. وكان الرهبان يسعون فى إثرها مثل صحفيى أيامنا هذه.

(3) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ٤٦٦ وما بعدها من المجلد.

لمعرفة أخبار تلك البلاد. وهنا يجب أن يغلب الظن بأن ما كتبه لم يكن نتاج لحظة فطنة موفقة بقدر ما كان صنعة بلاغية خطابية. وإن كان فالكاندو قد رغب فى تنبيه كبير أساقفة بالرمو، لأن يتبع الرأى العام وأن ينقذ وطنه بالتبنى، فما كان بإمكانه استخدام قالب أكثر حذراً وحذقاً من ذلك؛ وما كان ليوجه خطابه إلا إلى أحد رجال حاشية كبير الأساقفة. لذا فقد وجهه بالتحديد إلى بيترو، أمين خزانة كنيسة بالرمو؛ وعليه فيمكن القول، حسب المثل الحديث الذى نعرفه، إن الرسالة كتبت لذلك الأخير بينما كانت موجهه إلى جوالتييرو أوفاميليو.

وسواء أكانت إرهاصات أم روايات، فالأحداث قد جرت على هذا النحو. إن القسم الذى تم أداؤه لكوستانسا، بأمر الملك جوليلمو، لم يفد فى أن يقبل البارونات والكبار السيطرة الألمانية. وتلت ذلك أيام من الفوضى، هاجم فيها كثرة من مسيحيى بالرمو المسلمين، كما حدث فى هوجة عام ١١٦٠(1). ولطخت الدماء المدينة. ولاذ الناجون من المذبحة بالجبال، حسبما يذكر كتاب الأخبار(2)؛ وكانوا يقصدون بها تلك الواقعة وسط غربى الجزيرة، حيث كان اللونجبارد قد أبعدوهم من الجانب الشرقى(2). ومن ناحية أخرى فإن المذكرات التى لدينا عن

"Panormi oritur inter Christianos et Sarracenos dissentio (1) *Sarraceni, multta snorum strage facta exeunt et inhabitant montana"* هكذا كتب الكاسينى مجهول الاسم عام ١١٨٩. فى كاروزو. *Bibl. sicula*. ص ٥١٤. وكتب ريكاردو سان. چرمانو... *"quinque Sarracenorum regulos, qui ob metum Christianorum ad montana confugerant"* وبعد أن أطلق بيترو ديبولى على بالرمو مسمى المدينة ثلاثية اللغة، تحدث عن الاضطرابات التى تفجرت بها فقال:

Scismatis exoritur semen in urbe Ducum

In sua versa manus præcordia, sanguinis hausit

. Urbs tantum, quantum nemo referre potest.

(2) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ٤٦٩ من المجلد. أعتقد أن السيد دى شيربيه قد أخطأ حينما اعتقد أن المسلمين هددوا كتانيا. *Lutte des papes, etc*.

المسلمين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر إنما ترجع جميعها إلى وادى مازارا. وحسب ما أورده إخبارى آخر فقد انسحب خدام الملك جوليلمو من غير المسيحيين، إلى تلك المرتفعات ومعهم عائلاتهم وقطعانهم، أملا فى تحاشى نير تانكريدى. وكانوا حوالى مائة ألف من الرجال والنساء(1)؛ وإنى أرى هذا الرقم الجزافى ضئيلاً جداً. لقد كانوا فلاحى الأراضى الأميرية وأعتقد أيضاً أولئك الذين كانوا يعملون فى الضياع التى وهبها جوليلمو منذ زمن قريب إلى دير موريالى، الواقع فى هذه الأنحاء بالتحديد. وكان على رأس ثورة المكان المسلمين خمس حكام، هكذا يقول ريكاردو دا سان جرمانو(2). وبعد أن ألحقوا بالمسيحيين أضراراً جسيمة، خضع الثوار، وكان لتوقيع السلام مع ريتشارد قلب الأسد فى مسينا، أثره فى إعطاء قوة وشهرة لتانكريدى(3). استمرت إذن ثورة المسلمين من أواخر عام ٨٩ إلى أكتوبر عام ٩٠، أو ما يقرب من ذلك. ولما غلبهم الإقناع، وليس السلاح، إذ ظلوا فى صراع بين الحنق والريبة، عاد الرؤساء إلى ديارهم فى بالرمو؛ وذهب الفلاحون إلى أراضيهم وأعطوا

الكتاب الأول، الفصل الخامس، ص ٢١٦ من الطبعة الثانية. إن حدث كتانيا كان يختلف كثيراً وقد جرى عام ١١٩٤، كما سوف نرى فيما بعد.

(1) *Gesta Regis Henrici, etc.* طبعة ستبس، لندن، ١٨٦٧، المجلد الثانى، ص ١٤١. إن كتاب الأخبار هذا، الذى ينسب إلى بنديتو راهب بطرسبرج، الذى عمل على نسخه: إنما كُتب، حسب رؤية العلماء، فى بلاط ريتشارد قلب الأسد: ولذلك فهو مرجع موضع ثقة، ليس فقط لمعاصرته، وإنما أيضاً لوجوده فى أرض أحداث صقلية عام ١١٩٠، حينما قضى ريتشارد شهوراً عديدة بها. وتتقارب من ذلك الأخبار التى نقرأها لدى روجيرو دى هوفدن (فى كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٩٦٥) وقد ادمج هذه الأخبار مع الأخبار التى أوردها هو، وزودها بالشروح، والتعديلات والإضافات، وبما أنه كان معاصراً، هو أيضاً، فقد أعطى الشهادة قوة بانتحاله إياها.

(2) عام ١١٩٠، فى كاروزو، المرجع السابق، ص ٥٤٧.

(3) *Gesta Regis Henrici* وروجيرو دى هوفدن، الموضعان السابقان.

الرهائن(1). والتلف الذى خلفته هذه الحرب الأهلية لم يذكر بشكل تفصيلى وسط تلك الذكريات المتعجلة، الشحيحة؛ وإنما يمكن قياسه من أحوال عدد من الضياع فى وادى مازارا مما كان يسرى عليها نظام الاسترداد فى حالة عدم وجود أبناء ذكور. فما أن أعتلى اريجو السادس العرش حتى أعطى وثيقة حررت فى بالرمو فى ٣٠ ديسمبر ١١٩٤، لصالح دير سانتا ماريا دى لاتينا فى مسينا، يسمح بموجبها «إصلاح قراه التى اتلفت أثناء الحرب التى اندلعت لدى وفاة جوليلمو»(2). كما أن الحديقة التى رآها ابن جبير فى تلك الأنحاء قبل ذلك ببضع سنوات، أخذت تتحول بعد ذلك إلى غابة.

إن فرار المسلمين من العاصمة، وثورة الفلاحين، وقيام الخمس حكام الذين يقصد بهم رجال تجرى فى عروقهم دماء نبيلة، وليس مرابطين مغالين، ثاروا وسط الاضطرابات، إنما هى شواهد تبين خطورة تلك الحركة الاجتماعية، التى انتهت باختصار إلى تشتيت سلالات مسلمى الجزيرة. وكان الحكماء منهم يتوقعونها، كما سبق وقلنا: وإن كانوا لم يحسبوا التضحية قريبة إلى ذلك الحد. كان المسيحيون هم البادئين بحمل السلاح: وقاوم المسلمون فى ضراوة، وربما كانوا مستعدين لذلك: فيبدو أن مسلمى الأرياف قد وصلت بهم الحال إلى حدود اليأس من جور السادة الجدد، الذين كانوا يفوقون بالتأكيد فى تقتيرهم وقسوتهم، ضعاف الإيمان من المسلمين العاملين فى البلاط. لذا حاولوا العودة ليمسكوا بأيديهم رماح ونشب آبائهم، ويتخذوا هيئة النظام القبلى: وعاشوا على النهب؛ ولعلهم لجأوا إلى إخوانهم فى أفريقية، الذين لم يتمكنوا من مساعدتهم؛ وبعد شهور عديدة، ضاق أولئك المواطنون والمزارعون بحياة الترحال. وبعد أن خابت كل

---

(1) فارن بهن: ريكاردو دا سان جرمانو و*ecl* ...*Gesta*. الموضعان المذكوران.

(2) فى بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ١١٣٢. وهو يؤكد أنه نسخ الوثيقة الأصلية. وقد ورد ذكر هذه الوثيقة فى وثيقة أخرى من وثائق الإمبراطورة كوستانتسا بتاريخ أكتوبر ١١٩٨ او ١١٩٩. فى *Historia Diplomatica Friderici Secundi*، المجلد الأول، ١٢.

الآمال. وقد رسخ تانكريدى أقدامه. وتجهزت جيوشه وجيوش الصليبيين الذين كانوا يتوقفون فى مسينا. آثر المسلمون اللجوء إلى حماية القوانين النورمانية. وعادوا يعيشون حياتهم المعتادة. وقادتهم إلى ذلك فيما أرى كفاءة الوزير ماتيو وأسلوبه. حيث كان صديقاً دائماً للمسلمين. وها هو ذا الآن ينتصر على فصيلة ما وراء جبال الألب. وهى فى الحقيقة تلك الفصيلة التى لم يكن يخطئ فى حقها من عدها المحرك المباشر للثورة؛ لأنه ما إن اصطف الشعب لصالح تانكريدى. حتى لم تجد أمامها من سبيل سوى تحريض مسيحيى بالرمو ضد المسلمين: وإشعال فتنة الحرب الأهلية. حتى تحجز قوات الأمير الجديد داخل صقلية. بينما كان الألمان يهاجمون بوليا: وهى بالتحديد الحالة التى لمّح لها فالكاندو. بناء على ذلك يمكننى تصور بداية ثورة المسلمين ونهايتها.

وسوف أشير مجرد إشارة إلى الأحداث الأخرى. حيث إنها معروفة جداً وأصبحت واضحة بفضل الأبحاث الحديثة(1). كان اختيار تانكريدى عملاً من أعمال المستشار ماتيو. وإن كان أيضاً بموافقة أغلبية المواطنين وبترحيب كبير من البلاط البابوى. وقد شب وتربى فترة فى المملكة وفترة أخرى فى البلاد البيزنطية. وكان رجلاً مثقفاً حسب تعليم عصره. ولكنه كان منقاداً أو مذبذباً على أقل تقدير. إلى

---

(1) انظر العمل الكبير الذى أجراه السيد دى شيربيه. *Histoire de la lutte des papes et des empereurs de la Maison de Souabe*. الكتاب ١. الفصل الخامس وما بعده. وكتاب الدكتور تيودورو توپشى. *De Henrico VI. Romanorum imperatore, Normannorum regno sibi vindicante*. برلين ١٨٠٦: والنقد الذى اجراه السيد ادولفو كوهن فى *Forschungen zur deutsche Geschichte*. المجلد الأول ص ٤٢٧ وما بعدها. والذى أجراه السيد أوتو هارتوينج فى. *Selzer's Monats blätter*. مارس ١٨٦٢. أما عن الكتاب المعاصرين. فإلى جانب الطبعات القديمة. يمكننا الآن مقارنة طبعات برتز (حتى المجلد٢٢) وطبعات *Gesta Regis Henrici* الحديثة. وطبعة هوفدن (المجلد ١) التى نشرت فى لندن للأستاذ ستوبس. علاوة على ذلك فإن مجموعة برتز تكشف عن بعض مصادر لم يعرفها المصنفون الذى كتبوا تاريخ صقلية.

جانب انه كان قائداً فاشلاً جداً، وإن كان قد أعطى برهاناً على حكمة سياسية اتبعها هو أو ربما مستشاره ماتيو. دخل بقوة المال فى اتفاق مع ريتشارد انجلترا، ذلك الضيف شديد الخطورة(1)؛ وطمأن المسلمين فى صقلية؛ ودافع عن نفسه فى البر الإيطالى من أعدائه فى الداخل والخارج؛ ولكن عندما وافته المنية بعد أربع سنوات (٢٠ فبراير ١١٩٤)، ترك التاج لطفل؛ والوصاية على الحكم إلى سيدة لا تحسب من بين النساء اللامعات. وتوفى، فى ذلك الوقت، المستشار؛ وفى المقابل، أصبح اريجو السادس إمبراطوراً، وبعد أن تخلص من خصومه فى المانيا، واكتظت خزائنه بالمال الذى حصل عليه من فدية ريتشارد قلب الأسد، أخذ يسلح فرقاً من المرتزقة؛ ويقود الأتباع من الألمان والإيطاليين؛ ويستعير سفن چنوه وبيزا بوعود كاذبة؛ وأخذ يؤمن مروره فى وسط إيطاليا بأن أعطى غنيمة لأهل روما دماء وممتلكات وحتى أسوار أهل توسكولانا الذين وجدوا أمانهم فى إحدى الحاميات الإمبراطورية؛ أما عن البلاط البابوى الذى كان قد فضل تانكريدى فيما سبق، فقد تخاذل الآن أمام أريجو. وهو من استطاع أن يحتل المملكة خلال ثلاثة أشهر، بعد مقاومة قليلة، ولم يخفف ذلك من قسوته.

ووسط أحداث الحرب القليلة تلك، وقع صـدام مهم فى كتانيـا لا يظهر من الوهلة الأولى فى المذكرات المعاصرة له. كان أهل كتانيا قد هتفوا باسم اريجو؛ وعلى ذلك ارسلت أرملة تانكريدى رجالها للسيطرة على تلك المدينة، ومن بين أولئك الرجال كانت هناك جماعات من المسلمين. وكثيراً ما حكت حوليات چنوه وأضافت أن

---

(1) لا بأس من التنبيه إلى ان الأستاذ ستوبس، فى كتاب *Gesta, ec...*، المجلد الثانى ١٣٢، فى الفصل الخاص بتفاوض ريتشارد قلب الأسد مع تانكريدى، قد اجاد بتصحيحه *salmas* للفظ *salines* وبتفسيره لفظ *tari* بمعجم الألفاظ المجلد الثانى، ٢٥٧ الذى تحور بأشكال مختلفة حتى انه وصل إلى *terris*؛ وهما لفظان تركهما كاروزو كما هما (.*Bibl. sic*، ص٩٦٠)، حتى إن كان أولهما يعنى، بوضوح، مكيال للقمح، واللفظ الثانى ما كان يمكن أن يعنى سوى قطع عملة صغيرة، حيث إن ١،٠٠٠،٠٠٠ منها، كان يعادل، حسب راوى كاتب الخبر، ٢٠،٠٠٠ أوقية من الذهب.

سفن الجمهورية ذهبت من مسينا لمساعدة المحاصَرين وهزمت المسلمين وكان القتلى كثيرين(1). وقد كتب أحد كتاب الحوليات الألمان، دون أن يذكر المسلمين ولا أهل جنوه، ونسب الانتصار إلى أريجو دى كاليندين: فقال إن البارونات اجتمعوا معاً فى كتانيا، بجيش لا يحصى ولا يعد؛ وإنهم أقاموا بها مذبحة كبيرة؛ ودخل المنتصرون كتانيا مع الهاربين؛ واشتعلت الحرائق فى المدينة؛ وفى كنيسة سانتا أجاتا، بكل الشعب الذى لاذ بها، وإنهم أخذوا الأسقف أيضاً وساقوا الجميع أسرى إلى أريجو(2). ومن ذلك نرى أن كلا من الاخباريين قام باختيار الأحداث التى تهمه أكثر من غيرها؛ ولكن الروايتين المنقوصتين تتوافقان جيداً مع بعضهما، وتكفيان، حال جمعهما معاً، لإيضاح أن آخر قوات السلالة

(1) *Annales Januenses*. فى موراتورى. *Rer. italic*. المجلد السادس ٣٧٠.

(2) اوتونى دى سان بياجو، فى برتز. *Script*. المجلد العشرين، ٣٢٥ وفى كاروزو، *Bibl. sic*. ص ٩٣٥. ولا أعلم لماذا يضع تويتش فى الكتاب المذكور سابقاً والمشهود له بالقيمة العلمية والدقة البحثية، لا أعلم لماذا يضع موضع الشك مرجعية تتمة سان بلازيانو، وهى تتناول بالتفصيل هذه الأحداث، كما أنها لا تتعارض مع غيرها من شهادات المعاصرين. وعلى عكس ذلك أظهر السيد كوهن ثقته بذلك الكاتب المعاصر، المرجع السابق، ص ٤٤٧ و٤٥٠. أما عن أتوبونو، كاتب حوليات جنوه فى ذلك الوقت، فإن العلامة تويتشى يشك فى صحة روايته، لأنه لا يراه أمراً معقولاً أن تجمع ملكة صقلية «جيشاً»، وأن يكون به «جنود مسلمون» أما عن النقطة الأولى، التى نص عليها كاتب أخبار جنوه كما شهد بها الكاتب الألمانى، فهى أمر طبيعى جداً: وليس ثمة داع لنفيها. أما عن النقطة الثانية، فإنه إن لم نصدق بورينيى الذى ذكره السيد توتشى، فعلينا أن نثق بالمراجع التى استندت إليها فى مواضع مختلفة فى كتابى هذا. فإذا كان من غير المعقول بالنسبة له أن يكون المسلمون قد حملوا السلاح للقتال لصالح السلالة الآخذه فى السقوط، فإنه فى مقابل ذلك يمكن أن نتساءل عن السبب الذى كان يمكن أن يدفع القوات المرابطة أو حتى الجنود، من طبقة الرعايا تلك، لأن يعصوا الأمر بمحاربة الأجانب. إن الملاحظات كثيرة على ما أورده تويتشى من حكم، ص ٥٤، حاشية ١٤٨. ويبدو لى خطأ رأى السيد هارتويج (المرجع السابق ص ١٨٩) الذى فى ثقته من سمة صدر أريجو السادس، ومن شر الصقليين، حمل على عام ١١٩٧ رواية أوتونى دى سان بياجو حول قتال كتانيا هذا. وللحق وضع الكاتب الحدث فى موضعه، قبل استسلام بالرمو: ولا مفارقة زمنية فى ذلك، فبعد ذكره أسر الكبار الذين شاركوا فى المعركة، يشير إلى المصير الذى صادفوه، والذى يمكن على أساس سليم أن نرجعه إلى عام ١١٩٦ أو ١١٩٧.

النورمانية فى صقلية، لم تكن قليلة بل غير منظمة، هذه القوات قامت بمواجهة العدو فى الزمان والمكان غير المواتيين؛ حتى أن الحرب تم حسمها قبل الأوان نحو أواخر أكتوبر عام ٩٤، على ما أرى. وبناء عليه توجه الإمبراطور للهجوم على بالرمو، وهو على ثقة من أمره.

ومن أشعار بيترو ديبولى، المداهن، مع أنه كاتب ملىء بالحيوية[1]، ومن كلام أوتونى دى سان بياجو البسيط، نستشف تلك الدهشة التى سيطرت على رؤساء الجيش الإمبراطورى لدى اكتشافهم ذلك العالم الجديد بالنسبة لهم، والذى كان يتمثل فى صقلية القرن الثانى عشر: صقلية شديدة الثراء بالمعادن الثمينة[2]؛ وبالرمو، المدينة الرائعة، التى تتمتع بشعب له ثلاث لغات، وهى فردوس يروى بعسل النحل[3]. ولدى اقتراب أريجو، فى هجومه الحربى على العاصمة، أعجب بمدى عظمة وفخامة حَميه، ممثلة فى سراى فاڤارا الملكى[4]. فالغابة الملكية التى كانت تمتد حتى أسوار المدينة، استطاعت أن تزود الجيش بناتج القنص والصيد بها. وزاد انبهار أريجو وإعجابه عندما وقع الاتفاق، ودخل بالرمو فى عظمة وجلال (٣٠ نوفمبر ١١٩٤) فخرج المواطنون لاستقباله، بمختلف فئاتهم، تتقدمهم فرق الموسيقى، وهم بملابس الاحتفال بينما يمتطى الأثرياء منهم خيولهم

---

(1) اطلعت منذ سنوات على طبعة إنجل، بال، ١٧٤٤، ولكنى الآن وأنا أعيد كتابة هذا الفصل فإنه لا يسعنى إلا أن استشهد بالطبعة الجديدة التى قام بها السيد جوزيبى دل رى (*Cronisti e Scrittori sincroni napoletani*)، نابولى، ١٨٤٥، ص ٤٠١ وما بعدها، حيث ترجمة السيد إيمانويل روكو الإيطالية وملاحظات كلا العالمين. أجد من الضرورى التنبيه إلى أن إنجل لم ينشر جميع أشكال مخطوط بال الثمين وإلى أنه يمكن القول بأنه ينقص جزء من العمل، لأن الأشكال التى تضمنها ذلك المرجع كثيراً ما توضح الأحداث وتذكر أسماءً. انظر أيضاً شيربيه، *Lutte des papes, etc...*، الكتاب الثانى، ٢، ص ٢٥٢ من الطبعة الثانية. وفى أماكن متفرقة.

(2) أوتونى دى سان بياجو.

(3) بيترو ديبولى.

(4) بيترو ديبولى.

الجميلة(1). وفى المدينة وجد الجيش المنتصر القصور وقد زينت بالأكاليل والبسط، والأحياء تفوح منها العطور الشرقية. ومن الأشياء التى استرعت دهشة الجرمان المتعالين كانت تحية أفراد الشعب للإمبراطور بالسجود وجباههم تجاه الأرض(2)، وأظن أن ذلك قد اقتصر على المسلمين. ووصل أريجو فى النهاية إلى قصر المملكة، فقدم له الخصيان مفاتيح الكنوز؛ فمن يفتح له خزانة مليئة بالنقود والجواهر والأشياء الثمينة؛ ومن يطلعه على دفاتر الدخول الملكية فى كلابريا، وبوليا وصقلية وحتى فى أفريقية(3). فوزع جزءاً من الغنائم الثمينة على النبلاء والقادة وأرسل منها جزءاً آخر إلى قلعة تريفلس المشئومة، مع الأسرى المرسلين للبتر أو السجن والتعذيب(4) وترى بقايا تلك الغنيمة الكبيرة، ممثلة فى ذلك النسيج الذى يحمل الطابع الإمبراطورى، والذى يُحتفظ به حالياً فى فيينا. وأقصد به رداء روجيرو، وثوب جوليلمو الثانى، وجواربه المطرزه جميعها بالذهب

(1) اوتونى دى سان بياچو *"Trinacriis pars fertur equis, etc."* . هكذا يقول بيترو ديبولى وهو يصف دخول الإمبراطورة كوستانتسا إلى سالرنو، عام ١١٩١.

(2) اوتونى دى سان بياچو.

(3) فى هذه الفقرة مما كتبه بيترو ديبولى، نقرأ:

Haec (apodixa) quantum Colaber, seu quantum debeat ater Apulus, aut Siculus debeat orbis, habet.

لقد ذكر هذان البيتان الأستاذين من نابولى. بذلك الذى كانت شهرته عظيمة فى سلاح الملك روجيرو، وعلى ذلك فقد قرأ كلاهما *Afer* فى مكان *ater*. من المؤكد أن شاعر بوليا لم يكن على حق حينما أطلق اسم زنوج على بنى وطنه، والدين المفتوح فى خزانة صقلية على أفريقيا، يمكن تفسيره جيداً بالنظر للأموال التى كانت تدفعها تونس: وربما يمكن أيضاً نسبها إلى مدفوعات مالطة وبنتلاريا، حيث كان المسلمون لايزالون يقيمون بها، كما رأينا فى الفصل السابق ص ٥١٢ من هذا المجلد. وقد ذكرت إتاوة تونس، لأن مؤلف *Annales Colonienses Maximi*، (فى بيرتز، *Scriptores*، ١٧، ٨٠٢) وهو مؤلف على علم كبير بعملية صقلية هذه، قد كتب تحت عام ١١٩٥: *"Marroch rex Africæ 25 summarios, auro et lapide precioso, multisque donis oneratis imperatori mittit"* وقد قلنا فيما سبق أن تونس كانت تخضع فى ذلك الحين لسلالة الموحدين، المقيمين فى مراكش، وقد ظنها كاتب الأخبار هنا اسم علم.

(4) اوتونى دى سان بياچو ويشير أيضاً بيترو ديبولى إلى تقسيم الغنيمة.

واللآلئ، بحروف وأشكال ورسوم عربية؛ والقفازات والنعال وهى كذلك منقوشة بالأشكال والرسوم نفسها، ثم قطع كثيرة من نسيج الحرير أو الموشى بالذهب وجميعها صناعات صقلية من القرن الثانى عشر(1).

إن مذكرات إقامة أريجو السادس فى بالرمو، تظهر ملامح الحضارة الشرقية، ولا يقتصر ذلك على الأثاث والعادات فقط، بل يصل إلى أسماء الأماكن أيضا . ونقرأ فى حوليات جنوه أن نواب تلك «البلدية» عندما ادوا العملية بنجاح، حسبما رأوا، ذهبوا للقاء الإمبراطور فى أحد قصوره فى حديقة ملكية تسمى چيلولواردو، وطلبوا منه المكافأة المتفق عليها؛ وان الإمبراطور تريث فى بادئ الأمر فى الرد عليهم وفى النهاية رفض طلبهم واهانهم وهددهم بأن يدمر جنوه وأن يحرمها من الامتيازات التجارية التى كانت تتمتع بها فى صقلية تحت حكم النورمان(2). من ناحية أخرى، يرد بوثيقة معاصرة الحديث عن معسكر أقامه جيش الوصاية على الحكم (يوليو ١٢٠٠) فى حديقة چنواردو الملكية(3): ثم فى أخبار

---

(1) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣٢ من المجلد . وعلى من يريد تقدير قيمة وكم الفنهمة أن يقرأ كتاب الأب بوك، من أوله إلى آخره، وألا ينظر فقط إلى الأشكال الملونة، بل يجب ان ينظر ايضاً إلى أشكال الخشب المحفور التى تتخلل النص بدءاً من ص ١٢٩ إلى ما بعد ذلك. إن كاتب *Annales Marbacenses*، فى كتاب برتز *Scriptores*، ١٧ ص ١٦٦، مثله مثل سائر الكتاب الألمان الآخرين حينما تحدث عن الذهب والفضة التى نقلت من صقلية عام ١١٩٥. يضيف فى تدقيق هذه العبارة *"cum multis pannis pretiosis de serico"* .

(2) *Annales Januenses*، لدى موراتورى، *Rer. italic.*، المجلد السادس، ٣٧٠. حيث نقرا *Gruloardus*. وفى طبعة برتز، *Mon. Germ*، ١٨، ١٠٩، وُجد من الأفضل كتابة *Gilolo Ardus*، وهى صيغة، كما هو واضح، لا تختلف كثيراً عن *Gennolardus* إلا فى تغيير حرف *n* إلى *l*، وبالمثل فى الاستبدال السهل لحرف *i* إلى *e*.

(3) أنونيمى فوكسنسيس *Gesta Jnnoc. III*، الفصل ٢٦، فى طبعة بالوتسيو، المجلد ١، ص ١٠. ورد الاسم غير صحيح فى طبعة كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٦٤٥. إن وصف المعركة الذى سوف نجده فى الفصل اللاحق، توضح جيداً، مكان المعسكر، فى الضاحية التى تسمى الآن ميتزو موريالى، خارج باب «نووفا»(الباب الجديد)».

صقلية ترجع للقرن الرابع عشر ورد ذكر لإجراء قام به أريجو، أيا كان في ذلك من الصدق أو العكس، وهو أنه أمر بحرق رجال في سهل جنواردو، خارج أسوار قصر بالرمو، بالقرب من حديقة كوبا من ناحية عين سندى(1). والأسماء كما هو واضح يقصد بها مكان واحد، ويمكن أن نعتبر الخطأ في حرف واحد من طريقة نطق الاسم الأول. أما الطريقتان الأخريان فهما تنقلان تسمية يغلب على نطقها السرعة والتحوير. وفيما أرى فربما كان اسم «جنولارد» هو نطق مخفف لعبارة «جنة الأرض» وهو الاسم الذى نقرأه وإن كان من خلال مرادف له في آخر بيت من الشعر، مكتوب بالعربية؛ وذلك بين الكتابات التى تزين القاعة الأرضية بقصر زيزة(2). ولقد خضع مسـلمو الجزيرة واليهـود كذلك لأريجـو وظلوا بالأماكن وبالأحوال التى كانوا عليها من قبل(3)؛ ولم يرد ذكرهم في عمليات انتقام الإمبراطور البشعة تلك. ذهب أريجو إلى ألمانيا وعندما عاد إلى صقلية (١١٩٦)، نظم الإدارة، وأرسل الأسطول إلى الجزر المجاورة ليخضعها لطاعته ويحصّل منها المال. وربما أخذ أيضاً شيئاً من المال من جزر ساحل أفريقيا(4)، وهو الأمر الذى أشار

---

(1) انونيمى *Chronicon Siculum*. الفصل ٢١، في جريجوريو، *Rerum Aragonens*، ٢، ٢٩: *Cubbæ Fecit quidem dictus imperator Henricus comburi in plano Genoardi. quocd est extra mænia palatii Panormi juxta jardinum versus Aynisndi, omnes episcopos qui fuerant in coronatione regis Trankedi*. وحكاية كل الأساقفة الذين أحرقوا لم تولد بالتأكيد من روايات كاذبة عن عذابات أجريت في ذلك المكان بأمر أريجو. وعلى أية حال فما لا شك فيه أن المكان حقيقى ويتطابق مع المكان المقام فيه اليوم دار الفقراء. ومن خلفه ناحية الشمال الغربى توجد نبع عين سندى الذى يقال له اليوم دائيسينّى.

(2) اى جـنة الدنيـا كما وردت بآخـر بيـت شـعر مـن الكـتابة التى قـمت بنشـرها في *Rivista Sicula*. فبراير ١٨٧٠.

(3) روجيرو دى هوفدن، طبعة فرانكفورت ١٦٠١، ص ٦٤٦.

(4) *"Insuper insulas maris vectigales faciens, imperium admodum dilatovit, etc."* هكذا تحدث أوتونى دى سان بياجو، الفصل ٤٣، في موراتورى، *Rer. italic.*، ٦، ٩٠١.

إليه بيت شعر من أشعار بيترو ديبولي(1).

يلزمني هنا أن أرجع إلى الوراء، حيث أن نقاداً موثوقاً بهم من الألمان، إذ شغفوا بأريجو السادس لما أضافه للدولة من قوة ولأحلامه بمملكة عالمية، دأبوا في السنوات الأخيرة على تبرئته من الاتهامات الخطيرة التي تراكمت على مر التاريخ فوق اسمه. وأجادوا في محو حوادث استخلصها الكتاب المحدثون من روايات شفهية مشوشة وبالغوا فيها حسب أهوائهم؛ وحسناً فعلوا حينما استعرضوا الشهادات المعاصرة وقدروا وزنها بدقة(2)؛ ولكن حينما يلزم أن يعمل النقد على تخيل الماضي وإعادة تركيب صور أحداثه من خلال أجزاء كثيرة مبعثرة، قام المعاصرون لها، أنفسهم، بزخرفتها، فإني أقول، إن المنحازين في يومنا هذا إلى آل زفيفي قد وقعوا في أخطاء شبيهة بتلك التي يحسبونها على مصنفي القرن السادس عشر والقرون اللاحقة له. إن كاتباً واسع العلم، مازال في قيد الحياة، وهو غير معادي لإيطاليا، وإنما مستعد لأن يصفق بأي ثمن للقيصر الذي عذبها نحو نهاية القرن الثاني عشر، عندما أراد أن يثبت أن أريجو لم يكن ذلك الطاغية الغادر الذي تحدث عنه الجميع، عمد على رد التهمة، فاحتج بأن أعداءه كانوا يفوقونه مئة مرة في شرهم: وأن سكان صقلية، أبناء النورمان الماكرين، واليونانيين الغادرين، والمسلمين القساة، إنما كانوا جنساً دموياً خائناً: لو لم يعاملهم الإمبراطور كما عاملهم، للقي سائر الألمان المقيمين في صقلية عام ١١٩٧، المصير الذي لقيه الفرنسيون بعد ذلك بخمسة وثمانين عاماً(3).

ولما كان كاتب هذا الكلام غير مستعد، حسبما أرى، لأن يدين الألمان الذين كانوا يتآمرون ضد الفرنسيين في بدايات القرن التاسع عشر، فيمكن سؤاله عن أي مسلّمة من مسلمات العدل كانت تجبر

---

(1) *Carmen* انظر فيما سبق هامش ٣، ص ٥٢٩.

(2) انظر كتيب الدكتور تويتش، ص ٦١و ٦٢، حاشية ١٦٤و ١٦٦و ١٦٨.

(3) هارتويج، المرجع السابق، ص ١٨٨و ١٨٩.

الصقليين، فى القرن الثانى عشر والثالث عشر، على أن يتركوا أنفسهم حتى تطأهم أقدام الغزاه الأجانب، وسؤاله، بشكل عام، عن الشعوب التى تخضع بشروط معينة، وعما إذا كانت مطالبة بطاعة الغالب فى قرارة نفسها حتى إذا نقض العهود أو تجاوز الحدود. علاوة على ذلك فإنى أرى أن الشعوب الأقل حضارة ليست بالضرورة الأكثر فضيلة، وأنه يجب الا نعد ممالك كوكب زحل فى القصص الخيالى، أو عادات الجرمان حسب رأى تاتشيتو ذهبا خالصا؛ كما أرى أنه من زمن روچيرو إلى أيام جوليلمو الثانى، كانت مملكة صقلية محل حسد أوربا بأسرها. لما كانت تتمتع به من أمن عام، واحترام للقوانين، وأنه بعد سنوات قليلة من وفاة جوليلمو، كان النهب والعنف والقسوة يقال عنها هنالك سلوكيات ألمانية؛ كما انه إن أردنا أن نكتب، بناء على الأخبار والوثائق، إحصائيات جنائية أوربية، فى العصور الوسطى، فلن نرى بين ألمانيا وإيطاليا ذلك الفارق الكبير الذى يفترضه هو. والحق أن القيم الأخلاقية العامة فى سائر جوانب أوربا، كانت حينئذ على ما يمكن أن تكون عليه قبل إحياء القانون الرومانى، وإصلاح لوثر، وسقوط الإقطاع، وفلسفة القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية. وإذ أجتهد فى معالجة هذا الموضوع دون حرج وطنى، فسوف أعرض المفهوم الذى خلصت إليه من مختلف الشهادات المعاصرة. ومن طبيعة البشر فى كل زمان ومكان؛ ومن الظروف الخاصة بأولئك الذين تنازعوا أرض إيطاليا الجنوبية وثرواتها نحو نهاية القرن الثانى عشر، ومن شخصية أريجو ذاتها، التى لا يغفلها أحد: وهى شخصية طموحة، وعنيفة، وماكرة، وبخيلة؛ وضرورية، حسبما قد يقول البعض، لصد سلطة البابوات، وتوحيد ألمانيا وإخضاع العالم لها؛ ولكنها كانت شخصية قادرة على خرق أبسط مبادئ العدالة، وعلى الغدر بالتوسكولان، على سبيل المثال وعلى النصب والاحتيال على أهل چنوه وبيزا.

ومن الاتهـامات التى توجـــه إليـــه تهمتـــان رئيستان: الظلم فى

الاضطهاد وبشاعة العقوبات؛ أما عن النقطة الأولى فيجدر تمييز سلسلتين من الأحداث وبالنسبة للثانية فإنه يجب أن ترتبط بأساليب العصر. وبدءاً مما حدث فى بالرمو فى أواخر أيام ٩٤ وأوائل ٩٥، فإن المذكرات الألمانية، وهى عديدة ومتسقة بين اثنين وأكثر(1)، وتتناول بالحديث مجرد عملية القبض على الكبار وترحيلهم خارج البلاد، دون إضافة أسباب ذلك، أو توجز فى ذكر مؤامرة حيكت ضد أريجو، وتم كشفها بعد تتويجه ببضعة أيام: وقد وردت إشارة عنها، وبما يقارب الكلام نفسه، فى رسالة كتبها أريجو إلى كبير أساقفة روان، بعد الحدث بأيام قليلة(2). وإذا ما أتينا إلى الشهادات التفصيلية، فكما يمكن أن يفعل أى قاض، فسوف نترك جانبا شهادة بيترو ديبولى، وهى شهادة تتساوى فى قدرها مع كلمات الراهب القريب منه، الذى كشف عن المؤامرة، وهى تثبت فقط الخبر الرسمى الذى

---

(1) أى أوتونى دى سان بياجو وأرنولدو دى لوبيك. ولن أذكر اسماء الآخرين لأن تويتشى قام بذكرهم، ص ٥٩، حاشية ١٦٠. ويضاف إليهم ما يلى:

Cont. Weingart، فى برتز ٢١، ٤٧٤، الذى يشير إلى مؤامرة ١١٩٦ ويصحب كلامه بعبارة «يقال».

Annales Marbacenses، برتز، المجلد ١٧، ١٦٦، عام ١١٩٥. ودون ذكر لمؤامرة، يقال إنه تم سجن أرملة تانكريدى، وابنه وبناته الثلاث، وكبير أساقفة سالرنو، وعشرة أشراف، من بينهم مرجريتو.

Annales Colonienses Maximi، برتز، ١٧، ٨٠٢ حيث لا نجد مؤامرة عام ١١٩٥، ولكن عام ١١٩٧.

Annales Stadenses، برتز، ١٦، ٣٥٢، حيث نرد إشارة، تحت عام ١١٩٥، إلى عملية القبض على مرجريتو فقط وفقا عينيه، حيث يريد قتل الإمبراطور غدراً. *Annales Placentini Guelpbi*، برتز، ١٨، ٤١٩، عام ١١٩٤.

Chronologie، روبرتو أوكسير، فى *Recueil des historiens des Gaules, etc*، المجلد ١٨، ٢٦١و ٢٦٢. إن هذا الكاتب الفرنسى المعاصر، يذكر فى عام ١١٩٥، أنه عندما عاد أريجو إلى ألمانيا، أخذ معه زوجة تانكريدى وأبناءه، وبعض الأشراف الذين قاموا بمؤامرة ضده؛ وفى عام ١١٩٦، يتحدث عن مؤامرة أخرى، نجا منها وكادت تصيبه ثم نقرأ: "*conspirationis auctores horrendo discerpit supplicio*".

(2) ردولفى دى ديتشيتو، *Imagines historiarum*، فى *Hist. Angl. Script.*، لندن، ١٦٥٢، ص ٦٧٨. حررت الرسالة الموجزة فى ٢٠ يناير (١١٩٥)، "*Apud S. Marcum*" فى منطقة مسينا كما يبدو.

أعلن في البلاط في تلك الأيام(1). وقد ورد في أخبار إيطالية أن أريجو تلقى رسائل مدسوسة وكاذبة ضد الملكة سبيلا وابنها جوليلمو وشخصيات أخرى؛ كان قد أعطاهم الأمان هو وكبار رجال البلاط فأخذهم جميعاً، وأرسلهم إلى المانيا، وأصاب بعضهم بالعمى(2). ويضيف إيطالي آخر أن أريجو قد خدع الملك الصبي وكونتات المملكة بقَسَم كاذب وأنه كبلهم بالأغلال، وأخذ ما استطاع من الذهب والفضة، وأرسل الأشياء جميعها إلى المانيا(3). وكذلك مكتوب في كتاب *Gesta d'Innocenzo III* أنه بعد أن وقع الإمبراطور التنازل عن دويلتي ليتشي وتارانتو لصالح الأرملة والصبي، «تحين الفرصة» وسجن كليهما ومعهما كبار كثيرون، وفقأ عيون الكثير منهم؛ وسجن الملكة وأبناءها وكبير الأساقفة في سجن قاس في سالرنو(4). ولكن هؤلاء الكتاب من الجويلف.

أما أنصار الجانب الآخر، وهم جديرون بثقة أكبر، فيؤكدون الاشتباه ذاته: إلا أنهم لا يميزون بين عملية الاضطهاد الأولى والثانية. فريكاردو دا سان جرمانو، أحد موظفي آل زفيفي، كتب بعد عشرين عاماً، أن البرلمان قد انعقد في بالرمو، وعمل أريجو على الحكم على الملك والملكة وأساقفة وكونتات كثيرين «متهما إياهم بالخيانة العظمى»؛ ومنهم من فقأ عينيه، ومنهم من أحرقه، ومن شنقه ومن أرسله إلى المانيا(5). ولا يقل عن ذلك في خطورته ما شهد به

(1) *Carmen*، الكتاب الثاني، *"At Deus impatiens, etc"* .

(2) انونيمو الكاسيني، عام ١١٩٤، في موراتوري، *Rer, italic*، المجلد ٥، ١٤٢. وقارنه بكلمات مخطوط آخر المجلد نفسه ، ص ٧٢، وفي كاروزو، *Bibl. sic.*، ص ٥١٧. وبعد سنوات عديدة رأى كورادو ليتشتو وعيناه مفقوءتان في روما.

(3) *Chronicon Fossenovæ*، في كاروزو، المرجع السابق، ص ٧٤.

(4) في كاروزو، المرجع السابق، ص ٦٣٦.

(5) في كاروزو، المرجع السابق، ص ٥٥٢ تحت عام ١١٩٤، الذي ينتهي في مارس ١١٩٥، حسب التقويم الذي اتبعه ريكاردو.

أوتونى دى سان بياجو، وهو راهب المانى، وهو ذاته الذى يمتدح اريجو كثيراً «على براعته وكفاءته التى تستعيد للإمبراطورية قوتها السالفة». ويوجز اوتونى الاستيلاء على المملكة فى فصلين: أشار فى الأول منهما إلى أحداث البر الإيطالى وشرقى صقلية؛ وفى كثير من التفاصيل حكى فى الثانى عن احتلال بالرمو وأنهاه بالحديث عن أسرة تانكريدى، التى سيقت للسجن فيما وراء الجبال. ولكننا نقرأ فى أول هذين الفصلين أن الأشراف الصقليين أسرهم أريجو دى كاليندين، فى معركة كاتانيا (١١٩٤)، واحضروهم للإمبراطور، «إذ بلغ بهم اليأس مبلغه بيتوا النية لقتله: ولكى ينفذوا هدفهم، قدموا له فروض الطاعة(1)، ولكى يغلبهم هو بدهائه، قبلهم فى البلاط، ثم بعد ذلك، تمت دعوتهم للمثول فى حضرته، وذهبوا دون ارتياب فى شىء، وعلى حين غرة، أوقعوا جميعاً فى شبكة واحدة. لكم هو مكروه الانتقام بالغدر من الغدر» هكذا يتعجب الكاتب هنا، ثم ينتقل إلى قص «تفاصيل التعذيب القاسية»(2). ومن هذا يتضح ان أوتونى قد فضل اتباع أسلوب ربط الأحداث ببعضها البعض، أكثر من أن يلتزم بالترقيب الزمنى الصارم، أو فعل ذلك دون قصد: لأنه بعد وفاة اريجو، وعندما طردت كوستانتسا رجال بلاط أريجو وقادته، وعادوا إلى المـانيا غاضبين، حـــكوا بالتأكيد بشكل إجمالى ما حدث من أمور فى صقلية من عام ٩٤ إلى ٩٥ كما أسـهبوا بالتأكيد فى الحديث عن أقرب هذه الأحداث، مثال تلك التى استفزت سيدهم للانتقام والتى وطــأت فيهـــا الأقدام عدوهم وأذلته(3). على أية

"Se et omnia sua, potestati ejus contradiderunt" (1).

(2) فى موراتورى، *Rer. ital.*، المجلد السادس، ٨٩٦، وبرتز، المجلد العاشر، ٣٢٥ و٣٢٦. إن الدكتور لويتشى، وهو على درجة كبيرة من العيدة فى مواضع أخرى يريد أن ينفى، فى ص ٦٠، هذه العذابات وأن يقلل من مرجعية أوتونى دى سان بياجو، التى دافع عنها كوهن، كما سبق ورأينا.

(3) كورادو دى لهتشتاو، *Chronicon*، الطبعة السابقة، ص ٣٣٨، عام ١١٩٨، يلمس اصل هذه القصص والشكوك التى توحى بها. وكذلك فعل جوفريدو الراهب، فى مجموعة فرهر، الجزء الأول، ص ٣٦١؛ وكذلك كتاب اخبار المان آخرون.

حال فليس ما يثير التعجب أن ألقى كتاب الأخبار بثقل المؤامرات والثأر كله فى مكان واحد، فمنهم من وضعه فى بدايات ملك أريجو ومن وضعه فى أواخره، فما كان باستطاعة أحد من المعاصرين أن يفاخر بأنه يرى بوضوح فى متاهة بلاط بالرمو أو فى سجون قلعة ترفلس.

لذا نرى أن نقاد اليوم على حق حينما يميزون بين الحكمين، كما أننا نوافقهم على أن أريجو أراق دماءاً أقل فى البداية، وعلى أن كبار صقلية، فى ذلك الحين، علمانيين كانوا أم كنسيين، عندما خضعوا للقوة، كانوا يتذرعون بالأمل، أو العزم على التحرر، وربما تحدثوا أيضاً فيما بينهم عن ذلك. ولكن مؤامرة كبيرة ضد الجيش الغالب، من غير المعقول أن تبدأ وتنفذ فى أربعة أسابيع. لقد أُخبر أريجو بأفكار الرجال، وصاغ من تقارير جواسيسه خطة مؤامرة محبوكة، وأدرج فيها سائر الكبار الذين كان لا يأمن جانبهم أو كانوا يمثلون عقبة أمامه، بدءاً من أسرة تانكريدى سيئة الحظ التى كان يريد أن يحتال عليها فى المقابل الذى اتفق عليه. وقام بدعوة البرلمان، أى الأشراف من مؤيديه، لأن مناهضيه كانوا حينئذ فى الأغلال، يساقون بالحبال، كما نراهم فى أشكال مخطوط بيترو ديبولى. واتهمهم البرلمان بالتعدى على الذات الملكية: ومن كان يستطيع الاعتراض؟ وأبقاهم أريجو فى قيد الحياة، لأن الوضع الأضمن بالنسبة له هو أن يتركهم للعفن فى زنزانات تريفلس، عن أن يخلدهم وسط الجماهير بهذه المسرعة. هذه هى الصورة الحقيقية للاضطهاد كما تبدو لى والتى بدأ أريجو بها مُلكه فى صقلية وبدأ بها عام ألف ومائة وخمسة وتسعين.

ولكن مثلما يحدث فى حركات الشعوب التى تتسم بالعمق، حينما يطاح منها بصف أمامى، بالسجن أو بالمقصلة، فإنه يظهر صفان أو ثلاثة أخر: مؤيدون مستاءون، أو رجال أسوياء استعادوا شجاعتهم بعد جزع، أو دماء فاترة أخذت تسخن من أجل مصالح أهدرت، أو

آمال تتجدد، أو عزة قومية أهينت، أو شفقة على المحكوم عليهم. كانت الإقطاعيات التى وهبت للألمان بالتأكيد مثل الشظايا فى أعين جميع المواطنين. وعندما أسكت أريجو فيما بعد أعداءه فى ألمانيا بقوته وبالمكاسب التى حققتها انتصاراته بالجنوب، قام بدعوة الأمة إلى عمليات جديدة فى القسطنطينية وفى فلسطين، وعاد إلى ساحل البحر المتوسط مع الجيش، وحينئذ تنبه إلى ان الأرض تميد تحت قدميه. كان الناس فى بوليا قد بدأوا بالفعل يجاهرون لرجال الحملات الصليبية الألمان بأن يعودوا إلى ديارهم، بحق السماء، والا يقودهم فرط طيبتهم لأن يكونوا مرتزقة فى خدمة طاغية(1). وكوستانسا ذاتها، وكانت سيدة عالية الهمة، كما كانت سبباً بريئا فى كل هذا الخراب، لم تتحمل الاساءة إلى مواطنيها، ونهب الثروات الموروثة، وإذلال البلاد. وهجرها أريجو تقريباً، وهو اصغر منها بكثير: وتركها فى بالرمو تحكم بالاسم، بينما كبار رجال الدولة يحكمون بالفعل. ولعلها احتجت على بعض الإجراءات، أو عبرت عن استيائها من تصرفات الإمبراطور والوزراء: فلم يعد هناك من داع للمزيد حتى يعدها رجال أريجو شريكة فى المكائد، ثم يلصقون بها حكايات كثيرة أخرى أملاها عليهم ما كانوا يكنونه لها من ضغينة شديدة(2). وفى وسط هذه الظروف تم

(1) ارنولدو رئيس دير لوبيك، الكتاب الخامس، الفصل ٢٥و٢٦، حسب طبعة برتز المجلد الحادي والعشرين، ٢٠٢.

(2) أرنولدو، المرجع السابق، ص ٢٠١. قارن بين: *Annales Stadenses*. برتز، المجلد السادس عشر، ٣٥٢، عام ١١٩٦؛ و*Annales Marbacenses*، برتز، ١٧، ١٦٧ وما بعدها، عام ١١٩٧؛ وكورادو دى ليتشتناو، الطبعة السابقة، ص ٢٣٢، عام ١١٩٨؛ و*Annales Colonienses Maximi*، برتز، ١٧، ٨٠٤، عام ١١٩٧، حيث وردت هذه المؤامرة مرتبطة بتعبير *"conspirasse dicebantur"* كما ورد تغاضى الإمبراطورة تحت تعبير *"rumor .... varia seminat"* و*"vulgabatur"*. إن حنق أريجو على زوجه نص عليه ريكاردو دا سان جرمانو، إذ فى روايته عن آخر مرة ذهب فيها الإمبراطور إلى صقلية (أى إلى مسينا) بمنرسل قائلاً: *"ubi ad se duci imperatricem iubet.Qua in Panormi, palatio constituta, quidam Guilielmus, etc"* فى كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٥٥٣. ثم ان الأمر «باقتياد» الإمبراطورة إليه، يكاد يعنى امر مهذب

الكشف عن مؤامرة، وهو الأمر الذى يستخلص مما يؤكده التاريخ، ولكننا نجهل تفاصيل تلك المؤامرة، والقدر القليل الذى نعرفه عنها يقودنا إلى تصوره مجرد محاولة تمرد وليس قتلاً للملك.

ثم أنه لا طبيعة تلك المكيدة، ولا ضراوة ذلك الزمان، يكفيان لتبرئة أريجو من عمليات التعذ يب التى عدت حينئذ على درجة شديدة من الوحشية فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وكذلك فى إيطاليا. وفى يومنا هذا، يمحو النقاد الألمان عمليات التعذيب هذه بجرة قلم فلسفية، فقط لأنها تبدو لهم عملاً بعيداً جداً عن المألوف، وقاسيا جداً؛ ولكن لدينا عليها شهادات كثيرة لا يمكن تكذيبها أبداً.

وكما يتضح من رسالة إينوتشينسو الثالث، كانت الأخبار المتناقلة فى إيطاليا تتحدث عن حالات رجال ونساء، علمانيين وقساوسة، اصيبوا بعاهات، أو اغرقوا، أو أحرقوا أو وضعوا فى الزيت المغلى(1)، كما يتفق ثلاث كتاب حوليات ألمان وكاتب بيزنطى فى قولهم بأن أريجو امر بدق تاج بالمسامير فى رأس چوردانو وهو من أصل نورمانى، كما يبدو لى من اسمه، ذلك لأن المتآمرين اختاروه للعرش وللزواج من كوستانسا(2). لذا فإننى لا أرى الدافع وراء نسب عمليات التعذيب هذه البربرية لإبداع كتاب الأخبار الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والبيزنطيين والألمان وليس إلى جلادى أريجو.

ومنذ تلك الأعمال البشعة إلى ما بعدها فإن الغموض يلف آخرفترة من حياة إمبراطور صقلية. فحينما هدد زوجه وعاقب

بالقبض عليها. إن التكتم ذاته من جانب المعاصرين الألمان، يقود إلى تصور أن الشئون السياسية التى ووجهت بها كوستانسا كانت فائقة الخطورة؛ ولكنها كانت ثرثرة رجال البلاط والقادة، كما سبق وذكرنا، وبالغ كتاب الأخبار بالطبع فى نقلها وهم يكتبون بعد موت اريجو، عندما قامت كوستانسا بطرد جميع الألمان من المملكة.

(1) انظر طبعة بالوتسيو، الكتاب ٢، رقم ٢٢١ وقارن الرسائل، الكتاب الأول، رقم ٢٦، ٢٥٧ ... إلخ.

(2) *Annales Stadenses*، فى برتز، ١٦، ٣٥٢؛ وارنولدو رئيس دير لوبيك، برتز، ٢١، ٢٠١؛ ونيتشيتا كونهاتى *Annales*، باريس، ١٦٤٧، ص ٣١٠. و*Annales Marbacenses*، الموضع السابق، حيث ورد أن اريجو أمر بتنفيذ التعذيب فى حضور زوجه قارن ايضاً الفقرة التى كتبها روبرتو دى أوكسير، سابق الذكر، ص ٥٢٤، هامش ١.

المشاركين فى المؤامرة، وجد من بينهم من أراد أن يقدم حياته بثمن غال. تحصن الإخوة داكوينو دفاعاً عن أنفسهم فى روكاسيكا فى بوليا، وتمرد جوليلمو موناكو، وهو إقطاعى أو من أصحاب القلاع فى كاستروجوفانى؛ وتحصن داخل ذلك الموقع المنيع. وذهب الإمبراطور بشخصه إلى الحصار(1)، الذى استمر فيما يبدو زمناً طويلاً؛ وفى هذه الأثناء وربما لما تعرض له الإمبراطور أثناء القتال، أو أثناء الصيد أو الترحال، أصيب بالبرد ذات ليلة فى شهر أغسطس وهو فى ذلك الموقع المرتفع، وعاد إلى مسينا وهو يعانى من الدسنتاريا. ويبدو أن صحته تحسنت فيما بعد. حتى أنه أمر بسفر رجال الحملة الصليبية الألمان الذين استخدمهم لمواجهة خطر عملية التمرد، ثم مضى هو نفسه متوجها إلى بالرمو؛ ولكن المرض عاوده واشتد عليه حتى أودى بحياته؛ فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١١٩٧(2). ودفن فى بالرمو بالمدفن الفخم الذى مازالت

---

(1) ريكاردو دا سان جرمانو. فى كاروزو. *Bibl. sic*. ص ٥٥٣. وحسبما يقول فإن أريجو حينما جاء إلى صقلية (مسينا بالتأكيد) أمر بأن يحضروا الإمبراطورة إليه. وتمرد جوليلمو موناكو. وذهب اريجو لحصاره. ومرض، ورحل (من الحصار) وتوفى. كما ورد ذكر لأحدهم باسم جوليلمو موناكو فى وثيقة ترجع إلى يونيو ١١٩٨. وهبت كونستانتسا بموجبها لكنيسة بالرمو دار المتوفى جوليلمو أورفانينو. صاحب قصر من قصور بالرمو. وهى الدار التى اشتراها موناكو فيما قبل من رئيس أساقفة بالرمو. لذا يتضح أن اورفانينو كان قد اشترى العقار من موناكو: ولكن ليس هناك دليل يثبت أن الأمر يخص الشخص نفسه.

(2) *Annales Marbacenses*. فى برتز. ١٨. ١٦٧. وذكرت هذه الحوليات أن اريجو رحل من ألمانيا متجهاً إلى بوليا يوم ٢٤ يونيو ١١٩٦. وفى١١٩٧ حلت فى صقلية امرأته المستاءة وقد أثارت الفتن ضده فى شتى المدن والأراضى المسورة. وكان أهل توسكانا على علم بالحدث وكذلك أهل روما ويقال أيضاً البابا (تشيلستينو ذو التسعين عاماً، شديد الهدوء». كان المتآمرون يبيتون النية لقتل الإمبراطور فى إحدى غابات الأشجار أثناء وجوده بها للصيد؛ وجمعوا لذلك ٣٠,٠٠٠ رجلا ولما أحيط الإمبراطور بذلك علما ظل بمسينا وأرسل ماركوالدو دى أنويلر ومعه رجال من الحرس ومن جنود الحملات الصليبية، فقتلوا المتآمرين وقبضوا عليهم. كما أن الشخصية التى كان المتآمرون يريدونها ملكاً. لقت عقوبتها فى حضور الإمبراطورة، وذلك بتثبيت تاج على رأسه بالمسامير، بينما أغرق الآخرون فى البحر... إلخ. وبعد ذلك، ذات ليلة باردة جدا (٦ أغسطس) بينما كان اريجو يقيم فى مكان يبعد يومين عن مسينا، أصيب بالدسنتاريا. وقرب عيد سان

ترقد به عظامه، ويُقرأ عليه انه أمر بأن تلقى خارجه جثتا تانكريدى وولده(1).

ميكيلى، شعر بتعسن ورغب فى الذهاب إلى بالرمو؛ وكانت أسرته قد سافرت من قبل بطريق البحر فى ذلك الاتجاه، فى حين ساءت حالته ووافته المنية. من خلال هذه القصة التفصيلية الانحيازية يتضح أصلها جيداً. فلدى عودة رجال البلاط والقادة إلى المانيا بعد تنصيب كوستانتسا وإنوتشينسو الثالث، أخذوا يقصون بطولاتهم وبطولات سيدهم، وأخذ الرهبان يكتبون ما يسمعون. ولا يصعب تمييز الأصيل من الزائف فيما أوردوه. ويوحى روبرتو دوكسير، الموضع السابق، بأن أحداث محاولة الثورة، كانت خطيرة جداً: إذ قال عن الإمبراطور *"Per fugam elapsus"*.

و*Annales colonienses maximi*. برتز، ١٧، ٨٠٤، ٨٠٥. حوليات أقل فى تفاصيلها وفى الثقة بها فى هذه الروايات. إلى جانب أنها تذكر أن أريجو تم دفنه فى نابولى. وحسبما ورد فى *Cronica di Sessa*، فإنه توفى فى رندانسو، مما يتفق تماماً مع ما ورد فى *Annali di Marbach*: حيث إن رندانسو تقع على الطريق بين مسينا وبالرمو.

(1) يرفض الدكتور تويتشى تصديق ذلك التعدى على حرمة الأموات، لأن راويها هو هوفدن، (طبعة فرانكفورت، ١٦٠١، ص ٧٤٦) وهو إنجليزى، لذا فهو مناهض لأريجو السادس. ولكنه سلوك يتفق تماماً مع بخله وحنقه وقسوته، التى لا يمكن التشكيك فيها. لقد وضعت خطوط هذه اللحظات الأخيرة حسب الطريقة التى استخلصتها من الروايتين، وهما ليستا متوافقتين، أى رواية ريكاردو دا ســـان جرمانو ورواية *Annali di Marbach*. وبهذا ابتعد عما رواه السيد شيربيه، المرجع السابق، الكتاب الثانى، الفصل الخامس، ص ٢٢٢ وما بعدها، كما ابتعدت أكثر عما أورده السيد هارتويج، الذى اتبع رواية *Annali di Marbach*، دون أن يذكرها، ودون أن يضع محل شك، أى خبر قرنه الكاتب بعبارة «يقال». بل أكثر من ذلك يرى السيد هارتويج قيام مؤامرة من جانب البابا وبارونات صقلية النورمان، حسبما كان لايزال يسميهم. ويذكر أن أريجو استشاط غضباً حينما رأى من الخيانات كثيراً: وكان ذلك هو العذر الوحيد لتلك الأعمال البشعة، التى لا ينكر السيد هارتويج حدوثها ولا يستنكرها.

الفصل السابع

بعد أن آلت لكوستانسا السيادة على مملكتها، نحت جانباً وصية زوجها التى كانت تكلف نائبه الامبراطورى ماركوالدو انويلر بالوصاية على الحكم: وسرّحت القادة الألمان، وأحضرت إلى بالرمو فدريكو وهو مازال طفلاً فى الرابعة من عمره، وطلبت من البابا أن يقوم بتنصيبه؛ ودون انتظار توجته ملكاً على صقلية (١٧ مايو ١١٩٨)(1). وكانت لها مبرراتها لهذه السرعة. فبوفاة شلستينو بعد قليل من وفاة الامبراطور، وجلوس إينوتشنزو الثالث على العرش البابوى (٨ يناير ١١٩٨)، ظهر منذ اللحظات الأولى انه ذو عقل مسيطر، نعلم نحن مقدار سطوته، ولكن ينبغى علينا أن ندين أحياناً مقاصده وطرقه؛ بينما يرفعه كتاب البابوية وكذلك بعض المسيحيين من غير الكاثوليك إلى عنان السماء وقد أغرموا بالطغيان الدينى والسياسى الذى مارسه بكل قوة وعزم. لقد صاح إينوتشنزو: ليخرج الألمان، ولكنه أراد أن يبسط يده على الأراضى التى كانوا يحتلونها فى وسط إيطاليا؛ وصفق لملكة صقلية التى بدأت تلك الصحوة الوطنية، ولكنه أراد أن يُجسد السلطة البابوية العليا على بوليا وأن يلغى الامتيازات الكنسية فى صقلية(2). ووافت المنية كوستانسا (٢٧ نوفمبر ١١٩٨) بينما كانت تتقى قدر استطاعتها ذلك الصديق المزعج: واتقاءً لشره

---

(1) هذا التاريخ الدقيق لا يوجد إلا فى كتاب انونيمو، الذى نشره برهوللز، *Hist. dipl. Friderici Secundi*، المجلد الأول، ص ٨٩٢.

(2) انظر، بالإضافة إلى شهادات رواة الأخبار المعاصرين، المرسوم البابوى الصادر فى ٢٠ اكتوبر ١١٩٨، والذى أرسل بمقتضاه البابا إينوتشنزو، مقابل المزايا المعروفة التى منحها أوربانو الثانى، مفوضاً عنه إلى صقلية يتمتع بكافة السلطات: فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٤. وانوه إلى أننى سوف استشهد بكتاب برهوللز باستمرار، وكذلك بالنسبة لرسائل إينوتشنزو الثالث التى تمت طباعتها فى مجموعته عن إصدارات بالوتسيو وبركوينى.

جعلته وصياً على فدريكو والمملكة، ومع كل هذا، كلفت أربعة وزراء بإدارة شئون الحكم: وكان هذا احتياطاً وحذراً جيدين منها وأنقذت التاج، ولكنها هوت بالبلاد فى الحرب الأهلية لمدة عشر سنوات.

وكان الوزراء القائمون بالحكم هم، رئيس اساقفة كابوا الذى سرعان ما وافته المنية(1)؛ وكبير الديوان جوالتييرو دى باليا ريا أسقف ترويا، وكان لا يثق فى البابا إطلاقاً؛ على عكس كارو رئيس أساقفة موريالى الذى كان يقف إلى جانبه. وبارتولوميو أوفاميليو رئيس أساقفة بالرمو وشقيق جوالتييرو ذاك الذى كان ايضاً فيما قبل مستشاراً سئ الطالع لجوليلمو الثانى، وكان يميل إلى الجانب الألمانى. وقد ظهر الألمان من جديد خشية طموحات بابا روما التى لم يكن باستطاعة رعايا المملكة نسيانها أو يقدروا على قمعها وحدهم. وقد رفع قادة أرِّيجو، وهم إقطاعيون فى المملكة، رؤوسهم بعد وفاة كوستانسا، بعد أن انطووا على أنفسهم فى أعقاب وفاة عاهلهم، لأنهم ظهروا فى المملكة قواداً نافعين: فسيوفهم بتارة ضد أنصار البابا ولكنها قليلة بحيث لا تمثل تهديداً للبلاد. وقد زاد الجانب الألمانى عندما استخدم إينوتشنزو ـ فى سورة الصراع ـ الأجانب ضد الأجانب؛ وحابى الكونت بريين الذى قدم من فرنسا، بعد أن تزوج إحدى بنات آخر ملوك النورمان، ليطالب بالعرش وهو مدجج بالســلاح، ويتظاهر بالمطالبة بإقطاعيتى ترانتو وليتشى فقط(2).

---

(1) كتاب انونيمو. المنشور فى المرجع المذكور. المجلد الأول. ص ٨٩٢. ويقول إن مانيو رئيس أساقفة كابوا قد توفى بعد وفاة الامبراطورة بوقت قصير. وتدلل الوثيقة التى ذكرها دى ميو فى *Annali di Napoli*، المجلد التاسع. ص ١٤٢. على انه لم يكن على قيد الحياة فى ١٠ يونيو ١٢٠١.

(2) اقرا بإمعان الأحداث فى *Gesta Innocentii III*. فى كتاب كاروزو. *Bibl. Sic.* ص ٦٤٢ وما بعدها. وانتبه إلى التواريخ. ففى بدايات ١٢٠٠ اقترح البابا على الوزراء الأوصياء على الملك أن يمنحوا هاتين الإقطاعيتين لبريين. وأخذ يبرئ نفسه من الشك فى أنه يحابيه فى المطالبة بالعرش على حساب الموصى عليه. وعندما علم الوزير الأول جوالتييرو دا باليا ريا. الذى كان حتى ذلك الوقت على وفاق مع إينوتشنزو، بهذا الاقتراح فى مسهنا غضب غضباً شديداً. وتكلم عن البابا كلاماً سيئاً على مسمع من الجميع، وأخذ

ولكن من ذا الذى كان يقدر على إيقافه أثناء انتصاراته إلا الموت المبكر الذى اختطفه؟ ومن كان يدرى إن كان إينوتشنزو، نظراً للمضايقات التى وقعت على مدى ستين سنة على بلاط البابا فى روما من ملك صقلية ذاك، وهو نصف تابع ونصف مستقل، لا يريد أن يضع الآن إقطاعياً كبيراً واحداً أو مجموعة من الإقطاعيين الكبار فى البر الإيطالى وحاكماً فى الجزيرة؟ من المؤكد أن هذه الخطة أو شبيهاً لها كانت تظهر من تصرفات البابا، من بدايات سنة الف ومائتين، عندما استقبل بريين فى روما، وحتى عام الف ومائتين وثمانية عندما عقد اجتماعاً عاماً فى سان جرمانو، ومارس أعمالاً تنم عن أنه السيد المباشر أكثر مما تنم عن كونه عاهلاً إقطاعياً.

أردت أن أشير إلى هذه الأمور، على الرغم من أنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بموضوعنا، حتى يمكننا التأمل بإمعان فى تاريخ تلك الفترة. فهيبة اسم كبير، ومادة الأحداث التى استقى أغلبها من رسائل إينوتشنزو أو من كاتب ترجمته المجهول، والاتجاه الدينى فى عصرنا، كل هذا رجح كفة البابا ترجيحاً كبيراً. وفى رأيى أن دراسة محايدة ستبين أن رئيس الديوان كان أقل سوءاً وأن البابا كان أقل طهراً وشفافية وأن مواطنى بالرمو ومسينا لم يكونوا سُذّجاً على الإطلاق، فقد أطاعوا نصائح رئيس الديوان وكانوا دعماً حقيقياً للعرش، إلى جانب إينوتشنزو ضد ماركوالدو فى البداية ثم إلى جانب ماركوالدو وقادة آخرين ضد إينوتشنزو. إن أخطاء إينوتشنزو الأخرى تمحو

يحتاط من مستشاريه ومن رجاله. هذا هو مفتاح قصة طفولة فدريكو كلها؛ وفى ذلك الوقت أصدر البابا حرماناً ضد رئيس الديوان تارة وقربه تارة أخرى، وانتهى به الأمر إلى زجر فدريكو بعد أن نضج، لأنه أبعده عن بلاطه. وفى خضم وقائع هذا النزاع حدث فى فترة من الفترات أن تخلى عن رئيس الديوان أنصاره، وصدرت ضده حرمانات كثيرة وبلغت به الفاقة مبلغاً. فعرض عليه البابا أن يلغى الحرمانات وأن يباركه على أن يتصالح مع بريين: فأجابه بأنه لن يفعل وإن نزل القديس بطرس من السماء مرسلاً من يسوع المسيح ليأمره بهذا.

ومثل هذه الكلمات الخطيرة الصادرة عن أسقف إنما تعبر عن وفائه وإخلاصه لأميره وليس عن غضبة طموحه.

صفات الشهامة والفروسية التى اعتاد الناس أن يصفوه بها اليوم لأنه نشأ فدريكو على العلوم والآداب ضد مصلحة بلاط روما البابوى. وإذا ما كان هذا العمل حقيقياً وإذا ما ثبتت المصلحة، فإن إينوتشنزو يكون مستحقاً للمديح فقط لأنه لم يخن الموصى عليه، رغم قدرته على ذلك. ولكن من المؤكد أن ابن أرِّيجو السادس، والقصر الملكى الذى تأدب بين جدرانه، وحكومة صقلية لم يقعوا أبداً بين يدى إينوتشنزو أو أنصاره. وإذا كان البابا قد كتب رسائل أبوية، وإذا كان قد أوفد إلى بالرمو فى بعض المرات رجالاً شرفاء لزيارة الصبى وتلمس مواضع الأقدام، فإنه قد وجد دائماً من أجابه بالكلمات والانحناءات لاغير: ولدينا اعتراف بهذا فى رسائله نفسها(1).

وفى هذه الفترة التى خلا فيها العرش، والتى وصفت بهذا لأنه جرى فيها خلاف كبير حول السلطة العمومية، مدّ ثلاثة رجال أيديهم إليها وهم البابا وماركوالدو ورئيس الديوان الذى سرعان ما تخلص

---

(1) دلل جوزيبى لافارينا، الذى فقده الوطن وفقدته الدراسات الأدبية مبكراً، على هذا ضد رأى هورتر وذلك فى كتابه *Studi sul secolo XIII*، فلورنسا، ١٨٤٢، ص ٧٨٦. فعند فحصنا لأحداث فترة الوصاية فحصاً دقيقاً، ولن أستطيع إلا الإشارة إليها، سنرى أن رجال البابا، خلال الثمانى سنوات تلك، لم ينالوا حظوة لدى فدريكو إلا لمدة خمسة أو ستة شهور، وأنهم لم يحكموا إطلاقاً فى القصر الملكى وبالأكثر فى البلاد. ثم إن إينوتشنزو نفسه يعترف بهذا سواء فى رسائله التى يشكو فيها من رئيس الديوان (١٢٠٠ - ١٢٠٢) أم فى رسالته بتاريخ ٢٩ يناير ١٢٠٧ التى كان يهنئ فيها الموصى عليه بانتهاء الوصاية ويدعوه إلى الانصات لنصائح أولئك الذين فوضتهم أمه لتربيته والذين حلوا *"in loco eorum qui ex ipsis decesserant,"*. فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٢٤. فى ذلك الوقت كان جوالتييرو رئيس الديوان يقف إلى جانب الشاب. وكان قد تصالح مع البابا الذى كتب فى ١٢١٠ إلى فدريكو، كما أشرنا فى الهامش السابق، أن يعيده إلى وظيفته التى كان قد خلعه منها، ويقول له بوضوح إن هذا التصرف كان تصرفاً صبيانياً، وعملاً ينم عن عدم العرفان ضد من قام حتى ذلك الوقت برعايته وكفالته وبذل الجهد والمال لحمايته وللدفاع عن مملكته. برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٧٠. إذن فقد تم تضخيم الدور الذى قام به كرادلة سانت أدريانو وسان تيودورو فى تربية فدريكو تضخيماً ضرباً. انظر أيضاً رسالتى البابا بتاريخ نوفمبر ١٢٠٠ ويوليو ١٢٠١، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٦٠ و٨٢.

من رفاقه من الوزراء. وقد تنازع المتطلعون الثلاثة السلطة، وهم قليلو القوة، وتفوق كل منهم على الآخرين على التوالى بفضل الجماعات الفرعية فى الدولة التى كانت تنضم لأحدهم أحياناً ولغيره فى أحيان أخرى حسب أهوائها أو مصالحها الحقيقية أو المفترضة. وأقصد بها المدن. والإقطاعيات والكنائس الأسقفية والأديرة الثرية بل وبعض مجالس الكنائس فى غيبة الأسقف، وكذلك المسلمين فى صقلية؛ الذين كانت لهم مصالح أوضح وأكثر استمرارية من مصالح أية جماعة أخرى، فعملوا من أجلها بحكمة وقوة ووفاق.

وفى بداية فترة خلو العرش حدثت واقعة خطيرة ليس لدينا مذكرات واضحة عنها ولا نعلم كيف أو متى وقعت على وجه التحديد: كان المسلمون قد اختفوا من بالرمو وكانوا يسيطرون على جبال وادى مازارا. ففى يوليو من سنة مائتين وألف نراهم يحاصرون العاصمة مع ماركوالدو دون أى ذكر لبقاء أتباع دينهم داخل أسوار المدينة. والدليل على عدم وجودهم يرجع كذلك إلى أوائل الأزمنة التى أعقبت وفاة كوستانسا: فإذا كان المسيحيون فى هذه الاضطرابات لم يقوموا مرة أخرى بمذابح سنة ألف ومائة وإحدى وستين والف ومائة وتسع وثمانين فإن هذا قد يرجع إلى عدم وجودهم. وبعد سنة ألف ومائتين تتحدث الوثائق والروايات التاريخية عن مسلمى الأقاليم فقط، وإذا بقت بعض الأسماء فى العاصمة فإنها أشبه ما تكون بذلك الحطام الذى يبقى من السفن شاهداً على غرقها: فهنا نجد مذكرة تفيد بأن الامبراطورة كوستانسا قد منحت رئيس الديوان بستانا يقع داخل أسوار بالرمو(1) كان لرجل اسمه شديد؛ وهنالك وثيقة صادرة عن رئيس الديوان يكافئ بها باسم الملك الطفل إيليا كاهن كاتدرائية المدينة على خدماته ويهب له نصف كَرْم كاتب العقود

---

(1) هذه الهبة التى ترجع إلى سنة ١١٩٨ مذكورة فى سند بتاريخ أبريل ١٢٠٩ وبمقتضاه يقدم جوالتيهرو دى بالياريا البستان هبة لمجلس كهنة الكاتدرائية. فى كتاب كاروزو. *De principe templo panoramitano*. ص ١٢٧.

المسلم السابق بوقهر(1).

ومن السهل أن ندرك كيف وقع هذا التغير الاجتماعى الكبير فى العشر سنوات التى حكم فيها تانكريدى وأرّيجو وكوستانسا. ولعل الوضع القانونى للمسلمين قد بقى كما هو دون تغيير، إلا أن مكانتهم فى البلاط، وأمن الأفراد والأملاك والصنائع قد زال إلى الأبد. ويمكننا أن نؤكد أن من هربوا منهم فى سنة ألف ومائة وتسع وثمانين لم يعودوا جميعاً إلى بالرمو فى السنة التالية، وأن من عاد منهم لم يبق فيها زمناً طويلاً. حينما كان من السهولة بمكان على تجار المدن وصناعها أن يهاجروا إلى أفريقية فى هجرات متوالية. ثم إن مسلمى القرى والأراضى كانوا يهجرونها عن طيب خاطر إلى الجبل عندما كانت ضياعهم تنتقل من الأملاك الأميرية إلى إقطاعيين من العلمانيين أو من رجال الكنيسة، ولكن الأتباع كان عليهم أن يتعاملوا مع سادة مزعجين بخلاء بدلاً من رجال البلاط المتساهلين البعيدين عنهم. وليست عمليات الهبة للقساوسة والجنود نادرة أثناء تلك التغيرات العاصفة التى ألمت بالحكم، فلدينا للشهادة على هذا بعض سندات الملكية الكنسية تتعلق بقرى إسلامية ترجع إلى هذه الفترة تماماً(2).

وقد جعل إينوتشنزو الأمر أكثر خطورة بسبب التهور الذى كثيراً ما

---

(1) وثيقة بتاريخ سبتمبر ١٢٠٠ نشرها السيد مورتيللارو فى ...*Catalogo del* *Tabulario della Cattedrale di Palermo*، ص ٤٩، وأعاد طبعها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٥٤.

ويلزم التنويه إلى أن نصف الضيعة الآخر كان فى ذلك الوقت فى حيازة شخص يُدعى إبراهيم، وهو ابن كاتب العقود.

(2) وهب الامبراطور أو الامبراطورة لكنيسة بالرمو ركال ستيفانى، فى أراضى فيكارى وأملاك بلاتانى وكابتيدى: وهذه الهبة مذكورة فى وثيقة سنة ١٢١١ التى أكدتها؛ فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٩٤. ولنعد إلى سنة ١١٩٥ ـ ١١٩٧ أو إلى ١١٩٨ وإلى الأراضى التى اشتعل فيها تمرد المسلمين.

وطبقاً لوثيقة أخرى بتاريخ أبريل ١٢٠٠ ذكرها بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٠٢ منح مجلس الوصاية على العرش لأسقف جرجنتى قريتى مينشار ومينزكلو، وهذا لا يبعد زمنياً أو مكانياً عما سبق.

كانت تتسم به أعماله. فقد قلب أوربا رأساً على عقب ليجمع الرجال والأموال، وخاصة الأموال اللازمة، كما كان يقول، لاستعادة أرض المقدس. فأرسل إلى صقلية مندوبين للدعوة إلى الحرب الصليبية (يوليو ١١٩٨)؛ لم يحصلا على فلس واحد من أحبار الجزيرة وأساقفتها الأغنياء. ومن ثم أرسل البابا بعد ستة شهور، وبعد وفاة الامبراطورة، برسالة (٥ يناير ١١٩٩) بجمع دخل الكنائس كله، بعد خصم مصروفات الإعاشة وتكاليف الطقوس الدينية: ومن هنا نرى أن هذا العبء الرهيب كان يقع على كاهل الكهنة والرهبان الذين كانوا يلقونه بدورهم على عاتق أتباعهم، وخاصة على المسلمين الذين كان يقع عليهم الجزء الأكبر منه(1). وكأن هذا لم يكن كافياً فكتب إينوتشنزو فى اليوم نفسه إلى أسقف سيراكوزا، المفوض الأول للحرب الصليبية: لقد وقع الأمميون الذين دخلوا المسيحية فى الخطيئة مجدداً، والمهرطقون فى حقدهم: فافرز المرتدين وكل أنصارهم؛ وأعلن اللعنة عليهم فى كل أرجاء الإقليم فى كل يوم إجازة

---

(1) مُنحت لجنة الدعوة للحرب الصليبية فى صقلية لأسقف سيراكوزا ولرئيس رهبان سامبوتشينو من رهبانية تشيسترتشينزى. أى لرئيس دير موريالى الغنى نفسه الذى كان يمتلك أراضى كثيرة وبشراً من المسلمين. انظر رسائل إينوتشنزو فى طبعة بالوتسيو. الكتاب الأول، تحت أرقام ٣٠٢ و٢٤٢ و٣٥٨ و٥٠٨: ونستخلص من آخر هذه الرسائل بتاريخ ٥ يناير ١١٩٩ أن بعض العلمانيين فى صقلية قد اتخذوا شعار الصليب، وأن آخرين قد أسهموا ببعض المؤن أو العتاد. أما رؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من رجال الدين فلم يريدوا تقديم أى شئ. وعندئذ اقترح المندوبان، وأقر البابا. الحصول على الدخل الكنسى كله لصالح الحرب الصليبية فيما عدا المبالغ الضرورية للغاية للإعاشة ولإجراء الطقوس: وأن يتم الاستيلاء كذلك على دخل المقارّ الخالية وعلى أموال الرهبان الذين يعيشون خارج الأديرة.

ويمكننا أن نتخيل الاضطراب الذى سببه هذا الإجراء فى صقلية حيث كان جزء كبير من الأملاك العامة، ولعله كان يبلغ ثلثها أو أكثر، ملكاً للكنائس. ولقد استنزف ملاكها بالضرورة أتباعهم وفلاحيهم. ويمكننا أن نتصور الهلع والفزع الذى وقع فى الألف ميل مربع التى كان يزرعها المسلمون لحساب دير موريالى. ولعل أولئك «الرهبان الذين يعيشون خارج الأديرة» كانوا نُظّار الدير، وأنهم كانوا يحصلون على الدخل كله لأنفسهم، وأنهم قد تضافروا معاً ضد رئيس الأساقفة وضد البابا. ونعلم هذا من رسالة مروعة أرسلها إينوتشنزو بتاريخ ١٧ يونيه ١٢٠٢ وسنذكرها فيما بعد.

تحت ضوء الشموع ومع رنين الأجراس: ودع الأمير يصادر أملاك المفروزين؛ وانتبه لئلا يحذو غيرهم من السراسنة المعمدين حذوهم، وحذرهم من هذا: بل أجبرهم واجعل السلطة العامة تجبرهم على عدم الاحتذاء بهم(1). وتاريخ هذه الرسالة يدل على أن المسلمين عند وفاة كوستانسا قد شعروا بقدوم الأزمنة السيئة فخلعوا القناع ووقفوا متراصين لصدها؛ لأن السرعة الكبيرة التى انتشرت بها أحداث صقلية ورد روما تجعلنا نعتقد أنه قد مر شهر منذ الإشارات الأولى للحركة حتى رسالة البابا. وكانت الحركة بلاشك هى أن المسلمين، الذين تظاهروا بأنهم مسيحيون فى المدن، حباً فى الحياة الهادئة، وفى القرى استجلاباً لمودة السادة الجدد، قد أدركوا أن الرياء لم يعد مجدياً للحفاظ على الحياة أو المال: أى أنهم رأوا أن الفرصة قد حانت لكسر النير. ولهذا أخذوا يفرون إلى الجبل، إلى القلاع الحصينة التى يسيطر عليها أخوتهم فى الدين. وتشهد وثائق عديدة، ترجع إلى السنوات التالية، على هروب الفلاحين الذى يبدو أنه قد بدأ قبل سنة ألف ومائتين(2). ويمكننا أن نتصور الخلط والمزج الذى وقع للأهالى والأملاك فى وادى مازارا. فهنا كان السكان

---

(1) الرسالة رقم ٥٠٩ فى الكتاب الأول. فى طبعة بالوتسيو.

(2) تؤكد الوثائق التالية هرب الفلاحين والخراب الذى حل بالقرى: ١٢٠١. يمنح فدريكو فى شهر أبريل لدير الراهبات الذى يطلق عليه دير سان ميكيلى فى مازارا أراضى قرية رامليا المهدمة فى زمام أراضى ساليمى. وهذا بسبب المعاناة من خسائر كثيرة *intervasionis tempore* ولضياع الدخل كله. مخطوطة مكتبة بلدية بالرمو *Q. q. r* رقم ١٧١.

١٢٠٢. فى أراضى كارينى وفى قرية تزارشانتى، كانت إمرأة تُدعى سوريينا تمتلك ستة من القروبين بناء على أحكام صادرة من القاضى ومن قاضى السراسنة: وقد تركوها ومضوا مثل القروبين الآخرين كافة: جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الثانى. الفصل السابع. الهامش رقم ٧.

وفى الوقت نفسه تقريباً تحرر قروبو كنيسة تشيفالو: الموضع نفسه. ١٢٠٥ شهر أبريل. يقر فدريكو للمستشفيات والمصحات الهبات السابقة ويضيف إليها ضيعتين صغيرتين فى بالرمو وكل القروبين فى قرية بوليتسى. *ubicumque sunt*. فى كتاب برهوللز. المرجع المذكور. المجلد الأول، ص ١١٢.

المسلمون المقيمون بالقلاع والقرى يطردون نُظّار الملاك المسيحيين من العلمانيين ورجال الدين: وهنالك كان الفلاحون المسلمون يتركون الأرض ليذهبوا لزراعة الأراضى التى يطالبون بها، وليرعوا القطعان فوق تلك الجبال أو لكسب قوتهم بالسلب والنهب.

كانت رسالتا البابا الموجزتان قادرتين على إشعال نار مروعة. فمن الواضح أن إينوتشنزو قد أراد أن يقوم، بعد وفاة كومستانسا، بتنفيذ وعيده بالمناداة بالصليب ضد مسلمى صقلية: وهذا وليس سواه ما يعنيه جمع أموال الكنائس والزيادة المطردة والمتكررة فى قرارات الحرمان فى أرجاء الجزيرة كافة، ودعوة السلطة الزمنية إلى الوقوف ضد المؤمنين الجدد متى تشككوا أو ترددوا. وكانت هذه إشارة لاضطهاد. بل لإبعاد لا يقل دموية عما أثاره هو نفسه بعد سنوات قليلة ضد الألبيچيين. لكن تحريض البابا لم يلق آذاناً صاغية لدى المسيحيين فى صقلية؛ وضحك المسلمون منه فى ملاجئهم الحصينة. ولم يمض وقت طويل حتى اضطر البابا إلى تملقهم برسائل تزدان بالفلسفة والتسامح.

وكما يتضح من الأحداث المتعاقبة، فقد تضافر المسلمون معاً، واغلقوا الحصون على أنفسهم، وبقوا. فى البداية يترقبون. من يمكنهم أن يولوه ثقتهم من بين الثلاثة الطامحين فى الوصاية على المملكة؟ إمام النصارى لا بكل تأكيد؛ وكذلك الوزراء، وكلهم أساقفة، وهم فوق ذلك غير قادرين على كبح رجال الدين والبارونات حتى إن أرادوا ذلك، بالإضافة إلى أنهم غير مستعدين لاستخدام الاعتدال مع المسلمين الذى أخذ إينوتشنزو يوصى به بعد فوات الأوان. لهذا اتجه المسلمون إلى ماركوالدو الذى كان بالضرورة يبدو لهم الوصى الحقيقى، وحامى القانون، وعدو رجال الدين الذين اغتصبوا ثروات كبارهم وهو الذى دعاه الامبراطور الطيب أريجو للولاية على فدريكو أميرهم الشرعى. ولا نعلم كيف حسموا أمرهم: هل خضعوا وأطاعوا ذاك الرئيس الذى توفى بعد ذلك فى معركة موريالى، أم أنهم كوّنوا

رابطة من شيوخ الحصون والقرى، كما يظهر من الرسالة التى وجهها إليهم إينوتشنزو بعد ذلك بوقت قصير. كانت الأراضى المحتلة تضم جانباً كبيراً من أقاليم بالرمو وترابانى وجرجنتى الحالية.

كان ماركوالدو بعد طرده من ماركا دانكونا وملاحقة جيوش البابا وأفعاله له فى بوليا. فقد باركه مرة أخرى ثم فرزه من جديد بغضب أشد وأقسى. قد اتخذ قراراً جريئاً بأن يعبر إلى صقلية ليستولى على العاصمة والملك. وبمساعدة سفن أهل بيزا ورجالها أبحر من سالرنو ونزل إلى الأرض فى ترابانى(1)، فى نهايات شهر أكتوبر من عام ألف وتسعة وتسعين. كان يضع أمله بكل تأكيد فى المسلمين وفى اضطراب البلاد، ولكن فى تلك المشاهد الأولى من المأساة أظهرت البلديات كما أظهر أغلب الإقطاعيين وكذلك القائمون على الوصاية مقتهم لتابع الملك أريجو السادس. وما أن انتشر نبأ وصوله حتى طلب الوزراء القائمون بالحكم مساعدات البابا.

وسرعان (٢٠ نوفمبر ١١٩٩) ما هيج إينوتشنزو الأمراء والبارونات وأهل المدن وسكان صقلية كلهم ضد عدو الله والكنيسة والملك: هذا المتشرد الذى يغوى السراسنة بأن يقدم لهم دماء المسيحيين ليتجرعوها ويترك النساء المسيحيات المختطفات نهباً لرغباتهم وأهوائهم: ولهذا يمنح الراعى الأكبر عفواً صليبياً لكل من يقبض على سلاحه ضد ماركوالدو. لأنه كان على يقين من أنه إذا ما وصل مع السراسنة إلى السيطرة على صقلية، فسوف ينغلق الطريق إلى أرض المقدس(2). وبعد ذلك بأيام قليلة أخذ البابا يتملق أولئك

---

(1) يتفق موقع نزوله، الذى ذكره أنونيمو فقط ونشره برهوللز. المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٩٣، اتفاقاً تاماً مع كل الأخبار الأخرى المتوفرة لدينا عن هذه العملية. فبالإضافة إلى مجموعة جنود بيزا التى حاربت لماركوالدو فى معركة موريالى (١٢٠٠) فإنهم استمروا فى تقديم المساعدات له. انظر الرسالة رقم ٤ فى الكتاب الخامس بتاريخ ٤ مارس ١٢٠٢ فى لاتيرانو وفيها يدعو إينوتشنزو حاكم بيزا ومجلسها البلدى لاستدعاء مواطنيهم أنصار ماركوالدو من صقلية.

(2) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٤.

المراسنة أنفسهم الذين رفع الصليب فى مواجهتهم، ويكتب «إلى كل سراسنة صقلية، متمنياً أن يظلوا مخلصين للكنيسة وللملك». ويمدح إخلاص رجالهم الذى لا يتزعزع، ويقول إن «وداعة المقر البابوى، الذى اعتاد على مقاومة المتكبرين ومساندة المتواضعين والخاضعين» معروفة للجميع؛ ويسهب فى الحديث عن استبداد ماركوالدو وغدره، وينبه السراسنة إلى أنه سوف يغدر بهم يوماً ما لينقذ نفسه بدمائهم، عندما تنقض الممالك المسيحية بجيوشها على صقلية، قبل ذهابها لاستعادة القبر المقدس. وعلى هذا فإن البابا يحثهم على البقاء متماسكين تحت شعار الإمارة، سندهم القديم بينما كان المفوض البابوى وقادة الكنيسة يرسلون الجيوش الزمنية ضد ماركوالدو بأمر صريح بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد السراسنة بل وعلى النقيض من ذلك بأن تقدم لهم الحماية وأن تستجلب رضاهم بمنحهم إعفاءات جديدة(1). ونستطيع جميعاً أن نرى فى هذه الكلمات أن البابا كان لايزال يرجو أن يفرق المسلمين عن ماركوالدو، لأنهم لم يعلنوا صراحة أنهم متمردون. ولسوف يفهم جيداً كل متمرس على أسلوب الكتابة الكنسية فى كل العصور أن أولئك السراسنة الذين كان البابا يستعطفهم هم والضحايا المسيحيين من كلا الجنسين، لم يكونوا هم أكثرية الأمة، بل كانوا قلة من عبيد الأرض الهاربين الذين جروا عندما اشتموا رائحة الفريسة وأرسلهم ماركالدو لتخريب البلاد التى لم ترد الاعتراف بسلطته.

إلا أن غالبية سكان وادى مازارا، مسلمين ومسيحيين، تبعوا شيئاً فشيئاً ماركوالدو؛ ولهذا فإنه جمع فى صيف سنة ألف ومائتين قوات كثيرة للتحرك إلى العاصمة. وقد قام الأوصياء على العرش بتحصينها وتزويدها بالمؤن على قدر استطاعتهم وأرسلوا فدريكو إلى مسينا ليكون فيهـا فى مأمن. وأرسـل البـابا لهم بعض المـال، كمـا

---

(1) المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٧.

ارسل لهم جاكوبو وهو أحد أقاربه. ومارشال الكنيسة، على راس مائتى فارس؛ كما أرسل أحد الكرادلة مفوضاً عنه ورئيسى اساقفة تارانتو ونابولى، وكان رئيس اساقفة نابولى يقود رجالاً وسفناً. وعندما تجمعت القوات الصقلية فى مسينا، تحرك الجيش فى اتجاه بالرمو، براً وبحراً.

وكان وصول هؤلاء وأولئك فى الوقت نفسه فالاً حسناً. فقد وصلوا فى السابع عشر من يوليو بينما كانت المدينة ترزح تحت الحصار منذ عشرين يوماً وقد بدأت تعانى من نفاذ احتياجاتها. وعسكر الجيش فى البساتين الملكية التى يطلق عليها جنواردو(1): واخذ يعد العدة للمعركة فى اليوم التالى بينما ارسل ماركوالدو رجلاً من بيزا اسمه رانييرى دى مانيتنى للتباحث على اتفاق أو - وهذا هو الأرجح - للتجسس والتسويف حتى يتمكن رجال الحصار من جمع قوات جديدة وحتى يستهلك أهل المدينة المحاصرة ما بقى لهم من مال ومؤن. هذه هى المبررات التى توصل إليها انسلمو رئيس أساقفة نابولى، وهو من أنصار إينوتشنزو المتحمسين وراوى هذه الواقعة؛ ويضيف قائلاً إنه مع رئيسى اساقفة موريالى وتارانتو قد عارضوا الاتفاق وأن أنصار الاتفاق، أى رئيس الديوان ورئيس أساقفة مسينا وأسقف تشيفالو كادوا أن يتغلبوا عليهم إلا أن رجلاً يُدعى بارتولوميو، وهو سكرتير إينوتشنزو، قطع الشك باليقين عندما قرا عليهم أمراً بابوياً موجزاً كان يمنعهم منعاً باتاً من الاتفاق والتحالف مع ماركوالدو. وكان الجنود والشعب يرددون هتافاتهم بموت ماركوالدو المفروز من الكنيسة. ولهذا فبعد انقضاء اربعة أيام بلا طائل بدأت المعركة فى الحادى والعشرين من يوليو سنة الف ومائتين.

كان ماركوالدو قد هبط إلى السهل عبر وادى نهر أوريتو الذى يمتد محوره نحو الجبل حتى سفحه الذى يطل على البحر تجاه أفريقية،

(1) انظر الفصل السابق، ص ٥٢٠، من هذا المجلد.

ليصل إلى چاتو وإلى قلاع المسلمين الأخرى التى كانت ولا شك هى قاعدة الحرب. كان ماركوالدو ومعه خمسمائة من رجال بيزا وعدد ضخم من السراسنة قد احتل على الجانب الأيسر مرتفعات موريالى وأقام معسكرات إيواء الجند، على ما يبدو، بين المكانين اللذين يطلق عليهما اليوم روكّا وبونتى ديللاجراتسيا، أى فيما بين قاعدة الجبل وشاطئ النهر. وانتشر الجيش الملكى فى مواجهته، وكانت الميمنة تحت قيادة الكونت چنتيلى، شقيق رئيس الديوان، وهى من المشاة؛ بينما كانت الميسرة تحت قيادة مارشال البابوية، وهى من الفرسان؛ وكان المارشال يتحصن فى قلعة، وهى على ما أعتقد قلعة كوبا وكان فى مواجهة ماركوالدو، وبدأت المعركة فى التاسعة صباحاً عندما صعد چنتيلى ومالچريو وغيرهما من النبلاء مطلع موريالى، واحتلوا الأراضى وقطعوا المسلمين إرباً، وقتلوا بين من قتلوا، مجدداً قائدهم وقائد الميسرة كافة(1)؛ ولم ينج منهم إلا بندتو قائد رجال بيزا مع حفنة من الرجال. فى تلك الأثناء كان ماركوالدو قد صدّ فى السهل بفرسانه الألمان والسراسنة الهجمات مرتين؛ ولكن فى النزال الثالث تقدم المارشال مع رجاله حتى أن ميسرة الملكيين كلها كرّت على العدو وفرقته واقتحمت معسكره؛ وكان هذا فى الثالثة بعد الظهر. وفر ماركوالدو؛ وتم أسر رانييرى ومعه رجال بارزون كثيرون؛ وتفرق المهزومون وهربوا إلى الجبال وفى الوديان. كان القتلى كثيرين. والغنائم ضخمة؛ حتى إن بقية النهار لم تكف لنقل كل هذه الثروات إلى المدينة. ومن بينها كان هناك صندوق بداخله وصية

---

(1) كاروزو، *Bibl. Sic.*، ص ٦٤٧، يقول ماجديو *"Magadeo"*. واتبع أنا قراءة برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٨، وهى قراءة تعبر عن لفظ مجاهد، وهو يستخدم أحياناً للدلالة على اسم علم وأحياناً أخرى كنية. انظر الكتاب الخامس، الفصل الأول، ص ٤ وما بعدها من هذا المجلد. وكان هناك رجل اسمه ابن مجاهد يمتلك منزلاً فى بالرمو، طبقاً للوثيقة العربية لسنة ١١٩٠، والتى جاء جريجوريو بفقرة منها فى: *De Supputandis..*، ص ٤٠.

أريجو السادس(1).

ولم يفد النصر كثيراً لأن رئيس الديوان، وكان ارتيابه فى البابا يزداد زيادة مطردة، قيد حركة المارشال ومفوض البابا، حتى إنهما عادا إلى روما وقد أصابهما الإحباط: وقام ـ وهو المهيمن على

---

(1) روى هذه المعركة أنسلمو رئيس أساقفة نابولى وهو شاهد عيان. فى الرسالة التى يبدو أنه كتبها لإينوتشنزو فى اليوم التالى: والرسالة موجودة فى كل طبعات *Gesta Innocentii III*، الفصل السادس والعشرين. ويشير إلى الانتصار. أنونيمو الذى قام بنشره برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول. ص ٨٩٢ وكذلك ريكاردو دى سان جرمانو. وتشهد على احتلال موريالى قبل حصار بالرمو رسالة لإينوتشنزو. الكتاب الثالث. رقم ٢٣. طبعة بركينى. المجلد الثانى. رقم ٢٧ ورواينا لدى. *Annales*. ١٢٠٠. § ٨،٢.

ويريد أنسلمو وهو يكتب إلى البابا أن ينسب الفضل كله إلى جاكوبو قريب البابا وإلى مارشال الكنيسة المقدسة. ويترك الكونت جنتيلى. شقيق رئيس الديوان. قدر ما يستطيع. لأنه لم يكن محل رضا البابا منذ تلك الآونة المبكرة. ولكن الحقيقة تظهر من الرسالة نفسها حيث تقول إنه منذ بداية المعركة وكان جنتيلى ومالجريو على رأس جنود المشاة. *"potenter ascenderunt, trascenderunt et obtinuerunt montana, et omnes fere quot ibi inventi sunt in ore gladii posuerunt."* فإذا كان جنتيلى قد كسر منذ الصباح ميسرة ماركوالدو كسراً، فإن فضله فى النصر يضارع على الأقل فضل المارشال *"qui in extremo locatus, castellum tenebat, immo ipse castellum erat exercitus"* بل إن الحقيقة هى أنه عند الاستيلاء على معسكر العدو نحو الساعة الثالثة فقد تعاون جنود المشاة عند نزولهم من موريالى على الجانب الأيسر أو خلف العدو تعاوناً فعالاً لإحراز النصر. ويضاف إلى هذا أن أنونيمو الذى ذكرناه تواً يقول إن ماركوالدو قد انكسر فى موريالى؛ ومن هنا يبدو أن مصير المعركة قد تقرر هنالك.

ولا يمكن أن تكون القلعة التى أشار إليها أنسلمو فى الفقرة المذكورة بأعلى إلا قلعة كوبا. إلا إذا كان المقصود قصراً أو قلعة قريبة لم يبق منها أثر أو لم يبق لها ذكر. كان ماركوالدو يقود فرقة ضخمة من الفرسان ويستند على المشاة فى موريالى. فما هو الجانب الذى كان يدعمه هو؟ إنه الجانب الأيسر بالتأكيد: لأن من بين الواديين اللذين يؤديان إلى السهل من جانبى موريالى، فإن وادى أوريتو هو الوادى المنبسط الفسيح: بينما وادى بوكادى فالكو واد ضيق متعرج، وأولهما هو امتداد لسفوح موريالى، أما الأخر فتفصله عن ذلك المكان قمم جبل كابوتو الوعرة. ولكن يبدو لى أنه ليس ثمة شك حول ميدان المعركة أو حول موقع كل من الجيشين.

ومن الواضح أن نص ريكاردو دى سان جرمانو، الذى لاتوجد به أية تفاصيل، هو نص فاسد فى هذا الشأن، كما لاحظ هذا موراتورى فى *Annali*. انظر كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٥٦. التى لا تبعد عنه فى هذا الصدد طبعة برتز الحديثة الرائعة.

حكومة صقلية ـ بكسر ماركوالدو مرة ثانية فى راندانسو(1)، ولكنه عاد واتفق معه، لكى يكون هناك توازن مع بريين؛ وللسبب نفسه ـ حسب اعتقادى ـ ناصرت صقلية كلها(2)، فيما عدا بالرمو ومسينا، القائد المناصر للامبراطورية. واستمر هذا الصراع بين راعى الكنيسة الجامعة وأسقف ترويا الذى تغلب عليه غريمه القوى، أو بالأحرى رجحت كفة اولهما فى البر الإيطالى، بينما رجحت كفة الثانى فى الجزيرة؛ ومن هنا حدث أن لم يستطع هذا أو ذاك تحقيق مآربه بالكامل فاتفقا على مناصرة الفتى القاصر وقد ساعدهما القدر فى هذا بوفاة بطليهما وفاة مبكرة، وهما بريين وماركوالدو. ولنترك التفاصيل لأنها سيئة ومملة ومعقدة، ولنتحدث فقط عن الظروف التى بقى فيها فدريكو، وسنتحدث باسهاب عن المسلمين.

أعيد الملك الصبى بعد هزيمة ماركوالدو إلى بالرمو(3)، وهناك اهتم به ورعاه أهل المدينة وبخاصة كهنة الكاتدرائية الذين كان لهم فيما يبدو أتباع كثيرون فى البلاد. وقد قام على حراسة فدريكو فيما بعد رئيس الديوان وأخوه الكونت جنتيلى، وماركوالدو، وجوليلمو كبارّونى، وهو قائد المانى، وديوبولدو، وهو من الأمة نفسها وسئ السمعة فى الحرب الأهلية كلها. ثم من جديد رئيس الديوان، الذى قام بموافقة البابا بتحرير الشاب وهو فى سن الرابعة عشر وزوجه من كوستانسا، أخت بطرس الثانى ملك أراجونا، وأرملة إمّريكو ملك المجر. وهكذا كان ملك القرن الثالث عشر الفيلسوف يتلقى بدءاً من أوائل يناير عام ألف ومائتين وثمانية تعليمه فى مدرسة المحن والخطوب؛ حبيس المدينة بل قد يكون حبيس القصر الملكى

(1) هذا الحدث ذكره فقط انونيمو، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٣٩.

(2) انونيمو، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٩٣ والذى يقول بهزيمة ماركوالدو مرتين: *"Et nihi lominus omnes Siculi a sua fidelitate non discedebant."*

(3) وثيقة موجودة في كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٥٢، تدلل على أن فدريكو كان فى بالرمو من جديد فى شهر أغسطس.

والحدائق الملكية حفاظاً على أمنه وسلامته، أو غيرة عليه من جانب القائمين على الحكم. وعندما خرج إلى الخلاء تقوده زوجته وهى ممسكة بيده وجد المملكة مغتصبة ومضطربة وخاملة. ولن نتحدث عن البر الإيطالى الذى لم يكن البابا قادراً على السيطرة على الهمجية الإقطاعية فيه بل كان هو نفسه يغتصب بعض حقوق الملك ويمنح إقطاعيات لشقيقه ولغيره من أقاربه. وفى صقلية كان الجانب الأكبر من الأملاك الملكية نهبا للاغتصاب والهبات التى يقدمها الأوصياء على الحكم إما بإساءة استعمال سلطاتهم أو للضرورة: وكان أهل جنوة يمسكون - بالإضافة إلى هذا - بزمام سيراكوزا وجزء من إقليمها. فأخيراً نفّذت الوصاية على العرش وعود اريجو السادس لهم على أمل أن تحصل منهم على شئ من العون ضد بيزا. وقد حافظ شعب وكهنة المدن الأولى الأخرى على عهدهم، وهى مدن بالرمو ومسينا وكتانيا وكلتاچيرونى ونيقوسيا وذلك كما اعترف فدريكو نفسه سواء بكلامه أو أفعاله(1): فقد قامت هذه المدن بالدفاع عنه وتوفير مصروفات البلاط عندما أصبح حراً مستقلاً، ولكن جندها لم يكن كافياً لإخضاع باقى الجزيرة لطاعته. ولهذا اضطرت الملكة إلى استقدام كونت بروڤانس، وهو يمت لها بالقرابة، ومعه خمسمائة فارس جرى تجنيدهم. قاموا باقتياد فدريكو من بالرمو إلى كتانيا ومسينا (١٢٠٩) وعاونوه بصورة أو بأخرى على الحصول على اعتراف الإقطاعيين به وعلى الحصول على بعض الأموال: ولكن الوباء أباد هؤلاء المرتزقة، ولم يسمح فقر البلاط بالتزود بغيرهم(2). ولم يكن الملك قادراً مع قلة قواته على قمع المسلمين الذين كانوا قد

---

(1) انظر فى برهوللز. المرجع المذكور. الوثائق المحررة لصالح مدن أو كنائس صقلية فى السنوات ١٢٠٠ و١٢٠١ و١٢٠٧ و١٢٠٩ و١٢١٠ و١٢١١؛ المجلد الأول، ص ٤٥ وما بعدها و٨٥ وما بعدها وص ١٢٨ و٩١٣ و١٨٠ و١٨٢ وما بعدها وعلى الأخص ص ١٩٤.

(2) هذان الحدثان المهمان ترويهما تتمة جوليلمو من صُور. الكتاب الرابع والعشرين، الفصلين ٥٩ و٦٠ فى كتاب مارتينى ودوراند، *Amplissima collectio*. المجلد الخامس ص ٦٧٦ و٦٧٧.

أعلنوا تمردهم وعصيانهم منذ عام ألف ومائتين وثمانية.

لم تتسم حركة المسلمين لصالح ماركوالدو (١٢٠٠) بالتمرد، لأن الجزء الأكبر من الجزيرة كان يعترف بماركوالدو وصياً على العرش ويفضله على البابا ورئيس الديوان. وعندما تم الاتفاق بين رئيس الديوان وماركوالدو، ودخل ماركوالدو القصر فى بالرمو، كان يطلق على المسلمين بكل ثقة المخلصين: ولم يحنثوا بعهدهم فى الأحداث التالية بالبلاط. بل إن البابا نفسه، لعلمه بأنهم أقوياء وصادقون فقد سمح لرئيس الديوان فى أكتوبر - على ما يبدو - من عام ألف ومائتين بالاتفاق معهم بينما منعه من الاتفاق مع ماركوالدو(1). وبعد ذلك بسنوات عدهم إينوتشنزو رعايا غير مذنبين، فعندما دخل بعض رهبان موريالى قلعتى چاتو كالاتراسى، وهما إقطاعيتان للدير، كان يسكنهما المسلمون بلا أدنى شك، كتب البابا إليهم موبخاً إياهم توبيخاً شديداً وواجههم بالعهود والمواثيق الموقعة مع ماركوالدو وبالاتصالات التى جرت مع كبّارونى ضد رئيس الأساقفة، ولكنه لم يذكر من بعيد أو قريب الاتفاق مع المسلمين والذى كان يمكن أن يمثل اتهاماً(2). وهناك ما هو أكثر من هذا. ففى شهر سبتمبر من سنة ألف

---

(1) فى *Gesta Innocentii III*، المجلد الثالث، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦٤٩ وفى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٥٧، توجد رسالة دون تاريخ موجهة - كما يبدو - إلى الأوصياء على العرش ويمكن أن ترجع إلى أوائل وقت هزيمة ماركوالدو وفيها يكرر البابا منع عقد سلام مع ماركوالدو ولكنه يسمح بالعفو عن السراسنة طالما قدموا الأمان. واختتم إينوتشنزو رسالته بالتهديد نفسه بأن يرسل ضدهم وضد الخونة الآخرين الأمراء المسيحيين المسلحين للحرب الصليبية. وفى سنة ١٢٠٢ كتب إلى رئيس أساقفة بالرمو المختار بوصيه ببريهن، الذى كان يريد له أن يعبر إلى صقلية، ويقول له أنه قد وجّه إلى السراسنة الرسائل التى طلبها منه. فى كتاب بروكوينى، *Diplomata etc.*، المجلد الثانى، ص ٩٨، الرسالة ٣٩ من الكتاب الخامس.

(2) رسالة ١٧ يونيه ١٢٠٣، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٠٢. يواجه البابا أولئك الرهبان - من بين مايواجههم به - بأنهم أذاعوا سراً كان عليهم أن يكتموه، ولهذا وقعت شرور كثيرة فى بالرمو وفى صقلية كافة: ثم يتهمهم بأنهم يستولون على الدخول وبنهب القبور وبسوء معاملة رجال رئيس أساقفتهم وبالهجوم على ذلك الحبر وبالفساد كبّارونى فقد أعطوه مالاً وأعطوا زوجته كئوساً من الفضة وحلّة (وهذا

ومائتين وست عندما كان إينوتشنزو يعتقد أنه قد أخضع رئيس الديوان وقادة صقلية من الألمان لطاعته، كتب كتاباً رقيقاً «إلى قاضى وكل قادة إنتللا وبلاتانى وجاتو وتشلسى وغيرهم من القادة وكل سراسنة صقلية متمنياً أن يدركوا الحق ويحبوه، ألا وهو الله نفسه». وبعد هذا التعريف، وهو إسلامى أكثر مما هو مسيحى، وفلسفى أكثر مما هو إسلامى، يهنئ البابا المتسامح القادة إذ حفظتهم الرحمة الإلهية من الغوايات بمختلف الطرق التى حاول آخرون أن يخرجوهم بها عن الطريق القويم وإذ حفظتهم مخلصين لمليكهم، ملك صقلية: وفى الختام يشجعهم على الاستمرار على هذا الموقف الشريف والحكيم إذ أن الملك، وقد أشرف على سن الرشد، سوف يعرف كيف يكافئهم(1).

إن هذا التنبيه الذى طلبه من البابا ـ كما هو واضح ـ الأوصياء على العرش فى بالرمو، يجعلنا نفترض أنهم كانوا يعلمون باستياء المسلمين وأنهم كانوا يسعون إلى اتقاء تمردهم، فقد كان الدافع إليه

لفظ عربى) تساوى أكثر من ألف تارى.

لاحظ أن رسالة سبتمبر ١٢٠٦ موجهة ـ من بين من وجهت إليهم ـ إلى رؤساء مسلمى جاتو التى وصف البابا قبل ذلك بثلاث سنوات رهبان موريالى بأنهم محتلون لقلعتها. والآن فمن الواضح أن المسلمين لم يقدموا بكل تأكيد إلى أولئك الرهبان قلعتهم الرئيسة. وعلى هذا فإن ما أطلق عليه احتلال لم يكن إلا الإقامة فى إحدى المزارع تحت حماية كبّارونى الذى كان بصفته القائد العام يمسك بزمام الأمور فى بالرمو ويمثل السلطة الشرعية فيها.

ومن المحتمل ـ بعد اتفاق رئيس الديوان مع ماركوالدو ـ أن يكون بعض المسلمين قد عادوا إلى بالرمو. فنحن نرى فى وثيقة ترجع إلى سنة ١٢٠٢، فى كتاب مونجيتورى *Sacræ Domus mansionis... Panormi Monumenta historica* الفصل الرابع توقيع: *"Amineddal, olim magister regii stabuli."* ومن الواضح أن اللقب الشرفى **أمين الدولة**، كان يمنح لبعض القادة من رجال البلاط.

كما أنه لا يمكن أن نفترض إبعاد كل المسلمين إبعاداً مطلقاً من بالرمو، سواء كان من اعتنق المسيحية منهم أم لا: وليس غريباً أن يكون رجل البلاط القديم ذاك، مثل كثيرين غيره من غير المشكوك فيهم أو المنسيين، قد بقوا فى المدينة فى بداية سنة ١٢٠٠، عندما كان الشعب المسيحى بالضرورة أكثر تحرشاً بغيرهم من المسلمين.

(1) رسالة سبتمبر ١٢٠٦، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١١٨.

وارداً. فبعد أن اتفق فى النهاية القادة الموالون للبابا والقادة الموالون للملك - كما قلنا - فى بلاط بالرمو، وجدوا أن نبع الأملاك الأميرية قد نضب بينما كانوا يحتاجون إلى الاغتراف منه مجدداً لإرضاء جشع أنصارهم ومنافسيهم قبل تسلم الملك مقاليد الحكم. ويبدو أن آخر أراضى الدولة كان يقطنها المسلمون. فكانت القلاع والقرى آهلة بهم، وهى القلاع والقرى التى منحها جوليلمو الثانى وخلفاؤه لمختلف الهيئات الكنسية، مثل دير أسقفية چرچنتى، ودير مورپالى وكهنة بالرمو الذين كانت لهم مكانة فى البلاط وكانت لهم قوة وبأس فى العاصمة. وكان لابد من إعادة هذه الأملاك التى كانت فى حيازة المسلمين إذ لم يكن هناك ما يمكن إعطاؤه فى مقابلها؛ أى أنه كان على المسلمين أن يدفعوا حصة الوصاية على الحكم. هذا هو مجمل التعليق على فصل قصير من فصول «أعمال إينوتشنزو المجيدة» *Gesta d'Innocenzo*، الذى لا يمكن فهمه فهماً جيداً دونه. ويكتب المؤلف المجهول، من بين ما يكتب عن مختلف الأحداث التى تنسب إلى سنة ألف ومائتين أنه بينما كان رئيس الديوان يقيم مع الملك فى بالرمو وبينما كان يحاول بشتى الطرق أن ينتزع القصر الملكى من كبّارونى تم التباحث على اتفاق بين أنصار هذا وأنصار رئيس الديوان، وأن السراسنة عندما شعروا بهذا لجأوا إلى الجبال ولم يعلنوا عن تمردهم فقط بل إنهم عندما نزلوا من مخابئهم أخذوا فى الإغارة على المسيحيين واستولوا على قلعة كورليونى وهددوا بما هو أفظع(1). وكانت كورليونى هى أكبر الأراضى التى منحها جوليلمو الثانى لدير مورپالى. ولإيضاح سبب هذا التمرد المعلن بشكل أفضل فإننا نجد بعد ذلك بسنتين وثيقة من فدريكو جدد فيها لصالح كنيسة

---

(1) فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦٥٨ . انظر كذلك وثيقة فدريكو بتاريخ يوليو ١٢٠٨ والتى تم بها التصديق على اتفاق بين رهبان مورپالى ورئيس الأساقفة، والأولون من أنصار ديوپولدو والآخر من أنصار البابا إينوتشنزو. فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٢٥ .

بالرمو الهبات الكبيرة التى وقعت فى عهد أريجو أو بالأحرى فى عهد كوستانسا؛ ومن بين الأملاك المذكورة جاءت أسماء قرى إسلامية وكذلك ضيعة بلاتانى(1)، التى قاوم فيها المسلمون لسنوات كثيرة فدريكو وهو فى أوج سطوته.

وعندما خرج فدريكو من الوصاية وليس من الصبا، لم يكن يفكر بكل تأكيد فى الذهاب لزيارة المسلمين داخل جبالهم. ولم يكن ليخطر على باله تهدئة هؤلاء المتمردين بأن يمزق الوثائق التى بموجبها تم منح الأملاك التى كانت فى حوزتهم آنذاك للكنائس أو لبارونات البلاط. ومع ذلك فإنه ترك هؤلاء وشانهم وكذلك كثيرين غيرهم ممن كانوا يحوزون الأملاك الأميرية او الإقطاعيين فى البر الإيطالى وفى الجزيرة. واستمر تمرد المراسنة. بل إنهم أقاموا دولة داخل الدولة عندما اختير أوتونى امبراطوراً فأتى إلى روما ليستلم التاج ثم اتجه إلى غزو المملكة يناصره أنصار البابا والملك. وبوساطة رجال بيزا وديوبولدو الذى كان نصيراً له قام أوتونى. بعد احتلاله نابولى وأفرسا (١٢١٠) بإجراء اتصالاته فى صقلية: ومن هنا سرت شائعة بأن المسلمين وبعض الإقطاعيين قد دعوه للعبور إلى الجزيرة بجيشه الذى وعدوه بتقديم مساعدات كبيرة لطرد فدريكو(2). بل قيل

(1) وثيقة اكتوبر ١٢١١، فى كتاب برهوللز. المرجع المذكور، ص ١٩١ وما بعدها. وتؤكد افتراضى هذا وثيقة ١٥ يناير من السنة نفسها والمذكورة فى المرجع نفسه ص ١٨١ والتى أعطى فدريكو بمقتضاها لرئيس اساقفة موريالى سلطة الاستيلاء على أملاك المراسنة وأشخاصهم الذين لا يلتزمون بالتزاماتهم قِبَل تلك الكنيسة.
(2) نقرا هذا فى *Annales Colon. Maximi*، فى كتاب برتز. الفصل السابع عشر. ص ٨٢٥. ويجب التنبيه هنا إلى خطأ وقع فيه تيشمن ومن بعده جريجوريو. فعندما تم فتح مقبرة فدريكو فى بالرمو سنة ١٧٨١ وجدت كتابة عربية على اكمام كفنه وأرسل رسم لها إلى تيشمن. واعتقد تيشمن انه يقرا اسم أوتونى؛ وبالتالى قراه جريجوريو على النحو نفسه وطبع فى *Rerum Arabicarum*، ص ١٧٩ وما بعدها مبحث علمى ليدلل على أن المسلمين كانوا قد طرزوا هذا الرداء لإهدائه إلى أوتونى وأن هذا الرداء وغيره من الملابس الامبراطورية قد وصل إلى فدريكو. وليس هذا فقط، بل إن جريجوريو ظن أنه قد وجد فى كثير من الأنية البرونزية اسم أوتونى (المرجع المذكور، ص ١٨٢ ـ ١٨٥). ولكن للأسف الشديد لا يوجد سوى لفظ سلطان. والذى تمت قراءته على النحو السابق

إن فدريكو عندما شعر بالخطر المحدق وضع شانية على أهبة الاستعداد تحت مقره الملكى لكى يهرب بها إلى إفريقية(1).

لنقص الخبرة فى الخط العربى: ومن هنا يسقط البناء الذى شيد على الهبات التى أرسلها مسلمو صقلية إلى الامبراطور. وكان أول من نبه إلى هذا الخطأ دي فرايهن ومن بعده لانشى وتحدثت أنا كذلك عنه ببضع كلمات فى *Rivista Sicula*، الفصلة الثانية، (بالرمو، فبراير ١٨٦٩)، فى حديث تمهيدى عن النقوش العربية فى صقلية.

(1) البرتوس بوهيموس، الذى ذكره برهوللز. *Historia Diplomatica etc.*، المقدمة، ص ١٧١.

الفصل الثامن

لكن فدريكو سلك طريقاً أكثر أمناً من طريق الهرب. كان البابا يبحث عن إمبراطور ـ مضاد من الجبلليين لاسقاط الإمبراطور الجويلفى الذى كان من صنعة يديه: وكان فى تلك الأثناء قد فرز أوتونى من الكنيسة، وأعفى الرعية من قسم ولائها له، وأخرج إلى النور مسألة اختيار ابن أريجو السادس، وأشعل الحرب الأهلية فى ألمانيا، ودبر فى اجتماع فى نورمبرج خلع الأول واختيار الآخر الذى أطلق عليه أنصار الكنيسة «ملك الكهنة» كما أطلقوا عليه فى أحيان أخرى «صبى بوليا»(1). ولما ضجر هذا الشاب المتحمس وهو فى سن الثامنة عشرة من أن يملك دون أن يحكم فى فوضى جنوب إيطاليا ألقى بنفسه وهو منكس الرأس فى ثورة ألمانيا. ولما دعاه على عجل من اختاروه قدم لإينوتشنزو كل ضمانات الولاء والخضوع التى طلبها. وبعد أن ترك زوجته وابنه أريجو فى صقلية أبحر من مسينا إلى جايتا (مارس ١٢١٢)، وزار البابا فى روما ثم مضى بحراً إلى جنوة، ومضى منها على صهوة جواده إلى بافيا وكريمونا وترنتو ووصل إلى بازيليا (٢٦ سبتمبر) وتحاشى بصعوبة بالغة مواقف الجويلفيين. واستدار أوتونى وعاد ليطارده دون جدوى. واشتعل إوار الحرب بسبب تحالف أوتونى مع إنجلترا ومع غيرها من الأعداء والمتمردين من فرنسا؛ ومن هنا فإن فيليبو أوجوستو صار عن طيب خاطر نصيراً ومدافعاً عن البابا. ولما انهزم أوتونى أمام شجاعة الفرنسيين فى معركة بوفين (٢٧ يوليه ١٢١٤) وتخلى عنه الجميع، توفى بعد بضع سنوات (١٢١٨). وبالضرورة حل فدريكو محله فى

---

(1) هذه الكنية الأخيرة نجدها فى *Continuotio Bergensis*، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد السادس، ص ٤٤٠.

المعركة ضد البابوية، وكان إينوتشنزو قد توفى (١٢١٦) ولكنه خلف وراءه أمثلة سيئة للطموح والعنف.

وبعد ثمانى سنوات عاد فدريكو إلى إيطاليا بعد أن رتب الأمور فى ألمانيا: وتم تتويجه إمبراطوراً فى روما (٢٢ نوفمبر ١٢٢٠)، ونزل إلى المملكة لينظم شئون السلطة ويقويها بعد أن هوت إلى الحضيض فى الثلاثين سنة الأخيرة. ونتيجة لهذا فقد دعا فى البر الإيطالى إلى عقد الاجتماعات، وأصدر قوانين حاسمة وحارب البارونات الذين أبدوا مقاومة له. ولما عبر إلى الجزيرة كانت هيبته كافية لإخضاع المسيحيين. أما المسلمون فقد كبدوه عناء ومشقة.

كان من المستحيل أى اتفاق بينهم وبين المسيحيين جميعاً، حكاماً ومحكومين، بارونات وكهنة وأهال. ولم تكن النفوس حانقة هنا، كما حدث فيما بعد فى اسبانيا، من عدم تسامح الحاكم او الشعب تسامحاً دينياً: وإذا ما نظرنا إلى رجال الدين وحدهم فإنهم كانوا أكثر ميلاً إلى الجشع وليس إلى التعصب منذ حكم جوليلمو الثانى(1)؛ بل إننا رأينا ان إينوتشنزو قد حاول دون جدوى فى سنة الف ومائة وثمانى وتسعين أن يثير الصقليين ليطاردوا المسلمين(2). ولكن دماء الطرفين قد سالت وأملاكهما قد سلبت ودمرت: وكانت العقبة الكبرى هى أحوال المسلمين الإجتماعية وأحوال المسيحيين السياسية. ولما كان المسلمون يعيشون منذ أكثر من عشرين سنة فى الأراضى المحتلة، أو كما كانوا يفكرون هم، فى الأراضى التى يطالبون بها فى وادى مازارا، فإنهم ما كانوا يستطيعون الخضوع دون أن يعنى هذا أن يقبلوا الفقر والعبودية: لأن الحاكم كان لابد ان يعبد

---

(1) انظر الفصول الثالث والخامس والسابع من هذا الكتاب، ص ٤٢٤ وما بعدها، و٥١١ وما بعدها، و٥٤٧ ـ ٥٤٨ وما بعدها . وعلى الرغم من أن الخصومة القومية والدينية قد تحولت أحياناً إلى سفك الدماء تحت حكم جوليلمو الأول، كما نقرأ هذا فى الفصل الرابع، ص ٤٦٦ و٤٦٩ وفى الفصل السادس ص ٥٢٢. إلا أن هذه الاضطرابات لاتبدو من فعل رجال الدين المباشر أو نتيجة للمشاعر الدينية بل هى نتيجة للجشع والشراسة.

(2) الفصل السابع، ص ٥٤٧ وما بعدها .

بشكل كامل الأملاك وأهل القرى إلى أصحاب الامتياز وأغلبهم من كبار رجال الكنيسة. ولما كان هؤلاء هم أنصار العرش الحقيقيين فإنه كان من المناسب لفدريكو أن يحتفظ بصداقتهم فى الصراع الذى كان يوشك على القيام به ضد البابا وضد بارونات المملكة. وفى الواقع نرى أن الإمبراطور (يوليه ١٢٢٠) قد أكد، بناء على طلب كارو رئيس أساقفة موريالى، على التنازل عن المدن والقلاع والكفور والقرى والكنائس. والأملاك والقرويين وحقوق تلك الكنيسة التى احتلت أثناء الاضطرابات والتى كان يسيطر عليها سراسنة أو مسيحيون سيطرة غير شرعية(1). ولكى ندرك إدراكاً افضل أهمية هذا الأمر فإنه ينبغى أن نذكر أن هذه الوثيقة قد تم التأكيد عليها بعد ثمانية شهور فى برنديزى (مارس ١٢٢١) وأضيف إليها أنه على الوكلاء والقرويين الذين تركوا الأراضى أن يعودوا إليها بكل الممتلكات، وإن كانوا قد توفوا فيتم الاستيلاء على أملاك أبنائهم(2). وقد تم فى سنة ألف ومائتين وتسع عشرة بالطريقة نفسها منح كفر ميزريللا وفلاحى بوليتسى أينما كانوا، وضيعة أرتيلچيدا بالقرب من بالرمو وأملاك وحقوق فى أماكن أخرى إلى الرهبانية التيوتونية(3). ولما كان على فدريكو أن يقوم بدفع ديون قديمة أو حديثة فإنه قام بسدادها بتقديم كفور يسكنها - على ما يبدو - مسلمون، وقد وصلنا عقدان فقط من هذه العقود وهما عقد منح سكوبيللو إلى كنيسة سانتا ماريا دللاميراليو فى بالرمو ثمناً للأوانى الذهبية والفضية التى أخذها

---

(1) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٠٠.

(2) المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٥٠ و١٥٢.

(3) وثيقتا أبريل ١٢٠٦ وفبراير ١٢١٩، فى كتاب مونجيتورى، *Sacræ domus mansionis... Panormi, Monumenta.* ومن الملاحظات نرى أن ميزريللا كانت تقع بالقرب من ميزلميرى. وكانت هرتيلچيديا خارج أسوار بالرمو. وثانى هاتين الوثيقتين يمكن الإطلاع عليها كذلك فى برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٥٨٦. وكان قد تم منح جزء من الأملاك فى شهر ديسمبر ١٢٠٢، المجلد المذكور، ص ٩٦.

أخذها ضمن لوازم الحرب(1)؛ وعقد منح موسّارو ومنزارو لأسقف جرجنتي في مقابل سبعة آلاف تاري من الذهب قدمها في وقت من الأوقات إلى البلاط(2).

ولم يكن على فدريكو تأمين ملكية أصحاب الامتيازات بقدر ما كان عليه أن يدافع عن نصف الجزيرة من غارات أناس صاروا غرباء. ولما وجد المسلمون أنهم باتوا مهددين ردوا رداً ينم عن ميلهم إلى الصمود والقتال. فبالإضافة إلى ما رويناه منذ قليل(3)، فإننا نعلم أن «أعداء الصليب» قد قاموا في سنة ألف وما ئتين وتسع عشرة باجتياح مستشفى سان جوفاني دي لبروزي، عند أعتاب بالرمو(4). كما نخلص إلى أن أورسو أسقف جرجنتي قد أخذه السراسنة وسجنوه لمدة أربعة عشر شهراً في قلعة جواستيللا، وأطلق سراحه بعد أن تم دفع فديته؛ وأنه قد تم احتلال أملاك الأسقفية ومنع ممارسة الحقوق بها، وكان السراسنة يقيمون في برج أجراس الكاتدرائية وفي المنزل المجاور لها حتى أن المؤمنين لم يجرؤوا على الذهاب إلى الكنيسة وعلى تعميد أبنائهم: ويقال إن هذا الحدث قد وقع في عصر

---

(1) وثيقة 15 أغسطس ١٢٢١، وقد ذكرها فانزيللو، المشرية الأولى، الفصل الأول، ومن ثم ذكرها بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ١٣٥٩. وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا الرق قد تم تهريبه مع باقي رقوق دير مارتورانا في شهر سبتمبر الحزين من سنة ١٨٦٦ عندما تم إخلاء ذلك الدير بدون الاهتمام بما كان يحمله الكهنة والراهبات معهم.

(2) وثيقة نوفمبر ١٢٢١: في كتاب بيرّو، المرجع المذكور، ص ٧٠٢. وأعاد برهوللز نشرها، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٢٢٢. ومن الواضح أن هذين الكفرين هما اللذين تم منحهما لأسقف جرجنتي في أبريل سنة ١٢٠٠ طبقاً لما ورد في موضع آخر بكتاب بيرّو (ص ٧٠٢، العامود الأول) وسبق أن ذكرناه في الفصل السابق، ص ٥٤٧. ولكننا نفهم فهماً أكيداً أن عملية المنح في تلك الأزمان قد ظلت قيد الرق. وفي وثيقة ١٢٢١ هذه نجد صياغة السند بالكلمات التالية *concedimus... et perpetuo robore confirmamus*.

(3) انظر الفصل السابق، ص ٥٦٠.

(4) وثيقتا فبراير ١٢١٩ وأبريل ١٢٢١. في كتاب مونجيتوري *Sacræ Domus mansionis etc.* والوثيقة الثانية كذلك في كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ١٩٧.

الإمبراطور فدريكو ويرجع إلى سنة ألف ومائتين وواحد وعشرين(1). وفي غـرب صقلية كانت الغارات، أو الأخطار على الأقل، تصل من

---

(1) هذه التفاصيل مأخوذة من سند بتاريخ ٢٠ يونيه ١٢٥٠ (ويلزم التصحيح ١٢٥٥)، الخمسعشرية الثالثة، السنة الثانية من حكم مانفريدي والذي يُحتفظ بنسخة منه في مخطوطات المكتبة البلدية ببالرمو. Q. q. H. 6، ونسخه لي منذ وقت قريب ليقدم لي معروفاً، السيد ابزيدورو كاريني القائم على المحفوظات الملكية ببالرمو، وهو شاب معروف بدراساته الممتازة عن تاريخ صقلية. واتمنى أن يستطيع في يوم من الأيام نشر هذه الوثيقة وأن يتم إيجاد أصلها في محفوظات كنيسة أجريجنتو القيمة المهملة. والسند، الذي قام بتوقيعه في بالرمو قاض ملكي، بناء على طلب وكيل أسقف چرچنتي، يتضمن إجابة خمسة وأربعين شاهداً تم استجوابهم حول ملكية كنيسة سانتا ماريا دي ريفيزي التي كانت كنيسة أجريجنتو تطالب بها رئيس دير سان جوفاني دللي إريميتي في بالرمو، مؤسسة طلبها على سند تنازل ضاع في زمن الحروب. وكان بعض الشهود يؤكدون وقائع حدثت قبل ستين سنة، وآخرون قبل خمسين، وآخرون قبل أربعين سنة وهكذا دواليك. وكان اسم الشاهد الثالث عشر من بين الشهود الذين تم الاستماع إليهم، لوتشانو دي بونابرت.

وإذا تركنا الأحداث التي لا تدخل في إطار موضوعنا فإننا نقرأ أن الأسقف أورسو قد تم طرده من مقره ثلاث مرات: فقد طرده في الأولى اريجو السادس الذي كان يعتقد أنه ابن الملك تانكريدي؛ وفي المرة الثانية طرده جوليلمو كبّاروني، عندما كان يحكم چرچنتي، والذي لم يرد الأسقف أورسو أن يقسم على الاخلاص والولاء له، والمرة الثالثة في عهد فدريكو. وفي هذه المرة *fuit captus a Saracenis et detenctus in Castro Guastanelle per XIV menses,* وعندئذ فقدت الكنيسة امتيازاتها وأملاكها. *et Saraceni etiam tenebant ecclesiam, campanile, et domos ecclesie, etc.*: ويقول شاهد آخر، وهو فلاح، في ذكره وقائع حدثت قبل ستين سنة، إنه جرت بعد وفاة الملك جوليلمو حرب في وادي مازارا قام بها المسيحيون والسراسنة، حتى إن *non audebant homines de contrata exire de terris in quibus habitabant, usuque ad labores vel vineas eorum*. خوفاً من السراسنة ومن بعض المسيحيين، وإن أورسو لم يتم الافراج عنه في جواستيللا، *nisi se ipsum per pecuniam redimissel*. وروى شاهد آخر أنه بعد وفاة جوليلمو تم طرد أورسو، وأن الكنيسة تم احتلالها بواسطة السراسنة وزوجة الكونت برناردينو. وشهد في النهاية آخر بأنه كان ضمن الجيش الذي كان على الأسقف المختار رايموندو، أو غيره أن يتحرك به ضد الكونتيسة المذكورة. ومن الواضح أن هذه هي وثيقة مانفريدي التي نشر جريجوريو مستلة منها في Considerazioni، الكتاب الثالث، الفصل الأول، الهامش رقم ٥، إلخ. وكان بيرّو قد قرأ هذه الوثيقة، وربما غيرها، لأنه يذكر الأحداث نفسها في صفحة ٧٠٤ ويضيف أن أورسو قد تم إطلاق سراحه من جانب السراسنة في مقابل خمسة آلاف تاري. وكانت قلعة جواستيللا المهدمة لا تقع بعيداً عن رفّادالي، على بعد عشرة أميال شمال چرچنتي.

أحد البحرين إلى الآخر، من جرجنتى إلى تشيفالو: فقد تأكد منذ وقت قريب أن خزانة المملكة قد انتزعت ـ أمام مفوضى البابا ـ مالاً من تشيفالو ومن بوللينا، وهما تحت سيطرة الأسقف، للدفاع عنهما ضد المراسنة؛ وأنها أرسلت حامية إلى حصن تشيفالو، ليس فقط بناء على الحق الملكى، وإنما كذلك لتأمين المدينة الواقعة فى ماركا السراسنة(1).

وهذه التسمية، وهى تسمية عارضة كما يبدو أنها وردت إلينا فى هذا الموضع فقط، لا يمكن أن تعنى إلا جهة مختلطة السكان، معرضة للهجمات سواء لقربها من مقار المتمردين أو لكثرة القرويين المسلمين فى أراض مختلفة(2). وعلى هذا فإن ماركا كانت بالتقريب فى أقاليم بالرمو وترابانى وجرجنتى الحالية؛ وفى وادى مازارا فى القرن الماضى، وفى صقلية فيما وراء نهر سالسو فى عصر أسرة زهْيفو؛ وفى ولاية ليليبيتو عند الرومان. ويبدو أن ذلك التقسيم إلى إقليمين يحدهما نهر سالسو قد جرى بناء على مشورة قدمت إلى فدريكو على أساس الاختلاف فى النظم الاجتماعية وفى العادات. ومن الأحداث السابقة ومن الأفعال التالية، يبدو لى أن المسلمين كانوا يشغلون دائماً من هذه المنطقة وسطها الجبلى، حيث تحصنوا بها مع بداية القرن. إلا أننا نرى أن عددهم قد تضخم عند مصبى

---

(1) وثائق ديسمبر ١٢٢٤ و١٢٢٨ وأكتوبر ١٢٣٨، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٩١٨ وما بعدها، والمجلد الخامس، ص ٢٥١. والوثيقة الأولى تتناول فقط شكاوى ونداءات البلاط البابوى فى روما بشأن الأضرار التى وقعت لأسقف تشيفالو، والوثيقة الثانية تتعلق بتشيفالو وموريالى وكنائسها.

وبالنسبة لموريالى نستخلص أن السراسنة قد أخذوا الأسلاب حتى أسوار الكنيسة، وأنهم طردوا المسيحيين من كل الأماكن القريبة. ولكن الإمبراطور فى رده على الشكاوى يقول إن هؤلاء السراسنة لم يكونوا خاضعين له أو للبابا، وإنه قد تكلف بأعباء كبيرة ونفقات باهظة لكى يجبرهم على هذا، فكان له ما أراد.

(2) فى منتصف القرن الثانى عشر كان أسقف تشيفالو يمتلك قرويين مسلمين كثيرين، كما نلاحظ هذا من القائمة التى ذكرناها فى الكتاب الخامس، الفصل الثامن، ص ٢٠٥ و٢١١ من هذا المجلد.

نهر دراجو ونهر بلاتانى سواء بسبب تحركهم تحركاً جديداً أم لأن الفتات الذى بقى لنا من مذكراتهم التى حفظها لنا القدر، ترجع إلى تلك الفترة وإلى تلك المواقع.

وبدلاً من المائة ألف من السراسنة الذين كانوا مع روچيرو دى هوفدن(1)، فإن عدد محاربى لوتشيرا قد صار عشرين ألفاً، طبقاً لما ذكره چوفانى فيللانى(2)، ويذكر ريكاردو دى سان چرمانو، وشهادته اكثر مصداقية، أن عشرة آلاف جندى من السراسنة كانوا يتحركون من لوتشيرا تحت إمرة الإمبراطور فى سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين(3)، عندما لم يجر إقصاء كل مسلمى صقلية. ومن ثم يمكننا أن نفترض أنه كان موجوداً فى أراضى بوليا وحدها، نظراً للظروف الخاصة، حوالى خمسون ألفاً أو ستون ألفاً من السكان. ومن المعتقد أن عدداً مماثلاً، على الأقل، كان يقيم فى الجزيرة، هذا بخلاف الحرفيين وعمال المدن، الذين لدينا بعض المذكرات عنهم وبخلاف القرويين الذين احتفظ بهم أصحاب الأراضى بدافع المصلحة أو الشفقة، كما هو محتمل فى الأرياف. ثم إنه يبدو حقيقياً أن عدد المتمردين كان يختلف ويتغير من فصل إلى فصل بسبب القرويين الذين كانوا يفرون من الأجزاء الوسطى والشرقية إلى جبل وادى مازارا، أو على النقيض من ذلك كانوا يفرون من صفوف المتمردين ليذهبوا للعيش فى سلام(4). ويمكن أن نقدر - حسب رأيى - عدد المحاربين المسلمين فى ذروة الثورة بخمسة وعشرين أو ثلاثين ألف محارب.

---

(1) انظر الكتاب السادس، ص ٥٢٣ من هذا المجلد.

(2) چوفانى فيللانى، الكتاب السادس، الفصل الرابع عشر.

(3) ريكاردو دا من سان چرمانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦١٢.

(4) إن الاستقصاء المذكور فى وثيقة ٢٨ أكتوبر ١٢٢٨، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٢٥١، يفيدنا بأنه «فى زمن الحرب» هرب كثير من رجال الأملاك الأميرية إلى أملاك أسقف كاتانيا يدفعهم إلى هذا «المكان الآمن الخصيب»، وأن الأملاك الأميرية - حسب قوانين تلك الأزمنة - قد استدعتهم للعودة إلى مقارهم. وفى الحقيقة لم يقل إنهم كانوا مسلمين.

إن عادات تلك الشعوب التى لا تتغير والإشارات التى نراها فى المذكرات المعاصرة(1)، تؤكد أن الثوار كان يحكمهم، فى هذه الحركة أيضاً، قائد وشيوخ. وكان لهم قائد عسكرى سيئ السمعة لقى حتفه فى السنة الأولى من الحرب، نجد اسمه فى إحدى أخبار الوقائع بناڤرت، واعتقد انه خطأ فى تصحيح الاسم وقع فيه الناسخ الذى تذكر أنه قد قرأ أحوال آخر سادة المسلمين على سيراكوزا(2). أما نسخ ريكاردو دا سان چرمانو، وهو كاتب من ثقات الكتاب، فتذكر اسم ميرابتّو، وهو اسم افسده نطق المسيحيين الذين كانوا يكررونه: وقد تكون صحته مرابط أو كما نقول نحن، اخ محارب ومرابطو و«المُراڤيدا»(3). ويمكننا كذلك أن نفترض أن من أطلق عليه هذا الاسم هو رجل لقبه، مضاف إلى لقب مشهور، هو أمير بن عبس، وبالتالى ميرعبس. ويروى ابن خلدون فى تاريخ بنى حفص فى تونس، انه بعد وفاة السلطان أبى زكريا يحيى (٢ أكتوبر ١٢٤٩) هاجم مسيحيو بالرمو المسلمين الذين كان قد تعاهد مع صاحب الجزيرة على امنهم وسلامة ممتلكاتهم المدنية والريفية، وان المسلمين لاذوا بالفرار إلى القلاع والهضاب واتخذوا لهم رئيساً أحد الخارجين من بنى عبس وأنهم قاوموا المستبد المسيحى، وانه بعد محاصرتهم والإحاطة بهم واجبارهم على الاستسلام، نقلوا إلى لوچيره، وهى أراض إيطالية كثيرة السكان. وان المستبد قد مضى عندئذ إلى مالطة فطرد المسلمين منها وأرسلهم ليكونوا مع الآخرين. وبعد أن استولى على كل الجزر المجاورة محا اسم المسلمين من صقلية(4).

---

(1) سنذكر الاستشهادات فى بقية الرواية.

(2) من حاشية على راوى الأخبار مالاتيراً الذى كان يروى افعالاً كثيرة عن بناڤرت. فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥٠.

(3) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ٣٦٢ من هذا المجلد.

(4) فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٤٩١ وما بعدها وفى *Histoire des Berbères*، ترجمة البارون دى سلان، المجلد الثانى، ص ٣٣٥: الذى صار وفقاً لقراءة تركت اسم المكان خالياً. ولما لم يتذكر لوتشيرا وضع ملفى بين قوسين. ولعل الخطأ فى اسم العلم يكون يسيراً للغاية لو أن ريكاردو دا سان چرمانو كتب

وتطابق هذا الحدث واضح وضوح المفارقة التاريخية لمدة نصف قرن بالنسبة لبدء الثورة، ووضوح الخطأ فى سببها، ولكن هذه الأخطاء لا ينبغى أن تثير الشك فى اسم القائد العسكرى. ويبدو أن قبيلة عبس العربية القوية، والتى جاء منها الشاعر العربى الشهير والبطل المغوار عنتر، كانت تقيم منذ بدايات عصر الفتح الإسلامى لأفريقية فى شبه جزيرة شريق، المعروفة اليوم باسم دخل والتى تنتهى برأس بونه، أمام ليليبيو(1). ولعل بنى عبس قد جاءوا إلى صقلية مع الفاتحين؛ أو أن القبيلة قد ظلت فى دخل بينما ألقى أحد رجالها الأشداء بنفسه، ولعله كان قرصاناً، إلى صقلية عندما دقت طبول الحرب، لأن الصفة التى وصفه بها ابن خلدون تعنى المقاتل، أو العنيف أو المتمرد(2).

«ميرابس» ولو أن الناسخ افترض وجود اختصار فى المقاطع الأخيرة. ولا ينبغى أن تثير المفارقة التاريخية عند ابن خلدون العجب. فبالإضافة إلى أنه كان يكتب من الذاكرة فإن ميله العقلى إلى الترتيب كان يدفعه إلى توفيق التواريخ على الأقل مع الدوافع والأسباب التى يفترضها. ولعله أو لعل أحد مؤلفى المذكرات التى كان يستعين بها قد طبق خطأ على صقلية الشروط التى اتفقت عليها الحكومة الحفصية مع فدريكو بالنسبة لجزيرة بنتللاريا والتى سوف نتناولها فى الفصل التالى.

(1) البكرى. *Description de l'Afrique*. النص العربى ص ٤٥ وترجمة كاترمير، فى *Notices et Extraites*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠. حيث يؤكد أن شبه جزيرة شريق قد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى شريق بن عبس الذى كان أحد الحكام المسلمين. وكل من يعلم أهمية الروابط القبلية فى القرون الأولى من الإسلام سيعتبر إقامة القبيلة فى تلك الأنحاء إقامة مؤكدة. وليس انتقالهم إلى صقلية أقل احتمالاً لأن هذه العائلة كانت إحدى العائلات التى تمردت على إبراهيم بن الأغلب وبعد ذلك الوقت جال بخاطره أكثر من مرة أن يأخذ من تلك البقاع القوات التى كانت تُرسل إلى صقلية. ولقد تحدثنا مطولاً عن شبه الجزيرة هذه فى الفصل الرابع من هذا الكتاب. ص ٤٧٤.

(2) ورد فى نص ابن خلدون لفظ ثائر الذى يعنى المنتقم كما قد يعنى المهيّج أو الديماجوجى أو رئيس فرقة إلخ. وقد ترجمه البارون دى سلان ترجمة غير أمينة بقوله "aventurier". وينبغى أن نذكر أن إفريقية فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة من القرن الثانى عشر وفى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر كان يسودها الاضطراب من جراء رد فعل العرب والبربر المرابطين ضد حكم الموحدين، ومن هنا كان اجتياح المرابط ابن غانية، والحرب الطويلة التى دارت، وتأسيس الإمارة الحفصية فى النهاية فى تونس.

عبر فدريكو إلى الجزيرة فى شهر مايو من سنة ألف ومائتين وواحد وعشرين، وعقد اجتماعاً فى مسينا(1)، وتجول فى المدن الرئيسة حتى نهاية العام(2)، واهتم بكل تأكيد بإعداد النفوس والأمور للحرب متخذاً تدابير أهم من تلك التى نقرؤها فى التواريخ والوثائق(3). وهكذا وبينما كان يحدوه الأمل فى انتصار سهل أو بينما كان يقول هذا، مضى (فبراير ١٢٢٢) لزيارة أونوريو الثالث فى فيرولى، ووعده بأن ينادى بأسرع وقت بالصليب فى فيرونا؛ وما أن عاد إلى المملكة حتى أخذ فى الضغط والتضييق على كونت تشيلانو المتمرد، واضطر إلى أن يتركه لشأنه والعودة سريعاً إلى صقلية ضد مرابط الذى كان يعيث فساداً فى البلاد(4). وفى ظنى أن القضية كانت أخطر مما يقول رواة الأخبار التاريخية، لأن فدريكو كان قد أهان فى السنة السابقة رجال جنوة إهانة بالغة، وما كانت تنقصهم العزيمة أو الوسيلة للثأر؛ وفى الواقع نجد أن واحداً من أشجع بحارة أهلها كان ضالعاً فى ذلك التمرد.

وأماكن الحرب التى قادها فدريكو وتواريخها وفرقها تكاد تكون مجهولة: نعلم فقط أن الإمبراطور قد ظل منذ منتصف يوليو إلى ما بعد منتصف أغسطس يحاصر جاتو(5)؛ وأنه قد قبض هنالك أو فى

---

(1) ريكاردو دا سان جرمانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ١٦٩. وحسب قول المؤرخ فإن القوانين التى صدرت فى هذا الاجتماع هى من القوانين التى نطلق عليها الآن نظم الشرطة المدنية.

(2) الوثائق التى نشرها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، من ص ١٨١ إلى ٢٢٤، تدلل على أن فدريكو كان آنذاك فى مسينا وكتانيا وكلتاجيرونى وبالرمو وترابانى ثم فى بالرمو من جديد وجرجنتى وكتانيا. وتاريخ وجوده فى جرجنتى لايبدو لى مؤكداً: وتدعونى كلمات برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٢٣، الهامش رقم ١، إلى الاعتقاد بأنه هو نفسه يشك فى هذا التاريخ.

(3) من بين الوثائق الخاصة بصقلية فى هذه الفترة هنالك وثيقة واحدة جديرة بالانتباه، أى تأكيد الامتيازات الفريدة التى منحت لبالرمو سنة ١٢٠٠ وسنة ١٢١٠ أثناء طفولة فدريكو أو بالحرى أثناء الفوضى.

(4) ريكاردو دا سان جرمانو، المرجع المذكور، ص ٥٧١.

(5) انظر الوثائق التى وردت *"in castris in obsidione Jati"*، من ١٧ يوليو إلى ١٨ أغسطس ١٢٢٢: كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، من ص ٢٥٥ إلى ٢٦٥.

مكان آخر على مرابط وعلى اثنين من أبنائه مع جوليلمو بوركو الجنوى، الذى كان قبل وقت قصير قائداً للأسطول فى صقلية، وأوجوفير المارسيلى الذى كان قبل سنوات طويلة قد خدع آلاف الصبية الفرنسيين والألمان بزعم إرسالهم للحرب الصليبية ولكنه باعهم رقيقاً فى أفريقية وفى مصر. وبعد أحداث طويلة ألقى بنفسه مع الجنوى فى صقلية. وقد أمر فدريكو بشنق مرابط ورفاقه فى بالرمو، ولكن هذا لم يضع حداً ونهاية للحرب(1).

---

(1) قارن بهن: ريكاردو دا سان جرمانو. الموضع المذكور، والحاشية على مالاتيرا، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥٠. ويذكر أولهما فقط اسم مرابط، بينما تخطئ الثانية الاسم. ولكن اسم المكان الذى تضيفه (والمطبوع خطأ *Jacis*) لا يدع مجالاً للشك فى هوية الشخص. ويلاحظ أنونيمو الذى نشر عمله برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٩٥، أن فدريكو فى هذا الوقت انتصر على المتمردين كافة فيما عدا بضع قلاع للسراسنة تقع فى *arridis montibus*. ويتحدث باقتضاب عن نتيجة كافة حروب فدريكو ضد سراسنة صقلية كل من أنونيمو ڤاتيكانو (نيكولو دى چامسيللا)، وموناكو بادوڤانو، ورئيس دير اوسبرج، أى كواردو دى ليختناو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦٧٧ و٩٣٩ و٩٧١، وانونيمو ساسّونى، فى *Scriptores Rer. Germ.*، ليبزج، ١٧٣٠، المجلد الثالث، ١٢١.

وقصة الصبية المسروقين مذكورة فى أخبار البرتو تريومفونتيوم التاريخية، هانوفر ١٦٩٨، ص ٤٥٩ و٤٦٠. ونسب هذه الخيانة «كما يقال» إلى أوجوفير وجوليلمو بوركو، وهما تاجران من مرسيليا. وإذا استبعدنا وجود مصادفة تطابق الاسم وهو ما يبدو بعيداً عن الواقع، فإننا نستطيع تصحيح ما كان يجرى على ألسنة الناس، وكرره المؤرخ الألمانى، عن جوليلمو بوركو.

أن رجل البحر الباسل هذا، وهو من أسرة نبيلة فى جنوة، قد انتصر سنة ١٢٠٥ على بيزا أولاً فى معركة بحرية، ثم حرّر مع اريجو كونت مالطة مدينة سيراكوزا التى كان يحاصرها أسطول بيزا. وفى سنة ١٢١١ استولى على سفينتين من مارسيليا وقادهما إلى صقلية (*Annali Genovesi*، فى كتاب موراتورى، *Rer. Italic.* المجلد السادس، ص ٣٩١ و٤٠١). وفى سنة ١٢١٦ اصطحب الإمبراطورة كوستانسا وابنها اريجو من صقلية إلى ألمانيا، كما يتضح من وثيقتين فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٨٥ و٤٨٩: وتشير أولاهما إليه قائلة «اميرال مسينا»، وفى ثانيتهما يصفه أحد الشهود بأنه واحد من كبار رجال البلاط الإمبراطورى، يحمل لقب اميرال المملكة. ولكن فى سنة ١٢٢١ عندما انقلب فدريكو ضد الجنويين الذين كانوا يمسكون بزمام سيراكوزا ويتمتعون بأملاك وامتيازات فى كافة أنحاء المملكة، أمر - فيما أمر - بالقبض عليه، لكنه نجا بنفسه هرباً (*Annali Genovesi*، فى كتاب موراتورى، المجلد المذكور، ص ٤٢٢). وقد يكون حقيقياً أن جوليلمو بوركو، الذى كان بالضرورة مثل كل

وعبر الإمبراطور إلى بوليا ليستانف الحرب بقوات أكبر، وأخمد إوار التمرد الإقطاعي، وحصن المدن والقلاع وفي صيف سنة ألف ومائتين وثلاث وعشرين(1) عاد إلى صقلية ليتعقب عن قرب المتمردين المسلمين. ونقرأ بكل تأكيد أن جانباً منهم قد استسلم له فنقلهم إلى لوتشيرا؛ وأن جانباً آخر قد صمد صموداً قوياً لثقته في مناعة مواقعه وتحصيناتها(2). ويظهر لنا من وثيقتين أن الجانب

رجال البحر في ذلك الزمان قرصاناً إلى حد ما إن لم يكن لصاً بحرياً. قد حاول مساعدة متمردي صقلية وانضم بلا شك إلى ذلك البلطجي بائع الصبية. وكان هذا كافياً لأن يصفه الجبلليون بالشريك في هذا العمل المشين. كما يقول البريكو: ولا ندرى إن كان يشهر به أم يقول الحقيقة. واعتقد ان جوليلمو بوركو كان اميرال في صقلية، ولكنه لم يكن اميرالاً كبيراً، إذ ان هذا اللقب كان يطلق في ذلك الوقت على أريجو كونت مالطة. قارن بين: برهوللز. المرجع المذكور، *Introduction*. ص ١١٤، والسيد إد. وينكلمان، *De Regni Siculi administratione etc.* برلين. ١٨٥٩، ص ٤٠ و٤١، اللذين لا يوجد اتفاق بينهما.

(1) ريكاردو دى سان چرمانو. في كتاب كاروزو. المرجع المذكور. ص ٥٧٢. ونقرر حوليات سان رودبرتو دى سالزبورج، في كتاب برتز، *Scriptores*. المجلد التاسع، ص ٧٨٢ أن الإمبراطور لم يستطع، لانشغاله ببعض الأعمال في صقلية. الذهاب إلى معرض البارونات الألمان والإيطاليين الذى اقيم في فيرونا بمناسبة يوم القديس مارتينو ١٢٢٢.

(2) على الرغم من أن موراتورى في *Annali* يحدد سنة ١٢٢٤ تاريخاً للهجرة إلى لوتشيرا، إلا انه يبدو لى انها قد حدثت في العام السابق. قارن في هذا الشان بين: ريكاردو دى سان چرمانو. في كتاب كاروزو، المرجع المذكور. ص ٥٧٢، حيث ينبغى إضافة تاريخ ١٢٢٣؛ ورواة الأخبار المذكورين في اخر فقرة في الهامش رقم ٣ من صفحة ٦٠٠. ويذكر *Appendice al Malalerra*. المرجع المذكور، ص ٢٥١ (تحت الخمسعشرية الثالثة عشر. والسنة مطبوعة خطأ ١٢٣٢ وصححها موراتورى ١٢٢٤) يذكر أن الإمبراطور أرسل جيشاً جراراً ضد مسلمى صقلية. وانهم بقوا فرق الجبال، وأن الإمبراطور كان يلحق بهم اضراراً كبيرة كل عام، وانهم في النهاية «هبطوا بخزى شديد». فجعلهم يسكنون في سهول صقلية، في الكفور. وفي طبعة برتز، *Scriptores*. المجلد التاسع عشر. ص ٤٩٥، أضيف تاريخ سنة ١٢٢٤. وكما هو واضح لم ترد هنا أية كلمة عن نقلهم إلى ما وراء المضيق، وأن عمليات الجيش الملكى قد استمرت عدة سنوات. ويبدو لى أن هذه الفقرة لابد أن تضاف إليها سنة ١٢٢٥. وهي السنة التى توافق الخمسعشرية الثالثة عشرة المذكورة في نص الرواية التاريخية وتتفق مع شهادة كاتبين آخرين سنذكرهما فيما بعد.

الأول كانوا سكان إقليم جرجنتى الحالى(1)، ونعلم أنهم استسلموا مع بداية الصيف لأن فدريكو، فى رسالة كتبها آنذاك لكورادو أسقف هيلدشيم، أبدى سعادته بأن كل الأمور كانت تمضى طبقاً لإرادته «وأنه أنزل إلى السهل كل السراسنة الذين تحصنوا فى البداية بقمم الجبال وبمواقع حصينة أخرى»(2). وهذه الكلمات، إذا ما قرأناها بالكلمات التى كتبها الإمبراطور فى السنة التالية إلى البابا أونوريو، توضح لنا أنه بعد انتهاء المعارك والحصار قد أخذ يعول على خطة، طويلة المدى ولكنها أكيدة، لتجويع المسلمين بإتلاف محاصيلهم فوق الجبال وبالاستيلاء على أى مؤن أخرى. هكذا أجبر المبعدين إلى لوتشيرا على الاستسلام؛ وهكذا كان يأمل فى الانتصار على غيرهم: ولأن مثل هذه الحرب تتطلب أناساً كثيرين على درجة عالية من النظام فإن الإمبراطور، كما نستخلص هذا من ريكاردو دى سان جرمانو، قد استدعى فى سنة ألف ومائتين وثلاث وعشرين نفسها وفى السنتين التاليتين البارونات إلى الخدمة العسكرية واستقطع الأموال لتجنيد جنود مستقرين(3). وكانت حرب السراسنة سبباً وفى أحيان أخرى ذريعة، كما يبدو مما وقع للأربعة كونتات البر الإيطالى، الذين حضروا إلى صقلية لتقديم خدمتهم الإقطاعية (١٢٢٣) فقبض عليهم وصودرت ممتلكاتهم(4). كما أن رسالة فدريكو إلى أونوريو،

---

(1) نستخلص هذا من وثيقة عام ١٢٥٤، فى كتاب بيرّو، المرجع المذكور، ص ٧٠٤. وتحتوى وثيقة فدريكو بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٢٣٩ التى قام كركانى بنشرها أولاً ثم نشرها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٥٠٤، فيما تحتوى، على الإجراء الخاص بإنشاء كفر فى أراضى الدولة فى بورجيميللوزو (منفى)، وكفر آخر بين جرجنتى وشاكا، وكفر ثالث بين جرجنتى وليكاتا؛ مما يجعلنا نعتقد أن تلك الأماكن كانت على الأرجح غير مأهولة.

(2) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٩٣. والتاريخ الناقص يمكن استنباطه بالتقريب، لأن فدريكو يشير إلى القبض على والدمارو ملك الدنمارك الذى وقع كما نعلم فى ٩ مايو ١٢٢٣.

(3) ريكاردو دا سان جرمانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٧٣ و٥٧٤.

(4) المرجع المذكور، ص ٥٧٢.

التى أشرنا إليها تواً، تذكر واقعة حقيقية: وليس من قبيل الإفك والبهتان أن نؤكد أن الإمبراطور قد استخدم هذه الواقعة لكى يؤجل الحرب الصليبية التى كان أونوريو يريد إجباره عليها وإلا فسوف لا يسمح له بأن يطأ لومبارديا بقدميه. ولهذا كتب فدريكو إلى البابا من كتانيا فى الخامس من مارس سنة ألف ومائتين وأربع وعشرين أنه بينما كان يعد فى موانى المملكة (مائة شانية وخمسين سفينة لنقل الجياد. وسفناً ومراكب لانهاية لها). لكى تكون جاهزة للإبحار فى الصيف التالى، وبينما كان على أهبة الاستعداد للسفر إلى ألمانيا بهدف دعوة الصليبيين إلى السلاح، جاءه قائد عام الجيش الذى يحارب المراسنة إلى كتانيا ومعه قائد السراسنة وشيوخهم للتفاوض معه باسم سراسنة الجبل كافة على الخضوع. واستطرد فدريكو قائلاً إنه دعا مجلس الدولة وأبدى الجميع أنه لا ينبغى على الإمبراطور أن يبتعد فى هذا الوقت، خوفاً من أن يندم المتمردون على ما فعلوا فيطيلوا أمد المفاوضات حتى يحين وقت حصاد القمح فيذهب السلام أدراج الرياح فى تلك السنة! ويختتم الإمبراطور رسالته بأنه سيبقى فى صقلية حتى إتمام الاتفاق، وبأنه سيوفد هرمان، كبير معلمى الفرسان التيوتيين لدعوة الصليبيين فيما وراء الجبال، وأن كل الأمور فى الصيف ـ إن شاء الله ـ سوف تكون على أكمل وجه وسوف يقوم هو بأداء واجبه فى الحرب الصليبية(1). ولقد انتشر الخبر وذاع على السنة الجميع فى ألمانيا حسبما نقرا، مع وجود اختلافات طفيفة، فى حوليات كولونيا التى تضيف بأنه قد جرى الإعلان عن خضوع سراسنة جبل بلاتانو(2)، ولكننا لا نعلم إذا

---

(1) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٤٠٩ وما بعدها.

(2) *Annales Colonienses Maximi*، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد السابع عشر، ص ٨٣٧. وكان برهوللز قد ذكر فى أسفل الوثيقة التى ذكرناها فى الهامش السابق الفقرة نفسها باسم جوفريدو دى كولونيا، طبقاً لما ذكره بوهمر، *Fontes*، المجلد الثانى، ص ٢٥٥.

كان المقصود به القلعة الحصينة التى يطلق عليها الاسم نفسه والتى كانت تقع على شاطئ نهر بلاتانى على بعد سبعة أميال من منبعه، أو أن المراد هو كل المنطقة الجبلية التى يمر بها ذلك النهر(1). والواقع هو أن فدريكو لم يسافر آنذاك إلى أرض المقدس؛ ولم يخضع المسلمون او يتصالحوا فى صقلية. ويبدو أن العملية الوحيدة التى جرت سنة ألف ومائتين وأربع وعشرين هى انه تم طردهم جميعاً أو طرد جزء منهم من مالطة؛ لأننا، بالإضافة إلى إشارة ابن خلدون، نستخلص أن فدريكو كان يبعث إلى هذه الجزيرة بسكان تشيلانو دى بوليا، الذين تم طردهم من أراضيهم عندما استولت عليها قوات الملك، ثم تم استدعاؤهم إلى بلادهم، حتى يمكن إيقاعهم فى الشبكة

---

(1) طبقاً للإدريسى كانت أراضى بلاتانو الشاسعة، وهى ذات موقع حصين وأرض خصبة، تقع على الشاطئ الأيسر للنهر الذى يطلق عليه الاسم نفسه على مسافة سبعة أميال من المنبع (المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٤٨ وص ٥١)، ويقول فانزيللو كذلك بوقوع جبل بلاتتللو ـ الذى كان يطلق عليه هذا الاسم آنذاك ـ على الشاطئ الأيمن لنهر بلاتانى ولم تكن به آثار مدينة قديمة (العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الثالث)، وهكذا فإن الموقع قد يطابق ما يطلق عليه الآن جبل سارا، فيما بين بلدتى كاتوليكا وريبيرا الحاليتين، اللتين تم تأسيسهما فى القرن السابع عشر (اميكو، *Dizion. Topogr.*). ولكن الأخبار والمعلومات المفصلة التى طلبتها، نظراً لأنى لم أقم بزيارة تلك الأماكن ولأنى لم أرد الاكتفاء الخرائط الطبوغرافية، تدفعنى إلى الشك والارتياب. وقد تفضل البارون سبوتو، عمدة كاتوليكا (١٨٧٠) الذى لجأت إليه، بأن أرسل إلى خريطة قام برسمها فنى المساحة الزراعية السيد ديونيزيو ميتشلى، مزودة بملاحظات طبوغرافية، أرى فيها أن جبل سارا، الذى يمكن الولوج إليه من الجوانب كافة، خال من الآثار القديمة، وأنه على النقيض من هذا فإن الشاطئ الأيسر للنهر، على مسافة قريبة من كاتوليكا، توجد به تلال وعرة أخرى مليئة ببقايا أسوار وخزانات ومقابر وبمختلف الدلائل على وجود مساكن كبيرة وعتيقة. وينبه كذلك السيد ميتشلى إلى أن نهر بلاتانى قد غير حوضه أكثر من مرة وأنه ابتلع جسوراً كثيرة. ومن ناحية أخرى فإن خريطة قيادة الأركان تظهر لى جبل ميللاجا (ملجا أى مخبأ؟) يقع إلى الشمال فى اتجاه تشنشانا، وبه قلعة لعلها هى المذكورة فى خريطة ١٨٢٦ باسم «لاكالاتا». ولهذا فمن المناسب أن نرجئ الحكم على تطابق الموقع. ولكنه مع هذا لابد أن يكون داخل إطار شكل رباعى بين كاتوليكا وتشنشانا من ناحية الجنوب الشرقى ونهر مكاسنولى فى الشمال الغربى.

ونقلهم إلى صقلية(1). ويبدو أن إبعاد المسلمين من مالطة مسألة حقيقية تماماً لأن رجال فدريكو فى ذلك الوقت عاثوا فساداً فى جزيرة جربه وأخذوا منها عدداً ضخماً من الأسرى(2). ويرجع احتلال الجزر الصغيرة المجاورة لصقلية، كما يشهد بهذا المؤلفون العرب واللاتين على حد سواء، إلى ذلك الوقت نفسه(3). ويبدو أن هذه العمليات البحرية، التى تمت فى فصل أو فصلين، كانت أولى تجارب الأدميرال، ولعله كان من جنوة، الذى أخذ مكان اريجو كونت مالطة، الذى تم عزله وحرمانه من إقطاعيته لما نسب إليه من إهمال فى الحرب ضد مسلمى مصر أو - كما قال آخر - ضد مسلمى صقلية(4): إلا إذا كان فدريكو قد انتهز الفرصة ليتخلص من البحار المتغطرس، الذى خشى بأسه وطموحه بكل تأكيد فى السنوات الأولى

---

(1) ريكاردو دا سان جرمانو، المرجع المذكور، ص ٥٧٣، سنة ١٢٢٤.

(2) *Appendice al Malaterra*، تحت سنة ١٢٢٣، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥١. ونجد هذه الواقعة تتكرر عند الراهب كورادو، المرجع المذكور، ص ٤٩، وهذه الفقرات نجدها دون بدائل مهمة فى برتز، *Scriptores*، ١٩، ص ١٩٥.

(3) ابن خلدون، الذى سبق ذكره فى ص ٥٧٠، الهامش رقم ٤، وانونيمو سكسونى، فى *Scriptores Rerum German.*، ليبزج، ١٧٣٠، ٣، ص ١٢١.

(4) نقل الرأى الأول ريكاردو دا سان جرمانو، سنة ١٢٢١، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٦٩؛ والرأى الثانى ورد فى *Annali Genovesi*، سنة ١٢٢٢، فى كتاب موراتورى *Rer. Ital. Script.*، المجلد السادس، ص ٤٣٢ . ومن بين هذين المؤلفين المعاصرين الجديرين بالثقة، يبدو لى أن الجنوى قد ذكر السبب وذكر الثانى وهو مواطن صقلى الذريعة التى أذاعها فدريكو لكى يصطاد عصفورين بحجر واحد، أى أن يتخلص من الأميرال ويقدم ضحية نبيلة أخرى للبابا الذى لصق بفدريكو ضياع دمياط وجيش الصليبيين الذى تقدم بشكل جنونى نحو المنصورة.

ويبدو مؤكداً أن الأسطول الصقلى المكون من خمس وأربعين شانية، قد وصل إلى دمياط بعد استسلام الجيش الصليبى، وانه بعد أن علم بهذا استأنف الرحيل عنها فوراً. يشهد على هذا **تاريخ بطاركة الإسكندرية**. النص فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٢٢. وقد أخذ السيد رينو عن هذا المصدر التاريخى، ...*Extraits relatifs aux Croisades*، ص ٤١٧ . ولكن هناك وثيقة تدل على أن قادة الأسطول الصقلى إنما كانوا يريدون الدفاع عن دمياط. وهى فقرة من رسالة معلم رجال المعبد الكبير، التى طبعها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٠١، الهامش رقم ١: وقارنها بالوثيقة الأخرى الموجودة فى المجلد نفسه، ص ٢٥٥، الهامش رقم ١.

من حكمه وأخذ الآن يشك فيه لصداقته القديمة مع أهل جنوة أو لأنه كان مثار شك أهل بيزا الذين كانوا يناصرون الإمبراطورية(1).

وطبقاً لما يقوله ريكاردو دا سان جرمانو، دعا فدريكو فى سنة ألف ومائتين وخمس وعشرين البارونات التابعين للمملكة إلى حمل السلاح لكى يسدد الضربة الأخيرة لمسلمى صقلية، وذهب هو نفسه إلى بوليا ليجمع الجيش(2)؛ وطبقاً لما يقوله راهب المانى من المهتمين بجمع الأخبار الجديدة، فإنه حاز نصراً غالياً على السراسنة الذين كانوا يسيطرون على جبال صقلية(3)؛ ثم هناك كانت مجهول يبدو أنه عاش فى صقلية وكتب فيما بعد منتصف القرن

---

(1) انظر فى *Liber Jurium reip. Januensis N°.D*. العامود ٥٥٣ وما بعده اتفاقية كونت مالطة هذا مع جمهورية جنوة (٢٥ يوليو ١٢١٠) لشراء جزيرة قبرص. ويشير الكونت إشارة عابرة إلى خضوع مالطة لفدريكو، ومع هذا يجرى اتفاقاً وكأنه أمير ذو سيادة. قارن ما يقوله عن أميرالات فدريكو، برهوللز، المرجع المذكور، المقدمة، ص ١١٤ وما بعدها، وانظر كذلك وينكلمان، المرجع المذكور، ص ٤٠ وما بعدها. ولقب كونت مالطة المذكور فى هذه الوثيقة يدفعنى إلى الاعتقاد بأن أريجو كان منذ ذلك الوقت أميرالاً كبيراً. لأن هذه الإقطاعية قد تم منحها بعد ذلك لأميرالين كبيرين هما مارجريتونى البرنديزى وجوليلمو الجروسّو، حما أريجو. ويبدو أن أريجو الذى كان لقب عائلته أو كنيته بسكاتورى كان من مواليد جنوة. فأثناء صبا فدريكو كان يساعد على الدوام بقوات بحرية أهل جنوة فى معاركهم المتكررة مع أهل بيزا فى مياه صقلية. عن هذه المعارك انظر ص ١٢٠٤ وص ١٢٠٥ إلخ من حوليات جنوة فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic.*، المجلد السادس، ص ٢٨٩ وص ٣٩١، إلخ. ومع ذلك فإنى لا أتفق مع برهوللز فى أن أريجو بسكاتورى قد اختير أميرالاً كبيراً لصقلية بعد الجور الذى أصاب جوليلمو بوركو الذى تحدثنا عنه فى الهامش رقم ٣ من صفحة ٦٠٠ وما بعدها. ويبدو لى بالأحرى أن جوليلمو كان فى سنة ١٢١٦ برتبة أميرال عادى، كما كان غيره فى سنة ١١٢٦ و١١٣٢ و١١٤٢ و١١٥٧ تحت كبار الأميرالات چورچ الأنطاكى ومايونى دا بارى (الكتاب الخامس، الفصل الأول، ص ٢٥٥ و٢٥٦ من هذا المجلد). ومن ناحية أخرى فإن فرار جوليلمو والنائبة التى حلت بأريجو، الذى تم سجنه وتم تجريده من إقطاعية مالطة، قد وقعتا فى الوقت نفسه تقريباً. فقد كان كلاهما من جنوة أو من أنصار جنوة المتحمسين لها، وقد نزلا إلى بلاط فدريكو معاً بناءً على سمعة تلك الجمهورية؛ إلا أن أريجو، بعد أن خضع برأسه قليلاً، عاد ورفعها بينما قام جوليلمو بأعمال عنف واضحة ففقد حياته فيها.

(2) ريكاردو دا سان جرمانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٧٤.

(3) البرينتشى ترييوم فونتيوم، *Chronicon*، هانوفر ١٦٩٨، ص ٥١٨.

الثالث عشر؛ وقد جمع هاتين الواقعتين معاً وصاغهما بالكلمات ذاتها فى الخمسعشرية الثالثة عشرة الموافقة لسنة ألف ومائتين وخمس وعشرين ـ حسب ما أعتقد ـ ويضيف أن رجال الإمبراطور كانوا يخرّبون فى كل سنة أراضى المسلمين، ولهذا فإنهم كانوا يضطرون إلى النزول فى خزى كبير من فوق جبالهم وكان فدريكو يجعلهم يسكنون فى كفور السهل(1). ثم لم يذكر الكتّاب كما لم تشر الوثائق لمدة ثمانية عشر عاماً إلى شعوب مسلمة متمردة: بل إنها تقدم أخباراً عن أفراد من المسلمين الخاضعين فى الجزيرة وعن الفرق الضخمة التى كانت تمد بها مستوطنة لوتشيرا جيوش الإمبراطورية فيما بين جريليانو وجبال الألب. ويمكن أن نستخلص من هذه الدلائل أن الجيش الضخم الذى تم حشده فى سنة ألف ومائتين وخمس وعشرين قد حقق النتيجة التى أرادها الإمبراطور: أى أن يرضخ المتمردون دون قتال. كما أن الافتراض القائل بأن مسلمى إقليم جرجنتى قد تم إرسالهم إلى البر الإيطالى مثلما حدث مع المهزومين قبل سنتين، افتراض قابل للتصديق(2)؛ وكذلك أن مسلمى الإقليمين الآخرين قد تم تركهم يمتلكون الأراضى أو يمارسون الصنائع بعد أن قدموا الرهائن طبقاً لعاداتهم. ومن المؤكد أن مسلمى صقلية لم يثيروا القلاقل من بعيد أو قريب على الإمبراطور حتى سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين، بينما كان هو يعمل فى حروب فلسطين، والمملكة، ولومبارديا وشرق صقلية.

خلال حماسه الأول عند توليه الإمبراطورية كان فدريكو قد نذر أن يحمل شارة الصليب(3)؛ وجدد نذره يوم تتويجه وأقسم أكثر من

---

(1) *Appendice al Malaterra*، سبق ذكره فى ص ٥٧٤. الهامش رقم ٢.

(2) هذا ما أظنه لأنه فى تمرد سنة ١٢٤٥ لا يظهر مسلمون فى تلك المنطقة، ولأن كل فلاحى كنيسة أجريجنتو كانوا قد مضوا إلى لوتشيرا. كما رأينا فى صفحة ٥٧٥، الهامش رقم ١.

(3) راينالدى، *Ann. eccl.*، ١٢٢٠، § الواحد والعشرون، ص ٤٧٤ من طبعة لوكّا. ريكاردو دا سان جرمانو، السنة ١٢١٥، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٦٤.

مرة ووعد أن يذهب إلى الحرب الصليبية، تحت ضغط الباباوات، الذين لعلهم لم يحلموا باستعادة القبر المقدس ولكنهم كانوا مهتمين بأن يذهب الإمبراطور إلى المشرق - بدلاً من أن يتصيد على إيطاليا - لينال منه ما ناله كورادو أو ليلقى فيه حتفه مثل بارباروسا. ولأن حفيد هذا لم يكن قادراً على التحلل من النذر الذى تعهد بأن يفى به والذى طوق به عنقه، فإنه طلب إلى البابا الذى كان يضغط عليه الحذر والاحتراس، وكثيراً ما تذرع بحرب السراسنة الصقليين(1). لقد كان ماكراً ضد ماكرين، وقضى عام ألف ومائتين وأربعة وعشرين كله والشهور الأولى من السنة التالية فى صقلية، قابعاً فى الغالب فى كتانيا(2)، وكأنه كان يريد أن يوازن بين الحرب الصليبية وحرب المسلمين المحليين. فينظر من ناحية إلى أوترانتو وبرنديزى وهما ملتقى أساطيل وجيوش الصليبيين ومن الناحية الأخرى إلى طريق جرجنتى، فهو من هنالك أكثر أمناً من طريق بالرمو وأيسر وأقصر من طريق مسينا. ولما لم تعد ذريعة السراسنة قائمة، ومع ملاحقة جريجوريو التاسع العنيف له، أبحر من برنديزى، على الرغم من الوباء الذى كان يحصد الصليبيين حصداً (٨ سبتمبر ١٢٢٧)؛ وعاد إلى اليابسة مريضاً، فحرمه البابا وهاجمه بالسيف؛ وسافر مرة أخرى (٢٨ يونيه ١٢٢٨) بقوات قليلة معولاً على انقسام الأمراء الأيوبيين الذين كانوا يحتلون سوريا، وعلى المفاوضات التى كانت تجرى مع أقواهم. ولاحقه جريجوريو بغضبه المدروس بينما كان هو يحرر القبر المقدس؛ وتذرع مسيحيو تلك النواحى بالحرمانات ليحولوا دون ارتقائه عرش القدس الذى قدم له دوطة من عروسه الجديدة؛ ومع كل هذا فإنه بحكمته وإقدامه انجز الاتفاق، كما سنذكر فى الفصل التالى.

---

(1) انظر وثيقة سنة ١٢٢٤، التى ذكرناها تواً بصفحة ٥٧٦، الهامش رقم ١.

(2) انظر تواريخ وثائقة بدءاً من فبراير ١٢٢٤ وحتى مارس ١٢٢٥ فى كتاب برهوللز. المرجع المنكور، المجلد الثانى، من ص ٢٩٨ إلى ص ٤٧٧.

عاد فدريكو إلى إيطاليا بعد أحد عشر شهراً ليطرد أتباع البابا من مملكته ويعاقب الرعايا الذين ارتموا فى أحضانهم. وأجبر البابا على أن يتعهد بالسلام وانزلق فى حروب رابطة لومبارديا الثانية. وفى اضطهاد آباء إيطاليا والمانيا: إن لعنة الإمبراطورية الرومانية الزائفة كانت تجر هذا الرجل المتحضر إلى أن يحارب الحرية حرباً عمياء وإلى إشعال حرائق التفتيش. إن مشاعر الحرية البلدية التى صحت مرة أخرى فى صقلية بين الشعوب اليونانية وبقدر ما بين الشعوب اللومباردية، بسبب قدوة الجولفيين فى البر الإيطالى وبسبب تحريض الرهبان وكذلك أهل جنوة - حسبما أعتقد - أدت إلى ظهور الحركات التى قمعها فدريكو بالتعذيب فى مسينا(1) وسيراكوزا(2) ونيقوسيا، والتى عاقب عليها فى تشنتوربى وكابيتسى وترائينا ومونتالبانو بهدم المساكن وطرد السكان الذين أجبرهم على الإقامة فى مدن أخرى(3). ولكن فدريكو رضخ إلى حد ما للرأى العام فجمل فى الوقت نفسه اجتماعات المجالس المحلية اجتماعات اعتيادية ودعا إليها صراحة البلديات(4).

وقد ساندته ودعمته فى حروبه بالبر الإيطالى الجاليات

---

(1) ريكاردو دا سان جرمانو. سنتا ١٢٣٢ و١٢٣٣ و*Appendice al Malaterra*، سنتا ١٢٣٢١ و١٢٣٢، فى كتاب كاروزو. المرجع المذكور، ص ٦٠٥ و٦٠٦ و٢٥١.

(2) Appendice al Malaterra، الموضع المذكور.

(3) ريكاردو دا سان جرمانو، المرجع المذكور، سنة ١٢٣٣، ص ٦٠٧، يذكر هذا بشأن تشنتوربى فقط. ويضيف أنونيمو الفاتيكان (نيكولو دى چامسيللا) المرجع المذكور، ص ٦٧٨ إلى اسم تشنتوربى المدينتين الأخرتين ولكنه لا يذكر زمن تدمير أى منهما. وبقراءة إحدى وثائق سنة ١٢٣٩ (كركانى، ص ٢٩٧ وبرهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٥٩٦) فإنه يبدو أن أمر الإمبراطور كان أمراً واحداً وهو أن يقيم سكان تشنتوربى وكابيتسى سابقاً فى بالرمو وأن يعاقب كل من يأويهم فى مكان آخر بصقلية. وهذا الإجراء نفسه مذكور فى وثيقة ٢٧ فبراير ١٢٤٠، فى كتاب كركانى، ص ٢٥٢ وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ص ٧٧٠. ويقول أنونيمو، فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٩٠٥، إن تشنتوربى وترائينا ومونتالبا وأراض أخرى من أراضى صقلية قد هدمت ودمرت أساساتها. ومن أسماء المدن استنتج أجناس سكانها.

(4) انظر جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثالث.

الإسلامية الصقلية، التى كانت مستقرة فى البداية فى لوتشيرا، ولكننا نجد جالية أخرى فى چيروفالكو ونستخلص كذلك أن الإمبراطور كان يستخدم رجال هاتين الجاليتين فى مجموعات صغيرة فى بوليا وكلابريا لأغراضه(1): وكان أكثرها فائدة وربحاً هو عملهم بالمقاسمة فى رعاية قطعان الماشية سواء الأليفة أم غير المستأنسة(2). ولكن المسلمين كان يتأجج فى صدورهم الحنين إلى وطنهم ومكان ميلادهم، ولهذا كانوا كلما لاحت لهم الفرصة يحاولون العبور خفية إلى صقلية(3): ولهذا فقد أمر فدريكو فى سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين بجمعهم فى لوتشيرا(4). وهكذا بقت هناك حتى سنة ألف وثلاثمائة وثلاث هذه الجالية العسكرية الشهيرة: ونلاحظ فى ذلك المكان آثار الحصون التى كان الأمراء الزهيفيون يضمنون إقامة جنودهم المخلصين فيها(5). وإذا كان اسم هذا المكان كثيراً ما جاء فى الكتابات المعاصرة نوتشيرا، فإن هذا خطأ يرجع إلى الاستخدام الشائع الذى كثيراً ما يستبدل الكلمات غير المعتادة بكلمات شائعة: ومن هنا فضلت استخدام صيغة مأخوذة من لفظ شائع على اسم مدينة قديمة، ساءت أحوالها سوءاً بالغاً فى

---

(1) وثيقة ١٦ ديسمبر ١٢٣٩، فى كتاب كركانى، ص ٢٩٤ وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ص ٥٩٠.

(2) طبقاً لما جاء فى وثيقة ٢٥ ديسمبر ١٢٣٩، فى كتاب كركانى، ص ٣٠٧، وفى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨، فإن فدريكو كان يأمر بأن يسلم *ad partem* (ثم قيل *ad laborem*) ألف رأس ماشية إلى سراسنة لوتشيرا كما كانت تسلم لهم من قبل فى صقلية فى عصر جوليلمو الصالح.

(3) وثيقة ١٦ ديسمبر، المذكورة سابقاً.

(4) وثيقة ٢٥ ديسمبر ١٢٣٩ التى نشرها كركانى بصفحة ٣٠٧، والموجودة فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٦٢٦، ٦٢٧.

(5) بسخاء المرحوم دوق لينز (هونورى ثيودوريك) فإن آثار قلعة لوتشيرا قد تم عرضها من خلال نص كتبه هويللارد برهوللز، وأشكال توضيحية رسمها هيكتور بلتارد فى الكتاب الذى يحمل عنوان *Recherches sur les Monuments etc., dans l'Italie Méridionale*، باريس، ١٨٤٤. انظر أيضاً ما كتبه عنها مؤخراً برهوللز نفسه فى *Historia Diplomatica etc. Introduction*، ص ٣٧٥ وما بعدها.

بدايات القرن الثالث عشر. ولقد تأكد الخطأ وتوطد بسبب ظرفين عرضيين، أى أن اسم نوتشيرا كان يطلق على المدينة التى سكنها الوثنيون ومن بعدهم المسيحيون أيضاً، وأن لوتشيرا كان يطلق على المدينة التى سكنها المسلمون، وأن كليهما كانا لزمن طويل مقرين أسقفيين. ثم أن كلا من هاتين المدينتين كانت تقع على مسافة بعيدة جداً عن الأخرى ويفصل بينهما جبل الأبنين: ولوتشيرا فى كابيتاناتا، ونوتشيرا فى برينشيباتو، أو إن أردنا استخدام الأسماء الحديثة: كانت لوتشيرا فى إقليم فوجا، بينما نوتشيرا فى إقليم سالرنو؛ وليس هناك أى وثيقة تدلل - كما أن هذا بعيد عن الحقيقة - على أن فدريكو قد جمع جالية ثانية من المسلمين فى نوتشيرا، كما كتب بعض الكتاب وكما يقال اليوم أيضاً فى تلك البلدان(1).

إن نظم هذه الجماعة والشهرة التى نالتها فى الحرب طوال ما بقى من حكم أسرة زفيفيا وفى بدايات حكم الأنجوئيين لجديرة بأن تكون موضوعاً خاصاً فى دراسة التاريخ، ويجب قبل كل شئ أن تتم - لهذا

---

(1) يبدو أن الخطأ خطأ معاصر لأن الرسالة التى كتبها جريجوريو التاسع إلى فدريكو (فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٤٥٢) طالباً منه فيها أن يجعل أولئك السراسنة «الذين يقال عنهم إنهم يفهمون الإيطالية جيداً» يستمعون بصبر إلى الرهبان الوعاظ، وتذكر المدينة باسم *Nuceria Copitanatae*. واسم الإقليم لايدع مجالاً للشك فى المدينة المذكورة. ولكننا نقرأ فى كتاب ريكاردو دا سان جرملنو، وفى وثائق فدريكو ووثائق الفاتيكان الكثيرة، اسم لوتشيرا قراءة صحيحة. وقد لاحظ تبديل الاسم جوفانى فيللانى، الكتاب السادس، الفصل الرابع عشر، حيث تحدث عن سراسنة «لينشيرا، وهى اليوم نوتشيرا فى بوليا»؛ ولكن كتاب المدونات، نسوا هذا التنبيه وتناقلوا من جيل إلى جيل هذا الخطأ الذى لعله سيبقى زمناً طويلاً فى أفواه وفى كتابات من يدرس التاريخ فى الموجزات غير المدققة. ومن الخطأ كذلك القول بأن نوتشيرا بإقليم برينشيباتو قد تغيرت كنيتها فى عصر كارلو دانجو الثانى كما يسود الاعتقاد. وهناك وثيقة ترجع إلى سنة ١٢٢١، مأخوذة من *Bullario Cassinese*، ومذكورة فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١١٩ تطلق عليها اسم "*Nuoceria Christianorum*". ويبدو حقيقياً أن صفة "*Paganorum*" قد أطلقت عليها بسبب القرى الكثيرة المحيطة بها، أو بسبب تأخر اعتناق هؤلاء السكان المسيحية. انظر بانتشيكيللى، *Il Regno di Napoli in prospettiva*، نابولى، ١٧٠٣، الجزء الأول، ص ١٩٥؛ والجزء الثالث، ص ١٠٦، فى فصلى نوتشيرا ولوتشيرا

الفرض ـ دراسة سجلات الأنجونيين صفحة بعد صفحة وكذلك الرقوق المعاصرة الكثيرة المحفوظة فى محفوظات نابولى. إن رغبتى التى صرحت بها قبل سنوات عديدة القيام بهذا العمل والذى كانت تعوزنى آنذاك الوسائل للبحث عن مصادره، قد أحجم عن القيام به لأنه يبدو لى الآن أن الأوان قد فات(1). ومع كل هذا فإن الموضوع يدفعنى إلى البحث عن أصل ذلك الشعب، وأقول إننى أعتقد أنه كان شعباً صقلياً تماماً. ولو لم تكن أخبار ماتيو سبينيللى التاريخية مثار شك الآن من رأسها إلى عقبها لشككت فى ذلك الموضع الذى يؤكد فيه أن فدريكو قد جلب فى سنة ألف ومائتين وأربع وثلاثين إلى كلابريا سبع عشرة جماعة من مراسنة البربر. إن أمراً خطيراً إلى هذا الحد، يسكت عنه المعاصرون، ولا يتفق مع ظروف مسلمى شمال أفريقية فى ذلك العصر، يبدو أنه قد كتب وصيغ فى الوقت الذى كان فيه الباحثون، لعدم معرفتهم بتاريخ مسلمى صقلية، لا يجدون فيه تفسيراً آخر لذلك العدد الكبير من المسلمين الذين كان يقودهم الإمبراطور فدريكو فى حروبه(2).

وبينما كان المبعدون إلى ماوراء الفارو يرتبون أمورهم فى الموطن الجديد، فإن الذين بقوا فى صقلية أبعدوا جزئياً عن مواطنهم، ويشهد حجم سجلات فدريكو التى وصلتنا والتى كتبت فى المراسيم الصادرة فيما بين سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين وألف ومائتين وأربعين أنه قد تم إرسال مسلمين للخدمة، ولا نعلم إن كان بوصفهم جنوداً أو عمالاً يدويين، فى القلاع الملكية فى سيراكوزا ولنتينى(3)، أى فى أقصى الطرف الآخر من الجزيرة. وفى السنة نفسها فإن

---

(1) المقدمة، ص ٢٠ و٢١.

(2) علمت أن باحثاً من نابولى يستعد للتفنيد رأى برنهاردى ودحضه الذى يقول بأن أخبار سبينيللى التاريخية زائفة. ولذا فإنى انتظر هذا الدفاع قبل أن أصدر حكماً على مسألة بهذه الخطورة.

(3) وثيقة ١٧ نوفمبر ١٢٣٩، كركانى، ص ٢٧٠؛ برهوللز، المجلد الخامس، ص ٥٠٩.

سكان الكثير من الكفور التى كانت على ما أعتقد تابعة لبالرمو، والذين لم يتمردوا أو لم ينالوا الصفح والعفو، كانوا يأتون إلى العاصمة، إلى حى سرالقاضى، الذى كان يطلق عليه فى القرن العاشر حى سكيافونى والذى يسمى جزء منه اليوم كابو وجزء آخر بنديبرا. ولما كان يبدو أن أولئك لم يحزموا أمرهم للاستقرار هنالك، كما كان يرجو الإمبراطور، فإنه كتب إلى موظفيه أن يشجعوهم بشكل فعال على ذلك، وأن يعدوهم بالمنن والنعم، وأرسل للغرض نفسه رسائل ملكية موجهة إلى السراسنة(1). ويوجد مكتوب آخر لفدريكو، تم ترويجه قبل أو بعد هذا، يفيدنا بأن أمين إقليم ما وراء نهر سالسو قد أقنع السراسنة بتحسين مساكنهم الوضيعة، وقد نال هذا رضا الإمبراطور، وأنه يعد العدة لتفويض من يجمع الرسوم والضرائب من هؤلاء السراسنة، ويظهر كذلك سعادة الإمبراطور بأن سكان «الإقليم، قد قرروا التوقف عن، عاداتهم وأعمالهم الخفية، وانهم يخشون أن يصبحوا أشراراً»(2). ولا نعلم من أية أمة كان أولئك الرجال فى سنة ألف ومائتين وأربعين الذين كانوا يسكنون كفور أركوراتسى وأندرانى والذين صدرت الأوامر لهم بالانتقال إلى الكفور الجديدة التى تم بناؤها شرقى وغربى چرچنتى(3). بل لدينا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه فى سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين كانت أراضى تشيفالا فى إقليم بالرمو لاتزال مأهولة، كلها أو بعضها، بفلاحين مسلمين. ولما كان جوفريدو، وهو كاهن كنيسة بالاتينا فى بالرمو، لا يعلم على وجه التدقيق حدود ضيعة خاصة بمستشفى سان لورنسو فى تشيفالا، والتى كانت فى حيازته وقدمتها له كنيسة چرچنتى، فإنه طلب من

---

(1) جزء غير منشور من سجل فدريكو، أخرجه إلى النور برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(2) وثيقة ١٦ ديسمبر ١٢٣٩، كركانى، ص ٢٩٧: برهوللز، المجلد الخامس، ص ٥٩٥ و٥٩٦.

(3) وثيقة نوفمبر ١٢٣٩، التى ذكرناها قبلاً، فى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ص ٥٠٥.

أمين صقلية أن يتم تحديد حدودها بواسطة رجال القانون فى أراضى ڤيكارى القريبة بناء على شهادة الرجال الصالحين والشيوخ. وقام الأمين، واسمه أوبرتو ڤاللاموناكا، بعد أن استوضح تلك الحدود كما طلب منه، بإرسال شهادة باللغتين العربية واللاتينية، ووضع خاتمه فى نهاية الرق وأضاف بالعربية الصيغة، «تحرر بأمرنا». ولأن الوثيقة ليست مستخرجة من دفاتر قديمة بتلك اللغة، بل هى وثيقة جديدة، فإنه يبدو لى واضحاً أن المُحرِّر العربى قد حُرِّر لاستخدامه من جانب سكان المكان(1). وتدلل على استمرار وجود المسلمين فى ڤال دى مازارا وحياتهم حياة الرعاة، محرَّرات نوفمبر سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين ومارس سنة ألف ومائتين وأربعين: وتتناول أولاهما تحصيل الإيجار من السراسنة الذين يرعون بالتقاسم قطعان الدولة(2) وتشير ثانيتهما إلى سبعمائة من النعاج قام بتسليمها جوفولونى (خلفون؟) المسلم، وكانت تقدم مثل غيرها ضريبة، لحساب البلاط(3).

---

(1) نشر بيرّو جزءاً من المحرر اللاتينى من هذه الوثيقة، فى المرجع المذكور، ص ٧٦٤، دون أن يشير إلى النص العربى المكتوب فى بداية الرق الأصلى. ولقد قمت بنسخ النص فى جرجنتى فى شهر مايو ١٨٦٨ عندما طلب منى تصبيره المحامى جوزيبى بيكونى وهو من المهتمين والمحببن لتاريخ بلاده. وتاريخ الوثيقة هو ١٠ يناير سنة ٦٧٥ تماماً كما يذكره بيرّو. أما الخط العربى فهو ردئ ومتداخل ويختلف تمام الاختلاف عن خط وثائق العصر النورماندى. ويبين تدهور أحوال مسلمى صقلية فى ذلك الزمان؛ ومع كل هذا فإن النحو والإملاء صحيحان إلا فيما ندر.
والشهود الذين طُلبت شهادتهم يطلق عليهم النص العربى «رجال صالحون» وشيخ، والاسم الأول هو ترجمة «لرجال طيبون» التى كانت تستخدمها الإدارات اللاتينية والثانية كلمة عربية. ولكن يبدو لى أنها مستخدمة استخداماً ترجمياً لكلمة كهول ولا تدل ـ فى رأيى ـ على أن رجالاً مشهورين مسلمين كانوا لازالوا يقيمون فى ڤيكارى. والخاتم من الشمع الأخضر توجد به حول الشمار *Ubertus Fallamonaca* وهى كتابة تقدم الاسم الصحيح لهذه العائلة والذى أصابه التغيير فى الوثائق بسبب النهايات اللاتينية، وتفيد فى الدلالة على جودة الصك الإيطالى للكلمات التى تتكون منها.
(2) فى كتاب كركانى، ص ٢٦٨، وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ٥٠٤ ـ ٥٠٥.
(3) وثائق ١٢ مارس ١٢٤٠، فى كتاب كركانى، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢، وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ص ٨٢٢ وما بعدها.

لقد استخدم فدريكو الطاغية والتاجر والمالك الكبير لأراضى استعيدت أو صودرت، بعقليته المجددة الجريئة، ذلك العلاج المؤلم الا وهو نقل السكان: وكانت عملية النقل هذه فى القرن الثالث عشر أقل صعوبة ولعلها كانت أقل قسوة مما لو حدثت فى المجتمع الحديث، بسبب ضمان الملكية وتوزيعها وبسبب وسائل الراحة الكبرى التى اعتاد عليها الناس الآن. لقد كان لزاماً علينا أن نذكر منذ قليل بعض المدن التى دمرها الإمبراطور وبعض المدن الأخرى التى أسسها وأقامها ونقل إليها سكان المدن الأولى(1). وإلى جانب هذا فإنى أظن أن تمرد المسلمين قد أصاب بالاضطراب التوازن السكانى بشكل آخر لم تشهد لنا به أية مذكرات معاصرة: أى انه ادى إلى هجرة سكان المدن من الأثرياء ومن العاملين الكادحين إلى إفريقية. فنحن نرى أن مركزين ضخمين من مراكز البرجوازيين المسلمين قد تضاءل حجمهما كثيراً فى ذلك الوقت: ترابانى، التى كانت توزع فيها الأراضى فى بداية عام ألف ومائتين واربعين على السكان الجدد(2)؛ وبالرمو التى مُنحت فيها، فى عام ألف ومائتين وتسعة وثلاثين، لسكان جدد بعض الأراضى بالقرب من قصر زيزا بقصد زراعة الكروم. ونلاحظ فى الوثيقة نفسها أنه قد تم هجر بعض البيوت الصغيرة فى وسط المدينة، وأنه قد قل عدد المزارعين فى مزرعة كبيرة للنخيل فى ضيعة فافارا الملكية، وأنه لم يعد وجود فى بالرمو لمن يعرف كيفية استخراج السكر. وعندئذ طلبت جالية من يهود جاربو أى من أسبانيا أو من دولة مراكش، ومنشقة على يهود بالرمو

---

(1) فى الأخبار التاريخية، أنونيمو، (نيكولو دى جامسيلا)، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦٧٨. يذكر أنه أسس فى صقلية أوجوستا، وإراكيا (ويقصد الحديث عن تيرانوفا)؛ وفى كلابريا مونتليونى والبتيا؛ ودوردونا ولونشيرا فى بوليا، وفلاجيللا فى تيرّادى لافورو، وأنه دمر فى صقلية تشنتوربى وكايتسى وترابانيا؛ وفى إقليم بنفنتو المدينة التى تحمل نفس الاسم، وفى بوليا سان سيفيرو.

(2) وثيقة ١٤ يناير، فى كتاب كركانى، المرجع المذكور، ص ٣١٨، وفى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٦٦٨.

وكان عددها كبيراً حتى إنها كانت تريد بناء معبد خاص بها وحدها، طلبت بيوتاً محددة فى كاسارو، ولكن الإمبراطور - تفاديا لشكاوى المسيحيين، على ما يبدو - سمح بأن يمنح لهم مبنى فى موقع آخر بالمدينة وأن يعيدوا بناء أحد المعابد القديمة، ولكنه لم يرد أن يقوموا ببناء معبد جديد. وفى الختام تفيدنا هذه الوثيقة بأن يهود جاربو قد حصلوا، بالإضافة إلى مزرعة نخيل فافارا التى أعطيت لهم على سبيل المقاسمة، على أراضى أخرى فى الضيعة نفسها لزراعة النيلة والحنة اللتان كانتا لا تزرعان آنذاك فى صقلية(1).

وفجأة تظهر فى أحد الأخبار التاريخية اللمحة التالية: إنه فى شهر يوليو من الخمسعشرية الثالثة، اى فى سنة ألف ومائتين وثلاث وأربعين، صعد كل سراسنة صقلية الثائرين إلى الجبال واستولوا على چاتو وإنتيللا(2)، وهما قلعتان منيعتان بطبيعتهما وتبعد الواحدة عن الأخرى نحو عشرين ميلاً، وقد سبق الحديث عنهما(3). ونستخلص من هذا الحدث أن السكان المسلمين فى هذا الوقت لم يبق منهم إلا جزء قليل فى ڤال دى مازارا. وعلى الرغم من أن رواة الأخبار لا يذكرون سبب هذه الثورة إلا أننا نعلم أن الرعاة السراسنة الذين كانوا قد استأجروا قطعان البلاط قبل أربع سنوات كانوا مدينين بمبالغ كبيرة للخزانة العامة منذ وقت طويل. وقد أمر فدريكو أمينه بأن يصادر أملاكهم، وإذا لم يكن هذا كافياً، فليأخذهم ليعملوا فى خدمة البلاط وأن يهتم بأن يوكل إليهم أعمالاً مضنية حتى يتعلم الآخرون أنه لا تهاون فى حقوق الملك، وأن من لا يقوم بدفع الإيجار عليه الا

---

(1) وثيقة ١٥ ديسمبر ١٢٤٩، فى كتاب كركانى، المرجع المذكور، ص ٢٩٠، وفى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٥٧١ وما بعدها. وتقدم وثيقة أخرى بتاريخ ٢٨ نوفمبر، فى كتاب كركانى، ص ٢٧٩، معلومات عن أن اليهود الذين تعهدوا برعاية وإثمار حديقة نخيل فافارا كانوا قد قدموا حديثاً إلى بالرمو.

(2) *Appendice al Malaterra*، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥٢.

(3) الكتاب الخامس، الفصلان الثالث والسادس، ص ٩٤ و١٦٢ وما بعدها من هذا المجلد.

يطلب العمل(1). فلما أصابهم اليأس، وسوء المعاملة، وهم المعتادون على الجرائم، ولما علموا ـ ربما ـ ببطولات إخوانهم فى لوتشيرا تحت رايات الإمبراطورية، فإنهم ألقوا بأنفسهم فى الثورة أو الحرب ـ كما يقال ـ ضد كل سادة هذا العالم: وعندما بدأت هذه الحركة فى مكان، كان لابد أن تنتقل بسرعة غير عادية إلى كل الأماكن الأخرى فى مناخ الشك المستمر والكراهية المتنامية يوماً بعد يوم، وفى ظروف العنف المستمرة التى كان يعيشها المسيحيون والمسلمون. وفى القرن الثالث عشر كانت امارات العبودية تظهر على وجوه العبيد الصقليين وملابسهم ولغتهم ورمز إيمانهم وبؤسهم: وإذا ما ثارت مجموعة منهم كان الآخرون جميعاً يسيرون خلفهم. وعلى الرغم من أن الفقر ليس رفيقاً طيباً فى الحرب، إلا أنه يبدو أن آخر بقايا ذلك الشعب المعتز بنفسه قد قاومت لأكثر من ثلاث سنوات القوات الإمبراطورية. وتقول الأخبار التاريخية إن الإمبراطور، فى الخمسمشرية الخامسة، سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين، أرسل مع الجيش الكونت ريكاردو دى كازرتا، الذى طردهم من صقلية. وينبغى أن نضيف سنة إلى هذا التاريخ ليصبح سنة ألف ومائتين ست وأربعين. فى شهر أغسطس، حين كتب فدريكو رسالة ساخطة يقول فيها للمتمردين إنهم إنْ كانوا رجالاً حقاً لما بقوا بتلك الثقة البهيمية فى انتظار نزول سيف الانتقام فوق رؤوسهم، ويختتم قائلاً إن لم يتوقفوا خلال شهر فسوف يرون حقاً نتائج هذه التهديدات(2). ويبدو أن الإمبراطور قد كتب فى شهر نوفمبر من هذه السنة كتاباً إلى إتزلينو الرهيب يقول فيه إنه قد

---

(1) وثيقة ١٧ نوفمبر ١٢٢٩، فى كتاب كركانى، ص ٢٦٨. وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ص ٥٠٤. ونقرأ فى هذه الوثيقة، فى صفحة ٥٠٥ من طبعة برهوللز "*et eos per opera maran [orum] curie nostre facias applicari*". ونرى استبدال كلمة *maram [me]* التى تعنى «المعمل ـ المصنع»، بالإضافة إلى أن لفظتنا "*marani*" لا معنى لها فى هذا السياق. ولقد رأينا قبلاً أن فدريكو كان يستخدم فى تلك الوقت سراسنة فى قلاعه فى سيراكوزا ولنتينى.

(2) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٤٥٦.

اصبح حراً من المشكلات التى كانت تمنعه حتى ذلك الوقت من نجدة الأصدقاء: ومن بينها طيش أولئك السراسنة، الذين ظلوا يقاومون مقاومة عنيدة وقد تحصنوا بالجبال، وأخيراً هبطوا من فوقها يطلبون العطف والرحمة(1). وهذا يدل على أنهم لم يهزموا فى معركة حربية، وإنما خضعوا بسبب الجوع. وأمر فدريكو بنقلهم إلى لوتشيرا(2). ومنذ ذاك لم ترد أى أخبار عن مسلمين فى صقلية: ومن هنا فإنه من الواضح أنه إن كان قد بقى بعض منهم، فإنهم قد اعتنقوا دين الغالبين، وكما فعل غيرهم من رجالهم طوال قرن ونصف منذ الفتح، فقد اختلطوا بالشعب الجديد الذى أخذت الميزات الأصلية تذوب فيه.

ومثل اورستى فى الأسطورة الإغريقية، يبدو أن القدر كان يدفع فدريكو للتضحية بمعلميه، سواء كانوا شخصيات اعتبارية مثل السلطات البلدية والبارونات والبابوية أم كانوا شخصيات مثل رئيس الديوان جوالتييرو دى باليار، وكونت مالطة وبييرو ديللا فينيا. وفى الحقيقة إن حفيد بارباروسا الذى ولد فى إيطاليا، ونما وترعرع بين أعداء اسمه الطبيعيين، كان عليه أن ينتزع منهم تلك السلطة التى كان يبدو له أنها قد انتزعت من أسرته وبيته؛ ولهذا فقد تخلص من هؤلاء الأشخاص عندما استطاع إلى هذا سبيلاً، وهاجم السلطات بأن وجه سيفه إلى الرجال الذين كانوا يساندونها، وبأن حارب الأفكار المعادية

---

(1) المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٤٧١. لا يوجد تاريخ فى هذه الوثيقة.
(2) *Appendice al Malaterra*. المرجع المذكور، ص ٢٥٢. فى رسالة الراهب كورادو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٩. تم نسخ هذا الفصل من فصول *Appendice* مثل غيره من الفصول الكثيرة. ولكننا نجد فيه اسم لوتشيرا بدلاً من نوتشيرا.
ويوجز نيكولو دى چامسيللا، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٦٧٧ وما بعدها، فى البداية أخبار الحرب فيقول: «إن فدريكو قد انقلب فى صقلية على السراسنة الذين تمردوا وهو طفل واستقروا فوق الجبال العالية، فطردهم منها إلى السهل بأسلحة قدرته وحكمته، وارسل جانباً منهم فى البداية ثم بمضى الوقت ارسلهم جميعاً على وجه التقريب، للإقامة فى بوليا بموجب عهد عادل بالخضوع، فى المكان المدعو لوتشيرا».

بأسلحة العقل، التى تقصفت فوق معدن الحرية الأزلى الذى كانت البلديات تتطوق به، ولم تنجح إلا قليلاً فى خدش المملكة الثلاثية القائمة على التيوقراطية اليهودية واستبداد روما والبربرية الشمالية. وقد عانى مسلمو صقلية من المصير نفسه الذى لاقاه كل معلم آخر من معلمى ذلك الشبل، ليس بسبب غضبه وحنقه، وإنما لأنه لم تكن لديه القوة القادرة على انقاذهم من أعدائهم، كما كان يتمنى، وقد دلل على هذا بأن حوّل المتمردين منهم إلى جنود فى حرسه الإمبراطورى. وإلى جانب هذا فإن عادات المراهقة، وعبقرية التحضر، وحب العلم والدرس، والخصومة الفلسفية والسياسة ضد روما، قد جعلت الإمبراطور، أكثر من أى رجل آخر فى أوربا فى ذلك القرن، يكرمهم ويؤثرهم.

الفصل التاسع

دفعت عبقرية التحضر، والمنفعة السياسية ومصالح صقلية التجارية، ومصالحه الخاصة، فدريكو إلى اتفاقات متتالية مع أمراء المسلمين. ولقد أشرنا إلى المعاهدات التى جرى توقيعها معهم من جانب الجمهوريات البحرية، كما وصفنا المعاهدات التي عقدها الكونت روجيرو وابنه مع الزيريين، ومعاهدات جوليلمو الثانى مع امبراطورية الموحدين الجديدة(1). وفى زمن فدريكو كانت هذه الامبراطورية قد تقلصت وبقى لها على وجه التقريب دولة مراكش الحالية وجزء من أسبانيا؛ ولا توجد أى مذكرات من ذلك الوقت عن عداء بين تلك الامبراطورية وصقلية. ولا نرى دافعا لمثل هذا العداء: بل يبدو أن السلام الذى ساد فى عصر النورمان قد استمر ولم ينقطع. فنحن نعلم أن اوبرتو فاللاموناكا الذى كان من أوائل قضاة فدريكو فى صقلية(2) قد ذهب فى سنة ألف ومائتين وواحد وأربعين سفيرا إلى مراكش(3) ويشير إلى هذه البعثة أو إلى بعثة أخرى سبقتها أو تلتها مبحث «مباحث صقلية» لابن سبعين الذى نقرأفيه أن الامبراطور صاحب صقلية كان قد أرسل بحرا مع سفيره إلى الخليفة الموحد مسائل المنطق والحساب التى سنتحدث عنها فى الفصل التالى.

فى تلك الاثناء أدى سقوط دولة الموحدين إلى عودة ظهور دولة أكثر قوة مما كانت عليه فى عصر الزيريين، وأطلق عليها

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصلين السادس والعاشر، وفى هذا الكتاب، الفصل الأول والثانى والخامس، ص١٦٢ و١٧٠ و٣٢٨ و٣٦٢ و٣٨٩ و٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(2) انظر الفصل السابق، ص ٥٨٧.

(3) حاشية مالاتيرا، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥٢.

المسيحيون مملكة تونس لأن الموحدين كانوا قد جعلوا من هذه المدينة عاصمة للأقليم، ولأنها كانت أكبر المدن من حيث عدد السكان وازدهار التجارة، ولأنها كانت أقل تحصينا أمام قواتهم من قلعة المهدية التى جلبت لهم سوء الطالع. ووقعت بعد ذلك أحداث الولايات الإسلامية الكبيرة التى لم يكن هنالك مناص منها، فلما كان خليفة الموحدين الناصر غير قادر على إدارة الولاية فقد أقام على حكمها (١٢٠٧) رجلا من ثقات دولته وهو: أبو محمد بن أبى حفص عمر، الذى كان شيخا لقبيلة مصمودة البربرية فقد كان أبرز قادة الموحدين لشجاعته وحكمته، كما كان مساعد عبد المؤمن ومعينه ومعين أبنائه. ولكن الجيل التالى من بنى حفص، كما كانوا يسمون نسبة إلى مؤسس عائلتهم، كانت قد تأصلت جذوره فى الولاية، ولم يكن للخلفاء البعيدين، والذين تدهورت بهم الأحوال من أب لابن، السطوة أو القوة لإبعاد هؤلاء الحكام؛ ولهذا فإن أبا زكريا بن أبى محمد اغتنم الفرصة والغى (١٢٢٨) خضوعه للخليفة المأمون، بوصفه باغ ومستبد. ولم يمض وقت طويل (١٢٣٦) حتى وضع حدا لكل التباس، وأمر بأن ينادى باسمه فى صلاة الجمعة بوصفه أميرا، وترك لرجال حاشيته التباهى باضافة «للمؤمنين» لاستكمال اللقب الشريف، الذى تلقب به عبد المؤمن وهارون الرشيد والخليفة عمر الذى كان الحفصيون يتفاخرون كذبا أنه أصل ذريتهم(1). وينبغى أن نلاحظ أن الحفصيين قد اعتادوا أن يدعوا بالكنية، أى بلقب العائلة، وأن والد وجد أبى زكريا كانا يلقبان بالشيخ فقط، وهو لقب تكريمهما فى القبيلة كما كان أساس سلطتهما الحقيقى(2).

لقد ذكرت هذه التفاصيل لتوضيح معاهدة الامبراطور فدريكو

---

(1) انظر النسب الحقيقى والنسب المنتحل، فى، ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٨١ من الترجمة الفرنسية.

(2) ابن خلدون *Histoire des Berbères*، المجلد الثانى، من ص ٢٨٠، إلى ص ٢٩٨، وفيه يصف أوائل عهد الحفصيين حتى اغتصاب السلطة من جانب أبى زكريا.

التى توجد لدينا منها ترجمة لاتينية فقط، وهى ترجمة مضطربة إلى حد ما، ولكن كثيرا ما يظهر من خلالها النص العربى الأصيل وأحيانا الأخطاء التى وقع فيها مترجم النص. وتحمل المعاهدة تاريخ الخامس عشر من جمادى الثانى من سنة ستمائة وثمان وعشرين (٢٠ ابريل ١٢٣١)، بعد ما أعلن أبو زكريا عدم خضوعه للخليفة المأمون، دون أن يعلن صراحة استقلاله عن الخلافة! وتقدم المعاهدة بضع كلمات شهادة على مرحلة الاغتصاب هذه. فلو أن هذه المعاهدة لم تتم باسم الأمير أبى زكريا، وإنما باسم «فضيلة الشيخ(1) أبى اسحق، ابن المرحوم الشيخ أبى ابراهيم، ابن الشيخ أبى حفص» لما كان علينا نحن أن نشكك فى صحة المعاهدة. ويمكننا شرح هذا بناء على افتراضين كلاهما مقبول ومتساو: وهما أن أبا زكريا كان له ابن العم ذاك غير المعروف فى مذكراتنا (2) وأنه تركه نائبا عنه فى تونس عندما مضى هو حتى وركله لمطاردة ابن غانية ذاك، الذى أزعج بسطوته البلاد طيلة خمسة وأربعين عاما(3).

---

(1) *Senior*، فى الترجمة اللاتينية.

(2) فى البداية أود ان انبه إلى عدم إمكان قبول افتراض صديقى العلم هويللارد - برهولز، اى ان ***Abbuissac*** المذكور فى الترجمة ينبغى ان، نقراه *Abou-Zak*، وان هذا الاسم هو اختصار أبى زكريا. وناهيك عن عدم وجود أمثلة لمثل هذا الاختصار وعن عدم اتساق الحروف، فان اسم الأب غير مطابق. فهو مذكور هنا أبو ابراهيم بينما كان والد أبى زكريا يدعى أبا محمد.

واسم أبى اسحق ليس جديدا فى الأسرة الحفصية، فقد اطلق هذا الأسم على ابن أبى زكريا نفسه، طبقا لما ذكره ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٤١ وص ٢٥٥، ويظهر أبو ابراهيم، والد الموقع على المعاهدة، وابن أبى حفص وابن عم أبى زكريا، يظهر سنة ١٢٢٧ حيث كان حاكما لكاستيليا فى افريقية نائبا عن أخيه الأخر أبى محمد (الثانى) الذى كان حاكما لأفريقية، نقرأ هذا فى كتاب ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٩٧. وبناء على هذا فمن المحتمل ان يكون أبو زكريا قد استعمل فى وظيفة عليا ابن عمه هذا.

(3) ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٠١، حيث يروى أن أبا زكريا بمجرد توليته على افريقية، أخذ فى مطاردة ابن غانية. وقد أشرنا إلى هذا القائد فى هذا الكتاب، الفصل الخامس، ص ٥٢٠ من هذا المجلد.

ثم إن صيغ المعاهدة تتفق مع صيغ معاهدات مثيلة نعرفها، وهي معاهدات أصيلة بكل تأكيد؛ كما أن جانبا من شروطها يتفق مع الشروط التي اعتيد الاتفاق عليها بين مسلمي الغرب والجمهوريات الايطالية الواقعة على حوض البحر المتوسط، ويتساوى الجزء الآخر مع العلاقات الخاصة بدولة تونس مع صقلية ونذكر من بين أوائل هذه الشروط الهدنة الموقعة لمدة عشر سنوات، وتبادل الأسرى الذين لم يعتنقوا دين الدولة الأخرى: وعدم إخضاع تجار ورحالة صقلية وكلابريا وبرينشيباتو وبوليا لأي ظلم وجور في افريقية، ومعاملة الأفريقيين كذلك معاملة مماثلة في تلك الأقاليم. ورد الأسلاب التي سلبها القراصنة من رعايا فدريكو، مع استبعاد الخاضعين لجنوة وبيزا ومارسيليا وفينسيا من هذا صراحة فهم قد عقدوا معاهدات لهذا الفرض مع خليفة الموحدين(1). وعدم النص على المعاملة بالمثل في هذه المعاهدة،إن لم يكن ناتجا عن اغفال من جانب المترجم فإنه قد يدل على أن الأفريقيين قد توقفوا في ذلك الوقت عن أعمال القرصنة بعد أن تفوقت عليهم القوات البحرية الإيطالية. أما وقد مارسها المسيحيون في الأجزاء الجنوبية من البحر المتوسط وحتى داخل الأراضي فإن هذا ما سنلاحظه من الفصول التالية التي يضمن فيها فدريكو عدم تعرض محاربيه وتجاره للمسلمين الذين يسافرون من مكان إلى آخر في افريقية، أو من أفريقية إلى مصر سواء بالمراكب أم بالقوافل؛ ويعد كذلك بألا يشارك رعاياه في الحروب الأهلية في أفريقية، وألا يقوموا بالسلب والنهب، وألا يقتادوا إليها أسرى وعبيد بالغواية أو القوة؛ وإذا ما لجأوا إلى سواحل أفريقية بسبب أنواء البحر فلا يسيئوا إلى سكانها؛

"Cum declaratun sit quod isti populi pro personis et statu (1) jam pacem inierint cum donino nostro califa sacerdote imperatore "Fidelium هذه هي الترجمة. واللفظ الذي تمت ترجمته *sacerdote* هو بلا شك إمام: وكل من هذه الألقاب الثلاثة الموجودة معا تتساوى مع الألقاب التي اتخذها أمراء الموحدين.

وفى كل هذه الأحوال يتم التعويض عن الأضرار. وفى مادة أضيفت فى النهاية يسمح فدريكو للمسلمين أن يرسلوا بضائعهم إلى مملكته وان يأخذوا منها بضائعها، على أن يقوموا بدفع عشر قيمتها.

وقد أدى جهل الناسخين إلى نسبة مادة مهمة من مواد المعاهدة إلى كورسيكا، وهى مادة تتعلق بلا أدنى شك بكوسيرا، أو كما يطلق عليها اليوم بنتلاريا؛ ولم يقم أحد من النقاد بتصحيح الخطأ حتى وقتنا هذا. اتفقت الدولتان بشأن هذه الجزيرة على اقتسام الأمور فيها: فقد اتفقتا على ألا يكون للمسيحيين اى اختصاص قضائى على المسلمين، وإنما يختار ملك صقلية حاكما مسلما يقوم على ادارة شئون الوحدويين وافسرها أنا على شئون الوهابيين، وأن يتم اقتسام الدخل العام بين الدولتين مناصفة(1). وهذه المعاهدات الخاصة

---

(1) هذه المعاهدة التى ترجمها من العربية إلى اللاتينية شخص يدعى ماركو دوبلينو شبترون قام بنشرها فى البداية ليبنيتز. *Codex jur. gent. dipl*. المجلد الثانى، ١٣؛ ثم نشرها لونيج. *Codex Ital. dipl.* المجلد الثانى، ٨٧٨؛ ونشرها ديمون. *Corpus dipl.* المجلد الأول، ١٦٨؛ وبرهوللز. المرجع المذكور، المجلد الثالث، ٢٧٦، مع بعض البدائل الجيدة التى أخذها من إحدى مخطوطات باريس؛ وفى الختام نشرها ماس . لاترى، *Traités de paix et de commerce etc.* باريس، ١٨٦٦، ص١٥٢ وما بعدها. وأخشى أن يكون الأصل قد فقد أثناء حريق الاسكوريال، لأن العالم الأستاذ جيانجوس رد على سؤالى منذ سنوات بعيدة بأنه لم يعد موجودا فى أسبانيا على الرغم من أنه بحث عنه كثيرا.

ويبدو لى أن شيتيرون قد قرأ خطأ عديدا من الألفاظ فى المادة الخاصة ببنتلاريا والتى تبدأ هكذا: *"Et etiam detur illis dimidium tributi insule C... signatum et ordinarium tempore messis solite."* وعلى النقيض من هذا اعتقدت بقبول الترجمة التالية *" sint navigantes et iter facientes cum caravalis euntibus ad Africam"* ومن هنا فقد كتبت «سواء بالبحر أم بالقوافل». وعلى الرغم من أن لفظ *carovana* نجده كثيرا فى وثائق فدريكو اللاتينية، بمعنى مجموعة من المراكب، أو كما نقول اليوم، «قافلة من المراكب»، فان معنى الجملة يدل دلالة أكبر على قافلة برية؛ ولا أعلم إن كان تعبير «قافلة من المراكب» كان مستخدما فى زمن شيتيرون. وعلى أية حال فهناك أمثلة على غارات البحارة المسيحيين الذين نزلوا فى افريقية. ففى سنة ١٢٨٤، أي بعد نصف قرن من معاهدة فدريكو الثانى، أخذ غليون قطلانى من أسطول صقلية مرغم بن صابر زعيم قبيلة جواره العربية بينما كان يركض بجواده متوجها إلى تونس واقتاده إلى مسينا حيث ظل رفيقا لكارلو الأعرج فى السجن.

ببنتلاريا تتسق تقريبا مع المعاهدات التى افترض ابن خلدون عقدها بين الأميرين نفسيهما لصالح مسلمى صقلية كافة؛ ومن هنا فإن الرواية التاريخية تضيف بكل تأكيد مصداقية للوثيقة(1). ولكن الوثيقة، فيما أرى، تعمل على تصحيح الرواية أكثر مما تسعى لتأكيدها، ذلك أنه من الواضح أن تلك الظروف يمكن أن تتسق مع جزيرة صغيرة تقع بين أوربا وأفريقية وليس مع كل جماعات المسلمين التى بقيت فى صقلية بعد عمليات الإبعاد والإقصاء التى جرت فى سنتى ثلاث وعشرين وخمس وعشرين. وأظن أنه لابد أن نقرأ الوهابيين لأننا ـ من جانب ـ لا نعلم، ولا يبدو لنا قريباً من الحقيقة أن يكون قد جرى نقل جماعة من «الوحدويين» إلى بنتلاريا، وهو ما يعنى أن يكونوا من طائفة الموحدين المعروفة فى ذلك الوقت، كما لا يمكننا أن نعتقد أن هذه الجماعة التى تنتمى إلى القبيلة التى كانت لها الغلبة والسطوة قد تركت تحت سلطة حاكم صقلى، وبالتالى فى وضع أدنى من غيرهم من مسلمى البلاد(2). ومن جانب آخر نعلم أن بنتلاريا لم يكن بها سكان مسيحيون فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر(3)؛ وأن الجغرافيين المسلمين فى القرن الثالث عشر

لاحظ أن جريجوريو، عندما تحدث عن هذه المعاهدة فى *Considerazioni*، الكتاب الثالث، الفصل الثامن، أكد أن قراءة كورسيكا قراءة خطأ.

(1) انظر الفصل السابق، ص ٥٧٠ من هذا المجلد.

(2) نقرأ فى الترجمة: *"neque habeant christiani... jurisdictionem super ullum mahometanum, preter prefectum mahometanum, missum... ad regendum tantummodo populus unitatis"*. وإذ لا يمكننا أن نقر، للأسباب التى ذكرناها فى المتن، أن يكون هؤلاء الوحدويين هم الموحدون، أو أن يكون معنى *"populos unitatis"* هنا هو المسلمون عامة، فإنى أرى أن شهترون قد قرأ الوهابيين وأنه لعدم معرفته باسم هذا المذهب، الذى استقى من اسم مؤسسة عبد الوهاب، فقد ترجم اللفظ ترجمة تقريبية *"Unitarii"* الوحودويين، وجال بخاطره أن الوهاب هو أحد أسماء الله الحسنى. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلابد أن يكون المترجم قد أغفل جملة قد تعنى أن حاكم الموحدين أو المسلمين المنضمين إليهم كان لابد أن يُعيَّن من جانب تونس.

(3) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥١٤ من المجلد.

كانوا يعدون كل أهاليها من الوهابيين(1)، أى من أتباع مذهب تأصل بين بربر القرن التاسع ثم بقى فى جزيرة جربه(2) حتى القرن الرابع عشر على الأقل؛ وأن أهل بنتلاريا كان يسميهم المسلمون المعاصرون باسم مكروه يطلق على المؤمنين الذين يخضعون للنير المسيحى(3). كما لا يبدو حقيقيا الافتراض القائل بان مسلمى صقلية قد لجأوا، فى زمن التمرد والثورة، إلى بنتلاريا وأن المادة التى نحن بصدد الحديث عنها كانت تشير إليهم.

ومعاهدة سنة ألف ومائتين وواحد وثلاثين . كما يرى الجميع - تفترض وقوع منازعات سابقة، أو على الأقل، إهمالاً لاتفاقات جوليلمو الثانى، ويتفق هذا مع العمليات التى قام بها الأسطول الصقلى سنة ألف ومائتين وأربع وعشرين(4). ولكن العهد قد تم الالتزام به وربما تم تجديده، على الرغم من الخلافات التى كانت تقع من حين إلى حين، مثلما وقع - على ما أرى - فى مسألة عبد العزيز، ابن أخ ملك تونس، الذى لجأ بعد اتهامه بجريمة ضد الدولة إلى بوليا قبل حلول صيف عام ألف ومائتين وستة وثلاثين؛ واستقبله الإمبراطور وكفله حتى ربيع سنة ألف ومائتين وأربعين على الأقل، التى نراه يقيم خلالها فى لوتشيرا مع ثلاثة من مساعديه ومع شخص يدعى برونى دا بالرمو، مكلف بخدمته أو بملاحظته. وقد اختلف فدريكو بشأنه مع البابا، الذى كان يريد من الإمبراطور أن يرسل إليه فى روما هذه الشخصية الكبيرة مدعيا أنه قد حضر إلى إيطاليا

---

(1) ياقوت. فى معجم البلدان، الذى وضعت مستلة منه فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ١٢٤ . وعن السيادة التى كان يمارسها ملك صقلية على بنتلاريا، انظر ابن سعيد، وشهاب الدين عمرى، فى المرجع المذكور، ص ١٣٤ وص ١٥٠ .

(2) انظر التيجانى وابن خلدون، المذكورين فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٣٨٧، الهامش رقم ٢ .

(3) *Mudeggian* وتنطق كذلك *Mudgiar (Mudejar)* و*Mudeggial*. قارن بين: الموضع المذكور، شهاب الدين عمرى ودوزى، *.Glossaire des mots espagnols ec* فى ملحق الاضافات، ص ٣٢٢ .

(4) انظر الفصل السابق، ص ٥٧٧ و٥٧٨ من هذا المجلد .

خصيصاً لكى يعتنق المسيحية وأن الإمبراطور كان يمسكه عن هذا. ولكن الإمبراطور نفى رغبة عبد العزيز أو منعه له؛ ولم يرد تحت أى شرط من الشروط أن يتخلى عن هذه الرهينة ليقدمه للبابا ولأصدقائه من الجويلفيين(1).

ولم يكن هؤلاء خاملين لا عمل لهم فى تونس. ففى أواخر سنة الف ومائتين وتسع وثلاثين لاحظ الإمبراطور المكانة التى كان يحظى بها فى تونس مواطنو جنوة وفينيسيا وهما عدوتاه اللدودتان: ومن هنا فقد قرر إيفاد مبعوثه أريجو أباتى إلى الأمير ابى زكريا ونبه قائد أسطوله الكبير الادميرال نيكولينو سبينولا ان يكون على أهبة الاستعداد. وأن يراعى فى الوقت ذاته الهدنة التى منحها العطف الإمبراطورى لذلك الأمير(2). وانتهت المسألة، أيا كان سببها، بضربة تاجر أصابت هدفها. فقد كانت دولة تونس تعانى من القحط المعتاد. وكان أهل جنوة يأتون إلى صقلية لشراء القمح واحتكاره لحساب أبى زكريا، وكانوا يحققون من هذا أرباحا طائلة. وفى نهاية فبراير من عـــام ألف ومائتين وأربعين أغلق الإمبراطـور المـــوانى، وأمر بتحميـــل خمســـين ألف حمل من الحنطة على سفنه، وكلف قائد أســـطوله بارسالها لبيعها فى تونس(3). وهذا يؤكد، إن لم يجانبنى الصواب، قول سابا مالاسبينا بأنه فى وقت حرب سان لويجى الصليبية الثانية كان ملك تونس يدفع لملك صقلية مقابلا أو جزية سـنوية، *redditum sive censun* لقـاء حـرية وصول المؤن من الجـزيرة

---

(1) وثائق ٢٤ يونية و٢٠ سبتمبر ١٢٣٦. و٢٨ اكتوبر ١٢٣٨. فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٨٧٢ وص ٩١٢، والمجلد الخامس، ص٢٥٥. وفى ص ٦٢٦ و٩٠٧ هناك وثيقتان أخريتان بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٢٣٩ و١٧ أبريل ١٢٤٠ تتعلقان بالمصروفات الخاصة بذاك الأمير.

(2) وثيقتا ٢٢ يناير و٦ فبراير ١٢٤٠، فى كتاب كركانى، المرجع المذكور، ص ٣٢٤ و٣٢٩. وفى كتاب برهوللز، المجلد الخامس، ٦٨٧ و٧٢٦.

(3) نقرأ الوثائق فى المجموعتين المذكورتين، فى ص ٢٥٦ و٢٦٠ من الكتاب الأول، وفى المجلد الخامس، ص ٧٨٢ و٧٩٢ من الكتاب الثانى.

إلى تلك الدولة وتأمين سفنها من القراصنة الصقليين(1). كان الأمر إذن يتعلق باتفاق أو تصالح، كما نقول اليوم، لخروج القمح. وفى الحقيقة فإن واقعة أهل جنوة الذين كانوا يحضرون لشراء القمح باسم ملك تونس، والاجراء الذى اتخذه فدريكو لإحباط عملهم يدفعاننا بالضرورة إلى افتراض وجود اتفاق يضمن لذلك الملك التجارة الحرة أو الخاضعة لضريبة ثابتة ومعتدلة. وهذا يعنى أن التصالح كان يطلق عليه فى بعض الوثائق المقابل، وأن مالاسبينا قد أضاف إلى ميزة التجارة ميزة الملاحة الآمنة؛ وذلك إذا استطعنا افتراض أنه لم يكن على علم بالتفاصيل. وأن الرأى العام كان يخلط بين الشروط المالية للتجارة والشروط السياسية لهدنة سنة الف ومائتين وواحد وثلاثين التى أشرنا إليها. وأيا كان الأمر فإن المقابل كان فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثالث عشر يبلغ ثلثمائة وثلاثة وثلاثين ألف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين بيزنطة وثلث أى ما يعادل اليوم، حسب وزن الذهب، ثلثمائة وخمس وعشرين الف ليرة إيطالية، وكان سعرها فى السوق فى ذلك الوقت يعادل اكثر من مليون ليرة إيطالية، اذا ما جاز مقارنة سعر العملات بعد انقضاء ستة قرون، ومع تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية. واذا ما جئنا إلى الزمن التالى لزمن فدريكو فإننا نرى توقف دفع هذا المقابل فى سنة ألف ومائتين وخمس وستين، عند سقوط أسرة زفيفيا: وانه استؤنف فى سنة سبعين طبقا للمعاهدة التى أبرمت بين المستنصر وفيليبو الأرديتو وكارلو دانجو الذى نصت المعاهدة معه على الوفاء بالتزامات المدة السابقة، ومضاعفة المبلغ السنوى فى المستقبل، ثم توقف من جديد سنة أثنين وثمانين بسبب حرب الفسبرو؛ ثم وعد أبو حفص

---

(1) سابا مالاسبينا، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص٨٠٦. ويقول جوليلمو نانجيس، *Gesta Phil.III*، فى مجموعة دوم بوكيه، المجلد العشرين، ص٤٧٦، يقول عنها «جزية»، بينما يقول عنها كتاب *Cron. de rebus in Italia gestis ec.*. طبعة برهوللز، ص٢٢٢، ويسميها مقابل، كان من المعتاد دفعه للامبراطور فدريكو.

بتسديده إلى بيير داراجونا بمبلغه الأصلى ومتأخر ثلاث سنوات، وذلك فى اطار المعاهدة التى تم ابرامها فى بانيصاس فى سنة الف ومائتين وخمس وثمانين؛ إلى أن تنازعت عائلتا انجو وأراجونا المقابل سنة الف وثلاثمائة، ولكننا لا نجد ما يفيد أن الحفصيين قد قاموا بدفعها*(1)*. ولا يبدو لى حقيقيا أن يكون الوضع قد بدأ فى زمن فدريكو. ففى الفقرات التى أملاها لأدميرالية صقلية قبل سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين والتى يمنح فيها سلطات واسعة ومكاسب بلا حدود لنيكولينو سبينولا، أعطاه من بين ما أعطاه عشرة فى المائة

---

(1) سابا مالاسبينا، الموضع المذكور، يقول إن ملك تونس، فى زمن عملية سان لويجى العسكرية، كان قد أوقف منذ ثلاث سنوات دفع هذه الضريبة. ولقد كتبت التفاصيل والاستشهادات فى *Storia del Vespro Siciliano*. الفصل الخامس والفصل الثانى عشر، من طبعة فلورنسا، ١٨٦٦، المجلد الأول، ص٨٢ وما بعدها وص ٣٥٠. انظر ماس لاترى الذى استشهدنا به منذ قليل، ص ٥٢ من المقدمة، والوثائق المذكورة فى ص ١٥٦ وما بعدها؛ والفونس روسو، *Annales tunisiennes*. الجزائر ١٨٦١. ص ٤٢٢ وما بعدها. ولكنى لا اتفق مع التصحيح الذى أدخله م. روسو على نص المراكشى، ولا مع رأيه فيما يتعلق بالجزية.

اضف إلى هذا أن الأدميرال الأكبر روجيير لوريا، الذى انتقل لخدمة كارلو الثانى دى نابولى قد أرسل فى سنة ١٣٠٠ من قبل سيده الجديد إلى تونس لكى يحصل على ما يستطيع من الجزية التى كان يدعيها الأنجويون قبل إجراء السلام مع فدريكو الأرجونى. ونستخلص هذا من وثيقة بالمحفوظات الملكية بنابولى، السجل، ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ الورقة ٢٢١. ويبدو أن آخر وثيقة يجرى فيها الحديث عن تلك الجزية هى عبارة عن قرار لملك اراجوانا قرر فيه فى سنة ١٣٠٩ أن الجزية تخص نابولى إلا إذا أقرت صقلية حقوقها فيها بالسلاح، سوريتا، *Annali di Aragona*، الكتاب الخامس، الفصل الخامس، والسبعين، والذى ذكره جريجوريو فى *Considerazioni*. الكتاب الرابع، الفصل السابع. وقبل أن نترك هذا الموضوع أنبه أنه لا وجه للمقارنة بين جزية تونس ونصف دخل بنتلاريا العام. فبالاضافة إلى أن هذا الدخل كان على صقلية أن تدفعه لتونس وليس العكس، لأن بنتلاريا كانت تحت ادارة حاكم صقلى، فإننا نجد أنفسنا أمام عدم واقعية المبلغ السنوى المتفق عليه. فإن بنتلاريا لم يكن بإمكانها انتاج عُشر مبلغ الجزية التى كان يبلغ مقدارها ما يعادل اليوم ٣٢٥.٠٠٠ ليرة إيطالية من الذهب. وطبقا لآخر تقديرات الشهر العقارى التى صدرت فى سنة ١٨٥٢ فإن الدخل السنوى من كل الأملاك المدنية والريفية فى بنتلاريا يبلغ بالكاد ....١٠.. ليرة إيطالية. ولم تكن تلك الجزيرة فى أعقاب الأحداث المريرة التى وقعت فى القرن الحادى عشر مزروعة بشكل أفضل مما هى عليه الآن، ولم تكن أكثر ثراء من اليوم بكل تأكيد.

مما «يصل بحرصه وقدرته على تحصيله من أي سراسنة، سواء من الجزية المعتاد دفعها لملوك صقلية أو من الضرائب غير العادية والجديدة التى يفرضها هو عليهم»(1). ولم تكن دولة تونس دولة صغيرة أو مضطربة فى ذلك الوقت بحيث تخضع لجزية طفيفة لا يبقى لها أثر فى حولياتها أو فى حوليات صقلية. ومع هذا فإنه ينبغى أن نعد الجزية من بين الإتاوات المعتادة. وفى الحقيقة فإنه قبل فدريكو كان الامبراطور أريجو السادس قد حصل من مراكش فى سنة ألف ومائة وخمس وتسعين على أحمال من الذهب ومن النفائس(2)، وكانت غطاء على ما يبدو للمقابل الذى تدفعه أفريقية، التى لم تفصح بعد عن تمردها على الموحدين. وقبل كل هذا نلاحظ معاهدة جوليلمو الثانى مع الخليفة أبى يعقوب؛ وبناء على هذا يمكننا القول بأن الاتفاق على بيع القمح، أو على المقابل، أو الضريبة أو الجزية، أيا كان الاسم، قد بدأ تسديدها من جانب خلفاء الموحدين فى سنة ألف ومائة وثمانين بسبب القحط؛ كما يمكننا افتراض أن بعض مدن أفريقية قد قامت بدفعها قبل ذلك أيضا. ولا يثير دهشتنا أن معاهدة سنة ألف ومائتين وواحد وثلاثين لا تشير إلى هذا أيما إشارة، لأنه لم يكن من الضرورى كتابة العرف الخاص بهذا العقد فى وثيقة سياسية وتجارية عامة؛ وعندما كان يكتب فى النص اللاتينى، فإنه كان يمكن حجبه فى النص العربى وهو المصدر الوحيد الذى نستقى منه هذا الأمر، من خلال ترجمة أحدث بزمن طويل. وإذا ما قارنا بين النص العربى والنص اللاتينى لكثير من المعاهدات التى أبرمت فى العصر الوسيط بين مسلمين ومسيحيين فإننا نجد أحيانا أحدهما منقوصا لأن كلا من الطرفين كان قد دأب - فى النص الذى يعمم فى بلاده - على اخفاء الشروط التى يخجل منها. وقد فعل

---

(1) فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٥٧٧ وما بعدها. انظر، بالنسبة للتاريخ، ملاحظة الناشر المدقق.

(2) *Amali di Colonia*، التى سبق الاستشهاد بها فى الفصل السادس، ص ٥٢٩.

هذا على وجه التقريب أمراء أوربا فى المعاهدات المصرية أو فى البنود السرية التى تشتمل عليها المعاهدات الكبرى(1).

ولما أغوت التجارة ـ التى أثرى منها أهل فينيسيا وبيزا وجنوة ـ فدريكو الذى استدرج رغم إرادته إلى آخر موجات الحرب الصليبية، فإنه أجرى اتصالات متكررة مع أمراء المسلمين فى المشرق بقيت لنا منها مذكرات غير قليلة، ونعتقد أن مذكرات أكثر قد ضاعت. ولكن القول بأنه قد أرسل مبعوثا له إلى الخليفة العباسى قد نشأ عن خطأ، أى أن اسم بابلونيا القديم الذى كان الكتاب المسيحيون فى العصر الوسيط يقصدون به القاهرة القديمة(2)، قد عُدَّ، على العكس من هذا، بغداد. كما أن هذه المقولة تبدو غير حقيقية إذا ما علمنا أن خلفاء هارون الرشيد لم يكن لهم وزن كبير أو أي وزن فى العالم. فمنذ نهاية القرن الثانى عشر كانت الحدود الشمالية للأراضى الإسلامية من برقة إلى مصب نهر العاصى وإلى نهر الفرات فى يد أبناء واخوة وأبناء عمومة صلاح الدين. كانت إمبراطورية إقطاعية أو إذا

---

(1) هذا ما قلته أنا فى مقدمة *Diplomi arabici del Reale Archivio fiorentino*. ص٥ وص ٦ وص ٧٢ بناء على مصدر م. دى ساسى وعلى ملاحظاتى أنا شخصيا. وقد عارض هذا م. دى ماس. لاترى فى مؤلفه القيم، المقدمة. ص ٢٩٠ وما بعدها. ولكنى لم أستطع انكار بعض الاختلافات التى يقول عنها هو انها اختلافات هينة وهى فى الحقيقة ليست كذلك.

(2) إن الوثائق التى استشهد بها جريجوريو بشأن هذه البعثة المتصورة. الكتاب الثالث، الفصل الثامن. الهامش رقم ٥، تأتى جميعها بلقب سلطان بابلونيا. وليس من اللازم ان نبحث من هو *Nazardino* او *Zefedino* المذكور فى الرسالتين التى تقع بين رسائل بيترو ديللا فينيا، الكتاب الثانى. الفصل الثامن عشر والفصل التاسع عشر، وهى من انتحال أحد الرهبان من هواة السياسة المبتدئين فى ذلك الوقت. فمن الواضح أن الاسمين يدلان على اللقبين الأشهرين ناصر الدين وسيف الدين، ولكنى لا أعتقد مع صديقى برهوللز، المرجع المذكور، ٥، ص ٣٩٧، الهامش رقم ٣، أن المزيف اراد أن يشير باسم الأول إلى ابن الملك الكامل. بل إنى أظن أن المراد به هو ابن اخيه داود، الملك الناصر الذى كان يملك دمشق والقدس قبل تقسيم سنة ١٢٢٨ . ويقول الكتاب المسيحيون إن هذا الأخير قد اعترض اعتراضا كبيرا على التنازل عن القدس، ومن المعروف أنه استعاد المدينة فى سنة ١٢٣٩ . أنظر فى ص ٦٠٢، الرد الذى ينسب لوالده من جانب بعض الكتاب المسلمين.

اردنا القول اتحادية غير متجانسة بكل تأكيد وتمزقها الأطماع والعنف وعدم الإخلاص والولاء؛ وتنازعها لفترة قصيرة ابنان لفاتحها الذى ترك (١١٩٣) لأحدهما سوريا وللآخر مصر: ولكن لم يلبث الملك العادل، شقيق صلاح الدين، أن جنى ثمار ذلك الشقاق. وما أن استولى على دمشق (١١٩٦) وعلى القاهرة (١٢٠٠) حتى ترك الملك العادل لابنيه المثل وفرصة الاغتصاب بأن جعل من الملك المعظم وريثا على سوريا ومن الملك الكامل وريثا على مصر.

وهناك وثيقة غير عادية تشهد بأن فدريكو قد أوفد بعثة إلى هذين السلطانين فى سنة الف ومائتين وسبع عشرة بعد ما قسم الملك العادل دولته بين ابنيه قبل وفاته (٣١ أغسطس ١٢١٨). وأقصد بهذه الوثيقة قسم من الموزاييك بقى حتى القرن الرابع عشر او القرن السادس عشر فى عقد بوابة كاتدرائية تشيفالو. وهو يصور فدريكو اثناء توديعه لجوفانى تشيكالا المعروف بالفنيسى، أسقف تشـــيفالو، بهذه العبـــارة المكتوبة: «امضى إلى بابلونيـــــا وإلى دمشق؛ وتقابل مع ابنى *Paladino (Safadino?)* وتحدث إليهما بجرأة باسمى...»(1) وكان لاعتلاء أونوريو عرش البابوية، والضغط الذى كان

---

(1) كانت هذه اللوحة موجودة فى زمن بيرّو، كما يقول صراحة فى *Sicilia Sacra*. ص ٨٠٥. ولم يبق منها اليوم أى أثر، إذ قد أعيد بناء جزء كبير من عقد البوابة. وهناك إشارة عنها فى خبر خطى عن كنيسة تشيفالو، كتب فى القرن الرابع عشر، ومحفوظ اليوم فى دار محفوظات بالرمو الملكية. كما استخلص هذا من السيدين إيزيدورو لا لوميا وإيزيدورو كارينى اللذين درسا الخبر ليقدما لى هذا المعروف. وقد أفادنى هذان الباحثان الصديقان بوجود وثيقة أخيرة للأسقف جوفانى فى هذه المحفوظات بتاريخ سبتمبر ١٢١٢، وبوجود سند بتاريخ ١٤ مارس ١٢١٨ مذكور فيه اسم الدوينو أسقف تشيفالو. ولنضف هذا إلى الأخبار التى ذكرها بيرّو، الموضع المذكور، عن هذين الأسقفين. والكلمات التى كانت مكتوبة ـ حسب قول بيرّو ـ تحت صورة الاثنين هى: *"Vade in Babyloniam et Damascum et filios Paladini quaere et verba mea audacter loquere ut statum ipsius valeas melius reformare"* ويبقى شك قليل فى تصحيح اسم *Paladini*، الذى يجب ان يكون *Saladini* (صلاح الدين) او *Safadini*. وهذا اللقب الذى يتوافق مع سيف الدين، كان المسيحيون قد اعتادوا إطلاقه على الملك العادل؛ ويبدو لى أن هذا الاحتمال هو أفضل من احتمال قراءته

يمارسه من أجل الحرب الصليبية، وحاجة فدريكو إليه اذ كان يستعد للذهاب إلى إيطاليا لاستعادة دولته بها أو هكذا تقريباً، كل هذا كان دافعاً لإيفاد هذه البعثة، أو لهذا التهديد غير المجدى؛ ويبدو أن سلطان دمشق قد رد على هذا التهديد بمثله، بالشكل الذى سنذكره الآن.

وبعد مرور عدة سنوات وعندما ارتفع الكامل فوق كل الأمراء الأيوبيين، وعندما تزوج الإمبراطور من وريثة مملكة القدس بدأ يفكر فى تلك العملية بمقصد آخر غير تنفيذ نذره على القبر المقدس، فأخذ ينمى صداقته مع سلطان مصر بشكل خاص. ولما أدت هذه الاتصالات بعد فترة وجيزة إلى استعادة القدس، وهو أمر بدى للمسلمين كارثة عامة، فإن الكتاب العرب يقدمون لنا كثيراً من التفاصيل التى تؤكد وتقوم جزئياً الروايات ذات الأصل المسيحى(1).

Saladini. لأن هذه القراءة الأخيرة قد تجعلنا نفترض أن الكلمة السابقة عليها وهى *filios* قد تم استخدامها خطأ بدلاً من كلمة ابنى أخيه. ولكنى افترض وجود خلل فى النقش الأخير. فلا يمكن نسبه *ipsius* إلى الملك العادل، وإنما بالأحرى إلى القدس، أو إلى أرض المقدس بصفة عامة. وربما كان هذا الجزء من الصورة الذى يشتمل على النقش فاسداً عندما قام بيترو أو غيره بنقل تلك الكلمات. أما أن يكون الملك العادل قد قسم، قبل وفاته، دولته بين ابنيه وأقامهما على الحكم فإننا نقرأ هذا فى حوليات ابن الأثير، نص تورنبرج، المجلد الثانى عشر، ص ٢٢٠، تحت سنة ٦١٥. انظر أيضاً رينو، *Extraits, etc*، ص ٣٠٣.

(1) توجد المصادر العربية كلها تقريباً، والتى لم تنشر قبل سنة ١٨٥٧، فى المكتبة العربية - الصقلية: وهى: *Storia de' Patriarchi d'Alessandria*، وهو كتاب تاريخ مدقق ومعاصر كتبه كاتب مسيحى قبطى، ص ٣٢٢ وما بعدها. والكتاب المسلمون هم: ابن الأثير، ص ٣١٤ وما بعدها؛ وأبو الفدا، ص ٤١٨ وما بعدها؛ والمجموعة التى تنسب خطأ للهافى، ص ٥١٠ وما بعدها، وهى تحتوى على شذرات كثيرة من ابن كثير، وأبى شامة، وبيبرس، والنويرى، وابن العميد، وابن الجوزى؛ وختاماً المقريزى، ص ٥١٨ وما بعدها. وقد أتيح لى كذلك النظر فى المجلد الخامس من *Storia universale* لابن خلدون، الذى طبع مؤخراً فى مصر، وفيه موجز للحروب الصليبية وهو مفيد رغم إيجازه الشديد. انظر ص ٣٥٠ وما بعدها من ذلك المجلد. وقد كتب أستاذى م. رينو، الذى أكن له دائماً العرفان والتقدير، عن هذه النصوص الفقرات ٧٨ و٧٩ و٨٠ فى كتابه *Extraits etc, relatifs aux Croisades*. ويسرنى ان اذكر بصدد هذه الأحداث صديقين فرنسيين عزيزين وهما مؤلف *Lutte des papes et des empereurs de*

وسرت شائعة فى المشرق أن فدريكو قد طالب الملك المعظم بالقدس، وأن الأمير الشجاع والعالم قد رد على البعوث قائلاً: «قل لسيدك إنى قابض على سيفى وليس له عندى غير هذا». وهذه العبارة، فى الحقيقة يمكن أن نفترض صياغتها كراهية للكامل، بعد تركه القدس وموت المعظم: ولكن لاتبدو غير حقيقية الاتصالات التى قام بها فدريكو أو الرفض الساخط الغضوب، إذا كان يرجع إلى سنة ألف ومائتين وسبع عشرة. كما لاحظنا من قبل(1). ولكن ما هو مؤكد أن المعظم كان لا يتحمل سيادة أخيه وتفوقه (١٢٢٦)، فاخذ يؤلب عليه الأمراء الأيوبيين كافة ثم انضم إلى جلال الدين أمير البربر الخوارزمشاهية الذين بعد أن تم طردهم من جانب شرذمة أكثر شراسة منهم. جاءوا من شواطئ بحر قزوين لتدمير أرمنيا وما بين النهرين. وفى هذه الظروف دعا الكامل، ليفسد مخططات أخيه، فدريكو ووعده بالقدس(2) وغيرها من

---

la maison de Souabe. الكتاب الخامس. الفصل الثالث. وهويللارد برهوللز. فى مقدمة كتابه *Hist. Diplom., etc*. ومن يرد التمعن فى التقليد الجيبللينى (المناصر للإمبراطور)، وكيف أنه ساند هذه الأحداث على مدى نصف قرن. فليقرأ بارتولوميو دى نيو كاسترو، فى كتاب جريجوريو. *Bibl. Arag*. المجلد الأول. ص ١٩٩ وما بعدها. والذى يمكن أن نوازنه بكاتب فرنسى من زماننا. واقصد به م. دى ماس لاترى، الذى ذكرته بصدد مؤلفات عميقة أخرى له، والذى يروى فى كتابه المحقق *Histoire de Chypre*، باريس، ١٨٥٢ ـ ١٨٦١، يروى الحرب الصليبية التى خاضها فدريكو والاتصالات التى جرت قبلها وأثناءها. وكأنه جويلفى (مناصر للبابوية) متشدد من القرن الثالث عشر تسلح بعلوم القرن التاسع عشر. وسوف أستشهد شيئاً فشيئاً بالمصادر العربية مع الإشارة إلى رقم صفحة النص فى المكتبة العربية ـ الصقلية.

(1) ابن كثير وأبو شامة، ص ٥١٠. ويضيف ثانيهما إلى الرد: «قل... إنى لست مثل غيرى وليس عندى، إلخ». وهذه العبارات الجارحة التى أضيفت فيما بعد موجهة بكل وضوح إلى أخيه الملك الكامل.

(2) ابن كثير، وأبو شامة، وبيبرس، وأبو الفدا، وابن خلدون والمقريزى: ويقول بعضهم أنه وعده بالقدس ويقول آخرون بكل فتوحات صلاح الدين فى بيت المقدس، ويقول البعض الآخر بجزء من فتوحاته. وابن الأثير، الذى كان قد بلغ التاسعة والستين عاماً من العمر وتوفى فى سنة ١٢٣٣ فإما أنه لم يعلم بهذا، أو أنه سكت عمداً عن اتصالات المعظم مع الخوارزمى وعن اتصالات الكامل مع الإمبراطور. وكلا الأمرين يمكن أن

مكاسب صلاح الدين(1). وجرت الاتصالات، كما يبدو، فى سنة ألف ومائتين وسبع وعشرين عندما حضر إلى القاهرة رئيس أساقفة بالرمو مبعوثاً للإمبراطور فأرسل السلطان معه فى الحال فخر الدين، وكان شخصية ذات شأن كبير فى بلاط مصر(2)، فنال إعجاب فدريكو الذى منحه شعار أسرة دى زفيفيا نظراً لأن المسلمين كانوا قد أغرموا بمظاهر الزهو الغربية تلك أثناء الحروب الصليبية الأولى(3). وفى العام التالى عاد رئيس الأساقفة وفخر الدين إلى مصر، وحضر معهما فارس يحمل هدايا رائعة(4): جواد الملك شخصياً الذى يخوض به الحروب، وعلى صهوته سرج من الذهب مطعم بالجواهر الثمينة(5)، وجياد أصيلة أخرى، وأردية وتحف ذهبية صغيرة، وصقور وهدايا غريبة كثيرة(6). وأنفق السلطان على

يكون صحيحاً: فالأمر الأول لأن هذه الاتصالات كانت تجرى بالضرورة فى سرية كاملة، والثانى لأن صديق صلاح الدين القديم أراد أن يخفى عار سلالته ويستره. وهو يروى فقط فى سنة ٦٢٣ (تورنبرج، المجلد الثانى عشر، ص ٣٠٢ و٣٠٣) أن المعظم بعد أن شارك مشاركة فعالة فى انتصار دمياط، شعر بالاستياء من الكامل، وأن خليفة بغداد كان يدفعه دفعاً ضده ويحرضه عليه: ولهذا فقد تصالح مع الأشراف، حتى يقاوم الكامل ناحية الغرب، ويقاوم من الجانب الأخر الخوارزمى.

(1) جافى المقتحل.

(2) *St. de' Patr.*، سنة ٩٤٤ من تقويم الشهداء (٢٩ أغسطس ١٢٢٧ إلى ٢٨ أغسطس ١٢٢٨). ولا يذكر الكتاب اسم المبعوث الصقلى، ولكنه يقول إنه المبعوث نفسه الذى حضر إلى مصر فى السنة السابقة. ونحن نعلم من ريكاردو دا سان جرمانو أنه فى سنة ١٢٢٨ أوفد رئيس أساقفة بالرمو مبعوثاً إلى القاهرة. وقد ذكر بيبرس اسم المبعوث المسلم كما ذكره أبو الفدا والنويرى والمقريزى.

(3) يذكر هذا جوينفيل وهو شاهد عيان أثناء حرب سان لويس الصليبية. انظر طبعة م. فرانسيسك ميشيل، باريس ١٨٥٩، ص ٦٢ ـ ٦٣. *"L'on disoit que l'emperiere Ferris l'avoit fait chevalier.... En ses bannieres portoit les armes de l'empereur etc."*.

(4) تاريخ بطاركة الإسكندرية.

(5) المقريزى.

(6) تاريخ بطاركة الإسكندرية. ويبدو لى أن تعبير «التحف الذهبية الصغيرة» يدل دلالة أفضل من لفظ «مصاغ» الذى ترجمه م. رينو فى *Extraits etc*، ص ٢٤٧ بعبارة *"objets de fonte"*. وباستخدام لفظ *"minuterie"* «المصاغ» ربما أراد المؤرخ لبطاركة الإسكندرية أن يعنى السرج الذهبى، إلخ المذكور فى المقريزى.

المبعوثين الصقليين منذ نزولهم إلى الإسكندرية، وخرج بنفسه إلى خارج القاهرة لاستقبالهم؛ واستضافهم فى قصر منيف، وقدم لهم كل ألوان التكريم(1) وبادل فدريكو بهدايا ثمينة من الهند واليمن وفارس ومن بلاد ما بين النهرين ومن الشام ومن مصر تساوى، كما يقولون، أضعاف هداياه(2).

وسرعان ما تحرك برجاله (أغسطس ١٢٢٨)(3): واحتل القدس أو أرض أخرى من أملاك المعظم(4)، الذى كان قد توفى قبل تسعة شهور (١١ نوفمبر ١٢٢٧) وخلفه ابنه داوود، الذى تلقب بلقب الملك الناصر(5). وقد انتهج نهج أبيه(6) واستكمل اتصالاته، فدعا عمه الملك الأشرف أمير خلاط فى أرمينيا الذى أسرع بالحضور إلى دمشق بقواته المستعدة(7). ومن هنا فإنه عند نزول الإمبراطور فى عكا (٧ سبتمبر ١٢٢٨)، وجدت ثلاثة جيوش فى المواجهة. لا يعلم كل منها ضد من عليه أن يخوض الحرب؛ إنَّما لم تحدُ القواد الماكرين الرغبة فى الاشتباك عندما كان داوود المسكين هنالك فى وسطهم ليدفع الحساب للجميع. وفى الحقيقة فإن الكامل والأشرف، بعد مكاتبات قليلة مليئة بعبارات جميلة عن شرف الأسرة الأيوبية وأمجاد الإسلام(8)، التقيا وتحادثا (١٠ نوفمبر ١٢٢٨) عند عسقلان، وهما

---

(1) تاريخ بطاركة الإسكندرية، والمقريزى.

(2) المقريزى.

(3) ابن الأثير، يقول فى شهر شوال سنة ٦٢٥، الموافق لشهر سبتمبر؛ ويقول تاريخ بطاركة الإسكندرية فى ٢٩ ابيب سنة ٩٩٤ (٤ أغسطس ١٢٢٨).

(4) كل الكتاب العرب.

(5) ابن الأثير، عام ٦٢٤، طبعة تورنبرج، المجلد الثانى عشر، ص ٢٠٨.

(6) ابو الفدا وابن كثير.

(7) ابن الأثير، عام ٦٢٥، دون الإشارة إلى الاتفاق السابق مع الخوارزميين.

(8) ابن الأثير، فى عام ٦٢٥، بعد أن يروى اتصالات داود مع الأشرف، ومحادثات الشقيقين، يكتب فقرة من كتاب الكامل المزعوم الذى - طبقاً لرواية المؤرخ - هدد فيه أخاه بالانصراف عنه وتركه وحده فى مواجهة الصليبيين. وهذا الفصل غير الموجود فى المكتبة العربية - الصقلية يمكن قراءته فى طبعة تورنبرج، المجلد الثانى عشر، ص ٢١٣.

يضحكان ضحكة ماكرة؛ وتقاسما بطريقتهما ممالك ابن أخيهما(1)، وبقيا معاً لمدة طويلة يتدارسان كيف يتدبران أمرهما مع فدريكو(2). وكان فدريكو يطالب باستعادة القدس وساحل الشام كله، كما كان يطالب بالإعفاء من اى مكوس فى الإسكندرية. وأخذ يقول بأنه قد تحدث مع نائبه فى فلسطين أثناء حرب دمياط، وإنه لا يريد أن يقبل بما هو أقل مما تم تسليمه لآخر رجاله(3). وتضايق الكامل من وجود هذا القائد، الذى دعاه هو لمعاونته، جاثماً على صدره(4) وهو لا يستطيع أن يستل سيفه ضده، ولأن الحرب كانت تعنى إفساد كل خططه بينما هو قاب قوسين أو أدنى من تحقيقها، كما يقول أحد رواة الأخبار(5)، فى إشارة واضحة إلى تقسيم دولة داوود التى كانت هدف كل هذه المداوارات. ولكن فدريكو، عندما أدرك هذا، أخذ يقوى ويحصن صيدا(6)، وقيصرية، ويافا(7) وعمل قدر استطاعته، كما نعلم من الكتاب الغربيين، على تهدئة الصليبيين المرائين أو المتزمتين والمهتاجين كافة. وطال أمد المفاوضات كما كثرت المجاملات بين معسكر الصليبيين والمعسكر المصرى(8). فما أن وصل فدريكو إلى عكا حتى أرسل رسوليه إلى الكامل محملين بهدايا تليق بالملوك؛ وهما بلين حاكم صيدا وتومازو كونت أتشيرًا ونائبه فى

---

(1) تاريخ بطاركة الإسكندرية وابن الأثير. ويشهد أبو الفدا على التقسيم بين الأخوين.

(2) يتضح هذا الأمر بجلاء فى الروايات العربية كافة. ويؤكد الكتاب العرب ان الأشرف قد بقى فى معسكر أخيه، بينما كان يجرى التفاوض مع الإمبراطور.

(3) المقريزى.

(4) يقول النص «وجده جاثماً عليه». والعبارة مأخوذة بلا شك من رواية إخبارية معاصرة، وكررها أبو الفدا وبيبرس.

(5) بيبرس.

(6) الكتاب العرب كافة.

(7) تاريخ بطاركة الإسكندرية.

(8) الكتاب العرب كافة.

بيت المقدس: فاستقبلا بالتكريم[1]. واستمر إيفاد المبعوثين الذين كانوا يمضون جيئه وذهاباً[2]. وكان الكامل يستخدم لهذا الفرض رجال العلم والأدب الذين كانوا موضع ترحيب الإمبراطور وإعزازه وهم: فخر الدين، الذى سبق ذكره[3]؛ والشاعر صلاح الدين الأربيلى[4] والشريف شمس الدين من أرميه قاضى الجيش[5]: وأرسل هدايا من المجوهرات والملابس الثمينة والحيوانات النافعة، والجمال، والجياد، والبغال[6]: وفى مرة أخرى استجلب له خصيصاً من مصر الفيل الوحيد الذى بقى حياً من بين الأفيال التى أهداها له الملك مسعود، أمير شبه الجزيرة العربية[7]. ولما لم تعد فى معسكر فدريكو أشياء نفيسة فإنه أخذ يطرح على السلطان مسائل فى الفلسفة أو الرياضيات، فكان هذا يطلب حلها من الكاتب الشهير علم الدين، وهو عالم من علماء المذهب الحنفى[8].

وانقضت على هذا الحال ستة شهور: وعند نهايتها نرى أن فدريكو قد ضجر بعجرفة مسيحيى فلسطين سواء كانوا مسلحين أو عزلا، وكان نافد الصبر من بقائه بعيداً عن مملكته، وكان متأثراً ويلقى

---

(1) **تاريخ بطاركة الإسكندرية**. وقد أضفت اسم الأول ولقب الثانى. على أساس ما جاء به الكتاب الغربيون.

(2) الكتاب العرب كافة.

(3) ابن العميد، ص ٥١١؛ بيبرس، ص ٥١٤، المقريزى، ص ٥١٩.

(4) ابن العميد، ص ٥١١.

(5) المقريزى، ص ٥٢٠.

(6) **تاريخ بطاركة الإسكندرية**. ماثيو باريس. *Historia Anglorum*. طبعة لندن. ١٨٦٦، المجلد الثانى، ص ٣٠٢، ويذكر فى هذا المضمار *"xenia multa et pretiosa in auro et argento et olosericis et gemmis et bestiis mirabilibus, quas Occidens non vidit aut cognovit"*.

(7) **تاريخ بطاركة الإسكندرية**. وريكاردو دا سان جرمانو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٥٨٠ يذكر فى عام ١٢٢٨ هذه الهدايا الغريبة من الفيل إلى البغال التى أرسلها السلطان عن طريق رئيس أساقفة بالرمو. ولعل هذا الفيل هو فيل سنة ١٢٣٧ نفسه، عند حصار بونتشيكو، وكان يحمل فوق ظهره هودجاً صغيراً محفوفاً بالرايات الإمبراطورية ويسهر حوله سراسنة كثيرون، كما يقول ساليمبينى، بارما، ١٨٥٧، ص ٤٨.

(8) قارن بين: بيبرس، ص ٥١٤ والمقريزى، ص ٥٢٢.

مقاومة من جانب الجيوش البابوية. ويبدو أنه قد خفض من مطالبه خفضاً كبيراً؛ ولكنه نجح بكل تأكيد فى أن يبدو أمام المسلمين أكثر هدوءاً وقوة من ذى قبل. وقال بوضوح لفخر الدين إنه لا يتوق كثيراً للملك على أرض المقدس، ولكنه يريد أن يحافظ على سمعته ورصيده فى أوربا؛ وإنه لو لم يكن هذا لما ضايق السلطان بإصراره وعنته(1). ومن هنا فإنه عقد، طبقاً للظروف، اتفاقاً هزيلاً. ويروى كل الكتاب العرب ان الكامل قد اجبر منه على هذا الاتفاق: وهناك من يكتب أن السلطان قد أدرك أنه لا يستطيع الحصول على غير هذا من الأرض السيئة التى وضع فيها قدمية(2)؛ وهناك من يؤكد أنه لم يكن بمقدوره بأى شكل من الأشكال مقاومة جيوش فدريكو(3)؛ وهناك من يتهمه بأنه تحاشى الحرب، لأنها كانت ستقضى على مآربه الذى تحرك لأجله من مصر والذى كان قوب قوسين أو أدنى من تحقيقه(4)، اى الاستيلاء على نصف دولة دمشق. وعندما وقع فدريكو بعد ذلك هذا الاتفاق، فإن المبعوث صلاح الدين الأربيلى سارع يكتب لسيده، مازحاً بأبيات من الشعر، بأنه أصاب مقصده، وأن «الإمبراطور قد تخيل بأنه قد عقد السلم على طريقته: ولكنه وقد مد ذراعه بالقسم؛ فلسوف يقضمه، عندما يعض أصبع الندم على ما فعل»(5).

وقد وافق السلطان بأن يتضمن الاتفاق على سيادة طارون، أميرةً يقول الكتاب العرب أنها ابنة أومفريدو(6). ثم تفاخر الكامل مع أتباعه

---

(1) بيبرس، ص ٥١٤. المقريزى، ص ٥٢١.

(2) ابو الفدا والنويرى.

(3) المقريزى، ص ٥٢٠.

(4) بيبرس، ص ٥١٤.

(5) ابن خلكان، النص، طبعة دى سلان، المجلد الأول، ص ٨٨؛ وطبعة ومستنفلد، الفصلة الأولى، ص ١٠٣، الترجمة رقم ٧٥؛ وفى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٢٤.

(6) ابن العميد، المرجع المذكور، ص ٥١١. واسم الأب مكتوب هـ ن ف ر ى وعندما نضع علامات الحركة يصبح هُمفروا. وفى الهامش الخامس بتلك الصفحة رأيت أن نقرأ هنرى، فقد بدى لى أن المراد هى أميرة من مناصرى فدريكو الثانى أى: إلهس، ارملة

ببقاء الأماكن المقدسة الإسلامية فى يدهم وانهم بهذا لم يتنازلوا للإمبراطور إلا عن النذر اليسير أو عن أى شئ: فما هى إلا اكداس من الدور، والكنائس المتهالكة وكلها محاطة بأراض إسلامية، تكفى إشارة واحدة للاستيلاء عليها مرة أخرى دون مقاومة(1). وهكذا تم التوقيع بين الملكين على الهدنة لمدة عشر سنوات وخمسة شهور واربعة عشر يوماً(2)، تبدأ من الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ستمائة وست وعشرين (٢٤ فبراير ١٢٢٩)، وكانت الفقرات الرئيسة فى الاتفاق هى: إعادة مدينة القدس إلى فدريكو ومعها الناصرة، وبيت لحم، واللد، ورام الله والقرى الأخرى الواقعة على الطريق إلى عكا ويافا بالإضافة إلى أرض ثورون وصيدا، وأن يبقى جامع عمر وقبة الصخرة، والمقصود بها الصخرة التى ترك بها محمد (عليه السلام) أثر قدمه عندما أسرى به، فى حرامة المسلمين. وأن يؤدوا

اوجو ملك قبرص والوصية على حكم ابنها اريجو والتى تم استبعادها من الوصاية على الحكم على يد امراء إيبلين الذين كانوا أعداءاً لفدريكو، وكانت تعيش فى سوريا عندما مر بها. وكانت اليس ابنة أريجو وهو كونت من شمبانى وإيرابيللا دى لوزينيانو والتى كان زوجها الأول هو أومفريدو سيد طارون: ولكنها عندما انفصلت عنه بسبب بعض المكائد السياسية والكنسية وتزوجت بعد ذلك كورادو دى مونفراتو، واريجو دى شمبانى وأمريجو دى لوزينيانو الذى انجبت منه اوجو الأول، ملك قبرص وزوج اليس. وعندما تاملت الأمر جيداً لاحظت أن اليس لم تستطع أن ترث السيادة على طارون والتى لا أعلم إن كان قد منحها لها فدريكو. ولعل المقصود فى النص هى ابنة أومفريدو الطارونى، التى انجبتها أم أخرى بعد طلاقه من إيزابيللا: فى هذه الحالة يكون ما جاء بالنص صحيحاً. واكتفى بهذا لأنه لا توجد بين يدى الوثائق التى قد تلزم للتحقق من هذا الشك فى السلالة الإقطاعية لمملكة القدس. وإلى أراضى طارون وتضمينها فى السلام يشهر ايضاً مارين سانودو، *Secretorum fidelium crucis*. الكتاب الثالث، الجزء الحادى عشر، الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر، فى كتاب بونجارز، *Gesta Deipar Francos*. المجلد الثانى، ص ٢١٠ وما بعدها، وهو مصدر مطلع على تفاصيل هذه الحرب الصليبية وكان أحد كتب المؤلفين العرب فى متناول يده، إن لم اخطئ.

(1) بيبرس، ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

(2) هذا ما يقوله المقريزى، ولا شك انه طالع إحدى الوثائق. أما الكتاب العرب الآخرون، وكذلك الكتاب اللاتين فيذكرون السنوات فقط.

فيهما الصلاة طبقاً لشريعتهم، ويمكن للمسيحيين زيارة هذه الأماكن المقدسة: وأن تبقى الضياع المملوكة للمسلمين ملكاً لهم ويحكمهم حاكم من أمتهم(1). وأضاف المسلمون فقرة استبدلها لهم الكامل وبمقتضاها يمنع إعادة بناء أسوار القدس: ولكن فدريكو اكد تأكيداً واضحاً عكس ذلك لأوربا وكتب يقول إنه يمكن كذلك تحصين يافا، وقيصرية، وصيدا وقلعة تمبلارى بالقرب من عكا(2). ثم أنه وقع بين المسلمين ما وقع نفسه فى العالم المسيحى: فقد لعن عامة المتعصبين الكامل وسلامه المشين(3)؛ واستاء منه إمام بغداد كما استاء منه بابا روما، ولكنه هدأ واستكان بشكل أسهل كثيراً(4).

ذهب فدريكو لاستلام القدس برافقه مندوب عن الكامل(5)، وقد أثار إعجاب المسلمين بعلمه وفطنته وتسامحه أو، كما يقولون هم، لميله إلى الإسلام، وتهكمه على المسيحية: ومن هنا فقد وصفه

---

(1) قارن بين: الكتاب العرب المذكورين والوثائق اللاتينية الصادرة من الجانب الإمبراطورى ومن الجانب البابوى والتي جمعها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثالث، من ص ٨٨ إلى ص ١١٠، ومن بينها الترجمة الفرنسية للنص العربى للاتفاقية والتى ارسلها بطريرك القدس إلى البابا، مع ملاحظاته الخاصة باللاتينية. وقد اعيد طبع هذه النخبة من الوثائق الكنسية بواسطة ماس - لاترى. *Histoire de l'île de Chypre*، المجلد الثالث، ص ٦٢٦ وما بعدها. ولكنها بكل تأكيد لا تطابق الاتفاقية الأصلية. فتنقصها أسماء البلاد التى تم التنازل عنها للإمبراطور. وهكذا فإن أفضل وثيقة لاتزال هى ما نطلق عليه اليوم الكتاب الدورى الإمبراطورى والمؤرخ فى القدس بتاريخ ١٨ مارس والذى يذكر أن الاتفاقية قد تم إبرامها فى ١٨ فبراير. وتاريخ ٢٤ الذى جاء به العرب قد يكون التاريخ الذى اعتمد فيه الملك الكامل الاتفاقية. واللد مذكورة فقط فى الكتابات الإسلامية: ورام الله فى تاريخ بطاركة الإسكندرية فقط. وطبقاً لما جاء به ابن العميد، ص ٥١١. فقد تم التنازل لفدريكو عن كل القرى بين القدس ويافا.

(2) هذا ما جاء فى وثيقة ١٨ مارس المذكورة، ولم يجرؤ بطريرك القدس أن يؤكد العكس فى كتابه المضلل والمنهف.

(3) ابن الأثير، ص ٣١٦؛ والنويرى، ص ٥٤٣؛ وبيبرس، ص ٥١٤؛ وابن العميد، الصفحة نفسها. انظر النوادر والأشعار المكتوبة فى هذه المناسبة، فى كتاب رينو، *Extraits*، ص ٤٣٢ وما بعدها. ونقرأ النوادر أيضاً فى نص ابن الجوزى، ص ٥١٥.

(4) رينو، *Extraits*، ص ٤٢٢.

(5) بيبرس، ص ٥١٤.

بعضهم بأنه دهرى أى ما قد يعنى اليوم حلولى(1): وتعجب الجميع من هذا الإمبراطور الفيلسوف والمحارب، الأصلع، ضعيف النظر، ذى البشرة المشوبة بالحمرة، الذى لو عرض فى سوق العبيد لما ساوى مائتى درهم(2). ومن بين النوادر التى نقرؤها عنه، نذكر فقط تلك النادرة التى تحكى أنه اصطحب معه إلى بيت المقدس معلمه لعلم الجدل، ووصفاء وحراس، وكلهم من مسلمى صقلية الذين كانوا يركعون للصلاة عند سماع أذان المؤذن من فوق مآذن جامع عمر: وكان الإمبراطور أيضاً يطيب له ذلك النغم. وما كان يغضب لتلاوة آيات القرآن التى تدعو المسيحيين مشركين(3). وقد علم المسلمون علماً قليلاً عن عداوة البابا الشائنة، وعداوة بطريرك بيت المقدس، والرهبان المحاربين وكل أولئك الذين كانوا يجتهدون لإيقاف مسيرة فدريكو فى هذه الحرب الصليبية(4): ومن هذه المشكلات والخلافات ظهرت فى الحوليات العربية الدسيسة التى نقلتها كذلك الحوليات اللاتينية، أى أن بعض الصليبيين قد أوعزوا إلى الكامل أن يقتل فدريكو، فأرسل السلطان إليه خطابات الخونة(5). ثم يقدم لنا العرب

---

(1) دهرى بمعناها العرفى أزلى وتمنى منكر الخلق.

(2) ابن الجوزى، ص ٥١٥.

(3) الموضع المذكور.

(4) هذا ما يبدو لى على الرغم مما تقوله تتمة جوليلمو الصورى، فى الفقرة التى نقلها برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ٨٥.

(5) م. رينو، *Extraits*، ص ٤٢٩، طبقاً لمرجمية الذهبى. يروى أن بعض الصليبيين أوعزوا للكامل أن يقتل فدريكو، وأن السلطان أرسل إليه شخصياً الكتاب الأصلى. ولم أصل لإيجاد هذا النص فى باريس، عندما جمعت النصوص الأخرى من أجل المكتبة العربية - الصقلية، ولكنه سيكون بلا شك بين أيدينا فى مجلدات *Bibliothèque des Croisades* التى تطبع تحت رعاية أكاديمية النقوش، ويذكر ماتيو باريس فى *Hist. Anglorum*، الطبعة المذكورة، المجلد الثانى، ص ٣١٢، يذكر الشائعة التى تقول أن حراس المعبد وسيد الهيكل قد نبهوا الكامل بقرب ذهاب فدريكو من القدس إلى نهر الأردن، وأن الكامل قد أرسل كتابهم إلى الإمبراطور. ولكن مؤلف *Abbreviatio Chronicorum*، الطبعة المذكور، المجلد الثالث، ص ٢٥٩، أضاف تعقيبه بأنها افتراءات أذاعها أعداء أولئك الرهبان.

بدقة كل تفاصيل العملية، بل واليوم الذى نزل فيه الإمبراطور من سفينته عائداً إلى إيطاليا(1).

قادت ملكية بيت المقدس المتقلقلة الإمبراطور إلى اتخاذ إجراءات وثيقة فى الولايات التى تمتد من برزخ السويس إلى نهر الفرات، وفى هذه الولايات كان الرهبان والبارونات المسيحيين والأمراء المسلمين،الكبار والصغار. ينتظرون آنذاك أكثر من أى وقت مضى أن يسلبوا بعضهم بعضاً. بأن يرتبطوا وقد كشفوا عن وجوههم بأعداء دينهم، ضد إخوتهم فى المسيح أو فى محمد. وكان مزدرو هؤلاء وأولئك هم جماعة من الملعونين والمضطهدين الذين وصلوا إلى حالة من العوز والفقر ولكنهم ظلوا يثيرون الخوف منهم بسبب قلاعهم الحصينة ورجالهم من القتلة الجريئين، وكان هؤلاء هم الإسماعيليين الذين أطلق عليهم العالم المسيحى القتلة الحشاشين، وكان شيخهم أو رئيس طائفتهم يُدعى عجوز الجبل(2). وكانت القوتان اللتان تسيطران على هذا الحشد الكبير من الإقطاعيات هما القاهرة ودمشق. إلى أن ابتلعت أولاهما الثانية.

وملك الأشرف على دمشق (١٢٢٩) بينما كان الكامل يتنازل عن القدس وتضامن معه ضد الخوارزميين الذين كسب عداءهم، وتوفى فى سنة ستمائة وخمس وثلاثين (١٢٣٧)، وترك الجزء الخاص به فى سوريا لأخيه إسماعيل؛ وكان الكامل قد أسرع بتجريد أخيه هذا وجعل من نفسه، ما بين سيد مباشر وسيد إقطاعى، ملكاً على كل

---

(1) المقريزى، ص ٥٢٢، يقول إنه فى آخر جمادى الثانى سنة ٦٢٥ (٢٥ مايو ١٢٢٩). ويقول تاريخ بطاركة الإسكندرية إنه دخل القدس فى بدايات الصوم الأربعينى سنة ٩٤٥ (١٢٢٩) وإنه بقى بها يومين آخرين، ثم مضى إلى عكا وسافر إلى إيطاليا بعد عيد الفصح. ويحدد النويرى تاريخ تسليم القدس فى ربيع الثانى من سنة ٦٢٦ (مارس ١٢٢٩).

(2) لقد صار من المؤكد أن الإسماعيليين كان يطلق عليهم الحشاشون، بسبب تحضيرهم المعروف للحشيش، أى *cannabis indica*؛ وللأسف فبسبب ذيوع صيتهم فى زمن الحروب الصليبية فإن اسمهم الشائع الذى ينطق *assasin*، أدخل هذا اللفظ القبيح إلى بعض اللغات الأوربية.

ممالك الأيوبيين. ولكنه توفى هو نفسه بعد الأشرف بستة شهور (مارس ١٢٣٨) وترك سوريا لأحد ابنيه ومصر لابنه الآخر، وهكذا استؤنفت عادة الأسرة وتقاليدها؛ وتوفى أحد الوريثين، أما الآخر، الذى اتخذ لقب الملك الصالح، فقد احتل الدولة كلها (يونيو ١٢٤٠). وفى تلك الأثناء لم يلق بعض الصليبيين الجدد بالا باتفاقات فدريكو، وشنوا الحرب وضيقوا الخناق على القدس؛ وحاولوا مرة أخرى الهجوم على مصر، وفيها لقوا الهزيمة. وأثناء تلك الجلبة أراد الناصر، الذى كان عمّاه قد جرَّداه (١٢٢٩) من دمشق وتركا له إمارة كرك أن يسترد مملكته؛ فلما علم بأن المسيحيين قد تم كسرهم، انقض على القدس، وقتل أو أسر كل من فيها، وهدم حصونها (١٢٤١). وفى الوقت نفسه استعاد إسماعيل، الذى ذكرناه سابقاً، دمشق وانضم مع كل من استطاع الانضمام إليهم، دون تفرقة دينية: ووقعت بالتالى المصـادمات والمجـازر، والخـراب، والهدنة حتى سـنة ألف ومائتين وأربـع وأربعين، عندما انقض الخـوارزميون على الجميع(1).

ولدينا كثير من آثار مفاوضات فدريكو فى تلك الفترة. ونعلم أنه فى سنة ألف ومائتين واثنين وثلاثين حضر إليه فى بوليا رسل سلطان دمشق(2)، وكان السلطان فى ذلك الوقت هو الأشرف الذى طلب عندما تغلب عليه الخوارزميون فى أرمينيا، مساعدة أخيه الكامل(3). وفى هذا اللقاء أو فى لقاء بعده قدم فدريكو للأشرف هدية دباً أبيض، كتب عنه المسلمون بعجب إنه يشبه الأسد فى نوعية شعره وإنه كان يلقى بنفسه فى البحر لصيد السمك. وكتبوا كذلك عن هدية

---

(1) ابن خلدون، *Storia univ.*، طبعة القاهرة، المجلد الخامس، ص ٣٥٢ وما بعدها؛ رينو، *Extraits*، إلخ. §§ ٧٩ و٨٠، ص ٤٣٦ وما بعدها.

(2) ريكـــاردو دا ســـان جـــرمانو، فى كـــتاب كـــاروزو، المرجــــع المذكـــور، ص ٦٠٢.

(3) ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ٤٣٣.

أخرى وهو طاووس أبيض(1). وفى يوم الثانى والعشرين من يوليو من السنة نفسها أعد فدريكو فى ملفى وليمة كبيرة لرسل سلطان مصر ولعجوز الجبل وشارك فى المادبة أساقفة عديدون وفرسان ألمان كثيرون(2)، وكانت المادبة مشهداً للتسامح فى البلاط الإمبراطورى أغرب من مشهد الدب الأبيض فى دمشق. ولكن هذه الملاقات مع الإسماعيليين لم تمر مرور الكرام فى ألمانيا: بل وصل الأمر فى السنة السابقة إلى القول بأن الحشاشين قد طعنوا دوق بفاريا بإيعاز من الإمبراطور، عدوه اللدود(3). وقد تناقلت هذا الإفك والبهتان ألسنة رجال الدين فى ذلك العصر مما أدى إلى ظهور مائة قصة قديمة نقرأ فى إحداها أن فدريكو عندما ذهب إلى «جبل العجوز» أراد العجوز أن يظهر له سطوته وبأسه، «وعندما رأى اثنين من الحشاشين فوق البرج: قبض على لحيتيهما: فألقى هذان نفسهما من فوق البرج إلى الأرض ولقيا حتفهما فى الحال والتو»(4).

وقد زادت الروابط مع سلطان مصر بعد تسليم القدس وصارت هناك صداقة واضحة على حد قول أحد الكتاب المسلمين(5)، وأكد هذا الاتهام الواضح الذى أصدره البابا إنوتشنزو الرابع(6). ويبدو

---

(1) رينو، المرجع المذكور، ص ٤٣٥ وقد استشهد بالنسبة للهدية الأولى بالهافى المنتحل وللهدية الثانية بأبى المحاسن.

(2) *Annales Colon. Maximi*. فى كتاب برتز، *Script*. المجلد السابع عشر، ص ٨٤٣.

(3) المرجع المذكور، ص ٨٤٢.

(4) القصة ٩٨ من الطبعات القديمة. وقد حكيت هذه القصة قبل ذلك مرات كثيرة فى أزمان مختلفة مع تغيير الشخصيات. ففى القرنين التاسع والعاشر نسبت إلى الإسماعيليين فى فارس؛ وفى القرن الثانى عشر إلى الإسماعيليين فى سوريا. وقد جعل أحد متابعى جوليلمو الصورى، والذى نسخ عنه مارين سانودو، جعل أريجو كونت ثم ملك القدس يشهد عملية الانتحار. انظر الاستشهادات فى الكتاب الدقيق الذى كتبه م. دى فرمرى، *Nouvelles Recherches sur les Ismaeliens*. باريس، ١٨٥٥. مستل من *Journal Asiatique* سنة ١٨٥٤.

(5) بيبرس، المرجع المذكور، ص ٥١٥.

(6) رسائل سنة ١٢٤٥ و١٢٤٦ فى كتاب برهوللز، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٢٥ و٤٢٧.

كذلك أنه تم بين فدريكو والكامل توقيع اتفاق سياسى وتجارى فى السنة نفسها أو بعدها بقليل وهو الأرجح، وهو اتفاق حضارى حتى إنه يمكن عقده مرة أخرى فى القرن التاسع عشر مع تعديلات طفيفة. وأقول إنه تحالف هجومى ودفاعى وللأمن المتبادل وللإعفاءات الضريبية للمواطنين وتختلف اختلافاً بسيطاً عن الإعفاءات التى تم الاتفاق عليها سنة ألف ومائتين وتسع وثمانين بين السلطان قلاوون وولى عهده من جانب، والملك الفونس داراجونا، والملك جاكومو ملك صقلية ومع أخويهما من جانب آخر؛ ويؤكد مؤرخ بلاط القاهرة فى ذلك الوقت أن مواد الاتفاق قد تم اقتراحها من جانب أسرة أراجونا طبقاً للسلام الذى أجراه فى وقت من الأوقات الملك الكامل مع الإمبراطور(1). ومن المؤكد أنه أثناء مفاوضات القدس قد تناول الحديث الإعفاءات الجمركية فى ميناء الإسكندرية(2): وقد أدت عبقرية الأميرين ورجال البلاطين إلى توسيع تلك الأفكار وتحقيقها وجعلها واقعاً ملموساً بدلاً من تركها تتقشع وتزول. وإذا كانت روعة الهدايا كانت موضوعاً دالاً على أهمية الاتفاق، فإن الموضوع الذى نتحدث عنه يرجع إلى سنة ألف ومائتين واثنين وثلاثين نفسها، عندما جاء رسل مصر، الذين جرى الاحتفاء بهم فى وليمة ملفى، بهدية قيمة جداً قدر ثمنها بعشرين ألف مارك كولونى، وكانت عبارة عن رواق قبته تمثل السماء وفيها تتحرك الشمس والقمر يحركهما جهاز مستور، فيشيران إلى ساعات النهار والليل: وقد أمر الملك بحفظ هذا الجهاز فى فينوزا(3). ونعرف أن أحد الرسل المصريين، واسمه مخلوف، قد وافته المنية فى مسينا

---

(1) انظر بداية § الثالثة فى تاريخ قلاوون، المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٢٤١ والترجمة التى قدمتها فى *Guerra del Vespro Siciliano*، المجلد الثانى، ص ٢٣٢ وما بعدها من طبعة سنة ١٨٦٦.

(2) انظر شهادة المقريزى، المذكورة سابقاً فى ص ٦١٠.

(3) *Annales Colon. Maximi*، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد السابع عشر، ص ٨٤٢.

ودفن فى ساحل موزللا، وكانت مقبرته ظاهرة للعيان حتى نهاية القرن الثالث عشر(1). ولعل الفرسان، الذين جاءوا فى بعثات مشابهة أرسلها السلطان، قد شوهدوا فى معسكر الإمبراطور جنوب بريشا (١٢٣٨)(2).

ولم تنته الصداقة بين البلاطين بانتهاء حياة الكامل. ففى سنة تسعمائة وثمان وخمسين للشهداء (٢٩ أغسطس ١٢٤١ إلى ٢٨ أغسطس ١٢٤٢) رست فى الإسكندرية سفينة صقلية، تحمل اسم متزوموندو *Mezzomondo*(3) وكانت تحمل - كما قيل - تسعمائة رجل وبضائع لا نهاية لها ومعها الهدايا التى أرسلها الإمبراطور إلى السلطان الجديد بصحبة رسولين، ويبدو أن أكبرهما مرتبة، طبقاً للوصف الذى يصفه به المؤرخ القبطى، كان راهباً صار رئيس أساقفة إن لم نعلم أنه كان روجيرو ديللى اميتشى(4). وانتظر المندوبان مدة

---

(1) برتولوميو دى نيوكاسترو، الفصل الخمسون، فى كتاب جريجوريو، *Rerum Aragon*، المجلد الأول، ص ٧٣. ونقرأ الاسم ملهلوسوس. واسم المكان الذى مازال حياً يعنى فى اللغة العربية، مكان الصلاة، أى المكان الخلاء الذى تقام فيه الصلاة الجامعة.

(2) *Chronicon De Rebus in Italia Gestis*، طبعة برهوللز، ص ١٧٤. ولا اوافق برهوللز، *Historia Diplom, etc*، المقدمة، ص ٣٠٤، الهامش رقم ٢، على أنهم مرتزقة عرب، أو على أن فدريكو قد استقدمهم من أفريقية. إن صديقى العالم كان يثق ثقة زائدة فى ماتيو سبينيللى.

(3) **نصف الدنيا**. تذكر سفينة المهدية التى كان يطلق عليها هذا الاسم والتى تحدثنا عنها فى هذا الكتاب فى الفصل الثانى، ص ٣٢٩ من المجلد.

(4) *Appendice al Malaterra*، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٢٥٢. ونقرأ تحت سنة ١٢٤٠، المرسوم الخامس عشر *"Rogerius de Amicis ivit ad Soldanum Babiloniæ"*. وفى سنة ١٢٤١ المرسوم الأول *"Soldanus de... et... insiluerunt (in) christianos qui habitabant Jerusalem et ceperunt illos, occ iderunt et captivos duxerunt... Et in illis diebus Dominus Rogerius de Amicis manebat (in) Babiloniam et in Cayrum cum Soldano"* وتاريخ الإقامة ومدتها الطويلة يدلان على اتفاق شخصية المبعوث الرئيس مع الشخصية التى ذكرت فى **تاريخ بطاركة الإسكندرية**. ثم إننا نقرأ فى الكتاب المذكور: «وعن أكبر هذين المبعوثين يقولون إنه يضع على جسمه رداءً من الصوف». وفى القرن الثالث عشر كان عندنا القلانيللا: أم أن استخدام قمصان النيل والقطن لم يكن منتشراً كذلك فى صقلية؟

طويلة الإذن بالمـثول بين يدى السلطان: ولما أذن لهما ولمرافيقهما الذين كان يبلغ عددهم مائة شخص، اقتيدوا إلى العاصمة عبر جولة طويلة مرت بالفيوم والأهرامات والجيزة؛ وقد وجدوا مصر القديمة والقاهرة الجديدة وقد ازدانت للاحتفال، والجيش وقد سار فى استعراض، وأهل المدينة وقد خرجوا لاستقبالهم. وكان السلطان قد أرسل إليهما جوادين نوبيين كما زودوا المرافقين بالجياد المطهمة: وقد أمر بنزولهم فى قصرين من قصور الأمراء، وأغدق عليهم الهدايا. ووفر لهم كل وسائل الراحة. وتجدد الاحتفال يوم حضورهم الرسمى إلى قلعة السلطان، واستمرت هذه الضيافة الكريمة طوال الشتاء الذى قضوه فى القاهرة، فى صحبة سعيدة. وولائم، وحفلات ورحلات قنص ومباريات فى رمى السهام(1). وفى السنة التالية وصل رسول آخر بالقرب من الإسكندرية على سفينة ضخمة كان اسمها هى أيضاً متزوموندو، وقد تعجب الناس من ضخامتها. ويقال إنها كانت تنقل حمولة كبيرة جداً من الزيت والخمر والجبن والعسل وغيرها من المؤن الغذائية وثلاثمائة من البحارة بالإضافة إلى ركابها(2). وهناك أمور أخرى تدلل على العلاقات الوثيقة بين صقلية ومصر. وقد أكد هذا فى سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين أو وست وأربعين السلطان نفسه للبابا الذى لم يستنكف ان يكتب له طالباً هدنة للمسيحيين فى فلسطين(3). وعندما رست سفينة فى الإسكندرية سنة ستمائة واربع وأربعين (١٩ مايو ١٢٤٦ إلى ٧ مايو ١٢٤٧) حملت أخباراً جديدة، غير دقيقة ولكنها حقيقية فى مغزاها. عن الصراع الكبير الذى كان يدور فى أوربا: كان البابا يضطهد الإمبراطور بصفته خارج عن الإيمان وبصفته نصف مسلم؛ ولهذا

(1) تاريخ بطاركة الإسكندرية. فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٣٢٤ و٣٢٥. انظر رينو. *Extraits ec.*، ص ٤٤١ و٤٤٢.

(2) تاريخ بطاركة الإسكندرية، المرجع المذكور، ص ٣٢٦.

(3) رينالد. *Annales Eccles.*، ١٢٤٦. وارجع بالنسبة للتاريخ إلى برهوللز. المرجع المذكور. المقدمة، ص ٢٦٨

فقد حرّض عليه بارونات من الحكام ليقتلوه، ووعد واحداً منهم بصقلية، ووعد الثانى ببوليا، ووعد الثالث بتوسكانا: وعندما علم الإمبراطور من عيونه أن المتآمرين عليه سيهاجمونه أثناء نومه، وضع أسيراً فى فراشه، وتربص بهم مع مائة فارس، وبينما كان القتلة يطعنون العبد، ذبحهم جميعاً بيده، وسلخ جثثهم، وملأ جلودهم بالقش وعلقها على بوابة إحدى قلاعه. وكما هو واضح، فإن هذه القصة الخيالية تصور ملامح المؤامرات التى اكتشفت آنذاك فى أراضى نابولى. وتختتم القصة، وهى تعود إلى الحقيقة، بأنه بعد فشل تلك الضربة فإن البابا أرسل جيشاً ضد الإمبراطور(1). ويكتب المسلمون أن الإمبراطور حذر الملك الصالح من تحرك سان لويجى ضد مصر(2): وفى الحقيقة قد يؤدى اتفاق قلاوون الذى سبق ذكره، إلى الاعتقاد فى صحة هذه القصة، لأن ألفونسو داراجونا وچاكومو الصقلى قد التزما، إلى جانب ما التزما به من أمور أخرى، بأن يحذرا السلطان ويخطراه بمثل هذه الأمور(3). ولدينا فى النهاية فى المذكرات الإسلامية فى ذلك الوقت، اللقب الذى كانت تستخدمه القاهرة عندما تكتب لفدريكو وهو: «الملك الكبير المعظم الجبار، ملك ألمانيا ولومبارديا وصقلية، حارس بيت المقدس، سند بابا روما، ملك ملوك المسيحيين، وحامى ممالك الفرنجة، وقائد جيوش الصليبيين»(4).

ولم تتقطع هذه الصداقة مع سلاطين مصر حتى نهاية حكم أسرة دى زفيڤيا والدليل على هذا أن السلطان بيبرس قد أرسل زرافة هدية

---

(1) اليافى المنتحل، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٥١٦ و٥١٧.
(2) المرجع المذكور، ص ٥١٧.
(3) النص، فى المرجع المذكور، ص ٣٤٦: والترجمة فى كتابى *Storia del Vespro Siciliano*، المجلد الثانى، ص ٢٤١ من طبعة ١٨٦٦.
(4) ابن الجوزى، نقله اليافى المنتحل، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٥١٧.

إلى مانفريدى(1). وقد شهد على استمرار هذه الصداقة بشكل أوضح لأبى الفدا معلمـه جمال الدين القـاضى الأعلى الشافعى المذهب فى حماه، وهو مؤرخ، وعالم رياضيات، وفقيه ومؤلف كتب مختلفة من بينها مبحث فى الجدل أهداه إلى مانفريدى وعنوانه (الرسالة) الإمبراطورية؛ لأن المسلمين أطلقوا على أبناء فدريكو الثانى لقب أباطرة. وروى جمال الدين أن بيبرس أوفده رسولاً إلى مانفريدى سنة ستمائة وتسع وخمسين (من ٦ ديسمبر ١٢٦٠ إلى ٢٥ نوفمبر ١٢٦١) وأنه سافر من بلاط أسرة دى زفيڤيا عندما كان البابا على وشك منح المملكة لكارلو دانچو. وروى أنه تبادل الحديث أكثر من مرة مع الملك فى إحدى مدن بوليا تبعد سفر خمسة أيام عن روما وقريبة جداً من أراضى لوتشيرا، وكان كل سكانها من المسلمين، النازحين من صقلية؛ وأنه فى لوتشيرا كانت تتبع الشعائر الإسلامية، وكذلك صلاة الجماعة يوم الجمعة؛ وأن كثيراً من رجال مانفريدى كانوا من تلك السلالة وكان يُؤذَّن فى المعسكر علانية للصلاة خمس مرات فى اليوم. وأكد ان فدريكو ومن بعده كورادو ومانفريدى، الذين كان يطلق عليهم لقب الإمبراطور، قد قام البابا بحرمانهم من الكنيسـة بسبب محبتهم للمسلمين، وحكى قصة عن ارتقاء فدريكو لعرش الإمبراطورية سمعها من رجال البلاط: وهى البلية نفسها التى يقوم بها كل مرشح يجمع أصوات الآخرين ويعد بصوته لكل ناخب.

وهناك الكثير مما نستنتجه من العلاقات السياسية بين بلاط بالرمو وبلاط القاهرة ومع غيره من المسلين فى النصف الأول من القرن الثالث عشر. وسوف نتناول فى الفصول التالية التجـارة بين

---

(1) الباقى المنتحل، الذى ذكره رينو فى . *Extraits ec.*، ص ٤٣٦، الهامش ١. البرتو مانيو، الأعمال الكاملة، المجلد السادس، ليون ١٦٥١، *De Animalibus*. المبحث الثانى، الفصل الأول، *De Anabula §*. ويضيف هذا الحيوان الذى يسميه العرب والإيطاليون زراف *Seraph* ويستطرد قائلاً: *"Unam harum secum temporibus nostris, habuit Federicus imperator, in partibus nostris".*

الشعوب، وقد كانت المرة تلو المرة سبباً ونتيجة لعادات الأمراء وأعرافهم. كما سنستعرض الجوانب الحضارية التى سنلاحظها فى الفترة الأخيرة من وجود جماعات صقلية الإسلامية.

الفصل العاشر

ينتقل تاريخ الآداب فى صقلية من عهد الأمراء الأكالبة إلى الملك روجيرو، ويتخطى ما يقرب من قرن من الزمان، يبدأ بحرب المسلمين الأهلية وينتهى باستقرار الغزاة المسيحيين الذين أتوا من وراء الفارو وجبال الألب؛ وفى تلك الفترة لمع كثير من المسلمين من رجال العلم والأدب فى أراض إسلامية أخرى عندما تركوا الجزيرة. وفى المقابل كانت عناصر الحضارة الغربية القائمة فى جانب منها على تراث السكان الأصليين وفى الآخر على الأجانب، تواجه عناء كى تزدهر وسط مثل هذا التغير العميق الذى جرى فى الدين واللغة والنظم السياسية والاجتماعية. والأسس التى وضعها السكان الأصليون من قبل لم تكن قد اندثرت. فالثلاثمائة مدونة التى وقفها القس سكولارو على ديره الجديد فى مسينا فى العام الأخير من القرن الحادى عشر(1) تشهد بأن الدراسات لم تكن قد طواها النسيان؛ كما لا يبدو لى مستبعدا، أنه بين المواعظ والقوانين الكنسية وكتب الصلوات، كانت مكتبة مؤسس الدير تتضمن بعض الكلاسيكيين وبعض كتب التاريخ أو الحساب. ونحو نهاية منتصف القرن عندما شيد چورچ الأنطاكى، وهو رجل من أصل آخر وذو همة نادرة، كنيسة سانتا ماريا فى بالرمو التى يطلق عليها اليوم ماراتورانا، فقد أهداها ضمن العديد من الهبات «كتبا ليست بالقليلة»(2). ومن هنـا يتضح أن هذه المجموعات النادرة كان يُحتفظ

---

(1) انظر الفصل التاسع من الكتاب الخامس، ص ٢٥٩ من هذا المجلد الثالث.

(2) وثيقة يونانية لعام ١١٤٢، والمستشهد بها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ من المجلد، حيث صححت نص «العلامة» العربية لهذه الشهادة، التى نشرها مورسو والأستاذ كاروزو. الفقرة العربية من الشهادة لم تُقرأ أفضل من «علامة». أما مورسو

بها باعتبارها مقتنيات تزين قصور كبار الصقليين، ومحتويات ضرورية فى المنشآت الكنسية؛ ومع ازدياد عددها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، تزايد أيضا عدد المدونات التى تم جمعها بها ومحاولة قراءة مضمونها.

وعند الوصول إلى فترة تحرر روجيرو، الكونت الثانى، ثم بعد ذلك بقليل ملك صقلية، نتوقف عن الاستقراء لما لدينا من شهادات صريحة ووقائع ثابتة. لقد لاحظنا آنفا عبقرية ذلك الأمير العظيمة، وحماسته للعلم، والمديح الذى كان جديرا به فى كتاب الجغرافيا الذى سمى باسمه؛ وأشرنا إضافة إلى هذا إلى علماء بلاط بالرمو الذين تبوأ بينهم المرتبة الأولى دائما لعقله الفذ ومكانته العالية. وسنتناول بالحديث الآن أولئك الرجال العظماء وأعمالهم حسب الأخبار القليلة التى وصلت إلينا.

كانت أعمال بطليموس بين أعمال أخرى كثيرة أنقذها العرب من غرق العلم القديم؛ وترجموها إلى لغتهم فى القرن التاسع الميلادى: وعلى هذا النحو درست أوربا كتاب «المجسطى» الذى أعيدت

فترجمها بطريقته على هذا النحو:

"Mense maii; indictione sexta, rogatus fuit Dominus noster Rex augustus, sanctus, cujus regnum Deus Perpetuet, ut imprimeret suum nobile signum in hoc diplomate, ut sciatur quod ejus potentia, ordinatione divina constituta, hoc etiam concessit annuitque responsione, et se contentum declaravit, impressitque suum sublime signum. Sufficiens est Deus et propitius ei qui confidit in illo". ويلى ذلك مباشرة توقيع جورج. ولما بدى لى أن صيغة التصديق الملكية لمثل هذه المحررات يمكن أن تلقى كثيراً من الضوء على كتابة الوثائق والتشريع فى تلك الفترة، وأن قراءة موريسو خاطئة «إلى حد ما فإننى اترجم هنا من جديد النص العربى كما قرأته بجلاء، فى النسخة الأصلية: «فى شهر مايو، الخمسعشرية السادسة طلبت من سيدنا الملك المبجل والقديس، خلّد الله ملكه، بأن يأمر بوضع علامته السامية على هذه الشهادة، حتى يعلم الجميع أن عظمته، حفظ الله ملكه، قد سمع ووقع على هذا (المحرر). واصدر عظمته موافقته، بالتصديق على (المحرر) ووضع «علامته» السامية على راسه. نتوكل على الله فمنه حسن التدبير».

ترجمته من العربية إلى اللاتينية قبل الحصول على النص اليونانى بكثير. وكتاب «الجغرافيا» الذى جاء عبر الطريق نفسه، توقف فى صقلية كما سنذكر هذا بالتفصيل الآن. ولكن نص «علم البصريات» مفقود، ولا يتوفر لدينا حاليا سوى الترجمة اللاتينية التى قام بها الأدميرال الصقلى أوچينيو عن ترجمة عربية. وهذا المؤلَّف الذى حجبه عملا المؤلف نفسه الآخرين اللذين كانا يبهران الناس بسعة موضوعهما، عمل أقيم منهما، طبقا لرأى العلم الحديث. وهنا أسس بطليموس نظريته بناءً على التجارب والحقائق الحسابية بدلا من أن يصرف عقول الدارسين إلى افتراضات كبيرة. ومن ثم فإن علماء العصور الوسطى الذين كانوا يتطلعون إلى إكتشاف القوانين الطبيعية، ومن بينهم روچيرو باكونى ورووچو مونتانو، تداولوا كتاب علم بصريات بطليموس باعتباره كتابا كلاسيكيا: وإذا كان هذا الكتاب يفيد اليوم فقط فى تاريخ العلوم فإنه يعتبر علامة كبيرة على التقدم الكبير فيه، إذ تناول بشكل جيد نظرية انكسار الضوء التى كان الكتاب القدماء قد اقتصروا على مجرد الإشارة إليها. كان هذا هو رأى ألسندرو هومبولدت(1). ويلمس الأدميرال أوچينيو فى تمهيد موجز جدا

---

(1) *Cosmos*، الطبعة الفرنسية عام ١٨٤٨، المجلد الثانى، ٢٣٣ و٥١٩. راجع فضلاً عن هذا فينتورى *Commentarii sopra la Storia e le teorie dell' Ottica* بولونيا ١٨١٤. المجلد الأول، ص ٣١ إلى ٥٩: كوسان، *Memoires de l'Institut de France*, *Acad. des Inscriptions*. المجلد السادس (١٨٢٢). وعالجها *Humboldt* نفسه فى *Raccolta di Osservazioni astronomiche*. المجلد الأول (١٨١١)، ص ٦٥ إلى ٧٠. كما عالجها *Delambre* فى *Storia dell' Astronomia... etc*. ودرس *Humboldt*، مخطوطة باريس، *Ancien fonds 7310*، ودرس كوسان هذه وغيرها، بالمكتبة نفسها ولا يشير إلى أرقامها، ولم أتمكن أنا من العثور عليها: وأخيرا يستشهد فى شك بمدونة أخرى بمكتبة بودليانا. وفى إيطاليا لدينا مدونتا الأمبروزيانا سأذكرهما فى الهامش التالى، وواحدة بمكتبة الفاتيكان رقم ٢٩٧٥، واثنتان بمكتبة فلورنسا القومية (*Raccolta Magliabechiana*) رقم ١١. *D.* ٦٤ و٢، ٢، ٢٥؛ ومدونة الأمير بالداسارى بونكومبانى فى روما. والمدرج فى قائمة إنريكو ناردوتشى، روما، ١٨٦٢، ص ١٣٦ وما يليها، رقم ٣١٤.

وبينما أقوم بتصحيح هذه الصفحات أعلم أنه يتم لدينا الاعداد لنشر هذا الكتاب الذى

أهمية تلك الدراسة، كما تنبه إلى اختلاف طابع اللغات، وبالتالى لم يكن من اليسير النقل من العربية إلى اليونانية أو اللاتينية، ويصرح أنه فى بعض المواضع بدلا من الترجمة ترجمة حرفية، فسوف يحاول الإلمام بفكر المؤلف ونقله فى أحسن صيغة مناسبة. ومع هذا ينبه إلى أن النص العربى لا يحتوى على الحديث الأول من الأحاديث الخمسة التى يتألف منها المبحث، وأن احدى المدونتين اللتين كانتا فى متناول يديه فى حالة جيدة، بحق، ولكنه لم يعثر أيضا فيها على الحديث الأول.(1) ومن هنا

كان قد شرع فيه فينتورى فى أواخر القرن الماضى ثم اضطر لأن يتركه. وأتمنى ان يعثر العلماء الناشرون المعاصرون والذين أعرفهم جيداً على مخطوطات أقدم من التى عرفتها، والتى ترجع إلى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. ولو صدق ظنى فكلها إيطالية وكل منها ذات صلة قرابة وثيقة بالأخرى. إن العصر والبلاد يتوافقان جيدا مع الحركة العلمية التى يكشف عنها ذلك الانتشار السريع للنسخ.

(1) ها هو التمهيد الذى نسخته من مخطوطة باريس ٧٣١٠ (القرن السابع عشر)، وقارنته وصححته بنسخة فيها الفقرة نفسها أرسلها لى فى عام ١٨٥٦ العالم الفاضل أنطونيو تشيريانى، وهو اليوم مدير امبروزيانا *Ambrosiana*. هذه النسخة تم نسخها من مخطوط امبروزيانا *T* ١٠٠. مع البدائل الواردة بالمخطوط *D. 451 Inf.* (القرن السابع عشر). ولا أقوم بالمقارنة مع المخطوطات الأخرى التى بمكتباتنا لأن الناشرين الجدد يقومون بذلك؛ ولا أقول فقط إن مخطوطات *magliabechiani* الماليابكية والرومانية تتضمن هى الأخرى عبارة *ammiraco* بدلا من *ammirato*. وسوف اترك هذه الأخطاء الواضحة والبدائل قليلة الأهمية واتبع الكتابة الحالية.

"Incipit liber Ptolomei de Opticis, sive aspectibus, translatus ab amirato (cod. par. ammiraco) Eugenio Siculo, de Arabico in latinum"

"Cum considerarem Optica Ptolomei necessaria utique fore scientiam diligentibus et rerum perscrutantibus naturam, laboris onus subire et illa in presenti libro interpretare non recusavi. Veruntamen, quia universa linguarum genera proprium habent idioma, et alterius in alterum translatio, fideli maxime interpreti, non est facilis; et praesertim arabicam in graecam aut latinam transferre volenti, tanto difficilius est, quanto major diversitas inter illas, tam in verbis et nominibus quam in litterali compositione reperitur, unde, quia in hoc opere quaedam forte non manifesta apparent, dignum duxi intentionem auctoris ab arabico libro evidentius intellectam, breviter exponere, ut lectoribus via levior efficiatur. In primo quidem sermone, quamvis non sit inventus, tamen sicut in principio secundi exprimitur, continetur quo visus et lumen comunicant et ad invicem assimilantur, et quo differunt in virtutibus et motibus, nec non differentiae eorum et accidentia. In secundo etc".

ويواصل المترجم على هذا النحو فهرست الفصول ثم يعاود:

"Incipit sermo secundus Opticorum Ptolomei, olim de graeca lingua in arabicam, nunc autem de arabica in latinam, translatorum ab amirato (cod. par. ammiraco) Eugenio Siculo, ex duobus exemplaribus, quorum novissimum, unde presens translatio facta fuit, veratius est: primus tamen sermo non est inventus".

وموضوعات الأحاديث الخمسة أو الكتب كما يطلق عليها هى: الأول: افتراض حول الرؤية من خلال أشعة ضوء تصدر من العين، والثانى: تصحيح عيوب الرؤية عن طريق الحواس الأخرى، والثالث: انعكاس الضوء؛ والرابع عن المرايا المقعرة بصفة خاصة: والخامس: انكسار الضوء.

نرى أن اوجينيو كان متقدماً جداً فى مجالى الطبيعة وفقه اللغة، علاوة على إجادته الكتابة باللغة اللاتينية، حسب عصره. لذا أحسبه صقلى الأصل وليس يونانيا من المشرق مثل جورج الأنطاكى. وحتى الآن لم تتم طباعة هذا العمل، ولكن أتعشم أن يرى النور عما قريب فى إيطاليا، بعد سبعة قرون من ترجمته هنا فى أرض بلادنا نفسها. ويكفى أن أضيف هنا أن اسم المترجم ووظيفته الرسمية نقرؤهما فى كل النصوص مدونين بالقلم دون بدائل تقريبا، مما لا يراه، أى متمرس فى الكتابات القديمة، فى استبدال أحد الحروف بحرف آخر، وهذا ما نجده فى بعض المدونات حيث نقرأ *ammiraco* بدلا من *ammirato*. وأما أن يكون المؤلف معاصرا للملك روجيرو فهذا ما نخلص إليه فى سمات العمل نفسها: وتدلل عليه الوثائق، كما تؤكده فى رأيى نسخة أخرى لاتينية تنتسب إلى الأدميرال ذاته.

وأقصد نبؤات سيبلا إريتريا، المكتوبة بالكلدانية فى صيغة رسالة موجهة إلى الاغريق وهم فى طريقهم إلى حرب طروادة، والتى نقلها إلى اليونانية دوكسوباترو *Doxopatro*، ومنها حولها إلى اللاتينية اوجينيو، أدميرال مملكة صقلية التى وصل إليها الكتاب اليونانى بعد انتزاعه من كنوز الامبراطور مانويلى. وفى الحقيقة قد يبدو اسم المترجم الأخير مصطنعاً تماما مثل المؤلفة الملهمة به. وعصر مانويل كومنيتو قد يبدو عصراً مفترضا مثل عصر بريامو: حيث إن الأحداث التى يشار إليها تحت ستار غريب من أسود وأفاعى ونسور وبراكين وزلازل وعواصف السماء وجرائم البشر، من الواضح أنها كانت تلك الأحداث التى عصفت بإيطاليا وأوربا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر. وينبغى الالتفات إلى أن كتب النبوءات هذه، منذ القدم وحتى اواخر العصور الوسطى، كان يغلب عليها النقل والإضافة وإن لم يكن إعادة التأليف من أساسه. ومن ثم لا يبدو لى مستبعدا أن يكون أحد المحتالين قد باع للملك روجيرو، بثمن باهظ، بعض المخطوطات اليونانية المتهالكة المتسخة، متباهيا بسرقتها من

منافسه كومنينو، أو أن المنتحل الذى عاش فى القرن التالى كتب مباشرة باللاتينية مصطنعا أيضا إسمى الامبراطور مالكها والأدميرال الصقلى، اللذين كما يعلم الجميع كانا متعاصرين، وولع أحدهما بعلم التجيم، واشتهر الآخر بترجمة مؤلفات علمية من لغات المشرق(1). وفى الحالة الأولى فإن دوكسوباترو *Doxopatro* المترجم المزعوم من الكلدانية ربما كان هو البليغ چوفانى مؤلف *Comentarii d'Aphthontio*، وأعمال أخرى يبدو أنه تم انجازها فى أواخر القرن الحادى عشر(2). أما بالنسبة للافتراض الثانى، فيمكننا القول إن المزيف اراد أن يقدم اسم نيلو دوكسوباترو الذى حضر من اليونان إلى بلاط روچيرو، وإنه اصطنع أيضا اسم المترجم اللاتينى حتى يُبعد تماما عن القرن الثالث عشر تلك الحكايات التى كان ينشرها.

ونظرا لأننا بحثنا فى موضع آخر(3) فى دور روچيرو فى تأليف كتاب الجغرافيا المتداولة اليوم باسم جغرافية الإدريسى، ولمسنا

---

(1) كان كوسان اول من ذكر هذه النبوات فى عمله *Memoria su l'ottica di Tolomeo*، وذلك كى يحدد المصر الذى عاش فيه الأدميرال اوجينيو الذى لم يكن لديه اخبار اخرى عنه.

وبعد البحث عن هذه المخطوطات والعثور عليها فى مكتبة باريس القومية، وجدت أنها تشير فى تباين ضئيل فيما بينها إلى اسم ووظيفة اوجينيو، وإلى المصدر الغريب الذى جاء منه هذا العمل. والمخطوطات هى: مخطوطات لاتينية. *Ancien Fonds*. رقم ٢٥٩٥، ٦٢٦٢ و٧٣٢٩، والسربون ٣١٦. ويبدو أن المخطوطتين الأولى والثالثة ترجعان إلى القرن الرابع عشر. أما الثانية فهى من الخامس عشر والرابعة من السادس عشر. ويحمل الكتاب أيضا عنوان: *Vasilographi, idest imperialis*. فى ٦٢٦٢. وتتحدد رتبة اوچينيو بـ *admiratus*. فى هذه المخطوطة ٢٥٩٥. (ورقة ٣٧ وما بعدها) وفى ٣١٦ السربون، وتحدد بـ *ammiratus*، فى ٧٣٢٩ (ورقة ٩٨ الوجه الأول). وتبدأ هذه المخطوطة بـ *l'Astrologia Guidonis Bonati de Forlivio*. ويشار إلى المترجم اليونانى احيانا باسم *toxapater*، واحيانا أخرى *dox pater*، وفى مواضع أخرى *daxopetri*، وفى ٧٣٢٩ اغفل الاسم تماماً.

(2) انظر والز. *Rhetores Græci*. فى مقدمة الجزء الثانى، ص ١١. وفى الجزء السادس ص١١. واخذت هذا الاستشهاد من *Nouvelle Biographie etc* للعلامة هويفر، مادة *Doxipater*. نظراً لأنه لم يتوفر لدى عمل والز وانا اكتب عن الموضوع.

(3) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٢٦ وما يليها من المجلد.

إقامة هذا العالم المسلم فى بلاط بالرمو، فمن المناسب الآن أن نتكلم عما نعلمه عن حياته ونحاول تقييم العمل.

والشريف الإدريسى، وهذا هو اللقب الذى لقب به هو وكل سلالة علىّ وفاطمة، من ذرية إدريس، سليل بنت النبى من الدرجة الرابعة. وكان قد فر، عندما حكم عليه بالاعدام لتمرده على خليفة بغداد عام مائة وتسعة وثلاثين (٧٨٦) ورحل من الحجاز إلى دولة مراكش الحالية، حيث نصبته قبائل البربر خليفة عليهم (٧٨٩) وحيث أسس ابنه بعد ذلك مدينة فاس (٨٠٧). وسقطت أسرة الأدارسة فى القرن العاشر: ولما لقى فى أوائل القرن الحادى عشر الخلفاء الأمويون فى أسبانيا المصير نفسه، اعتلى عرشهم علىّ، بن حمود وهو أحد الأدارسة: ومن هنا أطلق على هذا الفرع الجديد بنى حمود. ولم تثبت خلافتهم طويلا فى قرطبة. وعندما انهارت خلافتهم استولوا على مالاجا والجزيراس، (١٠٣٥ - ١٠٣٨). ولما فقدوهما أيضا استولوا على أراضى أخرى فى شمال افريقيا وحكموها. وعندما حضر أحد رجالهم إلى صقلية، استولى على كاستروجوفانى وسلّمها للكونت روجيرو(1). ويبدو أن عالم الجغرافيا المتحدر من بنى حمود فى مالاجا قد اتخذ اسم الإدريسى بدلا من الحمودى لكى يميز لقبه عن ابن حمود صقلية، أو لكى يُذكّر برئيس السلالة المجيد فى الغرب وبالادريس جده الأكبر، وأول أمراء مالاجا(2).

ولم يشفع له ذلك الأصل النبيل ولا العلم الوفير للحصول على ترجمـــة للإدريسى بين الآلاف والآلاف التى حـــررها المؤلفون

---

(1) الكتاب الخامس، الفصل السادس، ص ١٧٥ وما بعدها من هذا المجلد.

(2) يقول ابن خلدون فى **المقدمة** صراحة إنه من بنى حمود، وإنه حضر إلى صقلية بعد طرد أجداده من مالاجا، حيث كانوا ساداتها. وهذه الفقرة كان أول من ذكرها هو البارون دى سلان فى مقال مهم جدا نشره حول جغرافيا الإدريسى فى *Journal Asiatique*، السلسلة الثالثة، المجلد الحادى عشر (١٨٤١) ص ٣٦٢ وما بعدها:

العرب فى العصور الوسطى(1). حاول أن يكتب عنه ليونى الإفريقى فى القرن السادس عشر، لرغبته العارمة فى اشباع شغف الإيطاليين الأدبى، وكتب من الذاكرة وأحيانا من الخيال؛ وفضلا عن هذا وصلتنا مسودته عن طريق ترجمة مزدوجة(2) وهو ما لا يتسم بالشفافية. وبعد البحث والتنقيب هنا وهناك، تمكن الباحثون فى هذه السنوات الأخيرة من جمع بعض الأخبار جديرة بالثقة. كان الأدريسى يُدعى أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله، ابن ذلك الإدريسى الذى لقب فى مالاجا (١٠٣٥) بأمير المؤمنين، واشتهر بالعالى بأمر الله(3). ويقال إن عالم الجغرافيا ولد فى سبته.

---

(1) البارون دى سلان، وهو من أكثر الباحثين دأباً وعلماً بالمخطوطات العربية كتب فى المقال المذكور. فى ص ٣٧٤ وما بعدها قائمة طويلة بالأعمال التى رجع إليها دون أن يعثر فيها على أية أخبار عن حياة الإدريسى.

(2) إن المبحث المعنون *De Viris illistribus apud Arabes*، حيث يتناول ليون الإفريقى فى الباب الرابع عشر سيرة «الشريف الصقلى» كما أطلق عليه. كان مكتوبا بالعربية أو يتبع أسلوب التفكير العربى، وترجمه مؤلفه بنفسه إلى ذلك المستوى من اللغة الإيطالية الذى كان بإمكانه، ثم نشره *Hottinger* هوتنجر، باللاتينية ومن بعده فابريسيوس، فى *Bibl. Græca*، المجلد الثالث عشر (١٧٢٦)، ص ٢٧٨، وأخيراً جريجوريو. *Rerum Arab*. ص ٢٣٨ . وعلى حد قول ليونى ولد مؤلف **نزهة الأبصار** فى مازلرا، وأرسله مواطنو مازارا إلى الملك روجيرو الذى استولى على صقلية حيث قدم له ذلك الكتاب. ولما أمر بترجمته إلى اللاتينية، افتتن بروعة العمل لدرجة أنه أهدى للشريف أحد القصور ودعاه للاقامة فى البلاط: ونظراً لأن هذه الاقامة لم تقل إعجابه باع القصر بمليون دوقية، وتوجه إلى افريقيا إلى حين وافته المنية عام ١١٢٢ . وسوف لا يدهش هذا الخلط من قرأ ملاحظاتنا حول أعمال ليونى الافريقى فى الباب العاشر من الكتاب الأول، ص ٣٠٤ وما بعدها .

وعندما لاحظ جريجوريو، الموضع السابق، ذلك الخلط بين الحاكمين اللذين يحملان اسم روجيرو، صحح لقب الملك بالكونت، ونقل العمل إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، ومن ثم أوجد اثنين يدعيان ادريسى وجغرافيين، ووصل إلى لوم كازيرى لأنه لم يتنبه إلى اختلاف العملين لعالمى الجغرافيا المزعومين.

(3) يقرأ هذا الأسم فى مخطوطة بودليانا *Bodlejana*، رقم ٨٨٧ من قائمة *Uri*، وهى مدونة متواضعة من القرن الخامس عشر. والفصل الموجود **بالخريدة** الذى نشرت نصه فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦١٠ يورد فقط اسم محمد بن محمد ويضيف اسم نسبه وهو القرطبى واسم الشهرة ابن الشرى، طبقاً لإحدى المخطوطات، وابن الشـ... رى طبقا لمخطوطة أخرى، ويبدو لى أن كلا الاسمين خطأ . وأيضاً حاجى

عام أربعمائة وثلاثة وتسعين من الهجرة (١١٠٠) وتعلم فى قرطبة(1)؛ ومن المؤكد أنه رحل رحلة طويلة فى شبه الجزيرة الأسبانية حتى شواطىء الأطلسى. ورأى فى أفريقيا قسطنطينة والمناطق الجنوبية فى المغرب؛ وفى المشرق وصل على الأقل إلى نيقيا، فقد كتب أنه دخل فى عام خمسمائة وعشرة (١١١٦) فى مغارة أهل الكهف المعروفين فى أدب سيرة العارفين الإسلامى(2).

أما الفترة التى عاشها فى صقلية فهى أقل غموضا، حيث أطلق عليه الصقلى؛ كما كانت العادة فى اتخاذ أسماء الأصول من مسقط الرأس او مكان التعليم أو الاقامة. وكما قلنا فى الفصل الثالث والرابع من هذا الكتاب آتى الإدريسى من ساحل أفريقيا إلى بالرمو وقد استهواه كرم روجيرو وسخاؤه، وكان نسبه إلى بنى حمود يرفع مكانته ولا يعرضه لأية مخاطر، كما تحدثنا عن كيفية أقامته فى بلاط جوليلمو الأول(3)، ولا نعلم(4) إلى أى البلاد توجه، ومتى مات حيث أن آخر الأخبار

حليفة. طبعة *Fluegel*. السادس. ٣٣٣ و**المكتبة العربية ـ الصقلية**. ص ٧٠٦ من النص. يكتب فقط إسمى محمد بن محمد. الشريف إدريسى الصقلى. أما دوزى، فى مقدمة *Description de l'Afrique et de l'Espagne*، ص٣، فيقر نسبه العائلى الذى يستخلص من مخطوط بودليانا، والذى لا أرى فى الحقيقة ما يرفضه.

(1) هكذا يقول كازيرى *Bibl arabo-hisp.*، ٢. ١٢، دون أن يذكر مصادره، ولكن أخباره تتفق مع ما لدينا من مصادر أخرى. والدراسة فى قرطبة يدلل عليها أيضا الاسم الذى اشتهر به الإدريسى وهو القرطبى وورد **بالخريدة**. وقارن بين دى سلان و دوزى. الموضعان السابقان.

(2) يقول هو نفسه فى الجغرافيا إنه كان فى لشبونة (الترجمة الفرنسية. المجلد الثانى. ٢٦)؛ وإنه رأى المد والجزر فى الأطلسى (١. ٩٥) ومناجم الزئبق فى أبال *Abal* (٢. ٦٦)، وإنه لاحظ أكثر من مرة الجليد. فى شوارع أغمات (١. ٢١٢) وأعجب بجسر قسطنطينة (١. ٢٤٣)؛ وإنه نزل فى مغارة أهل الكهف. ليس فى افسس *Efeso* ولكن بين جبل اموريتم *Amorinm*، ونيقيا *Nicea*. (٢. ٣٠٠). قارن رينو وابو الفدا. **المقدمة**. ص ١١٢ و١١٤.

(3) الصفحات ٤٣٧ وما يليها، و٤٦٧ وما بعدها فى هذا المجلد.

(4) يقول ليونى الأفريقى إنه مات عام ٥١٦ الموافق ١١٢٢-١١٢٣، وهذا خطأ بالتأكيد. ويفترض البارون دى سلان فى العمل النقدى الذى أثنينا عليه منذ قليل إفتراضا معقولا وهو أن ليونى أو من ترجمه ذكر العام الهجرى ٥١٦ بدلا من عام ٥٦٠، وبذلك قد يرجع موت الإدريسى إلى عام ١١٦٤ ـ ١١٦٥.

التى لدينا عنه نجدها عند ابن بشرون، صاحب مختار الأندلسيين أى «مختار (الشعراء) الأسبان»، وقد قابل الإدريسى فى بالرمو ويقول إنه وضع كتاب نزهة المشتاق لروجيرو، وبأنه كتب فى الموضوع نفسه لجوليلمو الأول وذلك فى روض الأنس ونزهة النفس. ونقل عماد الدين الأصفهانى ذلك مع فقرات أخرى من مختارات ابن بشرون فى كتاب الخريدة، وهو المصدر الرئيس للأخبار التى نستقيها عن الشعراء العرب فى صقلية. وأخذ صاحبا المختارات، دون أن يضيفا شيئا عن أعمال الإدريسى الجغرافية، يشيان بأسلوب ملئ بالمحسنات البديعية على أشعاره. فالأول يقول إنه حصل عليها من مؤلفها نفسه، والثانى يحتفظ منها بفقرات عدة تقدر بخمسة وثلاثين بيتا(1) من الشعر. ويمكن لهذه الأبيات أن تندرج فى خزانة أشعار شعراء الأركاديا الإيطاليين. فالصور التي طالما تكررت في الشعر جاء التعبير عنها عنده في عذوبة وصفاء. ولغة هذه القصائد أقل تكلفاً من لغة الجغرافيا التى رَصّع الإدريسى أجزاءً كثيرة

(1) نقرأ النص الذي يشتمل على اخبار حياته في المكـتبة العربية ـ الصقلية. ص ٦١٠ و٦١١. حيث لم انشر ابيات شعر الإدريسى التي نسختها من مخطوتين باريسيتين للخريدة اي *Anciens Fonds*، ١٣٧٦. الورقة ١٩ الوجه الأول وما بعدها. واسلين ٣٦٩، ورقة ١٢ الوجه الثاني وما بعده.

وتبدأ القصيدة الأولى التى يروى فيها ذلك الحلم الحسى المعروف لدى الشعراء العرب بهذا المعنى: «أتتنى فى الظلام تزورنى، فما انتبهت من داب الرقيب، حتى ارتميت للنوم، وصوت الأحياء راح يغيب».

وإسم «رقيب» الذى ترجمته بالمعنى العام «يقظ» يطلق على من يقوم بالرقابة، ومن ينتظر. ومن يقوم بالملاحظات الفلكية.. الخ. لعل الإدريسى كان إلى حد ما فلكيا أو منجما، ولكن ليس بالأبيات التالية شيئا يرجح هذا المعنى أو ذاك.

ويعترف الجغرافى فى الفقرة الثانية «بأنه قضي ليالي كثيرة يحتسى الخمر مع زمرة من النبلاء المختارين، وبأن الخمر فى ردائه الأصفر ويزينه عقد من زبد. لعب برؤوسهم حتى ان الشفق أدرك الندماء مسترخَين على الأرض بين انهار وجداول ومروج؛ نهضوا منها مشدوهين، ولكنهم عادوا يديرون الكؤوس حتى المساء».

ويبدو ان الإدريسى عندما قال أشعاره لابن بشرون كان قد تخطى ذلك العمر الجميل، حيث إنه فى آخر قصيدة غزل، تغلب عليها الرتابة، لا يفكر إلا فى الموت وفى خطاياه وفى رحمة الله به.

منها بالإغراق البلاغي والمحسنات والتعبيرات المهجـورة التى جعلت وصفه رتيبا مبهما أحيانا بدلا من أن تضفي عليه جمالا. وعندما ننتقل من الشكل إلى المضمون ينبغى فى المقام الأول أن نعيد إلى الأذهان حال الدراسات الجغرافية فى منتصف القرن الثانى عشر. كانت الدراسات الاغريقية والرومانية القديمة تقضى بقياس الأرض من خلال رصد السماء؛ وبدأت تسجيل المسافات بين المدن، ومجرى الأنهار، وشكل البحار؛ ووصف الطبيعة العضوية وأجناس البشر وأعمالهم؛ وخَلّفَت خطوطا رئيسة لخرائط ومسالك مرسومة؛ وهذه الأعمال، وإن كانت ناقصة لقلة كفاءة الأدوات المستخدمة فيها وقلة الملاحظات وتغلب الافتراضات. إلا أنها تكشف عن إرساء أسس ذلك العلم.

وكان مبحث بطليموس يجمع أطرافه جميعها، ويضيف إليها الأغلاط الخاصة بالمؤلف. ولما حلت ظلمات البربرية ضعف علم الجغرافيا فى أوربا، مثل باقى العلوم وآل إلى كتابات مشوشة وإلى تلخيص الملخصات، واستمر فى تدهوره فى الغرب من القرن الخامس إلى القرن الحادى عشر من التقويم الميلادى(1): وبدأت إحدى حركات انتعاشه فقط فى القرن الثانى عشر، مع الحملات الصليبية. ويمكننا القول بأن البيزنطيين احتفظوا بكتب الجغرافيا دون دراستها. ولكن عندما دخل العرب فى التعامل مع الشعوب راحوا يبحثون فى حماسة الشباب عن علوم الجغرافيا. وكانت قد أهلتهم لذلك حياة البادية والترحال ورحلات القوافل والشغف بأبراج السماء، وربما أيضا الاتجار مع سكان بلاد ما بين النهرين الذين أعملوا فكرهم منذ القدم فى جلد السماء. وقد جذب العرب إلى علم التنجيم التنازع

(1) استند فى التفاصيل إلى الفصلين الخامس والحادى عشر من كتاب ليلويل وعنوانه: *Geographie du Moyen-âge*. وهو أثر فى المعرفة وحب العلم والإرادة الصلبة فى مواجهة الحظ العاثر. والكتاب لسوء الحظ غير منسق جيدا ومكتوب بلغة فرنسية لا تفهم أحيانا، وغالبا ما تصيب قارئها بالتعب.

المتواصل في مجتمعهم، وكانت العقيدة من ناحية أخري تدفعهم إلي حل مسائل خاصة بظواهر الكون؛ ففي البلاد النائية في الشمال والغرب كانوا يحتاجون إلي تحديد اتجاه القبلة أي اتجاه مكة، ومواقيت الصلوات الخمس التي تتباين حسب طول النهار.

وامتد خيط الاهتمام بالجغرافيا العامة بأعمال بلاد فارس الساسانية والهند واليونان، وخاصة بكتب مارين الصوري وبطليموس التي ترجمت إلي العربية من نصوصها اليونانية أو من ترجمات سيريانية. ولما كانت جغرافيا وصف البلدان قد بدأت بتقارير القواد الذين كانوا يحكمون الممالك التي تم فتحها، وبمسارات البريد وبالتسجيلات العقارية، وبكل صور النشاط الأخري في مؤسساتهم، فقد ازدادت ثراء بالرحلات الكثيرة جدا التي قام بها الرحالة والتجار والأدباء المتنقلين في أراضي المسلمين الشاسعة(1) . وهكذا أعاد المسلمون منذ نهاية القرن الثامن وحتي النصف الأول من القرن الثاني عشر قياس درجة دائرة نصف النهار الأرضي، وشيئا فشيئا أعادوا جداول خطوط الطول والعرض، ووسعوا المعارف عن المعمورة حتي أقصي السواحل الشرقية في آسيا وحتي خط الاستواء في أفريقيا، وكتبوا فى المسارات والوصف ومسودات إحصائية، كما جددوا خريطة اليابسة ورسموا خرائط جزئية(2). ورغم انهم لم يصلوا إلى تبديد بعض الحكايات الخيالية الجغرافية، بل أضافوا عليها من عندهم، ولم يتحرروا تماما من تأثير بطليموس ولم يعرفوا أوريا بطريقة صحيحة، فإن العرب سلكوا دروب العلم الحقيقية، في حين كان النظام الإقطاعي في الغرب يجثم علي العقول والأبدان ويضيق عليها.

(1) انظر رينو *Géographie d'Abulfeda*، المقدمة § ٢: وليلويل، المرجع السابق، *Epilogue*، الفصل ٨٧ فى ٦١: وسيديو *Sédillot Prolégoméns des Tables d'Oloug, Beg.*، ص ٨ وما بعدها. وانظر سبرنجر *Die Post-und Reiserouten des Orients,*، ليبزج ١٨٦٤.

(2) بخصوص علم الخرائط عند العرب انظر رينو، المرجع السابق ص ٤٤ و٤٥ و٢٥٢ وليلويل، المرجع السابق، في مواضع متفرقة.

ولذا شرع روجيرو فى تأليف جغرافية العالم، واستعان في ذلك بمعارف الشرق والغرب معا، وكذلك بخلاصات الدراسات الجديدة: وهو عمل ما كان يستطيع أن يشرع فيه، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر سوي ملك صقلية وإيطاليا الجنوبية. وفي مقدمة الإدريسي المشار إليها(1) آنفا نقرأ أسماء إثني عشر جغرافيا درسهم الملك كما يقال، منهم عشرة من العرب، وبطليموس اليوناني، والأخير يبدو أنه أوروزيو الملخِّص اللاتيني الشهير في العصور المتأخرة(2). وستة جغرافيين من العرب معروفون لنا: وهم المسعودى والجيهاني وابن خردزبة وابن حوقل واليعقوبي وقُدامه، وهم كتاب بارعون في الجغرافية الوصفية(3). أما الأربعة الآخرون وهم أحمد بن عمر العُذري (أو العَذري) وجاناخ ابن خاقان القيماقي(4)، وموسي بن قاسم الكـ .ر.. دي، واسحاق بن الحسن المعروف بالفلكي. فهم غير مشهورين ولا نعلم أي فرع من فروع الجغرافيا تناولوه بالدراسة: إلا أنه ورد ذكر أولهم لدي القزويني ويمكننا من خلال الصفة التي نسبت للأخير منهم أن نحسبه مؤلفاً في الجغرافيا الحسابية، أو مؤلفاً أولي اهتمامه لجداول خطوط العرض والطول(5). ولا يظهر إذن بين مصادر

---

(1) في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣٧ وما بعدها.

(2) ورد الاسم في كل المخطوطات علي هذا النحو.. ر.. سيوس الانطاكي، دون حرف متحرك بعد حرف الراء، وبلا اي علامة تحدد ما إذا كان الحرف الأول أ ام إ ام أ. وربما أطلق احد المترجمين السيريانيين أو العرب لقب الأنطاكي علي باولو اوروزيو دا تراجونا نظرا لرحلته في الشرق. ويعد باولو من ناحية أخري المؤرخ اللاتيني الوحيد الذي يشير إليه العرب، وانظر بخصوصه حاجي خليفة، طبعة فلوجل ٥، ١٧١، رقم ٦٢٦. ١٠. وحول المعلومات الجغرافية التي يتضمنها تاريخ باولو اوروزيو. قارن ليلويل، المرجع السابق، الفصل ٢٨ من الجزء بعنوان *Epilogue*. ص٢٥.

(3) حول هؤلاء المؤلفين انظر رينو، المرجع السابق، المقدمة، § ٢، ص ٥٧ و ٦٠ و٦١ و٦٢ و٨١.

(4) أسماء الأعلام مثل اللقب العرقى توضح أن هذا المؤلف كان من أصل تتاري.

(5) إن ابحاث رينو وليلويل وسبرنجر وسيديّو، وم. باربيه دي ماينار لا تذكر اي خبر عن هؤلاء المؤلفين.

الإدريسي أشهر الكتاب العرب السابقين له في هذا الفرع من الجغرافيا مثل الباطني وأبو الوفا وابن يونس والبيروني(1)، ولكن من الجائز أن يكون ابن اسحاق بن الحسن قد جمع معلومات عن الثلاثة الأوائل علي الأقل. كما أنه في الجغرافيا الوصفية لا يشار إلي البكري والمقدسي(2)، المؤلفين اللذين نالا كثيرا من الثناء في القرن الحادي عشر(3). ولو أن هذه الكتب كانت مجهولة حقاً في بلاط بالرمو فإننا نفهم بشكل أفضل أن روجيرو قد أطاح بالكتب الأخري وصرف الجغرافيين الزائفين المعاصرين الذين كان قد استعان بهم، وقرر أن يعد من جديد رسم سطح اليابسة والمياه طبقا لتقارير أصحاب الدربة. ويعلم الجميع أن روجيرو سلك هذا الطريق بعد أن هاله ما كانت لتتمخض عنه طريقة بطليموس والعرب الذين صوبوه من رسم بشع للأرض دحضت نسبه تماما مسارات الرحلات بالبر وأكثر منها خرائط الملاحة في البحر المتوسط.

وحالما يجري بحث دقيق لنصوص الإدريسي، وأرقام ومقاييس الخرائط التي تضمنتها، ربما نكتشف مصادر أخري لكتابه لم يفصح عنها في المقدمة: إذ أن بعض المعلومات التي نجدها هنا وهناك غير واردة لدي المؤلفين الذين نعرفهم من بين الذين أشرنا إليهم في التو، ولا يبدو العثور عليها ممكنا لدي غير المعروفين لنا. وكلهم من العرب، عدا أروسيوس، أو أيا كان. وهكذا يلزم العثور

---

(1) رينو، المجلد السابق، المقدمة § ٢، ص ٦٢ و٩٣ و١٠٢، وباربيه دي ماينار *Barbier de Meynard* في *Le livre de Ibn-Khordadbeh*. في *Journal Asiatique*، يناير ١٨٦٥، وسبرنجر، المرجع السابق، المقدمة.

(2) سبرنجر، المرجع السابق، ص ١٨ وما بعدها.

(3) بخصوص كتاب البكري المهم للغاية في الجغرافيا راجع المقدمة التي كتبتها في المجلد الأول ص٥٢، رقم ١٤. وقد نشر البارون دي سلان النص العربي وترجمة فرنسية جديدة.

على أصل مقياس جديد أو عتيق لخط الاستواء، يقدر بخمسة وسبعين ميلا للدرجة(1)، ليس بالأميال العربية ولكن بالأميال الرومانية أى تلك التي استخدمها الإدريسي في الفصل الخاص بصقلية، والتي تكاد تتطابق تماما مع مقياس الأميال الصقلية اليوم(2). ويبدو لنا أن بعض أسـماء الأماكن في صقلية ذاتها مأخوذة عن خرائط يونانية أو رومانية قديمة، وليست من الخرائط العـربية، أو من الاستخدام الشـائع في القرن الثـاني عشر(3). والملاحظة ذاتها نجدها في الأسـماء في اليونان وإيطـاليا الشمالية وبعض المناطق في فرنسا حيث يغلب علي الأسماء صيغتها القديمة، بينما في مناطق

(1) خمسة وعشرون فرسخ كل واحد منها ثلاثة أميال. ويعول المؤلف علي هذا المقياس، ترجمة فرنسية ١و٢. ويذكر مقاييس الهنود وإراستوتين *Erastotene*. ويغفل مقياس بطليموس. وانظر في هذا الخصوص ملاحظات ليلويل، المرجع السابق، الفصل ٦٠، المجلد الأول، ص ١٠٠.

(2) ليلويل، المرجع السابق، الفصل ٢٤٧ و ٦٠، المجلد الأول، ص ٣٩ و ١٠١. وانظر ايضا كتابي *Carte Comparée de la Sicile*، *Notice*، ص١٢ و ١٤. ومقدار الميل الروماني طبقا لأخر الأبحاث ١٤٨١ مترا. والميل الصقلي طبقا لنظام ١٨٠٩ يعادل المقدار ذاته تقريبا. أي ١٤٨٧ مترا. وجدير بالذكر أن الإدريسي في مختلف المسارات، وحتي في تلك الخاصة بصقلية، يستخدم أحيانا أنواعا أخري من الأميال، مما كان يقود أحيانا إلي أخطاء، وأحيانا أخري لا. حيث يبدو ان مؤلفي هذا العمل الصقلي كانوا عارفين بالنسب بين بعض تلك الأنواع من الأميال.

ويخلص ليلويل إلى أن مقياس ٧٥ ميلاً للدرجة كان «استخداماً صقلياً. معروفاً في صقلية..» وهو مقياس بيثياس دا مرسيليا، نقله تيميو دى تاورمينا إلى صقلية. جدير بالذكر أيضاً أن نظام القياس الصقلى جدد، إلى حد ما، فى ١٨٠٩ المقاييس القديمة، التى لم تكن موحدة فى الجزيرة كلها.

(3) علي سبيل المثال جاود.. س. جاولوس *Gaulos* (جوتسو): و نبودي ـ أنابوس *Nabbudi-Anapus*، ومرسي اليوليس *Marsa-el-yulis-Odyssærum portus*. ولا اذكر في القائمة بعض الأسماء الأخري التي من المفترض أنها ظلت قائمة حتي القرن الثاني عشر. مثل ليبنيادس *Libniados*، الذي أطلقه الإدريسي علي ليكاتا *Licata*. المكتوبة *Limpiados* و Ολυμπιάδος في إحدي الوثائق ثنائية اللغة لعام ١١٤١. ولا يبدو لى غير ممكن أن يكون جغرافيو بالرمو قد نقلوا عن خرائط يونانية بعض الأسماء التي لم تكن موجودة في الخرائط العربية. ونعلم من المسعودي، *Les Prairies d'or* النص والترجمة، باريس ١٨٦١، ١، ١٨٥. نعلم أن العرب لم يتمكنوا من قراءة بعض الأسماء في خرائط بطليموس، لأنها مكتوبة باليونانية. ويجب الا يفهم من هذا أنه يشمل

أخري في فرنسا وألمانيا وانجلترا تغلب على الأسماء صيغ اللغات الجديدة ويظهر أصلها جليا في تقارير أو مسارات الأسفار في القرن الثاني عشر(1).

وعند النظر إلي العمل الذي قاده الإدريسي نري أنه استمرت علي مدي خمسة عشر عاما مشافهة أصحاب الدربة ومقارنة أخبارهم،

كل الأسماء المكتوبة باليونانية، ولكن تلك التي لم يتمكن المترجمون العرب من العثور علي مقابل لها، او لم يبحثوا عنها لقلة أهمية مكانها.

(1) انظر في الجزء الثاني من ترجمة م. جوبرت *H.Jaubert*
ن.. ب.. كـتا، ص ١٢١، نوباكـتوس (ليبانتو)، *Naupactos .(Lepanto)*
+ سـك.. لا. ص١٢٥. سـكليوم، *Scyllaeum*
اللـسـك.. د.. مونـا، ص ١٢٥. *Lacedemona*
+ جر.. ب.. س، ص ٢٩٦ نجروبونتي، *Euripos (Negroponte)*
+ بالاخونيا، أو + فلاخونيا. ص ٢٩٩، *Paphlagonia*
مـ .. ديولان. ص٢٤٠. ميديولانوم، *Mediolanum*
ارنيمبنيس، ص٢٤٧. اريمينوم، *Ariminum*
بادي، ص ٢٥٣، بادوم، *Padum*
أنجـ .ل .. زما ص٢٢٧، اكولزيما، *Aequolesima (Angoulême)*
البرنيا، ص٣٦٨، الفيرنيا، *Alvernia (Auvergne).*
ومن ناحية أخري:
لـ .. ج، ص١١٦ ليتشي *Lecce*
بـ .. رزانا، ص١١٧، بروتسانو *Bruzzano*
+ نبريا، ص٢٤٠، اومبريا *Umbria*
سـ .. جونا، ص٢٤٩، سافونا *Savona*
جـ .. بـ .. تـ .. كا، ص٢٥٠، تشفيتافيكيا *Civitavecchia*
وورد إسمان لناردو، ص ١١٩، وهما *Nurdus*، (ويجب تصويبها *Nardros*) و *Neritos*: وهما بالتحديد الإسمان القديم والجديد.

ومن المؤكد أن جغرافيي بالرمو قد أطلعوا علي بعض الخرائط او التقارير العربية حول سواحل إيطاليا: حيث ماكانوا ليعثروا في مكان آخر علي ميناء خنزيرية (وربما كان ميناء فيرايو *Ferraio*)، ص٢٥٠، ولا على الاسم الثاني كيتونة العرب «مرفأ العرب» الذي أطلق علي جبل جـ .. رجو *G..rgio*، (*Capo Circeo*)، ص٢٥٦، وكلمة كيتون التي استخدمها الإدريسي هنا في صيغة التأنيث مأخوذة كما هو واضح من Κοιτών التي انتقلت من معناها القديم وهو سرير وحجرة النوم إلي «مرفأ» أو «مرسي» في اليونانية البيزنطية. انظر ملحوظة السيد هاس علي هذه الكلمة في الطبعة الجديدة من *Thesaurus*.

وهم في رأيي الملاحين الإيطاليين، والرحالة من مناطق أخري في أوربا(1) الذين كانوا يقصدون صقلية. بعضهم لدواعي التجارة، وبعضهم الآخر أثناء مروره بها في الحملات الصليبية؛ والرحالة من المسلمين أيضا، من التجار والجوالين(2). وبعد خمسة عشر عاما من تحري المعلومات وتحقيقها شرعت الدائرة الجغرافية في البلاط في تصحيح خريطة العالم، كما نستخلص من فقرة الإدريسي التي قمنا بترجمتها. ونقول الآن عند التعليق عليها إنه تم رسم معالم خريطة جغرافية(3). وبدأ فيها بالفرجار بنقل خطوط المسارات الموجهة

ب.. لونيا، ص ٢٤٠، بولونيا *Bologna*
ب.. ري ص ٢٤١، بيري *Berry*
+ ..رمـ.. نت ص ٢٤١، كليرمونت *Clermont*
اوزبـ.. رجـ... ص ٢٤٦، اوسبورج *Augsbourg*
+ نكلـ.. رتـ.. را، ص ٢٥٦، انجلترا *Inghiterra*
+ نكلـ.. سين، ص ٢٥٦، انجليز *Inglesi*
كـ.. مراي ص ٣٦٦، كامبراي *Cambray*
+ ستريك، ص ٣٦٧، اوتريش *Utrecht*
هـ.. ستينجس، ص ٣٧٤، هاستنجس *Hastings*
ر.. نج بـ.. رج وريشبـ.. رج ص ٥٧٠ *Regensburg*

ويمكن اضافة مئات الأسماء إلي هذه القائمة او تلك. ولكن الأسماء الجديدة تتوافر أكثر في البلدان ذات اللغات الجرمانية.

وننوه إلي أننا عبرنا بالنقطتين (..) علي الحركات القصيرة التي تخلو في الغالب منها المخطوطة، وبعلامة الصليب (+) عن حرف الألف العربي الذي يمكن أن ينطق طبقا للحركة التي تلزمه أ. إ. ا. وأحيانا يوضع أمام حرفين ساكنين في بداية اللفظ لترخيم الصوت. كما نستخدم نحن حرف (i) أمام حرف (s) تسبق ساكن في بداية الكلمة.

(1) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٢٨، هامش ١.

(2) يتكلم الإدريسي عن بني وطن روجيرو فقط، ولكنه لا يجب استبعاد المسلمين؛ حيث إن الكاتب وربما عديد من المعاونين الآخرين كانوا يعتنقون تلك الديانة. وتبرهن كل مذكرات القرن الثاني عشر وخاصة رحلة ابن جبير علي استمرار مرور الرحالة المسلمين بصقلية.

(3) كما أشرت في ص ٤٣٩، هامش ١. يقول الإدريسي أنه أخذ لوحة «الترسيم» لعمل هذه المقارنات. وكلمة ترسيم تعني «اعداد رسم» وتعني طبقا للمعاجم «رسم خطوط»

المســتخلصة من التقارير(1)، الواحد تلو الآخر، وانه جــري مقابلة هذه المعلومات مع مـــا ورد بكتب الجغرافيا وانه زالت أو تبددت تلك الشـــكوك التي نشـــأت عن المقارنات؛ ولما تحددت بهذه الطــريقة مواقع البلدان وأشكال اليابسة والمياه، تم حفرها على خريطة لسطح الأرض من الفضــة قطرها متر أو أقل بقليل، وكانت مقســمة إلي أجزاء ليسهل استعمالها(2). وعلي هذا النحــو يبدو لي انه تم انجاز خريطة العالم التي لا يمكن الحكم عليها حكماً جيدا من أشــكالها التي لدينــا في مخطوطتين قديمتين متبـــاينتين إلي حد ما فيما بينهما. وهذه الأشكال مصغرة بنسبة الخمس أو السدس وهي مرسومة دون نسب أدق من النسب التي تستطيع يد

إجادة الرسم وبصفة خاصة «مد الخطوط والتحديد». وعلي هذا النحو سيكون لدينا لوحة مخططة. أو بمعني آخر. مدرّجة.

ولكن كلمة «رسم»، أيا كان معناها الأصلي في اللغة العربية. استخدمها الجغرافيون منذ عصر المأمون «لاحقا للإشارة إلي تخوم العالم المعروف. ومن هنا رآها العلماء مجرد نقل لكلمة *ὁρισμός* راجع (ليلويل، المرجع السابق. الفصل ١٥. المجلد الأول. ص٢١، وريتو المرجع السابق، المقدمة، ص٤٥). ولدينا بالفعل عديد من «رسم الربع المعمور». أي «شكل ربع (سطح الأرض) المعمور». كما أنه مما يتماشي تماما مع استخدام اللغة العربية، استخراج صيغة تفعيل من اسم بناء علي الفعل الذي يرجع للأصل ذاته، ويدل الاسم علي إجراء أو انتاج الشيء المحدد بالاسم. وعلي ذلك فلفظ «ترسيم» يعني بالتحديد. عملية خط الرسم، أي شكل الأرض المعمورة المزمع اجرائه. وأخيرا يري كل منا أن المعلمين المحددين من تلكما الكلمتين كان لهما النتيجة نفسها. واللوحة المدرجة (سـواء بخطوط العرض والطول. أو بالسبع أقاليم المتوازية وبالعشر تقسيمات بكل إقليم والتي كانت تحل محل خطوط الطول) أفادت في رسم خريطة العالم طبقا للوحات خطـوط العـرض والطـول التي صـــاغهـــا علمـــاء الفلك، والرســـم كان خريطــة العالم المنقولة من أحد النماذج التي أعدت من قبل أو تم تصويبها طبقا للوحات نفسها.

(1) ليسمح لي بهذا الإصطلاح المستجد علي اللغة لكي أدلل بكلمة واحدة علي الخط المساري المصاحب للاتجاه بحسب الجهات الأصلية. انظر التصويب الذي صوبت فيه علي هذا النحو الاصطلاح الذي ترجمته بشكل عام «بمسافات». في ص ٤٣٨، حتي وان كنت قد شرحته في الهامش ٢، من الصفحة نفسها.

(2) راجع ص ٤٣٩، هامش ٢.

الناسخ أو نظرته أن تنسخها(1). ولنفترض أن خطوط الرسم الأولي قد اعتمدت على احدى الخرائط العامة أو على مجموعة من الخرائط الجزئية: ولنتصور أن الخرائط في كلتا الحالتين قد تم نسخهما من نماذج قديمة او عربية، أي أنها تعتمد أساسا على جداول خطوط الطول والعرض الاغريقية التي صححها العرب؛ وكان أساس العملية ينحصر في الشكل الذي كان يمكن لعلوم ذاك القرن أن توفره؛ أما عن عناصر التصحيح فكانت تعتمد على مسارات الرحلات المحققة من وقت قريب. وبخلاف ذلك لا يمكن تفسير كلام الإدريسي. ولا تصور استخدام المعلومات الجديدة التي كان الملك قد جمعها، وهي معلومات لا يمكن أن تأتي من اعادة قياس كل خطوط طول الكرة الأرضية وخطوط عرضها. ولكنها كانت تتمثل في مسارات رحلات حديثة في اليابسة والبحار، وفي خرائط ملاحية وربما في صور لاتينية، مثل صورة الفريدو الأكبر وصورة أخري لدينا في مكتبة جامعة تورينو(2).

---

(1) ذكرت المخطوطات وخرائطها الجغرافية في مقدمة المجلد الأول، ص ٥٥ وما بعدها، رقم ٢٠ وبعد ذلك في *Carte Comparée de la Sicile* . ص ١٠. وخريطة العالم في مخطط بودليانا (*Grav* ٣٨٣٧ - ٤٢) مرسومة على ورقة كبيرة، بينما خريطة مخطوطة باريس (ملحقات عربية ٨٩٢) علي ورقة أصغر. واستقي السيد جومارد من هاتين النسختين الخطيتين الرسم الذي نشره بعد ذلك السيد رينو في *Géographie d'Aboulfeda*. ص ١٢٠. وبعد أن درس ليلويل هذا الرسم دراسة عميقة في الفصل ٥٧ من عمله ونقل في اللوحة العاشرة (رقم ٢٠. ٣٩) من أطلسه صورة خريطة العالم. أعاد رسم هذه الخريطة بالنحاس وهي الثانية من بين الملحقات بمقدماته. وهو يرى (في المرجع السابق. الفصل ٦٢ في المجلد الأول، ص ١٠٣) من بين الكثير من الأخطاء بهذه الصور. أن طول البحر المتوسط يختلف كثيرا عما يتضح في النص.

(2) ليلويل. الفصول ٨ و ٩ و ١٠ و ٥٠، وفي الأطلس، لوحات ٧ و ٩ الشكلان ١١ و١٧. وجدير بالذكر ان خريطة العالم بتورينو تصور الأربع رياح الأصلية التي لم ترد في صور العالم اللاتينية الأصل السابقة. وعلاوة علي ذلك فإن صورة البحر المتوسط والبحر الأدرياتيكي تزيل أي شك بأن خريطة العالم هذه قد استخلصت من خرائط ملاحية. ورأى النابه ليلويل أن هذه الخريطة قد رسمت معالمها أو علي الأقل نسخت في كونتية مريان *Maurienne*: حيث اكتشف فيها رغم كثرة الأخطاء، اسم تلك البلدة

ونري القرائن علي هذا التصور في كتاب الأدريسي نفسه، حيث يحيل إلي بطليموس أراضي يأجوج ومأجوج (1) التي يروي عنها في الشمال، كما نراها في الخرائط الجزئية في مدونة باريس التي تذكر فقط بعض خطوط الطول والعرض للأقاليم الأفريقية جنوب المدارات(2)، مما يدفعنا إلى الظن بأن بلاط بالرمو لم يعثر لها علي مسارات رحلات حديثة. وكانت المسارات المصحوبة باتجاه كل خط طبقا للجهات الأصلية للكرة الأرضية كانت تفيد في التحقق من خرائط الأرض بطريقة تماثل ما اتبعه البحارة منذ القدم في البحر المتوسط عند رسم خرائطهم الملاحية بتحديدهم المواقع بناء علي رصد الأجرام السماوية. وإن كانت الخرائط الملاحية الجيدة الإيطالية والكطلونية الموجودة حتي اليوم تعود بالكاد إلي بداية القرن الرابع عشر عندما شاع استخدام الإبرة المغناطيسية، وهو الاستخدام الذي لا يمكن إرجاعه إلي النصف الأول من القرن الثاني عشر، عندما كان يجري تأليف الجغرافيا في بالرمو، فهذا لا يعني أنه لم تكن تتوافر لدي روجيرو خرائط ملاحية صحيحة بما يكفي لأن يدفعه لعدم الثقة في الجغرافيين العلماء، وأن يملي عليه التحقق العملى من الأطر التى تصورها هؤلاء (3).

الصفهرة. راجع وصف المخطوط ونقش الخريطة لدى بازيني *Codices mss. Bibl. reg. Taurinensis Athenaei*، ٢، ص ٢٦ وما بعدها. واستخلص علاوة علي ذلك من رسالة أمين المكتبة العالم جاسباري جوريزيو أن المخطوط ينتسب إلي نهاية القرن الثاني عشر إن لم يكن بداية القرن الثالث عشر، وأن الخريطة أعدت، أو علي الأقل كتبت عليها الأسماء، باليد ذاتها التي نسخت المخطوط.

(1) الترجمة الفرنسية، ٢، ٤٢١.

(2) راجع النسخ المطابقة للأصل في نهاية الجزء الأول من الترجمة الفرنسية. وينقل ليلويل، المرجع السابق، الفصل ٦٠ و٢٤٦، ص ٥٤، و٩٩ من الجزء الأول، أرقام خطوط العرض والطول التي ذكرت فقط لستة وعشرين موقعا، ينتمي أحدها إلي الأقليم الثاني والأخرى للأول.

(3) يبدو لي أن ليلويل في المجلد الأول، ص ٩٩ قد أدرك العملية علي هذا النحو ذاته مهما كان ملتزما ومقيدا بترجمة م. جوبيرت الفرنسية التي صاغت فقرة الإدريسي على هذا النحو:

وعندما ننتقل إلى الخرائط الخاصة التسع والستين، أو بالأحري خطوط السير مرسومة، نجد أحدها علي رأس كل قسم من الأقسام العشرة بكل أقليم في مدونة أسلان *Asselin*، الثمينة (1)، وسنبدأ بتلك التي كان ينبغي أن تكون أفضلها، وهي بالفعل كذلك، وأقصد خريطة صقلية. ويكفي وضعها بجوار أحدي الخرائط المرسومة حسب بطليموس لنري التباين الهائل في الأشكال: فالأولي تكاد تتطابق مع خرائط اليوم، أما الثانية فهي مشوشة، بالقدر الذي يبدو عندمقارنة خريطة العالم للإدريسي بخريطة مركاتور *Mercator* (2). اذن يجب التسليم بأن روجيرو قد أفاد من دراسات مسلمي صقلية في القرن

"il voulut savoir d'une maniére positive les longitudes et les latitudes et les distances respectives des points."

ولكن هذه الفقرة التي يقصد بها روجيرو تقول في الحقيقة «أراد أن يري ما إذا توافقت بدقة خطوط المسارات الموجهة، كما ذكرت منذ قليل في الهامش ١ ص ٦٤٢ وما بعدها.

وتناول ليلويل بالدراسة الخرائط الملاحية في العصور الوسطي، المرجع السابق الفصل ٢٥٦، المجلد الأول، ص ٨٢، والفصل ١٠٨، المجلد الثاني، ص ١٦ وما بعدها. وينسب الي التنقيحات والاضافات المتتالية عليها بداية عصر جديد في علم الجغرافيا. راجع أيضا الكلمة التي قرأها السيد داڤيزاك علي الجمعية الجغرافية في باريس حول عرض الخرائط. باريس ١٨٦٣ § الحادي عشر.

وجدير بالذكر أن أول خريطة عرفت حتي اليوم هي خريطة بيترو ڤيسكونتي (١٣١٨) من جنوه. أما أول إشارة إلي الأبرة المغناطيسية فنقرؤها لدي بيترو دايلي وجويو دى بروڤان، أي نحو عام ١١٩٠.

(1) أسلين، وهو قنصل فرنسي في القاهرة في بداية قرننا هذا حمل معه مجموعة قيمة من المخطوطات ابتاعتها منه بعد ذلك مكتبة باريس. ويأتي من هذه المجموعة المخطوط الثمين المحدد بالحرف *B* في ترجمة السيد جوبير، وفي كتابي هذا وفي المكتبة العربية ـ الصقلية.

والسيد *Jomard* الذي أعد المجموعة الرائعة من الخرائط التي تحوزها مكتبة باريس عمل علي نسخ خرائط الإدريسي، كما نفهم من رينو، المرجع السابق، ص١١٩. ونقل عنها ليلويل المجتهد، في المرجع السابق، صورة مصغرة للعشر (من ٠,٣٢ × ٠,١٨ . إلي ٠,٠٣ × ٠,٠٢).

(2) *Carte comparée*، المذكورة آنفا حيث قارنت خريطة صقلية في مخطوطة أسلين *Asselin*، مع تلك المأخوذة من مخطوطة جميلة لبطليموس وتملكها مكتبة باريس.

العاشر والحادي عشر(1)، وأفاد أيضا من تحديد بعض المواقع فلكيا(2)، ومن ثم وضعت الدائرة الجغرافية في بالرمو، استنادا إلي تقارير صحيحة ومعرفة دقيقة للسواحل، رسما لم يتمكن الناسخ من إفساده بشكل يحول دون إظهار روعته بالنسبة لعصره. أما عن الخرائط الأخري فقد نشرت منها حتي الآن ثلاثة فقط بكاملها، كما تم طبعها كلها مصغرة. وفيما يتعلق بالحكم علي نسخ معدة علي هذا النحو فإن هذه الخرائط لم تكن متناسبة الأبعاد مع رسم خريطة العالم، ولا يرجع هذا التباين إلي أسلوب الرسم: ويبدو أن القليل من هذه الخرائط قد أعد طبقا لخطوط الطول والعرض. ونلاحظ فيها دوما، كما في كل الخرائط البدائية، خطأ تكبير الأقاليم المعروفة، وتصغير الأقاليم الأخري حتي تدخل داخل حدود الاطار العام الذي يحدد الأقاليم والقارات والبحار. ونري علي هذه الشاكلة خريطة إيطاليا من نهر التيبر إلي الجنوب حيث كان مُلك روجيرو، وحيث تقل هفوات الرسم بكثير عما في معالم نصف إيطاليا الشمالي المقلصة والمصغرة بشكل غير مناسب. والشيء ذاته يقال عن سردينيا وكورسيكا وكل غرب البحر المتوسط الذي تستحوذ صقلية علي مساحة كبيرة منه. وألقى عمل الجغرافيين الصقليين الانتقائي الضوء علي بعض الأقاليم، وترك بعضها في ظلال الافتراضات، واستخلصوا علي سبيل المثال من رؤى بطليموس أن القارة الافريقية جنوب خط الاستواء تمتد طولا نحو المشرق وأنها تتوازي مع السواحل الجنوبية للهند وبلاد فارس، وينتهي المحيط الهادي تقريبا ببحر متوسط آخر. وعلي العكس من ذلك تبدو الجزر البريطانية وبحر البلطيق وبولندة مرسومة طبقا لتقارير حديثة، لأننا لا نرى في

(1) راجع كتابنا الرابع، الفصل ١٢، ص ٤٥٨ من المجلد الثاني.

(2) تدفعني إلى هذا التفكير المواقع الخاصة بمسهنا بالنسبة لبالرمو. وفي أطراف الجزيرة نري الجزء الذي يطل علي أفريقيا متغيرا كثيرا. ولكن لنتذكر أن النسخة تقريبية.

تلك الخرائط تلك الأخطاء الجسيمة التي كانت موجودة بالجغرافيا القديمة أو جغرافية العرب(1). وتبين ممارات اليونان كيف كان روجيرو يعرف جيدا موقع أعدائه وبلادهم(2)، ولا يثير دهشتنا كيف أن آسيا الصغرى وباقي بلدان المسلمين كانت معروفة معرفة جيدة.

وحين ننتقل من هذه الصور إلي الوصف نجد المفارقات نفسها: فهنا معلومات وفيرة وأصيلة، وهنا روايات خيالية شرقية لبلاد يأجوج ومأجوج: ثم الجزر الخيالية التي تتحدث عنها قصة سان برندانو(3)، وعجائب روما التي اخترعها أحد اليهود الجائلين أو التي نشأت عن لبس في الترجمة(4). ولا يمكننا أن نلتمس العذر للإدريسي استنادا إلي أنه لا يصف هنا الخرائط التي حدد معالمها الجغرافيون. وإنما يكتب استناداً على كتب وروايات وجدها. والحقيقة أنه لا يجب أن ننتظر نقدا دقيقا من رجل آداب سواء كان مسلما أو مسيحيا في القرن الثاني عشر. وعلاوة علي ذلك، يبدو لنا أن الإدريسي قد جعل من مختلف الأعشاب حزمة واحدة ليقدم عمله إلي الملك في عجالة قبل أن يسوقه وهن الشيخوخة إلي الموت.

---

(1) راجع ليلويل، المرجع السابق. الجزء الثالث، ص٧١ و ٢٢٠. حيث يمحص المؤلف الوصف بنقد الأستاذ القدير. ولكنه يخطيء أحيانا لقلة ممارسة اللغة العربية وكتابتها.

(2) ينقل البارون دي سلان في مقاله عن الإدريسي. ص ٣٨٨ في الجزء المذكور من *Journal. asiat.* رأي م. هاسي ويشير إلي مقارنة الأسماء الجغرافية لتلك المناطق التي كان عالم الهيلينيات اللامع يعد عملا حولها. وردت بعض الدراسات منه في ترجمة جوبيرت. الثاني ص ٢٨٦ وما بعدها.

(3) رينو. *Géographie d'Aboulféda*. ٢، ص ٦٣، وما بعدها.

(4) المجلد الثاني، ص ٢٥٠ وما بعدها في الترجمة الفرنسية. والإدريسي أخذ جزءا منها عن ابن خردزبه الذى جمعها بدوره من مؤلفين أقدم منه. راجع ترجمة ابن خردزبه المذكورة. في *Jouvnal asiatique*. يونيو ١٨٦٥. ص ٤٨٢ وما بعدها مع حواشي م. باربييه دي ماينار الذي ينسب إلي تجار مسلمين ويهود هذا الوصف لروما، وهو وصف جدير بقصص ألف ليلة وليلة كما يقول العلامة المترجم. وقد أغفل الإدريسي عدة حكايات واسعة الخيال. ولكنه كرر رواية نهر التيبر المبطن بالنحاس وأصل هذه الخرافة ليس حول تعبير *Flavus Tiber*. كما يذكر م. رينو في *Géogr. d'Aboulféda*. ص ٣١٠ و ٣١١ في الهامش؛ لأن «صفرة» تعني في اللغة العربية «اللون الأصفر» و «النحاس الأصفر» في الوقت نفسه.

وربما لم يكن موت الملك ليعوق إتمام الكتاب، لو لم تقع في بالرمو بعد سبع سنوات تلك الأحداث الدموية التي انطوت علي نهب القصر الملكي والهتاف بالموت للمسلمين. وكان الإدريسي قد ظل في البلاط كما قلنا، وقدم إلي جوليلميو الأول صيغة جديدة من كتاب الجغرافيا، ومن الجائز أنه تمت، أو علي الأقل بدأت ترجمة لاتينية لمثل هذا العمل المفيد والممتع كي يستخدمها البلاط. ومن الجائز أن هلكت الترجمة في أحداث نهب القصر الملكي حيث من المحتمل أن تكون قد تلفت فيه خريطة العالم الفضية الكبيرة، ثمرة المجهود الشاق، والتي حكم عليها أن تستمر قليلا نظرا لمعدنها الثمين مثلما حدث للوحات شارلمان الجغرافية. ومن المؤكد أن الجغرافيين والكتاب العرب ممن لم يقتلهم الشعب قد لاذوا بالفرار. ولحسن الحظ تمكن الإدريسي من أن يأخذ معه أو يرسل إلي افريقيا قبل الهرب نسخة من كتابه الذي نال شهرة عريضة لدي المسلمين، وكان مرشدا لابن سعيد وأبي الفدا وآخرين. ولما استيقظت أوربا بالدراسات الجادة لم تسمع بهذا الكتاب إلا في أواخر القرن السادس عشر عندما ظهر في روما مع طبعة ميدتشي، النص العربي أو مختصر له أو بالأحري بتر وتشويه لهذا العمل، أعده مجهول، ونشرت في باريس ترجمة لاتينية لهذا المختصر وحملت عنوان *Geographia Nubiensis*، لأنه في مستهل القسم الثاني من الأقليم الأول، وعند ذكر النوبة، نقرأ بسبب خطأ النقل عبارة «أرضنا» بدلا من «أرضها» (النوبة)(1). ومن هنا ظن المترجمون المارونيون اكتشافهم وطن المؤلف المجهول.

ولدينا الآن من النص الكامل بعض المخطوطات وبعض الفصول

---

(1) في الورقة ١٠، وجه أول. السطر الخامس في نص ميديتشي *Medici*. ولا يمكنني الاستشهاد علي غير هذا النحو لأن الصفحات لا تحمل أرقاما. وذهب المترجمون، في المقدمة، إلي أن المؤلف مسيحيا لأنه يطلق علي يسوع المسيح اسم «السيد المسيح». ولكن قراءة أكثر إتساعا لأعمال العرب المسلمين يمكن أن تسقط في الحال مثل هذا الافتراض. وعلي أية حال فلا يثير اي دهشة ذلك التعبير الذي كان متداولا في بلاط روجيرو ولا يحمل من قريب او بعيد اية قرينة لعقيدة الكاتب.

المطبوعة وترجمة فرنسية متواضعة للعمل كله. وننتظر مستشرقا عارفا بالجغرافيا المقارنة وعلي استعداد لتكريس عدة سنوات من العمل في تدقيق البحث في الآلاف والآلاف من أسماء الأماكن الواردة بالنص، لينجز لنا طبعة محققة وترجمة جيدة(1)، كما فعل منذ قليل عالمان هولنديان بالجزء الخاص بأفريقيا وأسبانيا(2). وسوف يتضح من المؤكد تاريخنا الحضاري بنشر الفصول الخاصة بايطاليا، والتي خرج منها إلي النور حتي اليوم فصل واحد فقط دون ترجمة، أي ذلك الفصل الذي يتضمن وصف صقلية. وإذا كان هذا الوصف هو الأكثر تفصيلا في العمل كله فإن الفقرات التي تتناول الأقاليم الإيطالية الأخري تتضمن أيضا أسماء ومسارات وأخبارا طبوغرافية وحضرية وتجارية

والخطأ الذي ذكرته خطأ نسخ، وليس خطأ مطبعيا حيث نقرؤه أيضا في مخطوطة باريس، ملحقات عربية ٨٩٤، وهي ذاتها أصل طبعة روما التي لا نعلم كيف وصلت بين يدي كبير الرهبان الأب رينودت *Renaudot*، ومنه إلي مكتبة سان جرمان دي بري. ونجد بها آثار *imprimatur*، رقابة روما، وما يبين أن بعض الفقرات تم حذفها بيد المراقبين: وعلي سبيل المثال تلك الرواية التي تحكي عن أثر قدم ادم في جزيرة سيلان. والرقابة هي الرقابة دائما.

وطبقا لقائمة أسماني، رقم ١١١، ص ١٦٢، فمن المحتمل أن يكون بحوزة اللاورنتسيانا نسخة من **نزهة المشتاق**، أو علي الأقل من مختصره. ولكن المخطوطة ١١١، المجلدة اليوم مع مخطوطة أخري وتحمل رقم ٤٩، ليست إلا النصف الثاني من كتاب **عجائب المخلوقات** للقزويني. الأمر إذن واحدة من اثنتين: إما أن تكون قائمة أسماني قد جانبها الصواب في هذا الصدد كما في مواضع أخري عديدة، أو أن المخطوط الأصلي قد استبدل بعد صياغة القائمة، أي أن عمل الإدريسي قد اختفي لكي يحل محله عمل آخر قُسّم عمل القزوين إلي قسمين. ولا يمكننا استبعاد هذا الشك بما لدينا من واقعتين مؤكدتين بالغ التأكيد: الأولي هي أن ملحق باريس رقم ٨٩٤ هو نفسه الذي استخدمته مطبعة ميدتشي *Medici*، في طباعة العمل، والثانية أن المخطوط انتقل من خلال مكتبة رينودو *Renaudot*، الذى كان يحظى بالمودة الكبيرة فى بلاط كبار دوقات توسكانا في ذلك الوقت. ويعلم الجميع أنني لا أدين بهذا ذلك العلامة الذي انتقل من عالمنا. ومن الجائز أن يكون بلاط توسكانا قد أهدي إليه المخطوط، أو أن أمين المكتبة أعاره إياه الخ.

(1) كان السيد راي *Reay*، يعمل في هذه الترجمة، كما نفهم من دراسة م. موهل في *Journ, Asiatique*، يوليو ١٨٤٠، ص ١٢٤. ولكن لم ترد أي إشارة عنها بعد ذلك.

(2) *Description de l'Afrique etc, par R. Dozy et M.J. de Goeje*، ليدن، ١٨٦٦.

ذات قيمة عالية جدا ذلك لافتقار الكتابات الأخرى لمثل هذا النوع من الاهتمامات في النصف الأول من القرن الثاني عشر.

وكتاب الملك روجيرو، إذ ينبغي أن نسند له العنوان الحقيقي، سيدخل في مفاخر تاريخنا العلمي. وهذا العمل الجماعي الذي قام به ملك نصف إيطاليا ورجال لعل أغلبهم إيطاليين، والذي تمت صياغته في أكثر عواصمنا تحضراً، وقد تاه في الأدب العربي. ولما استعادته الآداب الأوربية تلقاه العلماء بالحماس الكبير(1)، ثم قاموا بتسجيل الملاحظات عليه: فأهملوا الجغرافيا الحسابية فيه(2)، وقبلوا منه الحكايات التي كان آخرون قد عارضوها، ونقلوا معلومات مؤلفين آخرين(3). وأظن أن أول هذه الاتهامات لا يستند إلى أساس صحيح لأنه لا مجال للبحث عن الجغرافيا الحسابية في وصف الإدريسي، ولكن كان يجب أن يتم البحث عنها في الخرائط الأصلية التي لا تتوافر لدينا، ولأن الطريقة التي حدد بها جغرافيو بالرمو العالم المعروف كانت في الحقيقة أفضل ما يمكن استخدامه في ذلك الحين، بل كانت هي ذاتها التي قادت إلى تعديل الخرائط الجغرافية في القرن السادس عشر(4). ولن أتكلم عن الانتحال حيث أن صياغة الجغرافية

---

(1) راجع محاضر جمعية باريس الجغرافية في تلك الفترة، ومقال البارون دي صلان الذي سبق ذكره المنشور في *Journal Asiatique*.

(2) رينو، المرجع السابق، المقدمة، ص ١٢٠.

(3) سبرنجر، *Die Post-und Reiserouten*. المرجع السابق، ص ١٧.

(4) على حد علمي لم تتم دراسة كتاب روجيرو دراسة عميقة إلا من قبل ليلويل الذي قارنه مع الأعمال التي سبقته وأعاد قدر استطاعته رسم خريطة العالم وبعض الخرائط الجزئية. وليس أمرا يسيرا نقل فقرات من عمل ليلويل. أنظر علي سبيل المثال الفصول من ٥٤ إلي ٥٦ ومن ٢٤٦ إلي ٢٥٤، والخرائط ١٠و١١و١٢ في الأطلس، والخرائط الواردة في *Prolegomeni, l'Epilogue*. الفصل ٧٣ وما بعده، و*l'Analyse... d'Edrísi*، في الجزء الثالث. وحين عاد السيد ليلويل إلي الموضوع في *Epilogue*، الفصل ٧٢، ص ١٢٦ حالفه الصواب في تَصَوُّر عناصر خريطة صقلية الأخري، ولكنه اضطر، واود ان اكررها بعد ان تاثر بترجمة *M.Jaubert*،إلي الظن بان «خطوط الطول والعرض» نقلت بالتخطيط المبدئي وليس «خطوط المسارات الموجهة»، ولم يتوصل بذلك إلي الفهمة الحقيقية للعمل.

الوصفية لا يمكن انجازها إلا بالاستناد إلى الكتابات السابقة وتقارير من عاينوا المواقع. وفيما يتعلق بنقد هذه الأعمال فإني أتساءل للمرة الثانية أى رجل عظيم من العصور القديمة أو الوسطى ستبقى له قائمة اذا ما أسقطنا كل أولئك الذين كرروا الحكايات الخيالية في الطبيعة أو التاريخ الطبيعي؟ ولا يصح اللوم هنا. ولقد شهد واحد من أشد النقاد على هذا العمل بأنه أثر من آثار العلم يضاهى عمل سترابونى(1): ولكن من يتعمق أكثر فى هذا الكتاب ويدرك القيمة العلمية للنص الأصلى سيقر معى بأنه أحسن الدراسات الجغرافية التى أجريت فى العصور الوسطى(2).

حينئذ لم تكن الجغرافيا هى العلم التطبيقى الوحيد الموجه لتيسير الحياة المدنية فى بلاط بالرمو الزاخر. وهناك كتابة ثلاثية اللغة مكتوبة على شاهد أدمج بالجدار الخارجي لكنيسة القصر الملكى، تشهد بأن أمر الملك فى عام الف ومائة واثنين واربعين ببناء «ساعة» هكذا يقول النص اللاتينى، ويقول النص العربى «آلة لرصد الساعات»، ويشيد النص اليونانى قائلاً: «هذه معجزة جديدة، أن يتحكم الملك العظيم روجيرو، الذى آتاه الله صولجان الملك، فى جريان السائل، ويسمح بتحديد ساعات الزمن(3) فى دقة لا تخل». ويرجع الفضل للبلاغة البيزنطية فى علمنا أنها الساعة المائية: وربما كانت الســاعة ذاتها أو الشبيهة لها التى «صنعها أحد صــناع مــالطة بأمر من ملكهــا»، وكانت فى صورة فتاة تدق الساعات حين ترمى كرة صغيرة فى الصنج» أو ما

---

(1) رينو، *Géog. d'Aboulfeda*، المقدمة، ص ١٢٠.

(2) هذا الرأى الذى عبرت عنه ذات مرة صدق عليه دوزى فى مقدمة العمل سابقة الذكر حول أفريقيا واسبانيا.

(3) نشر فاتزيللو نص هذه الكتابة اللاتينية فى *Deca I*، الكتاب الثامن، الفصل الأول، ثم نشره بيرو، كما نشره، جريجوريو، *.Rerum Arab*، ص ١٧٦ بالنصين اليونانى والعربى: ومورسو *Palermo antico*، ص ٢٧ وما بعدها، ونشر جزءاً منه بوشيمى ولانشى. كما أننى أوردت قراءة لهذه النصوص أحسبها أكثر دقة، وهى مصحوبة ببعض الشروح فى *Rivista Sicula*، بالرمو، المجلد الأول، ص ٢٢٩ وما بعدها (مايو ١٨٦٩).

نطلق عليه حوض من المعدن وقد ذكرها القزوينى عالم الفلك فى وصفه لمالطة. ويقول إن أبا القاسم بن رمضان حين رأى تلك الآلة الصغيرة ارتجل شطر بيت من الشعر، يتحدى به عبد الله بن السمنتى أن يكمله. فأكمل الأخير الشطر الثانى من البيت على الفور وكأنه يتلو شعراً محفوظاً، وقال بيتين آخرين بهذا المضمون: أن المازفة اللطيفة تلاحق الزمن، وأن صانعها عرّج أولاً إلى السماء يراقب الأجرام والأبراج ودرجات سمت الشمس(1). وبالفعل نجد فى الخريدة أبياتاً لابن رمضان هذا قالها فى مدح روجيرو ويساله فيها التصريح له بالعودة إلى مالطة: ومن هنا يظهر الدليل على أن الساعة المائية كانت بالفعل من أعمال ذلك القرن. وربما صُنعت خصيصاً لذلك الملك(2). أما بخصوص الآلات الأخرى التى أعدت لذلك الغرض ذاته فالجميع يعلم أن هارون الرشيد أرسل إلى شارلمان هدية آلة تدق الساعات بكُريات تسقط فى حوض، وتلقيها أشكال على صورة فرسان من فتحات صغيرة حين تتفتح نوافذها(3) عند النقطة المحددة: واعتقد البعض خطأ أن هذه الآلة ساعة ذات عجلات. ووصف ابن جبير فى النصف الثانى من القرن الذى عاش فيه روجيرو «المنجنة» كما يطلق عليها العرب بلفظة يونانية، وهى تتحرك بالمياه فى مبنى مجاور للمسجد الجامع فى دمشق. وهنا نرى فوق إحدى الشرفات ما نطلق عليه وجه الساعة: قوس دائرى كبير يحتوى على اثنى عشر زوجاً من النوافذ الصغيرة المعقودة يخرج من كل منها فى كل ساعة من ساعات النهار صقران من النحاس الأحمر يفتحان

---

(1) القزوينى، آثار البلاد، طبعة وستنفيلد، *Zaccaria... Cosmographie*، ٢، ٣٧٢. وفى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ١٤٢.

(2) مستخلص من الخريدة لعماد الدين، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٥٨١. ويشار إلى ابن رمضان هنا باسم عبد الرحمن، ويذكره القزوينى بلقب أبو القاسم. وليس فى ذلك ما يتعارض مع كونه الشخص نفسه.

(3) إجناردي، *Annales*، عام ٨٠٦.

منقارهما ليسقطا كُرَيأت فى صحاف من النحاس الأحمر، الموضوعة أسفلها. ولساعات الليل كان بالجدار اثنا عشر ثقباً مستديراً مغلقة بالزجاج ومحاطة بالنحاس الأصفر. يضاء كل واحد منها فى كل ساعة بضوء مائل للاحمرار(1). وأن يكون العرب قد استخدموا مثل هذه الساعات فهذا ما يؤكده عنوان مبحث يرجعه الزوزينى، فى تاريخ الفلاسفة، إلى أرشميدس: «كتاب الساعات، اى (وصف) الآلة المائية التى تلقى بالكريات الصغيرة»(2).

فى نهاية ذلك القرن لمع المهندس الصقلى أبو الليث، ويبدو أنه تربى فى تلك المدرسة التى أنتجت الآثار النورماندية فى صقلية، واضطر مثل آخرين كثيرين إلى الهجرة عندما لم يطق المسلمون تلك الحال. فى ذلك الوقت كان الخليفة الموحدى أبو يعقوب بن يوسف قد وضع قواعد جامع كبير منيف وأتم بناءه فى عام ألف ومائة وسبعة وتسعين ميلادية كما تذكر حوليات مسلمى الغرب، وتضيف أنه تُكلل قمة مئذنته التى يطلق عليها اليوم برج جيرالدا كرات مذهبة وُضعت الواحدة فوق الأخرى فى شكل هرمى، وهذه الكرات صنعها ورفعها فوق ذلك البرج الشاهق أبو الليث، المعلم هذا. ولكى ندرك ضخامة هذا العمل يكفى ان أشير إلى أنه لإخراج إحدى هذه الكرات، والتى لم تكن أضخمها، إلى رواق المنارة لزم قطع عتب الباب المخصص لاستخدام المؤذن؛ وأن قضيب الحديد الذى يدعم تلك الكرات الضخمة يزن أربعين رُبعاً، أى أكثر من مائة وستين كيلو جراماً، وأن الكساء الذهبى استخدم من المعدن ما قيمته مائة ألف دينار، أو ما يقدر لدينا بأكثر من مليون ونصف

---

(1) نص رايت *Wright*، ص ٢٨١ وما بعدها. ترجمت هذه الفقرة إلى الإيطالية فى مقالى حول كتابات كنيسة بلاتينا المدونة بثلاث لغات، ص ٢٤٦ و٢٤٧ فى *Rivista sicula* المذكورة.

(2) فى المكتبة العربية - الصقلية. النص، ص ٦١٧. أما كازيرى، *Biblioteca arabo-Hispanica*، ١. ٢٨٤ فعندما نقل هذه الفقرة ترجمها خطأ: *"De instrumentis hydraulicis, ubi de cochleis ad aquas exhauriendas"*.

المليون ليرة(1). هكذا تقول كتابات المسلمين. وتذكر أخبار سان فرديناندو أن ذلك البرج المذهب أثار دهشة الغزاة المسيحيين، وأن الكرات كانت اربعا، وأن أدناها كانت تعد فريدة من نوعها فى العالم سواء لجمال صنعتها أو لضخامة حجمها: وحينما كانت تسقط عليها أولى أشعة الشمس تسطع وكأنها شمس أخرى(2).

وكان للصناعات الميكانيكية دور فعال فى الحروب التى خاضها المسلمون تحت رايات النورمان. فبعد جمع أخبارها فى مختلف الروايات سبق أن أشرت إلى فعالية القلاع المتحركة التى أدارها (١١٣٢) المهندسون المسلمون فى حصار مونتبلوزو(3)، والتى حين صُوبت تجاه نوتشيرا فى هذه الحرب ذاتها أجبرتها على الاستسلام رغم حصانة موقعها وقوة عنادها(4). كما ذكر الكتاب المسلمون القلاع الخشبية فى عملية جوليلمو الثانى الفاشلة على الإسكندرية بمصر (١١٧٤): ونعلم منهم أن هذه القلاع كانت مسلحة برؤوس كباش قوية وأن جيش صقلية استخدم أيضاً آلات منجانيق هائلة

---

(1) القرطاس او *Annales Regum Mauritaniae*. طبعة تورنبرج، النص، ١. ص ١٥١. والترجمة اللاتينية، ص ٢٠٠. خَسَّبْت الربع، او *arrova*، كما يكتبها اليوم الأسبان بمائة ليبره قيمتها أربعمائة جرام. والدينارات المقصودة هنا من المفروض أن تكون دينارات الخلفاء الموحدين الأوائل، وما هو منها فى حوزة ديوان المسكوكات القديمة فى باريس تزن تقريباً ٤،٧٥ جرام وهى من الذهب الخالص. ومن هنا تقدر قيمة كل منها بسبع عشرة ليرة تقريباً. أما إذا حسبناها دينارات عادية سيقل المبلغ إلى ١،٤٥٠،٠٠٠ ليرة.

وعملية نقل إحدى هذه الكرات داخل برج المئذنة تفهم جيداً عندما ندرك ان برج جيرالدا، مثل منارة سان ماركو فى فينسيا النظيرة له فى العمر والشكل، ليست بمرقاته درجات ولكن مسطحات أرضية مائلة. انظر فى هذا الخصوص جيرو دى برانجى، *Essai sur l'architecture des Arabes*، باريس ١٨٤١، ص ١٠٥ وما بعدها.

(2) *Cronica del sancto rey D. Fernando*، الفصل ٧٢. قارن السيد دى شاك، *Poesie und kunst der Araber in Spanien etc.*، برلين ١٨٦٥، ٢. ص ٢٤١ وما بعدها. والذى استمد منه هذا الاستشهاد حيث إننى لم أعثر على النص فى مكتبات فلورنسا.

(3) الفصل ٢ من هذا الكتاب، ص ٣٨٥ من المجلد.

(4) كبير رهبان تيليزى، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٢٧٩.

فى حجمها، تقذف كتلا من الحمم يبدو أنها جلبت خصيصاً من صقلية(1). وبعد عشرة أعوام (١١٨٥) تمكنت هذه المنجانيق التى يدعوها إوستاتسيو *Eustazio*، كبير الأساقفة «بنات الزلزلة» من فتح ثغرة فى سور تسالونيكى(2). وبعد قرن من الزمان خاض المسلمون بمنجانيقهم الحرب الثانية التى أراد كارلو دا انجو أن ينقلها إلى صقلية؛ ونعلم من وثائق نابولى لعام ألف ومائتين وأربعة وثمانين أنه فى هذه المواجهة كانت هناك حاجة إلى مائة رجل لإدارة أربع من هذه الآلات(3)؛ ومن هنا نستنتج أنها مماثلة لتلك الآلات التى أشرنا إليها من وهلة فى عملية الإسكندرية، وربما لتلك التى فتحت للمسلمين (٨٧٨) برج ميناء سيراكوزا الكبير. وهى آلات يبدو أنها كانت ترمى قذائف افقية(4). وإن لم يكن ظننا خطأ يلزم اعتبار أن استخدام المنجانيق على هذا النحو ظل مقتصراً على صقلية: إذ لم نر، قدر علمنا، أية آثار له فى مذكرات أخرى للعصور الوسطى. كما يضاف إلى هذا الاستنتاج استنتاج آخر عن استعمال قذائف اللهب فى اقتحام تسالونيكى(5). أما فيما يتعلق بالعمارة العسكرية فنعلم من واقعة بارى أن الملك روجيرو كان يستعين فيها بمهندسين مسلمين(6): وهناك احتمال كبير أن تكون قلعة لوتشيرا، التى اقامها الامبراطور فدريكو عندما نقل إليها مسلمى صقلية، هى الأخرى عملاً أنجزه المهندسون المسلمون(7).

فى تلك الأونة حاز علم التنجيم تقديراً أكثر من فنون القتال:

---

(1) الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥٨٧.

(2) الموضع السابق، ص ٥١٥.

(3) شهادات بتاريخ ٢٢ ابريل ١٢٨٤ والمذكورة فى. *Guerra del vespro Siciliano*، طبعة فلورنسا، ١٨٦٦، ١، ٢٨٢، فى الحاشية. ويجدر ملاحظة أيضاً شهادة بتاريخ ٦ مايو مذكورة فى المصدر نفسه، وفيها إشارة إلى كمية من الحجارة المجهزة للمنجانيق.

(4) الكتاب الثانى، الفصل التاسع، المجلد الأول، ص ٤٦٠.

(5) الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥١٦.

(6) الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٣٨٤.

(7) راجع الهامش ٥ فى ص ٥٨٣ من هذا المجلد، الفصل الثامن.

حيث اختلط كما كان الحال طوال العصور الوسطى بعلم الفلك: وحيث بذل الملك روجيرو جهداً كبيراً فى أوهام ذلك العلم(1)، فمن الجائز أيضاً أن حقائقه كانت محل دراسة فى بلاط بالرمو. وبرز فى ذلك القرن، نحو منتصفه كما هو واضح وفى بالرمو، محمد بن عيسى بن عبد المنعم، وكان مسلماً من صقلية مارس على حد قول الزوزينى الهندسة والفلك فى براعة، وتبوأ بنظرياته مكانة سامية بين حكماء البلاد(2). إذاً يمكننا استخلاص أنه كان يهتم أيضاً بتطبيق تلك العلوم، وبالميكانيكا أو صناعة الآلات من ناحية، وبالتنجيم من ناحية أخرى.

وفى عصر جوليلمو الصالح(3) وفدريكو وأيضاً مانفريدى كانت تسود الأوهام فى علم النجوم: حيث أن ستيفانو دا مسينا أهدى إلى هذا الأمير ترجمة لاتينية لكتاب *Fiori di astrologia* (قطوف علم التنجيم) الذى أسنده أحد الملفقين العرب إلى الحكيم العظيم هرمز، مؤسس العلم الخفى والطب(4). وعما إذا كان قد استمر الاشتغال بالعلم

---

(1) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٤٤٤.

(2) **تاريخ الحكماء**. فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. النص. ص ٦١٩. كانت عائلته من صقلية كما ذكر زوزينى صراحةً وكما نرى من اسم أبيه، عيسى بن عبد المنعم الفقيه والشاعر. وستلزم الإشارة إليه فى الفصل التالى بين الشعراء والفقهاء. وطبقاً للأخبار الواردة عن حياته فى كتاب **المكتبية** المذكور ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧. فإن عيسى هذا عاش فى النصف الأول من ذلك القرن.

(3) فالكاندو. لدى كاروزو، *Bibl. sicula*. ص ٤٨١، يروى أن المستشار ستيفانو فى انتظار حركة أجرام سماوية كان المنجمون يرون فيها حسن طالع بالنسبة له أخر تحركه من بالرمو تجاه بعض الحصون الأخرى.

(4) المخطوطة اللاتينية رقم ٧٣١٦ فى مكتبة باريس والتى تبدأ على النحو التالى: *Introductorium Albumazar*. تحتوى على نبذة صغيرة فى مائة جملة قصيرة تحت هذا العنوان: *"Domino manfrido inclito regi Sicilie. Stephanus de Messana hos flores de secretis astrologie divi ermetis transtulit"*. تبدا فى الورقة ١٥٢ الوجه الثانى وتنتهى بالورقة ١٥٤ الوجه الأول من هذه المدونة اللاتينية الجيدة التى كتبتها يد فرنسية من القرن الخامس عشر، والتى حازها فيما مضى فرانشيسكو الثانى. ومرجعية هرمز مثلث العظمة يمكن أن نلمسها من الكتب التى يسندها العرب إليه، عند حاجى خليفة، طبعة فلوجل، رقم ٦١٧٧ و٦٢٥٧ و٦٢٥٩ و٧٧٣٣ و٧٨٧٣ و٩١٩٧ و٩٨١٥ و٩٨٣١ و١٠٥٢٣ و١٠٦٢٠. إلخ.

الحقيقى فهذا ما تدل عليه شروح لوحات أرزاكيل التى صاغها فى باريس فى نهاية القرن الثالث عشر نفر يدعى جوفانى من صقلية، ليست لدينا أخبار أخرى عنه(1)، ولكن إن كان اسمه يذهب بنا إلى الاعتقاد بأنه مسيحى، فإن طابعه يحملنا إلى الظن بأنه كان بالأحرى مسلماً أو يهودياً لم يرتد عن دينه بالكامل. ويؤسفنى أنى لا استطيع الموافقة على رأى أولئك الذين نسبوا إلى صقلية اثنين من الاسطرلابات العربية غير القليلة التى تحوزها المتاحف العامة أو الخاصة(2): لكنى لن أندهش إذا وجدنا يوماً ما أن احدهما صُنع فى صقلية نظراً للظروف العامة لثقافة البلاد حتى القرن الثالث عشر، واعتياد علماء التنجيم والفلك والملاحين حينئذ على استخدام الاسطرلاب.

ونظراً لأنى لم أود أن أقطع خطوط الشكل العام الذى أقدم به صورة المعارف العلمية خلال حكم روجيرو فقد أرجأت عند البدء فى هذا الفصل الحديث عن علم الرياضة البحتة الذى لا توجد أية

(1) ذكر مونجيتورى فى. *Biblioleca Sicula*، ص ٣١٤ مخطوط من هذا العمل الذى تحوزه مكتبة القديس أنطونيو فى فنيسيا، وهو بالتحديد ذلك الذى وضع له تومازينى فى (*Bibliothecæ venetæ Mss pag. 5*) هذا العنوان: *"Tabulae Toletanae Joannis de Sicilia super canonibus Arzachelis".* ورأيت منه مخطوطتين اخرتين فى مكتبة باريس ومصنفتين تحت مخطوطات لاتينية. *Ancien Fonds*. ٧٢٨١ و٧٤٠٦. تعود أولاهما إلى القرن الخامس عشر وتحمل عنوان: *"Exposicio Jo. de Sicilia supra canones Arzachelis, facta Parisius (sic) anno Christi 1290".* حسبما قرأت بمعونة فخامة م. جيرارد. والأخرى ترجع إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر وتحمل هذا العنوان: *"Canones in tabulas toletanas quos exposuit Joannes de Silicia (sic) 1290"* وجريا على المبدأ السائد يلزم اتباع أساليب تحويل التقويم الهجرى إلى الميلادى والبيزنطى.. إلخ.

(2) تناولت أول هذه الاسطرلابات بالحديث فى مقدمة هذا الكتاب، المجلد الأول، ص ٢٥ و٢٦. وبخصوص الاسطرلاب الثانى انظر سيديّو. *Matériaux pour servir à l'histoire des sciences mathematiques etc*. باريس ١٨٤٥ (١٨٤٩؟)، ص ٢٤٧. ووصف هذا الاسطرلاب الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر، وعثر عليه فى قلعة حلب المستشرق الفاضل ب. دورن من أكاديمية بيتروبورج، والذى حسبه صقلياً لما كان به من حروف بالخط المغربى. ولكن سيديّو رأى أن هذه القرينة غير كافية، ويبدو لى أنه على حق.

مذكرات عن دراساته فى تلك الفترة، وايا كان الأمر لا يمكننا الظن بأن هذا العلم قد أهمل فى صقلية فى حين كانت فروع العلوم التطبيقية تزدهر وتلقى حظاً وافراً. ولكن إذا كان القدر قد انتقص فى هذا الجانب، كما حدث فى نواحٍ أخرى عديدة، الكتابات التاريخية فإن جهد هذا الجيل العلمى يبرهن على أن علمى الحساب والهندسة كانا ينالان عظيم التقدير فى بلاط فدريكو. ذلك الوريث الجدير لجده لأمه. وقد أشرنا إلى مسائل الهندسة التى بعث بها إلى الملك الكامل بينما كان يتفاوض للحصول على القدس(1). كما أرسل بمسائل أخرى إلى العالم الأسبانى اليهودى يهوذا كوهين بن سليمان الذى حضر بعد ذلك إلى إيطاليا ليستقر فيها(2). وتشهد كتابات ليوناردو فيبوناتشى التى خرجت إلى النور منذ قليل بأنه فى عام مائتين وخمسة وعشرين أو بعد ذلك بسنوات قلائل أهدى هذا العالم إلى الإمبراطور كتاب المربعات، وأن فدريكو كان يحب قراءة كتاب الحساب *Liber Abbaci*، الذى كتبه وكان، كما يقول المؤلف «يستمتع بتعلم بعض دقائق الأمور الخاصة بالهندسة والأرقام»(3). ونستخلص أيضاً من كتيب آخر كتبه فيبوناتشى يحمل عنوان: *"Il Fiore"* المقتطف، على طريقة أسماء كتب العرب أنه ذات مرة فى بيزا وفى حضور فدريكو. قام بحل بعض مسائل الهندسة التى طرحهـــا عليه معلم يُدعى چـــوفانى دا بالرمو، فيلســـوف البلاط(4). وأن المعلم تيودورو، وهو فيلسوف آخر بالقصر كان قد قدم فى مناسبة أخرى إلى فيبوناتشى حججاً حول الأرقام التربيعية(5)، وأن رجل بيزا بعث رسالة إلى تيودورو يخبره فيها بأخر

---

(1) الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٦١١.

(2) هويار بريهول، المرجع السابق، المقدمة، ص ٧٦ وما بعدها.

(3) *Opuscoli di Leonardo Pisano*، التى نشرها الأمير بالداسًار بونكمبانى، الطبعة الثانية، فلورنسا، ١٨٣٦، ص ٥٥. واستناداً إلى أسباب معقولة راى السهد العالم هويار بريهول فى مقدمة المرجع السابق، ص ٥٣٥، أن تاريخ عام ١٢٢٥. خطا ويجب استبداله بعام ١٢٣٠.

(4) *Opuscoli*، المرجع السابق، ص ٢ و١٧.

(5) *Opuscoli*، المرجع السابق، ص ١١٤.

اكتشافاته حول قواعد العوامل المشتركة(1) وأنه أرسل إلى الإمبراطور، مع غلام بالبلاط يُدعى روبرتينو بعض نتائج نظرية كسور الأرقام(2).

ومن جهة أخرى فالرجلان الأولان معروفان لدينا باسميهما الأولين، وكذلك بوظيفة فيلسوف التى كانت تحتل مكانها فى البلاط البيزنطى منذ القرن الرابع ثم عادت فى بعض كنائس صقلية فى العصر النورماندى(3). وقد كان جوڤانى دا بالرمو احد كتاب السجل، أو ما يمكن أن نطلق عليهم اليوم أمناء فدريكو، الذى أرسله مبعوثاً إلى تونس عام مائتين وأربعين: وهنا يقوم افتراض بمعرفته للغة العربية، وربما كان من أصل مسلم(4). ويظهر المعلم تيودورو بين رجالات البلاط، وإن لم يكن من الكبار فهو من المؤكد من المقربين للإمبراطور:

---

(1) *Opuscoli*. المرجع السابق، ص ٤٤.

(2) *Opuscoli*. المرجع السابق، ص ٢٠.

(3) كان الراهب فيلاجاتو المعاصر لروجيرو، ومؤلف بعض المواعظ التى تسند لثيوفانى تشيراميو، يحمل فى بعض المخطوطات لقب فيلسوف كما ذكرنا فى الكتاب الثانى من هذا العمل، المجلد الأول، ص ٥٤١. وفى وثيقة يونانية لعام ١١٧٢ وأخرى لاتينية لعام ١١٧٣ فى *Tabulario* كنيسة القصر فى بالرمو، ص ٣٠ و٣٢ ورد اسمه جوڤانى فيلسوف وقيم الكنيسة. وبخصوص هذه الرتبة الكنسية راجع قاموس دوكانج اللاتينى.

(4) وثائق عامى ١٢٢١ و١٢٤٠. عند هويار بريهول *Historia Diplomatica*. الجزء الثانى، ص ١٨٥. والخامس، ص ٧٣٦.

الاسم المحدد وهو المعلم جوڤانى الصقلى بتصدر مبحث لاتينى بأسلوب الرسائل نجده مع كتيبات أخرى مماثلة فى مخطوط باريس، *Fonds saint Germain*. ١٤٥٠. وهى كتابة يبدو أنها ترجع إلى القرن الرابع عشر. ويشغل هذا المبحث اثنى عشرة ورقة. نبدأ من الوجه الأول للورقة الثالثة حيث نقرأ: *"Incipit rectorica magistri Joannis de Sicilia in arte dictandi"*. وحتى الوجه الثانى من الورقة الرابعة عشرة حيث تبدأ *"Summa dictaminis... composita per magistrum Laurentium de Aquilegia lombardum, juxta stilum romane curie et consuetudinem modernorum"*. ويلى ذلك *"Summa Britonis"*، وهو كتيب من النوع نفسه. والثلاثان الأخيران هما أفضل ما فى هذا المجلد ويشتملان على قاموس لاتينى اشتقاقى وقعه بتروس وثيبودى، راهب بباريس، فى عام ١٢٩٨. وربما يكون هذا الأمين اللاتينى المعلم جوڤانى الصقلى قد عاش هو الآخر نحو نهاية القرن ولكنه يختلف مع ذلك عن فيلسوف فدريكو الثانى.

إذ أرسل له خصيصاً عام مائتين وتسعة وثلاثين إحدى السفن الصغيرة كى تعود به إلى المملكة التى كان قد ابتعد عنها بناء على إذن منحه إياه الأمير وربما لمهمة كلفه بها(1). كما أرسل له بعد فترة وجيزة ورقة بيضاء عليها الخاتم الملكى حتى يدون فيها باللغة العربية أوراق اعتماد سفراء تونس(2)، كما طُلب منه أن يجهز لاستخدام البلاط بعض المشروبات وسكر برائحة البنفسج(3)، والأكثر من هذا عهدوا إليه بمهمة دقيقة وهى أن يتلمس فى رصد النجوم اللحظة المواتية لأعمال الحرب(4): ولا نعلم إذا ما كان من بين «المنجمين قارئى الطالع والعرّافين، وزراء بطليموس وعشتاروت» الذين فقدهم فدريكو (١٢٤٨) فى هزيمة بارما القاسية(5). وسواء كان صقلياً أو أنطاكى المولد، عربياً أو يونانى الجنس(6)، فإن تيودورو هذا مثله مثل چـوڤانى دا

(1) وثيقة تم تحريرها فى سارتزانا فى ١٥ ديسمبر ١٢٣٩. لدى بريهول. المرجع السابق، الخامس. ص ٥٥٦.

(2) وثائق ٦ و١٠ فبراير ١٢٤٠. المرجع السابق، الخامس، ٧٢٧، ٧٤٥.

(3) وثائق ١٢ فبراير ١٢٤٠. المرجع السابق، الخامس، ٧٥٠، ٧٥١.

(4) نجد أخبار منجمى فدريكو هؤلاء فى رواية جودي لأخبار فيتشنتسا. عند موراتورى. *Rer. Ital.*، الثامن، ٨٣، وفى رواية رولانديتو. المجلد المذكور، ٢٢٨. حيث لقب تيودورو بالمعلم، وأخيراً راجع ما قاله عنه بصفة عامة الراهب فرانشيسكو بيبينو. موراتورى. المرجع السابق، التاسع، ٦٦٠.

(5) راجع الأبيات اللاتينية التى ذكرها بريهول. *Introduction*. ص ٥٢١.

(6) استهلال ترجمة فرنسية لكتاب *Libro di Sidrac* عظيم الشهرة يقول إن: *"un homme d'Antioche qui ot non Codre le philosophe"* مقرب من فدريكو حصل على ترجمة لاتينية لذلك الكتاب وأرسلها إلى أوبرت بطريرك انطاكيه، وإن من قام بالترجمة راهب بالرمى يُدعى روچيرو كان الإمبراطور قد بعثه خصيصاً لهذا الغرض إلى تونس لعلمه أن ملكها يقتنى الكتاب العربى. والسيد هويار بريهول الذى أخذت من مقدمته هذا الخبر (ص ٥٢٩) لا يحسبه خبراً غير صحيح، كما ظن كثيرون، وتَعَرّف فى أوبرت على البرتو بطريرك أنطاكيه، وفى كودر على تيودورو موضع حديثنا. وأرى هذا التصحيح صائباً جداً. ومن لديه دراية بقراءة الكتابات اللاتينية القديمة يدرك انه كثيراً ما يتم الخلط بين حرفى t وc. واختصار ثيودوروس الى تودرس شائع جداً فى الشرق كما يعلم الجميع. كما يظهر اسم الإمبراطور فى ترجمة لاتينية لكتاب: *"Liber novem judicum, quem misit Soldanus Babiloniae Friderico imperatori"*. الوارد فى *Catalogus Mss. Angliae, II .346, n. 8509*، والذى

بالرمو، كان رمزاً من الرموز الجيدة لذلك العلم الذى خلفه العرب فى صقلية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر: شذرات من كل العلوم الرياضية والطبيعية، ورؤى غريبة وبذور من حقائق؛ وكان علما الحساب والهندسة من بين أكثر العلوم نفعاً. وفيهما قطع چوفانى وتيودورو بلا شك شوطاً كبيراً من التقدم إذ أتيا يعرضان المعضلات على ذلك العظيم ابن وطن جاليليو، الذى بعد أن درس العلم فى بلاد البربر تعمق فيه، وجاء ينشره فى إيطاليا.

ها هو زورق رحلتى يدنو من مشارف أول استئناف للدراسات وإحيائها فى إيطاليا، بل فى أوربا، ومن اللازم أن أتوقف هنا إذ قد لا تكفى قواى لمواصلة الرحلة، ولأن ذلك التحضر يرجع إلى عوامل أخرى شتى ليست أدنى أثراً من التراث العلمى والأدبى الذى كان لمسلمى صقلية. تلك الأمة التى حين انقضت تركت حقاً حصيلتها القليلة إلى اللاتين الذين حسبوها قد انتهت، ولكنهم كانوا قد ازدادوا ثراءً من نواحى أخرى، كما يتضح فى نماذج مثل چراردو دا كريمونا، وليوناردو فيبوناتشى، وجويدو بوناتى، وجراردو دا سابيونتّا، وبرونتو لاتينى، وسيمونى دا جنوة وغيرهم.

على أية حال سأكتفى ببعض اللمحات، وحين أنتقل من الرياضيات إلى العلوم الطبيعية يجب أن أذكر فى المقام الأول ما التصق بالامبراطور من اتهام بالفضول الآثم فى كشف أسرار الخليقة. وأذاعت جماعة الرهبان الصغار *Frati minori*، أعداؤه الألداء، ما أطلق عليه سالمبينى خرافات فدريكو: وتارة قالوا إنه عمل على افراغ أحشاء رجلين ليبحث فى فسيولوچيا الهضم، وتارة أخرى منع مرضعات الأطفال عن تدليلهم بالكلمات حتى يتبين بالتجربة أى لغة

ذكره ستاينشنيدر فى *Giornale della Società orientale di Germania*، المجلد ٢٤، الجزء الثالث (١٨٧٠). ص ٣٨٧. وربما تحول «الحكماء السبع» إلى «القضاة التسع» نظراً لإزدواجية معنى لفظ حكيم العربى وسهولة استبدال العدد سبعة بتسعة فى خط النسخ.

يتمتع بها الانسان من تلقاء نفسه، هل هى العبرية كما يقال بالكتب، أو اللاتينية أو اليونانية أو العربية؛ ويضيف الرهبان أن الصغار المساكين ماتوا كمدا(1). وكان العلماء اليهود يمتدحون عبقرية فدريكو فى التاريخ الطبيعى(2). وهذا ثابت فى الحقيقة من وقائع معروفة للغاية: من جمع الحيوانات الغريبة الذى قام به(3)، وتاريخ الحيوان لأرسطو الذى لخصه ابن سينا وترجمه إلى اللاتينية ميكيلى سكوتو(4) بأمر منه، ثم تُرجم منها إلى العبرية، ولا نعلم من ترجمه ومتى أنجزت الترجمة(5)، وكتاب علم الفراسة

---

(1) سالمبينى *Chronica*، بارما ١٨٥٧، ص ١٦٨ و١٦٩.

(2) انظر برلس، *Rabbi Salomo etc.*، برسلاو، ١٨٦٢، والذى ذكره ستاينشنيدر *Hebräische Bibliogr.*، رقم ٣٩، ص ٦٤.

(3) راجع الفصل السابق، ص ٦١١ من هذا المجلد. ويذكر بريهول *Introduction*. المرجع السابق ص ١٩٢ وما بعدها تفاصيل ذلك: الحيوانات التى تم عرضها فى رافينا عام ١٢٣٤، وفى الألزاس عام ١٢٣٥. والفيل الذى أهدى إلى مدينة كريمونا.. إلخ.

(4) المرجع السابق، **المقدمة**، ص ٥٢٤، والمجلد الرابع، ص ٣٨١ وما بعدها. حيث وردت الإشارة إلى مخطوطات *Bruges* و*Pommersfeld*. ويضاف إليها مخطوطة اللاورينتسيانا *Plut. XIII, sin., cod 9* ومصدرها مكتبة سانتا كروتشى (كتالوج *Bandini*، ٤، ص ١٠٩). هذه النسخة الجميلة المكتوبة على الرق عنوانها: *"Aristotelis de Animalibus, interprete Michaele Scoto"* وتتألف من ثلاثة أعمال مختلفة:

١ـ *"De animalibus"* ترجمه من العربية إلى اللاتينية المعلم ميكيلى (سكوتو) فى تولكتو *Tollecto*، وانتهى من صياغته فى ٢٤ سبتمبر ١٢٦٦ (الورقة ٥٦ الوجه الأول).

٢ـ العمل نفسه باسم ميكيلى سكوتو يبدأ بالآتى: *"Frederice domine mundi etc"*، كما فى قائمة باندينى، ونقرأ فى آخره *"expletus est per magistr. Henrigum colloniensem etc. apud Messinam civitatem Apulee, ubi dominus imperator eidem magistro hunc librum premissum commendavit anno 1232"*. وتمت كتابة النسخة فى ١٤ نوفمبر ١٢٦٦ (الورقة ٣٨، الوجه الأول).

٣ـ *"De partibus animalium"*. ترجمه أيضاً ميكيلى سكوتو. طبقاً للقائمة ويفهم ان الترجمة تمت من النص اليونانى؛ ولكننا لا نقرأ هذا فى النسخة الخطية التى كتبتها اليد ذاتها فى عجالة اكثر من الجزئين الأولين. ونظراً للتاريخ يلزم التسليم بتصحيح بريهول الذى استبدل ملفى بمسينا.

كان ميكيلى سكوتو مشهوراً فى إيطاليا طوال القرن الثالث عشر. كما نستخلص من ساليمبينى، *Chronica*، ص ١٦٩.

(5) انظر ستاينشنيدر *Hebräische Bibliographie*، رقم ٢٩ مايو ١٨٦٤، ص ٦٥، هامش ٧.

الذى ألفه سكوتو للامبراطور(1)، ومبحث الصيد بالقصور الذى أعده فدريكو نفسه(2)، وكتاب طب الخيول الذى صاغه جوردانو روفّو دى كلابريا(3) طبقاً لما أملاه عليه فدريكو. وترجمه مجهول إلى العبرية(4)، ومبحث فى الطب البيطرى يُسند إلى إبوقراط، وترجمه من العربية للاتينية المعلم موسى دا بالرمو(5).

وليس هذا مقام تناول مدرسة سالرنو فى الطب، التى تبارى فيها الحكماء اللاتين مع اليهود(6) والمسلمين، وزودها أطباء صقلية باسهام علومهم كما يتضح من اسم بيترو الصقلى الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. وتلاه نفر يُدعى جوفانى بن قسطنطين الصقلى(7). ونعلم أن جوليلمو الثانى، بقدر ما كان يكرم الفلكيين، كرّم كذلك الأطباء المسلمين الذين كانوا يفدون إلى صقلية(8)، وكيف أن فدريكو لم يقتصر فقط على إصدار القوانين لدراسة الطب، ولكن يبدو أنه شجع على نشر بعض كتب الطب وترجمة بعضها الآخر(9). ونعلم مدى الحفاوة التى استقبل بها فى

---

(1) بريهول، المرجع المذكور، ص ٥٢٥.

(2) المرجع السابق، ص ٥٣٦.

(3) المرجع السابق، ص ٥٢٧.

(4) *Wolf*، المجلد الرابع، ص ٨٦١، وذكره ستاينشنيدر فى الكتيب الذى ذكرناه منذ قليل.

(5) مخطوطة مكتبة مودينا وذكره تيرابوسكى فى المجلد الرابع، الجزء الثانى، ص ٢٤٢. والنسخة الإيطالية المخطوطة (القرن الخامس عشر) التى تحوزها مكتبة فلورنسا القومية لا تشتمل على اسمى المؤلف والمترجم.

(6) حول الدور الذى لعبه اليهود فى هذا المجال التعليمى الشهير، راجع كلا من كارمولى، *Histoire des Médecins juifs*، بروكسل، ١٨٤٤، المجلد الأول، § ٢٣، ودى رنتسى، *Collectio Salernitana*، نابولى، ١٨٥٢، المجلد الأول، ص ١٠٦ و١١٩، وفى مواضع شتى، وأيضاً فى المجلدات الثانى والثالث والرابع.

(7) دى رنتسى، المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٢٨.

(8) ابن جبير الذى ذكرناه فى الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥١١ من المجلد.

(9) استند فى التفاصيل والاستشهادات إلى بريهول، المصدر السابق، Introduction، ص ٥٢٨ و٥٢٩.

بلاط بالرمو نحو منتصف القرن الثالث عشر الطبيب تقى الدين الذى توقف فى صقلية(1) أثناء رحلته من بلاد المشرق إلى بجاية. وعاش بالجزيرة حتى نهاية النصف الثانى من القرن الثالث عشر؛ وكان يجيد العربية إجادة تامة وكذلك الطب للحد الذى مكنه من ترجمة ذلك الكتاب الكبير الذى كتبه الرازى فى الطب والذى يحمل عنوان الحاوى، وكان كارلو دانجو الأول قد طلب مخطوطاً من هذا الكتاب من ملك تونس وحصل عليه. وأنجز المترجم واسمه فرج بن سالم، وهو يهودى من چرچنتى، فى فبراير عام ألف ومائتين وتسعة وسبعين ترجمة هذا العمل الذى نال استحسان خيرة أطباء نابولى وسالرنو حتى أعدت منه نسخة رائعة على الرق للاطلاع عليها بالبلاط وقسمت إلى خمسة مجلدات ضخمة، وآلت هذه النسخة بعد أربعة قرون إلى مجموعة كولبير، وهى محفوظة الآن ضمن كنوز المكتبة القومية فى باريس(2). ولا تقتصر أهمية هذا العمل على تاريخ الآداب فحسب، ولكنه يمكن ن يفيد أيضا العلماء واللغويين، إذ يختتم بفهرس وثبت ضخم للأدوية المفردة، حيث يطابق الأسماء اللاتينية بالعربية، وفى أحيان كثيرة باليونانية، وكلها مكتوبة بالحروف اللاتينية(3).

---

(1) مقال السيد شيربونو فى *Journal asiatique*. مايو ١٨٥٦، ٤٨٩، وردت فيه معلومات عن مجموعة من تراجم المسلمين من القرن الثالث عشر لأحمد الجبرينى. يقول المؤلف إن تقى الدين استقبل استقبالاً حسناً من قبل الإمبراطور، ملك الجزيرة المسيحى، وربما كان يشير إلى مانفريدى، كما يعتقد العلامة السيد دى فريميرى، الموضع المذكور.

(2) مخطوطات لاتينية، ٦٩١٢. واستخلصت الأخبار عن أصل هذه الترجمة من العمل نفسه، الجزء الأول، الورقة ١ و٢، والجزء الخامس، الورقة ١٨٩ الوجه الثانى، وقد ضمنتها فى كتابى *Guerra del vespro Siciliano*، طبعة عام ١٨٦٦، الأول، ص ٨١ و٨٢ فى الهامش. وقد قام أنجلو دى ماركلا بنسخ المخطوطة فى نابولى (الجزء الخامس، الصفحة الأخيرة).

(3) جدول الأمراض وأعضاء جسم الانسان، المجلد الخامس، الورقة ٨٦ وما بعدها، منظم فى عامودين يحمل أحدهما عنوان *Sinonimum* والآخر *Expositum*. ونقرأ فى العامود الأول المصطلح الفنى بالعربية أو اليونانية وفى الآخر باللاتينية.

وإذا كان العرب قد أخذوا كلمة الفلسفة مثلا عن اليونانيين، فإنهم استخدموها بمعنى مختلف عن معناها فى أوربا خلال العصور الوسطى، وقصروها على إمعان الفكر فى النواحى الميتافيزيقية والفزيائية فى العهود القديمة، ولا أظن أن الملك روجيرو قد عنى بمثل هذا العلم أبدا، مثلما يؤكد الصفدى وعُمرى اللذان ذكرتهما(1). كما يثنى عليه الإدريسى فى أهدائه للجغرافيا، لعنايته بفرعين من العلوم التى يمكن أن نطلق عليهما علمى السياسة والحساب(2): ومن كل ما نعرفه عن هذا الأمير العظيم نرى ميله للعلوم العملية والتطبيقية أكثر من العلوم البحتة، فيما يخص الطبيعة والعلاقة بين الكائنات. إذن فمن المحتمل أن يكون الكاتبان العربيان اللذان ينتميان للقرن الرابع عشر قد انقادا وراء الشهرة التى حازها بلاط آل زهْيفى، بصفته مركزا للحكمة والعلم، فأسندا عن طريق الخطأ إلى روجيرو مدحا كان جديرا بأن يوجه إلى حفيده من ابنته. وعلى ذلك تقدمت الدراسات الفلسفية بمعنى الكلمة تقدماً كبيراً فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر فى إيطاليا وخاصة فى المناطق الجنوبية. ويبدو أن عـالم فـلورنسـا أريجـو دا سـيتيملو كـان يشـيـر إلى تـلك

وتبدا *Tabula medicinarum* من الورقة ٩٠ الوجه الثانى إلى الورقة ١٣٤ من الجزء نفسه، بنظام العامودين: على سبيل المثال *"Alebros = Agnus castus"* *"Alhon = Rosa fetens etc"*، ولكن بعض الأوراق التى تلف تجليدها قد اخلت هنا بالترتيب الأبجدى. ومن الورقة ١٩٠ الوجه الأول يجرى تحديد الأدوية المفردة أيضاً حسب الترتيب الأبجدى العربى واحب ان أذكر منه المادة التالية التى ربما تنال إعجاب الباحثين فى النبات.

RUBEA TINCTORIS. Arabice appellaiur fuatelsabg (Fuwwat-es-sabgh) et est quedam herba, cujus radix est rubea, qua utunlur tinctores ad tingendum rubeum; et ideo dicitur rubea tinctoris: et ista herba expanditur et suspenditur cum arboribus; et virgulta ejus sunt quàdrata, alba etsubtilla, nodulosa et in quolibemodulo sunt octo folia aut sex, aut quatuor. aspera, parva, similia foliis ysopi montani. Capud (sic) ipsorum est acutum et in ipsis nodulis est flos parvus, citrinus, declinans ad albedinem et in loco floris egreditur granus similis coriandro; et radice ejus est utendum (vol. V, fog. 207).

Hadoshaon, hadoydodayon, Rubea tinctoris (fog. 100, recto).

(1) الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٢٥، هامش ٢.

(2) الفصل السابق، ص ٤٣٧.

الدراسات، وليس إلى العلوم والمعارف بصفة عامة وذلك فى قصيدته الجليلة اللاتينية التى قالها فى نهاية القرن حيث قال إن الفلسفة كانت تحظى بالحفاوة فى صقلية(1).

وكان يدفع فدريكو نحو الميتافيزيقيا مناخ تلك الفترة وصباه الذى قضاه فى بلاط بالرمو، واستفزاز بعض البابوات الطموحين والمتعاليين، إلى جانب دقة التفكير الجرمانية. ويمكن أن نفترض بداية أنه تربى فى مدرسة المشّائين العرب نظرا لأن أوربا المسيحية فى ذاك الوقت لم تكن تنهل فى العادة من منابع أخرى خلاف تلك. ويتأكد الافتراض بما هو معروف عن أنه اصطحب معه فى إحدى الحملات الصليبية أحد مسلمى صقلية كان قد درس معه، فيما سبق، علم المنطق(2). ولدينا الدليل الأول المتمثل فى الرأى العام الذى شاع فى ذاك القرن، حين كان البلاط البابوى والرهبان وأعداء الامبراطورية والطائفة التى لا حصر لها من متزمتى ذاك العصر والأكثر حدة فى غضبتهم من متعصبى اليوم، يوجهون اتهامهم لفدريكو بالكفر، ويقذفونه بأحمق التهم والأكاذيب(3)، والأكثر من ذلك أن المسيحيين

---

(1) *Arrighetto* او *Trattato contro all'avversità della Fortuna*، فلورنسا، ١٧٣٠. وفيه (فى الكتاب الرابع، ص ٣٨) وُضع هذا الشعر على لسان الفلسفة:(1)

Et mihi sicaneos, ubi nostra palatia muros
Sic stat propositum mentis, adire libet.

ولكن المترجمين الإيطاليين القدماء، قد أحسنوا التفكير حينما كتبوا باريس بدلاً من صقلية: كما نرى فى الطبعة المذكورة، ص ٧٦، وفى صيغة بديلة فى نسخة ريكّارديانا التى ذكرها ميلانيزى فى طبعة عام ١٨٦٤ *(Il Boezio e l'arrighetto)* ص ٥٤٤. ويؤكد *Mehus* فى سيرة امبروجو ترافرسارى *Epistolæ etc*، فلورنسا، ١٧٥٩، وبمبررات معقولة أن شعر أريجو دا سيتيملو قد كُتب عام ١١٩٣.

(2) ابن الجوزى الذى ذكرناه فى الفصل السابق، ص ٦١٥.

(3) راجع أخبار ساليمبينى الذى أطلق عليه (فى ص ٢)، *"pestifer et maledictus, schismaticus, haereticus et epicureus, corrumpens universam terram"* وفى مكان آخر (ص ١٦٨) يوجه إليه سبابا بمثابة مزاح: لو كان الله قد نظر إلى أرض العمل *Terra di Lavoro* وكلابريا وصقلية وبوليا لما اتقى كثيراً على أرض الميعاد.

المتذمرين على روما فى إيطاليا وخارجها كانوا يلومونه على أفكاره الحرة الجريئة، وحتى الشاعر الكبير الذى وضع فى الجحيم عدة بابوات أغلق عليه مقبرة مشتعلة بالنار فى قاع الجحيم. ولكن منذ بضعة سنوات خلت ظهرت أخبار صريحة ودقيقة حول المدرسة التى كان يتبعها.

وهناك مخطوط عربى فى مكتبة بودليانا باكسفورد وعنوانه «المسائل الصقلية» يتضمن المسائل الفلسفية «التى أرسلها إلى حكماء الشرق والغرب ملك الرومان، إمبراطور صقلية وأميرها، والردود التى رد بها فى سبته الشيخ العالم الجليل عبد الحق بن سبعين حسب رغبة الخليفة الموحدى الرشيد». وملك الرومان هذا هو بالتحديد فدريكو حيث أن تطابق التواريخ يحملنا إلى فترة ملكه بالضبط. وها هو مضمون الأسئلة:

أولاً: «يقول الفيلسوف (ارسطو) فى كل أعماله صراحة إن العالم موجود منذ الأزل. وهكذا كان يعتقد بالتأكيد. والآن إن كان قد أثبت ذلك فما هى براهينه، وإن لم تكن هناك قرائن. فما هى طريقة إيضاحه؟».

ثانياً: «ما غاية علم الكلام وما مسلماته الأولى إذا كانت له مسلمات؟».

ثالثاً: «ما التصانيف؟ وكيف أن العشرة التى نعرفها هى مفتاح أى علم من العلوم؟ وهل هى حقيقة عشر، ولماذا لا يمكن حذف أو إضافة واحدة منها أو عليها؟ وكيف نثبت كل هذا؟».

والسؤال الرابع لم ينقل نصه، ولكنا نستخلص أنه كان يتعلق بطبيعة الروح وخلودها والتناقض الظاهر فى هذا الموضوع بين أرسطو والسّاندرو دا أفروديزيا.

خامساً: «كيف تفسر كلمات محمد هذه: «قلب المؤمن بين إصبعى (الله) الرحمن؟».

وتكفى مثل هذه الأسئلة لجلاء فكر الشك. وأجاب ابن سبعين الذى لم يكن أقل تشككاً من فدريكو على كل الأسئلة رد المسلم المتبصر بالسنة، الخبير بترسانة العلم والمتبحر فى تاريخ الفلاسفة اليونانيين، حيث أنه علاوة على عديد من المشائين يذكر بخصوص خلود الروح، «الربانى أفلاطون ومعلمه سقراط» إلى جانب القرآن والإنجيل والتوراة، والمزامير. والصحف التى يبدو أنها كانت وحياً قديماً جداً عند الصابئة. ولكن كان يخرج من تحت رداء الطهر حافر إبليس. ففى كلامه عن علم الكلام وأسسه العلمية كتب ابن سبعين أنه لو اراد الإمبراطور استيضاح هذا بصورة أفضل، فليحضر بشخصه ليشافهه، أو ليرسل أحد متكلميه أو على الأقل رجلاً من اهل الثقة يأمن تسليمه الرد المكتوب: وكانت هذه العبارات العربية معروفة للجميع فى تلك البلاد، وكأنها النار يرتفع لهيبها: وكان المدعون الجهلاء والخبثاء كثرة فما إن اشتموا رائحة تلك الأمور حتى أطلقوا على السائل حماراً ورموا المسئول بالجنون. ونقرأ فى مقدمة هذه الفقرة العلمية المشائية أنه ما أن تسلم رسول الإمبراطور الرد المكتوب حتى قدم عن طريق حاكم سبته مبلغاً كبيراً من المال رفضه ابن سبعين، كما رد أيضاً العطايا الثمينة التى ارسلها له فدريكو حين رأى الرد المكتوب. ويرجع عرض المسائل الصقلية تقريباً إلى عام ألف ومائتين وأربعين(1).

وليس لدينا ما نعرف منه إن كان فدريكو قد أشبع فضوله الفلسفى بالحلول التى اقترحها عليه ابن سبعين. وهذا العالم الذى ربما كان يبلغ

---

(1) مخطوطة بودليانا *Hunt*، ٥٢٤، رقم ٤٦٦ من القائمة العربية حيث ورد خطأ اسم الأمير صاحب المسائل. وقد ذكرت معلومات مستفيضة عن هذا الكتيب فى *Journal Asiatique*، ١٨٥٣، فبراير - مارس، ص ٢٤٠ وما بعدها. كما أعدت طباعة بعض فقرات النص فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٧٢ وما بعدها. واستند إلى ما فى *Journ. Asiat* بخصوص الدلائل ومقابلة التواريخ والأسماء.

من العمر حينئذ خمس وعشرين عاماً، كان قد فر من موطنه مرسيه إلى سبته مع أول اضطهاد دينى عانى منه، اضطر مرة أخرى لتغيير محل إقامته؛ لأن علماء الكلام من المسلمين كانوا لا يغتفرون له جرأته ولا معارفه. فانتقل من سبته إلى بجاية، ومنها إلى تونس ثم إلى القاهرة وأخيراً استقر فى مكة، وكانت تسبقه صفة الزنديق والمشرك وتلصق به رغم أنه كان يحاول أن يتخفى تحت رداء المتصوفة وعلوم التصوف. وكان له مثل الفلاسفة القدماء اتباع كثيرون من تلاميذ وأشياع مالوا إليه لعلمه وفصاحته. أو وقَّروه لفيض إحسانه. ولكن لما كانت الغلبة لأعدائه، فإذ به فى نادرة من نوعها لدى المسلمين، يطلب قطع شرايينه. ويموت مثل الرواقيين: وعليه ازداد إعجاب تلاميذه به وانتصار أعدائه عليه(1). وإن لم يخطئ أحد الرواة المجهولين الذى نقل عنه المقرى فإن صيت هذا الفيلسوف ترامى حتى إيطاليا. ولما قام ألفونسو دى كاستيليا بتجريد عبد الله وهو من بنى هود أمير مرسيه من أمواله فجأة بعد أن قدم له الولاء الإقطاعى، أراد عبد الله اللجوء للبابا ليشكو الحنث بالقسم كما أعتقد. وأرسل لهذا السبب إلى روما أخ ابن سبعين واسمه أبو طالب، الذى حين قابل البابا لاحظ أنه بمجرد أن نظر إليه راح يتكلم عنه «بلغة العجم» مع رجال بلاطه، ولما استعلم عن كلامه توصل إلى أن البابا قد قال إن أخاه هو فى الحقيقة

وطبقاً للمؤلفين المذكورين ولد ابن سبعين فى مُرسيه عام ٦١٤ (١٢١٧ ـ ١٨) وتوفى فى مكة عام ٦٦٩ (١٢٧١). وحكم الخليفة الموحدى الرشيد من عام ١٢٣٢ إلى ١٢٤٢.

(1) نستمد ترجمة هذا الفيلسوف المسلم. من ابن خلدون والمقرى وأبى المحاسن الذين ذكرتهم فى *Journ. Asiat*. وابن الخطيب الذى ذكره المقرى يشير إلى هذه المسائل الصقلية التى أرسلها علماء الروم لإثارة البلبلة بين علماء المسلمين، ونجح الشاب ابن سبعين فى حلها. وبعد نشر دراستى أرسل لى العلامة السيد شربونو وهو أستاذ جامعى بالجزائر، ترجمة أخرى لابن سبعين مأخوذة من كتاب جبرينى المعاصر لابن سبعين (انظر ص ٦٩٨، هامش ٢) وهذه الترجمة لا تتضمن شيئاً جديداً بالنسبة لنا. لأنها نقلت فى كتابات المؤلفين المحدثين التى كانت كتاباتهم فى متناول يدى فيما قبل.

أمير علماء الكلام لدى المسلمين. ولما كانت هذه الوساطة ترجع إلى عام مائتين وثلاثة وأربعين حيث كان أهل قشتاله يحتلون مرسيه، فينبغى أن تنسب هذا الحكم إلى إينوتشنتسو الرابع، وهو رجل غزير العلم وكانت تربطه صداقة بالإمبراطور من فترة وجيزة. ومن المحتمل أن يكون إينوتشنتسو قد قرأ أيضاً الردود على المسائل الصقلية التى كان لها دويها دون شك بين المعنيين بالعلم(1).

فى مثل هذا التبادل الفكرى المتواتر لم يكن بلاط صقلية ليجهل أعمال الفيلسوف اليهودى الأسبانى القدير، الذى مات فى أوائل ذاك القرن، وهو موسى بن ميمون، الذى لقبه الكتاب المسيحيون بالميمونى. وبالفعل كشفت الأبحاث العلمية الحديثة بعد التنقيب فى كتابات اليهود الإيطاليين آثار نقاش لفدريكو مع أحد الحكماء، لا نعلم إذا ما كان يهودياً أو مسلماً. ابدى الإمبراطور من خلاله دهشته من أن الميمونى لم يشرح فى «مرشد المتشككين» ولا فى «حكمة التعاليم» "Ragioni de Precetti" أصل طقوس التطهير الموسوية برماد البقرة الحمراء (عدد: ١٩) واضاف أنه يبدو له أن هذه العادة نشأت فى الحقيقة من حرق الأسد الأصفر المائل للحمرة التى وجدها فى «كتاب الحكماء الهنود»(2). وتوصلنا على حق من هذه اللمحة إلى أنه كان فى متناول يد فدريكو الترجمة العبرية، أو بالأحرى الأصل العربى «للمرشد» الشهير، وهناك من رأى احتمال أن يكون هو الذى أمر بأول ترجمة لاتينية لذلك الكتاب(3). ونأمل فى أن يكشف مزيد من البحث

---

(1) المقرى، طبعة ليدن، ١، ٥٩٤. وفى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٥٧٤ فى الهامش. وراجع الايضاحات التى ذكرتها فى هذا الشأن فى المقال المذكور فى *Journal Asiatique*.

(2) لاحظ استاذنا فاوستو لازينيو هذه الفقرة فى مدونة عبرية فى اللاورينتسيانا وارسل منها نسخة إلى العالم ستانسشنيدر الذى نشرها بدوره مع تعليق علمى عليها فى *Hebräische Bibliographie*، رقم ٢٩ (مايو ١٨٦٤)، ص ٦٢ وما بعدها. واضاف فى رقم ٤٢ (نوفمبر ١٨٦٤)، ص ١٣٦، فقرة من مخطوطة عبرية اخرى يشار فيها إلى مناقشة بين فدريكو وصمويل بن تيبون، المترجم العبرى «للمرشد».

(3) ستانسشنيدر، المرجع السابق، رقم ٢٩، ص ٦٥.

والتحقيق هذه التفاصيل فى التاريخ الأدبى. على أية حال ليس هناك مجال للشك فى هذه الرواية التى تزيد دائماً من مجال المعارف الواجب اسنادها إلى فدريكو.

ولم يكن اهتمامه بالفلسفة لنفع شخصى أو لهوى فى نفسه فقط، ولكنه عمل على نشرها فى كافة المناطق الخاضعة له وفى أرجاء الأراضى المسيحية؛ وسنقوم بمجرد الإشارة إلى الجامعة التى اسسها فى نابولى، وإلى الإعانات التى كانت تقدم للطلاب الفقراء، وإلى «العلماء الذين كانت تتم دعوتهم من جميع فجاج الأرض كما يقول يامسيلاً، ومكافاتهم بالمكافآت العريضة وإكرام وفادتهم»(1). ولما أثرت مكتبته بمخطوطات عربية ويونانية شتى عمل فدريكو على ترجمتها إلى اللاتينية للنفع العام منها. وتتبقى لنا الرسالة النبيلة التى أهدى بها إلى أساتذة وطلبة بولونيا ترجمة «بعض كتابات ارسطو وفلاسفة آخرين فى علمى المنطق والكونيات، لتسهم فى نشر العلم، الذى «بدونه، كما كان يقول، لا تستقيم حياة الأنام فى أسلوبها الكريم». ويبدو مستحيلاً ألا يكون فدريكو قد أثرى بتلك الكتابات ويمباحث أخرى جامعة نابولى التى كان يعتز بها؛ كما نستخلص أيضاً أن مانفريدى فى اقتدائه بوالده كان يرسل إلى جامعة باريس ربما الأعمال نفسها، ومن المؤكد الرسالة ذاتها التى نسخها وغيّر الاسم فيها(2). ويظن العلماء أن ميكيلى سكوتو(3) قام بهذه الترجمات

---

(1) *Anonymi, etc* .(*Niccolo de Jasmilla*) عند كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٦٧٨.

(2) يكفى ان اذكر عن نص الرسالتين الواحد *Historia Diplomatica*، بريهول، ٤، ٣٨٣ وما بعدها، حيث نقرا البدائل الواردة بالنسخ التى وردت قديماً فى رسائل بيترو ديلا فينيا وفى مجموعة مارتين. ويرجع تاريخ رسالة فدريكو إلى عام ١٢٢٠ تقريباً. وموضوع الكتيبات مشروح فى النص ومقترن بعبارة *in sermonialibus et mathematicis disciplinis*، وقد قمت بتغيير ثانية هاتين اللفظتين إلى *cosmografia* حيث يتعلق الأمر حسبما يرى چوردان بكتب الطبيعة والظواهر الجوية لأرسطو، وربما ايضاً بالمجسطى لبطليموس. قارن بريهول، المرجع السابق، ٤، ص ٣٨٤، الملاحظات والمقدمة، ص ٥٢٦.

(3) بريهول، الموضع المذكور.

كلها أو جلها. وبعد تلك الفترة بقليل ونزولاً على رغبة مانفريدى ترجم بارتولوميو دا مسينا الأخلاق من فلسفة أرسطو(1) من اليونانية إلى اللاتينية، وتلبية لرغبة الأمير نفسه ترجم الألمانى هرمان إلى اللغة اللاتينية التأويل العربى أو التلخيص للكتاب نفسه ولكتابات أخرى لأرسطو(2). يضاف إلى ذلك ترجمات أخرى لكتب الحساب والطب والتاريخ الطبيعى والفلك والتنجيم والتى رعاها فدريكو وابنه كما سبق أن أشرنا. ولما كان اليهود طوال العصور الوسطى فى الغرب هم أنشط المترجمين لعلوم العرب، فضّل فدريكو أن يضيف إلى الترجمات إلى اللاتينية ترجمات أو مؤلفات يهودية لكتب العرب فى العلوم. وفضلاً عما خلصنا وأشرنا له حول ترجمة «دليل المتشككين» نعرف، بناءً على شهادات مؤكدة، أن يعقوب بن أبا مارى، وكان طبيباً من مارسيليا، تمتع براتب عظيم، منحه إياه الإمبراطور، وانتهى فى نابولى عام مائتين وواحد وثلاثين من الترجمة العبرية للمجسطى، كما أتم فى العام التالى ترجمة تعليق ابن رشد(3) على أربعة كتب

---

(1) مخطوطة دير سانتا كروتشى فى فلورنسا، والتى انتقلت إلى اللاورينتسيانا بتصنيف *plut. XXVII, dext. n. 9*، تحتوى من بين النبذ على نبذة، (الورقة ١٧٦ أو بالأحرى ٢٥٢)، تحمل عنوان: *"Incipit Liber magnorum ethicorum aristotelis, translatus de greco in latinum a mgistro bartholomeo de Messini, in curia illustrissimi maynfridi, serenissimi regis sicilie, scientie amatoris, de mandato suo"*. راجع أيضاً فهرست باندينى، ٤، ٦٨٩ الذى ورد به أن الترجمة ذاتها، ولكن منقوصة ودون اسم، موجودة فى مخطوطة سانتا كروتشى الأخرى، *Plut. XIII, sin, cod. VI*، رقم ٦. وأتى ذكر ذلك فى الفهرست ص ١٠٦ من الجزء نفسه. وهذا المخطوط مؤلف كله من نبذ أرسطو، ولكنى لم أعثر على أى منها يرجع إلى الزمان أو البلد اللذين نحن بصددهما.

ويذكر تيرابوسكى، *Storia della Letteratura Italiana*، المجلد الرابع، الجزء الثانى، الكتاب الثالث، الفصل الأول، § ١، ص ٢٤١، فضلاً عن أولى مخطوطات سانتا كروتشى المذكورة، مخطوطة فى مكتبة سان سلفاتورى فى بولونيا.

(2) رينان، *Averroès, partie II, chap. II, § 3*.

(3) كارمولى، *Histoire des médecins Juifs, etc*، بروكسل ١٨٤١، § ٩، وستاينشنيدر، *Hebraische Bibliographie*، رقم ٣٩ (١٨٦٤)، ص ٦٢، ٦٤؛ ورينان ١٧ §، *Averroès, partie II, chap. 1*. وقارن، المرجع السابق، المقدمة، ص ٥٢٦.

لأرسطو. كما نخلص أيضاً إلى أن يهوذا كوهين بن سليمان، وهو يهودى أسبانى ومؤلف موسوعة علمية ضخمة أملاها بالعربية وترجمها إلى العبرية، انتقل إلى إيطاليا فى عام سبعة وأربعين بعد أن أجاب مرتين على المسائل العلمية التى كان فدريكو يطرحها(1): ومن هنا نفهم سبب استدعاء فدريكو له من وراء جبال الألب وإنعامه عليه بسخائه الحكيم الذى اعتاده نحو أى عالم من العلماء.

ومن هنا ساد الاعتقاد بأن فدريكو كان يعرف العبرية، وفى افتراض أوجه، أضاف آخرون أنه كان يعرف اليونانية حيث توجد نسخة يونانية لمراسيمه(2)، ومن المعلوم أن هذه اللغة كانت هى السائدة فى عصره فى بعض مدن صقلية ونابولى. ولأسباب وجيهة أيضاً يسود الاعتقاد بأن فدريكو كان يعرف البروفانسية والفرنسية(3)، وليس ثمة ريب فى أنه كان يتحدث بدرجات متفاوتة الإيطالية واللاتينية والعربية والألمانية(4). وتحوم الشكوك حول قوله الشعر باللاتينية والبروفانسية(5)، ولكن من المؤكد أنه صاغ الشعر بالإيطالية مثل بعض أبنائه ورجال بلاطه: ولا يعنى هذا أن فدريكو هو الذى ابتدع الشعر لدينا، أو أسس، بمعنى الكلمة، أركاديا فى بالرمو كما ظن علماء القرن الماضى؛ ولكنه كان أول، أو من أوائل من أدخلوا فى إيطاليا التقليد العربى والبروفانسى بإلقاء الشعر فى البلاط بمختلف لغات الشعراء الذين يقولونه. وأدى هذا التقليد الملكى إلى تشجيع آدابنا أكثر مما يبدو لغير المدقق. فقد نشر فدريكو بين العامة الشعر

---

(1) ولف، ودى روس، وكرافت، الذين ذكرهم بريهول فى المقدمة نفسها، ص ٥٢٧.

(2) قارن بريهول، المرجع السابق، **المقدمة**، ص ٥٢٩. وبخصوص النص اليونانى لمراسيم فدريكو راجع المرجع نفسه، المجلد الرابع، الجزء ١ و٢.

(3) بريهول، المرجع السابق، **المقدمة**، ص ٥٤١، ٥٤٢.

(4) يقول ساليمبينى *Chronicon*، ص ١٦٦، بصفة عامة إنه كان يتكلم لغات شتى: ويكتب ريكوردانو ماليسبينى فى الفصل ١٧٠: «إنه كان يعرف لغتنا اللاتينية والعامية، والألمانية والفرنسية واليونانية ولغة السراسين: وكان واسع الفضائل، كريم، سخى فى عطائه... إلخ».

(5) بريهول، ٥٤٠ و٥٤١ من المقدمة سابقة الذكر.

الحديث وما به من أثر غنائى متناغم(1). ولو صح ظنى فقد ولّد فى نفوس المعاصرين له ولعا غير محدد وإن كان عارماً بالحضارة، إذ كانوا يرون حفيد باربا روسا ينزل عن عرشه ليشافه العلماء وينخرط فى ممارسة الفنون الجميلة وفى التسلية: كان حسن الطلعة، لماحاً، يحترم أقوال الآخرين(2)، يقظاً، شامل المعارف، يتسم بعمق التفكير الحر الممتد إلى العلم، لا المأسور داخل حدوده، كما كان يعرف بتألقه وأنيق ذوقه فى الأثاثات والقصور التى أمر ببنائها(3). وساهم بقوته وثرائه وسمو روحه فى تقدم الفكر البشرى فى أوربا بما لم يقم به آخر فى العصور الوسطى.

والمقام هنا ليس مقام الحكم على فدريكو بصفته رجل دولة، أو مشرع؛ وليس مقام توجيه اللوم ولا تبرير النقائص التى لصقت به مثل البخل والقسوة والانحلال والخداع: وهى رذائل كل عصر وأوان، وكانت فى العصور الوسطى أكبر مما هى عليه اليوم. فإذا نظرنا فقط إلى نوع تفكيره، فإن فدريكو يبدو لنا رجلاً من رجالات القرن الثامن عشر، وجد ليعيش فى بدايات القرن الثالث عشر، مثل تلك النباتات التى تزهر فى غير أوانها فى طفرة من طفرات الطبيعة أو بتدخل من الانسان. مثل هذه الظواهر الأدبية والروحية لا يصل التاريخ إلى تفسيرها تفسيراً تاماً. إذ لا ينفذ النقد إلى معظم أسبابها؛ ولكن يمكنه على الأقل أن يبحث فى الظروف التى هيأت لنمو بذرة طيبة. وقد تشكلت عبقرية فدريكو وتعاظمت بين سلسلتين من الأحداث غير العادية أشرنا إليهما، أى الدوامة السياسية التى أحاطت به منذ نعومة أظافره، وجو الحضارة الذى تربى فيه. ويحملنا موضوعنا إلى ايجاز ما قلناه وما قاله آخرون حول هذه النقطة الأخيرة.

---

(1) ساليمبينى، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(2) ساليمبينى، الموضع السابق، يعبر بوضوح عن مدى التعجب الذى شعر به حين شافه هذا الرجل المتحرر. راجع ما ذكره فى ص ١٧٠.

(3) بخصوص الآثار انظر بريهول، المرجع السابق، **المقدمة**، ص ١٤٦ وما بعدها.

بحلول القرن الثالث عشر كانت الحضارة الإسلامية بما لها وما عليها قد تغلغلت تغلغلاً طفيفاً فى كل أوربا، وتغلغلت تغلغلا أكبر فى البر الإيطالى بينما كان وجودها أعظم فى صقلية، فعلاوة على تبادل التجارة مع السواحل الجنوبية بالبحر المتوسط فقد ظلت بها بقايا طوائف وعشائر من المسلمين: ومن بين ما تبقى من تلك الأصول وجدنا فى طفولة فدريكو، رجالاً يخدمون فى بلاط بالرمو ورأينا آخرين منهم فى حاشيته فى القدس وفى كافة أنحاء إيطاليا فى السلم وفى الحرب وفى الترحال؛ ومنهم المعلمون أو المعاونون فى الدراسة؛ وهؤلاء ويهود ومسلمون وافدون من بلدان أخرى وجدناهم بين رجال البلاط ويتبوأون المناصب أو يقومون على أن يقضى الامبراطور وقته فى تسليات بريئة أو فى الترف، أو فى غير ذلك. وجوفانى الملقب بالمورو، الشهير بأعماله السيئة خلال حكم مانفريدى وكورادو، والذى أنجبته إحدى جوارى البلاط وكان أميناً للإمبراطور وللخزانة العامة فى المملكة، هو ذاك بعينه الذى حاز إقطاعيات من إنوتشنتسو التاسع وأراد أن يخدع مانفريدى فى لوتشيرا، ويتشابه جوفانى هذا فى أصله وأسلوب حياته مع أى من العبيد المعتوقين فى بلاط المسلمين فى أسبانيا وأفريقيا أو مصر(1).

كان بلاط آل زفيفى الإيطالى يبدو بلاطاً مسلماً فى أعين كل مسيحيى الغرب طبقاً لشهادة كارلو دانجو، الذى كان يطلق على مانفريدى لقب سلطان لوتشيرا، وحيث أننا بسطنا الحديث فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة عن الحصيلة الفكرية التى أخذها فدريكو عن المسلمين فاننا سنعطى لمحة هنا عن العادات والتقاليد التى انتقلت عبر الطريق نفسه. شكى جريجوريو التاسع إلى العالم الكاثوليكى الإمبراطور الذى استدعى راقصات فى عكا ليقدمن

---

(1) لا يلزمنا استشهاد لأعمال جوفانى المورو. فالهبات البابوية له نراها فى سجل إنوتشنتسو الرابع، الكتاب الثانى عشر، رقم ٢٨٤ و٣٢٧، الذى ذكره م. دى شيرييه *Histoire de la lutte des papes, etc*، الجزء الثالث، ١٩، الطبعة الثانية.

عرضاً راقصاً أو أسوأ من ذلك لضيوفه السراسنة(1): ونستخلص من شهادات جديرة بالثقة أنه كان يلهو بالتمثيل الإيمائى (البانتوميم) وبالالعاب البهلوانية وبعزف وغناء تلك الراقصات(2). وحين اتهمه إنوتشنتسو الرابع ظلما بسبب علاقاته السياسية مع القاهرة عاب عليه احتفاظه بوصفاء سراسنة وحراسة زوجته بالخصيان(3).

وعن إنه أعد دار حريم فى لوتشيرا وكانت لديه أخرى متنقلة فى حروبه، بإيطاليا، فهذا ما تثبته كتابات وكتاب معاصرون له(4). وعلى هذا النحو أخذت أساليب التسرى فى بلاط فدريكو ملامح ما كان يحدث فى القصور الاسلامية: ولايعنى هذا عدم وجودها أو قلتها فى قصور البلاد المسيحية فى العصور الوسطى. وكان الترف لديه أيضاً إسلاميا. وقد يقال إن فدريكو أراد أن يقلد بعض سلاطين الهند، حينما أمر فى حصار بونتفيكو (١٢٣٧) بان يقود مسلمون فيلا يحمل على ظهره برجا صغيرا به رايات الإمبراطورية(5). ويبدو أنه أراد أن ينقل إلى أوربا كل مظاهر الشرق حين نقرأ الأمر الذى أمر فيه موظفيه فى بالرمو بان ينتقوا ليضموا إلى خدم البلاط فى الحال بعض العبيد الزنوج ممن هم فى سن العشرين، وأن يبتاعوهم عند الضرورة، على أن يتعلم بعضهم عزف البوق والبعض الآخر

(1) فقرة من رسالة لعام ١٢٢٩، ذكرها ماتيو باريس، عند بريهول، المرجع السابق، ٣، ١٤٠ فى الهامش.

(2) ماتيو باريس الذى ذكره بريهول، المرجع السابق، **المقدمة**، ص ١٩٢ و١٩٣. وهناك شهادة فى صفحة ٥٤٥ يأمر فيها الإمبراطور بأن يلحق بالبلاط أحد الراقصين السراسنة البارزين ويبدو أنه كان من أسبانيا.

(3) رسالتان بتاريخ ١٧ يوليو ١٢٤٥ و٢٣ مايو ١٢٤٦، لدى بريهول، المرجع السابق، ٦، ٢٢٥ و٤٢٧. وراجع المذكرات المعاصرة التى أوردها المؤلف نفسه فى **المقدمة**، ص ١٨٩.

(4) الاستشهادات ورد ذكرها لدى بريهول، المرجع السابق، **المقدمة**، ص ١٩٠ و١٩١. وتدل الأولى المستمدة من *Historia Diplomatica*، ٥، ٤٨٦، على أن هؤلاء النسوه كن يرتدين ملابسا على الطراز الإسلامى.

(5) راجع الاستشهاد فى الفصل السابق، ص ٦١١ من هذا المجلد، هامش ٧.

ضرب الرق، وأن يبعثوا بهم فى الحال إلى الإمبراطور(1). وسواء كان من قبيل الصدفة، أو أن أبهى حلل البلاط كانت لاتزال تخرج من «طراز» بالرمو، فإن كتابة عربية تُشاهد مطرزة بالذهب على طرف أكمام الرداء الذى كسوا به إمبراطور القرن الثالث عشر العظيم فى مقبرته(2).

(1) شهادة بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٢٣٩. عند بريهول، المرجع السابق، ٥، ٥٣٥.
(2) لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicar*، ص ١٧٨ . وانظر بخصوص هذه الكتابة الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٥٦١، هامش ٢.

الفصل الحادى عشر

بينما كانت العلوم الفيزيائية والفلسفية تحتفظ بمكانتها الرفيعة لدى من هم تحت النير من مسلمي صقلية، وكان الشعر العربى يلقى قبولا واستحسانا فى مملكة بالرمو المسيحية، تدهورت الدراسات الدينية والقانونية وكذا فقه اللغة. وكان هذا نتيجة حتمية إذ كانت صفوة الرجال المعروفين بفضائلهم وعلمهم يتوارون رويدا رويدا ويتركون الساحة فى الجزيرة لأولئك الذين ينتمون للطبقات الدنيا والعاملين فى البلاط وخدامه. ويرد ذكر هجرة النخبة المنتقاة فى الحوليات العربية الخاصة بالقرن الحادى عشر واغفل ذكرها فى حوليات القرن الثانى عشر التى نست صقلية. ووفقا للترتيب المتبع فى الكتب السابقة، سوف نستهل التقديم بالعلوم القرآنية، وقد وجدنا لها راعياً واحداً وهو أديب موسوعى، إن جاز القول، ذائع الصيت عند المسلمين حتى يومنا هذا. وبدلا من تقسيم الأخبار على مدار الفصل كله، رجوعا إلى هذا الرجل ذى الشأن العظيم بخصوص كل المجالات التى تنسب إليها مؤلفاته المختلفة، فإننا سوف نتحدث عنها جميعها مرة واحدة: وبداية نستعرض ترجمته التى نأخذها عن عماد الدين الأصفهانى المعاصر له؛ وعن ابن خلكان. وهو كاتب من القرن الثالث عشر، وعن أربعة من مؤلفى القرن الرابع عشر والخامس عشر المدققين(1). والكاتب اسـمه الأول محـمد وهـو ابن أبى محـمد بن

---

(1) عماد الدين. فى المكتبة العربية . الصقلية النص، ص ٦٠٥: ابن خلكان، المرجع المذكور، ص ٦٣٠، وفى طبعة البارون دى سلان، المجلد الأول، ص ٧٢٤ والمجلد الثالث، ص ١٠٦ من الترجمة الانجليزية: ابو الفدا، *Annali*، المرجع المذكور، ص ٤١٨ والجلد الثالث، ص ٦٢٨ من طبعة ريسك: تقى الدين الفاسى، المرجع المذكور، ص ٦٥٩: المقريزى، المرجع المذكور، ص ٦٦٥: السيوطى، المرجع المذكور، ص ٦٧٧. قارن الاخبار بالنصوص التى ذكرتها، قبل طبعها، فى الترجمة الإيطالية لكتاب سلوان

محمد بن ظفر وهو معروف بأبى هاشم(1)، ولقب بلقبين هما حجة الدين وبرهان الإسلام. وقد أطلق عليه اسمان نسبة إلى مكانين وهما: الصقلى والمكى فكان يطلق عليه أحدهما حينا والآخر فى حين آخر أو الاثنان معاً وغالبا ما استخدم اللقبان معا عند المسلمين كما سبق وقلنا فى موضع آخر(2).

ويؤكد ابن خلكان أنه ولد فى صقلية ونشأ وتربى فى مكة وهو الأمر الذى يكرره أبو الفدا؛ بل أن المقريزى يقول إن أصل كاتبنا من مكة، نشأ وتربى فى المغرب واستقر فى حماة بعد إقامة قصيرة فى مصر. ومن ناحيته فإن عماد الدين، وقد عرفه شخصيا فى حماة يعده واحدا من شعراء شبه الجزيرة العربية. ويقول عنه إنه مكى «الأصل»، مغربى النشأة، عاش فى سوريا؛ ويلاحظ أن كلمة «أصل» تستخدم تحديداً للإشارة إلى موطن الوالد. وعلى النقيض من هذا ذكر عنه الفاسى الذى كتب فى القرن الخامس عشر حوليات عن وطنه مكة، أنه من أصل مغربى ولكنه وُلد وترعرع فى مكة وهو يستشهد بالقطيفى، كاتب حوليات بغداد والذى بدوره استشهد بأحد تلاميذ ابن ظفر، الذى كان قد سمع منه شخصيا، أنه وُلد فى مكة فى شهر شعبان من عام أربعمائة وسبعة وتسعين (مايو ١١٠٤): ويضيف التلميذ أنه ما أن وصل ذات مرة إلى حماة فى شهر ربيع الأول من عام خمسمائة وسبعة وستين (نوفمبر ١١٧١) حتى سأل عن ابن ظفر وعلم بوفاته. قبل أيام قليلة. وطبقاً لمجموعة تراجم فقهاء المذهب المالكى، والتى استقى منها أحد المؤرخين أخباراً وذكره الفاسى

المطاع، فلورنسا، ١٨٥١. المقدمة، ص ١٨ وما بعدها. وفى الترجمة الانجليزية، لندن، ١٨٥٢. المجلد الأول، ص ٢٠ وما بعدها.

(1) عماد الدين يدعوه ابا عبدالله. والسيوطى يدعوه ابا جعفر. ولا طائل من ذكر بدائل الألقاب الشرفية وهى كثيرة. ليس عندى براهين وأدلة تدعو للاعتقاد بأن التباين بشأن الوطن نشأ عن اختلاف تلك الألقاب الثانوية، بل على العكس أعتقد أنه مامن شك فى أن مؤلف كل هذه الأعمال واحد. وسيتضح هذا من خلال هذا الفصل.

(2) انظر الفصل السابق، ص ٦٣٢ من هذا المجلد.

نفسه، فإن ابن ظفر قد رحل من مكة وهو طفل ثم درس مع العديد من العلماء في الاسكندرية وأفريقية واسبانيا وقد القى دروسا عامة في الجوامع ثم انتقل من المغرب إلى صقلية، وذهب إلى دمشق واستقر أخيرا في حماة. ونظراً لعدم اتفاق هذه المعلومات مع بعضها وكذا عدم تطابقها مع أخبار ابن خلكان، خرج الفاسي من هذا المأزق بالصيغة المألوفة في النقد الإسلامي وهي والله أعلم. ويبدو أن السيوطي قد جمع هذه الأخبار وغيرها. فهو يذكر واقعة الميلاد في مكة والانتقال إلى مصر ثم يجعل ابن ظفر يقضي فترة طويلة من حياته في أفريقية ويقيم بالتحديد في المهدية عند استيلاء المسيحيين عليها (١١٤٨) ومن هناك يجعله يهيم على وجهه في صقلية، ومصر وحلب ويكتب الجزء الأكبر من أعماله في حماه. وأخيراً، نجد مذكرة مؤلفها مجهول وردت في إحدى مخطوطات سلوان القديمة. تذكر أن الكاتب ولد في صقيلة ومكث بها الفترة الاولى من شبابه(1).

إنني لا أريد عرض الموضوع اعتمادا على مرجعيه الكتاب فحسب فهي لا تستقيم من جميع جوانبها: فإن كانت رواية عماد الدين تحوم حولها الشكوك، فإن القائلين بمولده في صقلية كانت ترجمات المسلمين الكبير أبو الفدا سيد حماه حيث دفن ابن ظفر بعد أن ترك فيها مذكرات أكثر من أي مكان آخر، وكذلك المقريزي وهو جد بارع ومجتهد، وعلى العكس فإن القائل بمولده بمكة كاتب معاصر يذكره القطيفي ونلاحظ وجود تناقض في بعض التفصيلات(2)؛ أما الفاسي فلا يتخذ موقفا يقينياً قاطعاً. والسيوطي المعروف بغزارة الإنتاج بين كتاب العالم كافة ولكنه عجول فضلا عن أنه سجل هذه الأخبار في

---

(1) مخطوطة عربية، رقم ١٥٣٠، في المتحف البريطاني في قائمة م. ريو، ص ٦٩٥. والمخطوطة بتاريخ ٧٥٩ المهجرة (١٣٥٨)، وهي مخطوطة بالطبعة الاولى وتحتوي على قائمة بمؤلفات الكاتب.

(2) المكتبة العربية ـ الصقلية. النص ص ٦٦٠ ـ ٦٦١.

أحد الأعمال التى كتبها فى شبابه وهى تخلو من الاستشهادات. إذن، فإن أخذنا فى الحسبان عدم يقين وتعارض حكمى الآخرين فإن هذا يستوجب الشك والريبة فى ذيوع معلومات غير حقيقية أو مبهمة منذ عهد الكاتب نفسه. وقد لا يغيب عن الأذهان السبب فى ذلك.

كان للقب الصقلى وقع سىء فى سوريا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر عندما كانت تشتعل هناك نار التعصب الدينى الشديد وقد عاد ابن ظفر إلى تلك البلاد بنية البقاء فيها: إذ قد لا يكون منافيا للحقيقة أن يكون الكاتب ذاته أو أصدقاؤه بدلا من أن يرددوا اسم صقلية، قد تفاخروا بأصله المكى وأفاضوا فى الحديث عنه. ومع ذلك فإن كانت قد بقت لابن ظفر نسبة الصقلى فيفترض أنه لم يستطع أن يخلعها عنه سواء كان قد ولد فى صقلية أم تربى ونشأ بها.

يبدو لى أن الخطأ قد ظهر أو تأكد بسبب تواريخ لم يتم استقصاؤها جيداً. وهى فى رأيى التواريخ التى نجدها مثبته أحيانا فى المخطوطات الإسلامية بغرض التأكيد على أن هذا النص، فى هذا الشهر وهذه السنة وهذا البلد قد سلمه الكاتب إلى الراوى أى إلى من يكرر ما دوّن به مع تصريح بقراءته على الآخرين وإعطائهم نسخ منه. وهذا ما يحدث فى التراجم التى يوردها العلماء وخاصة الرواة حيث يحددون فيها التاريخ الذى «سمع» فيه الشخص عن شخص آخر. كما يطلقون فنياً على رواية الأحاديث النبوية. وأظن أن السيوطى قد نهل من كلا النبعين. غير إن وثائق مماثلة تخول لنا الحق فى أن نصحح بعض أخطائه وأن ندلل على أمر مجهول حتى الآن عند جميع كتاب التراجم. ألا وهو أن ابن ظفر أقام فى سوريا مرتين وفى زمنين مختلفين. الأمر الذى يجعل من غير المطابق للحقيقة بدرجة كبيرة مايروى عن أن ذلك العالم قد ذهب فى صباه إلى المغرب وعاد إلى الشرق بعد إقامة قصيرة فى صقلية. ويبدو أن خط السير هذا يستند على افتراض أن ابن ظفر قد ألف فى صقلية الجزء الأول من

السلوان بدلاً من الجزء الثاني. غير أن الأدلة تأتى بعكس هذا تماما وترد أول وثيقة تبرهن على إقامته فى سوريا فى كتاب خير البشر الذى أهداه ابن ظفر إلى صفى الدين أحمد بن كرناس، وهو، حسبما اعتقد، مدير إحدى المدارس أو إن أردنا القول مدرسة ثانوية فى حلب أو فى حماه(1). ويحكى الكاتب، فى كلمات تقديم كتابه، كيف أنه رحل «من بلاد سحيقة فى الغرب بحثا عن ملاذ فى مملكة نورالدين ذات البأس، تلك التى تحبط بعظمتها نفوس كل ملوك الشرق والغرب وتطرح أعداءها تحت رماد الدمار، الخ. وكان القدر قد ألقى به فى الهاوية وغمره بالكروب وأراه نجمة *Sohu*(2) فى ملء الظهيرة إلى أن أرسل له الله فى الهزيع الأخير، شقيقه وصديقه هذا، سيف الدين، الذى اهداه ذلك الكتاب رغبةً منه فى إظهار امتنانه له ومكافأته بالصيت». وهنا نستطيع تحديد التاريخ: فهو تقريبا عام ألف ومائة وثمانية وأربعين إذ كان نورالدين بن زنجوى قد تملك على حلب عند موت والده (١١٤٦) وفى خلال سنوات معدودة بسط عليها سيادته ونفوذه، بينما كانت المهدية تقع بين براثن روچيرو.

بعد وقت وجيز، ظهرت ما أسميناها، حسب طريقتنا، بالطبعة الأولى من كتاب السلوان التى زودها الكاتب فى نهايتها بقائمة الكتب التى ألفها والتى يستهلها على هذا النحو(3): «الآن إذ يكتمل هذا العمل ويتلقفه الرواة ونظراً لأنه آخر أعمالى، أقصد أعمالى من حيث التصنيف والتأليف، وفيها حرصت على أن أمتع القراء من خلال رشاقة وأناقة الأسلوب وعلى أن أرشدهم من خلال التعاليم

---

(1) المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٦٩٢. لا أجزم بالمدينة لأننى لم أجد إسم سيف الدين هذا فى تراجم أعلام حلب. وقد قام كاستيللى بنسخ مخطوطة خير البشر فى القاهرة بتاريخ أول سنة ١٢٨٠ (١٨ يونيو ١٨٦٣). وينقل أول راوى اطلعه الكاتب على النص عام ٥٦٦، ينقل النص عام ٥٨٨. ولم يتم العثور على الإطلاق على أى أثر لإهداء موجه إلى صفى الدين.

(2) هكذا يسمى العرب أكثر نجوم الدب القطبى الكبير إظلاماً.

(3) المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٦٨٨.

الأخلاقية، ولذا ينبغى أن اختتم المجلد بذكر عناويين أعمالى وموضوعاتها، على الرغم من أن النهابين قد سرقوا الكثير من المجلدات المذكورة بعناوينها» . ويعقب ذلك تسعة عشر مبحثاً من بينها خير البشر. من هذا يتضح أنه قد قام بكتابته بالفعل؛ وفى المقابل لا نجد الأعمال الثلاثة المهداة إلى أبى القاسم فى صقلية ، ومن هنا يصبح لا مجال للشك فى عدم كتابتها، ولذلك فإن الطبعة الأولى من السلوان ليست هى تلك التى تحمل اسم النبيل الصقلى. ويظهر على رأس القائمة الينبوع، وهو تفسير كبير للقرآن وفيه ينوه الكاتب إلى أنه كتبه للمرة الثانية نظراً لسرقة النسخة الأولى منه. ومن هنا يبدو أنه يلمح بهذا وبالإشارة السابقة إلى ماورواه السيوطى، أى إلى أن شيعة حلب حينما شنوا هجوماً يوماً ما على أهل السنة نهبوا مدرسة ابن أبى عصرين المتشددة وهناك سطوا على كل كتب ابن ظفر(1).

وهذه الطبعة من السلوان يسبقها هذا الإهداء الذى يشير بما لايدع مجالاً للشك إلى واقعة سياسية تورط فيها الكاتب نفسه. فقد كان أحد الملوك وكان باراً به وصديقاً حميماً له ومعروفاً، ولكنه لايذكر اسمه، أميراً حكيماً، ذائع الصيت ومحباً للعلم، كان يعيش فى غم وكرب شديدين، إذ كان أحد المنشقين يهدده ويضيق عليه الخناق، ورويداً رويداً كان يهاجم رعاياه ويغويهم، وكان على وشك الإطاحة به من على العرش إذ نجح فى ضم كل الشخصيات البارزة إلى صفه. وكان الأمير المخدوع، قد طلب من الكاتب (ويا لها من أزمنة هانئة!) تأليف كتابى فلسفة وعلم يُحاكى حكايات كليلة ودمنة لأنه كان يتوق إلى ما يواسيه على ما ألم به. وقد أهداه ابن ظفر هذا الكتاب الذى كتبه خصيصاً له، لأنه ما كان ليستطيع إن يرفض له طلباً(2).

---

(1) المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٦٧١. يقول السيوطى بأن ابن ظفر كتب التفسير فى تلك المدرسة. ويصفه الكاتب: «بأنه اول كتبه وأعلاها شأناً».

(2) المرجع المذكور، ص ٦٨٦ وما بعدها. قارن ترجمة سلوان الإيطالية، ص ٢١٦ و٢١٧، والترجمة الإنجليزية، الجزء الأول، ص ١١٥، وما بعدها.

وحقيقةً ففى كتاب السلوان، تشير فقرات القرآن، والأحاديث النبوية الشريفة والأحداث التاريخية والقصص والحكايات الرمزية وكل صفحة بل وكل سطر، يشير إلى الأجل المحتوم لإمارة متصدعة، ويسعى إلى مواساة السيد الذى يهوى من فوق العرش. ومن المؤكد أن مثل هذه الحالات ليست نادرة فى تاريخ المسلمين فى القرن الثانى عشر؛ إلا أنه ما من أمير فى سبيله إلى السقوط يشبه الأمير الذى يتحدث عنه ابن ظفر قدر ما يشبهه مجير الدين الذى كان يحكم دمشق بعد موت زنجوى وما لبث أبناء هذا الأخير أن أحاطوا بمجير الدين على سبيل مساعدته ضد الصليبيين وفى خلال أعوام قليلة قضى عليه نور الدين. فقد تظاهر فى خبث بصداقته الحميمة لمجير الدين وهمس فى أذنه بدسائس عديدة ليقضى على كل أولئك القادة الذين لم يتمكن من السيطرة عليهم واحداً فواحداً. وعندما وجد مجير الدين نفسه بلا جيوش أو أصدقاء، تقدم الغازى نحو دمشق وانتصر على الصليبيين الذين استدعاهم الأمير لنجدته، وفتح له الخونة أبواب المدينة، أما الأمير المخدوع فقد انتهى به الحال إلى الخضوع للعهود. فلما خُدع فى هذه أيضاً، مضى ليقضى البقية الباقية من حياته فى أحد ديار بغداد. ودخل نور الدين دمشق فى صفر من عام خمسمائة وتسعة وأربعين (مايو ١١٥٤)(1). ويتفق هذا التاريخ مع التاريخين الأخرين المؤكدين أى تاريخ إهداء ابن ظفر خير البشر نحو عام ألف ومائة وثمانية وأربعين، وتاريخ الطبعة الثانية من كتاب السلوان فى سنة ألف ومائة وتسعة وخمسين. ولكل امرئ أن يتخيل كيف لم يستطع الصديق والكاتب الكريم البقاء فى سوريا بعد احتلال دمشق، على افتراض أن يكون الملك الذى لم يُذكر اسمه هو مجير الدين. ومن له دراية بتراجم الأدباء المسلمين فى العصور الوسطى ويعرف حياتهم التى تتصف بعدم الاستقرار والتنقل والزهو

(1) يغنى عن المصادر كافة ابن الأثير. عام ٥٤٩، طبعة تورنبرج، المجلد الحادى عشر، ص ١٣٠ وما بعدها.

والحاجة مما كان يدفعهم إلى الانتقال من بلاط إلى بلاط، لن ينفر من الافتراض الذى يرجع أن يكون ملك خير البشر العظيم قد أصبح خلال سنوات خمس أو ست المنشق الذى يشير إليه كتاب السلوان.

غير أن كتاب السلوان يتم تقديمه باسم القائد الصقلى اللامع أبى القاسم فى عام خمسمائة وأربعة وخمسين (١١٥٩)، مسبوقاً بثلاث مؤلفات عناوينها كالآتى: أساليب الغاية، والمُصنَّى ودرر الغرر وتصحبه شهادات حارة تعبر عن الامتنان فتشكل مقدمة أخرى وُضعت بدلاً من تلك التى كانت تشير من قبل إلى أحوال الملك غير المذكور اسمه(1).

أقام ابن ظفر بعد ذلك لفترة وجيزة فى صقلية وربما قد ابتعد عنها أثناء عصيان مسيحيى بالرمو وانتفاضهم على الملك جوليلمو الأول وعلى المسلمين. ثم عاد للظهور مرة أخرى فى حماه، وفيها عاش فى ضنك وفقاً لرواية ابن خلكان، فقد امتهن عملاً متواضعاً أتاحوه له وهو، فى اعتقادى، التدريس بإحدى المدارس. وفى حماه نشر، من بين ما نشره من أعماله الأخرى، كتاب سلوان فى طبعته الثانية، وخير البشر وقد حُذفَ منه الإهداء إلى صفى الدين. وفى الحقيقة فإن نسخة سلوان التى طُبعت فى تونس منذ وقت غير بعيد (١٨٦٢) مأخوذة عن نص كان الكاتب نفسه قد أخبر به الراوى فى حماه فى شهر رجب من عام خمسمائة وخمسة وستين (أبريل ١١٧٠)(2)؛ وهذا النص، مثله مثل العدد الكبير من المخطوطات الموجودة لدينا فى أوربا، يطابق النص المُهْدَى إلى أبى القاسم. وهذا يثبت أن الكاتب كان قد نحى جانباً النص الآخر الخاص بالملك الذى لم يذكر اسمه. انتشرت الطبعة الأولى لأعوام قليلة كما يتضح من عدد النسخ القليلة

---

(1) انظر النص فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٦٨١ وما بعدها، وفى طبعة تونس ص ١ وما بعدها. قارن الترجمة الإيطالية، ص ١ وما بعدها. وسنة إهداء الكتاب إلى أبى القاسم ذكرها ابن خلدون.

(2) نص تونس، ص ٢، سطر ٧.

التى بقت منها مقارنة بالنسخ الكثيرة الخاصة بالطبعة الثانية(1). ولم يكن ليحدث غير هذا إذا افترضنا أن عدو ذلك الملك الصالح جداً كان هو نور الدين الكبير. لأنه مع تزايد سطوع المجد العسكرى والفضيلة الدينية للفاتح فى الشرق، فإن المسلمين ما كانوا ليتحملوا أن يذكرهم أحد بغدره وخيانته، وما كان الكاتب ذاته ليواجه خطر الخروج من سوريا ثانية.

على أية حال، صاحبت الفاقه ابن ظفر حتى قبره، وقبيل أن توافيه المنية اضطر أن يُزَوِّج ابنته إلى رجل غير متكافئ معه فى ظروفه وهو ما يُعد إثماً وفقاً للشريعة الإسلامية. أضف إلى هذا أن زوج الابنة أخذ الفتاة وباعها أمةً فى بلد آخر. توفى ابن ظفر فى حماه كما قلنا، وقد كان قصير القامة ذميم الخلق ولكنه صبيح الوجه(2)، كريم الخُلق، تقياً وورعاً وأميناً وممدوحاً لعبقريته الجلية وعلمه الواسع الغزير وحسه الأدبى الرفيع. من هذا المنطلق يمكننا أن نجزم أنه كان بمقدور آخر كُتَّاب صقلية الإسلامية تأليف أعمال أكثر من تلك التى تركها بالفعل لو لم يكن العوز قد أجبره على نسج خيوط زهاء الثلاثين منها فحسب.

وقد وضع على رأس هذه المؤلفات فى القائمة المذكورة **الينبوع**، إلخ (ينبوع السعادة الأبدية فى شرح وتفسير سافيو ريكوردو)، وقد

---

(1) فى مكتبات أوربا، وعلى قدر ما استنتجنه، لدينا خمس مخطوطات من الطبعة الأولى وحوالى سبع عشرة مخطوطة من الطبعة الثانية. وأيضاً فإن البداية التى استبدلت بقلم ناسخ آخر فى واحدة من المخطوطات الخمس، تخص الطبعة الثانية. يشير المقريزى، **المكتبية**، ص ٦٦٧، إلى نسخة من نسخ **سلوان** وقد خصصها الكاتب نفسه لرباط الخليفة بمكة وهى نسخة من الطبعة الأولى إستناداً إلى الوصف الذى ذُكِر عنها. يبدو أن حاجى خليفة يشير أيضاً إلى هذه النسخة، حيث يقول إن الكاتب أضاف بعد ذلك دفترين إلى **سلوان**. وأظن، على العكس من ذلك، إنه اقتطع جزءاً من الطبعة الثانية فمقدمتها أقصر بكثير، وبالتالى فإن كاتب الببلوغرافية يكون قد خلط بين الطبعتين.

(2) فى نص ابن خلكان والذى سار وستنفيلد على منواله، وفى المقريزى، بدلاً من «ولا جميل الوجه»، نقرأ «لكنه كان جميل الوجه».

املاء مرتين، كما سبق أن أشرنا، بالعنوان نفسه(1) وأطلق عليه أيضاً التفسير اللفظى الكبير للقرآن الكريم(2). ولدينا فى أوربا، على قدر معرفتى، جزء واحد فقط من الينبوع ربما يكون الجزء الثامن من الكتاب ويدل على قيمته الكبيرة، إن حكمت عليه حكماً عادلاً(3). ومن بين الدراسات القرآنية التى تستحق الذكر أيضاً، **فوائد الوحى..** إلخ (نبذات مختصرة ونافعة بشأن جواهر الوحى المعجزة) الذى يحتوى على تعريف الأسماء الحسنى فى القرآن، ويختلف فى الشكل والمضمون مثل (الكريم) و(العظيم)، بينما يشتق بعضها الآخر من أصل واحد مثل (الرحمن) و(الرحيم) أو يمكن استخدامه دون تفرقة مثل (الخبير) و(العليم)(4). وتندرج فى التصنيف نفسه كتاب **اساليب الغاية**، إلخ (الأساليب ترشد إلى شرح أحكام آية شرحاً جيداً) وهى بالتحديد الآية الثامنة من السورة الخامسة وتخص الوضوء(5): وكتاب **إكسير كيمياء التفسير**(6): وكتاب **البرهانيات** إلخ (كتاب البراهين التى تقودنا إلى شرح أسماء الله)(7)، ولا يذكر لابن ظفر أى مبحث يتعلق بالأحاديث النبوية بصورة واضحة صريحة. ولكن ما من شك فى أنه درس ذلك المصدر الأساسى من مصادر العلوم الإسلامية، حيث يشير كاتبو التراجم إلى

---

(1) هذا ما يقوله الكاتب، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٨٨.

(2) السيوطى، ص ٦٧١، يدعوه **التفسير الكبير** دون ذكر العنوان الخاص **ينبوع**. وهكذا يفعل حاجى خليفة، ص ٧٠١ فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**.

(3) هذه المخطوطة محفوظة فى مكتبة باريس، *Ancien Fonds*، ص ٢٤٨. وهو المجلد الثانى من الكتاب ويبدأ من السورة الثالثة، الآية ٨٦ وحتى نهاية السورة السادسة. وليس التفسير لكل آية على حدة، ولكنه يتناول جزءاً من النص ويشير إلى القراءات، ثم يشرح المفردات والتعبيرات التى يتضمنها النص ويتبعها بالملاحظات النحوية واللغوية ثم بالمعارف التاريخية المأخوذة عن أحاديث النبى وعن ما يرويه العرب القدماء، وفى النهاية يخلص إلى النتائج الشرعية متى لزم الأمر.

(4) **المكتبة**، ص ٦٨٨ وبصورة أدق، فى المقريزى فى صفحة ٦٦٦، السطر الثالث.

(5) **المكتبة**، ص ٦٨٤ و٦٦٦ و٦٧١.

(6) **المكتبة**، ص ٦٦٦، ٦٧١.

(7) **المكتبة**، ص ٦٦٦.

وجوده فى مدارس السنة(1)، كما تؤكد ذلك أعماله من ناحية أخرى، وسوف نتحدث عن هذا فى حينه.

ونعرف عن كتابيه فى الشريعة اللذين ذُكرا فى قائمة الأعمال الأصلية فضلاً عن عنوانيهما الشئ اليسير. ويبدو انهما موجزان. وعنوان أحدهما **المظن** وهو مبحث على مذهب المالكية وفيه ينبه الكاتب إلى أن كل اطروحة لابد أن يتبعها البرهان عليها ويبدو لى أنه الكتاب نفسه الذى أهداه الكاتب إلى أبى القاسم فى صقلية وقد أطال العنوان بعض الشئ: «المظن لمن يريد أن يتشبع **بالمعونة والإشراف**». ويعد أحد هذين العلمين كتاباً تقليدياً فى الفقه المالكى، ويعقد الآخر على ما يبدو مقارنة بين المذاهب الأصولية(2). وكتاب الاعتقاد الثانى الذى كتبه ابن ظفر هو ديوان تعليمى قصير يتناول تقسيم المواريث وحقوق الولاء(3). ولا أثق بالخبر، الذى نقله الفاسى وشكك فيه فى الوقت نفسه، والذى مفاده أن ابن ظفر ألقى دروساً فى الفقه الشافعى(4)؛ فيبدو لى أنه وإن كان قد درس ذلك العلم فهو لم

---

(1) تقى الدين، **المكتبة**، ص ٦٥٩ و ٦٦٠. والمقريزى ص ٦٦٧.

(2) هكذا نجد ايضاً فى القائمة الأصلية، **المكتبة**، ص ٦٨٩ و٦٦٦. قارن كتاب **المظن** بالكتاب الآخر المذكور فى تقديم الطبعة الثانية من كتاب **سلوان**. **المكتبة**، ص ٦٨٤. ولكننا ننبه إلى أن أول لفظين فى العنوان مختلفان فى بعض المخطوطات وايضاً فى الطبعة التونسية لكتاب **سلوان**، ص ٢، السطر الأخير. ويتفق العنوان فى الكتابين وكذلك الموضوع، انظر ترجمتى الإيطالية، المقدمة ص ٣١، ٣٦؛ وص ٣ و٤. وبتصحيح صفحتى المقدمة المذكورة، أعتبر الكتابين المذكورين تحت رقم ٢ و٢١ من قائمة المراجع، كتاباً واحداً وكتاب **المعونة**، المذكور فى ص ٦٨٤ من النص وفى ص ٣ و٤ من الترجمة، هو بلا شك كتاب فى الفقه المالكى، للعلامة الشهير، القاضى عياض ويشير إليه كتاب حاجى خليفة طبعة فلوجل، المجلد السادس، ص ٦٥١، ١٤٩، وبصورة أدق فى مسودة قائمة المخطوطات العربية لوكسيانا دى جرجنتى، التى أصدرتها فى طبعة عام ١٨٦٩، العدد ١٥. أما فيما يتعلق بكتاب **الإشراف**، فإننى أعتقد أنه من بين الأعمال المتعددة التى يذكرها حاجى خليفة بهذا العنوان، أراد ابن ظفر الحديث عن كتاب ابن منذر النيسابورى، طبعة فلوجل، الجزء الأول، ص ٣١٨، رقم ٧٨٣.

(3) **المكتبة**، ص ٦٩٠ ـ ٦٧١.

(4) يذكر القطيفى هذا الخبر، ص ٦٦٠ ويقول الفاسى فى صفحة ٦٦١ إنه يرى إمكانية حدوث استبدال لبعض الأسماء.

يتعمق فيه بدرجة تمكنه من تدريسه فى مدرسة أخرى غير المدرسة المالكية. وربما نشأ الخطأ عن تشابه فى الأسماء، وقد يكون هذا على سبيل المصادفة وسبباً من الأسباب التى جعلت موطن الأديب الصقلى موضع شك وجعلت البعض يذكرون خبر وفاته عام خمسمائة وخمسة وستين، فى حين أنه توفى بالفعل بعد عامين من هذا التاريخ.

ويبدو من عناوين كتب علم الكلام التى بقيت لدينا فضلاً عن بعض الإشارات عنها فى القائمة الأصلية، أن ابن ظفر قد ألقى بنفسه فى خضم خلافات علماء الكلام المسلمين فى عصره. وإذا نحينا جانباً التسخير الذى لا نعرف عنه سوى تصنيفه(1) فإننا نجد أمامنا **المعادات** (الأماكن المقدسة) وهو كتاب فى الاعتقاد، كما يكتب الكاتب نفسه، ملئ بتنبيهات ومحاذير صحية وخليق بتوضيح وتفسير كل ريبة وشك(2). يتبعه كتاب **المعاتبات الجارى**.. إلخ (تعنيف القوى الجبار الذى يحكم على البرئ)، وكان يتناول، استناداً إلى قول المقريزى، عقائد أبى حنيفة والعشرى فى الكلام وفيه يبدو أن الكاتب آثر الدفاع عن أبى حنيفة ضد العشرى(3). ويميط عنوان **كشف الكشف اللثام** عن غضب أكثر حدة وعنفاً وهو تفنيد لأحد الأعمال الصادرة بعنوان **الكشف** فى مواجهة كتاب الغزالى(4) الشهير «**إحياء علوم الكلام**». ولدينا فى النهاية كتاب يتحدث عنوانه عن نفسه **الجنة فى اعتقاد أهل السنة**(5).

غير أن فكر ابن ظفر رفيع الشأن كان يتلاءم مع الفلسفة الأخلاقية أكثر من قدرته على النزال فى صحراء الفلسفة الكلامية.

---

(1) **المكتبة**، ص ٦٨٩. ونقرأ فيها إحدى البدائل وكذا فى صفحة ٦٦٦ حيث نقرأ البديل الآخر الذى أحبذه.

(2) **المكتبة**، ص ٦٨٩.

(3) **المكتبة**، ص ٦٨٩، ٦٧١، ٧٠٥ وخاصة ص ٦٦٦. حيث يوجد نص المقريزى.

(4) **المكتبة**، ص ٦٩٠ و٦٦٦ حيث يلزم نقل الخمس مفردات الوسطى من السطر الخامس عشر إلى السطر السابع عشر.

(5) **المكتبة**، ص ٦٦٦.

ونقرأ فى القائمة عناوين أربعة كتب، مع التنويه إلى كونها فى الوعظ والإرشاد وهى ـ **الخوذ الواقية**.. إلخ، (الخوذ الواقية والعوذ الراقية)[1]؛ **رياض الذكرى** (رياض التذكرة)[2]؛ **النصايح** (النصائح الجيدة)[3]؛ **ملك الأذكار**.. إلخ، (الملاك الذى يُذكر بطرق التأمل والتفكير)[4]. ولم يتم العثور على مخطوطات أو على أخبار عن هذه الأعمال: غير أنه يمكن التدليل بقوة على نزوع ابن ظفر إلى الفلسفة الأخلاقية من أعماله التاريخية وشبه التاريخية.

ويبقى لنا من الطائفة الأولى من الأعمال **خير البشر**.. إلخ، (أفضل البِشْر عن خير البَشَر) المذكور سلفاً. وهو يتناول النبوءات التى حظيت بها البشرية فى رسالة محمد[5]. وينقسم المبحث إلى أربعة أبواب وفقاً لاختلاف أصل النبوءات، اى تلك التى تتضمنها الكتب المقدسة. عند اليهود وعند المسيحيين والنبوءات التى تفوه بها العلماء والكهان (العرافين العرب) والجن (الجن أو الشياطين). فى الفصلين الأولين يذكر الكاتب فى كل فقرة **أسفار موسى الخمسة**، والمزامير، وسفر حزقيال والأناجيل مصحوبة بآراء المفسرين؛ وأحياناً يقارن النص بالترجمة السورية للعهد القديم: ويستعرض بعلم مستفيض ترتيب كتب العهد الجديد. ويؤكد بإصرار على الاجتهاد الإسلامى الذى يرى أن البارقليط يرمز ويشير لمحمد. وأحسب أن هذين الفصلين الأولين يمكن أن يفيدا بطريقة ما فى تاريخ دراسات الكتاب المقدس. كما يمكن فى الفصل الثالث والرابع تقميش

(1) **المكتبة**، ٦٩٠، ٦٦٦.

(2) **المكتبة**، ٦٩٠، ٦٦٦.

(3) **المكتبة**، ٦٩٠، ٦٦٦.

(4) **المكتبة**، ص ٦٩٠ والأفضل ص ٦٦٦. وهذا العمل غير مدرج فى القائمة الأصلية بالمخطوطة ١٥٣٠ بالمتحف البريطانى، كما نقرأ فى قائمة م. ريو، ص ٦٩٥.

(5) **المكتبة**، ص ٦٨٩، ٦٣٠، ٦٦٦-٦٧١، ٧٠١؛ وفى صفحة ٦٩٢ بداية النص، طبقاً لمخطوطة باريس، الملحقات العربية، ص ٥٨٦، مخطوطة ترجع إلى عام ٧٢٤ هجرية. انظر أيضاً حاشية البارون دى سلان، فى الترجمة الإنجليزية لابن خلكان، المجلد الثالث، ص ١٠٧، هامش رقم ٢.

(تجميع) حكايات من تاريخ ما قبل الإسلام حسب قيمتها وأهميتها، وهناك دائماً مجال لتجميع ملاحظات تتعلق بفقه اللغة من خلال الأحكام الغامضة التى تم الحفاظ عليها فى الأحاديث النبوية. إن الشهرة التى تمتع ويتمتع بها هذا الكتاب فى الشرق، تبرهن عليها المخطوطات الكثيرة التى فضلت عنه، والاستشهادات المأخوذة منه التى يستشهد بها الكُتَّاب(1) والطبعة الحديثة التى صدرت منه فى القاهرة(2). ويبدو ان كتاب **أعلام النبوة** هو موجز لكتاب **خير البشر** وهو كتاب لا يرد ذكره فى القائمة الأصلية وهو لذلك يرجع إلى السنوات الأخيرة فى حياة الكاتب(3).

ويتسع المجال التاريخى اتساعاً يسيراً فى كتاب **أنباء نجباء الأبناء**(4)، وصدر عنه موجز عنوانه **درر الغرر** (لآلئ الجبين)(5). وإنه لمن الأمور النادرة فى الأدب العربى أن يعرض عنوان الكتاب الأول بوضوح موضوعه. وتنقسم تلك التراجم إلى خمسة أبواب كل واحد منها له عنوان خاص به فعنوان الباب الأول «الجوهرة الفريدة والوحيدة» يحوى بداخله حكايات عن الصبى محمد. وتتناول الثلاثة أبواب التالية طفولة ثلاثة أجيال مختلفــــة من المســــلمين؛ أما الفصل الخامس فيتناول طفولة مشاهير الفتيان عند قدامى العرب والفرس. ويُعَدّ كتاب أدب، كما يُدعى العلم الذى يُعنى بالمنتخبات الأدبية، ويضم أمثلة عن حــدة الذاكرة، والحــكمة المبكرة، ونماذج قدر لهــــا الإجلال الدينى أو الدنيـوى. وعلى أية حـال، سـوف

(1) يُحْضُرنى. من بين الاستشهادات الأخرى. استشهاد لابن ابى دينار.
(2) الطبعة المذكورة هنا سلفاً فى ص ٦٨٢. هامش رقم ١.
(3) المكتبة، ص ٧٠٠.
(4) المكتبة، ص ٦٣٠ و٦٦٦ و٦٧١ و ٧٠٠ و٧٠٦؛ وفى ص ٦٩٠. بداية الكتاب طبقاً لمخطوطتى باريس، الملحقات العربية رقمى ٦٧٨ و٦٧٩. انظر أيضاً الترجمة الإنجليزية لكتاب ابن خلكان للبارون دى سلان، المجلد الثالث، ص ١٠٧، هامش رقم ٢.
(5) المكتبة، ص ٦٨٥ و٦٠٥. انظر ايضاً كازيرى *Bibl. arabo-hisp*. المجلد الثانى، ص ١٥٦. رقم ١٦٩٧. تضم مكتبة جوته نموذجاً من درر الكرر، كما قرأ العلامة موللر، فى القائمة، ص ١٤، رقم ٧٢. وترجم العنوان إلى ـ *Margaritæ Frigidæ*.

يتمكن مؤلفو المعاجم وكذا الباحثون في تاريخ الشرق في العصور الوسطى من الاستفادة من هذا الكتاب، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لكتاب خير البشر. وقد كتب ابن ظفر عن النحو مثله في ذلك مثل أي أديب عربي. نقرأ في قائمة كتبه كتاب بعنوان **القواعد والبيان**.. إلخ، ولكنه هو نفسه يسمية موجزاً(1). وفي الحقيقة يبدو أن ابن ظفر قد اهتم اهتماماً يسيراً بعلم النحو على الرغم من أنه لم يغفله بالتأكيد في الكتابة، وهذا لأن أعماله التي وصلت إلينا تندر بها الملاحظات النحوية بقدر ما تفيض بالهوامش المعجمية. ثم أن كُتاب التراجم خلفوا لنا مقولة قد تؤكد ندم ابن ظفر وتأنيب ضميره بمعنى أنه إذ تواجد في حماه في أحد المحافل الأكاديمية مع تاج الدين الكندي، الذي عرض عليه معضلة نحوية ثم تساؤل لفوى أجاب عنهما ابن ظفر وقرب نهاية الجلسة صاح قائلاً: «إن العلامة تاج الدين أبرع مني في النحو، ولكنني أتفوق عليه في فقه اللغة»، فأجاب المغرور بعلمه قائلاً: «أف، المقولة الأولى مقبولة: أما الثانية فمشكوك فيها»(2).

وإذ نترك جانباً كتاب **الجود الوصيبي**(3) الذي ليس في إمكاننا تصنيفه **وكتاب الإشارات**.. إلخ، (**إشارات إلى علم العبارة**) الذي يبدو أنه يتنـــــاول نقد تفسير الأحلام(4)؛ فإننا ننتطـــــرق إلى علم فقه اللغة، وهو بحق العلم المحبب إلى كاتبنا بعد الفلســـــفة الأخلاقية. وكما سبق أن أشرنا(5)، كان الأدب العــــربي آنذاك يشهد انقضاء القرن السادس عشر، وكان يسطع في الأفق نجم اللغويين وهو عالم اللغة البارع الملئ بالحيوية الحريري. وقد وصفه ابن ظفر،

---

(1) **المكتبة**، ص ٦٩٠ و٦٦٦ و٦٧١.

(2) ابن خلكان والمقريزي، في المواضع التي سبق ذكرها.

(3) **المكتبة**، ص ٦٦٧.

(4) **المكتبة**، ص ٦٦٦. وينسب حاجي خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الأول، ص ٣٠٢، رقم ٧٦٠، ينسب إلى اخر كتاباً يحمل العنوان نفسه.

(5) الكتاب الرابع، الفصل الرابع عشر، في صفحة ٥٠٧ من المجلد الثاني.

بالتكلف بفعل عقلية زمانه، ولكنه حاربه أيضاً. فى السفر، فكشف عن الألفاظ غير المألوفة والنادرة والأمثال التى وردت فى **المقامات** أو «جلسات» الحريرى، كما تعنى فى اللغة الإيطالية(1). ويبدو أنه قام بالشئ نفسه فى كتاب **التنقيب**.. إلخ، (المنقب عن أو الباحث عن التعبيرات النادرة فى المقامات). ولا نعلم إن كان تعليق الحريرى، والذى يُنسب إلى ابن ظفر، هو نسخة من ذلكما العملين مجتمعين، أم مؤلفاً جديداً(2). وفى كتاب **أوهام الفواص**.. إلخ، يسخر من الحريرى الذى انتقد أبرز وأشهر الكتاب(3) فى كتاب **درة الغواص**. وخارج حلبة النقد، نجد كتاب **مُلح اللغة** وهو معجم أبجدى للمصطلحات كثيرة المعانى(4)؛ وكتاب **الاشتراك اللغوى**.. إلخ، (الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى)(5) وكتاب **نجب الأمثال**(6).

وسوف أتحدث باختصار شديد عن **السلوان** مع أنه أفضل أعمال ابن ظفر وقد حفظ لسبعة قرون ولم يزل يحفظ لوقت طويل شهرة الكاتب ومكانته لدى شعوب المسلمين. وقد قمت قبل عشرين عاما

---

(1) **المكتبة**، ص ٦٨٩.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها وفى ص ٦٦٦. والسيوطى ص ٦٧١. يكتب العنوان **التنقيب** وهو يؤدى نفس الغرض ويعطى من خلال العنوان **المطوال** (الحبل) تعليقاً آخر قد يوافق التعليق السابق. ونجده أيضاً **التنقيب** عند حاجى خليفة، ص ٧٠٦. ويشير ابن خلكان إلى «**تعليق على المقامات**» وإلى شروح هامشية على **درة الغواص**. ويشكل هذان الكتابان، على حد قوله، تعليقين أحدهما كبير والآخر صغير. ويشير المقريزى كذلك إلى تعليقين. وأيما كان الشكل فإن تعليق ابن ظفر استخدمه الشريشى كما نقرأ فى مقدمة م. دى ساسى، **الحريرى**، الطبعة الثانية، باريس، سنة ١٨٤٧، المجلد الأول، ص ٥.

(3) **المكتبة**، ص ٦٨٩ و٦٣٠ و٦٦٦ و٦٧١ و٧٠٢. قام السيد ثوربيك بنشر نص الدرة، ليبزيج، سنة ١٨٧١.

(4) **المكتبة**، ص ٦٨٩ و٦٦٦ و٦٧١.

(5) **المكتبة**، ص ٦٦٦ و٦٧١ و٦٩٩.

(6) فريتاج، *Proverbia Arabum*، المجلد الثالث، الجزء الثانى، ص ١٨٨، رقم ٢٦، حيث ينبغى تصحيح اسم المؤلف.

بترجمة هذا الكتاب إلى الإيطالية ورجعت ترجمة إنجليزية جيدة عن ترجمتى الإيطالية، وفى المقدمة تناولت المصادر التاريخية والأدبية التى نهل منها الكاتب. وقدمت كذلك كل المعلومات الخاصة بالمراجع التى وصلت إليها يداى آنذاك وأضفت إليها الكثير، ربما الكثير جداً من الايضاحات حتى أعين القراء الذين لم يعنوا بدراسة أحوال الشرق على فهم الكتاب بصورة أفضل. ولهذا يكفى أن أعرض تلك المقدمة، التى أؤكد على كل ما ورد بها إلا إذا صححته بشكل واضح.

فى سلوان المطاع فى عدوان الأتباع يقترح الكاتب خمسة أدوية تشكل موضوعات خمسة أبواب: وهى الاتكال على الله، أى الاعتماد على عدالة القضية؛ السلوى والسلام، أى عدم الارتياع والذعر فى المخاطر: الدأب أى الثبات والمثابرة: الرضا بالمصير؛ والتفانى وإنكار الذات أو بالأحرى إذدراء الأمور الدنيوية. ويتم عرض كل دواء عرضاً شاملاً وعرضاً تحليلياً: فمن ناحية يستعرض تعاليم القرآن، وأحاديث النبى محمد وأحكام الحكماء وبعض أقوال الكاتب نثراً وشعراً، ومن ناحية أخرى يستعرض فقرات من التاريخ، وحكايات قائمة على أحداث تاريخية وحكايات خيالية خالصة وقصص تعليمية. والموضوعات التاريخية مأخوذة فى الغالب عن الأزمنة القديمة فى شبه الجزيرة العربية، وعن قرون الإسلام الأولى، وعن فارس الساسانية وأحياناً عن سير القديسين المسيحيين فى الشرق؛ أما رواية الخرافات فلم يتم نقلها وإنما محاكاة النماذج الهندية. ونجد حكاية منقولة بالنص من حكايات ألف ليلة وليلة(1): حيث يُفتَرض أن واحداً ممن قاموا بنسخ هذا الكتاب الممتع جداً قد نقل الحكاية من سلوان وليس العكس. ومن ناحية أخرى، فإن فقرات أخرى عديدة تبدو شرحاً وتفسيراً أو ربما ترجمة عن نصوص بهلوية، بمعنى أنها

(1) فى الباب الرابع، الفقرة التاسعة من سلوان. إنها حكاية الطحان والحمار، الليلتان ٣٨٧ و٣٨٨، طبعة بولاق، الجزء الأول، ٥٦٩ و ٥٧٠، وفى طبعة لان الإنجليزية، الطبعة الأولى، الجزء الثانى، ص ٥٨٢.

مقتطفات أخذت مما تبقى من الأدب الفارسى فى العصر الساسانى. ويتعاقب فى المأثورات الأخلاقية، كما فى معظم الكتب القادمة إلينا من الشرق، زهو الفلسفة الرواقية والدعة والدماثة المسيحية: أما النصائح السياسية فتتسم بالحكمة: والأسلوب بسيط ملئ بالحيوية، واللغة العربية سليمة وإن كانت تتعثر أحياناً فى فقرة تتسم بملامح القرن السابع الهجرى. وتتميز الطبعتان المذكورتان سلفاً. وسوف نسمى إحداهما طبعة سوريا والأخرى طبعة صقلية، بمقدمتين مختلفتين كما تتميزان أيضاً بالتنقيح: وفى الطبعة الثانية، تم استبعاد تلك الاستشهادات المستمرة كما تم تبسيط الصياغة؛ غير أنه حُذِفَت بعض القصص الجميلة وتعرضت الطبعة إن لم أكن مخطئاً. لعملية حذف من جانب رقابة ذاتية(1).

وأرى أن ميزة سلوان الرئيسة تتمثل فى النهج الجديد الذى انتهجه الكاتب، وهو جديد بالنسبة للمسلمين، ويتلخص فى دمج بعض المأثورات الأخلاقية مع أحداث خيالية. وهذا لأن الأدب العربى قبله، كان يحتوى بالفعل على نصوص تحاكى قصصاً فارسية وهندية، ولكن ليس ثمة كاتب قد استخدمها فى عمل جاد ذى أهمية(2). ومن هذا المنطلق يجتهد ابن ظفر فى الطبعة الأولى فى إظهار كيف أن أولياء الإسلام لم يأنفوا من فن خطابة على هذا النحو، وفى الطبعة الثانية يؤكد على أن الشريعة لا تحظر كتابته، ولا ينبغى على الأذن أن تأباه. وبالفعل، على الرغم من العقلية السامية التى تتسم بالتشكك والتدقيق فإن شرقيين كثيرين ترجموا هذا الكتاب وحاكوه أو فسروه(3)، أو أخذوا

---

(1) انظر المقدمتين فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٦٨١، وما بعدها وص ٦٨٦ وما بعدها وفى الترجمتين الإيطالية والإنجليزية، المواضع المذكورة.

(2) كتاب الفهرست، النص، ليبزيج، ١٨٧١، ص ٣٠٤.

(3) حاجى خليفة، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٧٠٢، وفى طبعة فلوجل، الجزء الثالث، ص ٦١١، رقم ٧٢٢٧، يذكر التفسير الذى كتبه فى أبيات شعرية فى القرن الرابع عشر تاج الدين أبو عبدالله السنجارى: ويقول إنه تمت ترجمات عديدة عنه، ثم

منه بعض المقتطفات(1)، واستشهد به كُتاب آخرون(2). خلاصة القول أن سلوان كان ذائع الصيت لدى المسلمين كما يدلل على ذلك أيضاً نسخه الكثيرة الموجودة بالمكتبات الأوربية وطبعة تونس الحديثة.

لم أذكر أشعار ابن ظفر بين أعماله لأننا نعلم القليل منها بخلاف الأبيات التى تشكل جزءاً من نسيج سلوان؛ والتى، من ناحية أخرى، لا تختلف عن نثرة المُقَفَّى، إلا أن وزنها وقافيتها أكثر دقة. ولم يمنع هذا كتاب التراجم من وصف أشعار ابن ظفر بأنها جميلة إذ حكموا عليها على أساس معايير جمالية تختلف عن معاييرنا. ويقول عماد الدين الذى تعمق حتى النخاع فى الذوق الأدبى لهذا القرن، إن ابن ظفر «عندما كان يقضى فى سوريا آخر سنوات عمره، روى ببلاغته وفصاحته مجامع المتعطشين إلى المعرفة. ففى زمانه، كان أميراً فى تفسيره القرآن وفى بحار العلم. وفى حماه رأيت بعينى رأسى محبى العلم وهم يصفون إليه باهتمام وثقة بالغين. لقد ترك مؤلفات راقية وكتابات جيدة الترتيب: ومن بين أعماله سلوان الذى قمت بالاطلاع عليه فوجدته كتاباً نافعاً يجمع بين الحسنيين، جمال الأفكار وجمال اللغة، ويملمك بالإشارة حيناً وبالوعظ والنصح حيناً آخر: وقام ابن ظفر بتأليف هذا

يذكر منها فحسب ترجمة حرة بالفارسية عنوانها «حدائق الملوك»... إلخ. وفى النسخة التى طبعها فلوجل أضيفت ترجمة تركية لخليل زاده كُتِبَت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر. وعن قائمة المخطوطات الموجودة لدينا فى أوربا. انظر فى النسخة الإيطالية، المقدمة، ص ٦٥ وما يليها، وفى الطبعة الإنجليزية، الجزء الأول، ص ٩٢، وما يليها. ويضاف إليها: مخطوطة باريس. *Ancien Fonds*. ٣٧٤. ويبدو لى إنها من القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر وهى خاصة بالطبعة الأولى؛ ومخطوطة موناكو، رقم ٦٠٨، من قائمة السيد أنمر ص ٣٦٦؛ ومخطوطتا المتحف البريطانى، برقمى ١٤٤٤ و١٥٣٠. من قائمة م. ريو، وأولاهما خاصة بالطبعة الثانية والأخرى بالطبعة الأولى.

(1) انظر مجموعة مختارات محمد بن على، مخطوطة المتحف البريطانى. فى قائمة م. ريو، ص ٥٠٢.

(2) من بين الكتاب الآخرين، كتاب جامع الفنون، وهو مؤلف موسوعى. مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*. ص ٣٧٧.

الكتاب فى صقلية.. إلخ». ويصل المترجم فى قوله إلى أن هذا الرجل عظيم الشأن فاق بعلمه كل فقهاء عصره وزمانه(1). وإن لم نرد الثقة برأى عماد، وهو كاتب متكلف، سهل الانجذاب وراء الطباق والجناس، فلنأخذ برأى ابن خلكان الذى على الرغم من تلقيه العلم فى مدرسة التاريخ شديدة الجفاف إلا أنه يذكر ابن ظفر من بين أهم العلماء وأعظم رجال زمانه. ويقول إنه مؤلف مصنفات قيمة.

لم يسبب الاسم العرقى المزدوج اختلافاً فى الرأى بشأن موطن راوى الأحاديث النبوية أبى على حسن بن عبد الباقى، وهو عطار وفقيه مالكى، معروف باسم ابن الباجى(2)، وشهرته الصقلى والمدنى. وتوفى سنة خمسمائة وثمان وتسعين (١٢٠١ ـ ١٢٠٢)(3). وينبغى أن نضيف إليه آخر هو عبد الكريم بن يحيى بن عثمان، الذى يُكنى بـ «فخر النحاة» لأنه كان معلماً للمؤلف السابق وتلميذاً لأبى عبدالله محمد بن مُسَلَّم من مازارا؛ ولهذا يبدو أنه صقلى المولد أو الإقامة(4). والمهاجر الآخر عالم الحديث والسنة أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم، صقلى المولد وأصله من فاس، وهو سليل قبيلة قيس العربية؛ ويُدعى أيضاً الدمشقى والأصفهانى نسبة إلى المدينتين اللتين أقام بهما. وتوفى بالمدينة الثانية عام ستمائة وثمانية (١٢١١ ـ ١٢١٢). نعرف أنه طاف ببلدان كثيرة، وأنه كان ينتمى للمذهب الشافعى وترك على ما يبدو المذهب المالكى لأنه لم يكن سائداً فى تلك المناطق بالشرق. ومن أعماله المعروفة الروضة الأنيقة، التى تبدو مجموعة مختارة من الحديث والسنة؛ ولكنه لم يكن يُعَد راوياً

---

(1) المكتبة، ص ٦٠٥.

(2) أى «ابن ذلك الذى من باجة». تُذكر خمسة أماكن بهذا الاسم، اثنان منها فى افريقية وآخر فى البرتغال (Beja).

(3) الذهبى، مخطوطة باريس، Ancien Fonds، ٧٥٢، ورقة ١٠٠ الوجه الثانى.

(4) السيوطى، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٦٢٢.

أميناً(1). وقد عاش فى الفترة نفسها وكان معلماً للحديث، الفقيه أبو عبدالله محمد بن أبى القاسم، وهو صقلى من قبيلة قريش(2). ويبدو أن الكفيف أبا عبدالله محمد بن أبى بكر عبد الرزّاق، الذى يُكنى شرف الدين، قد ترك صقلية مع العائلات الأخيرة التى هاجرت منها: ويُذكَر أنه وُلد عام ستمائة وواحد وعشرين (١٢٢٤) وأنه درس وعلَّم بمصر وتوفى فى القاهرة. وكان رجلاً ذا علم ومروءة، وكان متديناً. ولما ذاع صيته بصفته أحد الأولياء الصالحين مقبولى الدعاء، زاول رواية الأحاديث وقراءة القرآن(3). وفى اعتقادى أن محمد بن مكى بن أبى الذكر قد اتخذ اسم الصقلى نسبة إلى القرية المجاورة لدمشق التى كانت تسمى الصقليات: حيث يقولون عنه إنه وُلد فى دمشق فى شهر رجب عام ستمائة وأربعة عشر (أكتوبر ١٢١٧): وقد ذاعت شهرته مقرئاً للقرآن وراوياً للأحاديث النبوية، على الرغم من اختصاصه بحرفة التطريز بدمشق ثم فى معمل الطراز بالقاهرة حيث توفى عام ستمائة وتسع وتسعين (يناير ١٣٠٠)(4). وهناك فقيهان مصريان تابعان للمذهب الشافعى أطلق على كليهما اسم ابن الصقلى، نسبة، على ما يبدو إلى وطن أبويهما اللذين هاجرا إلى مصر: أولهما هو محمد بن أبى الفضل، من قبيلة ربيعة، وكنيته (شرف الدين)، وُلد بمصر عام ستمائة وثمانية (١٢١١)، وكان قاضياً بالشرطة المدنية وتوفى سنة ستمائة واثنين وتسعين (١٢٩٢)(5).

---

(1) قارن: الذهبى، المرجع المذكور، الورقة ١٧١ الوجه الأول، مع حاجى خليفة، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٧٠٢. وفى طبعة فلوجل، المجلد الثالث، ص ٤٩٨، رقم ٦٦٢٣. حيث نجد الاسم معكوساً: أبو يحيى زكريا.

(2) ترجمة رواة الأحاديث النبوية، ليحيى بن أحمد النفذى العميرى، ويسمى السرّاج، مخطوطة مكتبة باريس، *Ancien Fonds*، ٢٨٢، الورقة ٧٧ الوجه الثانى، فى حياة عمر المبدرى الذى ولد عام ٦٩٤. وهناك راويان للأحاديث بينه وبين الصقلى، ولكن يبدو أن هذا الأخير عاش فى بداية القرن الثالث عشر.

(3) المقريزى، فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٦٦٣.

(4) المقريزى، المرجع المذكور، ص ٦٦٨.

(5) المقريزى، الموضع المذكور

والأخر هو محمد بن محمد بن محمد، وكنيته (فخر الدين)، كتب مبحثاً قانونياً، وكان قاضياً بدمياط، ثم قاضياً بالقاهرة وتوفى سنة ستمائة وسبع وعشرين (١٣٢٧)(1).

وإذا ما رجعنا إلى الصقليين، وإلى فقه اللغة الذى تميز فيه ابن ظفر، نجد أبا الحسن على بن إبراهيم بن على، المدعو ابن المعلم، الذى برع على حد قول الذهبى كثيراً فى النحو وفى علم المعاجم، وكانت كتاباته تتسم بالرشاقة والجمال؛ درس الطب وفسر الأحلام وتوفى عام خمسمائة واثنين وثلاثين (١١٣٧ ـ ١١٣٨). وقد وضعته فى هذه المجموعة إذ سبق أن ذكره الذهبى بينهم(2)، وسأتناول الآن كُتاب النثر والشعر بمزيد من الحمية والحماس. ومن الضرورى هنا أن أكرر أن الأخبار والمقتطفات التى نحن بصدد تقييمها، نستقى معظمها من مختارات عماد الدين، التى اختارها وفق ذوقه ورؤيته هو وليس وفق ما نراه نحن. ومن هذا المنطلق فإنه يمدنا، من بين أعمال عرب صقلية فى هذه الفترة الأخيرة، بثلاثة نماذج فقط من الشعر الشعبى. والنموذجان الأولان هما أبيات للغناء صاغها أديب وشاعر جيد، فى غير تكلف، ولكن دون الابتعاد عن البحور المعتادة وهو ما سوف نعرض له فيما بعد. أما النموذج الثانى فيثير ظمأنا ثم لا يرويه وهو عبارة عن فقرات شعرية بالمعنى الدقيق للكلمة، تضم أبياتاً قصيرة وقوافى متداخلة: لذا فإننى أعتقد أنه كان يمكن أن تكتشف بمحض الصدفة روابط وثيقة بين هذه الأشعار والأشعار الإيطالية الأولى فى صقلية لو أن جامع هذه الأشعار المدقق الذى ينتمى إلى القرن السادس عشر قد حفظ لنا بعض المؤلفات الشعرية الأخرى من هذه

---

(1) المقريزى، المرجع المذكور، ص ٦٦٥. فى معجم حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الثانى، ص ٤١٠، رقم ٢٦٥٥ ثم فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٧٠١. ويجب تصحيح الاسم فى الجزء الذى يقرأ ابن محمد الصقلى، إلى ابن الصقلى، وفقاً لمخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ص ٨٧٥.

(2) الذهبى، **أنباء النحاة**، فى المرجع المذكور، ص ٦٤٥.

الشاكلة نفسها. ولكنه بالتأكيد وجد البحر غريباً وأعجمياً حتى إنه كان يجهل اسم الوزن أو أنف من تكراره حيث أنه كتب الأبيات تحت العنوان التالي: «من تلك الأبيات التى تتلى بخمسة أوزان»(1).

---

(1) لا اريد ان اترجم «فى القافية الخامسة» لأنه ينبغى ان تُعقد المقارنة بين هذه الأوزان الجديدة عند عرب الغرب مع الأوزان فى اللغات اللاتينية الجديدة وخاصة لغتنا. والتى قد تحتاج إلى دراسة مطولة على نماذج كثيرة جداً ماخوذة من هذا الجانب ومن ذاك. ومع ذلك انبه إلى أن لفظ وزن *wazn* «ثقل، طريقة» يستخدم بمعنى (قياس) إن تعلق الأمر بطريقة نظم الشعر. وهو فى اعتقادى معنى حديث نسبياً وربما كان ظهوره فى اسبانيا متزامناً مع ظهور هذه الأوزان الجديدة.
وفى الحقيقة لا يتضمن هذا الشعر «الأوزان» الخمسة سواء كانت ممتثلة أم مقلوبة فى هذه الأشعار، إذ أن عدد القوافى ثلاث، ويتكون كل بيت من ثمانية فقرات وفق طريقتنا فى وزن الكلمات وتقطيعها. أما طبقاً لمنهج النحاة العرب فيتألف كل بيت من ستة أجزاء او جزئين إذا اردنا إعتبار الفقرة باكملها بيتاً. فيكون عدد الفقرات هو ستة. وربما يمكن ان نعد فى كل بيت خمسة من تلك الأوزان الابتدائية التى سماها العرب، أوتار وفواصل (انظر ساسى. *Grammaire Arabe*. الطبعة الثانية. الجزء الثانى. ص ٦١٩) كاجزاء من البيت. الذى يسمونه بيت، اى «خيمة. منزل» وعامة مقطع. ولكن لا أعرف إن كانت هذه الأوزان الابتدائية قد سميت بـ(الوزن). ويحق لى ان أعتقد بالأحرى انه فى الأشعار الجديدة كان الوزن الأكثر شيوعاً مؤلفاً من فقرات من خمسة ابيات وانه لذلك أطلق عليها عماد الدين «الخماسيات» بعد أن جعل من مختلف الأوزان والبحور الغريبة شيئاً واحداً. لاحظ جيداً أنه لم يقل إن هذه المقطوعة بها خمسة أوزان وإنما «هو من بين ذلك الشعر الذى يُتلى بخمسة أوزان». وتؤيدنى فى افتراضى، مخطوطة ريكارديانا - فلورنسا - ورقمها ١٩٤ وعنوانها (مجموع كامل) اى (مجموعة تامة) لأبى العباس البكرى. ومن بين أشعار الطريقة الجديدة التى يكتبها الجامع كتابة صوتية. وهى مقسمة وفق النوع والصنف، نجد مقطوعات ليست بقليلة حيث تتكون الفقرات التى يتم تحديدها دائماً بعنوان (بيت) بالحبر الأحمر والحروف الكبيرة، من خمسة ابيات فى كل فقرة. ومخطوطة ريكارديانا نفسها بها أمثلة مختلفة للتخميس او كما نقول «تاليف من خمسة فقرات» فى أشعار أخرى. وكان التخميس يتم من خلال إضافة اربعة ابيات أخرى لكل بيت بالنص. ولكن هذا الاستخدام الشائع جداً لا صلة له بالموضوع الذى نحن بصدده. ينبغى ان انوه، فى النهاية، إلى أن الفقرة الشعرية المكتوبة فى الخريدة، تبدو لى مبتورة، او أنه قد تغير ترتيب الأبيات بها. والبيت الأول فى الفقرة الثالثة يخرج عن القافية، والاستعارة المفروضة للبدر الكامل الذى يبزغ على غصن بان رقيق، تتطلب ان يأتى البيت الأول من الفقرة الرابعة بعده مباشرة. وبالمثل قد يتطلب المعنى أن يأتى البيت الأخير فى الفقرة الثانية مباشرة بعد البيت الأخير من الفقرة الأولى. ويتضح جيداً أن النُساخ الشرقيين فى القرنين الثانى والثالث عشر قد انخدعوا فى معظم الأحيان، وهم يرون ذلك التداخل غير المعتاد من القوافى والأبيات المكتوبة بفواصل أخرى

ويخبرنا كُتاب الغرب من العرب بأصل وتطور هذا الاستخدام الحديث لنظم الشعر والذى كان لا يختلف فى وزن الشعر العربى الأصيل فقط. وسُميت المؤلفات الشعرية تحديداً الموشحات او الأزجال. واللفظ الأول من هذين اللفظين هو جمع للصفة المؤنثة (موشحة) التى تعنى «محلاة ـ بوشاح»، وهو مَشد من الجلد، موشى بصفوف من اللآلئ وغيرها من الجواهر. لعل أول من استخدم هذا الاسم قد أراد مقارنة الأنشودة الجديدة بمغنية (مطربة) ارتدت ملابسها للذهاب إلى البلاط. أو أراد الإشارة إلى بهجة القوافى، التى تتعاقب مثل تلك الصفوف المتوازية، التى تتداخل وتتقابل تحت الصدر على طرفى الوشاح. وبالفعل ففى اللغة الفنية يدعون البيت الذى يربط بين كل الفقرات بقافيته (سمطاً) ويدعون (غصناً) أى (فرعاً) أبيات كل فقرة. ولفظ زجل، والجمع أزجال، يعكس فكرة الصوت المكرر؛ فيعنى فى اللغة الكلاسيكية: صرخة وجلبة وطَرب، وأيضاً وشوشة مثل همس النسيم. سُمعت الموشحات فى بادئ الأمر ببلاط قرطبة، فى أواخر القرن التاسع: ثم راجت كثيراً فى أفريقيا وأسبانيا من القرن الحادى عشر فصاعداً. ولقد لقيت هذه الطريقة الغربية المستحدثة قبولاً واستحساناً أيضاً فى مصر وفى سوريا وهى لاتزال موجودة قائمة حتى اليوم(1). وسواء كانت الموشحات هى نتيجة ازدهار برغم كان يختبئ

تختلف عن فواصل الوقفات القديمة فى شطر البيت.

واضيف انه فى الغرب ايضاً، لم يول رجال الأدب اهتماماً بالموشحات. ويخجل عبد الواحد المغربى (نص دوزى، ص ٦٣) الذى كان يكتب فى عام ١٢٢٤ من التقويم الميلادى، أنه يخجل من ذكر الأشعار الممتازة التى قام بنظمها أبو بكر بن زهير على هذا الوزن.

(1) بعد فرايتاج، *Darstellung*. إلخ (١٨٢١) استدعى البارون دى هامر انتباه الباحثين لهذه الطريقة الجديدة فى نظم الشعر. فى *Journal Asiastique* عدد أغسطس ١٨٣٩ (ص ١٥٣ وما بعدها) وعدد أغسطس ١٨٤٩ (ص ٢٤٩ وما بعدها)؛ ولكنه، كعادته، تناول الموضوع تناولاً سطحياً. وقد أوضحه الآن مستشرقون ذوو شأن، مثل البارون دى سلان والأستاذ دوزى والبارون دى شاك. انظر، دى سلان، ترجمة مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية، الجزء الثالث، ص ٤٢٢ وما بعدها، ودوزى، الملاحظات النقدية حول دراسة

فى طيات شعر العرب(1)، أم كانت شيئاً مستحدثاً مقتبساً من فارس، أو كانت محاكاة للمقاطع والقوافى فى الشعر اللاتينى المتأخر الذى كان ذائعاً بين الكهنة وبين الشعب الأسبانى وقت الفتح. فلقد خففت الموشحة كل مظاهر الثقل فى الشعر الكلاسيكى القديم: الأبيات الطويلة التى تنقسم إلى شطرين، والقافية الواحدة للقصيدة: والألفاظ غير المألوفة أو البالية التى تفرضها ضرورات القافية أو أغراض تفخيم اللغة، والبناء فى القصائد الذى يبدأ بهجر الجميلة للديار وبالعاشق الذى يزور أطلالها وأشياء من هذا القبيل.

إن الأبيات القصيرة، التى تكون الفقرات والتى يقوم بناؤها فى الغالب على النبر على طريقتنا وليس على قواعد علم العروض(2)، تتبع قوانين مختلفة، فتتغاير حيناً كما فى مقاطعنا الثلاثية، وتتغاير بقافيتها حيناً آخر كما فى الأغانى وفى كثير من أوزاننا وبحورنا

دى سلان هذه، فى *Journal Asiastique* عدد اغسطس ١٨٦٩، ص ١٨٦ وما بعدها، ودى شاك *La Poesic und Kunst, ec.* المجلد الثانى. § الثامنة، ص ٤٧ وما بعدها. وفى الجزء الذى ذُكر للتو من المقدمة يقدم ابن خلدون معلومات وأخباراً واسعة وافية عن هذا النوع الجديد من الشعر الذى كان لا يحتقره مثل عماد الدين، ويضيف شذرات كثيرة جداً منه وأيضاً مقطوعات باكملها.

ويتطرق ابن رشد للموشحة والزجل فى التعليق الأوسط حول مذهب أرسطو الشعرى، ص ٣ من النص العربى الذى يُطبع تحت رعاية الأستاذ العالم فاوستو لازينيو على أساس مخطوطة لورنسيانا الوحيدة، فضلاً عن الطبعة العبرية القديمة وطبعة إيطالية مزودة بهوامش. وتوضح فقرات من كتاب ابن بسام التى يشير إليها دوزى، المرجع المذكور، ص ١٨٦، ١٨٧. توضح أيضاً الموضوع: ومن يرد دراسته دراسة عميقة، سيجد مجموعة وافية مرتبة فى مخطوطة ريكارديانا، التى أشرت إليها فى الهامش السابق.

(1) إن هذا الشك المسبق، الذى قد ينتاب كل أحد، لجدير بالقيام بأبحاث إيجابية. وتقدم لنا مخطوطة ريكارديانا رقم ١٩١ السابق ذكرها مجموعتين من «نغم العراق»، به أبيات قصيرة وتغيير فى القوافى. ويمكن افتراض وجود تأثير فارسى مثل التأثير العربى على العراق.

(2) دوزى، المرجع المذكور، ص ١٨٧ ـ ١٨٨؛ دى شاك، المجلد المذكور، ص ٥٢ . على الرغم من إمكان رد أبيات بعض الموشحات والزجل إلى أوزان العرب العامة، مع التجاوز عن ضرورات شعرية كثيرة، فإننى أرى أن الوزن بالمقاطع الصوتية والنبر هو الصحيح فى أغلب الأحوال.

الأخرى القديمة؛ وهكذا أيضاً تتداخل أبيات متنوعة الأوزان، على سبيل المثال ذات أربعة أو خمسة مقاطع صوتية، مع تلك ذات الثمانية أو العشرة مقاطع. ووفق ابن خلدون، لم يكن الزجل ليتميز عن ذلك الوزن الأخر إلا من ناحية اللغة الدارجة تماماً(1)؛ ولكن يبدو أنه استخدمت فيه فقرات أصغر وأبيات أقصر؛ وكان هذا بسبب حذف الحركات فى نهاية معظم الألفاظ وهى سمة من سمات العربية العامية. وبسبب عادة انشاد الأبيات وغنائها ومصاحبتها بالرقص احياناً(2). ولكن العلماء أطلقوا على الموشحات، أناشيد أو أغان وعلى الزجل أغان راقصة وسونيتات والتسمية الأخيرة قد تبدو أكثر دقة وتحديداً إذا كانت تشير إلى السونيتة القديمة فى نظم شعرنا(3). ومن ناحية أخرى يستلزم الأمر دراسات أخرى قبل الإقرار بصلة القرابة التى قد تظهر لأول وهلة فى تشابه بعض الأوزان وبعض المسميات. بيد أنه إذا تشابهت أنماط الرداء، فإنه سيكون لربات الشعر العربى الحديث سمات أخرى وطبيعة أخرى تختلف عن سمات وطبيعة ربات الشعر فى اللغات اللاتينية الحديثة. فالأولى، وخاصة عندما تهب نفسها للزجل، تبتعد بالفعل عن الشعر العربى الأصيل. ولكن هذا لا يعنى أنها تقترب من مدرسة التروفاتورى على هذا الجانب أو ذاك من جانبى جبال الألب. وكثيراً ما تُلقى أوزانهم الجديدة والصور واللون والتحولات، والمدح والهجاء، والفخر والبكاء الرتيب الكئيب على

(1) *Prolegomenes*. الجزء الثالث، ٤٤١. راجع شاك المجلد المذكور، ص ٥٢.

(2) لتجنب اربعة حروف ساكنة متتالية، اكتب *mowasceha* وليس *mowascsceha* كما ينبغى ان يكون هذا. بينما يورد *Il Vocabulista Arabico*، الصادر منذ وقت قريب فى مدينة فلورنسا، يورد مذكر هذا اللفظ وهو موشح مع ما يقابله فى اللاتينية "*Versus*" وزجل مع ما يقابله "*Cantilena el versus*"، ص ١١١ و١٩٩ و٢٧٩ و٦٢٤.

(3) لم يتردد البارون دى هامر، *Journal Asiatique* (عدد اغسطس ١٨٣٩، ص ١٥٢)، فى وصف القوافى الثمانية (الأوكتاف) بانها من ابتكار العرب، وبعد مرور عشر سنوات، يدعم ويؤكد رأيه فيطابق السونانا بالزجل (المرجع المذكور، اغسطس ١٨٤٩، ص ٢٤٩). بيد أن هذا المقال هو بالتحديد ذلك المقال الذى ذكر فيه أن لفظ كان كان أصله عربى!.

الحب، تُلقى فى القالب العربى الذى تميزت به ـ كما هو واضح ـ عصور التدهور.

والمقطوعة الشعرية الصقلية الوحيدة من هذا النمط، فى الخريدة، هى من تأليف أبى الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر الصقلى، الأنصارى، أى أنه صقلى ومدنى، وقد وضعها عماد الدين فى بداية الفصل الذى يتناول الصقليين المعاصرين، ولهذا قد ترجع إلى منتصف القرن السادس الهجرى والقرن الثانى عشر الميلادى. ويبدو لى ـ التماساً للدقة ـ أن أبا الحسن قد وُلد فيما بين أواخر القرن الحادى عشر وبداية الثانى عشر، إذ أن جامع الأخبار قد استخرج هذا الخبر من رسالة أبى الصلت عن شعراء زمانه (١٠٦٧ ـ ١١٣٤). والمقطوعة الشعرية تتألف من ستة فقرات، وكل فقرة من ثلاثة أبيات وكل بيت من ثمانية مقاطع صوتية، ويطابق كل بيت نظيره فى كل فقرة من حيث القافية، أى البيت الأول مع الأول وهكذا الحال فى البيت الثانى والثالث: غير أننى أفضل تسميتها زجلاً بدلاً من موشحة(1).

---

(1) اقرأ النص فى المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٨٠، حيث تم عمل التصحيحات التى اقترحها الأستاذ الشهير فيشر. وها هى المقطوعة:-

(1)

وغـــــزال مشـــــنف
قد رثـى لى بعد بُعـدى
لمــا رأى مـا لقـــيت

(2)

مـــثل روض مفـــوَّف
لا ابـالى وهـو عـــندى
فـى حـبه إذ ضـــنيت

(3)

وجـهه البـدر طـــالما
تـاه لمـا حـــاز ودى
فـإننى قـــد شـــقيت

(4)

فى قـضـــيب مهـفهف
لذ فـيه طـول وجـــدى
جـفا فكـدت أمـــوت

(5)

مـــانع غـبر مصــــعف
ليس بابى نقض عـهدى
وليــس إلا الســـكوت

(6)

جــائر غـير منـــصف
مال عـما كـان يهـدى
إن الوصـــال بخـــوت

لتتذكر الملاحظات التى أشرنا إليها فى الهامش الأول ص ٧٠٠ بشأن خطأ النص.

واقصر الحديث على الوزن فقط فهو الجزء الوحيد المهم فى هذه الفقرة، واتحدث عن المفاهيم أو عن الأسلوب إذ تبدو لى المفاهيم دارجة والأسلوب متكلف بعض الشئ. هذا بينما يتناول أبو الحسن فى المؤلفات الشعرية العادية بحماس أكبر موضوع الحب غير المتبادل(1). وكلماته توصف أيضاً بالعذوبة والطلاوة والتلقائية(2). وإذ نترك جانباً أبا الصلت الذى كان يستمتع بمقارنة ابياته هو وابيات آخرين ببيتين متكاملى المعنى لأبى الحسن عن أشعة الضوء التى تعكسها المياة(3)، ينبغى علينا الإشادة بمقطوعة شعرية فكاهية لهذا الشاعر(4). ومقطوعة جادة يُظهر فيها الفخر والاعتزاز الذى حفظه أناس شرفاء وأقوياء وسط مرارة الهزيمة التى تجرعها مسلمو

---

(1) المخطوطة نفسها. الورقة ٣ وجه أول. والورقة ٦ وجه ثان:

الموت فى صُحُف العُشّاق مكتوبٌ   والهجرُ مِنْ قَبْلُ تكهدٌ وتعذيبُ

إن طال لَيْلى فوجه الصـبح مطلعُه   مِنْ وجه مَنْ هو عن عينى محجوبُ

من لى بإعلامه أنّى لغَيْبَته   ذَيْلُ المدامع فى خَدَّىَّ مسحوبُ

كان أجفان عينى من تذكره   غُصنٌ مَرُوحٌ من الطُّرفاء مَهْضوبُ

(2) مخطوطة باريس. *Ancien Fonds*، ١٢٧٥، الورقة ٣ الوجه الأول:

ايَرَانى احسنْها إلى ان يعودا   نازح لم يَدَعْ لعينى هُجُودا

كيف أرجو الحياة بَعْد حبيب   كان يومى به من الدهر عيدا

كنت أشكو الصدود فى القرب والآ   ن قد استغرق البعادُ الصدودا

اشتهى ان أبوح باسمك لكن   لتُخَنِّى الوُشاةُ فيك الجحودا

(3) المخطوطة نفسها. الورقة ٢. الوجه الأول:

شربنا مَعْ غروب الشمسِ شمساً   مُشَعْشَعَةً إلى وقت الطلّوع

وضوء الشمس فوق النيل بادٍ   كأطراف الأسنّةِ فى الدروع

(4) المرجع نفسه، والموضع نفسه.

هيفاء إنْ رقصتْ فى مجلس رقصتْ   قلوبُ مَنْ حَوْلَها من حذْقِها طرباً

خفيفةُ الوطءِ لو جالت بخُطوتها فـ   ـى جَفْنِ ذى رمدٍ لم يشتك الوصَبا

المخطوطة نفسها، ص ٤. الوجه الأول:

ياغزالاً صاغه الصا   نعُ مِنْ حسُنٍ وظرفِ

لا وزَهْرٍ فى رياض   غير مبذُول لقَطْفِ

ما تعرضْتُ لِرَيْبٍ   إنَّما نَزَّهْتُ طرفى

صقلية(1).

يبدو أن أبا الصلت لم يكتب فى القائمة كُتاباً آخرين من صقلية، لأن عماد الدين يستكمل، دون أن يذكره، هذا الفصل بمساعدة شخص مجهول الاسم وأدرج الكثيرين منهم فى مجموعة مختارة تم تحريرها حديثاً فى المهدية(2). ويرجع هؤلاء الكُتاب إذن إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، كما سيتضح هذا أيضاً من الأشعار المهداة إلى الملك روجيرو.

وأول اسم يطل علينا فى هذه المجموعة هو أبو موسى عيسى بن عبد المنعم، الصقلى، الذى مدحه جامع المختارات مجهول الاسم فقيهاً له اتباع كثيرون، قديراً فى الربط والاستقراء وفى الحجة والبرهان، وهو كبير المدافعين عن أمير بلده، والكاتب ذو المفاهيم الجديدة السامية الراقية للغاية والألفاظ التى هى كالرياض جاد هامى رهامها. وعماد الدين، إذ يُحَمِّل الصور بالمزيد من المعانى، يستطرد «إنه قد أورد من كلامه ما يأسو سماعه الكلوم، ويحلو سنا باحسانه العلوم ويحكى درر الأصداف ودرارى النجوم». ويختتم عماد حديثه بقوله: «فمن بديع قوله فى الغزل وهو أحلى من نجح

---

(1) المخطوطة المذكورة، الورقة ٢، الوجه الأول:

لنا فى كل مُفْتَرَحٍ وَمَصُوبٍ ... مفاجأةٌ بأسرارِ القلوب

فنفهم بالتشاكى ما نُلاقى ... بلا واشٍ نخافُ ولا رقيب

قارن الفصل الرابع عشر من الكتاب الرابع، الجزء الثانى، ص ٥٣١ - ٥٣٢ حيث يشار إلى شخص يُدعى أبو الحسن، ويحمل أسماء هذا الأخير نفسها فيما خلا الاسم الأخير «ابن أبى البشر»، وبدلاً منه نقرأ «ابن البشر»: وقد يكون خطأ فى النسخ واستخدام بديل. والعمر أيضاً قد يكون مطابقاً. ولكن من جهة يدهشنى الا يكون عماد الدين قد نبه إلى أبيات مديح الوزراء المصريين. ومن جهة أخرى يجدر بالذكر أن الاسم قد ورد فى الخريدة ذات مرة ا . أبى البشائر.

(2) المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٥٨١.

الأمل»(1). ولكن وفق تقديرنا وتذوقنا فإن الأبيات المكتوبة فى فتاة شقراء جميلة(2) وفى أخرى سمراء فاتنة تبدو ذات مذاق أقل بدائية(3). وفضلاً عن قصائد هزلية متنوعة، كُتبت إحداها إلى أبى الصلت فى طلب استعارة كتاب منه(4). فعندنا له مستهل القصيدة الرثائية التى كتبها لأبى على عبد الله، وهى تبدو لى أبيات رفيعة المستوى(5). ومما يثير الدهشة أن رجلاً هذا قدره يكون قد ألَّف على نفس الوزن المهيب، أشعاراً بذيئة، كما يصفها عماد عن حق ويورد مثالاً عليها قصيدة كاملة وبيت شعر مأخوذ من قصيدة أخرى ولكننى لا أجرؤ على ترجمته إلى اللاتينية: ويُعبِّر عن المفهوم الشائن بألفاظ فلكية مما يجعله يثير المزيد من النفور(6). وتبدأ الأبيات

---

(1) الخريدة، المرجع المذكور، ص ٥٨٦.

يا بنى الأصفرِ أنتم بدمى ... منكم القاتلُ لى والمستبيح
أمليحٌ هجرُ من يهواكُمُ ... وحلالٌ ذاك فى دين المسيح
يا عليل الطرفِ من غيرِ ضنىً ... وإذا لاحظ قلباً فصحيح
كلُّ شئ بَعْدَ ما أبصرتُكُمْ ... من صنوفِ الحسنِ فى عينى قبيح

نذكر أن العرب كانوا يدعون الرومان والبيزنطيين بنى الأصفر.

(2) مخطوطة باريس، الورقة ١١، الوجه الثانى.

فضح الهوى دمعى وعيل تصبرى ... بخريدة ترنو بمقلتَى جؤذرِ
صفراءَ تُدلُّع بالبياض لباسَها ... وخمارُها بمعصفرات الأخمرِ
فكأنها فى درعها وخمارها الـ ... مبيضّ والمحمرّ عند المنظرِ
ياقوتةٌ كُسيت صفيحةَ فضةٍ ... وتتوجت صفحَ العقيقِ الأحمرِ

(3)

سلب الفؤادَ من الجوانح غادةٌ ... أدلت إليه بدلّها المستحكِم
عذراء ينهبُ درعَها من خدها ... وخمارها من ذى ذوائبَ أسحَمِ
وعقودها من نهدها فى شكلها ... وحلاؤها من لونى المتبسم
فكأنها ووشاحَها وخمارَها ... وحليَها للناظر المتوسمِ
شمسٌ توشحت السنا، وتتوجت ... جنح الدجى وتقلدت بالأنجمِ

(4) الخريدة، المرجع المذكور، ص ٦٠١. الأبيات المُشار إليها، تجدها فى مخطوطة باريس المذكورة، الورقة ١١٦ الوجه الأول والثانى. وكتب منها الشاعر الصقلى ثلاثة أبيات فى طلب استعارة الكتاب: وأرسل إليه أبو الصلت سبعة أبيات بالقافية نفسها.

(5) مخطوطة باريس، الورقة ١١ الوجه الثانى، والورقة ١٢ الوجه الأول.

(6) الورقة ١٢ الوجه الأول.

الخمسة والثلاثون التى تتألف منها القصيدة الأخرى، تبدأ بمحاكاة حرفية لإمرئ القيس، تتدرج حتى تصل إلى الألفاظ السفيهة الفاحشة وتنتهى بمدح تافه لا محل له(1). ولكن لا سبيل إلى إنكار قيمة اللغة المستخدمة فى هذه المقطوعات أو فى غيرها ذات الموضوع والمضمون الأجوف ومع ذلك جاءت بها الخريدة: وهى رسالة على هيئة نثر فى مدح دراسة جيدة عن الخطوط(2)، ورسالة شعرية تم فيها تجنب حرفى الألف واللام، الشائعين جداً فى اللغة العربية(3).

وأبو عبدالله محمد، ابن عيسى المذكور سابقاً وهو فقيه وكاتب وشاعر، ذاع صيته، كما يقال بوصفه مهندس وعالم فلك وعارف بعلم التنجيم(4). ونقرا تقديراً أكثر إجلالاً بشأن أعماله الأدبية. ويكتب كتاب التراجم «أنه كان يتنزه على قمم الأناقة، ويدعونه بطلاً شهيراً فى مناظرات العلماء؛ ويكشفون فى أشعاره فضائل ومحاسن من شأنها أن تسعد وتبهج النفوس وتثير نشوة الحاضرين وكأن أقداح الخمر الطيب الشهى تدور بينهم»(5). ويقول عماد، مشيراً إلى مرثيات محمد بن عيسى، بأن الأصفياء إلى هذه الأبيات، يجعل الأشرار يسلكون الدرب الصحيح(6). وبالفعل فإن قصيدة طويلة، كُتِبت، على ما يبدو فى وفاة واحد من بنى لبانة، تنساب مهيبة تثير الشجن: ونفطن إلى أنها تمثل رائعة أعمال من كان يمتلك ناصية اللغة ومن كان يعتبر الاستعارات والكنايات والتضاد التى

---

(1) الورقة ١٢ الوجه الأول إلى الورقة ١٣ الوجه الأول.

(2) الورقة ١٣ الوجه الأول.

(3) الورقة ١٣ الوجه الأول والوجه الثانى.

(4) قارن خبر عماد الدين، المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٨٧، بخبر زوزينى. المرجع المذكور، ص ٦١٩. هذا الخبر الثانى كان كازيرى قد نشره وفيه بعض الأخطاء. *Bibl. arabo-hisp*. المجلد الأول، ص ٤٢٤، ومن ثم أيضاً نشره جريجوريو، *Rer. Arab.*، ص ٢٢٧ وقد ذكره ونريش، *Rerum ab Arabibus*.. إلخ، ص ٢٠٥.

(5) مجهول الاسم، فى كتاب عماد الدين، الموضع المذكور.

(6) عماد الدين، فى مخطوطة الخريدة بباريس، الورقة ١٦، الوجه الأول.

تثير ضحكنا الآن، على قمة المحسنات البديعية(1). وربما أصفى القوم الطيبون، وهم فى حالة تأثر بالغ، إلى مرثية أخرى تُستهل ببكاء الخيل(2).

وإذا تغاضينا عن عيوب القرن ونقائصه، فإنه يمكننا إعتبار محمد بن عيسى شاعر جيد، أفضل بالتأكيد من أبيه. إذ إنه عرف كيف يتـلافى البذاءة. ونجـد فى أبيـاته عن الحب، من بين الصور النمطية المعتادة، بعض الصور الجميلة اللطيفة(3).

---

(1) المخطوطة المذكورة، الورقة ١٦، الوجه الأول وما بعده:

عَزَّ الفـداء وجل البين والجـزع ... وحـل بالنفس منـه فوق ما تَسـعُ
يا عين جودى بدمع خـالص ودم ... فـما عـليك لهـذا الرزء مُصـتَنَع

....

وكانت الأرض لا تحوى محاسـنَه ... وقد حَوَى شخصه اللحد الذى وضعوا
مَنْ لليتامى وأبناء السبيل وهـم ... قد ارتَـوَوْا من أياديه وقـد شـبعوا

....

جاءت ملائكة الرضوان مُعْلِمـة ... بأنـه بجـنان الخـلد مرتفـع
وقد أعدت له أعـمالُهُ غـرفاً ... فيها لأنفـس أهل الفضـل مُرْتَبَع
المـوت وِرْدٌ وكلُّ النـاس وارِدُه ... وقـد رأوْه عـيَاناً بعـد ما سـمعوا
ما بالهم شَعَرُوا بالمـوت أنـهم ... سَفْرٌ وهُم (فى) اقتناء الزاد ما شَرَعُوا

(2) المخطوطة المذكورة، الورقة ١٧، الوجه الأول:

بكته المَذاكِى المُقْرِبات وقُـطِّعَت ... شـكائمُها إذْ منه أُعْدِمَت الركضا
منت وهى بين الخَيْل أعزَزها دما ... وأبرزُها جسـماً وأمرَلها نَحْضا
وكادت سيوفُ الهند تَدق حَسْرةً ... وأجـفانها تنشق عنها لكى تُنْضا

(3) المخطوطة المذكورة، الورقة ١٦، الوجه الأول.

جـاد بالياسـمينِ والوردِ خـدٌّ ... وحـبا الأقحـوانَ والخـمرَ ثغـرٌ
أنا واللـه عـاشـقٌ لك حـتى ... ليس لى عنك يا مُنى النفس صبرٌ
فحياتى إنْ تَمَّ لى منك وصـلٌ ... وممـاتى إن دام لى منـك هَـجر

يستخدم الشعراء العرب فى الغالب تشبيه زهرة الأقحوان هذه للتعبير عن بياض الأسنان.

فى المخطوطة المذكورة، الورقة ١٤ الوجه الأول، نقرأ قصيدة يشتكى فيها الشاعر من:

هيفاء يحسد جيدَها رِئمُ الفلا ... ظلماً، ويَغْبِطُ وجـهها القـمران

ويختتم بهذه الأبيات:

أبليتُ طوعا فى المحبة جُسْدى ... ورضـيتُ قسْراً فى الهوى بهوانى
وصرفتُ نحو هوى الملاحَ تصرفى ... وسـرَّحتُ فى ميدانهن عـنانى
حتى تبيَّن لى الصـواب، وأننـى ... افنيتُ فى طـلب الضـلال زمانى
فتركت نهوى واطرحتُ مجانتى ... وجـفوتُ من نَبْذ الهوى وجفانى

وتضم المقطوعة الشعرية التى ذكرتها سلفاً كشعر شعبى، مفاهيم بسطية ولغة يسيره، والأبيات ليست طويلة للغاية ولكنها مناسبة للغناء. هذا فضلاً عن انسيابها كلها وفق قافية موحدة على النسق القديم(1). ولدينا لهذا الشاعر مقتطفات من قصيدتين أخريين، من رسالة شعرية، ورسالتين من النثر ورسالتين يمتزج فيهما النثر بالشعر، حيث نرى أن الأسلوب البسيط المألوف لم يجعله يكف أبداً عن البهرجة اللفظية(2).

وقد عرف كيف يتحاشى هذه البهرجة، على قدر ما كان يستطيع وقتذاك شاعر صقلى آخر معاصر، يذكر لنا عنه عماد الدين ثمانية أبيات، جزء منها مأخوذ من البداية وجزء آخر من باقى القصيدة الطويلة التى كتبت بمناسبة وفاة شريف من رؤساء المسلمين فى صقلية. ويؤسفنا أن عماد لم يحفظ اسم هذا الحاكم ولا بقية

---

(1) المخطوطة المذكورة، الورقة ١٥، الوجه الأول. ويبدو ان هذا الشعر قد كُتِب لكى تغنيه إحدى نساء الحريم.

مولاى يا نورَ قلبى ... ونورَ كلِّ القلوب
اما ترى ما بجسمى ... من رقةٍ وشحوب؟
وما بداخلِ قلبى ... من لوعةٍ ووجيبِ
فلِمْ بَخِلت بوصلى ... وليس لى من ذنوب؟
فإن يكن لىَ ذنب ... فأنت فيه حسيبى
ومحنتى فيك جلَّت ... عن فهم كل لبيب
وما لسُقْمى شفاء ... ولا له من طبيب
ولا لدائى دواء ... إلا وصال الحبيب
مولاىِ إن ذبتُ عشقا ... فليس ذا بعجيب
بَرِّدْ غليل فؤادى ... بزورةٍ عن قريب
ففى صميم فؤادى ... جهنمَ فى اللهيب

(2) هكذا يصف رسالة الصديق، فى مجموعة الأبيات المختارة التى يتخللها نثر إحدى الرسائل، مخطوطة باريس، الورقة ١٧، الوجه الثاني:

تضوَّع منهُ إذ فَضَضْتُ ختامَه ... نسيمٌ فنهت المسكَ والعود والنَّدُّ
ونَزهتُ طرفى فى حدائقَ أزهرَت ... بها زَهْرةُ السَّوْسانِ والآسِ والورد
بصفحة نُورٍ من نهار دجتْ بها ... سطور ظلام حالك اللونِ مسْودّ
وطالعتُ ألفاظاً يواقيتَ نُظِّمت ... مع الجوهرِ المكنونِ والدرِ فى عقْد
يزيل الضنَى عن ذى السقام مُرُورُها ... به، بل يقيم الميتَ من رقْدَة اللحد

المرثية، التى كان من الممكن أن نجد فيها إشارات تاريخية وابيات أكثر جمالاً؛ إذ إن جامع المختارات قد اختار بالتأكيد من بين الأبيات تلك التى قد تنال إعجاباً أقل من جانبنا. غير أننا نلمس فيها أحاسيس قوية، ومفاهيم شعرية، ورقياً فى الشكل، ويرجع الفضل فى هذا أيضاً إلى الوزن وهو الطويل(1). ويقول عماد الدين إن الشاعر يُدعى عثمان بن عبد الرحمن، وكنيته ابن السوسى، وإن كنت اعتقد بالأحرى انه لقب احد جدوده كان موطنه الأصلى مدينة سوسة فى أفريقية. ثم استقر فى مالطة وخلف بها ذرية؛ لأننا نجد حتى الآن شاهد قبر ميمونة القائم بتلك الجزيرة، وهى ابنة شخص يُدعى، حسان بن على، من قبيلة (حظيل) وكنيته ابن السوسى(2). ومن المؤكد أن الشاعر كان ينتمى إلى الأسرة نفسها، حيث إن جامع المختارات يستطرد قائلاً: «كانت مالطة هى مسقط رأسه(3) وموطن قومه ومنشأ خمره؛ وفيها نما عقله، وفيها تعلم أدباً انسانياً من والده. ثم قطن بالرمو، واختارها لتكون وطناً ثانياً ووجد بها مستراحاً. عاش

---

(1) نقرأ هذه الأبيات فى مخطوطة باريس، الورقة ٢٠، الوجه الأول:

ركاب المعالى بالأسى رحله حــــطا ... وطـــود العلى العـــالى تهدّم وانحطّا
فـناني مصـاعات الأسـي متقـــرّب ... وقرب مصــــرات السرور لنا شطا
وكيف لنور الشمس والبدر عـــودة ... وهذا منـــار المجد والعز قد قُطّا
يعـز علينا إن ثوى فى بســــيطة ... ورد الـردى عن كفه القبض والبسطا
كأن حــماما للحـمام قد انبـــرى ... لأرواح أهــل الفضـل يلقطها لقطا
فيا رزء ما أنكي وياحـــزن ما ابكى ... ويادر ما أعدى، وياموت ما أسطي
عـزاءً عزاءً قد محا المـــوت قلبنا ... ملوكا كما يمحـون من كـتب خطا

(2) نُشر هذا النقش الجميل مرات كثيرة وآخرها من قِبل م. فرزنل، فى الترجمة الإنجليزية التى قام بها فارس شدياق فى *Journal Asiatique*، عدد نوفمبر ١٨٤٧، ص ٤٣٩. ويتضح من النقش وكذلك من استخدام اللغـة أن الفقرة التى ترجمها السيد شدياق إلى (*An attendant of Ibn-es-soosee*) تعنى «الذى كان يطلق عليه ابن السوسى». وتاريخ الكتابة على شاهد القبر هو عام ٥٦٩ (١١٧٤). انظر الفصل الثامن من الكتاب الخامس، ص ٢١٢ من هذا المجلد، هامش رقم ٢.

(3) إن العبارة الشائعة جداً التى اترجمها على هذا النحو، معناها الحرفى «محل مسقط رأسه (وقت ولادته)».

إلى ما بعد السبعين من عمره، وخلف نسلاً، وأشعاره تستحق الإطراء لسلامة مضمونها وجمال بنائها وحسن ذوقها. وكان قد القى هو بنفسه، قبل موته بأيام قليلة، تلك القصيدة فى الرثاء لصاحب المجموعة المختارة»(1).

اعتقد بما لا يدع مجالاً للشك أن أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجا من أصل صقلى، ولا يقدم عماد الدين نبذة عن ترجمته، ولكنه يذكره فى المناظرة التى أجراها مع أبى الصلت(2). واعتقد أنه صقلى، لأنه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر خرج من هذه الأسرة قاضى بالرمو، وكان كلٌ من والده وجده قد مارس مهنة القضاء نفسها(3). ومن ناحية أخرى فإن المرثية التى نُظمت فى مناسبة موت أحد أبناء الملك روجيرو تبرهن على أنه كان محبوباً فى بلاط صقلية أو سعى إلى هذا. وعلى حد قول عماد الدين، كان يُشار إلى هذا الشاعر فى كتاب ابن بشرون، الذى سوف نتناوله بالحديث بعد قليل. ويثنى باستفاضة على محاسنه النادرة الفريدة: وهى حلو وصفه، بصحة التصور وصدق التخيل، وسداد الرأى وحدة الخاطر، وإن شعره بديع الحوك، رفيع السلك(4). وحقيقةً لم يغب الخيال عن أبى الضوء

---

(1) المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩.

(2) المرجع المذكور، ص ٦٠٠ وما بعدها.

(3) وثيقة عربية بتاريخ سبتمبر ١١٦١ وهى ترجع إلى كومندا ديللا ماچونى، وهى محفوظة اليوم فى المحفوظات الملكية فى بالرمو. وكان اسم القاضى أبو الفضل ريجا. ابن أبى الحسن على، ابن أبى القاسم عبد الرحمن بن ريجا. ومن بين الشهود نقرا أيضاً محمد بن على بن عبد الرحمن بن ريجا.

(4) المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٦٠٠ وما بعدها. وقد قدم البارون دى شاك فى *Poesie und Kunst ec.* الجزء الثانى، ص ٤٤ وما يليها، ترجمة شعرية لهذا النص باللغة الألمانية، وهى ترجمة حرة أحياناً، ولكنها دائماً أنيقة رفيعة المستوى. ها هى أجزاء من المرثية:-

بُكاءً، وما سالت عيونٌ واجفانٌ شُجُونٌ، وما ذابت قلوبٌ وأبدانُ
خبا القمر الأسنى فأظلمت الدُّنا ومَادَ من العلياء والمجد أركانُ
أحين استَوى فى حُسْنِه وجَلاله وتاهت به أطوارُ عزٍّ وأوطانُ
تَخَطَّفَهُ رَيْبُ المنونَ مخاتلا على غِرةٍ، إن المنون لخوّان

بين هذه الدوامة من الصور الشرقية المطروحة وسط أحزان الملك العميقة.

وقد احتفى شعراء آخرون بعظمة روجيرو بنظم الشعر. وعلى الرغم من أن عماد الدين قد اختصر هذه الأشعار «لأنها، على حد قـوله، تمـدح الكـافرين، وأنا من جـانبى لا أريد توكيد هذا»، إلا أنها قصائد تتسم بقيمة فريدة بالنسبة لنا، حيث إنها تدلل على أن مثل هذه القصائد كانت تلقى فى بلاط بالرمو، ولأنها تسلط الضوء على أماكن نعيم وبهجة تغيرت هيئتها منذ أمد بعيد. هذا هو الحال بالنسبة للقصر الملكى القديم فى بالرمو الذى حط من شأنه الدهر ونواب الملك الأسبان؛ والمسرح الرومانى المسمى القاعة الخضراء فى العصور الوسطى والذى سُوِّى بالأرض منذ أكثر من ثلاثة قرون،

كذلك أعراض البدور بعوفـــها ... إذا كملت من حـادث الدهر نقصـان
لحـق بان يبـكى عليه بأدمـــع ... لهـا فى مسيل الخـدِّ درٌّ ومرجـان
وتحرق أكـبادٌ وتمرض أنفـس ... ونعـظم أتـراح وتكـبر أشـجان
وتبتاع أحـزان وتهمى مدامـع ... وتجـمع أمـواه غـزار ونيـران
تبكـت له خـيامه وقصــوره ... وناحـت عـليه مُرْهَـفَاتٌ ومُـرَّان
وعـاد صهيل الخيل فى لهـواتها ... حـنيناً وعـافتهن لُجْمٌ وأرسـان
وما نـاح ورق الأيك إلا له. فـلو ... دَرَتْ لبكت قـبل الحمـائم أغصـان
فيالله من رزء عـظيم وحـادث ... يعـزُّ له صـبر ويعـوزُ سـلوان
ويا يومـه ما كـان أفظع هـوله ... تشـيب لمـرآه المـروَّع ولـدان
كأن منادى البعث قـام مـناديا ... لحشـر فـهبَّ الخلقُ طُراً كما كانوا
وقد ضاق رحب الأرض بالخـلق، ... والتقت جموعهم مُزجاً رجالٍ ونسوان
وشُقَّتْ قلوب لا جيوبٌ، ورجـفت ... بلابل. وارتجـت نفـوسٌ وأذهـان
وكانوا بلهو اللهو بيضـاً حمـائما ... فعـادوا وهم فى ملبس الحزن غربـان

ترجمت بلفظ "bigie" الجمع ورق، وهو يعنى هذا أصلاً كما يعنى «حمام»: غير أنه لا يمكن نقل هذا الاختلاط بين هذا اللفظ و«ورق الشجر (الأغصان)»، بحيث يتمكن الشاعر من استرجاع الصورة فى البيت الآخر. عندما يقول قد تبكى الأغصان أيضاً.. إلخ. وفى البيت قبل الأخير، فإن الفعل الذى ترجمته إلى «يحاكى» يخفى حيلة أخرى للشاعر إذ أنه يعنى فى ذات الوقت (يغردون، ينشدون) ويتلون المقولة: «إنا لله وإنا إليه راجعون». هذه المقولة، المأخوذة عن السورة الثانية، الآية ١٥١، من القرآن، إعتاد المسلمون التمتمة بها فى الخطوب العظيمة أو الكوارث. كيف السبيل إلى نقل درر على هذه الشاكلة إلى اللغة الإيطالية؟

والحدائق الفناء وقلعة ماريدولتشى أو ديللا فافارا، والتى لم يختف أثرها تماماً، كلها أماكن تعود إلى ذاكرتنا من خلال أبيات شعر كتبها عبد الرحمن بن محمد بن عمر البوتيرى الصقلى.

كان البوتيرى، كما نقرأ فى الخريدة، حامل القرآن لا يقل شأناً عن أى مرتل آخر فى عصره، وكان عالماً فى تفسير القرآن: ونظم الشعر بتفرد وأصالة فكر تستحق الإشادة والإعجاب. وهو نفسه قرأ على جامع المختارات المجهول قصيدة مدح فيها روجيرو الفرانكو أمير صقلية، ووصف فيها المبانى الشاهقة التى بناها ذلك الملك. ومن بين ما نقرأ فى هذه القصيدة(1):

أدر المتيق المسجـدية(2)	وصل اصطباحك بالعشيّة
واشـرب عـلى وقع المـثا	نى والأغـانى المعـبديّة(3)
مـا عـيشة تصفو سـوى	بذرى صـــقلية هـــنيّة
فى دولـة أربـت عـــلى	دولة المـلوك القيصريّة(4)
وقصـــــور منصـــورية	حط السرور بها المطية
أعْجِـبْ بمنزلـها الذى	قد أكمل الرحمان زيـه
والملـعب الزاهـى عـلى	كل المبـانى الهندسـيّة(5)

(1) المكتبة، ص ٥٨٢. نشر البارون دى سلان لأول مرة هذه الفقرة والفقرتين اللتين سهرد ذكرهما الآن توا فى صفحتى ٧١٥ و٧١٨ لعبد الرحمن الترابانى ولابن بشرون، مع ترجمة فرنسية، فى *Journal Asiatique*، العدد الثانى، المجلد الحادي عشر، ص ٣٦٢ وما بعدها (١٨٤١) وفيه قدم البارون معلومة مفصلة عن ترجمة جغرافية الإدريسى، التى قام بها م. جوبير. وقد قارنت النص بمخطوطة المتحف البريطانى وأعدت طبعه فى المكتبة العربية - الصقلية، مصحوباً بالبدائل والقراءات التى قمت باختيارها وكذلك تلك التى تفضل مشكوراً الأستاذ العلامة فليشر بعرضها على. وقد قام البارون دى شاك، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٤١ و٤٢ و٣٦١، بترجمة ألمانية جيدة فى صورة أبيات شعرية لهذه الفقرات المختارة واعتمد فى ترجمته على نص المكتبة.

(2) قرأ البارون دى سلان «عقيق» فترجمها إلى "Corniola". ولكن «عتيق» تعنى الخمر على وجه الخصوص. وتدعم نهاية النعت التالى والدالة على المؤنث قراءتى هذه.

(3) معبد كان مغنياً شهيراً فى البلاط الأموى بدمشق.

(4) اتبعت فى هذا البيت قراءتين مختلفتين عن قراءتى دى سلان.

(5) من الواضح أنه يشير إلى تلك التى كانت تسمى قديماً القاعة الخضراء: وانظر بشأنها مقالة علمية للبارون رفائيل ستارابا، فى *Nuove Effemeridi Siciliane* سنة ١٨٧٠.

ورياضـــة الأنُف التى(1) عـــادت بها الدنيـا زهيّه
وأســـــود شـــــاذروانـة تهــمى ميـاها كـوثريّه
وكســـاد الربيـع ربوعهـا من حـــسنه حـــللا بهيه
وغــــدا وكــــل وجــــهها بمُصــــيفات جــــوهريه
عـــطّرن أنفاس الصـبا عند الصــبيحة والعشيه

ووصف عبد الرحمن بن أبى العباس الترابانى (الإطرينشى) الكاتب(2) حدائق الفارڤارا (الفوارة) وصفاً أكثر تفصيلاً، فيقول:

فوارة البحـــرين(3)جمّعت المنى عيش يطيب ومنظر يُستعظَم
قُسمت مياهك فى جداول تسعة ياحــــبذا جريــانها المتقسم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى وعـــلى خليجك للغرام مخيم
لله بحر النخلتين وماحــــوى(4) الـ بحر المشيدُ به المقام الأعظم
وكــأن مــاء المفرغين وصــفوه درّ مذاب والبسيطة عندم(5)

---

(1) تسمية أخرى تطلق على فافارا (الفوارة). كان ينبوع من ينبوعى المياه فى البستان الملكى الذى كانت تشتمل عليه الفيللا التى أطلق عليها هذا الاسم، يُسمى الأُبف: ويؤكد على ذلك ابن حوقل فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**. ص ٩ وفى *Journal Asiatique*. العدد الرابع، المجلد الخامس (١٨٤٥) ص ٩٩. وكان الاسم يعود إلى الصخرة المسماة الآن بصخرة القديس تشيرو، ومن تحتها يتدفق ذلك الينبوع الذى مازال يُدعى أيضاً ماريدولتشى، وهو ينبع من البحيرة التى كانت قائمة فى وقت من الأوقات.

(2) **المكتبة**، ص ٥٨٤ وما بعدها.

(3) حقيقة. لست على يقين من أن لفظ *"bahrein"* يستخدم هنا كترجمة لكلمة بحرين بدلاً من بحيرتين وفى الحالة الأولى، قد يكون البحرين هو خليج بالرمو والآخر هو بحيرة المياه العذبة المزدوجة أو الفردية حسبما يُعتقد. وفى الحالة الثانية، من الممكن أن يشير الشاعر إلى البحيرتين اللتين تكونتا من ينابيع مياه ماريدولتشى والفافارا نفسها، ويبعد كل منهما عن الآخر مسافة أربعة كيلو مترات. ويقيناً كان الينبوع الأول يغذى بحيرة، ولكن أن تكون هذه البحيرة ممتدة حتى الينبوع الثانى فهو، على حد علمى، أمر لم تؤكده لا الكتابات ولا خريطة المكان.

(4) على الرغم من أن بحيرة ماريدولتشى قد جفت منذ بداية هذا القرن، فإن مجرى الجزء العلوى يُرى بصورة واضحة للغاية، وما من شك فى أن القلعة أو الفيللا الملكية كانت تبرز داخل البحيرة، ولكنها كانت وتتصل كذلك بالشاطئ.

(5) أتبع القراءات التى يقترحها فليشر، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٨٥.

وكأن أغصان الرياض تطاولت — ترنو إلى مسـك المياه وتبسم
والحوت يسبح فى صفاء مياهها — والطير بين رياضـها يترنم
وكأن نـارنج الجـزيرة إذ زهـا — نار على قُضُب الزبرجد تضرم
وكأنما الليمون صـفره عـاشق — قد بات من ألم النـوى يتألم
والنخلتان كعاشقين استـخلصا — حذر العـدى حصناً منيعاً منهم
أو ريبـة عـلقهما فتـطاولا — يسـتمحيان ظنون من يقودهم
يا نخـلتىّ بحرى بلرم سـقيتما — صـوب الحيا بتواصل لا يُصرم
هـنيتما أمـن الزمـان ونلتـما — كـل الأمـانى والحـوادث نُوَّم
بالله رِفقًا واسـترا أهل الهوى — فـبأمن ظلكمـا الهـوى يتحرم
هذا العـيان بلا امـتراء إنـما — سمْع الكيان زخارف تُوهم(1)

كان ـ أبو حفص ـ عمر بن حسن، النحوى الصقلى، على حد قول الكاتب المجهول المذكور فى الخريدة، «كان اميراً فى علم المعاجم وفى النحو: ذائع الصيت معروفاً بعلمه فى فقه اللغة علماً صحيحاً. وكان ذائع الصيت لنظمه الصحيح وانسياب شعره السلس وحسن ترتيب أبياته. وعندما أودعه فرنجة صقلية السجن. هكذا يستطرد الكاتب، وسيم انواع البلية، ألف من داخل أسوار سجنه قصيدة فى مدح الملك روچيرو»؛ ويذكر منها عماد الدين البداية وفقرتين. ثم يبتر الاستشهاد. ويقول بأنه على الرغم من إعجابه بالقصيدة فإن تلك الامنيات تثير ضجره كما أنه لا يريد تأييد مديح وإطراء الكافرين، وليعجل الله بطرحهم فى لهيب نيرانه الحارقة(2). غير أنه يختم قوله بأن الشاعر معذور فهو مأسور(3). ذلك الشاعر الذى يقفز قفزة مفاجئة من عاشق

---

(1) الشطر الثانى من البيت يختلف معناه تماماً عن المعنى الذى افترضه البارون دى سلان.

(2) القرآن، السورة ٦١، الآية ١٢.

(3) *المكتبة العربية ـ الصقلية*، ص ٥٨٧ وما بعدها. وص ٦٤٦. حيث نقرا نبذة سريعة يذكرها عنه الذهبى فى *Biografie de'Grammatici*.

سعاد(1) التقليدى النمطى إلى مدح ملك صقلية العظيم، وهو بذلك يكاد يكذب الناقد الذى كان يجب أن يثنى على نظمه الجيد للشعر، غير أنه، وسط المغالاة المفرطة، يأتى ببعض الصور الجميلة ويعبر دائماً عن أفكاره برقة وأناقة نادرة(2).

وكرر شاعر من المهدية ذكرنا اسمه سابقاً وهو عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرزاق بن جعفر بن بشرون بن شبيب من قبيلة أزد، كرر إطراء الملك روجيرو إما بسبب دفقة شعرية، وإما لأنه اراد هو أيضاً مدح غالب افريقية! ويبدو أنه أقام لفترة طويلة فى صقلية، إذ أنه يكنى أيضاً الصقلى. ويذكره عماد الدين وينقل فى الخريدة أشعاراً كثيرة، مأخوذة من الكتاب الذى اتمه ابن بشرون عام خمسمائة وواحد وستين (١١٦٥ ـ ١١٦٦) وعنوانه المختار، إلخ. أى «المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر»(3). ويقول فيه الكاتب

---

(1) هكذا الحال أيضاً بالنسبة للشاعر الأصلى الذى احتذى به وهو كعب بن زهير، فى القصيدة الشهيرة التى استحق بها عفو النبى محمد، إذ يستهل القصيدة بالبكاء على هجر الجميلة سعاد ومنها ينتقل إلى مدح النبى.

(2)

طلب السلو لو أن غير سعاده	حلت سويدا قلبه وفؤاده
ورجا زيارة طيفها فى صدها	وغرامه يأبى لذيذ رقاده
والله لولا الملك روجار الذى	اهدى لمحبيه عظيم وداده
ما عاف كأس الوجد يوم فراقها	ورأى معها المجد فى ميلاده

....

يهتز للجدوى اهتزاز مهند	يهتز فى كفيه يوم جلاده
ويضئ فى الديجور صبح جبينه	فتخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء أرض خيامه	والنجم والقمران من أوتاده
وإذا الأمور تشابهت فلعضبه	خط يبيض سوادها بمداده

....

يا أيها الملك الذى شبهت به	فدما الفظاظة فى صفا أصلاده
ودعته أرواح العدى فرمى بها	لما تلقتها ظبى أغماده

(3) دوزى، *Catalogus cc. oo* و *Bibl. Acad. Lugduno Batavae,*، المجلد الثانى، ص ٢٦٣، من بين عناوين الفصول وأسماء الشعراء، التى نشرؤها فى خريدة عماد الدين. راجع المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٩٩ و٦٠١.
ذكر حاجى خليفة كتاب المختار، طبعة فلوجل، المجلد الرابع، ص ١٤٦، رقم ٧٩٠١ والمجلد الخامس ص ٤٣٨، رقم ١١٥٩ وفى *.Bibl*. المرجع المذكور، ص ٧٠٤ و٧٠٥. لاحظ كذلك فى حاجى خليفة، الجزء الثالث، ص ٥٩٥، رقم ٧١٤٦، كتاب سر الكيميا، لابن بشرون نفسه.

إنه، لما كان عبد الرحمن البوتيرى قد عرض على قصيدة يمدح فيها روچيرو ساله أن يعمل على وزنها ورويها فقال(1):

للـــــه منصـــــورية — راقت بهـــجتها البهــيه
وبقصرها الحـــسن البنا — والشكل والغرف العليه(2)
وبوحشها(3) ومياهها الـ — غزر العيون الكــوثريه
فقد اكتـــست جـــناتها — من نبتـها حـــللا بهيه
غـــطى عـــبير ترابهـــا — بمد بحات(4) سندسيه
يهـدى إليك نسـيمها — افــواه طـــيب عنبريه
واستوسقت اشجارها — بأطايب الشجر الجنيه
وتجـــاوبت أطــــيارها — فى الصبح دأبا والعشيه
وبهـــا رُجـــار سما العلا — ملك الملوك القيصـريه
فى طـيب عــــيش دائم — ومشـــاهد فـيها شهيه(5)

---

(1) **المكتبة**. ص ٥٨٣ . راجع الشروح التى ذكرناها بخصوص بعض الألفاظ. وذلك من خلال تناولنا القصيدة السابقة المذكورة فى ص ٧٥٥ وما بعدها . هنا أيضاً، آثرت قراءة مختلفة عن تلك التى اتبعها البارون دى سلان فى أول إصداراته.

(2) اللفظ «غرف»، جمع «غرفة» ترجمه البارون بصورة غامضة بعض الشئ إلى *"étages"* ونجد المعنى الدقيق لـ «مقصورة ـ المنظر الجميل» فى فقرات المقريزى، **كتاب المواعظ**، نص بولاق، المجلد الثانى، ص ٢٥٠، السطر ١٩، وفقرات ابن جبير، طبعة رايت، ص ٢٧١، والمعنى نفسه يذكره كوش، فى المعجم العربى ـ الفرنسى، بيروت، ١٨٦٢ . أما المعانى الأخرى، انظر مصطلح «**الغرفة**» فى *Glossaire des mots espagnols*. إلخ، لدوزى وانجلمان.

(3) وجدت انه من الأفضل ترك هذا اللفظ غير محدد كما هو فى النص. ولكن يبدو ان الشاعر قد أراد الإشارة ليس إلى الفرائس بالحديقة الملكية وإنما إلى الأسود الرخامية التى ذكرها الشاعر البوتيرى، وقد أجابه ليس فقط من خلال اتباع الوزن والقافية، وإنما من خلال شرح وتفسير كل فكرة، كاتجاه المعارضات وكما يقضى العرف بفحص وتحقيق كل شاردة وواردة فى القصيدة.

(4) يذكر النص لفظ ديباج ويضعه فى الجمع وقد سبق ان أشرنا إلى هذا اللفظ ونحن نترجمه إلى *"broccato"* لأنه يعبر عن نسيج حريرى غنى فخم.

(5) أرى أنه فى هذا البيت يُفْتَرض ان يكون الفعل مصرفاً فى اللغة العربية فى الزمن الماضى. وبهذا فإنى اختلف مع دى سلان الذى ترجم *Il estld* إلخ. ثم إنى افسر بصورة مختلفة تماماً اللفظين الأخيرين اللذين ترجمهما *"Admirables monuments"* «مشهد» الذى نجده هنا فى الجمع، ويعنى مكان تجمع ومكان تقام فيه الشهادة، وبالتالى «الاستشهاد، والضريح»: ولكننى لا أعرف أن العرب أطلقوا من قبل هذا المعنى على

وبعد كبار الشعراء يذكر عماد الدين الغاون الصقلي أى «المتمرد الصقلي»، كما كان يُدعى أبو على حسن بن واذ : وهو لم يذكر أى شئ على الاطلاق عن أصل ذلك الاسم الرهيب، ولكنه ينبه إلى أنه وجد لحناً كثيراً فى شعره. ويأتى بفقرة من قصيدة، ثم بعدد من أبيات الحب مليئة بالعبارات النمطية، وخالية من تلك المفاهيم الغريبة والتعبيرات المنتقاة التى كان لها قدر كبير للغاية. والأبيات الأربعة التى بقيت لنا من القصيدة، تفوح منها رائحة الدفاع عن النفس، إذ أن الكاتب يشكو أحداث المقادير والإخوان الذين هجروه. وهنا أيضاً يبدو الأسلوب ساذجاً بسيطاً، يكشف عن الازدراء والافتخار، ويُظهر أن المتمرد لم يكن يُنشد الشعر لمجرد نظمه وإنما ليُفصح عن مكنون نفسه(1).

عاش عبد الرحمن بن رمضان المالطى تحت حكم الملك روجيرو، ويُقال له القاضى، على الرغم من عدم ممارسته للقضاء إطلاقاً وإنما عمل بقرض الشعر : وفى الشعر كان نقاد ذلك العصر يرون أنه «له من بحر خاطره وغزارة غريزته مدد». وأضافوا أنه كتب معظم شعره فى مدح روجيرو يسأله العودة إلى مالطة ولكنه لم ينل سوى رفضاً قاطعاً(2). غير أن عماد الدين لم يذكر أياً من تلك الأبيات الشعرية وإنما عوّضنا عنها بقصيدتين متواضعتين فى الهجاء، إحداهما باردة

مبنى مهيب بصفة عامة. وباتباع هذا الفكر، وهو ليس عربياً، ولا يرجع كذلك إلى القرن الثانى عشر، اضطر المترجم العالم إلى تطويع اللفظ الأخير وجعله واحداً من الصفات التى لا تنفصل اليوم عن كلمة «أثر».

(1) المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٨٦ . نقرأ الأبيات فى مخطوطة باريس. الورقة ١٠ الوجه الثانى. وها هى أبيات القصيدة:

وكم من رفيع حطه الدهر للتى تضعضع منه الحال بعد بسام
وكم خامل فى الناس أمسى مرفعا ترقى إلى العلياء كل سنام
فتعساً لدهر حط علو مراتبى وقلل إخوانى وأكثر ذامى
إذا اخضر يوما منه للمرء جانب غدا فجلا للعين كيف نام

(2) المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٨١.

والقصيدة الأولى مكتوبة «لأحد الرؤساء» الذى لم يدعه براه. وقد اقترح الأستاذ فليشر بعد ان راجع طبعة المكتبة، ترجمة (زمن ـ وقت) بدلاً من «رئيس»، وهى قراءة تؤدى إلى ما يفيد أن روجيرو قد نبذ الشاعر. ولكن على الرغم من عظيم الاحترام الذى اكنه لذلك المعلم العظيم، فإننى لا أرى شيئاً يجعلنى اغير ترجمتى. وتبدو لى الأبيات الشعرية وقحة حتى إنه ليصعب التصديق أن يكون الشاعر قد وجهها لروجيرو.

جافة بعض الشئ، والأخرى جميلة ولكنها مليئة بالمرارة(1). إن تطابق لقب عائلته موطنه وعمره يجعلنى أعتقد أن يكون هو أبو القاسم ابن رمضان نفسه، والذى حفظ لنا عنه الجغرافى القزوينى شطر البيت الذى ارتجله عند رؤيته ساعة مائية. هذا فضلاً عن أن عماد قد ذكره باسمه الأول وهو عبد الرحمن بينما ذكره القزوينى بلقب العائلة أبى القاسم. على أية حال، ينبغى أن نضيف إلى الشعراء الصقليين ابن السمنتى الذى كتب الشعر والقصيدة الغزلية كما سبق أن أشرنا(2).

وهكذا إذ نبلغ الشعر الأقل شهرة وشاعرية، نذكر عبد الحليم بن عبد الواحد الذى نشأ فى أفريقية، وأقام فى صقلية، وفقاً لما يقوله عماد الدين، حاله فى ذلك مثل حال غيره ممن سكنوا بالرمو: «وتعلم كل معرفة جيدة من أدباء تلك المدينة وأنشد أبياتاً تشبه عناقيد العنب وكتب خطباً تبدو عقوداً». ويفيض البيتان اللذان كتبهما عن الأرض التى احتضنته بالحب والعاطفة:

عشـــقت صـــقلية يافـــما وكانت كبعض جنان الخلود

فما قدرّ لوصل حتى اكتهلت وصارت جهنم ذات الوقود(3)

وتتسم كذلك أبياته عن الحب بالسلاسة والعذوبة(4). وجاء مسلم آخر

---

(1) مخطوطة باريس، الورقة ٨ الوجه الأول. القصيدة الأولى هي الآتية:

تـاه الـــذى زرتـــــه ولاذا عـــنى لـــم يُخـف ذا ولاذا

وكـــان من قـــبل إن رآنـــى يبســـط لى ســندسا ولاذا

فصـــار كلى عـــليه كــلا يالـيــتنى مـت قـبل هذا

وقال فى الذم:

إخـــوان دهـــرك فالقـــهم مثل العـــدا بســــلاحكا

لا تغـــتـــرر بتبـــــسم فالســـيف يقتل ضـــاحكا

(2) انظر الفصل السابق، ص ٦٥١ من هذا المجلد.

(3) المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ٥٨٢. هذان البيتان يحملان إلى الاعتقاد بأن المؤلف عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر على الرغم من أن مجموعة الأبيات الشعرية التى يقول عماد الدين إنه وجد بها البيتين، تعود إلى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. فلو أن مسلماً رأى صقلية نحو عام ١١٥٠ ثم نحو عام ١١٦٢ لفكّر نفس التفكير.

(4) فى مخطوطة باريس، الورقة ٨ الوجه الثانى والورقة ٩ الوجه الأول. وهى ثلاث فقرات، نأتى بأفضلها وفق ما يبدو لنا.

من المهدية إلى صقلية بعد ما يقرب من نصف قرن من مجئ عبد الحليم، ونظم شعراً عن شاب مسيحى، يعمل صبياً بمطعم متواضع فى بالرمو. وأريد أن أنقل هذه الأبيات لنذكر العادات بالإضافة إلى أننى أرى فيها مواطن جمالية كثيرة. وكان الشاعر يُدعى الشيخ أبو الحسن بن الصبان، ونعلم أنه انتقل من صقلية إلى دمشق، حيث توفى عام ٥٦٠ (١١٦٥ ـ ١١٦٤)، بعد إقامته بها لأكثر من عشر سنوات(1).

أعتقد أن أبا الفضل جعفر بن البارون وُلد بصقلية، ليس فقط لأنه يُدعى صقلى فى المجموعة المختارة، وإنما أيضاً لأن نقشاً غريباً فى ترمينى يذكر شخصاً يُدعى بارون، وهو وصيف فى البلاط الصقلى، وقد قام بتشييد أحد الآثار التى لا أعرفها(2). وربما كان بارون مجرد

شكوت فقالت: كل هذا تبرما	بحبى أراح الله قلبك من حبى
فلما كتمت الحب قال: لشد ما	صبرت وما هذا بفعل شجى القلب
فأدنو فتقصينى فأبعد طالبا	رضاها فتعتد التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها	وتُخرجُ من بُعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعلمونها	اشيروا بها واستوجبوا الأجر من ربى

(1) **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٩. يقول عماد الدين إنه وصل فى عهد نور الدين ثم وافته المنية.. إلخ. إذن فقد كان بالفعل بدمشق عندما استولى عليها نور الدين.

ومزنّر عقد الصليب بنحره	وأدار حول وشاحه إنجيلا
خمدت بجنح الليل جمرة ناره	فأقام خمرة دنّه قنديلا
مُتصنّعٌ لذوى السرى من كأسه	نجم يكون إلى الصباح دليلا

لقد نقلت «مزنر» إلى «ممنطق»، بمعنى ممنطق بالزنار أى ذلك المشد الذى، وفقاً للقوانين الإسلامية، ينبغى ان يرتديه «أهل الذمة» أى المسيحيون، واليهود والصابئة، حتى يتميزوا عن الشعب الذى له السيادة. وهنا يود القول بوضوح المسيحى. ولا أعرف إن كان مسيحيو بالرمو فى القرن الثانى عشر كانوا يستخدمون منطقة عند الحقوين، ولكنهم بالتأكيد ما كانوا مجبرين على ذلك. ونقلت لفظ «وشاح» الذى تحدثنا عنه منذ قليل إلى *Farsello*. ويستخدم الشاعر، دون شك، لفظ الإنجيل ليعنى بعض الصلوات المسيحية المكتوبة على شرائح من الرق وبعض أقوال بوستيليونى دى سان فرانشيسكو دى باولا «التى كانت تستخدم فى تلك الأوقات».

يُشير البيت الثانى بصورة واضحة إلى الدستور النورماندى المعروف جداً والخاص بحظر التجوال.

(2) انظر *la Rivista Sicula*، عدد نوفمبر عام ١٨٦٩، ص ٣٧٨ وما بعدها.

كنية ثم أصبح لقب أسرة الأبناء. ومن بين هؤلاء يمكن ذكر جعفر هذا «أحد الأفراد فى النظم المستجاد» كما يكتب عماد الدين، ويشير بصفة خاصة إلى بعض الأبيات فى مدح النبيذ ولكنه لا يذكرها. أما أبيات الحب التى تبقى منها أربعة مقاطع، فهى تبدو أنيقة رشيقة وجديدة مبتكرة(1). وتتصاب تلك الأبيات ذات الوزن الأقصر وفقاً لقافية موحدة مثل الأخرى(2). ويتبارى جامعا المختارات فى الإشادة بالفقيه الصقلى أبى محمد بن صمنه، ووصفه الكاتب المجهول «باستضافة علم الشعر إلى علم الشرع وبحسن المحاضرة والمحاورة، وطيب المفاكهة والمذاكرة وظرافة الخلق وسلامة الطبع». ويدعم عماد الدين هذا الرأى قائلاً: «إن له شعراً سنىّ الصنع جنى الينع». ولكنه ينبه إلى أن النقد كُتب على شكل نثر موزون تتخلله ألفاظ متناقضة وقافية متنوعة حرة وجناس وإنه بحق لعمل رائع بديع. وإنما ما يثير الإعجاب بصفة خاصة الجدل الذى احتدم بين ابن صمنة هذا وعيسى بن عبد المنعم، ثم الجـواب المهذب على الهجاء الذى صيغ فى ثمانية أبيات(3) رداً على

---

(1) المكتبة العربية ـ الصقلية. ص ٥٨١ . الأبيات فى مخطوطة باريس، الورقة ٦ الوجه الثانى.

وساحر المقلتين تحسبه ... من حور عين الجنان منفلتاً
يبسم عن لؤلؤ وعن برد ... ما بين زهر المقهق قد فتتا
تكسف بدر السماء بهجته ... وإن رنت مقلتاه أسكرتا
فالوجه كالشمس مذهب شرق ... والصدر والجيد جوهر نُحتا
قلت له والغرام يعبث بى ... وناظرى فى سناه قد بُهتا
الا وصل عطفه تُمد منى ... منك فإن العذول قد شمتا
فقال منى إليك شَيْمُ سناً ... يوم ذا الشوق فى الهوى عَنتا
ومرّ كالبدر فى سماوته ... يختال فى زهوه وما التفتا

(2) المخطوطة المذكورة، الورقة ٧ الوجه الأول.

انى ابتُلك سيدى ... ما ليس يحمله بشر
محسنٌ كُثُبن بمفرقى ... وافى بهن لى القدر
علقت السود لم اكن ... ادرى لَعَمرُك ما الخبر
ابصرته فى يلمق ... كالغصن أثمر بالقمر
فسطا على بجوره ... اكذا الكريم إذا قدر!

(3) المكتبة العربية ـ الصقلية. ص ٥٨٢ . ونقرأ الأبيات فى مخطوطة باريس، الورقة ٧ الوجه الثانى، وما بعده. وبغض الطرف عما تقدم وعن الرد الذى سبق أن أشرت

ما وجه إليه من نقد بنفس الوزن والقافية.

وقد عاش فى مصر، بعد رحيله عن صقلية فى تاريخ لا نعلمه، وكان أول كاتب للخليفة الفاطمى الفايز بالله (١١٦٠ - ١١٥٥). عبد العزيز بن الحسين، وهومن أصل أغلبى، ويُدعى الصقلى والسعدى(1). وكنى بالقاضى الجليس؛ وقد توفى عن عمر يتجاوز السبعين عاماً سنة ٥٦١ (١١٦٥ - ١١٦٦). وتبين لنا منتخبات عديدة من أشعاره، حفظها لنا كاتب تراجم من القرن الرابع عشر، إنه يختلف كثيراً عن صغار الشعراء المعاصرين له: ومثل غيره، يُسهب الحديث عن العيون القاتلة، وينابيع الدموع وهلم جرى(2). غير أنه لدينا منه بعض الأشعار(3) اللطيفة، ومطلع قصيدة فى الرثاء كتبها فى أحد أبنائه* لقى حتفه غرقاً. وهى

إليه. أنقل بعض أبيات أخرى تتناول موضوعاً مشابهاً:

تركوا العتاب وجانبوا العتبا ... فاقـلهم وانلْـهمُ المـتبى
واصفح لهم عما جنوا كرما ... حـبا لهم وكَـرامة حُـبا
احبابنا لى عـندكم مـقة ... نهـبت جـميع إسـاءة نهبا
ومحـبة فى الصـدر ثابـتة ... محـت الذنوب فلم تدع ذنبا
ووردت ملحـاً مـاء ودكـم ... فشـربته وسـقيتكم عـذبا

(1) كان ينتمى بصفته أغلبى إلى قبيلة سعد. وهذا الاسم العرقى قد يُنسب مع ذلك إلى قصر سعد بالقرب من بالرمو، والذى أشار إليه ابن جبير. **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٨٨ وفى *Journal Asiatique*، عدد يناير ١٨٦٤، ص ٧٥ و٧٦.

(2) نقرأ الأبيات واللمحة عن حياته تجدها فى **فوات الوفيات**، لمحمد بن شاكر الكتبى، الصادر فى القاهرة عام ١٢٨٣ (١٨٦٦) صفحة ٢٥٤ وما بعدها. ونجد فى صفحة ٢٥٥:

رُبَّ بيض سللن باللحظ بيضا ... مرهـفات جفونهنْ جفون
وخدود للُدمع فـيها خـدود ... وعيـون قد فاض فيها عيون

(3)

قد اهملت كل الأمور فما ... يعنى بمصـلحة ولا يغـنى
بسـداد مخـتلفين ما لهـما ... إلا فـساد امـورنا معـنى
ياتى فيكتب ذا ويكشط ذا ... فنعـود بعـدها كـما كنا

* يقول **فوات الوفيات** ما يلى: وقال الجليس يرثى والده وقد مات غريقاً فى البحر لريح عصفت: ثم ياتى ببيتين من شعر الجليس هذا أحدهما. ولا أدرى مصدر أمارى الذى يقول بموت ولده وليس والده. المرجع المذكور، المجلد الثانى، دار صادر بيروت ص ٣٢٤. (المترجم).

مليئة بمشاعر الحب(1). وربما كانت القصيدة بأكملها على هذا النحو ولهذا فقد بدت لكاتب ترجمته لا طعم لها. فذكر منها بيتاً واحداً مؤكداً بذلك انه، بدءاً من عماد الدين ووصولاً إليه، تحول ذوق الأدباء العرب من سيئ إلى أسوأ. هؤلاء هم آخر الشعراء العرب الذين نظموا الشعر فى صقلية.

ونضيف إلى الشعراء الأجانب يحيى بن التيفاشى من قابس، الذى قتله الفرنجة فى صقلية بعد عام ٥٥٠ (١١٥٥)، حسب ما يقوله عماد الدين، عندما أقاموا مجزرة للمسلمين(2): ولعلها وقعت، كما أظن، أثناء ثورة عام ١١٦١. وجاء كاتب وشاعر أكثر شهرة إلى صقلية (١١٦٨)، كما قلنا(3). وهو القاضى ابن قلاقس من الإسكندرية، الذى رحل من جديد مع رسول مصرى كان عائداً من بالرمو إلى القاهرة. ويبدو أن ابن قلاقس قد أقام عدة شهور فى الجزيرة فقد رأى بالرمو وترميني وتشيفالو وباتى وليباري وكارونيا ومسينا، وسيراكوزا. وفضلاً عن الكتاب الذى اهداه لأبى القاسم والأبيات التى كتبها عندما قُدر له أن يعود إلى الجزيرة من جديد بسبب نوة بحرية، ونعلم أنه مدح الملك جوليلمو فى إحدى القصائد ولدينا الأبيات التى نظمها فى المدن الصقلية المذكورة، وكان يجد دائماً ما ينتقده فينقد الاسم مرة، والمناخ أو المياه مرة أخرى. ويشكو حيناً متاعب الإبحار، وحيناً تكدير الناس، وحيناً آخر ضيقه برؤية فرسان مسيحيين وقد احتشدوا فى صفوف وسيوفهم مستلة، كأسنان وحش ضار يهم بالهجوم على المسلمين(4). وعلى العكس، مدح واحد من (بنى رواحة) أسره الأسطول بينما كان يركب البحر، انسانية ورحمة البلاط الصقلى، فطلب العفو من خلال أبيات شعرية غير متقنة، قال فيها انه

---

(1) وكنت أهدى مع الريح السلام له ما هبت الريحُ فى صبح وإمساء

(2) انظر الباب الرابع من هذا الكتاب، ص ٤٦٦ من المجلد.

(3) الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥٤١.

(4) المكتبة العربية. الصقلية، النص، ص ١٠٧ و١٠٩ و١١١ و١١٢ و١٢٤ و١٢٦ مع البدائل التى ذكرتها فى المقدمة، ص ٤٢.

خلّف وراءه أُماً عجوزاً وابناءاً صغاراً فى عوز شديد . ويختم الشاعر متمنياً ان يأذن الله بأسرهم معه، «لأنه لا ينقصنا فى كنفكم ملبس او سبل للإعاشة».

ويروى أن الملك حرره ووهبه ألف درهم وأعاده إلى ذويه وتكفل هو بكل النفقات، ولكننا لا ندرى إلى من نعزو هذا المعروف، نظراً لأن شهاب الدين عمرى الذى نقل هذه الأبيات نقلاً صوتياً لا يذكر اسم الملك، او العصر، او أية تفاصيل أخرى سوى لقب أسرة الشاعر(1).

---

(1) المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ١٥٢ و ١٥٣. كانت قبيلة بنى رواحة تستقر فى اطراف برقة.

الفصل الثانى عشر

من خلال كتاب الملك روچيرو ووثائقه هو وخلفاؤه؛ ومن خلال فالكاندو، وابن جبير، وغيرهم من الرواة والجغرافيين، يمكن تحديد رؤية عامة للظروف الطبوغرافية والاقتصادية لصقلية فى الفترة الأخيرة لوجود الجماعات الإسلامية بها. كما يمكن أيضاً أن نتناول بالتفصيل بعض جزئيات اللوحة. فأول ما يراود ذهن من يتأمل وصف الإدريسى التفصيلى، الدقيق فى بعض اجزائه، هو البحث عن التغيرات التى طرأت على جغرافية الجزيرة الطبيعية. وتذكرنا رغبته فى التقصى والمعرفة بمدى قصر المساحة الزمنية التى تشغلها قرون سبعة فى التاريخ الزمنى للمسكونة. وفيما عدا جزيرة بناريا التى سقطت سهواً بالتأكيد من الخريطة(1)، فإننا نجد حول صقلية الجزر الصغيرة نفسها ومنها جزيرتا سترومبولى وڤولكانو وكانتا الوحيدتين اللتين تضطرم فيهما نيران البراكين آنذاك تماماً مثل حالهما اليوم، ونادراً ما كانت جزيرة ڤولكانو تتمتع بفترات من الخمول(2). ومن الجدير بالملاحظة اختلاف بعض أنواع ذوات الأربع فى جزر صغيرة متعددة كآثار خلفتها أحداث چيولوچية قديمة، فالإدريسى يقول إنه كانت تعيش فى جزر بنتلاريا

---

(1) طبقاً لآراء البعض، فإن جزيرة باناريا هى *Evonymos* لدى القدماء. وطبقاً لآراء البعض الآخر هى *Hicesia*، وآخرون يطلقون الاسم الأول أو الثانى من هذين الاسمين القديمين لجزيرة أخرى من جزر ايوليى. وليس من السهل الجزم فى مثل هذه الظنون، لأن جزر ايوليى تقع على مقربة من بعضها كما إن بعضها صغيرة جداً لدرجة أنه يتم إغفالها أحياناً فى الوصف على اعتبار أنها مجرد صخور. كما أن خطوط الطول والعرض التى تقع عليها جزر أيوليى المتعددة، وفقاً لبطليموس، تعزز مصداقية الرأى الذى يطابق بين *Hicesia* وجزيرة باناريا.

(2) المكتبة، النص، ص ٢٢ ـ ٢٣.

ماعز مستأنسة وقد توحشت(1)، وماعز متوحشة فى جزيرة فولكانو، وفى ماريتيمو، ماعز وظباء(2). ولكننا لا ندرى مدى مصداقية هذه التصنيفات أم إن كان من الأفضل إضافة أيائل فاڤينيانا التى تذكر فى القرن الثامن عشر(3) إلى تلك الحيوانات وإدراجها كلها تحت تصنيف واحد، وهو التصنيف الذى اشتق منه بالتحديد اسم إجادى على ما يبدو ونُسب إلى الجزر القريبة من ترابانى، واسم كابرى، وكابرايا الذى أُطلق على جزر اخرى تقع أكثر شمالاً.

تطرقنا فى أحد الكتب السابقة إلى مسألة انخفاض حجم مياه الأنهار فى صقلية(4). ويرتبط بهذا الأمر التلف التدريجى الذى أصاب، على ما يبدو، بعض الموانئ؛ ولكن يجدر بالذكر أن الإدريسى يطلق تسمية مرسى أى ميناء، على المرافئ الصغيرة. وأنه فى ذلك الوقت، على الرغم من وجود سفن كبيرة تشبه الفرقاطات الحالية، فإنه كانت تستخدم عادة مراكب صغيرة وعلى الأخص مراكب أصغر قاعاً من سفن اليوم. ومع كل هذا، لا سبيل إطلاقاً إلى إنكار اختلاف العمق الواضح فى نهر لنتينى وفى مصبات الأنهار التى تُسمى على اسم مازارا وراجوزا، عندما يكتب الإدريسى أن السفن كانت تصل بكل حمولتها داخل المدينة الأولى الواقعة على مسافة ستة أميال داخل الأرض(5)، وأن مراكب كانت تعمل فى حركة التجارة مع كلابريا

---

(1) المرجع المذكور، ص ٢٤ ترجم م. چوبير هذا المكان ترجمة لم يتوخ فيها الدقة التامة فى المجلد الثانى، ص ٧٣، السطرين ٢، ٣.

(2) المرجع المذكور، ص ٢٤. اترجم اللفظ ظبى *zabia*، *tzabia*، *dhabia*، *thabia* إلخ إلى "*antilope*" وربما اضافه العرب بطريقة مبهمة إلى النوع الذى وُجد حديثاً من نوع الأيائل، أو من نوع الماعز، وربما ظبى الجبل أو اليحمور. وذلك عندما راوه لأول مرة فى دول الغرب. ويذكر معجم *Vocabulista in arabico* المعنيين المختلفين تماماً «ماعز» وداما.

(3) اميكو، *Dizionario Topogrefico della Sicilia*، فى الفصل الخاص بفاڤينيانا.

(4) الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٤ من المجلد الثانى.

(5) المكتبة، ص ٣٦. يُذكر فى النص كلمة مركب بالتحديد: وهو لفظ عام يستخدم للسفن المزودة بغرفة قيادة.

وافريقيا وبلدان أخرى، كانت تشحن حمولتها وتفرغها عند مصب نهر راجوزا(1)؛ وأن المراكب كانت تقلع والقوارب تقضى الشتاء بالقرب من المدينة فوق نهر مازارو(2). ومن هنا يمكننا أن نفترض حدوث طمر أو ارتفاع للتربة فى هذه الأماكن؛ ولدينا أمثلة كثيرة على هذا فى صقلية وخارجها. ويمكن الاعتقاد بأنه لأسباب مماثلة تقلصت موانئ كتانيا وچرچنتى وترابانى الجارى إحياؤها وتجديدها الآن؛ إن عرفنا أنه فى عهد الملك روچيرو كان الميناء ان الأولان يزدحمان دوماً بالمراكب(3)؛ وكان الميناء الثالث فى مأمن من كل الرياح وارتداد الأمواج العنيف ولذا كانت القوارب تقضى الشتاء به(4). ونقرأ أنه من بين مينائى سيراكوزا فإن الميناء الأصغر كان أكثر استخداماً من الثانى(5).

يشير الإدريسى إلى النبع المتقطع الذى يُدعى دونًا لوكاتا(6)، بالقرب من شيكلى، ويشير أيضاً إلى نبع أمنانو الذى يجرى فى جوف الأرض فى كتانيا وأحياناً يتدفق فى الشوارع والطرقات(7). وندين أيضاً لمن جمع الأخبار الطبوغرافية، برسم اولى إحصائى وأثرى للجزيرة. ونلاحظ فيه استخدام نعت *azali*، وقد يعنى لدينا «أصلى، أصيل»، فى وصف قلاع ترمينى وتوزا، وقلمة القوارب (سانتو استيفانو) وكارونيا، وتاورمينا ونوتو وراجوزا وچرچنتى ومارسالا وترابانى، وقلمة الطراز، (كالاترازى بالقرب من كورليونى) وباتيلارى

---

(1) المرجع المذكور، ص ٣٨.
(2) المرجع المذكور، ص ٤٠ و ٤١. يستخدم الكاتب كلمة مركب فى الحالة الأولى، وكلمة قارب فى الحالة الثانية. أعتقد أن المراكب كانت، بوجه عام، أكبر من قوارب أخرى صغيرة ترسو الآن فى ذلك الميناء.
(3) المرجع المذكور، ص ٢٥ و٢٩.
(4) المرجع المذكور، ص ٤١.
(5) المرجع المذكور، ص ٣٦.
(6) المرجع المذكور، ص ٣٨. الاسم العربى الذى حُرِفَ الآن ويتخذ ذلك الشكل الغريب هو **عين الأوقات**. «العين (التى تتدفق) على فترات».
(7) **المكتبة**، ص ٣٥.

(بالقرب من بيزاكوينو) وكالاتافيمى: وفضلاً عن هذا تُدعى قلعة سان ماركو ونوتو المذكورة لتوها، تُدعى القديمة: ويطلق النعت نفسه فى ترمينى على المسرح والحمامات، وفى جرجنتى على الآثار القديمة التى توضح القوة التى وصلت إليها الدولة فى وقت ما. وفى تاورمينا على الجسر والمسرح الرومانى الذى يشهد على عظمة من شيده وعلى جبل يُسمى طور، وهو معروف جداً بمعجزاته وطقوس العبادة التى تُقام عليه.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الجغرافيا السياسية، فإن دراسة حديثة حول نص الإدريسى وعلى غيرها من مذكرات الأحداث التى جرت فى تلك الأزمنة، تدفعنى إلى الاعتراف بأنه لا توجد فى وثائق القرن الثانى عشر دلائل تشير إلى التقسيم الإدارى لصقلية إلى ثلاثة أقسام، الذى كنت أظن أن الملك روجيرو قد قام بتجديده واحيائه(2).

---

(1) المرجع المذكور، الفصل السابع، تحت الأسماء المذكورة.

(2) تناولت هذا الموضوع فى الكتاب الثانى، الفصلين السادس والثانى عشر، وفى الكتاب الرابع، الفصل الرابع: وفى الكتاب الخامس، الفصل العاشر: المجلد الأول، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ وما بعدها، وص ٥٢٠ وما بعدها: والمجلد الثانى، ص ٢٨٠ وما بعدها، والمجلد الثالث، ص ٣٠٦ وما بعدها. ولثلاث مرات يظهر اننا نمسك بطرف الخيط فى وصف الإدريسى ولكننا سرعان ما نفقد أثره. فإقليم ديمونى لا يمكن أن يقابل الوادى، لأنه هناك الكثير والكثير من الوديان فى الجزيرة، ولا يمكن أن يعنى اراضى بلدية، لأن الإدريسى لا يصف ديمونى، ولا يذكرها فى مكان آخر غير هذا. ثم يبدو بعد ذلك أننا نجد المقابل فى كلمة عمل وهو لفظ يعنى ما يكون تحت الحكم ويضاف إليه: حتى أن هذا اللفظ قد ورد فى نوتو (ص ٣٧ من النص)، فعملها ذو مساحة واسعة وإقليمها يتمتع بظروف ممتازة: ويبدو أن الشك يصبح يقيناً فى كاستروجوفانى، فهى عمل ذو مساحة شاسعة وأقاليمها ذات ظروف طيبة: وقد يُظهر هذا الجناس والسجع أن العمل كان يمكن ان يضم اقاليم عدة. ولكن هوذا لفظا عمل وإقليم يترددان فى الإفراد، للإشارة إلى مارسالا: وما هى اقاليم مازارا وترابانى الفسيحة، التى لا يُطلق عليها عمل (ص ٤٠) وأقاليم تشيفالو، كالاناماورو، وكالاتوبو، ولهكاتا وشكا، التى كانت «بمثابة المدينة عاصمة اقاليم وأعمال تلك النواحى». من هنا يمكن أن نخلص إلى ان هذين اللفظين لم يكن لهما معنى فنى فى صقلية، مثل المعنى الذى كان لهما فى مصر (انظر المجلد الثانى، ص ٢٨٠، هامش رقم ٥) أو ان يكون الإدريسى قد استخدمهما حسبما ارتأى، أو ان يكون عدد الأقاليم اثنان فقط فى صقلية الشرقية، وان يكون عددها كبير جداً فى المنطقة الواقعة غرب كاستروجوفانى. واعتقد أن النظام الذى اتبعه الإدريسى فى وصف المدن

وذلك استناداً إلى ما ذكره جريجوريو. وإن لم تمدنا وثائق أخرى بمعلومات أكثر دقة، فينبغى الاعتقاد أنه تحت حكم النورمان تم تقسيم صقلية إلى أقاليم أو مراكز عديدة مختلفة الاتساع بل ولعلها كانت قابلة للتعديل والتغيير(1).

ونستقى من الإدريسى معلومات أكيدة عن توزيع السكان على أراضى الجزيرة. فقد تم إحصاء ثلاثين بلداً فى الجزيرة مع استبعاد ـ كما ينبهنا إلى هذا بوضوح محرر الأخبار ـ الضيعات، والعِزَب

الداخلية الصغيرة يقودنا إلى هذا الافتراض الأخير. وسيكون فهم ما أقوله سهلاً وميسوراً لو أننا قرأنا وصف الإدريسى مع الاستعانة بخريطة نضع على البلاد فيها علامات بألوان مختلفة، نغيرها كلما رجع الكاتب إليها. وهكذا فسوف نرى فال ديمونى، وهو آخر مكان فى الوصف، يتميز تمييزاً واضحاً عن وادى نوتو وهو قبل الأخير. غير ان الألوان قد تتضاعف وتكثر غرب سالسو ونهر تورتو. فقد أخذ الكاتب يجول هنالك ويطوف لهدف ما، لا أظنه ينحصر فى تتبع طرق الاتصال. فبعد انطلاقه من بالرمو، كما يقول متجهاً صُوب كاستروجوفانى، يتوقف عند ثلث الطريق على الضفة الغربية لنهر تورتو، حيث يعبر إلى جاتو على بعد حوالى خمسين كيلو متراً ناحية الغرب، ولا يسلك طريق كاستروجوفانى قبل ان يقطع فى اتجاهات عديدة الجانب الأكبر من وادى مازارا. ولكنه لا يقوم بوصف كل البلاد والأنهار التى تتبع ذلك الوادى فى التقسيم الثلاثى للجزيرة. إننى اتحدث دائماً عن المدن الداخلية، نظراً لأن تلك المدن الساحلية موصوفة بالترتيب، بدءاً من بالرمو فى اتجاه الشرق والعودة من الجانب المقابل، دون أية إشارة لأى إقليم فيما عدا إقليم ديمونى، والذى نعرف أين يبدأ ولا نعلم أين ينتهى. الآن، يدل ترتيب البلاد الداخلية على أن الوصف قد تم على أوراق أو تقارير جزئية. لا ندرى دوافع تحريرها. ولم يُتبع بالتأكيد فى عهد الملك روجيرو، التقسيم القديم لإيميرا، والذى جدده الإمبراطور فدريكو: حيث يتوقف الكاتب فى المرة الأولى عند نهر تورتو، وليس عند النهر الكبير، أى عند نهر إيميرا الشمالى. ثم يعبر ويجتاز من جديد إيميرا الجنوبى أى نهر سالسو بحيث يجعلنا نعتقد أنه، قبل وادى نوتو، يريد وصف ما يُعرف فى بداية القرن الخامس عشر باسم فال جرجنتى وكاستروجوفانى، أو بالأحرى أنه يجتاز الواحدة تلو الأخرى المحافظتين اللتين يطلق عليهما معاً هذا الاسم فى القرن الخامس عشر. ويتضح التقسيم الإدارى إلى أربعة أودية، أى الثلاثة أودية الشهيرة جداً ووادى جرجنتى وكاستروجوفانى، فى إحصاء عام ١٤٠٨، الذى نشره جريجوريو فى *Biblioteca aragonese*، الجزء الثانى، ص ٤٩٠ وما بعدها.

(1) انقل عن صديقى العلامة ايزيدورو لا لوميا، مدير مخطوطات المكتبة الصقلية، أنه، من بين الوثائق التى وُجدت حتى شهر سبتمبر سنة ١٨٧١، تعود الوثيقة الأولى التى تضم التقسيم الإدارى للأودية الثلاثة إلى عام ١٤٧٧.

والأراضى الصغرى. وإن طفنا بالمائة وثلاثين بلد نرى أن واحدة وثلاثين منها وأغلبها ساحلية، كان بها أسواق. أى وفقاً لعادة الشرق وأوربا فى العصور الوسطى، أحياء يسكنها حرفيون يمارسون المهنة نفسها أو باعة يبيعون السلعة نفسها، وكانت إحدى عشرة بلدة تتباهى بحماماتها(1) من بينها بلدة واحدة فقط داخلية، وكان ببالرمو متاجر يمتلكها تجار كبار(2)، وبالرمو نفسها ولنتينى ومارسالا كانت بها فنادق(3): أما كتانيا وسيراكوزا ومازارا ومارسالا فكان بها خان(4): وبالإضافة إلى بالرمو ومسينا وكتانيا وسيراكوزا كانت كاستروجوفانى، ونوتو، وبوتيرا، وچرچنتى وكارينى تتميز بالقصور والمبانى الكبيرة: وكانت مازارا معروفة بشوارعها الفسيحة، والضيعات الزاخرة بالملذات والمباهج حول حمامات سيجستانى(5). ومن بين الجزر الصغيرة المجاورة، كانت جزيرتا مالطة وبنتلاريا مأهولتين بالسكان طوال العام: أما جزيرة ليبارى فقد كانت مأهولة فى مواسم وفصول معينة ولكن كانت بها هى أيضاً قلعة(6): أما الجزر الأخرى فتبدو غير مسكونة إذ لا يذكر وجود سكان أو زراعة بها على الرغم من الحرص على اكتشافها، كما يبرهن على هذا وصف موانيها ومياهها العذبة والأخشاب الموجودة بها، وتردد السفن عليها التى

---

(1) بالرمو وترمينى وتشيفالو وسان ماركو واوليفيرى وكتانيا وسيراكوزا ومازارا ومارسالا وكارينى وادبرنو.

(2) يذكر النص جمع لفظ حانوت ولكنه يشرحه بصورة أفضل فيما بعد. استخدمت فى الترجمة لفظ (محلات) *magazzini* حتى اقترب من المعنى المتداول لدينا حالياً. على الرغم من أن هذا اللفظ، وهو عربى أيضاً. له فى الأصل معنى مختلف.

(3) يُقصد بها المتاجر وفنادق التجار الأجانب. وهى منشآت كبيرة مثل منشآت أهل بيزا وجنوه والبندقية فى الدول الإسلامية. وكلنا نعرف أن الكلمة الإيطالية *fondaco* مشتقة من تلك الكلمة ولكن يختلف معناها. ويشير استخدامها الآن فى صقلية، كما أيضاً فى تونس، إلى فنادق الدرجة المتواضعة جداً المخصصة سواء للناس أو للدواب.

(4) هذه هى الفنادق المخصصة لمسافرى القوافل فى الشرق. ارى أن الإدريسى يستخدم كما يحلو له تسميات الأنواع المختلفة من الفنادق والحوانيت.

(5) الإدريسى فى وصف تلك المدن.

(6) المكتبة، ص ٢٣.

اعتادت البحث عن ملاذ لها فيها عندما يكون البحر هائجاً(1). ونقرا فى دهشة عن هجر حصن اريتشى المنيع، وتركه دون فرقة حراسة مسلحة أو حارس واحد وكان يدعى حينئذ جبل حميد(2)؛ فى حين يروى عنه ابن جبير، بعد ثلاثين عاماً، أن الحراسة عليه كانت شديدة(3). ويذكر كتاب روچيرو أنه كان يوجد بداخل حصن چاتو سجن سرى خاص بمن يرتكب جريمة فى حق الملك(4)، ويذكر أن سكان كلتابيللوتا قد نُقلوا إلى شكا، وبقيت بها حامية صغيرة(5)؛ ويخبرنا الكاتب أن حصن قلعة ـ الصراط، الذى يرجع إلى عهد چوليزانو فى العصور الوسطى أو كولليزانو، كما تحلو كتابة هذا الاسم، قد دُمّر، بأمر من الملك وتم نقل سكانه إلى موقع ضعيف(6). ولا تشير الأخبار إلى هذه الواقعة، ولكنها تتفق حول المأساة الأليمة التى استمرت قائمة لسنوات عديدة بين الملك روچيرو ورابنولفو كونت أفلينو، زوج إحدى أخواته وعدوه اللدود. وقد اختفى اليوم من عداد البلديات ثلاثون بلدأ من المائة والثلاثين، ولم يتبق منها سوى اسمها الذى أطلق على بعض الضيعات أو على بعض القلاع المهجورة والمتهدمة غالباً. وتوجد معظم هذه المدن فى بالرمو وترابانى وچرچنتى، *أى فيما* كان يطلق عليه اسم وادى مازارا(7). وإذا

(1) المرجع المذكور، ص ٢٢ إلى ص ٢٥.

(2) المرجع المذكور، ص ٤٢.

(3) المرجع المذكور، ص ٩٥.

(4) المرجع المذكور، ص ٤٥. يذكر النص «سجن مطبق»، أى مغطى، مغطى دون شك بقبة ومن المحتمل أن يكون سجناً تحت الأرض.

(5) المرجع المذكور، ص ٤٠.

(6) المرجع المذكور، ص ٦٣.

(7) اندثرت من منطقة بالرمو المواقع الأتية: بوركاد (قلمة بروكاتو)، صخرة الحرير (رونتشيللا، أى كامبو فيلتشى بالقرب من تشيفالو) خزان، بيهترانا، چاتو، كلاترازى، قلعة الطريق، رايا، مرجانا، خاسو، منزل سندى، كلاناماورو، حرّاكا، مكارا، ريكّا ـ بازيلى ومجموعها ١٥، بينما لا توجد فى ترابانى: الأصنام (أى سلينونتى) كلاتوبى، رحل المارة، ميراچا، رحل القايد، رحل الارمل، قصر بن منكود ومجموعها ٧؛ وفى چرچنتى: ثلاثة وهى: بلاتانو، جاردونا وكركودى، وفى كلتانيسيتا: بلدة واحدة وهى تاقى، وفى كتانيا

القينا نظرة على إحدى الخرائط الجغرافية نجد الخراب الكبير الذى لحق بهذه المدن فى نهاية القرن الثانى عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر.

ويقودنى هذا إلى توضيح أمر آخر أهم وأخطر. فبعد جمع كل أسماء الأماكن المأهولة التى وردت فى الكتابات الجغرافية أو التاريخية وفى الوثائق، منذ بداية القرن الثامن وحتى بداية القرن الخامس عشر، فإننا نلاحظ فى صقلية أكثر من ألف تجمع سكانى ما بين كبير وصغير؛ ولعله يمكن أن نستبعد من هذا الرقم حوالى اثنى عشر تجمعاً تكررت اسماؤها، غير أنه ينبغى إضافة عدة مئات من الأسماء المجهولة حتى الآن، أو التى ضاعت تماماً مع الكثير من الوثائق العامة والخاصة. ففى مقابل الألف مكان وأكثر التى نعتقد أنها كانت مأهولة بالسكان فى أكثر العهود ازدهاراً فى صقلية فى العصور الوسطى، أى فى عهد جوليلمو الطيب، نجد خمسمائة وستين تجمعاً عمرانياً من بلديات وقرى، عند نهاية حكم أسرة البربون، ونلاحظ اختفاء نصف العدد على أقل تقدير(1). وإذا

اختفت ثلاث بلاد وهى: قلعة الفار، وملجا خليل وشهلاتا: وفى سيراكوزا اختفت بلدة كاسيبارى؛ وفى مسينا: كايزى، منهانشى، منجابا، وميكوش ومجموعها أربعة. ولكن ربما تكون ميكوش اليوم هى مدينة مندانيتشى أو فيوميدنيزى، وقد تكون منجابا هى فلورستا أو تورتوريتشى. وكذلك الحال بالنسبة لسوماتينو التى يبدو أنها حلت محل كركودي. وبرتّا محل جاردموتا، وكاستلبونو أو سانتومورو بدلاً من ريكا بازيلى. وفى مكان كالسّو أو على مقربة منها، تم إنشاء تشيمينا. وبناء عليه يمكن أن ينخفض عددها من ٣٤ إلى ٢٨. أى ٢٢ فى وادى مازارا و٦ فى صقلية الشرقية.

(1) انظر مقدمة كتابى، *Carte Comparée de la Sicile*. باريس ١٨٥٩، ص ٢١ وما بعدها، وص ٢٧ وما بعدها، والفهرست الطبوغرافى الذى استخلصته من الكُتّاب ومن الوثائق. ونمت إلى علمى بعد ذلك أسماء أماكن أخرى كانت مأهولة فى العصور الوسطى: وينبغى اعتبار عدد كبير جداً من هذه الأسماء مفقود أو لم يتم اكتشافه بعده. ويمكن بالفعل معرفة عدد لا بأس به من هذه الأسماء من الدراسات القليلة التى ظهرت بعد كتابى هذا: ومن هذه الأعمال سوف أذكر فقط *Le Mem. Stor. Agrigentine* للسيد المحامى جوزيبى بيكونى، ١٨٦٦ - ١٨٧٠. وخريطة صقلية الجميلة جداً والتى نشرتها منذ وقت قريب هيئة الأركان حرب الإيطالية. فى هذه الخريطة، وعلى الرغم من الأخطاء الكثيرة التى وردت فى كتابه أسماء الأماكن، يتم التعرف جيداً على الأسماء التى

افترضنا الآن أن تعداد سكان صقلية الحالى يعادل تعدادهم فى القرن الثانى عشر، وهذا ما اعتقده بلا خوف من الوقوع فى خطأ جسيم، لأن العدد زاد بسرعة فى خلال المائة عام الأخيرة، يتضح أن السكان الذين انتشروا قديماً فى الأرياف تجمعوا فى الأراضى الكبيرة؛ مما يعنى تدهور الزراعة فى ذلك الوقت. ومن الأمور المعروفة جداً، فى الحقيقة، أن الجانب الأكبر من الفلاحين فى صقلية يسكن بعيداً عن الأراضى الزراعية، أى إنه تهدر ساعات كثيرة من اليوم أو أيام كثيرة من الفصل الملائم للزراعة، وأن الجزء الأكبر من اراضى صقلية تنتج أقل بكثير مما يمكنها إنتاجه، هذا مع احتفاظها بكل الظروف الحالية الأخرى وهى ليست بالظروف الجيدة بالتأكيد. وفى رأيى أن هذا الانهيار الاقتصادى قد بدأ مع المضايقات التى اثيرت ضد المسلمين فى أواخر عهد جوليلمو الثانى؛ ثم ازداد رويداً رويداً بفعل الأحداث المتعاقبة، وقد عمل فدريكو الثانى الفيلسوف والمدبر الحكيم على دفع هذه الأزمة بقوة. وبالتأكيد لم تُشن حروب الفروب الصقلى بهدف تضميد ذلك الجرح الغائر؛ الذى اتسع اكثر فاكثر أثناء الفوضى الإقطاعية فى القرن الرابع عشر، وأصابته الفرغرينة ليصل إلى نقطة ميئوس منها تحت الحكم الأسبانى، وتحت حكم البارونات وامتلاك أوقاف كثيرة. وجيد أن نامل فى أن يؤدى نمو التجارة فى عصرنا وتزايد قيمة الأراضى

تعود إلى العصر الإسلامى والتى أطلقت بالطبع على النجوع والقرى او القلاع، إذ أن هذه الأسماء مركبة من الفاظ رحل، ومنزل، وقلعة. ومن ناحية أخرى، نستخلص عدد البلديات والقرى الحديثة من أخبار رسمية قد يكون بها بعض الأخطاء؛ ولكنها أخطاء تُعد على أصابع اليد الواحدة. كان فى صقلية، مع بداية هذا القرن ٣٥٤ بين مدن واراض ومنازل كما نقرأ فى مقدمة *Il Nuovo Dizionario geografico* إلخ الخاص بصقلية لجوزيبى إيمانويلى اورتولانى، بالرمو، ١٨١٩.

ويضم *Lo Stato Generale delle Poste*، بالرمو، ١٨٣٩، والذى تم فيه تصحيح تكرار الأسماء المتشابهة والأخطاء التى حدثت القرى على أنها بلديات، يضم ٣٥٧ بلدية و٢٠٤ قرية. وطبقاً لإحصاء عام ١٨٦١، كان عدد البلديات هو ٣٦١؛ والآن يبلغ عددها ٣٥٩ بسبب اعتياد الأعداد الصغيرة من السكان الانضمام إلى بلديات أكبر أو انفصالهم عنها.

بالإضافة إلى تزايد قوة الحياة الوطنية الجديدة، وجو الحرية الذى ننعم به، والقوانين المدنية الحكيمة، وتشجيع الدراسات ومناخ الأمن العام، إذا ما اتيحت فرصة تدعيمه، نأمل أن تؤدى كل هذه العوامل إلى عودة السكان إلى الأراضى الزراعية من جديد، بعد ان عانوا مشقات الحياة فى المدينة.

ويظهر تغير النسبة بين عدد سكان المدن وعدد الفلاحين، وهى صحيحة فى مجملها، ولكن دون تفاصيل، وقد استقيناها من مراجعة أسماء الأماكن، يظهر بمنتهى الدقة فى أراضى چاتو وكورليونى وكلاترازى، المذكورة من بين المائة والثلاثين مدينة وقلعة التى قام روچيرو بوصفها فى كتابه. ولما كان جوليلمو الثانى قد وهب هذه الأراضى إلى دير موريالى عام (١١٨٢)، فلدينا فى وثائق الهبة كل ما يخصها من معلومات عقارية، حيث يظهر واضحاً أن هذه الأراضى المتاخمة وهى ثلاثة كانت تضم ما بين خمسين قلعة ونجع. والمساحة التى تقدر بألف كيلو متر مربع تقريباً، مقسمة اليوم بين أراضى اثنى عشر بلدية، احتفظت منها بلدية كورليونى وحدها باسمها القديم(1): وهو الأمر الذى يبرهن على التقلبات الاجتماعية فى تلك النواحى من الجزيرة، ثم أن نسبة البلاد الثلاث الكبيرة مقابل الخمسين الصغيرة فى القرن الثانى عشر، والخمسين قلعة أو نجع آنذاك، مقابل الاثنى عشر بلدية فى وقتنا الحالى، لا يمكن بالطبع تطبيقها على كل المناطق الأخرى فى الجزيرة: وعلى الرغم من هذا كله، يجدر

(1) البلديات الحالية هى الآتية: بورجهتو، القرن الرابع عشر: باركو القرن السادس عشر (؟): سانتا كريستينا، القرن السابع عشر، چوردانو، القرن الرابع عشر: كورليونى، كامبو فيوريتو، القرن السابع عشر: كونتيسا، القرن الخامس عشر: روكامينا، القرن التاسع عشر: كامبوريالى القرن الثامن عشر: سان جوزيبى ياتو (أو دى موتيللى) القرن الثامن عشر: بيانا دى جريتشى، القرن الخامس عشر: فالجوارنيرا، القرن السادس عشر. تمت الاستعانة بتواريخ تأسيس البلديات أو القرى بـ *Dizionario topografico* لمؤلفه أميكو مع إضافات المترجم السيد دى مارتسو.
وبشأن مساحة الأرض، انظر ص ٥١٢ من هذا المجلد.

الانتباه إلى انه بهذه الطريقة قد يغدو ضئيلاً عدد الألف مكان المأهول بالسكان التى احتوت عليها أخبار العصور الوسطى، والذى قد يتضاعف أو على الأقل يزيد بنسبة النصف(1).

وإذا تناولنا منابع الثروة العامة، وفى مقدمتها الثروة المعدنية، فإننا ندرك النقائص والثغرات غير القليلة فى كتاب روچيرو. والكتاب يشير إلى الحديد الذى يستخرج من جبال مسينا ويصدر إلى البلاد المجاورة(2)، ويشير أيضاً إلى الملاحات فى ترابانى(3)، وإلى الصخور الصوانية فى أراضى كلاتوبو(4)؛ ولكنه يغفل منتجات تجارية أخرى مشابهة، ذكرناها عند الحديث عن الفترة السابقة، ومن غير

---

(1) يمكن القول. افتراضاً. أنه لو كانت ثلاثة بلاد من المائة والثلاثين بلد كبير فى القرن الثانى عشر قد قُسمت إلى خمسين تجمع سكانى أصغر، لكان مجموع هذه التجمعات ٢١٦٦ على امتداد كل الجزيرة؛ وأنه لو أن مساحة أراضى ١٢ بلدية قائمة حالياً كانت تضم فى القرن الثانى عشر خمسين تجمعاً من هذه التجمعات السكانية الصغرى. لكانت مساحة أرض الـ ٣٦١ بلدية فى عام ١٨٦١ يشغلها فى القرن الثانى عشر ما يزيد عن ١٥٠٠ تجمعاً. أنا لا أقصد تطبيق قاعدة الثلاثة على الخريطة الطبوغرافية المقارنة: ولكننا نلاحظ كيف أن النسب تؤكد الرقم الذى تم استخلاصه من قائمة الأسماء التى أتيح لنا جمعها. وأضيف إلى هذا أن الاختلاف الشاسع فى الظروف المتعلقة بالأعراق والطبوغرافية، والذى يستبعد فى حالتنا هذه صحة هذا النسب، لا يخلو أيضاً من بعض المميزات. على سبيل المثال فإن الأراضى الثلاث المذكورة، ومعظمها ينتج قمحاً، لم تكن تسمح بوجود مزارعين كثيرين بمقدار ما كانت تسمح به الحدائق فى المدن الكبيرة؛ ومن ناحية أخرى، فإن تلك الهضاب والتلال التى زرعها مسلمون كانت معرضة لتنقلات سكانية أكبر من التى شهدتها الجبال التى تكسوها الغابات بڤال ديمونى والتى سكنها المسيحيون بصفة مستديمة. لذلك تصبح عناصر الحساب أقل خطأ. وهو الأمر الذى لا يظهر جلياً للوهلة الأولى.

(2) المكتبة، ص ٢٤.

(3) المرجع المذكور، ص ٤١.

(4) المرجع المذكور، ص ٤٢. يميز الإدريسى بين نوعين من الصخور الصوانية: يدعى النوع الأول الصخور المائية والثانى *Fârisi* اى فارسية. وانا لا أجد هذا النوع عند القزوينى. وقد لاحظ صديقى العلامة الأستاذ ج. ج. چيميللارو، وهو جدير بالثناء لأبحاثه الهيولوچية الهامة عن صقلية. لاحظ بالقرب من كلاتوبو، والكامو وكلاتافيمى، تكوينات ممتدة من الحجر الرملى الذى يصبح صخراً صوانياً ممتازاً فى مناطق معينة.

المعقول أنها قد نضبت(1). وفضلاً عن ذلك فإنه لم يتحدث عن الكبريت والبترول. وهنا يمكن الاعتقاد بأن إغفال التقرير الرسمي لهما كان أمراً مدروساً، لإخفاء المكونات التى تدخل فى تركيب النار اليونانية على قدر الإمكان(2)؛ لأن أحمد بن عمر العُذرى او العَذرى قد وصف استخراج هذين المعدنين، والعذرى هو بالتحديد أحد كُتاب الجغرافية الذين ذكرهم الإدريسى فى مقدمته(3).

وطبقاً للمكان الذى ذكره أحمد، ونجده فى استشهادات كاتبين أكثر حداثة، فإن الكبريت الأصفر فى صقلية، وهو أفضل من أى نوع آخر يُستخرج من أى بلد آخر، كان يوجد فى إتنا، أو فى جزيرة فولكانو فى رأى آخر، وكان يستخرجه رجال متمرسون مهرة فى هذا المجال، وأحياناً كان يحدث أن يسيل الكبريت، فكان عليهم عندئذ حَفْر حُفَر له وعندما يتجمد السائل كانوا يقطعونه بالمعاول. ويضيف أحمد أن عمال المناجم كانوا عادة ما يتعرضون لسقوط شعر رؤوسهم وأظافرهم بسبب طبيعة ذلك المعدن الساخنة الجافة، على حد قوله، وفقاً للمعتقدات الفيزيائية فى ذلك الوقت(4). ويذكر أحمد معلومات أدق

---

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ من المجلد الثانى.

(2) لا تحتوى الأخبار على دلائل تشير إلى أن النورمان فى صقلية قد استخدموا النار اليونانية. مع ذلك يمكن افتراض هذا الافتراض، إن علمنا أن أسطول الزيريين بالمهدية كان على دراية بذلك السر، كما أن هنالك ما يدعو للاعتقاد بأن مسلمى سيراكوزا لم يجهلوه. انظر كتابنا الخامس، الفصل السادس والكتاب السادس، الفصل الأول، ص ١٦٧ و٣٦١ من هذا المجلد.

(3) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب، ص ٦٣٧ من هذا المجلد.

(4) هذه المعلومات التى أفاض فى ذكرها ابن شباط واوجزها القزوينى، نسبها الأول إلى أبى الحكم بن غلنده، ونسبها الثانى إلى أحمد بن عمر. وليست لدينا أعمالاً لهذين الكاتبين أو ترجمة لهما، اللهم إلا أن ابن شباط يقول عن أبى الحكم أنه يكمل مسيرة البكرى ويصرح بذكر نبذات موجزة عنه، وأن الإدريسى يذكر الكاتب الثانى من بين كُتاب الدراسات الجغرافية التى درسها الملك روجيرو. وعلى العكس من ذلك، تُعد المعلومات الخاصة باستخراج البترول أكثر استيفاءً ودقة فى القزوينى، الذى يذكر دائماً فقرات مأخوذة عن أحمد، دون أن يذكر أنه يقوم باختصارها. إن تطابق الأحداث والكثير من الكلمات لهو أقوى برهان على أن النص واحد. ولما كنا لا نعرف بعد كم جهل من البكرى قد علم ابن غلنده، وأنه من المؤكد أن أحمد قد كتب قبل عام ١١٥٤، فعلينا أن ننسب

عن «زيت النفط»: إذ قال إنه كان يتدفق فى شهر شباط(1) وفى الشهرين التاليين، داخل آبار معينة قريبة من سيراكوزا، وإنه كان يمكن الهبوط إلى داخل هذه الآبار بواسطة درجات، وكان الرجل يلثم وجهه ويسد فتحتى الأنف جيداً، لأنه لو تنفس داخل البئر لمات فى التو واللحظة؛ وإنه بعد أن يقوم الرجل بجمع السائل كان يترك فى أحواض، ومن ثم كان الزيت الذى يطفو على السطح يوضع فى أوانى وبعد ذلك يكون جاهزا للاستخدام(2). ويبدو لى هذا الوصف مقنعاً. غير أنه ربما تنقص البداية فى عملية استخراج الكبريت، ويتم الخلط بين الانصهار وحادثة حريق أحد المناجم. هذا وأرى إنه حدثت بعض الاخطاء فى تحديد المنطقة التى يوجد بها الكبريت. ويشير ابن غلنده بوجه عام الى المياه المعدنية في صقلية(3)، ولا يتحدث الادريسى الا عن المياه المعدنية بمدينتى سجستيا(4) وترمينى(5).

وفى مقابل ضآلة الصناعة التعدينية، نستطيع أن نذكر رخاء قطاع الزراعة، وهو الأمر الذى اكده كل الكتاب. كما اكده ذلك الرواج التجارى الكبير الذى شهدته صقلية فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ويسهب الأدريسى فى الحديث عن خصوبة أرض الجزيرة. كما إنه لا يغفل التفاصيل، إذ يشير بوضوح إلى الأراضى الممتدة

إليه الوصفين. طالما لم يصلنا دليل على عكس ذلك. وهكذا نعود الرواية إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر.

(1) يقابل هذا الشهر السورى شهر فبراير.

(2) قارن الروايتين فى **المكتبة**. ص١٤٢ و ٢١٠. وطبقا لرواية القزوينى. الذى يذكر نص أحمد بن عمر، فانه كان يتم فصل البترول فى أوعية تسمى الأجاجين، ثم يوضع فى القوارير. ويستخدم ابن غلنده، أو من قام بتلخيص مؤلفه، يستخدم فى التعبير عن الأوعية الأولى، لفظاً قراه قلهشر قصعه.

(3) **المكتبة**. ص ٢١٠.

(4) المرجع المذكور، ص ٤٢. فى ذلك الوقت كانت هنالك قلعة مشهدة بالقرب من الحمامات وكانت تدعى على اسمها قلعة الحما. وقد كتب الاسم فى وثيقة ترجع إلى عام ١١٠٠ *Calathammeth*.

(5) المرجع المذكور، ص ٣٠.

الصالحة للزراعة فى ثمانين قرية من بين المائة والثلاثين التى يذكرها. صحيح أنه لا يحدد أنواع المحاصيل، قمحاً كان أو أنواعاً أخرى من الحبوب أو البقول؛ وصحيح أنه فى بعض النقاط يلزم جانب العموم، كما يستخدم، من جملة المصطلحات الاخرى، مصطلحا مبهما يضارع فى لغتنا كلمة حاصلات زراعية. ويذكر أن طبيعة الارض الحارة فى ريف أنتشى تجعل الحصاد مبكرا عن بقية أراضى صقلية(1). وفى أكثر من ثلاثين قرية متفرقة عبر كل الجزيرة، يتحدث الإدريسى عن البساتين، أو الحدائق وعن وفرة الفواكه، ويشير إلى مزارع الكروم فى خمس منها فقط، وهى كارونيا وأوليفيرى، وحصن المدارج (كاستيلا مارى) وباتيرنو وكابيتسى؛ مما يؤكد ـ فى رأيى ـ أن زراعة العنب كانت ضئيلة فى صقلية على مدار ذلك القرن، إلا اننى لا أعتقد بأى حال من الأحوال أنها كانت تقتصر على الأماكن المذكورة فقط(2). ولعل الكاتب قد قصد الحديث عن زراعة العنب أيضاً عندما كان يذكر الحدائق بصفة عامة؛ وفى اعتقادى أن الشئ نفسه ينطبق على مزارع الزيتون، فلم يذكرها الإدريسى إلا فى وصف بنتلاريا(3).

---

(1) المكتبة، ص ٣٥. يبدو لى انه، فى ذلك الوقت كما هو الحال اليوم أيضاً، كانت هناك مدن عديدة على سفح إتنا الشرقى تحمل اسم الشى. حيث إن المدينة مذكورة فى النص العربى لـ ى ١ ج *Liåg*، ويبدو منها اسم انشى واضحاً جلياً، ومسبوقاً بأداة التعريف الإيطالية لجمع المذكر. راجع الكتاب الثالث، الفصل الرابع، فى المجلد الثانى، ص ٨٨، هامش ١.

(2) المرجع المذكور، ص ٣٢ و٤٩ و٥٩ و٦٢. راجع الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٧ من المجلد الثانى.

(3) المرجع المذكور، ص ٢٤. بالتأكيد لم تكن صقلية تنتج كميات كبيرة من الزيت فى العصور الوسطى. انظر الإشارة التى ذكرناها فى هذا الشأن الاقتصادى فى الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٧٥ من المجلد الأول؛ وارجع إلى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ من المجلد الثانى. ولتذكر بصفة خاصة وثيقة عام ١١٢٤ فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٧٥ وفيها يُصرح لدير السلفاتورى فى مسينا تصدير ٢٠٠ حِمل من القمح إلى افريقية *"ad emendum oleum et reliqua necessaria eis, quae in Africa sunt"* وفى وثيقة ترجع إلى عام ١٢٤٩، فى كتاب

ومن ناحية أخرى فإن زراعة الكروم والزيتون التى ذكرها فالكاندو(1) بصورة جلية يمكن أن نفترض ازدهارها، وليس مجرد بدايتها فى نصف القرن الذى يفصل بين هذين الكاتبين. ويذكر فالكاندو كذلك حقول الخضروات فى بالرمو. وآلات ريها(2)، ولما لم يكتف بقوله إن الحدائق «كانت تنتج كل أنواع الفواكه»، فهو يفرد مكاناً لذكر أندر الأنواع بالنسبة لشخص قادم من وراء جبال الألب(3)، بينما لم تكن كذلك بالنسبة للإدريسى. وقد راح هذا، كما اعتقد، يحدد ويصنف الأنواع التى يفضلها السوق، فذكر كارينى فقط التى كانت تُصدر إلى بلاد كثيرة المكسرات والفواكه المجففة مثل اللوز والتين والخروب(4). وكانت أراضى سان ماركو تنتج الحرير بكميات وفيرة(5)؛ كما كان يتم تصدير كميات وفيرة من الكتان من نوعية ممتازة من مدينة ميلاتسو(6)، وكان يُزرع بكثرة فى اراضى مروية فى جلاتى(7)، ويمكن أن نضيف إليها كذلك أراضى راجوزا(8). ويقول الإدريسى إن زراعة القطن كانت منتشرة ومعروفة للغاية فى أراضى بارتينيكو، وكذلك زراعة نبات الحنة وهو نبات يستخدم فى الصياغة

مونجيتورى *Sacra Domus Mansionis... monumenta* يأتى ذكر مزرعة زيتون سان جوفانى دى ليبروزى بالقرب من بالرمو، المتاخمة للأراضى المزروعة بالنخيل.

(1) فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٤٠٨.

(2) فى كتاب كاروزو، الموضع المذكور.

(3) المرجع نفسه. كانت توجد فى البساتين زراعة الخيار والبطيخ والشمام: وفى الحدائق كان هناك الرمان، والبرتقال، وأشجار النارنج، وأشجار الليمون والبندق واللوز والتين والخروب.

(4) المكتبة، ص ٤٢.

(5) المرجع المذكور، ص ٣٢.

(6) المرجع المذكور، ص ٣٣.

(7) المرجع المذكور، ص ٦٥.

(8) وثيقة سيلفسترو كونت مارسيكو، الصادرة فى عام ١١٤٠، فى كتاب دى جروسيس، *Decacordum*، كاتانيا، سنة ١٦٤٢، الجزء ١، ص ٧٧.

ويستخدمه العرب بكثرة، فضلاً عن زراعة أنواع أخرى من البقول(1)؛ ونستدل من إحدى الوثائق على وجود زراعة للقطن أيضاً فى الأراضى المجاورة لكتانيا وذلك فى عهد الملك روجيرو(2). أما عن الحنة والنيلة فنعرف أنه كان هناك تفكير فى عهد الإمبراطور فدريكو لزراعتهما فى فاڤارا (الفوارة) بالقرب من بالرمو(3). وربما امتنع الإدريسى، المعتاد على السفر إلى أفريقية والشرق، عن ذكر مزارع النخيل فى بالرمو؛ غير أن أوجو فالكاندو تلافى النقص فى روايته(4)؛ ومن المعروف جيداً أنه فى القرن الثالث عشر كانت هناك عناية كبيرة بحدائق النخيل التى كانت تمتد من فاڤارا حتى شاطئ أوريتو(5)، وأنه فى عام ١٣١٦ قطع الجنود الانجويين الذين قدموا لحصار المدينة ذلك النخيل(6)، الذى لم يتبق منه الآن سوى النذر

---

(1) **المكتبة**، ص ٤٣. يسمى العرب نباتات البقول، القطنية وفى صيغة الجمع القطانى؛ ويعضد لانى هذا الرأى، *Lexicon*، الكتاب الأول، ص ٤٤٠، العامود الثانى، تحت مادة، *giullugiân*. وفى معجم *Vocabulista in arabico*. ص ٥٢٢، تحت مادة *vicia*. وتطلق المخطوطة العربية، باريس، *Ancien Fonds*، ص ٧٨، ورقة ٦٩٦ وجه ثان نفس الاسم **أيضاً** على البقول التى كان يتغذى بها فى أيام الصوم رهبان دير مونتى نيجرو، بالقرب من انطاكية. انظر أخيراً كتاب **رياض النفوس**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، رقم ٧٥٢، ورقة ٥٠ وجه أول.

(2) وثيقة عام ١١٤٠، التى ذكرناها فى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٩ من المجلد الثانى، هامش ٥. كان القطن يزرع فى بوليا وفى صقلية فى أوائل القرن الرابع عشر، كما يشهد بذلك مارينو سانوتو *Secreta Fidelium Crucis*، الكتاب الأول، الجزء الأول، الفصل الثانى.

(3) وثيقة ١٥ ديسمبر ١٢٤٩. عند برهولز، *Hist. Diplom. Friderici II*، المجلد الخامس، ص ٥٧١ وما بعدها.

(4) فالكاندو، فى كتاب كاروزو، المرجع المذكور، ص ٤٠٨.

(5) وثيقة عام ١٢٤٩، المذكورة منذ قليل.

(6) نيكولو سبيشالى، الكتاب السابع، الفصل التاسع و*Anonymi Chronicon Siculum*، الفصل ٣٦. فى دى جريجوريو *Biblioteca aragonese*، المجلد الأول، ص ٤٧٣ والمجلد الثانى، ص ٢٠٧. ويشار إلى بساتين النخيل فى فاڤارا فى وثائق عدة فى أكاديمية ماچونى *Commenda della Magione* من عام ١٢٥٨ وحتى ١٢٦٧. ويخبرنا مورتيللارو بهذه التواريخ فى *Elenco delle pergamene della Magione*، ص ٣٧ وما بعدها وص ٤١، ٤٢ وما بعدها وص ٥٢ و٥٤ و٥٧. ومن الملاحظ أنها أراضى

اليسير المتناثر هنا وهناك.

ولابد من الإشارة إلى أن الكاتب قد أغفل زراعة قصب السكر وصناعة السكر ونسى ذكرهما نسياناً واضحاً. ولما كان يتم استهلاك سكر صقلية فى عاصمة أفريقية وبالتحديد منذ النصف الأول من القرن العاشر(1)، وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، فإن فالكاندو لا يشير إلى قصب السكر فحسب، وإنما أيضاً إلى صناعة المولاس وإلى تكرير السكر(2). وتذكر وثيقة من القرن الثانى عشر معاصر قصب السكر(3)، وتوضح إحدى وثائق القرن الثالث عشر الاهتمام والعناية التى كان يوليها الامبراطور فدريكو لتجديد معامل تكرير السكر فى بالرمو(4). واستمرت زراعة قصب السكر وصناعة السكر فى صقلية حتى أكثر العهود تدهوراً فى تاريخها الاقتصادى(5)؛ ومن غير

ممنوحة فى بساتين النخيل، ومعظمها مخصصة لزراعة الكروم. وتشير وثيقة أخرى ترجع لعام ١٣١٦، نُشرت فى الجزء نفسه، ص ٢١٤ ـ ٢١٦ إلى بستان النخيل نفسه الذى كان يمتد حتى الجسر المعروف بجسر الأميرال.

(1) إن الافتراض الذى أوردته بالفعل فى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٦ من المجلد الثانى، هامش ٢، تؤكده طُرفة نقرؤها فى رياض النفوس مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، رقم ٧٥٢: وهى طُرفة غابت عنى عندما تصفحت تلك المخطوطة القيمة الثمينة، وقد نقلها لى صديقى العلامة الأستاذ دوزى بعد فترة قصيرة. كان أبو الفضل وهو فقيه شهير من فقهاء القيروان الأصوليين الذين كانوا يمقتون أشد المقت الدولة الفاطمية الجديدة، ارجع قطعة حلوى كان قد أهداها إياه احد الأصدقاء، لأنه ظن أن الفطيرة قد أعدت بسكر صقلية، وهو نتاج أراضى منحها للمغتصب، ولذا كان المتشككون المدققون يعتبرونه محصولاً من أصل غير شرعى فلا يمكن شراؤه أو قبوله هدية.

(2) فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٤٠٨.

(3) وثيقة أغسطس عام ١١٧٦، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٤٥٣.

(4) وثائق بتاريخ ٢٨ نوفمبر و١٥ ديسمبر ١٢٣٩، مذكورة فى هذا الكتاب، الفصل الثامن، ص ٦١٨ من هذا المجلد.

(5) تناول جريجوريو هذا الموضوع فى كتيب أعيد طبعه فى ص ٧٥٢ وما بعدها من طبعة عام ١٨٥٢، وفيه نقرأ أن زراعة السكر احتفظت بأهميتها فى صقلية حتى نهاية القرن الخامس عشر؛ ثم تدهورت فى القرن السادس عشر، عندما عُرفت فى العالم الجديد زراعة قصب السكر، ويُقال أن هذه الزراعة قد انتقلت من صقلية إلى جزر الكنارى، واندثرت تماماً فى أوائل هذا القرن. وقد شهد مارينو سانوتو فى كتابه،

المعقول أن تكون هذه الصناعات قد أدخلت إلى البلاد فى عهد الملك روچيرو. ولا يتحدث الإدريسى كثيراً عن الغابات: فهو يذكر «البنيت» *Binit* فى بوكيرى، ويشرح كيف تقابل فى العربية غابة الصنوبر(1)؛ ويشير إلى القطران وإلى القار الذى كانت تصدره آتشى(2)، وإلى تجارة الأخشاب الواسعة فى رانداتسو(3)، وإلى بناء السفن فى سان ماركو باستخدام الأشجار التى تقطع من تلك الجبال(4). أضف إلى هذا طبقاً لرواية عالم جغرافيا من القرن الثانى عشر وعالم آخر من القرن الثالث عشر، الصمغ من بنتلاريا المستخرج من شجيرات الصمغ الصغيرة والاصطرلك العطرى(5). أما زراعة البرتقال والموالح الأخرى والتى لم ينبس الإدريسى عنها بكلمة، فقد ذكرها فالكاندو باستفاضة مستشهداً بوثيقة من القرن الحادى عشر وبالشعراء العرب الذين تغنوا بمدح الملك روچيرو(6).

Secreta Fidelium Crucis، الكتاب الأول، الجزء الأول، الفصل الثانى لإنتاج السكر فى صقلية فى أوائل القرن السادس عشر. ونجد معلومات أكثر استفاضة لدى برتولوميو دى بازى، فى كتابه *Tariffa de' pesi e misure*، إلخ، ڤينيسيا، ١٥٤٠، الورقة ٦٠ الوجه الثانى، والورقة ١٥٢ الوجه الثانى والورقة ١٨٧ الوجه الأول وفى أماكن أخرى كثيرة. وفى كتاب *Pratica della Mercatura* لنيكولو الأوزانى (١٤٤٢). فى كتاب بانينى *Delle Decima*، إلخ، المجلد الرابع، ص ١٦٢ و١٩٥. وفى رأيى أن جريجوريو لم يعلم بأمر هذين الكتابين القيمين عن التجارة فى إيطاليا واللذين يبرهنان على الدور الذى لعبته صقلية فى هذا المضمار.

(1) المكتبة، ص ٥٧.

(2) المرجع المذكور، ص ٣٥.

(3) المرجع المذكور، ص ٦٤.

(4) المرجع المذكور، ص ٣٢.

(5) الزهرى وابن سعيد، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ١٥٩ و١٢٤. يذكر الكاتب الأول أن صقلية كانت تصدر الجوز وأبو فروة إلى افريقيا، فضلاً عن تصديرها كميات كبيرة من القطن والاصطراك والمرجان إلى دول عدة. وترجع هذه الأخبار إلى القرن الثانى عشر وهى مأخوذة من مخطوطة الزهرى، الورقة ٤٥ الوجه الثانى والورقة ٤٦ الوجه الأول حينما كان الكاتب يوجد بالقرب من غرناطة عام ٥٣٢ هـ (١١٢٧). ولذلك ينبغى تصحيح الخبر الذى ذكرته عن الزهرى فى المقدمة، فى ص ٨٣ من المجلد الأول.

(6) انظر الفصل السابق ص ٧١٦ من هذا المجلد، والكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٦ من المجلد الثانى.

أما بشأن الرعى، فكما هو الحال بالنسبة للزراعة، علينا ألا نتجاهل إغفال ذلك الكاتب للأخبار، أو اكتفاءه بالإشارة إليها من بعيد: حيث أنه لا يشير إلى المراعى أو إلى قطعان الأغنام ولا إلى قطعان الماشية، إلا فى الفصول التى تحدث فيها عن مالطة(1)، وعن رحل المرات(2)، ومينيو(3)، وجوليزانو(4)، ومونتاليانو، ومانچابا(5) وجلاتى(6). ولكننى أرى أنه لا داعى من الإتيان بأدلة تثبت أهمية هذا القطاع من النشاط الزراعى فى صقلية فى القرن الثانى عشر: يكفى أن نذكر وثيقة الإمبراطور فدريكو التى تشهد كيف كان بيت المال، فى عهد جوليلمو الثانى، يؤجر للمسلمين عدداً كبيراً جداً من الماشية بنوعيها المستأنسة وغير المستأنسة(7). ومن ناحية أخرى يعوض بيترو ديبولى النقص فى كتاب روچيرو، فيمدح فى قصيدته الجياد الصقلية الأصيلة، التى كان يمتطيها فى هيبة وجلال نبلاء سالرنو(8): إذ نرى فى القرن الثانى عشر استمرار السلالات التى حظيت بالمدح والإشادة فى القرن الحادى عشر(9). وتدفعنا العناية التى كان يوليها الإمبراطور فدريكو لتربية الجمال فى مالطة

---

(1) المكتبة، ص ٢٤.

(2) المرجع المذكور، ص ٤٦. طبقاً للمسافات عند الإدريسى، كانت هذه الأرض، الخربة حالياً، تقع وسط البلدتين الحديثتين فيتا وروكامينو فى وسط فال دى مازارا.

(3) المرجع المذكور، ص ٥٧.

(4) المكتبة، ص ٦٣.

(5) المرجع المذكور، ص ٦٥. انظر الهامش ٧، ص ٧٣٢ من هذا الفصل، بشأن هذه الأرض التى ربما لم يتغير سوى اسمها.

(6) المرجع المذكور، ص ٦٥.

(7) وثيقة ٢٥ ديسمبر عام ١٢٣٩، المذكورة سلفاً فى الفصل الثامن من هذا الكتاب، فى ص ٥٨٢ من هذا المجلد، الهامش رقم ٢. انظر لدى برهوللز، *Historia Diplomatica*. إلخ، المجلد الخامس، ص ٥٠٤، ورسالة أخرى بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٢٣٩، بشأن قطعان ماشية من أملاك الدولة كانت تؤجر للمسلمين المراسنة.

(8) انظر الاستشهاد الخاص ببيترو ديبولى، فى الفصل السادس من هذا الكتاب، ص ٥٢٩ من هذا المجلد، الهامش رقم ١.

(9) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥٧ من المجلد الثانى، هامش ٢ ـ ٣.

إلى الظن بأن تلك الحيوانات كانت لاتزال منتشرة فى مالطة(1). وعلى حد قول الإدريسى، كان يتم انتاج العسل فى مالطة وكلتاچيرونى ومونتالبانو(2).

كان مرجان ترابانى عالى الجودة يحتل المرتبة الأولى بين المنتجات البحرية، ويلاحظ وفرة بل «غزارة كمية الأسماك التى كان يتم صيدها من هذه المياه» على حد قول الإدريسى. ونذكر من هذه الأسماك سمك التونة الكبير، كما يسميه، وكانت له شباك واسعة كبيرة(3). ويذكر بالمثل شباك سمك التونة على سواحل بانّى سجستانى(4): ويذكر كذلك شباك الصيد التى كانت تستخدم فى صيده فى ميلاتسو(5)، والكميات الكبيرة التى كانوا يصطادونها فى اوليڤيرى(6): والشبكة الملقاة فى البحر أمام كارونيا(7). وسمك التونة الذى كان يتم صيده من ميناء ترمينى أو ميناء ترابيا لا أعرف على الوجه التحديد(8). وهو لا يشير إلى فرد الشباك لصيد التونة لا على الساحل الشرقى او على الساحل الجنوبى، ولا حتى إلى صيد الأسماك الصغيرة فى بحار أخرى سوى بحرى ترابانى وكتانيا.

---

(1) وثيقة بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٢٣٩، لدى برهوللز. *Historia Diplomatica*، إلخ، المجلد الخامس، ص ٥٢٤. هذه الرسالة موجهة إلى شخص يدعى باولينو من مالطة، وكان قد أرسل، بناءً على أمر الإمبراطور، ثمانية جمال إلى كابنشاتا وأبقى على ثلاثة منها فى مالطة لكى يحافظ على تكاثر السلالة.

(2) المكتبة، ص ٢٤ ـ ٥٥ ـ ٦٥.

(3) المكتبة، ص ٤١.

(4) المرجع المذكور، ص ٤٢.

(5) المرجع المذكور، ص ٣٢.

(6) الموضع المذكور.

(7) المرجع المذكور، ص ٣٢ ـ ٦٥.

(8) المرجع المذكور، ص ٣٠. يذكر النص، بعد وصف ترابيا، بالمحل (فى المذكر)، أو قد نقول «ضاحية»، يذكر أنه كان يتم صيد التونة من «مينائها»؛ والمفترض أنه يقصد ترمينى التى تناولها بالحديث قبيل هذا، وأطلق عليها فى المؤنث *Kala't*، أى «حصن ـ قلعة». غير أنه يتم صيد سمك التونة اليوم من ميناء ترابيا وليس من ترمينى، لذا يُفترض خطأ النص فى نوع الضمير وليس تحول مسار تلك الأسماك.

ويتحدث أيضاً عن الراى الذى كان يظهر فى الربيع فى نهر ترمينى(1)؛ وعن الأسماك الكبيرة والشهية التى كان يوفرها نهر سيميتو(2)؛ وأنواع أخرى عديدة ووفيرة كان يتم صيدها من نهر لنتينى وإرسالها لكل مكان(3)، وأسماك نهر سالسو، السمينة ذات المذاق الطيب(4). ويبدو أن نهر أوريتو الفقير فى موارده كان هو أيضاً وفير الصيد بالمقارنة بحاله اليوم، إذ كان الإمبراطور فدريكو يطالب لصالح بيت المال بحاجز لصيد الأسماك أقامه سراً رهبان ترينيتا دى بالرمو(5).

والتريبعة التى تقابل فى معناها «المربع» وقد حولناها إلى ترابيا، كانت بمثابة بيت ريفى أنيق ورغد على حسب وصف الإدريسى: فقد كانت ينابيع المياه الكبيرة التى تتدفق هناك عند سفح الصخرة،

---

(1) المرجع المذكور، ص ٣٠. قام م. دى ساسى، فى ترجمة عبد اللطيف، ص ٢٨٥ وما بعدها، بكتابة هامش مسهب للغاية عن سمك الراى فى مصر. ومنه ننتهى إلى أن هذا النوع لا يشبه أى سمك آخر فى أنهار أوربا. كما لا يعطيه م. جوفروا دى سانت هيلار اسماً أوربياً فى *Histoire naturelle des poissons de l'Egypte*. (وصف مصر، التاريخ الطبيعى، الجزء الأول، ص ٥٠). وإن كان السيد دى جورج يترجمه إلى سلمون فى ترجمة الفصل الذى تحدث فيه الإدريسى عن إفريقية، ويستشهد كذلك بالفقرة المذكورة قبلاً فى **المكتبة العربية - الصقلية**. فإنه يقصد بالترجمة النوع وليس الفصيلة. أقصد نوع *Salmo*. وهو واسع الانتشار فى نظام لينيو وأيضاً نظام كوفييه: وليس المقصود فصيلة *Salmo vulgaris*. إلخ. المعروفة جداً فى أوربا باسم سالمونى أو سرمونى، سومون، سلمون، لاكس، إلخ. ربما يتعلق الأمر هنا ببعض أصناف من السلمونيات (سمك التروتة) وهو ليس بنادر فى أنهار صقلية. يُلاحظ أن لفظ سلمون الذى يعرف به سمك السلمون فى مصر (انظر بقطر تحت لفظ «سومون» و*Dizionario arabo e italiano* بولاق، سنة ١٨٢٢، ص ١٧١ و٢١٢)، نجده تحديداً عند الإدريسى، بصفته اسم النهر المسمى حالياً جافاريللو الذى ينبع من منف فى صقلية ويصب شرق ميناء بالو، **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥١.

(2) **المكتبة**، ص ٢٥.

(3) المرجع المذكور، ص ٣٦. يتحدث الإدريسى بوضوح عن النهر ولا يشير أبداً إلى البحيرة: التى ربما لم تكن موجودة آنذاك: والتى بالتأكيد لم يتم توسيعها إلا حديثاً.

(4) المرجع المذكور، ص ٢٩.

(5) وثيقة بتاريخ ١٢ مارس ١٢٤٠، كتاب برهوللز. *istoria Diplom. Federici II*. المجلد الخامس، ص ٨٢٠.

تحرك طواحين كثيرة؛ وكانت هناك أبنية واسعة مخصصة لإعداد مكرونة إطرية أو بمعنى أوضح المكرونة وبصفة خاصة الفرميتشيللي(1). وكانت تشحن بها بواخر وترسل إلى كلابريا وإلى مدن أخرى كثيرة يقيم بها مسيحيون ومسلمون(2)؛ ومن هنا يتضح كيف كانت الصناعة الأهلية تضاعف من قيمة ما ينتجه النشاط الزراعي وتمثل مورداً لمزيد من الأرباح للتجارة والنقل البحرى.

وهناك معلومات أخرى قليلة نستخلصها من الإدريسى بشأن الصناعات الأهلية، وهى معلومات تخص الحرفيين وأصحاب الخانات على حد سواء، والأسواق التى استرعت انتباهه فى مدن وأراض عديدة(3). ثم يشير أيضاً إلى مهارات فنية أخرى أظن أنه من بين من يمارسونها من نطلق عليهم اليوم فنانين وذلك فى جرجنتى ومازارا والكامو ونارو وكاستروجوفانى وراندانسو(4)؛ وكما هو معلوم للجميع أنه إذا كان الكاتب لم يتحدث عنها فى وصف المدن الرئيسة، فربما لأن الأمر كان يبدو له غير ضرورى؛ كما لا يجب أن ننسى أنه ما كان ليبغى أبداً إعداد جداول إحصائية دقيقة بالمسطرة والفرجار كما نفعل نحن. ولكنه كان يبغى بالأخص التباهى والتفاخر بأناقة اللغة والأسلوب. لذا فعلينا أن نبحث عن التفاصيل فى كتابات أخرى أو

---

(1) فى بالرمو تتميز المكرونة الطويلة غير المثقوبة، والتى يطلق عليها فرميتشيللى دى تريا بأنها رفيعة إلى حد كبير. انتقل ذلك المصطلح إلى الأسبانية أيضاً وهو *eletria*، ونجده عند دوزى وانجلمان. *Glossaire, etc.* ويفسر القاموس مصطلح *itria* على أنه «طعام من الدقيق على شكل خيوط». وكانت الضريبة على هذا النوع من المكرونة تشكل جزءاً من الحقوق الضريبية فى عهد النورمان. انظر جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الأول، الفصل الرابع، هامش ٢١.

(2) المكتبة، ص ٣٠.

(3) انظر فيما تقدم ص ٧٧٤.

(4) جذر هذا اللفظ هو «صنع»، وتُشتق منها المفردات *darsena* دار الصناعة، *arsenale* الترسانة، إلخ، وتشتمل دوماً على فكرة الصنعة والفن، بقدر لا يقل عن فكرة العمل المادى ويتحدث الإدريسى عن هؤلاء الصناع، من حرفيين أو فنانين، فى وصف المدن المذكورة فى صفحات ٣٩ و٤٠ و٤٩ و٥٢ و٦٤.

فيما بقى من صناعات يدوية هامة وصلت لحسن الحظ إلى أيامنا هذه. وحتى الوقت نفسه الذى تم فيه جلاء المسلمين عن صقلية، نرى فى ميلفى وكانوزا ولوتشيرا، نجارين، وعمال تطعيم، وصناع أسلحة، وحرفيين فى مجال المشغولات الحديدية الدقيقة، ومعلمين آخرين، مسلمين، يدفع لهم الإمبراطور فدريكو رواتبهم إلى جانب عامله القائم على أحد مراكز إعداد وتكوين المتخصصين فى حرفة ما. فضلاً عن عماله المختصين برؤوس الجمال، وبصناعة رؤوس الفهود للطراقات والمنجنيق، إن صحت قراءتى(1).

ولدينا أيضاً أسماء هؤلاء وأولئك المرصعين ويبدو أن جميعهم صقليون(2). ويبدو أن لفظ ترصيع نفسه، وهو عربى صرف، قد انتقل من صقلية إلى شبه الجزيرة الإيطالية، مما يدلل أفضل من قول أى كاتب على أن ذلك الفن قد ازدهر أولاً فى الجزيرة. وإن لزم الأمر وجود شهادة أخرى، فلدينا عُلب حُلى مطعمة وبها نقوش كتابية عربية مازالت محفوظة فى صقلية(3): وإن كان لايزال هناك أى شك،

---

(1) وثيقة بتاريخ ٢١ فبراير ١٢٤٠. فى كتاب برهوللز. *Historia Dipl. Federici II.* المجلد الخامس، ص ٧٦٤. نقرأ بعد البير *et Tabaccorum*: وهو لفظ، غير معلوم فى اللغة اللاتينية فى العصور والوسطى، مما دعا العلامة برهوللز إلى التفكير فى أن الأمر يتعلق بحيوانات أخرى، أطلق عليها هذا الاسم الذى قد يكون مأخوذاً من لفظ عربى أو فارسى. وأرى أن أقرب لفظ إلى الصحة هو الآتى: *et Tabuccorum*. وقد تحدثنا فى موضعه عن *trabucchi* أى عن المنجنيق الذى كان يستخدمه سراسنة لوتشيرا حتى نهاية القرن الثالث عشر.

(2) وثيقة بتاريخ ١٥ أبريل ١٢٤٠، فى كتاب برهوللز، الجزء المذكور، ص ٩٠٥. والمرصعون هم: المُعلم جوفانى، المُعلم جريكو وعبد الله الخادم. ويذكر معهم معلم اسمه فيكاردو *tappetarius* ويبدو أن هذا الألمانى كان خادماً وليس صانع سجاد، إذ كان العمل المنسوب إليه هو ترجمة حرفية للكلمة العربية «فراش» التى وردت فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣٢ من هذا المجلد، هامش رقم ٢.

(3) على سبيل المثال، صندوق الحلى المزخرف فائق الجمال الخاص بكنيسة بلاتينا فى بالرمو وعُلب عديدة من العاج الممشق وواحدة منها خاصة بدير سان مارتينو دى سكاليس الذى تم إلغاؤه، وهى محفوظة الآن فى متحف بالرمو الملكى. ويعتقد العالم م. دى لونجبيريه *(Revue archéologique)* لعام ١٨٦٥، وعنوان مقاله: *(Vase arabo-Sicilien de l'œuvre Salémon)* يعتقد أن علبة الحلى العاجية

فيمكن أن نكشف عما تبقى من كتابتين ونقشين كبيرين ورائعين على الرخام الأبيض بأحجار كريمة ملونة على طريقة ما يسمى اليوم بالفسيفساء الفلورنسى(1)، وليس ثمة فرق بينه وبين الترصيع على الخشب أو العاج سوى ما يتعلق بالمادة المستخدمة. لقد عرفت صقلية فى القرن الثانى عشر، كما هو معلوم للجميع، فن المشغولات على الرخام السُماقى ولا تدل عليه فقط الأضرحة الملكية فى كاتدرائية بالرمو، وإنما أيضاً الزخارف الكثيرة فى الكنائس النورماندية، بالإضافة إلى إحدى المشغولات الدقيقة بالغة الصعوبة: وهى كأس عميقة مخصصة للشرب، مزودة بمقبضين، وكانت محفوظة فى كنيسة بالاتينا فى بالرمو حتى أوائل القرن الرابع عشر(2).

ومن يعى كم هى حديثة هواية جمع أدوات المائدة التى ترجع إلى العصور الوسطى، سوف يجد لى عذراً إن كنت فى هذا الفصل الخاص بالصناعة فى صقلية، اتطرق إلى الموضوع ليس دون إثارة بعض الشكوك، ثم انتقل إلى موضوع آخر. إن الجرار وأباريق الفخار هى جرار وأباريق من بالرمو من صقلية دون أدنى شك، وهى تتنوع فى أحجامها وأشكالها، ولكنها غير متقنة الصنع، وبعضها مزود بغطاء ثابت به ثقوب، ومعظمها استُهلك داخل الأفران. ولعلى استنتج أنه تم العثور على عدد قليل

الموجودة فى كاتدرائية بايوه هى أيضاً صناعة صقلية والعلبة مزينة بقطع من الفضة فضلاً عن نقوش ذهبية. وأعمال ترصيع وتتميز العلبة بكتابة محفورة بالعربية.

(1) أهدى القصر الملكى إلى متحف بالرمو الملكى أولى هذه القطع: أما القطع الأخرى فهى معشقة كلها فى وضع مقلوب فى البوابة الكبرى بكنيسة البشارة دى كاتالانى فى مدينة مسينا وكذلك فى إحدى نوافذ تلك الكاتدرائية. وقد قمت بنشر هذه القطع فى *La Rivista Sicula* عدد أغسطس ١٨٦٩. المجلد الثانى. ص ٩٢ وما بعدها وص ٩٩ و١٠٠.

(2) لا ترد استشهادات عن الجزئين الأولين. وفى قائمة جرد كنيسة بالاتينا، لعام ١٢٠٩ (رقم ٤٢، *Tabularium, etc.*)، نقرأ فى ص ١٠٢: *"Item cannatam unam de porfido cum manicis, munitam in ore de argento deaurato"* ونقرأ فى قائمة جرد أخرى، مذكورة بالهامش رقم ٢٠ فى الوثيقة نفسها: *"Phiale de porfido cum manicis vacua"*. وكلمة Cannata فى لهجة صقلية تعنى أبريق كبير من الفخار، مزود بمقبض وعلى الجانب المقابل بوز يستخدم فى صب النبيذ.

منها أثناء هدم كنيسة سان جاكومو لا مارينا فى بالرمو عام (١٨٦٤)، ثم تم استخراج بضع مئات منها من فوق قباب المارتورانا، أثناء العمل فى تجديد هذا المبنى القيم الذى يرجع إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر. ويعتقد الفنيون أن وجود هذه المادة الخام غير المألوفة كان معاصراً بالضرورة لوجود المصانع الأولى. ومهما كانت جودة هذه الصناعة، فإننا نلحظ فى تلك الأوانى الفخارية نقلاً غير متقن لأقوال مأثورة وزخارف ونقوش عربية، ولهذا فإنها ينبغى أن تنسب إلى الأزمان التى كانت تحتفظ فيها الجماعات الإسلامية بلغتها، ولعلها ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثانى عشر أو ربما أيضاً إلى القرن الثالث عشر(1).

واتفق فى الرأى مع المتخصصين فى مجال الخزف فى العصور الوسطى والحديثة، أنه كان هناك بصقلية منذ عهد المسلمين مدرسة للخزف. على الرغم من أننى لا أثق بالكامل فيما يقوله بائعو القطع الأثرية الذين يعرّفون هذه أو تلك القطعة(2) بتاريخ وموطن

(1) قد يكون المهندس جوزيبى باتريكولا هو الذى قام بنشر رواية العثور على هذه الأوانى بكل تفاصيلها، وهو يعمل بلا كلل أو ملل فى تجديد كنيسة جورجو الأنطاكى الأثرية، ويزيل ما أضيف إليها ويخلو من أى جمال أو ذوق ويعود إلى العصور اللاحقة. أعتقد أن العبارة العربية التى أرادوا محاكاتها هى: لله الملك وهى عبارة شائعة جداً فى الأدوات الإسلامية، وهى العبارة نفسها التى نقرؤها على أوانى مازارا والتى سوف نذكرها فى الهامش رقم ٣.

(2) انظر ماريات، *A History of pottery etc*، لندن عام ١٨٥٧، الطبعة الثانية، ص ١٤ وما بعدها، وديمين، *Guide de l'amoateur des faiences etc*. الطبعة الثانية، باريس عام ١٨٦٣، ص ٢٠٨ وما بعدها، وللمؤلف نفسه، *Histoire de la Céramique en planches phototypiques*، باريس، تحت الإعداد للنشر.

وفى هذا العمل الأخير والذى يتميز بالصور التوضيحية، يتناول ديمين *Livraison 13 pl. 25*، المدرسة «الصقلية الإسلامية». ولسوء الحظ فإن إناء المطارة النفيس جداً والذى يعود، طبقاً لراى المؤلف «إلى ما بعد فتح روجيرو النورماندى عام ١٠٥٨»، وتظهر حول عنقه كتابة باللغة العربية ومعناها «المجد للمنتصرين»، لا يعود هذا الإناء إلى عصر النورمانديين؛ ومن ثم فإن النقش الموجود وهو جلى جداً فى الشكل، لا يقول شيئاً. فهو ليس إلا حرفى الألف واللام وحروف عربية أخرى ضاع شكلها، وهو إن دلّ على شئ إنما يدل على قدم أو اندثار أو غياب اللغة العربية فى البلد التى صُنع فيها هذا العمل. وربما يرجع العمل إلى القرن الخامس عشر، مثل العمل الآخر فى الشكل نفسه ومثل عمل آخر فى الصورة رقم ٢٦.

محدد، غير أننى استطيع أن أقول إن من أقيم المصنوعات التى رأيتها على الإطلاق، إناءى مازارا الرائعين ويبدو لى أنهما من أسبانيا، سواء من الجزر الأسبانية أو من شبه الجزيرة نفسها(1). ثم أنه من الضرورى أن أنفى نسبة بعض القوارير العربية الأنيقة جداً المخصصة للصالونات والصوانات والتى قد يمتقد لأول وهلة أنها صقلية الصنع، لأنها كانت شائعة جداً فى مجموعات صقلية ونادرة فى غيرها من المجموعات فى أوربا. ويبدو أن التاريخ المكتوب على معظم هذه الأوانى يعود إلى أوائل القرن الرابع عشر. وكانت البقية الباقية من المسلمين قد خرجت من صقلية قبل ثلاثة أو أربعة أجيال، وإن كانت قد بقيت تقاليد صناعاتهم وفنونهم، فلقد تلاشت اللغة ولم تعد تُذكر أو حُجب أصلها(2).

---

(1) رأيت هاتين الزهريتين فى مازارا، عام ١٨٦٨. والزهرية الأولى كانت فى بيت النبيل الوقور السيد جوفانى بورجو دى كونتى بالاتينى. والثانية فى حجرة الأوانى المقدسة بكنيسة مادونا ديل براديزو، وهى كنيسة صغيرة تقع عند بوابات المدينة. والزهريتان مصنوعتان من الفخار المطلى بالقيشانى، وكل واحدة يتجاوز ارتفاعها حوالى متر وهى مزودة بمقبضين وتنتهى بشكل مدبب مثل الجرات العتيقة.
وتتشابه الزهريتان إلى حد كبير سواء فى الشكل أو فى الصنعة. ولكنهما تتشابهان فى الشكل فقط مع الإناء الشهير الذى يطلق عليه الهمبرا. وفى منتصف الزهرية نقرأ بحروف كوفية كبيرة وجميلة «لله الملك». وحول عنق الزهرية التى يمتلكها بورجو يتكرر اللفظان «رخاء وتمام» بشكل غير محدد: وهى الأمنية المعتادة التى تظهر فى الكتابات الزخرفية، سواء فى صقلية أو فى غيرها من الدول الإسلامية وتظهر كذلك وبوضوح تام فى إناء الهمبرا وإن كان مع تعديل بسيط. وحروف هذه الزهرية حروف نسخ وليست حروف كوفية: كما تختلف أيضاً فى توزيع النقوش الزخرفية وفى لون الطلاء، وهو اللون الأخضر، والأبيض والذهبى، هذا بينما تظهر بوضوح على الخلفية البيضاء فى أوانى مازارا الحروف والتصميمات بلون بنى مخضب ولامع وكأنه أحد المعادن.
(2) شاهدت نحو مائة من هذه الأوانى، فى مجموعات المتحف الملكى فى بالرمو، ومتحف دير سان مارتينو وبيت ترابيا. والمجموعات المنتقاة الخاصة بالأستاذ سالهناس، وبمتحف بيسكارى فى كتانيا، وبيت بيبولى فى ترابانى. وعلى الرغم من تنوع الأشكال. ودرجات اللون وهو الأبيض دائماً فى الخلفية، وتنوع الزخارف والنقوش وكلها جميلة ذات ذوق عربى أصيل، فإن هذه الأدوات تكون مجموعة تمتاز عن أية صناعة خزفية قديمة، خاصة بالعصور الوسطى أو بالعصر الحديث. ويرجع ذلك إلى الرقة المتناهية والخفة التى تجعلها تبدو كأنها صُنعت من الورق إن جاز هذا القول. ولقد فقد عدد قليل

ونرى فى متاحف صقلية، كما فى متاحف أوربا الأخرى كافة، أقداحاً من البرونز أو النحاس من تلك التى يستخدمها المسلمون فى الشرب، وأحواض كبيرة أو صحاف من نفس المعادن، ولكن ليس من دليل يدعونا إلى اعتبارها تنتمى إلى الصناعة الصقلية، بل على العكس، فإنه إذا كانت مثل هذه القطع ترجع ـ كما هو معتاد ـ إلى القرن الثالث عشر، والرابع عشر والخامس عشر. وحيث أنها تشبه تماماً تلك القطع المعروفة جداً فى سوريا ومصر، يصبح من الممكن أن نفترض وصولها إلى صقلية من خلال التجارة، كما حدث فى مناطق أخرى فى إيطاليا، وبالأخص فى إقليم توسكانا(1). ومع ذلك نستخلص أن

من بين الأعداد الكبيرة التى رأيتها العلامة الدالة على محل الصُنع: بينما وجدت فى الأدوات الأخرى ثمان طرق تشير إلى مكان الصنع، وكان التاريخ فى معظمها ممسوحاً فى حين ظهر اسم الصانع أو النوعية التى تسمى عمل طين، طين محتوى. أو ما يمكن أن نقوله كاتمة (طينة غير مسامية) وطين عملى (أى طينة مشكلة). وفى أدوات أخرى يظهر اسم إبراهيم، وفى غيرها اسم بالمى ولا أعرف إن كان هذا اسم علم أم اسم مكان. وبالرغم من أن بالما، الواقعة بين كابودى سكالبتا وكابودى سانت ألهسيو، مكتوبة فى مخطوطات الإدريسى بطريقة تحتم قراءتها بالمى، فيبدو لى أنه لا يمكن التفكير فى هذا المكان سواء بسبب التاريخ الحديث الموجود على الأوانى، أم لأن الصلصال المحتوِى بها، كما استخلص من الأستاذ العلامة المجتهد ج. ج. جيمللارو، لا يمكن إطلاقاً أن يُستخدم فى صناعة أوانى غير مسامية، وهو فى ذلك يماثل صلصال شكًا وجرجنتى الذى يستعمل فى صنع الأوانى المسامية الخاصة بتبريد المياه، مثل الدورق فى مصر. ويتعين على أن أنبه إلى أن م. ديمين نشر صورة إحدى هذه الجرار فى كتاب *Histoire, etc* السابق ذكره. (اللوحة ١٢، صورة ٢٢، بين أوانى مصرية متعددة تعود إلى عهود بعيدة جداً، وبدون ذكر تاريخ، فلقد نسبها مباشرة إلى صناعة قنا (مصر العليا). وأسمح لنفسى أن أضيف، مع الاعتذار للكاتب، أنه، حسبما أرى فى الصورة الواضحة جداً والمطبوعة طباعة تصويرية، فالإناء ليس عليه أية علامة صناعية، ربما لأنه قد تم ترميمه بعد تحطمه، كما سبق أن رأيت فى العديد من هذه الأوانى فى صقلية.

(1) كان وجود الأقداح النحاسية ذات الكتابات العربية مألوفاً للغاية فى مدينة فلورنسا حتى عام ١٨٦٠: فلقد كان الكثيرون من أصحاب المحال يحتفظون فيها بالعملات المعدنية. وكان بائعو الآثار يبيعونها بسعر منخفض؛ وكانَ استخدام هذه الأقداح على ما يبدو ضارباً فى التاريخ فى توسكانا. ونقرأ فى حياة سان رانييرى، *Acta Sanctorum*، الجزء الثالث، ٤٤٨ (١٧ يونيو)، أن امرأة من بيزا اسمها دالهتا أحضرت إلى رانييرى *"urceolum opere saracenico factum"* راجية الرجل الصالح أن يبارك للمياه الموجودة به. ولقد توفى سان رانييرى عام ١١٦٠.

مسلمى صقلية كانوا يقومون بتشغيل المعادن بجودة ومهارة عالية. ويمتلك متحف اللوفر إبريقاً صغيراً من النحاس، على شكل طاووس مكتوب على صدره العبارة الآتية: *Opus Salomonis crat*، مسبوقة بصليب، وتحت هذه العبارة، مكتوب باللغة العربية، صنع عبد الملك النصرانى، اى المسيحى. وعالم الآثار الذى عرض هذا الإبريق يرجعه إلى القرن الثانى عشر وإلى صقلية، سواءً بسبب شكل الحروف، أم لتواجد العبارتين اللغويتين وكذلك بسبب ارتداد الصانع المسلم، وأيضاً بسبب تشابه هذا الابريق مع اباريق أخرى تنتمى إلى الفن العربى ـ الصقلى. وإضافة إلى هذا يدلل الكاتب من خلال امثلة كثيرة على أن «صنع سليمان» كان يعنى حينذاك «صناعة دقيقة». ويؤكد أن شفاطا رفيعاً لايزال يتبقى أثر منه، كان مثبتاً على ظهر الطاووس حتى يتسى دخول الهواء من الشفاط عند صب الماء من المنقار ومن ثم إحداث صفير(1). وتعرض قاعة القطع الأثرية بباريس كاساً من البرونز مطعمة بخيوط من فضة تكون أشكال حيوانات وزخرفة ذات طابع عربى، ويحمل الكاس فى الدوائر الثلاث المعتادة، بدلاً من الأقوال العربية المأثورة، شعار أحد رؤساء أساقفة موريالى فى القرن الرابع عشر: وقد أحسن العلامة واضع الكتالوج إذ يعزو هذه القطعة الأخيرة إلى المدرسة العربية بصقلية(2). ونرى فى هذه القطع البرونزية الباريسية رمزاً للمرحلتين الأخيرتين التى مرت بهما الصناعة العربية الصقلية: المرحلة الأولى عندما تحول المسلمون إلى دين المنتصرين وتعلموا لغتهم الرسمية، دون أن يكفوا عن ممارسة لغتهم الأصلية: أما المرحلة الثانية فكانت عندما احتفظ

---

(1) *Vase arabo-Sicilien de l'œuvre Salèmon,*. تاليف م. ا. دى لونجربير. *La Revue Archéologique*. عام ١٨٦٥.

(2) شابوييه *Catalogue générel des Camées etc. exposés dans le Cabinet des médailles et antiques*. باريس، ١٨٥٨، رقم ٣١٩٤، ص ٥٤٨. وصاحب الشعار هو باولو دا روما، رئيس اساقفة موريالى (١٢٧٩ ـ ١٢٩٣)؛ ومن هنا يمكن اعتبار الكاس مصنوعاً فى بالرمو.

المسلمون بأصول فنهم حتى بعد أن تغيرت لغتهم ودينهم إلى أن اجتذبهم فى القرن السادس عشر النجم الأكبر الذى كان يبزغ فى سماء شبه جزيرة إيطاليا.

سبق أن أشرنا إلى الطراز الملكى فى بالرمو(1)، وكانت تُنسج فيه المفروشات الحريرية وتطرز، كما يؤكد فالكاندو(2) بالتحديد. وإن لم تكن قد خرجت إلى النور، بعد صدور المجلد الثانى من كتاب التاريخ هذا، دراسة عميقة على صور شعارات الامبراطورية الجرمانية القديمة التى تحتفظ بها ڤيينا، لما قدمنا عنها الآن سوى لمحة سريعة: ومعظم هذه المجموعة عبارة عن تطريزات وأقمشة صنعت فى صقلية(3). وتدعونا المعلومات الوفيرة إلى تناول هاتين الصناعتين كل على حدة، وإلى العودة إلى ما قبل الفترة التى تناولناها بالحديث فى الكتاب الرابع.

يبدو لنا، بما لا يدع مجالاً للشك تقريباً، أن الحُلة التى أهداها متمرد بوليا الكبير إلى الإمبراطور أريجو الثانى، هى من صنع طراز بالرمو، ونحن نشاهد بإعجاب هذه الأيام ما تبقى منها فى كاتدرائية بامبرج(4). وبالفعل يشبه التصميم فى مجمله التصميم الخاص برداء الملك روچيرو، ويعود رسم القبة السماوية، المصورة على الرداء مع بعض الإشارات الفلكية، يعود بالتحديد إلى الدراسات الإسلامية وإلى الطابع الإسلامى الخاص بذلك القرن، على الرغم من أشكال

---

(1) فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣١ وما بعدها من هذا المجلد.

(2) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٤٠٧: *"Nec vero nobiles illas palatio adhaerentes silentio praeteriri convenit officinas, ubi, in fila variis distincta coloribus, serum vellera tenuantur, et sibi invicem multiplici taxendi genere coaptantur... in quibus et sericis aurum intexitur et multiformis picturae varietas, gemmis interlucentibus, illustratur"*

وكما هو واضح للجميع، لا ينقص سوى التسمية العربية طراز.

(3) بوخ (الدكتور فرانز) *Die Kleinodien des heil. romischen Reiches deutschen Nation* ڤيينا، ١٨٦٤.

(4) فى ملحق المرجع المذكور، ص ١٩١ وما بعدها، رقم ٦١، شكل رقم ٦٤.

وصور القديسين التى تتخلل مجموعة الكواكب والنجوم تقديراً للشخص الورع الذى صنع من أجله الرداء. كما نلحظ أيضاً البصمة الأجنبية الواضحة فى الكتابات اللاتينية التى تبدل مكان بعض حروفها، وقلبت بعض حروفها الأخرى(1). وبالإضافة إلى هذا لا يوجد أى دليل دامغ نفترض على أساسه وجود طراز فى مدينة أخرى بإيطاليا(2)، وليس هناك ما يدعونا للبحث عنه فى إفريقية أو فى أسبانيا، بينما هو موجود بصقلية وبينما نعرف علاقة هؤلاء المسلمين (١٠١١) مع ميلو أو إسماعيل، كما يظهر الآن يقيناً، من الاسم المكتوب على الرداء(3). ويأتى بعد ذلك حسب الترتيب الزمنى رداء الملك روجيرو(4) الشهير جداً، وعليه تاريخ ٥٢٨ من العام الهجرى (١١٣٣): والحُلة من الحرير الأبيض، الموشى بخيوط طويلة أرجوانية وخيوط ذهبية وكتابة طويلة مطرزة بلغتين، تذكر باللاتينية والعربية ألقاب

---

(1) نقرا فى أسفل الصفحة، بحروف دقيقة واختصارات: *Descriptio totius orbist* *tpax ismaheli qui hoc ordinavit;* وحول محيط الحُلة نصف الدائرى، تظهر كتابة بحروف كبيرة كثيرة الزخارف. *in O Deus Europae cesar Heinrice beare,* *(augeat) imperium (imperium) ibti (tibi), rex qrenwirne (qui regnat aevum)* ومن بين العبارات المكتوبة عبارة مكتوبة تحت برج السرطان: *Hoc sidus Caucbi fert noctoa mundi* قام الناشر العالم فى سهولة ويسر بتصحيحها إلى السرطانات. غير أننى قد لا أجد حرجاً من حذف هذا التصحيح ومن ثم أقرا فى هذا المكان اللفظ العربى كوكب «نجم» مكتوباً بحروف لاتينية. وأنا أتخيل أن المطرز العربى، رأى نجماً ولم يفهم الاسم، وبالتالى قرأه بالعربية. كما قرأ البحارة الإيطاليون على سبيل المثال، نجرو بونتى فى كلمة Εὔρειπος.

(2) كان التطريز يتم فى كل أنحاء إيطاليا قبل مجئ المسلمين إلى صقلية، غير أن مادة *ricamo*، المأخوذة دون شك من العربية تفسح المجال للاعتقاد بأن الصقليين اتقنوا هذا الفن ونشروه فى باقى أنحاء إيطاليا بعد القرن الحادى عشر. وليس هناك سبب يجعلنا ننسب إلى الأسبان اللفظ الجديد والتطور الذى شهده هذا الفن كما يتضح من اللفظ. وفضلاً عن هذا، فإنه فى الطراز الإسلامى، كانت تنسج أيضاً الأقمشة الحريرية: وليس لدينا أى شاهد على صناعة هذه الأقمشة فى شبه جزيرة إيطاليا قبل القرن الثالث عشر.

(3) انظر كتابنا الرابع، الفصل السابع، ص ٣٤٨، من المجلد الثانى. ويحسم الآن اسم إسماعيل، المطرز على الرداء، المسألة.

(4) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٣٢، الهامش رقم ٦.

جوليلمو الثانى وعام ١١٨١(1)، وأغطية الساق الواقية وتحمل اسم والقاب الأمير نفسه مطرزة بحروف عربية(2). والناشر، الذى درس افضل من اى علامة أوربى آخر، الحلل الكنائسية فى العصور الوسطى، ينسب أيضاً إلى النساجين المسلمين فى صقلية، قفازات الحرير الأحمر الموشاة بالذهب، ومشدى وسط للسيف: ونعلين غنيين بالزخارف والرداء الذى يطلق عليه رداء اوتونى الرابع، وأعمال أخرى لا تحمل تاريخاً ولا حروفاً عربية، ولكن ما بها من زخارف وكذا تصميماتها تتفق مع ما كان ينتجه «الطراز» فى بالرمو(3). ولا يسعنا أن نقول فى هذا الصدد إلا أن فضل العمل يعود بالتساوى إلى مسلمى صقلية وإلى اليونانيين، إذ تخبرنا الأخبار بأمر صناع وعمال طيبة وكورنثوس، من الرجال والنساء، الذين اقتيدوا أسرى إلى بالرمو، وهم بالتأكيد لم يبدأوا هذه الصناعة، غير أنه لا يمكن إنكار ما كان لهم من فضل فى إتقان هذه الأعمال(4). وفى النهاية يجدر بنا أن نذكر التطريز بالحروف العربية وأشكالها على الكفن الذى دفن به الإمبراطور فدريكو: ومن هنا فإن الدلائل المادية على ذلك الفن تصل

---

(1) بوخ، المرجع المذكور، اللوحة السابعة، الصورة رقم ٩، والنص ص ٣٢ ـ ٣٥. أشير إلى أنه فى هذه اللوحة وفى اللوحة الرابعة والعشرين، لا أرى بوضوح الكتابة التى قرأتها بصورة جلية، فيما خلا كلمتين فى النهاية، على ورق شفاف بديع أرانى إياه السيد بوخ، عام ١٨٥٨ فى باريس. وأنا لا أتفق بشأن هاتين الكلمتين وبعض الكلمات الأخرى مع كتابة وترجمة الدكتور بهرناور التى نُشرت فى كتاب بوخ.

(2) المرجع المذكور، اللوحة الثانية عشرة، الصورة رقم ١٥، ١٦ وص ٥٦ وما بعدها.

(3) المرجع المذكور، اللوحة الرابعة، الصورة رقم ٦؛ واللوحة الثامنة، الصورة رقم ١٠؛ واللوحة العاشرة، الصورة رقم ١٢؛ واللوحة الثانية عشرة، الصورة رقم ١٥، ١٦ وص ٣٦ وما بعدها، وص ٤٩ وما بعدها، وص ٥٦ وما بعدها، وص ٦٠، ٦١، ٦٥ من النص. انظر يضاً فى اللوحة الثالثة واللوحة الثلاثين، وفى ص ١٥٢، رداء أزرق اللون مزين بخيوط وأغطية للكفن حمراء مطرزة بالذهب ترجع إلى القرن الثانى عشر، على حد قول الكاتب العلاّمة، واعتقد أيضاً أنها صناعة صقلية.

(4) انظر إلى استشهادات نيتشيتا كونياتى وتشينامو واوتونى دى فريزينهى، فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤١٨، الهامش ٢.

حتى منتصف القرن الثالث عشر(1).

أما بخصوص الأقمشة المصنوعة فى بالرمو، فإن الأدلة المادية والشهادات المكتوبة تزودنا بتفاصيل وفيرة جداً، حتى إنها تستحق دراسة فنية متخصصة وليس مجرد عرضها عرضاً مثل هذا. يكفى إذن أن نذكر أقمشة الحُلل المطرزة، التى تحدثنا عنها منذ قليل وبطاناتها، وكلها من صنع صقلية، على حد قول كاتب الوصف؛ وهى منسوجات فنية تظهر عليها أشكال حيوانات ونباتات بارزة من الذهب وألوان مختلفة، وتشبه فى صناعتها قطع القماش التى مازالت موجودة فى كاتدرائيات بالرمو وتشيفالو، والتى نشر المولف بعض أشكالها(2). ثم هناك الأكفان التى شوهدت فى المقابر الملكية فى كاتدرائية بالرمو، عندما أتاح تجديد الأثر فتحها(3). نقرأ فى أخبار تيليزى أنه، فى احتفالات تتويج الملك روجيرو، كانت أسوار القصر تكسوها الأقمشة الفاخرة وحتى أصغر الخدام كانوا يرتدون الحرير(4). وفى النصف الثانى من القرن نفسه، يشهد فالكاندو على تنوع الأقمشة الحريرية التى نُسجت فى القصر الملكى وطُرزت بالذهب واللآلئ، وكذلك كميات الأقمشة الأجنبية والأغطية الصوفية التى كانت تُباع فى حارة أهل أمالفى داخل كسارو دى بالرمو(5)؛ ويلاحظ ابن جبير بذخ وترف ثياب السيدات المسيحيات فى تلك

---

(1) دانيال، *I regali sepolcri del Duomo di Palermo*، اللوحات، *C. F. R.*: جريجوريو، *Discorsi* الفصل السادس والسابع والثامن، فى طبعة سنة ١٨٥٣؛ ص ٦٩٨ وما بعدها، وفى *Rerum Arabicar.*، ص ١٧٨ وما بعدها. انظر أيضاً لانشى، *Simboliche rappresentanze*، المجلد الثانى، ص ١٧٩، اللوحة الخمسون، رقم ٤. وقد تناولت بالبحث الراى الخاطئ الذى أدلى به جريجوريو فى هذا الموضع، فى مقدمة للكتابات العربية فى صقلية، *Rivista Sicula*، عدد فبراير سنة ١٨٦٩، ص ٩٢ - ٩٤.

(2) بوخ، المرجع المذكور، ص ١٤٩ و ١٥٠ و٢٠٧.

(3) انظر الاستشهادات المذكورة منذ قليل فى الهامش رقم ٤ ص ٨٠٠، وبصفة خاصة *Le Dissertazioni* المبحثين السابع والثامن لجريجوريو.

(4) فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٢٦٧.

(5) فى كتاب كاروزو، المرجع السابق، ص ٤٠٧.

العاصمة وأيضاً السيدات المسلمات اللاتى كن يتباهين بها. كما يقال الآن(1). وتذكر خيمة كبيرة من الحرير يمكن أن يجلس بها مائتا شخص على مائدة الطعام، والتى طلبها ريكاردو قلب الأسد من الملك تانكريدى، فضلاً عن كنوز أخرى، بعد أحداث الشغب بمسينا(2). وتذكر الأشعار الفرنسية القديمة السِّمط، واقمشة بالرمو الحريرية(3). هكذا توضح الوثائق الصقلية، حين تذكر تلك الطرق وغيرها الكثير المتبعة فى صناعة الأقمشة المشغولة أو المطرزة، توضح حجم النشاط التجارى الكبير ونمو الصناعة الأهلية(4). وهذا ما تؤكده أيضاً مسميات الرسوم التى فرضها ملوك النورمان والزفيڤيون(5)؛ بل إن اللهجة الصقلية تشهد على نشأة وأهمية تلك الصناعة، إذ تدعو النساجين عموماً باللفظ

---

(1) *Journ. Asiatique*، عدد يناير ١٨٤٦، ص ٨٢.

(2) *Gesta regis Henrici*، طبعة ستوبس، لندن، ١٨٦٧، الجزء الثانى، ص ١٣٢؛ وروجيرو دى هوفدين، طبعة ستوبس، لندن، ١٨٧٠، الجزء الثالث، ص ٦١: الذى تجده أيضاً فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٩٦٠.

(3) يذكر فرنسيسك ميشيل، *Recherches sur... étoffes de soie etc*، باريس، ١٨٥٢، الجزء الأول، ص ١٧٢، أبياتاً من *Romans d'Alixandre*، ومنها نقرأ:

D'un semit de Palerme vermeil ou vermenus

وفى ص ٢١٠، المجلد نفسه، نقرأ الأبيات المأخوذة أيضاً من *Romans d'Alixandre*، والتى تصف رمية رمح على قدر كبير من القوة حتى أن سن الرمح نفذ من الدرع ودخل الرمح بكامله، و

Parmi le cors li met l'ensegne de Palierne

(4) كنيسة بالتينا ببالرمو عام ١٨٣٥، فى حصر محتويات حجرة الملابس الكهنوتية بكنيسة إفريقيا (اى المهدية، ١١٦٠)، ص ٣٤ وما بعدها؛ وفى الحصر الخاص بكنيسة بالرمو، عام ١٣٠٩، ص ١٠١ وما بعدها. ولعل الراغب فى أن يستكمل درب العلاّمة الفرنسى المذكور فى الهامش السابق، يجد فى هاتين الوثيقتين وصف أقمشة كثيرة واسماءها ويميز نسيج معظمها بأشكال وصور حيوانات. حتى أنه هنالك أيضاً نسور براسين. وتوجد كذلك حُلل «عليها حروف سراسينية» وحُلل قماشها مضلع، وحُلل أخرى «صنعت فى أسبانيا»: وحُلل لتداخل الوانها وذات أهداب. إلخ.

(5) انظر الوثائق التى ذكرناها فى الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٢٣٠ من هذا المجلد، هامش رقم ١. كان *Domus setae* يُعد من الأقمشة القديمة، اى من العصر النورماندى، وكذلك *la dohana paliariorum*.

العربي *careri* (حريري)(1)، وقد تدهورت صناعات الحرير فى صقلية مثل كثير من غيرها من مصادر الثروة العمومية، فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ويرجع هذا إلى الأسباب العديدة التى اشرنا إليها؛ ونذكر من بينها هجرة المسلمين. وكانت مدينة لوكا هى أولى المدن فى شبه الجزيرة الإيطالية التى جمعت تراث صقلية، ثم نافستها فى ذلك كل من فلورنسا وفينسيا وجنوه؛ وقد نقل فنانون إيطاليون هذه الصناعة الفنية إلى ليون وتور وإلى مدن أخرى فى فرنسا. ولكن ظل تصدير الأقمشة الحريرية هو المصدر الرئيسى للتجارة فى صقلية حتى القرن السادس عشر(2).

وطوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت صقلية تذخر بكل أنواع الصناعات اللازمة لصناعة الملابس وأيضاً لإنتاج مستلزمات

---

(1) هكذا يدعى بالعربية صناع أو تجار الحرير. واليوم تكتب *hariri* حريرى، غير أن هناك أمثلة كثيرة فى العصور الوسطى تثبت أن حرف الـ ح العربى كان يحبذ استبداله بحرف الـ *c* اللاتينى. ويأتى لفظ *flugello* أيضاً من الشرق. انظر *Journ. Asiat.* عدد أبريل ومايو من عام ١٨٥٧، ص ٥١٧.

(2) انظر التفاصيل الخاصة، بأصل الصناعات الفرنسية، والدور الذى لعبه الإيطاليون فيها، فى كتاب فرنسيسك ميشيل، المرجع المذكور، الجزء الثانى، ص ٢٧٠ وما بعدها؛ حتى ص ٢٧٨؛ وكذلك المعلومات الخاصة بتجارة الحرير بين إيطاليا وفرنسا فى الجزء نفسه، ص ٢٦١ وما بعدها. يذكر الكاتب العلامة، من بين المصادر الأخرى، ترجمة فرنسية قديمة لـ *Rerum Memorabilium* من تأليف جويدو بانشيرولو؛ ولكنه يخطئ فى نقطتين لأنه ينسب إلى كلابريا امرأ يروى عن مدينة ريجو فى إقليم إميليا، كما ينسب إلى خزانة البندقية مبلغ المال الذى كانت تربحه المدينة وفقاً لرأى بانشيرولو. ها هى الترجمة اللاتينية التى قام بها انريكو سالموث التى تحل محل النص الإيطالى الذى لم ينشر على الإطلاق. واستشهد بالفقرة من طبعة امبرج، ١٦٠٨، المجلد الثانى، ص ٧٢٩، فى فصل *"De textis sericis"*.

يقول بانشيرولو: *"Annis abhinc 50 in tantum excrevit textura ista, ut veneta duntaxat regio, singulis annis, 500 millia et vel sola mea patria, quae Rhegium est, 10,000 aureorum, plus vero etiam multo Sicilia inde lucratur: ac uno verbo dicam artificium hoc tamquam unicus jam mercatoribus nervus sit lucri et certissimum laborantium fulcimantum."*

ولد بانشيرولو، وهو خبير قانونى عظيم الشأن، ومعروف أيضاً بنقده السليم فى علم التاريخ، ولد فى مدينة ريجو بإقليم إميليا عام ١٥٢٣؛ وتوفى وهو يعمل استاذاً فى بادوفا عام ١٥٩٩؛ وقد كتب تلك الدراسة المتعمقة، فضلاً عن دراسات اخرى كثيرة، من أجل احد أمراء عائلة سافويا، التى دعته إلى جامعة تورينو.

الترف والبذخ، إذ أنه من المؤكد أن الصناعات تتداخل وتتكامل. فتدعم صناعة ما صناعة أخرى، وغالباً ما ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً بحيث يصبح من الصعب فصلهما. وهكذا ففى مدينة شهيرة بالأقمشة الحريرية تحمل الضريبة المفروضة على قوس القطن(1)، ويبدو لى أن المقصود ضرب أو دق البراعم لاستخراج القطن، تحمل على الاعتقاد بأن المقصودة هى الأنوال لنسج خيوطه. ولدينا شواهد دقيقة على المصابغ(2) وعلى صناعات الجلود المذهبة، التى كانت تستخدم فى صناعات عديدة وبالتحديد فى صنع أحذية السيدات(3). وترجع القفازات الحريرية المشغولة بالأبرة التى تم العثور عليها فى ضريح أريجو السادس. ترجع هى أيضاً إلى الصناعة الصقلية(4). وما من شك فى أن المشابك المطلية والمشغولات التى تكسوها طبقة من الذهب، والتى زُينت بها بعض ملابس الأباطرة، كانت من صنع صاغة بالرمو: وهم أنفسهم الذى صاغوا تاجى الإمبراطور فدريكو وزوجته الأولى كوستانسا داراجونا(5).

---

(1) فى كتاب جريجوريو. *Considerazioni*. الكتاب الأول. الفصل الرابع. الهامش ٢١. مقتطفات من عدة وثائق ترجع إلى أعوام ١٢٦٦، ١٢٧٠، ١٢٧٤، ١٢٨٠، ١٣٠٩. ولا تدع عبارة *"artis cuthonis"* الموجودة بوثيقة عام ١٣٠٩ أى مجال للشك: ومع ذلك اعتقد أن العبارة الأولى أفضل. وطبقاً لما جاء فى الوثيقة. كانت تدفع فى بالرمو ضريبتان مختلفتان. ***caha cuctonis*** و*cuctonis (arcus?) arca*. وكان ولايزال لفظ ***Ka'ah*** يستخدم فى مصر ومعناه صالة. وقاعة وهرواق» أرضى. ويتحدث المقريزى فى كتاب **المواعظ**. طبعة بولاق. الجزء الثانى. ص ٤٨ عن قاعة الذهب فى القاهرة. أى تلك التى كان يُشد فيها المعدن لصناعة الأقمشة الحريرية والمذهبة.

(2) جريجوريو. الهامش المذكور لتوه. وثيقة عام ١٢٧٤.

(3) يتحدث ابن جبير عن الأحذية المذهبة الخاصة بنساء بالرمو: ونقرا عن ***la cabella auripellium*** فى وثيقة عام ١٢٧٤ المذكورة للتو.

(4) جريجوريو. *Discorsi VI, VIII*. ص ٧٠٨ و٧٣٤. فى الطبعة المذكورة. عام ١٨٥٣. قارن بوخ. *Kleinodien*. المرجع المذكور. اللوحة الثامنة. الصورة ١٠. ص ٢٧ ـ ٢٨.

(5) بوخ. *Kleinodien*. ص ١٥٣: وانظر ص ١٤٤. قارن جريجوريو. *Discorsi VI, IX*. ص ٧١٠ ـ ٧١١ ـ ٧١٨ من طبعة ١٨٥٣ المذكورة. ونلاحظ أن الزينة التى وجدت على جمجمة الإمبراطورة كوستانسا محفوظة حالياً ضمن كنز الكاتدرائية. ويتعين ترجمة العبارة المحفورة على الجوهرة الرئيسة فى التاج. والتى أخطأ تهشمن فى ترجمتها.

ولا ينافي الحقيقة فى شئ أن تكون صقلية قد عرفت صناعة الورق فى الفترة الزمنية التى نتناولها بالبحث، وإن لم يكن لدينا دليل يثبت ذلك. ومن المعروف أن العرب هم الذين جلبوا إلى الغرب ورق القطن المصنوع فى خراسان على غرار ورق الصين الذى كان يصنع من الحرير أو النباتات(1)؛ كما أنه لا سبيل للشك فى ظهور صناعات ورقية فى أسبانيا وبصفة خاصة فى اكساتيفا، حيث كان يصدر منها الورق إلى الشرق والغرب على حد قول الإدريسى(2)، فى النصف الأول من القرن لثانى عشر. ولعل صمته عن صناعة الورق فى وصفه لصقلية، يمثل حجة خطيرة فى مواجهة اعتقادى، لو لم نكن قد وجدنا فى هذا الفصل نفسه ولمرات عديدة أن البراهين والأدلة السلبية التى استندت على كتابه، كانت فى كثير من الأحيان تفتقر إلى الصحة. ونحن نخلص إلى أن الوثائق النورماندية الصقلية فى أواخر القرن

وكرر جريجوريو الخطأ ثم كرره مورتيللارو مع شئ من الاختلاف فى *Opere*. المجلد الرابع، ص ١٠ ـ ١١. يتعين ترجمتها، وفقاً لرينو إلى «بالله » عيسى بن جابر » يؤمن». إذ يبدو واضحاً أن تلك الجوهرة صنعت فى الأصل لمسلم.

(1) وبهذا الخصوص يقدم كتاب **الفهرست**، النص. ليبزج، ١٨٧١، ص ٢١ وفى *Mémoires de l'Acad. des Inscript.* السلسلة الأولى، المجلد الخمسين، ص ٤٢٤ وما بعدها؛ ومقدمة ابن خلدون، طبعة باريس، المجلد الثانى، ص ٢٥٠: وكتاب **المواعظ** للمقريزى، طبعة بولاق، الجزء الأول، ص ٩١ يقدم معلومات مستفيضة، ولكنها غير أكيدة وأيضاً متناقضة. وفضلاً عن هذا، نعرف أن ورق الصين كان يُصنع من الحشيش (*hascisc*) وقد تمت محاكاته فى سمرقند باستخدام الكتان أو، وفقاً لراى اخرين، القطن، وإن *Kaghed* الكاغد، اى ورق القطن، صنع فى خراسان، غير أنه لم يتم استخدامه فى سجلات إدارة شئون المسلمين، إلا فى عهد هارون الرشيد. ويبدو أن هذا النوع من الورق قد بدأ يظهر وينتشر فى أوربا فى ذلك الوقت.

وتستحق القراءة المقالة الشعبية التى نشرها م. لويس فياردو فى باريس، قبل عشرين عاماً فى *Liberté de penser*. تحت عنوان:. *L'Europe doit aux Arabes le papier, la boussole et la poudre à canon.*

(2) الإدريسى فى *Description de l'Afrique et de l'Espagne*. ص ١٩٢ من النص، السيدين دوزى ودى جوييه. وص ٢٣٥ من الترجمة. انظر أيضاً فى كازيرى، *Bibl. arabo-hispanica*. وصف مخطوطات عربية كثيرة من اسبانيا كتبت على ورق مصنوع من حرير القز.

الحادى عشر، حتى تلك الخاصة بمنح الأراضى، قد كتبت على ورق من القطن؛ إذ أنه، فى أقل من نصف قرن، أراد الملك روجيرو تجديد كل سندات الملكية؛ بسبب أو بحجة أن الأصول استهلكت، مُحيت أو تآكلت من العُثة(1). وعلى الرغم من هذا، ظلوا ينسخون العقود الخاصة وأيضاً العامة على ورق من القطن، إلى أن أعلن الإمبراطور، بعد قرن من الزمان، أن عقود بعض الفئات التى لم تُكتب على الرق تعتبر ملغاة(2)؛ غير أن ديوانه فى صقلية وفى شبه الجزيرة

---

(1) من أجل هذا عقد اجتماع فى بالرمو فى شهر مارس ١١٤٥. كما يتضح من وثيقة نشرها مونجيتورى، .Bulla Privilegia etc، ص ٣٢. ويقرأ نصها اليونانى لدى مورتيللارو *Tabulario*، كنيسة بالرمو، ص ٢٦. وقد تم تجديد عدة وثائق خاصة بالكونت العجوز روجيرو وبادبلايدى، الوصى على سيمونى ثم على روجيرو الثانى. *"de carla cuttunea in perganienum"*. كما يظهر فى الوثائق الجديدة، فى كتاب بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠٢٧. ونقرا لدى سباتا، *Pergamene*، ص ٢٣٧. النص اليونانى لإحدى هذه الوثائق التى صدرت عام ١٠٩٩ ثم جددت، على ما يبدو، عام ١١١٤. وهناك وثيقة يونانية أخرى من عام ١٠٩٧، تم تجديدها عام ١١١٠، ونشرت فى *Giornale ecclesiastico di Sicilia*، ص ١١٦.

ويلاحظ نفس الأمر وهو تجديد وثائق الهبة «لكونها بليت وطمست كلماتها» وذلك من خلال ثلاث وثائق عربية، بتواريخ سبتمبر ١١٤٤، و٣ فبراير و٢٤ مارس ١١٤٥. تنتمى لكنائس كتانيا وتشيفالو وموريالى، وتوجد الوثيقتان الأخيرتان حالياً فى المحفوظات الملكية ببالرمو. وأتمنى أن تخرج النصوص إلى النور فى القريب العاجل فى مجموعة الأستاذ كوزا.

(2) نقرا فى *Tabularium* الخاص بكنيسة بلاتينا فى بالرمو، ص ٦٠ وصية حُررت عام ١٢١٣، ثم تم تجديدها عام ١٢٥٢. لأنها كانت مكتوبة على *Carta bumbiana* التى *jam camulari inceperat* ونقرا عن القرار الذى اتخذه فدريكو فى *Costituzioni*. الكتاب الأول. العنوان ٨٠ فى كتاب برهوللز *Hist. diplom, etc*. المجلد الثانى، ص ٤٤٥، حيث تستخدم كمرادفات التسميات *chartae bombycinae* و*papiri chartae* وتشهد وثيقة ٣ يناير ١٣٢٩، فى كتاب دى فيو. *Privilegia urbis Panormi*. على الاستخدام الواسع لهذا النوع من الورق فى صقلية، والذى من أجله أنفقت أوقيتان من الذهب، تم تخصيصهما بالفعل لنسخ مجلد *Consuetudini* الخاصة بالمدينة على ورق الرق؛ طبقاً لما تنص عليه قوانين المملكة، وكانت هذه العادات *"Cum scriptae sint in cartis de papiro ... erant quodammodo quasi deletae et minus honorifice factae"*. ويشير الجرد الخاص بكنيسة بالاتينا ببالرمو، الذى أجرى عام ١٣٠٩ ونشر فى *Tabularium*، رقم ٦٣، فى ص ١٠٠، السطر ٧ و٢٧ و٣٠ وفى ص ١٠٢، السطر ١١، يشير إلى عدة سندات ملكية، فضلاً عن كتابات

الإيطالية، استخدم الورق فى الشئون التى كان يبدو عدم وجوب إنتقالها إلى الأجيال اللاحقة(1). ويدعو الثمن المنخفض للمادة الخام، وهو الأمر الذى تؤكده هذه الأحداث، يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت صناعة محلية أهلية وليس استيراداً من أسبانيا أو من الشرق(2). أضف إلى هذا أن تسمية ورق البردى، والتى وردت لأول مرة فى قوانين فدريكو، نشأت على ما يبدو فى صقلية، ذلك لأنها البلد الأوروبى الوحيد الذى ينتج ذلك النبات وقد اعتاد استخدامه فى ديوان الدولة حتى النصف الثانى من القرن العاشر(3)؛ فى الوقت الذى يحتمل أن يكون ورق القطن قد حل شيئاً فشيئاً محل ورق البردى، بل وأخذ اسمه أيضاً بعد انتشار استخدامه(4).

أخرى على ورق بردى *Carta de papiro*، بدءاً من القرن الثانى عشر وحتى القرن الرابع عشر، وأغفل الوثيقتين الشهيرتين اللتين تضمهما الكنيسة نفسها، والمكتوبتين بحروف من ذهب، على ورق القطن: فالوثيقة الأولى الصادرة عام ١١٢٩، قام بنشرها مونتفوكون، *Paleographia graeca*، ص ٢٨٠ و٤٠٨؛ ثم سار على دربه مورسو فنشرها فى *Palermo antico*، الطبعة الثانية، ص ٣٠١ و٢٩٧؛ وأخيراً أعيد طبع هذه الوثيقة فى *Tabularium*، السابق ذكره، رقم ٤، ص ١٠. وقد قمنا بالإشارة إليه فى الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ٣٤٩. أما الوثيقة الأخرى، وهما من ورق القطن الأزرق فقد صدرت عام ١١٤٠ وذكرت فى *Tabulario* نفسه، رقم ٥، ص ١١، هامش ١.

(1) نجد الأدلة المؤيدة لهذا الأمر فى الدراسة المتعمقة التى قام بها هويللز - برهوللز والتى وردت فى *Mémoires de la Société impériale des Antiquaires de France*، المجلد ٢٣، تحت عنوان *Sur l'emploi du papier de coton, etc.*، باريس، ١٨٥٦، ص ١٣ وما بعدها من المستلة.

(2) يذكر برهوللز، المرجع المذكور، ص ٢٨، الهامش *A* حين يقول إنه لم يعثر على أدلة تثبت وجود صناعات ورقية فى صقلية، يذكر أن القطن كان يُزرع فى الولايات الإيطالية الخاضعة لفدريكو وذلك حتى يشير إلى إحتمالية وجود مثل هذه الصناعة.

(3) ابن حوقل، فى *Journal Asiatique*، يناير ١٨٤٢، ص ٩٨.

(4) على هنا أن أصحح خطأ ورد فى ترجمة المعاهدة التى أبرمها، عام ١٢٩٠، قلاوون سلطان مصر، مع ملوك صقلية وأراجونا. وينص البند الحادى عشر فى الترجمة الإيطالية، التى قمت بنشرها فى *Guerra del vespro siciliano*، طبعة عام ١٨٦٦، المجلد ٢، ص ٣٣٥ وما بعدها، على أنه من حق السلطان أن يأخذ من ولايات الأمراء الموقعين على المعاهدة «حديداً، وورقاً وأخشاباً». ولقد اتبعت مرجعية م. دى ساسى المطلع، فترجمت اللفظ العربى *biiâdh* أى «أبيض» إلى «ورق»، وبالفعل تذكر المعاجم

إن رواية الأحداث السياسية فى هذا الكتاب وفى الكتاب الذى سبقه، واستعراض المنتجات الزراعية التى ذكرت فى هذا الفصل، قد أتاح لنا التعرف على الظروف التجارية، بحيث إنه، إن أردنا الآن تناولها تفصيلاً، سوف يكفينا الإشارة إلى المعلومات التى سبق ذكرها، والتى تؤكدها المعاهدات التجارية(1) والأحوال العامة التى يؤكدها بعض الكُتاب(2). ولقد سنحت الفرصة للقراء ليتبينوا أن أمراء صقلية، وعلى رأسهم الملك روجيرو وفدريكو، غالباً ما استهدفوا من وراء تدابيرهم ومبادراتهم الفائدة التجارية، وأنهم كرسوا لذلك قدراً كبيراً من الجهد نظراً لأنهم كانوا أوائل تجار البلاد. وفى الحقيقة كانت أملاك الدولة الشاسعة، وتحصيل الرسوم على هيئة محاصيل وقدوة الزيريين بالمهدية، وتكوين الإمارة الإقطاعية من جانب آخر، كانت كلها عوامل تدفع إلى ذلك الخطأ الاقتصادى، والذى كان على الرغم من ذلك يحقق جزءاً كبيراً من إيرادات الدولة، أو إيرادات البلاط إن صح التعبير.

العربية هذا المعنى من بين معانٍ أخرى كثيرة. ولكننى إذ أمعن الآن التفكير فى الأمر، يبدو لى أنه بمقتضى هذه المعاهدة، كان أمراء أسرة أراجونا ينوون مخالفة الأمر العام الخاص بحظر تصدير الحديد والأسلحة والأخشاب إلى البلاد الإسلامية، وهو الحظر الذى أصدره مجمع لاترانو عام ١١٧٩، كما هو معروف، وأكده العديد من الباباوات. إذن، لا شك فى أن لفظ *bii ăilh* فى هذا السياق يُعنى أسلحة أو صلب: وربما هنالك ثمة علاقة بين هذه الكتابة وكتابة «أسلحة بيضاء»، التى نستخدمها نقيضاً لـ «أسلحة نارية». ويمكن الاستعانة لتفسير هذه المادة من مواد معاهدة ١٢٩٠، تفسيراً صحيحاً بالإجراء الذى أبطل بالفعل هذه المادة، أى الفصل ٨٢ لفدريكو الأراجونى ملك صقلية، وهو القرار الذى صدر بعد الاتفاقيات المعروفة مع البابا ومع أسرة آنجو، والذى بمقتضاه كان يحظر تصدير «أسلحة، وحديد وأخشاب» إلى البلاد الإسلامية.

(1) انظر جريجوريو، *Considerazioni*، الكتاب الثانى، الفصل التاسع والكتاب الثالث، الفصل الثامن. ولاحظ العلاقات مع فينسيا فى *Fontes Rerum Austriacarum*، المجلد الثانى عشر، رقم ٢١ وما بعده.

(2) يذكر بيترو الفنيرابيلى، رئيس دير كلونى من بين كلمات الإطراء والمديح التى قالها فى الملك روجيرو بسبب الأمان الذى كان ينعم به أثناء سفره وإقامته فى الأراضى الواقعة تحت سيادته *onustos pecuniis et diversibus mercibus mercatores* فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٩٧٧ ـ ٩٧٨.

احتلت الفلال المرتبة الأولى فى تجارة صقلية فى القرن الثانى عشر(1)، وكذلك فى القرون التالية حتى القرن الثامن عشر. ولقد كان ساحل بريرة، الذى كان يعانى دوماً وطأة الجوع(2)، منفذاً دائماً للفلال حتى القرن السادس عشر. وكانت صقلية ترسل إلى فينسيا الفلال ومواداً غذائية أخرى، وتأخذ فى المقابل كمية كبيرة من السلع والقليل من المال(3)، وكان أحد حكام صقلية فى ذلك الوقت يأسف لذلك. وتحدثنا قبلاً عن معكرونات ترابيا، التى كانت تشحن إلى العديد من المدن المسيحية والإسلامية(4). وقد احتلت الفواكه المجففة والقطن(5) قائمة الصادرات الهامة بعد الفلال، وذلك فى القرن الثانى عشر، وتزايدت أهميتها على ما يبدو، فى القرن الثالث عشر. ونستخلص أن القطن كان يُصدر خاماً ومغزولاً(6) إلى إنجلترا أيضاً حتى أوائل القرن السادس عشر: كما ينبغى أن نأخذ فى الحسبان المرجان، وصمغ بنتلاريا والصمغ المُمَطَّر(7). كما أنه لا مجال للظن

---

(1) الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٢٨٩ و ٣٩٠ و٢٩٢ و٢٩٧ و٤٠٤ والفصل الرابع، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩، الفصل التاسع، ص ٥٩٥ و ٦٠٠ و٦٠٣ و٦١٠ و٦١٨ ـ ٦١٩ و٦٢٠ و٦٢٢ ـ ٦٢٤. انظر أيضاً الكتاب الخامس، الفصل السابع، ص ١٩٠ فى هذا المجلد نفسه.

(2) يقول ليونى الأفريقى، فى كتاب راموزيو، *Navigationi et Viaggi*. فينسيا، ١٥٦٢. المجلد الأول، الورقة ٧. إن عرب بريرة العربية كانوا يقدمون صغارهم للصقليين رهينة مقابل حصولهم على القمح منهم بالدين. وإن هؤلاء الفتيان كانوا يصبحون عبيداً إن لم يتم تسديد ثمن الحبوب فى الموعد المحدد.

(3) روموالدو السالرنى، فى كتاب كاروزو، *Bibl. Sicula*، ص ٨٩٠ ـ ٨٩١.

(4) الإدريسى، وقد سبق ذكره فى ص ٧٤٧.

(5) الإدريسى، وقد سبق ذكره فى ص ٧٤٠. انظر أيضاً الدراسات الجغرافية لابن سعيد والزهرى فى المكتبة العربية ـ الصقلية، النص ص ١٢٧ ـ ١٥٩ والهامش رقم ٥، ص ٧٤٣ من هذا الفصل.

(6) برتولوميو دى بازى *Tariffa de'pesi e misure ec.* فينسيا، عام ١٥٤٠، الورقة ١٨٧ الوجه الأول.

(7) قارن الزهرى، نص سبق ذكره فى ص ٧٤٢، هامش رقم ٥، مع ابن سعيد. المكتبة العربية ـ الصقلية، ص ١٣٤ الفصل الخاص ببنتلاريا، حيث يتم تصحيح لفظ *Kitrān* (قطران) إلى *Kutūn* (قطن).

فى قلة تجارة السكر فى عهد النورمان إذ كان السكر المستخلص والفواكه المضاف إليها شراب السكر تُصدر حتى القرن الخامس عشر من صقلية إلى القسطنطينية، وإلى مدينة الإسكندرية بمصر وإلى إنجلترا، فضلاً عن وصولها إلى أسواق شبه الجزيرة الإيطالية(1). ومن ناحية أخرى كانت تصدر أقمشة حريرية إلى الأقاليم الغربية فى أوربا(2). وتشهد وثائق من القرن الثانى عشر على قيام شراكة بين تجار جنوه وصقلية لتنفيذ مشروعات تجارية فى بلاد مختلفة(3). ونعلم أخباراً عن السفن الصقلية التى كانت ترسو فى موانئ برشلونة والإسكندرية بمصر(4): كما نستقى معلومات من مصادر أخرى حول تجارة صقلية مع هذين المركزين التجاريين الكبيرين(5) ومع مراكز أخرى مثل بيزا(6) ومارسيليا(7) وأمالفى(8) وكلابريا ومالطة(9). ومن المؤكد أن سفن جنوه كانت تقوم بالجانب الكبير من هذه الأعمال التجارية فى صقلية، وكذلك فى كل المدن

---

(1) دى بازى، المرجع المذكور، الورقة ٤٢ الوجه الثانى، والورقة ٦٠ الوجه الثانى، والورقة ١٨٧ الوجه الأول.

(2) انظر الاستشهادات المذكورة قبل ذلك، فى ص ٧٥٩، هامش رقم ٢.

(3) *Liber Jurium*، وثائق أعوام ١١٥٥ و١١٥٦ و١٢٦٤، أرقام ٢٦٦ و٣٠٤ و١٤٦٧، فى المجلد الأول، ص ٣٠٢ و٣٢٦ و٩٦٢ وفى المجلدين؛ مرانجونى، فى عامى ١١٦٦، ١١٦٧، فى *Archivio storico italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٤٢ - ٤٤.

(4) بنيامينو دى توديلا، ترجمة آشر الإنجليزية، لندن، ١٨٤٠، ص ٣٢ وما بعدها، ١٥٧. انظر أيضاً، بشأن تجارة صقلية مع برشلونة فى أوائل القرن الرابع عشر، كبنيانى، *Memorias Historicas, etc*، الجزء الأول، المجلد ١: الجزء الثانى، ص ٢٤.

(5) راجع الأحداث السابق ذكرها فى هذا الكتاب السادس، الفصل الثالث ص ٤٤٢، هامش رقم ٣، والفصل التاسع، ص ٦٢٠ و٦٢١.

(6) انظر *Statuti Pisani*، المجلد الثالث، ص ١٠٥ و٢٧٣ و٤١٦ و٤٢٣ و٥٧٤ و٥٧٧ و٥٩٠.

(7) وثيقة تومازو كونت ساڤويا، لعام ١٢٢٦، وردت عند بوكوڤيل. ...*Mémoires sur le Commerce etc.*، فى *Mémoires de l'Acad. des Inscriptions*، المجلد العاشر، ص ٥٣٨.

(8) يكفى ذكر زقاق أمالى فى بالرمو، فى القرن الثانى عشر.

(9) الإدريسى، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٣٧.

الواقعة على البحر المتوسط(1): كما كان يتبارى معهم غيرهم من الملاحين الإيطاليين وأيضاً الصقليين: وكلنا يعلم حجم بناء السفن فى ترسانات سان ماركو وتجارة الأخشاب الكبيرة التى كانت تمارس فى رانداتسو ليتم نقلها بعد ذلك إلى ميناء مسينا(2)، الذى انتزع من بالرمو قصب السبق فى مجال الملاحة، أثناء تلك الحركة الكبيرة التى دفعت بالغرب، طوال القرن الثانى عشر، إلى فلسطين وسوريا، عبوراً بالفارو: حيث أصبحت مسينا فى النصف الثانى من القرن المحطة الرئيسة للأسطول الحربى، بدلاً من بالرمو(3). كما أن المراكز التجارية الصغرى لم تكن قليلة وقد ذكرها الإدريسى وهى: ترمينى، وتشيفالو، وقلعة القوارب (سان ستيفانو)، وميلاتسو، وتاورمينا (أى چاردينى)، وآتشى، وكتانيا، وسيراكوزا، وشيكلى، وراجوزا، أولمبيادى (ليكاتا)، چرچنتى، شكَّا، مازارا، مارسالا، ترابانى، وقلعة الحمَّا، وكالاتوبو، وكارينى وسان ماركو(4).

واستكمالاً لما ذكرناه عن عملات أول كونت لصقلية(5)، يجدر بنا أن نذكر أنه تحت حكم روچيرو والملكين جوليلمو، سُكَّت خراطيش من الذهب بكميات كبيرة جداً، وكان يُطلق عليها بلغة العامة تارى، كما ورد ذكرها بنفس هذه التسمية فى العقود العامة فى ذلك الوقت.

---

(1) لا ترد استشهادات على هذه الأمور المعروفة جداً. سأكتفى بقولى إن الحجاج المسلمين من أسبانيا وأفريقية، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، كانوا فى الغالب يقصدون صقلية. انظر رحلة ابن جبير، طبعة رايت، وبصفة خاصة فى ص ٦٢.

(2) الإدريسى، سبق ذكره فى ص ٧٤٣، الهامش رقم ٣ ورقم ٤.

(3) يؤكد الإدريسى (١١٥٤) أن الترسانة الملكية كانت آنذاك فى بالرمو مثل سابق عهدها. وقد وجد ابن جبير (١١٨٣) أن الترسانة كانت موجودة فى مسينا. ويؤكد فالكاندو فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٤٠٥. ربما يقلل من المفارقة التاريخية، على هذا الأمر نفسه. فيقول إن أهالى مسينا كانوا قد أنهكوا اليونانيين، وسلبوا ونهبوا أفريقية وأسبانيا وجلبوا منها غنائم كثيرة.

(4) الإدريسى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، تحت تلك الأسماء.

(5) الكتاب الخامس، الفصل العاشر، ص ٣٢٧ وما بعدها، وراجع الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، ص ٤٦٩ وما بعدها من المجلد الثانى.

وتمتلئ بها المتاحف العامة والخاصة بأوربا، ويوجد دائماً بعض منها لدى الصاغة والباعة البسطاء فى صقلية وأيضاً خارجها؛ فضلاً عن هذا نعلم عن انتشارها وتداولها عبر الطرقات بعد عمليتى نهب كبيرتين، واحدة فى بالرمو والأخرى فى روما(1).

وتساعدنا المجموعة الكبيرة التى قام بنشرها أمير سان چورچو سبينيللى على معرفة العملات النورماندية فى تلك الفترة، بصورة أفضل من مجموعة عملات القرن الحادى عشر؛ على الرغم من أنها لا توحى هى أيضاً بثقة تامة فى التواريخ وفى دلائل أخرى(2). لذا، فإننى سوف استعين بهذا الكتاب بحسب قدره، إلى جانب الاستعانة بمصادر أخرى وعملات رأيتها بعينى رأسى(3).

لن أتطرق للحديث عن العملة النحاسية المسكوكة وعلى أحد وجهيها راس القديس نيكولو وكتابة يونانية، وعلى الوجه الآخر تاريخ

---

(1) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ٤٥١ و ٤٦٦ من هذا المجلد.

(2) فى أحيان كثيرة تكفى نقوش سبينيللى نفسها لتوضيح الخطأ: على سبيل المثال، فى رقم ٢٢٣، ص ٤٦، اللوحة الثامنة، رقم ٢١، حيث ترجم الكاتب عام ٥٤٧، ظناً منه أن الرقم (اربعين) مكتوب بدون حرف العين، بينما يظهر الرقم ٣٠ واضحاً وسليماً. وفى الصفحة نفسها، رقم ٢١٢، اللوحة السادسة، رقم ٢٨، كُتب اسم مسينا بصورة خاطئة *msǎna*، بدلاً من *msini* كما هو واضح فى الكلمات المحفورة، طبقاً لطريقة الكتابة التى يستخدمها العرب: ويتكرر هذا الخطأ فى مواضع أخرى كثيرة. وفى رقم ١٥٥، ص ٣٥، اللوحة الخامسة وفى غيرها يبدو لى مشكوك فيها إلى حد كبير الازدواجية التى سكت بها العملة فعلى أحد الوجهين نجد، «عاصمة صقلية» (بالرمو) ومسينا على الوجه الآخر. وهكذا كتابات أخرى كثيرة إما أن تكون غير صحيحة أو انها جاءت مختلفة فى الحفر الذى قام به الباحث.

(3) انظر الاستشهادات المأخوذة عن دراسات أخرى عن علم المسكوكات فى فهرست مورتيللارو، وعنوانه: *Il Medagliere arabo-siculo* بالرمو، ١٨٦١، ص ٣٩ وما يليها. ولقد درست بديوان المسكوكات بباريس ما لا يقل عن عشرين عملة عربية - نورماندية ومثلها فى أماكن أخرى متفرقة، ورأيت الكثير والكثير منها دون أن تسنح لى فرصة دراستها. ويتعين على أن أذكر بصفة خاصة بعملتين من باريس، مسكوك على الوجه الأول منهما الرمز الإسلامى وعلى الوجه الآخر حرف الـ *T* تعلوه نقطة صغيرة ونقطتان اخريان على جانبيه، وتحمل العملتان تاريخين، الأول عام ٥٠٢ والثانى عام ٥٠٦ (١١٠٩، ١١١٢) وقد أكد لى صحتهما م. دى لونجبيريه، والذى كان لتشجيعه لى الفضل الكبير فى أن اتعرف عن كثب على أسرار علم المسكوكات العربية، فى عام ١٨٤٣.

بارى، بحروف كوفية عام ٥٤٤ من الهجرة (١١٤٩)(1). إذ أنها لم تسك فى صقلية، كما أنه لم يكن الهدف منها فى رأيى سد حاجة اقتصادية. وكانت العملات العربية الأخرى التى استخدمها النورمان فى صقلية يتم سكها فى بالرمو وفى مسينا، وكانت تحمل أحياناً عبارات بلغتين، أى العربية واللاتينية، أو العربية واليونانية. أما عملات روجيرو الثانى فمعظمها يحمل على الظهر علامة ظنها البعض شكل الصليب الناقص فى قمته، بينما ظنها البعض الآخر الحرف الأول من اسم تريناكريا القديم. وللحق هو رمز، طبقاً للطريقة السائدة فى ذلك الوقت ولدى الأسر النورماندية فى إيطاليا؛ ولكنه فى اعتقادى، يرمز إلى اسم تانكريدى، والد روبرتو جويسكاردو وروجيرو الكونت الأول: تانكريدى دى هوتفيل، وهو أصل الأسرة، التى كان لفرعيها الملكيين السيادة سوياً على بالرمو من سنة ألف وواحد وتسعين إلى ألف ومائة وثلاث وعشرين، كما حكما المدينة من خلال إدارة واحدة(2). ومن الواضح أنهما لم يقيما بها دارين لسك النقود فى عهدهما، كما أنه ما كانا يستطيعا أن يجدا رمزاً أفضل من اختصار اسم تانكريدى ليكون رمزاً لعملتيهما الموحدة. ولكن هذا لم يمنع الكونت العجوز روجيرو وخليفتيه المباشرين من سك عملة خاصة بهم فى مسينا، كما لم يمنع روجيرو دوق بوليا من الإبقاء على دار سك النقود فى سالرنو(3). وجدير بالذكر أن حرف الـ T على أشكاله العديدة، وعلى تنوع زخرفته العربية واختلافها وتجميله بالنقاط والنقوش الصغيرة، كثيراً ما يظهر فى

---

(1) سان چورچو سبينيللى، المرجع المذكور، ص ٤١ ـ ٤٢، من رقم ١٨٢ إلى ١٩١، اللوحة الثامنة.

(2) انظر الكتاب الخامس، الفصل السابع، والفصل الثانى من هذا الكتاب، فى ص ١٨٦ و ٢٨٠.

(3) يؤكد سبينيللى ضمنياً على استمرار عمل دار سك النقود فى سالرنو تحت سيادة روجيرو الثانى كونت صقلية، وذلك دون أن يقصد بحث هذا الأمر بالتحديد. انظر الأعداد ٣٦ إلى ٦٣، ص ١٣ وما يليها من كتابه، والهوامش فى ص ٢٥١.

العملات الذهبية، أى تلك التى كانت أكثر تداولاً فى الأراضى الواقعة تحت حكم النورمان وخارجها(1). ونعلم أنه فى أواخر القرن الحادى عشر، استبشر كبار رجال بلاط صقلية بحسن طالع سلالة عائلة تانكريدى(2)، وأن الملك روچيرو كان دائم التباهى بأنه وريث عمه وأبيه على حد سواء؛ ومن هنا يبدو أنه تمكن من استخدام اختصار اسم تانكريدى. وتعزز رأيى هذا الزخرفة العربية على جزئى الخط الأفقى فى حرف *T* فى بعض العملات وعلى رداء نورمبرج الذى يقسمه الحرف نفسه إلى مربعين، والذى نجد فيه أن الخط العمودى الضخم لحرف *T* المزين بزخارف عربية، يشبه جذع نخلة.

ويؤكد سبينيللى(3) على أن روچيرو بمجرد أن حصل على لقب ملك، غير هذا النوع من العملة، وأقر العملة التى تعامل بها الملكان جوليلمو، حيث ظل اسم الأمير مكتوباً على أحد وجهى العملة، بينما استبدلت على الوجه الآخر، الصيغة الإسلامية بالعبارة اليونانية الشهيرة «الغلبة ليسوع المسيح». غير أن الكاتب ذاته يطلعنا أيضاً على النوع القديم بعد عام ألف ومائة وثلاثين(4): وفى الحقيقة أنه لا يمكن التحقق من أمر على هذا القدر من الأهمية إن لم يتم قبلاً التحقق من كل التواريخ والكتابات من أناس أكثر خبرة ودراية. هذا فضلاً عن أننى شاهدت بنفسى فى متحف نابولى عملةً عليها الصيغة الإسلامية من جهة ومن الجهة الأخرى تحمل حرف *T* وقد زين بزخارف عربية، مصحوبة بالكتابة العربية «بأمر الملك روچيرو».

---

(1) انظر العملات النحاسية اللاتينية، والتى من الواضح أنها سُكت فى شبه الجزيرة الإيطالية، ويبدو الصليب على أحد وجهيها، وحرف *T* على الوجه الآخر إضافة إلى اسم روچيرو كونت كلابريا وصقلية، فى الرسم التوضيحى ص ١٢ فى كتاب سبينيللى، الذى ينسبها عن حق إلى روچيرو الثانى.

(2) انظر فى مالاتيرًا، الكتاب الرابع، الفصل الخامس والعشرين، فى كتاب كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٢٤٤، حكاية اريجو أسقف ليوكاسترو، الذى هاجمه القراصنة.

(3) *Monete cufiche*، ص ٢٥٥، هامش رقم ٧٣.

(4) انظر فى المرجع المذكور، العددين ٢٢٦ و٢٢٧.

واعتقد أن العبارة الإسلامية كانت قد أبطلت بالفعل فى السنوات الأخيرة من حكم روجيرو؛ ولكنها لم تلغ فى الحال، وإنما كانت تستخدم جنباً إلى جنب مع العملة التى كانت تحمل علامة الصليب والعبارة البيزنطية. ولمن يريد، بعد ذلك، أن يتعمق فى دراسة صور العملات العربية المتعددة فى العصر النورماندى والزڤيڤى، وخاصة تلك العملات التى تظهر عليها صورٌ دينية، أو صور حيوانات ونباتات، سوف يجد مجالاً رحباً فى كتاب سبينيللى.

ولم يتغير فى عهد أول ثلاثة ملوك نورمان، شكل أو حسبما أرى قيمة التارى والربيع، العملتين الفاطميتين. ويبدو أنه نادراً ما كانت تُسك دنانير أو أنصاف دينار(1)، كما لم تصل إلينا كمية كبيرة من العملات الفضية ذات كتابات عربية أو ثنائية اللغة؛ وإن كان غالباً ما يتم العثور على عملات نحاسية. ولقد سك تانكريدى عملات عربية قليلة، ويرجع هذا إلى قِصَر فترة حكمه، وإلى التناقص المطرد فى الشعوب الإسلامية، كما سك أريجو السادس أيضاً عدداً قليلاً من هذه العملات؛ وكذلك ندر وجود العملات العربية فى عهد فدريكو الذى غير فى النظام النقدى، مستبدلاً كسور الدينار بالأغسطالى. وعلى الرغم من أن العملات اللاتينية التى سكها ملوك صقلية لا تمت بصلة لموضوعنا، فإننا لا نريد أن نغفل أن الجويلفيين ذكروا، من بين الغرائب التى تفرد بها الإمبراطور فدريكو، أنه ابتدع عملة من

---

(1) استنتج هذا من وزن العملات الذهبية التى وصلت إلى يدى، ومن ذلك الوزن الذى دأب على الإشارة إليه كتاب سبينيللى. وجدير بالعلم أن الوثائق اليونانية أو اللاتينية فى صقلية فى القرن الثانى عشر تحسب القيمة بالتارى الذهب من حبة κόκκος، أو "*ad granum unum*"، واحياناً من حبتين. ولكن، لعل الأمر يتعلق بالوزن الذى كان يسمح بنقصه فى كل تارى. وإلا فإن هذه الحبة قد لا تطابق على الإطلاق الوزن الذى يُسمى اليوم بنفس اسم الحبة أو *cocciu*، وهو، وفقاً للنظام المترى المتبع فى صقلية حتى سنة ١٨٦٠، والذى لا يختلف كثيراً عن نظام بالرمو القديم، يوازى واحداً إلى ستة عشرة من الجرام. أما التارى فهو يزن دائماً جراماً، قابلاً للنقص أو للزيادة.

الجلد(1)، كما تقول الرواية الشعبية الصقلية عن جوليلمو المالو. وعلى الرغم من أن أحداً من تجار وهواة الآثار لم ير حتى الآن دليلاً مادياً عليها إلا أن تقليده للعملة ليس أمراً غير حقيقي فقد قلدنا الصينيون فى نظريات الائتمان واستخدموا عملة من الكرتون بدءاً من القرن السابع الميلادى.

وقد دعا بلاط بابا روما، فى خضم الأسباب التى ساقها لحرمان سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين، دعا فدريكو «مزيفاً من نوع جديد» إذ اتهمه بأنه سك نحاساً مغطى بطبقة رقيقة من الفضة(2)؛ ويجب أن أقول إنه برغم صفاقة هذا الاتهام إلا أنه يبدو حقيقياً، فلدينا أمثلة على هذا من العملات القديمة ومن العملات الإسلامية أيضاً(3)، ولأن هذا الاتهام هو من تلك الاتهامات التى لا يجرؤ أحد على لصقها بأحد إن لم يكن لديه جسم الجريمة.

---

(1) يقول جوفانى فيللانى، الكتاب السادس، الفصل ٢١، إن فدريكو، وقت حصار فاينسا (١٢٤٠)، «أمر بطبع صورته على جلد نظراً لندرة الدينار، وقد اعتبرها بمثابة عملة نقدية مثل عملة الأجوستارو». ثم استبدل هذا النوع من العملة النقدية الورقية بالذهب.

(2) فى كتاب رينالدى *Annales Ecclesiastici*، (لوكا، ١٧٤٧)، السنة ١٢٣٩، § الثانية عشرة المجلد الثانى، ٢١٣. انظر حياة جريجوريو التاسع، كاردينال اراجونا، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic.* المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ٥٨٤.

(3) لقد وصلت إلى يدى عملتان إسلاميتان من النحاس، أولاهما مغطاة برقيقة من الذهب والأخرى من الفضة. والأولى التى رأيتها فى سنة ١٨٦٨ عند السيد سلفاتورى ستروبا فى مارسالا تحمل - مع وجود بعض الفواصل - نفس الكتابة الموجودة على دينار هارون الرشيد سنة ١٧٧. فى كتاب مرسدن، برقم ٢٧؛ ونقرأ فيها اسم جعفر مثلما نجدها فى شكل مرسدن الذى أهمل هذا فى الوصف ولا أعلم سبباً لهذا. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن مرسدن فى وصفه لرقم ٣٦ الذى يقول عنه إنه مثيل لرقم ٢٧، يشير إلى دينار من البرونز بالمواصفات نفسها. والعملة المغطاة بالفضة اشتريتها فى مزاد عام أقيم فى فلورنسا فى مارس ١٨٦٩ لحساب المكتبة البلدية فى بالرمو، والتى تمتلك الآن هذه العملة. والعملة باسم الخليفة المهدى والتاريخ هو سنة ١٦٠ بغداد، والكتابة المماسية للدراهم كاملة وبحروف واضحة تماماً. وينبغى أن نذكر أن أوتونى دى سان بياجو، الفصل ٤٢، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italic.*، المجلد السادس، ص ٨٩٩، يروى أن المسلمين قد اشتروا فى عام ١١٩٥ قلعة تورولتس من المسيحيين الذين كانوا يدافعون عنها وقد أعطوهم *"corruptum aurum metallo sophistico, auro in superficie colorato."*

الفصل الثالث عشر

لقد أجلت حتى الآن الحديث عن العمارة والفنون المساعدة، لأنه بدا لى من المستحسن أن أتعرض لها فى هذا الفصل الأخير، المعد لبيان الآثار التى تركتها الجماعات المسلمة فى صقلية: حيث لا توجد أى آثار أخرى تفوق فى روعتها وأصالتها تلك التى نراها فى القرن الثانى عشر. وأنا لا أتحدث عن القرون السابقة، حيث إننى لا أعلم فى الحقيقة، ما إذا كان لايزال قائماً إلى اليوم فى كل الجزيرة أى مبنى ظهر أثناء الحكم الإسلامى. فالآثار التى كان آباؤنا يتحدثون عنها بكل يقين وثقة، ترجع إلى عهد النورمان. وقد حكم بعض مثقفى القرن السابع عشر بأن كنيسة أنونسياتا دى كتلانى فى مسينا كانت، فى الأصل، ضريحاً لملك يظن أن اسمه مسّالا، وكان يعتقد أنه ملك *Alamidi*: الذى كانوا يقرأون شاهد قبره على لوحات الرخام الأبيض، المحطمة فى جانب منها والمقلوبة، والتى كسيت بها قوائم البوابة الكبرى لتلك الكنيسة(1). وها نحن عندما نفسر، دون عناء كبير، كتابة النسخ الأنيقة المرصعة فى تلك اللوحات ذات الأحرف الملتوية والزخرفية، نستخلص منها أبياتاً كان الملك روچيرو يدعو من خلالها كبراء البلاد للدخول فى جنته الأرضية: لا شك فى أنه قصر مسينا الملكى، حيث زخرفت الكتابة إحدى الردهات أو جرت على جدران

---

(1) سامبيرى. *Iconografia della gloriosa Vergine, ec.* مسينا، ١٦٤٤، ص ٦١٥ ـ ٦٢٢. حيث يتضمن نقل وترجمة الأب كيركر، صححها على طريقته، الأب ماجرى من مالطة. وقد أعاد جريجوريو طباعة النقش فى *Rerum Arabicarum*، ص ١٩٠. بعد أن جاء فى ص ١٨٩ بأجزاء أخرى تم بناؤها فى إحدى نوافذ كاتدرائية (دوم) مسينا نفسها: ونبه إلى أنه يوجد فى تلك المدينة العديد من تلك الأعمال نفسها ولم يكن جريجوريو رجلاً يكرر أسطورة مسالاً: ولكنه لم يستطع هو أو تيشسن أن يخمنا كلمة من الأجزاء، سواء فى كنيسة أنونسياتا أو فى الكاتدرائية (الدوم).

إحدى القاعات(1). ولخطأ لا يستحق الاعتذار، كان ولايزال البعض يعتقد حتى الآن أن قصرى زيزا وكوبا وأطلال ميمنرنو أو بمعنى أصح منانى، بالقرب من بالرمو هى من أعمال المسلمين فى صقلية. ولكن قصر كوبا لم يخف عمره أمام ناظرى چيرو دى برانچى؛ وفى النهاية كشف عنه النقش العربى نفسه الذى كان يبدو وثيقة تدل على أصله الإسلامى؛ لأنه محفور عليه بحروف كبيرة اسم جوليلمو الثانى وعام الف ومائة وثمانين بعد الميلاد(2). وقصر زيزا هو الآخر بعد ان اجبرنا جميعاً على احترامه بمظهره القديم، بعد أن حكمنا عليه

---

(1) لقد قرات بعض الأجزاء من هذه الأبيات فى عام ١٨٦٨. وقمت بنشرها فى *Iscrizioni arabiche di Sicilia*. الفئة الأولى، رقمى ٣ و٤ (*Rivista sicula*. اغسطس ١٨٦٩)، مضيفاً لها الصور. انظر فى العمل نفسه الطبعة الأولى، رقم ٥. جزءاً من لوحة رخامية عثر عليها فى القصر الملكى فى بالرمو: وكانت منقوشة بحروف النسخ الزخرفى بأسلوب مختلف. أبيات من الشعر. والنقش يشبه كثيراً فى مفهومه وفى مساره كتابة مسينا. وهذه الكتابة الخاصة بـ *Annunziata de' Catalani*. والتى وضعت هناك بمحض الصدفة. جعلت بعض الكتاب فى الأمور المعمارية، مثل جاللى نايت، *The Normans in Sicily*. لندن، ١٨٣٨، ص ١٢٠ يحيدون عن الطريق. وقد طبق الأب جراڤينا *Duomo di Morreale*، ص ٣٣. ذلك على الفور فى تصوره للأبنية الصقلية فى القرن السادس: ومن هنا قرر أن كنيسة أنونسياتا دى كتلانى قد شيدت فى عهد سان جريجوريو ثم تحولت إلى مسجد ثم إلى كنيسة من جديد. وأيا كان الأصل، فإن الشكل الحالى يرجع بوضوح إلى القرن الرابع عشر.

(2) *Iscrizioni arabiche di Sicilia*. الطبعة الأولى. رقم ١١. فى *Rivista sicula* بتاريخ أكتوبر ١٨٧٠. لقد كنت أول من قرأ هذه الكتابة فى أبريل ١٨٤٩ ونشرتها فى *Revue Archéologique*. باريس. ١٨٥١. ص ٦٦٩ والصفحات التالية. وبما أن المبنى كله مشيد بالحجارة نفسها وبأسلوب التشطيب نفسه الذى نحتت فيه الكتابة، فإننى لن الجأ إلى محاربة افتراض بعض باحثى بالرمو الذى يتفق معه الهارون المثقف دى شاك (.*Poesie und Kunst etc*، المجلد الثانى، ٢٦٩). أى أن القصر كان قد بنى قبل ذلك بفترة طويلة، وأن جوليلمو الثانى قام بترميمه. وهذا الافتراض ليس له أساس تاريخى أو فنى. ويجب ان أشهد هنا على أن چيرو دى برانچى بعد أن أقر بشئ من الشك فى الرأى العام حول الأصل الإسلامى (.*Essai, etc*)، ص ٨٧ والصفحات التالية. وقبل أن أقرا أنا الكتابة بعامين، اعتقد أن قصر كوبا من أعمال القرن الثانى عشر. وذات مرة كنت فى باريس معه ومع دوق سيرا دى فالكو فى عام ١٨٤٧. تطرق الحديث إلى كوبا. وقد كان سيرا دى فالكو يؤكد بحماس كبير على أصله الإسلامى وساق من بين ما ساق من حجج الكتابة: وبعد أن قال له چيرو دى برانچى دوافع رأيه المعارض أخذ يكرر له فى كل مرة «نعم، ولكن هذا نورمانى»!.

الأن وقد أصبحت لدينا قراءات أفضل لإحدى وقائع التاريخ ولأحد النقوش، وبعد أن أصبحنا نعرف عمر قصر كوبا، فإنه يعود إلى جوليلمو المالو وجزئياً أيضاً لابنه(1). ثم إن قصر منانى تنسبه إحدى الوقائع التاريخية إلى الملك روجيرو، ولا تقدم لنا أطلاله قرينة تؤدى بنا إلى التشكيك فى تلك الوثيقة(2). ويمكن أن نرجع

---

(1) لقد لمست هذا الموضوع فى الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ من المجلد وبإسهاب أكبر فى *Iscrizioni, ec.*، الفئة الأولى، رقمى ٩، ١٠ (*Rivista sicula*، فبراير ١٨٧٠). وبالتالى فإنه لابد من تصحيح الافتراض الذى كنت قد طرحته من قبل، فى الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، المجلد الثانى، ص ٤٦٢.

ومن بين المؤلفين الكثيرين الذين كتبوا عن زيزا، يجدر بنا أن نشير إشارة خاصة إلى ليانذرو البرتى، *Isole appartenenti all'Italia*، فنيسيا، ١٥٨١، الورقة ٤٧، الوجه الثانى والصفحات التالية. وكان چيرو دى برانجى، *Essai, etc.*، فى حديثه فى ص ٨٦ عن القاعة الأرضية، قد خمن هنا أيضاً التاريخ، لأنه يشير إلى جوليلمو الثانى.

(2) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٤٤٦ من المجلد. وكان ليانذرو البرتى، فى المرجع المذكور، الورقة ٤٧، الوجه الثانى، أول من ذكر هذا القصر دون أن يكتب اسمه. وهو يقول: «هنالك علاوة على ذلك، وعلى بعد ميل من بالرمو أطلال قصرين فاخرين، والثالث لايزال أيضاً قائماً. ولكنه فى حالة سيئة لأنه أصبح الآن (النصف الأول من القرن السادس عشر) مسكناً للحيوانات». والقصران الفاخران هما قصرا زيزا وكوبا، اللذان لا يصف منهما البرتى سوى الأول.

وبعد هذا الرحالة، تناول هذا الموضوع الأستاذ ج. ب. بازيلى الأستاذ بجامعة بالرمو، فى مقالين فى جريدة بالرمو *La ricerca*، العددين ١، ٢ (٣٠ ابريل و٩ مايو ١٨٥٦)، ود. مارتسو، المرجع المذكور، المجلد الأول، ٢٦٩.

واعتقد أنه يجب أن نطلق على هذا القصر اسم منانى وليس مينرنوم، وهو الاسم الذى أطلقه عليه حتى الآن الباحثون الصقليون: وهذا ما نقرأه حقيقة فى بعض المخطوطات، وفى طبعات فالكاندو (انظر كاروزو، *Bibl. sicula*، ص ٤٤٨)، ولكن يبدو غريباً إلى حد ما أن نسمع فى بالرمو لفظاً ليس له معنى أخر سوى الاسم الأول لشاعر قديم. ومن ناحية أخرى فإن اسم مينوم مكتوب بوضوح فى مخطوطة فالكاندو المتيقة الجميلة، التى تمتلكها مكتبة باريس (سان فيكتور، ١٦٠٤، الورقة ٤٥ الوجه الأول) ونتعرف أيضاً فى وثيقة عربية بتاريخ أبريل ١١٣٢، محفوظة فى محفوظات كنيسة دوم بالرمو، وقد نشر منها جريجوريو جزءاً فى ملزمته *De supputandis apud Arabes siculos temporibus*، ص ٤٤، وقد طبع النص كله الآن بصورة صحيحة الأستاذ كوزا، فى وثائقه اليونانية والعربية فى صقلية، الجزء الأول (لم ينشر بعد)، ص ٦ والصفحات التالية. وتقول هذه الوثيقة أن مسلماً من بالرمو كان يستبدل جزءاً من مياه عين المنانى بمياه عين الفرع وعين البطية، اللتين كان يمتلكهما مسلم آخر: وقد كان هذان النبعان معاً «فى المناطق الغربية من بالرمو» وكان النبع الأول يروى الريف الذى كان يسمى برج

أصل قلعة ماري دولتشي(1) وحمامات تشيفالو إلى زمن أقدم(2)؛ إلا أن الشكل الأصلي لهذين الأثرين قد تغير، بفعل الزمن والبنايات التي ادخلت عليهما. ونقول الشئ ذاته عن بوابة الحرية(3) ومبنى سان

البطال. ونعرف أيضاً موقعه من ابن حوقل، في المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٩، وفي *Journal Asiatique* بتاريخ يناير ١٨٤٥، ص ٢٩.
ويلاحظ أن هذه القلعة لا تظهر بين المواقع الملكية في ريف بالرمو، والمذكورة في وثائق الامبراطور فدريكو، ولا بين مواقع كارلو دانجو. ويمكن أن يقال إنه تم تدميرها قبل القرن الثالث عشر: وربما في معركة ٢١ يوليو ١٢٠٠، التي بدأت حقيقة في تلك الأماكن، كما نرى في الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(1) هناك مبرر معقول لكي نعتقد أن هذه القلعة، بحمامها، الذي بقيت بعض آثاره، مع حديقته والبحيرة الصناعية التي جفت الأن، من عمل الأمير الكلبي جعفر (٩٩٧ ـ ١٠١٩).
انظر كتابنا الرابع، الفصل الثامن، في ص ٣٥٨ من المجلد الثاني والكتاب الخامس، الفصل الرابع، في ص ١٢٤ ـ ١٢٥ من هذا المجلد. لقد كانت هذه بالضبط «القصر والحدائق الغنية المروية بالمياه والغنية بالفاكهة، التي احتلها الكونت روجيرو حسبما يقول اماتو، عندما دخل ريف بالرمو في عام ١٠٧١.
وحول بقايا ماريدولتشي تحدث في الأعمال المذكورة، جاللي نايت، في ص ٣٠٥: وهيتّورف، ص ٦ (اللوحة السادسة والسبعون، الشكل ٢): وچيرو دي برانجي ص ٩٢: ودي مارتسو، المجلد الأول، ص ٢٧٠ والصفحات التالية.

(2) نشر جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٨٨، رسماً سيئاً للغاية للكتابة الكوفية التي كانت تظهر في أعلى الأسوار والتي لم يحاول ترجمتها ولن أحاول أنا ذلك دون مساعدة أخرى سوى ذلك النقش. ويضيف جريجوريو أن الحروف جميلة جداً وأن المبنى يبدو في الظاهر قديماً جداً: ولكنه لا يقول إنه رآه هو نفسه. وعرض چيرو دي برانجي، في المرجع المذكور، ص ٩٢، وفي اللوحتين السابعة والثالثة عشر، رقم ٤، عرض داخل الحمامات ونسخة جميلة من فقرة من الكتابة، التي أرى أن حروفها قديمة جداً. إذا كانت دراسة النقوش الكوفية القديمة تقدم أدلة مؤكدة على العصور والأزمنة. ولكن بما أنه يقال لي إن الكتابة سقطت، منذ سنوات طويلة فإننا لا نستطيع أن نأمل الأن وربما أبداً في الوصول لأصل ذلك الأثر. انظر أيضاً جاللي نايت، المرجع المذكور، ص ٢٢٤. ثم إن تصميم القاعة الرئيسة للحمام يشبه شبهاً كبيراً تصميم حمام بالما في مايوركا، الذي يقدمه لنا چيرو دي برانجي، المرجع المذكور، اللوحة الثانية؛ والاختلافات تكمن في الأقواس، فهي حادة في تشيفالو وعلى شكل حدوة حصان في بالما. والعمل في المبنى الأول أدق من ثاني هذين المبنيين.

(3) تحدثنا عن أطلال هذا الباب في الكتاب الخامس، الفصل الرابع: ص ١٣٢ من هذا المجلد، ملحوظة ٢. وبعد أن كتبت ذلك الفصل، حدث أن قمت أنا نفسي بزيارة كنيسة لاڤيتوريا في عام ١٨٦٨ بصحبة المهندس المعماري الدكتور كڤاللاري، وقد عدت إليها مرة أخرى في عام ١٨٧١. وقد تعرفت على صحة الأخبار التي قدمها لي عنها أولاً

جوفانى دى ليبروزى(1). ثم إن الأمل ضئيل فى بعض القلاع ذات المظهر الإسلامى، المهجورة، بل شبه المحطمة، مثل قلاع جبل بونيفاتو(2)، وانتيللا وكالاتاماورو فى وادى مازارا(3) وبعض القلاع

الباحث الأستاذ ساليناس، والتى استخدمتها فى الملحوظة. وقد رأيت علاوة على ذلك، بعد أن أرانى إياها كفاللارى الواجهة الخارجية لهذا الباب من جانب السور القديم للمدينة، الذى يلاحقه الآن بيت ضيق يطل على الميدان الصغير المسمى بفيتوريا أى بهانكى، ونميز فيه بوضوح بالغ القوس الحاد، الممتلئ الآن والذى تمت تسويته بواجهة الجدار. وعلى الجانب الآخر من السور القديم تقع كنيسة فيتوريا: وأول هيكل فيها، على يمين من يدخل من المدخل الأكبر فى ميدان سبازيمو هو بالضبط البوابة القديمة. والنصف الأعلى من ذلك الهيكل فيه تلك اللوحة الجدارية التى وصفتها. وهى حديثة وتحمل لمسات زمن لاحق. ولكن فى النصف السفلى، وبالذات خلف المنبع المصمم الآن بحيث يمكن تحريكه متى أريد ذلك، نرى النصف السفلى من باب قديم وقوى من الخشب، قد يكون محفوظاً من القرن الحادى عشر: ولابد أن نعتقد الشئ نفسه بالنسبة للقوس الحاد، الذى يمكن أيضاً أن يرجع إلى تأسيس الخالصة، أى إلى القرن العاشر. ويلاحظ أنه لاتزال هناك أطلال قوية للغاية وقديمة من البناء، سواء فى جانب آخر من الكنيسة، أو فى بيت قديم مجاور يطل على ميدان سبازيمو.

(1) ذكرت فى الفصل الرابع من الكتاب الخامس، ص ١٢٣ من هذا المجلد، هامش ٢، نص كلمات أماتو التى توحى بأن موقع سان جوفانى دى ليبروزى هو موقع قلعة يحيى نفسه أو جوفانى، الذى أخذه الكونت روجيرو بعد قلعة ماريدولنشى. ولكن الكنيسة الحالية لم تكن موجودة فيه بالتأكيد: ولا توجد أى وثيقة تثبت أن النورمان قد بنوها على الفور.

(2) يوجد منظر لهذه القلعة المدمرة، التى تعلو الكامو، فى كتاب دوق سيرا دى فالكو، *Del Duomo di Monreale e di altre chiese normanne*، ص ٤٢، فى رسم خطى. ونلاحظ فيه العديد من النوافذ على شكل قوس حاد.

(3) أشرت إلى إنتيللا فى الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٩٣ من هذا المجلد، هامش ١. ومن المؤكد أنها كانت قلعة بالغة القوة قبل الحرب النورمانية. وهناك صديق لى زار تلك الأطلال منذ أربعة عشر عاماً ورسم أيضاً رسماً تقريبياً لها، ولاحظ فيها صهريجاً به عقد ذى قوس حاد، وهو فى الرسم التقريبى له الأبعاد نفسها الموجودة فى المبانى النورمانية فى القرن الثانى عشر.

وكالاتاماورو غير مذكورة فى الحوليات النورمانية؛ ولكن الإدريسى يذكرها ويشير إلى موقعها وبالتالى فإنها يجب أن ترجع إلى العصر الإسلامى، وإن لم يشهد على ذلك الأصل اسمها. المؤلف من لفظين معروفين للغاية، فاللفظ الأول عربى والثانى لاتينى أو يونانى، وهو ما يمكن أيضاً أن يقودنا إلى أولى الفترات للفتح الإسلامى. وهناك وثيقة أرفقتها فى *Guerra del vespro Siciliano*، الفصل السادس، طبعة ١٨٦٦، المجلد

الأخرى فى وادى نوتو(1)، حيث إنه لا يبدو أننا نستطيع من أطلال القلاع أن نستخلص نظاماً كاملاً للعمارة. ولم أتعرض بالذكر للكنائس التى نسميها نورماندية، لأنه من الواضح أنها جميعاً ترجع إلى القرن الثانى عشر. وإذا استطعنا فى كنيسة أو كنيستين أن نكتشف بعض أعمال العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر. فإن هذا لن يؤدى إلى أى اختلاف فى العصر. ثم إن مبانى القرن الثانى عشر تكفى لتحديد اتجاه الفن الذى ازدهر فى صقلية طوال فترة وجود المسلمين. ويلاحظ كل المؤلفين المحدثين، الذين تعرضوا لهذا الموضوع، فى الفن الصقلى فى العصر النورمانى، أسلوباً خاصاً، مختلفاً جداً عن أسلوب الأمم الأوربية المعاصرة وعن أسلوب إسبانيا المسلمة(2)؛

الأول، ص ١٣٩، هامش ٢. تبرهن على أهمية هذه القلمة فى القرن الثالث عشر. وقد فحص صديقى الذى زار إنتيللا فحص كذلك كالاتاماورو، التى تربض على الجبال نفسها وكانت أوسع كثيراً: وقد لاحظ فى أطلالها صهريجاً كبيراً، عقده هو أيضاً على شكل قوس حاد، ومطلى بالأسمنت المائى ومحفوظ جيداً.

(1) كان البارون منديرالهسكا دا تشيفالو، الذى فقدته إيطاليا كما فقده العلم مبكراً يؤكد لى فى عام ١٨٦١ أنه رأى، قبل ذلك بعشرين عاماً. كتابة عربية فى البرج المسمى لى جرستى، كان جزءاً من بيت صاحب الأرض وكان يقع فى الدرب المؤدى من ياتسا إلى لنتينى. ذلك الدرب الذى كان يسمى آنذاك شارعاً. وكانت الكتابة تظهر على سلم البرج، وكان جزء منه مبنياً والجزء الآخر منحوتاً فى الصخر.

وقد يتعين البحث عن هذا البرج وكذلك الأثرين اللذين ذكرهما هويل، *Voyage pittoresque etc.* المجلد الثالث، ص ٦٩ و١٢٢، وقد كان أحدهما يقع فى الشارع المؤدى من ميليتيللو إلى فيتسينى: والآخر فى إقطاعية فالكونارا، على بعد ثلاثة أميال من نوتو.

(2) انظر: هيتّورف، *Architecture moderne de la Sicilie*، باريس، ١٨٣٥، رسم على الورق به أغصان.

جاللى نايت، *The Normans in Sicily*، لندن، ١٨٣٨، مع أطلس من الورق، سرّا دى فالكو (دومينيكو لوفازو، دوق) *Del Duomo di Monreale e di altre chiese normanne, ec.;* بالرمو، ١٨٣٨، على ورق وبه أغصان، *Il Castello della Zisa*، فى المجموعة التى تحمل عنوان: *L'Olivizza, ricordo del soggiorno della Corte imperiale russa, ec,* بالرمو، ١٨٦٦، وبه صور للنقوش الحجرية.

جيرو دى برانجى، *Essai sur l'architecture des Arabes e des Mores*، باريس، ١٨٤١، مع صور للنقوش الحجرية.

حيث يقولون إنه مزيج من مختلف العناصر، البيزنطية والنورمانية والموريسك وغيرها؛ وينسب كل كاتب إليها أبعاداً مختلفة. ويؤكد آخرون أن العمارة التى يطلق عليها عامة عمارة قوطية، والتى يبدو أن القوطيين لم يعرفوا عنها شيئاً أبداً، قد جاءت من الشرق وقبل أن تنتقل إلى الشمال، حيث قدر لها أن تنتج العديد من معجزات الهجرة، توقفت فى صقلية. وبعد أن اتسمت المسألة على هذا النحو، أجد نفسى مضطراً للدخول فيها، وأنا غير مهيأ لها كما أشعر: ولهذا سأطلب عون أساتذة الفن، وأولهم كوستى، الذى درس طويلاً مبانى القاهرة وأفاد من العلوم الإسلامية. وسوف أنهل أنا أيضاً من هذا المصدر بعض الأنباء حول أصل العمارة وتطوراتها لدى العرب: وسيكون مجهوداً صعباً، لأن هذا الموضوع لم يتناوله أى من كتابهم الذين قرأت لهم. ويمس ابن خلدون فى المقدمة، الموضوع بآراء رفيعة من الفلسفة التاريخية؛ ويتطرق إلى أعمال البنائين والنجارين: ولكنه عن أصل العمارة يقول مرة إن العرب أخذوا العمارة عن الفرس ويبدو أنه ينكر ذلك فى فصل آخر(1).

دى مارنسو. *Delle Belle Arti in Sicilia, ec.*، بالرمو، ١٨٥٨، مجلدان، مع صور للنقوش الحجرية.

بوشيمى. *Notizie della basilica di San Pietro, detta la Cappella regia di Palermo*، بالرمو، ١٨٤٠، مع صور للنقوش الحجرية.

شاك *(A. F. von)*. *Poesie und Kunst des Araber in Spanien und Sicilien*. برلين، ١٨٦٥، مجلدان.

سبرينجر. *Die mittelalterische Kunst in Palermo*، بون، ١٨٦٩.

جراڤينا *(Dom. Benedet. cassinese)*. *Il Duomo di Monreale illustrato*. بالرمو، وتاريخ النشر خطأ ١٨٥٩، ويجب أن يصحح ليصبح ١٨٧١، مع لوحات ملونة للنقوش الحجرية وبعض الصور.

انظر أيضاً المقالات النقدية عن مؤلف سيرا دى فالكو، التى كتبها الأب نيكولو ماجورى، فى *Effemeridi Siciliane*، أرقام ٦٤ و٦٥ و٦٦ (بالرمو، ١٨٣٩) وجامباتيستا كاستيليا فى *Giornale Letterario*، العدد ١٩٥، (بالرمو، ٢١٨٩).

(1) *Prolégomènes*، ترجمة فرنسية للبارون دى سلان، الجزء الثانى، ٢٧٤. فى النص، الجزء الثانى، ص ٢٢١ و٢٢٩، من طبعة باريس. نقرأ الاسم العرقى فرس، أى شعوب فارس بالتحديد، مع استبعاد الأقاليم الشمالية والشرقية من المملكة العالية.

ولم يكن لدى العرب، كما يعرف الجميع، أى جانب آخر من الحضارة يحملونه معهم خارج شبه الجزيرة العربية، سوى لغة مسهبة، ومزدهرة قوية البناء. أما العمارة فقد كان تطورها أقل من أى فن آخر فى تلك الأمة التى كان جسمها من الرحل وأطرافها، إذا كانت لديها مبان، إنما كانت تدين بها للشعوب المتاخمة لها: فى الشمال بترا وبالميرا المليئتان بالآثار الرومانية؛ وفى الشرق الحيرة بمنشأتها التى ترجع إلى عصر الساسانيين وقلعة الخورنق الشهيرة، التى بناها فى أوائل القرن الخامس المهندس المعمارى اليونانى سنمار بأمر من الملك العربى النعمان(1)؛ وفى الجنوب كان هناك اليمن بتلك العمارة التى كان يمكن أن ينقلها إليها الفرس، أو مسيحيو الحبشة مقلدو البيزنطيين. وبالتالى فإن المنطق التاريخى كان يقضى بأن يبحث العرب فى هجرتهم إلى بلاد ما بين النهرين وفارس وسوريا ومصر وفى أفريقية وفى أسبانيا، لاضطرارهم لتأسيس مدن وتشييد مساجد وقلاع وقصور وتعديل المبانى الدينية والدنيوية لدى الشعوب المهـزومة لاستخداماتهم، عـن مهندسين معماريين بين الطـوائف الأجنبية سواء بين المهزومين أنفسهم والعبيد والعتقاء ودافعى الجزية أو الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا مواطنين: سواء بين رعايا

انظر أيضاً الصفحات ٢٤١ والصفحات التالية وص ٢٦٥ والصفحات التالية كلها، فى المقدمة نفسها، الترجمة الفرنسية، *II.* ٢٧٥. كتب المؤلف. إن الوليد بن عبد الملك استقدم مهندسين معماريين من القسطنطينية لبناء مساجد المدينة والقدس ودمشق. ويبدو أنه يناقض بهذا ما قاله عن الأصل الفارسى؛ ومع ذلك فإن الحدثين يتفقان تمام الاتفاق. وكما سنرى الآن كان الفنانون البيزنطيون يدعون لأعمال الفسيفساء، وربما لأعمال زخرفية أخرى؛ وقد شيد الفرس المبانى الأولى. وعلى أى حال فإن الرواية وقعت فى خطأ واضح، لأن تلك المساجد كانت موجودة أصلاً؛ وبالتالى لم يكن من الممكن بناؤها من جديد. ويبدو لى أن ابن خلدون، كعادته، قد جمع هنا وقائع مختلفة. وهكذا كان يصيب تارة ويخطئ تارة أخرى.

(1) كوسين دى برسفال، *Essai sur l'Histoire des Arabes*. الثانى، ٥٥.

الإمبراطورية الرومـانية أو مغتصبي أقاليمهـا. وتبرهن المذكرات الإسلامية على أن العمارة دخلت بالذات من هذه الطرق إلى الأمة العربية، التى أصبحت شابة وكبيرة بصورة إعجازية من حيث العدد والأرض. ونستطيع أن نقول إن هذه هى الطرق نفسها التى تعلم المسلمون من خلالها نظم الإدارة العامة من الساسانيين والبيزنطيين والطب والرياضيات والجغرافيا والكيمياء والمنطق والميتافيزيقا؛ وهى علوم استعادوها كلها من العالم القديم ونقلوها إلى أوربا العصر الوسيط التى كانت فى طور البداوة، بسرعة أكبر مما فعل اليونانيون، ورثة الاسم الرومانى العظيم. ويبدو أيضاً أن من بين سكان الإمبراطورية الإسلامية كان المنحدرون من الجنس الآرى قد تفوقوا على سادتهم تفوقاً كبيراً فى ممارسة العمارة، وكذلك فى العلوم وتطبيق ممارسة الإدارة العامة؛ وكان أبرز الرجال فى تلك العلوم من أصل أجنبى. وإن كان الثناء على كل جهودهم ناله العرب، الذين وهبوهم لغتهم.

ومنذ الفتوحـات الأولى، اســتخدم المسـلمون فى البناء عبقرية الرعايا الجــدد وأيديهم. وخـــلال عــام واحــد من تأسيس الكـوفة (٦٣٨)، كانت مجمـوعة من الأكواخ البائسـة، شـب فيهـا حـريق أتى عليها، فكر المسـتوطنون العــرب فى إقامـة بيوت من الطوب والجير؛ ووافق الخليفـة عمر، بشـرط عدم بنـائها عالية جـداً(1)؛ ولكنه يعهد لنبيـل من همذان (إكبتـان)، يدعى روزبه، أن يصمم مبنى كبيراً يضم المسجد وبيت المال معاً؛ ومن أجل المسجد تنزع أعمدة من المعابد الساسانية(2)، ومواد أخرى من قصور

---

(1) ابن الأثير، العام ١٧، نص تورنبرج، المجلد الثانى، ص ٤١١، ٤١٢.

(2) القلمى، الاقتفاء، مخطوطة باريس، Ancien Fonds، رقم ٦٥٣، الورقة ٩٤ الوجه الثانى. راجع ابن الأثير، الموضع المذكور.

الحيرة(1). واخذ روزبه يبنى أيضاً أسواق الكوفة على شكل البواكى(2)؛ وبعد قرن واحد كانت قد صنعت فى تلك المدينة الكبيرة متاجر ذات أقواس من الطوب والجبس، بأمر من خالد بن عبد الله القسرى(3)، حاكم العراق (٧٢٥ ـ ٧٣٩) المشهورة بالقنوات والجسور والأعمال العامة الأخرى، التى أثرى بها الإقليم، بسبب الدخول الكبيرة التى حصل عليها والتشجيع الذى قدمه لغير المسلمين(4). ولكن العمارة فى ذلك الزمن كانت قد احرزت تقدماً وتطوراً لدى المسلمين. ونحن نعلم أن زياد، عامل الخليفة معاوية (٦٨٠ ـ ٦٦١) عندما وجد أنه من الضرورى توسيع المسجد الجامع فى الكوفة، تشاور فى ذلك مع مهندسين معماريين من الفرس، واجتهد فى أن يشرح لهم المفهوم الذى كان فى ذهنه، ولكنه لم يعرف كيف يشرحه لهم. ومع هذا فقد فهمه فقط مهندس عجوز من مهندسى ملوك

(1) البلاذرى، *Liber Expugnationis*، نص دى جوجى، ص ٢٨٦ وابن الأثير، الموضع المذكور.

ويلاحظ أن معظم الأثار الإسلامية التى ظهرت فى القرون الأولى من الهجرة من مضيق جبل طارق وحتى الخليج الفارسى وحتى أكسوس كانت مبنية بأسلاب المبانى القديمة. ولا تلزمنا استشهادات فى هذا الخصوص. ونقرأ أيضاً فى البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٢٩٠، أنه قد وضعت فى المسجد الجامع فى الواسط فى بلاد ما وراء النهرين، الأبواب التى نزعت من زندوند ومن مدن أخرى فى هذا الإقليم؛ وقد اشتكى ساكنوها من هذا السلب، المخالف للعهود التى كانوا قد ابرموها مع المسلمين.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور.

(3) البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٢٨٦. اللفظ الذى أترجمه بكلمة "*volta*" هو ازج. ويبدو لى أن الأمر يتطلب إمعان الفكر فى البحث عن جذر اللفظ الفرنسى "*agive*". لأن الأسبان كانوا يخلطون نطق الحرفين G Z (الجيم والزاى) وهما آخر حرفين فى ذلك اللفظ العربى. وربما كان عندنا هكذا أول مقطعين من "*agive*" والمقطع الأخير يمكن أن يشير إلى النهاية المعروفة للصفة الاشتقاقية فى اللغة العربية.

(4) ابن الأثير، السنتان ١٠٥ و١٢١، طبعة تورنبرج، المجلد الخامس، ص ٩٢ و١٦٣ والصفحات التالية.

يشير البلاذرى، المرجع المذكور، ٢٨٦ و٢٨٧، إلى الأعمال العمومية التى قام بها خالد ويذكر من بينها كنيسة شيدها هو، كما يقال، فى الكوفة، تكريماً لوالدته المسيحية. وهذا الحدث لم ينسه ويل، *Geschichte des Chalifen*، المجلد الأول، ص ٦٢١.

الساسانيين؛ وقد رد عليه بأنه يتعين رفع أعمدة ارتفاعها ثلاثون ذراعاً، كلها من حجر الأهواز، المصلحة بوصلات من الحديد ولحامات من الرصاص؛ ثم لابد من بناء السقف بعد ذلك وبناء الأروقة الجانبية والمحراب فى النهاية. فرد زياد قائلاً: «هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه»؛ وهكذا تم العمل(1).

ويظهر الفن أكثر عظمة وجراة أثناء خلافة الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥)، الذى شهد مبان كثيرة وكبّر العديد منها وزينها. وكان قد ظهر فى واسط فى بلاد ما بين النهرين (٧٠٣) مبنى يقال له القبة الخضراء(2). وأمر الوليد ببناء قبة أخرى فى أكبر مسجد فى دمشق؛ ويحكى أنه بينما كان الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠) يفكر فى إزالة الزخرفة غير اللازمة التى زخرفه بها سلفه وانفق فيها نفقات باهظة، جاء إلى دمشق سفير بيزنطى، وعندما دخل المسجد مع تجار كثيرين من أمته، ورفع عينيه للقبة اضطرب وأصابته دهشة كبيرة، وعندما سئل عن السبب، رد بأنه كان يأمل أن يدوم حظ العرب قليلاً، ولكنه الآن بعد أن رأى أى مبان يستطيعون بناءها فإنه يتوقع أن تدوم قوتهم طويلاً(3). وهناك عمل

---

(1) القلمى، الموضع المذكور. يلاحظ أن هذا الرسم يشبه رسم الكنائس المسيحية. وقد ترجمت بكلمة "abside" (محراب) اللفظ العربى الذى يعنى حرفياً الأجزاء الخلفية. وترجمت بلفظ "braccio" كلمة (ذراع) وهى الكلمة المقابلة فى المعنيين: عضو الجسم ومقياس المسافة. وقد اختلف طول (الذراع) تبعاً للأماكن والأزمان. وطول مقياس النيل القديم فى الروضة، الذى قاسه كوستى، المرجع المذكور، ص ٤٥. هو ٠،٥٤١٥ من المتر.

(2) البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٢٩٠.

(3) اجزاء من نص ابن شاكر، نشرها الأستاذ أنسبالك، فى حاشية كتابه Specimen e literis orientalibus، ليدن، ١٨٥٣، ص ٨ و٩. انظر فى الملزمة نفسها، ص ٩، نص الوقائع مجهولة المؤلف الخاصة بالوليد، والتى تعطى السفير لقب النبيل وتروى الحدث نفسه بكلمات أخرى. وبعد التخفيف من مبالغة شديدة ترجمت العبارة: "si turbò fieramente" عبارة النص التى تقول بالضبط "cadde svenuto" سقط مغشياً عليه. حول مسجد دمشق راجع الإدريسى، نص م. جوبير الفرنسى، المجلد الأول، ص ٣٥١، حيث يذكر قبة أخرى تسمى الخضراء، la Verde وطرق الزخرفة المختلفة.

آخر يبدو عظيماً أيضاً، فى منتصف القرن الثامن، وهو القبة التى شيدها على قصر الخورنق، الذى ذكرناه لتونا، أحد أتباع العباسيين، وهو من أصل فارسى: عندما حصل على القصر هدية، عند تأسيس الخلافة الجديدة(1). وفى النصف الأول من القرن التاسع، قام الأمير الأغلبى زيادة الله، الذى تم فتح صقلية فى عهده، بإعادة بناء جامع القيروان القديم كله من الطوب والحجر، وشيد قبة على المحراب، الذى يحدد اتجاه مكة(2). ونحو نهاية القرن نفسه رأينا قباباً مماثلة تظهر أيضاً فى مقصورات الحدائق، التى كان أمراء مصر يستريحون فيها فى دعة(3): بينما كان إبراهيم بن أحمد المتوحش يشيد فى مسجد القيروان قبة أخرى جميلة رائعة، تقوم على ستة وثلاثين عاموداً أنيقاً من الرخام(4).

ولكن بالعودة إلى الوليد، نُلاحظ أنه شجع الزخرفة بصفة خاصة، وفى عام ثمان وثمانين من الهجرة (٧٠٧)، عندما أراد توسعة مسجد النبى فى المدينة، أرسل له چوستينيانو الثانى مائة ألف دينار، ومائة من الصناع وأربعين حِمْلاً من مواد الفسيفساء: وعندما لم تكف، أرسل البيزنطى للبحث عنها، وهو اتهام رهيب من التاريخ، فى أنحاء

---

(1) البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٢٨٧ و٢٨٨. وقد كان هذا يسمى إبراهيم بن سلامة؛ وكان معترفاً من قبيلة رباب، وكان احد المبعوثين الذين اعدوا لانتفاضة خراسان لصالح العباسيين، ونرى آل رباب من أوائل فاتحى خراسان، طبقاً لفقرة من فقرات البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٤٠١.

(2) البكـــرى، *Description de l'Afrique*، نص باريس، ص ٢٢، والترجمة فى *Journal Asiatique* اكتوبر ١٨٥٨، ص ٤٧١.

(3) المقريزى، **المواعظ**، نص بولاق، المجلد الأول، ص ٣١٧، يقول أن الأمير الطولونى خمارويه بنى أمام **قبة الهوا** قبة أخرى تسمى **دكه** وكانت مفتوحة الأجناب (أو من الأقواس الأربعة، كما يبدو لى، التى كانت تدعم القبة)، ولكن هذه الأقواس كانت تغلق، عندما يراد ذلك، بستائر. ومن فوق الدكه كانت تظهر حدائق وقصور الأمير، والصحراء والنيل والتلال.

(4) البكرى، المرجع المذكور، ص ٢٤ من النص و٤٧٢ من الترجمة.

المدن المهجورة كلها فى الإمبراطورية(1). وكان الوليد أيضاً أول من زخرف مسجد دمشق بالفسيفساء التى تصور فروع الأشجار الصغيرة والورق، المرسومة بمختلف الألوان على أرضية من الذهب(2). وفى مسجد الكعبة فى مكة أضاف أقواساً بكتابات من الفسيفساء باللونين الأبيض والأسود، وغطى الأعمدة برخام من لونين يتم التبادل بينهما، وأحياناً أيضاً ثلاثة ألوان الأبيض والأحمر والأخضر(3). وبعد ذلك بقرنين أهدى بلاط القسطنطينية أيضاً مواد الفسيفساء إلى عبد الرحمن الخليفة الأموى فى أسبانيا عندما وضع اللمسات الأخيرة على المسجد الجامع فى قرطبة. ومن الذين يشهدون لنا على ذلك الإدريسى، الذى يقول إن أقواس المحراب «كانت كلها مكسوه بالفسيفساء، حتى أنها كانت تبدو مطلية مثل أقراط كثيرة، وكان هذا العمل الدقيق، المتجانس والأنيق والراقى يثير الإعجاب إذ إن المسلمين أو الروم لم يصلوا إلى هذا الاتقان البالغ من قبل»(4). وهى كلمات مشهورة لكاتب ربما كانت تحت ناظريه أعمال الفسيفساء فى كنيسة بلاتينا فى بالرمو!

وحول موضوع الزخارف نفسه يجدر بالذكر أن زيادة الله فى

---

(1) الطبرى، مخطوطة مكتبة باريس، الملحقات العربية، رقم ٧٤٤، ص ١٣٢ و١٣٣. راجع ابن الأثير، علم ٨٨، تورنبرج، المجلد الرابع، ص ٤٣٢. راجع أيضاً الكاتب مجهول الاسم فى خلافة الوليد، الذى نشره أنسباك، المرجع المذكور، ص ٤، الذى يذكر فيه رقم ١٠٠ ألف صانع، لخطأ فى النسخ، على ما يبدو، بعد أن ذكر الواقدى مصدراً له.

(2) محمد بن شاكر، فى كتاب أنسباك المذكور، ص ٥ الهامش، كتب أن الوليد طلب من امبراطور القسطنطينية اثنى عشر ألف صانع من بلاده، وعندما جاءوا كسا أسوار (جدران) المسجد «بالأحجار الصغيرة الذهبية التى كانت تسمى الفسيفساء (fusaifisa) مخلوطة بطرق عديدة بألوان رائعة على شكل نباتات.. إلخ. راجع مواضع ابن خلدون، المذكورة لتوها، ص ٧٧٩ فى الهامش ١.

(3) الأزرقى، النص الذى نشره وستنفيلد، فى *Chronken der stadt Mekka*. المجلد الأول، ص ٣٠٩ و٣٢٣ والصفحات التالية.

(4) دوزى ودى جوجيه، *Description de l'Afrique et de l'Espagne*. بقلم الإدريسى، لندن، ١٨٦٦، النص ص ٢٠٩، انظر ص ٢٦٩ الرواية، التى اعتقدت أنه يتعين على أن ابتعد عنها قليلاً.

أفريقية كسى المحراب بالرخام من قمته إلى قاعدته، وزينه بكتابات ونقوش عربية؛ ووضع حوله أعمدة مبرقشة باللونين الأسود والأبيض (جرانيت؟) وأقام فى مواجهة المحراب عامودين من الرخام الأحمر البديع (الرخام السماقى)، لم ير أحد أجمل منهما فى الغرب أو الشرق: حتى أن إمبراطور القسطنطينية عرض شراءهما بمقدار وزنهما من الذهب، ولكن زيادة أبى بيعهما(1). وتشهد قصة ذلك العرض، فى رأيى، على التجارة بالمهندسين المعماريين البيزنطيين فى القسطنطينية، أو فى محيط نابولى او بالأحرى فى صقلية، وبما أن الفن البيزنطى قد انتشر أحياناً، مع الحماية السياسية، حتى الحبشة، فإنه يجب أن نذكر هنا الرواية التى تقول إن عبد الله بن سعد، حاكم مصر (٦٤٥ ـ ٦٥٦)، قد حصل على هدية من ذلك الملك هى منبر جميل من الخشب المحفور؛ وضعه فى المسجد الجامع نجار دندرة بقطر، الذى أرسل لذلك خصيصاً من الحبشة(2).

ومصر تساعدنا كثيراً فى هذه الأبحاث سواء للجذور العميقة التى مدها فيها الجنس العربى منذ بدايات الفتح الأولى، أو لثرائها الذى لا ينفذ وهو غذاء للفنون، ولأن آثار القرون الوسطى فيها قد قام بتوضيحها، أفضل مما حدث فى أى بلد إسلامى آخر، الكتاب المحليون كما قام بدراستها الأوربيون. ويروى المقريزى، جامع

(1) ابن الأبّار، **الحلة السيراء**. مخطوطة الجمعية الأسيوية فى باريس، الورقة ٣٠ الوجه الثانى. راجع البكرى، المذكور فى الهامش ٢، ص ٧٨٤: الذى يضيف قائلاً إن الأعمدة، التى شيدت لتدعيم القبة التى بناها إبراهيم بن أحمد، كانت كلها مزينة بالفسيفساء، وهذا المسجد، القريب جداً من بحرنا، يمكن أن نقول إنه لم يستكشف حتى يومنا هذا، لأنه من الصعوبة بمكان أن يدخل المسيحيون المدينة المقدسة فى أفريقيا، ولم يحدث لأى أحد حتى الآن أن دخل المسجد. وبعد شو وديسفونتين، حاول هذا عبثا جيرو دى برانجى (المرجع المذكور، ص ٦٢ و٦٤) والسيد جرينفيل تيمبل؛ وقبل ذلك بعدة سنوات لم يستطع بارون مالتسان الجسور أن يلاحظ سوى بقايا أعمدة وأعمال أخرى قديمة، كانت ترى من الخارج، وقبة أخرى ومئذنة صغيرة عليها كتابات كوفية *Reire in den Regentschaften Tuoris und Tripolis*. ليبزج، ١٨٧٠، المجلد الثانى، ص ٧٠.

(2) المقريزى، **المواعظ**، نص بولاق، المجلد الثانى، ص ٢٤٨.

الأخبار المتناثرة فى حوليات بلاده فى نشاط بالغ، تاريخ كل أثر. ونعرف منه أحداث جامع عمرو بن العاص، فى مصر القديمة(1)، الذى تم ترميمه عدة مرات وأعيد بناؤه فى عصر الوليد؛ الذى أمر فى عام (٧١٠) بهدم سقفه الذى بدى منخفضاً جداً، وشرع مرة أخرى فى البناء الجديد (مايو ويونيو ٧١١)، وانتهى منه بعد ثلاثة عشر شهر على يد يحيى بن حنظلة، وهو معتوق بنى عامر بن لواء(2)، حيث يبدو أنه هو أيضاً من أصل فارسى وربما من همذان نفسها(3). وفى الحقيقة، فى الرسوم التى لدينا لجامع عمرو، يبدو قوس البواكى، مكوناً من قوسين متقابلين، لكنه مستدير عند قمته وغائر من الداخل، كأنه يجمع عناصر القوس المدبب والقوس الذى على شكل حدوة الحصان، اللذين تطورا بعد ذلك، أحدهما فى الجانب الشرقى من الإمبراطورية الإسلامية والآخر فى الجانب الغربى منها. ونلمح فيه أيضاً البناء بحجر من لونين متبادلين: ويبدو من المحتمل أن تلك الأقواس بقيت قائمة حتى القرن الثامن(4). ولكننا لن نناقش الاحتمالات، بينما لدينا اليقين فى مسجد ابن طولون. فالمقريزى يقدم لنا تفاصيل كثيرة ودقيقة عن هذا الأثر، الذى بنى فى القرن الذهبى للحضارة الإسلامية: بل إن الجنس العربى كان نجمه آخذ فى الأفول، وكان يستأجر سيوفاً أجنبية لكى يستمتع بصورة أفضل بملذات العقل والحواس، وكانت الأقاليم تنفصل عن الإمبراطورية، التى بقى لب ثمرتها الجافة فى بغداد. وابن طولون، وهو جندى من أصل تركى،

---

(1) المقريزى، المجلد المذكور، ص ٢٤٦ إلى ٢٥٦.

(2) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٤٨. راجع كوستى.

(3) استنتج هذا من البلاذرى، المرجع المذكور، ص ٣٠٩.

حارب بنو عامر بن لواء، وجهاء مكة، فى الحروب الأولى للإسلام وقد كان هناك واحد منهم عند الاستيلاء على همذان (٦٤٢). وبالتالى فمن المحتمل جداً أن تكون العائلة قد استقرت فى تلك المدينة وأن يكون معتوقها من أصل محلى.

(4) انظر التصميمات فى كتاب كوستى القيم، *Architecture arabe, au monuments du Kaire*، باريس، ١٨٢٧، رسم تخطيطى على الورق، اللوحات الأولى والثانية والثالثة وراجع النص، ص ٣٠ والصفحات التالية.

أرسل لحكم مصر وجعل من نفسه أميراً عليها، قام ببناء أماكن إقامة للجنود فيما يسمى اليوم بمصر القديمة وقصور ومجرى للمياه ومستشفيات؛ ومن بين الآثار الأخرى تخيل مسجداً جامعاً جديداً. ويروى كيف جلد وزجّ فى سجن الشرطة بالمهندس المعمارى المسيحى الذى بنى له قبل ذلك بقليل مجرى المياه، واستدعى ابن طولون مهندساً معمارياً آخر للمسجد؛ ولكنه عندما سمعه يطلب ثلاثمائة عامود تجمع من الكنائس المسيحية فى أنحاء مصر كلها، استاء من ذلك الرأى ولم يكن يدرى ماذا يفعل. وعندئذ كتب له المسيحى من السجن بأنه يثق فى بناء حوائط المسجد دون أعمدة باستثناء عامودى المحراب؛ وبعد أن استدعاه الأمير رسم له مخططاً على قطعة من الجلد، ووافق هو على هذا الرأى؛ وقام بتقليد المهندس المعمارى عباءة، كما نضع الآن على صدر أحدهم نيشاناً، وأعطاه مائة ألف دينار وموافقته غير المشروطة على باقى النفقات: فتم تسليم العمل بعد عامين، فى عام مائتين وخمسة وستين من الهجرة (٨٧٨ ـ ٨٧٩). وقد حظى مسجد ابن طولون المهجور والذى جرى ترميمه دون أن يطرأ عليه تغيير جوهرى(1)، بملاحظة مارسيل(2) ودرسه كوستى ونظر إليه بإعجاب الأوربيون كافة بوصفه واحداً من أجمل آثار القرون الوسطى وأقدم بناء ذى أقواس حادة(3). وفى حقيقة الأمر فإن الرسم الذى قدمه كوستى يبين لنا فى تلك

---

(1) المقريزى. المرجع المذكور. المجلد الثانى، ص ٢٦٥ والصفحات التالية.

(2) *Univers pittoresque; Egypte moderne*. بقلم م. مارسيل، ١٨٤٨، ص ٧٢ والصفحات التالية.

يعلم الباحثون أن مجلدات كثيرة من هذه المجموعة الكبيرة ليست مجرد ملء فراغ الأوراق بما جمعه المؤلف. وقد عاش مارسيل وهو مستشرق، طويلا فى مصر، ودرس دراسة جادة آثار ذلك البلد فى العصور الوسطى، ونشر العديد من الأعمال المهمة الأخرى: ومن قرأ نصوص المقريزى وغيره من المؤلفين العرب، يلحظ على الفور أن مارسيل درسها وقدم لها ترجمة أمينة فى معظم الأحيان.

(3) اوين جونز، *Grammaire de l'Ornement*. لندن وباريس (دون تاريخ)، فى وصف اللوحة الواحدة والثلاثين.

الأقواس القائمة على أعمدة قوية القوس الحاد الذى يميل إلى الطول قليلاً ويشبه شبهاً كبيراً القوس الحاد فى المبانى الصقلية التى ترجع إلى القرن الثانى عشر(1) وكذلك قوس مقياس النيل فى الروضة(2)، الذى بنى فى عام مائتين وسبعة وأربعين من الهجرة (٨٦١)، طبقاً لما يرويه المقريزى(3). ويشهد لنا هذا الكاتب بعد ذلك على فخامة العمارة، التى تباهى بها خلفاء ابن طولون، فى نهاية القرن نفسه، وتباهى بها أكثر منهم الفاطميون فى القرن العاشر والحادى عشر(4). وإذا كان هو لا يحدثنا عن وطن المهندسين المعماريين، ولا عن مهندس ابن طولون المسيحى، فإنه يروى لنا أن بوابات القاهرة الثلاثة، التى شيدت تقريباً فى عام ألف وتسعين من التقويم الميلادى، كانت من عمل ثلاثة أشقاء ولدوا فى حمص(5).

ولا حاجة بنا لأن نستطرد فى تناول مذكرات الآثار المصرية فى القرن العاشر والحادى عشر تناولاً تفصيلياً، لأن الفن بقى كما هو، حتى إن كان الذوق الأجنبى قد تغلغل فى الزخارف(6). ولم يرفض ابن طولون نفسه، وهو رجل مثقف ومتدين، وضع أسدين من الجص أمام باب قصره(7). وقد سمح ابنه خمارويه، الذى خلفه، برسم صورته مع مغنياته فى قصر صغير بحدائقه الرائعة، وكانت أسواره كلها مطلية باللونين الذهبى والأزرق، والصور المرسومة على قماشة كبيرة مزينة بالتيجان والأقراط وغيرها من المجوهرات الثمينة(8). وبعد أن استولى الفاطميون بعد ذلك على مصر على يدى جوهر، وهو

---

(1) كومستى، المرجع المذكور، ص ٣٢ والصفحات التالية.
(2) كومستى، المرجع المذكور، اللوحة السبعون، والنص ص ٤٥.
(3) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ١٨٥.
(4) انظر المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الأول، ٢٨٤، وفى مواضع أخرى كثيرة.
(5) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢١٨، والأبواب الثلاثة كانت تسمى باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح.
(6) انظر كومستى، المرجع المذكور، ص ٣٤.
(7) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٣١٥.
(8) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٣١٦ و٣١٧.

عتيق صقلى من أصل يونانى أو لاتينى، أصبح استخدام الصور أكثر شيوعاً؛ وحتى فى مسجد الأزهر الشهير (٩٧٢) نحتت على تيجان الأعمدة بعض أشكال الطيور وقد عدها البعض تعاويذ تبعد عن الجامع العصافير والقمرى والحمائم(1). والحقيقة هى أن مهندسى الأمراء المصريين من القرن العاشر فصاعداً كانوا مغرمين بالأشكال الغريبة والزخارف المركبة: كما حدث فى الأدب العربى، وكما يحدث دائماً فى الفنون بعد عصر من البساطة الجميلة(2). ومع كل هذا لم يهجروا القوس المدبب، إلا أن بعض الأقواس المستديرة أو الثلاثية تظهر معه، ولكن الأسلوب لم يتغير تغيراً جوهرياً. ولا يمكن أن نقول إنه قد أعقب زمن مقياس النيل الجميل ومسجد ابن طولون عصر باروك، مثل فن الباروك الذى ملأ أوربا فى القرن السابع عشر. بل إنه يبدو لى أن الفن العربى فى مصر بعد الحروب الصليبية قد عاد لرصانته القديمة. وتقدم لنا آثار قلاوون وبرقوق وقايتباى، التى ظهرت فى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ذريعة للتعجب والتأمل لتشابهها مع الأبنية الفلورنسية الجميلة فى تلك الحقبة نفسها.

ومن ناحية أخرى فإننا سنتوقف عن بحث الفن العربى فى بلاد أخرى؛ لأن الآثار الإسلامية شرق برزخ السويس قبل القرن الثانى عشر، طبقاً للدراسات القليلة التى جرت عنها، لا تظهر أشكالاً مختلفة عن أشكال آثار مصر الإسلامية؛ وإذا نظرنا غرب برقة، فإننا لا نجد فى أفريقية مبان أخرى من ذلك العصر سوى مسجد القيروان الذى لم يستكشف. وسنترك جانباً أيضاً أسبانيا، حيث بدأ العرب باتباع الفن الرومانى فى أوربا الغربية وبيزنطة عن كثب، ثم استمروا بعد ذلك بالأسلوب الذى أطلق عليه الموريسك: ولكن لا هذا الأسلوب

---

(1) المقريزى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٧٣.

(2) انظر، فى كوستى، المرجع المذكور، اللوحتين السابعة والثامنة والنص ص ٢٣ والصفحات التالية.

ولا الأسلوب الأول يشبهان الأسلوب الصقلى فى القرن الثانى عشر، سوى فى الزخرفة.

وإذا ما اقتصرنا إذن على مصر، فإننا سنطلق مع كوستى اسم فن العمارة العربية الخالصة على ذلك الفن الذى نشاهده بإعجاب فى آثار القرن التاسع والعاشر(1): وسنخلص إلى أن هذا اللون من الفن ولد على ضفتى نهر دجلة، ومارسه المهزومون لزمن طويل. ويؤكد لنا هذا الرأى مثال من فن مشابه، عندما نعلم انه بعد أن دمرت السيول مكة، أرسل الخليفة عبد الملك، فى عام ثمانين (٧٠٠)، مهندساً مسيحياً لبناء جسور تحمى فى المستقبل المدينة والكعبة، وكان ذلك المهندس المسيحى قد تعلم فنه، كما هو محتمل، فى سهول بلاد ما وراء النهرين التى تغمرها المياه(2). وأنا لا أقول إن الفن العربى قد نشأ من فراغ. فقد تشكل بالتأكيد من التراث القديم لبلاد ما وراء النهرين، وميديه وفارس والتراث البيزنطى، المختلط بدوره بالأسلوب الرومانى والشرقى وجاء إلى قلب الإمبراطورية العربية الجديدة عن طريقين، أى من الولايات التى كانت خاضعة للقسطنطينية مباشرة ومن مملكة الساسانيين التى سقطت، بعد أن تعلمت العديد من الفنون والعلوم من اليونان ومن روما الجديدة، حتى أن هذا المركز الحضارى العظيم نشر ضياءه فى أوربا وفى آسيا على السواء. وفى سانتا صوفيا قدم مثلاً رائعاً للقباب والنقش الضخم للكتابات التى كتبت للتذكير والزخرفة معاً؛ وقد استخدمها مسلمو الأقاليم كافة بعد ذلك على نطاق واسع. ولكن مع كل أوجه القرابة والتشابه بين العديد من الأجزاء، فإننا لا نستطيع بالطبع أن نسمى الأسلوب العربى بيزنطياً، ولا يمكن لأحد أن ينكر وجود العنصر الفارسى فيه.

ويحدثنا التاريخ عن أصل المهندسين المعماريين الأوائل: ولاتزال

---

(1) كوستى، المرجع المذكور، ص ٣٢.

(2) الأزرقى، نص عربى نشره وستنفلد، فى *Chroniken der Stadt Mekka*، ليبزج، ١٨٥٨، المجلد الأول، ص ٢٩٦.

هناك الآثار الساسانية، بأقواسها البيضاوية فى كل مكان، وبقوس تكى كسرى الأهليلجى، للشهادة على أن المنحنيات ذات المركز الواحد لم تعد فى القرنين الخامس والسادس من عصرنا(1)، كافية لإرضاء الذوق الشرقى، حتى إن لم يستبدلها البيزنطيون أبداً(2).

---

(1) فلاندين وكوستى. *Voyage en Perse*. (١٨٤٠ ـ ١٨٤١). باريس، دون تاريخ. انظر اللوحات ٢٤ (حريستان)، ٤٢ (فيروزباد)، ٢١٦ (الأطلال الساسانية التى تسمى تاكى كسرى فى *Ctesifone*) والنص ص ٤٣، ١٧٥. ولاحظ القباب المتكررة بكثرة وغالباً بيضاوية، أو ناشئة عن قوس يدور عمودياً على المحور الأكبر. وفى تاكى كسرى نجد أن القوس الكبير الذى يصل إلى قمة القائمة الكبرى هو قوس حاد وطرفه مستدير مثل أقواس مسجد عمرو فى مصر القديمة.

(2) جاللى نايت. *The Normans in Sicily*. ص ٣٥١. يقدم افتراضين. يبدو لى أولهما معقولاً جداً والثانى غريباً جداً: أى أن القوس الحاد انتقل إلى صقلية من القيروان وأن الذى نقله هو مهندس معمارى بيزنطى. وتأييداً لهذا الرأى الثانى. يرفق المؤلف القوس الحاد الذى يظهر فى تقويم سير القديسين للإمبراطور باسيليوس المقدونى الموجود فى مكتبة الفاتيكان. وهذا المخطوط اليونانى الثمين للغاية من الرق والمسجل فى المكتبة المذكورة برقم ١٦١٢، يتضمن سير القديسين فى الستة شهور الأولى من العام بدءاً من سبتمبر: وهو مزين فى كل صفحة بأشكال منمنمة جميلة. تشكل على الأقل ثلثه وتمثل بعض المبانى فى معظم الأحيان. والنص اليونانى مع ترجمته اللاتينية. المطبوع فى أوربينو عام ١٧٢٧ فى ثلاثة مجلدات، باسم الكاردينال أنيبالى البانو الملقب سان كلمنتى، ينقل فى المجلدين تلك النمنمات على شكل أغصان. والآن بعد فحص طبعة أوربينو الرائعة وبعد أن رأينا أيضاً المخطوط الأصلى، لابد أن أقول إن الباحث الإنجليزى قد وقع فى خطأ. إن القوس الحاد بمعنى الكلمة لا نراه أبداً فى تقويم سير القديسين للإمبراطور باسيليوس. هناك فقط (طبعة أوربينو، المجلد ٦٧ و٦٩ و٧٨ و٩٠ و١٠٧ و١٢١ و١٢٧ .. إلخ) حول بعض صور القديسين، ما يشبه الشكل الثلاثى المكون من أربعة أعمدة وينتهى فى الجزء العلوى بزاوية قائمة بين قوسين مستديرين، أو على العكس من ذلك، بقوس دائرى بين زاويتين قائمتين. ولكن كما نرى جميعاً، هذه ليست سوى أطر وليست عناصر معمارية حقيقية، ثم إن الزاوية القائمة المستخدمة كثيراً للزينة فى العمارة، لم تسم أبداً قوساً ولا يمكن أن تقوم بوظيفة القوس.

وفى موضع واحد. أي فى ص ١٠٢ من المجلد الأول، هناك بالضبط شكل لأحد البواكى. المكون من أعمدة تسند. بدلاً من الأقواس المستديرة أو المدببة. زوايا مستقيمة بالطريقة التى وصفناها للتو. وبالتالى فإن هناك أمر من اثنين: إما أن يكون الرسام قد رسم البائكة نزوة أو إرضاءً لرغبته ووضع شكلاً زخرفياً بدلاً من القوس؛ أو أراد أن يقلد بطريقة بدائية الأقواس المدببة، التى كانت مستخدمة فى عصره، أى فى النصف الثانى

أين ومتى شيد القوس المدبب بالأسلوب العربي للمرة الأولى، هذا ما لا نستطيع أن نستخلصه من تلك الدراسات القليلة التي قام بها الأوربيون حتى الآن في الأقاليم المجاورة لدجلة والفرات. ويجول بخاطري أن هذا قد حدث في القرن الثامن في مكة. ونحن نعلم أن المسلمين، عندما كانوا يشيدون المساجد من البداية، كانوا ينسخون تصميم المسجد الذي يحيط بالكعبة(1). ونحن نعلم أن هذا الحرم الإسلامي كان محاطاً بالمنازل وعند توسيع محيطه، حدث أن العديد من الأجزاء بقيت بينها ممرات ضيقة لفتح أبواب جديدة للمسجد. وقد علمنا أيضاً من مؤلف مكي في القرن التاسع، عدد الأبواب، وكان كل منها قد بني بقوس أو قوسين أو عدة أقواس، ونعلم مساحة كل قوس(2)، وكانت هذه المساحة في معظم الأحيان تتناسب مع القوس الحاد أكثر مما تتناسب مع القوس المستدير، وهو ما

من القرن التاسع، لدى المسلمين. ومنظر هذه المنمنمة هو بالتحديد منظر في أنطاكية، التي كان يحتلها المسلمون آنذاك. وهكذا فإن الرسم يبرهن على أن البيزنطيين، لم يقوموا ببناء أقواس مدببة في مبانيهم، ولم يكونوا حتى يعرفونها. أو لم يكونوا يريدون تقليدها بدقة.

(1) بورشهاردت، *Travels in Arabia*، لندن ١٨٢٩، المجلد الأول، ص ٢٨٤؛ وبرتون، *Personal narrative of a Pilgrimage etc,* لندن، ١٨٥٥، المجلد الأول، الفصل السادس، ص ١٢٨. انظر في ص ١٣١ والصفحات التالية أفكار برتون حول العمارة الدينية في الشرق.

(2) الأزرقي، المرجع المذكور، ص ٣٧٢ والصفحات التالية.

هذا العمل، القائم على رواية باحث مكي عاش في بداية القرن التاسع، كتب في منتصف القرن نفسه وأضيفت إليه إضافات في القرن العاشر. ونقرأ فيه ارتفاع وعرض كل من الـ ٤٢ قوساً، التي كانت منفردة أو متعددة في أزواج، أو ثلاثة أو خمسة وكانت تشكل الـ ٢٣ باباً (في عام ١٨١٤) كانت ١٩ في المسجد الكبير مربع الأضلاع في مكة، كما كان موصوفاً بعد بنايات الخلفاء الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥) والمنصور (٧٥٤ ـ ٧٥٥) والمهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) والموصوفة في العمل نفسه، ص ٣٠٠ والصفحات التالية. ومعظم هذه الأقواس كان ارتفاعها ١٠ أو ١٢ ذراعاً والذراع يعادل في ظننا ٥١، متر على عرض يبلغ ٧ أذرع بالتقريب. وهناك واحد فقط منخفض جداً، أي بارتفاع ١٠ في عرض ٩؛ وهناك أقواس أخرى على العكس من ذلك استطالت جداً، أي ٩ على ٥ و١٠ على ٥. وهي أقواس كاملة أو أقل من ذلك بقليل.

نلاحظه فى الواقع اليوم فى الأبنية الجديدة لذلك المسجد(1). ومن المحتمل إذن أن شكل القوس هذا، الذى انتشر بسرعة فى كل أنحاء الدولة الإسلامية، باستثناء أقصى الغرب، قد شوهد كثيراً فى تلك الفترة فى مكة. وقد كانت بدايته القوس البيضاوى فى بلاد فارس؛ وربما أدت المساحة الضيقة إلى تقريب ضلعى المنحنى حتى تقاطعا، أو ربما جاءت الفكرة من تقابل قوسين أو ثلاثة أقواس مستديرة فى الأبواب المقسمة بأربعة أو خمسة أعمدة. وقد حددت فى هذا الافتراض القرن الثامن، لأن مسجد الكعبة خلال ذلك القرن تم توسيعه ثلاثة أضعاف، ولأن القوس المدبب الذى لم يتطور حتى فى بناء مسجد عمرو الذى ينسب للوليد (٧١٤)، نراه بالفعل جميلاً وكاملاً فى مسجد ابن طولون (٨٧٩).

ونحن نجهل كيف ومتى بدأ فى صقلية التوقف عن الطراز الرومانى أو البيزنطى. فقد بدأت الأبنية الجديدة بالتأكيد فى القرن التاسع، عندما كان الأمراء الأغالبة يقومون بتجديد بالرمو وتوسيعها(2)؛ ويرجع لهذا العصر الأصل الأول لطريق كاسارو الأكبر، الذى ربما تم نقله من السوق المركزى للقيروان، الذى كان يبلغ طوله ميلين تقريباً(3). وربما تكون البداية أيضاً قد جاءت من المهدية عندما قام الفاطميون، بعد عشرين عاماً من بناء عاصمتهم الجديدة، بتشييد الخالصة (٩٣٧) فى عاصمة صقلية(4)؛ أو بعد ثلاثين عاماً، أثناء تجديد النظم العامة الذى بدأه الكلبيون(5). ولدينا من هذه الفترة

---

(1) بورشهاردت، المرجع المذكور، المجلد الأول ص ٢٤٢ و٢٧٧ والصفحات التالية.

(2) الكتاب الثانى، الفصل الخامس والتاسع من المجلد الأول، ص ٢٦٠ و٤٦٨.

(3) البكرى، *Description de l'Afrique*، نص باريس، ص ٢٥، والترجمة فى *Journal Asiatique* اكتوبر ١٨٥٨، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(4) الكتاب الثالث، الفصل التاسع، المجلد الثانى، ص ١٩٧.

(5) الكتاب الرابع، الفصل الرابع، المجلد الثانى، ص ٢٧٩.

أجزاء من نقوش ترمينى(1) التذكارية وكذلك، فى تصميمات بدائية، بقايا النقوش التى كانت تتوج باب البحر(2)، كما نراها الآن فى قصر زيزا وفى قصر كوبا؛ وعلاوة على ذلك يذكر ابن حوقل مبانى أخرى جديدة لاحظها (٨٧٢)(3). وبعد ذلك بقرن يأتى الكونت روجيرو لكى يؤكد لنا روعة المبانى التى وجدها ودمر جانباً كبيراً منها(4): وتلك التى بقيت قائمة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر يؤكدها لنا كتاب الملك روجار، أو الإدريسى. ويشير هذا الأخير، بين ما يشير، إلى كنيسة بالرمو القديمة، المكرسة للعبادة المسيحية، والتى تحولت بعد ذلك إلى مسجد وأخيراً إلى كاتدرائية مسيحية مرة أخرى، التى كانت العين ترى فيها أعمال رسم نادرة، موشاة بالذهب والخطوط الأنيقة الأصلية التى تفوق كل خيال(5). ومن المؤكد على أى حال أن العمارة ازدهرت قبل الغزو النورمانى فى بالرمو وفى مدن أخرى من صقلية؛ ومن المؤكد أيضاً أنها استمرت فى الازدهار. ويصف الإدريسى نفســه القلعة النورمانية، التى لم يتبق فيها الآن سوى كنيســة بلاتينا وجــزء من برج كبير. «وترتفع، كمـا يقول هو، فى أعلى مكان من كاسارو قلعة الملك روجيرو المظيم الجديدة، التى بنيت بالفصوص(6) وقطـع الأحجـار؛ وهى قـلعة معقدة جـداً. مزودة

(1) تحدثنا عن هذا النقش فى الكتاب الرابع، الفصل الرابع، الجزء الثانى، ص ٢٧٩ وبعد ذلك قرائته أنا نفسى ونشرته فى *Iscrizioni arabiche di Sicilia*، الطبعة الأولى، رقم ١. *Rivista sicula* مارس ١٨٦٩.

(2) فى الكتاب الرابع نفســه، الفصل الخامس، المجلد الثانى، ص ٢٠٧.

(3) الكتاب الرابع، الفصل الخامس، المجلد الثانى، ص ٢٩٩ والصفحات التالية.

(4) الكتاب الرابع، الفصل الثالث عشر، المجلد الثانى، ص ٤٦٢، هامش ٤.

(5) الإدريسى، النص، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢٨ و٢٩. ولكن يبقى عندى بعض الشك فى بعض الثغرات فى هذا الموضع من النص. والوصف يتفق تماماً مع كنيسة بلاتينا. فكيف نفترض أن الإدريسى لم يذكر هذا العمل الرائع الذى قام به راعيه الكبير. وكيف نتخيل أن النورمان قد تركوا فى كنيسة دوم نقوش الكتابات التى لابد أنها مأخوذة من القرآن؟

(6) «فصوص»، جمع «فص»، وهو مأخوذ كما هو، كما كتب فليشر، من *ψῆφος* «حجر صغير»، وهو مستخدم للإشارة إلى مادة الفسيفساء المذهبة، فى موضع ابن شاكر الذى

بأبراج عالية، ومنارات قوية وحصون منيعة تحمى القصور والقاعات»(1). ويمكن مقارنة هذه الأخبار بما قاله ابن جبير، وروموالدو السالرنى وأوجو فالكاندو، الذين ليس هناك ما يدعو لتكرار ما قالوه هنا؛ ويجدر بنا أن نتذكر المبانى القائمة فى ضواحى المدينة والتى تحدثنا عنها فى بداية هذا الفصل؛ وأن نضيف إليها الكنائس الكثيرة والأديرة والمبانى الخاصة التى نرى بعضاً من آثارها، أو تشير إليها الكتابات القديمة، لندرك مدى وماهية الفخامة المعمارية فى صقلية فى القرن الثانى عشر.

ولكن طراز المبانى التى بقيت من ذلك العصر تتفق مع الطراز العربى فى مصر. ها هى ذى الأقواس الحادة بصورة معتدلة فى كنائس بالرمو، وتشيفالو وموريالى؛ وأقواس بادياتسا بالقرب من مسينا(2)، ودير منياتشى(3)، وجسر الأميرال، وماريدولتشى، وزيزا

ذكرناه للتو فى ص ٧٨٢، هامش ٢. راجع حاشية لدوزى فى *Description de l'Afrique, par Edrisi*، ص ٣٦٠. وبالتالى فإنه يبدو للوهلة الأولى أن الإدريسى أراد التلميح إلى فسيفساء كنيسة بلاتينا وقاعة القصر. ولكن كيف نصف أحجار الموزايكو الصغيرة بالصفة التالية «جافية» أى خشنة أو ثقيلة، وحول هذه الصفة انظر دوزى، المرجع المذكور، ص ٢٧٨، حيث ذكر بالذات هذا الموضع للإدريسى؟ وبالتالى فإن من المناسب أن نأخذ «فصوص» بالمعنى الأولى، وأن نقنع أنفسنا بأن المؤلف أراد أن يستخدم كعادته عكس الأحجار الكبيرة أو الخشنة وهى الكتل الحجرية المقطوعة. ومن ناحية أخرى فإن البناء لا يتم بالموزايكو، ولم يكن الإدريسى نفسه ليجرؤ على أن يصل إلى استعارة من هذا النوع.

(1) الإدريسى، النص، فى المكتبة العربية - الصقلية، ص ٢٩. ويجب أن يصحح طبقاً لما قاله دوزى، المرجع المذكور، ص ٣٠٨، مع ملاحظة أنه يوجد فى الوثائق العربية الصقلية لفظ *r.. kkah* بمعنى *rocca* فى الإيطالية (حصن)، وأحياناً ما كان يترجم «قلعة».

(2) هكذا تسمى بالعامية أطلال دير سانتا ماريا ديللا فاللى أو ديللاسكالا، الذى تأسس فى القرن الثانى عشر. وأنا أذكره فقط بالنسبة للجزء الذى تبقى من المبنى الأصلى، حيث أن الباقى يرجع إلى القرن الرابع عشر. انظر جاللى نايت، المرجع المذكور، ص ١٢٦؛ وبالأحرى جيو دينس، فى *Murray handbook... Sicily*، لندن، ١٨٦٤، ص ٥١٢.

(3) حول أطلال هذا الدير الذى تأسس فى عام ١١٧٤ انظر جاللى نايت، المرجع المذكور، ص ١٦٨ والصفحات التالية.

وكوبا، التى تشبه فى دقتها الهندسية، أقواس مقياس النيل ومسجد ابن طولون! وها نحن نرى فى أبنية مارتورانا الخارجية ودير موريالى وكذلك فى أحد جدران كنيسة دوم جوانب العقود المعمارية وعناصر زخرفية كثيرة يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود كما هو الحال فى الأزهر فى القاهرة! وها هى قباب سان جوڤانى دللى إرميتى، وقباب كنيسة بلاتينا، ومارتورانا وسان كاتالدو، وسان جوڤانى دى لبروزى، والقبة التى تغطى المقصورة الصغيرة فى حديقة بيت نابولى عند قصر كوبا، والقبة الأخرى الأصغر، وهى سبيل حقيقى لا يزال يروى ظمأ المارة فى الطريق بين ڤيللاباتى وميزيلميرى(1)! وكل هذه القباب ذات القطاع الدائرى، تقوم على مساحة مربعة الأضلاع بها أقواس صغيرة نازلة تتجمع فى كل ركن على شكل ثمرة صنوبر محفورة، وتختلف كلها عن بناء القباب البيزنطية، بحيث يمكن أن تنسب بالأحرى للقبة التى يبدو أنها انتقلت من بلاد ما وراء النهرين إلى مصر(2) وأفريقيا.

---

(1) سبيل أو «طريق (الله)»، هكذا يسمى العرب بعض الأوقاف الخيرية، وخاصة تلك المخصصة لتقديم الماء للمارة.

وهذه العين التى لاتزال تحمل حتى اليوم اسم «كوبا» العربى، لم يصفها آخرون، على ما أذكر. وهى عين صغيرة جداً فى الحقيقة. ويلقاها على اليمين من يذهب من ڤيللا باتى إلى ميزيلميرى على طول الطريق، عندما يتجاوز القرية المسماة بورتيللا دى مارى ويصل إلى قمة المطلع الذى يهبط منه بعد ذلك إلى وادى النهر المسمى نهر ڤيكرافتس. ويبرز على يساره تل كتيتا، حيث كان قصر سعد بالتأكيد، الذى ذكره ابن جبير. وربما تكون هذه القبة الصغيرة تماماً من النبع المسمى نبع المجنونة، أو الذى تحدث عنه الرحالة الأسبانى، فى وصف قصر سعد، المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٨٨ و *Journal Asiatique* ديسمبر ١٨٤٥، ص ٥١٦ ويناير ١٨٤٦، ص ٧٦. والقبة الصغيرة مدفونة اليوم جزئياً تحت انهيار ترابى، ويبدو لى أنه انهيار حديث عندما رأيت هذا الأثر الصغير للمرة الأولى فى مايو ١٨٧٠. وهى مشيدة مثل القبة الأكبر فى دار نابولى بين بالرمو وموريالى، فوق مكعب، يدخل الناس فيه من جانب الطريق من خلال قوس حاد جداً مع أنه صغير جداً حتى إن أى إنسان يجب أن ينحنى ليمر منه. والمياه التى أصبحت اليوم قليلة جداً، تنبع فى العمق وتسير عبر قناة صناعية فى حوض من الزلط، على حافة الطريق، والطريق بعد ذلك أكثر انخفاضاً ويبعد ثمانية أمتار.

(2) الأستاذ سافريو كڤاللارى الذى ذكرناه أكثر من مرة فى هذا المبحث ذكر أن بناء قباب الآثار النورمانية فى صقلية مختلف عن البناء بالأسلوب البيزنطى، الذى يتوافق

ويمكن ملاحظة هذه المقارنات فى الأجزاء الأساسية من البناء، مع مقارنات أخرى كثيرة وصفها رجال الفن بمزيد من التفاصيل(1).

كما يظهر الخشب العربى المعتاد، ظهوراً واضحاً فى الزخارف، حتى إن كانت تنتمى لفن ثانوى، قائم بطبيعته على الهوى وعلى الافتتان لدى العرب، وهو الآخر مأخوذ من الولايات البيزنطية. ويلاحظ أحد الخبراء المدققين تشابه الزخارف الصقلية مع زخارف أقدم الآثار الإسلامية وعلى سبيل المثال فى جامع قرطبة(2). فالسقف الخشبى فى مسجد قرطبة، كما يصفه لنا الإدريسى، كان نسخة طبق الأصل من السقف الذى نراه الآن فى كنيسة بلاتينا فى بالرمو، إلا أن الزخارف القائرة فيه، كانت دائرية فى جزء منها وسداسية فى جزء آخر فى قرطبة(3) أما فى بالرمو فهى ذات شكل مثمن على هيئة نجمة. ومن يلاحظ إفريز الموزايكو الذى يتوج لوحات الرخام الأبيض فى كنيسة بلاتينا فى بالرمو وكنيسة دوم موريالى يظهر له أن الأيدى التى رسمتها هى الأيدى نفسها التى صنعت نموذج الأفاريز المنقوشة المخرقة فى مساجد ابن طولون والحكم والسلطان حسن أو فى الجامع الأزهر. وتبدو زخارف الأرابسك التى نشاهدها بإعجاب فى منابر تلك المساجد أصلية أو نسخاً من تلك التى تلف بالغموض أرضيات كنيسة بلاتينا أو كنيسة موريالى وعروشها

فيه سطح الدائرة المقمرة مع الجدران الداخلية للمنشور مربع الأضلاع من خلال جدار على شكل شراع. وقد لاحظ فى بدياتسا بالقرب من مسينا أساسات قبة نورمانية سقطت الآن. انظر مقارنته فى ملزمة مبحث الطباعة الحجرية بالألوان الرائعة الذى بدأ للتو فى بالرمو تحت عنوان *Cappella del real palazzo di Palermo, disegnata e dipinta da Andrea Terzi, ec.*

(1) انظر جيرو دى برانجى، المرجع المذكور، ص ٩١ واللوحة العاشرة، رقم ٢.

(2) جيرو دى برانجى، المرجع المذكور، ص ٨٩ و٩٦ والصفحات التالية و١٠٠ و١١٩. لاحظ أيضاً زخارف زيزا وقرطبة، التى يقارن العمل نفسه بينهما، اللوحة الرابعة.

(3) دوزى وجويجى، *Description de l'Afrique et de l'Espagne, par Edrisi*. ص ٢٠٩ من النص و٢٥٨ من الترجمة.

الملكية(1). وحتى لا ينقص المقارنة شئ، فإن الكتابة العربية المسيحية، التى اكتشفت منذ فترة قريبة داخل قبة مارتورانا، مرسومة على محاور بالضبط كتلك الموجودة فى القاهرة. ومن ناحية أخرى فإن طراز ماريدولتشى وزيزا وكوبا الذى يظهر أيضاً فى أطلال قصر الملك روجيرو فى ألتاريللو دى بايدا، يصاحبه هنا عنصر آخر، نجده فى البقايا القليلة من القاعة الأرضية الكبرى وهو من بقايا الفن الساسانى وهو تجويف كبير، أو عقد صفير، يرتفع من مساحة مستطيلة وينتهى عند القمة بشكل بيضاوى مع المحور العمودى الأكبر بحيث يصور قطاعاً فى القبة البيضاوية(2). وهكذا تتحقق فى المبانى الصقلية فى القرن الثانى عشر بعض ملامح الفن العربى الأولى غابت فى الحلقات الوسطى من السلسلة، كما يحدث فى سلالة الحيوانات طبقاً للقانون الذى يسميه علماء الطبيعة الآن بالخصائص الوراثية. ولا تقل دهشتنا عندما نرى فى تيجان بعض الأعمدة فى الآثار الساسانية الشكل نفسه الموجود فى الأعمدة النورمانية والتى لدينا منها الكثير من الآثار فى صقلية(3).

ويجب أن نلاحظ أيضاً تشابه حدائق التنزه. وعند قراءة تلك الصفحات التى يمكن أن يقال إنها انتزعت من القصص العربى، التى يصف فيها المقريزى بأسلوبه النثرى ودقته عن مصادر أكثر قدماً، قصور الضواحى والمصايد والقنوات والمقصورات الصغيرة، وحدائق الأمراء الطولونيين والخلفاء الفاطميين(4). يبدو لنا أننا

---

(1) هناك تناول عام لهذا الموضوع فى كتاب اوين جونز، الذى يحمل عنوان *Grammaire de l'ornement*، لندن وباريس، دون تاريخ، طبعة مصورة بالطباعة الحجرية بالألوان. انظر وصف اللوحة العشرين، من عمل السيد وارنج، الذى قام بدراسة طويلة عن الآثار البيزنطية، وقد ذكر تأثير التصميم البيزنطى على العرب، والذى يظهر، كما يقول فى القاهرة والأسكندرية والقدس وفى قرطبة وفى صقلية.

(2) هذا ما وصفه الأستاذ باسيلى بالقوس الفارسى، فى المقال المذكور من صحيفة *"La Ricerca"*.

(3) انظر اللوحات ١٧ و٢٧ و٢٨ من كتاب فلادين وكوستى القيم.

(4) المواعظ، الطبعة المذكورة، المجلد الأول، ٣٨٤.

نرى، وبمزيد من التفاصيل، الأخبار والتفاصيل نفسها التى يقدمها كتاب القرن الثانى عشر، من المسيحيين والمسلمين واليهود، عن مباهج الملوك النورمان فى صقلية. وعلى غرار القاهرة كان لبالرمو ما يسميه ابن جبير عقد القصور الملكية(1): زيزا ومنانى، وكوبا وماريدولتشى، التى كانت تدور تقريباً على شكل نصف دائرة حول المدينة من الغرب إلى الجنوب الغربى والشرقى. ولم يبتعد مؤسسو زيزا عن الذوق الشرقى، عندما وضعوا فى نهاية قاعتها الأرضية الكبيرة، المزخرفة بصورة رائعة مثل قاعة مصرية حديثة(2)، نافورة تقطعها عند منتصفها قناة مفتوحة من الرخام، وتتجمع المياه فيها خارج القلعة فى حوض كبير، كانت تظهر فى وسطه مقصورة أنيقة حتى نهاية القرن السادس عشر(3). وفى قصر كوبا تشهد قاعدة المشهد المكسوة بالأسمنت المائى، والباب الأعلى من الأرض وبقايا الجسور على أن القلعة كانت تطل على بحيرة صناعية صغيرة(4)؛ ونلمح آثار الأسمنت نفسه فى أطلال منانى(5). وهناك أخبار أوفر عن ماريدولتشى، أو فافارا كما يحلو للبعض تسميتها. فنحن نعلم أنها كانت فيلا ملكية للاستمتاع حتى بداية القرن الرابع عشر(6)؛ وأن

---

(1) فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ٩١ وفى *Journal Asiatique*، يناير ١٨٤٦، ص ٨٠.

(2) انظر الشكل فى «لين»، *Modern Egyptians*، المجلد الأول، الفصل الأول، أو فى أى مجموعة أخرى من تصميمات الشرق المعمارية.

(3) لياندرو البرتى، *Isole appartenenti all'Italia*، فنيسيا، ١٥٨١، الورقة ٤٩، الوجه الأول والثانى.

(4) قارن بين: فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الأول، وجيبرو دى برانجى، المرجع المذكور، ص ٨٨. وها هى كلمات فاتزيللو: *"Piscina erat ingens in medio, in qua viui pisces coercebantur, antiquo quadrato, ingentique lapide, mira crassitudine instructa. quae hodie (1558) incorrupta est, aquasque solum et pisces requirit"*

(5) هذا ما يؤكده الأستاذ باسيلى، فى مقالات *"Ricerca"* المذكورة هنا عاليه ص ٧٧٥، هامش ٢.

(6) وثيقة بتاريخ ٢٨ يونيو ١٣٠٧، ذكرها فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الأول.

الامبراطور أريجو، فى نهاية القرن الثانى عشر، سكن فى القلعة ووجد الحديقة مليئة بطيور الصيد(1). وقبل بضع سنوات، كان بنيامين دا توديلا، أو الرحالة الذى نقل عنه يذكر أن الملك النورمانى كان يذهب مع نسائه للراحة واستعادة نشاطه على البحيرة(2)؛ وتلك البحيرة التى جفت اليوم، نستطيع قياس محيطها بطول قاعدة الجبل وبقايا جسورها؛ ونلمح الارتفاع من الملاط المائى الذى كان سور القصر مكسواً به فى بعض أجزائه(3). ووصف شعراء الملك روجيرو، فى النصف الأول من القرن نفسه القنوات التسع المحفورة للمياه، والأسماك والطيور وحدائق أشجار البرتقال والنخلتين اللتين كانتا ترتفعان مثل الراية على حدائق أرميدا تلك(4)، التى أشارت فى القرن السابق دهشة الكونت روجيرو، عندما اقتحم (١٠٧١) سهل بالرمو(5)؛ ولعل تنسيقها قد تم فى بداية القرن، لأن القلعة حتى عصر ابن جبير (١١٨٤)، كان يطلق عليها قصر جعفر(6)؛ ومن ثم فمن المحتمل أن يكون قد بناه الأمير الكلبى جعفر (٩٩٨ ـ ١٠١٩). وربما تعد غابة النخيل المجاورة، التى كانت تمتد حتى أوريتو(7)، من بين أماكن الراحة والتنزه التى رآها ابن حوقل على ضفة النهر، نحو منتصف القرن العاشر(8) تقريباً ونهبها أهل يزا

(1) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب، ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ من المجلد.

(2) *Benjamin of Tudela*، ترجمة ا. اشير الانجليزية، المجلد الأول، ص ١٦٠.

(3) هذا ما رأيته أنا نفسى فى الأيام الأولى من هذا العام ١٨٧٢، فى صحبة الأستاذ چوزيبى باتريكولو. وهنالك ما يدعونى للأمل فى أن يدرس هذا المهندس المعمارى القدير دراسة عميقة مبنى ماريدولتشى، الذى تحدث عنه جاللى نايت وچيرو دى برانچى على حد سواء، ولكن مؤلفاتهما لا تبدو لى مرضية.

(4) انظر الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ص ٧١٤ والصفحات التالية.

(5) أماتو، المذكور فى الكتاب الخامس، الفصل الرابع، ص ١٢٤، من هذا المجلد.

(6) المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ٨٩، وفى *Journal Asiatique*، يناير ١٨٤٦، ص ٧٦.

(7) انظر هذا الكتاب، الفصل الثانى عشر، ص ٧٤١، الهامشان ٣ و٥.

(8) المكتبة العربية ـ الصقلية، النص، ص ١٠، وفى *Journal Asiatique*، يناير ١٨٤٥، ص ٩٢.

فى عام ١٠٦٣(1). ويجب أن نذكر أيضاً المنطقة المحرمة الشاسعة التى يقول روموالدو السالرنى إن الملك روچيرو قد أنشاها فى بعض الغابات والتلال بالقرب من بالرمو، وأحاطها لهذا الفرض بسور من الحجر، وزرع فيها أشجاراً جديدة، ووضع فيها عدداً كبيراً من الوعول، والتيوس والخنازير البرية، وكانت تلك الحديقة تمتد من القصر لأميال عديدة نحو الجنوب الغربى وراء قمم التلال وكانت تسمى، كما أعتقد، منانى، وهو اسم القلعة نفسها(2). ويضيف

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ١٠٩، من هذا المجلد.

(2) بينّا فى بداية هذا الفصل، ص ٨١٩، ملحوظة ٢، أن من بين افتراضين لفالكاندو، نفضل قراءة *Minenuim*، التى تعود لاسم المصدر *El-Menâni*، المذكور فى الوثيقة العربية لعام ١١٣٢.

ويبدو لى أن الاسم نفسه قد أطلق على المنطقة المغلقة كلها، وأن هذه المنطقة المغلقة قد بدأت من أسوار المدينة، حتى تجاوزت الساحل حيث إن اسم باركو، الذى أطلق على البلدية الحديثة، يشهد بالصفة القديمة للمكان: وبالمثل هناك تل قريب يسمى بالحديقة القديمة (باركو فكيو) والمنطقة المغلقة كانت تبدأ بالضبط من المدينة، وهذا ما نراه فى فاتزيللو الذى يقول إنهم فى عصره كانوا يطلقون كلمة باركو على الحديقة الملكية حيث كان يوجد قصر كوبا ومقصورة حديقة نابولى، التى تعلوها قبة. وهى بوجودها بين قصر كوبا ومذبح بابيا الصغير، تجعلنا نعتقد أنه من المحتمل جداً أن تكون الحديقة الملكية فى القرن السادس عشر قد وصلت إلى قلعة منانى. وفى القرن الثانى عشر كانت تضم زيزا بالتأكيد. وهذا من جانب المدينة من ناحية الشرق كما يمكن أن نقول، وفى الغرب، كان يشمل دون شك جبل كابوتو والساحل كله الذى بنيت عليه مدينة موريالى فيما بعد.

ومن ناحية الجنوب الغربى ثم من الجنوب كانت المنطقة المغلقة بعد ذلك تضم أرض ريوتّونى وكانت تمضى وسط بلدتى باركو وسان چوزيبى ياتو الحاليتين. وريوتّونى هو اسم دوامة مياه (فى خريطة الأركان حرب المنشورة فى عام ١٨٧٠، ونتيجة لخطأ فى النسخ، بدلاً من *Gorgo* (دوامة) وهى فى اللهجة الصقلية *gurgu* كتبت كلمة *Urro* ريوتّونى). وتسمى بريوتّونى أيضاً القلعة القديمة وهى تبعد أميالاً عديدة عن الدوامة وكذلك أيضاً الأماكن الواقعة بينهما، والتى تقع شرق الطريق المؤدى من الباركو إلى بيانادى جريتشى، على بعد عشرة أو اثنى عشر ميلاً عن بالرمو. واسم ريوتّونى هذا هو تحريف لكلمة رحل بوتّنت وهى قرية صغيرة كانت تتبع فى القرن الثانى عشر مستشفى سان چوفانى دى ليبروزى، كما نرى ذلك فى وثيقة لجوليلمو الأول، بتاريخ مايو ١١٥٦، ونشرها مونوبيتورى، *Sacrae Domus Mansionis... Monumenta*، الفصل الثالث عشر: وذكرها أيضاً أميكو فى حواشى *Sicilia sacra* لبيرّو، الورقة ١٢٤٥ الوجه الأول من طبعة ١٧٣٣. ونقرأ فى هذه الوثيقة «قرية بوتّنت فى ناحية منانى». ومن ناحية

روموالدو أن الملك كان يقضى الشتاء فى فافارا والصيف فى الصيد فى غابات الحديقة. وتتفق المقصورة الصغيرة التى تعلوها قبة لاتزال كما هى بين منانى وكوبا، أياً كان عمرها، مع ذوق الحدائق الملكية فى مصر(1).

أخرى فإن الوثيقة العربية ـ اللاتينية التى ترجع لعام ١١٨٢، التى نشر نصها اللاتينى ليللو فى *Monastero di Morreale*. ملحق *Privilegii e Bolle*. وأعاد طبعها مع النص العربى، الأستاذ كوزا فى الوثائق العربية واليونانية، المجلد الأول. (ولم يخرج بعد للنور)، فى وصف حدود أراضى جاتو مع حدود بالرمو، تقول أن أرض جاتو تصعد إلى البرج المسمى الفرس "et pervenit *ad murum parci* et vadit per murum *usque ad portam putei etc."* (ليللو، ص ٩: كوزا: ص ١٨٠، السطر ٢٣). ولكن النص العربى، الذى أخذ عنه بلا شك النص اللاتينى فى القرن الثانى عشر، يحتوى فى مقابل الموضع اللاتينى الذى طبعنا بخط مائل (كوزا، ص ٢٠٢، السطر ١٢) الكلمات *ila haiti hauzi l mebâni* والتى يمكن أن تعنى «إلى جدار المنطقة الخاصة بالمبانى»: «ويبدو لى أن هذا لا يتفق ابداً مع عبارة *"ad murum parci"*: وعلاوة على هذا، لا يبدو من المحتمل إطلاقاً أن تسمى غابة مسورة بالأسوار «المنطقة المغلقة الخاصة بالمبانى». ولكن عندما نغير نقطة فى الورقة المطبوعة، غير موجودة فى الأصل، وإذا وجدت لن تزعج من لديه خبرة بالمخطوطات العربية، وإذا غيرت أنا كما أقول نفحة واحدة، فإننا سنقرأ بدلاً من (مبانى) كلمة منانى، وهى الكلمة نفسها الموجودة فى الوثيقة العربية المذكورة من قبل فى عام ١١٣٢ وهى الكلمة نفسها التى نقرؤها فى اللاتينية فى وثيقة عام ١١٥٦. وسنفهم كيف أن الحديقة التى قام الملك روجيرو بتوسعتها قد أخذت اسم قبلته او قلعته، إذا جاز التعبير، لأن زيزا وكوبا لم تكونا قد شيدتا بعد وكانت ماريدولتشى تربض بعيداً ناحية الشرق.

ولإعطاء فكرة محددة عن تلك الحديقة الكبيرة، ها هى اخيراً كلمات روموالدو السالرنى، فى كتاب موراتورى. *.Rer. Italicar*، المجلد السابع، ص ١٩٤، عام ١١٤٩: *"Interea Rex Rogerius... Et ne tanto viro acquaram et terræ deliciæ tempore ullo deessent, in loco qui fabara dicitur, terra multa fossa pariter et effossa, pulchrum fecit vivarium, in quo pisces diversorum generum de variis regionibus adductos pulchrum satis et spaciosum ædificari palatium. Quosdam autem montes et memora quæ sunt circa Panormum, muro fecit lapideo circumcludi, et arboribus insitum et plantatum construi jussit et in eo damas, capreolos, porcos sylvestres jussit includi. Fecit et in hoc pareho palatium, ad quod aquam de fonte lucidissimo per conductos subterraneos jussit adduci."* ويبدو ان هذه بالضبط هى مياه نبع منانى.

(1) تذكر موضع المقريزى، المذكور فى بداية هذا الفصل، ص ٢٨٩، هامش ٢.

وإذا كان الأمراء النورمان قد اتبعوا عادات الكلبيين، فإن هؤلاء بدورهم كانوا قد قلدوا خلفاء القاهرة. ويبين لنا التاريخ السبب فى ذلك. لقد كانت أسرة الكلبيين من بنى حسن الكلبى، الذى أرسله المعز لكبح جماح المسلمين المشاكسين فى صقلية، إن أمكنه ذلك، يتمتع بشعبية فى بلاط ذلك الخليفة. وتحت حكم خلفاء المعز الضعفاء زادت قوة الكلبيين، حتى إنهم تمتعوا بمكانة كبيرة فى مجالس القاهرة بشكل أيسر مما حدث لهم فى الحكم فى عاصمة صقلية(1). وقد نتج بالطبع عن العلاقة الحميمة بين البلاطين، مزيد من التبادل التجارى بين البلدين: وكان هذا الأمر، مع وروده فى مذكرات القرن الثانى عشر والثالث عشر وحتى الرابع عشر(2)، قد بدأ بالطبع قبل الحروب الصليبية وقبل الغزو النورمانى للجزيرة.

وبعد ما قيل حتى الآن، نستطيع دون مواربة أن نقول إن العمارة الصقلية فى القرن الثانى عشر كانت عمارة عربية؛ ونستطيع أن نخلص إلى أن هذا الفن سار فى طريق أى فن آخر ينتمى للتحضر الخارجى الذى بقى فى صقلية حتى سقوط مملكة النورمان. أما عما كان يفترضه بعض المثقفين والعلماء أنه طراز مهجن، نشأ من اتصال سكان البلاد الجدد بسكانها القدامى، فيبدو لى إنه لون من الطراز العربى الشرقى المحض: لأننى لا أرى فى الطراز الصقلى ذلك الفارق العميق الذى يؤدى إلى خلق نوع جديد. بل نظراً لأنه يبدو لى أن الحدود الفاصلة بين النوع والجنس ليست أقل غموضاً فى العمارة عنها فى علم الحيوان، فإننى كنت ساكف عن الخوض فى هذا الكلام لولا أنى أعتقد أن حكم الآخرين قائم على بيانات تاريخية خاطئة بشأن الأزمان والأماكن.

إننى أعتقد أن آخرين قد أخطأوا، عندما نظروا إلى الفن العربى

---

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصلين الثالث والسابع، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ و٣٢٥ من المجلد الثانى.

(2) انظر الفصول الثانى والتاسع والثانى عشر من هذا الكتاب، ص ٤١١ ـ ٤١٢ و٦١٧ والصفحات التالية وص ٦٢١ و٦٢٣ و٧٦٥ من المجلد.

عند غروب العصور الوسطى بدلاً من النظر إليه فى أوجه التحضر الإسلامى: فتأملوا فيه فى غرناطة بدلاً من القاهرة. ويبدو لى كذلك أن ذلك التأثير البيزنطى، الذى لاحظه كل أساتذة الفن فى المبانى الصقلية فى القرن الثانى عشر، لم يكن تأثيراً خاصاً بالدولة او بالعصر، ولكننا نراه بالمثل فى كل طراز معمارى فى العصور الوسطى: فى الطراز العربى فى مصر كما فى طراز أسبانيا؛ وفى الطراز الساسانى، كما فى الطراز اللومباردى وفى كل شئ آخر ساد حتى بدايات القرن الثالث عشر فى بر إيطاليا وفيما وراء الألب، ولا تستثنى من ذلك أسبانيا تحت حكم الفيزيجوت، بل إنه فى الآثار الساسانية تتكرر الخطوط البيزنطية كثيراً وبصورة أوضح. وقد ورثها الفن الصقلى من الفن العربى. والدليل على ذلك الفارق الكبير الذى جرى فى القرن الثانى عشر بين طراز صقلية وإيطاليا الجنوبية، وكلتاهما خاضعتان لأمراء نورمان: وقد خضع أول هذين الإقليمين للحكم العربى لمدة ثلاثة قرون، بينما كان الثانى قد خرج منذ فترة قليلة من قبضة البيزنطيين، وإذا كان ينفر من حكمهم إلا أنه كان يتبع حضارتهم وأحياناً ما كان يستدعى فنانين من القسطنطينية(1).

ولم يعبر القوس الحاد، المستخدم عادة فى صقلية دون غيرها، مضيق مسينا قبل منتصف القرن الثالث عشر. وهناك استثناء واحد يؤكد القاعدة: ومن العجيب أننا لا نجد منه الكثير مع دخول القرن الثانى عشر، عندما لم يكن الأمراء فقط، ولكن أيضاً العديد من

---

(1) انظر فقرة ليون دوستها الشهيرة، مع الملاحظات التى لاحظها عليها مؤخراً كارافيتا، *I Codici e le Arti a Monte Cassino*، المجلد الأول، ص ١٨٨ والصفحات التالية، مؤكداً أن فنون الفسيفساء والبرونز لم تكن قد خبت فى إيطاليا وأن الفنانين، الذين استدعاهم من القسطنطينية الأب ديزيديريو للعمل فى مونتى كاسينو، لم يعملوا على بعث تلك الفنون، ولكنهم أسهموا فقط فى تجويدها.

البارونات على جانبى المضيق ينحدرون من العائلات نفسها(1). ولم أذكر كلمة عن الفن النورمانى، حيث إنه يبدو لى أنه لا يمكن أن نضمه فى البدايات الأولى من القرن، حيث كان النورمان، سواء القادمين من فرنسا أو من انجلترا، لايزالون يستخدمون طراز هذا البلد أو ذاك، وهو ما لا يشبه فى شئ طراز إيطاليا الجنوبية، أو طراز صقلية، اللتين سادتهما، ولا ننسى ذلك أبداً، فرق من المرتزقة من أمم عديدة، أطلق عليهم اسم النورمان، لأنهم كانوا الأغلبية فيهم.

ويجب أن أنبه إلى أننا نقصر حكمنا على الفن السائد فى صقلية فى القرن الثانى عشر، أى الفن الذى نجده فى آثار الأقاليم الغربية وفيما شيده الأمراء النورمان فى الأقاليم الشرقية. ونحن لانفترض أنه قد اندثر اندثاراً تاماً فى فال ديمونى فن محلى أكثر قدماً، شقيق لفن إيطاليا الجنوبية وقريب جداً من فن القسطنطينية؛ ولكن آثاراً قليلة بقيت من هذا الفن فى صقلية الشرقية. وقد تغيرت كلها تقريباً من عمليات البناء التالية. وعموماً فنحن لسنا بصدد الحديث عن

---

(1) على الرغم من الرأى المسبق عن المزج بين الفن العربى والبيزنطى والرومانى، يقول جاللى نايت فى المرجع المذكور، ص ٣٢٧، إن النورمان استخدموا فى صقلية طرازاً فى العمارة مختلفاً بالكامل عن الطراز الذى كانوا قد اتبعوه فى فرنسا وفى انجلترا، وبعيداً كذلك عن أسلوب المبانى التى شيدوها فى كلابريا. ويستطرد فى الصفحة التالية قائلاً إن القوس الحاد فى صقلية لم يعبر الفارو إلا فى زمن الامبراطور فدريكو الثانى. وهو يكرر هذه الملاحظة فى *Ecclesiastical architecture of Italy*. لندن، ١٨٤٢ - ١٨٤٤، ص ٨ و٩.

وهناك أيضاً استثناء وجدته فى كتاب شولتس، *Denkmaeler der Kunst des Mittelalters in Unteritalien*، الذى صدر بعد وفاته، فى سدن، ١٨٦٠، المجلد الثانى، ص ١٨٢ والصفحات التالية، واللوحة ٧٢. وفى كاتدرائية كازيرتا فيكيا، التى يقال أن بناءها قد بدأ فى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر وانتهى فى عام ١١٥٨، ذكر الملاحظ المدقق الطراز النورمانى فى صقلية. ومع ذلك لم يكن هناك سوى بعض الأقواس الحادة، والباقى كان مستديراً. وتشبه القبة تلك القبة الصغيرة فى ماريدولتشى بالقرب من بالرمو، وهى منشأة فوق أسطوانة، وليس على المنشور المعتاد مربع الأضلاع، الذى تحول قبل ذلك إلى ثمانى الأضلاع من خلال أقواس صغيرة معلقة تملأ الجوانب الأربعة.

هذا الفن الذى لا ينتمى بالضبط لصقلية الإسلامية، والذى لا نرى له على أية حال تأثيراً كبيراً فى عمارة القرن الثانى عشر؛ ونستطيع ان نفترض فقط أنه قد أعاد المعماريين المسلمين فى صقلية فى القرن العاشر والحادى عشر بعض الأشياء الثانوية. والسبب هو أنه بعد دخول يونانيى صقلية وكلابريا البلاط النورمانى فى بالرمو، مع المنتصرين من وراء الألب أو من الإيطاليين من البر الإيطالى، بدأت كل هذه الشعوب المسيحية فى إعطاء توجه جديد للآداب، والعلوم الأخلاقية ولبعض الفنون التشكيلية: ولكن العمل كان بطيئاً بُطء زيادة السكان المسيحيين(1). وننبه كذلك إلى أننا عندما نسمى العمارة الصقلية بالعربية فإننا نقصد الملامح الرئيسة: حيث إن تلك الاختلافات الطفيفة التى كان يتطلبها تارة استخدام المبنى وتارة أخرى راحة المالك أو هواه لا يمكن أن نعدها اختلافاً فى الطراز. وكان الفن العربى، بثرائه وتنوعه قادراً على أن يلبى تماماً هذه التعديلات دون حاجة إلى أن يغير من طبيعته. ويكفى أن نلاحظ رسم الكنائس النورمانية الرئيسة فى صقلية وهى على شكل البازيليك (ولكنها مختلفة عن رسم البازيليك فى بر إيطاليا وعن رسم الكنيسة البيزنطية وعن المسجد)(2). ويوجد منها ما هو مبنى بالتحديد على شكل الصليب اليونانى: ومن هنا نرى أن المعماريين كانوا يتبعون ما يمليه عليهم الأحبار والأمراء المؤسسون، تقريباً كما حدث مع المهندسين الفارسيين اللذين رسما رسماً أولياً لجامع الكوفة طبقاً لتوجيهات عمر وزياد، وكما رسم المعمارى المسيحى لابن طولون تخطيط المسجد دون أعمدة. ويبدو لى أن المعماريين المسلمين فى

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصلين الرابع والثامن، والفصل الأول من هذا الكتاب، ص ١٣٥ و١٣٧ و٣٢٢ و٣٤٦ من هذا المجلد.

(2) حول الشكل الخاص للكنائس النورمانية فى صقلية تجادل علمياً دوق سيرا دى فالكو فى المرجع المذكور، ص ٤٢ والصفحات التالية ودى ماركسو، المرجع المذكور، ص ١٠٨ و١٠٩.

بالرمو قد احتفظوا بسلامة فنهم، فأعطوا للكنائس التى شيدوها، أحياناً شكلاً وسطا بين الشكل الغربى والشكل الشرقى بل وأحياناً شكلاً يونانياً خالصاً. ويمكن أن نسلم بالمثل أن فنانين صقليين قد رسموا هنا وهناك، بناء على رغبة الأمراء والبارونات، الأفريز ذى الزوايا البارزة والغائرة المستخدم فى فرنسا وفى انجلترا باسم *Chevron* أو زجزاج، ويمكن أن نقول الشئ نفسه بشأن بعض الأجزاء الأخرى الثانوية؛ ولكن أحداً لن يستطيع أن يستخلص من هذا أن الفن العربى قد تغير، أو أنه تابع للفنون الشمالية. واعتقد أنا أيضاً أن الملك روجيرو، الذى كان عاشقاً للرياضيات التطبيقية وقادراً على استيعاب المفاهيم الرفيعة للغاية، قد أعطى توجيهاته للفنانين الذين شيدوا له سان چوفانى ديللى إيريميتى، وكنيسة بلاتينا، وكنيسة تشيفالو، والقصور والفيلات؛ ومع هذا فلن يقول أحد إنه قد جدد بهذا الفن العربى فى صقلية.

إن الفن العربى فى صقلية كان يمارسه آنذاك الصقليون فقط، سواء كانوا من أصل عربى أو بربرى، أو من أصول محلية، اعتنقوا الإسلام ثم ارتد بعضهم مرة أخرى إلى المسيحية سواء عن اقتناع أم عن غش واحتيال. وكان ذيوع حفر الكتابات العربية فى مبانى الأمراء النورمان، كما فى قصرى كوبا وزيزا. بل وفى برج كنيسة سان چاكومو لا مادزارا المتهدمه(1)، يجعلنا نفترض بالضرورة وجود فنانين لغة معظمهم هى اللغة العربية. وقد شملت تلك العادة فى حفر الكتابات على الجدران الخارجية للآثار أيضاً اللغتين الأخريين اللتين كان الناس يتحدثون بهما فى بالرمو، أى اليونانية فى كنيسة مارتورانا(2)، واللاتينية فى

---

(1) انظر مقالتى. *Epigrafi arabiche di Sicilia*. الطبعة الأولى، أرقام ٦ و٧ و٩ و١٠ و١١، فى *Rivista sicula*. أعداد شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٨٦٩ وفبراير وسبتمبر ١٨٧٠.

(2) أدى ترميم المبنى القديم الذى يجرى العمل فيه تحت رعاية المهندس المعمارى الأستاذ جوزيبى باتريكولو إلى إلقاء الضوء على الجزء الأكبر من الكتابة اليونانية، التى ظلت مجهولة تقريباً لوصفها الغامض، طوال بقاء دير النساء قائماً. وقد قدم

الكنيسة المجاورة التى تسمى سان كتالدو؛ ولكن العربية لم تتخل عن مكانها فى قلعتى كوبا وزيزا، حتى إن كانتا أحدث من غيرهما(1). وقد دخلت العربية الأضرحة المسيحية، كما يرى كل انسان فى منصة كنيسة بلاتينا وفى كنيسة مارتورانا، التى تحيط بقاعدة قبتها المكسوة بالموزايكو وبنقش يونانى، كما أشرنا للتو، كتابة تبدأ بالرمز اليونانى البيزنطى وتستمر حتى النهاية بالعربية، مع صيغ مسيحية مترجمة من التراتيم القديمة جداً فى الكنيسة الشرقية(2). هذا إذا ما استبعدنا العمودين اللذين يحملان نقوشاً عربية من الواضح أنها انتزعت من بعض المساجد. بل إنه يجدر بنا أن نقول إن المعماريين قد بقوا على الأقل مستمرين، إن لم يكونوا مسلمين، حتى النصف الثانى من القرن الثانى عشر لأننا لانزال نرى، فى سقف كنيسة ماجونى، التى بنيت فى تلك الفترة، على مسار المدفأة، كلمات النصر، الصحة، القوة، الرضا وأمنيات أخرى مكتوبة بالعربية، أو بحروف سوداء على خلفية بيضاء، أو العكس، وأحياناً بالأحمر مع خيوط صفراء على خلفية سوداء، وهذه المسارات تتعاقب فيما بينها

الأستاذ ا. ساليناس فى. *Rassegna archeologica di Sicilia*. عدد شهر يناير ١٨٧٢ (*Rivista sicula* شهر فبراير ١٨٧٢) تقريراً جميلاً عن حالة المبنى والأعمال التى بدأت لترميمه.

(1) انظر الكتابات المذكورة فى بداية هذا الفصل ص ٧٧٤، هامش ٢ و٧٧٥، هامش ١.

(2) من المحاور الستة عشرة التى كانت تضم الكتابة، تم تجديد خمسة وهناك أربعة معاور بالغة جداً حتى إنه لا يمكن أن نجمع فيها سوى بضعة أحرف. وبعد الصليب والحروف اليونانية المعهودة *IC XP NI KA* عند الجوانب الأربعة، تبدأ الكتابة العربية باسم الأب والابن والروح القدس وتنتهى بدعوة *Agnus Dei*. وفى الوقت نفسه، بالبحث عن صيغ هذا الدعاء المستخدم عند المسيحيين المتكلمين بالعربية، وعندما سألت من بين من سألت ذلك الباحث الشاب وهو السيد إنياتسيو جويدى من روما، أظهر لى النشيد الصباحى المنشور ص ٣٨ فى *Anthologia greca carminum Christianorum*، بقلم م. كريست وم. برانيكاس، ليبزج، ١٨٧١، ونقرأ فى هذا النشيد بعض الأبيات التى نجدها مترجمة حرفياً إلى العربية فى الجزء الأخير من كتابة مارتورانا. وأنوى تناول هذا الموضوع بتفصيل أكبر فى مناسبة أخرى.

ومع مسارات أخرى تحمل أشكالاً، بعضها لأسماك والأخرى لطيور(1). وقد كان هذا يرجع لهوى الصناع أو لخرافات التنجيم؛ ولكن اللغة النقية والحروف الواضحة والصريحة تدلل دائماً على أمة الفنانين الأساسيين لذلك العمل.

أتمنى أن يكون هذا التعريف الذى عرضه هيتروف للعمارة الصقلية فى القرن الثانى عشر وأكدته أعمال كوستى، وساندته إن لم أخطئ آراء سبرنجر السديدة، علاوة على الأخبار التى أضفتها هنا، تعريفاً واضحاً شافياً إلى أن تأتى دراسة نصوص عربية جديدة وآثار أخرى فى سورية وبلاد ما بين النهرين لتحدد فى دقة طراز العمارة العربية الشرقية من القرن الثامن إلى الحادى عشر. وربما عملت أيضاً مثل هذه الدراسات على إنهاء ذلك النزاع الآخر حول أصل العمارة التى يطلق عليها فى غير دقة العمارة القوطية، فى الشمال. وقد عالج أحد أصحاب العقول الفذة فى عصرنا(2) هذا الموضوع، وأكد من خلال علمه الغزير وولائه الكبير للوطن أن الطراز القوطى لا يتمثل فى العقود المدببة وكيف أنه نشأ عن الأفكار الفلسفية والسياسية والدينية التى كانت تتبت وسط جماعات الإكليروس فى جزيرة فرنسا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. ومع أنه بيّن حداثة طراز العمارة فى الشمال وفضل أول من انتهجوه فى فرنسا، أو كما

---

(1) عرفنى الباحث السيد دينس، مؤلف، فى مجموعة موراى، وهو اليوم القنصل البريطانى العام فى بالرمو، عرفنى قبل غيره بهذه الكتابات وقادنى لرؤيتها فى مايو ١٨٧١ . والكمرات الكبرى مليئة بالعديد من الشمارات المرسومة، وبعضها تبدو أكثر حداثة.

(2) رينان، *Histoire littéraire de la France au XIV siècle*، المجلد الثانى، ص ٢٢٣ وما بعدها. ومع ذلك يعترف المؤلف العالم فى صفحة ٢٢١ بأن الشرق استخدم العقود المدببة قبل الغرب، ويعتقد أيضاً أن كلمة *ogive* أو *augive* يمكن أن يكون أصلها عربى حتى إن لم تستخدم قديماً للإشارة إلى العقود المدببة. وكلمة *ogive* قد يكون أصلها عوجاء «قوس» أو «أزج» التى ذكرناها فى هذا الفصل فى ص ٧٨٢، هامش ٢. ولا ينبغى الركون إلى مثل هذا التماثل فى الأصوات والمعانى حين لا يقوم الاشتقاق اللغوى على أدلة دامغة.

يرى البعض المانيا أو انجلترا، فلا يمكن أن ننفى من ناحية أخرى أن العقود المدببة كانت حقاً ملمحاً أساسياً من ملامح فن العمارة فى الشمال؛ وأنه توافر أيضاً فى كامل جماله فى جامع ابن طولون فى القرن التاسع، كما كان يحوز الإعجاب كذلك فى صقلية فى نهاية القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن التالى.

لا ينبغى إذن أن نبعد آراء كوستى وهيتروف(1). فمن المحتمل أن يكون الحجاج النورمان والألمان الذين كانوا يزورون القدس وسيناء قبل الحملة الصليبية الأولى؛ وكذلك محاربو الغرب من النبلاء والعامة والعلمانيين ورجال الدين الذين عادوا إلى ديارهم بعد التحلل من نذر التحرير، قد حملوا معهم فكرة العقود المدببة وأشكالاً أخرى من الفن العربى الذى بهر بجماله وعظمته شعوب أوربا الخشنة. ولا يبدو لى افتراضاً مبالغاً فيه أن من بين العائدين من الحرب هناك من توقف فى صقلية ورأى الفن ذاته يزدهر فى مملكة الحكام المسيحيين ويخدم الأبنية المقدسة. ومما لا ريب فيه أن هذه المفاهيم كانت تختمر فى أذهان تأهلت على تقاليد العمارة الرومانية وعلى شعور دينى عميق لا يعرفه جنوب أوربا، ودون شك تطلبت نوعية مواد البناء وضرورات المناخ، فى الأسقف المدببة على سبيل المثال. بعض التعديلات وأوحت بإنشاء عقد مدبب أكثر لم نر مثله أبداً فى مصر أو فى صقلية، وكما يحدث غالباً بدت الضرورة مزية، والغرابة تحليقاً للخيال أو سمواً بالعاطفة. وظهر على هذا النحو ذلك الطراز الذى لم يكن رومانياً ولا لومباردياً أو عربياً أو بيزنطياً مهما أخذ عن هذا وذاك، ولكنه يمثل شكلاً جديداً من أشكال الفن ويندرج فى إطار الإبداعات القليلة الناجحة التى خرجت فى العصور الوسطى.

حين نعود إلى موضوعنا ونعالج الفنون المكملة لفن العمارة فلن

---

(1) هيتّروف، المرجع السابق، ص ١٢، ١٥؛ وكوستى، المرجع السابق، ص ٢٦، الذى يسند الطراز الجديد إلى طائفة البنائين الذين شارك رؤساؤهم فى الحملة الصليبية وغادوا إلى فرنسا والمانيا تعتريهم الدهشة من روعة العمارة الشرقية.

أحسب جميع أشكال الفسيفساء الصقلية الجميلة فى القرن الثانى عشر كانت من عمل السكان المسلمين. وإن كان من الممكن أن يطلب من المسلمين القيام برسم صور مسيحية، ولكن الأنماط الثابتة التى عرفت بها الكنيسة البيزنطية والمنقولة بالتزام، فى خطوطها وألوانها وكتاباتها اليونانية كانت تكشف عن يد فنانين من تلك الجماعة سواء من الذين قدموا خصيصاً لهذا الغرض من المشرق مثل أولئك الذين دعاهم كبير رهبان مونتى كاسينو، أو من سكان صقلية وجنوب إيطاليا الخلص. ولا استبعد افتراض ان رجالاً ولدوا من أجناس إيطالية فى هذا الإقليم أو ذاك قد ساهموا فى العمل وتركوا كتابات لاتينية بمثابة علامة عليها. وحتى العرب لا أستبعدهم من تلك المساهمة، حيث قال الإدريسى فى فقرة عن المسجد الجامع بقرطبة الذى سبقت الإشارة إليه(1) إنه لم يات المسلمون أو الروم بنقوش فسيفساء بمثل هذا البهاء. والآن لا يمكننا أن نسوق الأسانيد التى لن تفيد فى حالتنا هذه على الكراهية المفترضة من جانب كل مسلم مؤمن تجاه تصوير البشر والحيوانات: ومع كل هذا فمن الجائز أنه بدلاً من أن يهتم المسلمون بتصوير القصص الكتابى وتصوير القديسين، توجهوا إلى ما اعتادوا الاشتغال به أحياناً، أى زخرفة الكنائس والمبانى غير الدينية برسم صور من الخيال مثل صور القاعة الأرضية بقصر زيزا والغرفة النورمانية بالقصر الملكى. علاوة على هذا فمن المعروف أن نقاداً بارزين درسوا رسوم الفسيفساء فى صقلية وشهدوا بارتفاع مستواها على مثيلاتها المعاصرة لها فى برّنا الإيطالى(2).

---

(1) فى ص ٧٨٥.

(2) بخصوص رسوم الفسيفساء فى صقلية انظر رسالة السيد فراشيسكو سباتيه، المنشورة فى *Giornale officiale di Sicilia*، بتاريخ ٢١ يونيو ١٨٥٨، ودى مارسو، المرجع السابق، المجلد الأول، ٣٢؛ وهيتروف، المرجع السابق، ص ٢٢؛ وسبرنجر، المرجع السابق، ص ٢٣ و٢٤.

سأشير إشارة عابرة إلى الزخارف على الخشب التى أبقت على الأشكال ثمانية الزوايا فى مقصورة كنيسة بلاتينا بباليرمو، وهى زخارف كلها محفورة وتفصلها إفريزات مقلوبة على شكل مقرنصات، مزينة بالذهب واللون الأزرق والأبيض وبكتابات عربية. وترجع الزخارف إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، مثل أغلب وحدات تلك الأشكال إذ علمنا من كتاب معاصرين أن المقصورة كانت مزدانة بالفعل بتلك الرسوم وتلك الألوان وظلت غالبية الكتابات العربية فيها على حالتها الأولى. ولكن الضوء يتسلل إلى ذلك الارتفاع ضعيفاً أو خافتاً جداً من النوافذ المنخفضة فى موقعها لدرجة أن هذه الكتابات ظلت مجهولة حتى أوائل هذا القرن، وأن الصور والزخارف المرسومة فى الأشكال الثمانية لم تعرف أيضاً إلا من خلال صور فوتوغرافية صغيرة أعدت بانعكاس الضوء عليها بواسطة مرآة. منذ سنتين حينما شرعت فى نشر هذه الكتابات. ولم يجرؤ أحد على الحكم على هذه الزخارف دون أن يدقق فيها عن كثب: لذا فمن المناسب أن نلتزم الصمت الآن تجاهها وننتظر فرصة تسمح للخبراء بدراسة متأنية لمثل هذه الآثار التى بقيت من الفن الصقلى فى القرن الثانى عشر(1).

وعندما نأتى إلى فن النحت لا ارى أى داعٍ لأن ننكر على مسلمى صقلية صنعة الزخارف البارزة والغائرة، وخاصة تيجان الأعمدة المنحوتة بطريقة أنيقة والتى تثير إعجابنا فى عديد من آثار العصر النورماندى، وأعظمها يتمثل فى دير موريالى. لأن عدد التيجان الهائل وشكلها ينفى افتراض أنها نقلت من بنايات أقدم منها، وكما

---

(1) هنالك وصف دقيق للمقصورة الحالية فى كتاب تاريخ فالكاندو وفى موعظة يونانية نسبت خطأ إلى تيوفانى شيراميو، ويبدو أنها كانت من أعمال الراهب فيلاجاتو وألقيت فى افتتاح الكنيسة ذاتها عام ١١٣٩ أو ١١٤٠. وتناولت هذا الموضوع فى *Epigrafi arabiche di Sicilia, classe I. n. 6 Rivista sicula* ، اكتوبر ١٨٦٩، الذى نشرت فيه صور الأشكال المزخرفة.

ذكرنا آنفاً فى معرض الحديث عن الفسيفساء لا تقوم قائمة للفكرة القديمة القائلة بأنه حيثما تظهر صور أشخاص يجب استبعاد أن يكون أصلها إسلامى: وقد سجل نقاد بارزون موضوعيون روعة وبهاء أعمال النحت هذه(1). أما عن القائمين بصهر البرونز فقد تكلمنا عنهم فى الفصل السابق. وحين ننتقل من الأعمال اليدوية إلى ما يطلق عليه اليوم فن بمعنى الكلمة فإننا لن ننسب إلى مدرسة المسلمين البابين البرونزيين فى كنيسة موريالى، المتزامنين فى الصنع والمتباينين كثيراً فى طرازهما، ونقرأ فى أحدهما اسم بونانّو دا بيزا، وفى الآخر اسم باريزانو دا ترانى(2). ويمكننا أيضاً ملاحظة محاكاة الزخارف العربية فى بعض أجزاء باب بونانّو: وهناك محاكاة أشد من ذلك بل أقول أمينة تماماً نلحظها فى عمل سابق على هذه الفترة بثمانين عاماً على الأقل، أى فى الأبواب البرونزية بحجرة دفن بويموندو فى كانوزا، والتى كانت قديماً مطعمة بالفضة ولم تقتصر أفاريز الأبواب وسطحها على الزخارف العربية فائقة الدقة بل نقل الفنان فيها الخط الكوفى أيضاً. فى الدوائر الثلاث التى تشغل خلفية المصراع الأيسر، مما قد يذهب بنا إلى القول بأنها عمل شرقى لو لم نقرأ بجوار هذه الحروف الكوفية مديحاً باللاتينية

---

(1) سبرنجر. المرجع السابق. ص ٢٩ و ٣٠.

(2) قارن جراڤينا، المرجع السابق، ص ٧٠ و ٧١، وكاراڤيتا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٩١ وما بعدها، وسبرنجر، المرجع السابق، ص ٢٧ وما بعدها، ومقال كتبه السيد *Fr. w. Unger* حول عمل سبرنجر فى *Göttingische gelehrte Anzeigen* لعام ١٨٦٩. ص ١٥٩٢ وما بعدها. يرى جراڤينا أن أكبر أبواب كنيسة موريالى قام بعمله ثلاثة فنانين كان أحدهم مسلماً: وفى الحقيقة لا يبدو مستبعداً أن تكون النماذج الخشبية المستخدمة فى قوالب الصب من عمل بونانّو فى بعض منها، وفى بعضها الآخر من عمل فنانين لم تدون أسماؤهم. وأثار سبرنجر الشكوك حول ما إذا كان بونانّو قد ولد فعلاً فى بيزا حيث استشف اللهجة الصقلية فى الكتابات المكتوبة وعقب على هذا الموضوع أونجر. ولكن عند تفسيره للطراز المختلف فى بابى موريالى طرح افتراض فن انتقل، بعد نشأته فى الجزر البريطانية، إلى فرنسا وألمانيا وشمال إيطاليا حتى وصل فى النهاية إلى بوليا.

لبويموندو، ولو لم يشر التوقيع باللاتينية أيضاً إلى اسم روچيرو الأمالفى سبّاك الأجراس وصانع الأبواب وأحد الشمعدانات(1). ويمكننا أن نحسب روچيرو هذا مسلماً من صقلية، وتنصر واتخذ اسم سيده النورماندى الذى حرره، ويمكننا أن نفترض أنه لما ولد فى أمالفى تعلم، مثل عديد من مواطنيها وإيطاليين آخرين، ذلك الفن فى القسطنطينية، أو فى صقلية أو المشرق الإسلامى، وأنه قام بصب البرونز وقام آخرون بتصميم النماذج: ولكن لا يوجد من بين هذه الاحتمالات ما يثير الشكوك حول المدرسة التى ينتمى لها هذا العمل.

وعلاوة على ذلك فإن مسلمى تلك الفترة كانوا يصنعون بطريقة مختلفة وأكثر مشقة أبواباً من الحديد مزدانة بصور الحيوانات. ونرى ذلك على وجه التحديد فى أبواب المهدية(2)، تلك المدينة التى كان لها منذ أن تأسست علاقات وطيدة مع صقلية. كما لا يبدو مستبعداً

---

(1) شولتز *Denkmaeler, etc*، المجلد الأول، ص ٥٥، واللوحة العاشرة. وقد دُشنت كنيسة سانتا سابينا فى كانوزا التى تتضمن حجرة الدفن هذه فى عام ١٤٠١. وبناى عن الاحتمال أن الأبواب تم صبها بعد هذه الفترة بسنوات عديدة. والدوائر الثلاث التى اشرت إليها تتألف من مجموعة من الحروف تتكرر من البداية إلى النهاية، حروف من ذلك الخط العربى ذى الأشكال المائة، والتى أطلق عليه بطريق الخطا القرمطى، وأرى تسميته بالأحرى بالخط الكوفى البربرى (غير جميل). وتتألف كل مجموعة من خمسة حروف، والحرفان الأولان منها مع الحرفين الأخيرين فيها؛ ولكن باتجاه عكسى تحقق تناسقاً. ويمكننا أن نلحظ فى تلك الحروف الخمسة لفظ الجلالة ل ل هـ (وينبغى قراءته لله، أى «إلى الله») مكتوب من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار مع بقاء الحرف الأول مشتركاً مثلما نرى كثيراً فى زخارف الهمبرا.

وترجمت الكلمة المكتوبة ميلفى إلى امالفى، موطن سباك البرونز، إذ من المعلوم أن كان هناك خلط فى تلك الفترة بين ميلفى وأمالفى، ولكن من المحتمل أن يكون روچيرو قد ولد فى أمالفى مثل سباكى الأبواب الأخرى العديدة بكنائس جنوب إيطاليا، بداية من بانتاليونى الذى صب فى عام ١٠٧٦ باب كنيسة جروتا دى مونتى سانت انجيلو فى القسطنطينية، الذى كتب عنه شولتز، المرجع السابق، المجلد الأول، ٢٤٢، واللوحة ٣٩.

(2) البكــرى، نص باريس، ص ٢٩، وترجــمة فرنســية، البــارون دى ســلان فــى *Journal Asiatique*، اكـتوبر ١٨٥٨، ص ٤٨٥. وقارن ترجمة كاترمير فى *Notices et Extraits, XII, 480*. ونص عربى آخر *Description de l'Afrique, etc.* للأستاذ ا. دى كريمر، فيينا ١٨٥٢، ص ٨.

أن تنتمي إلى الصنعة نفسها تلك الأبواب الحديدية التي نقلها روبرتو جويسكاردو مع أعمدة شتى وتيجان بديعة(1) من بالرمو إلى تروريا بوليا: الأمر الذى يفتح الطريق لاحتمال أن يكون فنانون مسلمون من بالرمو قد ساهموا فى تصميم أعمال البرونز التى صبت فى القرن التالى، لكنيسة مورريالى الكبرى.

ولكن بالعودة إلى موضوع الإنشاءات بعد أن أطلنا الحديث عن الفنون المكملة يلزمنا الاستعانة بفرع من فروع الهندسة شهد ازدهاراً كبيراً فى بالرمو لغزارة المياه التى تتفجر عند سفوح الجبال القريبة منها. وحملنا اللوم الذى وجهه ابن حوقل لأهل بالرمو: لأن غالبيتهم كانوا يشربون مياه الآبار، إلى أن نستنتج، على النقيض من الرأى الشائع أن الشبكة الهائلة لمجارى المياه والشبكات الصغرى، التى تحمل الماء اليوم إلى أعلى طوابق المنازل، لا يجب أن ننسبها إلى فترة الحكم الإسلامى. ومن ناحية أخرى لا يمكن لتلك الهندسة أن تكون قد نشأت بعد القرن الثانى عشر. وكلمة جرّة فى حد ذاتها ذات أصل عربى ويقصد بها فى صقلية الجزء الرئيس من ذلك النظام، أى أعمدته التى ترفع به المياه شيئاً فشيئاً لتسقط إلى أسفل وتسترد الآلة بعضاً من القوة التى استهلكت أثناء دورانها: وقد استخدمت هذه الآلات للغرض نفسه فى أسبانيا ولازالت موجودة حتى الآن فى شمال إفريقيا(2). وإذا كانت كلمة كاتوزو *catuso* التى تعنى فى

---

(1) راجع الاستشهادات، الكتاب الخامس، الفصل الخامس، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ من هذا المجلد.

(2) يصف الإدريسى هذه الآلة فى *Merida*، طبعة السيدين دوزى ودى جوجى، ص ١٨٢، النص، و٢٢١ فى الترجمة، حيث ورد فى الهامش غرض استخدامها فى القسطنطينية وأفريقيا الشمالية.

ويعنى فعل جرّ فى اللغة العربية سحب، وربما وصل الاسم إلى صقلية بناء على هذا المعنى لأن الأعمدة كان يطلق عليها اسماً مختلفاً فى اسبانيا. وفى تاريخ مكة للأزرقى، طبعة *Wüstenfeld*، *Stadt Mekka*، الأول، ص ٤٧٨ وردت تسمية الجَرّ أو الجُر وأطلقت على مكان تجمع مياة الأمطار على الجبل الأحمر، تنساب منه المياه إلى مكان آخر أطلق عليه ميزاب ويعنى قناة أو مجرى.

وفضلاً عن هذا فكلمة جرة العربية متداولة فى صقلية بمعنى الأوانى الفخارية الكبيرة

صقلية ميزاب من الفخار لها أصل يونانى ولاتينى فإننا نعتقد أن العرب بعد أن أخذوها، مثل مفردات أخرى شتى، عن الشعوب المتحضرة قد غيروا، إلى حد ما، معناها من «قدر أو ابريق» إلى «سطل»، وأضافوا إليها فى الغرب معنى «أنبوبة أو ميزاب». ولذا فهذه الكلمة الصقلية تعود بالطبع إلى العرب(1). وأخيراً نجد كلمة درب وهى عربية خالصة، ويعنى بها مقياس للماء الجارى يستخدم حتى اليوم فى بالرمو، قد ورد ذكرها فى وثيقة عربية من القرن الثانى عشر(2).

وحين ننتقل من البحث فى الأشياء إلى الاهتمام بالعنصر البشرى علينا أن نبحث ونتقصى أولا أى دماء من العرب أو البربر تبقت فى صقلية اليوم. ويبدو لى أنه لا علم التشريح ولا علم الفسيولوجيا يستطيعان الإجابة على هذه التساؤلات، بعد سبعة قرون استطاع

المستخدمة عادة فى حفظ الزيت، وتطلق أيضاً على آنية الشراب: وبهذا المعنى أى إناء صغير أو كبير له فوهة واسعة تستخدم فى اللغة الإيطالية مع بدائل لها مثل جارًا *giara* وجارّو *giarro*، ثم بعد ذلك شقت طريقها إلى كل لغات أوربا.

(1) راجع مقال *Alcaduz* فى *Glossaire des mots espagnols etc* للسيدين دوزى وانجلمان. ومعنى كلمة «ميزاب» أخذته من البكرى الكاتب الأسبانى الشهير فى القرن الحادى عشر، ومعنى «سطل» شائع فى اللغة العربية فى الشرق. كما أضيف إلى هذه المراجع *"Vocabulista in arabica"* فلورنسا ١٨٧١، والذى تحولت فيه كلمة *"kaidus"* إلى *"canalis"*. وقد احتفظ الصقليون بـ κάδος وبـ *"cadus"* فى *catu* التى يستخدمونها أى سطل: ومن هنا كان اليقين بالنقل العربى لكلمة *"catusu"*. ومن الملاحظ أن تبدل فى حرف *d* إلى *t* فى اللفظة الأولى كما فى الأخرى، مثلما حدث فى اشتقاقات لهجة توسكانا حيث نجد *"catino, catinella ec."*.

(2) وثيقة أبريل ١١٣٢، نشر جريجوريو جزءاً منها، أما الأستاذ *Cusa* فنشرها كاملة فى *Diplomi arabi e greci* (التى لم تخرج بعد للنور) ص ٧، السطر ٧ و١١. كلمة «درب» تعنى فى الأصل باب أو نافذة. وبخصوص المقاييس الأخرى المستخدمة حتى اليوم فى قياس الماء الجارى، لا أرى أنها مشتقة كلها من اللغة العربية، وهذه المقاييس هى: تسابًا واحدة *gappo* = ٤ درب *darbi* = ١٦ نسر (عملة بصورة النسر) أو نارى = ٤٨ دينارًا = ٣٣٦. ولكن لفظ تسابًا *gappo* يمكن أن ترجع إلى الجذر العربى صبّ، ونارى ودينار يبدو أنهما مأخوذتان من اليونانية واللاتينية عن طريق اللغة العربية. وفى وثيقتى ماجونى لعامى ١١٩٧ و١٢١٩ لدى مونجيتورى *Secrae Domus etc* بانورمى، الفصل الرابع، نجد مقياساً للماء الجارى يسمى بالما *Palma* ويبدو أنه يساوى مقياس تسابًا.

خلالها الجنس الإيطالى لما له من سيادة مطلقة أن يستوعب كل الأجناس الأخرى. وإذ لا تسعفنا المناهج العلمية السليمة، فينبغى الا نثق فى المظاهر الخارجية والأحكام المسبقة والملاحظات غير الدقيقة والأحكام المتسرعة. وللسبب نفسه ننحى جانباً تلك الآراء التى تشير إلى ملامح وطباع للناس مختلفة هنا وهناك فى بعض مناطق الجزيرة ومدنها ونقتصر على الوقائع التاريخية واللغوية(1).

ذكرنا فى موضعها تلك الأزمات التى مر بها السكان المسلمون. فعلاوة على تعرضهم لمذابح الحرب وعمليات الطرد تضاءل تعدادهم بفعل الهجرة إلى إفريقيا التى بدأت عام ألف وثمانية وستين، ولم تتوقف بالتأكيد حتى إتمام الغزو. فقد زادت بعد فترة توقف قصيرة إثر عمليات تعذيب عام ألف ومائة وثلاثة وخمسين ومذابح عام مائة وواحد وستين، واستمرت ببطء خلال حكم جوليلمو الصالح، ثم أسرعت موجاتها من جراء فتن عام مائة وتسعة وثمانين، وأهوال عام مائة وتسعة وتسعين وحتى حركات تمرد عام مائتين وواحد وعشرين ومائتين وثلاثة وأربعين، التى لجأ البعض على أثرها إلى إفريقيا أو مصر، وبحث البعض الآخر عن ملاذ لهم فى دين المنتصرين، فى حين تم إقصاء غالبية المتمردين إلى يوليا، حيث اختفى أثرهم هناك بين ارتدادهم عن الدين أو هجرتهم فى أوائل القرن الرابع عشر.

ويبدو قريبا من الحقيقة أن السواد الأعظم من الخارجين خلال كل هذه الأحداث كان من النازحين من أجناس أجنبية وليس من أهل الجزيرة القدامى. ويدعم هذا الرأي أن سراسنة لوتشيرا كانوا يتكلمون أو على الأقل يجيدون فهم اللغة الإيطالية(2)، وكان هذا الأمر

---

(1) قرأ العالم الأستاذ كارلو ماجورانى بأكاديمية ليننتش فى العاشر من ديسمبر عام ١٨٧١ مذكرة حول أنثروبولوجية صقلية، ويؤسفنى أنى لم اتمكن من استخلاص ما يفيد موضوعنا منها لأنها كانت تنصب بصفة خاصة على الفترة السابقة على الغزو الرومانى.

(2) رسالة جريجوريو التاسع إلى فدريكو الثانى، ٢٧ أغسطس ١٢٣٢، والرد بتاريخ ٣ ديسمبر من العام نفسه، بريهول *Cod. Dipl. Friderici II*، المجلد الرابع، ص ٤٥٢ و٤٥٧، وذكرنا أولى هذه الوثائق فى الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ٥٨٤ فى الهامش.

ينطبق بالتحديد على الفلاحين الذين خضعوا للمسلمين ثم تركهم النورمان تحت النير حيث وجد بين جماهيرهم كثرة من الفلاحين المسلمين من أصل إيطالي قديم أو يوناني(1). ولكن بعد عمليات الطرد إلى بوليا للمرة الثانية اختفى من الجزيرة، كما ذكرنا آنفا، أي آثر لسكان مسلمين(2)، وأخذت عائلات صقلية تظهر فى مصر وافريقيا(3)، وسرعان ما توارت اللغة العربية فى بالرمو ذاتها: لدرجة أنه لم يتبق منها إلا النذر اليسير في النصف الثاني من القرن الثالث عشر مثل توقيع فى محررة رسمية(4) وذكرى مترجمين من اللغة العربية إلى اللاتينية نرى من بينهم أسماء اليهود(5). ولا توجد لهذا

وكتب البابا عن سراسنة لوتشيرا يقول: *"italicum idioma non mediocriter, ut fertur, intelligunt"* ورد فدريكو بالإيجاب *qui intelligunt italicum idioma*.

(1) الكتاب الخامس، الفصل الثامن، من صفحة ٢٠٥ إلى ٢١٠ فى هذا المجلد.

(2) راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ٥٩١، وقارنها بصفحة ٥٨٦ وما بعدها.

(3) يجدر ذكر اسمى شرف الدين وفخر الدين اللذين ذكرناهما فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب، ص ٦٩٨ و٦٩٩.

وعلاوة على هذا جدير بالملاحظة أن ابن خلدون يشير فى *Storia dei Berberi*، ترجمة فرنسية، ٤، ٢٧٦. إلى احدهم يُدعى أبو العباس أحمد بن راقعى من سلالة على وعائلة آل أبى شريف التى كانت قد أقامت فى صقلية. وترجع هذه الإشارة إلى نحو عام ١٣٤٨. حين تمرد الأمير المرينى أو عنان على والده، ولكننا لا نعرف فى أية فترة اقام آل أبى شريف فى الجزيرة.

(4) موورتلارو. *Elenco delle Pergamene della Magione*. بالرمو ١٨٥٩، ص ٥٣. الوثيقة محررة فى بالرمو بتاريخ ١٦ يناير ١٢٦٥.

(5) وثيقة ١١ فبراير ١٢٥٨. نشرها مونجيتورى. وأعاد جريجوريو طباعة جزء منها فى *De Supputandis, etc*. ص ٥٠. كما أوجز باللغة اللاتينية. القاضى سيمونيدى فيليبو ومحرر العقود العام فى صقلية بنيديتو وثيقة لعام ٥٤٩ هـ الموافق لعام ٦٦٦٣ فى تقويم القسطنطينية (١١٥٤). ترجمها من مواطنى بالرمو جودينشى ديونيزيو، ومحرر الوثائق رايموندو فيكى، والمعلم ميكيلى الطبيب، ومحرر الوثائق ليونى دى بيوندو. ووثيقة ٥ أغسطس ١٢٨٦ التى نشرها جريجوريو، المرجع السابق، ص ٥٢ وما بعدها. ونشرها *Guiseppe Spata* فى *Pergamene greche*، ص ٤٥١ وما بعدها. تذكر ان توماسو جريللو القاضى، ومحرر الوثائق بنيديتو، الموثق الرسمى فى بالرمو، قد أوجزا باللاتينية وثيقة باليونانية والعربية بتاريخ ٢٦ أغسطس ٥٧١ (١١٧٥). أما النص العربى فكان قد ترجمه اثنان من محررى الوثائق وهما لوقا دى ماراماً وجورجو دى جوفانى بونو، واثنان من الأطباء اليهود هما المعلم موسى والمعلم صمويل.

الجيل نفسه فى صقلية كتابات بالعربية على شواهد القبور(1): وإن كانت أسماء المدن والقرى والضيع الكبيرة تؤكد الدليل على تغير اللغة فإن أسماء الشوارع فى المدن والضيع الصغيرة أخذت تتغير أو تتحور(2)، لدرجة أن ظل القليل منها قيد البقاء

ذكرت فى الفصل العاشر من هذا الكتاب، ص ٦٦٤ وما بعدها من المجلد. الترجمة اللاتينية لكتاب الرازى العظيم فى الطب التى قام بها فرج بن سالم وهو يهودى من جرجنتى بناء على أوامر كارلو دانجو، وانتهى منها فى عام ١٢٧٩.

(1) ترجع إلى القرن الثالث عشر اثنتان فقط من الثلاث واربعين كتابة على شواهد القبور فى صقلية ونابولى، التى أخذت فى نشرها فى *Rivista sicula*. احداهما نشرها جريجوريو فى *Rerum Arabicarum*. ص ١٥٦، بتاريخ خطأ هو عام ٥٢٩ هجرية بدلاً من ٦٢٦ (١٢٢٨). أما الأخرى، المرجع السابق، ص ١٦٢، فهى تحمل حقيقة تاريخ ٦٧٤ (١٢٧٦)، ولكن الشاهدين مودعان فى متحف بالرمو القومى بعد توقف دير سان مارتينو ودار *olivella* اللذان كانا يحوزانهما فى عصر جريجوريو. وكتابة بتاريخ ٨٥٩ (١٤٥٤) نشرها جريجوريو، ص ١٥٤، بتاريخ عام ٣٥٩ الخطأ، يحتفظ بها فى المتحف، وكانت توجد من قبل لدى جامعة بالرمو، أو ربما لم يتم العثور عليها فى صقلية، أو انها وضعت على قبر أحد المسلمين الذى وافته المنية وهو يعبر بصقلية، الأمر الذى قد ينأى عن الحقيقة فى مثل تلك الثرة، ويرى محفوراً على وجه الشاهد الآخر شعار أسرة نبيلة، مما كان من خصائص القرن السادس عشر أو السابع عشر، وكان معلقاً على واجهة إحدى الديار بواسطة حلقة من البرونز معشقة فى وسط الكتابة.

(2) نقرأ فى وثائق شتى من القرن الثانى عشر والثالث عشر مما يطول ذكرها، الأسماء العربية التالية للأماكن فى بالرمو بالحروف اليونانية أو اللاتينية:

[illegible] ضاحية (غادير، إلخ، أو مستنقع كوك، نوع من الطيور المائية).

[illegible] (شارع ابن خلفون).

[illegible] (عقبه الطور، مطلع التل).

[illegible] (رحبه، رحابه أو رحاب، اسم عام «لميدان أو فناء»).

Haritilgidida، وفى مواضع أخرى [illegible] (الحارة الجديدة، أو «الحى الجديد»)، [illegible] الذى نقرؤه أيضاً فى إحدى الوثائق العربية المؤرخة فى أبريل ١١٣٢، فحص ماريا (ميدان ماريا).

Ruga keleb (... الكلب، أو للكلب).

Contrata Hasserinorum (حارة صناع الحصير، وربما نشأت عنها الكلمة الصقلية *Gassina*). *Fahssimeria* التى هى *Fausumeli* كما يقول مونجيتورى، قرية شهيرة بالقرب من بالرمو (فحص الأمير).

Bebelagerin (باب الحجريين، «باب قاطعى الحجارة»).

Vicus qui dicitur Zucac germes (زقاق القرميز؟ أو «زقاق قرمزى»).

Garbuymara (جاد بو عمارة، حيث يرد لفظ بو العامى بدلاً من أبو، «غار ابو عمارة»).

حتى اليوم(1). ويمكننا فى الحقيقة استنادا إلى مواد قانون فدريكو داراجونا تصور وجود بقية من المكان المسلمين حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر(2)، ولكن حينما ندقق فى صمت كل المذكرات

Zucao elmucassem (زقاق المقسم، اى «حارة المقسم» او «الجميل»). *Cantariddoheb* (قنطرة الذهب، اى «جسر الذهب»). ويضاف إلى هذه الأسماء، اسماء حلقة وچنواردو واسماء أخرى وجدت فى أكثر من موضع.

والميدان الذى يطلق عليه اليوم *Ballarò* والذى ذكره فانتزيللو تحت اسم *Segeballarat* كان يطلق عليه سوق البلهرا «سوق بلهرا» نسبة إلى اسم قرية كانت موجودة بالقرب من موريالى الحالية.

(1) و*Kalsa* الموجودة فى الكتابات وكانت تنطق *Gausa* هى الحى الشهير الخالصة. ولنتذكر أيضاً كوبا وزيزا وفافارا .. إلخ. والحى الذى يطلق عليه حتى اليوم لاتاريني كان من المؤكد سوق العطارين إذ تسمى على هذا النحو بعض الأحياء التجارية فى تونس وبلاد إسلامية أخرى.

وجدير بالملاحظة أن جميع مصادر الماء تقريباً قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التشويه فى النطق: مثل *Gabriele* جبريلى، *Sciarabbu* شراب، *Danissini* (عين السندى؟) *Sicchiaria*، *Carrafu*. إلخ. ويحضرنى هنا اسم عربى ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. فهنالك حارة خلف كنيسة موريالى تسمى ركّامو، واسمها مكتوب على هذا النحو بحروف ضخمة على اللوحة الحجرية: ولا أرى أن صيغة عامية للفظ "*ricamo*" أى تطريز كان يمكن أن يرفع إلى هذا المستوى الرسمى بجدار المعهد الإكليريكى الأسقفى الذى اشتمل حتى منتصف القرن الحالى على مدرسة عظيمة للفنين اللاتينية والإيطالية وحيث كان كبير الأساقفة سيد المدينة الإقطاعى حتى بدايات القرن. ومن ناحية أخرى فلا أعلم إن كان هنالك فيما مضى فى تلك الجهة مصنعاً للتطريز. وإن حدث وكان له وجود قديم فما أدرى إن كانت اللغة الصقلية تطلق عليه هذا الاسم: أما لفظ وجّام فتعنى فى اللغة العربية «المرمرى، أو قاطع الرخام»، وكان أمراً طبيعياً جداً أن يقيم مثل هؤلاء الحرفيين بالقرب من هذا المكان حيث أقيم ذلك اللابرنت الثرى ممعل بالرخام الثمين، وهو كنيسة موريالى العظيمة، ومن ثم يرجع اسم الحارة إلى هؤلاء الحرفيين.

(2) إن المادتين ٦٩ و٧٢ من مواد فدريكو الأرجونى تعالج تحول المراسنة الأحرار أو الخدم عن دينهم، والمادة ٦٥ تحظر على المسلمين شراء خدم مسيحيين، والمادة ٦٦ تأمرهم بأن يضعوا شريطاً أحمر مستعرضاً على صدورهم حتى يتميزوا عن المسيحيين. ولكن يجب الالتفات إلى أن مواداً أخرى صدرت فى اليوم نفسه تؤكد على مثل هذه القيود على الحريات لليهود، وأن المادة ٧٢ تخص يونانيى رومانيا الذين صاروا عبيداً وتحولوا إلى الإيمان الرومانى القويم. فمن الجائز إذن أن يكون المراسنة الذين تخصهم هذه القوانين هم التجار الذين ظلوا متوافدين على صقلية، أو عبيداً جدداً. ولنتذكر أن قوانين صقلية كانت تطلق اسم «قرويين» وليس «خدماً» على الفلاحين المسلمين المرتبطين بالأرض.

الأخرى طوال ستين عاما قد يبدو من الأرجح أن تلك القوانين قد استهدفت التجار المسلمين المقيمين أو العابرين بالمدن الساحلية، والعبيد الذين أحضروا من الساحل الأفريقي وخاصة من جزيرة جربه بعد عام ألف ومائتين وأربعة وثمانين(1).

مفاد المذكرات التاريخية إذن أنه في أوائل القرن الثالث عشر تبقى في صقلية ذاتها النذر اليسير أو لا شيء من تلك الأجناس الشرقية والأفريقية. أما الجزر المجاورة فكانت على النقيض من ذلك، فجزيرة بنتلاريا طبقاً لشهادة الكتاب المسلمين في القرن الثالث عشر(2) لم يتغير جنس ساكنيها ولا ديانتهم، إلا أنها كانت خاضعة لملوك صقلية، وبعد ذلك احتلها لفترة من الزمن مغامرون من جنوة، ولكن ظل سكانها حتى القرن السادس عشر ورغم أنهم اعتنقوا المسيحية منذ زمن «يشتركون مع السراسنة في الثياب واللغة» حسبما قال فاتزيللو(3). ولاندرى ما إذا كان الحكم الروماني في مالطة قد قضى تماما على اللغة البونية، وما اذا كان قد استقر بها، حسبما يبدو لي معقولا(4). سكان آخرون قدامى مع المسلمين الذين تسيدوا عليها ثم خضعوا فيما بعد بدورهم للكونت روجيرو. ونظراً لأن روجيرو سرعان ما أنشأ إحدى الأسقفيات هناك فليس ثمة شك في أن بعضا من المسيحيين كانوا يقيمون في مالطة، ويبدو محتملاً جدا أن يكون الجنس الإيطالي قد تسلل أو بالأحرى نما بها مع سيطرة

(1) راجع كتابي *Guerra del Vespro Siciliano*، طبعة ١٨٦٦. المجلد الأول، ص ٢٠٩ وما بعدها، والمجلد الثاني، ص ٢٩٧ وما بعدها.

(2) ياقوت، وابن سعيد، وشهاب الدين عمري، في المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ١٢٤ و١٢٤ و١٥٠. وأشرنا في الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٥١٤ من المجلد ما كتبه في هذا الخصوص الأسقف بوكاردو في القرن الثاني عشر. وراجع أيضاً اتفاق الامبراطور فدريكو الثاني مع أمير تونس الحفصي والوارد في الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(3) *Deca I*، الكتاب الأول، الفصل الأول.

(4) لنتذكر الواقعة التي ذكرناها بناء على ما أورده القزويني في الكتاب الرابع، الفصل ١٢، في صفحة ٤٣٣ من المجلد الثاني.

صقلية على تلك الجزيرة(1). ويتجلى اختلاط الأجناس فى لغة مالطة أفضل مما توضحه تلك الومضات الخاطفة الواردة بالروايات والأخبار، حيث إن الفاظها، بل قواعدها نصفها إيطالى والنصف الآخر منها عربى، ومن هنا فسكانها الذين لم يتعلموا أية لغة اخرى كانوا يتحدثون فى يسر مع بربر الشمال الأفريقى(2).

وليس من اليسير تحديد أية لهجة من لهجات اللغة العربية استخدمها مسلمو صقلية، إذ لا يتبقى من آثار لغة العامة سوى نموذج غير واضح فى ثلاث وثائق ترجع للقرن الثانى عشر(3)، بينما أمليت الوثائق الأخرى على النقيض من ذلك فى غير تأنق. ولكن حسب الأسلوب الصحيح الخاص بالمحررات الرسمية(4)، وحتى أعمال

---

(1) انظر الكتاب الخامس، الفصل السادس، وهذا الكتاب، الفصول: الأول، والسادس والثامن، فى ص ١٨٠ و٣٧٦ و٥٣١ و٥٧٧.

وشهادة الأسقف بوكارد التى أشرنا لها لتونا يجب أن تفسح المجال لدليل مناقض لها، وهو تأسيس الأسقفية وتعاقب الأساقفة المتوالى من بداية القرن الثانى عشر.

(2) چان فرانشيسكو أبيلا أول من سجل طبيعة هذه اللغة فى *Descrizione di Malta cc*. مالطة ١٦٤٧. وتمت ترجمة هذا العمل إلى اللاتينية فى المجلد الخامس عشر من *Thesaurus* لجرايفيو وبورمانو، كما أعاد چوڤانى أنطونيو چنتر، نشرها مع إضافات عليها، مالطة ١٧٧٢ ـ ١٧٨٠، مجلدان. وظهرت بعد ذلك معاجم وكتب قواعد وأمثال باللغة المالطية قام بها ڤاسَّالّو، وبانتساڤيكيا وڤالتسون وتابلور وآخرون: ولكن المرجع الأكبر فى هذا الموضوع كان البارون دى سلان. *Journal Asiatique* عام ١٨٤٦ (السلسلة الرابعة، ٧ ص ٤٧١ وما بعدها).

(3) هذه الوثائق الثلاث التى تنتمى كلها لكنيسة تشيفالو والمودعة اليوم فى أرشيف بالرمو الملكى، يجب أن تنسب إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وإن كانت إحداها، وهى المكتوبة بحروف عبرية تحمل تاريخاً كتبت أرقامه بحروف أبجدية لا تبدو دقيقة. والأسلوب العامى لهذه الوثائق يظهر أحياناً من استخدام الفعل «يكون» بإسهاب، وأحياناً من حالات الإضافة التى يدخل فيها حرف متى، بينما يظهر بشكل مستمر فى الاطالة والتكرار. جدير بالملاحظة أيضاً فى إحدى هذه الوثائق حرف «الهاء» أو «الألف المكسورة»، الذى يصبح ألفاً على الطريقة الأفريقية.

(4) وحتى آخر الوثائق العربية الصقلية التى اطلعت عليها، أى الوثيقة العربية ـ اللاتينية لعام ١٤٤٢ والتى تنتمى إلى كنيسة جرجنتى، مكتوبة بطريقة صحيحة. إذا استثنينا الأسلوب الثقيل والمفردات الأجنبية المكتوبة بحروف عربية مثل *civis* و*judex*، التى أخذت عند الضرورة صيغة الجمع التى يفرضها النحو العربى لمثل هذه الكلمات من أصل أجنبى.

الشعراء والكتابات النثرية لم تبتعد عن اللغة الفصحى فى تلك الفترة. بل إن معانى بعض الألفاظ تؤكد الافتراض المعقول بأن اللغة العربية التى سادت فى صقلية هى لغة الغرب أو المغرب العربى: وسوف يمكن إجراء المقارنة بصورة أفضل حين يخرج للنور ذلك المعجم المغربى العظيم الذى يعده دوزى. ولكى أعطى بعض أمثلة لذلك، اذكر أن كلمة «وادى» كانت تعنى فى صقلية كما فى أسبانيا «نهر» وليس «وادى» كما فى موطن اللغة، وأن كلمة «مرج» فى انتقالها إلى لهجة صقلية بتغير معناها الأصلى من «روض» إلى «مستنقع صغير»، وكلمة رحل أى «محطة» انتشرت فى صقلية بمعنى «ضيعة»، وكلمة «شر» أى عمل شرير انحصرت فى «شجار»، واختلافات أخرى شتى من هذا القبيل يمكننا أن نلاحظها فى المعاجم المتعارف عليها، سواء لأن هذه المفردات تغير معناها بالفعل، أو لأن أصحاب المعاجم كما يحدث فى اللغات كلها قد غفلوا كثيراً من المعانى الخاصة ببعض المناطق والقبائل.

ولا بأس من أنه بإمكاننا أن نتكلم عن التلفظ أو طريقة النطق التى يشهد لنا بها منذ القرن الحادى عشر والثانى عشر عديد من أسماء الأعلام المكتوبة باليونانية أو اللاتينية، كما نلمسها فى الأسماء الطبوغرافية وفى المفردات الصقلية المأخوذة من العربية. إلا أنه قد يحدث فى الحالة الأولى أن يفسر ما هو شائع بصورة محرفة مع ما هو غير شائع، أما الكلمات التى لا تزال على قيد الحياة فقد يتبدل منطوقها. ويضاف إلى ذلك ترجمة إحدى الوثائق المهمة وأقصد بها رق موريالى الرائع المكتوب بالعربية واللاتينية، وهذه الترجمة قد أعدها أحد الرهبان الفرنسيين الذين تولوا التحرير فى بلاط بالرمو فى أوائل مُلك جوليلمو الصالح: ومن ثم سجلت بعض الحروف اللاتينية نطقا متباينا عما يتردد على لساننا(1). مع كل هذا فلا تنقصنا المادة

(1) راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٤٧٥، هامش ٢. وانوه بأنه عندما كتبت هذه الملاحظة كانت طباعة الوثائق العربية واليونانية التى حققها الأستاذ كوزا فى

اللغوية. وحين يخرج للنور ذلك العمل العظيم الذى كتبه الأستاذ كوزا، سنتوصل فى ثقة أكبر إلى القواعد التى كانت تتبعها أصوات لغة الكلام العربية عند نقلها إلى اليونانية وإلى العامية الصقلية: وسوف تيسر هذه الدراسة القيام بعمل عظيم يتمثل فى قاموس المفردات الصقلية المشتقة من العربية. على أية حال فهذا هو ما استخلصته من الأبحاث التى تم اجراؤها حتى الآن حول تأثير تلك اللغة على اللغة العامية الصقلية.

وكما ذكرت فى موضع سابق(1)، كانت صقلية عند الفتح الإسلامى تتكلم لغتين هما اليونانية واللاتينية، أو بالأحرى لغة إيطالية قديمة، تتخذ رداء اللاتينية فى الوثائق الرسمية. وإن لم تستطع أن تخفى تماما ملامحها الأصلية المتواضعة. ولإقامة البرهان على ذلك لا توجد حقيقة فى صقلية كتابات من القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين. مثل تلك الكتابات المتوفرة فى أماكن شتى من شبه الجزيرة(2). ولكن أولى الوثائق اللاتينية واليونانية والعربية الصقلية، التى تعود إلى أواخر القرن الحادى عشر تظهر فيها بوضوح الصيغة العامية لبعض أسماء الأعلام أو الأسماء الطبوغرافية التى لم تنشأ بالتأكيد فى ذلك الجيل نفسه: ولاحظنا بالفعل بين أسماء الأعلام *Fartutto* و *Francu* و *Caru* و *La Luce* و *Notari* و *Meseiti* و *Diosallo* و *Pacione* و *Pitittu* و *Bambace Strambo* و *Saputi*، وأسماء أخرى لسكان قدامى(3). وتذكر وثيقة يونانية ترجع لعام ألف وثمانية وثمانين من الأسماء الطبوغرافية نهر دى تورتى *dei Torti*(4). ووثيقة

بدايتها، أما اليوم فقد طبع منها حتى ص ٤٤٨ وتشتمل على زهاء المائة وثيقة.

(1) الكتاب الأول، الفصل التاسع، ص ٢٦٨ وما بعدها من المجلد الأول.

(2) يكفينى أن أذكر الدراسة رقم ٣٢ لموراتورى، والمحررات المنشورة فى *Regii neapolitani Archivi monumenta*، نابولى ١٨٤٥ ـ ١٨٦١، ستة مجلدات.

(3) الكتاب الخامس، الفصل الثامن، ص ٢٠٥ و٢٠٦ من هذا المجلد.

(4) سباتا، *Diplomi greci, Torino, 1870*، ص ٩٠، حيث نقرأ عن حدود تصل إلى τὸν ποταμὸν τῶν τόρτων وله. قارن الصيغة اللاتينية، واعتقد أنها معاصرة، التى نشرها بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٢٨٢ وما بعدها، حيث نقرأ فيها "*Usque ad flumenTortum*".

أخرى لعام ألف وأربعة وتسعين تصل بحدود إحدى المزارع إلى *ad Petram serratam quae*(1) ومن ثم إلى *ad serram dello Conte* *La Schala di* كما تذكر وثيقة لعام ألف ومائة *vocatur La Castellana* *Ostro* وتشير إلى مجرى أحد الأودية بـ *monte di Cavallo* و*Lampheri* *sive Xirocco*(2). واللغة اللاتينية الخاصة بالمحررات الرسمية فى العصور الوسطى والمتمثلة عادة فى ترجمة العامية تتبدى بالفعل فى إحدى وثائق الكونت روچيرو بتاريخ عام ألف وواحد وتسعين، وتتضمن علاوة على طريقة التعبير الإيطالية بالكامل تكرارا لفعل *accrescere*(3) نمّى: كما يظهر ذلك بصورة أوضح فى وثيقة أخرى للأمير ذاته بتاريخ عام ألف وثلاثة وتسعين، ومصدّق عليها من محرر وثائقه أو ما يمكن أن نطلق عليه أمينه انطونيو ديلا منسا، ولا أدرى إذا كان من صقلية أو كلابريا، ولكن من المؤكد أنه كان يكتب بلغة يحسبها لاتينية إستنادا إلى نهاية المفردات وبعض حروف الجر(4).

---

(1) بيرّو. *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٢، ترجمة من اليونانية إلى اللاتينية.
(2) بيرّو. المرجع السابق، ص ١٠٤٦، ترجمة من اليونانية إلى اللاتينية.
(3) بيرّو، المرجع السابق، ص ٥٢١. ويبدو أن هذه الوثيقة قد كتبت أصلاً باللاتينية.
(4) بيرّو. المرجع السابق، ص ١٠٢٤ وما بعدها. وفيه نقرأ على سبيل المثال: *"cum bono proponimento... cum plena deliberatione absque aliquo tardamento et pentimento... cum argomento plenario de victu... arbores domesticas... quod persona aliqua de mundo non habeat aliquam potestatem in hujusmodi bonis... donandi impedimentum nec controversiam... cannatam unam plenam vino"*. وبيرّو الذى اعتاد أن يعلن دائماً حين يترجم، لا يشير بأية إشارة هنا إلى ترجمة، بل يقول إن الوثيقة مأخوذة من معاصر أحد محررى وثائق مسينا لعام ١٢٧٩. وأمام هذه المعطيات والاسم الإيطالى لأمين روچيرو فلا غرابة فى أن تكون الوثيقة مؤرخة بتقويم القسطنطينية المعتاد تدوينه فى الأوراق اليونانية. وإذ يتعلق الأمر بدير باسيلى فى ايتالا أو چيتالا، وهى إحدى البلديات القريبة من مسينا، فمن الطبيعى للغاية استخدام التقويم اليونانى حتى إن كانت الوثيقة مكتوبة باللاتينية. من ناحية أخرى فلو صدق حدسى فاسم ايتالا هذا الذى يظهر هنا لأول مرة فى جغرافية صقلية يشير إلى أصل ينتمى إلى القارة. كما أن اسم روبرتو دى أوتشيتو نفسه، وهو صهر الكونت روچيرو الذى وقع بناءً على أمر هذا الأخير على الوثيقة مع محررها لامنتسا، يذكرنا بقرية اتشيتو *Acelo* الحالية فى إقليم الإسكندرية، أو قرية دياتشيتو *Diacceto* فى إقليم فلورنسا.

وأضيف إلى بقايا لغة صقلية السابقة للغزو بقايا أخرى من القرن الثانى عشر. وإذ لا أغفل أن صقلية فى تلك الفترة كانت تمتلىء شيئاً فشيئاً بمستوطنات من البر الإيطالى فإنى أنحى جانباً نص أمر باتى *Patti* (١١٣٣) الذى تفسر باللغة العامية(1) وأترك وراء ظهرى أمثلة أخرى شتى لمفردات يمكن نسبتها على حد سواء إلى لغة صقلية، أو لغة بوليا أو توسكانا أو جنوة(2)، والاحظ فى احدى وثائق عام ألف ومائة وثلاثة وثلاثين حقلاً *Lu Marge*(3)، وهى كلمة عربية أصيلة متداولة حتى اليوم فى صقلية. ونعثر فى محررة أخرى على الاسمين الطبوغرافيين *Luhrostico* و*Tremula*(4)، ومن المؤكد أن الاسم الثانى

(1) راجع الكتاب الخامس، الفصل الثامن، ص ٢٢١ من هذا المجلد.
(2) هكذا يبدو لى فى وثيقة موريالى العربية اللاتينية لعام ١١٨٢ اسم جبل *Kalbu* "*mons qui vocatur calvus*" ومن هنا لا ندرى إذا ما كانوا ينطقونها حينئذ *calvu* او *calvo*، لدى ليلّو، المرجع السابق، حاشية الامتيازات فى ص ٢٠. وفى مجموعة الأستاذ كوزا (التى لم تنشر بعد) ص ١٩٨ و٢٣٦. وهناك علاوة على ذلك *L، b* "*Lupo*" ل ب «ذئب»، فى ص ٩٠ عند ليلّو، وص ١٨١ و٢٠٥ لدى كوزا، و*La Camuca* عند ليلّو، ص ١٤، وعند كوزا ص ١٨٨ و٢١٧. حيث أداة التعريف للمؤنث *La* يمكن أن تنتمى إلى لغة صقلية مثل أية لهجة إيطالية أخرى. وللسبب نفسه أغفل فى احدى وثائق عام ١١٥٦، عند بيرّو، المرجع السابق، ص ١١٥٧، كلمة *Bosco*، احراش، والتسمية المزدوجة لجبل *Monte Gibello* التى تظهر هنا للمرة الأولى، والاسم الطبوغرافى *Torroneto de Cretaccio*. كما اتغاضى فى وثيقة عام ١١٤٢ المذكورة هنا عن التعبير *miizano vallone*.
(3) بيرّو، المرجع السابق، ص ٧٧٤، وثيقة لاتينية مؤرخة حسب التقويم الميلادى "*et inde dividit per medium Lumarge, quod pantanum, vel terra sylvestris latine nuncupatur*". لنتذكر ان كلمة مرج التى اكتسبت معنى مستنقع فى صقلية تعنى فى العربية مرعى.
(4) بيرّو، المرجع السابق، ص ٢٩٠ و٢٩١. حين نشر هذه الوثيقة طبقاً لنسخة أعدت منها فى مسينا لفت الانتباه إلى أنه ابتعد كدابه عن تصويب الأخطاء فى النسخة التى بين يديه. وبها فى الحقيقة أخطاء كثيرة وأعتقد أن غالبيتها لا يجب نسبها لناسخ القرن السادس عشر، ولكن ينبغى إسنادها إلى كاتب القرن الثانى عشر الذى لم يكن على ما يبدو يجيد اللاتينية. وربما كانت لغته اليونانية كما يتضح من وضع حرف *h* قبل حرف *r* فى كلمة *Luhrostico*، عوضاً عن الحرف اليونانى الخشن. ومن بين الأشياء الأخرى هنالك إشارة إلى الحدود "*allo mizano vallone*" التى سبق أن ذكرناها منذ قليل. وتحمل هذه الوثيقة، على غير العادة الثابتة، تاريخاً مزدوجاً وهو ٦٦٥٠ و١١٤٢، ويقودنى

منها صقلي: وفي كتابة لعام مائة وستة وخمسين نجد الاسم *Olivastro*(1): وفي أخرى لعام مائة واثنين وثمانين نجد اسم *Scuteri*(2)، وفي عام مائتين وستة وعشرين نجد *Gabbaturi*(3): وفي محررة لعام مائتين وأربعين نجد *Ienchi* و*Ceramiti*(4). وأتوقف هنا إذ ليس هناك داع لأن نبحث هنا وهناك عن مفردات من القرن الثالث عشر الذي ترك لنا كتابات كاملة بلغة صقلية. بل إنه كان بإمكاني أن أتوقف من قبل عند منتصف القرن الثاني عشر لو كنت قد وثقت في أن النصين المأخوذين من الوثيقتين اليونانيتين اللتين كان موروسو *Morso*(5) أول من نشرهما معاصرين للأصل، وإحداهما مؤرخة بعام ألف ومائة وثلاثة وخمسين أما الأخرى التي تتضمن الخمسعشرية فقط فقد تم إسنادها لعام ألف ومائة وثلاثة وأربعين(6). ولكن نظرا لعدم دراسة النصوص وظهور كثير من

هذا الخروج على المألوف مع قرائن أخرى إلى تصور أن مخطوطة الرق اللاتينية ليست هي الأصلية، بل صيغة قديمة وربما معاصرة لليونانية.

(1) وثيقة لعام ١١٥٦، والمذكورة في الصفحة السابقة، هامش ٢.

(2) وثيقة لعام ١١٨٢، المذكورة آنفاً، لدى ليلّو، ص ٢٢، السطر ١٨، وعند كوزا، النص العربي، ص ٢٣٨، السطر ١٢، والنص اللاتيني، ص ١٩٩، السطر ١٠. ورد بالنص اللاتيني *Spelunca Scutiferorum*، وبالنص العربي «السكاترة»، صيغة جمع عربية للفظ لا ينتمي إلى تلك اللغة، ويجب أن تنطق سكوليري، وتستخدم هذه الكلمة في لغة صقلية للمفرد والجمع على حد سواء.

(3) في وثيقة يونانية بمسينا وفي ذلك العام، لدى ترينكيرا، *Syllabus græcarum membranarum*، نابولي، ١٨٦٥، ص ٢٧٨. هنالك إشارة إلى بيت يقع في ρρουγεν τοῦ γαϐϐατούρι في مسينا.

(4) عند بريهول، *Historia diplomatica Frederici II*، المجلد الخامس، ص ٨٦٩.

(5) *Palermo antico*، الطبعة الثانية، ص ٣٢٤ وما بعدها، و٢٤٤ وما بعدها. ثم ذكرهما السيد ليوناردو فيجو في *Canti popolari siciliani*، المقدمة، ص ١٩. وأعاد طبع النصين الأستاذ فينشنسو دي جوفاني في رسالته إلى فينشنسو زامبريني بتاريخ ١٨٦٥، وأدرجها الأستاذ نفسه في *Filologia e letteratura siciliana*، المجلد الأول، ص ٢٥٥ وما بعدها. وأخيراً فإن النصين اليونانيين اللذين لازال ثانيهما يحتفظ بأربعة سطور فيه بالعربية سننشرهما في مجموعة الأستاذ كوزا الناجحة، ص ٢٢ وما بعدها، و٣١ وما بعدها.

(6) مورتيلارو، *Catalogo dei Diplomi... della cattedrale di Palermo*، ص ٣٣.

المشكلات حول عصر المستلتين فإننى أميل لرفض مثل هذا الدليل المريح والمتعجل(1). على أية حال لدى قناعة بان العامية الصقلية قد اكتسبت فى القرن الثانى عشر صيغة تتماثل إلى حد بعيد مع صيغتها الحالية: أما مطمحها في أن تصير لغة القصور فتؤكده أولى القصائد الإيطالية التى صيغت فى صقلية. ونظرا لأن أكبر أبواب كنيسة موريالى الذى صبّه بونانو بيزانو من البرونز عليه كتابات لاتينية مختصرة وتتضمن بعض كلمات من صميم لغة توسكانا. فلا تعد فى رأيى مثالا للغة المستخدمة فى صقلية فى نهاية القرن الثانى عشر(2)، بل تبين بالأحرى اتجاه بلاط بالرمو نحو تشجيع الإيطاليين من الأقاليم الأخرى على المضى قدماً بلغاتهم العامية المتشابهة فيما بينها وتتشابه جميعها مع اللاتينية. وأقرب التصورات إلى الحقيقة يقودنا إلى أنه خلال مراحل استقرار المستوطنين من البر الإيطالى

---

(1) ننبه ان مورسو الماهر، المرجع السابق. ص ٤٠٦. فى الهوامش ٢١ و٢٢ و٢٣ للوثائق لا يبدو على يقين من أن موجز وثيقة عام ١١٥٣ كان معاصراً لها. ففى حين يتضمن النص التاريخ القسطنطينى لعام ٦٦٦٢ يذكر المستل وحتى بالحروف ١٠٦٢. إذ أخذ الأحاد والعشرات من ذلك التقويم ووضع الرقمين الأولين كيفما اتفق. ومثل هذا الخطأ الجسيم ما كان ليقع فيه بالتأكيد أحد المعاصرين لها. علاوة على هذا فاسماء الشهود كلها خاطئة؛ ومن هنا كان الظن بان كاتب المستل كان على دراية سيئة باليونانية. ويمكن أن يسند إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، إذ لا يستبعد ذلك لا الإملاء ولا الأسلوب. ولم تتضمن الوثيقة الأخرى تاريخاً ليكتب خطأ. ولكن الأسماء مشوهة أيضاً فى المستل الذى أحسبه من فترة المستل الأول نفسها. وارى ان كلا الكاتبين ليسا بمنأى عن الشكوك. ولم يؤيدهما فيجو أو يعترض عليهما. أما دى چوفانى فيطالب «بدراسة على قدر من التأنى على طريقة إملاء وثائق الرق».

(2) اكد ا. سبرنجر فى بحثه العلمى *Die Mittelallerische kunst in Palermo*. انه يوجد فى بعض هذه الكتابات آثار لا تقبل الشك من اللهجة الصقلية. بينما أوضح السيد اونجر فى نقد جاد لهذا البحث منشور فى *Göttingen gelehrte Anzeigen*. لعام ١٨٦٩. ص ١٥٩٦، أن هذه الصيغ ليست إلا اختصارات لاتينية. وهو محق فى كثير مما ذكر. إذ أن المقطع الأخير الذى يبدو إيطالياً والواضح فى "*Plasmavim adoravi*" إلخ. لا يتمشى مع ضمير الغائب فى الزمن الماضى التام المستخدم هنا فى وضوح. ولكن "*Eva serve a Ada... ucise frate suo... fuge in Egitto... la quarentina... battisterio*" لها شكل إيطالى محدد.

فى صقلية كانت لهجات شتى مناطق الجزيرة أكثر تباينا فيما بينها، وحتى يومنا هذا لازالت هذه اللهجات تحتفظ بعديد من المفردات وطرق التعبير المختلفة.

وقد تصدى الأساس المتين الذى كان للغة الإيطالية القديمة أمام غزو اللغة العربية بصورة أقوى من أية لغة أخرى. فاللغات القديمة فى سوريا وبلاد ما بين النهرين ومصر اختفت بعد فترة وجيزة من الفتح العربى لها، وظلت فقط فى الطقوس الدينية المسيحية؛ وتبددت فى طرفة عين اللغات التى ترسخت خلال شتى عصور التاريخ مع الديانة فى شمال إفريقيا، وحتى اللغة البربرية الأصلية اندفعت تحت تأثير العربية ناحية الجنوب والغرب. أما فى أسبانيا فقد تراجعت عن بعض مساحاتها، ثم سرعان ما استعادت ما فقدته إذ لم يطرأ أى تغيير على قواعدها اللغوية. وهذا المصير المختلف لو عاد أولا إلى أسباب أخرى مثل بعد المسافة عن شبه جزيرة العرب وعدد الفاتحين المقيمين ومدة الفتح فإنه يرجع كذلك إلى طبيعة اللغة وكنوز الحضارة العظيمة التى نشرتها روما فى الغرب مع تلك اللغة. وكان على عوامل الإضعاف أن تكون أقل فعالية فى صقلية عنها فى أسبانيا، وكان على الصقليين أن يقاوموها إذ كانت لغتهم الإيطالية القديمة ضارية فى القدم جذورها وذات علاقة قرابة باليونانية التى كانت تتنازع الجزيرة منذ القرن الثامن قبل الميلاد.

إلا أن اللغة العربية تركت فى لغة صقلية آثارا أقل مما هو سائد فى الاعتقاد: لم تترك شيئا فى قواعد اللغة(1)، وخلفت ظلالاً فى النطق،

---

(1) ربما يمكننا استثناء صيغة التكرار مثل *casa casa* (للإشارة إلى البيت) *muru muru* (بطول الجدار) *ciumi ciumi* (على طول النهر).. إلخ، ولكن هذه الصيغة متداولة أيضاً فى لغات أخرى. وتعبير *randa a randa* فى اللغة الفصحى هو تعبير أصيل أو ربما نقل من *ranti ranti* فى لغة صقلية.

وفضلاً عن ذلك فاستخدام لغة صقلية للماضى البعيد بدلاً من القريب يمكن أن يرجع إلى تأثرها باللغة العربية التى تنتقل فى حرية من الماضى إلى الزمن الحالى، ولا تحبذ التدرج فى الأزمنة. ولكن إن قلنا إن تصريف الأفعال يتماثل فى لغتهن فهذا لا يكفى.

وبضع مئات من المفردات فى المعجم، وبعض الصيغ والمأثورات. ولا يمكننى الخوض فى التفصيلات التى قد تتطلب المعجم المشار إليه آنفا، الذى ينبغى أن يقوم هو الآخر على معجم اشتقاق لغوى لم يقم أحد حتى اليوم على تأليفه مع ما تقدمه اللغويات الحديثة. أقول إذن باختصار إن الكلمات الصقلية المشتقة من العربية يقع النبر فيها على الحرف الذى يقع عليه فى المفردة العربية المقابلة، سواء بين الحرف المتحرك فى الحرف المماثل أو بإلصاقه مباشرة بالحرف الساكن الذى يليه. وفيما يتعلق بحروف المد العربية الثلاث، فالحرف الأول ينطق فى لغة صقلية أحياناً *a* وأحياناً أخرى *e*، والحرف الثانى ينطق دوماً *i*، والثالث ينطق فى الغالب *u*. أما بخصوص الحروف الساكنة فحرف الباء (الحرف الثانى فى حروف الهجاء العربية) يظل على الأكثر كما هو دون تغيير كما فى "*balata* و *burgiu* و *burnia*"، ويتحول لدى خضوعه أحياناً لقواعد النطق اليونانى إلى حرف *v* كما فى "*vava* و *vattali*". وحرف الثاء (الحرف الرابع) يصير دائماً *t* كما فى "*Butera tumniinu*". وحرف الجيم (الحرف الخامس) يحتفظ بصوته كما فى "*giarra, giubba*" أو يخفف إلى *c* كما فى "*Muncibeddu*". ويضعّف كما فى كلمة *higgem*، وينطق على الطريقة اليونانية *ng* كما فى اللقب المعروف "*Cangemi*": ولكن كلمة "*Zubbiu*" (حفرة عميقة) تعد مثالاً لتبديل هذا الحرف إلى Z كما لاحظ دوزى فى كلمات أسبانية كثيرة. وحرف الحاء (الحرف السادس) يقوى صوته إلى *c* كما فى الاسم المذكور Cangemi وفى "*coma* و *camiari*" أو يختفى كما فى الاسم الطبوغرافى مرسى الحمام *Marsel-Hamân*، الذى أصبح *Marzamemi*. ويتبدل أيضاً حرف الخاء (الحرف السابع) إلى *g*، على سبيل المثال كلمتى "*Gausa* و *Gasena*" ويمكن أيضاً أن يختفى كما فى "*maasenu*" (*magazzino* ـ مخزن). أما حرف الدال (الحرف الثامن) الذى كان قريب الشـبه بحرف *t* كما نرى فى أمثلة شتى لمفردات مأخـوذة عن اليونانيـة فيتطابق أحياناً مع حـرف *d* بلغتنا كما فى "*darbu* و *Dittainu*"

(وادى الطين)، أو تتغير إلى حرف *t* كما فى "*tarzana* و*Targia*" (دار الصناعة) و*arsenale* و*arzana* و*darsena* ترسانة". وحرف الذال (الحرف التاسع) غير وارد بصفة مؤكدة فى كلمات مشتقة؛ وحرف الزاى (الحرف الحادى عشر) له صوت z كما فى الكلمات الإيطالية "*zisa* و*zizzu*" أو يكتب صوت حرف s كما فى "*magasenu*" الذى سبقت الإشارة له آنفاً. وعلى النقيض من هذا فإن حرف السين (الحرف الثانى عشر) الذى ظل كما هو فى الكلمات "*Senia* و*Sutera*". فقد تحول إلى حرف z فى الكلمات "*zicca* و*zuccu*" (سوق، جذع الشجرة) و*zotta* (سوط). وحرف الشين (الحرف الثالث عشر) الذى يتردد كثيراً فى الكلمات المشتقة من العربية ينقل صوته العربى فى كلمتى "*sciacca* و*sciabica*" اللتين كانتا تكتبان قديماً بحرف *x*. وحرف الصاد (الرابع عشر) الذى ورد سابقاً فى "*darsena*" يتخذ أحياناً نطق s وأحياناً أخرى نطق z. ويتخذ صوتاً أكثر حدة فى "*zabara* و*zurriari*" (صرير الأسنان). وحرف الضاد (الخامس عشر) ينطق مثل حرف الدال فى لغة صقلية كما فى "*dagala* و*dica*" (شدة، ضيق) ويتحول إلى *t* كما فى "*reticu*" المشتقة من (رضيع). وحرف الظاء (السابع عشر) يبدو أنه أخذ هذا الصوت وذاك فى صقلية، إذ ظلت هنالك شهادة على صوته الثانى فى الكلمة القديمة "*annadarari*" (يراقب الكيل والميزان)، أما عن صوته الأول فنستخلصه من الاسم الطبوغرافى "*Zaera*" الذى سوف نتكلم عنه فيما بعد. أما العين (الحرف الثامن عشر فى الأبجدية العربية) وهو الحرف الوحيد الذى ليس له مردود أو مقابل فى الأبجدية اللاتينية ولكن المستشرقين نقلوه بفاصلة علوية (')، فيبدو أن الصقليين ينطقونه على طريقة العرب فى أحد الأفعال شائعة الاستخدام(1). ويخرج صوت هذا الحرف فى النبرة الأخيرة فى كلمة

---

(1) كلمة "*Taliari*" (ينظر) مأخوذة من العربية «تطلع» غيرت حرف العين إلى *a* فى ادغام الحرفين الصوتيين. مع إننا نسمعه بكامله فى الكلمة الصقلية "*talé*" كصيغة الأمر من الفعل نفسه.

"tarzanà"(دار الصناعة)(1) المذكورة من برهة: أو يتبدل إلى حرف إيطالى ساكن من حروف إيطالية كما فى المثال المذكور فى كلمة "reticu" : مما يتطابق مع طريقة كتابة العين فى الوثائق العربية اليونانية الصقلية التى كانت إما أن تحول ذلك الحرف الساكن إلى حركة كما فى 'Οθοομάν و 'Αϐδ (عثمان وعبد) أو تبدل إلى 7 كما فى Νίγμα, Σαγίτ (نعمة وسعيد)، وسعى البعض إلى كتابته فى القرن الثانى عشر بحرف h مثلما فعل ليونى الإفريقى بعد ذلك فى القرن السادس عشر إذ نقرأ فى إحدى الوثائق اسم "Habes" بدلاً من (وادى) «عباس» وكان يقصد به منطقة Oreta. وحرف الغين (الحرف التاسع عشر) إما يظل g حادة النطق كما فى "gana" أو يتبدل أيضاً إلى c كما فى "cutranu" التى تكتب، وربما كانت تنطق قديماً "Godrano". وينطق القاف (الحرف الحادى والعشرون) فى صقلية c كما فى "coffa و cammisa و calata". ولكن يبدو أنها قد أخذت هى الأخرى قديماً صوت حرف g الذى ينطقه بها المصريون، إذ نقرأ "gaitus و caitus" فى الكتابات اللاتينية بالقرن الثانى عشر. والشئ نفسه بالنسبة لحرف الكاف (الحرف الثانى والعشرون) الموجود فى "gaffa و mingara و cuscusu" وفى الظرف "a cuncumeddu". وحين ذاع الكلام بالعربية فى صقلية فإن حرف d الذى يحل عند أهل سردينيا وصقلية محل حرف l الإيطالى كان راسخ الجذور لعد أنه حل محل حرف اللام (الحرف الثالث والعشرون) فى بعض المفردات المأخوذة عن العربية، مثل جبل gebel فى Mongibello، التى كانت تنطق "Muncibeddu"، والفعل "sciddicari" (يزلق) المأخوذ عن «زلج وزلق». وحرف الهاء (الحرف السادس والعشرون) مثل بقية

(1) كلمة «دار الصناعة» وهى تقال اليوم "arsenale و darsena" كانت تكتب arzanà فى عصر دانتى وكانت تنطق tarzanà فى بالرمو، وأحسب أن بعض العامة لايزال ينطقها على هذا النحو هناك حيث ظلت الصيغة القديمة على حالها فى اسم أحد الشوارع القريبة من كالا cala.

الحروف يصير أحياناً *g* كما فى *"zagara"* وأحياناً أخرى يختفى إذ ينطق البعض الكلمة نفسها *"zaara"* : ولدينا فى *Zaēra* اسم ضاحية من ضواحى مسينا مثال آخر لهذا التخفيف فى الصوت. ولكن الأصل العربى لا يمكن أن يتضح إلا من خلال الاسم نفسه فى قصر الأمويين فى قرطبة. وينطق حرف الواو (السابع والعشرون) *v* كما فى *"Favara"*، أما إذا كان فى أول المفردة فيبدو أنه كان ينطق *u* أو *o* مثل *"Odesuer"* (وادى الصوارى)، أو كان يتلاشى تماماً وكأنهم ظنوه أداة كما يتضح فى *"Dittaino"* (وادى الطين) الذى كان ينطق بكل تأكيد قديماً *"Udittain"*. أما الحروف (التاء والراء والطاء والفاء والميم والنون والياء) فلا تختلف أصواتها عن مثيلاتها فى الإيطالية ولا تتبدل أبداً.

وينبغى على من سيقوم بتأليف معجم الكلمات العربية التى انتقلت إلى لغتنا الفصحى ولهجاتها(1) أن يتصدى لإغراءات اشتقاق متواصلة، إذ أن أصوات كلمات اللغة العربية متنوعة تنوعاً هائلاً ومعجمها على نحو من الثراء قد يدفع من خلال طريقة دراسة علماء الاشتقاق القدامى التى لم تندثر تماماً، إلى إسناد أية مفردة فى

---

(1) دون الرجوع إلى المبحث رقم ٣٢ لموراتورى أود أن أذكر أن كتاب *Proposta* الذى كتبه فينشنسو مونتى، المجلد الثانى، الجزء الأول، ميلانو ١٨٢٩، تضمن قائمة موجزة بالمفردات الإيطالية المشتقة من العربية. وأورد *Wenrich* قائمة أخرى أقل مستوى فى *Rerum ab Arabibus in Italia... gestarum*، ص ٣٠٩ وما بعدها. وأخيراً نشر السيد انريكو ناردوتشى دا روما دراسات فى هذا الخصوص عامى ١٨٥٨ و١٨٦٨. ولا أعرف عملاً آخر يختص باللغة الصقلية سوى عمل أبيلا الذى ذكر فى كتابه حول مالطة المذكور آنفاً وفى تذييل الكلمات المالطية ست عشرة لفظة صقلية مشتقة من اللغة العربية. وأرى أنه أصاب الاشتقاق فى كل المفردات التى تعرفت عليها. واثنتان أو ثلاث منها لا أعرفها إلا من خلال قراءتى لباسكوالينو، أحد علماء اللغة فى القرن الماضى الذى استخرج هذه المفردات من معاجم مخطوطة ضاربة فى القدم، وأربعة منها لم أعثر عليها حتى فى القاموس الضخم تحت الطبع حالياً للسيد ترابنا. وقد أعد المحامى جوزيبى بيكونى، منذ قريب دراسة أخرى عن الاشتقاقات من العربية فى خامس دراسة له بعنوان: *Memorie storiche argentine*. ولكنى لا أستطيع أن أسلم بكل آرائه فيها.

الإيطالية وفى أية لغة اخرى أيضاً إلى اللغة العربية. ومن ناحية اخرى فإن قواعد الصوتيات التى استنبطت حتى الآن ليست حكماً مطلقاً على أى مكان وزمان؛ كما أن من لا يقر بالاستثناءات ولا يتجرا ان ينأى أحياناً عن القواعد الصارمة فلن يتقدم البته فى اية دراسة للاشتقاق اللغوى. وددت أن أقول هذا لأبرر إحجامى هنا عن عرض قائمة بالمفردات الصقلية التى تبدو لى، أو هى بالفعل، مشتقة من اللغة العربية؛ ولأبرر إرجائى لوقت آخر إنجاز عمل يتطلب، فى الأساس، بحثاً دقيقاً عن الكلمات الصقلية فى كافة أنحاء الجزيرة، وبقدر الإمكان فى العصور كافة. ففى قراءتى للكلمات غير المتداولة فى قاموس باسكوالينو والتى أخذها عن معاجم قديمة، وجدت الكثير مما يحمل الطابع العربى يتبدد من آن لآخر. ومن الطبيعى ان يتلاشى العنصر الأجنبى شيئاً فشيئاً؛ ولكن ذلك بالتحديد ينبغى أن يسجل فى دراسة تاريخية للغة.

وإذ أواصل الحديث فى إطار عام أرى أن الكلمات الصقلية العربية الأصل ترجع غالبيتها إلى الشئون الزراعية والصنائع المدنية والملابس والمأكولات وبعض مؤسسات الشرطة المدنية. وسواء فى اللغتين الأسبانية والبرتغالية الثريتين بهذه الفئة من الألفاظ ذات الأصول العربية أم لغة صقلية الفقيرة بها، فإن الأصوات العربية التى دخلتها تغلب عليها الأسماء وليس الصفات؛ أما الأفعال فهى على النقيض من ذلك، ففى حين يندر وجودها فى هاتين اللغتين لحد الارتياب فى وجود أى منها فيهما(1) فإنها توجد فى لغة صقلية(2). وجدير ايضاً بالملاحظة وجود التعبيرات المجازية أو

---

(1) راجع ملحوظة دوزى على الطبعة الثانية لقاموس *Glossaire des Mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe, par MMr Dozy et Engelmann, Paris, Leida, 1869.*

(2) على سبيل المثال *accanzari*. قنص أى استفاد. حاز. *addijri*(?). يختار. *aggibari*. اجبر. خضع. *alliffari*. *annadarari* يراقب او يضبط الموازين والمقاييس. *arruciari*: يرش. ينضح (غير متداول بمعنى "*arroser*" بل بالمعنى العربى رشّ). *assammarari*. ينقع الملابس. *azziccari*. يلصق. يصيب الهدف. *azzannari*. يسن. يسن حد السلاح. *azzizari*. يزين. يهين. *abbacari*. يكف.

الصيغ المترجمة ترجمة حرفياً من اللغة العربية(1)، والأمثال العربية على النقيض تعد على أصابع اليد فى مجموع أمثال الصقليين.

لا اود ان أغفل أن عدداً لا يستهان به من المفردات العربية التى انتقلت إلى لغة صقلية موجود أيضاً فى اللغة الإيطالية، بل توجد ببعض اللهجات الأخرى كلمات عربية مجهولة فى صقلية، فنجد على سبيل المثال فى لهجة جنوة mésaro و macramaو camalo؛ وفى لهجة أريتسو ?da(2): وقديماً فى بيزا calega(3)، وفى ليجوريا وتوسكانا maona أو magona(4). معونة وفى اللغة الإيطالية acciacco

---

يهدأ للرياح والحمى والغليان.. إلخ، carcariari. يقرقر. مثل الدجاجة على البيض. annacari. مأخوذ من الناقة. مهر. ncharracchiari. يغط فى النوم. nzitari?. يطعم. picchiuliari. يبكى. من picchin. بكاء ونحيب. sammuzzari. يغطس. sciarriarirsi. فعل لازم مشتق من شر. عراك. sciddicari. ينزلق المذكور آنفاً taliari. يتطلع المذكور سابقاً. zabbatiari. يتخبط. zurriari. صرير الأسنان.

(1) caudu di testa. هى صيغة لتعبير حر الرأس. أقل تشابها مع "teste calto" ورأس ساخنة. وcuntari in aria يحسب فى الهواء، يحسب فى رأسه. هو اصطلاح عربى تماماً كما يتضح فى عنوان أحد الكتب التعليمية حساب فى الهواء. عند حاجى خليفة. المعجم البيليوجرافى. ٥، ٦٣٩. رقم ١٢٤٢٥.

Mali suttili. مرض دقيق، سل (حمى الدق).

Lattata. سائل اللوز (تلبينة).

Ganghi di lu sennu. آخر الأسنان الطاحنة (أضراس العقل).

Tignusu. نوع من العناكب (برص. وتعنى أيضاً مريض بالقوباء).

Pani e sputazza. يأكل. خبز ناشف (خبز - ريق).

Mmaliditlu. ملعون. الشيطان (اللعين).

(2) لفافات من القماش وخلافه يستند عليها الأطفال الذين لم يتمكنوا من المشى بعد. Kâda فائدة هى تأنيث كلمة فائد.

(3) مكتوبة أيضاً galicha. راجع Diplomi arabi del Regio Archivio fiorentino ص ٢٩٣، ٢٩٩، ٤٠٦ الهامش الأخير.

(4) معونة، مساعدة، تعضيد، او كما نقول فى العادة تبادل المساعدة، أى مجتمع تجارى أو صناعى. واستخدمها أهل جنوة فى معناها الأول منذ القرن الثانى عشر. ويبدو أنها انتقلت بمعناها الأخير إلى توسكانا إذ كان معناها «حدادة»، بينما يقتصر معناها اليوم إلى مخازن الحديد الكبيرة. والاشتقاق واضح من نصوص عربية كثيرة؛ ومن هنا لا يمكن قبول الاشتقاق عن اليونانية الذى قال به كنالى فى Nuova istoria di Genova. ١، ص ٢٧٧. وأصل المنشأة الذى شرحه هذا العلامة فى المجلد الثانى، ص ٣٤٧ يؤكد اشتقاق اللفظة.

و *azzurro* و *butteri* و *carciofo* و *collare* طوق (للإقلاع) و *scialbo* و *petronciana* و *tarsia*. وكلمات أخرى مشتركة مع لهجة صقلية: مثل *ammiraglio* و *barda*، (وفى لهجة صقلية *varda*)، *camicia* (وفى لهجة صقلية ينطقونها على الأصح *cammisa*) و *canfora* و *cifra* و *zero* (نقل صوتى آخر للكلمة نفسها) و *dogana* و *gabbella* و *garbo* و *gelsomino* و *fondaco* و *liuto* و *magazzino* و *sensale* و *tariffa* و *vasca*: فضلاً عن أن الاصطلاحات العلمية مثل *alambicco* و *alcali* و *almanacco* و *giulebbe* و *taccuino* و *zenit* تتردد فى معظم اللغات الأوربية الحية. ومن المؤكد أن البر الإيطالى قد أخذها إما عن صقلية أو أسبانيا أو السواحل الجنوبية للبحر المتوسط.

ودون مزيد من الجدل حول أصول لغة الكلام فى صقلية التى اهتم بدراستها ولايزال يتدارسها مثقفو الجزيرة(1)، ودون أن أقحم نفسى فى العراك الحامى حول *Ciullo d'Alcamo*(2)، أقر بأنه عند منتصف

---

(1) إذا تركنا الأعمال العامة حول أصل لغات الكلام او اللهجات الإيطالية باعتبارها فائقة الكثرة ينبغى ان اذكر ان لهجة صقلية كانت ولاتزال موضوعاً لأبحاث مستمرة يقوم بها مختلف مثقفى الجزيرة. وقد توسع فى معالجة أصولها السيد ليوناردو فيجو فى مقدمة مجموعته *Canti Popolari*، كما عالجها بعد ذلك الأستاذ فينشنسو دى جوفانى فى كتابات شتى، ثم جمعها حالياً فى مجلدين بعنوان: *Filologia e Letteratura siciliana*.

وقرأت حول قواعدها عملاً جيداً للأستاذ فولنشى *Innocenzo*، كتانيا، ١٨٥٥. وقد شرح كل من فيجو وبيترى وسليمان مارينو *I Canti Popolari*.

واخيراً بعصى من قواميسها العشرات طبعت منذ عام ١٣١٩ وحتى اليوم، فضلاً عن عديد من المخطوطات، وهناك قاموس جديد فى مرحلة متقدمة من الطباعة للسيد انطونيو ترابنا الذى أضاف فيه العديد من المفردات الأخرى جمعها من اقاليم الجزيرة كافة. ويؤسفنى الا اتمكن من ذكر الكتابات النقدية كافة والأعمال الصغيرة المنشورة حول هذا الموضوع فى المجلات والصحف إذ انها عديدة ولا أزعم درايتى بها كلها.

(2) هناك معرفة جيدة فى إيطاليا بمقالات الأستاذ جريون دى بادوفا النقدية حول «اغنية» شولو الشهيرة *Canzone di Ciullo*، والرد عليها من الأستاذ فينشنسو دى جوفانى دا بالرمو، فى العمل المذكور سابقاً.

القرن الثانى عشر تقريباً كانت اللغة الصقلية هى المتحدث بها بصورة أو بأخرى فى أنحاء الجزيرة كافة، وكانت تدنو من الصيغة الحالية لها، ودون وصولها، ولن أقول إلى هدفها، فاللغات الحية لا تموت، ولكن إلى تلك الفترة من مسارها التى تتخطاها اللغات عادة فى ثبات دون أن يطرأ عليها تغييرات ملحوظة. وحدث ذلك بالضرورة لوجود مستوطنات ما جاءت لتوها من أرجاء البر الإيطالى كافة، ووحدتها التجارة وتوطدت أواصرها مع غالبية السكان القدامى الذين تكلموا الإيطالية القديمة، أو بالأحرى الصقلية. وفى مثل هذا الوضع كان لابد أن تنشأ لغة بلاط أو لغة عسكرية إن أردنا أن يطلق عليها ذلك. وهذه اللغة ما هى إلا تلك التى نسمعها منذ عشر سنوات تقريباً فى جيشنا، ومع مضى الوقت كان على لغة الكلام تلك أن تزداد اقترابا من اللهجة الأصلية حيث أخذت عنها أكثر مما أعطته لها.

ومن هذه اللغة وسمتها، غير المصفاة التى كانت لاتزال تعلق بها عناصر تجد مشقة فى أن تمتزج فيها معاً ظهر الشعر الإيطالى بمعنى الكلمة. وعما إذا كان ذلك قد وقع فى منتصف القرن الثانى عشر أو بدايات القرن التالى فلن نعلم بالضبط ما لم تسعفنا الصدفة فى العثور على قرائن أكثر إيضاحاً من تلك التى اعتمدنا عليها حتى الآن. وإذ يبدو قريباً جداً من الحقيقة أن تكون اللغة الأكثر تداولاً فى بلاط فدريكو الامبراطور وبلاط جوليلمو وسميّه وربما الملك روجيرو أيضاً، هى إحدى اللهجات الإيطالية، وإذ يعضد هذا شهادة دانتى الصريحة ناهيك عن الآخرين جميعهم، فيمكننا أن نؤكد على صحة الأمر. وفى الحقيقة لا يمكننا تخيل اى مكان آخر فى إيطاليا أنسب من صقلية لنشأة ربات الشعر الإيطالى. وبدت الدراسة المتعمقة فى الشعر العربى منذ نصف قرن تقريباً كل مزاعم من كان يحسبه أبا للشعر الأسبانى والبروفنسى والإيطالى. ولا يمكننا بأية حال من الأحوال أن ننسب طبيعة الشعر فى اللغات اللاتينية الجديدة

وأسلوبه أو قافيته إلى مثيلاتها العربية. وأحسب فقط أن اعتياد الشعر فى بلاط المسلمين الرائع فى أسبانيا قد أدخل فى قصور الغرب المسيحية حب الترويح بسماع الشعر بلغة البلاد العامية علاوة على أشكال أخرى من الترف؛ وكانت الجوائز وأنواع التكريم تشجع شعراء الوطن على أن يلقوا فى جمع الأمراء تلك الأبيات التى سبق أن ألقوها فى حلقات السمر المتواضعة بالمدن والأرياف، ومن ثم ينبغى القول إن الشعر العامى لم ينشأ فى تلك الفترة بل تحرر فيها وارتقى. كما يجب أن نتصور الشئ نفسه فى بلاط الملوك النورمان وبلاط آل زفيڤيا المسلم فى صقلية. فربما كانوا يستمعون اليوم ذاته لشعراء عرب وشعراء صقليين ويجزلون العطاء لهؤلاء وأولئك بحفنة من التاريات الذهبية. وتبدو لى الملاقة الوحيدة بين أشعار اللغات اللاتينية الجديدة والأشعار العربية ممثلة فى أوزان الموشحات والزجل التى تكلمت عنها فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب(1). وأتعشم أن تفلح أبحاث جديدة فى هذا المجال فى استجلاء تلك الفترة من تاريخ آدابنا: ولكن يمكن أن نحسب بداية أن صقلية تدين للعرب، وأن البر الإيطالى يدين لصقلية، بميلاد الشعر الإيطالى؛ إذ أشك كثيراً فى أسبقية الجزيرة الأخرى الكبيرة فى هذا الشأن.

ويمكننا أن نعثر هنا وهناك على شذرات أخرى من التراث الذى خلفه السكان المسلمون فى صقلية. فالكلمة العربية شرطه أو *Xurta* كما هى مكتوبة فى محررات الملوك الأرجونيين فى صقلية(2) تثبت كيف أن تأسيس حرامة مدنية ترعى الأمن العام فى المدن ترجع إلى الحكم الإسلامى الذى كان بها. كما يرجع إليه أيضاً نظام المقاييس الذى ظل مستخدماً فى الجزيرة حتى تأسيس مملكة إيطاليا؛ إذ من الواضح أنه لم يشتق فقط من اللغة العربية بعض أسماء مقاييس الماء

---

(1) فى ص ٦٩٩ وما بعدها.

(2) *Capitula Regni Siciliæ*، الفصل ٥٤ للملك جاكومو، والسابع عشر لفدريكو الأرجونى.

الجارى التى سبق أن ذكرناها فى هذا الفصل والفعل نفسه المذكور من برهة والذى يعنى إشراف السلطات الرسمية على موازين ومقاييس السوق. ولكن هناك علاوة على ذلك بعض المسميات فى مختلف نواحى النظام: مثل الكامة فى المقاييس الطولية(1)، الوقر والقوز فى مقاييس السطوح وفى الأحجام للمواد الصلبة(2)، القفيز فى قياس السوائل(3) والرطل والقنطار فى الموازين(4). وإذا كنا نجد فى عمليات الضرب والقسمة مفردات لاتينية فهى أثر طبيعى لاختلاط السكان، ويمكننا أن نتصور دخول تلك الكلمات بعد سيطرة حكم المسلمين او حتى خلاله. وانتقلت كما هو واضح مسميات القياس من صقلية إلى جنوب إيطاليا حينما خضع للنورمان المهيمنين على صقلية. أو ربما كانت بعض تلك المسميات قد دخلته من قبل عن طريق التجارة كما سبق أن برهنا على ذلك فى حديثنا عن العملات النقدية(5). «فالروبيو» فى روما ولومبارديا وبيمونتى وجنوة هى أيضاً من أصل عربى، و«الرطل» الذى كان متداولاً فى جنوة كما فى نابولى، والقيروان، وهو وزن يستخدمه الصاغة كذلك فى الأقاليم الأخرى التى لم يكن بها مستوطنات للمسلمين. من الواضح أنه انتقل إليها عن طريق التجارة(6).

---

(1) كامة فى اللغة العربية وترجمت إلى *Canna* فى إحدى الوثائق العربية اللاتينية لعام ١١٨٧. عند مورسو. *Palermo Antico*. ص ٣٥٨. قارن بين الإدريسى عند الأستاذين دوزى ودى جوجى. ص ٣٧٢.

(2) «سوم» مكة طبقاً لابن جبير. نص الأستاذ رايت. ص ١٢٢. كان يحتوى على اربعة صناعات. وفى الوثائق العربية الصقلية يتطابق المعيار اللاتينى "*salina* و*sagoma*" مع الكلمة العربية الشهيرة مُد، التى تبدو بدورها منقولة عن "*modium*".

(3) القفيز مقياس عربى شهير للمسطح والسعة.

(4) رطل أو رلط (يقصد رطل: المترجم) هى اللبرة عند العرب كما تسنى لنا أن نلاحظه فى مواضع أخرى.

(5) راجع الكتاب الرابع، الفصل ١٣، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠ من المجلد.

(6) الربع متداول فى مكاييل الحبوب فى كل موانئ المسلمين على البحر المتوسط. ونلاحظ أيضاً وجود *[illegible]* فى وثيقتى عامى ١١٨٩ و١٣٢٨ اليونانيتين والصقليتين. عند سبانا *Pergamene greche*. ص ٢٠٤ و٢٠٦. وهى تشير إلى مقياس للمساحة فى الوثيقة الأولى، وللسعة فى الثانية. وبالنطق نفسه ولكن بحروف مختلفة نعثر على

وحينما نمعن التفكير فيما أصاب مسلمى صقلية من تدمير لحق بهم على يد السكان المسيحيين أكثر من السلطات، فسوف لا نندهش إذا لاحظنا أنه لم يكتب البقاء لأى طرز من ملابس المسلمين فى الجزيرة. ويوجد التعليل من أسماء طرز الثياب تلك العربية المعروفة فى صقلية والبر الإيطالى(1). ونسب البعض إلى المسلمين العباءات السوداء التى كان النساء يعتدن الالتفاف بها فى القرن الماضى وأوائل القرن الحالى حين يتوجهن لأداء الصلاة أو للأفراح، ولم تختف هذه العباءات تماماً من بعض بلاد صقلية، ولكن يبدو لى أن هذا الزعم يقوم بالأحرى على تماثل التقاليد المتحفظة عن تشابه ذلك الثوب الصقلى مع جلباب وحجاب النساء المسلمات.

وقد يقال على النقيض من هذا أن مسيحيى صقلية قد أخذوا بطيب خاطر عن مواطنيهم المختتين تلك الطرائق التى كانت تشبع البطون. ومع ذلك بقيت الأطعمة الشهية(2) أو الأطايب عربية الاسم والصنعة وخاصة الحلو منها أكثر الماكولات. والحلوى صناعة قديمة فى البلاد، إذ نتعرف فى أفريقيا منذ القرن التاسع على فطائر

---

povos و*povθos* فى وثيقتين من كلابريا لعامى ١١٨٨ و١٢٢٨، عند ترينكيرا، *Syllabus graecarum membranarum*. نابولى ١٨٦٥، ص ٢٩٦ و٣٨٨، وادرج بين الكلمات العربية لفظ *carato* كراتو، وهى نقل واضح لكلم *κεράτιον* إذ يبدو لى قريب من الحقيقة أنها لم تنتقل من اليونانية مباشرة، ولكن عن طريق العربية. مثل كلمة *Fondaco* فندق. محل، وكلمات أخرى.

(1) الكلمة الإيطالية *giubba* جبه، هى على سبيل المثال كلمة عربية خالصة، تتماثل مع الكلمتين الصقليتين "*giubba* و*jippuni*"، وكلمة "*camellotto*" لم تشتق من "*camelo*" جمل كما ذكرت القواميس، ولكن من خمله التى تعنى بالتحديد قماش مُوَبّر.

(2) نذكر من الماكولات *cuscusu*، وهو شبيه فى الاسم ومختلف قليلاً فى نوعيته عن مثيله الموجود فى البلاد البربرية. ويذكر من الأطعمة الشهية المجالن المخمرة المقلية التى يطلق عليها فى صقلية كما فى بلاد البربر «*sfinci* سفنتشى»، عن اللاتينية "*spongia*" كما هو واضح. وهناك أيضاً الحمص المنقوع ثم المحمص الذى يسمى «*calia* قلية»، وهى كلمة عربية خالصة.

محلاة بسكر صقلية(1). وإن حدث وظهر، يوماً ما دوكانچى عربى فسوف يفسر لنا كلمات شتى من هذا القبيل نقرؤها حالياً دون جدوى منها فى القصص والروايات، وسيكشف لنا بهذه الطريقة كل أوجه الشبه بين الذواقة الصقليين والمصريين: وكليهما من أكبر مستهلكى السكر المنتج فى البلدين، والذى تبادلوه فيما بينهم حتى القرن الخامس عشر بصفة مستمرة، ربما نظراً لنوعيته المختلفة لدى كل منهما، أو لاستمرار وجود معامل تكريره فى مصر، تلك التى سرعان ما اختفت من صقلية(2). لأننا نجد فى الوصف الذى سجله المقريزى عن الفخفخة الهائلة التى كانت فى البلاط الفاطمى أن احتفالات رمضان فى القاهرة كانت تتماثل تماماً فى نوع المأكولات وكمها التى يتم تناولها مع مثيلاتها المتناولة فى تسموية أعياد الميلاد والكرنفال وعيد القيامة فى بالرمو. وجرت العادة فى بيوت كبار موظفى الدولة، وبصورة أكثر إفراطاً فى البلاط، على إعداد أشكال مختلفة وقلاع من السكر وأصناف أخرى من الحلوى. وأشكال شتى من المعاجن الحلوة التى كانت ترص مع مأكولات أخرى ذات قيمة غذائية عالية فى تشكيلات لونية جميلة على صوانٍ من الفضة والذهب والخزف

---

(1) انظر الفصل السابق، ص ٧٤٢، هامش ١. اسم الحلوى فى النص كعك. ويبدو لى أن *"cassata"* كاساتا الشهيرة من أصل عربى، إذ أن «قصعة» تعنى مقلاة كبيرة وعميقة مثلما هى عليه فى الحقيقة عجينة تلك الحلوى المحشوة بجبن أو الكريمة. *Kabbeit* قبيت هى فى العربية (وراجع بخصوصها علاوة على المعاجم دى هيربلوت فى مادة *"cobbathi"*. نوع الحلوى يتشابه بالتحديد مع حلوى *cubbaita* الصقلية. وما يطلق عليها فى صقلية موستاردة هو ما يصنع من عصر العنب المطهى ليس بالخردل ولكن بالدقيق حتى يصير عجينة حلوى كما سبق أن أشرنا فى الكتاب الرابع، الفصل ١٢، استناداً إلى كتاب الزراعة لابن العوام. وهذه الطريقة فى إعداد الحلوى يطلق عليها فى جرجنتى *tibu* «طيب» وهى لفظة عربية خالصة. ونظراً لأن *"nucatula"* نوكاتولا الصقلية لا تتكون من الجوز فيبدو أنها ترجع بالأحرى إلى نُقل العرب، ويطلق عليها ذاتها فى توسكانا *seccume* «مجففات».

(2) راجع ما ذكرناه عن هذه التجارة فى الفصل السابق، ص ٧٤٢ ـ ٧٤٣ من هذا المجلد.

والصينى، مما كان يشبع ويمتع(1). ونرى فى أواخر العصور الوسطى، بل وحتى اليوم فى مصر فواكه مشبعة بالسكر المعقود شبيهة بحلوى القرع فى صقلية(2)، وبنوع من الجيلاتينة الحلوة المستخلصة من مرق الدجاج(3): و«*cuccia*» كوتشيا» صقلية وهى عجينة من القمح المبلل الممزوج باللبن كانت ولاتزال تؤكل فى مصر حيث لاتزال يطلق عليها كشك(4). وحتى العبارات التى يرددها باعة الفاكهة فى شوارع القاهرة وبالرمو تتشابه فيما بينها(5).

سيندهش البعض انى نزلت إلى مثل هذه الأمور الصغيرة التى رآها مؤرخو الأجيال الماضية تافهة، ومن انى لم أتناول بالحديث تلك الرذائل والفضائل التى ظن البعض أن السراشين خلفوها لشعب صقلية. وحقاً ظننت أنا أيضاً أن اكتشفت بعض بقاياها، ولكنى ايقنت فيما بعد عدم التأكد من مثل هذه الاستقراءات. فنظرة ثاقبة حول طباع الصقليين وعاداتهم ومقارنتها بطباع السكان الإيطاليين الآخرين وعاداتهم لا تكشف عن ذلك التباين الذى تعجز الجغرافيا والتاريخ عن تفسيره، ولذا ينبغى البحث عنه فى خفايا الأجناس. وإذ اثبت لنا التاريخ واللغة علاوة على هذا وحده

---

(1) المقريزى، **المواعظ**، نص بولاق، ١، ٣٨٧. ترجمت كلمة سميد أو سمهدس وجمعها سواميد «حلوى» للإشارة بالأحرى إلى الحجم والاستخدام أكثر من المكونات. وسميد تعنى اليوم الدقيق والخبز المصنوع منه: ولكنه يبدو شيئاً مختلفاً فى فقرة المقريزى إذ نقرا ان كل سميد كان يزن ثلاثة أرطال (ليرات) وكان معجوناً بأفخر الدقيق ومُقدم من الخارج بالسمن ليخرج لامعاً من الفرن ويتخذ شكلاً رائعاً.

(2) عبد اللطيف، طبعة ساسى، ص ٣١٢.

(3) موضع سبق ذكره، وفى هامش ساسى، ص ٣٠٧ و٣٠٨.

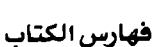
(4) ساسى، المرجع السابق، ص ٣٢٥، حاشية ٤١ فى الفصل السادس من الكتاب الأول يذكر أن تلك المجينة كان يمكن تناولها دون طهى وأحياناً جافة. قارن لان *Modern Egyptians, Lane*. الفصل ٢٥.

(5) لان، المرجع السابق، الفصل ١٤.

لب القرع والشمام يتم النداء ببيعهما فى القاهرة: «ياتسالى العيارى يا لب!» وفى بالرمو يصيح الباعة: "*sbija oziu*". وينادون على البرتقال: «يا عسل!» وعلى ثمر الجميز: «يا عنب!».

السواد الأعظم من الجنس فإن النقد الذى يهتم بالتشكيك فى ذلك بذرائع من السهل تصورها أكثر من إقامة البرهان عليها إنما هو ضرب من ضروب المجازفة. وبدلاً من التركيز على تقدير اختلاط الدم الأجنبى المحتمل وجوده يجب تقييم نموذج التقاليد التى خلفتها المستعمرات العربية والبربرية لسكان صقلية الغربية الأكثر نزوعاً فى الحقيقة إلى الشدة عن أناس المنطقة الشرقية: ولكن العلل فى هذا الخصوص أيضاً شتى وغير مؤكدة، ومن يدرى إن لم تكن الظروف الطبوغرافية والاجتماعية قد لعبت هنا دوراً أكبر من أى عامل آخر؟ أما النتيجة الوحيدة المؤكدة هنا فهى أن الفتح الإسلامى قد جلب إلى صقلية فى القرن التاسع وحتى القرن الحادى عشر، تحضراً وازدهاراً لم تعرفه آنذاك الأقاليم الأخرى فى إيطاليا، وتدفق هذا التحضر والازدهار فى القرن الثانى عشر ومعظم فترات الثالث عشر على شبه الجزيرة وساهم فى ازدهار كافة أرجاء إيطاليا.

وها قد تممت فى وطنى الموحد والحر عملاً شرعت فيه منذ ثلاثين عاماً خلت، تدفعنى له رغبة عارمة فى الكشف فى الظلمات التى كانت تحيط بتاريخ صقلية قبل النورمان. وتساندنى فيه التيسيرات التى قدمتها معاهد باريس ومكتباتها. وقد بدأت هذا العمل الشاق بروح صقلى كان يتوق لحرية دولة صغيرة ويبغى وحدة إيطاليا دون أن يأملها قريبة إلى هذا الحد: وإنى أتمم عملى راجياً أن يتآخى الإيطاليون كلهم على الدوام وأن يروا فى الوحدة والحرية خلاص وكرامة الفرد والمجتمع، وأن تزداد البلاد حكمة وفطنة وقوة وثراء، وأن تقوم روما الجديدة، كى تصلح ما أفسده الجور المسلح فى العصور القديمة وحيل السوء فى العصور التالية، وتنشر فى العالم، من الآن فصاعداً، حرية العمل الحقة وحرية الفكر غير المحدودة.



قمت بتحقيق الأسماء الطبوغرافية وأسماء الأعلام وتصحيح ما ورد في فهارس الكتاب الإيطالي من أخطاء ولعلني أكون قد وفقت في هذا خدمة للدارسين والباحثين.

د. محب سعد إبراهيم

فهرست اسماء الأعلام

(أ)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ك)

(ل)

(م)



فهرست اسماء الأماكن

(ج)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

الفهرست

ملخص محتوى المجلد الثالث

الكتاب الخامس

الفصل الأول

صفحة

صفحة

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل السادس

الفصل السابع

صفحة

الفصل الثامن

صفحة

الفصل التاسع

الفصل العاشر

صفحة

الكتاب السادس

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

صفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

صفحة

الفصل السابع

صفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

صفحة

الفصل العاشر

صفحة

الفصل الحادي عشر

الفصل الثانى عشر

صفحة

الفصل الثالث عشر

صفحة

صفحة

نهاية المجلد الثالث والأخير